موسوعة

هارون الرّشيد

تأليف
الدكتور سعدي ضنّاوي

المجلّد الأوّل

دار صادر
بيروت

الطبعَة الأولىٰ

2001 م - 1421 هـ



تأسست سنة ١٨٦٣

ص.ب ١٠ بيروت ، لبنان

P.O.B. 10 Beirut, Lebanon

Fax: (961) 4.910270
e-mail: dsp@darsader.com
http: www.darsader.com

Mawsu'at Hārūn al-Rashīd 1/3
(Ḍannāwiy)
(1) p. 248 (2) p. 352 (3) p. 208 - s. 17.5x25 cm

ISBN 9953-13-008-6

موسوعة

هارون الرشيد

1



تقديم

هذه الدراسة تتويج لجهود بُذلت في خلال اثني عشر عاماً ، أو أكثر . تقدَّمَ إعدادَها اطّلاع صاحبها على الأدب العربيّ وتاريخه ، وسِيَرِ المشاهير من رجاله ، والعوامل المؤثّرة في تيّاراته ، وفنونِ الاتّباع والإبداع فيه ، وتفاعل الأحداث الاجتماعية والعسكرية مع موحياته ومع البواعث المؤدّية إلى نضجه وتفجّره في التعبير عن واقع الحياة . فهي إذاً دراسة مُخْتَمرة ، زاخرة بمحصّلات الصّبر الطويل والثقافة الواسعة وإرادة الإتيان بعمل رصين ممثّل خيرَ تمثيل عنادَ المؤلّف العلمي ومدى خبرته الطويلة في الأبحاث المنهجيّة ، لذلك تَفَرّدت بخصائص كثيرة ومتنوّعة ، من أهمّها ثلاث .

الأولى أنّها تنطلق من فكرة بسيطة جدّاً في ظاهرها ، من «الأجواء الأدبيّة في حياة الرّشيد» لترسم لنا لوحة مدهشة في غناها تتلاقى فيها ملامحُ الحضارة العبّاسية في أزهى عهودها ، والأحداث التاريخيّة الحاسمة ، والتنافس بين الأعراق في سبيل التنفّذ والسلطان ، والترفه الماجن إلى جانب الفقر المُذلّ ، والانبهار أمام البليغ من الكلام نثراً وشعراً ، والعلائق التي ربطت الخلافة الإسلامية بالامبراطورية البيزنطية ، فتحوّلت الدراسة بهذا كلّه إلى مُدوَّنة نفيسة لشريحة مهمّة من التاريخ العربي المرويّ بطريقة ميسرة ومشوّقة .

الثانية أنّ الأسلوب الذي اعتمده المؤلّف في صياغة فصوله متحرّر من الشوائب المألوفة في كثير من الأبحاث . فهو يتصرَّف باللغة العربية تصرّف الخبير الممارس المطّلع على أسرارها وخفاياها ، فينتقي منها ما يتوافق مع القضايا المعروضة ، متحاشياً الإغراق في التفاصح ، مقتصداً في المرادفات والعبارات الزخرفيّة ، مكتفياً ، في معظم الأحيان ، بالألفاظ الدقيقة المفصحة عن خواطره . ومن هنا سَلِمَتِ الدراسة ، مع كثرة مادّتها ووفرة صفحاتها ، من الأخطاء اللغوية ، إلاّ في النادر الذي لا يخلو منه بحث مهما دقّق صاحبه في عباراته .

والثالثة أنّ المؤلّف وَضَّحَ ما أوجزه في المتن بحواشٍ متميّزة بخِصبها ، مستقاةٍ من الأصول المعتبرة في البيئات الجامعية من أهمّ المصادر التي لا بدّ من الرجوع إليها في كلّ عمل جِدّيّ . فاستنطق بمهارة هذه المصنّفات القديمة واهتدى إلى مغازيها ، ووضعها بتصرُّف قارئه لتكون

له هادياً في فهم الأحداث وإدراك أبعادها . وما نجح في استخراج زُبدتها إلاّ بعد مشقّة وطول أُلفة ، وبعد أن غدَت طيّعة بين يديه ، يستوحي منها الألوان التي أبرز بها صورة الرشيد الأدبية في إقباله على العلم ، وسخائه على العلماء والأدباء ، والفقهاء ، واتّخاذِهم أُخداناً ونُدماء .

هذه الخصائص الثلاث وغيرها كثير ، تُنزل الدراسة في مكانة أثيرة بين الدراسات الجامعية الموفّقة .

13 كانون الأولى 1985

د . جبور عبد النور

المقدمة

دراسة العصر الأدبي

«ليست هي أن تجمعوا شتاتاً من المعلومات عن حالته السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، مهما كانت هذه المعلومات ، في حدّ ذاتها ، صحيحة ؛ وأن تدرسوا شاعريه وناثريه منفردين ، مهما كانت دراستكم لكلّ منهم صائبة ؛ بل هي أن تحاولوا الحصول على صورة موحّدة لهذا العصر ، تجمع كلّ ظواهره ، من سياسية واقتصادية ومادية وروحية واجتماعية وفكرية وفنيّة ، في لوحة واحدة تامّة التنسيق والانسجام ، مهما بدت هذه الظواهر متنافرة متناقضة»[1] .

محمد النويهي

هارون الرشيد

صورة ترتسم في كلّ ذهن ، في خيال العاميّ وفي فكر المثقّف ، في ضمير العربي وفي طموح الغربي . هذه الصورة ، أهي حقيقة تسامت إلى سماوات الخيال ، أم هي خيال تجاذبته أراضي الواقع والحقيقة ؟ أم هي مزيج من واقع وخيال ، من حقيقة ومن طموح وآمال ، يجعلها منتجعاً للنفوس الضعيفة العليلة تستشعر عندها القوة ، أو فردوساً للنفوس المحرومة تجد فيه التعويض عمّا تحسّه من حرمان ؟ . أيّاً كانت تلك الصورة ، فإنّها تجسيد للترف ، قمّة في البذخ ، آخر المدى في رجولة «الذكر» يحكم عالماً من «حريم» لا يحصين عدداً ؛ هي رمز نادر للسلطة النافذة الخيّرة تتواضع إلى مستوى المظلوم والعاشق المحروم لتنصف من ضاع حقّه ، وتعيد من تاه عن «نصفه» إلى «نصفه» الضائع . إنّها صورة إطارها الجواهر الكريمة تلتمع على الجباه ، والفرش الفاخر في قصور تحفل بكلّ مدهش ، بكلّ عجيب ، وبما لذّ وطاب . إنّها صورة الرشيد ، تشرف على كلّ عصر وعلى كلّ جيل ، تتخلّل ملامحُها قصصَ الصغار ، وتطغى على قصص الكبار . تلهم الملحّنين ومنتجي الأشرطة «السينمائية» ، فلا يستنفدها نتاج من فن وأدب .

لماذا الرشيد بالذات ، من بين جميع الملوك والخلفاء . . . ؟ هذا ما حاولنا الإجابة عنه في بحثنا ، منطلقين من مبدأ ثابت وهو أنّ الرشيد ، الذي يطلّ علينا عبر الأجيال ، هو الرشيد الذي رسمته أقلام أُدبائه وقصائد شعرائه . إنّ خلوده ليس خلوداً للإنسان بقدر ما هو خلود النتاج الأدبي والفنّي الذي حضنه ودخل به عالم البقاء .

ومع أنّ الرشيد الأسطورة انطلق ، بدءاً من النتاج الأدبي الذي أوحاه الرشيد الحقيقة ، إلى عالم الرؤى والأحلام ، فإنّنا لم نعرض لما كُتب عنه ، أو ما أُقحم فيه ، من قصص أبدعه الوهم والخيال . لقد ركّزنا بحثنا على ما ثبت أنّه قول للرشيد أو فعل ، وعلى ما تأكّد أنّه أدب أُنتج له أو

---

1 ثقافة الناقد الأدبي ص 57 .

قيل فيه ، أو في مناسبات تعلّقت به . لم يكن همّنا مقارنة الحقيقة بالخيال ، أو استخلاص الحقيقة من الخيال ، وإنّما دراسة الحقيقة بما فيها من خيال ، الحقيقة التي لا نملك سواها ، مستخلصة من كتب التاريخ والأدب الموثوقة ، ومستقرأة من الخطب أو الكتب ، أو الرسائل والقصائد التي لم نشكّ في نسبتها وصحّتها .

المصادر والمراجع

لقد فوجئنا ، بعد أن توغّلنا في مرحلة «التقميش» ، بكثرة المصادر التي يمكن أن نرجع إليها نستقرئها أخبار الرشيد وما عبقت به حياته من أجواء الأدب . ولكنّنا فوجئنا ، أكثر ، بالمؤلّفات التي تتحدّث عنه بالذات ، أو عنه من خلال عصره ، أو من خلال التأريخ للخلفاء عامة ، أو من خلال تجميع الأشعار والخطب والرسائل وما إلى ذلك . وعندما توقّفنا عن «التقميش» ألفينا أنفسنا أمام صعوبة رئيسة : كيف نجد موطيء قدم لنا في هذا الزحام ؟ إنّ شهرة الرشيد كانت اغراءً كبيراً لكلّ باحث في العصر الذهبي للدولة الإسلامية . كُتب عنه وعن عصره وعن بلاطه وشعرائه الكثير ، فماذا نحن كاتبون ؟ وماذا عسانا أن نقول لنأتي بجديد ، فلا نكرّر ما قيل وأُعيد ؟ ثم جاء الحلّ تلقائيّاً : فلقد انقضت فترة زمنية طويلة بين «التقميش» والشروع في الكتابة ، فكانت خمسة عشر عاماً كافية ليتضاءل في الذهن ما تجمع فيه من آراء وأحكام ووجهة نظر زوّدته بها المطالعات . وحين قمنا باستعادة المواقع استبعدنا أن يقوم بحثنا على دراسة التاريخ الأدبي ، الذي تناوله الكثيرون ، كما استبعدنا أن يقوم على دراسة الشخصيّة ، وهذا أيضاً سبق إليه العديدون ، كما استبعدنا الدراسة التاريخية للأحداث ، التي تستشهد بالنتاج الأدبي ، وتَوَجَّهنا وجهة الدراسة الحضارية التي تعتمد الأدب وجهاً من وجوه الثقافة ، بل تعبيراً عن التراث الثقافي ، وحاولنا الربط بينهما ، وهذا ما نعود إليه في «منهجيّة البحث» .

وقد باتت المصادر والمراجع أمامنا ثلاثة أقسام : المراجع الحديثة ، والمراجع الأجنبية ، والمصادر الرئيسة . . . أمّا المراجع الحديثة ، فقد تناولت هارون الرشيد وعصره وقصره وشعراءه وقوّمت أشعارهم ونتاجهم الاجمالي من حيث موقعه في تطوّر الحركة الأدبية ، وما تميّز به أدب هذه الحقبة بالذات مربوطاً بالتغيّرات التي طرأت على الحياة الاجتماعية والفكرية . ولقد أفدنا من كلّ ذلك عمقاً تحليليّاً ، وإن كنّا ، كما سبق القول ، لم نخض هذا الميدان في بحثنا . أمّا ما حفلت به هذه المراجع من معلومات ، فهو مأخوذ ، في مجمله ، عن المصادر الرئيسة التي قرّرنا اعتمادها ، دون سواها ، منطلقاً وأساساً لبحثنا . كنّا نعود أحياناً إلى رأي لباحث يدعم افتراضاً لنا أو يخالفه ، فنتقوّى به أو نناقشه . وفي أحيان نادرة كنّا نعتمد خبراً أورده مرجع عن مصدر أساسي لم نستطع الوصول إليه ، فكنّا ، وهذا في حال الضرورة القصوى ، ننقل الخبر على ذمّته ، ونذكر ذلك بوضوح .

أمّا المراجع الأجنبية التي اطّلعنا عليها ، والتي سمحت لنا الظروف بالوصول إليها ، فهي إمّا

مترجمة إلى العربية أو الفرنسية ، وإمّا بلغتّها الأصلية ، الفرنسية والإنجليزية . وهذه المراجع ، أيضاً ، صنفان : بعضها دراسات تتناول تاريخ الأدب ، بشكل عام ، أو العصر العباسي ، بشكل خاص ، أو تتناول الشعوب الإسلامية ، أو النظم الإسلامية ، أو الحضارة العربية ، أو الأدب العربي كفنّ ، وهي لم تتعرّض لأدب البلاط الرشيدي إلاّ بشكل عابر . وقد أفدنا من بعضها نظرة تحليلية تتعلّق بأدب العصر . . . والصنف الثاني يتناول دراسة الشخصية ، أو المواضع ، كالدراسات عن الخلفاء أو البرامكة أو نساء الخلفاء ، أو بغداد ، أو أراضي الخلافة الشرقية . . . ومعظم هذه الكتب هي مجموعة أخبار منقولة عن الأصول العربية ، أفدنا منها جزئيّاً في تفاصيل لم نستطع الوصول إليها في مصادرها . وكنّا نتمنّى أن ندعم بحثنا بدراسة أوفى في المراجع الأجنبية ، لكن ذلك لم يتوافر لنا لأنّ الحصول عليها من دور النشر لم يعد ممكناً ، إذ اتلف مخزون معظمها ، كما إنّنا لم نجد مدخلاً إلى مكتبات الجامعات ، حين كنّا نستطيع ذلك . كانت مكتبة كليّة الآداب الشرقية ، وحدها ، في متناولنا الدائم ، وعليها كان معوّلنا ، ولقينا فيها حسن اللقاء وتمام الاهتمام ، واطّلاعنا على المراجع الأجنبية هو من خلال المتوافر فيها . وفي حديثنا عن المراجع الأجنبية لا يسعنا إلاّ أن ننوّه بـ«تاريخ الأدب العربي» لكارل بروكلمن ، فقد أفادنا على صعيد تحديد المصادر ؛ وبمجموعة «دراسات في الأدب العربي» لغرونباوم ومعها مجموعة «شعراء عبّاسيون» . ففي دراساته فائدة وطرافة . ومع ما يؤخذ عليها ، في منهجيّتها ، فهي ، بلا شكّ ، تفتح آفاقاً جديدة أمام الباحث .

وأمّا المصادر الرئيسة العربية ، فهي التي كانت عمادَنا ، وحديثُنا معها طويل طويل . إنّها تشمل الدواوين والمجموعات الشعرية والأدبية ومجمهرات في الشعر والخطب والرسائل . والمصادر الرئيسة تشمل كتب التاريخ ولعلّ أهمّها وأشملها وأغناها بالمخزون الأدبي : «تاريخ الرسل والملوك» للطبري ، و«الكامل في التاريخ» لابن الأثير ، و«مروج الذهب» للمسعودي وهي تتميّز ، شأن معظم كتب التاريخ الأُخرى ، باعتماد الخبر الأدبي والشاهد الشعري إلى جانب الخبر التاريخي . لهذا وجدنا فيها معيناً غزيراً لكثير من أخبار الرشيد وأجوائه الأدبية . . . والمصادر الرئيسة تشمل أيضاً كتب اللغة والنقد ، وهي تحفل بآراء مؤلّفيها في اللغة وقواعدها وصيغها وأصولها وفي النحو والكتابة والشعر ، مدعومة بالشواهد الأدبية التي تأتي أحياناً ، أخباراً متكاملة ، أفدنا منها فائدة قصوى . وإلى جانب كتب اللغة هذه تأتي كتب الأدب التي تحوى المختارات الأدبية واللغوية والتاريخية من أمثال العقد الفريد والآمالي المتعدّدة ، وزهر الآداب ، وشرح المقامات وما إليها . مع هذه الكتب تأتي المجموعات الشعرية والنثرية والدواوين الخاصّة والعامّة . . . بقي أن نشير إلى المصنّفات المعجميّة التي تتناول الأشخاص والأماكن ، كمعجم الشعراء ومعجم الأدباء وكتب الطبقات ، والوزراء والكتّاب ، وتاريخ بغداد ووفيات الأعيان ونزهة الالبّاء والفهرست والديارات وآثار البلاد وغيرها كثير ، يأتي في طليعتها كتاب الأغاني . والواقع أنّ «الفهرست» و«الوزراء والكتّاب» و«تاريخ بغداد» ، فضلاً عن «تاريخ الطبري»

و«الأغاني» ، كانت معالم ثابتة على طريقنا[1] ، نعود إليها دائماً أينما كانت وجهتنا . والأغاني ، بالذات يحفل بالمعالم الحضارية التي تجعل منه كنزاً كبيراً يجمع فرائد التراث العربي ، ممّا لا يوجد في أيّ مصدر آخر إلاّ منقولاً عنه . ولقد وجدناه سجلاً لكثير من العادات والتقاليد وأساليب التفكير وأنماط العيش وملامح التعامل اليومي في حياة الناس ، استقرأناه الكثير الكثير . ولم نهتمّ جديّاً لما أخذ عليه من شكّ في نسبة ما نسب إلى الرشيد أو سواه في حضور مجالس الطرب والمشاركة في الشراب ، لأنّ هذا النوع من التفاصيل يصعب نفيه حتى في حال الميل إلى تكذيبه ، وقد أبدينا رأينا فيه في موضعه مع أنّه ، في الواقع ، لا يهمّ بحثنا بقدر ما تهمّه الملامح العامّة لمجالس الطرب والمنادمة وما يرفرف على أجوائها من أدب وما عرض له الأصفهاني من أفكار المشاركين في هذه المجالس وحياتهم ، بحضورهم ، أو بانتاجهم الأدبي ، وظروف ذلك الانتاج وحوافزه ، وما دار في الخفاء و«وراء الكواليس» ، فضلاً عمّا عُرف في الجهر والعلن .

موقفنا من المصادر

من السهل القول بأنّ الشكّ يرقى إلى كثير من الأخبار القديمة . وبعض الأدلّة والأسباب نوردها فيما يلي :

---

1 لقد أجمع المؤرّخون على تميّز هذه الكتب وعلى الثقة بمؤلّفيها . فابن النديم مثلاً ، لا يحتاج إلى شهادة غير كتابه : الفهرست . فالذي يطّلع عليه يقتنع بمدى معرفة المؤلّف وعلمه ونزاهته . وقد اكتفى ياقوت بذلك تعريفاً فقال : «مصنّف كتاب (الفهرست) الذي جوّد فيه واستوعب استيعاباً يدلّ على اطّلاعه على فنون من العلم وتحقّقه لجميع الكتب» . (معجم الأدباء ج18 ص 17) أمّا الطبري فيقول عنه ياقوت : «كان أحد أئمّة العلماء ، يُحكَم بقوله ، ويُرجَع إلى رأيه ، لمعرفته وفضله . وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره . وكان حافظاً لكتاب الله ، عزّ وجلّ ، عارفاً بالقرآن ، بصيراً بالمعاني . . . عارفاً بأيّام الناس وأخبارهم . . .» (معجم الأدباء ج18 ص 41) . وفي الطبري يقول ابن النديم : «كان متفنّناً في جميع العلوم : علم القرآن والنحو والشعر واللغة والفقه كثير الحفظ» . (الفهرست ص 234) أمّا الأصفهاني ، فيقول فيه ياقوت : «العلامة النسّابة ، الأخباري الحفظة الجامع بين سعة الرواية والحذق في الدراسة . لا أعلم لأحد أحسن من تصانيفه في فنّها وحسن استيعاب ما يتصدّى لجمعه . .» (معجم الأدباء ج13 ص 95) ويزيد ابن النديم قائلاً : «كان شاعراً مصنّفاً أديباً . . . وأكثر تعويله كان في تصنيفه على الكتب المنسوبة الخطوط أو غيرها من الأصول الجياد» . (الفهرست ص 115) وفي كتاب «الأغاني» يقول ابن خلدون : «ألّف القاضي أبو الفرج ، وهو ما هو ، كتابه في الأغاني ، جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيّامهم ، ودولهم . وجعل معناه على الغناء في المئة الصوت التي اختارها المغنّون للرشيد فاستوعب فيه ذلك أيّما استيعاب وأوفاه . ولعمري ، إنّه ديوان العرب وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم في كلّ فنّ من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال ، ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه . وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها ، وأنّى له بها ! . .» (المقدّمة ج4 ص 1268) ويضيف ياقوت : «إنّ هذا الكتاب الجليل القدر ، الشائع الذكر ، جمّ الفوائد ، عظيم العلم ، جامع بين الجدّ البحت والهزل النحت . . .» (معجم الأدباء ج13 ص 98) .

ـ التناقض البيّن بين الأخبار يرويها مؤلّفون معروفون بأنّهم ثقات . كخبر الابشيهي مثلاً عن اجتماع يحيى بن أكثم وعبيد بن الأبرص بحضرة الرشيد ، وخبر المسعودي عن تحدّث الرشيد إلى معن بن زائدة .

ـ المبالغة والأرقام الخياليّة التي تظهر في بعض الأخبار ، كقول الطبري إنّ الرشيد قدم إلى مكّة حاجاً بعد البيعة لأولاده الثلاثة ، وقسم في أهلها مليوناً وخمسين ألف دينار ، أي ما يقارب عشرة ملايين درهم . أو كالحديث عن دخل الخيزران ، والدة الرشيد ، الذي بلغ ستّين مليون وستّة آلاف درهم سنويّاً (حسب ابن تغري بردي) أو مئتي مليون وستّين ألفاً (حسب الأربلّي) . أو ما ذهب إليه ابن تغري بردي من أنّ محمد بن سليمان العباسي كان يملك خمسين ألف عبد ، منهم عشرون ألفاً عتقاً . . . هذا فضلاً عن الاعطيات التي تبلغ حدّاً خياليّاً ، كأن يدخل النمري إلى بيت المال يأخذ منه ما يشاء ، فيحتمل جميع ما يجده فيه من بدر . وهذه النماذج قدّمناها على سبيل المثل لا الحصر[1] .

ـ ورود أخبار غريبة يرفضها منطق أيّامنا العقلي والعلميّ ، كاصطياد بازي الرشيد طائراً من السماء هو عبارة عن حيّة لها أجنحة بيضاء ، وكأخبار ظهور إبليس على هذا النديم أو ذاك ، أو أخبار الجنّ التي تتشكّل بصور بشرية وحيوانية وتعرض للبشر ، وتتعامل وإياهم . وهي أخبار تروى بجدّيّة واحترام[2] .

ـ التقاط أخبار تتناول تفاصيل لمواقف دقيقة جدّاً وخاصّة جدّاً ، أو تتناول خطباً وقصائد وحواراً طويلاً معقّداً ومتشعّباً يصعب تصوّر إنسان يسمعها مرّة واحدة فيحفظها ويرويها بكلّ دقائقها . إنّنا نعجب ، مثلاً ، كيف عرف الراوي بما دار بين الرشيد ومحظيته فلانة ، ومن الذي روى شعره في محظيته تلك ، ومن الذي تجرّأ على الاقتراب منه ليستمع دعاءه في الكعبة فيحتوى كل كلمة وحرف منه ؟ والقارىء لتفاصيل مجلس يحيى بن خالد في العشق وما قاله كلّ من أساطين علم الكلام الحاضرين ، لا بدّ متسائل عمّا إذا كان للمجلس كاتب مهمّته تدوين ما يقال بالحرف والكلمة ! .

---

1 ورد خبر يحيى بن أكثم في المستطرف ج2 ص 244 ، والمعروف أنّ يحيى بن أكثم خدم المأمون لا الرشيد . . وورد خبر الرشيد ومعن بن زائدة في مروج الذهب ج3 ص 349 (دار الأندلس) ، ومعن توفي عام 151هـ/. . . وورد خبر أعطيات الرشيد في مكّة في تاريخ الطبري ج8 ص 364 . وخبر دخل الخيزران في النجوم الزاهرة ج2 ص72 وفي خلاصة الذهب المسبوك ص 117 . وجاء خبر عبيد محمد بن سليمان في النجوم الزاهرة ج2 ص 74 . أمّا دخول النمري إلى بيت المال فذكره ابن المعتزّ في طبقات الشعراء ص 245 وجاء خبر مماثل عن يحيى المكّي في الأغاني ج6 ص 177 .

2 جاء خبر بازي الرشيد وما تضمّنه من خرافة سكّان الفضاء في مواسم الأدب ج2 ص 218 وفي المستطرف ج2 ص 100 . وجاء خبر ظهور إبليس على إبراهيم الموصلي في الأغاني ج5 ص 210 وص 216 .

- تدخّل الحوافز الشخصية والعصبية عند الرواة . من الحوافز الشخصية وضع الراوي النفسي تجاه فئة من شخصيّات الخبر . فالأصمعي ، مثلاً ، حين يروي خبراً عن البرامكة خلال الفترة التي كان يمدحهم فيها وينال رفدهم ، يكون في وضع نفسي يختلف عن وضعه بعد أن مال عنهم وهجاهم ، أو بعد أن وقعت النكبة بهم . أمّا الحوافز العصبية فإنّها تسخّر معطيات الخبر لخدمة مسلسل الصراع المستمرّ . ولئن كان الصراع القبلي والعائلي قد أنتج الكثير من الأدب المنظوم والمنثور ، فإنّ الصراع العربي الأعجميّ قد أكبّ على هذا الانتاج وراح يمعن فيه تحليلاً وتركيباً ، إضافة عليه وحذفاً منه[1] .

نعود لنؤكّد أنّ ما قدّمناه هو نماذج سريعة ، وهي غيض من فيض ، لكنّنا ، مع ذلك ، لا نسارع إلى الشكّ والرفض لأنّنا نراهما موقفاً سهلاً ، أصعبُ منه وأفضلُ ، بكثير ، البحثُ عن الحقيقة ، حتى من خلال المعطيات التي يطوف بها الشكّ ، لأنّ رفض معطيات التراث ، دون تقديم البديل ، يحدث فراغاً لا يفيد منه أحد ، ولا حتى الحقيقة العلميّة المجرّدة . لذلك فإنّنا نعتمد موقفاً متريّثاً هادئاً ، نقدّم ، انطلاقاً منه ، القناعات التالية :

- إنّ التناقض الذي يظهر في أخبار أوردها ثقات مشهود لهم بالعلم والنزاهة ، يعود ، في رأينا ، إلى النسّاخ الذين قد يسقطون كلمة أو يزيدون أُخرى ، أو يعدّلون بشكل عفوي أو مقصود ، ملامح من الخبر . ففي خبر يحيى بن أكثم المشار إليه ، نرجّح أنّ الرواية الأساسية كانت تتضمّن اسم يحيى بن خالد بدلاً من يحيى بن أكثم ، أو المأمون بن الرشيد بدلاً من الرشيد . وفي هذه الحال يكون اسم المأمون قد سقط سهواً وبقي اسم الرشيد . أمّا حادثة عبيد بن الأبرص التي تجعل الروايةُ عُبيداً نفسه يرويها للرشيد فالطبيعي أن يكون يحيى هو الذي يرويها على أنّها جرت لعبيد . وهذه الحادثة يرويها الأصفهاني مجرّدة عن يحيى وسواه . أمّا في اجتماع معن بن زائدة الشيباني بالرشيد ، فالأرجح أن يكون الدور ليزيد بن مزيد الشيباني ، ابن أخت معن . فحوار الخبر ثابت للرشيد ويزيد . ولم يكن المسعودي ليقع في خطأ كهذا ، وهو الذي تتبّع أخبار معن مع المنصور جدّ الرشيد[2] .
- إنّ ما نحسبه مبالغة ونرفض تصديقه عن الاعطيات ، نقيسه ، في الحقيقة ، على واقعنا وطموحنا ومبادئنا ، فهي معيار المعقول واللامعقول عندنا . فإذا تساءلنا : لماذا يعطي الرشيد كل هذه الهبات ؟ لا نجد لذلك سبباً من أسبابنا . نحن نفهم أن يقوم الحاكم بمشاريع ، بإنشاءات ،

---

1 تناول الدكتور ناصر الدين الأسد موضوع توثيق الرواة وتضعيفهم وقضيّة الشكّ في أخبارهم . يمكن مراجعة ذلك في كتابه «مصادر الشعر الجاهلي» ص 429 .

2 جاء في العقد أنّ الرشيد سأل معناً : كيف زمانك ؟ وهذا يؤكّد ما افترضناه عن عمل النسّاخ . (العقد الفريد ج2 ص 128) .

بمؤسسات وينفق على الأمور العامة ، لكنّنا لا نعرف في أيّامنا حاكماً يقول : «زه» ويهب من يتحدّث إليه الملايين . والأرقام الخيالية التي نقرأها نقيسها دائماً على الأرقام نفسها بعملاتنا ، بشكل طبيعي وبديهي . بينما عناصر الخطأ في هذه القياسات عديدة . فالعملة ليست مفهوماً مطلقاً مجرّداً عن الزمان والمكان بل هي ، على العكس تماماً ، ابنة الظروف المتغيّرة تختلف قيمتها الشرائية من جيل إلى جيل ، ومن بلد إلى آخر وضمن معطيات اقتصادية وعسكرية واجتماعية لا تحصى . وعطاء الرشيد لأهل الحرمين له أهداف سياسية واقتصادية معروفة ، نظراً لقلّة انتاج بلاد الحجاز ولأهميّة سكّانه على صعيد شرف النسب والقرابة إلى الرسول . وقد اعتاد الخليفة أن ينفق معظم دخله لأسباب نفسيّة نذكرها بعد قليل . إنّما ارتباط الإنفاق بالدخل يجعل من الصعب تحديده لأنّه يتعلّق بنتائج الغزوات وريع الاقطاعات وعائدات المصادرات ؛ فإذا كانت جميعها وافرة ازدادت قيمة العطاءات ، لهذه كلّه لا نستطيع ، بمجرّد الاطّلاع على حجم نفقة معيّنة ، تكوين رأي واضح ودقيق عن امكانية الصدق أو المغالاة فيها ، والذهاب إلى أنّها تنافي المنطق والحقائق العلمية . فليس من حقّنا أن نقيس على ضوء واقعنا وبأساليب منطقنا ، أخبار حقبة زمنية كانت خارج هذا الواقع وهذه الأساليب . إنّ الأمانة التاريخية تحتّم علينا أن نخرج من أطرنا لننظر إلى الأجيال الماضية ضمن أُطرها النفسية والفكرية والاجتماعية . فإذا لم نستطع أن نتصوّر إنساناً أيّاً بلغ من درجات الغنى يبدّد المال كأنّ له ثأراً عليه ، مقابل كلمة اطراء ، أو بلا مقابل ، فالمفروض أن نتساءل : هل رأينا هو رأي الأجيال التي تشكّل إطار الحدث ؟ في اعتقادنا أنّ الرشيد والوزراء والأمراء كانوا يجمعون ثروات ضخمة ، وكانوا ينفقون بسهولة هذه الأموال التي تأتيهم بلا كبير جهد . كانت الجيوش تغزو فتنصبّ الأسلاب والغنائم في قصور هذه الفئة المميّزة لتلتقي مع دخلهم من أملاكهم وولاياتهم واقطاعاتهم وما شابه . فماذا تراهم يستفيدون من الغنى ؟ إنّ المثالية الخلقية لكلّ شعب هي التي تحكم تصرّفات أفراده وتوجّهها . والناس ، في ذلك العصر ، وخصوصاً الفئة منهم التي نتحدّث عنها ، لم تكن ترسم قواعد لاجتناء الثروات : فلا شركات تؤسس ولا موازنات تقام . إن هو إلا أخذ يتبعه انفاق . هؤلاء الناس كانوا ينفقون متقيّدين بالمثالية العربية وهي أنّ المال ليس ، تماماً ، لإشباع الحاجات ، وإنّما هو وسيلة لكسب الصيت والمجد . ولو رجعنا إلى الحوافز النفسية الاجتماعية لفضيلة الكرم في عالم الجاهلية لوجدنا أهمّها حافزين[1] : أوّلهما سهولة الحصول على المال ، ومصدره الطبيعي الغزو والاغتصاب ، ونقول سهولة ، مع

---

1 لقد كان تركيزنا على الحافز النفسي الاجتماعي الذي يخدم فكرة التطرّف في العطاء ومن أهمّ الحوافز الأُخرى أنّ العربي ، في الصحراء ، كان ، دوماً ، معرّضاً لأن يكون ضيفاً أو مضيفاً . والتائه الذي لا يجد من يرفده ويكرمه يقضي جوعاً وعطشاً .

التجاوز ، لأنّ ، دون ذلك ، قطع الأعناق . إنّما من يحظى بالمال يكون قد حصل عليه بشكل سريع وبالقوة . وهو يفخر بقوّته أكثر من فخره بماله ، بل يتّخذ المال وسيلة لفخره : إنّه دليل على انتصاره في صراع القوّة . وهنا يأتي الحافز الآخر ليحكم تصرّفه بالمال ، وهو أن يبرهن أنّ الغزو الذي يقوم به ، والسلب الذي يمارسه ، ليسا من أجل أن يأكل ويشبع ، فذلك همّ السوقة والصعاليك ، إنّما هو يفعل ذلك ليثبت قوته في عالم أساسه العنف والتحدّي . ومن ثمّ يأتي هدره للمال تعبيراً عن احتقاره له ؛ فإذا ما أعطاه لطالبيه وللمحتاجين إليه ، وراحت ألسنتهم تلهج بشكره وتسبّح بحمده ، انصبّ ذلك في مجرى إرضاء نزعة التفوّق التي حكمت غزوه وهجومه وحصوله على الأسلاب والمال . من هنا نجد اختلافاً جذريّاً في أساليب الحصول على الثراء وفي النظرة إليه بين مجتمعنا والمجتمعات القديمة : فثرواتنا تبنى على أسس وتحسب لها حسابات ، وتهدف إلى إشباع حاجات ورفع مستوى للمعيشة ، أو تأمين نفوذ سياسي عن طريق ملكية رأس المال وما إلى ذلك ، بينما ثرواتهم كانت تجمع لتنفق ، لتؤمن فخراً ومدحاً يجلب صيتاً . ولقد أثبتنا في بحثنا أنّ فضيلة الكرم والعطاء وصلت إلى الرشيد مدعومة بأمثلة لا تحصى من عمليات الترفّع عن حفظ المال ، وبآلاف الأشعار في مدح الجود ودفعه إلى التطرّف ، فهل نستغرب ، بعد هذا ، أن يعطي الرشيد حتى تفرغ خزائنه ؟

- ومثل ذلك ، الحديث عن حياة الرشيد الخاصة . هل كان للرشيد مجالس المنادمة والطرب التي أفاض في ذكرها الأصفهاني وسواه ؟ إن عقلنا يأبى الاقتناع بأنّ خليفة ورعاً تقياً كالرشيد ، يخاف الله ويبكي لذكر اسمه ، يمكن أن يعيش حياة دنيوية لاهية . هكذا تقول مثاليتنا . لكن ما رأي مثالية العصر ؟ هل كان الاستماع إلى الغناء ، والطرب ، منقصاً للمروءة ، مقلّلاً للهيبة ؟ لقد جاء بعد الأصفهاني مؤلّفون كبار ، قضاة وفقهاء ، نقلوا عنه ولم يستغربوا أخباره . إنّهم كانوا أقرب منّا إلى عصره ، وبالتالي أدنى منّا إلى مثالية ذلك العصر ، فتقبّلوا ما رفضناه . إنّ مثالية العصر هي التي يتوجّب استقراؤها هنا ، لا المنطق المجرّد . والمثالية ، شأن أي ظاهرة اجتماعية ، تتطوّر على مرّ الأيّام ، وإن كان تطوّرها بطيئاً متدرّجاً . بل ، لأنّ تطوّرها بطيء متدرّج ، أمكننا الاستدلال عليها بموقف المؤلّفين في العصور القريبة منها . . . ولو أردنا المضيّ في هذه المقارنة بين مقاييسنا ومقاييس الأجيال الماضية لطال بنا الأمر ، فهذا الموضوع يحتاج إلى بحث مستقلّ ، ونحن إنّما أردنا التدليل على وجهة النظر التي تبنّيناها .

- لذلك فإنّ الموقف الهادىء الذي اعتمدناه من المصادر لا يقوم على التوتّر والمبادرة إلى الشكّ ، فالرفض ، بمجرّد الاحساس بوجود خطأ أو تصحيف أو مبالغة في تضاعيف خبر ، لكنّه يجعلنا نأخذ من الخبر الملامح الأساسية التي لا يرقى إليها الشكّ ، طالما كانت تمثّل وجهاً حضاريّاً يلقي ضوءاً على ناحية من نواحي البحث . أمّا الأخبار الطويلة التي تجمع شتاتاً من أخبار صغيرة تنسّقها وتؤلّف فيما بينها وتضيف إليها تزويقاً من هنا وتلويناً من هناك ، فإنّنا نهتمّ بالخبر الأدبيّ

الوارد فيها ، ونتجاوز همزات الوصل ، اللهمّ إلاّ في الحالات التي تعبّر عن مواقف ، فإنّنا نعرض لها ونناقشها . وتدليلاً على ذلك نتناول ، بشكل سريع ، خبراً وجدناه ذا أهمّية كبيرة لنا ، وهو الخبر الذي أورده الشريشي ، في «شرح مقامات الحريري» ، عن مجلس أدب ونقد بين الرشيد والبرامكة ، حضره الأصمعيّ ورواه . ولقد تشبثنا بهذا الخبر ، ونقولها بصراحة ، لانعدام الأخبار الوافية عن المجالس الأدبية التي لا نشكّ في كونها أقيمت وطالت فيها المنافسة والمناقشات . فأكثر ما حظينا به كان نتفاً من أخبار حاولنا أن نؤلّف بين أجزائها . وقد يكون خبر الشريشي عن مجلس حصل ، بالفعل ، كما رواه ، أو يكون الشريشي حاول أن يقوم بما نقوم به من جمع الأجزاء في كلٍّ متكامل إنّما لم يشر إلى ذلك ، ولم يحدّد مصدر كلّ تفصيل استخدمه ، بل نسب الرواية بكلّ تفاصيلها إلى الأصمعي . وكانت لنا وقفة متردّدة : هل نتقبّل المجلس بكلّ ما جاء فيه ؟ إنّ اسلوب عرضه ، وما تطرّق إليه من وصف انفعالات المتنافسين شائق جدّاً ، ومهمّ أيضاً ، إذا صحّ . لكن قناعتنا هي أنّ هذا الوجه من الخبر كان مفتعلاً ، لأنّ الراوي كان يفترض صراعاً عربيّاً أعجميّاً ، بين الرشيد والبرامكة ، يوازي الصراع الأدبيّ ، جاعلاً الخليفة لا يترك مناسبة للازراء بوزرائه . وهذا لم يكن وضعه ، في رأينا ، معهم ، لا في أثناء عزّهم في دولتهم ، ولا حين بدأ يتغيّر عليهم فراح يداريهم لكي لا يكشفوا تغيّره . ومع شكّنا في هذا السلك الذي نظم التفاصيل الأدبية والآراء النقدية ، فإنّنا لم نشكّ في صحّة هذه التفاصيل ، ولم ننفِ إقامة المجلس ، أو بعضه ، وخصوصاً أنّ كثيراً من المواقف سجّلت ، في مصادر أُخرى ، للرشيد ، أو ، بحضوره ، للأصمعي الذي كان المحرّك الأوّل للنقد الأدبي في تلك الجلسة . وقد اعتددنا همّنا الأوّل معرفة : كيف يفكّر الرشيد وأهل بلاطه ، وكيف يعرضون معارفهم وآراءهم ، ولا يعنينا ، بعد ذلك ، إذا كان ما جاء في الخبر قد قيل في مجلس واحد ، كما يرويه الشريشي ، أو قيل في مجالس متفرّقة ، طالما أنّ هناك دلائل على صحّة نسبة ما قيل إلى من قال .

وقبل أن ننهي عرض موقفنا هذا ، نبادر إلى القول إنّنا ، أحياناً ، كنّا نتابع سياق خبر كما جاء ، على ذمّة الرواة ، ادخالاً لبعض الحركة والحيوية على موضوع جافّ بطبعه ، ثم نعمد إلى التنبيه على ما نراه فيه من نحل أو افتعال .

ولنا ، أخيراً وجهة نظر نسجّلها في هذا الاتّجاه ، وتتلخّص في أنّ النصّ الذي نعتمده ، إذا كان مظهراً أدبيّاً من أجواء الرشيد ، خطبة أو رسالة أو قصّة وحكاية أو شعراً ، فإنّنا لا نعنى كثيراً بصحّة وقائعه ، إذا كان صحيح النسبة ، لأنّ الظاهرة الأدبيّة ليس من مهمّتها أن تصوّر الواقع تصويراً نقليّاً ، بقدر ما تكون في التفاعل مع الواقع والتعبير عن هذا التفاعل . هنا ينفصل النقد التاريخي عن الدراسة الأدبيّة ، فنأخذ النتاج الأدبي بكلّ ما فيه من مبالغة أو تخيّل أو تزلّف ، وحتى تحريف ، بل مع ابراز المبالغة والتخيّل والتحريف فيه وربطها بالهدف منه . نحن نسمع مثلاً أنّ الرشيد رأى غباراً قد انعقد في الأفق ، وكان غازياً في بلاد الروم ، وظنّ الأعداء هاجمين ، «فخرج يركض على فرس له

وفي يده الرمح ، وتبعه الناس» ، فلا يهمّنا كثيراً أن يكون هجوم الرشيد قد حصل بالفعل بهذه العفوية وقلّة الاحتراس والشجاعة الطائشة ، إنّما يهمّنا أنّه وُجد من اعتقد فعلاً ، إن لم يكن رأى بأم العين ، أنّ الرشيد هجم وأنّه ، حسبما يعرفه من صفات الخليفة ، لا يتأخّر عن هجوم كهذا ، وأنّه ، نتيجة لهذا الاعتقاد ، وُجد من يمدح الرشيد بالاقدام فيقول : [من الطويل]

رأى في السما رَهْجـاً فيَمَّمَ نحـوَهُ   يَجُـرُّ رُدَيْنِيّاً وللرَهْجِ يَسْتَقْرِي[1]

وحين نتتبّع صورة الرشيد ، بطل هرقلة ، فإنّنا نستقرىء آراءً وأفكاراً وأدباً لشعراء الرشيد ورواة أخباره ، يرسمونها كما أرادوا لها أن تظهر . هكذا يرون الرشيد ، وهكذا تخيّلوه ، وبذلك طبعوا تعبيرهم . وهذا حقّهم كأدباء . ألم نعتدّ الأدب تعبيراً عن المشاعر والأهداف ، وتصويراً للحقيقة من خلال تضاعيف النفس ؟

- أما الأخبار الغريبة التي يرفضها منطقنا العلمي ، فلا نشكّ في صحّة روايتها إذا كانت ضمن قناعات أهل العصر . فهم اعتقدوا جادّين بوجود عوالم أُخرى موازية لعالمنا ، تعيش فيها مخلوقات أُخرى تخالف المعروف في أرضنا ، لا تنكشف لأنظارنا إلاّ في بعض لحظات التصادم ؛ كما أنّها ، كعوالم مجهولة ، اقترنت بفكرة «الرهيب» والقادر على إيصال الأذى أو الخير ، والتغيّر والتشكّل بأشكال مختلفة ، طالما أنّها خارج حدود عالمنا ، حتى باتت مخلوقاتها تشابه آلهة الخير والشرّ التي تنزل من جبل الأولمب لتتدخّل في حياة البشر . ولم يكن لأيّ عالم ، في ذلك الزمان ، التخلّص الكامل من جميع المعتقدات ، وإن جرت محاولات العقلنة أمام الكثير منها . لذلك فإنّنا ، إزاء هذا النوع من «الأخبار الأساطير» ، نذكر رأينا دون أن ننكر الخبر لمجرّد أنّه غير منطقي ، ونعتدّه جزءًا من تراث الجماعة الثقافي . ولا شكّ في أنّ دراسة هذه الأخبار تشكّل موضوعاً أدبيّاً اجتماعيّاً مستقلاًّ ، يمكن أن يأتي بالرائع المدهش ، لو انجرد له الباحثون .
- أمّا تفاصيل الأخبار التي تجرى في مجالات خاصّة جدّاً ، أو تدور حول موضوعات طويلة وتتضمّن الصعب من الحوار أو الأشعار ، فإنّنا يمكن أن نصدّق الكثير منها إذا تخلّصنا ، كما أسلفنا ، من قيود واقعنا ، وتفهّمنا واقع العصر . وقد كانت لنا وقفة في البحث حول تسقّط بعض الشعراء لأخبار المقاصير والحجرات ووجدنا أنّ جهازاً خفيّاً للرصد كان يلفّ حياة الرشيد ويراقب حركاته وسكناته ، ويسجّل أي قول أو رفّة جفن أو غمزة عين تصدر عنه ، ثم يجعلها تتسرّب إلى من يهمّه التقاطها من الطائفين بالبلاط ، لا ندري بأيّ ثمن . وقد يكون لوجود ألوف الجواري والغلمان في القصر ، ولما ينمو بين الجميع من مشاعر الغيرة والحسد

---

1 راجع الأغاني ج18 ص 174 .

والتباغض والتعاون ، يد كبرى في ذلك . . . . ومن جهة أُخرى ، نشير إلى أنّ عصر الرشيد ، الذي شهد بداية التدوين الجدّي للتراث ، كان لا يزال على علاقة وثيقة بمرحلة الرواية الشفويّة . وهذه المرحلة أفرزت أشخاصاً كانوا أعجوبة في القدرة على الحفظ ، وعلى استرجاع ما حفظوه . إنّهم يشبهون الأدمغة الالكترونية الحديثة ، ينطبع فيها كلّ ما يمرّ بها ، وتعطيه ، عندما يُطلب ذلك منها ، بطرفة عين . ونحن لن نستقصي أخبار هؤلاء الرواة ، إنّما نكتفي بالإشارة إلى شخصيّة محوريّة بالنسبة إلى بحثنا هي شخصيّة الأصمعي . يروي ابن الأنباري أنّه استطاع أن يعيد أمام الحسن بن سهل مضمون رقاع المتظلّمين ، موضوعها وتعليق الوزير عليها ، بمجرّد أنّه نظر إليها ، بصورة عفويّة ، في أثناء تصفّح الحسن لها وتدوينه تعليقاته[1] .

- أمّا معرفة الراوي الثقة فمهمّة صعبة علينا ، في عصرنا المتأخّر ؛ ونحن نجد أنّ واجبنا ينحصر في تمييز المؤلّفات الأساسية وتحديد موقف من أصحابها . فإذا وثقنا بالمؤلّف يكون المفترض أنّه يختار الراوي الثقة الذي ينقل عنه . وراويته ، إذا كان ثقة ، فهو لا ينقل إلاّ عن مصدر موثوق ، وهكذا دواليك إلى أن تنتهي السلسلة إلى خبر صحيح أو معقول . ونقول معقولاً لأنّ الرواية ، من إنسان إلى آخر ، لا يمكن أن تتمّ دون تحريف أو خطأ ، حتى الرواية المكتوبة تخضع لهذا القانون . لكن الأخطاء التي نعنيها نتوقّعها في بعض التفاصيل . ويبقى الخبر ، وخطّه العام ، عادة ، سليماً . ونحن نرى ذلك في أخبار أدبية وصلتنا من مراجع مختلفة ، مع مؤلّفين ثقات . فإذا اختلاف في أسماء الأبطال ، أو في بعض كلمات الخبر أو تاريخه ؛ هنا يأتي دور التمحيص والتدقيق العلمي . وهذا ما كنّا نفعله ، عند الضرورة . ذاك أنّ البحث الأدبيّ الحضاريّ ، الذي اتّخذناه هدفاً ، لا يتأثّر كثيراً بهذه التفاصيل المُشار إليها والتي قد يقع فيها الخطأ ، لأنّ المعالم الحضارية تتجاوز الأشخاص والحقب الزمنية الضيّقة .

إنّنا ، نتيجة لما قلناه ، لا نخفي تمسّكنا بالمصادر الأساسية ، ونؤمن ، صادقين ، بضرورة صيانتها وحفظها من عبث العابثين ، وشكّ الشاكّين ، مع تشذيبها وتنقيتها من الشوائب ، لسبب بسيط هو أنّ الماضي لا يمكن الاطّلاع عليه إلاّ من خلالها ، ويصعب علينا تكوين صورة عنه غير التي ترسمها له .

صعوبات

لقد أشرنا ، في مكان آخر من المقدّمة ، إلى صعوبة إيجاد الخبر في طبعات مختلفة للمصدر الواحد . والواقع أنّ هذا جزء من صعوبة كبيرة واجهتنا ، نعرضها فيما يلي :

إنّ مرحلة التقميش ، مهما بلغت من الدقّة والاتّساع ، لا يمكن لها أن تتنبّأ بكلّ ما يلزم الباحث في مرحلة الكتابة ، خصوصاً إذا كان الموضوع كبحثنا هذا شديد التشعّب ، يستحيل وضع تصميم

---

1 كان عدد الرقاع خمسين (انظر نزهة الألباء ص 121 وراجع ص 79 هامش 1 من البحث) .

مسبق له قبل الاطّلاع على ما تخبّئه المصادر في كنّها . فبعد التغلّب على الصعوبة الأولى المتمثّلة في تأمين المصادر الجمّة التي افترضناها ضروريّة للبحث والتي تتبّعناها في المكتبات العامّة والخاصّة[1] ، برزت لنا مشكلة حقيقيّة في العودة إلى هذه المصادر حين نحتاج إليها من جديد . ففي مرحلة الكتابة ، يحتاج المرء إلى أن يراجع مصادره يستقصي تفاصيل خبر نقله باختصار ، أو يبحث عن مكان فكرة أو قول علقا بذهنه ، لحظة القراءة ، ولم يدوّنهما لأنّهما لم يكونا يعنيان له الكثير . فإذا ما بعدت الشقة بينه وبين مرحلة القراءة وفقد الاتّصال بالعدد الجم من المراجع ، بسبب الحواجز والأحداث والتلف الذي لحق بها ، كان البحث عن بديل ضروريّاً ، وقادنا ذلك إلى طبعات مختلفة استهلك البحث فيها الساعات والأيّام . حتى الطبعات الحديثة المزوّدة بالفهارس ينطبق عليها ما قدّمناه لأنّ ما يهمّنا غالباً ما يكون جزءاً من خبر أو حادثة أو قول ، لا ينمّ عنه أي عنوان يعتمده الكاتب أو الناشر . فالمصادر القديمة تتضمّن المتنوّع من المواضيع في كلّ منها ، وتتشابه فيما بينها بحيث يبدو أيّ منها مكاناً محتملاً لجزئيّة ضائعة فيغدو البحث عن تلك الجزئيّة في البحر المتلاطم من المصادر محكّاً فعليّاً للصبر والتجلّد . إنّ الساعات لا تعود هنا مقياس الزمن ، بل الأيّام والليالي ، تمرّ بطيئة سريعة ، لتجرّ خلفها ، في النهاية ، اخفاقاً أو نجاحاً يبرز الكلمة المطلوبة أو الرأي الضائع : حصيلة ضئيلة لجهد كبير . لكنّها حصيلة مهمّة بالنسبة للمبدأ الذي شرطناه على أنفسنا ، وهو أن نوثّق كلّ ما نقول ونعرض ، وأن ندعمه بالنصّ وبموقعه من المصادر الأساسية .

والصعوبة الكبيرة الثانية واجهناها عند وضع التصميم الذي كان علينا اعتماده لتحقيق أهداف البحث . لقد كان همّنا الدائم أن نقدّم بحثاً تتكامل عناصره حول محور واحد ينتظم جزئيّاته ويحدّد خطّ تطوّر أفكاره وافتراضاته . ولكن كيف السبيل إلى ذلك في دراسة الأجواء الأدبية ؟ إنّ معظم المؤلّفات التي تناولت الرشيد أو سواه أو ، عصراً من العصور ، كانت تعرض لمواضيع من كلّ لون وطرف ، ونادراً ما أمكنها الخروج عن صورة الرشيد المتعددِ أنماطَ حياةٍ والمتنوّعِ مظاهرَ مِزاج . ولقد قمنا بعدّة محاولات وألغينا العديد من التصاميم التي أقمناها . وكان للدكتور المشرف ، برأيه الثاقب ، وتوجيهاته القيّمة ، دورٌ كبيرٌ في انقاذنا من الوقوع في متاهات الأحداث التاريخيّة والحوادث الشخصية المكرّرِ بحثُها والمعاد . ولمّا لم نجد محوراً واحداً لحياة شديدة التنوّع ، متعددة المظاهر ، رجراجة ، قرّرنا أن يكون الهدف من البحث ابرازَ قيمة اجتماعية نفسية حضارية يمكن استخلاصها من تلك الأجواء التي لفّت حياة الرشيد . وهذا ما نفصّله في «خطّة البحث» .

تعريفات

نتناول هنا تحديد مفهومنا لبعض المصطلحات المهمّة التي ترافق البحث ويتكرّر ذكرها على

---

1 ننوّه ، بصورة خاصة ، بمكتبة بلدية طرابلس في قصر نوفل ، وبمكتبة دار المعلّمين والمعلّمات في طرابلس ، وبمكتبة العلاّمة الشيخ رامز ملك ، وبمكتبة الأستاذ الكبير أديب سوق .

صفحاته .

1 ـ مفهوم الأجواء الأدبية : إنّ تحديد هذا المفهوم يعادل رسم الخطّ العريض لمواضيع البحث . ونلخّص هذا المفهوم بأنّه : كلّ تعبير أدبي صدر عن الرشيد أو عن جلسائه وروّاد بلاطه ، أو عمّن احتكّ به من الناس ، سواء أكان هذا التعبير موجّهاً إلى شخصه ، أم كان لدعم موقف من مواقفه . وكذلك كلّ أدب كان الرشيد ، أو أعماله وتصرّفاته ، حافزاً عليه أو هدفاً له . وهذا يشمل ثلاثة مستويات للمظاهر الأدبية :

- مستوى المجالس العامّة أو الكبرى التي يحضرها الرشيد وروّاد مجلسه العديدون ، أو ما نسمّيه بالبلاط الأدبي .
- مستوى المجالس الخاصّة التي يحييها جليس ، أو عدد قليل من الجلساء في إطار خاص .
- مستوى حرّ ، لا يرتبط بمجلس معيّن ، إنّما يأتي في ظروف متنوّعة ، منها الخاص ومنها العام . في هذا المستوى تدخل المظاهر الأدبية التي رافقت حركة الرشيد وتنقّلاته في امبراطوريّته ، أو داخل قصوره .

هذه المستويات ، جميعها ، تنتظمها شخصيّة الرشيد ، وتتجلّى فيها ثقافته الأدبية ، نقلاً ونقداً وتوجيهاً وابداعاً .

2 ـ مفهوم المجلس الأدبي : جاء في «لسان العرب» : الجِلسة والمجلَس والمجلِس : موضع الجلوس وأهل المجلس[1] . ويوافقه ، في ذلك ، معظم المعاجم . فالتسمية تشمل الحيّز المكاني والحيّز البشري . ونحن ، حين نتحدّث عن مجلس أدبي ، يكون الرشيد محور الحيّز البشري ، وحوله شخص أو أكثر من روّاد البلاط أو من خاصته . أمّا الحيّز المكاني فمرهون بمكان تواجد الرشيد . والواقع أنّه يصعب تحديد مكان ثابت ودائم لالتئام المجلس الأدبي ، لأنّ مجالس الرشيد تلتئم قصداً ، ولكنّها أيضاً قد تلتئم بشكل عفوي تلقائي دون تحضير . فالرشيد يجلس للناس ، لشعرائه وندمائه ، لأهله وخاصته ، يفعل ذلك مثلما يتنفّس ويتناول طعامه ويأوي إلى فراشه . إنّ الجلوس ، عنده ، والأنس بالجلساء ، حاجة دائمة . وسنرى أنّهما يتمّان أنى وجد .

3 ـ مفهوم البلاط الأدبي : لكلمة بلاط جذر عربي وآخر أجنبي ، يمكن اعتداد معناها متفرّعاً عن أحدهما أو عن كليهما متداخلَين . أمّا الجذر الأجنبي فينحدر من أصل لاتيني ، إذ تعني كلمة : القصر وتعادل Palais المأخوذة عن الكلمة اللاتينية Palatium وتعني البيت الكبير نسبة إلى Palatin وهو جبل كانت تقوم عليه مساكن أغنياء الرومان[2] . وبهذا المعنى للبلاط ، أي القصر ، استخدمت الكلمة للحديث عن مقرّ امبراطور الروم أيّام الرشيد . فيقول المسعودي عن ريني ، والدة قسطنطين

---

1 كلمة مَجلِسةٌ تدل على موضع الجلوس . ولم نذكرها أعلاه لأنّها لا تشمل أهل المجلس .

2 راجع مادة Balat في Encyclopédie De L'Islam ومادة Larousse Encyclopédique « Palais \ Palatin .

السادس ، إنّها «انتُزع منها المُلك ، وهي في بلاط بنتْه بالقسطنطينية . .» ويضيف « . . والبلاط : القصر»[1] . وهكذا يمكن اعتداد كلمة بلاط معرّبة عن كلمة «Palatium» وتستخدم مثلها لتعني البيت الكبير أو القصر . . . . إلاّ أنّ للكلمة جذراً عربيّاً قد تكون انطلقت منه ، وتطوّر استعمالها حتى حاذت ، في معناها ، المفهوم اللاتيني وتجاوزته . والجذر هو «بلاطة» وتعني القطعة المستوية من الصخر أو الآجر أو الرخام ، وما إلى ذلك . ومنها استخدمت كلمة : «البلاط» للدلالة على متن الأرض المستوي الصلب ، أو على المكان الواسع منها إذا فرش بقطع مستوية من الصخر والآجر أو الرخام . . . وقيل : دار مبلّطة ، وصحن مبلّط[2] . ومن باب تسمية الكلّ باسم الجزء ، ثمّ تسمية المكان باسم ما يفرش به ، ومع التوسّع في الاستعمال ، عنت كلمة «بلاط» الصحن المبلّط والدار المبلّطة[3] ، ثم صارت تدلّ على المكان الواسع الذي يجتمع فيه الناس ، كالمنتدى والكعبة (لأنّ أرض هذه الأماكن تفرش عادة بالبلاط)[4] . وتدلّ كذلك على قصر الأمير الذي يحوي ، عادة ، بهواً واسعاً يغطّي أرضه الرخام ، أو الآجر ، ويستعمل لعقد الاجتماعات والجلسات . ثم خصّت كلمة بلاط بقصر الملك . . . ويتلاقى هنا معنى الجذر العربي المتطوّر بمعنى الجذر اللاتيني . إنّما تبقى للجذر العربي ميزة لازمته في تطوّر الاشتقاق ، وهي ارتباط المعنى المكاني بمعنى إنساني يدلّ على وجهة استعمال البهو المبلّط ، والصحن المبلّط ، لاجتماع الناس وعقد الجلسات . فغدت هذه الميزة منطلقاً للمعنى المجازي الذي راح يتّجه إليه مفهوم البلاط ، موازياً الكلمة الفرنسية La Cour ، ليدلّ على المؤسسة الإنسانية المكوّنة من الملك ، على رأسها ، ومن رجال الحاشية وأصحاب الوظائف ، وممثّلي القبائل المختلفة ، بمن فيهم الأدباء والشعراء ومن شابههم ، ممّن يحويهم أي مجلس عادي من مجالس القصر .

من هنا يكون مفهومنا للبلاط الأدبي هو هذا المعنى المؤسسي للكلمة . فهذه المؤسسة اكتسبت شخصية معنوية تميّزها من عناصرها ، وبالتالي تبقى قائمة ، أيّاً كان التغيّر في هذه العناصر ، شرط وجود الخليفة فيها . والعناصر التي قد تتغيّر بعض أجزائها هي فئات الرواد التي اعتاد المجلس الأدبي

---

1 التنبيه والاشراف ص 167 .

2 مادة «بلط» في «أساس البلاغة» و«محيط المحيط» .

3 لسان العرب وأساس البلاغة ويقدّم الشاهد التالي : [من الطويل]

وكنتم تزينون البلاط ففارقت ... عشيةَ بِنتُم ، زينَها وجمالَها

4 تاج العروس ، ج5 ص 111 ، ويتحدّث عن دار البلاط ويعطي الشاهد : [من البسيط]

لولا رجاؤكِ ما زرنا البلاطَ ولا ... كان البلاطُ لنا أهلاً ولا وطنا

ويذهب صاحب اللسان إلى أنّ البلاط هنا اسم لموضع معيّن . ويبدو لنا ، من معنى البيت أنّ البلاط المقصود هو مكان عام معروف ، أطلقت عليه التسمية من هذا الباب . وذلك يعطي قيمة لمعنى البيت : فيكون قصد الشاعر أن يقوم بالتمويه فيتظاهر بأنّه يزور المكان العام الذي يغصّ بالناس ، وهو إنّما جاء بهدف رؤية إنسان واحد .

الرسمي أن يحويهم ، وذلك نفصّله في مكانه من البحث . والمهمّ هنا أن نسجّل أنّ هذه المؤسسة المعنوية ، شأن أي مؤسسة أُخرى ، لها شروط للانتساب ، وأصول للتصرّف بين أعضائها ، كما عرفت توزيع المراتب والأدوار . . بقي أن نشير إلى أنّ هذه المؤسسة ، إذا لم تستقرّ في قصر محدود أو مكان ثابت ، فإنّ هذا لا ينفي عنها صفتها ، لأنّ العنصر البشري ، في هذا النوع من التنظيم ، هو الأصل . من هنا يمكن الحديث عن بلاط متنقّل يرحل برحيل الخليفة ويحلّ بحلوله . ولم يكن بلاط لويس الرابع عشر ببعيد عن بلاط الرشيد ، على هذا الصعيد .

4 ـ **العملة المتداولة** : لمّا كانت الأعطيات مظهراً محوريّاً في حياة الرشيد ، ينبغي لنا أن نلمّ بالعملة التي تتمّ بها . والعملة هذه تكون من «العَين» أو «الورِق» ، أي من الذهب أو الفضة . بالذهب يكون الدينار وبالفضة يكون الدرهم . أمّا علاقة الدرهم بالدينار فهي علاقة غير واضحة تماماً ، إذ يبدو أنّ بينهما علاقة شرعية رسمية ، وعلاقة أُخرى تجارية . العلاقة الأولى يجري ، على أساسها التعامل في «الزكاة والأنكحة والحدود وغيرها» . وفي هذه العلاقة يكون الدينار سبعة دراهم . وقد أجمع على ذلك «الصحابة والتابعون» . أمّا العلاقة الأُخرى فلا حدود لها ، وقد تخضع للاتّفاق ، وتختلف باختلاف الأمكنة والأزمنة . يقول ابن خلدون : «إنّ الدينار والدرهم مختلفا السكّة في المقدار والموازين ، بالآفاق والأمصار والأعمال»[1] . وتأكيداً لما ذكرناه ننقل أنّ الدينار ، في الأندلس ، في القرن الرابع الهجري ، كان صرفه سبعة عشر درهماً[2] . ويذكر الأصفهاني أنّ الناطفي رفض بيع جاريته عنان من الرشيد بأقلّ من مئة ألف دينار ، على أن يحسب الدينار سبعة دراهم . فامتنع الرشيد[3] . وفي هذا الشرط دلالة على عدم ثبات العلاقة غير الشرعيّة وأنّها عرضة للسوم . أمّا القيمة الشرائية للدرهم والدينار ، فيصعب تحديدها لأنّها كانت تخضع للتضخّم المالي . وقد ذكرنا في بعض حواشي بحثنا أنّ المهدي عوّض عيسى بن موسى ، عن خلعه من ولاية العهد ، عشرة آلاف دينار ، في حين أعطى الرشيد طبيباً خفّف وزن ابن عمّه عيسى بن جعفر عشرة آلاف دينار ثنّاها عيسى بعشرة آلاف أُخرى . كما ذكرنا أنّ نجاح الغزوات كان يرمي في السوق كميّات كبيرة من السلع ومن الأسلاب تجعل الأسعار تنخفض بشكل خيالي . وفي عام 145هـ/762م ثار السواد في «المدينة» وانتهبوا زيتاً ودقيقاً للمنصور وباعوا حمل الدقيق بدرهمين وراوية الزيت بأربعة[4] . بينما بيع الكبش بدرهم ، بعد غزوة عام 165هـ/781م بقيادة الرشيد . فإذا فرضنا أنّ قيمة الأشياء في هذه الظروف الاستثنائية ، تعادل نصف الثمن العادي أو

---

1 مقدمة ابن خلدون ج2 ص 641 (تحقيق علي وافي ـ لجنة البيان العربي 1957) .

2 تاريخ التمدّن الإسلامي ـ الطبعة الثانية ج1 ص 123 .

3 الأغاني ج22 ص 529 ويعتد الجهشياري ، في تقديره لقيمة الخراج السنوي ، «حساب اثنين وعشرين درهماً بدينار» (الوزراء والكتّاب ـ ص 288) .

4 الكامل في التاريخ ج5 ص 13 (دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ 1967) .

أقلّ بقليل ، أمكن تكوين فكرة تقريبية عن قيمة العملة الشرائية . بقي أخيراً أن نذكر تردّد كلمة «البدرة» في الحديث عن أعطيات الرشيد . والبدرة هي صرّة تحوي عشرة آلاف درهم[1] .

تسويغات

نحاول عرض وجهة نظرنا في مظهرين بارزين ، في البحث ، لا بدّ لكلّ قارىء من أن يلاحظهما .

1 ـ الهوامش : قلنا إنّنا أخذنا على أنفسنا بألاّ نطلق أحكامنا جزافاً وألاّ نقدّم من الأفكار والافتراضات إلاّ ما كان له مرتكز في المصادر الرئيسة التي اعتددناها أساساً لمجمل التراث العربي الثقافي . والنصّ الذي نستخلصه لندلّل به على وجهة نظر يكون هنا شديد التعبير ، بأفكاره وبألفاظه أيضاً . وهو أيضاً شديد الإيحاء ، بالجوّ الذي يخلقه . وقد وجدنا أنّه ، إذا كانت دراستنا تتناول أجواء الرشيد الأدبية ، فالأحرى بنا أن نعرض الآثار التي نقلت تلك الأجواء بأسلوبها ، أو بالأسلوب الذي أعطاها إيّاه مدوّنو أخبارها الأوائل ، وهذا يترك لها بعض الألوان المحليّة التي تضفي عليها نوعاً من الواقعية . إنّ تلخيص النصوص والأخبار ، والتحدّث عنها ومناقشتها بأسلوبنا الشخصي يبرز الأفكار دون الأسلوب ، ويظهر الحقائق والوقائع دون الأدب . وإذا كانت هذه العملية لا بدّ منها للبحث والتحليل والاستقراء ، التي هي مهمّتنا ، فإنّ ذكر الحقائق والوقائع ، كما رويت عن ابطالها ، أو من قبل هؤلاء الأبطال ، وبأسلوب عصرها ، هو أيضاً عملية لا بدّ منها لاحياء الأجواء الأدبية . إنّ البحث والنصّ يتكاملان : أوّلهما يعرض والثاني يبرهن ويدعم . الأوّل يسلّط الأضواء ، والثاني يتألّق ويتوهّج . من هنا كان اعتمادنا خطّة اثبات النصوص في الهوامش ، متوخّين الاختصار ، قدر الامكان ، فلا نثبت من النصّ إلاّ ما له علاقة مباشرة وثيقة بما نقول . وحين نحذف منه نحاول أن نجعل ما تبقّى متسلسلاً مترابطاً لكي لا يفقد رونقه بالشرذمة والتفكيك . ولاعتمادنا النصوص في الهوامش ، على رغم ما أدّى إليه ذلك من «اشتراكات» أهمّها زيادة حجم الرسالة وما يتبع ذلك من صعوبات في الطبع وتنسيق الصفحات ، سببٌ رئيس آخر يعود إلى نوع المصادر التي قام عليها البحث وعددها . فهذه المصادر ، جميعاً ، يصعب توافرها في مكتبة واحدة عامة ، فضلاً عن الخاصة . وفي حال وجود معظمها ، فإنّه يبدو من المضني أن يعمد القارىء إلى استنطاقها في كلّ صفحة يقرأها إذا أراد استكمال الفائدة ؛ والصفحة الواحدة تحوي أحياناً عدّة من المصادر . وفي حال ذلّل القارىء جميع هذه الصعوبات ، يكون اختلاف النسخ والطبعات حاجزاً جدّيّاً ، دونه وتحقيق مبتغاه . هذه الصعوبة واجهتنا حين كنّا نفقد مصدراً ونحاول العودة إلى أخباره في نسخة أُخرى . وهذا ما جعلنا ، مثلاً ، حين فقدنا نسخة المكتبة العصرية لمروج الذهب ، واستعضنا عنها بنسخة دار الأندلس ، لا نحاول توجيه أخبار الطبعتين إلى واحدة ، لأنّ ذلك يهدر

---

1 في العملة وأنواعها ومصادرها واختلاف قيمتها . . انظر وليم الخازن ـ الحضارة العباسية ، ص 86 وما بعد .

وقتاً وجهداً . وقد اكتفينا بالإشارة إلى دار الأندلس في الهامش حين ننقل خبراً عن هذه الطبعة . ونضيف أنّ معظم طبعات المصادر التي اعتمدناها أثناء «التقميش» (وكان ذلك منذ ما يناهز عشرين عاماً) هي طبعات قديمة ، لم تعرف ، غالباً ، الفهارس الحديثة للأعلام والأماكن واللغة وما إلى ذلك . . .

2 ـ **التريّث عند بعض الملامح التاريخية** : توقّفنا ، خلال البحث ، عند بعض الأحداث التاريخية الاجتماعية التي كانت مولّداً لأثر أدبي ، وقمنا بتحقيق بعض تفاصيلها . كان بامكاننا التخلّي عن ذلك ، على أساس أنّه لا يدخل في صميم الدراسة الأدبية . لكنّنا آثرنا التوقّف لاعتقادنا أنّ الخبر الذي نحقّقه جدير بالأهمّيّة التي نعطيه ، وأنّ ربط الحدث الأدبي بالحدث التاريخي والاجتماعي أمرٌ مطلوب في الدراسة الأدبية ، ودراسة الأدب العربي بالذات ، كما بيّنا ذلك في موضعه من البحث . ونحن ، حين نهتمّ بالحدث التاريخي ، فإنّنا نفعل ذلك لاعتقادنا أنّ بإمكاننا إضافة جديد على بعض المفاهيم . من ذلك حديثنا ، في غير موضع ، عن البرامكة . فهم ، في رأينا ، جديرون ببحث مستقلّ ، إذ يشكّلون معيناً اجتماعيّاً وأدبيّاً ثرّاً . وقد برهنّا أنّهم كانوا يعملون بدأب ، وصمت ، وهدوء ، على الاستئثار بالنفوذ ، إن لم يكن بالسلطة . . . ومن ذلك ، أيضاً ، توقّفنا عند خبر الرشيد ونقفور امبراطور الروم لنثبت أنّ عودة الرشيد لفتح هرقلة لم تكن فوراً بعد الغزوة الأولى ، كما توهم بذلك الأخبار والأشعار ، إنّما بعد سنتين تقريباً ، ولسبب بسيط هو أنّ نقض نقفور للعهد تأخّر هذه المدّة التي كانت العلاقة خلالها بين العرب والروم جيّدة وشهدت أكبر تبادل للأسرى . ومن ذلك أيضاً توقّفنا عند تنقّل الرشيد وبلاطه . فقد كان ذلك مهمّاً لاعطاء إطار واقعي لحياة الرشيد التي ندرسها ، وإثبات أنّ الرشيد ، على عكس ما يرتسم في خيال معظم الناس ، لم يقض حياته في دعة واستقرار في قصر الخلد على ضفاف دجلة ، وإنّما قضاها متنقّلاً أبداً ، لا يقرّ له قرار في مكان واحد ، تخرجه مشاكل الدولة والأمن وأحواله النفسيّة عن قراره ، حين يفيء إليه . وكان هذا ضروريّاً لفهم طبيعة الأدب الذي أحاط بالرشيد . . . ومن ذلك أيضاً بحثنا موضوع البيعة لأولاد الرشيد الثلاثة وإيجادنا المسوّغ المنطقي لهذا التصرّف الذي كان الرشيد ، قبل سواه ، يعرف مدى خطورته ، بدليل أيمان البيعة المغلظة التي فرضها على الناس وكتابَي عهد البيعة اللذين جعل ابنيه الأمين والمأمون يوقّعانهما قبل تعليقهما على أستار الكعبة ، امعاناً في إضفاء القدسيّة على مضمونهما . كلّ ذلك كان ، حسب رأينا ، لأنّ الرشيد خاف على ملكه قبل خوفه على ولاية عهده ، وأنّه ، حين أبرم ، متردّداً ، هذه البيعة ، اختار أهون الشرّين ، متلافياً بلاء أعظم . . .

بعض النتائج

هنالك حقائق فيها بعض الجدّة تبلورت أمامنا خلال البحث ، نعرض لعدد منها بشكل سريع :

أولى هذه الحقائق ما أشرنا إليه من عدم استقرار البلاط الرشيدي ، وكان من نتيجته أنّ البلاط الأدبي والفنّي كان يشدّ الرحال معه ، عبر المدن والجبال ، يحطّ في مكّة وعلى التخوم ، أو على

أسوار حصن يُحاصَر . والأدب كان ، بشكل عام ، رفيق هارون الدائم ، يقيم له مجلساً على ظهر راحلته ، أو يهيّيء له مكاناً على خوانه . ومع الأدب كان الرشيد ينام .

وثانية الحقائق أنّ بلاط الرشيد كان مختبراً أدبيّاً حقيقيّاً . فيه يقام الامتحان وتطرح الأسئلة وتنتظر الإجابات . يُمتحن الجليس قبل دخوله ويبقى خاضعاً للاختبارات المفاجئة . لذا هو دائماً متيقّظ ، مترقّب ، يدأب أبداً على جمع ما ينفعه في المواقف الصعبة وعلى حفظه . . .

وثالثة النتائج أنّ احتدام المعركة السياسية بين العبّاسيين والعلويين حبلت في عصر الرشيد بانتاج أدبي غزير ، فولدت قصائد رائعة تؤكّد حقّ العائلة الحاكمة في أن تكون حاكمة ، تزري بالأعداء المنافسين ، ترفع قدر الرشيد حتى يضاهي أو يفوق الأئمّة العلويين . وفي رأينا أنّ هذه المنافسة هي وراء الصورة المتطرّفة التي رسمت للرشيد ، وهي السبب في أنّ عقل الرشيد الراجح ، وتقاه الواضح ، كانا يصمتان أمام ما تحويه تلك الصورة من تجاوزات . (وكان لهذه الصورة دور واضح في صنع الرشيد الاسطورة) .

وأخيراً ، بعد معايشتنا للرشيد ، في حياته العامّة والخاصّة ، يقوى لدينا إحساس بأنّ شفافيّة الشخصية الرشيدية وحساسيّتها والتناقض الذي عُرف وشُهر عن طباعها ، كلّ ذلك يكشف عنده طبيعة فنّان . وقد يبدو غريباً أن نقول إنّ الرشيد ، الذي حكم وكان من أنجح الخلفاء ، ووصل بالدولة الإسلامية إلى أوج عزّها ، كان قريباً إلى طبع الفنّانين . ونحن نرى أنّه نجح ، في حكمه ، بطبع الفنّان لديه : رُزق حاشية : وزراء وقواداً كباراً حافظوا لديه على حساسية الفنّان فاستبَقوا الأحداث ونفّذوا الأوامر وهيّأوا لمخطّطاته النجاح ، خوفاً من ردود الفعل لديه ، وهي ردود متطرّفة ، شأنها عند الفنّانين . ولقد تفتّحت طبيعة الفنّان إبّان دولة البرامكة ، حيث عاش الرشيد نمط الحياة الحافل بحبّ الحياة ، ثم أحسّ بوخز الضمير لانصرافه إلى الدنيا ، فصلّى وقام وتصدّق ، وحجّ وغزا ، وسمع المواعظ وبكى ، مثلما استمع إلى الغناء فطرب وتحدّى آدم ، كلّ ذلك بتواتر شبه متّصل ظلّ يرافقه في سائر حياته . ولعمري ، أيّة نفسيّة أقرب من هذه إلى نفس الفنّان ؟ أليس فنّاناً من يغرق في اللذّة فلا يحسب حساب الألم ويستشعر الألم حتى يرى الكون كلّه سواداً مدلهماً ؟ أليس فنّاناً من يستهويه الوجه الصبوح والكلمة الحلوة والمنظر الجميل واللحن الرائع ؟ أليس فنّاناً من يحب ، إذا أحبّ ، بكلّ عنف وعنفوان ، ويكره ، إذا كره حتى تقطر منه اللعنات ؟ ألا يبدو ما أخذ عليه من توفز وتطرّف ارهافاً لحسّ فنّان تأتي أحاسيس القلب عنده قبل نظريّات العقل ؟ وفي كلّ حال يبدو لنا أنّ هذه الطبيعة لديه ساهمت في تقريبه إلى قلوب الناس : حكم فعدل وجار ، عاقب وسامح ، وبقي دائماً خليفة محبوباً ! ولقد بيّنا في نهاية البحث أنّ الرشيد ، لو لم يكن لديه تطرّف المزاج وتقلّب الطباع ، لبقي على هامش الاسطورة .

روح البحث وخطّته

بعد كلّ ما تقدّم يظهر جليّاً أنّنا اتّجهنا ، في بحثنا ، وجهة العلاقة التي تقوم دائماً بين النتاج

الأدبي والبيئة التي تحضنه ، والتي غالباً ما يتأثّر بها ويعبّر عنها . هذه البيئة هي بلاط الرشيد ومجمل حياته ، بكلّ ما رافقها من أحداث فرضتها عليه أو فرضها عليها . إنّ دراسة العمق الاجتماعي للظواهر الأدبية لم يكن من اهتمامات المؤلّفين العرب . فقبل ابن خلدون لم يهتمّ المؤرّخون بدراسة الظواهر الاجتماعية لذاتها . فإذا وردت بعض من ملامحها عندهم كان ذلك في ثنايا الأغراض الأُخرى . لذلك نجد من الصعب جدّاً إعادة رسم صورة واضحة للحياة في تلك العصور . وابن خلدون ، نفسه ، كان بعيداً عن هذا الاهتمام . فهو صاحب نظرية في الاجتماع والتاريخ : نَصَبَ الافتراض وراح يبرهنه من خلال أحداث التاريخ . ولابن خلدون دوره الرائد في تأسيس علم اجتماع عربي ، وقد اعترف بفضله القاصي والداني . لكن ما نشير إليه ليس نظريّات ولا افتراضات ، إن هو إلاّ دراسة تنطلق من الظاهرات الاجتماعية نفسها ، من الحياة اليومية مرتبطة بالمعالم الأدبية والفكرية . هذه الدراسة ، في توجّهها نحو العصور الماضية ، إذ لم تحصل في حينها ، لا يمكن أن تحصل الآن ، إلاّ جزئيّاً من خلال النصوص الأدبية والمؤلّفات التي تعرض لها أو تؤرّخ . والعنصر المساعد في هذا التوجّه هو ما ذهبنا إليه ، في بحثنا ، من أنّ الأدب العربي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بواقع الحياة . وهو ، لأنّه لم يعرف الانتماء إلى مدارس نظريّة توجّهه باتّجاه مثاليتها نظماً ومعنىً وموضوعاً ، ظلّ منطلقاً على سجيّته في التعبير التلقائي عن المعاناة اليوميّة . ونحن لا ندّعي أبداً أنّنا استطعنا القيام بدراسة موضوعيّة للظواهر الاجتماعية في عصر الرشيد تخرج بصورة موحّدة مؤتلفة عن أساليب العيش التي انتهجها الناس مع أنماط تفكيرهم وأسس تعاملهم وتصرّفهم . فنحن اقتصرنا على الرشيد وعلى ما له علاقة به من الملامح الاجتماعية والحضارية ، ممّا كان له وجه أدبي . بقي الكثير أمام باحث اجتماعي يقوم به في إطار القصر الرشيدي ، وأكثر منه في ميدان العصر الرشيدي .

أمّا خطّة البحث فتتلخّص في قسمتنا له أقساماً ثلاثة يسبقها إطار : وقد بدأنا بدراسة الإطار الذي تحرّكت ضمنه مجالس الرشيد الأدبية ، سواء أكانت على صعيد المكان أو الزمان ، أم على الصعيد البشري وما يرافقه من عادات وأصول للدخول والخروج والبقاء والحوار . . . ثم خصصنا القسم الأوّل بهذه المجالس الأدبية درسنا فيه بالتفصيل ما دار فيها من مواضيع ، متلمّسين دائماً خلفيّات مواقف الأقطاب ، والرشيد على الخصوص ، مشيرين إلى التطوّرات الحضارية التي سبقت أو رافقت ، أو طبعت بطابعها ، ما دار في هذه المجالس . وفي القسم الثاني انصرفنا ، في باب أوّل ، إلى دراسة اجتماعية شملت تيّارات الصراع التي شهدها العصر والتي كانت مولّداً لنتاج أدبي ظهر في أجواء حياة الرشيد . وقد شملت هذه التيّارات الصراع العصبي والصراع السياسي الداخلي والخارجي ، ثم الصراع الذي يولده اختلاف مستويات تأمين اشباع الحاجات . وخصصنا الباب الثاني من هذا القسم بدراسة المناسبات العديدة التي أحاطت بالرشيد والتي تردّد صداها في أجوائه الأدبية . تناولنا هذه المناسبات في مظاهرها وإيحائها الأدبي . ولم نغفل

المناسبات الخاصة جدّاً التي تتبّعناها إلى حياة الرشيد الشخصية في سمره ولهوه . وفي القسم الثالث تناولنا التفاعل الذي قام بين الرشيد وأجواء حياته الأدبية . فالتفاعل هو ، دائماً ، عمليّة متبادلة بين قطبين : أحدهما هنا الرشيد يتمثّل قيّماً على ثقافة للعصر ، يوجّهها بنفوذه ، أو برأيه أو بما يشكّله عطاؤه من تشجيع وقوّة ضاغطة في اتّجاه أهوائه . والقطب الآخر هو الأجواء نفسها التي تركت أثرها في شخص الرشيد : هي التي حضنته وحملته إلينا عبر التاريخ ، طابعة إيّاه بطابعها حتى لم نعد نستطيع أن نعرف شخصيّته الحقيقيّة .

هكذا كان الخطّ الذي انتهجناه . عسى أن نكون قد استطعنا إحداث جديد ، أو إبراز القديم بوجه جديد . لقد بذلنا جهداً كبيراً لجعل دراستنا شاملة ، فأودعناها كلّ ما استطعنا جمعه واقتناصه عن الرشيد في تفاعله مع أجوائه الأدبية . وقصدنا إلى أن يستغني القارىء بهذا البحث عن الرجوع إلى المصادر الكثيرة التي أخذنا عنها والتي يتضخّم بعضها ليصبح مجلّدات ومجلّدات . . . إنّنا لا نتحدّث عمّا بذلناه من جهد في الجمع والتبويب والتنسيق وتفتيت الخبر تارة لاستخدام كلّ جزء منه في إبراز أحد الملامح الحضارية أو الثقافية ، وفي جمع الأخبار المتفرّقة أحياناً لتكوّن ، بعضها مع بعض ، صورة أو بعضاً من صورة . حصل تكرار في بعض الأخبار ، حاولنا ألاّ نكرّر الخبر بكامله ، وأن نتناوله ، في كلّ مرّة ، من الزاوية التي نحتاج إليه فيها كبرهان . وكثرت الإشارة إلى الخبر الواحد في غير موضع من البحث ، فاقتضى ضبط ذلك جهداً كبيراً . قد تكون بقيت بعض الإعادات ، وقد تكون بعض الأخبار استعصت على الدمج . السبب في ذلك يعود إلى حجم البحث وإلى الفترة الزمنية الطويلة نسبيّاً التي انقضت بين البدء به وانهائه . نتمنّى أن يجد القارىء لنا العذر ، وأن يوفّقنا الله إلى بعض من خدمة الحقيقة .

والله ولي التوفيق

توطئة

أهمّية المجالس الأدبية والفكرية في عصر الرشيد

الكاتب والجمهور

إنّ كلّ من يشرع في الكتابة يتوجّه إلى جمهور حاضر أمامه أو مرتسم في ضميره (حتى لو كانت ذاته هذا الجمهور) ، إذ لا يمكن لشيء أن يقال إلاّ إذا وجّه إلى شخص ما . . ولا يمكن للقول أن يوجّه إلى شخص ما إذا لم يكن ، قبل ذلك ، قد قيل لأجل شخص ما . ومن غير الضروري أن يكون الشخصان واحداً ، بل نادراً ما يكونان . . . فالذي يقوم بعمل ابداعي يفتح ، لا محالة ، حواراً مع جمهوره المخاطب (ولو كانت ذاته هذا الجمهور) حواراً قد يكون حقيقيّاً كما يكون خياليّاً ، وهو يهدف إلى إثارة المشاعر ، إلى الاقناع ، إلى الاعلام ، إلى التحرير ، إلى التعزية ، وحتى إلى الإيحاء باليأس . إلاّ أنّه دائماً ، حوار هادف تحرّكه نيّة مبيّتة . .»[1] .

روبير ايسكاربيت

أدب الانتماء

«كان (الأحنف بن قيس) إذا تكلّم جلّى عن نفسه ؛ فجعل يفاخرنا ذات يوم بالبصرة ونفاخره بالكوفة . فقلنا : الكوفة أغذى وأمرأ ، وأفسح وأطيب . فقال له رجل : والله ما أشبه الكوفة إلاّ بشابة صبيحة الوجه كريمة الحسب ولا مال لها ، فإذا ذُكرت ذكرت حاجتها ، فكفّ عنها طالبها ؛ وما أشبّه البصرة إلاّ بعجوز ذات عوارض موسرة ، فإذا ذُكرت ذكر يسارها وذكرت عوارضها فكفّ عنها طالبها . فقال الأحنف أمّا البصرة فإنّ أسفلها قصَب ، وأوسطها خشَب ، وأعلاها رُطَب . نحن أكثر ساجاً وعاجاً وديباجاً ، ونحن أكثر قَنداً ونقداً . والله ما آتي البصرة إلاّ طائعاً ، ولا أخرج منها إلاّ كارهاً . . .»[2] .

المسعودي

إذا كان الانتاج الأدبي وليد عبقرية الأديب الفنيّة ، فممّا لا شكّ فيه أنّه ، أيضاً ، وليد البيئة التي تحدق بالأديب وتهيّيء له ثقافته ومطامحه وتطلّعاته وانفعالاته[3] ، كما تهيّيء له جمهوره . ولجمهور

---

1 Robert Escarpet Sociologie de la littérature PP. 98 et 99.

2 مروج الذهب ـ دار الأندلس ج3 ص 330 .

3 يقول الدكتور مصطفى سويف : «الشاعر والمجتمع وحدة دينامية ، بكلّ ما لهذا التعبير من معنى . . . والاستعداد الفطري ليس سوى امكانية محدّدة باتّجاه خاص ، ويتوقّف تحقّقها على مجال ذي خصائص معيّنة ، بحيث أنّ الناتج دائماً محصلة التفاعل بين الجانبين» . (انظر «الأسس النفسية للابداع الفنّي» ص 327 و329) كما يقول جوستاف لوبون : «إنّ للصانع الحقيقي ، سواء كان معمارياً ، أو أديباً ، أو شاعراً ، ملكة سحرية يمثل بها ، في أعماله ، روح زمانه وأمّته» (سر تطوّر الأمم ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا . ص 68) .

الفنّان أثر بعيد في انتاجه الفنّي ، به يرتبط الفنّان عاطفيّاً ونفسيّاً ، ويبذل جهده لارضائه أو لتكييفه . إذ لا بدّ للفنّان من أن يحدث أثراً في جمهوره فيجعله متميّزاً من جمهور سواه . فالتفاعل الجدلي بين الجمهور والفنّان مولّد لكثير من الابتكارات الفنيّة ، ومفتق لبراعم خفيّة في شخصية الفنّان المبدعة ، لا تتفتّح إذا لم تتح لها حرارة ذلك التفاعل . . . . هكذا نرى لكلّ فنان جمهوره : يراه أو يسمعه ، يصفّق وقد ينتقد ، يحبّذ أو يَستهجن ، فيردّ الفنّان على مواقفه هذه بانتاج جديد ، فيه ، من جديد ، ما يرضي ، أو فيه ما يُستهجَن ويُنتقَد . . . . والعرض الفنّي هو ميدان احتكاك بين الفنّان وجمهوره . فمنذ القديم ، أُقيمت المعارض ، متنوّعة ، وارتفعت منابر الكلمة ، عديدة ، فكانت حافزاً يدفع الفنّان أو الأديب لينتج ويجمع انتاجه بانتظار يوم العرض . . . ولم تكن أسواق الجاهلية سوى معارض حضارية تنشر فيها منتجات العرب ، والأدب أحدها . أو لنقُل إنّ الأدب كاد يكون الانتاج الفنّي الأوحد للعرب . فهو «الفن» عندهم سواء قيل قولاً ، أو أُنشد انشاداً ، أو غُنّي غناءً . به كان كسب الشهرة الفنيّة ، وبه المجد والصيت يحوزه الأديب وقومه ، وبه تحصل المتعة الفنيّة لدى الفنّان المبدع ولدى الجمهور المتلقّي[1] .

وهذه المتعة ظلّت هاجس العربي عبر العصور ، وصلت إليه مباشرة من خلال حضوره الحلقات والمجالس الأدبية ، أو غير مباشرة من خلال استماعه إلى رواية ما يجري في اجتماعات الشعراء أو في بلاط الملوك وقصور الأمراء ، أو حتى من خلال اجترار الأخبار القديمة عن أدب الأجيال السالفة .

وإذا كان لعصر الرشيد ميزة خاصة في هذا الميدان ، من بين ميزاته الكثيرة التي أُشبعت بحثاً في كتب التاريخ والتاريخ الأدبي ، فهي شيوع المتعة الأدبية والفكرية حتى ليخيّل إليك أنّها مطلب «الجماهير الشعبية» ، فضلاً عن كونها بغية النخبة[2] . وقد انغمس فيها كلّ عربي

---

1 يقول ناصر الدين الأسد : «ولقد كان انشاد الشعر وروايته دأب العرب في جاهليّتهم القريبة المتّصلة بمطلع الإسلام حتى ، حين كانوا ، وهم مشركون ، يحاربون رسول الله . فكانوا لا يكادون يجتمعون في مجلس ، أو يضمّهم ناد ، حتى يزجوا أوقاتهم بهذا الشعر ينشدونه . ومن أمثلة ذلك أنّ المشركين ، لمّا توجّهوا إلى بدر ، كان فتيان ممّن تخلّف عنهم ، سمار ، يسمرون بذي طوى حتى يذهب الليل ، يتناشدون الأشعار ويتحدّثون . .» (مصادر الشعر الجاهلي ص 215 «عن الواقدي») .

2 ننقل هذا المقطع المعبّر عن جرجي زيدان : «أهل هذا العصر بلغ من شغفهم بالشعر أنّهم نقشوه على جدران منازلهم وأنديتهم ، وعلى فصوص خواتمهم ، وكتبوه في صدور مجالسهم وعلى القباب والمستنظرات والأبواب . وطرّزوه على الستائر والطنافس والكلل والأسرّة ، والوسائد والمرافق والمقاعد ، وعلى القناني والأقداح والكاسات و الجامات وسائر آنية الفضّة والذهب والصيني . ونقشوه على العيدان والمضارب والسرنايات والطبول والمعازف والدفوف . وزيّنوا به الثياب : فطرّزوه على ذيول الأقمصة والأعلام ، وطراز الأردية والأكمام ، وعلى العصائب ومشادّ الطرر ، والزنانير والتكك ، والمناديل والمذابّ والمراوح ، حتى النعال والخفاف . وزيّنوا به مظاهر أبدانهم فكتبوه بالحناء على

وكل مستعرب ، وكلّ مسلم وكلّ من لم يسلم ، من فصح لسانه ومن لم يخل لسانه من لكنة[1] . ونحن نعرض ، فيما يلي ، وبشكل سريع جدّاً ، المستويات المختلفة لهذه المتعة الأدبية والفكرية . فالواقع أنّ هذا العصر قد وهب غير نخبة ممتازة في ميدان الفكر والأدب : فهو عصر التحقيق العلمي للفقه والحديث ، للشعر واللغة ، كان فيه أئمّة الاجتهاد : أبو حنيفة[2] والشافعي[3] ومالك[4] وابن حنبل[5] ، وعدد لا يُحصى من تلاميذهم ، وعدد كبير من القرّاء ورواة الأحاديث ؛ كلّهم كانوا يقرأون القرآن ويفسّرون ويحفظون الشعر ليستشهدوا به في الشرح والتفسير . ولكلّ شيخ من هؤلاء مجلس أو حلقة وفي كلّ حلقة جمهور يصغي وينصت ، يفهم ويقارن ويعترض ، أو ينتقل من حلقة إلى أُخرى . وليس غريباً ، في غمرة الجدّ والتركيز الفكري الذي يقتضيه البحث الفقهي ، أن يحتاج صاحب الحلقة إلى فسحة ، إلى ما يسرّي عن ذهنه ، وأن يجد ذلك في الشعر ينشده ، أو يستنشده ، فيحسّ له متعة فنيّة تجدّد نشاطه ، ويُسمعه عامة أهل الجدّ من المتحلقين حوله[6] .

وفي هذا العصر أيضاً ، كان تدوين اللغة . وفيه اتّضحت معالم مدرستي الكوفة والبصرة على

= الجبين والخدّ والأقدام والراح . ونقشوا به التفاح والأترج وغيرهما . فكنت ، حيثما توجّهت ، رأيت الشعر منقوشاً أو مطرّزاً أو مكتوباً أو منسوجاً» . (تاريخ آداب اللغة العربية العصر العبّاسي ص 55) .

1 على سبيل المثال ، لا الحصر ، ننقل عن ابن الأنباري أنّ هشيم بن بشير ، أبا معاوية صاحب كتاب «السنن في الفقه»، كان لحّانة . (نزهة الألباء في طبقات الأدباء ــ ص 87) وهشيم توفي عام 183هـ/799م ابن النديم ــ الفهرست ــ ص228) . وعن ابن الأنباري أيضاً ننقل قوله عن يحيى بن زكريا الفرّاء ، أحد أئمّة النحو ، «لولا الفراء لما كانت اللغة لأنّه خلصها وضبطها» . (نزهة الألباء ص 98) . ومع هذا ، يذكر القلقشندي «إنّ الفراء ، مع جلالة قدره وعلوّ رتبته في النحو ، دخل يوماً على الرشيد فتكلّم بكلام لحن فيه» . (صبح الأعشى ــ ج1 ص207) .

2 النعمان بن ثابت . لقي عدّة من الصحابة . من مؤلّفاته «الفقه الأكبر» توفّي 150هـ/767م (ابن النديم ، الفهرست ، ص 202) .

3 الإمام الفقيه أبو عبد الله محمد بن إدريس . توفّي 204هـ/–819م (تاريخ بغداد ، ج2 ص56) .

4 مالك بن أنس ، الإمام ، فقيه الحجاز . توفي 179هـ/795م (ابن النديم ، الفهرست ، ص199) .

5 الإمام أحمد بن حنبل . توفي 241هـ/855م عن تسع وسبعين سنة . (القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد . ص319) .

6 جاء عند ابن الانباري ، عن لسان روح بن عبادة ، «كنت عند شعبة فضجر من الحديث . فرأى أبا زيد بن أوس في أخريات الناس . فقال : يا أبا زيد : [من البسيط]

واستعجَمَتْ دارُ مَيٍّ مـا تُكَلِّمُنا   والدارُ ، لو كَلَّمتْنا ، ذاتُ أخبارِ

إليّ يا أبا زيد . فجعلا يتناشدان الأشعار . فقال بعض أصحاب الحديث لشعبة : يا أبا بسطام ، نقطع إليك ظهور الإبل لنسمع منك حديث رسول الله ، ﷺ ، فتدعنا وتقبل على الأشعار ؟ فرأيت شعبة قد غضب غضباً شديداً ثم قال : يا هؤلاء ، أنا أعلم بالأصلح لي» . (نزهة الألباء ص 127) .

يد فحول من أمثال أبي عمرو بن العلاء[1] ، والخليل بن أحمد[2] ، وأبي بشر سيبويه[3] وأبي زيد الأنصاري[4] ويونس بن حبيب[5] للبصرة ، ومن أمثال ابن الأعرابي[6] والفراء[7] وأبي عمرو الشيباني[8] وأبي جعفر الرؤاسي[9] للكوفة . وكلّ واحد من الشيوخ يحتج لمذهبه بآيات الكتاب وأشعار الجاهليين ، ويستعين بالرواة لشعر القبائل والاعراب الوافدين من البادية . والناس ، في الانتماء إلى المدرستين ، أشبه بالمنتمين إلى النوادي الرياضية في أيّامنا ، أو المحبّذين لأحد فريقين رياضيين متنافسين ، يتتبّعون عنهما الخبر والطرفة ، والكلمة والحادثة ، يروون ما يدور وما يقال ، يتحمّسون وينفعلون . ولعمري ، تلك قمّة المتعة الفنية .

والانتماء إلى أيّة مدرسة ، فقهية أو لغوية أو إخبارية ، هو انتماء جغرافي وفكري . فللعراق خطّه في الفقه المعتمد على الرأي ، ورائده أبو حنيفة ، بمقابل الحجاز وخطّه رواية الحديث ورائده مالك بن أنس . وللكوفة خطّها في اللغة ورواية الشعر وهو قبول ما يروى وينقل عن الأعراب ، بمقابل خطّ البصرة المعتمد على القياس والراغب في حذف الشاذ . والمعركة كبيرة ، وعلى جميع المستويات : بين الشيوخ ، كل يخطّىء نده ؛ بين تلاميذهم ، بين الاتباع وبين المؤيّدين : مدّ وجزر هائلان[10] .

---

1 اسمه زبّان . أخذ عنه الخليل ويونس بن حبيب واليزيدي . توفي 154هـ/770م (نزهة الألباء في طبقات الأدباء ص24) .

2 أبو عبد الرحمن الفرهودي . «سيد أهل الأدب قاطبة» وأوّل من استخرج العروض توفي 160هـ/776م (المصدر السابق ص 45) .

3 عثمان بن قنبر . أخذ عن الخليل بن أحمد . توفّي 188هـ/803م (المرجع السابق ص 66) أو 180هـ/796م (خزانة الحموي ج2 ص 15) .

4 سعيد بن أوس الأنصاري . تلميذ أبي عمرو بن العلاء . توفي 215هـ/830م (نزهة الألباء في طبقات الأدباء ص129) .

5 تلميذ أبي عمرو بن العلاء وأستاذ سيبويه . توفي 183هـ/799م . (المصدر السابق ص 49) .

6 محمد بن زياد . كان يحضر مجلسه زهاء مئة إنسان ، ويجيب من حفظه . توفي 231هـ/845م (ابن النديم – الفهرست ص 69) .

7 أبو زكريا ، يحيى بن زياد . صنّف كتاب «الحدود» باشراف المأمون . توفّي 207هـ/822م وكان يلقّب «أمير المؤمنين في النحو» (نزهة الألباء ص 101) .

8 إسحاق بن مرار الشيباني . جمع أشعار العرب في نيّف وثمانين مصحفاً بخطّه . توفي 206هـ/821م (المصدر السابق ص 94) .

9 محمد بن الحسن بن أبي سارة . كان أستاذ الكسائي والفراء . ولعلّه أوّل من وضع كتاباً في النحو من الكوفيين (المصدر السابق ص 54) توفي أيّام الرشيد . (معجم الأدباء ج18 ص 122) .

10 أورد الأصفهاني ما يلي : كان عتبة النحوي من أصحاب سيبويه يحدّث بالقرب من حلقة ابن مناذر ، فأخذ منه مستمعيه . فهجاه ابن مناذر بقصيدة مطلعها : [من مجزوء الرجز]

قوموا بنا جميعاً   لحلقة العذاري

(الأغاني ج18 ص 116) .

وفي هذا العصر كان تحقيق الرواية الشعرية وضبط الشعر القديم على يد نخبة من كبار الرواة من زعماء مدرستي البصرة والكوفة ، وفي مقدّمتهم : خلف الأحمر[1] والأصمعي[2] وأبو عبيدة[3] ، ومن إليهم ، بمقابل المفضل الضبي[4] والكسائي[5] والأحمر علي بن المبارك[6] ، وسواهم . ومعظمهم كان لهم حلقات وتلاميذ وجمهور يستمع إلى الشعر منهم ، أو إلى قراءة من أحد التلاميذ يصحّحها الشيخ ويعلّق عليها ويشرحها .

ولعلّ أجمل اللحظات الفنيّة هي لحظات يتصادم فيها قطبان من أقطاب اللغة والرواية ، فتدور بينهما معركة كلاميّة فكرية ، سلاحها رواية الشعر والقياس . . . ويحتدم الصراع . ونستطيع أن نتصوّر الجمهور في هذه اللحظات ينقسم جمهورين ، كل منهما متحمّس مترقّب يتابع النقاش ثم يهتف بنشوة الانتصار ، أو ينكفيء مخذولاً . كما نستطيع أن نتخيّل كيف تطير أخبار هذه المناظرات من حلقة إلى حلقة ، ومن مجلس إلى مجلس ، من دار إلى قصر ، حتى يدري بها القاصي والداني .

= ويروي المسعودي شعراً لكلّ من أنصار مدرستي الكوفة والبصرة في مدح محاسن مدينتهم وذم المدينة الأُخرى . (انظر مروج الذهب ــ دار الأندلس ــ ج3 ص 330) .

1 أبو محرز ، راوية علاّمة . أستاذ الأصمعي ومعلم أهل البصرة وأول من أحدث السماع فيها . (نزهة الألباء في طبقات الأدباء ص 58) توفي 180هـ/796م .

2 عبد الملك بن قريب ، أحد أئمّة مدرسة البصرة . «وكان اتقن القوم للغة وأعلمهم بالشعر وأحضرهم لفظاً . . . وكان صدوقاً في كلّ شيء ، من أهل السنة» (السيوطي المزهر في علوم اللغة وأنواعها ــ ج2 ص 250–252) اتّصل بالرشيد عام 173هـ/789م ولزمه في مجالسه وتنقلاته ، وتسلّم تأديب الأمين (التنوخي – الفرج بعد الشدّة ج2 ص 222) توفي 217هـ/833م (الفهرست ص 55) .

3 معمّر بن المثنّى ، مولى بني تميم . «قال أبو العبّاس : وقارب أبو عبيدة المئة . وكان غليظ اللثغة وله علم الإسلام والجاهلية ، وكان ديوان العرب في بيته . . . . . .» (الفهرست ص 53) قال الجاحظ : لم يكن في الأرض خارجي ولا اجماعي أعلم بجميع العلوم من أبي عبيدة . أقدمه الفضل بن الربيع من البصرة فأوصله إلى الرشيد . توفي 210هـ/823م . (ابن الأنباري ــ نزهة الألباء ــ ص 105–107) . وانظر ص 139 هامش 3 من البحث .

4 أبو عبد الرحمن ــ ظفر به المنصور ، ثم جعله يلازم المهدي . وللمهدي عَمِل الأشعار المختارة المسمّاة «المفضليات» . (الفهرست ــ ص 68) توفي 178هـ/794م .

5 أبو الحسن ، علي بن حمزة . أحد القرّاء السبعة ، وعلمه في النحو والقرآن دون الشعر (ابن خلكان ــ وفيات الأعيان ــ ج2 ص 3) . ضمّه الرشيد إلى ولديه ، الأمين والمأمون ، وكان معلّماً للرشيد ، وهو ولي عهد (تاريخ بغداد ــ ج11 ص 403) لازم بلاط الرشيد ، وصحبه ، شأنه شأن الأصمعي (أمالي الزجاجي ص 34) توفّي 189هـ/804م .

6 كان يؤدّب الأمين . اشتهر بالنحو واتّساع الحفظ ، وهو أوّل من دوّن عن الكسائي . كان يحفظ أربعين ألف شاهد في النحو . عاش عيشة الملوك بعد أن كان رجلاً من الجند على باب الرشيد . (بغية الوعاة ص 334) توفي 207هـ/822م (نزهة الألباء ص 97) .

وأخبار هذه المناظرات كثيرة[1] ، وكثيرة أيضاً هي الأشعار التي قيلت في التعليق عليها أو في فريق من المدرستين للآخر[2] واتّهامه إيّاه بقصر النظر . وهذا ، ما كان ليمنع أي قطب من الفريقين من أن يحزن لوفاة نظيره في الفريق الآخر ، وأن يرثيه . وكأنّ المعركة ، أوّلاً وآخراً ، معركة رياضيّة لا أكثر[3] .

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ جوّاً كهذا ، عبق به «الشارع العراقي» وانقسم له جمهور أهل العراق ، ما كان ليبقى بعيداً عن الدور والقصور . فكم من صاحب دار ومجلس جمع بين قطبين من أقطاب المعركة القائمة ، واستمتع بالتحدّي الذي ينشب بينهما[4] . حتى مجالس الرشيد تردد فيها

---

1 نروي ، على سبيل المثال . مناظرة جرت بين أبي عمر الجرمي ، من مشاهير البصريين وكان يلقّب بالنبّاح لكثرة مناظراته في النحو ورفعه صوته فيها ، وبين الفرّاء ، شيخ الكوفيين (وسيأتي ذكر المناظرة الشهيرة بين سيبويه والكسائي في حينه) . «قال سلمة : خرجت من منزلي فرأيت أبا عمر الجرمي واقفاً على بابي ، فقال لي : يا أبا محمد ، امض بي إلى فرّائكم هذا . فقلت له : امض . فانتهينا إلى الفرّاء ، وهو جالس على بابه يخاطب قوماً من أصحابه في النحو . فلمّا عزم على النهوض ، قلت : يا أبا زكريا ، هذا أبو عمر صاحب البصريين . تحبّ أن تكلّمه في شيء ؟ فقال : نعم . ما يقول أصحابك في كذا وكذا ؟ قال : كذا وكذا . فقال : يلزمهم كذا وكذا ويفسد من جهة كذا وكذا . قال فألقى عليه مسائل وعرّفه الالزامات فيها . فنهض وهو يقول : يا أبا محمد ، ما هذا إلاّ شيطان ، يكرّر ذلك ثلاثاً» . (نزهة الألباء في طبقات الأدباء ص 102) وفي مناظرة أُخرى لهما ، يجمع بينهما ابن قادم ، فيفحم الجرمي الفراء . فيقول ابن قادم : «ندمت على ذلك» . فيسأله ثعلب : لماذا ندمت ؟ فيجيب : «لأنّ علمي علم الفرّاء ، فلمّا رأيته مقهوراً قلّ في عيني ، ونقص علمه عندي» . (المصدر السابق ص145) .

2 على سبيل المثال ، أيضاً ، نسوق هذا الخبر عن ابن الأنباري : «حكى التوزي قال : قلت لأبي زيد الأنصاري : إنّ أبا عمرو الشيباني ينشد : بساباط وهو مُحَرْزَق ، وأنتم تقولون محزرق . فقال : هذه لغة نبطية . وأم أبي عمرو نبطية ، فهو أعلم بها منّا» . (المصدر السابق ص 96) ولأبي محمد اليزيدي ، يمدح نحويي البصرة ويهجو نحويي الكوفة ، من قصيدة طويلة : [من السريع]

يا طالبَ العِلمِ ، ألا فابكِهِ ... بعدَ أبي عَمرٍو وحمّادِ
أنشدَهُ قومٌ وأَزْرَوا بهِ ... ما بينَ أعبامٍ وأوغادِ
لهم قياسٌ أحدثوه لهمْ ... قياسُ سُوءٍ غيرِ مُنقادِ

ومن قصيدة أُخرى : [من السريع]

إنّ الكسائيَّ وأصحابَهُ ... يَرقَوْن في النحو إلى أسفَلِ

(نزهة الألباء ص 83) .

3 لليزيدي نفسه ، في رثاء الكسائي الذي مات يوم مات محمد بن الحسن الفقيه : [من الطويل]

وأقلقني موتُ الكسائيّ بَعدَهُ ... وكادَتْ بِيَ الأرضُ الفضاءُ تَمِيدُ
وأذهَلني ، عن كلِّ عَيشٍ ولَذَّةٍ ... وأرَّقَ عيني ، والعيونُ هُجودُ

(المصدر السابق ص 83) .

4 من ذلك أنّ سعيد بن سلم الباهلي ، أحد المتأدّبين ، وممّن ولوا الأعمال للرشيد ، له مجلس اجتمع فيه الأصمعي وأبو عمرو الشيباني» فأنشد الأصمعيّ بيت الحارث بن حلزة : [من الخفيف]

صدى هذه الحرب المعلنة . والأمر طبيعي طالما أنّ الرشيد يجمع في بلاطه أقطاباً من الكوفة والبصرة .

في هذا العصر كان عدد من الشعراء هم نخبة في الابداع الفنّي ، في ارتجال النظم وفي انشاده بعد صناعته ، تميّزوا بحبّ الحياة أو الزهد فيها ، طاوعتهم سليقة متوفّزة فجاءهم الشعر منقاداً ليعبر عن حبّهم ذاك للحياة ، أو عن زهدهم هذا في متعها ، فصوّروها في مظاهرها المختلفة . هؤلاء الشعراء كان منهم من اختصّ شعره بالجدّ كإبراهيم بن سيار النظام (ت221هـ/835م) الذي تحول إلى الاعتزال ، ومروان بن أبي حفصة ، ومنصور النمري وكلثوم العتابي والعماني وسلم الخاسر وبكر بن النطاح (ت 192هـ/807م) وسواهم . وكان منهم من قصر شعره على الغزل كالعبّاس بن الأحنف (ت 189هـ/804م) . ومنهم من نظم معظم شعره في اللهو والمجون كأبي نواس (ت 195هـ/810م) وإسماعيل القراطيسي والحسين بن الضحاك (ت 250هـ/864م) ووالبة بن الحباب وعلي بن الخليل ومطيع بن اياس (ت169هـ/785م) وغيرهم كثير . هؤلاء الشعراء كانوا تحفة ذلك المجتمع وبهجته : يقولون الشعر فيطير على الأفواه ويرويه الجاد[1] والهازل من الناس ، أيّاً كان

= عَنَناً باطـلاً وظُلمـاً كما تُعْـــ ـــنَزُ عَـنْ حَجـرَةِ الرَبيضِ الظِباءُ

فقال أبو عمرو للأصمعي : ما تُعنز ؟ فقال : معناه تنحّى ، ومنه قيل : العنَزَة . ويروى أي تضرب بالعَنَزة ، وهي العصا . فقال أبو عمرو : الصواب : تُعتر عن حجرة الربيض الظباء ، أي تُنحر . فصاح عليه الأصمعي ، فقال أبو عمرو : والله لا ترويها ، بعد اليوم ، إلا تعتر ، كما قلت لك . . . . . فقيل لأبي عمرو : ظفرت به فاحترز منه . فقال الأصمعي : ما تقول في قول الشاعر : [من الطويل]

وضَربٍ كآذان الفِـراء فُضولُـهُ وطعـنٍ كايزاغِ المَخاض تَبورُها

ما أراد بالفِراء . فقال : أبو عمرو : ما نحن عليه . وكانا جالسين على فرو . فقال له : اخطأت ، إنّما الفِراء جمع فَرأ ، وهو حمار الوحش (نزهة الألباء ص 94) . . . وهناك مناظرة شهيرة بين الأصمعي والمفضّل الضبّي جرت عند سليمان بن علي الهاشمي (حسب ابن الأنباري) أو عند جعفر بن سليمان الهاشمي (حسب الجاحظ) فقد أنشد المفضل قول أوس بن حجر : [من المنسرح]

وذاتِ هِـدْمٍ عـارٍ نواشِرُهـــا تصمِتُ بالمـاء تَولبـاً جَدَعـا

ففطن الأصمعيّ لخطئه ، وكان أحدث سنّاً منه ، فقال : إنّما هو تولبا جدَعا ؟؟ وأراد تقريره على الخطأ . فلم يفطن المفضل لمراده ، فقال : كذلك أنشدته . فقال الأصمعي حينئذٍ : إنّما هي تولباً جدِعا . وفي الجدِع يقول ابن زبيد : [من البسيط]

ثم استَقاهـا فلم يَقطَـع نَظائِمَها عن التصبُّب لا عَبْلٌ ولا جَـدِعُ

وإنّما ذلك كقول ابن حبناء الأشجعي : [من الوافر]

وأرسَلَ مُهمَـلاً جَدِعـاً وخُفّـاً ولا جَـدِعُ النبـاتِ ولا جَديـبُ

فنفخ المفضل ورفع بها صوته وتكلّم وهو يصيح . فقال الأصمعي : لو نفخت بالشبّور لم ينفعك . تكلّم بكلام النمل وأصبْ . (الحيوان ج4 ص 25 ونزهة الألباء ص 57) .

1 يروي ابن تغري بردي عن عبد الله بن المبارك الذي جمع الحديث والفقه والعربية وأيّام الناس أنّه كان يقرض الشعر الرقيق (النجوم الزاهرة ج2 ص 103) ويسمّيه البغدادي : «أمير المؤمنين في الحديث» (تاريخ بغداد ج1 ص156)

نمطه . ويجتمعون فيرتجلون أو يتناشدون[1] ، فتكون ملح وتكون فكاهات لا تلبث أن تسترقها أذن الرقباء لتذيعها فتنتشر بين الناس ، ناراً في هشيم[2] .

وللإنسان العادي في هذا العصر أن يحضر حلقة الشيخ أو الراوية أو اللغوي أو المتكلّم وقد يسعفه الحظّ بالاستماع إلى شاعر يُنشِد ، أو إلى من يروي ما سمع في مجالس الشعراء ، فيعج ذلك المجتمع كلّه ، في هذا كلّه ، بالمتعة الأدبية والفكرية[3] . وتذوق الأدب ، بالنسبة للفرد العادي ، كان

= ويصفه ابن عبد ربّه بأنّه «صاحب الرقائق (الأشعار الرقيقة) . وقال حيان : خرجنا مع ابن المبارك مرابطين إلى الشام . . . قال : فبينما هو يمشي ، وأنا معه ، في أزقّة المصّيصة ، إذ لقي سكران قد رفع عقيرته يتغنّى ويقول : [من الوافر]

أذَلَّني الهَـوى فأنـا الذّليـلُ وليسَ إلى الذي أهوى سبيلُ

قال : فأخرج برنامجاً من كمّه ، فكتب البيت . . .» (العقد الفريد ج5 ص 285) .

1 عن ابن تغري بردي : «قال خلف بن المثنى : كان يجتمع في البصرة عشرة في مجلس لا يعرف مثلهم : الخليل بن أحمد ، صاحب العروض ، سني ، والسيد الحميري الشاعر ، رافضي ، وصالح بن عبد القدوس ، ثنوي ، وسفيان بن مجاشع ، صفري ، وبشار بن برد ، خليع ماجن ، وحماد عجرد ، زنديق ، وابن رأس الجالوت الشاعر ، يهودي ، فيتناشد الجماعة أشعاراً وأخباراً . فكان بشّار يقول : أبياتك هذه ، يا فلان ، أحسن من سورة كذا وكذا . وبهذا المزاح ونحوه كفّروا بشّاراً» . (النجوم الزاهرة ج2 ص 29) ويروي ابن الجراح قصّة مجلس حضره زرزر الرفّاء ووالبة بن الحبّاب وعلي بن الخليل وجماعة من شعراء بغداد . فقال كل واحد منهم شعراً يعرض على أصحابه منزله وما عنده لهم . . . (الورقة ص 23) وقد يكون الاجتماع على خمر ، أو في أحد دكاكين الوراقين . فقد جاء عند ابن المعتزّ : «أخبرني ابن شقيقة الوراق ، قال : كان يجتمع الشعراء في دكان أبيه ببغداد» (طبقات الشعراء ص307) . ويروي ابن نباته عن علي بن الجهم : «كان الشعراء يجتمعون ، في كلّ جمعة ، في القبة المعروفة بهم بجامع بغداد ، ينشدون الشعر ويعرض كلّ منهم على أصحابه ما يكون قد نظمه بعد مفارقتهم في الجمعة التي قبلها . فبينا أنا في جمعة من تلك الجمع ، ودعبل وابن أبي الشيص وابن أبي فنن ، والناس مجتمعون يسمعون انشاد بعضهم بعضاً . . .» (سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ص 325) ويقول ليسترنج : «كان باب الطاق ، على الجسر ، يشكل ، غالباً ، ملقًى للشعراء العاملين على ادخال المتعة إلى قلب الرشيد : يقومون هناك بانشاد أشعارهم ، قبل الوصول إليه . من هنا أصبح المكان يعرف باسم «مجلس الشعراء أو منتدى الشعراء» Le Strange Bagdad during the Abbaside Caliphate (Oxford 1900), p, 218 .

2 يروي البغدادي تفاصيل مجلس اجتمع فيه أبو العتاهية والعباس بن الأحنف وبكر بن النطاح ومنصور النمري والعتابي . وفي نهاية وصفه يقول : «وبلغ إسحاق الموصلي خبرنا فقال : اجتماع هؤلاء ظرف الدهر» (تاريخ بغداد ج7 ص 91) . وأخبار هـذه المجالس كثيرة جـداً ، منثورة في كتب التاريخ واللغة والأدب .

3 نلفت النظر إلى الخبر المذكور أعلاه عن اجتماع الشعراء دورياً في مكان معيّن معروف لهم ولاجتماعاتهم هو قبتهم في جامع بغداد . ومجلسهم هو مباراة عامّة مفتوحة لمن يريد من السامعين والمشاهدين . وهو معرض فنّي ، بكلّ معنى الكلمة ، لانتاج الشعراء خلال اسبوع . وكأنّني بسوق عكاظ قد تجزّأت وتكرّرت وأصبحت ضرورة أسبوعية لا حولية .

متعة بالمَجان . ولئن لم تفد هذه المتعة صاحب الحلقة إفادة مادّية (باستثناء ما قد يأتيه ، ويقبله ، من هدايا مريديه)[1] فهي ، بالنسبة إليه ، طريق الشهرة والمجد والنفوذ الديني والاجتماعي[2] ، مما يهيئه ، لو أراد قلب الصفحة الاجتماعية ، لأن يغرد في بساتين الدور والقصور . وكثيرون أرادوا .

أمّا الدُور[3] التي قامت فيها مجالس أدبية أو فكرية ، فهي على أنواع : منها دور شعراء أو مطربين بلغوا ، بالشعر ، ثراء فحلّقوا في أجواء العيش الرخي الهنيء ؛ فتحوا أبوابهم لزملائهم الشعراء أو المطربين ، يأنسون بهم ويتبادلون وإياهم أخبار نجاحهم ونتاج قرائحهم ، ويصبحون حلقة وصل بين القصور التي يغشونها وبين الأدباء الذين لم يُذلّ لهم الحظّ عنانَه[4] . ويحقّ لنا الاعتقاد أنّ ما كان يجري في القصور من طُرف ونوادر ، وما ينصبّ فيها من مجاري التنافس على الابداع الفنّي ، وما يُنقل إليها من أخبار ، إنّما يجد طريقه ، من خلال مجالس الدور ، إلى الناس العاديين الذين سبق لنا وصف عطشهم إلى المتعة الأدبية ، العطش

---

1 ذكر ابن الأنباري ، عن لسان أبي العبّاس المبرّد ، أنّ رجلاً كان يألف حلقة الأصمعي فإذا صار إلى ضيعته أهدى إلى الأصمعي ممّا يحمل منها . فترك حلقة الأصمعي وألف حلقة أبي زيد . وكان أبو زيد لا يقبل شيئاً . قال : فمرّ الرجل يوماً بالأصمعي فأنشده الأصمعي للفرزدق : [من الطويل]

وَلَجَّ بِكَ الهِجرانُ حتى كأنّما ... ترى الموتَ في البيتِ الذي كنتَ تألَفُ

(نزهة الألباء في طبقات الأدباء ص 120) .

2 ويذكر ابن الأنباري أيضاً ، في حديثه عن محمد بن سلاّم ، أنّه «اعتلّ علّة شديدة فما تخلّف أحد . وأهدى إليه الاجلاّء أطباءهم . فكان ابن ماسويه في جملة من أُهدي إليه» (المرجع السابق ص 157) .

3 نستعمل كلمة «دور» هنا بمعناها العام الدال على المنازل الكبيرة ، ويمكننا قبولها مرادفاً لكلمة «Villas» الأجنبية (انظر قاموس المنهل) . هذا مع العلم أنّ كلمة «دور» (وهي جمع دارة» استعملت ، أيّام الرشيد ، للدلالة على منازل البرامكة خاصة . فيقول دومينيك سورديل : «هناك (أي في حيّ الشماسية) ، راحوا بالفعل يقيمون معظم قصورهم المترفة التي عرفت باسم (الدور)» Dominique Sourdel ARABICA Volume spécial (Bagdad) . Leiden 1962, p. 256

4 يذكر أبو الفرج الأصفهاني ، في حديثه عن إسماعيل القراطيسي ، أنّه «كان مألفاً للشعراء . فكان أبو نواس وأبو العتاهية ومسلم وطبقتهم ، يقصدون منزله ويجتمعون عنده ويقصفون ، ويدعو لهم القيان وغيرهنّ من الغلمان ، ويساعدهم . . .» (الأغاني ج23 ص 72) . ويقول أبو هفان : «حُدثت ان أبا نواس وعلي بن خليل ، مولى يزيد بن مزيد الشيباني ، وإسماعيل القراطيسي ورزين الكاتب ، اجتمعوا في سوق الكرخ ، فتذاكروا الأدب وتفنّنوا في أنواع العلم ووجوهه . فلمّا اشتدّ الحرّ ومسّهم الجوع قالوا : أين نحن اليوم ؟ فقال كلّ : عندي . فقال علي بن الخليل ، وكان أسنّهم : ليصف كل رجل ما عنده . فأيّنا نزعت الأنفس إلى ما عنده صرنا إليه . . . .» (أخبار أبي نواس ص 85) . كما يحدّثنا ابن عبد ربّه عن يحيى بن محمد ، أنّه قال : «قال لنا إبراهيم (الموصلي) : تصيرون إلى منزلي ؟ قال : فانصرفنا معه . قال : فدخلت داراً لم أرَ أشرف منها وأوسع . وإذا أنا بأفرشة خزّ مظهّرة بالسنجاب . . . .» (العقد الفريد ج6 ص32) .

الذي يغلفه ، هنا ، حبّ الاستطلاع الطبيعي ، لدى مجتمع العامة ، لما يجري خلف أسوار النخبة . فنراهم يترقّبون هذه الأخبار ويتلقفونها بتقدير واحترام حينا[1] ، بشماتة ، حيناً آخر ، وبنقمة وحسد ، مرّة ثالثة ، لأنّ رواية الخبر لا تخلو ، عادة ، من وصف مُتعٍ للعيش ماديةٍ يظفر بها قلّة ليسوا دائماً مستحقّيها الوحيدين[2] . . . ومن الدور ما هي أقرب إلى القصور يملكها سراة تسامى منبتهم ، أو علت وظائفهم ، وهم ، بالسليقة ، أدباء أو شعراء أو متأدّبون ، حصّلوا العلم ورووا الشعر أو قرضوه ، وإن لم يحترفوه . هؤلاء دانت لهم سبل العيش الهنيء ، فحقّ لهم أن يتذوّقوا المتع ، بل أن يغرفوا منها . وما كانوا يقصرون في اجتناء المتعة الفنيّة ، وإلاّ عُدّوا متخلّفين ، في عصر أسكره الفن وتعاطي الفكر والأدب . فتراهم يتّخذون المجالس في دورهم ، يصدرون أحكاماً على الشعر أو يناظرون فيه ويفاضلون بين الشعراء[3] ، يتمتّعون بما يقال أمامهم وفيهم ، ويباهون بذلك أقرانهم كما تبتهي الأنثى الجميلة

---

1 قال ابن الأنباري : «لما خُبِّر أبو نواس بأنّ الخليفة يجمع بين الأصمعي وأبي عبيدة ، قال : أمّا أبو عبيدة فعالم ما يزال مع أسفاره يقرأها . والأصمعيّ بمنزلة بلبل في قفص يسمع من أنغامه لحوناً ويُري ، كلّ وقت ، من ملحه ، فنوناً» . (نزهة الألباء ص 109) .

2 يروي البيهقي عن مسلم بن الوليد ، قبل اتّصاله بالرشيد ، قوله : «إنّ نفسي تذوب حسرات من أنّه يحوي خزائن الخلفاء من لا يقاربني في أدب ، ولا يوازيني في نسب ، ولا يصلح أن يكون شعره خادماً لشعري» . (المحاسن والمساوىء ج1 ص 181) أمّا ابن المعتزّ ، فيروي عن أبان اللاحقي أنّه ، لمّا قال قصيدته الحائية التي يصف فيها نفسه ويلفق فيها ، عند جعفر بن يحيى ، وهي هذه القصيدة : أنا من حاجة الأمير . . . . وبلغ أبا نواس هذه القصيدة ، قال : والله لأعرّفنّه نفسه . وأنشأ يقول :

إنَّ أولى بِخِسَّةِ الحَظِّ منِّي   لَلْمُسمَّى بالبُلْبُلِ الصَدّاحِ . . . .

(طبقات الشعراء ص 203) ويروي الأصفهاني أنّ محمد بن كناسة كان يلوم من يطلب إليه الاتّصال بالسلطان (الأغاني ج13 ص 342) .

3 من أشهرهم أبو دلف العجلي ، وكان سريّاً ، سخيّاً ، قائداً شجاعاً . من أبرز مادحيه علي بن جبلة ، وقد سارت قصيدته الغرّاء فيه بين العرب والعجم ، ومنها : [من الخفيف]

إنّما الدنيا أبو دُلَفٍ   بينَ باديهِ ومُحتَضَرِهْ
فإذا ولّى أبو دُلَفٍ   وَلَّتِ الدُنيا على أثَرِهْ

(طبقات ابن المعتزّ ص 171) وكان أبو دلف يساجل الشعراء ويجيز أبياتهم . (المصدر السابق ص 170) . ومن مادحيه أيضاً بكر بن النطاح . وغالباً ما كان أبو دلف يثيب بسخاء على القصائد التي تقال فيه أو له . وقد أثاب علي بن جبلة على قصيدته السابقة بوصيف وألف دينار ، وبأبيات منها : [من الطويل]

وزوّدْتُهُ مالاً يُرَجَّى نفادُه   وزَوَّدَني مَدْحاً يُقيمُ على الدَّهرِ

(المصدر السابق ص 171) .

ومنهم أيضاً مالك بن طوق التغلبي . وكان صاحب مجلس دونه الحرّاس والحجّاب . ويروي الحصري عنه أنّه

بما تحوزه من أسباب الأناقة . وقد أصبحت هذه المباهاة أحد طوابع العصر ، لا تقتصر على أن يتباهى صاحب المجلس بشعرائه ، والشاعر بشعره ، بل تعدّت ذلك إلى المباهاة بمقدار التحصيل من معرفة وحفظ . فتأخذهم العزّة بإظهار ما حصّلوه ، وبما يروونه من أخبار وأشعار ، تزداد بها قيمتهم الاجتماعية ، ويرتفع وزنهم في ميزان التأدب بمقدار ما تكون معارفهم نادرة غريبة[1] . حتى بات الإنسان الذي لم يحفظ الأشعار أو يرو الأخبار أو ينتم إلى مدرسة في اللغة أو الحديث ، الفقه أو الكلام ، غريباً عن ذلك العصر . بل ، لو ان إنساناً أراد العزلة فعلاً لصعب عليه ذلك لأنّ تيّارات الانتماء عنفت وقويت وصار من الصعب تلافيها[2] .

ومع ذكر المجالس ، نعطي لمحة سريعة عن دُور النخاسين ومنازل أصحاب القيان . فهذه الدور والمنازل هي ، في نظر بعضهم ، مركز انحراف ، وبؤرة للفساد الاجتماعي ، بينما كانت ، بالفعل ، في بعض الأحيان ، مراكز ابداع فنّي وأدبي ، إذ استطاع بعض أصحابها أن يرقوا بها ، عن طريق قيان عُلّمن وأُدّبن[3] فأحسنّ سياسة الرجال وتطويع عواطفهم ، فباتت (أي الدور) منتديات أدبية يلتقي

= اشترى من أعرابي مدحه ، قبل أن يسمعه ، بألف درهم . فلمّا سمعه قال له : «قد ، والله ، ظفرنا يا أعرابي ، ورزقنا الفَلْج عليك . والله ما قيمتها إلاّ عشرة آلاف درهم» . لكنه عاد فزاد له جائزته . (جمع الجواهر ص 339) .

ومنهم حميد الطوسي . وقد رفض قبول المديح من علي بن جبلة ، بعد قصيدته المشهورة في أبي دلف ، فقال فيه علي قصيدة مشابهة . وحين أنشده علي قصيدة في يوم نيروز عدّها أجمل هديّة قدّمت إليه . (طبقات ابن المعتزّ ص 178 وابن خلكان ـ وفيات الأعيان ج2 ص 37 وما بعد) .

ومنهم داود بن حاتم المهلبي . وكان يجلس للشعراء مجلساً واحداً في السنة (الأغاني ج18 ص 326) .

ومنهم عمر بن العلاء . مدحه أبو العتاهية «فأمر له بسبعين ألف درهم . فأنكر ذلك بعض الشعراء وقال : كيف فعل هذا بهذا الكوفي ، وما مقدار شعره ؟» فكان تبرير ابن العلاء أنّ أبا العتاهية قصد مباشرة إلى المديح بشعره ، وكان كلّه مدحاً ، بعكس سائر الشعراء الذين يستنفدون القصيدة بالمقدّمات ، ثم يتناولون المديح بالبيت أو البيتين . (الأغاني ج4 ص 40 وزهر الآداب ج2 ص 344) .

1 ممّا يفتخر به أبو نواس قوله الذي رواه ابن المعتزّ والخطيب البغدادي : «ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب ، من بينهن الخنساء وليلى . فما بالك بالرجال ؟» وفي مرّة أُخرى : «احفظ سبعمئة أرجوزة ، وهي عزيزة بين أيدي الناس ، سوى المشهور عندهم» . (طبقات الشعراء ص 194 و201 ـ وتاريخ بغداد ج7 ص 437) .

2 يذكر الأصفهاني عن ابن مناذر قوله : «ولع بي قوم من المعتزلة ففرقتُ منهم . . . . فقلت أبياتاً حضضت بها بني رياح : [من الكامل]

أيـن الرياحيُّـونَ ؟ لَم أرَ مِثلَهـــم — في النائباتِ ، وأينَ رَهْطُ وَكيعِ ؟ . . .

قال : فجاء خمسون من شيوخ بني رياح فطردوهم عنّي . .» (الأغاني ج18 ص 104 وما بعد) .

3 يذكر الحصري أنّ إبراهيم الموصلي كان يعلّم القيان الغناء والشعر ، ممّا يغلي ثمنهن ويرفع قدرهن ، فيصعب على الشعراء ادراكهن . قال اللاحقي ، معرّضاً : [من الخفيف]

لا جَـزَى اللهُ الموصِلِـيَّ أبـا إسـ — ـحقَ ، عنّـا ، خَيـراً ولا إحسانـا

فيها الشعراء ، يتنافسون على مرأى من الجواري الحسان ، أو يطارحون ذوات العيون النجل رقيق الغزل ومكشوفه ، ويسلّمون سلاحهم غالباً . . حول هؤلاء القيان نما وترعرع أدب خاص ، وإلى دور أصحابهنّ تردد كثير من الأشراف والكتّاب[1] وأصحاب المراكز الرفيعة في الدواوين ، وكذلك الشعراء على اختلاف فحولتهم[2] . ولعلّ من أطرف ما كان يجري في هذه الدور ، تعرّض الشعراء لأصحاب القيان ، باللوم تارة أو بالسبّ ، وبالمدح تارة أُخرى ، كمنطلق لذكر جواريهم[3] ولإيصال

= جاءنا مُرسَلاً بوحيٍ من الشيطـ ـانِ أغلى به علينا القِيانا
مِنْ غِناءٍ كأنَّهُ سَكَراتُ الحُـ ـبِّ يُصغي القلوبَ والآذانا
(جمع الجواهر ص 321) .

1 الأغاني ج15 ص 46 و47 .

2 من هذه الدور دار الناطفي وجاريته عنان . ويصف الأصفهاني عنان بأنّها كانت جارية مولدة من مولدات اليمامة وبها نشأت وتأدّبت . فاشتراها الناطفي وربّاها وكانت صفراء جميلة الوجه ، شكِلة ، مليحة الأدب والشعر ، سريعة البديهة . وكان فحول الشعراء يساجلونها ويعارضونها فتنتصف منهم (الأغاني ج22 ص 521) . ولها أخبار ومناظرات مع أبي نواس وأبي حنش ومروان بن أبي حفصة وابن الأحنف وسواهم . ويذكر أبو هفان تفصيلاً لأحد المجالس الأدبية بين عنان وداود بن رزين الخزاعي وأبي نواس والحسين بن الضحاك وعمر الورّاق وحسين بن الخيّاط ، في منزل عنان ، اختتم بارتجال شعري لكلّ منهم (أخبار أبي نواس ص 79) .
ـ ومنها دار محمد بن كناسة الذي يذكر له الأصفهاني «جارية مغنّية يقال لها دنانير . وكان أهل الأدب وذوو المروءة يقصدونها للمذاكرة والمساجلة في الشعر» . (الأغاني ج13 ص346) . وانظر في تفاصيل عن القيان المثقفات والشواعر : (جبور عبد النور ـ الجواري ـ ص 61 وما بعد) .

3 من النخاسين المشهورين أبو عمير . وكان بالكرخ ، كما يذكر الأصفهاني «وكان له جوار قيان لهن ظرف وأدب . . . وكان عبد الله بن محمد البواب يألف جارية منهن يقال لها عبادة ، ويكثر غشيان منزل أبي عمير من أجلها . فضاق ضيقة شديدة ، فانقطع عن ذلك . . . . ثم نازعته نفسه إلى لقائها وزيارتها . . . فأتاه فأصاب في منزله جماعة ممّن كان يألف جواريه . . . فقال : [من الخفيف]
لو تَشَكّى أبو عُميرٍ قليلاً لأتيناهُ مِنْ طريقِ العيادةْ
فَقَضَينا من العيادةِ حَقّاً ونَظَرنا في مُقلَتَي عبّادةْ
فقال له أبو عمير : ما لي ولك يا أخي ؟ انظر في مقلتي عبادة متى شئت ، غير ممنوع ، ودعني أنا في عافية . . .» (الأغاني ج22 ص 451) .
ـ ومن النخاسين الذين يذكرهم الأصفهاني أيضاً : حرب بن عمرو الثقفي «وكانت له جارية مغنّية . وكان الشعراء والكتّاب وأهل الأدب ببغداد يختلفون إليها ، يسمعونها وينفقون في منزله النفقات الواسعة ، ويبرونه ، ويهدون إليه» . وفيه يقول أشجع السلمي : [من السريع]
أشكو الذي لاقيتُ من حُبّها وبُغضِ مولاها إلى الربِّ
تَعجَّلَ اللهُ شِفائي بها وعَجَّلَ السقمَ إلى حَربِ
(الأغاني ج18 ص 177) .

عواطفهم إليهن .

أمّا القصور فإنّها صفحة أُخرى سطرت فيها أخبار البلاطات الحقيقية والمجالس الأدبية المرتبطة ، في الأذهان ، بعالم النخبة . وهذه المجالس تختلف عن التي سبق ذكرها في نقطتين مهمّتين : أولاهما أنّ صاحب القصر يعيش حياة خاصة ، لا يختلط بمجرى الحياة الشعبية . وهو ، عادة ، خليفة أو وزير أو أمير هاشمي ، أو قائد خطير ، إذا خرج من قصره سار في موكب حوله الخدم والحرّاس . . . ومع هذا فإنّ حياة الناس العاديين ليست بعيدة عنه ، تصل إليه من خلال جلسائه ، فيكون بلاطه نافذة يطلّ منها على عصره[1] ، وهي ، في الوقت نفسه ، شرفة يراه منها أهل عصره بطلاً لحادثة أو موضوعاً لخبر ، صاحب توقيع بليغ أو خطبة أو عظة ، أو هدفاً لقصيدة مدحيّة . وهذا يولد حرارة في التنافس القائم بين أصحاب المجالس[2] ، ويرفع من حمى تباهيهم بمن يؤمّها من شعراء وأدباء ومفكّرين وبما يقال فيها[3] . فالناس ، خارج البلاط ، يتمتّعون بسماع أخباره ، يتنادرون بما يجري فيه من طُرَف قولاً أو فعلاً ، ويروون ما أُنشد فيه من أشعار . فكأنّ البلاطات هي الوارثة الحقيقية للأسواق الأدبية ، متحوّلة بها من «الجفلى» إلى «الانتقار» . (على صعيد الرقعة الجغرافية لا على صعيد الجمهور) .

وهذه الأهميّة التي تأخذها البلاطات الأدبية توصلنا إلى ثانية النقطتين ، التي تعطي هذه

---

1 ممّا قاله ابن خلدون عن الخلفاء : «تقرّب إليهم العرب بأشعارهم ، يمتدحونهم بها ويجيزهم الخلفاء بأعظم الجوائز ، على نسبة الجودة في أشعارهم ومكانهم من قومهم ويحرصون على استهداء أشعارهم يطّلعون منها على الآثار والأخبار واللغة وشرف اللسان . والعرب يطالبون ولدهم بحفظها . فلم يزل هذا الشأن أيّام بني أميّة وصدراً من بني العباس» . (المقدّمة ج4 ص1314) .

2 يحدّثنا الأصفهاني عن منافسة خفيّة كانت بين بلاطي جعفر والفضل البرمكيين ، من ملامحها أنّ أنس بن أبي شيخ ، صاحب جعفر ، أغرى أشجع السلميّ بالاتّصال بجعفر . فدخل إليه وأنشده ونال منه عشرة آلاف درهم . ولم يلبث إلاّ أيّاماً حتى لقي المبارك مؤدّب الفضل فأغراه بالاتّصال به . فدخل إليه فأنشده . فسأله الفضل : كم أعطاك جعفر ؟ فأجابه : عشرة آلاف درهم . فقال الفضل : أعطوه عشرين ألفاً . (الأغاني ج18 ص 149) . وتظهر المنافسة أيضاً في تحاسد الممدوحين على المعاني التي تقال فيهم . وهذا يتجلّى فيما رواه الأصفهاني من أنّ يزيد بن مزيد قال : ما حسدت أحداً قطّ على شعر مدح به إلاّ عاصم بن عتبة الغسّاني . فإنّي حسدته على قول سلم الخاسر فيه : [من المجتث]

لعاصِمٍ سماءٌ عارِضُها تَهتانُ . . . (الأبيات)

(الأغاني ج19 ص 222) .

3 ويتجلّى هذا بشكل خاص في انقطاع بعض الشعراء إلى ممدوح معين لا يكاد يغيّره . وقد أورد الأصفهاني مثلاً على ذلك حين قال : «كان الفضل الرقاشي منقطعاً إلى آل برمك ، مستغنياً بهم عمّن سواهم . وكانوا يصولون به على الشعراء ويروّون أولادهم أشعاره . . . ونشر محاسنهم وجودهم ومآثرهم فأفرط ، حتى نشر منها ما كان مطويّاً ، وأذاع منها ما كان مستوراً . . .» (الأغاني ج16 ص 180) .

المجالس مفهومها الخاص ، وهي أنّها ترتبط بإرادة صاحب البلاط ، في انعقادها وانفراط عقدها . بإرادته يديرها ، وهو يختار موضوعاتها ويحدّد سننها ؛ بما يناسب ذوقه يتحدّث الجلساء ، وبظروف اللياقة التي يريد وبمستواها ، يتصرّفون . وكثيراً ما يكون هو محور المجالس ، فتدخل كرامته في ميدان منافسة مع بلاطات أُخرى ، ويكون عليه أن يبذل ويبذل لرواد مجلسه . فالفراش يجتمع على النور ويفرّ من الظلام ، وعطاء أصحاب المجالس يغدو أحياناً بلا حدود : يرقى صعداً من مجالس الأمراء إلى قصور الوزراء ، فإلى بلاط الخليفة[1] . وهو أيضاً نسبي ، قاعدته الدائمة : أنّ مقدار الثواب هو بمقدار المتعة التي يحدثها القائل في نفس صاحب المجلس ، وما يلامس في قلبه وفكره من أوتار . هكذا يصبح صاحب المجلس ، من نفسه في جمهور . وهكذا يطبع ، بشكل أو بآخر ، ما يتداول في مجلسه من أدب بطابعه . وهذه طبيعة أدَب التكسّب في كلّ عصر ومكان .

1 ذكر الطبري أنّ ابن السماك وعظ الرشيد ، فأمر له بمال رفض ابن السماك أخذه ، زهداً . فقال الرشيد مشيراً إلى حتميّة عطائه : «من عادتنا أنّه لا يخاطب الخليفة أحد ليس من أوليائه ولا أعدائه ، إلاّ وصله ومنحه» . (الطبري ج8 ص 359) ويروي الأصفهاني أنّ الرشيد لم يكن يقتصر في عطائه على من يراه ويخاطبه ، بل يتجاوز ذلك إلى من يمرّ ذكره بباله لسبب من الأسباب . وقد جرى ذلك حين استسقى للناس في سنة قحط فسُقوا فخطر بباله شعرُ ابن مناذر في ذلك «وسأل عن خبره فأُخبر أنّه بالحجاز ، فبعث إليه بجائزته . . .» (الأغاني ج18 ص 117) .
وجاء عند الأربلّي ، على لسان الصولي : «كان يحيى يساير الرشيد يوماً (في بدء خلافته) فقام رجل فقال : يا أمير المؤمنين ، عطبت دابتي . فقال : يُعطى خمسمئة درهم . فغمزه يحيى . فلمّا نزل قال : يا أبتاه ، أومأت اليّ بشيء ، وقت ما أمرتُ بالدراهم ، فما هو ؟ فقال : مثلك لا يجري هذا المقدار على لسانه ، إنّما يذكر مثلُك : خمسة آلاف ، عشرة آلاف ألف . . .» (خلاصة الذهب المسبوك ـ مختصر من سير الملوك ص 108) .

القسم الأوّل

المجالس الأدبية

تمهيد
أهمية المجالس في حياة الرشيد

لقد قمنا ، حتى الآن ، بجولة في عصر الرشيد ، وتوقّفنا على باب بلاطه . فتبيّن لنا أنّ هذا العصر تميّز بميزة لم يكد يسبق إليها ، وهي أنّ الأدب غدا فيه متعة وضرورة ومباهاة ، وأنّ المعرفة كانت دانية القطوف ، في متناول من يرغب فيها : تعاطاها الناس من كلّ مستوى وثقافة ، ورغبوا في متعها . لكن فئة المتميّزين تجاوزت المتعة السلبية إلى البحث عن الجديد الذي يشحذ القرائح ويولّد الأفكار والمعاني : فالمتميّزون ، أدبيّاً ، تنافسوا في إظهار أدبهم وافتنّوا في اختراع مظاهر تجلّيه ، وعقدوا ، لذلك ، مجالسهم . والمتميّزون ، ماليّاً واجتماعيّاً ، تنافسوا في اجتلاب أقطاب الأدب والفكر والعلم ، وعقدوا لهم مجالسهم ، فنالهم منهم شهرة ، في مدح وثناء ، وأحياناً في عتب وهجاء ، هذا بينما علية الناس كانت المجالس في قصورهم قائمة لا تكاد تنفضّ . وهم قد هيّأوا لروادها الجوّ الراقي وطيب المقام ونوالاً يغني ، وأحياناً جرايات لا تنقطع[1] . قال فيهم الشعراءُ : فوهبوا الشعراءَ ، وفني المال بينما بقي الشعر ليخلدهم . . . . وفي مجالس القصور ، كانت تطرح قضايا العصر ، الفقهية منها واللغوية والدينية ؛ ويظهر ذلك جليّاً لدى حديثنا عن بلاط الرشيد . إنّما ، قبل أن ندخل قصره ، نسترق النظر إلى قصر وزيره يحيى بن خالد وندخل مجلساً من مجالسه ، وهو مجلس مهمّ ، في نظرنا ، لأنّه يفصّل الموضوعات الفكرية التي شغلت الأذهان في ذلك العصر ، ولأنّه نمط من المجالس الراقية ، إن لم يقم في بلاط الرشيد ، فهو بلا شكّ ، قريب ممّا كان يجري فيه ولم يسعفنا الحظّ بالاطّلاع على تفصيل له في المراجع التي وقعنا عليها[2] . لقد ضجر يحيى بن خالد من البحوث الجدّيّة مع رواد مجلسه من أقطاب المتكلّمين وأصحاب المذاهب ، فقال لهم : «قد أكثرتم من الكلام في الكون والظهور ، والقدم والحدوث ،

---

1 من ذلك ما أورده الأصفهاني في حديثه عن أشجع السلمي : «وكان جعفر بن يحيى يجري عليه ، في كلّ جمعة ، مئة دينار ، مدّة إقامته ببابه» . (الأغاني ج18 ص 150) وفي حديثه عن بكر بن النطاح : «وكان يأتي قرة بن محرز بكرمان فيعطيه عشرة آلاف درهم ويجري عليه ، في كلّ شهر يقيم عنده ، ألف درهم» . (المرجع السابق ج19 ص41) وفي حديثه عن مسلم بن الوليد ، يذكر أنّ يزيد بن مزيد جعل له جراية ما يكفيه ويكفي عياله ، عدا الجوائز والهبات» . (المرجع ذاته ج18 ص 337) .

2 هذا المجلس ، الذي يجعل من «العشق» موضوعاً لجدل فكري ، له قيمة حضارية خاصة ، لأنّ هذا الموضوع كان الهاجس الأوّل للمجالس الأدبية في أوروبا (الصالونات) في أوائل القرون الوسطى . فقد أورد لاجارد وميشار ، في كتابهما «العصور الوسطى» ، لدى الحديث عن ماري ، كونتيسة شامبانيا ، أنّها «كانت تعقد في بلاطها جلسات لمحكمة العشق ، حيث يدور النقاش حول قضايا العواطف الرقيقة ، ممّا شكّل تمهيداً لصالونات المتصنّعين ، في القرن الثاني عشر . . .» Lagarde et Michard, Moyen Age, p. 344 .

والاثبات والنفي ، والحركة والسكون ، والمماسة والمباينة ، والوجود والعدم ، والجرّ والطفرة ، والاجسام والاعراض ، والتعديل والتحرير والكميّة والكيفية ، والمضاف ، والإمامة : أَنصّ هي أم اختيار ، وسائر ما نورده من الكلام في الأصول والفروع . فقولوا الآن في العشق ، على غير منازعة ، وليورد كلّ واحد منكم ما سنح له فيه وخطر بباله» . وراحوا يقولون في العشق . لم يتردّد أئمّة الجدّ في الحديث عن الصبابة . فإذا العشق بحر من اللطافة وصفاء الجوهر . وهو أخفى من الجمر وأحرّ . أو هو جرعة من نقيع الموت ، لوعته دائمة ، أرقٌ في الليل وقلق في النهار . لكنّه ، دائماً ، يحتاج إلى أريحية في الطبع وطلاوة في الشمائل ، ولا بدّ من ازدواج الطبعين ؛ وله نفوذ في القلب كنفوذ صيّب المزن في خلل الرمل . . .[1] ونرى أنّ هذا الأدب للمتعة ، متعة القائل ومتعة السامع ، تماماً كالأغنية يطرب لها سامعها بقدر ما يطرب لها منشدها .

فإذا ما دخلنا الآن قصر الرشيد وجدنا هذه المتعة وقد عرفت دربها واضحاً جليّاً إلى نفس الخليفة الباحث عن اللذّة الفنيّة أيّاً كان مصدرها ، والأدبُ أسمى هذه المصادر وأرقاها لدى من ثقفت نفسه ، منذ صغره ، ورقّ إحساسه واحتدّ ذكاؤه ، فشغف بها وأدمنها فكاد يطلبها على خوان طعامه[2] ، ويَنشُدها حتى في سريره وعلى فراش لذّته[3] . لقد تناولها لمحة طائرة ، عبّ منها سائراً أو مسافراً ، سالت على أنامله تزيّن بالبلاغة تكليفاً إداريّاً ، كما عقد لها المجالس ، بمناسبة وبلا مناسبة . والمجالسة سمة واضحة في حياة الرشيد ، كأنّ الوحدة ترهبه فيتحاشاها ، وكأنّ الانفراد يثير فيه من الوساوس ما لا يخمده إلاّ خبر طريف أو شعر لطيف : فلطالما أرق في الليل ،

---

1 المسعودي ـ مروج الذهب ج3 ص 286 .

2 كان الرشيد يفضّل لذّة الأدب على لذّة الطعام ، فقد روى الأصفهاني عن «محمد الراوية المعروف بالبيدق ، قال : دخلت على الرشيد وعنده الفضل بن الربيع ويزيد بن مزيد وبين يديه خوان لطيف عليه جديان ورغفان سميد ودجاجتان . فقال لي : أنشدني فأنشدته قصيدة النمري . فلمّا بلغت إلى قوله : [من البسيط]

أيُّ امرىءٍ باتَ من هـارونَ في سَخَطٍ   فليسَ بالصلواتِ الخَمسِ يَنتفِعُ . . . .

قال : فرمى بالخوان بين يديه ، وصاح وقال : هذا والله أطيب من كلّ طعام» . (الأغاني ج3 ص 147) .

3 يذكر ابن عبد ربّه عن «إسحاق بن إبراهيم الموصلي ، قال : دخلت على الرشيد وعنده جارية قد أهديت له ، ماجنة ، شاعرة ، أديبة ، وبين يديه طبق فيه ورد . فقال : يا إسحاق ، أما ترى هذا الورد ونضارة لونه ؟ قلت : بلك حَسُنَ ذلك ، يا أمير المؤمنين . قال : قل فيه بيتاً يشبهه . فأطرقت ساعة ثم قلت : [من البسيط]

كأنّـهُ خَـدُّ مَومـوقٍ يُقبِّلُـهُ   فَـمُ الحبيبِ ، وَقَـدْ أبدى به خَجَلا

فاعترضتني الجارية فقالت : [من البسيط]

كأنّـهُ لـونُ خَـدِّي حين تَدفعُني   كفُّ الرشيدِ لأمـرٍ يوجِـبُ الغُسُلا

فقال الرشيد : قم يا إسحاق ، فقد حرّكتني هذه الفاسقة» . (العقد الفريد ج6 ص 403) . راجع الاستجابة للمثير الأدبي ص153 وما بعد من البحث .

فطلب مسامراً ، شاعراً أو راوية ، يهدّىء ثائرة نفسه[1] . «ذكروا أنّ الرشيد ، كثيراً ما كان يتلثّم فيحضر مجالس العلماء بالعراق ، وهو لا يُعرَف . وكان قد قسم الأيّام والليالي على سبع ليال : فليلة للوزراء يذاكرهم أمور الناس ويشاورهم في المُهمّ ، وليلة للكتّاب يحمل عليهم الدواوين ويحاسبهم عمّا لزم من أموال المسلمين ويرتّب لهم ما ظهر من صلاح أمور المسلمين ، وليلة للقواد وأمراء الأجناد يذاكرهم أمر الأمصار ويسألهم عن الأخبار ويوقفهم على ما تبين له من صلاح الكور وسدّ الثغور ، وليلة للعلماء والفقهاء يذاكرهم العلم ويدارسهم الفقه ، وكان من أعلمهم ، وليلة للقرّاء والعبّاد يتصفّح وجوههم ويستمع لمواعظهم ويرقق قلبه بكلامهم ، وليلة لنسائه وأهله ولذّاته ، يتلذّذ بدنياه ويأنس بنسائه ، وليلة يخلو فيها بربّه يسأله خلاص نفسه وفكاك رقه»[2] . والواقع أنّ الرشيد قسم حياته بين كلّ تلك الأمور ، لكنّه لم يَضَع هذا النظام الدقيق لها ، لا بالنسبة لأيّام الاسبوع ، ولا بالنسبة لجميع مراحل حياته . ومن المؤكّد أنّه ، في مطلع خلافته ، كان أقلّ همّاً وانشغالاً ، وأكثر انصرافاً إلى اجتناء المتعة الفنيّة منه في آخرها : تربّع على عرش الخلافة ، وكان ذلك بعد أن يئس منها فقبِل بالتنازل عنها ، وكاد يفعل لولا أمّه الخيزران ولولا يحيى بن خالد البرمكي[3] . ويظهر أنّ الإثنين كانا يتشوقبان ، أكثر منه ، إلى خلافته . فما أن آلت إليه حتى قبضا ، بحركة واحدة متوافقة ، على عصا الملك قبضة حديدية كفت الرشيد عناء الجهد في حمل مسؤوليّاته[4] . ولقد ساهم البرامكة ، بكلّ عبقريّتهم في تأمين الراحة والدعة له ، وأوصلوا

1 تاريخ بغداد ج2 ص 131 وانظر ص203 من البحث خبر استدعاء الرشيد العباس الأحنف ليلاً ليجيز له بيتَ شعرٍ قاله . وانظر ص410 هامش 3 من البحث خبر استدعائه الأصمعي ليلاً ليسمعه بيتاً من الشعر قاله تنديداً بجعفر بن يحيى بعد قتله .

2 ابن قتيبة الإمامة والسياسة (ج2 ص 154) .

3 جاء عند الطبري : «وقد كان هارون طاب نفساً بالخلع فقال له يحيى : لا تفعل . فقال : أليس يترك لي الهنيء والمريء ؟ فهما يسعانني ، وأعيش مع ابنة عمّي . وكان هارون يجد بأمّ جعفر وجداً شديداً» . (تاريخ الرسل والملوك ج8 ص 208) .

4 ذكر عديد من المؤرّخين ومنهم الأربلّي ، أنّ الرشيد ، «حين ولي الخلافة استدعى يحيى بن خالد بن برمك ، وكان حبسه الهادي لميله إلى هارون وعزم على قتله وقتل هارون . فحضر يحيى فقلّده الوزارة . وكانت الخيزران هي الناظرة في الأمور ، وكان يحيى يصدر الأمور إلى هارون عن رأيها» . (خلاصة الذهب المسبوك ص 108) . والواقع أنّ الرشيد اعتمد ، منذ بدء خلافته ، التسيير الذاتي للإدارة . فإلى جانب منصب الوزير ، الذي هو عملياً والي الولاة يعيّنهم ويحاسبهم ويُسأل عنهم أمام الخليفة ، أحدث منصب قاضي القضاة الذي هو ، في ميدانه ، شبيه بمنصب الوزير . والولاة كانوا امراء لهم الولاية على جميع أهلها ، ينظرون في تدبير الجيوش والأحكام ، يقلّدون القضاة والحكّام ، ويجبون الخراج ، ويقبضون الصدقات ويقلّدون العمّال فيها ، ويحمون الدين ويقيمون حدوده . . . . وما قسمت أعمال الدولة ، منذ انتقالها إلى بني العبّاس ، تقسيمها في زمن الرشيد . ولذلك كان للخليفة وقت ليحجّ ، ووقت ليغزو ، ووقت ليصطاف ويرتبع في الرقة ويترك قصر الخلد في بغداد . . .» (انظر كرد علي محمد —

إليه ، مع مختلف صور المتع وأساليبها ، بعض الشخصيّات التي صارت محور مجالسه من شعراء وأدباء ومطربين ورواة[1] ؛ ولاقى ذلك كلّه هوى في نفس الرشيد الشاب المرفّه ، فانغمس فيه ولذّ له الانغماس ، وبقي كذلك إلى أن أحسّ بالبساط يسحب من تحت قدميه ، فأفاق وضرب ضربته الشهيرة ، وكانت النكبة التاريخية التي يأتي بعض خبرها في ثنايا البحث[2] .

والآن ، بعد أن تأكّد لنا أنّ الرشيد أمضى حياته الخاصّة في اجتناء المتعة الأدبية والفنيّة ، نتوجّه إلى الحديث عن المجالس ، وهي أبرز مجال تبلورت فيه الأجواء الأدبية التي عايشها الرشيد ، فنقدّم وصفاً لها يعطيها أبعاد الحقيقة وملمس الواقع . إلاّ أنّنا ، قبل أن نباشر رسم الصورة ، نبادر إلى تحديد الإطار الذي كانت تعرض فيه . ونقصد بالإطار : الظروف المكانية والزمانية لانعقاد هذه المجالس ، كما نرمي إلى الظروف البشرية والاجتماعية من حيث رواد البلاط وعاداته في تلك المجالس ، وكذلك آدابها وأساليب التعامل ضمنها . لذلك حدّدنا لهذا الباب فصولاً ثلاثة : يدور أوّلها حول الإطار الزماني والمكاني ، ويعالج ثانيها الإطار البشري ، بينما يصف ثالثها الإطار الاجتماعي ، من عادات ومراسم ، وأصول تصرّف .

= الإدارة الإسلامية في عهد عزّ العرب ص 138) . ونضيف هنا ، للدلالة على استكانة الرشيد إلى البرامكة ، هذه الأبيات ، قيلت في مدحه ، أوردها المسعودي : [من المتقارب]

أضاف إلى بَيعتِهِ بَيعــــةً   فقامَ بها جعفرٌ وحـــدَهُ

بنو برمك أسّسوا مُلكَهُ   وشَدّوا لوارِثِهِ عَقْــــدَهُ

(مروج الذهب ج3 ص 286) و(راجع ص 61 من هذا البحث) .

1 ذكر البغدادي إيصالهم العتابي والنمري إلى الرشيد (تاريخ بغداد ج12 ص 488 وج 13 ص66) واتّصال أشجع السلمي بجعفر قبل الرشيد (المصدر ذاته ج7 ص 45) ويذكر الجهشياري أنّ «جعفر أوصل الأصمعي إلى الرشيد» (الوزراء والكتّاب ص 189) .

2 راجع ص 62 هامش 3 من البحث .

الباب الأول
إطار المجالس الأدبية
الفصل الأوّل
الإطار الزماني والمكاني

سهرة شرقية[1]

«بعد صلاة العشاء الورعة ، تنشد الأغاني وتدار الكؤوس خلال ذلك . ويعطّر الجوّ بأنسام عبقة تتصاعد من المجامر ، ويختلج على رنين قطرات الينابيع ، ويهتزّ الجوّ طرباً للأصوات القويّة المغرّدة المنبعثة عن أفواه المغنّيات وألحان الأعواد . وقد (يداخل) هذه الحفلاتِ اليوميّة حادثةٌ غير متوقّعة فتكسبها طرافة ، كاستجواب سجين لبق ذي فصاحة مفحمة ، أو زيارة ناسك متسوّل ذي كبرياء وفظاظة . . وقد ينشد شاعر قصيدة (يندّد) فيها بالعمر القصير» .

المستشرق غود فروا

أوّلاً : الظروف المكانية

أين كان الرشيد يعقد مجالسه ؟ . . لم نعثر ، فيما حصل لنا من معلومات ، على تفاصيل واضحة ودقيقة عن مكان انعقاد مجالس الرشيد . ونحاول أن نؤلّف الصورة المتكاملة من النتف المتفرّقة التي بين أيدينا ، ومن المقارنة بمجالس الوزراء وأفراد العائلة المالكة ، ممّن هم أقرب الناس إلى الرشيد وأشدّهم تصرّفاً بالمال بعده أو معه ، وبالتالي تشبّهاً به .

1 ـ البهو : لا بدّ من أن يكون مجلس الرشيد في «بهو واسع»[2] ، «طويل عريض»[3] نظراً لما يحفل به من رواد[4] دائمين وغير دائمين ، ولما يمكن أن يؤمّه من وفود ، ولأنّ الرشيد يميل إلى الأماكن الرحبة ويفضّلها[5] . ويبدو أنّ مجالس الرشيد الأدبية لم يكن لها بهو خاص غير البهو الذي يجري فيه تصريف أمور الملك . بل البهو نفسه يتحوّل ، بتغيير بسيط في عناصره ، إلى مجلس أدبي . وهذا لا

---

1 النظم الإسلامية (ص 30) .

2 ذكر ابن المعتزّ «البهو» في الحديث عن دخول الأصمعي على الفضل بن يحيى . قال : «فلمّا دخلت عليه ، إذا هو في بهو له» . (طبقات الشعراء ص 214) .

3 ذكر ابن الأنباري اتّساع مجلس الفضل بن الربيع في خبر دخول أبي عبيدة عليه قال : «اذن لي وهو في مجلس طويل عريض» . (نزهة الألباء ص 107) .

4 كان بلاط الرشيد يعجّ بالرواد ، وهذا أمر طبيعي سيكون مدار بحث في فصل لاحق . ونكتفي هنا بتسجيل عبارة أوردها البغدادي عن الأصمعي ، قال : «دخلت على هارون الرشيد ومجلسه حافل» (تاريخ بغداد ج14 ص 9) .

5 يروي الأصفهاني عن إبراهيم الموصلي قوله واصفاً إحدى زياراته للبلاط : «فلمّا صرت إلى الدار عُدل بي عن المدخل إلى طرق لا أعرفها ، فانتهي بي إلى دار حديثة البناء . فدخلت صحناً واسعاً . وكان الرشيد يشتهي الصحون الواسعة» . (الأغاني ج5 ص 204) .

يمنع الرشيد ، في ظروف خاصة ، من استقبال منادميه أو مسامريه في صحن آخر واسع ، أو في مقصورة خاصة قريبة من مقاصير حرمه ليتسنّى لهن الاستماع من خلف الحجب والأبواب[1] . أمّا تحوّل مجلس الحكم وتصريف الأمور إلى مجلس أدبي فيتمّ أحياناً بصورة غريبة جدّاً عن ذهننا . وأطرف تحوّل يظهر لنا في الحادثتين التاليتين : الحادثة الأولى يرويها أحمد بن سيّار الجرجاني «وكان راوية شاعراً مدّاحاً ليزيد بن مزيد قال : دخلت أنا وأشجع وأبو محمد التيمي وابن رزين الخزاعي على الرشيد ، في قصر له بالرقة ، وكان قد ضرب أعناق قوم في تلك الساعة . فجعلنا نتخلّل الدماء حتى وصلنا إليه . فأنشده أبو محمد»[2] . وفي الحادثة الثانية يتحوّل الرشيد من محاكمة أنس بن أبي شيخ الزنديق وقطع رأسه إلى سماع شعر مسلم بن الوليد في الغزل ، ويستمتع به . فحين حُمل إليه أنس ومسلم ، متّهمين بالزندقة ، وتأكّد له أنّ مسلماً ماجن وليس زنديقاً ، «أجلسه هارون وراء ظهره لئلاّ يرى ما هم به . حتى إذا فرغ من قتل أنس قال له : أنشدني أشعر شعر لك . . .»[3] وقد يصاب المرء بالغثيان إذا تصوّر هذا التطوّر العجيب للمجلس ، ولكن هي عقليّة القرون الوسطى . ويبدو أنّ البهو كان فيه ، أو يلحق به غير مجال : فمجال لمجلس تصريف الأمور ، ومجال لضرب رقاب الكفّار والمجرمين ، ومجال يُتحوَّل إليه لإقامة مجلس أدبي[4] . وهناك مجال مخصّص لبقاء من ينتظر أن يخلع عليه الخليفة[5] . والبهو الواسع يقوم فيه عدد من الأساطين ، تحمل سقفه ، وتستخدم لمآرب أُخرى إذ يختفي خلفها الخدم[6] أو الحرّاس أو الجواري ، حسب الهدف من المجلس ، ليظهروا في الوقت المناسب ، لدى أوّل إشارة من الرشيد . ويلحق بالبهو حجرات لأغراض مختلفة .

2 ـ **الأثاث** : لا بدّ لهذا البهو الكبير من بساط يغطّي أرضه . وهذا شيء طبيعي ، حتى في مجالس من هم دون الخليفة . فالفضل بن الربيع ، حين دخل عليه أبو عبيدة ، كان ، كما ذكرنا ، في

---

1 يخبرنا النويري عن دعوة زبيدة الرشيد لزيارتها فجاءها ومعه ابن جامع . فلمّا علمت ذلك «عدلت إلى بعض المقاصير . وجاء الرشيد وصيّر ابن جامع في بعض المواضع التي يُسمع منه فيها» . (نهاية الأرب في فنون الأدب ج4 ص 300) .

2 الأغاني ج18 ص 145 .

3 العقد الفريد ج2 ص 181 . وانظر ص 91 وص 189 من البحث .

4 راجع ص 53 هامش 1 من البحث .

5 يظهر ذلك في خبر يرويه التنوخي بلسان أبي عصمة : «. . . ودخلت معه إلى حيث جرت عادتنا أن نبلغه معه من الدار (الضمير يعود إلى خزيمة بن خازم) فجلسنا فيه . . . . فبينما نحن كذلك ، إذ دُعي بحامد بن عمرو ، وأُدخل إلى حيث كان موسوماً أن يدخل إليه من يخلع عليه . فتحيّرت ، فلم يكن بأسرع من أن خرج ، وعليه خلع الخليفة» (الفرج بعد الشدّة ج1 ص178) وقد لا يكون هذا الموضع داخل البهو ، إنّما أحد ملحقاته .

6 يذكر البغدادي ، في وصفه لأحد مجالس الرشيد ، أنّ الخليفة «صاح بالخدم فوافاه مئة وصيف . وإذا هم بالأروقة ، مستترون بالأساطين حتى لا يراهم أحد . فلمّا ناداهم جاؤوا جميعاً» . (تاريخ بغداد ج14 ص 9) .

مجلس له «طويل عريض فيه بساط واحد قد ملأه»[1] . وبساط الخليفة معروف لمجلسه حتى غدا وطؤه رمزاً للطاعة والتسليم[2] . والبسط في متناول الرشيد ، طبعاً ، يأتيه منها ، سنويّاً ، في الخراج ، عدد كبير[3] ، هذا إذا لم يأمر بصنع ما يريد منها أو شرائه[4] . فإذا لم يجد بغيته بهذه الوسائل ، له أن يرجع إلى «خزائن الفرش»[5] وهي غنيّة بكل نادر منها ، منذ أيّام الأمويين . ولعلّ أطرافها وأضخمها في القصر هو الذي استخدمه المتوكّل حين أراد بساطاً للايوان «في عرضه وطوله ، وكان طوله مئة ذراع وعرضه خمسين ذراعاً . فلم يوجد إلاّ في ما قبض من بني أميّة ، فإنّه وجد في أمتعة هشام بن عبد الملك على طول الايوان وعرضه . وكان بساطاً ابريسما غرز مذهّب ، مفروز مبطّن . . .» فمن الطبيعي ، إذن ، أن تكون أرض البهو ، أو على الأقلّ أرض المجلس فيه[6] ، مغطّاة ببساط نادر ، توضع عليه «الكراسي» أو تُلقى «النمارق» و«المساند» ، وهي أنواع الفرش المعروفة لمجالس القصور[7] ،

---

1 (نزهة الألباء ص 107) ، ويذكر الموصلي دخوله على الفضل بن الربيع «وهو على بساط سوسنجردى مذهّب يلمع ، عليه مكتوب : ممّا أمر بصناعته حماد عجرد» (الأغاني ج5 ص338) ويذكر ابن المعتزّ أنّ الفضل بن يحيى كان يفرش أرض البهو بالسمور شتاء . (طبقات الشعراء ص 214) .

2 يذكر الشابشتي ، في الحديث عن نصر بن شبث الذي حاربه عبد الله بن طاهر حتى هزمه ، أنّه «عاذ بالأمان . فكتب عبد الله إلى المأمون يخبره . فكتب إليه : اعطه الأمان على أن يطأ بساط أمير المؤمنين ، وينفذ فيه حكمه» . (الديارات ص 135) وأورد ذكر «بساط السلطان» أبو الفرج الأصفهاني . (الأغاني ج16 ص 194) ويروي التنوخي أنّ المعتصم ، حين حاسب عمر بن فرج الرُخّجي ، «جعل عمر ، في خلال ذلك ، يلتمس البساط الذي كان تحت المعتصم . فزاد ذلك في غضبه وقال : يا ابن الفاعلة ، ما شغلك ما أنت فيه عن لمس البساط ، كأنّك غير مكترث بما أريده منك ؟ فقال : لا والله ، يا أمير المؤمنين ، ولكن العبد يعنى من أمر سيّده بكلّ شيء ، على جميع الأحوال . وإنّي ما استحسنت هذا البساط لأنّه ليس من بسط الخلافة . . .» (الفرج بعد الشدّة ص 772) .

3 يورد الجهشياري قوائم الخراج لإحدى السنين أيّام الرشيد ، ويتبيّن من مراجعتها أنّ فيها عشرين من البسط المحفورة ترد من أرمينيا ، ومئة وعشرين بساطاً من إفريقية (الوزراء والكتّاب ص 286 و287) .

4 في نهاية الخبر السابق عن المعتصم والرخجي ، إشارة إلى شراء المعتصم البساط المذكور إذ يقول : «ويلك ! هذا البساط ، ذكر محمد بن عبد الملك أنّه قام علينا بخمسين ألف درهم» (الفرج بعد الشدّة ص 277) .

5 الشابشتي ـ الديارات ص 150 . ويقول جميل نخلة المدور ، دون تحديد المرجع : «وجدت في بعض الكتب أنّ المأمون اتّخذ ، في قصوره ، ثلاثة آلاف وثمانمئة بساط ، منها ألف ومئتان مزركشة بالذهب وغيرها مطرّز بالحرير» . (حضارة الإسلام في دار السلام 88) .

6 يستعمل لفظ «المجلس» لتسمية الجزء من القاعة الذي يتمّ فيه الجلوس . يذكر الشابشتي ذلك في وصف أبي حشيشة الطنبوري لدار إسحاق بن إبراهيم ، يقول : «وأُخرجت من الموضع إلى حجرة لم أرَ أحسن منها ، وإذا في مجلسها رجلان . . وستارة» (الديارات ص42) .

7 يذكر القفطي والثعالبي ، في خبر إبراهيم بن صالح الذي جزم الأطبّاء بموته ما عدا صالح بن بهله الذي أعاده إلى الوعي ، إنّ الرشيد «بكر إلى دار إبراهيم . فقصد الخدم بالرشيد إلى رواق فيه الكراسي والمساند والنمارق . فاتّكأ الرشيد على سيفه ، ثم أمر برفعها وجلس على البساط . . . .» (إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص 147 ولطائف

وتشكل ، باختلافها في الوثارة وفي السماكة ، مراتب لروّاد المجلس ، يجلسون فيها بحسب أهميّة مراكزهم[1] . والكرسي عادة مرتبة متميّزة في أي مجلس .

3 ـ **زينة المجلس وتحفه** : أمّا ما يحوي المجلس من زينة وطرف ، فيمكن تقديره انطلاقاً من مجلس الفضل بن يحيى الذي يصفه الأصمعي . فقد وجد «بين يديه كانون فضّة فوقه اثفيّة ذهب ، في وسطها تمثال أسد رابض ، وفي عينيه ياقوتتان تتوقّدان ، وفوق الصينية إبريق زجاج فرعوني وكأس كأنّها جوهرة محفورة تسع رطلاً ، لا أظنّ يفي بها مال كثير»[2] . ومع أنّنا لم نعثر على تفاصيل لهذا النوع من الأثاث فيما اطّلعنا عليه من أخبار مجالس الرشيد ، فإنّنا لا نشكّ في أنّ بهوه كان يحفل بالنفائس من الطرف والتحف ممّا يأتيه في الخراج والهدايا[3] والغزوات والمصادرات ، كلّ ذلك يتالّق على ضوء الشموع المنتصبة على قضب المناور[4] .

4 ـ **موقع الرشيد** : هذا الموقع هو صدر المجلس ، مرتفعاً عن جلسائه ليشرف عليهم فلا تفوته منهم حركة ولا سكنة . ولعلّ في الارتفاع جانباً أمنيّاً وعاه الرشيد جيّداً ، وإن غاب عن بعض الخلفاء الآخرين[5] . ونستطيع أن نتصوّر هذا الموقع من وصف أبي عبيدة لمجلس الفضل بن الربيع . ففي «صدره فَرش عالية لا يُرتقى إليها إلاّ على كرسي ، وهو جالس عليها . . . .

= المعارف ص 21) ـ في القاموس المحيط للفيروزابادي ، مادّة «كرَس» : الكرسي هو السرير . وعن الثعالبي النُمرِقة : واحدة النمارق ، وهي التي تُصف ـ المسند : الوسادة التي يستند إليها (فقه اللغة وأسرار العربية ص196) (ولعلّها كانت للزينة أو للاتّكاء ثمّ صارت للجلوس) .

1 يذكر الشابشتي وصفاً لوليمة المتوكّل : «وتغدّى المتوكّل والناس ، وجلس على السرير وأحضر الأمراء والقواد والندماء وأصحاب المراتب ، فأجلسوا على مراتبهم» . (الديارات ص151) .

2 ابن المعتزّ طبقات الشعراء ص 214 .

3 من الهدايا ما يرده من أفراد الحاشية والأمراء بمناسبات الأعياد والاحتجام (انظر الوزراء والكتّاب ص 025) ، ومنها ما يأتيه من العمّال على الأمصار كالذي يذكره ابن الأثير عن استرضاء علي بن عيسى له بهداياه النادرة التي جمعها من ولايته خراسان فيقول : «لمّا قدم عليه أهدى له الهدايا الكثيرة والأموال العظيمة ، وأهدى لجميع من معه من أهل بيته وولده وكتّابه وقوّاده ، من الطُرَف والجواهر وغير ذلك . . .» (الكامل في التاريخ ج5 ص 121) .

4 يذكر ابن عبد ربّه ذلك في خبر دخول الأصمعي على الرشيد للمرّة الأولى فيقول : «دخلت فواجهت الرشيد في البهو جالساً كأنّما رُكّب البدر فوق ازاره جمالاً ، والفضل بن يحيى إلى جانبه ، والشمع يحدق به على أعواد المناور . .» (العقد الفريد ج5 ص 310) .

5 نستفيد ذلك من وصف الشابشتي لمجلس المتوكّل ، والسمّاجة بين يديه يقومون بإضحاكه وحاشيته ، ويصلون إلى ذيل ثوبه يجذبونه ، ممّا يغضب قائد شرطته إسحاق بن إبراهيم ، فيلفته قائلاً : «يا أمير المؤمنين ، عساك تتوهّم أنّ هذا الملك ليس له من الأعداء ما له من الأولياء ؟ تجلس في مجلس يتذلك فيه مثل هؤلاء الكلاب ، تجذّبوا ذيلك ، وكلّ واحد متنكّر بصورة مضحكة . فما يؤمن أن يكون فيهم عدوّ قد احتسب نفسه ديّانة وله نيّة فاسدة وطوية رديّة فيثب بك !؟» (الديارات ص 40) .

واستدناني حتى جلست معه على فرشه»[1] . وقد استعمل ابن عبد ربّه لفظ «الفرش» أيضاً لتسمية عرش الرشيد[2] ، بينما استعمل الأصفهاني لفظ «الكرسي»[3] ، أمّا القيرواني الحصري فقد استعمل لفظ «السرير»[4] . والكرسي ، كما رأينا ، تعني السرير[5] . والسرير ، إذا كان للملك ، فهو عرش[6] . كما أنّ الكرسي تعني المقعد يجلس عليه الرشيد وبالمعنى نفسه تستعمل للجلساء[7] . وعرش الرشيد ، أيّاً كانت تسميته ، يُنتهى إليه بدرجة أو أكثر ، يخلع الرشيد نعله حين يرقى إليه ، حتى إذا همّ بالنزول تبادر الخدم فأمسكوا بيده ، ثم قدمت إليه النعل[8] ، ولا يكاد الجالس أو الزائر يصل منه إلى أكثر من يده يقبلها ، إذا سمح له بذلك مولياً أيّاه عظيم الشرف[9] ، أو إلى رجله إذا أراد ذلك الزائر أن يظهر محبّته وولاءه ، أو شدّة ندمه واستغفاره[10] ، أمّا إذا همّ الرشيد بترك مجلسه ، وكان على نيّة الخروج من القصر أو التجوّل فيه[11] ، فتقدم دابته إلى السرير يمتطيها

---

1 ابن الأنباري نزهة الألباء ص 107 .

2 يذكر ابن عبد ربّه ، في آخر خبر اتّصال الأصمعي بالرشيد ، أنّه «نهض فتبادر الخدم ، فأمسكوا بيده حتى نزل عن فرشه . ثم قدّمت النعل . . .» (العقد الفريد ج5 ص 317) .

3 ذكر الأصفهاني قول أشجع السلمي : فقدمت والرشيد على كرسي (الأغاني ج18 ص144) .

4 قال ابن جامع : «لمّا صعد إلى السرير وثبت على قدم أمير المؤمنين أقبلها . .» (جمع الجواهر ص128) .

5 القاموس المحيط مادة «كرس» .

6 الثعالبي فقه اللغة وأسرار العربية ص 196 .

7 يروي الجهشياري عن مسرور الكبير قوله : «دخلت على الرشيد ، بعد أن قتل جعفر بن يحيى ، وقد خرج من مرقده وهو يريد الخلاء ؛ فلمّا رآني أمر بكرسي فطرح له وجلس عليه ، ثم قال . . . .» (الوزراء والكتّاب ص242) وتحدّث البغدادي عن كرسي من ذهب وجد عمر بن حبيب الرشيد جالساً عليه . (تاريخ بغداد ج11 ص 197) ويميّز معنيي الكرسي أسلوب الاستعمال . ففي حين «يجلس على الكرسي» هو «يتربّع على العرش» .

8 انظر المصدر السابق .

9 يذكر الجهشياري أنّ الفيض بن صالح خالف السنة المتبعة في الانحناء على يد الرشيد لتقبيلها إذ «حُكي أنّه دخل على الرشيد ، فمدّ يده ليقبّلها ، فلم ينكب عليها ، ورفعها إلى فيه فقبّلها . فقال الرشيد : لولا لؤمه وحمقه لقتلته» . (الوزراء والكتّاب ص 164) .

10 ذكر الطبري أنّ جعفر بن يحيى ، حين عاد من اخماد فتنة الشام ، «دخل عليه فقبّل يديه ورجليه» (الطبري ج8 ص263) . كما حكى ابن الأثير ، عن لسان جبرائيل بن بختيشوع معتذراً ، «فرّجتَ عنّي يا أمير المؤمنين . ثم قبلتُ يده ورجله» . (الكامل في التاريخ ج5 ص129) . ويروي الأصفهاني ، عن إبراهيم الموصلي ، قوله للرشيد ، الذي كان يعدد بعض نعمه عليه ، «يا سيدي ، ما ذهب عنّي شيء من تفضّلك ، وإنّ نعمتك عندي لأكثر من أن تحصى . وقبّلت رجله والأرض بين يديه» . (الأغاني ج5 ص 186) .

11 يشير الأصفهاني إلى حمار خاص للرشيد للتنقّل الداخلي قائلاً : «فدعا بحمار كان يركبه في القصر ، أسود قريب من الأرض» (الأغاني ج5 ص 198) .

مباشرة . وهناك موظّف خاص مسؤول عن تقديم الدابة إليه[1] ، وهذا يقضي ، بلا شك ، أن يكون الايوان ، أو البهو ، في الطابق الأرضي من القصر .

بقي أن نشير ، في هذا الصدد ، إلى أن الرشيد لم يسكن قصراً واحداً ، بل كان يتنقّل من قصر إلى آخر، في بغداد أو الرقّة أو الرافقة أو غيرها ، ومعه جلساؤه ، إينما سار وحلّ. (ونفصّل ذلك في موضعه) .

ثانياً : أوقات المجالس الأدبية وتواترها

من الصعب جدّاً الحديث عن أوقات محدّدة للمجالس الأدبية وربطها بأيّام معيّنة من الاسبوع ، أو بساعات محدّدة من النهار أو الليل[2] . فبالنسبة للأيّام ، يجب أن نميّز بين مجالس الاحتفالات التي تقام في الأعياد والمناسبات العامّة ، والمجالس العادية أو الدورية . فمجالس الاحتفالات لها أيّام العيد نفسها إذا كانت عيد اضحى أو فطر أو نيروز أو سواها ، ولها يوم المناسبة إذا كانت داخلية[3] ؛ أو تقام بعد العودة إلى القصر ، إذا كانت المناسبة انتصاراً في غزوة[4] أو اخماداً لفتنة ، أو حجّاً[5] . أمّا المجالس الأخرى فهي على نوعين أيضاً : المجالس الدورية ، وفيها تطلق دعوة عامّة للشعراء والأدباء ، يدخلون على الرشيد في اليوم المحدّد ويتبارون في الانشاد[6] . هذه المجالس هي استمرار للمجالس الأدبية الحولية التي كانت معروفة حتى أيّام المهدي[7] . ولئن لم يجعلها الرشيد سنوية ، كما كانت في

---

1 ويذكر الأصفهاني محمد بن جنيد الختلي على أنّه «أحد أصحاب الرشيد ومَن يُقدّم دابته» (الأغاني ج16 ص321) .

2 يذكر الطبري إرسال الرشيد في طلب المفضل الضبي «وذلك في يوم خميس . . . فجاءته الرسل ليلاً . .» (تاريخ الطبري ج8 ص 361) . ويذكر الطبري أيضاً دخول مروان بن أبي حفصة عليه «في سنة إحدى وثمانين ومئة ، يوم الأحد لثلاث خلون من شهر رمضان ، فأنشده . . .» (تاريخ الطبري ص 347) .

3 كمناسبة أخذ البيعة لولي عهد أو مناسبة سباق أو تعزية أو احتجام أو ابلال من مرض . .

4 مناسبة افتتاح حصن الصفصاف أو فتح هرقلة مثلاً ، وقد قيل الكثير فيهما (انظر الأغاني ج18 ص 174 وج13 ص 146 ومروج الذهب ج1 ص 280 وتاريخ الطبري ج8 ص309) . وانظر ص 349 وما بعد من البحث .

5 انظر دخول سلم الخاسر على الرشيد بعد عودته من الحجّ (الأغاني ج19 ص 242) ودخول ابن مناذر (المصدر السابق ج18 ص 133) ودخول أشجع ابن عمرو السلمي عليه ، وقد مُطر الناس بعد رجوعه من الحجّ (المصدر نفسه ص 176) .

6 يذكر الأصفهاني ، في خبر اتّصال أشجع بالرشيد ، أنّه طلب الشعراء للحضور يوم الخميس فاجتمعوا سبعة وأشجع ثامنهم ، فحدّد لهم صباح الجمعة ، أي اليوم التالي ، للدخول (الأغاني ج18 ص 144 ومعاهد التنصيص ج4 ص63) . راجع ص 102 وص 514 من البحث .

7 مروان بن أبي حفصة ، الذي رثى معن بن زائدة بقصيدته المشهورة ومنها : [من الوافر]

وقلنا أين نرحل بعد معن   وقد ذهب النوال فلا نوالا

يدخل إلى المهدي ليمدحه فيسأله من يكون . وعندما يعرفه يعيب عليه قوله في معن ثمّ مجيئه إليه يطلب نواله ، ويطرده ويحرمه . «فلمّا كان في العام المقبل تلطّف حتى دخل مع الشعراء وإنّما كانت الشعراء تدخل على الخلفاء في

أيام من سبقه ، فإنّه لم يحدّدها بأيّام ثابتة . وكثيراً ما تختلط أخبارها بأخبار المجالس العادية . وبالنسبة إلى هذه المجالس الأخيرة ، فإنّنا نذكّر بأنّ للرشيد مجلساً يوميّاً يجتمع فيه إلى الأعيان والوزراء والقضاة ، ويحضر الاجتماع كتّاب ، وأحياناً ، أدباء ولغويّون ؛ وإن لم يكن المجلس مخصّصاً للأدب ، فهو مجلس مفتوح ، تصرّف فيه أمور الدولة ويحتوي ، بشكل طبيعي ، على عناصر تمكّنه من التحوّل إلى نوع أو إلى آخر من أنواع المجالس المعروفة للرشيد . فإذا ما تعب الخليفة من الحكم والقضاء ، طلب شاعراً يسرّي عنه أو راوية يسلّيه ، خصوصاً إذا شوّقه إلى ذلك أحد الجلساء[1] . وفي أحيان أُخرى يجري التحويل مسبقاً ، فيلغي الرشيد هذا المجلس ليعقد مكانه مجلساً أدبيّاً أو مجلس منادمة . ويدعى الجلساء إلى البكور في صباحه[2] ، دون تمييز بين أيّام الاسبوع . إلاّ أنّ الوقت الطبيعي للمجالس العادية هو عند الانتهاء من النظر في القضايا والرقاع وفي سائر الشؤون ، إذ تصبح نفس الرشيد في حاجة إلى استجمام وإلى تجديد نشاط ، كما قلنا ، فينعقد مجلس أدبي بمن يبقى من الحاضرين بعد انصراف ذوي الشأن[3] ، أو يدخل بعض من يطوفون بالبلاط مترقّبين سانحة من الحظ وقوفاً بالباب ، أو في باحة الانتظار[4] . وقد تستدعى شخصية أدبية محدّدة لسؤالها وسماعها أو لإشراكها في إحياء الجلسة . ومزج المجلس الأدبي العادي بمجلس التصريف اليومي أمر وارد دائماً عند الرشيد ، إذ تدعو مناسبة طارئة إلى خلق جوّ أدب أو شعر بشكل غير متوقّع[5] ، فيكون مجلس

= ذلك الحين في كلّ عام مرّة . .» وتتكرّر الحادثة مع الرشيد ومروان الذي يجرّ برجله في دخوله الأوّل . «فلمّا كان بعد ذلك بأيّام تلطّف حتى دخل فأنشده . . .» (الأصفهاني ، الأغاني ج10 ص 91 وتاريخ بغداد ج13 ص 144 وأمالي المرتضى ج3 ص 4 و16 ووفيات الأعيان ج2 ص 566) .

1 كما فعل سعيد بن سلم الباهلي إذ دخل على الرشيد في مجلسه اليومي وما زال به يذكر أمامه شاعراً باهليّاً حتى قبل الاغراء وأمر بادخال الشاعر «فأذن له . . . فمثل بين يدي أمير المؤمنين ، وألقيت الكراسي فجلس الكسائي والمفضل الضبي وابن سلم والفضل ابن الربيع . .» (وسيأتي تفصيل ذلك في فصول لاحقة) (انظر العقد الفريد ج1 ص 310 وزهر الآداب ج4 ص 1044 وتاريخ الطبري ج8 ص 363) وراجع ص 258 من البحث .

2 روى الأصفهاني «قال الرشيد لإبراهيم بن المهدي وإبراهيم الموصلي وابن جامع وابن أبي الكنات : باكروني غدا . . . .» (الأغاني ج5 ص 196) . راجع ص 191 من البحث .

3 يخبرنا المسعودي : «قال الكسائي : دخلت على الرشيد ، فلمّا قضيت حق التسليم والدعاء وثبت للقيام . فقال : اقعد . فلم أزل عنده حتى خفّ عامة من كان في مجلسه ولم يبق إلاّ خاصته . فقال لي : يا أبا علي ، ألا تحبّ أن ترى محمداً وعبد الله ؟ . . .» ثم استدعى وليي العهد وطلب من الكسائي امتحانهما قولاً وحفظاً . (مروج الذهب ج3 ص 269 والمحاسن والمساوىء ج2 ص 84) . راجع ص 191 من البحث .

4 يروي الأصفهاني عن الحكم بن موسى السلولي عن أبيه قوله : «بينا نحن بالرافقة على باب الرشيد وقوف . . . إذ خرج وصيف . . . فقال : يا معشر الصحابة ، إنّ أمير المؤمنين يقرئكم السلام ويقول لكم : من منكم يروي قصيدة . . . فليدخل ، فلينشدها أمير المؤمنين وله عشرة آلاف درهم . . .» (الأغاني ج13 ص 15) .

5 يحدّثنا الأصفهاني عن أسير رومي يؤتى به إلى مجلس الرشيد فيأمر بضرب عنقه كلاًّ من ذفافة العبسي وابن فُليج

أدبي . والرشيد لا يفوّت فرصة تسنح لذلك[1] . وقد سبق لنا القول إنّ الأدب كان هاجسه ، يأكل من صحنه وينام معه في فراشه .

وكما يكون المجلس الأدبي نهاراً يمكن له أن يقام ليلاً[2] . ونهار البلاط وليله ليسا في الواقع النهار والليل اللذين يعرفهما سائر الناس . بل معيار الزمن هنا هو مزاج الرشيد ، فإذا استيقظ «لَقِس النفس» ، ولم ينشط إلى أيّ عمـل ، جمدت الحركة في البلاط وعُلّقت المجالس جميعها ، وتوقّف أفـراد الحاشية عن الكلام ؛ وإن تجرّأ المقرّبون إليه على الحديث ، كان كلّ ما يتفوّهون به منصبّاً على طرد السويداء عن قلبه[3] . والبلاط ينام إذا نام الرشيد . فإذا سهر يسهر البلاط بمن فيه . وإذا نثرت ليلة الأرق بين أجفانه ، «نثرت السعادة والتوفيق»[4] على درب الساهرين في الموقف ، المتيقّظين ، قائمين آناء الليل وأطراف النهار بانتظار سانحة . وهنـاك إشارات إلى لقائه جلساءه من الشعراء والمسامرين يوميّاً[5] . وهو ، إذا نوى في أحد الأيّام الانشغال عنهم ، يُعلمهم وكأنّه يعتذر منهم عن تعليق المجلس . فإذا ما عادوا إلى الاجتماع به في اليوم التالي ، كان جلّ اهتمامه معرفـة مـا فعلـوه في يـوم الإجازة الذي

= المدني على التتالي ، فينبو سيفاهما ، فيقوم المأمون بضرب عنقه وعنق أسير آخر . فيكبّر الحاضرون ويحقّ قول الشعر في وصف ذلك . فيرتجل أبو محمد اليزيدي أبياتاً في مدح المأمون والتعريض بالعبسي وابن المدني . (الأغاني ج2 ص181) . راجع ص 258 هامش 4 من البحث .

1 روى الأصفهاني ، أيضاً ، «حضر الرشيدَ عشرةُ آلاف دينار من ضرب السنة ففرّقها حتى بقيت منها ثلاثة آلاف دينار فقال : ابغوني شاعراً أهبها له . فوجدوا منصوراً النمري ببابه . فأُدخل إليه فأنشده . . .» وهكذا تحوّل المجلس إلى ندوة أدبية على شرف «الدنانير» ، أنشد فيها النمري ثم ابن الصيقل وأصدر الرشيد حكماً أدبيّاً . (الأغاني ج23 ص 93) .

2 ذكر الطبري على لسان المفضل الضبي قوله : «وجّه إليّ الرشيد ، فما علمت إلاّ وقد جاءتني الرسل ليلاً ، فقالوا : أجبْ أمير المؤمنين . فخرجت حتى صرت إليه . . .» وبدأ مجلس أدبي اشترك فيه الكسائي وانتهى بإنشاد من العماني والنمري . (الطبري ج8 ص 361 والتوحيدي ـ البصائر والذخائر ج2/1 ص 50) .

3 حدّث البيهقي عن يزيد بن منصور الحميري أنّه دخل البلاط «فأصاب أمير المؤمنين لقِس النفس قد اشتمل عليه الفكر في سرعة تقضّي أمور الدنيا ، وأنّه لا يُتشبث منها بشيء إلاّ كان كالظلّ الزائل والسراب الخادع . . . .» فكان جلّ همّ الحميري وهمّ الحاضرين من أمثال جعفر بن يحيى وسليمان بن أبي جعفر ، أن يروّحوا عنه ويضربوا له الأمثال لتعود الفرحة إلى نفسه والحياة إلى مجلسه . (المحاسن والمساوىء ج1 ص 182) .

4 روى ابن عبد ربّه : قال (الأصمعي) : «تصرّفت بي الأسباب إلى باب الرشيد مؤمّلاً الظفر بما كان في الهمّة دفيناً ، أترقّب طالع سعد يكون على الدرك معيناً . . . فلم نبعد أن خرج إلينا خادم في ليلة نثرت السعادة والتوفيق ، وذلك أنّ الرشيد تربّع الأرق بين عينيه فقال : هل بالحضرة أحد يحسن الشعر ؟ فقلت : الله أكبر ! ربّ قيد مضيّق قد فكّه التيسير للإنعام . .» (العقد الفريـد ج5 ص 309) . وانظر ص 117 و119 و194 من البحث .

5 نجد ذلك مثلاً في دخول العماني عليه بلباس مبتذل ، فنهره له فعودته في اليوم التالي إلى الدخول بزي الأعراب .

ناله[1] . . . ومع ذلك ، فقد يجيء الشعراء إلى بابه ، كالعادة ، متوقّعين انعقاد المجلس ، فيجدونه موصداً . ويخرج عليهم الآذن يقرئهم السلام ، بمعنى أنّه يدقّ جرس الانصراف[2] ، فيرجعون خائبين ، أو يبقون مرابطين مترقّبين تغيّر الرأي[3] . وقد يعمدون إلى تنسّم أخبار المقاصير والحجرات ليعرفوا سبب انغلاق الرشيد عليهم ، فيهيّئوا أنفسهم ، إذا ما دخلوا إليه ، لأن يصيبوا ما في خاطره وذلك ينيلهم من عطائه ما يتمنّون . . . ولعلّ هذا الابهام في تحديد الرشيد لمجالسه ، هويّتها وأوقاتها ، يفسّر لنا ظاهرة قيام الشعراء والرواة واللغويين وأصحاب النوادر ببابه ، في انتظار الاذن ، ممّا سيجري حديث مفصّل عنه . ونضيف أنّ الناس على دين ملوكهم ، وأنّ مجالس القصور الأُخرى صورة عن مجالس الرشيد ، وأنّ الطواف بباب الأمراء ، في انتظار سانحة ، أصبح عادة لدى أدباء العصر المتكسّبين[4] . بقي أن نقول إنّ مجالس الرشيد الأدبية ، التي تنام بنومه وتستيقظ معه وتأرق لأرقه ، تقيم في قصره ما أقام هو . فإذا ظعن تظعن معه[5] . أمّا إذا تعذّر حمل جليس له إلى مجلسه فإنّه يقيم معه جلسة «بالمراسلة»[6] ، فالانتظار إلى أن تسنح الفرص ليس من طبيعة الرشيد .

---

1 حدّث النويري عن أبي إسحاق الموصلي قال : «مُطرنا ، ونحن مع الرشيد بالرقة مع الفجر ، فاتّصل إلى غد ذلك اليوم . وعرفنا خبر الرشيد أنّه مقيم مع أمّ ولده المسمّاة سحر . فتشاغلنا عنه في منازلنا . فلمّا كان من غد ، جاءنا رسول الرشيد ، فحضرنا جميعاً . وأقبل يسأل كلّ واحد منّا عن يومه الماضي وما صنع فيه ، فيخبره . الى أن انتهى إلى جعفر بن يحيى . . .» (نهاية الأرب في معرفة كلام العرب ج4 ص 50) .

2 يقول ابن عبد ربّه : «حدّث يحيى بن محمد قال : بينا نحن على باب الرشيد ننتظر الاذن ، إذ خرج الآذن فقال لنا : أمير المؤمنين يقرئكم السلام . قال : فانصرفنا . . .» (العقد الفريد ج6 ص 32) .

3 أشار إلى ذلك ابن المعتزّ إذ كتب : «اجتمعت الشعراء يوماً بباب الرشيد فسألوا الأذن فلم يؤذن لهم . ثم بدا له فقال للحاجب : اخرج إليهم فقل لهم : من اقتدر على أن يمدحنا بالدين والدنيا في ألفاظ قليلة فليدخل . .» (طبقات الشعراء ص 150) .

4 يتّضح لنا ذلك من الخبر التالي رواه الأصفهاني عن العبّاس بن عبيد الله بن سنان قال : «كنّا عند قثم بن جعفر بن سليمان ، وعنده أبو العتاهية ينشده في الزهد فقال قثم : يا عباس ، اطلب الساعة الجماز ، حيث كان ، ولك عندي سبق . فطلبته فوجدته عند ركن دار جعفر بن سليمان» . (الأغاني ج4 ص 77) وذكر البغدادي عن العتابي قوله : «اجتمعنا على باب الفضل بن يحيى البرمكي بأرمينية أربعة آلاف رجل ، يطلب كلّ بأدب وشعر وكتابة وشفاعة» . (تاريخ بغداد ج12 ص 336) .

5 عن الأصفهاني أيضاً «ركب الرشيد يوماً قبّة وسعيد بن سالم معه في القبّة فقال : أين محمد البيدق ؟ وكان رجلاً حسن الصوت ينشد فيطرب بحسن صوته . . . فحضر . فقال : أنشدني قصيدة الجرجاني ، فأنشده» . (الأغاني ج18 ص 146) .

6 ويذكر السيوطي عن إبراهيم بن عمر قوله : «سأل الرشيد أهل مجلسه عن صدر هذا البيت : ومن يسأل ا لصعلوك أين مذاهبه ؟ فلم يعرفه أحد . فقال إسحاق الموصلي : الأصمعي مريض ، وأنا أمضي إليه فأسأله عنه . فقال الرشيد : احملوا إليه ألف دينار لنفقته واكتبوا في هذا إليه . قال : فجاء جواب الأصمعي : أنشدنا خلف لأبي النشناش النهشلي . . . .» (المزهر في علوم اللغة وأنواعها ج1 ص 101) .

الفصل الثاني
رواد المجالس الأدبية

«اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لأحد من جدّ وهزل : وزراؤه البرامكة ، لم يُرَ مثلهم سخاءً وسروراً . وقاضيه أبو يوسف ، وشاعره مروان بن أبي حفصة ، كان في عصره كجرير في عصره . ونديمه عمّ أبيه العبّاس بن محمد صاحب العباسية ، وحاجبه الفضل بن الربيع أتْيه الناس وأشدّها تعاظماً . ومغنّيه إبراهيم الموصلي واحد عصره في صناعته . وضاربه زلزل ، وزامره برصوما ....»[1] .

الجاحظ

إنّ أصل شهرة هذا الخليفة ، ومصدر صيته راجع إلى أنّ حكمه عجّل بدخول عصر الآداب . فقد كان قصره المثابة التي يهرع إليها الحكماء والعلماء من أنحاء العالم . وكانت سوق البلاغة والشعر والتاريخ والفقه والطبّ والموسيقى والفنون نافقة ، إذ يقابلها الخليفة مقابلة من في سجيّته النبل والكرم . . .[2] .

المستشرق ميور

صعب علينا تحديد أوقات لكلّ نوع من أنواع مجالس الرشيد ، وكذلك الفصل بين أماكن عقدها . والآن نجد صعوبة في تحديد رواد كلّ منها بدقّة . فالمجالس الأدبية قد يحضرها رواد من المجالس الأُخرى ، كما أنّ كثيراً من الرواد يتغيّرون من جلسة إلى جلسة . ونحن مضطرّون ، والحالة هذه ، إلى الحديث عن فئات الناس التي تحضر المجالس الأدبية في البلاط ، مشيرين إلى أنّ الذين نذكرهم إنّما ورد اسمهم في ثنايا الأخبار المتفرّقة . وذكرهم كلّهم لا يعني أبداً أنّهم كانوا جميعاً حاضرين في أيّ مجلس أدبيّ للرشيد . وسنتّبع مراتب الجلساء في تحديد الفئات ، فنتكلّم على «أصحاب الكراسي» ثمّ على الحاضرين الدائمين أو شبه الدائمين ، وبعد ذلك على العابرين .

أوّلاً ـ الفئة الأولى : فئة أصحاب الكراسي

وهم على ثلاثة مستويات : القواد والقضاة والوزراء والحجّاب ، أي كبار الموظّفين ، ثمّ الهاشميّون من «أمراء الأسرة المالكة» ومعهم وجوه القبائل ، ثم كبار الأدباء . وهم جميعاً كانت توضع لهم الكراسي في مجلس الرشيد . وهذا يميّزهم من سائر الجلساء .

1 ـ كبار الموظّفين

أ ـ القواد والقضاة : ومن أبرز القواد الذين كان لهم ذكر في مجلس أدبي يزيد بن مزيد

---

1 تاريخ بغداد ج14 ص 11 .

2 عن كتاب عصر المأمون ج1 ص 134 .

الشيباني[1] ، وهو ركن من أركان دولة الرشيد : ندبه للمهمّات الجسام فلم يخيب ظنّه في أي منها . وكان عزيزاً على قلبه ، بل إنّه كان يفضّله على أولاده[2] . وهناك إشارات إلى أنّه كان ، أحياناً ، يشركه في حياته الخاصة[3] وفي مجالسه[4] . أمّا القضاة ، فأبرزهم أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم ، «وكان عالماً بالفقه والتفسير وأيّام العرب . وهو أوّل من دُعي في الإسلام بقاضي القضاة»[5] . تتلمذ على أبي حنيفة[6] ، وكان بصيراً في أمور الدين والدنيا ، حاضر البديهة ، سريع

---

1 ذكره الأصفهاني في مجلس رتّبت فيه المائدة وطلب الرشيد انشاداً من محمد البيدق لاستكمال متعته . أي أنّ ذلك كان في مجلس أدبي على مائدة راقية . (الأغاني ج13 ص 144) .

2 ابن خلكان ـ وفيات الأعيان (ج3 ص 31) .

3 حكى ياقوت المستعصمي أنّ الرشيد طلب إلى يزيد بن مزيد أن يكون مع عيسى بن جعفر في لعب الصوالجة ، فرفض وقال معتذراً : «قد حلفت ألاّ أكون على أمير المؤمنين في جدّ ولا هزل» . (أسرار الحكماء ص 111) و(وفيات الأعيان ج3 ص 304) .

4 عندما انتهى يزيد من قتل الوليد بن طريف الشاري ، كان الرشيد قد وجد عليه واتّهمه بالمماطلة في الحسم ، ثم رضي عنه واستقبله في مجلسه ؛ فألقى بين يديه خطبة قصيرة مشهورة ، وهي قيّمة إذ تمثّل موقع قمّة الهرم العسكري من الرشيد ، وأسلوب الخطاب الذي كان الخليفة لا يرتضي سواه . من هذه الخطبة : «جزاك الله ، يا أمير المؤمنين ، في حال سخطك ، جزاء المحسنين المرغبين ، وفي حال رضاك ، جزاء المنعمين المتطولين» (انظر تاريخ الطبري ج8 ص 353 والعقد الفريد ج2 ص 148 وزهر الآداب ج3 ص683) . . . هذا ، وكان الرشيد ، لشدّة اهتمامه به ، أو من باب الحرص والحذر ، يتتبّع أخباره ومدح الشعراء له ، وينبّهه إلى ما فاته من ذلك ، ويساعده على إثابتهم . (انظر الأغاني ج18 ص 318 ووفيات الأعيان ج3 ص 297) . وحين توفي عام 185هـ بكاه الرشيد وظلّ يبكيه بدموع غزيرة كلّما سمع رثاء التيميّ له : أحقّاً أنّه أودى يزيد ؟ . . . (انظر ابن الأثير ج5 ص 111 ووفيات الأعيان ج3 ص 304) ونورد أخيراً خبر هذه الجلسة الهادئة عن ابن خلكان : «قال هارون الرشيد يوماً : يا يزيد ، إنّي قد أعددتك لأمر كبير . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّ الله أعدّ لك منّي قلباً معقوداً بنصيحتك ، ويداً مبسوطة لطاعتك ، وسيفاً مشحوذاً على عدوّك ، فإذا شئت فقل» . (وفيات الأعيان ج3 ص 304) ولشدّة دالته على الرشيد حُقّ لمسلم بن الوليد أن يذكره في مدح الخليفة : [من البسيط]

خليفــةَ اللهِ إنَّ النصْـرَ مُقتصَرٌ … عليكَ ، مُذْ أنْتَ مَبْلُوٌّ ومُختَبَرُ

أعددتَ للحربِ سيفاً مِن بني مَطَرٍ … يَمضي بأمرِكَ مَخلُوعاً لَـهُ العُذُرُ

(ديوان صريع الغواني ص 254) .

5 ابن تغري بردي عن لسان الذهبي . ويضيف : «مرض أبو يوسف فعاده أبو حنيفة . فلمّا خرج قال : إن يمت هذا الفتى فهو أعلم من عليها» . (وأومأ إلى الأرض) (النجوم الزاهرة ج2 ص158) وكانت وفاته عام 183هـ .

6 تاريخ بغداد ج14 ص 244 . ويقول البغدادي عنه إنّه حفظ التفسير والمغازي وأيّام العرب ، وإنّ الفقه أقلّ علومه . (تاريخ بغداد ج14 ص 246) . وكان لأبي يوسف زميل آخر في البلاط ورفيق له في التتلمذ على أبي حنيفة وفي نشر مذهبه ، وهو محمد بن الحسن الشيباني الفقيه . وكان الرشيد يقدّره ويجلسه على كرسي في حضرته ويأمره ألاّ ينزعج لنهضته .

الاجتهاد والفتاوى ، أوجد للرشيد كثيراً من المخارج الشرعية لمشاكله[1] ، وألّف له كتاب الخراج مقدماً له بنصائح مهمة[2] . ولعلّ هذا الكتاب هو المؤلف الوحيد ، من انتاج البلاط ، الذي وصل إلينا سالماً عبر القرون الطويلة التي فصلتنا عنه . ولأبي يوسف مشاركة في مجالس لغوية ومناظرات معروفة في الفقه مع الكسائي وسواه[3] .

ب ـ الوزراء والحجّاب[4] : ونخصّ بالذكر منهم : البرامكة والفضل بن الربيع .

فالبرامكة مثّلوا في حياة الرشيد عدّة من الأدوار ، كلّها مهم وحاسم على أيّ صعيد كان[5] .

---

1 من أطرف الفتاوى ما ذكره القزويني : «حُكي أنّ الرشيد قال لزبيدة : أنتِ طالق ثلاثاً إن بتِّ الليلة في مملكتي . فاستفتوا في ذلك ، فقال أبو يوسف : تبيت في أحد المساجد . فولاّه القضاء في جميع مملكته . . . وحُكي إن زبيدة قالت للرشيد : أنت من أهل النار . فقال لها : إن كنتُ من أهل النار فأنت طالق ثلاثاً . فسألوا عنه . فقال : هل يخاف مقام ربّه ؟ قالوا : نعم . قال : فلا يقع الطلاق لأنّ الله تعالى يقول : ولمن خاف مقام ربّه جنتان» . (آثار البلاد وأخبار العباد ص 317) .

2 من وصايا أبي يوسف إلى الرشيد : «وقد ينبغي ، يا أمير المؤمنين ، أيّدك الله ، أن تتقدّم بالرفق بأهل ذمّة نبيّك وابن عمّك ، محمد ﷺ والتفقّد لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذَوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ، ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلاّ بحقّ يجب عليهم ، فقد روى عن رسول الله ﷺ أنّه قال : من ظلم معاهداً أو كلّفه فوق طاقته ، فأنا حجيجه يوم القيامة . . .» (كتاب الخراج ص125) .

3 من ذلك ما ذكره البغدادي عن تحدّي الكسائي لأبي يوسف في معنى «طالِق وطالق وطالق» وعجز أبي يوسف عن اكتشاف الدقّة اللغوية عند اختلاف حروف العطف . (تاريخ بغداد ج11 ص 406) . ومن ذلك ما ذكره التوحيدي عن مناظرة بينهما في أهمّية مهنة كلّ منهما ، قال : «كان الرشيد يحبّ جمع العلماء ، ويسمع كلامهم . فحضروا ذات يوم وفيهم أبو يوسف صاحب أبي حنيفة ، والكسائي يذكر النحو . فقال له : احذق الناس به يكون معلماً . فقال الكسائي : اسألك مسألة في الفقه ؟ قال : «سل . . . .» وسأله عن الفرق بين «أنا قاتلٌ غلامَك» وبين «أنا قاتلُ غلامِك» فعجز أبو يوسف عن الجواب الصحيح وندم على كلامه» . (البصائر والذخائر ج2/1 ص 253) . راجع ص 135 من البحث .

4 كانت الحجابة لبشّار بن ميمون (العقد الفريد ج5 ص 118 والذهب المسبوك ص 113) وفي عام 172هـ قلّد حجابته محمد بن خالد بن برمك (الوزراء والكتّاب ص 187) ثم صرفه الرشيد عن حجابته وقلّدها الفضل بن الربيع عام 179هـ (المصدر السابق ص 233) .

5 ذكر الطبري في حوادث عام 170هـ : «قلّد الرشيد يحيى بن خالد الوزارة وقال له : قد قلّدتك أمر الرعية وأخرجته مني إليك ، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت ، واعزل من رأيت» . (تاريخ الرسل والملوك ج8 ص 233) وفي عام 171هـ «دفع الخاتم إلى يحيى بن خالد فاجتمعت له الوزارتان . . .» (الطبري ج8 ص235) فكان يحيى وابناه الفضل وجعفر يجلسون للناس جلوساً عامّاً ، في كلّ يوم ، إلى انتصاف النهار» (الوزراء والكتّاب ص 177) «ثم ولّى الرشيد جعفراً المغرب كلّه من الانبار إلى إفريقية ، في سنة ستّ وسبعين ومئة . وقلّد الفضل المشرق كلّه من النهروان إلى أقصى بلاد الترك» (الوزراء والكتّاب ص 190 ووفيات الأعيان ج2 ص146) . «وبقيت الوزارة للبرامكة إلى أن نكبوا عام 187هـ فخلفهم الفضل ابن الربيع» (العقد الفريد ج5 ص118 والفخري في الآداب السلطانية ص 211 وخلاصة الذهب المسبوط ، مختصر من سير الملوك ص 113) .

رَبّى يحيى الرشيد الفتى ، وحماه شاباً من سطوة أخيه الهادي ، حين حاول خلعه من ولاية العهد ، وشدّ ازره وشجعه ، كما صبر هو على الحبس وعلى التعرّض للقتل في سبيل ذلك . ويحيى لا يكاد يتصرّف إلاّ عن خطّة واضحة ، وبرؤيا مستقبليّة . كان عنده الدهاء وكانت عنده الحنكة ، وله بعد النظر . فإذا صحّ أنّ البرامكة كانوا أصحاب أطماع ، وأنّهم ، كما اتهموا ، كانوا يسعون إلى الاستئثار بالسلطة دون الرشيد ، يكون يحيى رأساً مدبّراً لذلك[1] .

وإن كان ، هو ، يتنصّل من التهمة ويلوم ابنه جعفراً على التصاقه بحياة الرشيد الخاصّة والعامّة ، فهذا قد يكون مردّه إلى الحذر . إنّ تدبير يحيى يتّصف بالرويّة والاناة : لقد أعدّ أولاده ليكونوا وزراء فأكثر ، وسقاهم ، مع اللبن ، أساليب اكتساب ودّ الناس ، وأرضعهم حليب المعرفة والكرم حتى باتوا ، وخصوصاً جعفر والفضل ، نادري المثال ثقافة ، نادري المثال حكّاماً وولاة ، وليس لهم مثيل كمجالسين[2] . وهم ، جميعاً ، أباً وأبناء ، قد ساهموا في توطيد دعائم امبراطورية الرشيد ، كما ساهموا في تلوينها بألوانها الزاهية ، أدبية كانت الألوان أو سياسية أو عسكرية . وعلى افتراض أنّهم لم يطمعوا ، بادىء ذي بدء ، في الاستيلاء على السلطة ، فإن ما وصلوا إليه من استعباد قلوب الناس باحسانهم ، وما سمعوه من اطراء لفضائلهم وما شاهدوه من ولاء الناس لهم وقناعتهم برياستهم[3] ،

---

1 استدعى الرشيد يحيى بن خالد من الحبس ، في أعقاب النكبة ، واتّهمه بتغذية ثورات الخارجين تمهيداً لارسال أولاده يقضون عليها ويكسبون حظوة عند الرشيد ومجداً سياسيّاً . (انظر الوزراء والكتّاب ص 243) .

2 «كان جعفر أنطق الناس ، قد جمع الهدو والتمهّل والجزالة والحلاوة ، وإفهاماً يغنيه عن الإعادة . . . كان الرشيد يسمّي جعفراً : أخي ، ويدخله معه في ثوبه» (الوزراء والكتّاب ص204) .

3 نورد بعض المقتطفات السريعة من مدح البرامكة بالرياسة والرأي والجدارة السياسية والصلاح للحكم ، ثم تفضيلهم على العرب طراً من نزاريين وقحطانيين : كان جعفر بن يحيى «يدعى السلطان لقيامه بالدولة» (مقدّمة ابن خلدون ج2 ص 617) وجاء عند المسعودي في مدح جعفر : [من المتقارب]

أضافَ إلى بَيعَتِهِ بَيعةً فقامَ بها جعفرٌ وَحدَهُ
بنو بَرمَكٍ أسَّسوا مُلكَهُ وشَدُّوا لوارِثِهِ عَقْدَهُ

(مروج الذهب ج3 ص 281) .

وأورد الطبري لمروان بن أبي حفصة في الفضل بن يحيى : [من الطويل]

ليحيا بِكَ الإسلامُ إنَّكَ عِزُّهُ وإنَّكَ مِن قَومٍ صغيرُهُمُ كَهْلُ
له عادةٌ : أنْ يبسُطَ العَدلَ والنَدى لِمَنْ ساسَ مِنْ قحطانَ أو مَنْ تَنَزَّرا

ولسلم الخاسر في الفضل أيضاً : [من الوافر]

وقومٌ منهمُ الفضلُ بنُ يحيى نَفيرٌ ما يُوازِنُهُ نَفيرُ

(تاريخ الطبري ج8 ص 258)

ويصرّح مروان بن أبي حفصة بأنّ الرشيد لا غنى له عن جعفر بن يحيى ، فهو يشير عليه بما يجب عمله كلّما تأزّمت الأمور : [من الطويل]

ذلك كلّه كان كفيلاً بأن يسلب الحذر من أشدّ النفوس بصيرة ومن أكثر العقول تحسّباً ، وأن يجعل البرامكة يوقنون أنّهم ، لهذا الأمر الجليل قد خلقوا ؛ وإلاّ كيف يتوسّطهم فضلاء الهاشميين[1] وكيف يحلف شيوخ بني العبّاس ألاّ يقفوا بباب سواهم[2] ؟

ولقد سبق لنا القول إنّ البرامكة لم يكتفوا بحمل المسؤولية عن الرشيد حين استكان إليهم ، بل خلقوا له مجالات المرح والطرب ، وأوصلوا إليه فحول الشعراء والرواة والمغنّين ، فوجد شاغلاً لأوقاته . وكان يستطيع ، معهم ، أن يكون الخليفة الذي تصوّره حكايات ألف ليلة وليلة ، يطوف بغداد ليلاً ، ومعه وزيره جعفر[3] ، يتفقّد الرعيّة ، ويبحث عن مغامرة ، ثم يستقبل الشعراء نهاراً وليلاً ، ويتدخّل في مشيئة الأقدار ليجمع ، على وسادة واحدة ، رأسي محبّين باعدت بينهما صروف الدهر[4] .

= وزيرٌ ، إذا نابَ الخليفةَ حـادثٌ ، أشارَ بمـا عنـهُ الخليفـةُ يَصدُرُ
(طبقات ابن المعتزّ ص 45) .

1 عندما أُحسّ عبد الملك بن صالح الهاشميّ بموجدة الرشيد عليه ، قصد جعفر بن يحيى في منزله طالباً منه أن يصفي قلب الخليفة عليه . (العقد الفريد ج1 ص 266 والوزراء والكتّاب ص 212 ووفيات الأعيان ج1 ص 187) .

2 قصد محمد بن إبراهيم الإمام الفضل بن يحيى ومعه حقّ فيه جوهر ليرهنه مقابل ألف ألف درهم يغطّي بها ديناً عليه . فأرسل الفضل إلى منزل محمد المال وحقّ الجوهر كما جعل الرشيد يصله بألف ألف أُخرى مع إنّ صلة الرشيد له لا تتجاوز عادة عشرين ألف دينار فقال محمد للفضل : «هذا ما تهيّأ بك ، ولك ، وعلى يديك . وما أقدر على شيء أقضي به حقّك ولا شكر أجازي به معروفك . غير أنّه عليَّ وعليَّ (وحلف أيماناً مؤكّدة) إن وقفت على باب أحد سواك ولا سألته حاجة أبداً ، ولو سففت التراب . . . فلم يزل على ذلك إلى أن مات» (الوزراء والكتّاب ص 195 والفخري في الآداب السلطانية ص 204) وانظر في أطماع البرامكة فصل «مناسبة البيعة» ص 475 وما بعد من البحث .

3 «خرج الرشيد يوماً في ثياب العوام ومعه يحيى بن خالد وخالد الكاتب وإسحاق بن إبراهيم الموصلي وأبو نواس ، وعليهم ثياب العامة . فنزلوا سهرية مع ملاح غريب ، اختلاطاً بالعوام» (حاشية التطفيل) عن (الظراف والمتماجنين لابن الجوزي ص 54) .

4 يذكر التنوخي قصّة جارية يريد مولاها أن يبيعها ليخلصها من فقره ، وهما متعلّقان كلّ منهما بالآخر ، فتعرض على جعفر ويعلم خبرها فيهبها المال ويعيدها إلى صاحبها ثم يخبر الرشيد الذي يجري عليهما «رزقاً سلطانيّاً» . ثم يعود التنوخي إلى رواية الحادثة عن كتاب «السمار والندماء» جاعلاً مَن حضر لتقليب الجارية : الرشيد وجعفر متنكّرين ومعهما إبراهيم الموصلي والنخاس (الفرج بعد الشدّة ص 397) وفي مكان آخر يروي التنوخي قصّة شاب أحبّ جارية وهام بها ونظم الشعر فيها حتى افتضح أمرها ولم يعد والدها يرضى بتزويجها منه . فوصل الخبر إلى جعفر فحدّث الرشيد به . فأمر ، من وقته ، بالكتابة إلى عامل الحجاز بإشخاص الرجل وابنته وسائر أهله ، إلى حضرته . فلم يمض إلاّ مسافة الطريق حتى حضروا . فخطب الرشيد منه الجارية للفتى ، فأجابه وزوّجهما ، وحمل الرشيد إليه ألف دينار لمهرها وألف دينار لجهازها ، وألف دينار لنفقة الطريق» . ثم وهب الفتى ألف دينار يؤسّس بها عش الزوجية السعيد . (الفرج بعد الشدّة ص 430) .

والبرامكة ، حين أوصلوا إلى الرشيد شعراء ولغويين[1] ، فعلوا ذلك وفق خطّة ظاهرة الإحكام : كانوا يصطنعون الشاعر وينعمون عليه فيتحدّث بفضلهم ويشبعهم مدحاً ، قبل أن يصلوه بالرشيد . وكانوا يصرّون على أن يتضمّن المدح الموجّه إليهم ذكرهم الصريح بالاسم لا بالتلميح[2] . فإذا ما اتّصل شاعرهم بالرشيد ، يكونون قد قطفوا باكورة معانيه وجعلوا لسانه يسبق إلى اللهج باسمهم وفعالهم ويسهل عليه أن يذكرهم في مدحه للرشيد ، بل أن يشركهم في المعاني التي خُصّ بها الخليفة[3]. هذا إذا أوصلوا شاعرهم إليه . فهم كثيراً ما يحجزون الشاعر

---

1 من الشعراء الذين اصطفاهم البرامكة ثم أوصلوهم إلى الرشيد : أشجع بن عمرو السلمي . فهو ، حسب رواية الأصفهاني والبغدادي ، «اتّصل بالبرامكة وغلب منهم على جعفر بن يحيى» (تاريخ بغداد ج7 ص 45) «وأصفاه مدحه فأعجب به ووصله إلى الرشيد ومدحه . فأعجب به أيضاً فاثرى وحسنت حاله في أيّامه ، وتقدّم عنده» (الأغاني ج18 ص 143) .

كلثوم بن عمرو العتابي . فقد كتب البغدادي : «كان العتابي منقطعاً إلى البرامكة فوصفوه للرشيد ووصلوه به فبلغ عنده كلّ مبلغ ، وعظمت فوائده منه» (تاريخ بغداد ج12 ص488) .

منصور النمري . والكلام أيضاً للبغدادي : «العتابي وصفه للفضل بن يحيى وقرظه عنده حتى استقدمه من الجزيرة واستصحبه . ثم وصله بالرشيد» (تاريخ بغداد ج13 ص 66) .

الأصمعي . ففي رأي الجهشياري «كان جعفر أوصل الأصمعي إلى الرشيد» . (الوزراء والكتّاب ص 189) .

2 أنشد أبو الخطّاب الفضلَ بن يحيى : [من السريع]

وَجُدْ لَهُ يا ابنَ أبـي عَلِيٍّ — بِنَفْحةٍ مـن مَلِكٍ سخيٍّ
فإنّـه عَـوْدٌ على بَـدِيٍّ — فإنّمـا الوسْميُّ بـالوليِّ

فقال الفضل : بنفحة من نفح برمكي . فجعله كذلك . . . وأنشده مروان بن أبي حفصة : [من الطويل]

نَفَـرتَ فـلا شُلّتْ يدٌ خالديّةٌ — رتقتَ بها الفِتقَ الذي بينَ هاشِمِ

فقال له الفضل : قل «برمكية» فقد يشركنا في خالد كثيرون ، ولا يشركنا في برمك أحد . (العسكري كتاب الصناعتين ص 78) .

3 من المعروف أنّ الرشيد كان يمدح بالغزو والحجّ ، دون الخلفاء جميعاً . وهذا المعنى أخذه محمد بن مُناذر وا ستعاره لمدح البرامكة في عام الأعطيات الثلاث ، حين حجّوا مع الرشيد وولديه ، فقال : [من الطويل]

أتانا بنو الأملاكِ مِنْ آل بَرمَكٍ — فيا طِيبَ أخبارٍ ويا حسنَ مَنظرِ
لهمْ رِحلةٌ في كلِّ عامٍ إلى العِدا — وأُخرى إلى البيتِ العتيقِ المُستَّرِ

(طبقات ابن المعتزّ ص 125 ووفيات الأعيان ج3 ص 225) ومن المعروف كذلك أنّ الرشيد كان يحبّ أن يمدح بأنّه حامي حمى السلام ، الذي لا تغفل عينه عن شبر من مملكته . وهذا المعنى نفسه أخذه إسحاق بن حسّان الخريمي ليمدح به يحيى فقال : [من الكامل]

مَن مُبلغٌ يحيى ، ودون لقائِهِ ، — زَأَراتُ كلِّ خَنـابِسٍ هَمْهـامِ

الفحل ، ويغنونه عن الاتّصال بسواهم ، بل قد يحجبونه عن ذلك الاتّصال ليبقى شاعرهم وحدهم وزينة لمجالسهم[1] . . . وحين كانت العلاقة بين الرشيد والبرامكة علاقة حميدة ، كان يحسن في عينيه ما يفعلون : رفعوا قصورهم حتى كادت تطغى ، روعة ، على قصوره . فقبل ذلك ، بل شجّعهم وساعدهم على فرشها[2] . . . زاد الواقفون ببابهم فشكر المولى على أن وهبه هؤلاء الاتباع المخلصين يحملون عنه عبء النظر في قضايا الناس وقضاء حاجاتهم[3] . . .

= يا راعيَ الإسلام ، غيرَ مفـرِّط ، ... في لِـينٍ مُغتَبط وطِيبِ مَشامِ
فلكلِّ ثَغْرٍ حارسٌ مــن قلبِهِ ... وشعاعُ طَرفٍ ، ما يُفتِّرُ ، سامِ

(الطبري ج8 ص 251)

والخليفة ، المترفّع عن البشر ، يغدو جعفر صنواً له : إذا أُرسل في مهمة فكأنّ الخليفة هو الذاهب إليها بنفسه . فمنصور النمري يخاطب أهل الشام حين توجّه إليهم جعفر لاخماد فتنة العصبية ، قائلاً :

فإنّ أميرَ المؤمنـينَ ، بِنفسِهِ ، ... أتاكـمْ ، وإلاّ نَفسَه ، فَخِيارُها

(الطبري ج8 ص 263) .

1 يحدّثنا الجهشياري وياقوت عن سلم الخاسر أنّه غلب على الفضل بن يحيى وكثرت فيه مدائحه ، وعظم إحسان الفضل إليه حتى قال فيه أبو العتاهية :

إنّما الفضـلُ لِسَلْمٍ وحدَهُ ... ليسَ فيـهِ لسوى سَلْمٍ دَرَكْ

(الوزراء والكتّاب ص 204 ومعجم الأدباء ج11 ص 237) . . ويصف الفضل بن الربيع أشجع السلمي للرشيد ، معرّضاً باستئثار البرامكة به فيقول : «هو أشعر شعراء هذا الزمان ، وقد اقتطعته البرامكة . فأمر بإحضاره وإيصاله مع الشعراء» (الأغاني ج18 ص 161 ومعاهد التنصيص على شواهد التلخيص ج4 ص 226) . وقد حفظ أشجع للفضل بن الربيع تلك اليد التي فتحت لـه باب البلاط ، ولم يرد البرامكة له الدخول إليه بينما كان قاب قوسين أو أدنى منه . فقال يمدح ابن الربيع مشيراً إلى الحادثة :

يا ابنَ الربيعِ ، حَسَرتَ شُكري بالتي ... أوليتَني في عَـودِ امركَ والبَدي
أوصلتَني ورَفَدتَنـي ، وكِلاهمـا ... شَرَفٌ فثـأْتَ بــه عيـونَ الحُسَّدِ
ووصَفْتَني ، عنـدَ الخليفةِ ، غائباً ... وأذنتَ لي ، فشهدتُ أفخَـرَ مَشهَدِ

(الأغاني ج18 ص 163) وكذلك «أبو قابوس الحيري النصراني كان منقطعاً إلى البرامكة» (الوزراء والكتّاب ص 210) «وكان أبان اللاحقي خاصاً بجعفر بن يحيى . . . وصنع كتاب كليلة ودمنة شعراً وأهداه إلى جعفر فوهبه مئة ألف درهم . . .» (الأغاني ج18 ص 211) .

2 ابن الساعي البغدادي ــ نساء الخلفاء ص 75 .

3 «كان البرامكة يسكنون بحذائه ، من الجانب الآخر ، وبينهم وبينه عرض دجلة . قال : فنظر الرشيد فرأى اعتراك الخيول وازدحام الناس على باب يحيى بن خالد فقال : جزى الله يحيى خيراً : تصدّى للأمور وأراحني من الكدّ ، ووفّر أوقاتي للذة» (الفخري في الآداب السلطانية ص 208) ويورد الجهشياري نصّاً شبيهاً يزيد فيه قول الرشيد عن يحيى : «بارك الله عليه وأحسن جزاءه . فقد خفّف عنّي وحمل الثقل دوني وناب منابي» (الوزراء والكتّاب ص225) . راجع ص 459 هامش 2 من البحث .

مدحهم الشعراء وأشركوهم في مدائحه ، فاستساغ ذلك كما قلنا . . . وصفوهم بالمثاليات المدحية ، بل قصروها عليهم دون استثناء أحد من الناس ، حتى له ، فلم يعترض[1] . لم يكن هناك حدّ لنفوذهم عليه ، بل كان هو الذي يطلب إلى الشعراء مدحهم بحضوره وغيابه[2] . . . ثم بلغ

---

1 من ذلك قول أشجع السلمي في جعفر :

يُحِبُّ الملوكُ ندى جعفرٍ ولا يصنَعونَ كما يَصنَع

وليسَ بأوسعِهِمْ في الغِنى ولكـنَّ معروفَـهُ أوسَعُ

وكيفَ يَنالـونَ غاياتِـهِ وهمْ يجمَعونَ ولا يَجمَعُ ؟

(الوزراء والكتّاب ص 215 وديوان المعاني ج1 ص 64)

ومن ذلك قول التميمي :

لعمرُك ، ما الأشرافُ في كلِّ بلدةٍ ، وإن عَظُمُوا ، للفضلِ ، إلاّ صَنائعُ

ترى عُظَماءَ الناس ، للفضلِ ، خُشَّعاً إذا ما بدا ، والفضلُ ، لله ، خاشِعُ

(الأغاني ج19 ص 330) . . . ويقول الأصمعي :

إذا قيـلَ : مَـنْ للنَدى والعُلى ؟ مِنَ الناسِ ؟ قيـلَ : الفتى جعفرُ

(الوزراء والكتّاب ص 206) ولأبي الحجناء نصيب الأصغر :

عندَ الملـوكِ مَضَرَّةٌ ومَنافِـعٌ وأرى البرامـكَ ، لا تَضرُّ ، وتَنْفَعُ

(المصدر السابق ص 203) . . . ولسلم الخاسر :

أقامَ الندى والجـودُ في كلِّ بلدةٍ أقامَ بها الفضلُ بنُ يحيى بنُ خالدِ

(الوطواط ـ الغرر والعرر ص 250)

ولمروان بن أبي حفصة في الفضل :

وقَدْ فاضَ عُرفُـكَ حتى مـا يُعادِلُهُ غيثُ مُغيثٍ ، ولا بَحرٌ لَـهُ حَدَبُ

أَلَمْ تَـرَ أَنَّ الجودَ من لَدُنِ آدمٍ تَحَدَّرَ حتى صارَ في راحةِ الفَضْلِ ؟

إذا الناسُ راموا غاية الفضل في الندى وفي البأس ألفوها ، من النجم ، أبعدا

(تاريخ الطبري ج8 ص 257 و258)

ويكفي أن نشير بالمقابل إلى أنّ مروان بن أبي حفصة سُحل في مجلس الرشيد حين مدحه ، بعد قوله في رثاء معن بن زائدة :

وقلنا أيـنَ نَرحـلُ بعـدَ مَعنٍ وقـد ذَهـبَ النوالُ فـلا نَوالا ؟

(الأغاني ج10 ص 91) .

2 مدح الشعراء جعفر بن يحيى في مسيره إلى الشام ، وفي عودته منها بعد اخماد فتنة العصبية ، وذلك بناء على طلب الرشيد . (انظر تاريخ الطبري ج8 ص 262 والوزراء والكتّاب ص190) . . كذلك خرج الرشيد إلى بستان أبي جعفر لاستقبال الفضل العائد من خراسان . وكذلك أمر الناس بالتسليم عليه والشعراء بمدحه بعد رجوعه من اخماد ثورة يحيى بن عبد الله . (انظر الطبري ج8 ص 243 وص 259 والوزراء والكتّاب ص 191 ووفيات الأعيان ج2 ص 146) . وراجع ص 326 من البحث .

السيل الزبى ، وزاد تدخّلهم في الشؤون العامّة والخاصّة ، حتى وصل إلى دار الحريم[1] : تدخل يحيى بن خالد في حركاتهنّ وسكناتهنّ ، وأخذ جعفر المبادرة في تزويج بنت الرشيد قبل استشارته[2] . فكاد الرشيد يصبح الشخصيّة الثانية في الدولة . وكان لا بدّ له من أن يتذمّر . . وتكرّرت قصّة الخيزران وموسى الهادي عينها ولكن بوجوه جديدة . فإذا ثبت أنّ الهادي كاد يقتل أمّه بالسمّ ليتخلّص من نفوذها ، وأنّها ، هي الأخرى ، قتلته خنقاً لتزيحه من دربها[3] ، فلا غرابة في طموح البرامكة ، ولا غرابة ، بعد ذلك ، في نكبة الرشيد لهم[4] .

أمّا الفضل بن الربيع[5] ، فيمثّل التيّار العربي في القصر[6] ، بمقابل التيّار الفارسي الذي غذّاه

---

1 وكان يحيى بن خالد ينظر إلى قصر الرشيد وحرمه ويغلق أبواب القصر وينصرف بالمفاتيح معه حتى ضيّق على حرم الرشيد . فشكته زبيدة إلى الرشيد فقال : «يا أبت ، وكان يدعوه كذلك ، ما لزبيدة تشكوك ؟ فقال : أمتّهم أنا في حرمك ، يا أمير المؤمنين ؟ فقال : لا . قال : فلا تقبل قولها فيّ . .» (وفيات الأعيان ج1 ص 189) و(مروج الذهب ج3 ص 292) .

2 قصّة عبد الملك بن صالح مع جعفر بن يحيى ذكرتها معظم المصادر القديمة . وملخّصها أنّ عبد الملك بن صالح ، الأمير الهاشمي الجليل ، قصد منزل جعفر بن يحيى يتواسطه في إزالة موجدة الرشيد عليه . وبخطأ من الحاجب ، أدخل إلى جعفر في مجلس شراب . فما كان من عبد الملك إلاّ أن تباسط مع الحاضرين ليزيل ارتباكهم ، ثم عرض على جعفر حاجاته وهي ، كما أوردها ابن طباطبا : «ثلاث حوائج . . . أوّلها أنّ عليَّ ديناً مبلغه ألف ألف درهم ، أريد قضاءه . وثانيها أريد ولاية لابني يشرف بها قدره . وثالثها أريد أن تزوّج ولدي بابنة الخليفة ، فهي بنت عمّه وهو كفء لها . فقال له جعفر بن يحيى : قد قضى الله هذه الحوائج الثلاث . أمّا المال ففي هذه الساعة يحمل إلى منزلك . وأمّا الولاية فقد وليت ابنك مصر . وأمّا الزواج فقد زوّجته فلانة ابنة مولانا أمير المؤمنين ، على صداق مبلغه كذا وكذا . فانصرف في أمان الله» . ومع ما يمكن أن يوضع على هذه القصّة من علامات استفهام كبيرة ، كجرأة عبد الملك ، وهو المعروف بالرأي والحزم والعصبية العربية ، على طلب ما طلبه من جعفر ، وجرأة جعفر على تقرير ما قرّره في مجلس شرابه ، والاستغراب الضعيف الذي أبداه الرشيد عندما علم بما جرى ثم موافقته على امضاء جعفر ، مع كلّ هذا ، فقد روى الخبر معظم الثقات من المؤلّفين . (انظر العقد الفريد ج5 ص 72 والوزراء والكتّاب ص 212 ووفيات الأعيان ج1 ص 187 والفخري ص 205) .

3 الطبري ج8 ص 206 .

4 «قتل الرشيد البرامكة لأنّهم كانوا يريدون نقل الملك إلى عثمان بن نهيك الفاسق الزنديق . .» (البدء والتاريخ ج6 ص 104) .

5 «كان الفضل بن الربيع شهماً خبيراً بأحوال الملوك وآدابهم» (الفخري في الآداب السلطانية ص 211) ويصفه السبكي بقوله «كان من رجال الدهر رأياً وحزماً ودهاء ورياسة ومكارم وعظمة في الدنيا . . . كان يروم التشبّه بالبرامكة ومعارضتهم ، ولم يكن له إذ ذاك من المقدرة ما يدرك اللحاق بهم . فمن ثم كانت بينه وبينهم شحناء إلى أن قدّر الله زوال نعمة البرامكة على يدي الفضل» . (طبقات الشافعية الكبرى ج1 ص 269 وانظر كذلك وفيات الأعيان ج2 ص 151) .

6 من شعر الفضل بن الربيع ما أنشده الصولي :

البرامكة[1] . وللفضل بن الربيع مؤيّدوه : فكثيرون من الهاشميين حدّثتهم أنفسهم بالدعوة إلى أنفسهم وشقّ عصا الطاعة على الرشيد ، قبل نكبة البرامكة[2] . ولم يكن الأمر مجرّد مغامرات عابرة ، بل هو تعبير عن سخط الهاشميين العرب الذين ما كانوا ليقبلوا ما تصير إليه الدولة من انحراف ، بين خليفة غارق في متعه ، وبرامكة فرس يُحكِمون خطة ، ويضيّقون الدوائر تدريجيّاً[3] . ولئن لم تنجح أيّ من محاولات التمرّد ، فلا شكّ في أنّ مَن كانوا وراءها قد رموا ،

= إنّي امرؤٌ من هاشمٍ بفِناء مَعمورِ النواحي

أهلِ الهدى وذوي التُقى وأُولي البساطةِ والسَماحِ

(معجم الشعراء ص 183 وزهر الآداب ج2 ص 552) .

1 يظهر تعصّب البرامكة على العرب في هجاء ابن عنبسة لمحمد بن يحيى :

لكنّ ذَنبي إليكَ أنّي جدّيَ قحطانُ أو نِزارُ

(الورقة ص 93) . ومن مظاهر التيّارين ما ذكره الأصفهاني عن كون «يزيد بن مزيد عدوّاً للبرامكة ، مصافياً للفضل بن الربيع» (الأغاني ج19 ص 242) وتظهر الكسروية في ما رواه المرزباني عن مدح يحيى بن سعيد الأنباري لهم :

يا ابنَ البرامكةِ المُبرِّزِ سَبْقُهمْ عِندَ الطِعانِ وعِندَ حُرِّ المَصدَقِ

وابنَ المرازبِ والأكاسرةِ الأُلى فاقوا بفضلِ سماحةٍ وتَخلُّقِ

(معجم الشعراء ص 490) .

2 يذكر ابن تغري بردي في تأريخه لولاة مصر سيرة بعض الأمراء الهاشميين الذين ولوها وحين أحسّوا بضبط أمورها وبالتأييد الشعبي لهم ، همّوا بالخلع وإعلان العصيان :

ففي حديثه عن علي بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عبّاس ، يقول : «وكان علي بن سليمان عادلاً وفيه رفق بالرعيّة ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر . ومنع في أيّامه الملاهي والخمور ، وهدم الكنائس بمصر وأعمالها . . . وكان كثير الصدقة في الليل ، فمالت الناس إليه . فلمّا رأى ميل الناس إليه ، أظهر ما في نفسه من أنّه يصلح للخلافة .

وطمع في ذلك وحدّثته نفسه بالوثوب . فكتب بعض أهل مصر إلى الرشيد وعرّفه ذلك . فسخط عليه هارون وعاجله بعزله . . .» (النجوم الزاهرة ج2 ص 62) .

وفي حديثه عن والي مصر لعام 175هـ ، موسى بن عيسى . . . يقول : «حدّثته نفسه بالخروج على الرشيد . فبلغ ذلك الرشيد . . . فقال : والله ، لا عزلته إلاّ بأخسّ من على بابي ، فقال لجعفر بن يحيى : ولّ مصر أحقر من على بابي وأخسّهم . .» (المصدر السابق ص 78) .

وفي حديثه عن عبد الملك بن صالح الذي ولي مصر كما ولي دمشق والجزيرة ، يقول : «كان عبد الملك هذا شريفاً نبيلاً . . وكان أوّلاً معظّماً عند الرشيد . . حتى نقل عنه أنّه يريد الخلافة فعزله عن دمشق . . .» (المصدر السابق ص 90 و91) .

3 يروي الطبري ، في حديثه عن فترة ولاية الفضل بن يحيى لخراسان : «ذُكر أنّ الفضل بن يحيى اتّخذ ، بخراسان ، جنداً من العجم سمّاهم العبّاسيّة وجعل ولاءهم لهم وأنّ عدّتهم بلغت خمسمئة ألف رجل ، وأنّه قدم منهم بغداد عشرون ألف رجل ، فسُمّوا ببغداد الكرنبية . وخلّف الباقي منهم بخراسان على أسمائهم ودفاترهم» . وفي ذلك

جميعاً بثقلهم في إدخال الفضل بن الربيع إلى البلاط ، واستخدموا لذلك كلّ من له نفوذ على الرشيد ، بمن فيهم زبيدة العزيزة عليه . وكان الرشيد يحبّ أن يستجيب لهم لأنّه ، في أوّل أمره ، لم يكن يعي الشرك الذي يجره إليه وزراؤه ، كما لم يعِ أهميّة الفضل بن الربيع بالنسبة إلى بني هاشم . كانت زبيدة تحدّثه بشأنه في لحظة صفاء ليلية ، فيهمّ بتوليته وزارة أو عملاً ، ثم يصبح وقد علمت الخيزران ، أمّه ، بذلك فتمنعه . وحين ماتت الخيزران ، كان أوّل عمل إداريّ قام به الرشيد هو تولية الفضل بن الربيع[1] . والفضل ورث الدهاء عن أبيه وبلغ فيه القمة . لقد كان عدوّه يسبقه بمواقع عديدة وكان عليه أنّ يعمل بصمت وأناة ، وتدبير في الخفاء ، وبلا لفت نظر ولا زلّة واحدة : جعل البرامكة يطمئنّون إلى عجزه وضعف نفوذه ، فلا يحسبون له كبير حساب[2] .

= يقول مروان بن أبي حفصة (ذاكراً جنود الفضل الذين أعدّهم لحماية الدولة) :

أمستْ يدٌ لِبَني ساقي الحَجيج بها	كتائبٌ ما لها في غيرِهِمْ أَرَبُ
كتائبٌ لِبني العبّاسِ قد عَرَفَتْ	ما أَلَّفَ الفضلُ ، منها : العُجْمُ والعَرَبُ
أَثْبَتَّ خمسَ مئينٍ في عِدادِهِمُ	من الألوفِ التي أحصَتْ لكَ الكُتُبُ
يُقارعونَ عَنِ القومِ الذين هُمُ	أولى بأحمدَ في الفُرقانِ إن نُسِبوا
قد فاضَ عُرفُكَ حتى ما يُعادلُه	غيثٌ مُغيثٍ ولا بَحرٌ لَهُ حَدَبُ

(تاريخ الطبري ج8 ص 257) .

1 يذكر الطبري كيف شيّع الرشيد جثمان والدته عام 173هـ ، ثم صلّى عليها «فلمّا خرج من المقبرة وضع له كرسي فجلس عليه ودعا الفضل بن الربيع فقال له : وحقِ المهدي (وكان لا يحلف بها إلاّ إذا اجتهد) إنّي لأهمُّ لك من الليل بالشيء من التولية وغيرها فتمنعني أمّي فأطيع أمرها . فخذ الخاتم من جعفر . فقال الفضل بن الربيع لإسماعيل بن صبيح : أنا أجلّ أبا الفضل عن ذلك ، بأن أكتب إليه وآخذه ، ولكن إن رأى أن يبعث به . . .» (تاريخ الطبري ج8 ص 238 وخلاصة الذهب المسبوك ص 117) .

2 يخبرنا التنوخي أنّ ابن الربيع سأل حاجة من الفضل بن يحيى (أو من يحيى) ، فلم يأبه له «ولم يرفع له رأساً ولا قضى له حاجة . فقام مغضباً» وحين خرج تمثّل :

عَسى وعَسى يُثني الزمانُ عِنانَهُ	بِعَثْرةِ دَهرٍ ، والزمانُ عَثورُ
فتُدرَكَ آمالٌ وتُقْضى مآربٌ	وتَحدُثَ ، من بعدِ الأمورِ ، أمورُ

(الفرج بعد الشدّة ج1 ص 68) وانظر الخبر مع بعض التعديل في الجزئيّات في (الوزراء والكتّاب ص 251 ووفيات الأعيان ج2 ص 151)

وأورد الجهشياري عن الفضل بن الربيع أنّه نادم «الرشيد وخُصّ به ، فقال لجعفر : قلّد الفضل بريد ناحية يأخذ رزقها ويستعين بها على خدمتي . فقال له جعفر ، بسلامة خلقه : اختر . فقال : الموصل وديار ربيعة . فأمر أن تكتب كتبه عليها» . ولكن الأمر وصل إلى يحيى فلم يوافق ، ممّا اضطرّ جعفراً إلى مماطلة ابن الربيع حتى يئس من المطالبة . (الوزراء والكتّاب ص 249) .

وكان ذلك أكبر خطأ ارتكبوه[1] .

ونحن لسنا بصدد الحديث عن سياسة البرامكة وسياسة ابن الربيع ، لكنّها كلمة لا بدّ منها لنصل إلى النتيجة المعروفة وهي أنّ التنافس كان لا بدّ له من أن يشمل كلّ صعيد معروف ، حتى صعيد الأدب . فإذا كان البرامكة أدباء وبلغاء وأصحاب بلاط ومجالس وأعطيات ، فابن الربيع ، هو أيضاً ، كذلك ، أديب مثقّف وما نقصه من التحصيل يبادر إلى استدراكه إذا دعت الحاجة[2] . وإذا أوصلوا صنائعهم إلى الرشيد ، من رواة وشعراء ، فعليه ، هو أيضاً ، أن يصطنع المؤيّدين من شعراء ورواة يوصلهم إلى الرشيد ويضمن لسانهم[3] . وإذا حضر البرامكة مجالس الرشيد في الأدب والسمر والطرب ، فهو أيضاً يحضر مجالس الرشيد المختلفة ويتحفه ، من حين إلى آخر ، بمن يرفّه عنه وبما يجعل ذكراه ماثلة في ذهن الخليفة[4] .

هكذا نحّس ، في البلاط ، صراعاً خفيّاً شبيهاً بصراع الكوفة والبصرة ، وإن لم يكن صراعاً رياضيّاً بعيداً عن السياسة مثله . بل لنقل أنّه لم يكن غريباً عن صراع الكوفة والبصرة . وقد يكون

---

1 يذكر الجهشياري وابن خلكان ، عن لسان عبد الله بن سليمان أنّه «إذا أراد الله عزّ وجلّ هلاك قوم وزوال نعمتهم جعل لذلك أسباباً . فمن أسباب زوال أمر البرامكة تقصيرهم بالفضل بن الربيع» (الوزراء والكتّاب ص 252 – وفيات الأعيان ج2 ص 151) .

2 يذكر ذلك ابن طباطبا في وصفه للفضل بن الربيع بأنّه كان «شهماً خبيراً بأحوال الملوك وآدابهم . ولمّا ولي الوزارة تهوّس بالأدب وجمع إليه أهل العلم ، فحصل منه ما أراد في مدّة يسيرة» (الفخري في الآداب السلطانية ص 211) .

3 يروي ابن الأنباري أنّ إسحاق بن إبراهيم الموصلي هو الذي أقدم أبا عبيدة من البصرة ، سأله الفضل بن الربيع أن يقدمه . فورد أبو عبيدة سنة ثمان وثمانين ومئة بغداد . فأُخذ عنه وعن الأصمعي علماً كثيراً . ويروي التوزي عن أبي عبيدة قال : «أرسل إليّ الفضل بن الربيع إلى البصرة في الخروج إليه ، فقدمت إليه . فلمّا استأذنت عليه اذن لي . . . واستدناني حتى جلست معه على فرشه . ثم سألني وألطفني وباسطني . . . ثم دخل رجل في زيّ الكتّاب ، له هيئة ، فأجلسه إلى جانبي وقال له : أتعرف هذا ؟ قال : لا ، قال : هذا أبو عبيدة علاّمة أهل البصرة ، أقدمناه لنستفيد من علمه . فدعا له الرجل وقرّظه لفعله هذا . .» (نزهة الألباء ص107) وانظر ص 434 هامش 1 من البحث . هذا «وكان أبو نواس من شعرائه المنقطعين إليه» . وله شعر في آل الربيع . (انظر الفخري ص 211) وأبو نواس اتّصل بالبرامكة ومدحهم إلاّ أنّه لم يخلص الودّ لهم ، فله فيهم هجاء كثير ، وفي جعفر بن يحيى خاصة .

4 يروي إسحاق الموصلي خبر جلسة طرب في دار الرشيد . فبعد أن طرب طلب إلى إسحاق أن يحدّثه ففعل . وفيما هما في سمر «إذ دخل الفضل بن الربيع فحدّثه حديث ثلاث جوار ملكهن ووصفهن بالحسن والإحسان والظرف والأدب . فقال لـه : يا عباسيّ ، هل تسخو نفسك بهن ؟ وهل لك من سلوة عنهن ؟ فقال : والله ، يا أمير المؤمنين ، إنّي لأسخو بهن وبنفسي . فبها فداك الله . ثم قام فوجّه بهن إليه ، فغلبن على قلبه» (الأغاني ج5 ص 271) ولعلّ هذه البادرة من الفضل بن الربيع أتت مقابل بادرات شبيهة سبقت من البرامكة . فهيلانة ، محظية الرشيد «أخذها من يحيى بن خالد البرمكي . . . أقامت معه ثلاث سنين ثم ماتت ، فوجد عليها وجداً شديداً» ورثاها بشعره . (نساء الخلفاء ص 54 وخلاصة الذهب المسبوك ص118) .

سبب استقدام ابن الربيع لأبي عبيدة البصري أنّ البرامكة كانوا يميلون إلى الكوفيين[1] . ولكن لا يُتَصوَّرَنَّ في الأذهان أنّ هذا الصراع الخفيّ أدّى إلى فرز مدرستين أدبيّتين إحداهما برمكيّة فارسيّة ، والأخرى ربيعية عربية تتواجهان في البلاط . كلا ، فعلى رغم أنّ البرامكة اصطنعوا الصنائع ، وكذلك ابن الربيع ، فإنّ كثيرين من الأدباء والرواة والنحويين كانوا مهتمّين باقتناص الدرهم أكثر من اهتمامهم بالشعارات ، وكانوا يميلون مع الرياح حيث تميل ، فلا يهمّهم الالتزام . كان الدهر سريع التقلب ، والتأقلم مع الواقع سنّة الحياة في الاستمرار . لذا نرى شعراء مدحوا البرامكة أيّام عزّهم ، وهجوهم أيّام تحوّل الدهر عنهم[2] ، ثم عادوا فمدحوا الفضل بن الربيع حين صار الماء على رحاه . ومنهم من أقاموا التوازن بين الفريقين وحفظوا لأنفسهم خطّ الرجوع[3] ، أو راحوا يتنقلون من جانب إلى آخر طمعاً في الربح الأكبر ، ضاربين عرض الحائط

---

1 هناك من يرى أنّ الكسائي كان قد حضّر شهوده من الأعراب في مناظرته الشهيرة لسيبويه في دار الرشيد أمام يحيى بن خالد ، وأنّ يحيى غضّ النظر عن ذلك . إلى هذا يشير السيوطي في (بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ص366) ووردت مواطأة الكسائي للأعراب في (تاريخ بغداد ج12 ص 105) انظر ص 142 من البحث . ويذكر ابن الانباري كذلك مناظرة للكسائي واليزيدي بحضرة الرشيد حيث انتصر اليزيدي فأظهر الفرحة والانفعال ، فما كان أسرع يحيى ابن خالد إلى تقريعه (نزهة الألباء ص 82 ووفيات الأعيان ج3 ص 200) راجع ص 110 هامش 4 من البحث ولا نستبعد أن يكون مدح الأصمعي للبرامكة خلف استجابة الفضل بن الربيع لمن زينوا له احضار أبي عبيدة من البصرة .

2 مع أنّ الأصمعي أُخذ عليه ، كبصري ، مدح البرامكة لنيل عطائهم ، فإنّه عمليّاً لم يخلص لهم ، بل عاد فهجاهم . يقول الجهشياري عن الأصمعيّ إنّه اختصّ أوّل الأمر بجعفر بن يحيى ومدحه :

إذا قيلَ : مَنْ لِلنَدى والعُلى ... مِنَ الناسِ ؟ قيلَ : الفتى جَعفرُ

(الوزراء والكتّاب ص 205)

ويروي ابن المعتزّ عن الأصمعي قوله : «ما رأيت أنجب من البرامكة ، رجالاً وأطفالاً ، ولا أشرف منهم أحوالاً . .» (طبقات الشعراء ص 214) وبالمقابل ، يذكر المقدسي وكذلك الثعالبي هجاءه المقذع لهم :

إذا ذُكِرَ الشِركُ في مَجلسٍ ... أضاءتْ وجوهُ بني بَرمَكِ

وإن تُليتْ عندهمْ آيةٌ ... أَتَوا بالأحاديثِ عن مَزْدَكِ

(البدء والتاريخ ج6 ص 106 ولطائف المعارف ص 130 والوزراء والكتّاب ص 206) .

3 من هؤلاء أبو محمد التيمي . فقد ذكر الأصفهاني أنّه «دخل على الفضل بن الربيع في يوم عيد فأنشده :

ألا إنّما آلُ الربيعِ ربيعُ ... وغيثٌ حياً للمُرمِلينَ مَريعُ

إذا ما بدا آلُ الربيعِ رأيتَهمْ ... لهمْ دَرَجٌ ، فوقَ العِبادِ ، رفيعُ

فأمر له بعشرة آلاف درهم» . وكان قد مدح «الفضل بن يحيى بثلاثة أبيات ودفعها إلى إسحاق الموصلي فعرضها على الفضل بن يحيى فأمر له بثلاثة آلاف درهم» . والأبيات :

لعمرُك ، ما الأشرافُ في كلّ بلدةٍ ، ... وإن عَظمُوا ، للفضلِ ، إلاّ صنائعُ

بالانتماء المبدئي أو المدرسي . بل إنّ انتماءهم لم يكن يمنع التنافس بين أبناء المدرسة الواحدة على الجوائز في أيّ بلاط كان .

وابن الربيع الذي لم يعطه البرامكة الأهميّة التي يستحقّها كان من أتْيه الناس[1] ، وشغل منصب الحجابة فترة من أيّام دولتهم ، فكان مانح تأشيرات الدخول إلى بلاط الرشيد وهو ، من هذا الموقع ، وليّ نعمة من يدخل فيكسب[2] ؛ وهو قادر على أن يتحوّل بوجهه (وبالتالي بباب الرشيد) عمّن يحيد عن جادة الصواب[3] . وكان للفضل أيضاً نفوذه السياسي والعسكري كمتكلّم باسم الرشيد . وحين وزر له ، أبقى على الحجابة لنفسه وكان يستخلف عليها من يريد[4] . فأمسك بالزمام من طرفيه ، لكنّه لم يظهر مطامع للسلطة والنفوذ المستقلّ . لذا لم يهبْه الهاشميّون . وظلّ ، بالنسبة إلى الرشيد ، التابع المخلص المستعدّ دائماً للتنفيذ أيّاً كانت الأوامر . لذلك ؛ بالذات ، لم يبلغ ما بلغه البرامكة ولم يُغْنِ غِناءهم ولا عاد للدولة في أيّامه بهاؤها ورونقها في أيّامهم[5] .

= تَـرى عُظمـاءَ النّاسِ للفضـلِ خُشّعاً ... إذا بـدا ، والفضـلُ للهِ خاشِعُ
تواضَـعَ ، لَمّا زادَهُ اللهُ رِفعةً ؛ ... وكُلُّ جَليـلٍ ، عنـدَهُ ، متواضِعُ
(الأغاني ج19 ص 330) .

1 يقول البغدادي عن الرشيد : «حاجبه الفضل بن الربيع ، أتْيه الناس وأشدّها تعاظماً» (تاريخ بغداد ج14 ص 11) .

2 يذكر الطبري حادثة جرت لعبد الله بن العبّاس بن الحسن حين وقف بباب الرشيد وكان هناك من الجند والقواد ما لم يقف مثلهم على باب خليفة . وقد عمد ابن الربيع إلى ادخال العبّاس دون سائر الناس . ثم أدخل عبد الله بناءً لرجاء أبيه الذي همس في أذنه : «استأذنت لك لكثرة من رأيت حضر بالباب . فإذا دخلت هذا المدخل زادك ذلك نبلاً عند الناس . . .» (الطبري ج8 ص 248) .

3 كانت نقطة ضعفه سيرة البرامكة : فإذا ذكروا أمامه ، لا تعود الدنيا تسعه غضباً . يروي الأصفهاني عن لسان أبي العتاهية أنّه دخل إليه وأنشده أبياتاً استحسنها وطلب إليه الحضور في وقت آخر ليجيزه عليها . قال : «فلم أزل أراقب أيّامه حتى كان يوم فراغه فصرت إليه . فبينما هو مقبل عليّ يستنشدني ويسألني فأحدّثه ، إذ أنشدته :

ولّى الشبابُ ، فما لـهُ من حيلةٍ ... وكسا ذؤابتـيَ المشيبُ خِمـارا
أين البرامكـةُ الذيـن عهدتُهـمْ ، ... بالأمس ، أعظَمَ أهلِهـا أخطارا ؟

فلمّا سمع ذكر البرامكة ، أربدّ لونه ورأيت الكراهية في وجهه . فما رأيت منه خيراً بعد ذلك» . (الأغاني ج4 ص91) .

4 يذكر الأصفهاني عن عبد الله بن البوّاب أنّه «كان يخلف الفضل بن الربيع في حجابة الخلفاء» (الأغاني ج22 ص 452) .

5 ذكر الجهشياري أنّه «لمّا انقضى أمر البرامكة . . . وقصد الفضل بن الربيع لحفظ خدمة الرشيد في حضرته ، أضاع ما وراء بابه . .» (الوزراء والكتّاب ص 258) وأورد في مكان آخر (نسوق ذلك مع التحفّظ) «ثم ندم الرشيد على ما كان منه في أمر البرامكة . . . وكان كثيراً ما يقول : حملونا على نُصَحائنا وكُفاتنا وأوهمونا أنّهم يقومون مقامهم . فلمّا صرنا إلى ما أرادوا منّا لم يغنوا عنّا شيئاً» (الوزراء والكتّاب ص 258) .

هكذا كان أفراد هذه الطبقة ، أي الوزراء والحجّاب ، بطانةَ الرشيد وصحابته وذوي النفوذ عليه لديه . كان يتباسط معهم أحياناً ، ويشركهم في خاصة حياته وعامّة مجالسه . وكانوا يستطيعون المبادرة إلى الحديث في حضرته دون أن يستأذنوه[1] ، مما أعطاهم تأثيراً في بلاطه ، فراحوا يسكبون ، إذا أرادوا ، كلمة حلوة على سورة غضب للرشيد فتنفثيء[2] . أو يوقظون حفيظته الراقدة بكلمة مغرضة ، فيثور ويبطش أو يحرم[3] . ويعلّقون على قصيدة أو كلمة ، فيلقون عليها ظلاً لا يُمحى وإن ثبت تغرّضهم . والرشيد ، كما نعرفه ، سريع التأثر ، متوثّب ، قريب إلى

---

1 قال الرشيد يوماً للأصمعي : «أخبرني مَنْ أُمّ فلان ؟ لإنسان من العرب . فقال الأصمعي : على الخبير سقطت يا أمير المؤمنين» . فقال الفضل بن يحيى ، مبادراً ، «أسقط الله أنفك وعينيك ، أهكذا تخاطب الخلفاء !؟» (الوزراء والكتّاب ص 189) .

2 يذكر التنوخي محمد بن الأشعث ويروي عنه الحادثة التالية (والأرجح أنّه جعفر بن محمد بن الأشعث ، وكان بيده خاتم الخلافة قبل أن ينقله الرشيد عام 171هـ إلى العبّاس الطوسي ثم إلى يحيى بن خالد . أورد ذلك الطبري في تاريخه ج8 ص 235) قال التنوخي : «غضب الرشيد على محمد بن الأشعث غضباً شديداً ، من كلام جرى بينهما فخاف جعفر (بن يحيى البرمكي) أن يستفزّه الغضب ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّما تغضب لله ، فلا تغضب له بما لم يغضب به لنفسه . فانعطف له الرشيد» (الفرج بعد الشدّة ج1 ص 88) .

وفي مدح أبي نواس للفضل بن الربيع ، نرى بوضوح دور الوزير بالنسبة إلى من ينتمون إليه : يحميهم في غيابهم ، ويدفع عنهم سعاية الساعين وطعن الطاعنين من الخلف . فإذا رأى بادرةَ خير تفيدهم ، انطلق يقتنصها ويقدّمها لهم :

صعباً إذا لاقى أَبَرْ وإن هَفا القومُ وَقَرْ
هل لكَ والهِلُّ خَيَرْ فيمن إذا غِبتَ حَضَرْ
أو نالَكَ القومُ أَثَرْ وإن رأى خيراً نَشَرْ
أو كان تقصيرٌ عَذَرْ

(ديوان أبي نوّاس ص 443) (أبر : غلب . هفا : أخطأ . وقر : كان رزيناً . أثر : ذكر المآثر) .

3 في الحادثة التالية التي نرويها عن الأصفهاني ، نرى إلى أيّ مدى يستطيع الوزير أن يذلّ شاعراً بكلمة يبادر إلى قولها لغرض في نفسه . والحادثة بطلها ابن مناذر يرويها بنفسه : «حجّ الرشيد بعد ايقاعه بالبرامكة ، وحجّ معه الفضل بن الربيع ، وكنتُ مضيقاً مملقاً . فهيّأت فيه قولاً أجدت تنميقه وتنوّقت فيه . فدخلت إليه في يوم التروية ، وإذا هو يسأل عنّي ويطلبني . فبدرني الفضل بن الربيع ، قبل أن أتكلّم ، فقال : يا أمير المؤمنين هذا شاعر البرامكة ومادحهم ، وقد كان البشر ظهر لي في وجهه لما دخلت . فتنكر وعبس في وجهي . فقال الفضل : مُرْهُ ، يا أمير المؤمنين ، أن ينشدك فيهم : أتانا بنو الأملاك من آل برمك . . . فقال لي : أنشد ، فأبيت . فتوعّدني وأكرهني فأنشدته . . . ثم اتبعت ذلك بأن قلت : كانوا أولياءك ، يا أمير المؤمنين يوم مدحتُهم ، وفي طاعتك لم يلحقهم سخطك ولم تحلل بهم نقمتك ، ولم أكن في ذلك مبتدعاً . . . فقال : يا غلام ، الطم وجهه . فلطمت ، والله ، حتى سدِرْت وأظلم ما بيني وبين أهل المجلس . ثم قال : اسحبوه على وجهه . ثم قال : والله لأحرمنّك ولا تركتُ أحداً يعطيك شيئاً في هذا العام» (الأغاني ج18 ص 133) .

الغضب وإلى العفو ، قلما يتروى . وكثيراً ما يقوم هؤلاء الجلساء القريبون إليه ، الملازمون له ، بتخيّر الأوقات المناسبة ولحظات صفاء مزاج الخليفة لاستلال موجدته ، كما أسلفنا القول ، على مغضوب عليه ممّن يلوذ بهم ، وعلى ايصال نعمته إلى من يريدون[1] .

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّه بلغ من إدلالهم على الخليفة أن نشبت بين جعفر بن يحيى والفضل بن الربيع ملاحاة أمام الرشيد ، أقذع فيها كل منهما للآخر ، على رغم قدسيّة مقام الخلافة[2] .

وأخيراً فإنّ كل ما ذكرناه عن الحجّاب والوزراء يعطينا الصورة السلبية لوجودهم في البلاط الأدبي ؛ ولكنّهم ، في الواقع ، كثيراً ما كان لهم اشتراك فعلي في أدب المجالس ، وكلّهم جامع للمعرفة ، متمكّن من الأدب ، حافظ للسير وراوية للأخبار ، قادر على النظم وعلى تقويم الشعر . وهذا يترك لهم ، في مجالس البلاط الأدبية ، مكاناً مميّزاً كما في الحياة السياسية .

2 ـ **امراء الهاشمين** : وهم يشكلون علية المجتمع العربي . من أمراء الهاشميين الذين أمّوا

---

1 يحدّثنا الجهشياري بقصّة العتابي والرشيد : كان العتابي يقول بالاعتزال . فاتّصل ذلك بالرشيد وكثّر عليه في أمره ؛ فأمر فيه بأمر عظيم فهرب إلى اليمن ، فكان مقيماً بها . فاحتال يحيى بن خالد إلى أن أسمع الرشيد شيئاً من رسائله وخطبه . فاستحسن الرشيد ذلك وسأل عن الكلام لمن هو ؟ فقال : هذا للعتابي ، ولو حضر حتى يسمع منه الأمينُ والمأمون هذا الكلام ويصنع لهما خطباً لكان ذلك أصلح . فأمر باحضاره . فأخذ له الأمان . فاتّصل الخبر بالعتابي فقال :

ما زِلتُ في سَكَراتِ الموتِ مُطَّرَحاً	قد غابَ عني وجوهُ الأمرِ مِنْ حِيَلي
فلمْ تـزل دائبـاً تسعَـى لِتُنقذَني	حتى استَلَلْتَ حياتي من يَدَي أَجَلي

(الوزراء والكتّاب ص 233) .

ويذكر أبو هفان «أنّ الرشيد كان يلاعب الفضل بن الربيع بالشطرنج ، إذ ولع بهذا المثل (وحيُ مقمورٍ بدَرْد) فجعل يردّده . ثم قال للفضل : أترى أحداً من الناس قال في هذا شعراً ؟ فقال : إن كان أحد يفهم هذا فأبو نواس . قال : وأين الفاسق ؟ قال : في حبس أمير المؤمنين . فأمر باحضاره ، فأُحضر يرسف في قيوده . فوقف بين يديه . فصعّد فيه البصر ثم قال : أما آن أن تتوب عن خمرتك يا ملعون ؟ فقال : تبت على يد أمير المؤمنين ولست بعائد لشربها ما طرد الليل النهار . قال : فهل قيل في ـ وحي مقمور بدرد ـ شعر ؟ قال : نعم . . . .» ثم راح ينشده . وتمتدّ جلسة أدبية يرتجل فيها أبو نواس شعراً في جارية للرشيد ، وينصرف بعد أن قال هارون : «أحسنت . وكان طيب النفس فوهب له الجارية وأمر باطلاقه وأجزل صلته وألحقه بمنادمته» (أخبار أبي نواس ص 73) . انظر تفاصيل الخبر ص 188 من البحث .

2 يقول الجهشياري : «تنازع الفضل بن الربيع وجعفر بن يحيى يوماً بحضرة الرشيد . فقال جعفر للفضل : يا لقيط . (إشارة إلى ما يقال عن أبيه الربيع من إنّه لا يُعرف أبوه الحقيقي) فقال : اشهد يا أمير المؤمنين . فقال جعفر للرشيد : تُراه عند من يقيمك هذا الجاهل شاهداً يا أمير المؤمنين ، وأنت حاكم الحكّام ؟» (الوزراء والكتّاب ص 621 وانظر وفيات الأعيان ج2 ص 152 وطبقات الشافعية الكبرى ص 269) .

البلاط : أولياء العهد وخصوصاً الأمين والمأمون . فقد ورد ذكرهما[1] في بعض المجالس ، كما أقيم بعضها على شرفهما[2] . وحضورهما لها كان يهدف إلى أمرين : أولهما اكسابهما المعرفة . فمجلس البلاط يعادل حلقة الأديب والنحوي بالنسبة إلى طالب العلم العادي . وبهذا الصدد يمكن تخيّر المجلس الذي يحضرانه والكلام الذي يسمعانه[3] . والأمر الثاني هو خلق إطار لتفتح مواهبهما الأدبية التي لا غنى لخليفة المستقبل عنها . في هذه المجالس يقولان ويسمعان ويكتسبان جرأة أدبية وسهولة خطاب ، ويكونان في الوقت نفسه مدعاة فخر للرشيد أبيهما . فإذا ما أحسنا القول انطلق الشعراء في تقريظهما . فيبدأ لهما هكذا مجد سياسي ، كما يطير صيتهما في الآفاق[4] .

---

1 سبق لنا الحديث عن مجلس للرشيد طلب فيه إلى العبسي والمدني ضرب عنق أسير من الروم فنبا سيفاهما بينما لم ينب سيف المأمون . فوقف أبو محمد اليزيدي ينشد مادحاً المأمون ، معرّضاً بالآخرين . وهذه الإشارة العفوية تبيّن حضور المأمون في المجلس العادي والمجلس الأدبي . وذكر الطبري عن لسان المفضل الضبي قوله ، حين استدعاه الرشيد : «فخرجت حتى صرت إليه ، فإذا هو متكّىء ، ومحمد بن زبيدة عن يساره والمأمون عن يمينه» . ثم راح الرشيد يسأل والمفضل الضبي يجيب ، والغلامان يسمعان لغة وأدباً . (تاريخ الطبري ج8 ص 362 وانظر البصائر والذخائر ج2/1 ص 50) وقد ربط الطبري هذا الخبر بعقد البيعة للقاسم وكانت عام 186هـ فيكون عمر الغلامين ستّ عشرة سنة (انظر تفاصيل الخبر ص 138) .

2 قال الكسائي : «دخلت على الرشيد ، فلمّا قضيت حقّ التسليم والدعاء ، وثبت للقيام فقال : اقعد . فلم أزل حتى خفّ عامة من كان في مجلسه ، ولم يبق إلاّ خاصته . فقال لي : يا علي ، ألا تحبّ أن ترى محمداً وعبد الله ؟ . . . فأمر باحضارهما . . . فسلما على أبيهما بالخلافة . . . فأمرهما بالدنوّ منه ، فصيّر محمداً عن يمينه وعبد الله عن يساره ثم التفت إليّ وقال : يا علي ، ما زلتُ ساهراً مفكراً في معاني أبيات قد خفيت عليّ . فقلت : إن رأى أمير المؤمنين إن ينشدنيها . . .» وهكذا تمتدّ جلسة أدبية يسأل الرشيد فيها والكسائي يجيب ، ثم يستنشد ، بناء لطلب الخليفة ، كلاً من الأمين والمأمون من حفظهما ، فينشدان . وبعد ذلك يسألهما فيحسنان الإجابة . . .» (انظر : مروج الذهب ج3 ص 269 والمحاسن والمساوىء ج2 ص84) . راجع تفاصيل أكثر ص 174 وص 192 من البحث .

3 مرّ بنا ، في الحديث عن دور الوزير ، أنّ يحيى بن خالد ، حين أراد استرضاء الرشيد عن العتابي ، استغلّ رغبه الخليفة في تثقيف ولديه فأسمعه بعضاً من نثر العتابي وشعره (انظر الجهشياري في الوزراء والكتّاب ص 233) .

4 في نهاية الخبر الأسبق عن امتحان الكسائي للأمين والمأمون بناء على طلب الرشيد يقول الكسائي : إن الرشيد «سرّ بذلك حتى تبيّنته فيه . ثم قال : يا علي ، كيف تري مذهبهما وجوابهما ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، هما كما قال الشاعر :

أرى قمري مجد وفرعي خلافة ... يزيّنهما عـرق كريـم ومحتدُ
يسُدّان آفـاقَ السماء بسيمةٍ ... يؤيّدها حـزمٌ وعَضْبٌ مُهنّدُ
سليلَيْ أميرِ المؤمنين وحائـزَي ... مواريثِ مـا أبقى النبيُّ محمدُ

يا أمير المؤمنين ، هما فرع زكا أصله وطاب مغرسه وتمكّنت في الثرى عروقه وعذبت مشاربه . أبوهما ملك أغرّ ، نافذ الأمر ، واسع العلم ، عظيم الحلم . فهما يستضيئان بنوره ، وينطقان بلسانه ويتقلّبان في سعادته . فأمتع الله أمير

ومن أمراء الهاشميين ، أخوة الرشيد ، وأبرزهم عبيد الله وإبراهيم . فعبيد الله ولي مصر عدّةً من المرّات ، آخرها عام 181هـ ، تركها بعد ذلك وتوجّه إلى الرشيد ودام عنده حتى خرج معه إلى خراسان[1] . أمّا إبراهيم بن المهدي فله شهرة واسعة كشاعر فحل غزير الانتاج وكمغنّ له ألحان خاصة به مشهورة ، كما أن له ، مع إبراهيم الموصلي ، وسائر مغني الرشيد وندمائه أخباراً كثيرة يأتي ذكرها في مجالس المنادمة . وقد بلغ أيّام الأمين وبقي معه حتى مصرعه . ثم نودي به خليفة باسم العبّاسيين ، ضد سياسة المأمون الممالئة للعلويين . وحين قبض عليه المأمون ، اعتذر إليه ونال عفوه[2] . ومن الأمراء أيضاً أعمام للرشيد وأبناء عمومة أو خؤولة ، يغرفون من مال الخراج ومن واردات الاقطاعات والأملاك الموروثة ، وينفقون على مجالسهم الخاصّة[3] . ومنهم من كان ينظم الشعر أو يحذق الغناء ، ومنهم من ولي للرشيد أو لسواه من الخلفاء من قبله ومن

= المؤمنين بهما وآنس جميع الأمّة ببقائه وبقائهما . فما رأيت أحداً من أولاد الخلفاء وأغصان هذه الشجرة المباركة أذرب منهما لساناً ولا أعذب كلاماً ولا أحسن ألفاظاً ولا أشدّ اقتداراً على تأدية ما حفظا ورويا . . .» (المحاسن والمساوىء ج2 ص 84 ومروج الذهب ج3 ص 269 (وانظر الأغاني ج20 ص 202) . وراجع ص 497 من البحث عن وقوف الأمين خطيباً ، بعد أن بلغ ، ومدح اليزيدي له .

1 النجوم الزاهرة ج2 ص 101 .

2 يصفه الخطيب البغدادي فيقول : «كان أسود حالك اللون عظيم الجثة ، فلم يُرَ في أولاد الخلفاء قبله أفصحَ لساناً ولا أجود شعراً» . (تاريخ بغداد ج6 ص 142) ويذكر الطبري أنّ أمير المؤمنين المأمون قد جعل عليَّ بن موسى بن جعفر بن محمد وليّ عهده من بعده . . . وأمر بطرح لبس السواد ولبس ثياب الخضرة . . . وغضب ولد العباس من ذلك واجتمع بعضهم إلى بعض وتكلّموا فيه وقالوا : نولّي بعضنا ونخلع المأمون . . . فأظهر العبّاسيّون في بغداد أنّهم بايعوا إبراهيم بن المهدي بالخلافة ، ومن بعده لابن أخيه إسحاق بن موسى بن المهدي . (تاريخ الطبري ج8 ص 554 و555) ومن لطيف شعره ما أورده الإمام الجرجاني :

يا من لقلبٍ صيغَ من صَخرةٍ في جسدٍ من لـؤلـؤ رَطْبِ
جرحتُ خدّيـهِ بلحظي فما برحتُ حتى اقتصّ مـن قلبي

(دلائل الاعجاز (المدخل) ص 348 .

3 جُمع بين المفضل الضبي والأصمعي حول بيت أوس بن حجر :

وذاتِ هِدْمٍ عـارٍ نواشرُهـا تُصمِتُ بالمـاء تولبـاً جَدَعا

وذلك في مجلس جعفر بن سليمان ، حسب رواية الجاحظ ، وفي مجلس سليمان بن علي الهاشمي ، حسب رواية ابن الانباري . (انظر الحيوان ج4 ص 25 ونزهة الألباء في طبقات الأدباء ص 57) . وفي مجلس لقثم بن جعفر بن سليمان أمير البصرة انتصر الجمّاز لخاله سلم الخاسر راوياً شعره في التعريض بأبي العتاهية الذي كان حاضراً يقوم برواية شعره في الزهد . (الأغاني ج4 ص 77) و(معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ص 48) وكان لإسحاق ابن سليمان الهاشمي مجلس وفيه داريشوع ينقل من السريانية إلى العربية . (تاريخ بغداد ج6 ص 329) .

بعده[1] . ومنهم من حدّثتهم أنفسهم ، كما رأينا ، بالدعوة لذواتهم . وكان الرشيد حين يعرف أمرهم ، لا يقسو عليهم ، فلم يسجّل عليه أنّه قتل عبّاسياً لأيّ سبب ، حتى في حالة التآمر على الحكم[2] . ولعلّ الخطر الحقيقي الذي اقضّ مضجع الرشيد لم يتمثّل ، منهم ، إلاّ في عبد الملك بن صالح . ولذلك حاسبه الرشيد حساباً عسيراً ، ثم اكتفى بحبسه . أمّا الآخرون ، فكان لا يتجاوز عزلهم إلاّ إلى إرسالهم في مهمّة صعبة على الحدود ليأمن شرّهم[3] . وهؤلاء الهاشميّون لا بد لهم من أن يتواجدوا في البلاط ، طالما كانوا في بغداد ، لاظهار الولاء والطاعة ، على الأقلّ ، وليبقوا على علم بمجرى الأحداث في القصر والدولة . أمّا إذا خفّ ظلّ أحدهم وحلا حديثه ، أو كان ذا رأي ، فإنّه يلازم مجلس الخليفة ، وقد يشاركه سمره وينادمه . ولا يسعنا التعداد لأنّهم بلغوا الألوف[4] ، واجتمع منهم أجيال عدّة في حقبة واحدة ، وأحياناً في مجلس واحد للرشيد[5] . ونكتفي بذكر من لعبوا أدواراً في مجلس أدبي تحدّثت عنه الأخبار . فمن أعمام الرشيد ، العبّاس بن محمد بن علي أخو المنصور . وكان رجلاً جدّيّاً ذا رأي وحصافة[6] . حضر بعض مجالس

1 يصف ابن تغري بردي الفضل بن صالح قائلاً : «ولي مصر للهادي ، كما ولي دمشق وعمّر أبواب الجامع والقبّة التي في الصحن والمعروفة بقبّة المال . وكان أميراً شجاعاً مقداماً ، شاعراً فصيحاً أديباً صاحب خطب وشعر . . .» (النجوم الزاهرة ج2 ص 61) ولا يسعنا تعداد كلّ من تولّوا للرشيد لأنّ ذلك يشمل معظم آل العبّاس .

2 يظهر موقف الرشيد الملتزم هذا في قوله لعبد الملك بن صالح : «أما والله ، لولا الابقاء على بني هاشم لضربت عنقك» (تاريخ الطبري ج8 ص 305) .

3 سبقت الإشارة إلى بعض من حاولوا الخروج على الرشيد من الهاشميين ونضيف هنا ما أورده ابن تغري بردي ، في حديثه عن علي بن سليمان بعد عزله : «وتوجّه علي بن سليمان إلى الرشيد فندبَه لقتال يحيى بن عبد الله بالديلم» . (النجوم الزاهرة ج2 ص 62) وهذه طريقة يحيى بن خالد في التخلّص من الخصوم السياسيين ، إذ إنّه ، في بدء ولاية الرشيد ، «أمرت الخيزران أن يُقتل من كان تسرّع إلى خلع الرشيد . . فقال لها يحيى : أوَ خيرٌ من ذلك ؟ قالت : وما هو : قال : يُرمى بهم في نحور الأعداء ، فإن دفعوا عن أنفسهم كان لهم في الدفع عنها شغل ، وإن أصابهم العدوّ كنت قد استرحت منهم» . (الوزراء والكتّاب ص 178) .

4 «كانوا ثلاثين ألفاً بين ذكران وإناث» ، أيّام المأمون . (مقدّمة ابن خلدون ج2 ص 493) .

5 عاش عبد الصمد بن علي ، عمّ جدّ الرشيد ، حتى عام 183هـ و«اجتمع مرّة بالرشيد وعنده جماعة من أقاربه . فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا مجلس فيه أمير المؤمنين وعمّه ، وعمّ عمّه ، وعمّ عمّ عمّه ؛ وكان في المجلس سليمان بن أبي جعفر المنصور وهو عمّ الرشيد ، والعبّاس بن محمد ، وهو عمّ سليمان المذكور ، وعبد الصمد هذا وهو عمّ العبّاس» (النجوم الزاهرة ج2 ص 118) و(لطائف المعارف ص 132) .

6 ذكر النويري وصيّة العبّاس المشهورة للرشيد ، وهي : «إنّما هو درهمك وسيفك فازرع بهذا من شكرك ، واحصد بهذا من كفرك . فقال : يا عمّ ، والله ما للمُلك غير هذا . . .» (نهاية الأرب ج6 ص 8) ويظهر أنّ الرشيد حفظ الوصيّة جيّداً ، لأنّ حياته كلّها تطبيق لهذا المبدأ .

الرشيد الأدبيّة[1] واشترك في تقدير قيمة ما أُنشد أمامه والمفاضلة فيه[2] . كان يلازم الرشيد في الاحتفالات العامة وفي مجالس السمر والتسلية[3] .

كان عبد الملك ، السالف الذكر ، رجل دولة ممتازاً ، وقائداً مميّزاً[4] ، صاحب أدب وكبر[5] ، شاعراً مجيداً وخطيباً بليغاً ، حاضر البديهة[6] ، فيه جميع صفات الجليس . وكان الرشيد يطيب نفساً إلى سماعه ومجالسته[7] ، فطلب منه أن ينادمه لكنّه رفض . وله مع الرشيد مواقف مشهورة كانت تتجلّى فيها بلاغته ، يجيب بها عن أسئلة الخليفة ، ويردّ بذكاء على اتّهاماته ، ويظهر خالص الولاء له ، إلى أن حبس وبقي في حبس الرشيد حتى أخرجه الأمين ، عندما ولي . . . ولعبد الملك هذا إخوة كثيرون ، ولاّهم الرشيد أعمالاً ، شأنهم شأن سائر بني العبّاس . منهم

---

1 «كان الرشيد يُجلّه ويحبّه» (النجوم الزاهرة ج2 ص 120) ويقول البغدادي ، في معرض تعداد جليل ما اجتمع للرشيد : «. . . ونديمه العبّاس بن محمد ، صاحب العباسية . .» (تاريخ بغداد ج14 ص 11) وحين يتحدّث الأصفهاني عن دخول سلم الخاسر على الرشيد ، يذكر وجود العبّاس بن محمد وجعفر بن يحيى في ذلك المجلس . (الأغاني ج19 ص242) .

2 ذكر الأصفهاني ، في خبر دخول سلم الخاسر على الرشيد ، وإنشاده ثم دعوة منصور النمري إلى الانشاد ، أنّ الرشيد سأله : «أيّهما أشعر عندك يا عمّ ؟ قال : كلاهما شاعر ، ولو كان كلام يستفحل ، لجودته ، حتى يؤخذ منه نسل ، لاستفحلت كلام النمري» (المرجع السابق ص243) .

3 تحدّث الجهشياري عن الدور الذي لعبه بفصاحته وسرعة بديهته ، حين حضر مع الرشيد حفل اجراء الخيل بالرقة . وكانت السابقة خيل جعفر . فلمّا غضب الرشيد لذلك تدارك العبّاس الموقف وحدّثه بقصّة مماثلة جرت مع أبي العبّاس السفّاح وخالد البرمكي . فسرّي عن الرشيد (انظر الوزراء والكتّاب ص 208) .

4 ولي عبد الملك للرشيد دمشق والجزيرة . غزا الصائفة عام 173هـ وعام 175هـ وعام 185هـ و«كان لعبد الملك لسان وبيان ، على فأفأة كانت فيه» (النجوم الزاهرة ج2 ص 91 ، 92 ، 102 .

5 «كانت أمّه أم ولد ، وكانت لمروان بن محمد الحمار . فشراها صالح بن علي فولدت له عبد الملك هذا . ويقال إنّ الجارية حملت بعبد الملك هذا من مروان» . ولمّا اتّهمه الرشيد بطلب الخلافة طعن في نسبه ، إمّا لنفي حقّه في الخلافة ، وإمّا لإذلاله ، وإمّا تمهيداً لقتله بنفي العباسية عنه . وفي هذا الاتّجاه يتحدّث معظم المؤرّخين عن مساجلة مشهورة بينهما تدلّ على حضور بديهة عبد الملك وعلى كبر نفسه . وقد حبسه الرشيد بعدها على الفور : «قال له الرشيد لمّا قبض عليه وحبسه ، ما أنت لصالح . قال : فلمن أنا ؟ قال : لمروان . قال : ما أُبالي أي الفحلين غلب عليّ» (الطبري ج8 ص 305 والنجوم الزاهرة ج2 ص 90) .

6 من أمثلة ذلك ما رواه ابن تغري بردي من أنّه دخل على الرشيد ، وقد مات له ولد وتوفي له ولد في ليلة واحدة ، فقال : «سرّك الله فيما ساءك ، ولا ساءك فيما سرّك وجعل هذه بتلك جزاء الشاكرين وثواب الصابرين» (النجوم الزاهرة ج2 ص 92 ، وانظر فوات الوفيات ج2 ص13) .

7 يصف ابن طباطبا عبد الملك بأنّه كان «شديد الوقار والدين والحشمة . وكان الرشيد التمس منه أن ينادمه ، ويشرب معه ، ويبذل له على ذلك أموالاً جليلة ، فلم يفعل» (الفخري في الآداب السلطانية ص 205) .

يعقوب بن صالح الذي حضر إحدى ثورات الرشيد ، نقمةً على عبد الملك[1] . في إحدى جلسات اتّهام عبد الملك ، كان حاضراً سليمانُ بن أبي جعفر . فالتفت الرشيد إليه قائلاً ، وهو يعني عبد الملك بكلامه :

أُريـد حياتَـهُ ويُريدُ قَتلي عذيرَكَ من خليلِكَ من مُرادِ

وسليمان ، هذا ، عمّ الرشيد ومن رواد مجلسه ، أصحاب الرأي والكلمة المسموعة . ويظهر أنّه كان راوية حافظاً للشعر ، متتبّعاً لأخبار الشعراء . وله موقف مشهور من أبي نواس أدى بهذا إلى الحبس في المطبق[2] .

ومن جلساء الرشيد أيضاً كان عيسى بن جعفر ، ابن عمّه ، وأخو زبيدة زوجته . وكان له دالة عليه استطاع بها أن يخرج إبراهيم الموصلي من الحبس ، حين اختار اللحظة المناسبة لذكره أمام الرشيد[3] . كما أمسك عن الرشيد جارية له أعجبت الخليفة فلم يبعها له ولم يهبه إيّاها ، فحلف الرشيد ليقتلنّه إذا لم يبت معها ليلته . وكان على أبي يوسف القاضي أن يتدخّل بإحدى فتاواه الشهيرة لينقذ الموقف[4] . وتجدر الملاحظة هنا أنّ قصر عيسى بن جعفر بالخريبة كان من

---

1 ذكر ابن عبد ربّه ، عن يعقوب بن صالح بن علي قوله : «دخلت يوماً على أمير المؤمنين الرشيد ، وهو متغيّظ ، متربّد . فندمت على دخولي عليه ، وقد كنت أفهم غضبه في وجهه . فسلّمت فلم يردّ . فقلت : داهية نآد . ثم أومأ إليّ ، فجلست . فالتفت إليّ وقال : لله عبد الله (بن معاوية بن عبد الله) بن جعفر بن أبي طالب ؛ فلقد نطق بالحكمة حيث يقول :

يا أيّها الزاجري عن شِيمتي سَفَها عَمْداً عصيتَ مقالَ الزاجرِ الناهي
لقد عَجِبتُ لِقومٍ ، لا أُصولَ لهم ، أثـرَوا ، وليسوا وإن أثرَوا بأشباهي

(الأبيات)

فقلت : يا أمير المؤمنين ، ومن الذي بلغت به المقدرة أن يسامي مثلك ، أو يدانيه ؟ قال : لعلّه من بني أبيك وأمّك» (العقد الفريد ج2 ص 182) .

2 ذكر المرزباني عن محمد بن جعفر قوله : «جلس الرشيد مجلساً . فأفاض مَن حضرَه في ذكر المطبوعين من الشعراء المحدثين ، إلى أن اتّصل الذكر بأبي نواس . فغمز عليه سليمان بن أبي جعفر . . .» وانطلق يروي من أشعار زندقته ومجونه . ثم تداول الحاضرون الانشاد ، حتى حلف الرشيد ألاّ يبيت أبو نواس إلاّ في المطبق» (الموشح ص 762) .

3 يروي الأصفهاني بالسند عن إسحاق الموصلي قال : «حدّثني أبي أنّ الرشيد غضب عليه وقيّده وحبسه بالرقة ، ثم جلس يوماً للشرب في مجلس زيّنه وحسّنه . فقال لعيسى بن جعفر : هل لمجلسنا عيب ؟ قال : نعم ، غيبة الموصلي عنه . فأمر بإحضاري فأُحضرت أرسف في قيودي ، ففكت عنّي بين يديه» (الأغاني ج5 ص 152) .

4 روى البغدادي خبر استدعاء الرشيد لأبي يوسف القاضي ليلاً وقوله له : «دعوتك لأشهّدك على هذا : إنّ عنده جارية سألته أن يهبها لي فامتنع ، وسألته أن يبيعنيها فأبى . والله ، إن لم يفعل لأقتلنّه . قال : فالتفتّ إلى عيسى وقلت : ما بلغ الله بجارية تمنعها أمير المؤمنين وتنزل نفسك هذه المنزلة ؟ قال : فقال لي : عجّلت على هذا القول قبل أن تعرف ما عندي . قلت : وما في هذا من الجواب ؟ قال : إنّ عليّ يميناً بالطلاق والعتاق وصدقة ما أملك ألاّ أبيع هذه الجارية ولا

الأماكن التي يغشاها الرشيد في تنقّلاته[1] .

وبعد هذا الحديث عن أمراء العباسيين في البلاط ، لا بدّ من الكلام على طبقة أُخرى من العليّة ، قوامها وجهاء القبائل والمدن الكبرى[2] . ونتصوّر أنّ بلاط الرشيد غدا دار الندوة التي تجمع أشراف القبائل والعشائر ، تتقابل فيه ، وتخوض بصمت وهدوء صراعاتها المعتادة ، ممّا نتحدّث عنه بالتفصيل في فصل «صراع العصبيات» .

3 ـ كبار الأدباء : هؤلاء كانوا المحور الحقيقي الذي دار حوله أدب البلاط . ونحن لن نتحدّث تفصيلاً عن أدبهم ، لأنّ ذلك هو موضوع المجالس الأدبية ، وإنّما نكتفي بعرض لبعض أخبارهم ، ابرازاً لمبلغ أهمّيتهم عند الرشيد وروّاد البلاط . وأوّل اسمين كبيرين يطالعاننا هما الكسائي والأصمعي . فالاثنان لازما الرشيد : رافقاه في ترحاله ، وحلاّ معه في حلّه[3] . وقد غلب الأصمعي على الرشيد غلبة عجيبة حتى بات لا يطيق عنه صبراً[4] : أدخله حياته وربطه بها ، فهو معه ليلاً وسحراً وصباحاً ، وهو معه نهاراً . وهو يستقبله في مجلسه العامر ، كما يستقبله في مقاصيره الخاصة ، أو وهو في ثياب غير لائقة[5] ، بل وهو في فراشه نصف عار

= أهبها . فالتفت إليّ الرشيد فقال : هل له في ذلك مخرج ؟ قلت : نعم . قال : ما هو ؟ قلت : يهبك نصفها ويبيعك نصفها فتكون لم تبع ولم تهب . قال عيسى : ويجوز ذلك ؟ قلت : نعم . قال : فاشهد أنّي قد وهبت له نصفها وبعته النصف الثاني بمئة ألف دينار . . .» (تاريخ بغداد ج14 ص 250) وانظر (وفيات الأعيان ج3 ص 338 وراجع خلاصة الذهب المسبوك ص 132) .

1 جاء في رواية الطبري لحوادث عام 180هـ : «وفيها صار الرشيد إلى البصرة منصرفه من مكّة . فقدمها في المحرم منها . فنزل المحدّثة أيّاماً ، ثم تحوّل عنها إلى قصر عيسى بن جعفر بالخريبة ، ثم ركب في نهر سيحان . . .» (تاريخ الطبري ـ ج8 ص 266) .

2 يذهب غود فروا إلى أنّ رؤساء القبائل كان لهم ، في الإسلام ، مهمّة إدارية ، وكان للخليفة رأي وإرادة في تعيينهم وعزلهم . يقول : «نجد في بداية الخلافة ، بين الحضر ، كما بين البدو ، في المدن العسكرية الجديدة : البصرة والكوفة والفسطاط كما في الصحراء ، أنّ الخليفة أو ممثّله يتّصل بجمهور الناس عن طريق زعماء القبائل وهو يؤكّد تعيين الرئيس ويزوّده بسلطة عسكريّة وإداريّة وماليّة يمارسها هذا باستقلال ولا ينقص من شأنه إلاّ إذا عزل» (النظم الإسلامية ص 132) .

3 قال الزجاجي : «كان الكسائي والأصمعي بحضرة الرشيد ، يقيمان بإقامته ويظعنان بظعنه» (الأمالي ص 34) .

4 روى ابن عبد ربّه عن الأصمعي قوله : «دخلت على هارون الرشيد ، وبين يديه جارية حسناء عليها لُمّةٌ جعدة وذؤابةٌ تضرب الحِقْوَ منها ، وهلال بين عينيها مكتوب عليه بالذهب : هذا ما عُمل في طراز الله . فقال : يا أصمعي ، صفها . . .» (العقد الفريد ج6 ص 402) والخبر يثبت أنّ الأصمعي دخل حياة الرشيد الخاصة حتى أشركه مجلسه مع جواريه .

5 قال البيهقي : «حدّث الأصمعي أنّه دخل ذات يوم على أمير المؤمنين الرشيد ، وكان لا يُحجب عنه ، وكان في فرد رجله خف ، وفي الأُخرى جورب ، لعلّة كان يجدها . فسامره ساعة . . . .» (المحاسن والمساوىء ج2 ص 87) .

أو شبه عار[1] . والأصمعي بلبل البلاط الغرّيد[2] يُطرب الرشيد في حال سروره[3] ، ويسرّي عنه في حال غمّه : يسامره في حال وحدته فيذهب عنه أرقه وضجره ، يسوق إليه الخبر تلو الخبر ، وينشده القصيدة بعد القصيدة ، ويُفيض عليه من علمه ومعرفته علماً ومعرفة[4] يتلقّفهما ويتقبّلهما ، ويجيزه على هذا كلّه جوائز سنية ؛ وأوكل إليه تعليم المأمون وتأديبه ، فجمع من ذلك ثروة كبيرة[5] . وكان يخرج إليه جواريه يمتحنهنّ له ويفاضل بينهنّ . حتى ابنته أظهرها له يعرّفه عليها ويطلب إليه تقبيل رأسها[6] . وكانت للأصمعي ميزات كثيرة تجعل منه الجليس المثالي : فهو «أتقن القوم للغة ،

---

1 في رواية أُخرى لابن عبد ربّه عن الأصمعي ذكر قوله : «دخلت على هارون الرشيد ، وهو في الفرش منغمس كما ولدته أمّه» (العقد الفريد ج6 ص 336) .

2 ذكر البغدادي أنّه قيل لأبي نواس : قد أشخص أبو عبيدة والأصمعي إلى الرشيد فقال : «أما أبو عبيدة فإنّه ، إن مكّنوه ، يقرأ عليهم أخبار الأوّلين والآخرين . وأمّا الأصمعي فبلبلٌ يطربهم بنغماته» (تاريخ بغداد ج10 ص 144) ويذكر ابن الانباري المقارنة قائلاً : «أمّا أبو عبيدة فعالم لا يزال مع أسفاره يقرؤها ، والأصمعي بمنزلة بلبل في قفص يسمع من نغمه لحوناً ويُري ، كلّ وقت ، من مُلحه فنوناً» (نزهة الألباء ص 109) وانظر (وفيات الأعيان ج2 ص517) .

3 يروي المسعودي أنّ الرشيد أجرى الخيل بالرقة فجاء فرسه سابقاً وبعده فرس ابنه المأمون «فسُرّ بذلك . . . فلمّا انقضى المجلس وهمّ بالانصراف ، قال الأصمعي ، وكان حاضراً وقد تبيّن سرور الرشيد ، للفضل بن الربيع : يا أبا العبّاس ، هذا يوم من الأيّام فأحبّ أن توصلني إلى أمير المؤمنين . وقام الفضل فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا الأصمعي يذكر شيئاً من أمر الفرسين يزيد الله به سرور أمير المؤمنين سروراً . قال : هاته . . .» (مروج الذهب ج3 ص280) .

4 يذكر البيهقي أنّ الأصمعي ، بعد أن دخل إلى الرشيد وسامره ، «نهض ليخرج فقال له الرشيد : يا أصمعي ، ماذا تشتهي أن يُتّخذ لك ليُتقدّم فيه وتتغدّى معنا ؟ قال : اشتهي رُقاقاً وجوزلاً . فلم يعرف الرشيد ما قاله الأصمعي ، وكره أن يسأله عنه . فتقدّم إلى الطبّاخ أن يتبعه ويسأله ، من تلقاء نفسه ، ويوهمه أنّه تُقدِم إليه فيه فلم يعرفه . فقال له : الرُقاق معروف . والجوزل : الفرخ السمين . فمضى الطبّاخ وعرّف الرشيد ذلك وأصلح للأصمعي ما طلبه . وعاد فتغدّى مع الرشيد . فلمّا أكل أمر بأن يُحمل معه عشرون ألف درهم» (المحاسن والمساوىء ج2 ص 87) . راجع ص 111 هامش 1 و2 من البحث .

5 ممّا رواه التنوخي عن الأصمعي ، عندما طُلب إليه تعليم الأمين ، قوله : «وأُخرجه إليّ ، وتحوّلت معه إلى دار أُخليت لنا لتأديبه فيها ، وبها من أصناف الخدم والفرش ما يسرّ . وأُجري عليّ ، في كلّ شهر ، عشرة آلاف درهم ، وأمر بأن يُخرج إليّ ، في كلّ يوم ، مائدة . فلزمته وكنت ، مع ذلك ، أقضي حوائج الناس وآخذ عليها للرغائب ، وأنفذ جميع ما يجتمع إليّ أوّلاً فأوّلاً إلى البصرة ، فأبني داري وأشتري ضياعاً وعقاراً . . . وحين بلغ الأمين من المعرفة مبلغاً ، واستعرضه الرشيد فخطب بالناس وصلّى ، أُعجب الرشيد به ، وأخذه نثار الدراهم والدنانير من الخاصة والعامة ، وأسنى الجوائز والصلات عليّ من كلّ ناحية . فجمعت مالاً عظيماً . ثم استدعاني الرشيد فقال : يا عبد الملك ، قد أحسنت الخدمة فتمنّ . فقلت : ما عسيت أن أتمنّى وقد حزت آمالي ؟ فأمر لي بمال عظيم وكسوة كبيرة وطيب فاخر وعبيد واماء وظهر وفرش وآلة . فقلت : إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي بالالمام إلى البصرة والكتابة إلى عامله بها أن يخاطب الناس الخاصة والعامة بالسلام عليّ ثلاثة أيّام ، واكرامي بعد ذلك . فكتب لي عنه بما أردت . .» (الفرج بعد الشدّة ص222) .

6 روى ابن الجوزي ، بالسند عن الأصمعي ، قال : «بعث إليّ الرشيد ، فدخلت فإذا صبيّة . فقال : من هذه الصبية ؟

وأعلمهم بالشعر وأحضرهم حفظاً[1] . «قال عنه إسحاق الموصلي : عجائب الدنيا معروفة معدودة ، منها الأصمعي»[2] . وكان ، إلى ذلك ، حاد الذكاء ، شديد الفطنة ، قويّ الملاحظة ، عميق التبصّر في عواقب الأمور ، قنّاصاً ماهراً للدرهم والدينار[3] يحسن اختيار مواقع صيدهما[4] .

= فقلت : لا أدري . قال : هذه موّاسة بنت أمير المؤمنين . فدعوت لها وله . قال : قم فقبّل رأسها . فقلت : إنّي ، إن أطعته أدركتْه الغيرة فقتلني . وإن عصيته قتلني بمعصيته . فوضعت كمّي على رأسها وقبّلت كمّي . فقال : والله ، يا أصمعي ، لو أخطأتها لقتلتك . أعطوه عشرة آلاف درهم . .» (الأذكياء ص 120) .

1 يروي ابن الأنباري حادثة طريفة تدلّ على ذاكرة الأصمعي العجيبة ، وذلك على لسان ابن بكير النحوي قال : «لمّا قدم الحسن بن سهل العراق ، أحبّ أن يجمع بين جماعة من أهل الأدب . فأحضر أبا عبيدة والأصمعي ونصر بن عليّ الجهضميّ وحضرت معهم . فابتدأ الحسن فنظر في رقاع كانت بين يديه للناس في حاجاتهم ، فوقّع عليها ، وكانت خمسين رقعة . ثم أمر فدفعت إلى الخازن . ثم أفضنا في ذكر الحفّاظ فذكرنا جماعة . فالتفت أبو عبيدة فقال : ما الغرض ، أيّها الأمير ، في ذكر من مضى ، وهاهنا من يقول إنه ما قرأ كتاباً قط فاحتاج إلى أن يعود إليه ولا دخل قلبه شيء وخرج منه . فالتفت الأصمعي فقال : إنّما يريدني بهذا القول ، والأمر في ذلك على ما حكى ، وأنا أقرّب إليه : قد نظر الأمير في خمسين رقعة ، وأنا أُعيد ما فيها وما وقّع به على رقعة رقعة . فأحضرت الرقاع . فقال الأصمعي : سأل صاحب الرقعة الأولى كذا ، واسمه كذا ، ووقّع له بكذا ، والرقعة الثانية والثالثة ، حتى مرّ في نيف وأربعين رقعة . فالتفت إليه نصر بن علي الجهضمي وقال : أيّها الرجل ، أبقِ على نفسك من العين . فكفّ الأصمعي» (نزهة الألباء ص 121 ووفيات الأعيان ج1 ص 517) . . . ومن أعاجيب حفظه ما ذكره السيوطي قال : سأله الرشيد «عن شعر لأبي حزام العكلي ففسّره . فقال : يا أصمعي ، إنّ الغريب عندك لغير غريب . قال : يا أمير المؤمنين ، ألا أكون كذلك وقد حفظت للحجر سبعين اسماً» ؟ (المزهر ج1 ص 189 والصاحبي ص 44) .

2 المزهر ج2 ص 251 وجاء في الصفحة 252 : «لم ير الناس أحضر جواباً وأتقن لما يحفظ من الأصمعي ، ولا أصدق لهجة» .

3 كان يعرف ذلك في نفسه ويعتقد أنّه لا يضاهى فيه ، إلى أن اعترف لإسحاق الموصلي بالسبق . يروي النويري عنه أنّه قال : «دخلت أنا وإسحاق الموصلي يوماً على الرشيد . فرأيناه لقس النفس . فأنشده إسحاق :

وآمرةٍ بالبُخلِ قلتُ لها : اقِصري ... فذلك شيءٌ ما إليهِ سَبيلُ

إلى أن قال :

وكيفَ أخافُ الفَقْرَ ، أو أُحْرَمُ الغِنى ... ورأيُ أميرِ المؤمنينَ جميلُ ؟

قال : فقال له : لا تخف ، إن شاء الله . ثم قال : لله درّ أبيات تأتينا بها ، ما أشدّ أصولها ، وأحسن فصولها وأقلّ فضولها ! وأمر له بخمسين ألف درهم . فقال إسحاق : وصفُك ، والله ، يا أمير المؤمنين ، لِشعري أحسن منه ، فعلام آخذ الجائزة ؟ فضحك الرشيد وقال : اجعلوها مئة ألف درهم . قال الأصمعي : فعلمت يومئذٍ أن إسحاق أحذق بصيد الدرهم منّي» (نهاية الأرب ج5 ص 7 وانظر العقد الفريد ج1 ص 258 والأغاني ج5 ص 292 وزهر الآداب ج4 ص 1041) .

4 نذكر هنا حادثة طريفة تدلّ على استعداد الأصمعي الدائم للحظات الصيد في البلاط ، وحفظه جميع ما يمكن أن يكون طعماً يصيد به درهماً أو ديناراً . فيروي الخطيب البغدادي ، بالسند عن الأصمعيّ «قال : سمعت بيتين لم

أمّا زميل الأصمعي ومنافسه في البلاط ، فهو الكسائي ، كما قلنا . ووجود الكسائي هناك سابق بكثير لوجود الأصمعي لأنّه اعتاد البلاط منذ أيّام المهديّ[1] . أدّب الرشيد الفتى ثم أدّب ابنه الأمين[2] . «وكان اثيراً عند الخليفة حتى أخرجه من طبقة المؤدبين إلى طبقة الجلساء والمؤانسين[3] ، فلزم معظم مجالس البلاط . والكسائي «كان واحد الناس في القرآن ، وكان أعلم الناس بالنحو ، وأحدهم في الغريب[4] . وكان الرشيد يجلّه اجلالاً كبيراً[5] حتى رضي أن يقدّم له وليّا العهد

= أحفل بهما . قلت : هما ، على كلّ حال ، خير من موضعهما من الكتاب . فإنّي عند الرشيد يوماً وعنده عيسى بن جعفر ، فأقبل على مسرور الكبير فقال له : يا مسرور ، كم في بيت مال السرور ؟ قال : ليس فيه شيء . فقال عيسى : هذا بيت مال الحزن . قال : فاغتمّ الرشيد وأقبل على عيسى فقال له : والله لتعطينّ الأصمعي ، سلفاً على بيت مال السرور ، ألف دينار . فاغتمّ عيسى وأنكر . قال : فقلت في نفسي : جاء موضع البيتين ، فأنشدت الرشيد :

إذا شئتَ أنْ تَلقى أخـاكَ مُعَبَّساً وَجَدّاهُ في الماضين كَعْـبٌ وحاتـمُ

فكشِّفْـهُ عمّـا في يَدَيـهِ فإنّمـا يُكشِّف أخبـار الرجـالِ الدراهمُ

قال : فتجلّى عن الرشيد وقال لمسرور : أعطه على بيت مال السرور ألفي دينار . وما كان البيتان يساويان عندي درهمين» (تاريخ بغداد ج14 ص 9) .

1 يورد ابن الأنباري والخطيب البغدادي خبر اتّصاله بالمهدي . فقد كان عند المهدي مؤدّب يؤدّب الرشيد . فدعاه يوماً المهدي وهو يستاك ، فقال له : كيف تأمر من السواك ؟ فقال : استَكْ ، يا أمير المؤمنين . فقال المهدي : إنّا لله وإنّا إليه راجعون . ثم قال : التمسوا لنا من هو أفهم من هذا الرجل . فقالوا : رجل يقال له علي بن حمزة الكسائي من أهل الكوفة ، قدِم من البادية قريباً . فكتب بازعاجه من الكوفة . فساعة دخل عليه قال : يا علي بن حمزة ، لبّيك يا أمير المؤمنين . قال : كيف تأمر من السواك ؟ فقال : سَكْ فاك ، يا أمير المؤمنين . فقال : أحسنت وأصبت . وأمر له بعشرة آلاف درهم . (تاريخ بغداد ج11 ص 406) و(نزهة الألباء في طبقات الأدباء ص 71) .

2 تاريخ بغداد ج11 ص 403 ونزهة الألباء ص 71 ووفيات الأعيان ج2 ص 3 ويقول عنه ابن تغري بردي : «هو معلم الرشيد وفقيهه ، وبعدَه لولديه الأمين والمأمون» (النجوم الزاهرة ج2 ص 130 وكذلك راجع الفهرست ص65) .

3 معجم الأدباء ج13 ص 168 .

4 الخطيب البغدادي ـ تاريخ بغداد ج10 ص 408 . ويصفه ابن خلكان بأنّه أحد القرّاء السبعة وبأن «علمه في النحو واللغة والقرآن (فقط) دون الشعر» . فقد كان الشعر ميدان الأصمعي (وفيات الأعيان ج2 ص 3 والنجوم الزاهرة ج2 ص 130) .
وفي قلّة شأنه في الشعر يروي البغدادي خبر مناظرة الأصمعي له في معنى «محرم» وافحام الأصمعي له وتعليق الرشيد : «يا علي ، إذا جاء الشعر ، فإيّاك والأصمعيّ» (خزانة الأدب ج2 ص 306) ويروي السيوطي الخبر نفسه وفي آخره : «فسكت الكسائي . فقال الرشيد : يا أصمعي ، ما تطاق في الشعر» (المزهر 1 ص 341) .

5 يظهر إجلال الرشيد له في الحادثة التالية يرويها ابن الانباري والخطيب البغدادي عن الكسائي قال : «صلّيت بهارون الرشيد ، فأعجبتني قراءتي . فغلطت في آية ما أخطأ فيها صبي قطّ . أردت أن أقول : لعلّهم يرجعون ،

نعليه[1] . وحين توفّي حزن عليه كثيراً[2] . وكان للكسائي كرسيه في مجلس الرشيد[3] ، يشترك فيما يطرح من موضوعات ، خصوصاً إذا كانت فقهية لغوية . وله مع أبي يوسف مناظرات معروفة[4] .

وآخر من نذكره من أفراد هذه الطبقة من الأدباء أصحاب الكراسي هو شيخهم جميعاً ونعني به المفضل الضبي ، العلاّمة ، راوية الآداب والأخبار وأيّام العرب[5] . فقد كان أوثق من روى الشعر من الكوفيّين ، ولم يكن أعلمهم باللغة والنحو . إنّما يختصّ بالشعر[6] . والضبي ، شأنه شأن سائر الطائفين بالبلاط ، لا يترك فرصة لاقتناص الدرهم . فكأنّ هؤلاء الرواد يتنافسون جميعاً في خلق أفانين التكسّب ، ولا يجدون غضاضةً من ذلك ، رغم علوّ قدرهم وجلال علمهم[7] .

= فقلت : لعلّهم يرجعين . قال فوالله ما اجترأ هارون أن يقول : أخطأت . ولكنّه ، لما سلّمت ، قال لي : يا كسائي ، أيّ لغة هذه ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، قد يعثر الجواد . فقال : أمّا هذا فنعم» . (تاريخ بغداد ج10 ص 408 ونزهة الألباء ص 71) .

1 روى ابن النديم عن أبي الطيّب أنّ الرشيد أشرف على «الكسائي وهو لا يراه . فقام الكسائي ليلبس نعله في حاجة يريدها ، فابتدرها الأمين والمأمون ، فوضعاها بين يديه . فقبّل رؤوسهما وأيديهما ثمّ أقسم عليهما ألاّ يعاودا . فلمّا جلس الرشيد مجلسه ، قال : أيّ الناس أكرم خادماً ؟ قالوا : أمير المؤمنين ، أعزّه الله . قال بل الكسائي يخدمه الأمين والمأمون . وحدّثهم الحديث» (الفهرست ص 65) .

2 توفّي هو ومحمّد بن الحسن الفقيه في يوم واحد ، وكانا بصحبة الرشيد بالري فدفنهما في قرية يقال لها «رنبويه» وقال : «اليوم دفنت الفقه واللغة» . (الورقة ص 25 ونزهة الألباء ص74) كان ذلك عام 189هـ .

3 سبق لنا ذكر مجلس أدبي عقد لسماع الأعرابي الباهلي . أورد الطبري الخبر قائلاً : «وأُلقيت الكراسي فجلس الكسائي والمفضّل وابن سلم وابن الربيع» (الطبري ج8 ص 363) انظر ص 53 هامش 1 من البحث . ويقول السيوطي : «. . . . هذا إلى ما عرف عن عقل الكسائي وعفته وصلفه ونزاهته ، حتى إنّ الرشيد كان يجلسه ومحمد بن الحسن على كرسيين بحضرته ، ويأمرهما ألاّ ينزعجا لنهضته» . (المزهر ج2 ص 261) .

4 سبق ذكر ذلك في الحديث عن أبي يوسف . راجع ص 135 من البحث .

5 الخطيب البغدادي (تاريخ بغداد ج13 ص 121) ويقول عنه أيضاً «روى عنه الكسائي والفراء» (ص 122) وقد أخذ عنه أبو زيد الأنصاري من البصريّين ، لثقته . (ابن الانباري ـ نزهة الألباء ص 56) .

6 حدّث السيوطي أنّه كان يقول : «إنّي لا أحسن شيئاً من الغريب ، ولا من المعاني ، ولا تفسير الشعر . وإنّما كان يروي شعراً مجرّداً» (المزهر ج2 ص 253) ويؤكّد ذلك موقفه من مناظرة الأصمعي حول «تولب جدع» . فقد أنشدها الضبي «تولَباً جَدَعا» . وعندما استغرب الأصمعي آخر البيت ، قال الضبي : «هكذا أُنشدتُه» . فخطّأه الأصمعي ، وراح يأتي بالحجج شعراً وتفسيراً . أمّا المفضل فحين أعيته الحجّة المنطقية ، نفخ «ورفع بها صوته وتكلّم وهو يصيح . . .» (الجاحظ : الحيوان ج4 ص 25 . وابن الانباري نزهة الألباء ص57) . راجع ص33 من البحث .

7 ممّا يظهر روح التكسّب المستغلّة للظروف ، مع الكثير من التكلّف ، ما ذكره الطبري عن مناظرة بين الرشيد والضبي حول موضوع يختاره المفضل . فاختار معنى «القمرين والنجوم» في قول الفرزدق :

لنا قمراها والنجومُ الطوالعُ

ثانياً ـ الفئة الثانية من روّاد البلاط الأدبي

هي فئة اعتادت ملازمة الرشيد ومصاحبته بشكل دائم أو متقطّع . ورد ذكرها في الكثير من أخبار مجالسه . ولكن ليس ، فيما وقع لنا من تلك الأخبار ، ما يدلّ على أنّ هذه الفئة كانت تتمتّع بامتيازات الطبقة السابقة ، من حيث مرتبة الجلوس . هذه الفئة تشمل شعراء فحولاً ، كما تشمل قوّاداً وبعض الموظّفين والكتّاب وغيرهم ، من حاشية الرشيد ، فضلاً عن الغلمان والحرّاس ، وفيها مضحك الملك ، ومنها منشده .

1 ـ الشعراء الفحول : وكان أبرزهم وأكثرهم ملازمة للرشيد : أبو العتاهية . ويظهر أنّ اتّصاله به كان في خلافة المهدي أبيه[1] . وكان هذا الاتّصال أحد أسباب نقمة الهادي عليه ، حين كان ، هو والرشيد ، لا يزالان وليّي عهد للمهدي . فلمّا آلت الخلافة إلى موسى ، قصده أبو العتاهية ومدحه . فنال من رفده الكثير[2] حتى إنّه ، حين جاء دور الرشيد لحمل أعباء الحكم ، كان أبو العتاهية يحسّ ولاء للهادي . وكأنّه خجل من العودة إلى الرشيد ، بعد تخلّيه عنه خلال ولاية أخيه ، فأعلن أنّه اعتزل شعر الغزل ، وهو ما كان اشتهر به أكثر من سواه ، وانصرف إلى المواعظ والزهد[3] . وما كان

= فأوفى الرشيدُ الجواب حقّه ، لأنّ الكسائي سبق له أن أفاده عنها . لكن الضبي خرّج المعنى على هواه ، فجعل الشاعرَ يقصد ، بالنجوم والقمرين ، «الخلفاء الراشدين من آباء الرشيد» . والتخريج ، كما هو واضح ، طلب صريح للجائزة . وقد أتته بالفعل ، «دسمة» (تاريخ الطبري ج8 ص 362) . راجع ص 139 من البحث .

1 ذكر ذلك الحصري ، وجعل السبب رغبته في أن يكون قريباً من عتبة جارية ريطة ، زوجة المهدي . قال : «لمّا قدمت عتبة بغداد ، قدم معها أبو العتاهية ، وتلطّف حتى اتّصل بالرشيد ، في خلافة أبيه المهدي . وتمكّن منه . وبلغ المهدي خبره . فأحضره فقال : يا بائس ، أنت مستقتل . . .» زهر الآداب ج2 ص 348 .

2 ذكر الأصفهاني «أنّ الهادي كان واجداً على أبي العتاهية لملازمته أخاه هارون في خلافة المهدي . فلمّا ولي موسى الخلافة ، قال أبو العتاهية يمدحه :

يضطربُ الخوفُ والرجاءُ إذا حرّكَ موسى القضيبَ أو فَكَّرْ . . . .

فرضي عنه . فلمّا دخل عليه ، أنشده قصيدته :

لهْفي على الزَمَنِ القصيرِ بين الخَوَرْنقِ والسَديرِ

فأجزل صلته . .» (الأغاني ج4 ص 62 وما بعد) .

3 في إحدى روايات الأصفهاني لسبب حبس الرشيد أبا العتاهية يقول : «لمّا مات موسى الهادي ، قال الرشيد لأبي العتاهية : قل شعراً في الغزل . فقال : لا أقول شعراً بعد موسى أبداً . فحبسه وأمر إبراهيم الموصلي أن يغنّي فقال : لا أغنّي بعد موسى أبداً ، وكان محسناً إليهما . فلمّا شخص إلى الرقة ، حفر لهما حفرة واسعة وقطع بينهما بحائط وقال : كونا بهذا المكان ، لا تخرجا حتى تشعر أنت ، ويغنّي هذا» (الأغاني ج4 ص 75) . ولنا على هذا الخبر تحفّظات . وأوّلها نفسيّ اجتماعيّ . إذ يعتمد على رفض أبي العتاهية وإبراهيم الموصلي طلباً لخليفة حيّ ، وفاء لخليفة ميّت ، وهذا لا يتوافق وطباعهما وميلهما المعروف إلى التكسّب ، شأن أبناء طبقتهما في تلك الأيّام المتقلّبة .

الرشيد ليتخلّى بسهولة عن شاعرية أبي العتاهية[1] . ولم يكن أبو العتاهية ، على رغم مظاهر العزوف عن الدنيا ، التي حاول الظهور بها ، قادراً على مقاومة ضغط الخليفة ، وحرمانه . فلم يلبث أن عاد إليه يمدح ويتغزّل ، يخلط ذلك كلّه بمسحة زهديّة ، وإن لم يزهد أبداً في عطايا الرشيد[2] .

هكذا لزمه كظله لا يفارقه «في سفر ولا حضر إلاّ في طريق الحجّ . وكان يجري عليه في كلّ سنة خمسين ألف درهم ، سوى الجوائز والمعاون»[3] . ولعلّ الملازمة هذه لا تعني التواجد الدائم

= والتحفّظ الثاني تاريخي ، إذ يشمُ من الخبر أنّه جرى في بداية ولاية الرشيد ، بينما لم يستوطن الرشيد الرقة إلاّ عام 180هـ ، أي بعد مضيّ عشر سنوات على تولّيه الخلافة (النجوم الزاهرة ج2 ص 99) . ويروي الحصري الخبر كما يلي : «لمّا قدم الرشيد الرقة أظهر أبو العتاهية الزهد والتصوّف ، وترك الغزل . فأمره الرشيد أن يتغزّل ، فأبى فحبسه» (زهر الآداب ج2 ص 349) وهذا أقرب إلى المعقول وخصوصاً أنّ الحديث عن رفض إبراهيم الموصلي للغناء بعد الهادي ينافي ما رواه الأصفهاني من أنّ أوّل شعر مُدح به الرشيد ، بعد خلافته ، كان شعراً للموصلي غنّاه به وهو في مجلس شراب (الأغاني ج5 ص 186) . ويبدو أنّ حبس الموصلي ، هو الآخر كان بعد عام 180هـ وبالتالي يكون لـه سبب غير رفضه الغنـاء بعد موت الهادي . ويذكر النويري الخبر على لسان إسحاق الموصلي كما يلي : «حدّثني أبي قال : إنّ الرشيد غضب عليّ وحبسني بالرقة . . .» (نهاية الأرب ج4 ص325) .

1 لقد كان اجماع الروايات على أنّ الرشيد حبس أبا العتاهية بسبب توقّفه عن شعر الغزل ، أو بالأحرى عن شعر يخدم أغراض البلاط كما يتبيّن من شعره الذي رافق اخراجه من الحبس وفيه :

يـا ابـنَ عمِّ النبيِّ ، سَمعاً وطاعَةْ   قـد خَلَعْنـا الكِساءَ والدُرّاعَةْ
ورَجَعنـا إلى الصناعـةِ لَمَّا   كان سُخطَ الإمـامِ تـركُ الصِناعةْ

(الأغاني ج4 ص 71) .

وفي رأينا أنّ هناك سبباً نفسيّاً شخصيّاً دعا الرشيد إلى التشدّد على أبي العتاهية «ليعود إلى الصناعة» . وهذا السبب ليس رغبة في شعر الغزل ، فهناك شعراء كثيرون مستعدّون لأن يتغزّلوا للرشيد . وليس السبب رغبة الرشيد عن شعر الزهد ، فهو كان يتقبّله ويقصد الزهادَ ليسمعهم . لا شكّ في أنّه وَجَد على أبي العتاهية بسبب شعر وعظيّ قاله في غير موضعه . ونحن نرشّح الحادثة التي يرويها ابن الأثير (الكامل ج5 ص 133) وابن طباطبا (الفخري ص193) عن دعوة الرشيد أبا العتاهية لوصف مجلس جمّله ، فأسمعه شعراً وعظيّاً أبكاه وغمّه . ومع أنّ الرشيد لم يلم أبا العتاهية في تلك اللحظة ، فلا شكّ في أنّه حفظها له . وقد يكون امتناع أبي العتاهية عن شعر الغزل قد بدأ في تلك الأثناء لأنّه ، لو كان ملتزماً الزهـد ، قبل ذلك ، لما طلب إليه الرشيد وصف مجلسه المترف .

2 لن نحصي هنا ما ناله أبو العتاهية من عطايا الرشيد ، ولكنّنا نشير إلى لهفته إلى كسب المال حتى ليكاد يجنّ من جوائز لا تعرف طريقها إليه . من ذلك ، الخبر التالي أورده الأصفهاني عن خالد بن أبي الأزهر قال : «بعث الرشيد بالحرشي إلى ناحية الموصل ، فجبى منها مالاً عظيماً من بقايا الخراج ، فوافى به باب الرشيد ، فأمر بصرف المال أجمع إلى بعض جواريه . فاستعظم الناس ذلك وتحدّثوا به . فرأيت أبا العتاهيـة وقد أخذه شبه الجنون . فقلت له : ما لك ، ويحك ؟ فقال لي : سبحان الله ! أيُدفع هذا المال الجليل إلى امرأة ولا تتعلّق كفي بشيء منه ؟» (الأغاني ج4 ص 69) .

3 الأغاني ج4 ص 15 .

في مجالس الرشيد ، إنّما تعني الحضور في البلد الذي يقيم فيه الخليفة ، لأنّ هناك إشارات إلى وقوفه بالباب[1] شأن سائر الشعراء . فوجوده بمتناول دعوة الرشيد يسهّل استحضاره كلّما عنّ للخليفة ذلك[2] . ونظراً لما تميّز به أبو العتاهية من سلاسة الشعر وسهولة النظم وجودة الطبع وسرعة البديهة ، فقد نال حظوة عند العامة والخاصة[3] ، وطبّق صيته الآفاق وقارب الأسطورة ، حتى زعموا أنّه استلفت نظر امبراطور الروم فبذل الكثير لأبي العتاهية مقابل زيارة القسطنطينية ، وتوسّط الرشيد لذلك ، لكنّ الشاعر أبى تلبية الدعوة . . .[4] وكان كلامه قريباً إلى

---

1 من ذلك ما رواه الأصفهاني عن ابن الاعرابي : «اجتمعت الشعراء على باب الرشيد ، فأذن لهم ، فدخلوا وأنشدوا ، فأنشد أبو العتاهية :

يا مَنْ تَبَغّى زمناً صالحـاً ... صلاحُ هارونٍ صلاحُ الزمَنْ
كلُّ لسانٍ هــو في ملكِـهِ ... بالشُكرِ في احسانِهِ مُرتَهَنْ

قال : فاهتزّ الرشيد وقال له : أحسنت والله . وما خرج في ذلك اليوم أحد من الشعراء بصلة غيره» (المصدر السابق ص 44) وجاء في المصدر نفسه (ص 76) عن لسان شبيب بن منصور : «كنت في الموقف ، واقفاً على باب الرشيد ، فإذا رجل بشع الهيئة على بغل ، قد جاء فوقف . فجعل الناس يسلّمون عليه ويسائلونه ويضاحكونه . ثم وقف في الموقف . فأقبل الناس يشكون أحوالهم . . . فقال الرجل :

فتَشتُ ذي الدنيا ، فليسَ بها ... أَحَــدٌ أَراه لآخــرٍ حامِدْ

فسألت عنه فقيل : أبو العتاهية» .

2 قال الأصمعي : «صنع الرشيد طعاماً وزخرف مجلسه وأحضر أبا العتاهية وقال له : صف لنا ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا . انظر الأنوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية ج1 ص 132) ؛ وأمر الرشيد ذات يوم بحمل أبي العتاهية إليه وأن لا يكلّم في طريقه ولا يذكر له ما يراد به . . .» (المسعودي ـ مروج الذهب ـ دار الأندلس ج3 ص 450) .

3 يقول ابن المعتزّ : «كان أبو العتاهية ، لسهولة شعره وجودة طبعه فيه ، ربّما قال شعراً موزوناً ليس من الأعاريض المعروفة . وكان يلعب بالشعر لعباً ويأخذ كيف شاء» (طبقات الشعراء ص 229) . ويروي الحصري أنّ الشعراء حسدوه على سبعين ألف درهم أخذها من عمر بن العلاء بقصيدة وقالوا : «لنا بباب الأمير أعوام نخدم الآمال ، ما وصلنا إلى بعض هذا» فعتب عليهم عمر استغراقهم القصائد بالتشبيب والخلوص إلى المدح بأبيات قليلة ، وتكون قد ذهبت لذّة حلاوته بينما أبو العتاهية «أتى فشبّب بأبيات يسيرة ثم قال : إنّ المطايا تشتكيك . . .» (زهر الآداب ج2 ص 344) . ويردّ ابن الاعرابي على من قال بضعف شعر أبي العتاهية : «الضعيف والله عقلك لا شعر أبي العتاهية . ألأبي العتاهية تقول : إنّه ضعيف الشعر ؟ فوالله ما رأيت شاعراً قطّ أطبع ولا أقدر على بيت منه . وما أحسب مذهبه إلاّ ضرباً من السحر» (الأغاني ج4 ص 16) .

4 يروي الأصفهاني عن الرياشي : قدم رسول ملك الروم إلى الرشيد . فسأل عن أبي العتاهية وأنشده شيئاً من شعره ، وكان يحسن العربية . فمضى إلى ملك الروم وذكره له . فكتب ملك الروم إليه ، وردّ رسوله يسأل الرشيد أن يوجّه بأبي العتاهية ويأخذ فيه رهائن من أراد ، وألحّ في ذلك . فكلّم الرشيد أبا العتاهية في ذلك فاستعفى وأباه . . واتّصل بالرشيد أنّ ملك الروم أمر أن يكتب بيتان من شعر أبي العتاهية على أبواب مجلسه وباب مدينته وهما :

نفوس النساء[1] ، بمن فيهنّ زبيدة التي كانت تميل إلى شعره ، وتحميه وتشفع له عند الرشيد[2] . كذلك كانت علاقته طيّبة بالفضل بن الربيع[3] . ومع أنّه اتّصل بالبرامكة ومدحهم ، فإنّهم لم يكونوا يأمنون له[4] . أمّا الرشيد فإنّه لم يتوقّف عند حدّ الاعجاب بشعره بل بات يراه من ضرورات مجلسه[5] لا يستغني عن بديهته وسرعة ارتجاله ، ويفتقده إذا طال

= ما اختلَفَ الليلُ والنهارُ ولا ... دارتْ نجومُ السماء في الفَلَكِ

إلاّ لِنَقْلِ السُلطانِ من مَلِكٍ ... قد انقضى مُلْكُهُ إلى مَلِكِ

(المصدر السابق ص 107) .

1 يقول عنه ابن المعتزّ : «كان أبو العتاهية أحد المطبوعين ، وممّن كاد يكون كلامه شعراً كلُّه . وغزله ليّن جداً ، مشاكل لكلام النساء ، موافق لطباعهنّ . .» (طبقات الشعراء ص 228) .

2 يذكر الأصفهاني أنّ أبا العتاهية . حين عرّض بالقاسم بن الرشيد لتيهه ، ضربه القاسم وحبسه في داره . فدسّ أبو العتاهية إلى زبيدة بنت جعفر ، وكانت توجب له حقّه ، هذه الأبيات :

حتّى متى ذو التيهِ في تيهِهِ ؟ ... أصلَحَهُ اللهُ وعافاهُ . .

وكتب إليها بحاله وضيق حبسه . وكانت مائلة إليه ، فرقّت له . وأخبرت الرشيد بأمره ، وكلّمته فيه فأحضره وكساه ووصله «ولم يرض عن القاسم حتى برّ أبا العتاهية وأدناه واعتذر إليه» (الأغاني ج4 ص 68) .

«ولمّا قتل عبد الله المأمون أخاه محمد بن زبيدة ، أرسلت أمّه زبيدة بنت جعفر إلى أبي العتاهية أن يقول أبياتاً على لسانها للمأمون . . .» (ابن عبد ربّه ـ العقد الفريد ج3 ص 261 والقالي ، أبو علي ، الأمالي ج2 ص 191) .

3 يذكر الأصفهاني على لسان أبي العتاهية قوله : «ما زال الفضل بن الربيع من أمْيل الناس إليّ ، فلمّا رجع من خراسان ، بعد موت الرشيد ، دخلت إليه . . .» (الأغاني ج4 ص 90) .

4 والأصفهاني أيضاً يحدّثنا عن لسان رجاء مولى صالح الشهرزوري ، أنّ أبا العتاهية رجا صالحاً أن يكلّم الفضل بن يحيى في حاجة له فرفض صالح المهمّة ، مبدياً استعداده ليتحمّل من ماله ما شاء أبو العتاهية على أن يعفيه من التوسّط له . فجفاه أبو العتاهية ثمّ كتب إليه أبياتاً يعرّض به فيها ، منها :

هذا زمانٌ قد تعوَّدَ أهلُهُ ... تِيهَ الملوكِ وفِعلَ من يَتَصدَّقُ

«فلمّا أصبح صالح غدا بالأبيات على الفضل بن يحيى وحدّثه الحديث . فقال له : لا والله ، ما على الأرض أبغض إليّ من اسداء عارفة إلى أبي العتاهية لأنّه مِمَّنْ ليس يظهر عليه أثر صنيعة . وقد قضيت حاجته لك» (المصدر السابق ص98) .

5 ممّا يدلّ على اعجاب الرشيد ، هذا الكلام لإبراهيم الموصلي يذكره الأصفهاني : «كان الرشيد معجباً بشعر أبي العتاهية فخرج إلينا يوماً وفي يده رقعتان على نسخة واحدة ، فبعث بإحداهما إلى مؤدب ولده وقال : ليروّهم ما فيها . ودفع الأخرى إليّ وقال : غنّ في هذه الأبيات . ففتحتها فإذا فيها (أبيات لأبي العتاهية منها) :

قُلْ لِمَنْ ضَنَّ بِوُدِّهْ ... وكَوى القلبَ بِصَدِّهْ

ما ابتلى اللهُ فؤادي ... بِكَ إلاّ شُؤْمُ جَدِّهْ

(المصدر السابق ص 99) .

غيابه عن البلاط[1] .

ومن الشعراء الفحول ، الذين لزموا البلاط لفترة ، تطول أو تقصر[2] منصور النمري وابن ذؤيب العماني . فقد ذكرهما الطبري في الحاضرين عند حديثه عن مجلس الاستماع إلى الشاعر الباهلي[3] كما ورد ذكر النمري في الحاضرين عند استماع الرشيد إلى سلم الخاسر في طيّه المنازل أثر

= وهذا الخبر يرويه الحصري «وكان الرشيد مغرماً بشعره» مستظرفاً له . قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي : ذكرت عند الرشيد بذم ، وكان فيه أن قيل : هو ، يا أمير المؤمنين ، على حداثة سنّه ، وقصر معرفته ، يخالفك فيقدم العبّاس ابن الأحنف على أبي العتاهية . فاستحضرني وقال : من أشعر عندك : أبو العتاهية أم العبّاس ؟ فعرفت ما أراد ، فقلت : أبو العتاهية . . . .» (جمع الجواهر ص 234 وانظر أيضاً الأغاني ج8 ص 374) .

1 عن ابن أبي العتاهية يروي الأصفهاني «أنّ الرشيد ، لما أطلق أباه من الحبس ، لزم بيته وقطع الناس . فذكره الرشيد ، فعُرّف خبره . فقال : قولوا له : صرتَ زير نساء وجِلس بيت . . .» (الأغاني ج4 ص 107) ، وممّا يدلّ أيضاً على إصابته ما في نفس الرشيد ، ممّا يجعله لا يستغني عنه ، أنّه حين يسمع شعره أحياناً يكتفي به ولا يعود يطيق سماع سواه ، وإذا سمع فلا يجيز أحداً بعده . من ذلك الخبران التاليان أوردهما الأصفهاني :
«أجرى هارون الرشيد الخيل . فجاء فرس يقال له المشمر سابقاً . وكان الرشيد معجباً بذلك الفرس . فأمر الشعراء أن يقولوا فيه . فبدرهم أبو العتاهية فقال :

جـــاء المُشمِّرُ ، والأفراسَ يَقدُمُها ... هوناً ، على رَسْلِهِ منها ، وما انبَهَرا

(الأبيات)
فأجزل صلته ، وما جسر أحد بعد أبي العتاهية أن يقول فيه شيئاً» (المصدر السابق ج4 ص 45) . وانظر في دخول أبي العتاهية مع الشعراء وإنشاده : يا من تبغّى زمناً صالحاً . راجع ص 84 هامش 1 .

2 نخصّ بالذكر في هذا المقطع الشعراء الذين دخلوا إلى البلاط وحضروا مجالس الرشيد دون أن يكون المطلوب منهم مجرّد الإنشاد . فحضورهم له صفة العادة ، ولهم مشاركة في أحاديث المجلس ، وارتجال في مناسبات طارئة ينتهزونها ولا يدعونها تفلت منهم . وهذا يميّزهم من شعراء آخرين ، سيأتي ذكرهم في الفئة التالية ، كانوا يدخلون إلى المجلس ، ينشدون ما هيّأوه ثمّ ينصرفون . والحادثة التالية يرويها الأصفهاني تبرز لنا الميزة التي ذكرناها . فقد حدّث الهمداني قال : «قال لي منصور النمري : دخلت على الرشيد يوماً ، ولم أكن أعددت له مدحاً . فوجدته نشيطاً طيّب النفس ، فرمت شيئاً فما جاءني . ونظر إليّ مستنطقاً فقلت :

إذا اعتاصَ المديحُ عليك فامدحْ ... أميرَ المؤمنـينَ تَجِـدْ مَقالا
وعُـذْ بفِنائِـهِ واجنَحْ إليــهِ ... تَنَلْ عُرْفـاً ولم تُذلَـلْ سُؤالا
فنـاءٌ لا تَـزالُ بـهِ رِكابٌ ... وَضَعْنَ مدائحـاً وحَمَلْنَ مالا

فقال : والله ، لئن قصّرتَ القول ، لقد أطلت المعنى . وأمر لي بصلة» (الأغاني ج13 ص157) .

3 حين دخل سعيد بن سلم إلى الرشيد ، حسب رواية الطبري ، وذكر أمامه الشاعر الباهلي ليغريه بالاستماع إليه قائلاً : «ما رأيت قطّ أشعر منه ، قال : أما إنّك استبحت هذين ، يعني العماني ومنصوراً النمري ، وكانا حاضرين» (تاريخ الرسل والملوك ج8 ص 363) . راجع ص 53 هامش من البحث .

عودته من الحجّ[1] . والنمري لزم الرشيد وصحبه في تنقّله[2] ، وأنشد في مدحه قصائد رائعة تركّز حقّ العبّاسيين وأفضليتهم على آل علي ، على رغم أنّه كان يبطن التشيّع[3] . وكان الرشيد يعجب ، على الخصوص ، بشعره في زوال الشباب ، والحسرة عليه[4] . وممّا يسجل له تمكّنه من وضع السيف عن ربيعة بقصيدة دخل بها على الرشيد ، وكذلك تمكّنه من ارجاع الرشيد إلى بغداد بشعر قاله حرّك به لواعجه وذكّره مَن فيها من أحبّاء[5] .

---

1 أورد الأصفهاني خبر دخول سلم الخاسر على الرشيد وعنده العبّاس بن محمّد وجعفر بن يحيى وإنشاده ونيله منه مئة ألف درهم ، ثمّ قول الرشيد للفضل بن الربيع ، «هل قال أحد غير سلم في طينا المنازل شيئاً ؟ وكان الرشيد قد انصرف من الحجّ وطوى المنازل ، فوصف ذلك سلم . فقال الفضل : نعم ، يا أمير المؤمنين ، منصور النمري . فأمر سلماً أن يثبت قائماً حتى يفرغ النمري من انشاده» (الأغاني ج19 ص 243) .

2 صحب الرشيد إلى بلاد الروم وشهد القتال فسأله الرشيد : «كيف رأيت فرسي ، فإنّي أنكرته ؟» فقال النمري مرتجلاً :

مُضــزٍ على فأسِ اللِجــام كأنّهُ   إذا ما اشتكتْ أيدي الجيادِ يَطيرُ . . .

(الأبيات)

(المصدر السابق ج13 ص 146) .

3 الحصري : «كان الرشيد يقدّم منصوراً النمري بجودة شعره ، ولما يمتّ إليه من النسب من العبّاس بن عبد المطّلب ، رضي الله عنه ـ وكانت نثيلة أم العبّاس من النمر بن قاسط ـ ولما كان يظهر من الميل إلى إمامة العبّاس وأهله والمنافرة لآل علي رضي الله عنه . . . . وكان يضمر غير ما يظهر ، ويعتقد الرفض ، وله في ذلك شعر كثير لم يظهر إلاّ بعد موته» (زهر الآداب ج3 ص668-669) .

4 وذلك في قصيدته العينية المشهورة ومطلعها :

ما تنقضي حسرةٌ منّي ولا جَزَعُ   إذا ذكرتُ شباباً ليس يَرتَجعُ

ويعلّق الرشيد ، بحسب الأصفهاني قائلاً : «أحسن والله . لا يتهنّأ أحد بعيش حتى يخطر برداء الشباب» (الأغاني ج13 ص 145 ، وابن المعتزّ يقول عن النمري أنّه «أقام القيامة في تشبيب هذه القصيدة بالشباب» (طبقات الشعراء ص 245) والطبري يروي تعليق الرشيد : «لا خير في الدنيا لا يُخطَر فيها ببرد الشباب» (تاريخ الرسل والملوك ج8 ص 362) والحصري يذكر «أنّ الرشيد لما سمع هذا بكى وقال : ما خير دنيا لا تخطر فيها ببرد الشباب» (زهر الآداب ج3 ص 668) .

5 يروي ابن المعتزّ أنّ الرشيد كان بالرقّة ، وكان يستحسنها ويستطيبها فيقيم بها . وأطال المقام بها مرّة ، فقالت زبيدة للشعراء : من وصف مدينة السلام وطيبها في أبيات يشوّق أمير المؤمنين إليها أغنيته . فقال في ذلك جماعة منهم النمري قال أبياتاً أوّلها :

ماذا ببغدادَ مــن طيبِ أفانينٍ   ومن عجائبَ للدنيــا وللدينِ

إذا الصِّبا نَفَحتْ ، والليلُ معتكِرٌ   تَحَرّشتْ بين أغصانِ الرياحينِ

فوقعت أبياته من جميع ما قالوا ، وانحدر الرشيد إلى بغداد . فوهبت زبيدة للنمري جوهرة ، ثمّ دسّت إليه من اشتراها بثلاثمائة ألف درهم (طبقات الشعراء ص 246) وفي تاريخ بغداد «فأعطته ألفي دينار» (ج1 ص 51) .

أمّا في صيد الدرهم والدينار فلم يكن أقلّ من سواه تحيّناً لفرصه[1] . وأكبر دليل على ذلك اخفاؤه تشيّعه ، ونهجه نهج مروان بن أبي حفصة في تعريضه بالعلويّين مقابل الهبات التي كان الرشيد يغدقها عليه[2] .

أمّا العماني الراجز ، فقد لزم الرشيد وجالسه ، وإن لم يكن من المؤكّد أنّه أقام طويلاً في البلاط . وهو من المعمّرين ، عاش مئة وثلاثين سنة كما تزعم بعض الروايات[3] ، ولذلك كان سجلاً تاريخيّاً لخلفاء العبّاسيين ولعدد من خلفاء بني أميّة[4] قبلهم . ويقال إنّه امتدح الحجّاج بن يوسف[5] . وكان الرشيد يأنس به ويجلّه ويحمله معه في بعض تنقّلاته[6] ، أو يبادر هو فيسبق

---

1 في الخبر السابق عن صحبة النمري للرشيد إلى بلاد الروم ووصفه فرس الخليفة في المعركة بناء لطلبه ، يتابع الأصفهاني «قال النمري : ثمّ قلت في نفسي : ما يمنعني من اذكاره بالجائزة ؟ فقلت :

إذا الغيثُ أَكْدى واقشعرّتْ نجومُهُ ... فغيثُ أميرِ المؤمنينَ مَطيرُ

ومـا حلّ هارونُ الخليفةُ بلدةً ... فأخلَفَها غيثٌ ، وكان يُضيرُ

فقال : اذكرتني . ورأيته متهلّلاً لذلك . فألحقني بمروان وأمر لي بمئة ألف درهم» (الأغاني ج13 ص 146) .

2 وفي الخبر التالي يرويه ابن المعتزّ يظهر لنا مبلغ تأثير شعر النمري في الرشيد ونموذج عمّا كان يكسبه من اعطياته . فقد «رووا أنّه دخل على الرشيد يوماً فأنشده :

بنـي حَسَنٍ وقـلْ لبني حُسينٍ ... عليكـمْ بالسَدادِ مـن الأمـورِ

(الأبيات)

قال : فقال الرشيد لما سمع قوله :

وإنـكَ ، حـين تُبلِغُهُمْ أذاةً ... وإنْ ظَلَمـوا ، لَمُحتَرِقُ الضَميرِ

ويحك ، ما هـذا ؟ شيء كان في نفسي منذ عشرين سنة لم أقدر على إظهاره فأظهرتَه بهذا البيت . ثمّ قال للفضل بن الربيع : خذ بيد النمري فأدخله بيت المال ودعه يأخذ ما شاء . فأدخلني وليس فيه إلاّ سبع وعشرون بدرة . فاحتملتها» (طبقات الشعراء ص 245) . وانظر ص 262 من البحث .

3 (ابن المعتزّ ، المصدر السابق ص 109) يبدو أنّ العماني عاش طويلاً وكان شيخاً حين دخل على الرشيد . ولكن يصعب تصديق رواية ابن المعتزّ .

4 يروي ابن المعتزّ إحدى جلساته في بلاط الرشيد فيقول : «غدا على الرشيد وقد تزيّا بزيّ الأعراب ثمّ أنشده وقبّل يده وقال : يا أمير المؤمنين ، قد واللهِ أنشدتُ مروانَ بن محمد ، فرأيت وجهه وقبّلت يده وأخذت جائزته . ومن قبله يزيد بن الوليد وإبراهيم بن الوليد . ثمّ أبا العبّاس السفّاح ، مدحته ورأيت وجهه وقبّلت يده وأخذت جائزته . ثمّ مدحت المنصور ، ثمّ المهدي ، ثمّ الهادي «إلى كثير من أشباه الخلفاء والأمراء والسادة والرؤساء . . .» (المصدر السابق ص110) .

5 المصدر السابق ص 114 (توفي الحجّاج عام 95هـ تاريخ اليعقوبي ج2 ص 290) ، ويبدو ذلك مستبعداً في أيّامنا .

6 حمله الرشيد معه إلى بلاد الروم . يقول الأصفهاني «خرج الرشيد غازياً بلاد الروم . فنزل بهرقلة ونصب الحرب عليها . فدخل عليه العماني وهو يذكر بغداد وطيبها وما فيه أهلها من النعمة . فأنشده العماني قصيدة له في هذا

الخليفة المسافر إلى مكان إقامته ليستقبله حين عودته[1] . وكان ، كغيره ، صيّاداً ماهراً يميل مع كلّ ريح تبشّر بثواب وعطاء ، لا يكاد يفقد مناسبة بيعة إلاّ يشترك فيها وينال الصلات والهبات[2] . يصفه الرشيد قائلاً : قاتله الله من أعرابي ، ما أعرَفَه بمواضع الرغبة وأسرَعَهُ إلى أهل البذل والعائدة ، وأبعده عن أهل الحزم والعزم الذين لا يُستمنح ما لديهم بالثناء»[3] . وهو بالفعل كان يعرف نقطة ضعف الرشيد في ميله إلى الاطراء وتأثّره بالكلمة الحلوة تقال فيه ، فيستخدم شاعريته كلّها في استثمار هذه الناحية ، ولو أدّى ذلك إلى تغيير المواقع السياسيّة ، فالالتزام ليس من شأن المتكسّبين .

ومن الشعراء الفحول ، الذين حضروا مجالس الرشيد دون أن يكون دخولهم حدثاً عابراً ، مروان بن أبي حفصة . فمروان كان في مجلس الرشيد حين دخول منصور النمري تتقدّمه توصية

= المعنى يذكر فيها طيب العيش ببغداد وسعة النعم وكثرة اللذات يقول فيها :

ثـــمّ أتَوْهمْ بالدَّجاجِ الدُّجَّجِ   بـين قَديـدٍ وشِواءٍ مُنْضَجِ

(الأبيات)

(الأغاني ج18 ص 238) . وانظر ص 471 هامش 3 .

1 يروي الأصفهاني عن إسحاق قال جبر : «لمّا دخل الرشيد الرقة ، استقبله العماني . فلمّا بصر به ناداه :

هارونُ يا ابنَ الأكرمينَ مَنصِبا   لَمّا تَرَحّلْـتَ فصرتَ كَثَبا

مـن أرضِ بغدادٍ تؤم المغربا   طابتْ لنا ريحُ الجنوبِ والصَّبا

وأُنْزِلَ الغيثُ لنـا حتـى رَبا   مـا كانَ مـن نَشْرٍ وما تَصَوَّبا

فمرحباً ومرحباً ومرحبا

فقال له الرشيد : وبك مرحباً يا عماني ، وأهلاً . وأجزل صلته» (الأغاني ج18 ص 231) .

2 ومرّة أخرى عن الأصفهاني ذكر أنّ العماني كان حاضراً حين وجّه الفضلُ بن يحيى الوفد من خراسان إلى الرشيد يحضّونه على البيعة لأبنه محمد . فقعد لهم «وتكلّم القوم على مراتبهم وأظهروا السرور بما دعاهم إليه من البيعة لابنه . وكان فيمن حضر محمد بن ذؤيب العماني ، فقام بين صفوف القوّاد ثم أنشأ يقول :

لّمـا أتانــا خَبَرٌ مشهَّـرُ   أَغَرُّ لا يَخفى على من يُبصِرُ

فلمّا فرغ من أرجوزته قال له الرشيد : بشّر يا عماني بولاية محمدٍ العهدَ . . .» (المرجع السابق ص 233) ، وفي مجلس آخر يأتي العماني إلى الرشيد طالباً ولاية العهد الثالثة للقاسم :

قل للإمـامِ المقتدي بأمِّهِ   . . . .

قال الرشيد : «فأنا قد ولّيناه العهد . وأمر بالقاسم أن يحضر ، ومرّ العماني في أرجوزته يهدر حتى أتى على آخرها . وأقبل القاسم فأومأ إليه الرشيد فجلس مع إخوته فقال له : يا قاسم ، عليك جائزة هذا الشيخ فقد سألنا أن نوليك العهد ، وقد فعلنا . .» (الأغاني ج18 ص 235 والعمدة ج1 ص 31 وتاريخ الطبري ج8 ص 362) . راجع ص 482 من البحث .

3 (الأغاني ج18 ص 234) .

من البرامكة[1] . وحين سار الرشيد إلى بلاد الروم ، وسار معه شعراؤه ممّن اعتادوا مجالسه ، كان مروان بينهم كما كان النمري[2] . وقد أنس إليه الرشيد حتى كان من القلائل الذين صرّح أمامهم بإعجابه ، وهو العباسي ، بالوليد بن يزيد الأمويّ . ففي جلسة هادئة سأل الرشيد مروان عن الوليد ، وشجّعه على الحديث عنه بصراحة ، وأمر بكتابة الشعر الذي رواه ابن أبي حفصة عنه[3] . فمروان شاعر له قدر عند الرشيد ، وكان كذلك عند المهدي ، لأنّه كان صاحب نهج في مدح العبّاسيين هو «نهج مروان»[4] ، وكانوا يعتدّونه شاعرهم خاصة فيتميّز عطاؤه من عطاء الآخرين[5] ، وله رسم عندهم في اثابتهم قصائده هو «رسم مروان» ، وتحديده : ألف درهم عن كلّ بيت في القصيدة[6] . وهذا ليس بالكثير على مروان . فهو من أصحاب الحوليات ، يعتني بشعره

---

1 يروي المرتضى ، بالسند عن مروان بن أبي حفصة قوله : «دخل علينا اليوم رجل أظنّه شامياً ، وقد تقدّمته البرامكة في الذكر عند الرشيد . . .» (الأمالي ج4 ص 184) . راجع ص 261 هامش 1 من البحث .

2 ذكر الأصفهاني بالسند عن مروان بن أبي حفصة قال : «خرجت مع الرشيد إلى بلاد الروم . فظفر الرشيد وقد كاد أن يعطب ، لولا الله عزّ وجلّ ، ثمّ يزيد بن مزيد . فقال لي وللنمري : أنشدا . . . .» (الأغاني ج13 ص 614) .

3 يروي الأصفهاني بالسند عن مروان قال : قال لي الرشيد : هل دخلت على الوليد بن يزيد ؟ فقلت : نعم ، دخلت إليه مع عمومتي . قال : فأخبرني عنه . قال : فذهبت أتزحزح . فقال لي : إنّ أمير المؤمنين لا يكره ما تقول . فقل ما شئت . فقلت : يا أمير المؤمنين ، كان من أجمل الناس وأشدّهم وأشعرهم وأجودهم . دخلت عليه مع عمومتي ولي لُمّة فينانة . فجعل يغمز القضيب فيها ويقول : ولَدَتْكَ سُكّر ؟ (وهي أمّ ولد لمروان بن الحكم وهبها لجدي أبي حفصة فولدت منه) فقلت له : نعم . قال لي الرشيد : فهل تحفظ من شعره شيئاً ؟ قلت نعم ، سمعته ينشد في خلافته ، وذكر هشاماً وتحامله عليه ، وما كان يريد من نقض أمر ولايته :

ليتَ هشاماً عاشَ حتى يَرى	مِكْتَلَهُ الأوفـرَ قـد أُترِعا
كِلْنا له الصاعَ التي كالَها ،	وما ظَلَمْناهُ بهـا ، أَصْوُعا
ومـا أتينا ذاكَ عن بِدعةٍ	أَحلَّـهُ الفُرقـانُ لي أجمَعا

فقال الرشيد : يا غلام ، الدواة والقرطاس . فأُتي بهما . فأمر بالأبيات فكتبت . (الأغاني ج10 ص 84) .

4 يشير الأصفهاني إلى ذلك في خبر اتّصال أبان اللاحقي بالرشيد . فقد عاتب أبان البرامكة «على تركهم إيصاله إلى الرشيد ، وإيصال مديحه إليه . فقالوا له : وما تريد من ذلك ؟ فقال : أريد أن أحظى منه بمثل ما يحظى به مروان بن أبي حفصة . فقالوا له : إنّ لمروان مذهباً في هجاء آل أبي طالب وذمّهم ، به يحظى وعليه يعطى ، فاسلكه حتى نفعل . . .» (الأغاني ج23 ص 28) وكذلك اتبع منصور النمري نهجه (المصدر السابق ج13 ص 141) .

5 يذكر الخطيب البغدادي أنّ مروان بن أبي حفصة وسلماً الخاسر ومنصوراً النمري دخلوا على الرشيد فأنشدوه «فأمر لكلّ واحد منهم بمئة ألف درهم . فقال له يحيى بن خالد : يا أمير المؤمنين مروان شاعرك خاصة ، قد ألحقتهم به ؟ قال : فلْيزد مروان عشرة آلاف» (تاريخ بغداد ج13 ص 144 والمصدر السابق ص 145) .

6 ذكر ذلك الأصفهاني في خبر دخول مروان على المهديّ مرّة وعلى الرشيد مرّة أُخرى . وكان في المرّتين يُسحب من رجله : في دخوله الأوّل بسبب رثائه لمعن بن زائدة ، وفي دخوله الثاني ينال عطاء فريداً . فحين أنشد المهدي

ويتنخّله ويعرضه على النحاة[1] حتى قال الكسائي «الشعر سقاء تمخَّض فدُفعت الزُبدة إلى مروان بن أبي حفصة»[2] . وبه ختم ابن الأعرابي الشعراء ، فلم يدوّن بعده شعراً[3] .

وبعد مروان لا بدّ من ذكر فحل آخر من شعراء هذه الطبقة ، هو مسلم بن الوليد الأنصاري . ومسلم مدّاح محسن ، مجيد ، مفلق[4] ، أعجب به الرشيد منذ المرّة الأولى التي سمعه فيها ، بل قبل ذلك بكثير[5] . فحين دخل إليه تباسط معه في الحديث ولقّبه بآخر بيت في

= قصيدته :

طَرَقتْكَ زائـرةً فَحَيِّ خيالَها بيضاءُ تَخلِطُ بالجمالِ دلالَها

قال المهدي : كم هي ؟ قال : مئة بيت . فأمر له بمئة ألف درهم . فكانت أوّل مئة ألف أُعطيَها شاعر في أيّام بني العبّاس . «وحين دخل إلى الرشيد أنشده قصيدته :

لَعَمرُك ما أنسى غداةَ المُحصَّبِ إشارة سلمى بالبَنانِ المُخَضَّبِ

فأعجبته فقال : كم قصيدتك ، من بيت ؟ فقال : ستون أو سبعون . فأمر له بعدد أبياتها ألوفاً . فكان ذلك رسم مروان عندهم ، حتى مات» (الأغاني ج10 ص 91 وتاريخ بغداد ج13 ص144) .

1 يذكر ابن منظور قوله : «إنّي إذا أردت أن أقول قصيدة رفعتها في حول : أقولها في أربعة أشهر وأنتخلها في أربعة أشهر ، وأعرضها في أربعة أشهر» (ص 133) وعن لسان الأصمعي قال : «جاء مروان بن أبي حفصة إلى حلقة يونس ، فسلّم ثمّ قال لنا : أيكم يونس ؟ فأومأنا إليه . فقال له : أصلحك الله ، إنّي أرى قوماً يقولون الشعر ، لأنْ يكشف أحدهم سوأته ثمّ يمشي كذلك في الطريق ، أحسن له من أن يظهر ذلك الشعر . وقد قلتُ شعراً أعرضه عليك . فإن كان جيّداً أظهرتُه ، وإن كان رديئاً سترتُه . فأنشده قوله : طرقتك زائرة فحيّ خيالها . . فقال له يونس : يا هذا ، اذهب وأنشِد هذا الشعر ، فأنت والله فيه أشعر من الأعشى في قوله : «رحلت سميّة غدوة أجمالها» (الأغاني ج10 ص 86) .

2 الخطيب البغدادي ـ تاريخ بغداد ج13 ص 145 .

3 الأصفهاني ، الأغاني ج10 ص 94 .

4 ابن المعتزّ ـ طبقات الشعراء ص 239 .

5 يروي ابن عبد ربّه خبر احضار مسلم إلى الرشيد مع الزنادقة ، وطلبه إليه أن ينشده شعراً في أنس بن أبي شيخ ثم قوله له ، بعد ضرب عنق أنس : «أنشدني أشعر شعر لك . فكلّما فرغ من قصيدة قال له : التي تقول فيها : الوحل ، فاني رويتها وأنا صغير . فأنشده شعره الذي أوّله :

أديرا عَليَّ الكأسَ لا تشربا قَبلي ولا تطلُبا من عندِ قاتلتي ذَحلي

حتى انتهى إلى قوله :

إذا ما علَتْ مِنّا ذؤابةَ شاربٍ تَمشّتْ به مَشْيَ المُقَيَّدِ في الوحْلِ

فضحك هارون وقال : ويحك يا مسلم ، أما رضيتَ أن قيّدتَه ، حتى جعلتَه يمشي في الوحل ؟» (العقد الفريد ج2 ص 181) . راجع ص 48 من البحث .

القصيدة[1] . ويقال إنّه كتبها بماء الذهب[2] «وعمّده» جليساً في بلاطه[3] . ومع ذلك ، لم يلازم مسلم البلاط كثيراً ، ولم يكن يستطيع المثابرة على قيود الحياة فيه ، وهو المحبّ للهو والمجون ، والشرب والصبابة ، حتى أنّه اتّهم بالزندقة ، وحُمل إلى الرشيد مع أنس بن أبي شيخ ، فشهد ضرب عنق أنس ، كما مرّ بنا .

وآخر من نتحدّث عنه في هذه الفئة شاعر الرشيد : العبّاس بن الأحنف[4] . وللعبّاس ميزة خاصة على سائر الشعراء الفحول هي خفّة ظلّه وحسن معشره[5] ، وانصرافه إلى الغزل وأنفته من

---

1 في رواية أخرى لدخول مسلم على الرشيد ، يسوقها البيهقي ، يقول : «وجعل الرشيد وأصحابه يتناشدون قصيدته . فسمّاه يومئذٍ بآخر بيت من قصيدته : صريع الغواني . والرشيد الذي سمّاه بهذا الاسم» (المحاسن والمساوىء ج1 ص182) .

ويقدّم ابن المعتزّ تحديداً أوفى فيقول : «وبلغ قوله :

هل العيشُ إلاّ أنْ تروحَ مع الصِّبا　　وتغدُو صريعَ الكأسِ والأعينِ النُجْلِ

قال له : أنت صريع الغواني . فسُمّي بذلك حتى صار لا يُعرف إلاّ به . . . ويقال إنّ الرشيد كتب شعره بماء ذهب» (طبقات الشعراء ص 239) .

2 المصدر السابق .

3 في رواية البيهقي السابقة إشارة لها مغزى عميق في بحثنا وهي قوله «فأمر له بمال وأمر أن يتّخذ له مجلس يتحوّل إليه» (المحاسن والمساوىء ج1 ص 182) وأهمّية هذه الإشارة تكمن في أنّها تعطينا فكرتين مهمّتين تتعلّقان بجلساء الرشيد : أولاهما أنّه ليس كلّ من يدخل مجالس الرشيد يجلس مع الجالسين ، إنّما يحتاج قبل ذلك إلى تصنيفه بين الجلساء وإلى تحديد المرتبة التي يجلس مع نظرائه فيها . وثانيتهما : أنّ عدد الأماكن المعدّة للجلوس هي بعدد الجلساء الذين عندهم تصريح سابق بالجلوس أو الذين اعتادوا ذلك . فإذا قُبل عضو جديد في مجموعة الجالسين استحدث له موضع يناسب مقامه . وهذا يتأكّد لنا في خبر آخر سبقت الإشارة إليه عند الحديث عن دخول الشاعر الباهلي إلى البلاط . فما إن قبل الرشيد الاستماع إليه حتى تحوّل المجلس العادي إلى مجلس أدبي ورتّب إطار ذلك إذ «ألقيت الكراسي فجلس عليها الكسائي والمفضل وابن سلم والفضل بن الربيع» و(تاريخ الطبري ج8 ص363) . ومن الطبيعي أنّ الكسائي والمفضل وسلماً وابن الربيع كانوا في مجلس الرشيد العادي . ولا بدّ أنّهم كانوا جالسين ، ولكن الظاهر أنّ الكراسي لم تكن موجودة أو أنّ طريقة الجلوس كانت مختلفة باختلاف دور هؤلاء إذ أصبحوا هنا في المجلس الأدبي أشبه بهيئة المحلفين في مجلس المحكمة .

4 يقول ابن تغري بردي عنه إنّه «حامل لواء الشعر في عصره ، وكان معظم شعره في الغزل والمديح . وله أخبار مع الخلفاء . وكان حلو المحاضرة مقبولاً عند الخاص والعام . وهو شاعر الرشيد» (النجوم الزاهرة ج2 ص 128) .

5 يقول عنه ابنه رشيق «إنّه ممّن أنف عن المدح تظرّفاً . وقال فيه مصعب الزبيري : العبّاس عمر العراق ، يريد أنّه ، لأهل العراق ، كعمر بن أبي ربيعة لأهل الحجاز ، استرسالاً في الكلام وأنفة عن المدح والهجاء . واشتُهر بذلك ، فلم يكن يكلّفه إيّاه أحد من الملوك ولا الوزراء . وقد أخذ صلة الرشيد وغيره على حسن التغزّل ولطف المقاصد في التشبيب بالنساء» (العمدة في صناعة الشعر ونقده ج1 ص 52) . ويقول الأصفهاني عن لسان المبرد «كان العبّاس من الظرفاء ، ولم يكن من الخلعاء ، وكان غزلاً ولم يكن فاسقاً . وكان ظاهر النعمة ، ملوكي المذهب ، شديد

المديح حتى كاد شعره يكون غزلاً كلّه[1] . وقد أحبّه الرشيد فلزم البلاط وكان قريباً إلى قلب الخليفة وانفعالاته[2] . ينظمها شعراً[3] . وهو أقدر من عبّر عن لوعة الحبّ وروعته وعن انفعالات النفس الإنسانية بشعره السلس الليّن[4] . ولشدّة تعلّق الرشيد به ، فقد جعله يصحبه في العديد من

= الترف ، وذلك بيّن في شعره . وكان قصده الغزل وشغله النسيب ، وكان حلواً مقبولاً ، غزلاً غزير الفكر ، واسع الكلام ، كثير التصرّف في الغزل وحده ، ولم يكن هجّاءً ولا مدّاحاً» (الأغاني ج8 ص 355) .

1 المصدر السابق .

2 من ذلك ما رواه الخطيب البغدادي أنّ الرشيد ، عندما توفّيت محظيته هيلانة ، وجد عليها وجداً شديداً و«أمر العبّاس بن الأحنف أن يرثيها (بلسانه)» . راجع ص 585 من البحث .
فأمر له بأربعين ألف درهم ، لكلّ بيت عشرة آلاف درهم . وقال : لو زدتنا لزدناك . (تاريخ بغداد ج1 ص 97 و98) ، ورثاها ، بلسانه ، في قصيدة أُخرى منها :

أأبغي صبـاً مـن بعدِ هيلانةٍ ؟ إذاً أراني مُلغىً من وفاء الحبائبِ . . .

(ديوان العبّاس ص 36) ، كما رثى له ، بلسانه ، جاريته ضياء (المصدر السابق ص 89) .

3 يروي الخطيب البغدادي خبراً معبّراً عن شفوف نفس العبّاس وقدرته على تمثّل حالات الرشيد العاطفية وذلك أنّ الرشيد قال ، في الليل ، بيتاً ورام أن يشفعه بآخر فامتنع عليه القول . فما كان منه إلاّ أن استدعى العبّاس بن الأحنف ليجيزه له . ففعل ونال جائزته (تاريخ بغداد ج12 ص 131 وراجع ص 203 من البحث) . وتكرّر دخول العبّاس وسيطاً بين الرشيد ومحظيّاته . فقد احتاجه الرشيد ليقول شعراً يزحزحه عن عناد العاشق المتعتّب حين غضب من ماردة . فقال أبياتاً قرّبت الفجوة بين القلبين (العقد الفريد ج6 ص385) (والنجوم الزاهرة ج2 ص126 وراجع ص160 من البحث) . وكذلك كان الوضع مع ذات الخال حيث كان عليه أن يحلّ عقدة قصّة فيها الدلّ والغنج والعتب والنكاية : يخبرنا الأصفهاني أنّ الرشيد وعد ذات الخال بالمبيت عندها . ولكن محظيّة أُخرى سرقته منها ، وهو في طريقه إليها . «فشقّ ذلك على ذات الخال» وقرضت الخال الذي على خدّها نكاية به . وقد عمل العبّاس شعره الذي حمله الرشيد ومضى به إلى «ذات الخال مسرعاً ، مسترضياً لها» (الأغاني ج16 ص 267) . راجع ص 404 من البحث .

4 يروي الحصري عن أبي نواس وصفه لشعر العباس بأنّه «أرق مـن الوهم وأحسن من الفهم» (زهر الآداب ج4 ص970) ويعقد غرونباوم فصلاً للحديث عن العباس بن الأحنف ويرى أنّ عمر بن أبي ربيعة بسط «أثره الشديد على ثلاثة من الأجيال المتوالية : فالصلة الروحية التي تصله بالعبّاس بن الأحنف . . . لا تخطئها العين» (دراسات في الأدب العربي ص 147) ويقول : «نظم العباس بن الأحنف شعره في الحبّ ، في بلاط الرشيد ، وعبّر فيه عن جميع وجوه الاحساس الذي جدّ ، وتغنّى بكلّ مراحل التجربة ، بادئاً بالوقوع في الحبّ حتماً من أوّل نظرة ، منتهياً إلى أنّ سعادة المحبّ تتحطّم حتماً بالهجران والفقد ، وهو يتقبّل ذلك راضياً . . .» (المصدر السابق ص 207) . ومن أشهر أبياته الرقيقة :

من ذا يُعيرك عينَهُ تبكي بها يا مـن لعين ، للبكاء ، تُعارُ

(تاريخ بغداد ج12 ص 130) .

يَزيـــدُكَ وجهُـــهُ حُسناً إذا مــا زِدتــه نظَــرا

(المصدر السابق) .

تنقّلاته ، ويمدحه ، على ندرة قصائده المدحية[1] .

2 ـ الحاشية : ونعني بها كبار التابعين أو القوّاد أو الكتّاب ، ممّن لم ينتسبوا لقريش أو لهاشم أو لسائر الأصول العربية ، ولكنّهم جمعوا الرأي إلى حسن المبادرة والتعرّف بمواقع الرغبة عند الرشيد ، فصاروا يقربون منه تدريجاً حتى أصبحوا جزءاً لا يتجزّأ من مجالسه ، يشيرون عليه حيناً ، ويكل إليهم المهمّات حيناً آخر ، أو يشير إليهم إشارات خاصة فيفهمون باللمحة مقاصده ، ثمّ يسرعون فيلبّون وينفّذون . وهم عادة ظرفاء ، خفيفو الظلّ ، أصحاب موهبة ، يأنس إليهم ، وقد ينادمونه . إلاّ أنّ هذه الفئة سلبيّة إلى حدّ كبير بالنسبة إلى المجالس الأدبية : ورد ذكرها في عداد الموجودين ، دون أن يكون لها دور في تلك المجالس . لهذا بقيت في الإطار ، وسنكتفي بذكرها فيه . من أفرادها من يُختصّ بتقديم دابة الرشيد إليه ، حين يعزم على الركوب ، كما هو معروف عن محمد بن جُنيد الختلي[2] ، ومنهم خرذاذ القائد ، والسندي بن شاهك رئيس الشرطة في بغداد ، أو في جزء منها ، في منطقة الجسرين حيث يمرّ الرشيد[3] . وكان يقف قرب رأس الخليفة ممثّلاً سلطة الأمن خارج القصر[4] . ومنهم كذلك أحمد بن جنيد الختلي سيّاف الرشيد ، وعدد من الغلمان على رأسهم مسرور الكبير . وهؤلاء الغلمان يهتمّون بتلبية طلبات

---

1 حين يغضب الرشيد عليه ، يدخل مع المتظلّمين ، معتذراً مادحاً في قصيدته :

أخضني المُقامَ الغمرَ ، إن كان غَرَّني   نسا حلبٍ أو زلّـت القدمـــانِ

(الفرج بعد الشدّة ج1 ص 87) .

2 يذكره الأصفهاني أثناء الحديث عن كأس أم حكيم ويورد شربه في إحدى الليالي حتى السحر حين وافاه كتاب مندوبه في دار الرشيد : أن أَسرع فالخليفةُ على الركوب . ففوجيء واستكبر أن يأتي الخليفةَ وهو سكران ، ومع ذلك جاء إلى القصر وسأله الرشيد عن وضعه فأخبره أنّه كان يشرب على صوت :

علّلاني بعاتقاتِ الكروم   واسقياني بكأسِ أمِّ حَكيمِ

فصرفه إلى البيت وأتبعه بكأس أم حكيم الذهبية ليشرب بها سائر ليلته ، وبألف دينار ينفقها في صبوحه . ويقول الأصفهاني في وصفه : «كان محمد أحد أصحاب الرشيد ومن يقدّم دابته» ، (الأغاني ، ج16 ، ص 213) . وذكر الطبري أنّ «الرشيد ولاّه الطريق ما بين همذان إلى الريّ» (تاريخ الرسل والملوك ج8 ص 317) .

3 ذكره الجهشياري في حديثه عن قتل الرشيد لجعفر ، «وكان يلي الجسرين ببغداد» وقد لمّح له الرشيد بنيّة النكبة قبل عام من حصولها وأسند إليه دوراً فيها . كما ذكر أنّه حمل إلى الرشيد التماس الحفصي ، المحكوم بالإعدام ، بالإبقاء على حياته والعفو عنه للاستفادة من موهبته الغنائية . (الوزراء والكتّاب ص 236 وانظر تاريخ الطبري ، ج8 ص298) .

4 يخبرنا الجاحظ القصّة التالية عن لسان ابن السندي ، عن أبيه قال «والله إنّي لواقف على رأس الرشيد ، والفضل بن الربيع واقف في الجانب الآخر ، والحسن اللؤلؤي يحدّثه ويسائله عن أمور» . (الجاحظ ـ البيان والتبيين ، ج2 ص370) .

الرشيد واحتياجات الجلساء ، قياماً على خدمتهم وسهراً على راحتهم[1] . ومن أفراد هذه الطبقة منشد الخليفة محمد البيدق . وكان نادر المثال مبدعاً في الإنشاد ، جميل الصوت ، يطرب الرشيد لسماعه كما يطرب لغناء الموصلي[2] . وهذا المنشد بالغ التأثير في الرشيد ، وذو وظيفة خطيرة جدّاً في البلاط الأدبي . فهو ينشد الخليفة القصائد التي تدخل إليه في رقاع[3] ، قبل أن يؤذَن لأصحابها بالدخول ، أو التي بَعُدت الشقة بأصحابها ، كما ينشد الرشيدَ قصائدَ الشعراء الموجودين في المجلس والذين لا يميل الرشيد إلى سماعهم ، إمّا لشكل لا تهفو النفس إليه ، وإمّا لِلَفظ سيّىء ، أو لإنشاد رديء ، أو لأنّ الشاعر يدخل المجلس الأدبي لأوّل مرّة ، ولم يُعرف مدى قدرته على الإنشاد ؛ والرشيد يفضّل ألاّ يجازف في هذا المضمار[4] . وتبلغ أهمية المنشد درجتها القصوى حين

---

1 ورد ذكر الغلمان أو مسرور مرّات عديدة في أخبار مجالس الرشيد ، من ذلك الخبر الذي مرّ بنا عن دخول الأصمعيّ على الرشيد وعنده عيسى بن جعفر وسؤال الرشيد لمسرور ، كم في بيت مال السرور ؟ (تاريخ بغداد ، ج14 ص 9) . ومنها الخبر التالي يورده الخطيب البغدادي أيضاً عن سؤال الرشيد للأصمعي : ما أغفلك عنّا ؟ وجواب هذا : «ما لاقتني بلاد بعدك» . وتحرّق الرشيد إلى انفضاض المجلس ليعرف معنى القول . يقول البغدادي على لسان الأصمعي «فلمّا تفرّق الناس إلاّ أقلّهم ، نهضت للقيام ، فأشار إليّ أن أجلس ، فجلست حتى خلا المجلس ، فلم يبق غيري وغيره ، ومَن بين يديه من الغلمان . . .» المرجع السابق وص 108 وننقل عن الطبري الخبر التالي الذي ، إن لم يتعلّق مباشرة بمجلس أدبي ، فهو يعطينا وصفاً للدّور الذي يمكن لهؤلاء الأشخاص النكرة أن يلعبوه في مجلس الرشيد العامر : «دخل يحيى بن خالد على الرشيد . فقام الغلمان إليه . فقال الرشيد لمسرور الخادم : مر الغلمان ألاّ يقوموا ليحيى إذا دخل الدار . . . قال : فدخل فلم يقم إليه أحد . فاربدّ لونه . وقال : وكان الغلمان والحجّاب ، بعد ، إذا رأوه أعرضوا عنه . . . فكان ربّما استقى الشربة من الماء أو غيره فلا يسقونه ، وبالحرى ، إن سقوه ، أن يكون ذلك بعد أن يدعوَ بها مراراً» (تاريخ الرسل والملوك ج8 ص 288) .

2 يصفه الأصفهاني بأنّه «كان رجلاً حسن الصوت ينشد الشعر فيُطرب بحسن صوته أشدّ من اطراب الغناء» (الأغاني ج18 ص 146) .

3 كانت العادة أن يرسل الشعراء الجدد بالنسبة للبلاط قصائدهم في رقاع ، يقرأها الرشيد أو من يكلّفه بهذه المهمّة . فإذا أعجبته احداها أمر بادخال صاحبها . من ذلك ما يرويه الأصفهاني عن دخول منصور النمري وإنشاده قصيدته المشهورة :

ما تنقضي حسرةٌ منّي ولا جَزَعُ إذا ذَكرتُ شباباً ليسَ يَرتَجِعُ

يقول : «وجه منصور بن سلمة هذه القصيدة إلى الرشيد وكان رجلاً تقتحمه العين جدّاً ويزدريه من رآه لدمامة خلقه ، فأمر الرشيد لما عرضت عليه بإحضار قائلها . . . قال منصور : فلمّا قربت من حاجبه الفضل بن الربيع ازدراني لدمامة خلقي ــ وكان قصيراً أزرق ، أحمر ، أعمش ، نحيفاً ــ قال : فردّني وأمر بإخراجي فأُخرجت . . .» (الأغاني ج13 ص 151) .

4 يذكر الأصفهاني عن لسان محمد بن طهمان : «حدّثني محمد الراوية الذي يقال له البيدق ، وكان يقرأ شعر المحدثين على الرشيد . . .» (الأغاني ج19 ص 323) ولعلّه هو الذي كان يقرأ قصائد الشعراء الذين يدخلون البلاط حديثاً ، كما في هذا الخبر يرويه الحصري عن دخول علي بن الخليل وذلك على لسان الفضل بن الربيع إذ قال : «فرأيت آخرهم

يطلب الرشيد إليه أن ينشده شعراً دون تحديد للشاعر أو للقصيدة . في هذه الحال يكون لاختيار القصيدة التي يلقيها أثر حتمي في نفس أمير المؤمنين ، وردّة فعل له تجاه الشاعر . فإمّا ثناء وعطاء ، إذا لامس ما في نفسه وفكره ، وإمّا غضب ونقمة إذا لامس وتراً حسّاساً لديه فأثار حفيظته[1] . وفي جميع الحالات فإنّ لأداء هذا المنشد ، ودرجة تجويده في الإنشاد غايتين متوازيتين :

إحداهما تستهدف الرشيد ونيل استحسانه ، وبالتالي فتح أبواب بيت المال . والثانية تستهدف صاحب الشعر وما أصابه من عطاء الخليفة . لهذا كلّه صار للمنشد رسم أو ضريبة على ما يصل إلى الشاعر بسبب انشاده ، إذا قصّر الشاعر في أدائهما تعرّض لانتقامه . وأخيراً فإنّ منشد الرشيد لم يكن يفارقه . وكان يرتحل معه ويركب أحياناً بجواره يحدّثه ويطربه ويخفّف عنه ، بإنشاده ، مشقّات الطريق في أثناء الانتقال[2] .

وآخر من نذكره في هذه الفئة من الجلساء ابن أبي مريم المدني ، مضحك الملك ؛ وهو ، إن لم يكن مختصّاً بالمجالس الأدبية ، فإنّه ، على ما يظهر ، لم يكن يخلو منه مجلس للرشيد . «وكان مضحاكاً له ، محدّثاً فكيها . فكان الرشيد لا يصبر عنه ولا يملّ محادثته . وكان ممّن جمع ، إلى ذلك ، المعرفة بأخبار أهل الحجاز وألقاب الأشراف ومكايد المجان . فبلغ من خاصته بالرشيد أن

= شيخاً حسن الهيئة والوجه ما رأيت أحسن منه . فوقف حتى تقوّض المجلس ثمّ قال : يا أمير المؤمنين ، رقعتي . فأمر بأخذها . فقال : إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي بقراءتها ، فأنا أحسن تعبيراً لخطّي من غيري . فقال له : اقرأ . . .» (زهر الآداب ج4 ص 865) .

1 نقل الصورة التالية عن الأصفهاني : قال عبد الله بن طهمان «حدّثني محمد الراوية المعروف بالبيدق . وكان قصيراً ، فلقّب بالبيدق لقصره ، وكان ينشد هارون الرشيد أشعار المحدثين ، وكان أحسن خلق الله إنشاداً ، قال : دخلت على الرشيد وعنده الفضل بن الربيع ويزيد بن مزيد وبين يديه خوان لطيف عليه جديان ورغفان سميد ودجاجتان . فقال لي : أنشدني . فأنشدته قصيدة النمري العينيّة : أي امرىء بات من هارون في سخط . . . (فأخذته النشوة) وبعث إليه بسبعة آلاف دينار فلم يعطني منها ما يرضيني . وشخص إلى رأس العين ، فأغضبني وأحفظني ، فأنشدت هارون قوله :

إلاّ مَساعيرَ يَغضَبون لهــا   بسَلَّةِ البِيض ، والقَنا الذابِلِ

قال : أراهُ يُحرِّض عليّ . ابعثوا إليه من يجيء برأسه . فكلّمه فيه الفضل بن الربيع فلم يغن كلامه شيئاً . وتوجّه إليه الرسول فوافاه في اليوم الذي مات فيه ودفن . قال : وكان إنشاد محمد البيدق يطرب كما يُطرب الغناء» (الأغاني ج13 ص 147) ويضيف الخطيب البغدادي على الخبر ذاته : «فأراد نبشه وصلبه . فكُلّم في ذلك فأمسك عنه» (تاريخ بغداد ، ج13 ص69) .

2 يروي الأصفهاني الخبر التالي : «ركب الرشيد يوماً قبّة وسعيد بن سالم معه في القبّة . فقال : أين محمد البيدق ؟ فقال . . .» (الأغاني ، ج18 ص 146) .

بوّأه منزلاً في قصره وخلطه بحرمه وبطانته ، ومواليه وغلمانه»[1] .

3 ـ الحرس : لكي تكتمل الصورة لا بدّ من ذكر الحرس ، وهم حاضرون دائماً في كلّ مجلس للرشيد : إنّهم حرسه وأحد مظاهر هيبة الخلافة ، يقفون بين يديه سِماطين ، بلباسهم الكامل ، وعدّتهم ؛ رماحهم بأيديهم[2] ، أبصارهم شاخصة دون أن تنظر ، يرون ويسمعون ولا يظهر عليهم أنّهم يحسّون ، فكأنّهم صورة جنود أو تماثيل من الشمع . ويمكن أن نتصوّر هؤلاء الحرّاس الصورة ، أشخاصاً نكرة في المجالس ، حكمهم حكم أساطين البهو أو أيّة قطعة أثريّة جامدة . ما كانوا ليتحرّكوا أو لتظهر على وجوههم مشاركة أو أيّة من علامات الاستحسان أو الاستهجان . إنّهم تتمّة الإطار ، ولم يرد في الأخبار ، التي وقعت لنا ، أنّ الرشيد اضطرّ إلى الانتفاع بحمايتهم . ولعلّنا نستطيع تصوّرهم بشكل أوضح إذا رأينا الحرس الملكي في أثينا أو في لندن . فأفراده كأنّهم من عالم آخر ، لا يشدّهم إلى عالمنا ما فيه من أفكار وأحاسيس ومثيرات . وللدلالة على سلبيّتهم المطلقة وبرودة أعصابهم وانصرافهم عمّا يجري في المجلس يورد صاحب الأغاني خبراً عن مخارق الذي كان يستوقف الركب بغنائه ، ويلهي أصحاب الحاجات عن حاجاتهم ويكاد يحرّك الحجر ، مخارق هذا ، بلغ من عمق التأثير وعنفه أنّه استطاع اخراج هؤلاء الحرس عن جمودهم[3] . وفي كلّ حال ، يعتبر هؤلاء الحرّاس على هامش المجلس ، طالما أنّ بينهم

---

1 الطبري تاريخ الرسل والملوك ، ج8 ص 349) . ونوادره كثيرة منثورة في كتب الأدب والنوادر . ممّا يرويه الطبري من نوادره الدالة على فطنته وذكائه خبر اليوم الذي حَجَبَ فيه الرشيد . فقد «أراد الرشيد أن يشرب الدواء يوماً فقال له ابن أبي مريم : هل لك أن تجعلني حاجبك غداً عند أخذك الدواء ؟ وكلّ شيء أكسبه فهو بيني وبينك ؟ قال : أفعل . فبعث إلى الحاجب : الزم منزلك غداً فإنّي قد ولّيت ابن أبي مريم الحجابة . وبكر ابن أبي مريم ، فوُضع له الكرسي . وأخذ الرشيد دواءه . وبلغ الخبر بطانته فجاء رسول أم جعفر يسأل عن أمير المؤمنين وعن دوائه . فأوصله إليه وتعرّف حاله وانصرف بالجواب . وقال للرسول : أعلم السيدة ما فعلت في الأذن لك قبل الناس . فأعلمها ، فبعثت إليه بمال كثير . ثمّ جاء رسول يحيى بن خالد ففعل به مثل ذلك . ثمّ جاء رسول جعفر والفضل ففعل ذلك . فبعث إليه كلّ واحد من البرامكة بصلة جزيلة . ثمّ جاء رسول الفضل بن الربيع فردّه ولم يأذن له . وجاءت رسل القوّاد والعظماء ، فما أحد سهّل اذنه إلاّ بعث إليه بصلة جزيلة . فما صار العصر حتى صارت إليه ستّون ألف دينار . فلمّا خرج الرشيد من العلّة ونقي بدنه من الدواء دعاه فقال له : ما صنعت في يومك هذا ؟ قال : يا سيّدي كسبت ستّين ألف دينار . فاستكثرها وقال : وأين حاصلي ؟ قال : معزول . قال : قد سوّغناك حاصلنا فأهد إلينا عشرة آلاف تفّاحة . ففعل . فكان أربح من تاجره الرشيد» (تاريخ الرسل والملوك ، ج8 ص 351) .

2 يصف الأصفهاني دخول أشجع على الرشيد ومدحه إيّاه ببائيّته الشهيرة فيقول على لسان أشجع : «فقدمت والرشيد على كرسي ، وأصحاب الأعمدة بين يديه سماطان . . .» (الأغاني ، ج18 ص 144) .

3 يروي الأصفهاني عن الواثق هذه الصورة المعبّرة التي ، وإن لم ترتسم في بلاط الرشيد فلا شكّ في أنّها كانت معروفة فيه . «كان يقول : أتريدون أن تنظروا فضل مخارق على جميع أصحابه ؟ انظروا إلى هؤلاء الغلمان الذين يقفون في السماط ، فكانوا يتفقدونهم وهم وقوف . فكلهم يسمع الغناء من المغنين جميعاً وهو واقف مكانه ، ضابط لنفسه .

وبينه حبالاً فاصلة[1] تذكّرنا بالحبال التي تفصل المشاهدين عن المتبارين في العديد من حلبات المنافسة الرياضية .

ثالثاً ـ الفئة الثالثة من رواد البلاط

وهي فئة العابرين والشعراء والأدباء الذين يؤمونه للمرّة الأولى . هؤلاء جميعاً يدخلون ، يقولون أو ينشدون فينالون الرفد ثمّ ينصرفون . وهم ، فيما بين دخولهم وانصرافهم ، يقفون واقفين ؛ ونادراً ما يسمح لهم بالجلوس[2] . ويرد خبر أفراد هذه الطبقة بالتفصيل حين نتناول ما كان يجري في المجالس الأدبية بالبحث والتحليل . لكن نشير هنا إلى أنّ باب الرشيد كان مرمى تهدف إليه عقول الشعراء وأملاً تهفو إليه نفوسهم ؛ وعليه يجتمع خلق كثيرون من جميع الطبقات والأجناس والمستويات : من الشاعر المُفلِق إلى البدوي الراوية ، إلى أصحاب الحاجات ، إلى الزهّاد والنسّاك . ونادراً ما يستطيع الغرباء عن البلاط الدخول إلى المجالس ، اللهمّ إلاّ أن يدخلوا مع ذوي الحاجات[3] . فإذا عرض أحدهم طلبه بلباقة وبلاغة ، لفت النظر إلى أدب عنده قد يُنتفع به . فيلتقطه الرشيد ويصنّفه مع المتأدّبين[4] . وقد يكون الغريب شاعراً فحلاً ، إنّما لم يُعرف

= فإذا تغنّى مخارق ، خرجوا عن صورهم فتحرّكت أرجلهم ومناكبهم ، وبانت أسباب الطرب فيهم ، وازدحموا على الحبل الذي يقفون وراءه» (المصدر السابق ص 261) .

1 المصدر السابق .

2 نعود هنا إلى خبر اتّصال علي بن الخليل بالرشيد وقد رواه الحصري ، بالسند ، عن الفضل بن الربيع . فبعد أن دخل مع المتظلّمين وانتظر حتى انصرفوا جميعاً تقدّم برقعته إلى الرشيد وسأل الاذن بقراءتها شخصيّاً فناله ، قال : «شيخ ضعيف ومقام صعب ، ولا آمن الاضطراب . فإن رأى أمير المؤمنين أن يصل عنايته بأمري في الاذن بالجلوس فعل . فقال : اجلس . فجلس . . .» (زهر الآداب ، ج4 ص 865 والأغاني ، ج4 ص 865 وأمالي المرتضى ج1 ص 102) . وفي خبر دخول سلم الخاسر على الرشيد بعد عودته من الحجّ وإنشاده إيّاه مدحاً له ، يورد الأصفهاني عن لسان سلم أنّ الرشيد قال للفضل بن الربيع : «هل قال أحد غير سلم ، في طيّنا المنازل ، شيئاً ؟ وكان الرشيد قد انصرف من الحجّ وطوى المنازل فوصف ذلك سلم . فقال الفضل : نعم يا أمير المؤمنين ، النمري . فأمر سلماً أن يثبت قائماً حتى يفرغ النمري من إنشاده . . .» (الأغاني ج19 ص 242) .

3 المصدر السابق .

4 من ذلك مثلاً ما جاء في رواية المرتضى عن اتّصال النمري لأوّل مرّة إذ قال : «أوفدت ربيعة وفداً إلى الرشيد فيهم منصور النمري . فلمّا صاروا بباب الرشيد أمرهم باختيار من يدخل عليه منهم ، فاختاروا عدداً بعد عدد إلى أن اختاروا رجلين ، أحدهما النمري ، ليدخلا ويسألا حوائجهما . وكان النمري مؤدّباً لم يُسمع منه شعر قبل ذلك ولا عرف به . فلمّا مثل هو وصاحبه بين يدي الرشيد قال لهما : قولا ما تريدان . فأنشد النمري :

مـا تنقضي حسرة منّي ولا جـزع . . . .

حتى أتى على آخرها . . . . فقال : اكتبوا له بكلّ ما يريد ، وأمر له بثلاثين ألف درهم واحتبسه عنده» (أمالي المرتضى ، ج4 ص 187) .

بعد في البلاط ، فيحتاج ، للدخول ، إلى من يكفله أو يزكّيه أو يكون وسيطاً له . والكفيل الوسيط المزكّي يكون عادة من أفراد الطبقة الأولى «أصحاب الكراسي» أو أفراد الحاشية . ويكون عليه أن يغري الرشيد باستقبال الطارق الجديد ، محسّناً له ما يتوقّعه من سرور ومتعة لدى ادخاله ، وما يمكن له أن يُظهر من ألوان الطرافة غير المعهودة[1] .

وهناك فرص نادرة ، سبقت الإشارة إليها ، تَمَكَّن الرائد الجديد فيها من الدخول إلى البلاط ، حين خرج «خادم كالدرّة النفيسة» ، إلى المجتمعين بالباب بسؤال يريد عنه جواباً ، مَن احتواه ضَمِن سَعدَ السعود ودخل . وهذا كلّه ، طبعاً ، يضاف إلى المجلس العام الذي يجلس فيه الرشيد للشعراء ، يدخلون إليه ويتحفونه بمدائحهم . فإذا تكاثروا رتّب لهم تسلسلاً للدخول ورُتَباً للإنشاد ، حسب سنّهم مثلاً[2] ، أو أمرهم بكتابة أشعارهم على رقاع[3] ، فقرأ الرقاع ، أو وكّل بها من يقرأها ، والتي تعجبه منها يأمر بادخال صاحبها[4] . ويجري الحديث مفصّلاً عن هذه الفئة لدى دراستنا المجالس الأدبية .

---

1 سبقت إشارات إلى ذلك منها ما أورده البيهقي عن دخول مسلم بن الوليد ، للمرّة الأولى ، بشفاعة يزيد بن منصور الحميري الذي أغرى الرشيد بقوله : «خلفتُ بالباب آنفاً رجلاً من أخوالك الأنصار ، متقدّماً في شعره وأدبه وظرفه . أنشدني قصيدة يذكر فيها أنسه ولهوه ولعبه ومحادثته إخوانه ويذكر مجالس اتّصلت له بأبلغ قول وأحسن وصف وأقرب رصف ، يبعث والله على الصبابة ويباعد الهمّ والترح ، وكأنّه قد وُفّق بيمن أمير المؤمنين وسعادة جدّه لأن يكون مبرئاً من هذه الشكوى ، زائداً في سرور أمير المؤمنين ، مستدعياً له صلة رحمه والتشرّف بخدمته . قال : فاستفزّه السرور والقلق إلى دخوله عليه واستماع قصيدته ، وجعل يتابع الرسل بعضهم في أثر بعض حتى دخل . . .» (المحاسن والمساوىء ، ج1 ص 182) . ومنها ما ذكره الطبري عن دخول الأعرابي الباهلي إلى الرشيد بواسطة سعيد بن سلم الباهلي . (تاريخ الرسل والملوك ، ج8 ص 363) . راجع ص 258 وص 260 من البحث . ومنها أيضاً دخول أشجع على الرشيد بتحريض من الفضل بن الربيع إذ قال للرشيد : «هو أشعر شعراء هذا الزمان . وقد اقتطعته عنك البرامكة . فأمره باحضاره وإيصاله مع الشعراء ، ففعل» (الأصفهاني الأغاني ، ج18 ص 161) . راجع ص 62 هامش 1 من البحث .

2 راجع ص 106 هامش 5 .

3 راجع ص 98 (دخول علي بن الخليل) وص 95 هامش 3 .

4 نذكّر هنا بسنّة عرفها بلاط البرامكة ولا نستبعد أن يكون بلاط الرشيد اقتدى بها أو اختطها ، وهي تكليف مختصّ بديوان الشعر يعرض القصائد ويتنخلها ويطرح الرديء منها . فيذكر الجهشياري أنّ الفضل بن يحيى كلّف أحمد بن سيار الجرجاني «تمييز الشعر» (الوزراء والكتّاب ص 192) وقلّد يحيى أبانا اللاحقي «ديوان الشعر» (المصدر السابق ص 211) .

الفصل الثالث
تقاليد المجالس وآدابها

«مساءلة الملوك عن حالها من سجيّة النوكى . فإذا أردت أن تقول : كيف أصبح الأمير ؟ فقل : صبّح الله الأمير بالنعمة والكرامة . وإذا كان عليلاً فأردت أن تسأل عن حاله فقل : أنزل الله على الأمير الشفاء والرحمة . فإنّ الملوك لا تُسأل ولا تُشمّت ولا تُكيّف .

إنّ الملـوك لا يُخاطبونـا ولا إذا ملّـوا يُعاتَبونـا
وفي المقـال لا يُنازَعونـا وفي العُطاس لا يُشَمَّتونـا
وفي الخطاب لا يُكيَّفونـا يُثنـى عليهـم ويُبجَّلونـا
فافهمْ وصاتي ، لا تكن مجنونا[1]

يحيى بن خالد البرمكي

إنّنا نحاول تكوين فكرة عن طريقة التعامل في المجلس الأدبي ، من مراسم الدخول إلى هيئة الداخل ولباسه ، إلى مراتب الجلوس وشروط الكلام ومستواه فحدود التصرّف واللياقة .

أوّلاً : الدخول إلى المجلس الأدبي

تسهيلاً للبحث نقسم الداخلين إلى فئات أربع : الفئة الأولى هي فئة «أصحاب إجازة المرور الدائمة» الذين لا يُحجبون . يدخلون في أيّ وقت جاؤوا ، وأيّاً كان جلوس الرشيد . من هؤلاء أقرب المقرّبين إليه من أفراد العائلة المالكة والوزراء ، ومنهم صاحب الخبر وطبيب الملك ، وكذلك بعض الأدباء ، على رأسهم الأصمعي[2] . ويظهر أنّ بعض الندماء المتميّزين كانوا لا يُحجبون عن الرشيد نخصّ منهم إبراهيم الموصلي[3] وابنه إسحاق[4] . والفئة الثانية هي فئة المستأذنين ومنهم من اعتادهم مجلس الرشيد فباتوا أحد عناصره ، يعوجون بالموقف ينتظرون

---

1 العقد الفريد ج2 ص 124 .

2 يقول البيهقي : «حدّث الأصمعي أنّه دخل ذات يوم على أمير المؤمنين الرشيد ، وكان لا يُحجب عنه» (المحاسن والمساوىء ج2 ص 87) .

3 يصفه الأصفهاني بأنّه مرافق الرشيد يصحبه معه و«كان به مشغوفاً» (الأغاني ج5 ص161) .

4 ممّا يثبت دخول إسحاق على الرشيد ، دون إذن ، الحادثة التالية يرويها الأصفهاني : «حدّثنا إسحاق الموصلي قال : دخلت إلى الرشيد يوماً وهو يخاطب جعفر بن يحيى بشيء لم أسمع ابتداءه ، ولقد علا صوته . فلمّا رآني مقبلاً . قال لجعفر بن يحيى : ترضى بإسحاق ؟ . .» (الأغاني ج18 ص 150) .

الإذن ، وما إن يدخل الرشيد إلى الإيوان ويجلس حتى يأذن لهم فيدخلوا ويأخذوا أماكنهم[1] . وهناك إشارة إلى حالات يلتئم فيها المجلس قبل دخول الرشيد ويبقى الجلساء في حالة ترقّب حتى ظهوره[2] . وقد يكون شبه اجتماع في قاعة الانتظار على طريق الرشيد إلى مجلسه ، يمرّ بها فيقوم الجميع إجلالاً إلى أن يدخل فيتبعه أخصّاؤه . وحين يستقرّ ، يخرج الآذن ليسمح لمن سواهم بالدخول[3] . هذه الفئة تمثّل جمهور المجلس . منها أسماء معروفة ، ومنها من لم يرد لهم ذكر البتّة في الأخبار ، ومع ذلك فقد كانوا موجودين : هاشميين أو شعراء أو أدباء ، وأحياناً وفوداً . .[4] ومن المستأذنين من لم يدخلوا سابقاً مجلس الرشيد ، فهم يؤمّون بابه طالبين السماح بالدخول أو منتظرين سانحة تسنح فتحملهم إلى داخل البلاط حيث العالم العُلوي يمطر ذهباً وفضّة . وقد يطول بهم الوقوف قبل أن يدخلوا ؛ فالآذنون في ذلك العصر لم يكونوا يختلفون عنهم في أيّ عصر آخر : إنّهم بشر ويحبّون أن يستفيدوا من موقعهم نفوذاً ومالاً أو هدايا . ولذلك يهتمّون بالمقرّبين إلى الخليفة عسى أن يذكروهم لديه بكلمة طيّبة فيها صلاح لهم ، ويطلبون الاذن لهم قبل سواهم . أو هم يهتمّون بمن يتوسّمون فيه نجاحاً في المستقبل وقد أجزل لهم الوعود التي قد تعود عليهم بخير عميم ؛ وهم يُسقطون احساسهم بالنقص على كلّ زري هيئةٍ ، قبيح منظر وعلى من لا يحسن ممالأتهم واجتلاب وُدّهم[5] . والفئة الثالثة هي فئة الداخلين بناء على دعوة من

---

1 نذكر فيما يلي بعض الفقرات التي تشير إلى ذلك في الأخبار : فعند ابن رشيق : «اجتمع الشعراء بباب الرشيد فأذن لهم» (العمدة ج1 ص 128) وعند الأصفهاني : «اجتمعت الشعراء يوماً بباب الرشيد فأذن لهم فدخلوا وأنشدوا» (الأغاني ج4 ص 45) وعند ابن المعتزّ «اجتمعت الشعراء يوماً بباب الرشيد ، فسألوا الإذن . . .» (طبقات الشعراء ص150) .

2 نجد ذلك في خبر الأصفهاني بالسند عن ابراهيم الموصلي إذ يقول : «كان الرشيد معجباً بشعر أبي العتاهية فخرج إلينا يوماً وفي يده رقعتان على نسخة واحدة . . .» (الأغاني ج4 ص99) .

3 يذكر الخطيب البغدادي على لسان أبي عبيد قوله «كنّا مع محمد بن الحسن إذ أقبل الرشيد . فقام الناس كلّهم إلاّ محمد بن الحسن ، فإنّه لم يقم . . . ودخل الناس من أصحاب الخليفة . فأمهل الرشيد يسيراً ثمّ خرج الآذن فقال . محمد بن الحسن . . .» (تاريخ بغداد ج2 ص173) .

4 ذكر ابن المعتزّ بعض أفراد هذه الفئة في خبر دخول العُماني على الرشيد ثم مدحه له ، قال : «فأجزل له الجائزة على شعره وأضعفها على كلامه ، وأقبل عليه بوجهه وتبسّم له وبسطه حتى تمنّى جميع من حضر من الشعراء والخطباء والبلغاء والوفود الذين عنده أنّهم قاموا ذلك المقام» (طبقات الشعراء ص 110) ويذكر الأصفهاني بعضهم على لسان موسى السلولي إذ يقول «بينما نحن بالرافقة على باب الرشيد وقوف وما أفقد أحداً من وجوه العرب من أهل الشام والجزيرة والعراق . . .» (الأغاني ج13 ص 15) .

5 نستنتج ذلك من الخبر التالي يسوقه ابن قتيبة عن عبد الله بن مصعب الزبيري . قال : كنّا بباب الفضل بن الربيع وهم يأذنون لذوي الهيئات والشارات ، وأعرابي يدنو . فكلّما دنا طُرح . فقام ناحية وأنشأ يقول :

الرشيد . والدعوة هذه قد تكون عامّة ومعروفة مرتبطة بمناسبة دوريّة يتهيّأ لها الداخلون ، كمناسبات الأعياد والاحتفالات السنوية . هذه الدعوة العامة تكون مفتوحة بلا تحديد[1] ، أو يحدّد موعدها مُسبقاً[2] . وقد تكون الدعوة إثر مناسبَة طارئة كعودة الخليفة من الحجّ أو من غزوة[3] ، أو بعد حدث سياسي كاخماد ثورة أو الانتصار على خارجي أو عقد بيعة وما إلى ذلك . وهذا لا يمنع أن تكون دعوة مفتوحة بلا مناسبة خارجية ، وبحسب مزاج الرشيد ، فيخرج الآذن ليدعو فئة من الواقفين بالباب أو الجالسين في قاعة الانتظار[4] . وقد تتحوّل الدعوة العامّة دعوة خاصّة موجّهة إلى شخص بالذات ، شاعر أو أديب أو واعظ[5] أو فقيه[6] ؛ فإمّا يكون في الموقف أو

= رأيتُ آذننا يعتامُ بزَّتنا وليس للحسب الزاكي بمعتام

(عيون الأخبار ـ دار الكتب ـ مجلّد 1 ج1 ص 19) .

ويجدر التذكير بخبر ابن عبد ربّه عن دخول الأصمعي للمرّة الأولى : «تصرّفت بي الأسباب إلى باب الرشيد مؤمّلاً للظفر بما كان في الهمّة دفينا . . . فاتّصل بي ذلك إلى أن كنت للحرس مؤنساً بما استعملت به مودّتهم . .» (العقد الفريد ج5 ص 309) . ويروي التنوخي : «. . . وأبيت بالليل مع الحرّاس اسامرهم» (الفرج بعد الشدّة ج2 ص 238) .

1 من ذلك ما ذكره الأصفهاني عن أشجع السلمي الذي دخل «على الرشيد ثاني يوم الفطر فأنشده :

استقبِلِ العيدَ بعُمرٍ جَديدْ مَدَّتْ لكَ الأيّامُ حَبلَ الخلودْ

فوصله بعشرة آلاف درهم وأمر أن يغنّى في هذه الأبيات» (الأغاني ج18 ص 175) .

2 من رواية الأصفهاني أيضاً هذه اللمحة عن سليم بن سلام المغنّي يأتي اليزيدي الشاعر قائلاً : «إنّ المهرجان بعد غد ، وقد أُمِرنا بحضور مجلس الخليفة» (الأغاني ج6 ص 157) .

3 من أبرز الدعوات العامّة بناء على تحديد مسبق ما رواه الأصفهاني على لسان أشجع السلمي قال : «شخصت من البصرة إلى الرقة فوجدت الرشيد غازياً . . . . فخرجت حتى لقيته منصرفاً من الغزو . . . فصاح صائحٌ ببابه : من كان هنا من الشعراء فليحضر يوم الخميس . فحضرنا سبعة وأنا ثامنهم . فأُمرنا بالبكور يوم الجمعة ، فبكرنا وأُدخلنا . . .» (الأغاني ج18 ص 144 ومعاهد التنصيص على شواهد التلخيص ج4 ص 63) .

4 من ذلك دعوة موجّهة إلى الوعّاظ يذكرها السيوطي على لسان سفيان بن عُيينة : «دعانا الرشيد ، فدخلنا عليه ودخل الفضيل آخرنا ، مقنّعاً رأسه بردائه . . .» (تاريخ الخلفاء ص285) .

ومن ذلك دعوة موجّهة إلى الشعراء يذكرها ابن عبد ربّه على لسان الأصمعي فيقول «تصرّفت بي الأسباب على باب الرشيد مؤمّلاً الظفر . . . إذ خرج خادم فقال : أما بالحضرة أحدٌ يُحسن الشعر ؟ . .» (العقد الفريد ج5 ص 310) . ودعوة ثانية مماثلة يوردها الأصفهاني في قول الرشيد للفضل بن الربيع : «انظر من بالباب من الشعراء . .» (الأغاني ج16 ص 267) .

5 يروي الطبري عن أبي محمد ، هارون قال : «حضرتُ الرشيد وقال له الفضل بن الربيع : يا أمير المؤمنين ، قد أحضرت ابن السمّاك كما أمرتني . قال : أدخله ، فدخل ، فقال له : عظني . قال : يا أمير المؤمنين ، اتقِ الله وحده . . . . .» (تاريخ الرسل والملوك ج8 ص 357) .

6 نذكر فيما يلي نماذج من استدعاء الشعراء والأدباء .

على الباب فيدخل ، وإمّا لا يكون فيُبحث عنه ويُحمل إلى البلاط أنّى وُجد ، ودون أن يعرف السبب أحياناً[1] . أو تكون الدعوة الخاصة محددة بموضوع معين ، يدخل إلى الرشيد من يجد في نفسه الكفاية على الخوض فيه . . .[2] . أمّا الفئة الرابعة من الداخلين ، فنذكرها ، وإن لم نعدّها أساسية لأنّها ، في الأصل لا تدخل إلى مجلس أدبي . هذه فئة المتظلّمين وأصحاب الحاجات ، إنّما يكون بينهم شعراء ممّن لم يستطيعوا الوصول إلى الرشيد عن طريق الاذن ، أو ممّن حلّ عليهم غضبه فحجبهم[3] ، أو ممّن سُعي بهم لديه فهربوا ، أو خافوا فاستخفْوا ، ولم يجرؤوا على الوقوف مع المستأذنين لئلاّ يبادر إلى الانتقام منهم ، قبل سماع اعتذارهم ، فدخلوا مع هذه الفئة التي تخصَّص لها أيّام لا يُحجب فيها أحد منها ولا يسأل عن اسمه قبل دخوله ، وتوسّلوا ، لتصحيح أوضاعهم ، بالكلمة الحلوة والقول البليغ ، وبالشعر الجدّي أو الظريف ، فتحلّق حولهم مجلس أدبي لم يكن ملحوظاً قبل دخولهم[4] .

= فدعوة خالد بن يزيد يذكرها المسعودي راوياً عن إسحاق الموصلي : «كنت عند الرشيد يوماً . . . وأحضر يحيى بن خالد جارية فغنّت :

أرقتُ حتّى كأنّي أعشَقُ الأرَقا ... وذُبتُ حتى كأنّ السُقمَ لي خُلِقا

فقال الرشيد : لمن هذا ؟ فقيل : لخالد بن يزيد الكاتب . قال خالد : فأحضرتُ . . .» (مروج الذهب ج3 ص285) .

ـ ودعوة أبي العتاهية يذكرها الأصفهاني . «قال الأصمعي : صنع الرشيد طعاماً وزخرف مجالسه وأحضر أبا العتاهية وقال له : صف ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا . . .» (الأغاني ج4 ص 108) .

ـ ودعوة المفضل الضبي الليلية سبقت الإشارة إليها . راجع ص54 هامش 2 من البحث . وكذلك استدعاء العبّاس بن الأحنف . راجع ص 93 هامش 3 من البحث .

1 أخبر المسعودي قال : «أمر الرشيد ذات يوم بحمل أبي العتاهية إليه وأن لا يُكلّم في طريقه ، ولا يُذكر له ما يُراد به» (مروج الذهب ـ دار الأندلس ج3 ص 450) .

2 من المواضيع المحددة : مدح الرشيد بالدين والدنيا في ألفاظ قليلة (وقد انبرى له عمر بن سلمة) (طبقات الشعراء ص150 وانظر ص 107 هامش 3 من البحث) . ورواية قصيدة الأسود بن يعفر (انظر ص 183 من البحث) .

3 يروي الأصفهاني أنّ الرشيد وجد على كلثوم بن عمرو العتابي «فدخل سرّاً مع المتظلّمين ، بغير إذن ، فمثل بين يدي الرشيد وقال له : يا أمير المؤمنين قد آذتني الناس لك ولنفسي فيك ، وردّني ابتلاؤهم إلى شكرك . . . وفي ذلك أقول :

أخِضْني المُقامَ الغَمْرَ إنْ كان غَرَّني ... نسا حَلَبٍ أو زلّتِ القَدَمانِ . . .

فخرج وعليه الخلع وقد أمر له بجائزة . . .» (الأغاني ج13 ص 111) وقد أورد التنوخي الخبر نفسه وبمعظم كلماته عن العباس بن الأحنف (الفرج بعد الشدة ج1 ص 87) والأرجح أنّ الحادثة جرت للعتابي . فمن المعروف أنّ الرشيد وجد عليه وطلبه ، بينما لم يُذكر ذلك عن العبّاس . وكذلك فإنّ الأبيات بشعر العتابي أشبه في قوتها وجرسها ، وأقرب إلى طبيعته كشاعر مدّاح متكسّب . وتكفي الإشارة إلى أنّ التنوخي يروي عن الأصفهاني وهذا أدرى بروايته .

4 نذكّر هنا بدخول عليّ بن الخليل على الرشيد ، وكان متّهماً بالزندقة ومطلوباً من الخليفة . فقد روى الأصفهاني عن زياد بن الخطّاب أنّ الرشيد «جلس بالرافقة للمظالم فدخل عليه علي بن الخليل وهو متوكّىء على عصا وعليه ثياب

ثانياً : أزياء البلاط

لم نجد خبراً واضحاً يتحدّث بالتفصيل عن ملابس الرشيد في مجلسه الأدبي ، وإنّنا نفترض أنّ زيّه في مجلس الأدب لم يكن يختلف عن زيّه في المجالس الأُخرى . ذاك أنّ تحوّل المجلس من عادي إلى أدبي كان يرافقه تعديل في طريقة الجلوس ومكانه ، كما مرّ بنا[1] ؛ ولكن الأخبار لم تشر إلى أيّ تغيير في اللباس ، إلاّ لمجالس المنادمة[2] . وممّا لا شكّ فيه أنّ الرشيد كان من الأناقة بمكان كبير ، وكان يعتني بملابسه ، نوعها ، وجمالها ، حتى ابتدع أنماطاً من الثياب نسبت إليه[3] . والرشيد الأنيق كان يتوخّى في ثيابه ارتفاع الثمن لجودة النوع ؛ فيختار ما وُشّي منها[4] وما صُنع من القماش النادر كالخزّ والحرير[5] . ويمكننا إقامة تصوّر لما لبسه

= نظاف ، وهو جميل الوجه ، حسن الثياب ، في يده قصّة . . . قال له : من أنت . قال : أنا علي بن الخليل الذي يقال إنّه زنديق فضحك . . .» وقد أثابه بعد أن سمع مدحه . (الأغاني ج14 ص 161) .

1 ورد ذلك في خبر سابق عن دخول الأعرابي الباهلي على الرشيد (راجع ص 53 هامش 1 وص 81 هامش 3 وص258 هامش 2 من البحث) . ونورده هنا ، بتفصيل أكبر ، عن الطبري ، مع ذكر لباس الاعرابي : « . . . فأذن له ، فإذا اعرابي في جبّة خزّ ورداء يمان ، قد شدّ وسطه ثم ثناه على عاتقه ، وعمامة قد عصبها على خدّيه وأرخى له عذَبة . فمثل بين يدي أمير المؤمنين . . .» (تاريخ الرسل والملوك ج8 ص 204) .

2 راجع فصل مناسبات السمر والمنادمة .

3 ذكر الأصفهاني الازار الرشيدي في ملابس الصيف . ويظهر أنّ هناك بدعة عند بعض الخلفاء العبّاسيين : أن يحدث كلّ منهم زيّاً خاصّاً أو تعديلاً في زيّ معروف ، فيُنسب إليه ويتّبعه فيه اخصّاؤه ثم سائر الرعية . فالمعتصم ، مثلاً ، عدّل في القباء إذ كان لباس الخليفة العبّاسي في المواكب القباء الأسود أو البنفسجي الذي يصل إلى الركبة . وكان مفتوحاً عند الرقبة فيظهر القفطان زاهياً من تحته . وكانت أكمامه ضيّقة حتى عهْد المعتصم الذي أمر بجعلها فضفاضة . ويقال إنّ عرض الأكمام بلغ ثلاثة أذرع» (حسن ، د . حسن إبراهيم ـ تاريخ الإسلام ج2 ص284) ويروي المسعودي أنّ المتوكّل «أظهر لباس ثياب المُلحمة وفضّل ذلك على سائر الثياب . واتّبعه من في داره على لبس ذلك ؛ وشمل الناس لبسه» (مروج الذهب ـ دار الأندلس ج4 ص 4) ويذكر الطبري غلائل القصب الرشيدية (ج8 ص 356) .

4 «يصف الأصفهاني خروجه مرّة في دُرّاعة وشي ، متلثّماً بعِمامة وشي ، ملتحفاً بإزار وشي» (الأغاني ج5 ص 198) .

5 نورد وصف الجهشياري لأحد مجالس الرشيد لدى مسيره إلى خراسان ونزوله في طوس ، مع الإشارة إلى أنّ السواد كان اللون الغالب على كلّ لباس رسميّ ، فهو رمز العبّاسيين ، يتوخّونه في راياتهم ومضاربهم وثيابهم . قال الجهشياري «ثم جلس الرشيد مجلساً عامّاً في مضرب خزّ أسود . . . في أركانه قِباب مغشّاة بخزّ أسود ، وهو جالس في فازة خزّ سوداء في وسط المضرب وعليه جبّة سوداء خزّ بغير قميص ، وعليها فنك قد استشعره لشدّة ما هو فيه من البرد والعلّة . وفوقها دُرّاعة خزّ مبطّنة بفنك ، وتحته أحد عشر فراشاً خزّاً أسود ، والوسائد والمخادّ وسائر ما يقرب منه خزّ أسود . . .» (الوزراء والكتّاب ص 273 ـ والفرج بعد الشدّة ج2 ص 257) ويذكر الطبري «عصابة حريرٍ» كان يلفّها حوالي بطنه اثناء علّته (تاريخ الرسل والملوك ج8 ص339) . (الفازة : خيمة بعودين تكون في العسكر) .

الرشيد إذا ميّزنا بين لباس الصيف ولباس الشتاء . فلباس الصيف «غِلالة رقيقة متوشّح عليها بإزار رشيدي عريض مضرّج»[1] بينما سائر لباسه في الفصول الأُخرى : الدُرّاعة أو الجُبّة من الخزّ التي تبطّن ، لدرء البرد ، بالفَنَك أو السَمُّور[2] ، أو دُواج السَمّور يلقى فوق الملابس . أمّا لباس الرأس فهو العِمامة الموشاة التي ترصّع مقدّمتها بالجواهر ، أو هي تلتفّ ، سوداء ، على قلنسوة طويلة[3] ، لتضفي الطابع العبّاسي الرسمي على المظهر[4] . أمّا زي الداخلين إلى البلاط فهو ، أيضاً ، لم يكن يتغيّر بتغيّر المجلس لأنّه مرتبط بمقامهم وبمهنتهم . فالقاضي يدخل عليه بلباس القضاة ، والفقيه بلباس الفقهاء[5] والكاتب في زيّ الكُتّاب[6] . ولعلّه كان هناك زيّ

---

1 الأصفهاني ، أبو الفرج ، الأغاني ج5 ص 204 .

2 وقد ورد وصف لأنواع جبب الشتاء المبطّنة في الخبر التالي ، ذكره الأصفهاني ، عن حضور الرشيد لمجلس منادمة عند الحارث بن بُسخُنَّر دون أن يدري به الندماء . قال : «وأُحضرت الخِلَع ، وكان ذلك اليوم شديد البرد . فخلع على ابن جامع جبّة خزّ طاروني مبطّنة بسمّور صيني ؛ وخلع على إبراهيم الموصلي جبّة وشي كوفي مرتفع مبطّنة بفنَك ؛ وخلع على أبي صدقة دُرّاعة مُلْحَم خراساني محشوّة بقزّ» (الأغاني ج19 ص 246) . وأورد الجهشياري ذكر الدُواج السمور لدى حديثه عن الفضل بن يحيى في الحبس ، وقد استشعر برداً فنقل مسرور صورة لحاله إلى الرشيد فقال : «أيّ شيء كان عليه ؟ قال : كان عليه طِمر قد سَمَل . قال : خذ ذاك الدُواج السَمُّور فاطرحه عليه» (الوزراء والكتّاب ص246) .

3 في نهاية الخبر المذكور آنفاً الصفحة السابقة هامش 5 عن جلوس الرشيد في مضرب خزّ بطوس ، يذكر الجهشياري أنّه كان «على رأسه قَلَنْسُوَة طويلة وعِمامة خزّ أسود وطَيْلَسان أسود» (المرجع السابق ص 273) .

4 اعتُدّت القَلَنْسُوَة الطويلة شعاراً للعباسيين في أيّام المنصور . يقول السيوطي : «في سنة ثلاث وخمسين ألزم المنصور رعيّته بلبس القَلانس الطوال . فكانوا يعملونها بالقصب والورق ، ويلبسونها السواد» (تاريخ الخلفاء ص 262) . ويذكر السيوطي قول أبي دلامة معرّضاً :

وكنّا نُرَجّي من إمامٍ زيادةً ... فزادَ الإمامُ المصطفى في القَلانِسِ

تَراها على هامِ الرجالِ كأنّها ... دِنانُ يهودٍ جُلِّلت بالبَرانِسِ

(المصدر السابق) .

5 يذكر الأصفهاني هذا اللباس في حديثه عن إسحاق الموصلي ، المتعدد الكفايات والثقافات ، الذي بلغ من العلم أن يحاجّ الفقهاء ويتزيّا بزيّهم ، فيقول : كان إسحاق الموصلي يدخل في مُبَطَّنةٍ وطَيْلَسان ، مثل زيّ الفقهاء ، على المأمون (الأغاني ج5 ص 356) .

6 ويذكر الجهشياري زيّاً خاصّاً للكُتّاب ، ولكن بلا تفصيل : «كان مُخلد بوابَ ديوان الخراج ببغداد إلى أن مات ؛ وكان يتزيّا بزيّ الكُتّاب» (الوزراء والكتّاب ص 263) وفي موضع آخر يقول إنّ أوّل من لبس شاشية من الكتّاب عيسى بن يزدانيروذ كاتب الرشيد «وكان سبب ذلك أنّه احتاج إلى لبس القَباء والسيف من أجل ما يتقلّده من نفقات الخاصة . فلبس الشاشية . . .» (المصدر نفسه ص 261) .

وقد وقعنا على وصف جزئيّ لزيّ التجّار ، وهو زيّ كان يتنكّر به الخليفة ووزيره وخاصةُ حاشيته حين يتفقّدون الرعيّة . يذكر ذلك التنوخي عن إسحاق الموصلي فيقول : «لما دخل الرشيد البصرة حاجا ، كنت معه . فقال لي

خاص بالشعراء والأدباء . وما تجدر الإشارة إليه بشكل خاص هو أنّ الرشيد لم يكن يستقبل في مجلسه من يتبذّل في لباسه[1] . وهو صارم في هذا الحظر لا يتساهل إلاّ مع الأعراب يستقبلهم بزيّهم لبساطتهم وسذاجة عيشهم ، مع أنّ هذا الزيّ قد يتّسم بالأناقة[2] . وقد يقبل الرشيد زيّ الاعراب من شعرائه الملازمين لبلاطه[3] .

ثالثاً : مراتب الكلام وأصول الحوار

كان الداخلون . كما رأينا ، على مستويات مختلفة في دخولهم ، كما كان لهم ، داخل المجلس ، مراتب تتفاوت علوّاً وانخفاضاً وتختلف قرباً من سرير الرشيد أو بعداً عنه ، بحسب قرابة صاحبها للخليفة وأهمّيته العسكرية أو السياسية أو الأدبية . ونستطيع القول إنّ هذا التفاوت شمل أيضاً مراتب الكلام ، فإذا قعد الرشيد قعوداً عاماً انطلق الجلساء يتحدّثون بتسلسل مراتبهم[4] . أمّا إذا كان المتحدّثون من مرتبة واحدة فيكون التسلسل حسب القاعدة العربية القديمة : على الأسنان ، أي حسب تسلسل أعمارهم[5] . أمّا في مجالس المناقشة والاستنشاد فالرشيد هو الذي يدير عادة

= جعفر بن يحيى ، يوماً : قد عزمت على أن أركب متخفّياً . . . فتساعدني ؟ فقلت السمع والطاعة . . . فخرج جعفر بعِمامة وطيلسان ونعل عربية ، وأمرني فلبست مثل ذلك . وركبنا حمارين قد أُسرجا لنا بسروج التجّار . . . ووجدت هذا الخبر بخلاف هذا . . . . وأنّ الذي حضر : الرشيد وجعفر متنكرين ومعهما إبراهيم الموصلي . . .» (الفرج بعد الشدّة ج2 ص 393) .

1 هناك حادثة معروفة جرت لمحمد بن ذؤيب العُماني ، يرويها ابن قتيبة فيقول : «دخل العماني الراجز على الرشيد لينشده ، وعليه قلنسوة طويلة وخفان ساذجان . فقال له الرشيد : يا عُمانيّ ، إيّاك أن تنشدني إلاّ وعليك عِمامة عظيمة الكور وخُفّان دُلقمان . . .» (عيون الأخبار ج1 ص 93 والشعر والشعراء ص 176 وانظر كذلك ابن المعتزّ في طبقات الشعراء ص 109) . ولعلّ هذا الزيّ الذي طلبه الرشيد من العماني هو اللباس المميّز للشعراء وإن لم يتأكّد لنا ذلك . ويمكن اعطاء تفصيل أكثر إذا استوحينا شعر أبي قابوس الحيري يطلب ألبسة من جعفر بن يحيى :

فلو كانَ هذا المُطرَفُ الخزُّ جُبّةً ... لباهيتُ أصحابي بهِ في المجالسِ
ومن ثوبِ قُوهيٍّ وثَوْبِ غِلالـةٍ ... ولا بأس لو أتبعتَ ذاك بخامسِ

(الوزراء والكتّاب ص 210) .

1 انظر لباس العربي الباهلي ص 104 هامش 1 من البحث .

3 وهذا بالضبط ما فعله العُماني حين لامه الرشيد على لباسه المبتذل . إذ «بكر إليه من الغدّ وقد تزيّا بزيّ الأعراب ، ثم أنشده . . .» المصادر المذكورة .

4 يقول الأصفهاني . «لمّا وجّه الفضل بن يحيى الوفد من خراسان إلى الرشيد يحضّونه على البيعة لابنه محمد ، قعد لهم الرشيد ، وتكلّم القوم على مراتبهم» (الأغاني 18 ص 32) .

5 نجد ترتيب الكلام بحسب العمر في خبر دخول أشجع السلمي لأوّل مرّة على الرشيد . ومع أنّ الخبر مرّ بنا سابقاً (ص 102) فلا بأس بذكر الفقرة التالية ، والحديث لأشجع يرويه الأصفهاني : «. . . . وأُمرنا بالبكور يوم الجمعة فبكرنا ، وأُدخلنا وقُدّم واحد واحد منّا يُنشد على الأسنان . وكنت أحدث القوم سنّاً وأرثّهم حالاً . فما بلغ إليّ حتّى كادت الصلاة أن تجب . . .» (المصدر السابق ص 144) .

جلسته ، ممسكاً الدفّة ، موجّهاً سير الموضوعات على هواه . فإذا ما تكلّم كلمة «نزع القوم بها ، فكلّ يحكي في نوعها حكاية أو ينشد شعراً في معناها»[1] . وإذا سأل سؤالاً اندفع الموجودون في الإجابة عنه وتنافسوا في ذلك حتى يستنفدوا معانيه أو يصيبوا ما في نفس الرشيد[2] . وقد يحدد الرشيد موضوع الجلسة مسبقاً ، قبل افتتاحها ، ويدخل إليه الداخلون ليتحدّثوا في الاتّجاه الذي حدّده ، منتظرين الابداع ، والحصول على الاعجاب ورفد أمير المؤمنين ؛ لكن الرشيد لا يتقيّد دائماً بالحدود ، وإن كان هو الذي رسمها ، بل يجري وراء انفعالاته ويطلب ، أحياناً ، من الداخل إليه نسيان موضوع الجلسة وإنشاده شعراً يحدّده له ، مخيباً آماله التي كان قد بناها على ما أعدّه من شعر أو قول قبل دخوله[3] . أمّا الجلساء فيما بينهم ، فيحظر عليهم عادة تبادل الآراء وتوجيه النقد مباشرة[4] ، فلا يوجّه الحديث إلاّ إلى الرشيد ولا يصدر قول إلاّ بعد إذن منه . ومخالفة هذا المبدأ ، إن لم يعاقب عليها الرشيد ، لم ينج مرتكبُها من سوء أثرها كأن ينفذ منها خصم له لينال منه بإثارة حفيظة الرشيد عليه[5] . ومع ذلك ، يبدو أنّ الرشيد كان يسمح أحياناً بقيام جدل ونقاش بين جلسائه ، وبأن يحتدم الجدل ويطغي ، وهو مشارك فيه[6] . . . . وإذ كان لكلّ خليفة ، عادةً ،

---

1 الوطواط ـ غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة ص 390 .

2 يحدّثنا الأصفهاني عن الزبير بن بكّار قال : «حدّثني عمّي عن أبيه : قال الرشيد يوماً لجلسائه : أنشدوني شعراً حسناً في امرأة خفرة كريمة . فأنشدوا فأكثروا ، وأنا ساكت . فقال لي . إيه يا ابن مصعب ، أمّا أنّك لو شئت لكفيتنا سائر اليوم . فقلت . نعم يا أمير المؤمنين ، لقد أحسن محمد بن بشير الخارجي حيث يقول :

بيضــاءُ خالصــةُ البياضِ كأنّها ... قمرٌ توسّط جَنحَ ليلٍ مُبرد . . .

(الأبيات)

فقال الرشيد . هذا ، والله ، الشعر . . .» (الأغاني ج16 ص 70) .

3 يذكر ابن المعتزّ أنّ الرشيد أمر الحاجب أن يخرج إلى الشعراء الواقفين بالباب ويقول : «من اقتدر أن يمدحنا بالدين والدنيا في ألفاظ قليلة فليدخل . فبادر ابن أبي السعلاء فاستأذن . فقال للحاجب : ادخله ، فأدخله . فقال له الرشيد : أنشدني قولك : أغيثاً تحمل الناقة أم تحمل هاروناً . . . فقال : أنشدك ما اخترتَه وشرطتَه اليوم . فقال : بل أنشدني الأبيات . فأنشده . . .» (طبقات الشعراء 150) .

4 يذكر القلقشندي خبراً يدور حول اللحن ، وقد وقع فيه الفراء أمام الرشيد فقال جعفر بن يحيى : «يا أمير المؤمنين ، إنّه قد لحن . . .» (صبح الأعشى ج1 ص 173) ولم يوجّه النقد مباشرة إلى الفراء .

5 يروي القالي أنّه حين أنشد علي بن جبله الرشيد ونال الاستحسان الظاهر ، حسده الأصمعي وأراد أن يقلّل من قيمة شعره بالهزء من شكله فقال : «إيه يا عكّوك ! فانتفض علي بن جبلة وأراد أن يجيبه بعنف دون أن يستثير حفيظة الرشيد . فأخذ البادرة بلوم الأصمعي على الكلام دون إذن الخليفة وعلى اطلاق التسميات دون سماحه ، ونفذ من ذلك إلى الطعن على الأصمعي في نسبه لوضاعته فقال . «في مجلس أمير المؤمنين تلقّب الناس يا ابن راعي الضأن العشرين» ؟ (سمط اللآلي ص 330) .

6 يروي الخطيب البغدادي عن عمر بن حبيب قوله : «حضرت مجلس هارون الرشيد فجرت مسألة فتنازعها

حركةٌ أو عبارةٌ ، إذا أتاها فهِم جلساؤه أنّه يريد حلّ المجلس ، كانت عبارة الرشيد : «سبحان الله»[1] . أمّا لغة الحديث في البلاط الأدبي فهي اللغة الصحيحة الخالية من اللّحْن والشوائب . ويظهر أنّ الرشيد كان قويم اللسان ، سليم اللغة ، شديد العناية بالنحو[2] . ومن المؤكّد أنّه كان يعتدّ كل مجلس أدبي يحضره مصدر متعة له وفائدة على صعيد المعرفة ، فيُسَرّ بكلّ جديد يسمعه ، ويفرح بكلّ ما يكتسبه ، حتى إنّه يردّده أو يطلب إعادته إلى أن يحفظه[3] ، وقد يتجاوز حفظه

= الحضور وعلت أصواتهم . فاحتجّ بعضهم بحديث يرويه أبو هريرة عن النبي ﷺ فرفع بعضهم الحديث ، وزادت المدافعة والخصام . . . .» (تاريخ بغداد ج11 ص197) (وانظر الوزير أبي سالم محمد بن طلحة ، العقد الفريد للملك السعيد ص 174) .

1 METZ Adam, The renaissance of Islam, p. 144.

2 يحدّثنا ياقوت على لسان الأحمر النحوي فيقول : «دخل أبو يوسف القاضي (وقيل محمد بن الحسن) على الرشيد ، وعنده الكسائي يحدّثه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قد سعد بك هذا الكوفي وشغلك . فقال الرشيد : النحو يستفرغني لأنّني استدلّ به على القرآن والشعر» (معجم الأدباء ج13 ص 176) .

3 ويروي القلقشندي عن الرشيد أنّ قال «يوماً لبنيه : ما ضَرَّ أحدَكم لو تعلّم من العربية ما يصلح به لسانه ؟ أيُسرّ أحدُكم أن يكون لسانُه كلسان عبده وأمَتِهِ ؟» (صبح الأعشى ج1 ص168) .

ويروي الحصري حديثاً قريباً عن لسان المأمون (زهر الآداب ج3 ص 739) ويروي الأصفهاني عن الأصمعي قوله : «دخلتُ عليه (أي الرشيد) يوماً ، وهو محموم ، فقال : أنشدني شعراً مليحاً . فقلت : أرصينا فحلاً يريده أمير المؤمنين ، أم شجيّاً سهلاً ؟ قال : غَزِلاً بين السهل والفحل . فأنشدته للعديل بن الفرخ العجلي :

صَحا عَنْ طِلابِ البيضِ قبلَ مشيبِهِ ... وراجَعَ ، غَضَّ الطرفِ ، فهو خَفيضُ
كأني لم أرعَ الصبا ويَروقُني ... مِنَ الحيِّ أحوى المقلتين غَضيضُ
دعاني له يوماً هوًى فأجابَهُ ... فؤادٌ ، إذا يَلقى المِراضَ ، مريضُ
لِمستأنساتٍ بالحديثِ كأنّهُ ... تعلُّلُ غُرٍّ ، برقُهُنَّ وميضُ

فقال لي : أعِدها . فما زلت أعيدها حتى حفظها» (الأغاني ج22 ص 377) وفي مكان آخر يروي الأصفهاني عن إسحاق الموصلي : «دخلت على الرشيد يوماً فقال لي : يا إسحاق أنشدني أحسن ما تعرف عن عتاب محبّ ، وهو ظالم متعتّب . فقلت : يا أمير المؤمنين ، قول جميل : رِدِ الماء . . . (الأبيات) فقال : أحسن والله ، أعدها عليّ . فأعدتها حتى حفظَها» (الأغاني ج8 ص 147) .

ويروي الجاحظ عن الهيثم بن عدي : «أنشدتُ هارون ، وهو ولي عهد ، أيّام موسى ، بيتين لحمزة بن بيض في سليمان بن عبد الملك :

حازَ الخِلافةَ والداكَ كلاهُما ... مِنْ بينِ سَخطَةِ ساخطٍ أو طائعِ
أبواكَ ثم أخوكَ أصبحَ ثالثاً ... وعلى جبينكِ نورُ مُلْكٍ ساطعِ

فقال : يا يحيى ، اكتب لي هذين البيتين» (البيان والتبيين ج3 ص 326) .

الشخصيّ له إلى أن يطلب الحفظ ممّن يعنيه علمهم ومعرفتهم[1] . أمّا اللحن فقد كان شائبة كبيرة في حديث المتحدّث أمام الرشيد . وهذا أمر طبيعي في مجلس يكون الأدب واللغة قطبيه ، ويكون رواده نخبة المجتمع المثقّف ، ويكون صاحبه هارون الرشيد . فإذا ما لحن أحد المتحدّثين ، بادر الرشيد إلى الاستغراب أو إلى تنبيهه ، أو فعل ذلك أحد الجلساء ، مُستبقاً تدخّل الخليفة ، لفتاً للنظر ، على رغم ما في هذه البادرة من مخالفة لأصول الكلام[2] . ويتساهل الرشيد في اللحن إذا جاء ممّن لا يفترض فيهم العلم[3] ، وقد يتهيّب توجيه التهمة إلى من يلحن ، إذا كان إماماً في اللغة أو الفقه ؛ فيطرح ملاحظة بشكل تساؤل لا يجد المُلْحن ازاءه إلاّ أن يُقرّ بخطئه ويبحث عن عذر له[4] .

---

1 يحدّث البيهقي عن الأصمعي : «دخلت ذات يوم على الرشيد فقال لي : اكتب يا أصمعي ، ولو على تِكّتك أو طرف ثوبك :

كُنْ موسِراً ، إنْ شئتَ ، أو مُعسِراً ... لا بـدّ ، في الدنيا من الهَمِّ

وكلّما زادَكَ في نِعمـةٍ ... زادَ الذي زادكَ في الغَـمِّ»

(المحاسن والمساوىء ج2 ص 87) .

2 أسند الأصفهاني إلى إسحاق الموصليّ قوله : «غنّى مخارق يوماً بين يدي الرشيد : سَرَتْ إليه من الجوزاء ساريةٌ . . . فلمّا بلغ إلى قوله : فارتاع من صوت كَلاَّب فبات له . . . . قال : فارتاعُ (بضم العين) . فأردت أن أردّ عليه خطأه ثم خفت أن يغضب الرشيد ويظنّ أنّي حسدته على منزلته منه وأردت إسقاطه . فالتفتَ إليه بعض من حضر . . . فقال له : ويلك يا مخارق ! أتغنّي ، بمثل هذا الخطأ ، لسُوقةٍ فضلاً عن الملوك ؟ ويلك ! لو قلت فارتاعَ كان أخفّ على اللسان وأسهل من قولك : فارتاعُ . فخجل مخارق ، وكُفيت ما أردته ، بغيري» (الأغاني طبعة دار الكتب ج11 ص 35) .

3 لحن الجارية المغنّية ، مثلاً ، مقبول محبب ويُصرف النظر عنه لئلاّ يؤدّي تنبيهها إلى قطع الانسجام وافقاد الاستماع متعته . ونرى ذلك في الحادثة التالية جرت للمأمون في بلاط أبيه إذ «دخل على الرشيد وعنده مغنّية تغنّيه فلحنت ، فكسر المأمون عينه عند استماعه اللحن . فتغيّر لون الجارية وفطن الرشيد لذلك ، فقال : اعلمتَها بما صنعتْ ؟ قال : لا والله يا مولاي قال : ولا أومأت إليها ؟ قال : قد كان ذلك . قال : كن منّي بمرأى ومسمع فإذا خرج إليك أمري فانته إليه» . ثم أخذ دواة وقرطاساً وكتب إليه :

يا آخِذَ اللَّحْنِ عَلى الـ ... ـقينةِ عنـدَ الطَـرَبِ

تُريـدُ أن تُفهِمَهـا ... حَـدَّ لُغـاتِ العَرَبِ

أقسمُ بـالله ومـا ... سَطَّرَ أهـلُ الكُتُبِ

لَلْكَلْبُ خيـرٌ أَدَبـاً ... من بعضِ أهلِ الأدَبِ

(العقد الفريد ج5 ص 120) .

4 يبرهن ذلك خبر رواه القلقشندي نورده مع تعليقه عليه في مقدّمته . . . «ويُغتفر اللحن في الكلام الشائع بين الناس ، الدائر على ألسنتهم ممّا يتداولونه بينهم ويتحاورون به في مخاطباتهم . وعلى ذلك جرت سنة الناس في الكلام ، مذ فسدت الألسنة وتغيّرت اللغة حتى حكي أنّ الفرّاء ، مع جلالة قدره وعلو مرتبته في النحو ، دخل يوماً على الرشيد فتكلّم بكلام لَحَن فيه . فقال جعفر بن يحيى : يا أمير المؤمنين ، إنّه قد لحن . فقال الرشيد للفراء : أتلحن

رابعاً : أدب الجليس

فضلاً عن أنّ المُجالس للرشيد يتوجّب عليه دائماً أن يوجّه الحديث إلى الخليفة ، ويستأذنه قبل أيّة مبادرة يقوم بها ، للكلام في أيّ موضوع كان ، وعن ضرورة تحلّيه بالعلم والأدب ، واستخدام لغةٍ راقية سليمة من الشوائب واللحن ، فإنّ الذي يتحدّث إلى الرشيد مضطرّ إلى أن يحسن اختيار ألفاظه وموضوعاته ومعانيه ، لئلاّ يمسّ منه وتراً يثير حساسية معيّنة[1] ، وأن يكون حاضر الذهن ، حاضر البديهة . فأمير المؤمنين مرهف الحسّ ، متوفّز الفكر ، متوقّد الذكاء ، حاد النظر والبصر في الأمور ، سريع إلى الأذى ، سرعته إلى الثناء والعطاء[2] . فإذا أخطأ الجليس اختيار فكرته ، أو أخطأ اختيار لفظه أو معناه ، جاءه التقريع سريعاً على لسان أمير المؤمنين ، أو جَبَهه به أحد الحاضرين ، ممّن يريدون اظهار المعرفة بمواقع الصواب والخطأ فيسرعون إلى لوم العاثر ، باسم الخليفة ، أو غيرةً على مقام الخلافة . وقد يبلغ هذا المتدخّل من الحماس ما يجعل الرشيد يأخذ موقف المدافع عن المخطيء ، المُسامح لزلّة لم تُقصد لذاتها . ومن الأخطاء التي لا تغتفر في مجلس الرشيد :

1 ـ الفخر بالذات ، وبالنسب ، أيّاً كانت دوافعه[3] .

2 ـ الاتيان بحركات انفعالية بعيدة عن التحفّظ والوقار ، أو التلفّظ بكلام من نوعها[4] .

= يا يحيى ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّ طباع أهل البدو الإعراب ، وطباع أهل الحضر اللحن . فإذا حفظت أو كتبت ، لم ألحن ، وإذا رجعتُ إلى الطبع لحنت . فاستحسن الرشيد كلامه» (صبح الأعشى ج1 ص 173) ونذكر هنا بلحن الكسائي في الصلاة وتحرّج الرشيد من تنبيهه إلى ذلك واستخدامه السؤال المبطن (تاريخ بغداد ج10 ص 408) وانظر ص 80 هامش 5 من البحث .

1 سأل الرشيد الأصمعي مرّة : «أخبِرني مَنْ أمّ فلان ؟ (لانسان من العرب) . فقال الأصمعي . على الخبير سقطت ، يا أمير المؤمنين . فقال الفضل (بن يحيى) : اسقط الله أنفك وعينيك أهكذا تخاطب الخلفاء ؟» (الجهشياري ـ الوزراء والكتّاب ص 189) . ونشير هنا إلى خبر السبكي والجهشياري عن الملاحاة بين جعفر بن يحيى والفضل بن الربيع ومأخذ جعفر على الفضل إشهادَه أمير المؤمنين على إهانة جعفر له . (طبقات الشافعية الكبرى ج1 ص269 والوزراء والكتّاب ص 216) .

2 على سبيل المثال ، وبالمقابل لما سبق ذكره من عثرات الجلساء ، نسوق الحوار القصير التالي ، أورده ابن عبد ربّه على لسان سعيد بن سلم . وهو يبرز لنا أسلوب التعامل المثالي مع الرشيد ونمط الحوار الناجح معه . فقد «قال له أمير المؤمنين الرشيد : مَن بيتُ قيس في الجاهلية ؟ قال . يا أمير المؤمنين بنو فزارة . قال . فمَن بيتُهم في الإسلام ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، الشريف من شرّفتموه . قال : صدقت : أنت وقومك» (العقد الفريد ج2 ص 129) .

3 من ذلك ما رواه الأصفهاني عن ابن مناذر ، وقد نظم قصيدة يمدح بها الرشيد ، فلمّا بلغ إلى آخرها كان فيها بيت يفتخر فيه . فتكاثر عليه الجلساء باللوم «فكفّهم عنه الرشيد ووهب له عشرين ألف درهم» (الأغاني ج18 ص118) .

4 من ذلك ما ذكره ابن الأنباري في خبر مناظرة اليزيدي والكسائي بحضرة الرشيد ؛ إذ دبّ الحماس في النفوس وارتفعت حرارة المعركة الكلامية . فلمّا حاز اليزيدي قوس السبق أخذته نشوة الانتصار فقام بحركات تدلّ على فرحته

3 ـ التحدّث إليه أو أمامه بلغة فيها الغريب الذي لا يفهمه ، لما يسببه له ذلك من حرج[1] . فالرشيد شُهر بحبّه الشديد للمعرفة وسعيه الدائب لاكتساب الثروة اللغوية[2] . إنّما تأتي هيبة

= وتقلّل من تحفّظه إذ ضرب يقلنسوته الأرض ؛ فجاءه تأنيب الرشيد على الفور يسكب عليه من بارد الكلام القارص ما يفثأ حمّى فورته : «لأدب الكسائي ، مع انقطاعه ، أحبّ إلينا من غَلَبك مع سوء أدبك» (نزهة الألباء ص 83) وتضيف رواية ابن خلكان أنّه قال ، وهو يرمي بقلنسوته الأرض : «أنا أبو محمد» . فنهره يحيى بن خالد : «أتكتَني بحضرة أمير المؤمنين ؟ والله إنّ خطأ الكسائي مع حسن أدبه ، أحبّ إلينا من صوابك مع سوء أدبك» فانكمش اليزيدي واعتذر : «إنّ حلاوة الظفر أذهبت عنّي التحفّظ» (وفيات الأعيان ص200) . ولعلّ هذه الرواية هي الأصحّ . فالذي نهره هو يحيى ، لا الرشيد ، لأنّ اليزيدي بصري والبرامكة يميلون إلى الكوفيين ، فضلاً عن أنّ لليزيدي حرمة عند الخلفاء تظهر في الرواية التالية للأصفهاني : «اجتمع مروان بن أبي حفصة وأبو محمد اليزيدي عند المهدي . فابتدأ مروان ينشد : «طرقتك زائرة فحيّ خيالها» . فقال اليزيدي : لَحَن والله وأنا أبو محمد . فقال مروان : يا ضعيفَ الرأي ، أهذا لي يقال ؟ ثم قال : «بيضاء تخلط بالجمال دلالها» . فقال بعض من حضر : يا أمير المؤمنين ، يتكنّى في مجلسك ؟ فقال . اعذروا شيخنا فإن له حرمة» . (الأغاني ج10 ص84) ولسنا نعرف إذا كان اليزيدي كرر الهفوة نفسها مرّتين ، وقد تكون اللفظة سريعة إلى لسانه فورّطته كما جاء في الروايتين .

1 ويتّضح ذلك في الخبر التالي ذكره الخطيب البغدادي بالسند إلى الأصمعي قال : «دخلتُ على هارون الرشيد ، ومجلسه حافل ؛ فقال لي : يا أصمعي ، ما أغفلك عنّا وأجفاك لحضرتنا ؟ قلت : والله ، يا أمير المؤمنين ، ما ألاقَتْني بلادٌ بعدك حتى أتيتك . قال : فأمرني بالجلوس فجلست . وسكت عنّي . فلمّا تفرّق الناس إلاّ أقلهم نهضتُ للقيام . فأشار إليّ أن أجلس فجلست حتى خلا المجلس فلم يبقَ غيري وغيره ومَن بين يديه مِن الغلمان ، فقال لي : يا أبا سعيد ، ما ألاقتني ؟ قلت . امسكتني ، يا أمير المؤمنين ، وأنشدت :

كفّاكَ : كفٌّ ما تُليقُ درهماً جوداً ، وأُخرى تعطي بالسيف الدما

فقال : أحسنت . هكذا فكن : وَقِّرْنا في الملأ ، وعلّمنا في الخلاء» . (تاريخ بغداد ج14 ص286 والسيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص 286) وذكر ابن الأنباري الخبر نفسه وأضاف أنّه قال ، عندما سأله عن معنى ما ألاقت : «ما استقرّت بي أرض . فقال . هذا حسن ولكن لا ينبغي أن تكلّمني بين يديّ الناس إلاّ بما أفهمه . فإذا خلوتُ فعلّمني ، فإنّه يقبح بالسلطان ألاّ يكون عالِماً لأنّه لا يخلو ، إمّا أن أسكت أو أجيب . فإذا سكتُّ فيعلم الناس أنّي لا أعلم ، إذ لم أجب . وإذا أجبت بغير الجواب فيُعلم من جوابي أنّي لم أفهم ما قلت . قال الأصمعي . فعلّمني أكثر ممّا علمته» (نزهة الألباء في طبقات الأدباء ص 119) ولئن لم يقل الرشيد هذا الكلام حرفياً لأنّ فيه أسلوب المناطقة ، فإنّ مضمونه من أفكار الرشيد على الأرجح .

2 يظهر لنا حبّه لاكتساب المعرفة ، وكذلك حبّه الظهور بمظهرها في دعوته الأصمعي للغداء وسؤاله إيّاه «يا أصمعي ، ماذا تشتهي أن يُتّخذ لك ليُتقدّم فيه وتتغدّى معنا ؟ فقال : اشتهي رقاقاً وجوزلاً . فلم يعرف الرشيد ما قاله الأصمعي ، وكره أن يسأله عنه . فتقدّم إلى الطباخ في أن يتبعه ويسأله من تلقاء نفسه ويوهمه أنّه تقدم إليه فيه فلم يعرفه . فقال له : الرقاق معروف . والجوزل . الفرخ السمين . فمضى الطباخ وعرّف الرشيد ذلك وأصلح للأصمعي ما طلبه وعاد فتغدّى مع الرشيد . فلمّا أكل ، أمر بأن يحمل معه عشرون ألف درهم» . (البيهقي ـ المحاسن والمساوىء ج2 ص 87) . راجع ص 78 هامش 4 من البحث .

الخلافة في الدرجة الأولى ، وقبل المعرفة والتحصيل .

4 ـ مبادرته بكلام يورث الطيرة[1] .

5 ـ الخوض في حديث وذكر قول أو شعر قد يُشْتَمُّ منهما تعريض به أو بمقام الخلافة[2] .

6 ـ الإجابة بأكثر من مقدار السؤال[3] .

---

1 نذكر من ذلك رواية الأصفهاني عن محمد بن موسى في قوله : «أنشد الرشيد قول العبّاس بن الأحنف :

من ذا يُعيرُكَ عينَهُ تَبكِي بها   أرأيتَ عيناً ، للبُكاء ، تُعارُ ؟

فقال : من لا صحبه الله ولا حاطه» . (الأغاني ج5 ص 193 وج18 ص 372) .

وما رواه الأصفهاني أيضاً عن أبي دعامة إذ قال : «دخل سلم على الرشيد فأنشده :

حـيِّ الأحبّــة بالسلامِ

فقال الرشيد : حيّاهم الله بالسلام» . فأنشده :

أَعَــلى وَداعٍ أم مُقـامِ

فقال الرشيد : حيّاهُم الله على أي ذلك كان . فأنشده :

لم يبـقَ منــكَ ومنهــمُ   غيرُ الجلودِ على العِظامِ

فقال الرشيد : بل منك . وأمر باخراجه وتطير منه ومن قوله . فلم يسمع منه باقي الشعر ولا اثابه بشيء» . (الأغاني ج19 ص 240) .

2 نعود إلى الخبر الذي رواه الجاحظ واصفاً أحد مجالس الرشيد على لسان السندي بن شاهك إذ يقول : «والله إنّي لواقف على رأس الرشيد ، والفضل بن الربيع واقف في الجانب الآخر ، والحسن اللؤلؤي يحدثه ويسائله عن عدّة أمور . وكان آخر ما سأله عن بيع أمّهات الأولاد . . . فلولا أني ذكرت . . . أن سلطان ما وراء الستر للحاجب ، وسلطان الدار لصاحب الحرس ، وأنّ سلطاني إنّما هو على من خرج من حدود الدار ، لكنت أخذت بضبعه وأقمته . فلمّا صرنا وراء الستر قلت له ، والفضل يسمع : أمّا والله ، لو كان هذا منك في مسايرة أو موقف ، لعلمت أنّ للخلافة رجالاً يصونونها عن مجلسك» . (البيان والتبيين ج2 ص 370) فالذي أغضب قائد الشرطة هنا أن يُفتح حديث بيع أمّهات الأولاد في مجلس الرشيد ، على مسمع منه ، بينما أمّه الخيزران هي أمّ ولد ؛ فهذا يمسّ الرشيد شخصياً كما يُزري بمقام الخلافة . ومع أنّ الحديث كان بين الفضل والحسن في الجانب الآخر من الستارة ، فإنّ السندي سمعه ، وهو على رأس الرشيد وبقربه . وتلك ، في نظره ، وقاحة لا تُغتفر من كليهما . إلاّ أنّ سلطانه لا يطال الوزير ، فكان أن صبّ جام نقمته على اللؤلؤي قاصداً أن يكون الفضل سامعاً لما يقوله ، تعريضاً به وتقريعاً غير مباشر له . ولا بأس بذكر حادثة أُخرى أوردها الأصفهاني ، جرت لعُلّويهِ الذي غنى الرشيد :

وأرى الغـواني لا يواصِلْنَ أمرَءاً   فَقَدَ الشبابَ ، وقد يصِلْنَ الأمرَدا

فدعاه الرشيد وقال له : «يا عاضّ بظر أمّه ، أتغنّي في مدح المرد وذمّ الشيب ، وستارتي منصوبة ، وقد شبت ، كأنّك إنّما عرّضت بي ؟ . . . .» (الأغاني ج11 ص 340) .

3 فإذا تجاوز ذلك يكون قد ارتكب حماقة يدفع ثمنها غالياً لو كان مزاج الرشيد ضدّه ، كما جرى لعبد الملك بن صالح ، وكان الرشيد متغيّراً عليه ، فأجاب أمير المؤمنين بأكثر ممّا سمح له ، فاعتدّ الرشيد ذلك استخفافاً به وتحدّياً لشخصه فقال له : «يا ابن الفاعلة ، ما حملك على أن سألتك عن مسألة فرددت عليّ في مسألتين ؟ . . . وأمر بحبسه» (العقد الفريد ج2 ص154) .

7 ـ تصويب رأي لا يراه الرشيد صواباً[1] . «وكان يحيى ، إذا رأى من الرشيد شيئاً ينكره ، لم يستقبله بالانكار ، وضرَب له أمثالاً وحكى له عن الملوك والخلفاء ما يوجب مفارقة ما أنكره . ويقول : في النهي اغراء ، وهو من الخلفاء أحرى . فإنّك ، وإن لم تقصد اغراءه ، إذا نهيتَه أغريته»[2] .

8 ـ أن يوجَّه إليه كلام لا يصاحبه مدح له[3] ، فقد «كان يحبّ المديح ويجيز عليه الأموال العظيمة»[4] . ويمكن تلخيص التصرّفات المرغوب فيها ، في مجالس الرشيد ، بالتمعّن في وصيّة الرشيد للأصمعي ، محدّداً له سنَن مجلسه ، حين عزم على اصطفائه ، فقد قال له : «يا عبد الملك» ، أنت احفظ منّا ، ونحن أعلم منك . لا تعلّمنا في الملا ، ولا تسرع إلى تذكيرنا في الخلوة . واتركنا حتى نبتدئك بالسؤال . فإذا بلغتَ بالجواب قدر استحقاقه ، فلا تزد . وإيّاك والبدار إلى تصديقنا وشدّة التعجّب ممّا يكون منّا . وعلّمنا من العلم ما نحتاج إليه على عتبات المنابر وفي أعطاف الخطب ، وفواصل المخاطبات . ودعنا من رواية حوشي الكلام وغرائب الأشعار . وإيّاك وإطالة الحديث ، إلاّ أن نستدعي ذلك منك . ومتى رأيتنا صادفين عن الحقّ فأرجعِنا إليه ما استطعت ، من غير تقرير بالخطأ ولا إضمار بطول الترداد»[5] .

خامساً : الستارة

ترتبط فكرة الستارة عادة بمجالس المنادمة ، فتضرب بين صاحب المجلس وخاصته ، من جهة ، وبين منادميه ، من جهة أُخرى . وكانوا يرون أنّ ذلك أحفظ للهيبة لأنّ الإنسان ، عندما ينتشي أو يطرب ، يخرج ، غالباً ، عن وقاره الذي يلتزمه مع اتباعه أو أصدقائه بحركات وأقوال ، إذا رأوها أو سمعوها منه ليلاً ، أضعفت سمت الوقار والجد اللذين يقابلهم بهما نهاراً[6] . ويبدو أنّ

---

1 يحدّثنا الحصري القيرواني عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي فيقول : «ذُكرتُ عند الرشيد بذم ، كان فيه أن قيل : هو ، يا أمير المؤمنين ، على حداثة سنّه وقصر معرفته ، يخالفك فيقدم العباس بن الأحنف على أبي العتاهية» . (جمع الجواهر ص 234 والأغاني ج8 ص 374) .

2 الجهشياري ـ الوزراء والكتّاب ص 203 .

3 يأتي ذلك على لسان أبي العتاهية إذ كتب إلى الرشيد بيتين يدفع بهما عن نفسه تهمة ، ثم أردفهما بأبيات مدحه بها لأنّه «لا ينبغي أن يمضي شعر إلى أمير المؤمنين ليس فيه مدح له» . (الأغاني ج4 ص 107) .

4 السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص 284 . وكان الرشيد يعرف في نفسه الميل إلى سماع المديح ويحسّ ما وراء الكثير من الشعر الذي قيل فيه من شره إلى العطاء يقلّل من صدق العاطفة الفنيّة فيه . ولكنّه كان يسوّغ تجاوبه : بـ«أنّ الكريم ، إذا خادعته انخدعا» (ياقوت المستعصمي ـ أسرار الحكماء ـ ص 94 والأبشيهي ـ المستطرف في كلّ فنّ مستظرف ج1 ص 191) .

5 ياقوت المستعصمي ـ أسرار الحكماء ص 94 .

6 التاج ص 28 .

هذا هو الهدف الأوّل من ضرب الستارة . ولأجل هذا اتّخذها خلفاء بني أميّة ، أو عدد منهم على الأقلّ ، في بعض مجالس سمرهم وطربهم . أمّا سائر مجالسهم ، فلم يكن بينهم وبين جلسائهم فيها حواجز ، لا مادية ولا نفسية . فعلاقتهم الإنسانية ، الاجتماعية ، بجلسائهم كانت تتّسم «بالديموقراطية» ، على رغم «الأرستوقراطية» التي اشتهروا بها في نزعتهم العرقية . لكن الأمر اختلف عند العباسيين الذين جاءوا ينقضون ملك بني أميّة ويبنون ملكاً آخر حاولوا جعله متميّزاً ونزعوا في اتّجاه «الكسروية» . وهذه تضع المِلك في منزلة مرتفعة عن سائر البشر ، فتغدو رؤيةُ محياه نعمةً كبرى لا يجود بها الدهر على جميع الناس . من هنا صارت الستارة حجاباً ضمن حجاب . وأصبح شأن صاحب الستارة لا يقلّ أهميّة عن شأن الحاجب[1] . ومع ذلك ، لم يلتزم خلفاء بني العبّاس ، الذين سبقوا الرشيد ، بالستارة جميعهم . كما لم يلتزموا كذلك بالاحتجاب عن الناس . فبينا كان أبو جعفر المنصور لا يظهر لندمائه بشرب ولا غناء[2] ، نجد المهدي يحتجب فترة وجيزة ، ثم يسفر لأنّه لم يستطب المنادمة دون مشاهدة[3] . وكذلك اختلط المهدي بالحياة العامّة ، فقد روي عن أبي عبيدة قوله : «كان المهدي يصلّي بنا الصلوات الخمس في المسجد الجامع بالبصرة ، لما قَدِمها»[4] . أمّا الهادي ، الذي «كان شكس الأخلاق صعب المزاج . فكان لا يحتجب عن ندمائه ، ولا عن المغنين»[5] . . هذا كلّه قبل الرشيد ، والستارة تضرب في مجلس المنادمة ، حين تضرب . وفي أيّام الرشيد نجد تطوّراً ، في استخدام الستارة ، سار في اتّجاهين : في الاتّجاه الأوّل بقيت فاصلاً بين الخليفة وندمائه ، وإن لم يلتزم بها في جميع مجالس المنادمة[6] .

---

1 في تعداد الجاحظ للحواجز التي قد تعرض للجليس في البلاط ، وذكره للمسؤول عن كلّ منها ، نرى أنّ ما أمام الستارة ، لجهة المجلس ، يعود لصاحب الستارة ، كما هو معروف ، وسلطان ما وراء الستر للحاجب ، وسلطان الدار لصاحب الحرس . وسلطان قائد الشرطة هو على من خرج من حدود الدار . (البيان والتبيين ج2 ص 370) .

2 وكان صاحب الستارة صلة الوصل بين الخليفة وندمائه . ينقل إليهم أوامره ويعود عليه بردود فعلهم . (انظر التاج ص 89 و86 والأغاني ج5 ص 186) كما يمثل لهم أحواله النفسية كالذي يرويه الأصفهاني عن إبراهيم الموصلي حين تغنى بشعر عبد الله بن جعفر . «فأومأ إليّ صاحب الستارة أن أمسِك . ووضع يده على عينه كأنّه يومي إليّ أنّه يبكي . قال : فأمسكت» . (سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ص 351) . يقول السيوطي : «لم يكن المنصور يظهر لندمائه بشرب ولا غناء . بل يجلس وبينه وبين الندماء ستارة ، وبينهم وبينها عشرون ذراعاً وبينها وبينه كذلك . وأوّل من ظهر للندماء ، من خلفاء بني العبّاس ، المهديّ» (تاريخ الخلفاء ص 169) .

3 يسند السيوطي إلى إسحاق الموصلي قوله : «كان المهدي ، في أوّل أمره ، يحتجب عن الندماء ، تشبّهاً بالمنصور ، نحواً من سنة . ثم ظهر لهم . فأشير عليه أن يحتجب فقال : إنّما اللذّة مع مشاهدتهم» . (تاريخ الخلفاء ص 772) .

4 المصدر السابق .

5 الأغاني ج5 ص 168 .

6 يشير التنوخي إلى ذلك إشارة غير مباشرة ، في حديثه عن المأمون قائلاً : «إنّ المأمون أقام ، بعد قدومه إلى بغداد ، عشرين شهراً لم يسمع حرفاً من الأغاني . ثمّ كان أوّل من تغنّى بحضرته أخوه أبو عيسى بن الرشيد . ثمّ واظب

وفي هذا الاتّجاه راحت الستارة تضرب أحياناً في مجلس عادي[1] ، أو حتى في مجلس حوار ومناقشة ، أو عتاب ومحاسبة[2] . فبات الإسفار دليلاً على الرضى والانبساط[3] ، وغدت الستارة دليلاً على التحوّل والرفض[4] . وفي الاتّجاه الثاني ، الذي لم يعد مقتصراً على الرشيد ، بل تجاوزه إلى كلّ صاحب مجلس من الأشراف ، وحتى ممّن دونهم ، باتت الستارة تضرب ، لا لتخفي صاحب المجلس عن منادميه ، بل ليكون ، هو ومنادموه ، في جانب من الستارة ، ويكون ، في الجانب الآخر ، من لا يجوز أن يظهر على الغرباء . فالجواري والمحظيات ، الحاذقات للغناء والعزف والضرب ، إذا أريد لهنّ أن يزدن متعة صاحب المجلس وندمائه بحضورهنّ[5] ، أو أريد لهنّ اتقان الجديد من فنون العزف والغناء على يد بارع في المهنة من بين الجلساء[6] ، أو طُلب إليهنّ

= على السماع مستتراً ، متشبّهاً بالرشيد في أوّل أمره . . .» (الفرج بعد الشدّة ص 90) . وسنرى أنّ الرشيد ، حين يضرب الستارة في مجلس منادمة ، قد لا يبقيها إلى آخر الجلسة .

1 باتت هذه العادة أمراً طبيعيّاً لدرجة أنّ من لا يتبعها من المسؤولين ، يشار إليه بالبنان . فحين يصف الجهشياري البرامكة ، وينوّه باهتمامهم بأمور المملكة وتقرّبهم إلى الناس ، يقول . «كان يحيى وابناه ، الفضل وجعفر ، يجلسون للناس جلوساً عامّاً ، في كلّ يوم إلى انتصاف النهار ، ينظرون في أمور الناس وحوائجهم ، لا يُحجب أحد ، ولا يُلقى لهم ستر» (الوزراء والكتّاب ص 177) .

2 يتحدّث ابن المعتزّ عن زيارة قام بها سعيد بن وهب ، كاتب البرامكة ، للفضل بن يحيى في السجن حيث حدّثه وسرّى عنه ، فوهبه الفضل دواجاً كان الرشيد قد تعطّف عليه به . فلمّا خرج «ذُهب به إلى الرشيد . قال سعيد بن وهب : فلمّا دخلت عليه ، صاروا بي إلى مجلس كان بيني وبينه سجف . فسلّمت ، فردّ السلام ثم قال : يا سعيد ، بم حدّثت الفضل حتى وهب لك الدواج . . ؟» (طبقات الشعراء ص 260) .

3 يروي الأصفهاني خبراً عن لحن غناه ابن جامع الرشيدَ فأعجبه . «فقال له إبراهيم الموصلي : يا سيدي ، فاسمعه من نُبيطيّك . فغنّاه . فجعل ابن جامع يزحف من أوّل البيت إلى آخره . وطرب هارون فقال : ارفعوا الستارة» . (الأغاني ج5 ص 205) وفي خبر آخر عن اتّصال ابن جامع بالرشيد يقول ، حين عُرفت هويّته الحقيقيّة «فما شعرت إلاّ وأمير المؤمنين وجعفر بن يحيى قد أقبلا من وراء الستر الذي كان يخرج منه الخادم . فقال لي ابن الربيع : هذا أمير المؤمنين ، قد أقبل عليك . .» (جمع الجواهر ص 128 والأغاني ج6 ص 298) . وفي خبر شبيه عن مسكين المدني يقول المسعودي برواية إبراهيم الموصلي : «قال الرشيد : أحسنت والله يا مسكين وأجملت . ورُفعت الستارة بيننا وبينه» (مروج الذهب ــ دار الأندلس ج3 ص361) .

4 بعد النكبة وحبس يحيى والفضل ، قال الرشيد لمسرور : «البس سيفك وأحضر لي يحيى بن خالد ، فأقمه وراء الستر . .» (الوزراء والكتّاب ص 243) .

5 راجع الأغاني ج5 ص 164 خبراً عن ستارة إبراهيم الموصلي . وانظر الهوامش السابقة واللاحقة . وراجع الديارات ص 42 في ستارة إسحاق بن إبراهيم .

2 يذكر الأصفهاني خبراً طويلاً عن إبراهيم الموصلي يرسل مخارقاً بألحان جديدة إلى يحيى والفضل وجعفر على التوالي ليلقي اللحن على جواريهم ويعود إلى معلّمه بعطائهم . وفي كلّ مرّة ترد إشارة إلى ضرب الستارة وجلوس الجارية

اكتساب ثقافة وحفظ شعر من جليس آخر ، ضربت الستارة فكن وراءها[1] . وتغدو الستارة ، هنا ، رمزاً لخلط التحفّظ بالابتذال ، ولبقيّة باقية من الغيرة على الحرم والجواري ، فلا يسمح لعيون الغرباء أن تقع عليهنّ . ولعلّ بروز هذه الظاهرة أيّام الرشيد بالذات ، لأوّل مرّة ، مرتبط بظاهرة تعليم الجواري التي ابتدعها إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق[2] في تلك الفترة ، وأخذها عنهما الآخرون . ولعلّ هناك سبباً آخر هو من معالم اكتمال المواهب في بلاط الرشيد . فكما اجتمع في بلاطه أناس هم عجائب الدنيا في العلم والمعرفة والنادرة اللطيفة والبديهة الحاضرة ، وفي الفنّ كذلك والطرب ، رزقه الله من عائلته موهبتين فنيّتين نادرتين هما إبراهيم أخوه[3] وعليّة أخته . وقد أنس الرشيد بموهبة عُلية وكان يطيب له الاستماع إليها وامضاء بعض الأوقات عندها . فإذا أراد لجليس ، عزيز عليه كجعفر مثلاً ، أن يشاركه المتعة في سماعها ، كان لا بدّ من ضرب الستارة لتكون خلفها[4] .

= خلفها لأخذ اللحن . ونقتطف هذا المقطع من وصف دخوله على جعفر . «. . . عرضت عليه الصوت ، فسرّ به ودعا خادماً فأمره بضرب الستارة . وأحضر الجارية ، وقعد على كرسي ، ثم قال . هات يا مخارق . فاندفعت فألقيت الصوت عليها حتى أخذته . .» (الأغاني ج5 ص 167) .

1 بهذا الاستعمال للستارة ظل الرشيد يضربها حتى شاب . فحين غنّاه علويه في الشيب والمرد ثار ، كما رأينا ، وما كان ليفعل ذلك لو لم يكن في وضع الذكر أمام إناثه ، وهو وضع يجعله شديد الحساسية والتوفز . (انظر الأغاني ج11 ص 340 وراجع ص 112 هامش 2 من البحث) . والذي نودّ الإشارة إليه بهذا الخبر هو أنّ الستارة هنا مضروبة لتحجب الجواري وهذا ما جعل الرشيد يثور . ولو أنّها كانت منصوبة بينه وبين الندماء لتساوى وجودهم أمامها أو خلفها ولما كان للإشارة إليها أهميّة . لقد غدت الستارة في هذا النوع من المجالس تعني «الحريم» لأنّهنّ عادة يكنّ خلفها . ونجد النويري يذكر مجلساً كان فيه الرشيد وخواصه خلف الستارة والمغنّون وبعض الجواري أمامها . (نهاية الأرب ج4 ص 301) .

2 جمع الجواهر ص 321 وانظر تصريح إسحاق الموصلي بذلك في (الأغاني ج5 ص 156) .

3 يقول الأصفهاني بالسند عن إبراهيم بن المهدي . «كان الرشيد يحبّ أن يسمعني . فخلا بي مرّات إلى أن سمعني» (الأغاني ج10 ص 104 ونهاية الأرب ج4 ص 203) ويروى كذلك في مكان آخر : «دخلت يوماً على الرشيد ، وبي طَرْبَةُ خُمار ، وبين يديه ابن جامع وإبراهيم الموصلي . فقال : بحياتي يا إبراهيم غنّ . فأخذت العود . . . فغنّيت : أسرى بخالدة الخيال ولا أرى . . . فسمعت إبراهيم يقول لابن جامع : لو طلب هذا ، بهذا الغناء ، ما نطلب لما أكلنا خبزاً أبداً . فقال ابن جامع : صدقت . . .» (الأغاني ج10 ص 103 ونهاية الأرب ج4 ص 202) .

4 روى أبو الفرج أيضاً ، بسنده إلى جعفر بن يحيى محدّثاً أباه : «يا أبت ، أخذ بيدي أمير المؤمنين ، وأقبل على حجرة يخترقها . . . ثم صرنا إلى رواق . . . في صدره مجلس مغلق فقعد على باب المجلس ونقر الباب بيده نقرات فسمعنا حسّاً . ثم أعاد النقر ثانية ، فسمعت صوت عود . ثم أعاد النقر ثالثة فغنّت جارية ما ظننت ، والله ، أنّ الله جلّ وعزّ خلق مثلها في حسن الغناء وجودة الضرب . . . فرقص الرشيد ورقصت معه . ثم قال . إمضِ بنا . . . فلمّا صرنا إلى الدهليز قال . . . . هذه عُلَيّة بنت المهدي . ووالله لئن لفظت به بين يدي أحد ، وبلغني لأقتلنّك» . (الأغاني ج10 ص 188 ونهاية الأرب ج4 ص 213) .

هكذا تصبح الستارة مظهراً حضاريّاً مصاحباً لأوقات الأنس والاستبشار وتكون أقرب شيء إلى المنبر في حلبات المقاهي والمقاصف والمطاعم . هذا تتربّع عليه الفرقة الموسيقية والمغنّون ليُحيوا سهرة للرواد أو يسلوا الطاعمين ، وتلك تحيا خلفها آلات الطرب والمغنيات يُقمن الليالي الملاح للضيوف والساهرين . ونسمع هذا الوصف المقتضب المعبر للشابشتي : «طرق أحمد بن يوسف الكاتب إسحاق ابن إبراهيم فقدّم إليه كلّ شيء حسن من الأطعمة والآلة . وضربت الستائر ، وأحضرت الفواكه والنبيذ ، ومرّ يوم لم يكن مثله»[1] . فنخلص إلى معنى جديد لضرب الستارة وهو الايذان ببدء الجلسة في المنادمة والسمر . ولنا أخيراً تفصيل نضيفه إلى ما أسلفناه وهو أنّ الرشيد قد يضرب الستارة على جزء من المجلس . فيكون هو وبعض حاشيته في جانب منها ، يدخل إليه من يأذن له ، بينما باقي الجلساء في الجانب الآخر[2] .

سادساً : في الموقف على باب الرشيد

لقد مرّ بنا حديث الموقف وعرفنا أنّه المطهر الذي يمرّ فيه الداخلون إلى فردوس الرشيد . والواقع أنّ هذا المكان ، الذي لم يكن يجوز عنه كبير أو صغير[3] ، لم يكن مجرّد فسحة أمام الباب يقف فيها المرء ليطرق فيسمح له بالدخول ، بل كان مألفاً لأصحاب الأدب وذوي الحاجات ، ينتظرون فيه انتظاراً قد يمتدّ ويطول ساعات وليالي قبل أن تبرق سانحة الحظّ[4] . وهم ، فيما بين ذلك ، يتحرّكون ويتفاعلون ، تؤويهم إلى جانب الموقف دار أو قاعات انتظار[5] . وإنّنا لنتصوّر عالماً كاملاً يعيش هناك ، في موازاة حياة الرشيد : يكون تارة على هامشها ، وطوراً على مدّ

---

1 الديارات ص 45 .

2 راجع خبر الحسن اللؤلؤي وبيع أمّهات الأولاد في البيان والتبيين ج2 ص 370 وانظر ص 112 هامش 2 .

3 مرّ بنا خبر الأصفهاني عن موسى السلولي : «بينا نحن بالرافقة على باب الرشيد وقوف ، وما أفقد أحداً من وجوه العرب من أهل الشام والجزيرة والعراق ، إذ خرج وصيف . . .» (الأغاني ج13 ص 16) .

4 وهذا ما يبيّنه خبر اتّصال الأصمعي بالرشيد . فقد ألقت به الظروف على باب الرشيد وبقي الأيّام والليالي ينتظر حتى ألفه الحرّاس وصاروا يأنسون إليه . يقول الأصمعي : «لزمت باب الرشيد ، وكنت أقيم عليه طول نهاري وأبيت بالليل مع الحرّاس أسامرهم وأتوقّع طالع سعدي ، حتى كدت أموت قرا وهزالاً وأنا أتصبّر وأتذكّر عاقبة الصبر وما وراءه من الفرج ، وآمل صلاح حالي باتّفاق محمود . . .» (التنوخي ـ الفرج بعد الشدّة ص 238) .

5 يعطينا فكرة عن ذلك ، وإن لم يكن بلاط الرشيد هو المسرح ، خبر يرويه الأصفهاني عن لسان محمد البيدق المنشد المشهور ؛ وقد جرت الحادثة لمسلم بن الوليد على باب يزيد بن مزيد . قال البيدق : «دخلت دار يزيد بن مزيد يوماً وفيها الخلق ، وإذا فتى شاب جالس في أفناء الناس ، ولم يكن يزيد عرفه بعد ، وإذا هو مسلم بن الوليد . فقال لي : ما في نفسي أن أقول شعراً أبداً . فقلت : ولِمَ ؟ قال : لأني مدحت هذا الرجل بشعر ما مُدح بمثله قطّ ، ولست أجد من يوصله . . .» (الأغاني ج18 ص 323) ونعيد الإشارة إلى خبر ذكرناه (ص 93) عن مرور الرشيد بقاعة الانتظار ووقوف الناس جميعاً له ما عدا محمد بن الحسن الفقيه ، وعن استدعاء الرشيد له حين استقرّ في مجلسه . (تاريخ بغداد ج2 ص 173) .

وجزر معها . ولا شكّ في أنّه ، عند الموقف وفي قاعات الانتظار تدبّ حياة حقيقيّة يحياها المنتظرون ، فتنشأ بينهم علاقات اجتماعية وروابط مختلفة . ومن الطبيعي أن تتحوّل هذه القاعات إلى ما يشبه مجالس البلاط ، وتختلف عنها في الهدف إذ غالباً ما يكون هدف الدخول إلى البلاط هو تصيّد جائزة أو نيل عطاء ، بينما في هذا المكان لا أحد يعطي ، بل تسيطر المنافسة بين «أولاد المهنة» ، فتكون أحاديث أو إنشاد ، وتكون منافرات أدبية أو اتّهام وتشكيك يقابله دفاع أو قرار بسرقة أدبية أو تقويم لقول مأثور أو لشعر مغمور ، وما إلى ذلك[1] . ولهذه القاعات ، بلا شكّ ، حرمتها ، ولها عاداتها ، وتشملها رعاية صاحب المجلس إذ يقوم بواجب «الضيافة» أو «الاستقبال» نحو «الرواد الضيوف» أو «الصحابة» . وإذا كان غياب ربّ المجلس غياباً جسديّاً ، فإنّ الحضور المعنوي يبرز من خلال وسطائه أو ممثّليه ممّن يشكّلون حلقة الوصل بين مجلسه والموقف ، أو من يقومون على تنظيم النظام وتلبية بعض حاجات «الواقفين» . هؤلاء الممثّلون هم من غلمان القصر : حرّاس وموال وخدم وأتباع[2] . أو هم حجّاب أو نوّاب عنهم ،

---

1 من ذلك خبران عن أبي العتاهية يرويهما الأصفهاني .

ـ الأوّل على لسان الأمير علي بن عيسى بن جعفر يقول . «كنت صبيّاً في دار الرشيد فرأيت شيخاً ينشد والناس حوله .

ليسَ للإنسانِ إلاّ ما رُزِقْ	أستعينُ اللهَ ، بـالله أَثِقْ
عَلِقَ الهَمُّ بِقَلبي كلِّهِ	وإذا مـا عَلِقَ الهَمُّ عَلِقْ
بأبي مَنْ كانَ لي في قلبِهِ	مَرَّةً وُدٌّ قليلٌ فسُرِقْ . . .

(الأبيات)

فقلت لبعض الهاشميين : أما ترى اعجاب الناس بشعر هذا الرجل ؟ فقال : يا بني ، إنّ الأعناق لتقطع دون هذا الطبع . قال : ثمّ كان الشيخ أبا العتاهية . .» (الأغاني ج4 ص 70) .

ـ والخبر الثاني على لسان شبيب بن منصور قال . «كنت في الموقف واقفاً على باب الرشيد ، فإذا رجل بشع الهيئة على بغل قد جاء فوقف . وجعل الناس يسلّمون عليه ويسائلونه ويضاحكونه ، ثم وقف في الموقف ، فأقبل الناس يشكون أحوالهم . فواحد يقول : كنت منقطعاً إلى فلان فلم يصنع بي خيراً ويقول آخر : أمّلت فلاناً فخاب أملي . ويشكو آخر من حاله . فقال :

فتّشتُ ذي الدنيا فليسَ بها	أحـدٌ أراه لآخرٍ حامدْ
حتـى كأنَّ الناسَ كلّهـمُ	قد أُفرِغوا في قالَبٍ واحِدْ

فسألت عنه فقيل . هو أبو العتاهية» . (المصدر السابق ص 76) .

2 يسمّيهم أشجع «أهل الدار» في خبر اتّصاله بالرشيد ، الذي يرويه الأصفهاني فيقول : «فخرجت حتى لقيته منصرفاً من الغزو ، وكنت قد اتّصلت ببعض أهل داره . . .» (الأغاني ج18 ص 144) . ويسمّيهم أبو نواس «خواص أهل بيته» . وذكرنا أنّ الأصمعي اتّصل ببعض الحرّاس (انظر ص 54 هامش 4 وص 117 هامش 4 من البحث) «وصار لهم خدينا» .

بينهم وبين الحضور تنشأ حكماً علاقات ، منها الودّ والاعجاب ، ومنها الحاجة المتبادلة ، ومنها التحيّز الإيجابي والسلبي[1] . فمن جهة ، يتمتّع هؤلاء الممثّلون لربّ القصر بصلاحيّات ، إن لم تكن مطلقة ، فهي مهمّة جداً بالنسبة إلى المنتظرين . فمعهم «تذكرة الدخول» التي لا بدّ منها ، وعنهم تصدر «النشرة الجويّة» عن «المناخ» النفسي والعاطفي لصاحب البلاط ، وهي تحدّد للداخل إليه أي «لبوس» يلبس لحالته ، وأي «طريق» يسلك إلى عقله وقلبه لنيل أعطياته[2] . فلا شكّ في أنّ حياة الرشيد المتقلب كانت تخضع لجهاز رصد يلتقط كلّ كلمة ويسجّل كلّ حركة وكلّ لمحة انشراح أو غمامة حزن ، كلّ نشوة وصال وكلّ صدمة صد . فمن كان من الرواد على علاقة طيّبة بمن في أيديهم مفاتيح الأسرار فقد غنم . ومن المعروف عن أبي نواس ، كغيره من شعراء الأنس والمنادمة ، أنّه كان على روابط ودّ وصداقة ، بل ومنادمة ، مع موالي الرشيد ، أو «جهاز الاستعلامات السرّي»[3] الذي أوصل إليه تقارير في غاية الدقّة عن أوضاعه الخاصّة . فكان ، إذا دخل عليه ، أصاب هدفه في الصميم حتى كان الرشيد ينتشي استحساناً ويستشيط غضباً في آن واحد ، شاكّاً في أن يكون النواسي مراقباً لحياته الخاصة ، متلصصاً أو متسلّلاً[4] . ولا

---

1 حين آن الأوان لدخول الأصمعي ، وأبرقت سانحة الحظ ، أدخله الخادم إلى الرشيد وهو يتمنّى له النجاح . يقول الأصمعي : «فقال لي الخادم : ادخل فلعلّها تكون ليلة يغرس في صباحها الغنى ، إن فزت بالحظوة عند أمير المؤمنين» (أمالي المرتضى ج3 ص 96 والعقد الفريد ج5 ص 310) .

2 نذكّر بخبر ابن رشيق عن دخول الشعراء إلى الرشيد وإجازة الجماز لقسيم : الملك لله وحده (راجع ص 206 من البحث) وتعليقنا هو أنّه لا يمكن للجماز ولا لأيّ إنسان أن يعرف ما في نفس الرشيد كما عرف الجماز ، انطلاقاً من ذلك القسيم ، (لبعد ما بين المنطلق والهدف) إلاّ أن يكون قد وصل إلى سمعه بعض «همس الملائكة» حول حادثة معيّنة جرت في البلاط .

3 يقول ابن منظور : «حصل أبو نواس على مكانته عند الرشيد بأنّه كان ، إذا بكّر إليه ، سأل خواصّ أهل بيته عمّا يكون في نفسه ، أو يكون جرى له في ذلك الوقت ، ثمّ ينشده أشعاراً لطيفة في مطابقة ذلك ، فيطيب بها نفساً» (أبو نواس ص193) .

4 ننقل الخبر التالي عن ابن منظور : «قال أبو نواس : لقد كنت يوماً بداره (أي الرشيد) وعلمت من بعض خدمه أنّه دخل مقصورة جارية على غفلة منها ، فوجدها تغتسل وقت الظهر . فلمّا رأته تجلّلت بشعرها ، فأعجبه ذلك منها . فلمّا دخل عليه أبو نواس أنشده :

نَضَت عنها القميصَ لِصَبِّ ماءٍ	فَوَرَّدَ وجهَها فَرْطُ الحياء
وقابَلَتِ الهواءَ ، وقد تَعَرَّتْ	بمُعْتَدِلٍ أَرَقَّ مِنَ الهواء
ومَدَّتْ راحةً ، كالماء ، منها	إلى ماءٍ مُعَدٍّ في إناء
فلمّا أنْ قَضَتْ وطَراً وهَمَّتْ	على عَجَلٍ ، إلى أخْذِ الرداء
رأتْ شخصَ الرقيبِ على التداني	فأسبَلَتِ الظلامَ على الضياء
وغابَ الصبحُ منها تحتَ ليلٍ	وظَلَّ الماءُ يَقْطُرُ فوقَ ماء

تقف العلاقة بهؤلاء الوسطاء عند هذا الحدّ ، بل قد ينالهم شيء من متع البلاط ، كما ينالهم الكثير من عطايا نائلي الأعطيات[1] ، ويصيبهم كذلك مدح أو اطراء[2] . فأبو نواس قال الشعر في حسين الخادم . ولسنا ندري أكانت علاقته به لجمال وُهبه حسين أم لظروف صداقة جمعت بينهما ، أم لغرام ، عند حسين ، بالمجون وبشعره ، أم لمجرّد حاجة أبي نواس إلى نفوذه ؛ ولكن الأكيد أنّ أبا نواس كال المدح لحسين غير مرّة[3] ، وطلب منه صراحة تحقيق مطلب أو وساطة[4] . وكذلك

= فسُبحانَ الإلــهِ ، وقَـدْ بَراهـــا كأحسنِ مـا يكونُ مِنَ النِساء

وهذه الأبيات من جيد الشعر . وهي ، كما تراها ، أرقّ من الهواء وأصفى من الماء . فقال الرشيد على سبيل الاستغراب : سيفاً ونطعاً يا غلام . فقال أبو نواس : ولِمَ ، يا أمير المؤمنين ؟ قال . أمَعَنا كنت ؟ قال . لا ، وإنّما شيء خطر ببالي فقلته . فضحك الرشيد ثم أمر له بجائزة وصرفه» . (أبو نواس ص 193) .

1 نستطيع أن نستشفّ العلاقة المادية المتبادلة بين الداخل والوسيط من خلال وصف الأصمعي لأحد مصادر ثروته ، بعد أن نال حظوة عند الرشيد ، إذ يقول . «وكنت مع ذلك أقضي حوائج الناس وآخذ عليها للرغائب . . .» (التنوخي ـ الفرج بعد الشدّة ص 222) .

2 على سبيل القياس ، نسوق خبر الأصفهاني عن عون حاجب الفضل بن الربيع مع إسحاق الموصلي . يقول إسحاق : «. . . غضب (أي الفضل) وحوّل وجهه عنّي وأمر عوناً حاجبه ألاّ يدخلني إليه ولا يستأذن لي عليه ولا يوصل لي رقعة إليه . . . قلت في عون حاجبه :

عَوْنُ ، يا عَوْنُ ، ليسَ مثلَك عَوْنٌ أنْتَ لي عُـدَّةٌ إذا كان كَوْنُ
لك عندي ، واللهِ ، إن رضي الفضـ ـلُ غـلامٌ يرضيك أو بِرذونُ

فأتى عون إلى الفضل بالشعرين جميعاً (الشعر الأوّل في عون والشعر الآخر في مدح الفضل) . فلمّا قرأها ضحك وقال : ويلك إنّما عرّض لك ، بقوله : غلام يرضيك ، بالسوأة . فقال . قد وعدني ما سمعت ، فإن شئت أن تحرمنيه فأنت أعلم . فأمره أن يرسل إليّ وأتاني رسوله ، فصرت إليه ورضي عنّي» (الأغاني ج18 ص 226) .

3 يقول أبو نواس في حسين الخادم :

يـا خليليَّ ، ساعــةً ، لا تَريما وعَـلى ذي صَبابَــةٍ فَأَقيما
مـا مَرَرْنـا بِـدارِ زينبَ إلاّ فَضَحَ الدمعُ سِرَّنـا المكتوما
ذكّرَتني الهوى وهُنَّ رَميمٌ كيفَ لو لَم يَكنَّ صِرْنَ رَميما ؟
تتجافى حوادثُ الدهرِ عمَّنْ كانَ في جانبِ الحُسينِ مُقيما
قالَ لِيَ الناسُ ، إذْ هَزَزْتُكَ للحـ ـاجة ، أبشِرْ فقد هزرتَ كريما
فاسألَنْـهُ ، إذا سألتَ عظيماً ، إنّمـا يَسأَلُ العَظيـمُ العَظيما

(الديوان ص 503) .

4 ويقول فيه أيضاً طالباً الوساطة منه لدى الرشيد وضمان توبته عن الشرب وعودته إلى التقى ، (وفي هذه القصيدة يحدّد أبو نواس صفات الوصيف المثالي المشابه لوصفاء القصور الأوروبيّة Les Confidents) :

تَلقـى المراتـبَ للحُسينِ ذليلةً وإذا سِواهُ يَرومهـا تَتصعَّبُ

كان بين يوسف بن الحجاج بن الصيقل وبين موالي الرشيد صداقة ومنادمة كسب منهما الكثير ، وكان الرشيد يراعيه لعلمه بموقعه منهم ، دليلاً على اهتمام الخليفة بهم[1] . ولا غرو في ذلك ، إذ بدأ في عهد الرشيد ، وقبله بقليل ، الاعتماد على الموالي في أمور حياتية ومصيرية[2] ، ذلك الاعتماد الذي تطوّر فيما بعد حتى وصل إلى قمّته مع وصيف وبُغا .

= أعطيتَ أثمانَ المحامدِ أهلَها ... وكَسَبتَ صَفوتَها ونِعمَ المَكسَبُ

إنّ الإمامَ ، إذا اجتباكَ بِسِرِّهِ ، ... لَمُسَدَّدُ فيما أتى ومُصَوَّبُ

لَمْ يَبْلُ مِثلَكَ عِفَّةً فيما بَلا ... وحَزامةً في كلِّ أمرٍ يَحزُبُ

وخلطتَ خوفَكَ للإله بخوفِهِ ... فَعلِمتَ ما تأتي وما تَتَجَنَّبُ

أَبْلِغْ ، هُديتَ ، إلى الإمامِ رسالةً ... عنّي بأنّي ، بعدَها ، أستَعتِبُ

وشهادتي أنّي حَليفُ عِبادَةٍ ... فابلوا ، على الأيّامِ ، ذاكَ وجَرِّبوا

(الديوان ص 503) .

ولعلّ مناسبة هذه الأبيات هي ما ذكره أبو هفان في الخبر التالي : «كان أبو نواس كتب إلى الحسين الخادم وهو محبوس أن يوصل هذه الأبيات إلى الرشيد وهي :

بَلْ بِحَقِّكَ يا أميرَ المؤمنينا ... بِعَفْوِكَ ، بَلْ بِجُودِكَ عُذْتُ لا . . .

(الأبيات)

قال الحسين : فتوخّيت وقتاً كان أمير المؤمنين طيّب النفس فيه فأوصلتها فقرأها وقال : لا ، والله ، أو يتوبَ وتصحَّ توبتُه» (أخبار أبي نواس ص 99) .

1 يحدّثنا الأصفهاني عن عشرة آلاف دينار من ضرب السنة حضرت الرشيد فوزعها وأعطى آخر ثلاثة آلاف منها للنمري الشاعر . «فنظر الرشيد إلى الموالي ينظر بعضهم بعضاً فقال : كأنّي قد عرفت ما أردتم ، إنّما أردتم أن تكون هذه الدنانير ليوسف بن الصيقل . وكان يوسف منقطعاً إلى الموالي ينادمهم ويمدحهم فكانوا يتعصّبون له» . فأحضر الرشيد ثلاثة آلاف دينار وطلب الصيقل فأنشده . إلاّ أنّ شعره لم يكن بمستوى شعر الفحول . فقال للفضل بن الربيع : يا عباسي ، ليس هذا بشعر ، ما هو إلاّ لعب . اعطوه ثلاثة آلاف درهم مكان الثلاثة الآلاف الدينار . فانصرف الموالي إلى صالح الخازن فقالوا له : أعطه ثلاثة آلاف دينار كما أمر له أوّلاً . فقال : استأمره ثم أفعل . فقالوا له : اعطه إيّاها بضماننا ، فإن أمضيت له وإلاّ كانت في أموالنا . فدفعها إليه بضمانهم فأمضيت له . فكان يوسف يقول بعد ذلك : كنا نلعب فنأخذ مثل هذه الأموال ، وأنتم تقتلون أنفسكم فلا تأخذون شيئاً . (الأغاني ج23 ص 94) .

2 انظر الطبري حوادث عام 187هـ حول استخدام مسرور وحسين ورشيد وسعيد الخفتاني وسواهم اثناء نكبة البرامكة (وكذلك الوزراء والكتّاب ص 235) وحوادث عام 189هـ حول استعمال حسين الخادم مبعوثاً إلى طبرستان لحمل الأمان إلى ثلاثة ملوك خارجين وردّهم إلى الطاعة . وحوادث عام 181هـ حول تولّي أبي سليم فرج الفداء بين الروم والمسلمين باسم القاسم ، وهو الذي تولّى عمارة طرسوس للرشيد عام 171هـ (وانظر الكامل لابن الأثير) في حوادث 191هـ حول تولية حمويهِ بريد خراسان ومسرور النفقات وجميع الأمور ، ما خلا الرياسة ، في

وتكتمل الصورة متى عرفنا ، إلى جانب وسيلة الدخول إلى المجلس ، أصول الخروج إلى الموقف وأهمّها أنّ الذي يحظى بالغنيمة في دخوله ، دون سواه ، يصل القابعين في زوايا قاعة الانتظار[1] ، ويصل الوسطاء الذين أخذوا بيده إلى اشراقة الحظّ ؛ أمّا ما يهبط على الواقف في الموقف من اعطيات فإنّه يتركه في أرضه ، إذا كان أبيّ النفس ، فلا يحتمل من الأعطيات إلاّ ما يوصل إلى بيته في بِدَرٍ مختومة[2] . وإذا خرج بعطاء لا يرضيه أو لا يريده فإنّه يتركه في الموقف[3] .

سابعاً : تقويم

لقد أولينا وصف هذا الإطار الكثير من اهتمامنا ، كما أنه استغرق العميق المتشعّب من البحث والاستقصاء . وإذا كنّا قد أطلنا الحديث عنه فذلك لأنّه مظهر حضاري حافل بمعالم مهمّة وأساسية بالنسبة إلى ملامح الصورة التي نحن بصدد رسمها والتي نراه لا يبتعد عن عناصرها ، بل على العكس ، فإنّه أساس لها ومنطلق ، تارةً ، وامتداد ، طوراً ، بينهما تفاعل دائم مستمرّ . وبشكل مطلق ، فإنّ هذه الدراسة مهمّة ، بحدّ ذاتها ، أدبيّاً وتاريخيّاً وحضاريّاً ، إذ تعتمد على نتف وشذرات موزّعة بين صفحات المصادر العديدة ، لم يقيض لها سابقاً أن تجمع بشكل

= حملة هرثمة لغزو الصائفة . وانظر (الوزراء والكتّاب) حول استخدام فرج الرُخّجي والياً على الأهواز (ص 271) وحول أمره العمّال قبول كتب سعيد الخفتاني لمكانته الكبيرة عنده (ص 266) وتقليد مسرور وثابت العديد من الأعمال بعد البرامكة (ص 265) واعتماده على رُشَيد واخشيد ومسرور وسواهم في احصاء أموال آل بسام إثر وشاية بهم (ص 264) . . .

1 يروي ابن المعتزّ دخول عمر بن سلمة ، المعروف بابن أبي السعلاء ، إلى الرشيد وانشاده ، بناء لطلبه ، قصيدته فيه : أغَيثاً تحمل الناقةُ أم تحمل هاروناً . . «قال : فأجزل له في العطاء . فاجتمع عليه الشعراء ففرّق عليهم صلته . وكان الرسم في ذلك الزمان ، إذا وصل الخليفة أحداً من الشعراء ، وحرم الباقين ، أن يصلهم ذلك الشاعر ويعطيهم على منازلهم ومراتبهم» . (طبقات الشعراء ص 151) .

2 يروي الأصفهاني عن عمرو بن بانة قوله : «كنّا في دار أم جعفر جماعة من الشعراء والمغنّين ، فخرجت جارية لها وكمُّها مملوء دارهم فقالت : أيّكم القائل .

مَنْ ذا يُعيرُك عنَه تَبكي بها   أرأيتَ عيناً للبُكاء تُعارُ ؟

فأوميء إلى العباس بن الأحنف . فنثرت الدراهم في حجره . فنفضها فلقطها الفراشون . ثم دخلت ومعها ثلاثة نفر من الفراشين على عنق كلّ منهم بدرة فيها دراهم . فمضوا بها إلى منزل العبّاس بن الأحنف» . (الأغاني ج18 ص372) .

3 نجد ذلك في قصّة الطبري عن الناسك الذي أراد أن يعظ الرشيد فوعظه الرشيد فاعتذر ، فأمر له بعشرين ألف درهم فأبى أن يأخذها لأنّه رجل سائح لا حاجة به إلى المال . فقال الرشيد : «لم نعطك هذا المال لحاجتك إليه ولكن من عادتنا أنّه لا يخاطب الخليفة أحد ليس من أوليائه ولا أعدائه إلاّ وصله ومنحه . فاقبل من صلتنا ما شئت وضعها حيث أحببت . فأخذ من المال ألفي درهم وفرّقها على الحجّاب ومن حضر بالباب» (تاريخ الرسل والملوك ج8 ص 359) .

موضوعي متكامل ، كما أنّ هذا لم يكن أصلاً من اهتمامات المؤلّفين القدامى . ولقد اضطررنا أحياناً إلى تقطيع الخبر وتجزئته ، لنستشهد بكلّ جزء منه على أحد المعالم التي يجري الحديث عنها ، كما اضطررنا ، أحياناً أخرى ، إلى العودة إلى الخبر نفسه ، في غير مكان ، لنستدلّ به على وجهين مختلفين أو متقاربين من أوجه الإطار الحضاري . . ولا شكّ في أنّ الصورة قد اتّضحت نوعاً ما بعد هذا الجهد ، ولا شكّ أيضاً في أنّ بعض معالمها لا تزال باهتة لأنّ الأصول التي وقعت لنا وارتضيناها ، لم تلحظ ما يلقي الضوء عليها . ونذكّر بأنّنا التزمنا هنا ما شرطناه على أنفسنا ، منهجاً للبحث : استقراء المصادر الموثوقة ، بشكل عام ، والشواهد الأدبية ، بشكل خاص . ونلفت إلى أنّه ، نظراً لأهمّيّة هذا الإطار ، وللصلة الوثيقة ، التي أشرنا إليها ، بمعالم صورة الأجواء الأدبية التي لفّت حياة الرشيد ، فإنّنا نجد أنفسنا مضطرّين ، في لاحق البحث ، إلى الرجوع مراراً إليه واستحضار أخباره ومعلوماته في غير موضع .

خاتمة

إنّ الباحث في مجالس الرشيد يجدها حتماً على أنواع : منها المجالس العامّة والمجالس الخاصّة ، ومنها المجالس الرسمية وغير الرسمية ، ومنها المجالس الثابتة والمنقولة المتحرّكة . فمجالس تصريف أمور الدولة هي مجالس عامّة رسمية ، يحضرها الأعيان وكبار الشخصيّات الهاشمية والوزراء والقضاة وممثلو القبائل ومن إليهم . فيها تطرح الأمور المهمّة وتتّخذ المواقف التي يريد الرشيد أن يشارك فيها . وهناك مجالس عامّة رسميّة ذات طابع أدبي . إنّها المجالس الموسمية التي يجلس فيها الرشيد للأدباء والشعراء ، يستقبلهم في الأعياد ، وفي مناسبة الانتصارات ، وأحياناً بدون مناسبة خارجية ، هدفه الاطّلاع على الجديد من انتاج شعراء بلاطه والتعرّف أيضاً بوجوه جديدة من رواد الأدب والشعر . هذه المجالس ، التي كانت سُنّة عند الخلفاء والملوك قبله ، استمرّت من خلاله سنّة لمن جاء بعده . أمّا المجالس الخاصّة ، فمنها أيضاً الإداري وغير الاداري . فقد يلتئم مجلس خاص يحضره وزراؤه يتشاور وإياهم في أمر مصيري كتقرير حرب أو النهوض بولاية عهد ، أو ينعقد مجلس يضمّ قاضي القضاة وحده ، أو معه آخرون ، للاجتهاد في إيجاد فتوى معينة تنقذ الرشيد ، أو أحد أهله ، من ورطة دينية أو خلقية اجتماعية . إلاّ أنّ أهمّ هذه المجالس الخاصّة هي التي ينفرد فيها الرشيد بأحد سماره ومناد‌ميه أو ببعضهم ، فيتمّ تعاطي الشعر والنقد ، أو تساقي الغناء والموسيقى وألوان الطرب ، وقد لا يخلو الجوّ من جارية تتمايل على النغم . في هذه المجالس الخاصة قد يجتمع الرشيد بشاعر أو أديب أو غير شاعر وأديب ممّن يكون في مجلس عام ويستبقيه الخليفة ، أو ممّن يدخل من الموقف ليلبّي حاجة نفسيّة أو أدبيه أو فنيّة لديه . هذه المجالس ، كما رأينا ، ليس لها موعد ولا توقيت مسبق . يترقّبها الشعراء والأدباء من الواقفين بباب الرشيد ؛ ولئن عرف الخلفاء والملوك ، قبل الرشيد ، مجالس رسمية وعامة ، وبعض مجالس الأنس الخاصة ، فقد كان للرشيد دور في جعل هذه

المجالس جزءاً من حياة الخليفة اليومية . فكما كان يأكل ويشرب ويحكم وينام ، كان يحتاج يوميّاً إلى مؤنس يسامره أو مطرب يغنّيه ، وإلى شاعر يحرّك لواعج نفسه ؛ ممّا يجعل من المستحيل إيجاد توقيت لهذا النوع من المجالس . ونودّ أن نضيف ملحوظة مهمة نعتدّها استنتاجاً طبيعيّاً نخلص به بعد دراسة المجالس ، وهو أنّ الفصل بين أنواع هذه المجالس جميعها ، أمر يكاد يكون مستحيلاً مع شخص كالرشيد . فقد ينبت مجلس الأدب في صميم مجلس الطرب ، وقد يتحوّل مجلس الجدّ إلى مجلس لهوٍ وعبث ، وهكذا دواليك . لذلك فنحن حين درسنا المجالس لم نحاول تصنيفها بل تحدّثنا عنها بشكل مطلق وحاولنا ابراز العناصر التي ترتكز عليها والتي سيضيف إليها التالي من البحث الكثير من التفاصيل والإيضاحات .

الباب الثاني
الحياة الأدبية حول الرشيد

تميّزت البلاطات العربية ، منذ وجودها الأوّل في الجاهلية ، بأنّها كانت موطن مجالس أدبية ارتادها شعراء التفّوا حول أصحابها لينالوا عطاءهم فكُتب على أدب البلاط ، منذ وجد ، أن يدور ، في معظمه ، حول مدح صاحب القصر ، أو قول ما يرضيه ، ودعم الاتّجاه الذي يناسب مواقفه . ولئن ضعفت معالم هذا الخطّ مع اختفاء صورة البلاط ، إبّان الدعوة الإسلامية وحكم الخلفاء الراشدين ، فإنّها قد عادت إلى الظهور بوضوح ، والاشتداد تدريجاً ، مع تثبيت معاوية لدعائم ملكه ، واستمرّت تقوى صُعُداً حتى وصلت إلى الرشيد . والحقّ أنّ شخصيّة الرشيد تتميَّز ممَّن سبقها من شخصيّات الخلفاء والملوك ، وتجسّد النموذج المثالي للخليفة المتأدّب ، مع كونها من أشدّ هذه الشخصيّات طغياناً وأكثرها استقطاباً لولاء الأدباء والشعراء ولمدحهم . لهذا لا نجد ، حول الرشيد ، أدباً يبتعد كثيراً عن شخصه ، ولن نستطيع أبداً أن ندرس هذا الأدب إلاّ من خلال هارون محرّك هذا النتاج والطابع له بطابعه . من هنا الحاجة إلى التمهيد لدراسة كلّ نوع من أنواع المجالس الأدبية بالحديث عن ناحية من شخصية الرشيد هيمنت عليه .

الفصل الأوّل
مجالس المناظرات الفقهية واللغوية

«قال القاضي الفاضل في بعض رسائله : ما أعلم أنّ لملك رحلة قطّ في طلب العلم إلاّ للرشيد ، فإنّه رحل بولديه : الأمين والمأمون لسماع الموطّأ على مالك ، رحمه الله . قال : وكان أصول الموطّأ بسماع الرشيد في خزانة المصريين . قال : ثم رحل لسماعه السلطان صلاح الدين بن أيّوب إلى الاسكندرية فسمعه على طاهر بن عوف . ولا أعلم لهما ثالثاً»[1] .

السيوطي

الرشيد ومجالس الفقه واللغة

سبقت لنا إشارات إلى ما بلغ الأدب من منزلة في نفس الرشيد وإلى طلبه المعرفة بشكل مستمرّ جعل مجالسه مدرسة تعلّم ، أكثر منها منتدى يرفّه . ونضيف هنا أنّ اللغة والأدب ، من جهة ، وفقه أهلِ السنة ، من جهة أُخرى ، شكّلت لون المعرفة الذي أتقنه وسعى جهده للاستزادة منه . أمّا الثقافة العلمية ، بمفهومنا لها ، سواء موضوعاتها أو أساليبها ، فلم يحصّلها الرشيد إذ كان يفصله عنها حاجز من أساليب الفقهاء والقضاة في النظر إلى أمور الحياة وتفسيرها ، ومن بلاغة

1 تاريخ الخلفاء ص 294 .

الفرس وخيالهم في التعبير عنها. فإذا كان الكسائي هو مؤدّب الرشيد[1]، و«علمه في النحو واللغة والقراءات»[2]، وإذا كان مربّيه يحيى البرمكي الفارسي الأصل[3]، فلا عجب من أن تكون ثقافته قد سارت في هذا الاتّجاه الذي كان يقوّيه ويشدّه اقتناع الرشيد واقتناع جميع من سبقه بأنّ الخلافة مهمّة دينيّة، وهي وصاية على المسلمين وعلى تعاليم الإسلام، وسهر على تطبيقها[4]، فيكون العلم بها هو الدعامة الأولى في ثقافة الخليفة، وتكون المعرفة باللغة وبالنحو معرفة تبدأ في خدمة الفقه والتفسير؛ ولئن انتهت بأن تصبح متعة مستقلّة، فإن لها دائماً تغطية دينيّة، إذ لا ينتفي عنها، في أيّ وقت، كونها تخدم الاجتهاد. فالرشيد حصل إذن المعرفة الدينية وتفقّه بها، وحفظ القرآن، وروى الأحاديث[5]: «ممّا رواه الرشيد من الحديث... قال في خطبته: حدّثني مبارك بن فضالة عن الحسن عن أنس قال: قال النبي ﷺ: نظّفوا أفواهكم فإنّها طريق القرآن». (تاريخ الخلفاء ص 297) وممّا يرويه البغدادي عن الجاحظ: «حدّثنا أبو يوسف القاضي قال: تغدّيت عند الرشيد فسقطت من يدي لقمة وانتثر ما كان عليها من الطعام فقال: يا يعقوب، خذ لقمتك فإنّ المهدي حدّثني عن أبيه المنصور عن أبيه محمد بن علي عن أبيه علي، عن عبد الله بن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: مَن أكل ما سقط من الخوان، فرُزق أولاداً، كانوا صباحاً» (تاريخ بغداد ج12 ص 214)، والتزم هذا الخطّ طَوال حياته. بل كثيراً ما كان الرشيد يتطرّف في إظهار تديّنه[6]، ويتقصّد إظهار معارفه اللغوية، لكنّه كان بالمقابل يغلو في كبت كلّ جدل في الدين لا يتحرّج عن البحث الموضوعي، بعيدٍ عن رهبة المؤمن الورع، حتى ليظهر لنا في هذه المواقف شخصيّة بسيطة التفكير قريبة إلى انفعالية العامّة وسطحيّتها... ولكي ننصف الرشيد يتعيّن علينا أمران: أوّلهما تفسير هذه المواقف على ضوء العقليّة السائدة في عصره، وهي

---

1 تاريخ بغداد ج11 ص 403.

2 ابن خلكان ـ وفيات الأعيان ج2 ص 4 وقبل الكسائي «كان عند المهدي مؤدّب يؤدّب الرشيد. فدعاه المهدي يوماً، وهو يستاك، فقال له. كيف تأمر من السواك؟» ولمّا لم يحسن الجواب صرفه واستدعى الكسائي من الكوفة. (انظر نزهة الألباء في طبقات الأدباء ص71).

3 «كان المهدي قد ضمّ إليه هارون الرشيد وجعله في حجره» (الأربلي ـ خلاصة الذهب المسبوك ص 161).

4 نجد ذلك في خطبة تناوب فيها الكلام السفّاح وعمّه داود بن علي، بعد أن استتبّ الأمر للعبّاسيين. قال أبو العبّاس: «الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه وكرّمه وشرّفه وعظّمه، واختاره لنا وأيّده بنا وجعلنا أهله وكهفَه وحصنَه والقُوّام به الذابّين عنه والناصرين له..» وقال داود بن علي: «لكم ذمّة الله وذمّة رسوله وذمّة العبّاس أن نحكم فيكم بما أنزل الله ونعمل بكتاب الله ونسير فيكم بسنة رسوله...» (المصدر السابق ص 55).

5 يقول السيوطي

6 يجمع المؤرّخون على أنّه كان يحجّ سنة ويغزو سنة مدّة خلافته إلاّ سنين قليلة، ويكثر من الصلاة ويعظم ذكر النبي ﷺ كما كان يطلب الموعظة ويبكي لسماعها.

عقليّة طفلة إذا قيست بنضج العصر الذي نعيش فيه ، على رغم أنّه كان عصر تقدّم وتطوّر بالنسبة للحقب السابقة . صحيح أنّه نشأ للمنطق دعاة ومريدون أمّروا العقل وبه قاسوا كلّ شيء حتى راحوا يسخرون من كلّ ما لا يوافقه ، ولو كان يمتّ إلى أقدس المقدّسات . لكن الرشيد لم يكن من هذه الفئة ، وذلك لا يعود إلى قصور ذهنيّ عنده ، وهو معروف بذهنه المتوقّد وذكائه الحاد ، ولكن ذلك بسبب منشئه بالذات ؛ وهذا يوصلنا إلى ثاني الأمرين وهو أنّ الرشيد ربي على أيدي نحاة ولغويين ، كما أسلفنا ، لا على أيدي علماء وفلاسفة ، وعلى طريقة نحويي الكوفة بالذات ، وزعيمهم مؤدّبه الكسائي ، وهم معروفون باعتماد الرواية أكثر من القياس[1] ، والحفظ أكثر من الاستنتاج . إنّه لم يطّلع على أساليب الجدل المنطقي ولا البحث العلمي اللذين كانا قد أخذا بالنضج في أيّامه ليبلغا الذروة في عصر ابنه المأمون . لهذا كلّه ظلّ الرشيد مغلقاً على هذه الأساليب ، كارهاً لها ، لجهله بها[2] . وهو ، لأنّه لم يستطع مجاراة المتكلّمين في صولاتهم وجولاتهم ، قد وقف حائراً أمامهم وهم يقلّبون الأقوال ، يقدمون المقدمات فتتبعها النتائج غير المتوقّعة . وكانت ردود الفعل عنده متناقضة : تارة يحنق على هؤلاء المتشدّقين بالكلام ، المشكّكين في المعتقدات فيحظر عليهم نشاطهم ويحبس زعماءهم[3] ، وطوراً يحتاج إلى منطقهم في مسألة يُحرَجُ فيها وفقهاؤه ، فسرعان ما يدهشونه[4]

---

1 يقول أحمد بن فارس ، وهو نحوي على نهج الكوفيين عاش في القرن الرابع الهجري : «ليس لنا اليوم أن نخترع ولا أن نقول غير ما قالوه (أي العرب) ولا أن نقيس قياساً لم يقيسوه ، لأنّ في ذلك فساد اللغة وبطلان حقائقها . ونكتة الباب أنّ اللغة لا تؤخذ قياساً نقيسه نحن . .» (الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ص 33) ويقول في مكان آخر . «والدليل على صحة ما نذهب إليه إجماع العلماء على الاحتجاج بلغة القوم فيما يختلفون فيه أو يتّفقون عليه ، ثم احتجاجهم بأشعارهم . ولو كانت اللغة مواضعة واصطلاحاً لم يكن أولئك ، في الاحتجاج بهم ، بأولى منّا في الاحتجاج لو اصطلحنا على لغة اليوم ، ولا فرق» . (المصدر نفسه ص6) .

2 لكي نكوّن فكرة عمّا يتعلّمه ابن الخليفة على يد المؤدّب ، نستمع إلى الكسائي يحاول اقناع الأحمر النحوي بأن يخلفه في تعليم أولاد الرشيد مُهوّناً عليه الأمر : «إنّما يحتاجون ، كلّ يوم ، إلى : مسألتين في النحو وبيتين من معاني الشعر وأحرف من اللغة ؛ وأنا ألقّنك كلّ يوم قبل أن تأتيهم فتحفظه وتعلّمهم . .» (بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ص 334) .

3 ضحى الإسلام ج1 ص 358 .

4 «حكى المرتضى أنّ ملك السند طلب إلى الرشيد أن يبعث إليه من يناظره في الدين ، فبعث الرشيد قاضياً لا متكلّماً . فانتدب ملك السند سُمّنياً ليجادل القاضي . فسأل السُمني القاضي : أخبرني عن معبودك ، هل هو القادر ؟ قال : نعم ، قال : أفهو قادر على أن يخلق مثله ؟ فقال القاضي : هذه المسألة من علم الكلام ، وهو بدعة ، وأصحابنا ينكرونه . فقال السُمني للملك : قد كنت أعلمتك دينهم . وكتب ملك السند بذلك إلى الرشيد فقامت قيامته وضاق صدره وقال : أليس لهذا الدين من يناضل عنه ؟ قالوا : بلى يا أمير المؤمنين ، هم الذين نهيتَهم عن الجدل في الدين ، وجماعة منهم في الحبس . فقال : احضروهم . فلمّا أُحضروا قال : ما تقولون في هذه المسألة ؟

وينتزعون رضاه وعفوه[1] ، إنّما إلى حين ، لأنّه كان دائماً يعود إلى أسلوب الكبت لهم والملاحقة . هكذا كان الرشيد ، على الإجمال ، رافضاً للجدل في أمور الدين[2] ، للمسّ بقدسيّة تعاليمه وبكلّ ما يتّصل به من رواة حديث ، وصحابة[3] ، وقصص[4] ، وحتى خرافات[5] ؛ وقوّى هذا الموقف مَن

= فقال صبي من بينهم : هذا السؤال محال لأنّ المخلوق لا يكون إلاّ محدثاً والمحدث لا يكون مثل القديم ، فقد استحال أن يقال : يقدر على أن يخلق مثله أو لا يقدر ، كما استحال أن يقال : يقدر أن يكون عاجزاً أو جاهلاً . فقال الرشيد : وجّهوا إليه بهذا الصبي . فقالوا : إنّه لا يؤمن أن يسألوه على غير هذا . فقال : اختاروا غيره . .» (ضحى الإسلام ج1 ص358 عن المنية والأمل) .

والمتتبّع لهذا الخبر يستشعر بوضوح سذاجة الرشيد في دهشته أمام الحجّة المنطقيّة التي أبداها الصبي وكأنّه اعتقد أنّ هذا الصبي أعجوبة دهره ، ولم يدرِ أنّ هذه الأمور تُطرح وتتداول وتحفظ في مجتمعات المتكلّمين وحلقاتهم . (أو هكذا أراد له راوي الخبر أن يظهر) .

1 من الأمثلة على تردّد موقف الرشيد من المتكلّمين بين الرضى والحبس والعفو ، علاقته بثمامة بن الأشرس . فقد كان يقرّبه ثم غضب عليه وحبسه ثم رضي عنه وقرّبه . ويظهر ذلك كلّه في الخبر التالي ، وهو يبرز في الآن ذاته جهل العامّة وضياعهم بين البدع والحقائق ، لسذاجتهم . يقول الخطيب البغدادي : «إنّ الرشيد ، لّما غضب على ثمامة ، دفعه إلى سلاّم الأبرش وأمره أن يضيّق عليه ويدخله بيتاً ويطيّن عليه ويترك فيه ثقباً . ففعل دون ذلك . وكان يدسّ إليه الطعام . فجلس سلاّم عشيّة يقرأ في المصحف ، فقرأ (ويلٌ يومئذٍ للمكذَّبين) ، فقال ثمامة : إنّما هو للمكذِّبين ، وجعل يشرحه له ويقول : المكذَّبون هم الرسل والمكذِّبون هم الكفّار . فقال : قد قيل لي إنّك زنديق ولم أقبل ، ثم ضيّق عليه أشدّ الضيق . قال : ثم رضي الرشيد عن ثمامة وجالسه . .» (تاريخ بغداد ج7 ص 148) .

2 يقول عنه الخطيب البغدادي : «وكان يكره المراء في الدين والجدال ، ويقول : إنّه لخليق ألاّ ينتج خيراً» (تاريخ بغداد ج14 ص 7 وانظر تاريخ الطبري ج8 ص 347) . ويقول السيوطي عنه : «كان يحبّ العلم وأهله ويعظم حرمات الإسلام ويبغض المراء في الدين والكلام في معارضة النص . .» (تاريخ الخلفاء ص 284) .

3 ذكر الطبري عن سلاّم الخادم الذي ولي للرشيد بعض ضياعه أنّه «تكلّم وذكر حسنَ سيرته وقال : أنسيتُهم واللهِ ، يا أمير المؤمنين ، سيرةَ العُمرين . قال : فغضب واستشاط وأخذ سفرجلة فرماه بها وقال : يا ابن اللخناء ، العمَرين ؟ العمَرين ؟ العمَرين ؟ هبنا احتملناها لعمر بن عبد العزيز ، نحتملها لعمر بن الخطّاب ؟» (تاريخ الرسل والملوك ج8 ص 354) .

4 يروي السيوطي عن أبي معاوية الضرير قوله : «حدثته يوماً حديث (اجتمع آدم وموسى) وعنده رجل من وجوه قريش ؛ فقال القرشي : فأين لقيه ؟ فغضب الرشيد وقال : النطع والسيف . زنديق يطعن في حديث النبي عليه الصلاة والسلام . قال أبو معاوية : فما زلت أسكته وأقول : يا أمير المؤمنين ، كانت منه نادرة ، حتى سكن» . (تاريخ الخلفاء ص 285 وانظر البصائر والذخائر ج1 ص 97 ، وتاريخ بغداد ج14 ص 8) .

5 قال المسعودي : «وجدت في بعض أخبار هارون الرشيد أنّ الرشيد خرج ذات يوم إلى الصيد ببلاد الموصل ، وعلى يده باز أبيض ، فأرسله . فلم يزل يحلّق حتى غاب في الهواء ، ثم طلع ، بعد الاياس منه ، وقد علق شيئاً فهوى به يشبه الحيّة أو السمكة وله ريش كأجنحة السمك . فأمر الرشيد فوضع في طست . فلمّا عاد من قنصه أحضر العلماء فسألهم : هل تعلمون للهواء ساكناً ؟ فقال مقاتل : يا أمير المؤمنين ، روينا عن جدّك عبد الله بن عبّاس أنّ

أحاط بالبلاط من فقهاء غير جدلين[1] ، واتّباع الرشيد لخطّة المهدي في اتّهام المتكلّمين بالزندقة وتتبّع الزنادقة لافنائهم[2] . وكان ، إذا قُبض على زنديق وأُحضر إليه ، نادراً ما يطلب له من يناظره أو يجادله لردّه عن خطئه ، وإنّما كان يستتيبه ، فإذا أقرّ وتاب أمهله ، وإلاّ قتله على الفور[3] . ولا بدّ لنا هنا ، لكي نستكمل الصورة عن الرشيد في هـذا النوع من المجالس ، أن نضيف ، إلى كونه لا يتحلّى دائماً بالروح الجَدِلَة أو بطول البال على متابعة المناقشات[4] ، صفة أُخرى أشرنا إليها

= الهواء معمور بأمم مختلفة الخلق ، فيها سكّان أقربها منها دواب تبيض في الهواء تفرخ فيه ، يرفعها الهواء الغليظ ويربيها حتى تنشأ في هيئة الحيّات أو السمك ، لها أجنحة ليست بذات ريش ، تأخذها بزاة بيض تكون بأرمينية . فأخرج الطست إليهم ، فأراهم الدابة ، وأجاز مقاتلاً يومئذٍ» . (مروج الذهب (دار الأندلس) ج1 ص 210 وانظر البيتي العلوي في مواسم الأدب ج2 ص218) .

ونحن لسنا بصدد تحديد مصدر هذه الدابة هل هو الهواء فعلاً أو جهة أُخرى وصل إليها الباز وعاد ، ولا بصدد تحديد مدى صدق مقاتل في رواية الحديث أو افتعاله له ، إثر معلومات قد تكون رشحت إليه من رفاق الصيد ، ولكن الخبر يرويه المسعودي ولا يستنكره ، مع علمه وثقافته ومع أنّه عاش في زمن يلي ، بحوالي قرنين ، عصر الرشيد ، فلا عجب في أن يصدّقه هذا الخليفة ويصدّق ما يشبهه من أساطير .

1 هذه الطبقة يمثّلها أبو يوسف ومحمد بن الحسن وعبد الله بن المبارك وأبو إسحاق الفزاري وغيرهم . ويروي الخطيب البغدادي الخبر المعبر التالي : «عن عثمان بن حكيم يقول : إنّي لأرجو لأبي يوسف في هذه المسألة : رُفع إلى هارون زنديق ، فدعا أبا يوسف يكلّمه . فقال له هارون : كلّمه وناظره . فقال : يا أمير المؤمنين ، ادعُ بالسيفِ والنطع واعرض عليه الإسلام ، فإن أسلم وإلاّ فاضرب عنقه . هذا لا يناظَر وقد ألحدَ في الإسلام» . (ويظهر أنّ الرشيد اعتمد هذه النصيحة مبدأً للتعامل مع الزنادقة) . ويروي البغدادي أيضاً ، بالسند عن بشّار بن الخفاف : «سمعت أبا يوسف يقول : من قال : (القرآن مخلوق) فحرامٌ كلامه وفرضٌ مباينته» . (لا محاورته واقناعه) تاريخ بغداد ج14 ص 253 .

2 كان تتبّعه للزنادقة بهدف تطهير المجتمع منهم . يقول السيوطي : «أخذ هارون الرشيد زنديقاً فأمر بضرب عنقه فقال له الزنديق : لِمَ تضرب عنقي ؟ قال : أُريحُ العبادَ منك . قال : فأين أنت من ألف حديث وضعتُها على رسول الله ، كلّها ما فيها حرف نَطَق به ؟ قال : فأين أنت ، يا عدوّ الله ، من أبي إسحاق الفزاري وعبد الله ابن المبارك ينخلانها فيخرجانها حرفاً حرفاً ؟» (تاريخ الخلفاء ص 293) .

3 نورد ، فضلاً عن ذلك ، قول السيوطي : «بلغه عن بشر المريسي القول بخلق القرآن فقال : لئن ظفرتُ به لأ ضربنّ عنقه» . (المصدر السابق ص 284) وفي (تاريخ بغداد ج7 ص 64) : «لأقتلنه قتلة ما قتلتُها أحداً قطّ» . ويروي المرتضى عن أحمد بن إبراهيم الكاتب قوله : «رأيت بنتاً لمطيع بن إيّاس قد أُتي بها في أوّل أيّام الرشيد فأقرّت بالزندقة وقراءتها ، وتابت وقالت : هذا شيء علمنيه أبي . فقبل الرشيد توبتها وردّها إلى أهلها» . (الأمالي ج1 ص 98) . وحين قبض الرشيد على الجهجاه قال له : «لأضربنّك بالسياط حتى تقرّ بالزندقة» . ملحق البخلاء ص 157 .

4 حين ناظر الشافعي محمد بن الحسن بالرقّة وقطعه ، بلغ ذلك هارون الرشيد فلم يسأل عن المناظرة ولا عن موضوعها أو ما دار فيها من نقاش ، ولم يعنه منها إلاّ أنّ الغلبة كانت لرجل من قريش ، وجاءته لأنّه من قريش التي وضع الله فيها العلم . (تاريخ بغداد ج2 ص 61) .

سابقاً ونذكّر بها هنا وهي أنّه كان لا يطيق من يخالفه الرأي ، بل يهدر دمه فلا يكاد ينجو إلاّ بشقّ النفس[1] . ومع ذلك فلا يسعنا إلاّ أن نؤكّد طيب سريرة الرشيد وسهولة تغييره لمواقفه . فهو لا يقارع عنها بالحجّة لأنه لم يكتسبها بالمنطق العقلاني المتعمّق ، إنّما تلقاها تلقّياً أو اتّخذها بناء لاندفاع عاطفي ولقرار متسرّع . فإذا ما أُتي باللطف والأناة والنخوة الدينية والحجّة اللطيفة غير المعقّدة ، أقلع عن كثير من مواقفه . وهذا كلّه يفسّر لنا التطرّف في القرارات لديه ، والتتابع في الحزم والحلم ، بين الحكم المبرم والعفو المفاجىء ، التمسّك بالرأي ثم التمسّك بنقيضه . . .[2]
بهذه الروح باشر الرشيد مجالس المناظرة في بلاطه ، وهي ، إن تجلّت بشكل شديد الوضوح في المناظرات الفقهية والفقهيّة اللغويّة لعلاقتها الوطيدة بالدِّين والعقيدة ومهمّة الخليفة كأمير للمؤمنين ، فإنّنا نراها أيضاً في المناظرات اللغوية البحتة ، كما نراها في المناظرات الأدبية .

أوّلاً : المناظرات الفقهية

وأشهر أقطابها : الإمام مالك ، من خارج القصر ، وأبو يوسف القاضي والإمام الشافعي ومحمد بن الحسن الشيباني ، من داخله .

---

1 نعرض ، لبيان ذلك ، حادثة جرت للقاضي عمر بن حبيب يوردها البغدادي : فقد قام جدل بحضور الرشيد واستُشهد بحديث عن أبي هريرة بينما قال البعض : «لا يحل هذا الحديث عن رسول الله ﷺ فإنّ أبا هريرة متّهم فيما يرويه . وصرّحوا بتكذيبه» . يقول عمر بن حبيب : «ورأيت الرشيد قد نحا نحوهم ونصر قولهم . فقلت أنا : الحديث صحيح عن رسول الله ﷺ وأبو هريرة صحيح النقل صدوق فيما يرويه عن نبي الله وغيره . فنظر إليّ الرشيد نظرَ مغضَب . فقمت من المجلس . فانصرفت إلى منزلي . فلم ألبث حتى قيل : صاحب البريد بالباب . فدخل عليّ فقال لي : أجب أمير المؤمنين إجابة مقتول ، وتحنّط وتكفّن . فقلت : اللهمّ إنّك تعلم أنّي دفعت عن صاحب نبيّك ﷺ أن يُطعن عليه ، فسلّمني منه . فأُدخلت على الرشيد ، وهو جالس على كرسي من ذهب ، حاسر عن ذراعيه ، بيده السيف وبين يديه النطع . فلمّا بصر بي قال لي : يا عمر بن حبيب ، ما تلقّاني أحد من الردّ والدفع لقولي بمثل ما تلقّيتَني به . فقلت : يا أمير المؤمنين ، إنّ الذي قلتَه وجادلت عليه فيه ازراء على رسول الله ﷺ وعلى ما جاء به . إذا كان أصحابه كذابين فالشريعة باطلة ، والفرائض والأحكام في الصيام والصلاة والطلاق والنكاح والحدود ، كلّه مردود غير مقبول . فرجع إلى نفسه وقال : احييتَني يا عمر بن حبيب أحياك الله ، احييتَني يا عمر بن حبيب أحياك الله . وأمر لي بعشرة آلاف درهم» (تاريخ بغداد ج11 ص 197) .

2 انظر الهامش السابق . وفيما يلي حديث الأربلي عن أبي معاوية قال : «دخلت على هارون الرشيد فقال لي : يا أبا معاوية ، هممتُ أنّه من يثبت خلافة علي بن أبي طالب فعلت به وفعلت . فسكتّ . فقال لي : تكلّم . فقلت : إن أذنتَ لي تكلّمتُ . فقال : تكلّم . فقلت : يا أمير المؤمنين ، قالت تيم : منا خليفة رسول الله ، وقالت عدي : منّا خليفة خليفة رسول الله . وقالت بنو أميّة : منّا خليفة الخلفاء . فأين حظّكم يا بني هاشم من الخلافة ؟ والله ما حظّكم منها إلاّ علي بن أبي طالب . فقال : والله ، يا أبا معاوية ، لا يبلغني أنّ أحداً لم يثبت خلافة علي بن أبي طالب إلاّ فعلت به كذا وكذا» . (خلاصة الذهب المسبوك ص 110) .

1 ـ تلميذ الإمام مالك وأبو يوسف القاضي

الإمام مالك كان أبيّ النفس ، ضنيناً بالعلم أن يكون في خدمة السياسة وأطماع الحكّام ، فنزهه عن ذوي النفوذ جميعاً وتواضع به إلى من يحتاجه ويطلبه من الناس العاديين . وحين قصد الرشيدُ المدينة ، وسمع بكتاب مالك في الفقه ، طلب إليه أن يقرأه عليه وعلى صبيان البلاط ، فرفض مالك أن يحمل علمه ويأتي إلى القصر ليريقه بين أيدي أبناء الدلال ، وأصرّ على أن من يبغي العلم يأتيه في مصدره ، ويجلس له مع الجالسين[1] . وموقف الإمام مالك هذا موقف مبدئي يقاربه موقفه من «المتطاولين» على الفقه الذين يتّخذون الجدل في أمور الدين وسيلة للظهور أو للكسب ، لا لإظهار الحقيقة ورفع شأن الدين . وأبو يوسف في نظر مالك من هؤلاء المتطاولين الذين يأكلون بعلمهم ، كما يأكل الشعراء بشعرهم . لذلك رفض مناظرة أبي يوسف حين طلب منه ذلك ، وظلّ رافضاً حين تحمّل عليه القاضي بالخليفة ؛ لكنّه ، درءاً لغضب الرشيد ، أحاله على المغيرة أحد تلاميذه الناشئين الذي اختاره من قريش ليحوز رضى الرشيد (ونحن نعرف رأيه في تفوّق قريش) . وبالفعل ، فقد تجاوز الرشيد عن ترفّع مالك ، وأعجبه أن يكون فتى من قريش ندّاً لقاضي القضاة . ولم يعادل هذا الاعجاب إلاّ سروره بغلبة الفتى ، إذ بادر إلى اعطائه ألف دينار[2] . وهذه المناظرة المشهورة تدور حول شهادة الشاهد مع اليمين : هل تُقبل أم تُرفض ، ويشترط أن يكون عدد الشهود اثنين أو أربعة ؟ وقد اعتمد أبو يوسف نص القرآن لتأكيد تعدّد الشهود ، واعتمد تلميذ مالك على اجتهادٍ أُثر عن النبي ﷺ وعن علي ، رواه محدّث تسرب النسيان إلى ذاكرته . وكانت الحجّة الأقوى بجانب أبي يوسف كما هو ظاهر ، لولا أنّ المغيرة لجأ إلى معادلة جدلية ، فقطع أبا يوسف الذي لم يتقن أساليب المتكلّمين فخسر المعركة .

---

1 ياقوت المستعصمي ـ اسرار الحكماء ص 105 و109 والأربلي ـ خلاصة الذهب المسبوك ص 123 وسرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ص 262 .

2 يروي ابن قتيبة هذه المناظرة ونحن ننقلها دون المقدّمات : «قال أبو يوسف القاضي : يا أمير المؤمنين ، إنّ هؤلاء ، يعني مالكاً وأصحابه ، يقضون بغير ما في كتاب الله . يقول الله عزّ وجلّ : ﴿وأشْهِدوا ذوي عدلٍ منكم﴾ وقال : ﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم﴾ . وهؤلاء يقضون باليمين مع الشاهد ، ولا نسمع أنّ الله ذَكر إلاّ شاهدين وأربعة شهداء ، ولم يصح عن النبي ﷺ أنّه قضى به (اليمين) وإنّما يدور هذا على الحديث الذي روى فيه سهيل بن أبي صالح عن أبيه ، ثم نسيه سهيل ، فكان يحدث ويقول : حدّثني ربيعة عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قضى باليمين مع الشاهد . فلمّا نسيه بطُل الخبر ، وأثبت أصله ، فلا معنى لذكره . قال المغيرة : قضى به رسول الله ﷺ وقضى به علي بالكوفة . فقال أبو يوسف : أنا أكلمك بالقرآن وأنت تكلّمني بأفعال الناس ؟ أتراك تعرفني بهذا وبما قضى به علي وغيره ؟ قال المغيرة . فأنت كافر بنبيّ قضى باليمين مع الشاهد أو مؤمن به ؟ فسكت أبو يوسف ، فحجّه المغيرة . . .» (الإمامة والسياسة ج2 ص 153) .

2 ـ الشافعي ومحمد بن الحسن

والشافعي كانت له مكانة عند الرشيد لأنّه من قريش . فقد عفا عنه حين حُمل إليه مع الخارجين عليه[1] ، وبالغ في احترامه وأعلى من شأنه[2] . أمّا بالنسبة إلى محمد بن الحسن ، فالشافعي يعترف له بأنّه مصدر علمه[3] . لكن ذلك لم يمنع أن تقوم بينهما مناظرات كادت إحداها تودي بحياة محمد بن الحسن على يد الشافعي . أمّا سبب هذا الصراع ، الذي قارب أن يصطبغ بالدم ، فهو العصبية : تعصّب الشافعي لأهل الحجاز ، وهو القرشي ، حين راح محمد بن الحسن يتّهم أهل المدينة ، في مجلس الرشيد ، وعلى مسمع منه ، بمخالفة كتاب الله نصّاً ، وأحكام رسول الله ، واجماع المسلمين[4] . وردّ الشافعي ردّاً قاسياً ، محاولاً استعداء السلطان واستثارة غضبته للدين . قال : «لا أراك قصدتَ لأهل بيت النبوّة ومن نزل القرآن فيهم وأُحكمت الأحكام فيهم ، وقبر رسول الله بين أظهرهم ، عمدتَ تهجوهم» ؟ وكان هذا الردّ كافياً ، لو سمعه الرشيد ، لاهدار دم ابن الحسن . لكن يظهر أنّ الرشيد لم يكن يتابع المناظرة . ونستمع إلى الشافعي يروي تتمتها : «وقلت له : ما تقول في القَسامة ؟ قال : استفهام . قلت : سبحان الله ، تزعم أنّ رسول ربّ العالمين حكم

---

1 يقول أحمد أمين إنّه اتُّهم بالتشيّع وامتُحن ؛ وهناك خلاف على هذه التهمة : أَطالته وهو في الحجاز أم في اليمن ؟ (ضحى الإسلام ج2 ص 220) ويرى الخضري أنّه اتُّهم بها وهو في اليمن (تاريخ التشريع الإسلامي ص 252) ويذكر السبكي محنة الشافعي عند الرشيد دون تفصيل التهمة أو تحديد مكان اتّهامه بها ، ويجعل خروجه من المحنة بسبب دعاء معيّن تمتم به وهو داخل عليه . (طبقات الشافعية الكبرى ج1 ص 270) ويذكر القزويني الخبر نفسه مقدماً له بأن عامل الرشيد على اليمن كتب عن الشافعي . فأمره الرشيد باعتقاله وإرساله إليه (آثار البلاد وأخبار العباد ص 231) أمّا ابن النديم فيذكر أنّ الشافعي ظهر على الرشيد مع رجل من أبي لهب في المغرب وأنّه اعتذر للرشيد ، عن خروجه ، باملاقه «واستوهبه الفضلُ بن الربيع فوهبه . .» (الفهرست ص 209) . والواضح أنّه حُمل إلى الرشيد مرّتين : في المرّة الأولى قبض عليه مع سليل أبي لهب في المغر ب ، ولم يكن قد حصّل ما حصّل من العلم . ونظراً لأنّه من قريش وأنّ رابطته باللهبي سطحيّة ، ولتدخل الفضل بن الربيع ، فقد أطلقه الرشيد . ويثبت ذلك أنّه ، بعد العفو عنه ، كان يمشي في زيّ المغنين ، قبل أن يلازم محمد بن الحسن الشيباني (المصدر السابق ص 209) . ثم لزمه وأخذ العلم عنه وبرّز فيه . . وفي المرّة الثانية أخذ بعد نبوغه في العلم والفقه وانتقاله إلى اليمن أو الحجاز وملازمته دعاة العلويين هناك . وفي هذه المرّة كان دعاؤه وخلاصه من المحنة .

2 يذكر السبكي أنّه أجلسه موضعه وقعد بين يديه يعتذر إليه ، وخاصةُ أمير المؤمنين ينظرون إلى ما (كان) أعدّ له من أنواع العذاب ، فإذا هو جالس بين يديه . فتحدّثوا طويلاً ثم اذن له بالانصراف . فقال . يا فضل ، . . . احمل بين يديه بدرة» . (طبقات الشافعية الكبرى ج1 ص 270) .

3 يروي ابن النديم قوله : «كتبتُ عن محمد وَقْرَ جمل كتباً» (الفهرست) ص 209 .

4 أبو يوسف القاضي ومحمد بن الحسن الفقيه هما تلميذا أبي حنيفة وشارحا مذهبه ، وهو يمثل مذهب أهل العراق ، في حين أنّ مذهب أهل الحجاز يدافع عنه الشافعي القرشي ، من جهة ، والإمام مالك من جهة أُخرى . فالرشيد ينعت الشافعي بالحجازي (طبقات الشافعية الكبرى ج1 ص 270) .

في أمّته بالاستفهام ؟ يستفهم ولا يحكم به ؟ فسمعها هارون فقال . ما هذا ؟ عليّ بالسيف والنطع . فلمّا جيء بهما قلت : يا أمير المؤمنين ، والله ما هذا عقده في القسامة ، ولكنِ المناظران ، إذا تناظرا ، أحبّ أحدهما أن يدخل على صاحبه حجّة يكبته بها . قال : فسُرّي عن هارون . .»[1] هكذا كان الرشيد يتدخّل في هذا النوع من المناظرات ، ويتدخّل معه السيف والنطع . فلا حريّة رأي ولا حريّة قول يسمح بهما في هذه الموضوعات المحظورة .

3 ـ الشافعي وأبو يوسف القاضي

وتستمرّ المعركة بين العراق والحجاز ، وتستخدم فيها كلّ الامكانات . ويظهر أنّ الشافعي كان يتميّز بذاكرة نادرة ، إذ تكفيه قراءة سريعة لرقعة طويلة ليحفظها . وهو يستخدم ذاكرته الفذّة في مناظرته لأبي يوسف التي يرويها القزويني والتي لا نجد بدّاً من استعراضها لأنّ فيها ملامح مهمّة عديدة . وأوّلها : تمثيلها التحديّات التي أشرنا إليها والتي كانت تقوم بين أصحاب المذاهب ، ومحاولات الفرقاء جرّ خصومهم إلى مناظرات ، فاحراج أمام الرشيد . لقد كان القاضي أبو يوسف ومحمد بن حسن رتّبا عشرين مسألة وبعثاها على يد حدث من أصحابهما . فقال الشافعي له : من حملك على هذا ؟ فقال : من أراد حكمها . فقال : متعنّت أم متعلّم ؟ فسكت الغلام . فقال الشافعي . هذا من تعنّت أبي يوسف ومحمد . ثم نظر فيها وحفظها وردّ الدَرْج إلى الحدث ، فأُخبر الخليفةُ بذلك[2] . وهنا كان دور الخليفة وهو ثاني الملامح . فالرشيد كان مغرماً بالمناظرات (وإن لم يكن يحبّ المراء في الدين) ، ولم يكن يفوّت فرصة كهذه لمناظرة بين وجهين كبيرين من فقهاء السنة . «فأحضر أبا يوسف ومحمداً وسألهما عن حال الدَرْج فاعترفا به . فأحضر الشافعي وقال : بيّن أحكامها ولك الفضل»[3] . ولّما عجزا عن استحضار المسائل راح الشافعي يذكرها واحدة واحدة من ذهنه ويجيب عنها . أمّا نوع هذه المسائل ، وهو ثالث الملامح ، فأقرب إلى الألغاز الفقهية إذ يكون السؤال أحجية ، على المجيب كشفها اعتماداً على تعاليم الكتّاب والسنة . وهذه المسائل ليست جدليّة فلسفية لأنّها لا تتناول المعتقدات . ولكنّها مسائل تعتمد الاجتهاد أو معرفة التعاليم مطبقة على حالات خاصة جدّاً ممكنة الوقوع في الحياة اليومية . ولا بدّ من ذكر بعض هذه الأسئلة والإجابات عنها لإيضاح شكل هذه المناظرات ولونها ، ولأخذ فكرة عمّا يمكن أن نسمّيه : أدب البحث الديني . فمن ذلك : «مسألة رجلين كانا فوق سطح فوقع أحدهما من السطح ومات ، فحرمت على الآخر امرأته . الجواب . إنّ امرأة الحيّ كانت أمة للميت . وكان الزوج بعض ورثته . فصارت الأمة ملكاً للزوج بحقّ الارث فحرمت عليه» . وهذا ، كما نرى ، تطبيق لقانون امتلاك الرقيق وتوريثه . ومن ذلك

---

1 تاريخ بغداد ج2 ص 179 .

2 آثار البلاد وأخبار العباد ص 228 .

3 آثار البلاد وأخبار العباد ص 228 .

«مسألة امرأة تزوّجت في شهر واحد ثلاثة أزواج ، كلّ ذلك حلال غير حرام . الجواب . إنّ هذه المرأة طلّقها زوجها وهي حامل فوضعت . انقضت عدّتها بالوضع فتزوّجت . ثم إنّ هذا الزوج خالعها قبل الدخول ، فلا عدّة عليها . فتزوّج بها آخر ، وهكذا ، إن أردت ، رابعاً وخامساً وسادساً» . وهذه المسألة أساسها مبدأ العدّة المتوجّب على المرأة المطلّقة أن تقضيها ، قبل زواج جديد ، ريثما يتبيّن حملها أو عدم حملها من زوجها السابق ، تحديداً لأبوّة الجنين . وهذه العدّة لا تتوجّب في الحالات الخاصّة المذكورة . ومن ذلك «مسألة رجلين شربا الخمر فوجب الحدّ على أحدهما دون الآخر . الجواب : كان أحدهما غير موصوف بأوصاف وجوب الحدّ كالعقل والبلوغ» . ومن ذلك «مسألة رجل سلّم إلى زوجته كيساً وقال لها : أنت طالق إن فتحته أو فتقته أو خرقته أو حرقته ، وأنت طالق إن لم تفرغيه . الجواب : يكون في الكيس سكّر أو ملح أو ما شابههما ، فيوضع في الماء الحار ليذوب فيفرغ الكيس» . وهذه المسألة ليس فيها من الفقه إلاّ ذكر الطلاق ، بينما هي أحجية من الأحاجي العادية التي يتداولها الناس في كلّ عصر ومكان . ومن ذلك أخيراً «مسألة خمسة نفر زنوا بامرأة فوجب على أحدهم القتل وعلى الثاني الرجم وعلى الثالث الحدّ وعلى الرابع نصف الحدّ ، وعلى الخامس لم يجب شيء . الجواب . الأوّل مشرك زنى بامرأة مسلمة يجب قتله . والثاني محصن ، فعليه الرجم . والثالث بكر فعليه الحدّ ، والرابع مملوك عليه نصف الحدّ ، والخامس مجنون لا شيء عليه»[1] . وتتناول هذه المسألة درجات المسؤولية مفصّلة على التقسيم الاجتماعي لذلك العصر .

ومع أنّنا لن نتابع استقصاء هذا النوع من المناظرات ، فإنّنا نلفت النظر إلى أنّه يلحق به الفتاوى العديدة التي أخرجها البختري وأبو يوسف وسواهما للرشيد ، انقاذاً لشرعية تصرّفات صمّم عليها مسبقاً ، وظاهرها يخالف الدين والشريعة . كما يمكن أن تلحق بها الاستشارات التي كان الرشيد يطلبها من القضاة والفقهاء في أمر يتعلّق بشأن من شؤون الدولة ، كسؤاله محمد بن الحسن عن بني تغلب الذين صالحهم عمر بن الخطّاب «على ألاّ ينصّروا أبناءهم . وقد نصّروهم وحلّت بذلك دماؤهم»[2] .

ثانياً : المناظرات الفقهية ـ اللغوية

وهي مناظرات ظاهرها الفقه وأساسها فهم اللغة وتفسيرها ؛ تقوم عادةً على طرفين : أحدهما فقهيّ والآخر لغوي ، ويتجلّى فيها تنافس وتحدّ ، لا بين أرباب الصناعة الواحدة ، وإنّما بين أرباب الصناعات المتقاربة . فأيّهما أفضل لصاحبه : مهنة القاضي أو مهنة اللغوي أو مهنة الشاعر ؟ ونجد جواباً عن هذا التساؤل لدى أبي حنيفة الذي استقصى أخبار المهن المختلفة وأعطانا خلاصة ذلك

1 المصدر نفسه ص 229 وما بعد .
2 تاريخ بغداد ج2 ص 173 .

قائلاً : «لمّا أردتُ أن أطلب العلم جعلت أتخيّر العلوم وأسأل عواقبها . فقيل لي : تعلّم القرآن فقلت : إذا تعلّمت القرآن وحفظته فماذا يكون آخر أمري ؟ قالوا : تحبس في المسجد ويقرأ عليك الصبيان والأحداث ، ثم لا يلبث أن يخرج فيهم من هو أحفظ منك ، أو يساويك في الحفظ ، فتذهب رئاستك . قلت : فإن سمعت الحديث وكتبته حتى لم يكن في الدنيا أحفظ منّي ؟ قالوا : إذا كبرتَ وحدّثتَ ، وقد ضعفتَ ، اجتمع عليك الصبيان والأحداث . ثم لا تأمن من أن تغلط فيرموك بالكذب فيصير عاراً عليك في عقبك . فقلت : لا حاجة لي في ذلك . ثم قلت : اتعلّم النحو ، فإذا حفظت النحو والعربية ، ما يكون آخر أمري ؟ قالوا . تقعد معلماً ، فأكثر رزقك دينار إلى الثلاثة . قلت . وهذا لا عاقبة له . ثم قلت . فإن نظرت في الشعر ، فلم يكن أحد أشعر منّي ، ما يكون من أمري ؟ قالوا . تمدح هذا فيهبك ويحملك على دابة ويخلع عليك ، وإن حرمك هجوتَه فصرت تقذف المحصنات . قلت : لا حاجة لي في هذا . قلت : فإن نظرتُ في الكلام ؟ قالوا : لا تسلم من نظر في الكلام ومشتقّات الكلام ، فترمى بالزندقة ، فإمّا أن تؤخذ فتقتل وإمّا أن تسلم فتكون مذموماً ملوماً . قلت : فإن تعلّمت الفقه . قالوا . تُسأل وتفتي الناس وتطلب القضاء ، وإن كنت شابّاً . فقلت : ليس في العلوم أنفع من هذا . فلزمت الفقه وتعلّمته»[1] . ولا شكّ في أنّ هذا العرض الذي يقدّمه لنا أبو حنيفة لم يكن عرضاً قدّمه له من يسألهم بقدر ما كان رأيه وخلاصة تجربته في قضيّة شغلت الناس وأرباب المهن الفكرية قاطبة ، وكانت منطلقاً لمفاخرات وتحدّيات ، ومجالاً للازراء والشماتة بينهم . وكان من الطبيعي أن ينقلوا ذلك معهم إلى البلاط .

1 ـ بين أبي يوسف والكسائي

فأبو يوسف القاضي يعتدُّ مهنة الفقيه أفضل المهن لأنّها رفعته ، من صبي القصّار الذي كانه ، إلى قاضٍ كبير يأكل الفالوذج بدهن الفستق على مائدة أمير المؤمنين[2] . وهو يعيب على اللغوي مهنته التي ، أقصى ما يصل إليه صاحبها ، أن يعلم الصبيان . وأبو يوسف يبدي رأيه هذا إذ يدخل على الرشيد فيجد عنده الكسائي يمازحه وقد «غلب عليه واستفرغه»[3] . أمام إهانة أبي يوسف لم يكن بدّ من التحدّي . فأقبل الكسائي على قاضي القضاة : «هل لك في مسألة ؟ قال : نحو أو فقه ؟ قال . بل فقه . فضحك الرشيد حتى فحص برجله ثم قال : تلقي على أبي يوسف فقهاً ؟ قال : نعم . قال : يا أبا يوسف ، ما تقول في رجل قال لامرأته : أنتِ طالق أن دخلتِ الدار . قال : إن دخلَت الدار طلقت .

---

1 الأربلّي ـ خلاصة الذهب المسبوك ص 80 .

2 وفيات الأعيان ج3 ص 335 .

3 الزبيدي ـ طبقات النحويين واللغويين . ويروي ياقوت الخبر نفسه ويعبّر عن اهتمام الرشيد بالكسائي قائلاً : «قد سعد بك هذا الكوفي وشغلك» وذلك على لسان أبي يوسف (أو محمد بن الحسن) فهو لا يحدّد أيّهما جرت له الحادثة . (انظر معجم الأدباء ج13 ص 176) .

قال : اخطأت يا أبا يوسف . فضحك الرشيد ثم قال : كيف الصواب ؟ قال . إذا قال أنْ ، فقد وجب الفعل . وإن قال : إن ، فلم يجب ولم يقع الطلاق[1] . ويظهر أنّ هذه المناظرة أعقبتها أو سبقتها مناظرات بين الكسائي وأبي يوسف ، لأنّ أبا يوسف كان دائماً «يقع في الكسائي فيقول : أي شيء يحسن ؟ إنما يحسن شيئاً من كلام العرب . فبلغ ذلك الكسائي . فالتقيا عند الرشيد . وكان الرشيد يعظم الكسائي لتأديبه إيّاه . فقال (الكسائي) لأبي يوسف : يا يعقوب ، أيش تقول في رجل قال لامرأته : أنت طالق ، طالق ؟ قال : واحدة . قال : فإن قال لها : أنتِ طالق أو طالق أو طالق ؟ قال : واحدة . قال : فإن قال لها : أنتِ طالق ثم طالق ثم طالق . قال : واحدة . قال : فإن قال لها : أنتِ طالق وطالق وطالق ؟ قال : واحدة . قال الكسائي : يا أمير المؤمنين ، أخطأ يعقوب في اثنين وأصاب في اثنين . أمّا قوله : أنتِ طالق طالق طالق فواحدة لأنّ الثنتين الباقيتين تأكيد كما تقول : أنت قائم قائم قائم ، وأنت كريم كريم كريم . وأمّا قوله : أنتِ طالق أو طالق أو طالق ، فهذا شكٌّ ، فوقعت الأولى التي تتيقّن . وأمّا قوله : أنت طالق ثم طالق ثم طالق فثلاث لأنّه نسق وكذلك قوله : أنتِ طالق وطالق وطالق»[2] .

2 ـ بين محمد بن الحسن والكسائي

هذه المناظرات ، كما نرى ، ظاهرها فقه واجتهاد لأنّها تذكر الطلاق وما إليه ، ولكن باطنها وحقيقتها لغويان ، وذلك اختصاص الكسائي أكثر منه اختصاص أبي يوسف أو محمد بن الحسن . وهنا تكمن مهارة الكسائي في طرحها . وبالمقابل يتعيّن على الفقيه أن يتحيّن لحظة مناسبة يأخذ فيها

---

1 انظر المصدرين السابقين وكذلك التوحيدي الذي يجعل الحادثة تجري بين الكسائي وأبي حنيفة وهذا خطأ في النقل . ولعلّ الأصل هو «أبو يوسف صاحب أبي حنيفة» لأنّ أبا حنيفة توفي عام 150هـ أي قبل تولّي الرشيد بعشرين سنة . وهو يجعل الكسائي يستشهد بآية قرآنية لدعم تعليله ، وامعاناً منه في تحدّي الفقيه ، فيقول : أما سمعت قول الله تعالى : ﴿تكاد السموات يتفطّرن منه وتنشقّ الأرض وتخرّ الجبال هدّاً ، أن دعَوا للرحمن ولداً﴾ (سورة مريم ـ آية 91) . (انظر البصائر والذخائر ج2/1 ص 27) .

وشبيه بهذه الجلسة مناظرة أُخرى رواها التوحيدي ، منطلقها التحدّي نفسه . فبينما كان الكسائي يذكر النحو بحضرة الرشيد ، قال له أبو يوسف : «احذق الناس به يكون معلّماً . فقال له الكسائي : اسألك عن مسألة في الفقه ؟ قال : سل . قال : ما تقول في غلام لك قُتل فاتهمتَ به رجلين ، فسألتهما عن أمره فقال أحدهما : أنا قاتلُ غلامِك . وقال الآخر : أنا قاتلٌ غلامَك ؛ أيّهما القاتل عندك ؟ قال أبو يوسف : جميعاً . قال الكسائي : اخطأتَ . قال : فالذي قال : أنا قاتلٌ غلامَك . قال : اخطأتَ . قال : فأيّهما القاتل عندك ؟ قال : الذي قال : أنا قاتلُ غلامِك ، لأنّ قوله : أنا قاتلُ غلامك يريد : أنا قتلته . والذي قال : أنا قاتلٌ غلامَك ، بالتنوين ، أراد : سأقتل غلامك ، فهو تهديد . قال الله تعالى : ﴿فالِقُ الإصباح ، وجعَلَ الليلَ سكناً﴾ (سورة الانعام ـ آية 96) المعنى : فلق الاصباح . فندم أبو يوسف على كلامه» . (البصائر والذخائر ج2/1 ص 252) .

2 تاريخ بغداد ج11 ص 406 ونزهة الألباء في طبقات الأدباء ص 73 .

اللغوي على حين غرّة بمسألة فقهيّة . وتأتي السانحة حين يدّعي الكسائي في مجلس الرشيد أن «من تبحّر في علم يُهدى إلى جميع العلوم» . فيبدره محمد بن الحسن : «ما تقول في من سها في سجود السهو ؟ هل يسجد مرّة أخرى ؟» فيقول الكسائي : لا . ويثبت ادّعاءه بأن يقيس جوابه في الفقه قياساً نحويّاً (لأنّ جوهر العلوم واحد) فالنحاة تقول : «المصغّر لا يصغّر» . فيصمم محمد على احراجه ، ويعود إلى سؤاله : «ما تقول بتعليق الطلاق بالملك ؟» فيجيب : لا يصحّ . ويقيس ذلك قياساً أدبيّاً «لأنّ السيل لا يسبق المطر»[1] . وهكذا لا يكون احراج . . . ويأتي دور الأصمعي ليمتحن أبا يوسف في مسألة ظاهرها فقه وباطنها لغة ، فهو يقول : «سألت أبا يوسف ، بحضرة الرشيد ، عن الفرق بين «عقلته» ، «وعقلت عنه» ؟ فلم يفهم حتى فهّمته»[2] .

3 ـ تقويم وتعليل

كان لا بدّ للتنافس القائم بين فئات أهل العلم المختلفة ، والذي تشكّل هذه المناظرات أحد وجوهه ، من أن يجد له مرتعاً في لقاءات الجامع وركن الشارع وتحت قبّة الشعراء كما في الدور والقصور . وكان الناس حتماً يتتبّعون أخبار هذه اللقاءات ، والمؤرّخون والأدباء يهتمّون بتدوين تفاصيلها . لذلك نجد الخبر الواحد في غير مصدر ، كما نجد لفظ التحدّي الواحد تتبعه مناظرة يختلف موضوعها من مصدر إلى آخر . والتحدّي لا شكّ فيه ، وألفاظ المجابهة حصلت فعلاً ، والمناظرة قامت بالتأكيد ، لكن ترتيب ذلك كلّه وتنميقه ، واخراجه يختلف من راو إلى آخر . إنّما تعود الغلبة دائماً إلى اللغوى في هذه المناظرات . ولعلّ مرجع هذا إلى سببين . أوّلهما أنّ اللغوي هو الذي يطرح المسألة عادة ، فيكون قد حضّرها مسبقاً ورتّب تسلسل مراحلها وجعلها تعتمد على أحجية لغوية هو أدرى بحلّها ، وإن كساها مظهر مسألة فقهيّة . وثانيهما يعود إلى أنّ المناظرات دوّنها ورواها لنا لغويّون أو نقّاد لغويّون ، أو جامعو أخبار اللغويين وطرائفهم فانتقوا منها ما يرفع من شأنهم .

والرشيد قد أحبّ هذه المناظرات وتسلّى بها وسرّ بنتائجها غير المتوقّعة[3] ، ولا عجب ، فهي تعتمد الفطنة إلى جانب المعرفة ، والرشيد تستهويه الفطنة وتأسره ؛ ولم يكن يعادل متعته بها إلاّ متعته بالمناظرات اللغوية الكثيرة التي شهدها بلاطه ، سواء بين البصريين أنفسهم ، أو بين

---

1 وفيات الأعيان ج2 ص 4 ويروي ابن الانباري المناظرة على أنّها جرت بين الفرّاء ومحمد بن الحسن الشيباني (نزهة الألباء ص 102) .

2 الأمالي ج1 ص 74 (العقل : الدية يقال : عقلت فلاناً ، إذا غرمت ديته وعقلت عن فلان إذا غرمت عنه دية جنايته) وقد يستغرب المرء أن يعجز شخص كأبي يوسف القاضي ، صاحب الفتاوى ، واضع كتاب «الخراج» ، والمفسّر الأوّل لمذهب أبي حنيفة صاحب الرأي ، عن التفريق بين معنيين يتعلّقان بالدية وهي أحد مواضيع الفقه والتشريع . ولكن المتبصّر يرى أنّ جوهر المسألة تمييزٌ لغويٌّ دقيقٌ صعبٌ على غير المتخصّص ، في ذلك الوقت .

3 يقول التوحيدي : «كان الرشيد يجمع العلماء ويسمع كلامهم . . .» البصائر والذخائر ج1/2 ص 250 .

البصريين والكوفيين ، أو خارج نطاق الصراع بين المدرستين .

ثالثاً : المناظرات اللغوية

كان الرشيد يطلبها ويتقصّاها ، كما أسلفنا ؛ عرف جلساؤه ذلك عنه ، فراحوا يخلقون مجالاتها ويطرحون أمامه مسائلها ، تحدوهم في ذلك انتماءاتهم إلى مذاهب النحو المختلفة ، واستقطاب أعطيات الخليفة . وقد اعتقد الرشد أنّه بلغ من العلم والثقافة اللغوية ما يخوّله الاشتراك في هذه المناظرات وامتحان أئمّة اللغويين فيها . فلو لم يكن عنده اعتقاد كهذا ، لما استدعى المفضل الضبي في دياجير الظلام ليصبّ عليه الأسئلة اللغوية بحضور الكسائي ، على مرأى ومسمعٍ من وليي العهد .

1 ـ الرشيد والمفضل الضبي

تحت جنح الليل جاءت رسل أمير المؤمنين إلى المفضل . فخرج حتى صار إليه ، وبدأت المناظرة . قد يكون الرشيد حضّر نفسه لهذه الجلسة واستمدّ معلوماتها من الكسائي أو من سواه ليضمن نجاحه ويثبت تفوّقه فيكون بذلك مثلاً أعلى لولديه وحافزاً لهما على طلب المعرفة وحفظ أصول اللغة . فلا يحسن بالخليفة أن يكون لسانه كلسان عبده وأمته»[1] . أمّا تفاصيل هذه المناظرة فالمتأمّل لها يشيم برق ألغاز لغوية أو مسائل يتداولها أهل الثقافة في تجمّعاتهم كأنّها آخر الأخبار العلمية : من يعاينها ويتأثرها يكون على مستوى عصره ، ومن جهلها أو تنكب عنها بات من المتخلّفين . من ذلك كلمة ﴿فسيكفيكهم﴾ إذ لا بدّ من أنّ اللغويين وقفوا إزاءها وأعجبوا بشمولها : فيها الحرف وفيها الفعل وفيها الاسم أو ما يمثّله ظاهراً ومضمراً . فيها الإفراد وفيها الجمع والرفع والنصب . . . . فهي غنيّة صرفيّاً وغنيّة نحويّاً . وحين ألمّ بها الرشيد أحسّ أنّه امتلك كنز معرفة جديداً ، يحتاج إلى مجال يظهره فيه . فلا غرو من أن يخطر بباله الضبي يطلبه ليبلوه ، من جهة ، وليُدِلّ عليه بمعرفته ، من جهة أُخرى . وليس هذا فقط ، إنّما كان يرجو انتزاع الاعجاب مضاعفاً وعلنيّاً ، فأجلس الأمين إلى يساره والمأمون إلى يمينه ليعاينا مدى علم أبيهما ، ويستفيدا معرفة[2] . وحين تلقّى المفضل السؤال ، وأعطى الجواب الصحيح[3] ، علّق الرشيد ، وكأنّه يرئس لجنة فاحصة في أحد الامتحانات : «صدقت ، هكذا أفادنا هذا الشيخ» (أي الكسائي) . وكأنّي بالرشيد لم يشف ما في نفسه من حبّ الظهور والتفوّق طرحُ مسألة

---

1 ممّا قاله الرشيد لبنيه . (صبح الأعشى ج1 ص 168) .

2 يدلّ على ذلك أنّ الرشيد ، بعد انتهاء المسألة ، «التفت إلى محمد فقال له : أفهمت يا محمد ؟ قال : نعم . قال : أعد عليّ المسألة كما قال المفضل فأعادها» . (تاريخ الطبري ج8 ص 361) .

3 كانت المسألة عن « كم اسم في ﴿فسيكفيكهم﴾» . وكان الجواب . ثلاثة أسماء : «كاف لرسول الله ﷺ والهاء والميم وهي للكفّار ، والياء وهي لله عزّ وجلّ» (المصدر السابق وانظر البصائر والذخائر ج2/1 ص 50) .

يعرف جوابها مسبقاً ، فتمادى في الثقة بالنفس إلى مبلغ التحدّي . تحدّي المفضل الضبي أن يطرح عليه مسألة ، ويكون الكسائي حكَماً . وهذا الموقف حرج ، لا شكّ . فلو أنّ الضبي طرح عليه مسألة فاتته معرفتها لساءت العقبى وضاع هدف المناظرة . لكن المفضل ظلّ ضمن إطار المسائل التقليديّة المتداولة ، فطرح قول الفرزدق .

أخَذْنا بآفاقِ السماءِ عليكمُ   لَنا قَمَراها والنجومُ الطَوالِعُ

وكأنّي بالرشيد يتنفّس الصعداء . وكأنّي به يقول للمفضل : لقد بعُد عنك أن تُحرجنا «هيهات ، أفادناها ، متقدّماً قبلك ، هذا الشيخ»[1] . لكن الضبي لم يكن يريد إحراج الرشيد . ولعلّه ، بينه وبين نفسه ، وفيما كان يراجع هذه المسألة ، لاح له فيها منفذ إلى ربح وفير ، وأخذ على عاتقه طرحها في أوّل سانحةٍ ليدلف من ذلك المنفذ ، فيكون هذا سبب اختياره لها . أمّا ما وجده الضبي مركباً إلى الربح فهو التعليل التالي : عندما نسب الفرزدق القمرين والنجوم إلى قومه كان يقصد إلى معنى خفي : عنى بالقمرين : إبراهيم الخليل ومحمداً عليهما الصلاة والسلام ، وبالنجوم الخلفاء الراشدين من آباء الرشيد الصالحين . وكانت مفاجأة بالفعل . لم يَدرْ ذلك في خلد الكسائي ولا خلد أي شارح أو قارىء لشعر الفرزدق . وكانت دهشة الرشيد للحظة[2] ، عاد بعدها إلى الاستمتاع بهذا الاطراء غير المتوقّع وإن كان لم يصدّقه حقيقة ، فالكريم ، إذا خادعته ، انخدعا . وهكذا نال المفضل مئة ألف درهم .

2 ـ مناظرات البصريين

ارتاد البلاط منهم : الأصمعي وأبو عبيدة واليزيدي . ونحن نعرض مناظرة جرت بين الأصمعي وأبي عبيدة . فأبو عبيدة كان معروفاً بكثرة الحفظ وغزارة الرواية[3] . ولم يكن الأصمعي ليقل عنه حفظاً لكنّه كان أحضر بديهة منه وأكثر واقعية ، يحسب حساب مواقف مستقبلية فيخلق لها

---

1 كان جواب الرشيد : «لنا قمراها يعني الشمس والقمر ، كما قالوا : سنة العمرين : سنة أبي بكر وعمر . . . استحسنوا هذا . . . لأنّه إذا اجتمع اسمان من جنس واحد وكان أحدهما أخفّ على أفواه القائلين غلّبوه وسمّوا به الآخر . فلمّا كانت أيّام عمر أكثر من أيّام أبي بكر ، وفتوحه أكثر واسمه أخفّ ، غلّبوه وسمّوا أبا بكر باسمه . قال الله عزّ وجلّ : ﴿بُعد المشرقين﴾ وهما المشرق والمغرب» . (تاريخ الطبري ج8 ص 361) .

2 يصفه الطبري بقوله . «فاشرأبّ أمير المؤمنين» (المصدر نفسه ج8 ص 362) .

3 هو أبو عبيدة البصري ، معمر بن المثنى «كان أعلم الناس باللغة وأنساب العرب وأخبارها . وهو أوّل من صنّف غريب الحديث . . (كان) يتّهم بشأنٍ من رأي الخوارج ويتّهم بالإحداث . . . كان الأصمعي أعلم منه بالنحو ، وكان أعلم من الأصمعي وأبي زيدٍ بالأنساب . . . وكان ، مع علمه ، إذا قرأ البيت لم يُقم اعرابَه ، ويُنشده مختلفَ العروض . . . توفي بين 207 و213هـ» (معجم الشعراء ج19 ص 154 وما بعد . وانظر مروج الذهب ـ دار الأندلس ج3 ص 449 ـ الفهرست ص 53 ـ تاريخ بغداد ج13 ص 252 ـ نزهة الألباء ص 106 وما بعد ـ بغية الوعاة ص 395) .

المناسبات أو يتصيّدها لها ، هاجسه نيل اعجاب الرشيد للحصول على رفده . وخلاصة المناظرة أنّ أبا عبيدة ألّف كتاباً ضخماً في صفة الخيل[1] ، سمع به الرشيد فطلب إليه أن يقرأه عليه ، وهذه لفته نادرة كان يحزّ في نفس الأصمعي أن تبلغ منتهاها ، فبادر قائلاً : «وما تصنع بالكتب ؟ يُحضر فرس ونضع أيدينا على عضو عضو منه ونسميّه ونذكر ما فيه» . وراقت هذه الفكرة للرشيد إذ وجد فيها فرصة لتسلية كبيرة واعتدّها حدثاً نادراً . فنادى على الفور : «يا غلام ، فرس . فأحضر فرس»[2] بقي على الأصمعي أن يُحرج أبا عبيدة ، وهو يعرف جازماً أنّ زميله لم يستعدّ لهذه اللحظة ولم يتمرّن على هذه العملية التشريحيّة ، فترك له أن يتقدّم ويقرأ كتابه «حرفاً حرفاً» ويضع يده على «موضع موضع» . . . وأحسّ أبو عبيدة بالشرك الذي نُصب له فرفض بإباء : «ليس أنا بيطار ، إنّما ذا شيء أخذته وسمعته من العرب وألّفته»[3] إلى هنا تمّت المؤامرة وبقيت النهاية : حسر الأصمعي عن ذراعيه وساقيه ، ثم وثب فأخذ بأذني الفرس ، وبعد ذلك وضع يده على ناصيته . . . وهكذا راح يقبض منه بشيء شيء فيقول : هذا اسمه كذا ، وينشد فيه ، حتى بلغ حافره[4] . فما إن أفاق الرشيد من دهشته حتى سأل أبا عبيدة : «ما تقول فيما قال ؟» أجاب : قد أصاب في بعض وأخطأ في بعض . فالذي أصاب فيه ، مني تعلّمه ، والذي أخطأ فيه لا أدري من أين أتى به»[5] . وقد يكون جواب أبي عبيدة صحيحاً ، لكنّه جواب غامض تنقصه الدقّة ، جواب مغلوب على أمره ، وهو غير جواب الواثق من نفسه الذي يضع النقاط على الحروف[6] .

3 ـ مناظرات البصريين والكوفيين

أ ـ بين الكسائي واليزيدي[7]

ونحن هنا في صميم الصراع الخفيّ بين القوى المتكافئة في البلاط : فالكسائي واليزيدي كلاهما

---

1 يروي البغدادي المناظرة في موضعين وكذلك يفعل ابن الأنباري : وتكون عند الرشيد تارة وعند الفضل بن الربيع تارة أُخرى . وفي كلا الموضعين هي على لسان الأصمعي . فهو يقول في الموضع الثاني : «دخلت أنا وأبو عبيدة على الفضل بن الربيع فقال : يا أصمعي ، كم كتابك في الخيل ؟ قال . قلت : جلد . قال : فسأل أبا عبيدة عن ذلك فقال: خمسون جلداً . . .» تاريخ بغداد ج10 ص 415 ونزهة الألباء ص 120 والسيوطي في بغية الوعاة ص 314 .

2 تاريخ بغداد ج13 ص 256 ونزهة الألباء ص 109 ومعجم الأدباء ج19 ص 160 .

3 المصادر السابقة .

4 تاريخ بغداد ج10 ص 415 ونزهة الألباء في طبقات الأدباء ص 120 .

5 تاريخ بغداد ج13 ص 256 ونزهة الألباء ص 109 .

6 ينسب البغدادي وابن الأنباري إلى الفضل بن الربيع وهْب الفرس للأصمعي ، ويضيفان قول الأصمعي : «فكنت إذا أردت أن أغيظ أبا عبيدة ، ركبت الفرس وأتيته» . ولكن إذا اقتنعنا أنّ المناظرة جرت في بلاط الرشيد وأمامه كما يثبت ذلك المؤلّفان نفسهما في الموضع الآخر ، يكون الرشيد هو الذي أمر له بالفرس .

7 اليزيدي هو يحيى بن المبارك بن المغيرة المقرىء . . اتّصل بالرشيد فجعله مؤدّب المأمون ، وكان الكسائي مؤدّب

لغوي نحوي ، وكلاهما مؤدّب لأولاد الرشيد ، تجمع بينهما عداوة المهنة فضلاً عن العداوة العريقة بين مدرستي الكوفة والبصرة ، وكلاهما زعيم من زعمائهما . بهذه الخلفيّة نستطيع أن نفهم المناظرة بينهما . وها هما الآن في الساحة : اليزيدي يبتدر ويسأل صاحبه عن رأيه في قول الشاعر :

مـا رَأَيْنا خَرَبـاً تَفِرُّ   عنـهُ البيضُ صَقْـرْ

لا يكـونُ العَيرُ مُهراً   لا يكـونُ ، المُهْرُ مُهرْ

فقال الكسائي : «يجب أن يكون مهر (الأخير) منصوباً على أنّه خبر كان ، ففي البيت ، على هذا التقدير ، اقواء»[1] . ولا شكّ في أنّ اليزيدي أخذ الكسائي على حين غرّة واستخدم لذلك أساليب التعمية المختلفة . فلو أنّه عرض البيتين كتابة ، مضبوطين بالحركات وبعلامات الفصل والوقف ، لما وقع الكسائي في الفخ . ولكن المناظرة شفوية سماعية ، وجوّ المناظرة يقتضي سرعة في الإجابة تصرُّف ، أحياناً ، عن تتبّع دقائق المعنى . وإلاّ لتساءل الكسائي : ما معنى ألاّ يكون المهر مهراً ؟ لا شكّ في أنّه تتبّع الإعراب وأغفل المعنى . وهذه الهفوة الصغيرة من الكسائي الكبير كانت موضوع انتظار لليزيدي ، مشوب باللهفة التي قدّر لها أن تتحوّل إلى نشوة كبيرة كبر معرفة الكسائي وعلمه وبعد صيته ، نشوة أخرجت صاحبها عن وقاره واتّزانه فقال : «الشعر صواب لأنّ الكلام قد تمّ عند قوله «لا يكون» ، الثانية ، وهي مؤكّدة للأولى . ثم استأنف الكلام فقال : «المهر مهر» وضرب بقلنسوته الأرض قائلاً : «أنا أبو محمد» . وما كان لليزيدي أن يتحمّس ولا أن يخرج عن وقاره ولا أن يفخر ويكتني في مجلس الرشيد ، فكان أن أصابه تأنيب لا ينسى[2] .

ب ـ بين الكسائي والأصمعي

وهنا نقف أمام شيخي الكوفة والبصرة . لقد تجاوروا في البلاط ، وصحبا الرشيد في حلّه وترحاله[3] ، وعاشا صديقين لدودين . كان لكلّ منهما ميزانه : فالكسائي يغلب عليه النحو ، بينما

= أخيه محمد الأمين . كان عالماً باللغة والنحو وأخبار الناس . . . وكان اليزيدي أحد الشعراء . وله جامع شعر وأدب . . توفّي عام 202هـ (نزهة الألباء ص 81 وما بعد) (وانظر بغية الوعاة ص 414 ومعجم الأدباء ج20 ص30 والأغاني ج20 ص 180 وما بعد وتاريخ بغداد ج14 ص 146 وما بعد ، وفيات الأعيان ج3 ص 199 وما بعد ، ومعجم الشعراء ص 487 الورقة ص 26 وما بعد ، النجوم الزاهرة ج2 ص 173 والفهرست ص 50 وطبقات ابن المعتزّ ص 272 وما بعد . . .) .

1 وفيات الأعيان ج3 ص 200 . ويعلّق ابن خلكان على قول الكسائي : «قلت أنا : قول الكسائي : (في البيت اقواء) ، ليس بجيد . فإنّ اصطلاح أرباب كلم القوافي أنّ الاقواء يختصّ باختلاف الإعراب في حرف الروي بالرفع والجرّ لا غير بأن يكون أحد البيتين مرفوعاً والآخر مجروراً . فأمّا إذا كان الاختلاف بالنصب ، مع الرفع والجر ، فإنّ ذلك يسمّى اصرافاً لا اقواء» .

2 راجع ص 110 هامش 4 من البحث .

3 أمالي الزجاجي ص 34 .

تغلب الأخبار واللغة على الأصمعي[1] . وحين يعرضان مسألة نحوية تكون الغلبة للكسائي . أمّا إذا عرضت قضية لغوية تعتمد على تخريج معان وعلى استشهادات ، فالغلبة للأصمعي . هكذا ، وفيما كان الكسائي والأصمعي بحضرة الرشيد ، أنشد الكسائي :

أنّى جَـــزَوا عامـــراً سَوأى بفعلِهِمُ   أم كيفَ يَجزونني السَوأى من الحَسَنِ؟

أم كيف يَنفعُ ما تُعطى العُلوقُ بهِ   رِئمانُ أنفٍ ، إذا ما ضُنَّ باللَّبَنِ ؟

فقال الأصمعي : «إنّما هو رئمانَ أنف بالنصب» . فثارت ثائرة الكسائي . ذاك أنّ الموضوع يتعلّق بالنحو ، والمسألة يطرحها هو ، فقد اشبعها بحثاً وتقليباً ودرساً ، وحقّ له أن يزدري اعتراض الأصمعي وينهره . «اسكت ، ما أنت وذاك ؟ يجوز رئمانُ أنف ورئمانَ أنف ورئمانِ أنف ، بالرفع والنصب والخفض»[2] . وسكت الأصمعي على مضض ، وكان عليه أن يحضّر ، للأخذ بالثأر ، مسألةً تعتمد على الفطنة ومعرفة اللغة أكثر من اعتمادها على النحو والإعراب . وفي ذات يوم ، بينما كان عند الرشيد ، توجّه إلى الكسائي وسأله : «ما معنى قول الراعي :

قَتَلوا ابنَ عفّانَ الخليفةَ مُحرِماً   وَدَعـــا ، فلم أَرَ مثلَهُ مَخذولا

فقال الكسائي : كان محرماً بالحجّ . قال الأصمعي : فقوله :

قَتَلـــوا كسرى بِلَيـــلٍ مُحرِماً   فَتَولّـــى ، لم يُمَتَّـــعْ ، بِكَفَنْ

هل كان محرماً بالحجّ ؟ محرم أي لَم يأتِ ما تستحل به عقوبته[3] . من ثم قيل : مسلم محرم ، أي لم يحل من نفسه شيئاً يوجب القتل . وقوله : قتلوا كسرى . . . يعني حرمة العهد الذي كان له في أعناق أصحابه» . وحكم الرشيد بينهما قائلاً : «يا علي ، إذا جاء الشعر ، فإيّاك والأصمعي»[4] .

ج ـ بين الكسائي وسيبويه

وقامت بينهما مناظرة مشهورة كانت تاريخية حاسمة . فسيبويه الفطن ، الذكي ، إمام النحو

---

1 يصف الزجاجي الأصمعي بأنّه «لم يكن له علم بالعربية . وكان صاحب لغة ولم يكن صاحب اعراب» المصدر السابق ـ ويقول عنه ابن الأنباري : «كان للأصمعي يد غرّاء في اللغة ولا يعرف فيها مثله وفي كثرة الرواية» (نزهة الألباء في طبقات الأدباء ص 113) .

2 ويشرح الكسائي ذلك : أمّا الرفع فعلى الردّ على ما ، لأنّها في موضع رفع بينفع فيصير التقدير : أم كيف ينفع رئمانُ أنف . والنصب : بتعطى ؛ والخفض : على الردّ على الهاء التي في «به» . (أمالي الزجاجي ص 34) .

3 في رواية السيوطي لهذه المناظرة يقول مفسّراً : «لو قلت : أحرم ، دخل في الشهر الحرام ، كما يقال : أشهر ، دخل في الشهر ، كان أشبه» . (المزهر ج1 ص 341) . ويضيف ابن الأنباري على ذلك أنّه «كان قتل في ثمان عشرة خلت من ذي الحجّة سنة خمس وثلاثين . وذو الحجّة من الأشهر الحرم» . (نزهة الألباء ص 114) .

4 البغدادي ـ خزانة الأدب ـ ج2 ص 305 . ويذكر السيوطي تعليق الرشيد مع بعض الخلاف إذ قال : «يا أصمعي ، ما تطاق في الشعر» (المزهر ج1 ص 341) .

على طريقة البصريين وصاحب «الكتاب» فيه ، يطمح أن يجد موطيء قدم على حلبة الصراع الدائر . لقد اعترف له بالفضل أئمّة الخاصّة والعلماء[1] ، ولكنّه كان أشبه بالملاكم الناشيء الذي يحرز انتصاراً بعد انتصار بينما نفسه تطمح إلى لقب البطولة ينتزعه ممّن سبق إليه . فكان أن استهدف الكسائي ، قمّة مدرسة الكوفيين . . جرت المناظرة ، ورواها معظم النقلة . أمّا أين جرت بالضبط وكيف ؟ فمنهم من جزم بأنّها جرت في قصر يحيى بن خالد بينما أكّد آخرون أنّها جرت في بلاط الرشيد . ومنهم من دوّن الروايتين دون أن يحدّد أيّهما أصحّ[2] . ولعلّ المناظرة جرت في البلاط وحضرها يحيى بن خالد وشارك في بعض مراحلها ، وكان هذا ما جعلها ترتبط به وباسمه . والواقع أنّ الرشيد ما كان ليفوّت فرصة حضور مناظرة كهذه ، ولا كان يحيى يجرؤ على أن يرعاها دون إعلام الرشيد بها لأنّه كان يعرف مدى لهفته إلى هذه اللقاءات . فالأرجح أنّ الرشيد رعى هذه المناظرة وإن لم يشترك فيها مباشرة ، وبالتالي لم يرد اسمه في روايتها ، وأنّ يحيى قام بدورٍ بارزٍ على صعيد الاخراج : بدءاً باستقبال سيبويه وتحديد موعد المباراة واختيار هيئة التحكيم ، وانتهاءً بالمحاولة الأخيرة لرتق الفتق الذي لا يُرتق . ويحشد بعض الرواة لهذه المناظرة أئمّة الكوفيين[3] ويجعلونهم يسبقون الكسائي في الحضور ويطرحون على سيبويه مسائل يخطّئونه فيها[4] ليزعزعوا ثقته بنفسه قبل ظهور زعيمهم الذي يأخذ على عاتقه أن يسدد للمبارز الناشيء ضربة قاضية . ولم يحضر الكسائي وحده ، بل دخل معه خلق من العرب ، وكأنّه أتى بشهوده معه ، وهو يعرف المسألة التي يطرحها ويعرف وجهة نظر البصريين منها وقد استعدّ لكلّ شيء : البلاط هو بيته الثاني ، كل من فيه يألفه ، يحيط به جمهوره ، مقابل خصم غريب وحيد ؛

---

1 ممّا يذكره ابن الأنباري : «كان يقال بالبصرة : قرأ فلان (الكتاب) ، فيُعلم أنّه كتاب سيبويه . وقرأ نصف الكتاب فلا يُشكّ أنّه كتاب سيبويه . وكان أبو العبّاس المبرد ، إذا أراد مُريدٌ أن يقرأ عليه كتاب سيبويه ، يقول له : هل ركبت البحر ؟ تعظيماً لكتاب سيبويه واستصعاباً لما فيه» (نزهة الألباء ص 63) .

2 يلخّص ياقوت الروايات المختلفة فيقول : «حدّث أبو الحسن سعيد بن مسعدة والمبرد وثعلب ، وجمعتُ بين أقاويلهم وحذفت التكرار ، قالوا : قَدِم سيبويه إلى العراق على يحيى بن خالد ؛ فسأله عن خبره فقال : جئت لتجمع بيني وبين الكسائي . قال : لا تفعل فإنّه شيخ مدينة السلام ومؤدّب ولد أمير المؤمنين ، وكلّ من في المصر له ومعه . فأبى إلاّ أن يجمع بينهما ، فعرّف الرشيد خبره فأمره بالجمع بينهما ، فوعده بيوم . . .» (معجم الأدباء ج16 ص119) .

3 يقول ياقوت . «فلمّا كان ذلك اليوم غدا سيبويه وحده إلى دار الرشيد فوجد الفرّاء والأحمر وهشام بن معاوية ومحمد بن سعدان قد سبقوه . فسأله الأحمر عن مئة مسألة ، فما أجاب عنها بجواب إلاّ قال : أخطأت يا بصري . فوجم لذلك سيبويه . . .» (معجم الأدباء ج16 ص119 ، يروي الزبيدي الخبر نفسه في طبقات النحويين واللغويين ص 186) .

4 المصدران السابقان .

ويخاطبه ، لا كَنِدّ وعالم ، وإنّما كـ«بصريّ» فلا يرى فيه إلاّ المدرسة العدوّة التي يخطّط للغلبة عليها من خلال الانتصار عليه . وهو يصرّ على أن يشعره بوجوده في بيئة لا ترحّب به ، علّه يسرع في الرحيل عنها ، تاركاً لأصحاب المكاسب نفوذهم فيها[1] . والكسائي هو الذي بادر إلى سؤال سيبويه طارحاً موضوع الزنبور والعقرب : أيّهما أشدّ لسعاً ؟ وإذا وجدنا أنّ لسعتيهما واحدة فماذا نقول : قد أحسب أنّ الزنبور أشدّ لسعاً من العقرب ، فإذا هو هي ، أو فإذا هو إيّاها ؟ أي هل يتطلّب الموضع ، بعد هو ، النصب فنستعمل إيّاها ضمير النصب ، أو يتطلّب الرفع فنستعمل هو ضمير الرفع ؟ وجد سيبويه أنّ الموضع موضع رفع وأنّه «لا يجوز النصب» ، جرياً على عادة البصريين في أخذ القضايا بالمنطق واهمال الشاذ ، وإن ورد في بعض الروايات . أمّا الكسائي فرأى أنّه يجوز الرفع والنصب لأنّها سمعت بهما . وراح يورد أمثلة تثبت ذلك . منها أنّه يقال : خرجت فإذا زيدٌ قائمٌ أو زيدٌ قائماً[2] . فرفض سيبويه النصب . وتشبّث كل منهما بموقفه . هنا تدخّل المُخرج يحيى بن خالد قائلاً : «قد اختلفتما وأنتما رئيسا بلديكما ، فمن يحكم بينكما ؟ فقال الكسائي : ليس إلاّ هذه الأعراب ، وفدت إلى باب أمير المؤمنين من كلّ صوب وحدب . كلامها الأصل ، وفصاحتها المقياس . فأحضروا وسُئلوا فأكّدوا أنّ الحقّ ما قاله الكسائي . وبذا حَكَم أيضاً يحيى بن خالد[3] . أمّا سيبويه قد أحسّ بالضيق احساساً عميقاً : هؤلاء الأعراب ليسوا من عرب البصرة الذين يثق بهم ، ومن يدري ؟ فقد يكونون من صنائع الكسائي أو ممّن يستفيدون من نفوذه في البلاط . ولكن هل يستطيع رفض التحكيم بعد أن قبل به سابقاً ؟ كلا لقد سبق السيف العذل . إنّما لا بدّ من تبرير : «أمّا عرب بلدنا فلا تعرف إلاّ فإذا هو هي»[4] ، ومن كلمة رجاء لم يتحقّق : «أيّها الوزير ، سألتك إلاّ ما أمرتهم أن ينطقوا بذلك فإنّ ألسنتهم لا تجري عليه» . فهم لم يقولوا إلاّ هذه الجملة : الصواب ما قاله هذا الشيخ[5] . إنّما مصلحة

---

1 يظهر أنّ الكسائي لم يكن مرتاحاً لقدوم سيبويه إليه ينافسه في عقر داره . ويظهر ذلك من وصف ياقوت له حين دخل المجلس : «ووافى الكسائي ، وقد شقّ أمره عليه ، ومعه خلق كثير من العرب» . (معجم الأدباء ج16 ص119) .

2 بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ص 266 وكذلك طبقات النحويين واللغويين ص186 ومعجم الأدباء ج16 ص 119 . وانظر تاريخ بغداد ج12 ص 105 .

3 يقول ياقوت : «فسئلوا عن المسائل التي جرت بينهما ، فتابعوا الكسائي . فأقبل يحيى على سيبويه فقال : قد تسمع أيّها الرجل ؟ فانصرف المجلس على سيبويه» (معجم الأدباء ج16 ص 119) .

4 الزبيدي . طبقات النحويين واللغويين ص 186 .

5 بغية الوعاة ص 366 ويظهر أنّ سيبويه أحسّ بمؤامرة حيكت ضدّه لأنّ السؤال الذي طرح على الاعراب هو : «أيّهما يقول الصواب» ؟ فأجاب الأعراب الذين استحضروا : «الصواب ما قاله هذا الشيخ» ولكنّهم لم يلفظوا الجملة بكلماتها وكأنّهم تحاشوا ذلك لأنّهم لو حاولوا لفظها بالنصب لما استطاعوا . فسيبويه يعتقد أنّ سليقتهم

الكسائي أن يقطع هذا الجدل فنراه يتظاهر بتواضع المنتصر ويلبس ثوب العطف على الشاب المفجوع بآماله قائلاً : «أصلح الله الوزير ، إنّه قد وفد إليك من بلده مؤملاً ، فإن رأيت ألاّ تردّه خائباً . فأمر له بعشرة آلاف درهم»[1] ، تعويضاً عن عنفوان ضاع . وخرج سيبويه يجرر أذيال الخيبة . لم يجرؤ على الرجوع إلى البصرة خوفاً من الشماتة واللوم[2] البصري . فخطأه الكسائي وغلاماه . فأمر الرشيد بصرف سيبويه ، وأمر له بعشرة آلاف درهم . فلم يدخل البصرة استحياء ممّا وقع عليه . . .» (الورقة ص 25) . . فالكلّ هناك يعرفون أنّه يحسن التأليف والعرض بين دفتي الكتاب إنّما يقصّر في المناظرات الشفوية[3] . فما كان أجدى له ألاّ يعرّض نفسه وسمعة مدرسته لهذه الهزيمة . . والآن هل توقّفت مسألة الزنبور والعقرب عند هذا الحدّ ؟ بالطبع لا ، فقد بقيت تتفاعل وتُروى حولها التفاصيل وتُبادل فيها الاتّهامات والردود عليها ، كما يتناقلها ويتداولها شيوخ المدرستين مُدْلين بالحجج والحجج المناقضة ، ويصنّف فيها ، ويُمتحن بها الناشئون ، لأجيال عدّة[4] .

4 ـ على هامش البصرة والكوفة

من الطبيعي ألاّ تكون المناظرات اللغوية في البلاط وقفاً على أقطاب المدرستين ، ومن غير المعقول أن يكون الجدل فيها مقتصراً عليهم . بل إنّ هؤلاء الأقطاب ، إذ تأخذهم الثقة بعلمهم ومعرفتهم ،

= كانت تمنعهم من ذلك ، وكان أمرهم يُفتضح . ويتجلّى ذلك من ملاحظة الأصمعي وتعليق اليزيدي : يقول السيوطي : وعن الأصمعي : أخذ الكسائي اللغة عن أعراب من الحطمة بقطرُبّل ، فلمّا ناظر سيبويه استشهد بلغتهم عليه . فقال أبو محمد اليزيدي :

كنّا نَقيسُ النَحوَ ، فيما مَضى ، على لسانِ العَـــــرَبِ الأوّلِ
فَجـاءَ أقـــوامٌ يَقيسونَــــهُ على لَغْــي أشيـاخِ قَطْرَبُّـــلِ
فكلُّهـمُ يَعمَـلُ في نقضِ مـا بـهِ يُصاب الحـقّ ، لا يَـأْتَلي

(بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ص 336) .

1 السيوطي . المرجع السابق وانظر تاريخ بغداد ج12 ص 105 وطبقات النحويين واللغويين ص 186 ومعجم الأدباء ج16 ص 119 .

2 في حديث ابن الجراح عن الكسائي وتلميذيه : الفرّاء وعلي بن المبارك ، يقول : «جمع الرشيد بينهم وبين سيبويه» .

3 يصفه السيوطي بقوله : «كان في لسانه حَبْسة ، وقلمُهُ أبلغُ من لسانه» . (بغية الوعاة ص366 .

4 من ذيول المناظرة وللدلالة على اتّساع إطارها نورد قول السيوطي : «وقد أطلنا الكلام في هذه المناظرات في الطبقات الكبرى ، وذكرنا مناظرة وقعت للكسائي مع اليزيدي وضُرب فيها كما ظلم هو سيبويه . وأحضروا العرب فوافقوا اليزيدي» . المصدر السابق . وينهي البغدادي قصة المناظرة بالتعليق التالي : «فدفعت إليه بدرة اختلف فيها الناس ، فقال بعضهم : كانت من يحيى ، وقال آخرون : كانت من الكسائي . فقال بعض الجهّال : إنّ الكسائي واطأ الأعراب من الليل حتى تكلّموا بالذي أراده . وهذا قول لا يعرّج عليه لأنّ مثل هذا لا يخفى على الخليفة والوزير وأهل بغداد أجمعين» (تاريخ بغداد ج12 ص 105) .

قد يريدون التوجّه إلى آخرين من غير اللغويين للادلال عليهم بذلك العلم وهذه المعرفة[1] ، كما رأينا في المناظرات الفقهيّة ــ اللغوية ، وكما جرى بين الأصمعي والعتابي حول قصب الكتابة . والعتابي ، شاعر ، كاتب ، أديب خطيب ، مشهور ببلاغته وفصاحته . خطر للأصمعي يوماً أن يسأله سؤالاً يتعلّق بصميم مهنته : «أي الأنابيب للكتابة أصلح وعليها أصبر ؟» وكأنّ الأصمعي توقّع ألاّ يهتمّ الشاعر والكاتب بأوصاف القلم فيعيا أمامه ، ويكون هو محضِّراً جوابه فيحرز عليه نصراً وينال استحساناً وربّما عطاء من الخليفة . لكن أمل الأصمعي خاب . فقد تدفّق سيل الكلام واندفع على لسان العتابي المتحدّث البليغ[2] يصف أصل القصبة وطريقة اختيارها وتحضيرها ، ولونها ، من الخارج إلى الداخل . ولم يكن ردّ العتابي المفحم ليمنع الأصمعي من متابعة محاولة الاحراج . فركّز على نقطة أكثر دقّة وخفاء : « أي نوع من البري أصوب وأكتب ؟»[3] . وتدفّق الكلام من جديد يصف بري القلم في اتّجاهه وفي زواياه ، معدّداً سبب كلّ من التفاصيل وفائدته ، متابعاً تعامل الأنبوب مع الحبر والورق ، بلغته الراقية الأنيقة . فكان أن بهت الأصمعي . فوصفه العتابي قائلاً : «بقي شاخصاً إليّ ضاحكاً ، لا يحير مسألة ولا جواباً»[4] . ولو قُيّض لمُعلّق أن يدلي برأيه لتوجّه إلى الأصمعي قائلاً : «انتبه يا شيخ ، ما كلّ طائر يؤكل لحمُه» .

5 ــ بين الرشيد والأصمعي

فالرشيد ، الباحث أبداً عن المعرفة ، سائلاً ومستمعاً وقارئاً ، ما إن تعن له نكتة لغوية ، أو ناحية من اللغة لطيفة نادرة ، حتى يغتنم لها أوّل سانحة ، يطرحها على جلسائه ويحرج بها معارفهم .

هكذا يعرف الرشيد أنّ في أعضاء الفرس عشرين اسماً من أسماء الطير ؛ فما إن يحضر إلى ميدان السباق لشهود الحلبة[5] ، ويرى الخيل أمامه تخطر وتجري ، وفرسه الأدهم سابق لها ، حتى

---

1 نجد هذه الروح في الخبر التالي يرويه الأصفهاني : «. . . دار بين الخليل بن أحمد وابن مناذر كلام . فقال له الخليل : إنّما أنتم ، معشر الشعراء ، تبع لي ، وأنا سكان السفينة : إن قرّظتكم ورضيت قولكم نفقتم ، وإلاّ كسدتم . فقال ابن مناذر : والله لأقولنّ في الخليفة قصيدة امتدحه بها ، ولا أحتاج فيها إليك عنده ولا إلى غيرك . فقال في الرشيد قصيدته التي أوّلها : ما هيّج الشوق من مطوّقة . . . .» (الأغاني ج18 ص 117) .

2 يذكر ابن عبد ربّه هذه المناظرة ويورد جواب العتابي : «ما نشف بالهجير ماؤه ، وستره عن تلويحه غشاؤه ، من التبرية القشور ، الدرّيّة الظهور ، الفضيّة الكسور» . (العقد الفريد ج4 ص 173) .

3 وجواب العتابي كما يورده ابن عبد ربّه : «البرْية المستوية القِطة التي عن يمين سِنها قُرنة تأمن معها المجّة عند المَدّة والمَطّة . للهواء في شقّها فتيق ، والريحُ في جوفها خريق ، والمِداد في خرطومها دقيق» . (المصدر نفسه ج4 ص173) .

4 المصدر نفسه .

5 كان ذلك عام خمسة وثمانين حسب روايتَي السيوطي وابن عبد ربّه . انظر (العقد الفريد ج1 ص 166 والمزهر ج1 ص 223) .

يتردّد في ذهنه ذلك الخاطر : في الفرس عشرون اسماً للطير . فيطلب الأصمعي فوراً[1] ، والأصمعي حاضر مترقّب حاملاً في ذهنه دائرة معارفه . يصدر عنه الجواب سريعاً : «نعم يا أمير المؤمنين وأُنشدُك شعراً جامعاً لها»[2] . ويبدأ الانشاد ، وترفرف في جوّ الجلسة أجنحة الطيور : الهامة والنسر والنعامة والعصفور والديك والدجاجة ، وفرخ القطاة والسُماني والغراب والصقر والقطاة وما إلى ذلك . فتطيب نفس الرشيد ويرتوي فضوله ويأمر للأصمعي بعشرة آلاف درهم .

مواقف الرشيد في الفقه واللغة

إذا كان الخلفاء ، قبل الرشيد ، تذوّقوا الأدب وصدرت عنهم آراء وتعليقات ، فإنّهم نادراً ما كانوا يلتزمون مواقف بالنسبة لما يعرض أمامهم من موضوعات . وهذا ما يجعل الرشيد يتميّز من معظمهم ، ويجعل للأجواء الأدبية والفقهية والعلمية ، في حياته ، اتّجاهاً واضحاً هو الاتّجاه الذي اختاره ودعمه . . . لقد رأينا أنّ للرشيد موقفاً على صعيد الالتزام بالتعاليم الدينية وعلى صعيد الاجتهادات الفقهية ، هو موقف الخوف من الله والإيمان المطلق بالرسل ، والحبّ الشديد لمحمد ﷺ ، وتصديق الأحاديث التي تسند اسناداً موثوقاً ، مهما كان فيها من تناقض ، ومهما بدت بعيدة عن الواقع والمنطق . وهذا مظهر من مظاهر رفضه اخضاع الإيمان إلى حكم العقل . والمظهر الآخر لهذا الرفض كان منع الجدلِ في الدين ومناقشةِ التعاليم ، واعتبارَ المتكلّمين زنادقة تجب ملاحقتهم والتنكيل بهم[3] . وللرشيد رأي في مسائل بسيطة كطريقة القراءة مثلاً . فقد كان للفقهاء اجتهاد فيها وظهر لها أقطاب عرفت لكلّ منهم قراءته . وقد أعجب الرشيد بطريقة الكسائي ، كما أعجب بقراءة سعيد العلاف الذي كان هارون «يحظيه ويعطيه» حتى عرف بـ«قارىء» أمير المؤمنين»[4] . وأمير المؤمنين ، إذ يكرّس احترام العلماء ويتغاضى عن تصرّفات لهم لا تُقبَل من سواهم ، يحاول دائماً أن يحدّد لهم نفوذهم عليه بحدود المشورة التي يعود له الأخذ بها أو إهمالها حسب الهام الله له . فالخليفة شخص متميّز دينيّاً ، متميّز بنسبه القرشي وباختيار الله له

---

1 يقول ابن عبد ربّه : «قال الأصمعي : فدخلت الميدان لشهودها فيمن شهد من خواص أمير المؤمنين . . . فجاء فرس . . . لهارون الرشيد سابقاً . . . . فنوديت من كلّ جانب . فأقبلت سريعاً حتى مثلت بين يديه . فقال : يا أصمعي . . . صفه من قونسه إلى سنبكه فإنّه يقال إنّ فيه عشرين اسماً من أسماء الطير» . (العقد الفريد ج1 ص166) .

2 يذكر السيوطي أنّ الشعر لجرير ويذكر ابن عبد ربّه أنّ الشعر لأبي حزرة (وهي كنية جرير) وكلاهما يذكران الأبيات نفسها وعددها ثلاثة عشر بيتاً ويشرحانها شرحاً وافياً وتبدأ هكذا :

وأقبَّ كالسِرحانِ تَمَّ لهُ ما بينَ هامتِهِ إلى الفَرجِ

انظر مراجع الهامش 5 من الصفحة السابقة .

3 راجع فصل الصراع العصبي ـ عنوان «العصبية الدينيّة» .

4 المعارف ص 180 .

من بين سائر الخلق . وهذا يجعل له على العلماء ، أيّاً بلغت معرفتهم وعلومهم ، سلطاناً وحقّاً في التأييد والدعاء . فهو يقول لمحمد بن الحسن الشيباني ، بعد أن عاتبه لعدم وقوفه اجلالاً له ، وبعد استشارته في بقاء بني تغلب على النصرانية ، وبعد أن أمر له وللعلماء من إخوانه بمال وفير : «إنّ الله أمر نبيّه بالمشورة ، فكان يشاور في أمره ، ثم يأتيه جبريل (عليه السلام) بتوفيق الله . ولكن ، عليك بالدعاء لمن ولاّه الله أمرك . ومرْ أصحابك بذلك . وقد أمرت لك بشيء تفرّقه على أصحابك . فخرج له مال كثير ففرّقه»[1] . وفي هذه المواقف تظهر حنكة الرشيد الإدارية وبُعد نظره السياسي اللذان يصبّان في مجرى تأكيد سلطان الخليفة المطلق ، لأنّ السلطان العسكري تفرضه الجيوش والشرطة ، والسلطان المادّي تفرضه الأعطيات وحسن استخدام دخل الدولة . أمّا السلطان الديني فيقوم فيه الفقهاء والأئمّة بدور كبير . ولعلّ هذا وراء حقيقة معروفة في الدولة الإسلامية وهي أنّ جميع الأحزاب المناوئة للسلطان كانت أحزاباً دينية . فالرشيد ، إذن ، يستميل الفقهاء إليه بالعطاء والإكرام المعنوي ، ويتوخّى ، في الآن نفسه ، أن يؤكّد لهم تبعيّتهم له حتى على صعيد العلم الديني . فهو علم باشراف الخليفة ، يخدم استشاراته ، وله أن يقبله أو يرفضه بما لديه من «تفويض الهي» .

ومواقف الرشيد الدينية هذه لم يكن لها ما يماثلها على صعيد اللغة . ولعلّ ذلك يعود إلى أنّ الدين والتعاليم ترتبط مباشرة بمقام الخلافة ، بينما ارتباط اللغة بعيد وغير مباشر . لذلك لم يكن له اتّجاه معين من صراع المدارس اللغوية الذي بلغ أوجه في عصره . لقد استقبل في بلاطه زعماء الكوفة والبصرة وسواهم من أئمّة اللغة . وأحبّ لهم أن يتناقشوا بين يديه . وكان موقفه ، من كلّ مجلس ، موقف الحكم العادل الذي يعطي حكمه عن قناعة تتولّد ممّا يقال أمامه وما يُقدَّم من حجج . وإذا كان هناك من طعن على تجرّد يحيى بن خالد في مناظرة الكسائي وسيبويه ، فإنّ أحداً من الرواة لم يقم الرشيد في موقف التحيّز . وإذا كان الكسائي مربيه ومربّي أولاده فهذا لا يمنعه من تنبيهه إلى حدوده بلطف ، وهي حدود اللغة أكثر منها الشعر والأخبار . أمّا بالنسبة إلى الشعر ، جدّيه وخفيفه ، فكان له موقف ندرسه في المناظرات الأدبية ، وفي بحثنا للعصبية العربية .

---

1 تاريخ بغداد ج2 ص 174 .

الفصل الثاني
مظاهر الأدب ومجالسه في حياة الرشيد

تمهيد : الرشيد الأديب

إنّ الحديث عن المظاهر الأدبية حول الرشيد يحتّم علينا إبراز الجوانب الواضحة والخفيّة في شخصيّة الرشيد التي تَحلّق حولها جميع ما أُنتج من أدب في بلاطه . ولكي نستطيع الإحاطة بهذا الموضوع الواسع المتشعّب ، اتّساع حياة الرشيد وتشعبّها ، لا بدّ من تجزئة له ، تسهيلاً للدراسة . فنبدأ ، قبل أي شيء آخر ، بالإشارة إلى أمرين مهمّين : أوّلهما أنّ الرشيد كان مثقّفاً ثقافة أدبية واسعة . فقد حفظ القرآن وتمعّن في آياته ، وروى الأحاديث ، واختزن في ذهنه الأبيات والقصائد من الشعر ، والروايات لها والتعليقات عليها ، لا يفرق في ذلك بين قديم الشعر وحديثه . وثاني الأمرين أنّ الرشيد كان أديباً أكثر منه متأدّباً . فلقد مارس العمل الأدبي في جميع مظاهره المعروفة في أيّامه : أحيا مجالس الفقه واللغة ، كما رأينا ، نظم الشعر الرقيق وألقى الخطب وأنشأ الكتب والرسائل ، كما صدرت عنه الإجابات البليغة والأقوال المأثورة . وأبرز ملامح هذه الشخصية الأدبية تجلّت ، فضلاً عن المجالس الأدبية التي يأتي الحديث عنها ، في التمثّل الشعري ، سواء منه الفردي ، أو المتبادل مع الجلساء ، وفي استنشاد الأبيات والقصائد طلباً للمتعة الأدبية ، وفي الاستجابة للأدب كمثير للكثير من الأحاسيس والانفعالات ، وفي تشجيع لا حدود له للأدب والعلم . ونحن نتناول هذه الموضوعات تحت عنوانين كبيرين : المظاهر الأدبية والمجالس الأدبية .

العنوان الأوّل : المظاهر الأدبية عند الرشيد

أوّلاً : رواية الشعر والتمثّل به

كان الرشيد يجد ، في كلّ مناسبة ، بيتاً شعريّاً أو أبياتاً يتمثّل بها فتعبّر عن واقعه النفسي ، أو تحمل أغراضه . وهذا ما تبارى المؤلّفون في روايته عنه . فإذا ما انتابه الحزن الهائل لموت والدته يجد ، بعد أن وسّدها الثرى ، متنفَّساً له في أبيات متمم بن نويرة ، فيتمثّل بها طالباً العزاء[1] . وإذا أعجبه شعر النمري في زوال الشباب ولمس في نفسه حسرة شبيهة بحسرة الشاعر ، تمثّل بيتين يحفظهما في المعنى نفسه[2] . وإذا عجب لفطنة المأمون وشعر بنشوة الفخر بالولد وجد بيتاً من الشعر يعبّر عن الخير الكبير الذي كان يتوسّمه فيه[3] . وحين اعتزم قتل جعفر البرمكي تمثّل ببيت

---

1 النجوم الزاهرة ج2 ص 73 (والقصيدة كاملة في جمهرة أشعار العرب ص 292) .

2 أتأمل رحبة الدنيا سفاها . . . (زهر الآداب ج3 ص 668) .

3 وأنت امرؤ يرجى لخير وإنّما . . . (ياقوت المستعصمي ، أسرار الحكماء ص 107) .

اللعين المنقري[1] ، ثم قتله ، متمثّلاً على عقوقه[2] . وإذا رأى مظاهر الأسى العام على التنكيل بالبرامكة تَمثّل مؤكّداً حتميّة ما جرى لهم[3] . ثم يحسّ ببعض الندم وبالفراغ الكبير الذي خلّفوه فيتمثّل ببيت للحطيئة[4] . وفي مناسبات عديدة أُخرى ، سياسية أو عائلية ، يجد الرشيد أبياتاً في متناوله يستشهد بها ، كما فعل إذ لام سليمان بن أبي جعفر الهاشمي على هروبه من أهل الشام حين كان والياً عليهم ، وأظهر له استياءه وخيبة أمله بينما مروان خرج ، في ظروف مماثلة ، مصلتاً السيف ، متمثّلاً ببيت للجحاف بن حكيم[5] . وكما فعل حين استشعر الغدر من بعض بني العبّاس فأنشد أبيات عبد الله بن جعفر العلوي[6] ، وكذلك فعل حين صمّم على عقد ولايات العهد[7] . ومن جميل استشهاداته ، حين عرض له اعرابيّان ومدحاه فأبدع أحدهما بينما قصّر الآخرُ ، انشادُه بيت ربيعة الرقي :

لَشتّانَ ما بينَ اليزيدينِ في النَدى　　يزيدِ سُليمٍ والأغرِّ ابنِ حاتمِ[8]

وحين مدحه اعرابي فلم يعجبه مدحه لامه ألاّ يقول فيه كما قال مروان ابن أبي حفصة في معن بن زائدة[9] . وظلّت هذه الرغبة في التمثّل والانشاد تلازمه ملازمة ثقافته وذاكرته الشعرية حتى لحظة مماته ، كما يزعمون . فيذهب ابن الأثير إلى أنّه ، حين أحسّ بدنوّ أجلَه ، راح يتمثّل منشداً :

أحينَ دنا ما كُنتُ أرجو دُنُوَّهُ　　رَمتْني عيونُ الناسِ من كلِّ جانبِ . . .[10]
(الأبيات) .

وأنّه حين كان يجود بنفسه ، راح يتشدّد متمثّلاً :

وإنّيَ مِن قَومٍ كِرامٍ يَزيدُهُمْ　　شِماساً وصَبْراً شِدَّةُ الحَدَثانِ[11]

ولا شكّ في أنّ ثقافة الرشيد الشعرية التي تستطيع أن تمدّه بهذا الفيض من الاستشهادات في اللحظة المناسبة ، هي ثقافة لا يستهان بها . وقريب من مظهر التمثّل هذا ، تبادل التمثّل بالشعر ، وإن كان التبادل أبعد مرمى وأوسع ميداناً لأنّه يفترض مبادرة يحفزها بعض التحدّي كما يفترض ثقافة

---

1 وما بُقياً عليّ تركتماني . . . (البغدادي ، خزانة الأدب ج2 ص 344) .
2 من لم يؤدّبه الجميل . . . (الإمامة والسياسة ج2 ص 167) .
3 إذا بدت للنمل أجنحة . . . (مروج الذهب ج3 ص 297) .
4 الجهشياري ، الوزراء والكتّاب ص 258 .
5 العقد الفريد ج4 ص 214 .
6 المصدر السابق ج2 ص 182 .
7 المسعودي ـ مروج الذهب ـ (دار الأندلس) ج3 ص 352 .
8 الأغاني ج16 ص 195 .
9 العقد الفريد ج5 ص 290 والعمدة ج2 ص 113 .
10 ابن الأثير الكامل في التاريخ ج5 ص 130 .
11 المصدر السابق . وسواء أصحّت هذه الروايات ، أم لا ، فإنّ ورودها على لسان ثقة كابن الأثير يدلّ على ما بلغه حبّ الأدب عند الرشيد ، حتى يصدَّق عنه خبر كهذا أو يروى .

مماثلة عند من يحيطون بالرشيد وعند من يتعامل وإياهم ، وهذا يحملنا إلى وجه من وجوه أدب البلاط يقوم على اعتماد الشعر حجّة على خصم أو تمهيداً أمام رغبة . ومن أشهر هذه المبادلات ما قام بين الرشيد وزوجته زبيدة حول كاتبه أبي صالح وكاتبها سعدان[1] . ومنها ما دار بين الرشيد وظئره أم جعفر بن يحيى بعد قتل ابنها وحبس زوجها . فقد جاءت إلى البلاط تشفع ليحيى وتُرقّ له قلب أمير المؤمنين ، في حديث طويل نورد منه فقط ما دار بينهما من استشهادات ، كما يرويها لنا ابن عبد ربّه . فالرشيد أراد أن يشير إلى حتميّة ما حصل وكونه أمراً مقدّراً لا مناص منه ولا رجوع عنه فقال :

وإذا المَنيَّـــةُ أنشَبَتْ أظفارَهـــا ... أَلفَيـــتَ كلَّ تَميمـــةٍ لا تَنفَـــعُ

فردت عليه ، متنصّلة من كونها تميمة ليحيى ، فالذي يشفع بزوجها أعماله ، واستشهدت بالبيت :

وإذا افتقرتَ إلى الذخائرِ لم تَجِدْ ... ذُخـراً يكـونُ كصالحِ الأعمالِ

«هذا بعد قول الله عزّ وجلّ : ﴿والكاظمينَ الغيظ ، والعافين عن الناس . واللهُ يحبّ المحسنين﴾ فأطرق هارون مليّاً ثم قال : «يا أمّ الرشيد ، أقول :

إذا انصرفتْ نفسي عن الشيءِ لم تكد ... إليـهِ ، بِوجـهٍ ، آخـرَ الدهرِ ، تُقبِلُ

فردّت عليه مستشهدة :

سَتَقْطَعُ ، في الدُنيا ، إذا ما قَطَعْتَني ، ... يمينَكَ فانظرْ أيَّ كَفٍّ تَبـدَّلُ . .»[2]

ويروي لنا المرصفيّ موقف تبادل شعري بين الرشيد ورافع بن الليث الخارج عليه والهازم لجنده والذي اضطرّه للسير بنفسه في رحلة الموت إلى طوس . فقد دفع رافع «كتاباً إلى الرشيد وكتب في أسفله :

إذا جئتُ عاراً ، أو رَضيتُ بِذِلّةٍ ، ... فنفسي ، على نفسي ، من الكَلبِ ، أَهْوَنُ

فكتب إليه الرشيد كتاباً وكتب في أسفله :

ورفعُكَ نفساً ، طالباً فوقَ قَدْرِها ، ... يسوقُ لكَ الحتفَ المُعَجَّلَ والذُلاّ[3]

---

1 راجع ص 164 من البحث .

2 العقد الفريد ج5 ص 63 وقد أوردنا الأبيات كما رصفها صاحب العقد . وإذا بدا فيها بعض الافتعال فالذي يفاجئنا فيه ليس بديهة الرشيد بل بديهة أم جعفر كما تصوّرها الحادثة . وقد تكون هذه المرأة على مستوى جيّد من الثقافة فهي زوجة ليحيى وأمّ لجعفر وكلاهما أديب مثقّف . وإذا كانت قد شاركت في إرضاع الرشيد وتأديبه ، فلا بدّ من أن تكون مميّزة . ومع ذلك فمن الصعب الاقتناع بجميع التفاصيل التي وردت في الخبر .

3 الشيخ حسين المرصفي ـ الوسيلة الأدبية ج2 ص 587 . إذا صحّ الخبر يكون تجشّم الرشيد الردّ على عدوّه يحفزه الثبات في ميدان التحدّي ، ومحاولة لاثبات التفوّق . فكأنّ رافعاً تحدّاه أدبيّاً ، في كتابه ، كما تحدّاه عسكريّاً بجيوشه . والرشيد قَبِل التحدّي الأدبي ، كما قَبِل التحدّي العسكري فأرسل كتابه جواباً وذيّله باستشهاد اعتدّه حجّة تلتهم حجّة عدوّه ، كما كان يتوقّع من جيوشه أن تبيد جيوش هذا العدوّ .

ويُظهر هذا التبادل ، إلى جانب الثقافة الشعرية ، صفةً مميّزة للرشيد : إنّه يَثبت للتحدّي ويكيل الصاع صاعين وأكثر .

ثانياً : الاستنشاد

وهذا المظهر الأدبي بعيد عن الجدل والتحدّي ، يحفز إليه ميل واضح إلى المتعة الأدبية ، تأكيداً للواقع الذي أشرنا إليه مراراً ، واقع أنّ الأدب ، من رواية ونظم ، كان بالنسبة إلى الرشيد غذاء يشبع الروح . وكأنّنا بالرشيد ، في حبّه للشعر ، يشبه هواة الاستماع إلى الموسيقى : يطربون لها ويحنون إلى سماعها ، لا يملّون إعادة ذلك وتكراره ، وينصتون إليها ، مع أنّ ألحانها متردّدة في أذهانهم ونفوسهم . فالرشيد في كلّ مناسبة ، وبلا مناسبة ، يطلب سماع الشعر ، ويحدّد الأبيات أو القصائد التي يريد أن تلقى أمامه والتي يفرضها مزاجه في لحظته ، مع أنّه قد يكون أدرى بها . ولعلّه يترقّب ، دائماً ، من الراوي ، فائدة جديدة ممّا قد يكون دار حول الشعر من أحداث . أو كأنّه ينتظر من المنشد أن يعمّق في نفسه الاستجابة الشعورية لمعاني القصيدة بجودة إلقائه . لذا كان يطرب للالقاء طربه للغناء الجيّد[1] ، ويعيّن منشداً خاصاً[2] يلازم البلاط ، يلقي على مسمعه ما شاء من قصائد مروية ، أو يأخذ عن رواد البلاط الجدد القاء قصائدهم ، ضمانة لحسن وقعها . . . . وكم من مرّة أحرج الرشيدُ جلساءه بطلبه سماع شعر لا يرويه أي منهم . وقد كان دوماً ، على الجلساء ، أن يظلّوا مستعدّين لقول شعر أو روايته أو ارتجاله حين تكون نفس الرشيد متعطّشة إليه . ونحن نعرض بعض نماذج الاستنشاد . فمنها ما رواه القالي عن كثرة استنشاده الزبير بن بكّار شعر عبد الله بن مصعب :

وإنّي ، وإن قصّرتُ مِنْ غيرِ بُغضةٍ ، لَــراعٍ لأسبابِ المَــوَدَّةِ ، حافـظُ[3]

ومنها ما رواه الأصفهاني على لسان محمد البيدق (الراوية) : أنّ الرشيد قال له يوماً : «أنشدني مرثية مروان بن أبي حفصة في معن بن زائدة التي يقول فيها :

كأنَّ الشمسَ ، يــومَ أُصيبَ مَعْــنٌ مِــنَ الإجلالِ ، مُلْبَسَةٌ جَلالا . . . .

قال . فأنشدته إيّاها . ثم قال لي : أنشدني قصيدة أبي موسى التميمي في مرثية يزيد بن مزيد ، فهي والله أحبّ إليّ من هذه . فأنشدته :

أَحَــقٌ أنَّهُ أودى يَزيـــدُ ؟ تَبَيَّنْ ، أيّها الناعــي ، المُشيدُ . . . .

قال : فبكى هارون الرشيد . . .»[4] ويقول ابن الأثير[5] : «كان الرشيد إذا سمع هذه المرثية

---

1 الأغاني ج18 ص 146 .

2 هو محمد البيدق . راجع ص 95 و96 من البحث .

3 الأمالي ج1 ص 254 .

4 الأغاني ج19 ص 323 .

5 الكامل في التاريخ ج5 ص 111 .

بكى . وكان يستجيدها ويستحسنها» . وكان في نفسه ميل إلى الوليد بن يزيد ، على رغم عداوته التقليديّة للأمويين ، ولعلّ مردّ ذلك إلى أنّ الوليد مرّ بمحنة شبيهة بمحنته أثناء ولاية العهد ، كما أنّ الوليد شاعر مطبوع ظريف ، والرشيد يحبّ الظرفاء . لذا فقد سأل مروان بن أبي حفصة ، عند دخوله إليه ، أن ينشده شيئاً ممّا سمعه من شعر الوليد ، وطلب إليه أن يحدّثه عنه دون حرج أو خوف . فأنشده شعراً «ذكر فيه هشاماً وتحامله عليه وما كان يريد من نقض أمر ولايته»[1] . وحين دخل إليه مسلم بن الوليد وراح ينشده أفضل أشعاره ، كان «كلّما فرغ من قصيدة ، قال له : التي تقول فيها : الوحل ، فإني رويتها وأنا صغير . فأنشده شعره الذي أوّله :

أديرا عليَّ الكأسَ ، لا تشرَبا قَبْلي ، ولا تطلُبا ، من عندِ قاتِلتي ، ذَحلي . . .[2]

«وركب الرشيد يوماً قبّة ، وسعيد بن سلم معه في القبّة . فقال : أين محمد البيدق ؟ . . . فحضر . فقال : أنشدني قصيدة الجرجاني . فأنشده . فقال : الشعر في ربيعة ، سائر اليوم»[3] . ويتبادر إلى الذهن سؤال : ماذا يكون موقف الرشيد إذا طلب سماع شعر لا يرويه أيٌّ من جلسائه ؟ والجواب أنّه حينذاك ، يتوجّه إلى المنتظرين ببابه[4] . ويبدو لنا هنا أثر الرشيد الواضح في ترسيخ عادة رواية الشعر التي كانت دائماً معروفة في الأدب العربي .

ثالثاً : الاستجابة للمثير الأدبي

لعلّ الرشيد يساوي ، في حبّه للأدب والتشجيع عليه ، كثيرين من الخلفاء الأمويين والعبّاسيين . لكن هذا الحبّ ، عند الرشيد ، له نكهة خاصّة : إنّ المتتبّع لأخباره يحسّ أنّه ملك شغاف قلبه وملأ عليه حياته . ولو أنّنا استعرنا اسلوب علماء النفس والاجتماع في النظر للأمور وتعليلها وإعادة المظاهر العديدة من السلوك إلى حافز رئيس مولد ، لأمكننا الحديث عن ظاهرة عند الرشيد يلعب فيها الأدب دور المثير وتكون الاستجابة له مختلف أنواع الأحاسيس المعروفة ، من عزاء وسلوى إلى غيرة ونقمة ، إلى الشعور بالاسترخاء بعد التعب ، وبزوال الألم في حالة المرض . حتى الأحاسيس الجنسية كان الأدب مثيراً قويّاً لها عند الرشيد . ولا بدّ لنا من عرض بعض المواقف للدلالة على ما نذهب إليه .

1 ـ الاحساس بالقوّة والنشاط

كم من مرّة لعب الأدب في حياة الرشيد دور المرفّه في حالة التعب والمهدّىء في حالة الغضب ، ومخفّف للألم حين يكون ألم . من ذلك ما رواه الأصمعي قال : «دخلت وإسحاق بن إبراهيم

---

1 الأغاني ج10 ص 84 . راجع ص 90 هامش 3 من البحث .

2 العقد الفريد ج2 ص 181 . راجع ص 48 وص 91 هامش 5 من البحث .

3 الأغاني ج11 ص 146 .

4 الأغاني ج13 ص 16 . وراجع الخبر عن رواية قصيدة الأسود بن يعفر ص 183 من البحث .

الموصلي يوماً على الرشيد ، فرأيناه لَقِسَ النفس . فأنشده إسحاق :

وآمـرةٍ بالبُخـلِ قلتُ لهـا : اقصِري فذلكَ شيءٌ مـا إليـهِ سبيلُ . . .[1]

(الأبيات)

فإذا تَعَبُ الرشيد ينقلب نشاطاً وحيوية ، وتنشرح نفسه فيشرع في تقريظ أبيات إسحاق حتى قال له هذا : وصفك ، والله يا أمير المؤمنين ، لشعري أحسن منه»[2] . وحين غضب الرشيد على عيسى بن جعفر أنشده الأصمعي بيتين من الشعر أعدّهما لمناسبة شبيهة «فتجلّى عنه»[3] . وحين قال للأصمعي . «يا عبد الملك أنا ضجر ، وقد جلست ، أحبّ أن أسمع حديثاً أتفرّج به . فحدّثني بشيء» ، حدّثه الأصمعي بقصّة العاشق وهو ابن ستّ وتسعين سنة . وأنشده بعض الأشعار «فضحك الرشيد حتى استلقى»[4] . وحين سارّه مسرور شيئاً بحضور إبراهيم الموصلي ، «فاستشاط غضباً واحمرّت عيناه وانتفخت أوداجه . .» وراح يهدّد آل علي ، توسّل الموصليّ بشعر غنّاه به وأعاده حتى استكان[5] . وحين كان الرشيد محموماً ، دخل عليه الأصمعي فقال له . «أنشدني يا أصمعي ، شعراً مليحاً ارتضيه . . .»[6] وقد بلغ الأمر ، بتأثّر الرشيد الأدبي أن يعزل والياً لأنّ شكوى قدّمت بحقّه قيلت بأسلوب بليغ . فقد انبرى له العمري أثناء الحجّ ، يطلب منه عزل إسماعيل بن القاسم والي مكّة لأنّه «يقبل الرشوة ويطيل النشوة ويضرب بالعشوة»[7] . وقد اعتدّ الرشيد عزل ابن القاسم مكافأة للعمري على بلاغته .

2 ـ الاحساس بالغيرة

يكون ذلك إذا صدر الأدب عن منافس أو قريب له ، خطير . فهو ، كما يغار على حرمه أن تنظر إليها عيون الغرباء ، كما يغار من إبراهيم الموصلي أن تقصده جواري اخته عُليّة بلحن من ألحانها[8] ، فإنّه يغار من عبد الملك بن صالح في أقواله البليغة وأدبه الرفيع حين يسأله عن بلده منبج ، فيقول ، بعد وصفها بالحسن : «فكيف لا تكون كذلك وهي تربة حمراء وسنبلة صفراء وشجرة خضراء ؛ فياف فيح ، وجبال وضيح ، بين قيصوم وشيح» . ويروي المسعودي أنّ الرشيد حين سمع هذا الكلام

---

1 الأبيات موجودة في نهاية الأرب ج5 ص 7 وزهر الآداب ج4 ص 1041 ووفيات الأعيان ج1 ص 115 وتاريخ الخلفاء ص 295 والأغاني ج5 ص 292 وراجع بعض التفاصيل ص 79 هامش 3 من البحث .

2 الأغاني ج5 ص 292 .

3 تاريخ بغداد ج14 ص 9 وانظر ذيل الأمالي والنوادر للقالي ج1 ص 183 .

4 تاريخ بغداد ج10 ص 413 . انظر ص 572 من البحث .

5 الأغاني ج5 ص 204 .

6 الأغاني ج22 ص 377 . راجع ص 108 هامش 3 من البحث .

7 زهر الآداب ج4 ص 1016 .

8 الأغاني ج5 ص 199 .

التفت إلى الفضل بن الربيع فقال : «ضرب السياط أهون عليّ من هذا الكلام»[1] . ولا غرو في ذلك إذا كان عبد الملك متّهماً في نظر الرشيد بأنّه ينوي الخروج عليه والدعوة إلى نفسه ، وقد حبسه وأبقاه في الحبس بقيّة أيّام حكمه .

3 ـ الأدب مثير للأحاسيس الجنسية

ومهما يبد هذا غريباً فإنّنا نعتبره مظهراً متولّداً من الترف الفكري الذي كان في أوجه أيّام الرشيد ، والذي نجم ، هو الآخر ، عن الترف المادي . ولمزيد من الإيضاح نذكّر بأنّ الامبراطورية العربية ، أيّام الرشيد ، كانت واسعة ، يتاخم حدودها دول وشعوب كثيرة قامت بينها وبينهم علاقات من الغزو والصلح والحروب والردّات الانتقامية كان يقع في الأسر ، من جرّائها ، اعداد هائلة من سكّان هذه الدول يساقون إلى بغداد وغيرها ، يباعون عبيداً وجواري . ولسنا بصدد تعداد أنواع هؤلاء الأسرى وما تميّز به كلّ عرق منهم ، فقد كثر الحديث في هذا المضمار منذ الجاحظ ، ولكنّنا نريد أن نلفت النظر إلى أنّ تجربة هذه الأنواع ، واكتشاف هذه الميزات ، هي بالذات بعض مظاهر الترف الناجمة عن التخمة . فالمرء العادي جلّ همّه أن يشتري جارية تخدمه وتشبع حاجاته المادية . فإذا غدا أكثر مالاً تعدّدت جواريه فجرّب الأجناس والألوان منها وخبر ميزاتها ، أمّا إذا تكاثرت عليه النعمة وعمر بيته آلاف الجواري[2] ، فهو حينذاك لا يعود يبحث عن جمال مادّي أو ميزة عرقيّة ، بل يبحث عن ميزة إنسانية مجرّدة ، عن ذكاء وظرف ، عن مرح ، عن صوت جميل يكون محور ليالي السمر والطرب . حتى هذه الميزات تنتهي بأن تورث الضجر والملل وتحدو إلى البحث عن النادر ، وأحياناً عن الشاذ . ومن هذا الشاذ قلب المقاييس العرفية وابتكار فنون من المتعة الحسيّة لدى غلمان مخنثين ، وبالمقابل استكناه متعة أدبية لدى جوار ما كنّ يُستخدمن إلاّ لمتعة الحسّ والنظر والسمع . فالجواري الأديبات قد يكنّ وجدن في العصور السابقة ، إنّما متفرّقات . أمّا تطلّب الأدب والرواية وقرض الشعر من الجارية[3] ـ وأحياناً الحديث والفقه ـ فقد كان طابع عصر الرشيد بالذات[4] ، ومنه كان منطلقه إلى حقب التاريخ . ولكن العصر ، لكي يحقّق ذلك ، كان عليه أن ينجب عباقرة ، من آل الموصلي وغيرهم ، ألمّوا بكلّ لون من ألوان المعرفة إلى جانب اتّقانهم فنّ الغناء ، ورأوا بثاقب بصيرتهم ما يمكن أن

---

1 المسعودي ـ مروج الذهب ج3 ص 309 .

2 ذُكر أنّ محمد بن سليمان الهاشمي ، على سبيل المثال ، ملك خمسين ألف عبد منهم عشرون ألفاً عتقا (النجوم الزاهرة ج2 ص 74) وكان يزيد بن مزيد قائد جيوش الرشيد «صاحب وصائف» قيل له : ما السرور ؟ قال : «قبلة على غفلة» (العقد الفريد ج6 ص 220) .

3 انظر جبور عبد النور في كتاب الجواري ص 61 وما بعد .

4 يقول الدكتور عبد النور : «وهارون الرشيد هو أوّل من غالى من العبّاسيين في تفضيل الجواري ، فإنّ معظم أولاده كانوا من أبناء إماء» (الجواري ص 84) .

يجنوه ، لا من تجارة الرقيق ، إنّما من الرقي بالجواري ، من حثالة رخيصة ، إلى فئة إنسانية مرفّهة حتى كثرت الجواري الأديبات الفنّانات ، وانفردت بعض منهنّ في دور لهنّ فتحنها لألّافهنّ الذين جاؤوا يطلبون عندهنّ ترفيهاً أو سلوى وعزاء . ونستطيع أن نؤكّد أنّ بعض هذه الدور كانت «صالونات» أدبيّة فعليّة سبقت «صالونات النساء» النبيلات التي عرفتها أوروبا في القرن السادس عشر ، وكانت مرتعاً للأدباء ومرتاداً لهم يدخلون إليها ، بلا قيود ، ويطلقون فيها أدبهم على سجيّته : لا شروط مدرسية ولا شروط اجتماعية أو طبقية ، بل ظروف إنسانية حقيقيّة يكون فيها الشاعر الرجل أمام المرأة الشاعرة ، وتقوم مناظرات بين طاقاتها الأدبية وطاقاته ، يحلّقان تارة حتى يلامسا الأدب العذري ، ويسفّان أخرى حتى يتمرّغا في الأدب المكشوف . وهذا كلّه مظهر إنساني تطوّري طبيعي ، عرفه العصر . أمّا ما تميّز به الرشيد ، وما جعله يتربّع على قمّة الترف الفكري ، فهو أنّه اتّخذ المقياس الأدبي قولاً فصلاً في اختيار الجارية التي عليها اشباع حاجاته الجسدية . من هنا ما نشير إليه من أنّ الأدب يشكّل مثيراً لأحاسيس الرشيد الجنسية . ويلجأ الرشيد أحياناً إلى «لجنة فاحصة» تجري امتحاناً أدبيّاً للجارية التي تنام معه لليلته[1] ؛ أمّا إذا كان الرشيد هو الذي يفاضل فإنّ الامتحان يتحوّل إلى مناظرة أدبية فقهيّة يحمى فيها وطيس التنافس لأنّ الجائزة هي نصف سرير الرشيد . وقد نعجب ، لأوّل وهلة ، من هذه المنافسة ، ولكن عجبنا يزول إذا عرفنا أنّ هذه الطريق سلكتها غير جارية لتصبح أمّ ولد من أولاد أمير المؤمنين ، بل أمّ خليفة للمسلمين . ولا بأس في عرض مناظرة فرضها الرشيد وحَكَمها ، حين

---

1 يروي البغدادي عن الأصمعي أنّ الرشيد الموجود في الرقّة استدعاه من بغداد بأمر صادر عن الفضل بن الربيع نفذه الأمين . وقد تلقّاه الفضل في الرقّة وأبقاه ثلاثة أيّام لا يتركه يتّصل بأحد ، وبعد ذلك يقول الأصمعي : «فأدخلني على الرشيد وهو جالس متفرّد . فسلّمت فاستدناني . . . وقال لي : يا عبد الملك ، وجّهتُ إليك بسبب جاريتين أُهديتا إليّ وقد أَخذَتا طرفاً من الأدب ، أحببتُ أن تبوّر ما عندهما وتشير عليّ فيهما بما هو الصواب عندك . ثم قال . ليُمضَ إلى عاتِكة فيقال لها : أحضري الجاريتين . فحضرت جاريتان ما رأيت مثلهما قطّ . فقلت لأجلّهما : ما اسمك ؟ قالت : فلانة . قلت : ما عندك من العلم ؟ قالت . ما أمر الله به في كتابه ثم ما ينظر الناس فيه من الأشعار والآداب والأخبار . فسألتها عن حروف من القرآن فأجابتني كأنّها تقرأ الجواب من كتاب . وسألتها عن النحو والعروض والأخبار فما قصّرت . فقلت : بارك الله فيك فما قصرتِ في جوابي في كلّ فن أخذتِ فيه ؛ فإن كنت تقرضين الشعر فأنشدينا شيئاً . فاندفعت في هذا الشعر .

يا غِياثَ البلادِ في كُلِّ مَحْلٍ ... مـا يُريـدُ العبـادُ إلاّ رضـاكَ

لا ، وَمَنْ شَرَّفَ الإمام وأعلى ... مـا أطاعَ الإلـهَ عبدٌ عصاكا

ومرّت في الشعر إلى آخره . فقلت : يا أمير المؤمنين ، ما رأيت امرأة في مسك رجل مثلها . وقالت الأُخرى ، فوجدتها دونها . . . فقال : يا عباسي . . ليُرَدّا إلى عاتكة ويقال لها : تصنعُ هذه التي وصفها بالكمال لتُحمل إليّ الليلة» (تاريخ بغداد ج10 ص 411) .

وجد نفسه بين جاريتين وقد اقترب موعد انسحابه إلى فراشه ، فسألهما : «من يبيت عندي هذه الليلة منكما ؟» وهنا كان سباق في الجواب : «أنا» «لا بل أنا» . ولعلّ سؤال الرشيد لهما كان نافلاً ، لأنّه يعرف في صميمه أنّ أيّاً منهما لن تتنازل عن فرصتها إلاّ مرغمة . وتفتّق ذهن الرشيد عن مناظرة . لتُدْلِ كلٌّ واحدة منهما بحجّة . فتوجَّه إلى الأولى : ما حجّتك فيما ادعيت ؟ قالت : قول الله ، يا أمير المؤمنين : ﴿والسابقون السابقون أولئك المقرَّبون﴾ . ثمّ قال للثانية : وما حجّتك أنت ؟ قالت : قول الله : ﴿وللآخرة خيرٌ لك من الأولى﴾ . «فطرب الرشيد وانتشى . لكن التوسّل بكلام الله لم يضع حدّاً فاصلاً للمناقشة . فكلتاها كانتا على حقّ . بقي الأدب إذن . لتقلّ كلّ واحدة منكما شعراً في الغزل . فمن كانت أرقّ شعراً باتت عندي . فقالت الأولى .

أنا التي أمشي كما يمشي الوَجي   يكادُ أن يَصرَعَني تَغَنُّجي

مِنْ جَنَّةِ الفِردوسِ كان مَخرَجي

وقالت الأُخرى .

أنا التي لم يَرَ مثلي بَشَرُ   كلاميَ اللؤلُؤُ حين يُنثَرُ

أسْحرُ مَنْ شئتُ ولستُ أُسحَرُ   لو سَمِعَ الناسُ كلامي كفّروا[1]

ولم يكن الأدب أوفر حظّاً في الامتحان . واستمرّت حيرة الرشيد ؛ لكنّه ما لبث أن وجد الحلّ المثالي لمناظرة يتعادل فيها الفريقان فقال : «قد أحسنتما وأجدتما وما لواحدة منكما فضيلة على صاحبتها . ولكني أبيت بينكما»[2] . وإن كانت هاتان الجاريتان قد تنافستا وتعادلتا فإنّهما لم تلامسا ، فيما قالتاه ، غرائز الرشيد مباشرة ، كما فعلت جارية أُخرى ماجنة[3] إذ عارضت بيت شعر لإسحاق في وصف طبق ورد وتعرضت للرشيد مشيرة إلى الفعل الجنسي الذي تتوقّعه منه . فلم يتمالك الخليفة نفسه ، بل صرف إسحاق ليخلو بها قائلاً : «قم يا إسحاق فقد حرّكتني هذه الفاسقة»[4] . و«فاسقة» أُخرى حرّكت الرشيد بحضور زبيدة . فقد «قعد الرشيد يوماً عند زبيدة ، ومعها جواريها . فنظر إلى جارية واقفة عند رأسها ، فأشار إليها أن تقبّله ، فاعتلّت بشفتيها . فدعا بدواة وقرطاس فوقّع فيه :

قبّلتُهُ مِنْ بَعيدٍ   فاعتلَّ مِنْ شَفَتَيهِ

ثم ناولها القرطاس فوقّعت فيه .

1 كفرّوا : أظهروا التعظيم والإجلال .

2 العقد الفريد ج6 ص 403 .

3 المصدر السابق .

4 المصدر السابق .

فمـا بَرِحْـتُ مكاني   حَتـى وَثَبْـتُ عليـهِ

فلمّا قرأ ما كتبت استوهبها زبيدة فوهبتها له فمضى بها وأقام معها اسبوعاً لا يُدرى مكانُهما»[1] . وقد عرفت جواري الرشيد ميله إلى الأدب[2] فرحن يخترعن للإثارة الأدبية فنوناً وفنوناً . فبعضهنّ جعلن من القول البليغ أو الشعر الغزل حلية كسائر الحلي تزين بها العصائب والثياب مثلما تزين بالوشي والقصب والجوهر[3] . وبعضهنّ جعلن من الشِّعر هدية تهدى تعبيراً عن اعجاب ولفتاً للنظر ، تحملها تفّاحة سرقت حمرة الخدود وخُطّت عليها الكلمات بغالية فعبقت بالطيب[4] ؛ أو يحملها رسول يخبّ الأرض إلى الرشيد البعيد . كما فعلت ماردة التي أرسل إليها الرشيد في دير زكّا شعراً يذكر حبّه وكتمانه ، فأجابته بشعر صنعه الشطرنجيّ بإرشادها . فما إن قرأ الرشيد كتابها حتى أنفذ من وقته خادماً على البريد حَدَرَها إلى بغداد في الفرات[5] ، تعبيراً عن

---

1 العقد الفريد ج6 ص 409 ويروي القالي البيتين مع بيتين آخرين عن المأمون إذ طلب الرشيد منه شعراً في جارية وهبه إيّاها بعد أن غمزها . الأمالي ج1 ص 225 . انظر ص 162 هامش 4 من البحث .

2 يروي ابن الجوزي عن الأصمعي خبر جارية عرضت على الرشيد . فتأملها ثم قال لصاحبها : «خذ جاريتك ، فلولا كَلَفٌ في وجهها وخَنَس في أنفها لاشتريتُها» . إلاّ أنّ الجارية ابتدرت الرشيد منشدة :

مـا سَلِمَ الظَبْـيُ على حُسنِهِ   كلاّ ولا البـدرُ الذي يُوصَـفُ
الظبـيُ فيـه خَنَسٌ بَيِّـنٌ   والبَدْرُ فيـهِ كَلَـفٌ يُعـرَفُ

«فأعجبتـه بلاغتهـا فاشتراهـا وقرَّب منزلها . وكانت أحظى الجواري عنده . (الأذكياء ص217) . (والتكلّف واضح في هذا الخبر) .

3 ذكر ابن عبد ربّه بالسند عن الأصمعي : رأيت على باب الرشيد وصائف على عصابة كل واحدة منهنّ مكتوب :

نَحـنُ حُـورٌ نَواعـمٌ   مِـنْ أراضٍ مُقَـدَّسَةْ
أحسَنَ اللهُ رِزقَنـا   ليسَ فِينـا مُنَحَّسَـهْ
فاتَّـقِ اللهَ يـا فَتـى   لا تَدَعْنِـي مُوَسْوَسَـهْ

(العقد الفريد ج6 ص 429) .

ويروي ابن عبد ربّه عن أبي الحسن قوله : «دخلتُ على هارون الرشيد وعلى رأسه جوار كالتماثيل . فرأيت عصابة منظّمة بالدرّ والياقوت ، مكتوباً عليها في صفائح الذهب :

ظلمتَنـي في الحـبِّ يا ظالـمُ   واللهُ فيمـا بيننـا الحاكـمُ

قال : ورأيت في عصابة أُخرى :

ما لي رَميتُ فلم تُصِبكَ سِهامي   ورَمَيْتَنـي فَأَصَبْتَنـي يـا رامي

قال : ورأيت في عصابة أُخرى : وضع الخدّ للهوى عز . قال : ورأيت في صدر أُخرى هلالاً مكتوباً عليه :

أَفْلَـتُّ مـن حُورِ الجِنـانِ   وخُلِقْـتُ فِتنَـةَ مَـنْ يـراني

(العقد الفريد ج6 ص 406) .

4 مروج الذهب ج3 ص 285 وراجع ص 165 من البحث .

5 الأغاني ج22 ص 52 والديارات ص 225 وراجع ص 202 وص 412 من البحث .

استجابته الفورية لاثارتها الأدبية . وهنا لا بدّ من سؤال يتبادر إلى الذهن : ترى ، أَوَعى رواة أخبار الرشيد هذه الناحية من مشاعره فلوّنوا أخبارهم بها وركّزوا على الفقرات المبرزة لاستجابته إلى هذا النوع من الإثارة ؟ أم أنّ هذا المظهر كان من الوضوح لديه بدرجة لم يمكنهم معها تجاهله ؟ والجواب في الحالين سواء ، إذ أنّه يتضمّن دائماً هذه الحقيقة : أنّ الرشيد ، الذي عاش في ترف مادّي ونفسي وفكريّ ، كان مشهوراً بكثرة معاشرته للنساء ، نسائه وجواريه . وأنّ ترفه الفكري كان يرقى بالحاجة الجنسية أحياناً ليؤجّجها بالفكر قبل أن يطفىء سعيرها بلقاء الجسد[1] . ونحن رأينا ذلك مع الجواري فما هو الموقف من زبيدة ؟ . . . الواقع أنّ زبيدة ، الزوجة الشرعية التي يحبّها ويكرمها ، أدركت أيضاً ما للشعر من سلطان عليه فراحت تستخدم هذه الإثارة في كلّ مرّة تحسّ أنّه ابتعد كثيراً عنها وأن الأوان قد آن لتبرز في مجال الرؤيا وتجتذبه إلى عشّ الزوجية ، متذرّعة بالأدب ، عوضاً عن الدلال (وهو أسلوب ابتذلته الجواري) ، وسيلةً للجلب والإغراء . هكذا ، حين ابتعد عنها وأطال المقام في الرقّة التي كان يستطيبها ، وصمّمت على اقناعه بالعودة إلى بغداد ، انتضت سلاح الأدب ليقوم مقام اللحاظ يذكّر بها ويثير الشوق إليها ، فقالت للشعراء : «من وصف مدينة السلام وطيبها في أبيات يشوّق أمير المؤمنين إليها ، أغنيته . فقال في ذلك جماعة منهم منصور النمري . فوقعت أبياته ، من جميع ما قالوا ، وانحدر الرشيد إلى بغداد»[2] . وهي ، إذ ينصرف عنها إلى جارية جديدة في البلاط ، يمنحها كلّ ما يطلبه الجديد من اهتمام ، منشغلاً عن قديمه كلّه ، تلجأ إلى أخته عُلَيّة فتنظم شعراً وتلحنه ثم تلقّنه ألفي جارية من جواريها تسيّرهنّ إليه ، فيقوم الرشيد على رجليه سروراً ، يستقبل زبيدة وعُلَيّة ويتوجّه إلى مسرور : «لا تبقينّ في بيت المال درهماً إلاّ نثرتَه»[3] ، ويؤوب إلى حليلته . أمّا حين يتخاصم الرشيد وزبيدة ، ويقف العند بينهما سدّاً منيعاً ، فإنّ شعراً يسمعه عفواً يدفعه إليها نشطاً معتذراً . ففي حالة كهذه سمع الرشيد غناء للزبير بن دحمان في شعر للعبّاس بن الأحنف فأحضرهما وأبقاهما عنده إلى الفجر يغنيه الزبير وينشده العبّاس :

جَرَى السيلُ فاستَبْكانيَ السيلُ إذْ جَرى	وفاضَتْ لَهُ مِن مُقلَتَيَّ غُروبُ
وما ذاكَ إلاّ حينَ خُبِّرتُ أنّهُ	يَمُرُّ بِوادٍ أنتَ منهُ قَريبُ
يكونُ أُجاجاً دونكُمْ فإذا انتهى	إليكُمْ تَلَقَّى طِيبَكُم فيَطِيبُ
فيا ساكِني شَرقِيِّ دِجلةَ كلُّكُمْ	إلى القَلْبِ من أجلِ الحَبيبِ حَبيبُ

---

1 راجع فصل الصراع بين الترف والحرمان .

2 ابن المعتزّ ـ طبقات الشعراء ص 246 ويروي البغدادي الخبر نفسه تاريخ بغداد ج1 ص51) وانظر ص87 هامش 5 من البحث .

3 الأغاني ج10 ص 180 ونهاية الأرب ج4 ص 209 (وراجع صراع الترف والحرمان ص 399 من البحث) .

حتى أصبح وقام ، فدخل إلى أمّ جعفر»[1] .

رابعاً : استخدام الرشيد للمثير الأدبي

وفي هذا الاتّجاه تهمّنا الأخبار التي تصوّر الرشيد متزوّداً ببيت أو أبيات من الشعر وداخلاً إلى قصر الحرم . وأكثر الأحيان يكون موضوع الشعر عتاب المحبوب لمحبوبه ، أو تألّم المحبّ العاتب ، أو تجاوز المظلوم عن ظلم المحبوب . ويستوقفنا ما رواه إسحاق بن إبراهيم الموصلي إذ قال : «دخلت على الرشيد يوماً فقال لي : يا إسحاق ، أنشدني أحسن ما تعرف من عتاب محبّ وهو ظالم متعتّب . فقلت : يا أمير المؤمنين ، قول جميل :

رِدِ الماءَ ما جاءَتْ بصفوٍ ذنائِبُهْ ... وَدَعْه ، إذا خِيضتْ بِطَرْقٍ مَشارِبُهْ
ومِنْ لذّةِ الدنيا ، وإنْ كنتَ ظالماً ، ... عناقُكَ مظلوماً وأنتَ تُعاتِبُهْ

فقال : أحسن والله ، أعدها عليّ . فأعدتها حتى حفظها ، وأمر لي بثلاثين ألف درهم . وتركني وقام فدخل إلى دار الحرم»[2] . ونحن لا نعرف نتيجة هذه القصّة لأنّها تنتهي في مكان محظور على الفضوليين . ولكن الإشارة إلى حفظ الرشيد للأبيات ، ثمّ قيامه إلى الحرم قبل أن ينساها ، دليل على قصّة عتب وغنج مع إحدى المحظيات ، قصّة أدركها الصباح فتوقّفت وأراد الرشيد لها أن تُستأنف ، واختار مثيراً ، فكان أبيات الشعر . ونستطيع أن نفهم ، أكثر ، فعل هذا النوع من الشعر إذا تابعنا القصة التالية ، بين الرشيد وماردة . فقد استدعى يحيى بن خالد العبّاس بن الأحنف وقال له : «إنّي أخبرك أنّ ماردة هي الغالبة على أمير المؤمنين ، وأنّه جرى بينهما عتب . فهي ، بدالّة المعشوق تأبى أن تعتذر ، وهو ، بعزّ الخلافة وشرف الملك ، يأبى ذلك . وقد رمت الأمر من قِبَلها فأعياني ، وهو أحرى أن تستفزّه الصبابة . فقل شعراً يسهّل عليه هذه السبيل» . وقد أدرك يحيى بحنكته أنّ الشعر هو أفضل رسول بين العشّاق ، فأقام العبّاس في القصر وتركه يقلّب القوافي والمعاني ، وهو يستحثّه بين الفينة والفينة ، حتى أتى بهذه الأبيات .

العاشقانِ كلاهُما مُتَغضِّبُ ... وكِلاهُما مُتَوحِّدٌ مُتعتِّبُ
راجعْ أحِبَّتَك الذين هجرتَهمْ ... إنّ المُتَيَّمَ قَلَّما يَتَجَنَّبُ
إنّ التَجَنُّبَ ، إنْ تَطاوَلَ مِنكُما ، ... دَبَّ السُلُوُّ فَعَزَّ منهُ المَطْلَبُ[3]

---

1 الأغاني ج8 ص 229 .

2 الأغاني ج8 ص 147 .

3 وتضيف الرواية أنّه كتب تحت ذلك .

لا بُدَّ للعاشقِ مِنْ وَقْفَةٍ ... تَكونُ بينَ الهَجْرِ والصَرْمِ
حتى إذا الهَجْرُ تمادى بهِ ... راجَعَ مَنْ يَهوى على رَغْمِ

فأخذ يحيى الأبيات ودفعها إلى الرشيد فعملت فيه عمل السحر . فهارون ، الذي امتلأ بعنجهيّة الملك وجافى مجافاة الكرامة ، ورفض كلّ تدخّل وأيّة مراجعة لموقفه ، نسي كلّ ذلك أمام اغراء هذه الأبيات ، «استغرب ضحكاً» ، ثم قال : «أي والله أراجع على رغم . يا غلام ، هات نعلي» . إلى هنا كانت الأبيات مثيراً للرشيد . بقي أن نتتبّع القصّة لنرى كيف كان وقعها على المحظية . وفي هذه المرّة يأتينا بالخبر العبّاس نفسه ، الذي أحسّ بالظلم والقهر . فقد انتُزع من منزله وقال ما قاله بانتظار ثواب لم ينله ، لأنّ الرشيد ، حين نهض ، أذهله السرور «عن أن يأمر له بشيء» ، فبقي في مكانه مترقّباً هذا «الشيء» . ولم يطل به الأمر ، إذ جاء رسول يُسارُّ يحيى . فالتفت هذا إلى العبّاس : «أتدري ما سارّني به هذا الرسول ؟ قال : لا . فقال : ذكر لي أنّ ماردة تلقّت أمير المؤمنين ، لما علمت بمجيئه ، ثم قالت له : يا أمير المؤمنين ، كيف كان هذا ؟ فأعطاها الشعر وقال : هذا الذي أتى بي إليك . قالت : فمن يقوله ؟ قال : العبّاس بن الأحنف . قالت : فبم كوفِئ ؟ قال : ما فعلت شيئاً بعد . قالت : إذاً والله ، لا أجلس حتى يكافأ . قال : فأمير المؤمنين قائم لقيامها ، وأنا قائم لقيام أمير المؤمنين ، وهما يتناظران في صلتك»[1] . هكذا غدا شعر العبّاس تذكرة الرشيد للدخول إلى قلب ماردة من جديد . وما جرى مع ماردة ، جرى مثله مع ذات الخال[2] ، وقد يكون جرى مع أُخريات .

خامساً : تطلّب الرشيد الأدب لدى كلّ من حوله

لقد بات دأبه أن يحيط نفسه بجوّ من الأدبُ أنى كان وأينما ذهب . لذا فقد تطلّبه عند جواريه ، كما رأينا ، ولدى نسائه[3] وجلسائه[4] ، وقواد جنده[5] . وكان وزراؤه أدباء قامت بينه

---

1 العقد الفريد ج6 ص 385 والنجوم الزاهرة ج2 ص 126 .

2 راجع ص 93 هامش 3 من البحث .

3 سبق لنا الحديث عن استخدام زبيدة للمثير الأدبي مع الرشيد . ونضيف هنا أنّها كانت محبّة للأدب ، روى عنها بعض الأبيات الشعرية (الوزراء والكتّاب ص 256 . انظر ص 163 من البحث) وكان لها مجلس أدبي خاص بها ذكره الأصفهاني على لسان عمرو بن بانة في قوله : «كنّا في دار أمّ جعفر ، جماعة من الشعراء والمغنّين ، فخرجت جارية لها ، كمّها مملوء دراهم» . (الأغاني ج18 ص372) . وهذا المجلس يمثل الوجه الآخر «للصالونات الأدبية» في هذا العصر ، نعني «صالونات» نساء الطبقة الراقية بمقابل دُور القيان والجواري الأديبات .

4 انظر مفاجأة الرشيد جلساءه بأسئلته عن الشعر تحت عنوان «الاستنشاد» ص 152 وما بعد وعنوان «الإجازة الشعرية» ص 199 وما بعد .

5 لقد كان للقائد يزيد بن مزيد مجلسه الأدبي ، يؤمّه الشعراء يمدحونه وينشدونه ، شأنه ، في ذلك ، شأن معظم كبار أهل العصر . وكان الرشيد يشجّعه على هذا . ونورد هنا حديثاً دار بين الرشيد ويزيد يمثل نموذجاً من النفحة الأدبية التي كانت لهذا القائد الكبير . يروي ابن خلكان أنّ الرشيد قال له يوماً : «يا يزيد ، إنّي أعددتك لأمر كبير . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّ الله عزّ وجلّ ، أعدّ لك منّي قلباً معقوداً بنصيحتك ويداً مبسوطة لطاعتك وسيفاً مشحوذاً على عدوّك ، فإن شئت فقل . .» (وفيات الأعيان ج3 ص 304) .

وبينهم مساجلات ومناظرات أدبية[1] . أمّا أولاده ، فقد عني بهم عناية خاصّة . أحضر لهم المؤدّبين الذيـن زوّدوه بثقافته ، أو من رضوه لهم ممّن تتلمـذ عليهم . وتتبّع تقدّمهم خطوة خطوة[2] . ثم أجزل العطايا والهبات للمؤدّب لكيّ يبذل علمه بسخاء[3] . وخلق مجالس أدبية نموذجية بحضورهم ، تنمية لذوقهم الأدبي . وقد قام في هذه المجالس ممتحناً أو موجّهاً ، ضارباً المثل لهم على الخليفة الأديب[4] . ولم يكتف بذلك بل حاول أن يخلق بينهم منافسة تزيد التحصيل[5] ، حتى توصّل إلى جعل الأداء الأدبي ثمناً يدفعه الولد ، مقابل حاجة ساعده والده على إشباعها[6] . ولا بدّ أخيراً من الإشارة إلى أنّ الرشيد الأديـب الذي كان يجـود على الأدباء ويسخو ، كان يأخذ مكافأته ، بالمقابل ، ما يجده لديهم من أدب . وبقدر ما كان الابداع يكبر كان عطاؤه يزداد ، وبقدر ما يكون الأدب من مصدر غير متوقّع ، تكون فرحته به أعظم ؛ فإلى المتعة الأدبية تضاف هنا حـلاوة الاكتشاف . ولا يلذّ الاكتشاف للمرء إلاّ إذا أظهره للآخرين ، وزها عليهم بسبقه إليه . وقد تطرف الرشيد في ذلك حتى جعله اكتشافُ أدب لدى من لا يتوقّعه منه يحرّك البلاط ويقتلع الجلساء من بيوتهم ويعقد لهم المجلس ، على عادته ، في أيّة لحظة من الليل أو النهار ،

---

1 انظر مجالس المناظرات ص 163 وما بعد من البحث .

2 الكسائي علّم الرشيد وظلّ يعلّم ولده إلى أن أصيب بالوضَح ، فاختار مكانه تلميذه الأحمر النحوي . وكان الكسائي يأتيهم في الشهر مرّة أو مرّتين ، فيعرضون عليه ، بحضرة الرشيد ، ما علّمهم الأحمر . (بغية الوعاة ص 334) .

3 انظر المصدر السابق في ما ناله الأحمر النحوي بعد أوّل درس أعطاه لأولاد الرشيد . راجع ص 426 هامش 10 وراجع ص 78 هامش 5 حول ما ناله الأصمعي .

4 انظر مناظرة الرشيد للضبيّ ص 138 من البحث ومناظرته للكسائي ص 174 .

5 المحاسن والمساوىء ج2 ص 84 .

6 يروي القالي والبغدادي حادثة عن جارية كانت تصبّ الماء على يديّ الرشيد فغمزها المأمون ، وكان فتى أمرد فانتبه الرشيد وعرف حقيقة الأمر وأشفق على المأمون من الجزع والخجل اللذين أصاباه فوهبه الجارية وقال له : «هي لك ، قم فادخل في تلك القبّة ففعل . ثم قال : هل قلت في هذا الأمر شعراً ؟ قال : نعم يا سيدي ، ثم أنشد :

ظَبْيٌ كتبتُ بِطَرفي مـن الضميرِ إليـهِ
قبّلتـهُ مـن بَعيـدٍ فاعتَـلَّ مِنْ شَفَتَيْهِ
وَرَدَّ أَخبـثَ رَدٍّ بالكَسْرِ من حاجبيهِ
فما بَرِحْـتُ مكاني حتى وثبـتُ عليـهِ

الأمالي ج1 ص 225 وتاريخ بغداد ج10 ص 185 .

فإذا صحّ الخبر يكون المأمون قد ارتجل الشعر لإرضاء والده . ولكن متى وأين ؟ هل هيّأه أثناء وجوده تحت القبّة ؟ أم قاله فوراً حين سأله والده ؟ ومع أنّنا نتحفّظ في قبول هذه الحادثة تحت السياق الذي وردت فيه فإنّنا لا نجد في الشعر معنى معجزاً ولا مبنى متميّزاً يجعلانه بعيداً عن تسلية شاب مرفّه . إنّما الذي لا نشكّ فيه أنّ الرشيد سأل ابنه الارتجال الشعري وحثّه عليه .

ليشاركوه متعة ما وجد ، وكأنّه شيء نادر وقع له بعد طول بحث وعناء . ولا بأس بذكر مجلس الأعرابية وابنتها كدليل على ما قدّمناه . فقد ساقت الظروف ، إلى البلاط ، أعرابية لها ابنة برزت عندها شاعرية مبكرة وقدرة فذّة على الارتجال دهش لهما الرشيد . وكأنّه ذكر حينها ندماءه الذين كانوا دائماً يكتشفون المواهب ويدلونه عليها ، فقام بردة لهم وطفق يدعوهم الواحد تلو الآخر ، فجاؤوا وفي مقدّمتهم الموصليان : إبراهيم وإسحاق . ويروي لنا إبراهيم جزءاً من الخبر : «والله إنّي لفي منزلي ذات يوم ، وأنا مفكّر في الركوب مرّة وفي القعود مرّة ، إذ غلامي قد دخل ومعه خادم الرشيد يأمرني بالحضور من وقتي . فركبت وصرت إليه ، فقال لي : اجلس يا إبراهيم حتى أريك عجباً . فجلست ، فقال : عليّ بالأعرابية وابنتها ، فأُخرجت إليّ أعرابية ومعها بنيّة لها عشر أو أرجح . فقال : يا إبراهيم ، إنّ هذه الصبية تقول الشعر» . ثم راح يسألها عن شعرها فتنشده :

تقولُ لأترابٍ لها وهْي تَمتَري دموعاً على الخدّيْنِ من شدّةِ الوجدِ . . .
(الأبيات)

وطفق الملحنون يتنافسون في تلحين أبياتها ، ثم عُرضت عليها الألحان فإذا بها تفضّل لحن إبراهيم وتقول من جديد شعراً في تقريظه :

ما لإبراهيم في العلمِ بهذا الشأنِ ثاني . . .
(الأبيات)

ولا يتمالك الرشيد أن يسني لها الجائزة مكافأة على الأدب الذي لم يكن يتوقّعه[1] .

العنوان الثاني : أجواء الأدب ومجالس المناظرة

لقد كانت فرص الوقائع الأدبية ومناسباتها إذن لا تحصى في بلاط الرشيد . بعضها يأتي بشكل محضّر ومرتّب وفق مراسم وعادات ، وتلك مجالس المناسبات العامّة ، ومنها ما يأتي تلقائيّاً في حوار طبيعي وعادي ، أو انطلاقاً من حدث طارىء ومناسبة مفاجئة ، أو من رأي عفويّ يتفاعل ليتحوّل إلى مناظرة كاملة العناصر . ولا بدّ هنا من الإشارة إلى أنّ أي مجلس أدبي يلزمه طرفان على الأقلّ ، سواء اتّفقا في آرائهما أو اختلفا ، ينجم عن لقائهما مبادلة تصاغ بأسلوب أدبي أو بشعر مروي مرّة ومرتجل مرّة . وغالباً ما يسود المجالس الأدبية جوّ من الصراع يعود في أعماقه إلى تيّارات عدّة تلاقت أو تصادمت في البلاط ، بشكل ظاهر حيناً وخفيّ حيناً آخر ، ممّا نشير إليه في أثناء عرضنا أدب البلاط .

1 الأغاني ج5 ص 225 .

أوّلاً : بين الرشيد وأمّ جعفر

تيّاران تلاقيا لقاء المحبّة والاحترام : لقد كانت زبيدة ابنة عمّ الرشيد ورفيقة طفولته ، وحبّه الأوّل والدائم . بلغت من النفوذ عليه مبلغاً كبيراً . لكن المحبّين ، مهما كانا متفاهمين ، قد يختلفان وتأخذ كلا منهما عزّة المحبوب ، فإذا هما بالمرصاد أحدهما للآخر : اتّهامٌ وردٌّ ، عُندٌ وكِبَر ؛ ولعلّ ثبات الموقف وقوّة الحجّة ، ومقارعة الأداء الأدبي بأداء مشابه ، عناصر تشدّد من احتدام المعركة الكلامية ، آنياً ، وتفرض الاحترام والتقدير مستقبلياً . هكذا كانت زبيدة تقطف إعجابه تارة ، وتماشي تيار عواطفه حيناً لتنعطف به وتميل ، وتواجهه طوراً مواجهة النِدّ للندّ[1] . ولنا مثل على ذلك مجلس نقاش حاد كان الأدب ، والشعر بالذات ، حجّة فيه . وهذا المجلس يرويه الجهشياري فيقول : «دخل الرشيد على أمّ جعفر فقال لها : قد تهتّك كاتبك سعدان ، فاعزليه . قالت : وبأيّ شيء تهتّك ؟ قال : بالمرافق والرِشا ، حتى قال فيه الشاعر :

صُبَّ في قنديـلِ سَعْـدا ... نَ مـع التسليـمِ زيتـا
وقناديـلِ بَنيـهِ ... قبـلَ أن تُحفـي الكُمَيتا

فقالت له : وقد قال الشاعر في كاتبك أبي صالح يحيى بن عبد الرحمن ، أشنع من هذا :

قِنديلُ سَعدانَ ، على ضَوئِهِ ، ... فَرْجٌ لقِنديـلِ أبـي صالحِ
تَـراهُ في مجلِسه أخوصاً ... مِـنْ لحيِـهِ للدرهـمِ اللائحِ

فقال لها : كُذب على كاتبي وكاتبك . قال هارون بن مسلم : بلغني أنّها قالت هذا الشعر في تلك الساعة»[2] ولئن لم يصحّ عنها الارتجال ، فلا بدّ من أن تكون حفظت الشعر وروته واستخدمته حجّة لها . وهذا مظهر من مظاهر أدبها . والرواة يصرّون على أن يجعلوها تقرض الشعر ، شأن الرشيد وسائر أفراد عائلته ، فينسب إليها ابن عبد ربّه بيتين قالتهما ودسّتهما للرشيد ، حين غاب أيّاماً مع جاريتها التي وهبتها له . وكان هدفها أن تخرجه من عزلته بعتابها اللطيف الخفيّ :

وعاشقٍ صـبٍّ بمعشوقـهِ ... كأنّمـا قَلْباهُمـا قَلْـبُ
روحاهمـا روْحٌ ونفساهُمـا ... نَفْسٌ ، كذا فَلْيَكُـنِ الحُبُّ[3]

ونحن نستبعد عن زبيدة ، وإن استطاعت النظم ، أن تقول بيتين ياركان علاقة الرشيد بجارية من جواريها ، أيّاً كان الهدف . فما هو مشهور عنها ، من الكبر والتيه وعنفوان الكرامة ، يمنعها من ذلك . وقد يكون البيتان من عمل عُليّة ، أخت الرشيد أرسلتهما باسم زبيدة لتردّه إليها ،

---

1 اتّهمته زبيدة بأنّه من أهل النار ، فردّ عليها بالطّلاق إذا صحّ ذلك ، وتدخّل أبو يوسف بإحدى فتاويه . (القزويني – آثار البلاد وأخبار العباد ص 317) .

2 الجهشياري – الوزراء والكتّاب ص 256 .

3 العقد الفريد ج6 ص 409 .

والمعروف أنّ بين المرأتين تفاهما على ذلك تجلّى صراحة في وضع مشابه[1] .

ثانياً : بين الرشيد وجواريه

علاقة ينتظمها تيّاران من عسل وخمر تلاقيا ، كما رأينا ، على إثارة أدبية واستجابة . ولقد تحدّثت الأخبار كثيراً عن هذه العلاقة ، وروت العديد من المساجلات الشعرية بين الخليفة وجواريه . وسواء أصحّت الروايات جميعها ، أم صحّ بعضها ، فإنّ من المؤكّد أنّ هذا المظهر طبيعي جدّاً في عصر الرشيد ، وأنّه لم يكن وقفاً على بلاطه ، إنّما شاركه فيه كلّ قصر آخر ، بل كل دار عمرتها النعمة فوسعت الأعداد الكبيرة من الجواري . والأخبار لا تحدّثنا عن العلاقة الإنسانية بين ربّ القصر وجواريه ، فالذي يهمّها هو اللمح الأدبية ، قولاً أو مناظرةً أو مساجلة . ومن أبرز ما يتجلّى فيه الرشيد ، في هذه الأخبار ، هو مظهر شاعر الغزل ، غزل الملوك ، الذي يبدع الشعر الرقيق وأبيات الشكوى والعتاب[2] . ممّا نعود إليه في فصل لاحق ، مكتفين هنا بالحديث عن مجالس المناظرة . ومن ذلك ، المجلس الذي ذكره المسعودي ، وحضره البرامكة وإسحاق الموصلي ، واستدعي إليه خالد بن يزيد الكاتب . وبينما الجميع يتذاكرون أبياتاً لخالد ، غنت بها جارية من البلاط ، «أقبلت وصيفة معها تفّاحة عليها مكتوب بغالية :

سُرورُكَ ألهاكَ عن موعدي فصيّرتُ تفاحتي تَذْكِرَةْ

فأخذ الرشيد تفاحةً أُخرى كتب عليها :

تَقاضيتُ وعدي ، ولم أنسَهُ فتُفّاحتي هذهِ مَعْذِرةْ

ثم قال : يا خالد ، قل في هذا شيئاً . فقال :

تفّاحةٌ خَرجتْ بالدُرِّ مِنْ فيها أشهى إليَّ من الدنيا وما فيها
بيضاءُ في حُمرةٍ ، خُطّتْ بغاليةٍ كأنّما قُطِفتْ من خَدِّ مُهديها[3]

---

1 الأغاني ج10 ص 180 . وراجع ص 160 من البحث .

2 انظر شعر العشق عند الرشيد في فصل الصراع بين الترف والحرمان .

3 المسعودي ـ مروج الذهب ج3 ص 285 . وقد أولع الرواة برسائل التفّاح هذه فأُثرت عن غير خليفة . وأوّل من رويت عنه : المهدي . يذكر ابن عبد ربّه أنّ جارية أهدته تفّاحة وطيبتها وكتبت فيها :

هديّةٌ مِنّي إلى المَهدي تُفّاحةٌ تُقطَفُ مِنْ خَدّي
مُحمرّةٌ ، مصفرّةٌ ، طُيِّبتْ كأنّها من جَنَّةِ الخُلدِ

فردّ المهدي بتفّاحة أُخرى عليها :

تُفّاحةٌ من عندِ تفّاحةٍ جاءتْ ، فماذا صَنَعتْ بالفؤادْ ؟
واللهِ ما أدري ، أأبصرتُها يقظانَ ، أمْ أبصرتُها في الرُقادْ ؟

العقد الفريد ج6 ص 406 .

ومع أنّ سياق القصّة فيه شيء من الصنعة ، فإنّ بيتي خالد بن يزيد يسبغان عليها ظلاً من الواقعية في مجملها ، إن لم يكن في تفاصيلها .

ثالثاً : بين الرشيد ووزرائه

قامت مساجلات أدبية ومناظرات بين الرشيد والبرامكة ؛ فلقد سبق لنا القول إنّ البرامكة ساهموا في صنع شخصية الرشيد ، وفي اعطائها صورتها المشرقة ، وأنّ الرشيد استراح إليهم في بدء خلافته وترك الحبل على الغارب لعواطفه ، تسرح وتمرح في سهول محبّتهم والثقة بهم . وخير دليل على ذلك ما جرى من تبادل ، بين هارون وجعفر ، لرسائل شعرية مكتوبة ، هي من نمط الاخوانيات ، وفيها فيض من محبّة للصاحب ، ورؤية وردية للكون . والرشيد كان البادىء بالمراسلة ، وهذا له مغزاه إذ يبرهن عن عفوية عنده ورفع للكلفة بدون خلفيات نفسية أو سياسية . قال :

سَلْ عَـنِ الصارمِ ابـنِ يحيـى   راحـلاً نحونـا مِـنَ النهروانِ
ليصونَ المُـدامَ سُهداً ويَغشى   الهَجـرَ بـينَ الأصواتِ والعيدانِ
فأْتِنـا نَصطبِحْ ونَلتـذَّ جَمعـاً   لِثـلاثٍ بَقِـينَ مـن شَعبانِ

ولا شكّ في أنّ جعفراً كان متأثّراً جدّاً بهذه الرسالة ، فإنّها تُشرّفه بدعوة الخليفة وترفعه إلى مستوى صداقته له ، ممّا لم يحظ به أيّ إنسان آخر ؛ وهي ، بالتالي ، ترضي غروره وما عُرف عنه من إعجاب بنفسه ، دون أن يستطيع إظهار ذلك . فصداقة الرشيد له لا تدوم إلاّ باحساسه أنّه يتفضّل عليه بهذه الصداقة ، فإذا ما استشعر لديه احساساً بالمساواة انقلب عليه وحقد . لذلك فقد ردّ جعفر على الفور برقعة جاء فيها :

إنّ يومـاً كتبتَ فيـه إلى عبـ   ـدِكَ يـومٌ يسودُ كلَّ زمـانِ
يـومُ لَهْـوَ كأنّهُ طَلعةُ الكأ   سِ إذا قابَلَت خـدودَ القِيانِ
فاصطبِحْ واغتبِقْ ، فِداؤكَ نَفسي   من جميـعِ الآلامِ والحَدَثانِ[1]

ويبدو واضحاً أنّ هذه الأشعار صادقة العاطفة إذا ثبتت صحّتها . لأنّه ما من أحد أو شيء يجبر الرشيد العظيم على إظهار عاطفة لا يحسّها نحو من يسمّي نفسه «عبده» ، مهما علت مكانته ؛ وشعور النشوة الذي أصاب جعفراً ، وما أبداه من امتنان ، أمر طبيعي . ومع هذا ، فالنظم بادي الكلفة ، يظهر عليه بوضوح أنّه ليس من عمل محترف (وذلك ما يجعلنا نميل إلى صحّة روايته) ، فهو تعبير عن لعبة الملوك بالأدب ، أكثر منه تعبيراً عن حاجة فنيّة . ولو أراد الرشيد الاستمرار في هذه اللعبة الأدبية مع البرامكة فرداً فرداً لوجد لديهم مرتعاً خصباً لأدب وذوق وثقافة . ولكن هذه البادرة بقيت فريدة فيما وصلنا من أخبار ، وظلّت مرتبطة بجعفر وحده الذي اقترب من الرشيد

1 الوطواط ـ الغرر والعرر ص 441 .

حتى سمّاه «أخي وصار يدخله معه في ثوبه»[1] . ولعلّ مرور الأيّام جعل الأمور تسير شيئاً فشيئاً في اتّجاه آخر . فممّا لا شكّ فيه أنّ تزايد نفوذ البرامكة جعل الرشيد يخرج تدريجاً من ظلمات الثقة والعرفان إلى ضحى الحذر والتبصّر[2] ، وراح ذلك يتجلّى ، فيما روي من مواقف أدبية بينه وبينهم : في تعليق من هنا ولوم من هناك ، وعبارات ينقلها الرواة عنه تدلّ على رغبته في جرحهم أو القسوة عليهم ، أو في تكريس تبعيّتهم له وفضله عليهم ؛ ونحن لا نعني أنّ الرشيد كان يخاطب البرامكة دائماً بلهجة التعالي وأنّ موقفه منهم كان دائماً موقف الشكّ والاتّهام . كلا ، بل كان الرشيد عادة يعاملهم ندّاً لندّ ، ويروي عنه أنّه كان يعتدّ طينته وجعفرٍ متميّزة من طينة عامّة الناس[3] . وما نشير إليه من تلميحات إنْ هو إلاّ علامات ومؤشّرات على تغيّر الرشيد عليهم ، التغيّر الذي حاول كتمه في نفسه ، والذي كان لا بدّ له من أن يتحرّر من الكبت ، بين حين وآخر ، في حالات مزاج معيّنة للرشيد ، وردّاً على مواقف للبرامكة . وقد تكون قناعة الرواة بوجود هذا التغيّر هي التي جرأتهم على إيراد هذه اللمحات ، في القول أو التصرّف ، أو يكون صدور هذه الأقوال والتصرّفات عنه هو الذي جعل الرواة يؤمنون بتغيّره . هذه التناقضات تظهر في المجالس الأدبية ، ونبدأ بمجلسٍ لعب فيه الأدوارَ كل من الرشيد وجعفر وسلم الخاسر . فسلم هذا كان مختصّاً بالبرامكة قبل أن يوصلوه إلى الرشيد . وهو ، أصلاً ، قد تتلمذ على بشّار فأخذ عنه وروى شعره . وكان سلم أيضاً من المجوّدين الذين يستبقون الأحداث ويقدّرون المواقف التي قد تستجدّ ، فيهيّئون لها ما يلائمها من كلام وشعر[4] . لذلك كان يمكن لكلامه أن يحمل غير معنى ، ويمكن للسامع أن يبحث ، من خلال ظاهره ، عن ما خفي منه . وفي المجلس الذي نشير إليه أخذ الرشيد على عاتقه هذه المهمّة : فحين اندفع سلم ينشده قصيدته على الجيم التي يمدحه فيها ويتطرق إلى مدح العبّاسيين والأبطال الذين خدموهم باخلاص ، لم يكن يسمّيهم ، بل يشير إليهم بالتلميح وبالصفات . والرشيد كان يصغي بسمعه وبقلبه وكلّ جوارحه ، محلّقاً مع الشاعر في أجواء إلهامه ، معرِّفاً ، دون تردّد ، بما يقصد ومن يقصد ، ذاكراً للحاضرين ما قد يكون خفي عليهم . فحين أنشد سلم :

إنّ المنايا في السيوفِ كوامنٌ   حتى يهيِّجها فتىً هيّاجُ

1 الجهشياري ـ الوزراء والكتّاب ص 204 .

2 انظر فصل مناسبة الانتقال وانظر ص 63 وما بعد من البحث .

3 لطائف المعارف ص 169 وخاص الخاص ص 50 .

4 يذكر الأصفهاني بالسند إلى علي بن الحسن الشيباني عن ابن المستهلّ : «دخلت يوماً على سلم الخاسر ، وإذا بين يديه قراطيس فيها أشعار يرثي ببعضها أمّ جعفر وببعضها جارية غير مسمّاة وببعضها أقواماً لم يموتوا ، وأمّ جعفر يومئذٍ باقية . فقلت له . ويحك ، ما هذا ؟ فقال . تحدث الحوادث فيطالبوننا بأن نقول فيها ويستعجلوننا ، ولا يُقبل بتّاً أن نقول غير الجيد فنعدّ لهم هذا قبل كونه» . الأغاني ج19 ص 230 .

قال الرشيد : كان ذلك معن بن زائدة . فقال : صدق أمير المؤمنين . ثم أنشد حتى انتهى إلى قوله :

ومُدَجَّجٍ يَغْشى المَضيقَ بِسَيفِهِ   حتى يكونَ بِسَيفِهِ الإفراجُ

فقال الرشيد : كان ذلك يزيد بن مزيد . فقال : صدق أمير المؤمنين . «وعلى ذكر يزيد بن مزيد الشيباني العربي ، المصافي للفضل بن الربيع عدوّ البرامكة الأكبر ، ضاقت الدنيا في عيني جعفر البرمكي الأعجمي الميول ، وبات لسلم بالمرصاد ينتظر منه هفوة لم تلبث أن أتته منقادة . فهو ، حين انتهى إلى قوله :

نَزَلَتْ نجومُ الليلِ فوقَ رؤوسهمْ   ولِكُلِّ قَومٍ كَوكَبٌ وَهَّاجُ

قال جعفر : من قلّة الشعر حتى تمدح أميرَ المؤمنين بشعر قيل في غيره ؟ هذا لبشّار في فلان التميمي . فقال الرشيد : ما تقول يا سلم ؟ «وما عسى سلم أن يقول ؟ لقد أظهر جعفر أنّه مطّلع على الأدب العربي أكثر من أبنائه ، حافظ لقديم الشعر وحديثه ، قوي الذاكرة . ولم يكن ما قاله تعسّفاً ، بل نقداً محكماً . والرشيد ، هو الآخر ، عالم ضليع بتمييز الحقيقة الأدبية ، عدوّ للكذب لدود ، صديق للصراحة معجب بها . فكان على سلْم الاعتراف : «صدق ، يا سيدي ، وهل أنا إلاّ جزء من محاسن بشّار ؟ وهل أنطق إلاّ بفضل منطقه ؟ وحياتِك يا سيّدي إنّي لأروي له تسعة آلاف بيت ، ما يعرف أحدٌ منها غيري شيئاً . فضحك الرشيد وقال : ما أحسن الصدق ! إمض في شعرك ، وأمر له بمئة ألف درهم[1] . وفي هذا الخبر ، يحاول راويه أن يضع الخطوط تحت تناقض بين موقف الرشيد المعجب بابطال الدولة العرب من معن ويزيد ، وبين موقف جعفر الذي يستاء لذلك ، ويحاول النيل من سلم[2] واظهاره مفلساً ، أمام الرشيد ، ساطياً على معان قديمة . إنّما ليس في الخبر تحدّ ولا جدل أو اقذاع ممّا نجده في المجلس الذي يرويه الأصمعي عن اتّصاله بالرشيد واجتيازه الاختبار الأدبي الذي خضع له ، بحضور البرامكة (نتحدّث عن تفاصيل هذا الاختبار في حينه) ويهمّنا منه الآن المقطع الذي جرى فيه الحوار بين الرشيد والفضل البرمكي . فهنا نستشفّ ملامح موقفين أرادهما الراوي متعارضين : موقف الرشيد العربي وموقف الفضل الأعجمي الأصل الذي يزلّ لسانُه فيفصح عمّا في نفسه من ميل عن العرب ، وحضارتهم ، إلى العجم . يقول الأصمعي : «صرتُ إلى صفة الجمل فأطلت . فقال الفضل : ما لك تُضيع علينا كلّ ما اتّسع من مساعدة السهر في ليلتنا هذه بذكر جملٍ أجرب ؟ صر إلى امتداح المنصور حتى تأتي على آخره . فقال الرشيد : «اسكت ، هي التي أخرجتك من دارك ، وأزعجتك من قرارك ، وسلبتك تاج ملكك ، ثم ماتت فعُملت جلودها

---

1 الأغاني ج19 ص 242 .

2 كان سلم منقطعاً إلى الفضل بن يحيى ، ويظهر أنّه بين الفضل وجعفر كان نوع من المنافسة على استقطاب الشعر ، وبعض المحاولات من كلّ منهما للتقليل من قيمة جلساء الآخر (انظر الوزراء والكتّاب ص 189) .

سياطاً يضرب بها قومك ضرب العبيد[1] . ثم قهقه . ثم قال : لا تَدَعْ نفسك والتعرضَ لما تكره . فقال الفضل : لقد عوقبتُ على غير ذنب ، والحمد لله . قال الرشيد : اخطأت في كلامك ، يرحمك الله ، لو قلت : واستغفر الله ، قلت صواباً ، وإنّما يُحمد الله على النعم»[2] . ويستمرّ المجلس ، بين صمتٍ على مضض يظهره الفضل وتنقّل الأصمعي من ابداع شعري إلى آخر إلى أن طلب الرشيد سماع مديح عدي بن الرقاع للوليد بن يزيد ، فعاد الفضل إلى الاعتراض : «يا أمير المؤمنين ، ألبستَنا ثوب السهر ليلتنا هذه لاستماع الكذب ؟ لم لا تأمره أن يسمعك ما قالت الشعراء فيك وفي آبائك ؟» . فامتعض الرشيد لهذا التدخّل مجيباً جواب ناقد أريب متجرّد : وهل للأدب نسب ينتمي إليه ؟ كلا ثم كلا ، فالأدب لا يُرفض لأنّه ابن بيئة معينة ، أنى كانت البيئة ، وجماله أن تنظر إليه ضمن إطاره ولن يفيدك أن تغمض عينيك عن الإطار ، لأنّ الحقيقة تبقى الحقيقة سواء أرأيتها أم عميت عنها ، وتبقى الرسوم والآثار محدِّثة بها ناطقة عنها . «ولأن أسمع الشعر ممّن يَخبره وشُغلتُه العناية به ، أحبُّ إليّ من أن تشافهني به الرسوم ؛ ولِلممتدَح بهذا الشعر حركات ترد عليك . .»[3] ومع توالي أحداث الخبر تتهيّأ فرصة أُخرى ليظهر معارضة بين الرشيد والفضل حول نعل الخليفة العربية وتقصيرها عن أن تضاهي نعل الأعاجم . وذلك تلميح من الفضل إلى رقي الأعاجم وتطوّر انتاجهم ، يقابله من الخليفة ردّة عنيفة تدفعه إلى التمسّك بنعله على رغم أنّها تعقر رجله[4] ؛ وهكذا تحول المجلس الأدبي ، في كثير من جوانبه ، إلى اظهار الصراع المستحكم بين العرب والأعاجم . ولسنا ندري هل كان المجلس الأدبي خادماً لفكرة الصراع في ذهن راويه ، أم أنّ الصراع كان دخيلاً عليه . ولكن ، ممّا لا شكّ فيه ، أنّه (أي الصراع) موجود بين

---

1 لقد روى هذا الخبر اقطاب كالمرتضى والبغدادي والتنوخي وابن عبد ربّه . ومع ثقتنا برواياتهم فإنّنا نشكّ في أن يكون الخبر الذي يروونه قد حصل بالفعل كما وصل إليهم ، لأنّ الرشيد ما كان ليخاطب البرامكة بهذه اللغة إبان سلطانهم : فهم كانوا حينذاك أحبّ الناس إلى قلبه وأغلاهم عنده ؛ وما كان ليفعل ذلك حين تغيّر عليهم ، خوفاً من أن يحسوا هذا التغيّر وهو الذي كان يكتمه في صدره ويغالي في ذلك ؛ مع العلم أنّ الخبر الذي يرتبط بدخول الأصمعي إلى البلاط يمكن تحديد تاريخه بأوّل حكم الرشيد : إذ قد يكون اتّصال الأصمعي تمّ عام 173هـ أو قبله ، لأنّ التنوخي يروي في خبر الاتّصال أنّه جاء عن طريق محمد بن سليمان الهاشمي ، والي البصرة . (الفرج بعد الشدّة ص 222) ومحمد بن سليمان توفي عام 173هـ . (الطبري ج8 ص 237) .

2 في هذا الاتّهام بالخطأ نوع من التجنّي على الفضل ، لأنّه لو قال : استغفر الله ، لكان ذلك اعترافاً منه بخطأ ارتكبه وهو ينفي أن يكون قد اخطأ . فهو يحمد الله على وضعه في موضع المتّهم لأنّ الله يحمد على الخير والشر . وجاء في الدعاء . «الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروه سواه» .

3 العقد الفريد ج5 ص 313 .

4 المصدر السابق ص 309 وانظر الفرج بعد الشدّة ص 240 وأمالي المرتضى ج3 ص 96 وراجع ص 285 من البحث .

الرشيد والبرامكة ، وأنّ معارضته لهم قامت على صُعُد أُخرى ، غير صعيد الكلام : فهم أقاموا قصورهم معارضة لقصوره ، وهو عاش نمط حياة مستمَدّاً من حياتهم في ترفها ؛ هم عارضوه في استقطاب الأدب والفن ، وهو لحقهم ، بل جاوزهم في حجم العطاء ؛ هم كادوا يتفرّدون بالنفوذ السياسي ومراكزه ، وهو استطاع الانقلاب عليهم ونكبهم . كلّ ذلك لم يتمّ عفويّاً ، ولا كانت ملامحه لتولد بين يوم وليلة ، وليس من صميم بحثنا تتبّعه ؛ لكن النتيجة الحتمية له أن ينقسم الناس انقسام قادتهم ؛ حتى العاملون في ميدان الأدب والنقد ، بل هؤلاء العاملون بشكل خاص ، انضمّوا إلى التيارين وطبعوا بانتمائهم كلّ ما رووه وكلّ أدب كتبوه . على ضوء ذلك يمكننا تصوّر الخبر السابق ، ككل خبر روي عن البرامكة ، قد ركبته الأهواء وحمّلته ما في نفوس الرواة من حسد لما بلغوه في عزّهم ، أو من حقد عليهم لما حاولوا تحقيقه للأعاجم ، أو من شماتة بهم وبما آلت إليه أحوالهم ، وذلك كلّه بعد زوال دولتهم . ويجب ألاّ نغفل هنا دور الأصمعي الذي نقم عليهم وهجاهم بعد تحوّل الرشيد عنهم ؛ ومعظم الأخبار عن تجريح الرشيد لهم تعود في سندها إلى الأصمعي . ففضلاً عن المجلس السابق ، ينسب إلى الأصمعي خبر مجلس آخر قامت فيه مناظرة بين الرشيد والبرامكة جميعاً حول أفضل ما قيل في الوصف . فقد خلا الرشيد ذات ليلة لوزرائه يسمرون ويتناقشون ، فكان الأدب محور حديثهم ، وكان التقويم الأدبي شاغلهم . وهذا الشاغل هو أحد الأنماط العديدة التي كان الرشيد يختارها لمتعة ليله . ومن المعروف أنّ الجدل في هذا النوع من الموضوعات التقويمية قد ينتهي بلحظة ، إذا تهيّأ له اتّفاقٌ في الأمزجة والاتّجاهات الثقافية والخلفيّات النفسية والاجتماعية ، وهذا نادراً ما يحصل لصعوبة تجمّع هذه المعطيات . فإذا وقع الخلاف ، فإنّ الجلسة تطول بقدر عمق الروافد الثقافية للمتناظرين ، وبقدر توافر الحسّ الدقيق والنظرة الصائبة ؛ وهذا ما تهيّأ للمجلس : فالرشيد ووزراؤه على مستوى عالٍ من الثقافة ، وهم جميعاً يتمتّعون بالذوق والحسّ وصواب الرؤية ، وفي الوقت نفسه هناك بُعد بين الرشيد وبينهم على صعيد الخلفيّات النفسية والاجتماعية . لذلك لم تنته المناظرة بلحظة ، بل كانت كل لحظة تمرّ توسع رقعة الخلاف ، وأصبح وجود الحكم ضروريّاً . ويظهر أنّ الرشيد اقترح الأصمعي ، وهو سيّد في هذا الميدان ، فلم يستطع البرامكة رفضه . وقبل أن نبدأ بعرض المجلس ننبّه إلى أنّنا لم نتمكّن من تحديد تاريخ له ، ولم يذكره أحد من الرواة سوى الشريشي ، ولكنّنا وقعنا ، على صدى لما جاء فيه من ملامح نقدية ، في مراجع أُخرى نشير إليها في حينها . ولو أنّنا استطعنا تحديد زمن المجلس لأمكننا فهم الخلفية النفسية للرشيد فيه وللأصمعي أيضاً الذي عُيّن حكماً له . وفي غياب ذلك لا يمكننا إلاّ أن نلاحظ أنّ الرواية تُظهر الرشيد مترفّعاً عن وزرائه ، متعالياً عليهم ، وهم ، أمام سورة غضبه وانفعاله ، يضعون من جانبهم ليداروا تلك السورة . وقد بدأ الرشيد بتحديد موضوع المناظرة قائلاً : «إنّي نازعت هؤلاء القوم في أشعر بيت قالته العرب في التشبيه» ولم يقع اجماعنا على بيت . .« ويمسك الأصمعي زمام المبادرة ليعلن أنّ

أحسن الناس تشبيهاً امرؤ القيس في وصفه لقلوب الطير عند وكر العنقاء ، ولعيون الوحش حول الخباء ، ولتسلّله إلى خباء محبوبته . ويظهر أنّ الرشيد كان قد راهن على امرىء القيس فانتشى لما سمع ، وأنشد أحسن ما يراه من وصف لامرىء القيس :

فَرُحنا بِكاّبنِ المـاءِ يُجنَبُ وسْطَنا   تَصَوَّبُ فيـهِ العـينُ طَوراً وتَرتَقي

وإذ يحسّ البرامكة أنّ الأصمعي يستأثر بالحديث في المجلس ، يعترضون . ثم يتمّ الاتّفاق على أن يبدأ يحيى باعطاء رأيه ثم يتبعه الفضل وبعده جعفر ، ويتولّى الأصمعي نفنيد آرائهم ؛ ولقد حصل ذلك بالفعل وراح الأصمعي يصدر أحكامه النقدية التي نتناولها ببعض التفصيل في مجالس النقد . ويهمّنا أن نعود إلى موضوع الصراع وكيفية ظهوره في هذا المجلس . فهو يظهر ، أدبياً ، في أسلوب المتجادلين الذي ينقله إلينا الأصمعي بتفاصيله ، مع الكثير من فنّ الرواية والتشويق[1] . فالرشيد يحاول استخدام لغة راقية لأداء أفكاره تتميّز بجزالة الألفاظ وقوّة السبك ، ولا تخلو من نفَس صحراوي ينافس الشواهد التي دارت حولها المناظرة . من ذلك قوله : «لِفَصْلِ هذه القضية واجتناءِ ثمرة الخطار فيها . . . هذا من التشبيهات العقم التي لا تنتِج . . . أتعرف تشبيهاً أفخر وأعظم في أحقر مشبّه وأصغره ، في أحسن معرض ، من قول عنترة الذي لم يسبقه إليه سابق ، ولا نازعه منازع ، ولا طمع في مجاراته طامع . . .» ويحاول وزراؤه مجاراته في اسلوبه والتناوب معه على الردود المفحمة . فجعفر يستمهل الرشيد إذ «استخفّته الأريحية» قائلاً : «لَبثاً قليلاً يدرك الهيجا جمل» . فيأتي جواب الرشيد : «فاتتكَ والله السوابقُ وجئتَ سكّيتاً ذا زوائد أربع» . والصراع يظهر نفسيّاً في الانفعالات التي تبدو على المتناظرين والتي يتفنّن الأصمعي في ذكرها وتنسيقها في خطّ رغبة الرشيد الملحّة في الانتصار على مناظريه . ونحن نفهم هذه الرغبة عند الرشيد : فهو لم يتوقّع هزيمة في حياته ، لا محارباً ولا مناظراً ، ولا في أي من علاقاته . وإنّما الأصمعي يبالغ في إظهار ذلك حتى نجد الرشيد متشفّياً بما يصيب البرامكة ، على يد الأصمعي ، من اندحار ، كأنّ أقوالـه صدى لما في نفسه عليهم . فتنتشر في الرواية تعابير الانفعال والانشداه والخيبة ، بمقابل الانشراح والسرور : «فكأني والله ألقمتُ جعفراً حجراً . . . . فانتقع يحيى فكأنّ الرماد ذُرَّ على وجهه . . . فاستبشر الرشيد وبرقت أسارير وجهه . . .» أمّا نتيجة المناظرة فهي حكم من الأصمعي للرشيد . وهذا شيء متوقّع أيّاً كان الحكم الحقيقي . وماذا يمكن للأصمعي أن يقول للرشيد تعليقاً على اختياره الذي مهّد له بقوله : «عيّنت على ثلاثة أشعار أقسم بالله إنّي أملك السبق بأحدها» . فهل يخيب أمله ويكذّب قسمه ؟ ما كان الأصمعي ليفعل ذلك ، وخصوصاً أنّ الاختيار ، الذي نُسب إلى الرشيد ، كان

1 قد نستغرب هذه التفاصيل في الرواية ونستبعد أن تكون نقلاً أميناً لما حصل بالفعل . ولكن ، إذا صحّت رواية المجلس بمجملها ، فلا غرابة حينها في ما يذكره الأصمعي من جزئيّات لأنّه مشهور بذاكرته القوية ، بل العجيبة التي تحدّثنا عنها أثناء ذكر الأصمعي في رواد البلاط وفي المناظرات اللغوية .

اختياراً ينم عن ذوق وثقافة ، لم يجد الأصمعي ما يوجّهه إليه كنقد ، وإن كان الرشيد نفسه يشكّ في ممالأة الأصمعي له فيسأله : «أتراك تعينني في انحطاطك في هواي ؟» فينفي الأصمعي ويقسم . وعلى ذلك ينتهي الحوار[1] . ولا بدّ من كلمتَي تعليق بعد عرضنا لهذا المجلس . الكلمة الأولى حول واقعية المجلس ككل : هل حصل هذا المجلس بالفعل ؟ إنّ الرواية تتّسم بالترتيب والتنسيق والتسلسل ، ممّا يعطيها طابع التصنّع والافتعال . لكن هل يكفي هذا لانكارها جملة وتفصيلاً . ألا يجعلها مقبولة من جهة أخرى ، ما عرف عن إبطالها من مزاج ومواقف وآراء ؟ إذ هل يعقل أن يوجد في البلاط أشخاص كالرشيد والبرامكة والأصمعي ولا يدور بينهم نقاش على هذا المستوى ومن هذا النوع ؟ لقد وجدنا في «العمدة»[2] أحد الآراء الواردة في هذا المجلس مذكورة على أنّها قيلت في أحد مجالس الرشيد ، فما الذي يمنع أن تكون بقيّة العناصر صحيحة إنّما ضاعت الروايات الأخرى لها مع الكثير الذي ضاع ؟ فإذا سلّمنا بهذا الافتراض لا بدّ من التحفّظ الشديد في كلمتنا الثانية عن تفاصيل المواقف والحوار ، لأنّ رواية المجالس الأدبية تختلف عن رواية مجالس اللغة والفقه . فهذه المجالس الأخيرة تنتهي عادة بإيضاح لغوي أو فقهي ينتقل فوراً من لسان إلى آخر بين مؤيّدين أو أنصار للمدارس الفقهية واللغوية المتنافسة ، فيدوّن في المؤلّفات التي تصدر عن أقطابها . أمّا مجالس الأدب فلها وضع آخر . إنّها مجالس ترفيه ، كثيراً ما تعقد بهدف التسلية ، وما يبرز فيها من فوائد ليس شيئاً نادراً أو حاسماً ، بل غالباً ما يعتمد على آراء معروفة ومتداولة . ومن غير المستبعد أن تبقى الحادثة فترة في نفس مشاهدها قبل روايتها ، وحينها تتدخّل عوامل كثيرة في تعديلها . وهذا مهمّ جدّاً ، بشكل خاص ، في موضوع الرشيد والبرامكة . فالحادثة تروى إبّان سلطانهم ، تختلف ، في حلّتها وتعابيرها الانفعالية ، عنها هي عينها ، لو رويت لأوّل مرّة بعد النكبة . وكثير من الرواة أولعوا باعطاء أنفسهم أهميّة خاصّة عن طريق إظهار نوع من التنبؤ حصل لديهم لما جرى من أحداث فيما بعد ، مبرزين اطّلاعهم الشخصي ، وبحكم قربهم من ثقة الخليفة ، على ملامح تنبيء بتغيّر الرشيد ، وهم إنّما أخفوها في حينها محافظة على سرّ هارون ، وأظهروها فيما بعد حينما لم يعد السرّ سرّاً . بهذه الخلفية يُصوَّر لنا البرامكة ، أهلُ العزّ ، مجرّدين من العزّ والعزّة أمام الرشيد . وفي هذا الاتّجاه يمكن أن نشكّ في كثير من التفاصيل اللفظية والتعبيرية للروايات التي وصلتنا ، ومنها التي لا شكّ في صحّتها .

رابعاً : بين الرشيد وجلسائه

لن نحاول هنا البحث عن خيوط صراع ، ولكنّنا نذكّر بما أسلفناه عن رغبة الرشيد الدائمة في الاستفادة ، من وجود أقطاب الأدب في بلاطه ، زيادةً في الثقافة والأدب ، ورغبتِه في الظهور بمظهر

---

1 انظر ، في تفاصيل المجلس ، الشريشي – شرح مقامات الحريري – ج2 ص 279 وما بعد .

2 راجع ص 233 من البحث .

العارف الأديب المثقّف عن طريق مناظرتهم ومساجلتهم . وفي هذا المضمار قد يتطرّف الرشيد حتى يضع نفسه في مواقف محرجة لا ينقذه منها إلاّ لباقة مجالسيه . من ذلك دخوله باب الإلغاز الأدبي : فهذا النوع من التعامل مع الأدب لا يكون إلاّ بعد الوصول إلى درجة عالية من الممارسة الأدبية والتلذّذ باجتناء متعتها . ذاك أنّ هذه المتعة ، التي تتولّد بادىء ذي بدء ، من ترديد المتداوَل ، معانيَ وصوراً وأشعاراً ، لا تلبث أن تضعف تدريجاً مع التكرار والسهولة ، شأنها شأن كلّ ما هو حضاري إنساني . . وكلّما غزرت الثقافة وعمقت المعرفة يتزايد البحث عن الصعب فالأصعب ، حتى يصبح الغريب ، البعيد التناول ، وأحياناً الشاذ ، هو وحده المثير . هنا تُطلب الأحجية . فإمّا يطرحها الأديب على نظرائه يمتحن بها عمق روافد الأدب لديهم ، وإمّا يطلبها منهم فيقدح زناد فكره بحثاً عن حلّ لها . والرشيد اختـار المفضل الضبي مناظراً له في الحفظ الأدبي ، وأراد المناظرة على مستوى الأحجية فقال له : «اذكر لي بيتاً جيّد المعنى يحتاج إلى مقارعة الفكر في استخراج خبيئه ، ثم دعني وإياه» . ويلبّي المفضل الطلب لكنّـه يُغرق في تعقيد الأحجية ، وإن لم يعْدُ فيها واقعَها ، وهذه مهارة المُلغِز . هكذا يجيب الضبي : «أتعرف بيتاً أوّله أعرابي في شملة ، هابٌّ من نومه ، كأنّما صَدَرَ عن ركبٍ جرى في أجفانهم الوَسَن ، فقد بَدَّهم واستفزّهم بعنجهيّة البدو وتعجرف الشدو ، وآخرُه مدنيٌ رقيق قد غُذي بماء العقيق ؟» ويحار الرشيد . لعلّ القسم الأوّل من البيت ينطبق عليه الكثير من أجزاء أبيات لقصائد جاهلية ، أمّا أن ينتهي بالشكل الذي عبّر عنه الضبي ؟ فمن العبث البحث عنه في حنايا الذاكرة ، والأفضل الاعتراف الفوري بالعجز . وقد قبل الرشيد ذلك وطلب معرفة الحلّ . فقال الضبي : «هو بيت جميل :

أَلا أَيُّها الرَّكْبُ النِيامُ ، أَلا هُبُّوا . . .

ثم أدركه الشوق فقال : أُسائِلُكُمْ : هل يقتُلُ الرجُلَ الحُبُّ ؟»

فقال الرشيد : «صدقت» . وكان من الطبيعي أن يحاول الرشيد ردةً ، مُلغِزاً في بيت ، معبّراً عن ذلك اللغز بشكل مُعجز لتتعادل الكِفّتان . قال : «فهل تعرف أنت بيتاً أوّله أكثمُ بن صيفي في أصالة الرأي ونبل العظة ، وآخره بقراط في معرفة الداء والدواء ؟» . ولقد أصاب الرشيد خصمه في الصميم فما حار جواباً ؛ بل لقد استبدّ به الفضول لمعرفة الحلّ . فاعترف هو الآخر بعجزه : «هوّلتَ عليّ يا أمير المؤمنين ؛ فليت شعري ، بأي مَهرٍ تُفتضُّ عروسُ هذا الخِدْر ؟ قال : بمَهر اصغائك وانصاتك . ثم أنشده بيت أبي نواس :

دَعْ عنكَ لَومي فإنّ اللومَ إغراءُ   ودوانِـي بالتـي كانتْ هيَ الداءُ[1]

ولا يسعنا ، بعد رواية هذه المناظرة إلاّ أن نتوقّف قليلاً أمام لغة الحديث فيها التي ، إذا صحّت

1 سمط اللآلي في شرح أمالي القالي ج2 ص 946 .

بتفاصيلها ، كانت دليلاً آخر على أنّ الإلغاز وليد تعامل طويل مع الأدب . فهي ليست لغة الحديث العادي ، ولا أسلوب حوار السمّار ، إنّما هي لغة المتأدّب ينتقي ألفاظه ويحمّلها الصورة المستمدّة من ثقافته الغزيرة لجعلها بعيدة عن حوار العامة والسطحيين من مدعي الأدب . إنّها أناقة خاصّة تقوم على اللفظ المختار وعلى المعنى الخفيّ اللطيف وعلى موسيقى التوازن داخل أجزاء الجملة وبين هذه الأجزاء ، فضلاً عن بعض السجع . وهذا كلّه يذكّرنا ، إلى حدّ ما ، باللغة المختارة التي انتقتها طبقة الخاصة لتجعل بها حديثها في «صالونات» الأدب الفرنسية في القرن السابع عشر ، ترفّعاً عن لغة العامّة وتميّزاً منهم .

ولم يكن الضبي الشيخَ الوحيد الذي ناظره الرشيد ، فهناك الشيخ الذي كان لأمير المؤمنين معلّماً ورفيقاً وصديقاً ، نعني به الكسائي . وكان الكسائي في البلاط حاضراً دائماً لإفادة تلميذه علماً أو لغة ، ولإفادة أبنائه أيضاً . كان الرشيد يقصد أحياناً أن يعقد المجالس بحضور وليي عهده ، يحاول أمامهما أن يثبت أدبه ، ويثير أمامهما مواضيع الأدب المعروفة أو غير المعروفة ليكتسبا كلّ جديد عليهما ، كما رأينا . والمجلس الذي سنتحدّث عنه ليس في الواقع مناظرة بمعنى الكلمة لأنّه لا يتميّز بتبادلٍ أو بتنافس للآراء ، بل هو بالأحرى حلقة شبيهة بحلقات المساجد حيث يجلس الشيخ إلى اسطوانة ويلتفّ حوله تلامذته ، يملي عليهم ويجيب عن أسئلتهم . فالرشيد هنا وضع نفسه موضع طالب المعرفة والشيخ كان طبعاً الكسائي ، أمّا السامعون فهم خاصة الرشيد ومن بقي في المجلس بعد انصراف عامّة أهله . وبدأت الجلسة بشكل عادي : سؤال من الرشيد للكسائي «يا علي ، ألا تحبّ أن ترى محمداً وعبد الله ؟» وجواب من الكسائي : «ما أشوقني إليهما يا أميرالمؤمنين ، وأسرّني بمعاينة نعمة الله على أمير المؤمنين فيهما» ! فلمّا أُحضرا ، جلس محمد عن يمينه وعبد الله عن يساره ، فاكتمل النصاب ، وبدأ الرشيد يدير الجلسة سائلاً تارة ومعلّقاً أخرى . لقد مرّت به أبيات خفي معناها عليه ، كما قال للكسائي ، أو هو عرف معناها وتجاهله تجاهل العارف ليستفيد من وجود الكسائي ويفيد وليي العهد معرفة أدبية واتّجاهاً نفسيّاً دافعاً إلى العلم والحفظ ، والتواضع في طلبهما . والكسائي مستعدّ ليجيب فيشفي غليل خليفته الساهر ليله مفكّراً في المعاني التي فاتته[1] . ومن ذلك :

قــد قلــتُ قولاً للغُرابِ إذ حَجَلْ   عليــكَ بالقُــود المسانيــفِ الأُوَلْ
تَغدَّ ما شئتَ على غيرِ عَجَلْ

وجاء جواب الكسائي نبذة تاريخية تنقل صورة من حياة الصحراء في الجاهلية : «إنّ العير[2] ، إذا نَصَلَت من خيبر وعليها التمر ، يقع الغراب على آخر العير فيطرده السواق» . والشاعر يدعو

1 قال الرشيد : «يا علي ، ما زلت ساهراً مفكّراً في معاني أبيات قد خفيت عليّ» .

2 العير : الإبل التي تحمل الميرة . القُود : الطوال الأعناق . المسانيف : المتقدّمة .

الغراب دعوة مضيف ، طالما أنّه حلّ عنده ، فهو ضيفه وأهلاً به ، ليس عليه أن ينقر خائفاً نقراً قليلاً من أواخر الإبل ، بل له أن يتقدّم إلى أوائلها غير هيّاب ، إلى الطويلات الأعناق يحطّ عليها ويأكل شبعه بكلّ رويّة وتمهّل . وممّا يطرحه الرشيد للشرح بيت عروة بن الورد :

وإنّي ، وإن عشَّرتُ من خشيةِ الرَّدى ، نهـــاقَ حمـــارٍ ، إنّنـــي لَجَزوعُ

فيروي الكسائي نبذة أُخرى تنقل صورة ثانية من حياة الجاهليين ملخصها أنّ الرجل من العرب كان ، «إذا دخل خيبر ، أكبّ على أربع وعشّر تعشير الحمار وهو أن ينهق عشر نهقات متتابعات ، يفعل ذلك ليدفع عن نفسه حمى خيبر» . . وتتتابع أسئلة الرشيد حول ما أسهره من معان خفيت عليه ، وهي معان ، في معظمها ، لا تتعلّق بكلمة غاب عنه تفسيرها بل تتعلّق بنقطة حضارية ، بإحدى العادات البدوية خفيت عليه لأنّه بَعُد جدّاً ما بين نمط حياته ونمط حياة الأعراب . فمن ذلك أيضاً بيت الورك الطائي .

أجاعــلٌ أنــتَ بيقــوراً مُضرَّمـــةً ذريعـةً لــك بـينَ اللهِ والمَطَـرِ ؟[1]

وأنى للرشيد أن يدرك معناه وهو مرتبط بعادة من أغرب العادات البدائية ؟ قال الكسائي في الجواب : «كان العرب ، إذا أبطأ المطر ، شدّوا العُشرَ[2] والسَلَعَ ، وهما ضربان من النبات ، في أذناب البقر وألهبوا فيه النار وشرّدوا البقر تفاؤلاً بالبرق والمطر» . وكأنّ إحداث البرق المصطنع يجلب المطر الحقيقي . ويظهر أنّ البقر ، الذي ارتبط بوجه من حياة الجاهليين ، ارتبط أيضاً بكثير من عاداتهم الساذجة ، وتحمّل وزر هذه السذاجة . فكما تربط النار بذيل البقر لإحداث البرق ، فإنّ القطيع منه ، إذا ورد الماء فشربت الثيران الذكور وأبت البقر الإناث ، ضُربت الثيران حتى تشرب البقر[3] . وهذا ما قدّمه الكسائي من شرح جواباً عن سؤال الرشيد حول البيت التالي :

فإنّـــي إذنْ كالثــورِ يُضرَبَ جنبُـــهُ إذا لم تَقِفْ شَرباً ، وعافَتْ ، صواحِبُهْ

وتتوالى الصور الحضارية البدائية مع أبيات ينشدها الرشيد وشرح يقدّمه الكسائي . فالرشيد حيَّرهُ معنى البيتين :

لعمـرُك مـا لامَ الفتى مثلُ نفسهِ إذا كانـتِ الأحيـاءُ تُعـدى ثيابُها
وآذنَ بالتصفيـقِ مَـن ساء ظنُّـــهُ فلم يـدرِ مِـــنْ أيّ اليديـنِ جوابُها

فأزال الكسائي حيرته بقوله : «نعم ، يا أمير المؤمنين ، كان الرجل ، إذا ضلّ في مفازة قلَبَ

---

1 بيقور : اسم جمع للبقرة .

2 العُشَر : شجر لم يُقتدح في أجودَ منه .

3 شبيه بذلك قول النابغة عن الجمل يدهن بالقطران لكي يشفى جمل آخر أجْرب : «كذي العُرّ يُكوى غيرُه وهو راتعُ» .

ثيابه وصاح ، كأنّه يومىء إلى إنسان ، ويشتدّ شدّة ويصفّق بيديه ، فيهتدي إلى الطريق» . (فكأنّ الناس اهتدوا ببديهتهم إلى أنّ نفس الإنسان هي عدوّه الأكبر ، منها يأتي خوفه لا من سواها ، فإذا خلا بها في مفازة حدّثته الأحاديث وهيّأت له التصوّرات التي تجعله يضطرب فيفقد التبصّر والطريق ولا يجد خلاصاً إلاّ في تعطيل تلك الخلوة فيقوم بما ذكر من قلب ملابس وصراخ وتصفيق وإحداث ضجيج) .

وفي مرّات قليلة كان خفاء المعنى الذي يسأل عنه الرشيد عائداً إلى استعمال لفظ على غير ما عُهد به . كاليتيم الذي يعني الواحدَ من كلّ شيء ، والأرانب التي تعني الآكام ، في البيت التالي :

قَــــوداءُ تَملِـــكُ رحلَهـــا   مثـــلُ اليتيمِ مـــن الأرانِبْ

وكالإناث والذكور كناية عن الأسنان والأضراس في قول الشاعر :

وسَربِ مِلاحٍ قد رأيتُ وجوهَهمْ   إنـــاثٌ أدانيهِ ، ذكـــورٌ أواخِرُهْ

وكالبرقاء استعارة للعين التي فيها السواد والبياض ، والمنحدِر للدمع الذي ينحدر منها لدى ذكر فراق أو حبيب بعيد :

ومُنحَدِرٍ مـــن رأسِ برقاءَ حَطَّهُ   تَذَكُّـرُ بَـينٍ أو حبيبٌ مُزايِـلُ

وانتهى المجلس . فوثب الرشيد ، فجذب الكسائي إلى صدره وقال : لله درّ أهل الأدب ! ثم دعا بجارية فقال لها : احملي إلى منزل الكسائي خمس بدر على أعناق خمسة أعبد يلزمون خدمته»[1] . وانتقل ، بعد ذلك ، إلى امتحان وليي العهد ، إنشاداً وشرحاً . والمتابع لهذه الجلسة يجد فيها حتماً عمل الرواة ، في ترتيب عناصرها وجمعها وتسلسلها . فنحن نعجب كيف جمع الرشيد هذه الأبيات الممثّلة للعادات والتقاليد والمعتقدات البدويّة ، لأنّنا نقدّر ما تحتاجه مجموعة هذه التساؤلات من ثقافة شعرية أدبية ، ومن عمل دائب مستمرّ ، بحثاً وتنقيباً ودراسة ، إذ يستحيل أن تكون وليدة ساعتها ، وهي أقرب إلى عمل المحترف منها إلى عمل الهاوي . ومن المعقول جدّاً أن يكون الرشيد قد طرح بعض هذه الأسئلة ثم نمت حولها الأسئلة الباقية ، بحكم المجاورة في النوع ، وذلك ما بين القرن الثاني الهجري الذي عاش فيه الرشيد والقرن الخامس الذي ينتمي إليه البيهقي . وفي أحسن الحالات من حسن الظنّ تكون الأسئلة التي أوردت في مجلس واحد شذرات وردت في مجالس متفرّقة . فالرشيد ، كما نعرفه ، لا يُستبعد عنه خلق مجلس أدبي مشابه ، إنّما نَستبعد أن يكون لديه الوقت والأناة لجمع هذه التساؤلات دفعة واحدة . . . والرشيد ، مع عنايته بالشعر القديم ، كان يميل إلى تعاطي الشعر الرقيق في مجالسه . من هنا العلاقة الصافية التي ربطته بالعبّاس بن الأحنف ، شاعر الحبّ المتفرّغ له . كان الرشيد يحسّ أنّه ، هو أيضاً ، صنو حب ومدمن

---

1 المحاسن والمساوىء ج2 ص 84 .

غزل ، لذلك احترم التزام العبّاس فلم يخرجه عنه ، بل ثبّته فيه واستدعاه ، حين مرّ بحالات من الوجد والهيام ، فسأله واستشاره واستنشده . في حالة كهذه الحالات ، دخل العبّاس على هارون ، فقال هذا : «أنشدني أرقّ بيت قالته العرب ؛ فقال : أكثرَ الناسُ في بيت جميل :

ألا ليتني أعمى أصمٌّ تقودني بثينةُ ، لا يخفى عليّ كلامُها

فقال له هارون : أنتَ ، والله ، أرقّ منه حيث تقول :

طافَ الهوى في عبادِ اللهِ كلهِمِ حتّى ، إذا مَرَّ بي ، مِنْ بينهم ، وقَفا

قال العباس : أنت والله ، يا أمير المؤمنين ، أرقّ قولاً منّي ومنه حيث تقول :

أما يكفيكِ أنّكِ تملكيني وأنّ الناسَ كُلَّهُمُ عَبيدي
وأنّكِ ، لو قطعتِ يدي ورجلي لقلتُ ، مِنَ الهوى ، أحسنتِ ، زيدي[1]

ولئن لم يكن الرشيد ، فعلاً أرقّ من العباس وجميل ، فإنّ العبّاس أحسنَ ، بلا شكّ ، اختيارَ بيتي الرشيد المشابهين لما جاء من معنى في بيت جميل ، لأنّ جميلاً يتحدّث عن الهوى الذي بلغ به مبلغاً اشتهى معه العاهة إذا قرّبته من محبوبته . وأبيات الرشيد تتحدّث عن الحبّ الذي يَملك ويجعل العاشق يتقبّل العاهة إذا جاءته من معشوقه ، طالما أنّ ذلك يثبت وجوده في ذاكرة المحبوبة . لكن السؤال هو : أيروي الرشيد شعر القدماء والمحدثين ، بمن فيهم العبّاس بن الأحنف ؟ أم أنّه ، وهذا أقرب إلى المعقول ، سمع ببيت العبّاس ، حديثاً ، فأعجبه وعدّه أرقّ بيت شعر عربي . ثم أراد امتحان العبّاس في مدى تقديره لشاعريّته وتوقّع منه أن يجيبه عن سؤاله بانشاده بيته المذكور . إلاّ أنّ العبّاس كان أبعد نظراً وأكثر رقّة من أن يفعل ذلك . وهو ، حتماً ، قد فاجأ الرشيد بذكره لبيتيه الغزلين ، وأنهى هذه المبادلة بأفضل خاتمة : اعجاب الرشيد وضحكة منه . . . وهذا التساهل الذي بدا من الرشيد قد يكون سببه مبادرة العبّاس إلى اطرائه وشعره ، لأنّه نادراً ما كان يقبل ألا تكون له الكلمة الأخيرة . كما جرى بينه وبين إسحاق الموصلي : فالمعروف عن إسحاق أنّه مغنٍّ مُبدعٌ وشاعرٌ رقيقٌ وراوية خطيب فقيه في آن واحد . وقد دخل إلى الرشيد وهو في حالة أُخرى من حالات الوجد كان يحتاج فيها إلى شعر يأسو جرح بُعد الأحبّة . فسأله عن أحسن ما قيل في رياضة النفس على الفراق ، فأجاب : قول الاعرابي :

وإنّي لأَستَحْيي عيوناً ، وأَتّقي كثيراً وأَسْتَبْقي المَودَّةَ بالهَجْرِ
فأُنذِرُ بالهِجران نفسي أَروضُها لأعلمَ ، عِندَ الهَجرِ ، هَلْ لِيَ مِنْ صَبْرِ ؟

---

1 تاريخ بغداد ج14 ص 11 .

فقال الرشيد . هذا مليح ، ولكنّني استملح قول أعرابي آخر :

خَشيتُ عليها العينَ من طولِ وَصلِها فهاجرتُها يومينِ ، خوفاً من الهَجْرِ
ومـا كان هِجراني لهـا عـن مَلالةٍ ولكنَّنـي جَرّبـتُ نفسيَ بـالصَبرِ[1]

وتكاد الأبيات التي أنشدها إسحاق تساوي الأبيات التي رواها الرشيد في دلالتها وتفاصيل معناها . ولكن الرشيد أبى إلاّ أن يكون مناظراً لا مجرّد مستمع إلى جواب . بل قد يكون طرح سؤاله ليدلي بدلوه مظهراً سعة اطّلاعه ومعرفته ، وإلاّ ، ما معنى سؤاله إسحاق في موضوع عنده جواب له ، وجواب مرض لا يقبل عنه بديلاً ؟

خامساً : بين شعراء البلاط

لا يمكن الحديث عنهم دون الإشارة إلى تنافسهم الدائم . ونحن نجد للتنافس ، الذي ينشأ بين الشعراء ، بشكل عام ، مسوّغاً طبيعيّاً في رغبة التفوّق عند كلّ منهم ، الرغبة التي تدفعهم إلى احراز الإعجاب واستقطاب التقدير . ولقد كان هذا شأنه دائماً ، كما كان مولداً لمساجلات ومناظرات ، منها ما كان خارج البلاط ، ومنها ما كان داخله . إلاّ أنّ المنافسة ، إذا وصلت إلى بلاط الرشيد ، كان معها ، إلى جانب الرغبة في التفوّق ، حبّ الكسب المادّي ، المحرّك الطبيعي لكلّ مبادرة ، بما فيها المبادرة الفنية ، وذلك نظراً لما عرفناه عن سخاء الرشيد وسرعته في العطاء تعبيراً عن إعجابه . لهذا كانت بعض المناظرات تبدأ خارج البلاط ، ولكنّها تُحمل إليه وتعرض على الرشيد ليتمتّع بها أو يكون حكماً فيها ، فتتوّج نهايتها برفد منه أو بنفوذ معنوي ينجم عن إرضائه . من ذلك ما جرى بين أبي العتاهية ومحمد بن مناذر من تنافس . فإنّه من النوع الذي أشرنا إليه : بدأ خارج البلاط إذ لقي أبو العتاهية «محمد بن مناذر بمكّة ، فمازحه وضاحكه[2] ، ثم إنّه دخل على الرشيد فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا شاعر البصرة يقول قصيدة في سنة ، وأنا أقول في سنة مئتي قصيدة . . . فأدخلَه إليه وقال : ما هذا الذي يحكيه عنك أبو العتاهية ؟ . . . فقال . يا أمير المؤمنين ، لو كنتُ أقول كما يقول :

ألا يـا عُتبـةَ الساعـةْ أمـوتُ الساعـةَ الساعةْ

لقلت منه كثيراً . ولكنّي الذي أقول :

إنّ عبدَ المَجيدِ ، يومَ تَوَلّى ، هدَّ رُكناً ما كانَ بالمهدودِ
ما دَرى نعشُه ، ولا حاملوهُ ، ما على النَعْشِ مِنْ عَفافٍ وَجُودِ

1 الحصري . زهر الآداب ج4 ص 1008 .

2 لعلّ المقصود بذلك أنّ التنافس بينهما بدأ بشكل مزاح وتطوّر إلى جدّ ، وإلاّ فليس هناك مسوّغ لذكر مزاح الشاعرين في مكّة وربطه بمناظرتهما أمام الرشيد .

فقال له الرشيد : هاتها فأنشدنيها . فأنشده . فقال الرشيد : ما كان ينبغي أن تكون هذه القصيدة إلاّ في خليفة أو ولي عهد . ما لها عيب إلاّ أنّك قلتَها في سوقة . وأمر له بعشرة آلاف درهم» فكاد أبو العتاهية يموت غمّاً وأسفاً[1] . وممّا تجدر ملاحظته هو سرعة تحوّل المنافسة من شخصيّة إلى بيئية . فلقد سبق أن أشرنا إلى التنافس الأدبي القائم بين بيئات المملكة المختلفة ، وأبرز وجوهه بين البصرة والكوفة ؛ والانتماء المدرسي نادراً ما يكون إراديّاً ، بل يأتي حكماً بحسب المنشأ . فأبو العتاهية نشأ في الكوفة وهو محسوب على مدرستها ، وإن قضى معظم حياته في بغداد . وهو ، بطبيعة هذا الانتماء ، يتعرّض لابن مناذر الذي يصنفه منشؤه بجانب أهل البصرة . وكأنّ أبا العتاهية ، بذكره لندرة انتاج ابن مناذر ، كان يريد أن يسجّل نصراً جديداً للكوفيين ممّا جعل ابن مناذر يردّ بقوّة وعنف وثقة ، فهو يردّ عن نفسه وعن البصرة التي يمثّلها[2] . وهذا ما يطالعنا أيضاً في المناظرة التي قامت بين منصور النمري ومروان بن أبي حفصة :

فمناظرتهما ، هي الأُخرى ، أحد مظاهر الصراع الأدبي بين أمصار المملكة لأنّ مروان بن أبي حفصة حجازيّ الأصل بينما منصور النمري من سكّان الشام . وهي تمثّل تنافساً بين شاعر بلاط له مكانه وقيمته فيه ، وله كذلك خطّه الأدبي ونهجه الشعري ، وبين الشاعر الحديث الورود إلى البلاط يشقّ طريقه إلى مجالسه . وهي تمثّل أيضاً ميل الرشيد مع شعراء بلاطه لأنّه يفخر بهم وبشاعريّتهم ، فهم كنزه ودعاته . وأخيراً ، فهي تمثّل خلفيّات التحدّي الأدبي وما يولده هذا النوع من التنافس من غصّة في حلق المنافس عندما يتجلّى منافسه أمامه ويجيد[3] .

---

1 الأغاني ج18 ص 140 والمستطرف ص 61 .

ولعلّ أبا العتاهية لم ينس هذا الموقف لابن مناذر وظلّ يصمم للانتقام منه واحراجه . وإذ لم تسنح له الفرصة ثانية في البلاط فقد اغتنمها أوّل ما عرضت له خارجهُ فقال له : «شعرك مهجَّن لا يلحق بالفحول ، وأنت خارج عن طبقة المحدَثين . فإن كنت تشبّهت بالعجاج ورؤبة ، فما لحقتهما ولا أنتَ في طريقهما ، وإن كنت تذهب مذهب المُحدَثين ، فما صنعت شيئاً . أخبرني عن قولك : (ومن عاداك لاقى المرمريسا) أخبرني عن المرمريس ما هو ؟ فخجل ابن مناذر وما راجعه حرفاً» . ويشير راوي الخبر إلى منافستهما قائلاً . «وكان بينهما تناغر» (الأغاني ج4 ص 92) .

2 من غير المستبعد كذلك أن يعمد رواة الأخبار إلى اقحام الانتماء البيئي للشاعر في أخبارهم ليعطوها أبعاداً أوسع وأهميّة أكبر .

3 ويورد الأصفهاني الخبر كما يلي : «كان منصور النمري مصافياً للبرامكة وكان مسكنه بالشام . فكتب يسألهم أن يذكروه للرشيد ، فذكروه ووصفوه ، فأحبّ أن يسمع كلامه . فأمرهم باقدامه ، فقدم ونزل عليهم ، فأخبروا الرشيد بموضعه فأمرهم باحضاره . وصادف دخوله إليه يوم نوبة مروان . . . وكان مروان يقول قبل قدومه : هذا شامي وأنا حجازي ، أَفَتُراه أشعرَ منّي ؟ ودخله من ذلك ما يدخل مثلَه من الغمّ والحسد» . (الأغاني ج 13 ص141) وراجع ص 261 هامش 1 من البحث .

وبدأت المناظرة بانشاد النمري قصيدته الرائية :

أميرَ المؤمنــين ، إليـك خضنا   غمـارَ الهـولِ مـن بلدٍ شطيرِ[1]

فإذا هو أفصح الناس . فداخل مروانَ الحسدُ له وقال : «وددت واللهِ أنّه أخذ جائزتي وسكت» . وذكر النمري في شعره يحيى بن عبد الله بن حسن مشيراً إلى الأمان الذي أعطاه إيّاه الرشيد بعد أن تمكّن منه ، وإلى مِننه الكثيرة على آل علي جميعاً ، فأصاب ما في نفس الرشيد وأحسن التخلّص إلى هذا الموضوع الحسّاس ، وأقام معادلة دقيقة بين رغبة الرشيد في الحكم المطلق ورغبته في أن يحفظ أهل بيته وأولاد عمّه . ويظهر أنّ هارون ، الذي بلغ منه الاعجاب مبلغاً كبيراً كان يطمع في متعة أكبر تولّدها منافسة بين شاعرين عظيمين ، وخصوصاً أنّهما خاضا موضوعاً واحداً هو وجهة نظر العبّاسيين في الخلافة . وكأنّه توقّع ردّة فعل النمري حين يسمع إنشاد مروان شاعر البلاط ، وهو ، بتتبّعه لهذا التصوّر ولما ينتظر من تسلية ، انفرجت أسارير وجهه وراحت تتراءى على شفتيه ابتسامة استقرّت طيلة إنشاد النمري[2] ، وما لبث أن أومأ إلى مروان أن أنشِد ، فاندفع يقول :

موسى وهـارونُ همـا اللـذانِ   في كُتُبِ الأخبـارِ يُوجَـدانِ
مِن وَلـدِ المهـديِّ مهديّانِ   مـدّا عِنانَـينِ على عِنـانِ
قـد أطلقَ المهـديُّ لي لساني   وشدّ أزري مـا بِـهِ حَباني
مـن اللُجـينِ ومـن العِقيانِ   عيديـةٌ شاحِطـةُ الأثمـانِ
لـو خايلتْ دِجلـةَ بالألبانِ   إذنْ لقيـل : اشتَبَهَ النهـرانِ

ولم يكن هذا الشعر يصلح لمنافسة قصيدة النمري ، ولا معانيه تداني ما قاله لبني علي مندّداً ومفنّداً على الطريقة التي عُرفت ، أصلاً ، لمروان . وكان من الطبيعي ألاّ يهتزّ النمري لهذا الانشاد وأن يطمئنّ إلى سبقه وتفوّقه ، علماً بأنّ مروان اعترف له بذلك في روايته للخبر . ولما لم «يَعج النمري بذلك ولا احتفل به» عاد الرشيد إلى التدخّل ، وأومأ إلى مروان : «أنْ زدْه» . فعدل مروان إلى شعره المعهود الذي اعتاد أن يؤكّد فيه وجهة نظر العباسيين بمقابل ما يدعيه العلويون ، وكأنّه أدرك أنّ النمري هاجمه في عقر داره بسلاحه فلا معنى لأن يجابهه وهو أعزل . فأنشد ميميته المشهورة :

---

1 الأغاني ج13 ص 141 .

2 يصف الأصفهاني مظهر الرشيد على لسان مروان : «وكان يتبسم في وقت ما كان ينشده النمري ، ويأخذ على بطنه وينظر إلى ما قال» . (المصدر السابق ص 142) أمّا المرتضى فيقول . «وكان هارون يتبسم ويكاد يضحك للطف ما سمع» . (الأمالي ج4 ص 185) .

خلّوا الطريقَ لِمَعشرٍ عاداتُهمْ   حَطْمُ المَناكبِ كلَّ يومِ زِحامِ[1]

ومع ذلك لم يتأثّر النمري ولم يتزحزح عن ثقته بنفسه وبالفوز. وجاء دوره في الإنشاد فقال:

إنَّ لهارونَ إمامِ الهُدى   كنزينِ من أجرٍ ومن برِّ[2]

كما أنشده أيضاً:

ولمن أضاعَ، لقد عَهِدتُكَ حافظاً   لوصيةِ العبّاسِ بالأخوالِ[3]

لكن الرشيد لم يتخلّ بسهولة عن موقفه في التحزّب لمروان، فأعطى مروان مئة ألف، وأعطى النمري سبعين ألفاً[4].

والآن، بعد هذه الجولة مع أدب البلاط نستطيع تأكيد أنّ أثر الرشيد الكبير في تحريك المظاهر الأدبية في بلاطه، بل في طبع أدب العصر بطابعه، لم يكن في ما أعطاه من جوائز سنية، وما أجراه على العاملين في ميدانه فحسب، انما كان في ما مارسه هو نفسه من تعامل مع الأدب وبما خلقه من تنافس كان، هو، طرفاً فيه. وهذا ما نستكمله في فصول لاحقة حين نتناول ببحثنا مجالس السؤال والامتحان والإجازة، ومجالس النقد الأدبي. إنّما لا بدّ لنا من تعليق أخير على نوع الروايات التي طافت بمجالس الرشيد وصوّرتها لنا. فإذا كان فيها تصنّع وافتعال، وإذا أصابها، أحياناً، إضافة وتكثيف، فممّا لا شكّ فيه أن فيها مبلغاً وافراً من الحقيقة، إذ ما كانت لتنشأ من العدم، وما كان الرواة والمؤلّفون لينسبوا ما جاء فيها إلى الرشيد لولا قناعة منهم بأنّ شخصية الرشيد، بما هو معروف عنه، قادرة على استيعاب المنسوب وهضمه. ونحن لا نعني بهذا تلك الأساطير التي حيكت حوله ولا الأخبار التي وردت في «ألف ليلة وليلة»، وإنّما روايات نقلها إلينا أقطاب، في معظمهم ثقات، يحسنون التقدير ويخلصون الأداء وكثيراً ما يستقصون الأخبار.

---

1 ومنها:

وارضَوا بما قسَمَ الالهُ لكم بهِ   ودَعُوا وِراثَةَ كلِّ أَصْيَدَ حامِ

أنّى يكونُ، وليس ذاك بكائنٍ   لِبني البناتِ وِراثةُ الأعمامِ؟

(الأغاني ج13 ص 142 وأمالي المرتضى ج4 ص 185) (وحام: تعني من يحمي الذمار).

2 ومنها:

يَريشُ ما تَبري الليالي ولا   تَريشُ أيديهنَّ ما يَبْري

كأنّما البَدْرُ على رَحلِهِ   تَرْميكَ منْهُ مُقلتا صَخرِ

(أمالي المرتضى ج4 ص 186).

3 المصدر السابق.

4 يعلّق راوي الخبر قائلاً: «فكان مروان يتأسّف على هذا المعنى أن يكون قد سبقه إليه وإلى قوله:

وما لِبني بناتٍ من تُراثٍ   مع الأعمامِ في وَرَقِ الزَبورِ»

(الأغاني ج13 ص 143).

الفصل الثالث
مجالس الاختبار

«دخل أبو الغول على الرشيد ، فأنشده مديحاً له ، فقال الرشيد : أبا الغول ، فقال : لبيك ، يا مولانا ، أمير المؤمنين . قال : إنّ في أنفسنا من شعرك شيئاً ، فلو كشفته بشيء تقوله على البديهة . قال : والله ما أنصفتني ، يا أمير المؤمنين . قال : ولِمَ ؟ وإنّما هذا امتحان ! قال : لأنّك جمعت هيبة الخلافة وجلالة الملك وحيرة الاقتضاب . على أني أرجو أن أبلغ من ذلك ما تريد . . .»[1] .

ابن المعتزّ

الرشيد والمحكّ الأدبي

كنّا ، من قبل ، نتحدّث عن البلاط وعن دور الرشيد فيه كصاحب له وكمشارك في مجالسه إلى جانب أقطابه ، وكهدف للكثير ممّا قيل فيه . ونحن ، الآن ، نواجه صورة جديدة للرشيد الأديب وهي صورة الحاكم السياسي الذي ينصب نفسه حكَماً أدبيّاً ، مستمدّاً نفوذه من موقعه السياسي بالذات ، ومن امكاناته الكبيرة في التحكّم بظروف الناس ، أوضاعهم وثرواتهم ، وحتى أعمارهم . وكان أقربُ الناس إليه هم أكثرهم تعرّضاً لأحكامه ولامتحانه : يضعهم على المحكّ ، يسبر أغوار معرفتهم ويمتحن صدق احساسهم الفنّي بسلسلة لا تنتهي من الإثارة وردود الفعل ، بقدر أهواء نفسه التي لم تعرف الحدود ، عدّاً ونوعاً . ذاك أنّ نفسه ، التي وصفناها بالتعطّش إلى المعرفة ، كانت تحفزه دائماً إلى الاستزادة من هذا المنهل . فإذا هو يسأل ويسأل ليطفيء سُعار فضوله الأدبي . وهو ، إذ يختار جليسه أو يستقبل شاعراً للمرّة الأولى ، يترفّع عن الحكم عليه بالشعور الفوري الآني والتأثّر اللاواعي ، بل يصمّم على أن يكون حكمه قائماً على قناعة عقلانية بجدارة الجليس أو بصدق موهبة الشاعر . فتكون عملية امتحان دقيق شامل ، حيناً ، أو حكّ للقدرة على الارتجال ، حيناً آخر ، أو استشفاف لصفاء ذهن الأديب وتمكّنه من ادراك الخفي الذي يجول بذهن الخليفة ليصوغه أدباً وفنّاً ، أو إجازة لشعر يطرحه عليه بشعر آخر يتمّم معناه وأغراضه . وهذا الخفي ، الذي يجول بذهن الخليفة ، متفاوتُ الأهمية الموضوعية ، إلاّ أنّه ، بالنسبة إلى الرشيد ، مهمّ دائماً مهما بلغ من التفاهة في نظرنا . وهو ، نظراً لطبع الخليفة المتوفز ، ملحّ دائماً ، يتطلّب السريع من الإجابة والفوريّ من الاشباع ، أيّاً كان القلق والاضطراب اللذان يسبّبهما للأديب المطلوب . بل إنّ هذا الاضطراب الذي تعقبه جوائز الرشيد السخيّة يصبح متعة للأديب وقبلة أنظار روّاد البلاط ، لأنّ في حسن الإجابة عن السؤال المطروح منجاةَ المذنب واطلاق الأسير وغنىً للمعدَم ، وزيادةً فوق زيادة للميسور المنعّم . فالرشيد يعطي الكثير مقابل

---

1 طبقات الشعراء ص 149 .

القليل الذي يأخذه . إذ ما قيمة نصف بيت يخطر ببال الرشيد ، ليدفع المبالغ ويرسل الرسل مقابل معرفة نصفه الآخر[1] ؟ . وما قيمة أبيات من الشعر يقولها شاعر ليُرفع بسببها الحيفُ وسيف النقمة عن قبيلة ربيعة ؟[2] . وما قيمة بيت من الشعر يجول بخاطره ليخرج أبا نواس[3] أو أبا العتاهية[4] من الحبس فيجيزه ويحظى بالعفو الذي جَهَد سابقاً في الحصول عليه ، دون جدوى ؟ والرشيد ، بمفاجآته التي تطلع بأسئلته وتحرّك امتحانه ، يجعل جلساءه وشعراءه وقاصديه ، وحتى مجمل أدباء عصره ، في حالة توفز وترقب . فلا منهجيّة توحي بسياق يتبع ، ولا مؤشّرات واضحة ترسم خطّاً يقود إلى هدف محدّد ، ولا قاعدة ثابتة ، إذا طُبقت مرّة كانت سُنّة لمرّة أُخرى . الجميع عرضة للسؤال ، بل يرغبون في أن يقع عليهم السؤال . والكلّ يخافون من السؤال المجهول الذي قد لا يعرفون له جواباً ، فتذوب حينها ، من بين أناملهم فرصة السعادة ، أو تختفي من أمام عيونهم اشراقة الحظ . والرشيد ، كما يبدو ، قد أُغرم غراماً شديداً بعمليّات الاختبار هذه . ومن يدري ؟ لعلّها كانت ترضي ميله البارز إلى التفوّق . لأنّه ، حين يكون هو السائل الممتحن لشيوخ اللغة وأساتذة الأدب ونوابغ الشعر ، وحين يتسابق هؤلاء جميعاً إلى ارضائه وإجابة سؤله ، فهذا دليل على أنّه ضليع في الميدان ، وترصيع لصفة الخليفة الأديب التي طالما حاول الاتّصاف بها[5] . بل أكثر من ذلك : فالرشيد ، حين يرهن الأقطاب المشار إليهم لأهوائه ونزعات نفسه ، يرضي في نفسه شعوراً من الأنانية لازمه طيلة حياته وجعله يظهر ، بين الحين والحين ، بمظهر طفل كبير مدلّل ؛ وهذه طبيعة لدى بعض الشعراء والفنّانين . ولكي نستطيع تصوّر حالة الأمل والترقّب التي يعيشها كبار الناس ومنهم فحول الشعراء ، بانتظار إشارة من الرشيد وسؤال ، ثم عمق الحسرة التي تنتابهم في حال العجز عن ارضائه ، نذكّر بالخبر الذي رواه الأصفهاني عن موسى السلولي حين كان بباب الرشيد والناس وقوف ، وفيهم وجوه العرب من مختلف أرجاء المملكة ، إذ خرج وصيف يقول : «يا معشر الصحابة ، إنّ أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام ويقول لكم : من كان يروي قصيدة الأسود بن يعفر :

نامَ الخليُّ ، وما أُحسُّ رُقادي   والهمُّ محتضِرٌ ، لديَّ ، وِسادي

فليدخل ، فلينشدها أمير المؤمنين وله عشرة آلاف درهم»[6] . ولا شيء في الخبر يدلّ على أنّ الرشيد كان لا يعرف القصيدة . وفي رأينا أنّ طلبه الانشاد ليس طلب التعرّف على شيء يجهله ،

---

1 انظر ص 55 هامش 5 من البحث .

2 راجع فصل الصراع العصبي .

3 راجع ص 188 من البحث .

4 الأغاني ج4 ص 76 .

5 راجع فصل الصراع بين الترف والحرمان عنوان «شعر العشق عند الرشيد» . وراجع ص 172 من البحث .

6 الأغاني ج13 ص 16 .

بقدر ما هو امتحان لمعرفة الطائفين ببابه . ولو أنّ هدفه كان مجرّد الاطّلاع أو مجرّد الانشاد للجأ إلى البيدق ينشد ويجوّد ، أو للأصمعي يعرض ويعلّق ويشرح . ولكنّه الامتحانَ أراد ، وضرباً من التكريس لأهميّة الشعر التقليدي ، وتوجيهاً إلى تداوله وحفظه عن طريق إشهار اهتمامه به وميله إليه . ولقد راح الحاضرون المترقّبون ينظر بعضهم إلى بعض . فلم يكن فيهم أحد يعرف القصيدة . وكانت خيبة أمل للرشيد ، وخيبة أكبر للرواد . فكم ممّن وقفوا بالباب تلك الليلة ؛ ولم يرووا شعر الأسود بن يعفر ، رجعوا إلى بيوتهم متحسّرين يلومون أنفسهم ! وكم منهم من نتصوّرهم أكبّوا على كتبهم ودفاترهم يبحثون فيها ، أو انكفأوا إلى أشياخهم يسألونهم ، أو قصدوا الأعراب شعراء القبائل يستنشدونهم شعر الأسود بن يعفر أو شعر أي أسود آخر أو أبيض من الجاهليين قد يخطر ببال أمير المؤمنين أن يسأل عنه في ليلة فريدة من ليالي العمر[1] ؟ . . . وهذه الحادثة تبرز لنا نمطاً من أنماط اختبارات الرشيد التي ، لكي نستطيع دراستها بشكل واف ، لا بدّ من تصنيفها وتجزئتها .

أوّلاً : مجالس السؤال

وهي مجالس محورها الأدب وأسلوبها أدبي وخلاصتها معرفة أدبية ، إنّما فصلناها عن المجالس الأدبية لأنّها عادة تكون من جانب واحد . فليس فيها مساجلة أو مناظرة ، ليست إلاّ جواباً ، من أحد الموجودين أو بعضهم ، عن سؤال يكون الرشيد صاحبه . أمّا موضوع هذه الأسئلة فمتشعّب متفرّع . هو تارة أفضلية شعرية ، كسؤال الرشيد «لجماعة من أهله وجلسائه : أي بيت مدح به الخلفاء ، منا ومن بني أمية ، أفخر ؟ فقالوا وأكثروا» . ولما لم يتّفقوا على رأي ولم يستطع أحد اقناع الرشيد برأيه ، حسم هارون الخلاف بقوله : «أمدح بيت وأفخره قول ابن النصرانية (يعني الأخطل) في عبد الملك :

شُمسُ العـداوةِ حتى يُستقادَ لهم　　　وأعظـمُ الناس أحلاماً إذا قدِروا[2]

والرشيد هنا ، كعادته في اختبار جلسائه ، لم يكن يسأل للمعرفة ، بل يسأل للامتحان ، ولمقارنة رأي جلسائه برأيه ، والتعرّف على الذين يشاركونه وجهة نظره ، إذا وُجدوا ، أو تطبيع الموجودين بميوله . وهذا الاختبار حسّاس جدّاً ومن الصعب اجتيازه بنجاح . فأنّى للجليس أن يعرف الشعر الذي يضمره الرشيد ؟ الشعراء لا يحصون عدداً ، وقصائدهم في الملوك كلّها مدح يورث فخراً ، وأيّ بيت اختير لأيّ شاعر من أيّ قصيدة مدحية قد يفي بالمطلوب ، دون أن يطابق ما أخفاه الخليفة في ذهنه . وبالمقابل لهذا النوع من الأسئلة ، حين يطرح الرشيد سؤالاً ليس في ذهنه إجابة عنه ، لا يَقبل أولَ ردّ يتلقّاه . لأنّه ، إذا لم يكن في خزانة معارفه نموذج لما يطلبه ، فإن في نفسه وأحاسيسه تصوّراً واضحاً لما يمكن أن تكون عليه الإجابة المثالية . وكلّ إجابة لا تشبع هذه الأحاسيس تبقى

---

1 يقول الحكم السلولي راوي الخبر : «فأمرني أبي فرويت شعرَ الأسود بن يعفر من أجل هذا الحديث . . .» .

2 الأغاني ج11 ص 61 .

هامشية التأثير ، مرفوضة . ونأخذ على ذلك مثل مجلس حضره عبد الله بن مصعب مع جلساء آخرين فقال الرشيد : «أنشدوني شعراً حسناً في امرأة خفرة كريمة ؛ فأنشدوا فأكثروا» وعبد الله ساكت . فقال له الرشيد : «إيه يا ابن مصعب ! أما إنّك لو شئتَ ، لكفيتنا سائرَ اليوم» . فقال : «نعم يا أمير المؤمنين . لقد أحسن محمد بن بشير الخارجي حيث يقول :

بيضـــاءُ ، خالِصــةُ البياض ، كأنّـها قَمَـرٌ تَوسّطَ جُنُـحَ ليــلٍ مُبرِدِ
خَــودٌ ، إذا كَثُرَ الكلامُ ، تَعَوّذتْ بِحِمى الحَياءِ ، وإن تَكلّمْ تقصِدِ . . .
(الأبيات)

قال الرشيد . هذا والله الشعر ، لا ما أنشدتمونيه . ثم أمر مؤدب ابنه محمد الأمين وعبد الله المأمون ، فروّاهما الأبيات»[1] . ومن الواضح في هذا الخبر أنّ صورة المرأة الخفرة التي يطلب وصفها ماثلة لعينيه وإن لم تمثّل في ذهنه الكلمات التي تصفها . فلم يكن مستعداً لقبول ما لا ينطبق عليها ، لذلك لم يُرضِهِ إلاّ شعر الخارجي ، على عداوته للخوارج عامّة .

وقد يكون الحافز إلى السؤال حالة نفسية يمرّ بها الرشيد أو أزمة عاطفية مع إحدى نسائه أو بعض جواريه ، فيتوقّع من الجواب أن يصف وضعه فيسرّي عنه ، أو يصف وضعاً مشابهاً فيخترع نهاية شاعرية له يقتبسها الخليفة مَخرَجاً له من أزمته ، أو يعطيه حجّة ومبرّراً لمعاودة وصل ما انقطع مع المدلّة عليه ، دون أن يُذلّ كبرياءه . وقد مرّ بنا بعض هذه الحالات حين تحدّثنا عن استجابته للمثير الأدبي[2] . ونكتفي هنا بالإشارة إلى المجلس الذي طلب فيه من إسحاق الموصلي أن ينشده أحسن ما يعرف عن «عتاب محبّ وهو ظالم متعتّب» فأنشده أبياتاً لجميل ، منها :

ومِــنْ لَذّةِ الدنيا ، وإن كنتَ ظالماً عناقُــكَ مَظلومــاً ، وأنــتَ تُعاتِبُــهْ

فقال . «أحسن والله ، أعدها عليّ» فأعادها حتى حفظها وأمر له بثلاثين ألف درهم ثم تركه فدخل إلى دار الحرم»[3] . ولا شكّ في أنّ قارىء هذه الأخبار يعجب بالفعل لهذه النخبة من رجال الأدب والفن الذين أحاطوا بالرشيد ، أطافوا ببلاطه وبنفسه وعواطفه ، واختزنوا الكثير الكثير من الشعر والروايات للساعة الحرجة[4] . ولسنا ندري كيف كانوا يختارون حفظهم : هل كان موجّهاً لما يمكن أن يخدمهم في إحدى لحظات السؤال الملكي ، كما كان يفعل الأصمعي[5] ، أم أنّه حفظ شامل جامع لا بدّ للسائل من أن يقع فيه على جواب عن سؤاله ؟ فالمتأمّل لجواب إسحاق وللبيت الأخير

1 الأغاني ج16 ص 70 وانظر ص 107 هامش 2 وص 227 من البحث .
2 انظر ص 153 وما بعد من البحث .
3 الأغاني ج8 ص 147 .
4 راجع خبر تحضير سلْم الخاسر للمراثي قبل موت أصحابها وانظر ص 161 هامش 2 من البحث .
5 تاريخ بغداد ج14 ص 9 وانظر ص 79 هامش 4 من البحث .

بالذات ، يفهم قصّة الرشيد التي حفزته على السؤال ، ويستشفّ نهاية القصّة ، التي ابتدأت مع هذا البيت ، لتنتهي على أحلى وألطف ما تكون نهاية لقصّة عاطفية . . وإذا كان هذا النوع من الأسئلة يسهُل التكهّن بحوافزه ، فهناك أسئلة أُخرى لا يمكن استقراؤها السبب لأنّه لا شيء في الرواية يدلّ عليه ، اللهمّ إلاّ أن يكون الرشيد ضجراً فيخطر بباله أن يتسلّى بمنظر صراع أدبي بين الجلساء ، يحاول كلّ منهم فيه أن يتفوّق على سواه ليحظى بالرضى ، وبما بعد الرضى ؛ فيكون أن يطرح الخليفة موضوعاً يحاول جعله صعباً لم يسبق أن كثر الكلام فيه ، كقوله يوماً لجلسائه : «أنشدونا ما قيل في وصف العُقاب . فسكت القوم ولم يأتوا بشيء . فقال الأصمعي : أحسن ما قيل فيها :

باتَتْ يؤرِّقُها في وَكرِها سَغِبٌ ... وناهضٌ يخلِسُ الأقواتَ مِن فِيها

وقال امرؤ القيس :

كأنَّ قلوبَ الطير ، رَطباً ويابِساً ... لَدَى وَكرها ، العُنّابُ والحَشَفُ البالي

فقال له الرشيد . ما بَعَل القوم في شيء إلاّ وجدتُ عندك فيه شيئاً»[1] . وقد يكون سؤال الرشيد سؤال عاتب غامز من طرف خفي إلى خبر سمعه عن جليس ، فيأتي طرحه له نوعاً من الاختبار لحقيقة الولاء للخليفة أو للبلاط أو للحكم العبّاسي ؛ كموضوع السواد مثلاً : فهذا اللون رمز للعباسيين وشعار ، به صبغت أعلامهم وملابسهم الرسمية . اعتمدوه لاحتفالاتهم فاختاره الناس إرضاء لهم ، أو حبّاً بهم ، أو خوفاً من مخالفتهم . وكان الذين ينقمون عليهم تقصيراً بحقّهم ، أو الذين ينتمون إلى شيع مناوئة ، يبلورون نقمتهم بانكار لبس السواد ، حتى إنّ أوّل ما يفعله المتمرّدون على الدولة هو ابطال لبس السواد ووقف الدعاء للخليفة على المنابر . من هنا شكّل السواد موضوعاً لاختبار الولاء للحكم . وقد توجّه الرشيد بالسؤال إلى أبي يوسف القاضي : «بلغني أنّك لا ترى لبس السواد[2] . فقال : يا أمير المؤمنين ، لِمَ وليس في بدني شيء أعزّ منه ؟ قال . ما هو ؟ قال السواد الذي في عيني» . وكأنّ الرشيد أراده امتحاناً عامّاً فالتفت إلى الشافعي ، وكان حاضراً[3] ، وطرح عليه السؤال . ولم يكن الإمام ليمالىء الخليفة كما فعل قاضي القضاة ، فأجابه : «لا أحرّمه ، ولكنّي أكرهه» . ولعلّ الرشيد فوجىء وعجب من أن يؤمّ بلاطه من لا يحبّ السواد . أو لعلّه كان يعرف موقف الشافعي فافتعل سؤال أبي يوسف كبداية ليصل الدور إلى الشافعي ؛ ولا نستبعد أن يكون ذلك كلّه شركاً

---

1 أبو هلال العسكري ـ ديوان المعاني ج2 ص 142 .

2 لعلّه أراد لبس السواد في مناسبات كالمآتم وسواها ، وبهذا نجد مسوّغاً لطرح السؤال على الفقهاء .

3 ورد ذكر الأوزاعي في الخبر . ولكن الأوزاعي توفّي عام 159هـ ولم يدرك خلافة الرشيد ولا التقى أبا يوسف . وكذلك أبو حنيفة ، لم يدرك الرشيد إذ توفي عام 150هـ . ولم يجتمع مالك بأبي يوسف في البلاط لأنّه كان يأبى ارتياده ويصرّ على أن يأتيه الخليفة بنفسه إلى مكّة . والإمام الوحيد الذي أمّ البلاط وناظر أبا يوسف غير مرّة هو الشافعي . لذلك أثبتنا اسمه في هذا الخبر بدل الأوزاعي الذي ذكره النويري .

نصبه أبو يوسف بموافقة الرشيد مقترحاً الاختبار، موزّعاً الأدوار. والشافعي كان عنده تسويغ: «لأنّه لا تُجلى فيه العروس، ولا يلبّي فيه محرم، ولا يكفَّن فيه ميت». ولم يكن الرشيد مجادلاً متكلّماً ليستطيع مقارعة الشافعي. فكاد أن يسقط في يده لولا أن التفت إلى أبي يوسف: «ما تقول أنت في السواد»؟ فلبّاه صاحب الفتاوى على الفور: «النور في السواد». فاستحسن الرشيد ذلك. ولكن خيال أبي يوسف كان قد انطلق من عقاله، فقال: «وفضيلة أُخرى، يا أمير المؤمنين. قال: وما هي؟ قال. لم يكتب كتاب الله إلاّ به»[1]. فأتى على كلّ ما ساور الرشيد في لحظة الضعف السابقة، ورسّخ فلسفة السواد إذ ربطه بكلام الله المقدّس». فاهتزّ الرشيد من النشوة... ومن الواضح أنّ الفرق بين الجوابين هو الفرق بين المجيبين: بين الإمام الذي يقول ما يقتنع به، لا يستهويه جاذب دنيوي وبين قاضي القضاة الذي كثيراً ما سخّر علمه وفقهه واجتهاده لبعض أهواء الخليفة. بقي أن نشير أخيراً إلى نمط من الأسئلة يختلف عن سابقيه: السؤال الذي ينشد المتعة الأدبية، سؤال يطلب وصفاً ويتوقّع أناقة في الأسلوب وجمالاً في المعاني، من جليس عرف عنه الفصاحة والبلاغة. من ذلك قول الرشيد للعبّاس بن الحسن الطالبي، وكان من جلسائه: «أراك تكثر من ذكرِ يَنبُع» وصِفتِها. فصفها لي وأوجز. قال: بكلام أو بشعر؟ قال: بكلام وشعر. قال: جِدّتُها في أصل عِذقها، وعذقُها مُسرَّح شأنها. قال: فتبسّم. قال:

يا واديَ القصرِ نِعمَ القصرُ والوادي ... مِن منزلٍ حاضرٍ، إن شئتَ أو بادي

تـرى قَراقيـرَه، والعِيسَ، واقفـةً ... والضَبَّ والنونَ والمَـلاّحَ والحادي»[2]

وليس بعيداً جدّاً، عن هذا الوصف لينبع، وصف عبد الملك بن صالح لضيعته «مَنبج» ولمنزله فيها. فقد قال له الرشيد يوماً: «أهذا منزلك؟ قال: لأمير المؤمنين، ولي به. قال: كيف ماؤه؟ قال: أطيب ماء. قال: فكيف هواؤه؟ قال. أصحّ هواء»[3]. وسأله بعد ذلك أن يصف له مَنْبج فقال: «رقيقة الهواء، ليّنة الوِطاء. فسأله: «فكيف طيبُ مَنبج؟ قال: عذبة الماء، قليلة الأدواء. قال: فكيف ليلها؟ قال. سَحَرٌ كلّه»...[4] هكذا يمضي الرشيد في سؤال جلسائه عن كلّ شيء وهم متحفّزون مترقّبون. وبمقابل تحفّزهم، وترقّبهم لأسئلته وتجميعهم لأطراف الثقافة بهذا الهدف، يقوى إحساس لدى الرشيد بأن كلّ ما يخطر بباله يمكن تحقيقه، وأنّ أيّ

---

1 النويري ـ نهاية الأرب ج4 ص 11.

2 (الطبري تاريخ الرسل والملوك ج8 ص 357) ويروي المسعودي الأبيات عن لسان ابن أبي عيينة في قصر محمد بن سليمان بالبصرة (مروج الذهب ـ دار الأندلس ج3 ص 338).

3 ابن عبد ربّه ـ العقد الفريد ج2 ص 129. وانظر آثار البلاد. ص 274.

4 الحصري ـ زهر الآداب ج2 ص 318 وقد أعجب الشعراء والرواة بهذا المعنى المختصر البليغ فأخذه الشعراء وتتبّعه الرواة من شاعر إلى آخر (انظر المصدر المذكور).

سؤال يجول بخاطره ، لا بدّ من أن يجيب أحد عنه . وقد يحدث له ، كما يحدث لأيّ إنسان ، أن يردد كلمة أو جملة جالت بذهنه ، ويكرّر تردادها دون أن يدري لذلك سبباً أو مصدراً للوحي ، ويحاول التخلّص منها فلا يستطيع ، وكلّما طردها من ذهنه عادت إليه ملحّة ملحّة . فيكون سؤال : تُرى ، هل الجملة هذه من بنات أفكاري أم أنّني سمعتها سابقاً ؟ وفي أيّ حال ، هل قال أحد شيئاً في مضمونها أو ألفاظها أو معناها ؟ والرشيد ، حين يمرّ بحالة كهذه ، لا يهدأ له بال إلى أن يجد الجواب لسؤاله . هكذا كان الرشيد يوماً» يلاعب الفضل بن الربيع بالشطرنج إذ ولع بهذا المثل : وحيُ مقمورٍ بِدَرْدْ ، فجعل يردّده ، ثم قال للفضل : أترى أحداً من الناس قال في هذا شعراً ؟ فقال : إن كان أحد يفهم هذا فأبو نواس . قال : وأين الفاسق ؟ قال : في حبس أمير المؤمنين . فأمر بإحضاره فأُحضر» . وبعد أن ادّعى التوبة عن شرب الخمر قال له الرشيد : «فهل قيل في / وحي مقمور بدرد / شعر ؟ قال . نعم ، بعض الأعراب يقول :

ليتَني في بيتِ وَرِدْ ... مَنقعاً في آب زَرْدْ

فألاعبُها بِنَرْد ... بين خَيرِيٍّ وَوَرْدْ

وأُجاهِرُها بِفَرْدْ ... وَحْيُ مَقْمورٍ بِدَرْدْ»[1]

ثانياً : مجالس الامتحان

وتختلف هذه المجالس عن سابقتها في أنّها تهدف بالفعل إلى اختبار الجليس ، مدى حفظه ، وبالأخصّ شاعريته أو بديهته . والرشيد ، إذ يتولّى إدارة دقّة الامتحان ، يأخذ دور اللجنة الفاحصة ، يطرح السؤال تلو السؤال ، يتلقّى الإجابات ، ويقوم ببادرة التشجيع إذا لمس من المرشّح اضطراباً أو رهبة ، ويعلن النتيجة ، يرفقها أحياناً بتعليل لها أو تقويم لصاحبها . وأبسط مظاهر هذا الامتحان ، اختبار الشاعر الجديد في صدق موهبته الفنيّة . فهناك هاجس يسيطر دائماً على الرشيد : أن يحيط نفسه بالنخبة من الناس ، من رؤساء القبائل ، من زعماء القلم والكلمة ، من المبرّزين بين الشعراء . ولعلّه كان يخاف من أن يجد نفسه ذات يوم وقد غدا هدفاً لخديعة من أحد الدخلاء ينتحل شعر غيره يتقرّب به إليه[2] . فاختطّ سنّة : كلّ شاعر يدخل إلى البلاط للمرّة الأولى ، إمّا أن يكون صيته قد سبقه إليه حتى تاقت نفس الخليفة إلى رؤياه وسماعه ، فهذا يكون على الرحب والسعة ، وغالباً ما

---

1 أخبار أبي هفان ص 72 . ومع أنّ ظاهر القصّة معقول ومقبول فإنّ نسبة الأبيات إلى بعض الأعراب يترك مجالاً للشكّ : فمن أين للأعراب معرفة بالنرد وبلعبه وبألفاظه ، وأين الأعرابي الذي يلاعب الاعرابية بالنرد ؟ إنّ اللعبة مظهر حضري بحت كما أنّ خفّة اللحن وخلل الوزن وتضمّنه الكلمات الفارسية الأصل تجعله ألصق بحياة المدن .

2 انتحال شعر الغير كان معروفاً ، وخطّة الرشيد في الامتحان انتهجها مَنْ هم دونه من الأعيان . (راجع الأغاني ج18 ص 326 وما بعد قصّة انتحال راوية مسلم قصيدته في مدح داود بن يزيد المهلبي وامتحان داود للشاعر المدّعي حتى اعترف) .

توجّه إليه الدعوة أو يوعز إليه الخليفة بها بشكل غير مباشر ؛ وإمّا أن يكون مغموراً ، على ابداع لديه ، فلا بدّ من امتحانه . هكذا تتكرّر قصّة الأعرابي الذي يدخل فينشد ثم لا يلبث أن يجد نفسه على المحكّ ، كالأعرابي الذي دخل إليه و«أنشده أرجوزة ، وإسماعيل بن صبيح يكتب بين يديه كتاباً ، وكان أحسن الناس خطّاً وأسرعهم يداً . فقال الرشيد للأعرابي : صف هذا . فقال : ما رأيت أطيش من قلمه ولا أثبت من حلمه» . ثم قال :

رقيقُ حواشي الحِلْمِ ، حين تَثوره ... يَديكَ الهُوَينا ، والأمورُ تَطيرُ
لـه قَلَما بـؤسٍ ونُعمى ، كلاهما ... سحابتُـه في الحالتين دَرورُ
يُناجيكَ عَمّا في ضَميرِك لحظُهُ ... ويَفتحُ بابَ النُجْحِ ، وَهْوَ عَسيرُ

فقال الرشيد . قد وجب لك ، يا أعرابي عليه حقّ هو يقضيك إيّاه ، وحقّ علينا فيه نحن نقوم به»[1] . وشبيهة بهذه القصة حكاية الأعرابي الباهلي الذي قدم على الرشيد وأنشده شعره فيه «فقال الرشيد : يا أعرابي ، اسمعك مستحسناً ، وأنكرك متّهماً . فإن يكن هذا الشعر لك ، وأنت قلته من نفسك ، فقل لنا في هذين بيتين ـ يعني محمداً والمأمون وهما حفافاه ـ فقال : يا أمير المؤمنين ، حمّلتني ، على القدر في غير الحذر ، روعةَ الخلافة وبَهر البديهة ونفور القوافي عن الروية[2] . فيمهلني أميرُ المؤمنين يتألّف لي نافراتها ويسكن روعي . قال : قد أمهلتك يا أعرابي وجعلت اعتذارَك بدلاً من امتحانك . فقال : يا أمير المؤمنين ، نفّستَ الخناقَ وسهّلتَ ميدان السباق[3] ثم أنشأ يقول :

بَنَيتَ بِعَبـدِ اللهِ ، بَعـدَ مُحمّدٍ ، ... ذُرى قُبّـةِ الإسلامِ فاهتزَّ عُودُها
همـا طُنُباها ، بـارَكَ اللهُ فيهما ، ... وأنـتَ ، أميرَ المؤمنـينَ ، عَمودُها

فقال : وأنت يا أعرابي ، بارك الله فيك . فسلْنا ولا تكن مسألتك دون احسانك . فقال : الهنيدة ، يا أمير المؤمنين»[4] .

وقصّة مسلم بن الوليد ، حين حُمل مع أنس بن أبي شيخ متّهمين بتهمة الزندقة ، قصّة معروفة ، أشرنا إليها سابقاً ونركز هنا على نهايتها . فبعد أن أُعجب الرشيد بحسن تخلّص مسلم ممّا نسب إليه «قال له بعض جلسائه : استبقِهِ ، يا أمير المؤمنين ، فإنّه من أشعر الناس ، وامتحنه فسترى منه عجباً . فقال له : قل شيئاً في أنس . فقال : يا أمير المؤمنين ، افرخْ روعي ، أفرخَ اللهُ روعَك يوم الحاجة إلى

---

1 الصولي ، أبو بكر محمد بن يحيى ـ أدب الكتاب ج1 ص 73 .

2 جاء في طبقات ابن المعتزّ ص 149 «فقال : والله ما انصفتني يا أمير المؤمنين . قال . ولِـمَ ؟ وإنّما هذا امتحان ؟ قال . . .» .

3 وردت في تاريخ الطبري ص 363 «النفاق» والتصحيح عن المراجع الأُخرى المذكورة فيما بعد .

4 المصدر السابق ج8 ص 363 والعقد الفريد ج1 ص 310 وزهر الآداب ج4 ص 1044 (والهنيدة : المئة من الإبل) .

ذلك ، فإنّي لم أدخل على خليفة قطّ . ثم أنشأ يقول :

تلمّظ السيفُ . . . .[1]

هكذا جاز مسلم الامتحان ونال جوائز سنية بعد أن حظي بالعفو عن ذنوبه . ولا يسعنا ، في الحديث عن الامتحان ، اغفال ذكر عبد الملك بن صالح . فهذه الشخصية الهاشمية المتعددة الكفايات ، البعيدة الطموح ، سبّبت تنغيصاً وتنكيداً للرشيد . فهو تارة يراه نعم الجليس فهماً وأدباً وفصاحة ، وهو طوراً يراه بئس المنافس الخطر ، بسبب فهمه وأدبه وفصاحته وحسن إدارته . لذا كانت معاملته له تشهد تناقض المواقف . إلاّ أنّ الرشيد ، مع كلّ ذلك ، لم يكن يبخس عبد الملك قيمته الأدبية ، بل يثق ببديهته . «وكان من يحسده قد قال للرشيد عنه إنّه يُعِدُّ كلامه . فأنكر الرشيد ذلك وقال : بل هو طبع . وجلس في بعض الأيّام ودخل عبد الملك . فقال الرشيد للفضل : قل له : وُلد لأمير المؤمنين في هذه الليلة ابن ومات له ابن . فقال الفضل له ذلك . فدنا عبد الملك وقال : يا أمير المؤمنين ، سرّك الله فيما ساءك ، ولا ساءك فيما سرّك وجعلها واحدة بواحدة : ثواب الشاكر وأجر الصابر . فقال له الرشيد : هذا الذي زعموا أنه يتصنّع الكلام ؟ ما رأى الناس أطبع من عبد الملك في الفصاحة»[2] .

وهناك نوع من الامتحان غير المباشر ، يجريه الرشيد أحياناً ، هو امتحان للآخرين في الولاء وفي ما يبطنونه من مشاعر عن طريق ذكر أشخاص غير مرغوب فيهم ، والمبالغة في الحديث عن كفاياتهم ، أو عن طريق الخوض في موضوعات كلّها محرّمة أو دقيقة شائكة ، مع ترقّب ردود فعل المرشّح وانجرافه إلى الشرك الذي يثبت مدى معرفته أو يشفّ عن حقيقة آرائه ومشاعره . وقد كان الملوك ، في كلّ عصر ، يلجأون إلى هذا الأسلوب في استدراج من يشكّون في ولائه أو حسن نيّاته[3] . وكثيراً ما نصب الفخ للزنادقة أو للمتكلّمين ، أيّام العبّاسيين . ولا شكّ في أنّ هذا النوع من الاستدراج يضع الممتحَن في موقف شديد الحرج . لأنّه ، إذا أظهر الجهل وتحفّظ عن الخوض في الموضوع ، لم يصدَّق ، وقد يقلّ قدره لجهله ما يعرفه الجميع . وإذا أظهر العلم واندمج في الحديث قد يُظنّ فيه الحماس والاهتمام ، وهما كافيان للقضاء عليه ، لا لرسوبه في

---

1 العقد الفريد ج2 ص 181 وراجع ص 91 من البحث .

2 النويري – نهاية الأرب ج5 ص 133 وكتاب الصناعتين ج2 ص 265 وفوات الوفيات ج2 ص 13 .

3 يذكر الأصفهاني حادثة جرت لإبراهيم الموصلي مع الرشيد إذ دعاه إلى قول شيء في جارية أمامه مغنّية جميلة ، على العود ، فقال فيها شعراً غزلاً ، دون تحفّظ . فأحسّ الرشيد بذلك ، فأمره بالانصراف ، وبقي شهراً لا يدعوه إلى مجالسه . ثم دسّ له خادماً معه رقعة عليها شعر غزلي مدّعياً أنها من جارية الرشيد . ولقد أحسّ الموصلي بالشرك المنصوب ، فلم يتناول الرقعة بل انهال ضرباً على الخادم ، ثم ركب إلى الرشيد يشكوه . فضحك وقال له : «على عمد فعلتُ ذلك بك لأمتحن مذهبك وطريقتك» . (الأغاني ج2 ص 208 وانظر كذلك الطبري ج8 ص 310 و311 امتحان إبراهيم بن نهيك في ولائه للبرامكة) .

الامتحان فقط . ونحن لن نتحدّث عن امتحان الزنادقة[1] ، بل نكتفي بالإشارة إلى الامتحان الأدبي الذي يوجّهه الرشيد ، من وقت إلى آخر ، باتّجاه الوليد بن يزيد الأموي . فحين سأل مروانَ بن أبي حفصة أن يحدّثه عن الوليد «ذهب يتزحزح» محرجاً متردّداً . ولكن الرشيد لم يكن ينصب شركاً وإنّما كان مهتمّاً فعلاً بالوليد لما كان بينهما من تشابه في بعض الظروف ، فقال له : «إنّ أمير المؤمنين لا يكره ما تقول ، فقل ما شئت» فأفرخ روع مروان وطفق يحدّثه عن دخوله مع عمومته إلى الخليفة الأموي ، ثم أنشد الرشيد بعض شعر الوليد ، فأحضر القلم والقرطاس وعمد إلى كتابته[2] . ولعلّه أنس إلى مروان بن أبي حفصة في هذا الموضوع فترك نفسه على سجيّتها تقول ما لا يقال عادة ، فتحوّل مجلس الامتحان إلى مجال مكاشفة واعتراف من الرشيد بأنّه يميل إلى الوليد ويحبّ الحديث عنه . وهذا ما تثبته حادثة أُخرى رواها إسحاق بن ابراهيم الموصلي فقال : «دخلت على الرشيد وهو مستلق على قفاه يقول : أحسن والله فتى قريش وظريفها وشاعرها . قلت : فيم ذلك ، يا أمير المؤمنين ؟ قال : في قوله :

لا أَسأَلُ اللهَ تغييراً لما فَعَلتْ نامَتْ وقد أسهَرَتْ عينيَّ عيناها

فالليلُ أطولُ شيءٍ حين أفقِدُها والليلُ أقصرُ شيءٍ حين ألقاها

ثم قال : أتعرفه ؟ «وماذا كان على إسحاق أن يجيب ؟ لم يدر أَشرك هو أم اعتراف ؟ فحاول أن يجيب بصوت خفيف عسى أن يكتفي الرشيد بإجابة مبهمة فقال الرشيد : «بحقّي عليك ؟» فلم يعد بوسعه المواربة ، فاعترف باطّلاعه على الشعر وبمعرفة صاحبه . فقال له الرشيد : «استر ما سمعت منّي ، وإنّه ليستحقّ أكثر ممّا وصفته به»[3] فكان الامتحان لإسحاق والمكاشفة للرشيد .

وكان الرشيد يصل إلى نفسه في الامتحان وهو يَعِنُّ له من حين إلى آخر أن يمتحن أولياء عهده ليقف ، عن قرب ، على ما حصلوه من ثقافة وما جمعوه من حفظ ، كما يقف على مدى نموّ

---

1 نشير هنا إلى امتحان الرشيد صالح بن عبد القدوس بأبيات يعرّض فيها بالنبيّ ﷺ منها :

غصَبَ المسكينَ زوجتــهُ فَجَــرَت عينــاه مِنْ دُرَرِهْ

فأنكرها وتوسّل بفصاحته ليقنع الرشيد ببراءته . فتظاهر الرشيد بالقناعة وطلب إليه أن ينشده قصيدته السينية ، «حتى إذا بلغ قوله :

والشيخُ لا يَترُكُ أَخلاقَــهُ حتى يُوارَى في ثَرى رَمْسِهِ

قال : يا شيخ ، هذا الكلام يشبه هذا الكلام . . . ونحن نتمثّل وصيّتك» . وضرب عنقه . (طبقات ابن المعتزّ ص90 والأغاني ج14 ص 167 وفي تاريخ بغداد وأمالي المرتضى رويت الحادثة مع المهدي) راجع ص 295 هامش 4 من البحث .

2 الأغاني ج10 ص 84 . راجع ص 90 هامش 3 من البحث .

3 سمط اللآلي ص 312 .

شخصيّتهم وتطوّرها . ولدينا صورة عن هذا النوع من الامتحان يظهر فيها الكسائي ، وقد كان علمهما ثمّ أوكل أمر ذلك إلى الأحمر النحوي . فلمّا زار الرشيدَ بعد فترة ، في مجلسه العام ، استبقاه إلى أن انفض المجلس ، وعرض عليه أن يريه تلميذيه السابقين . فأُحضرا وبدأ المجلس بأسئلة وجّهها الرشيد إلى الكسائي شرح في اجابته عنها ما غمض من المعاني على فهم الخليفة[1] ، وانتهى الأمر إلى موضوع المجلس : امتحان وليي العهد . واللجنة الفاحصة هنا مؤلّفة من الكسائي بتفويض من الرشيد . ونترك الكلام للكسائي : «أمرني أن استقرئهما وأسألهما ، ففعلت . فما سألتهما عن شيء إلاّ أحسنا الجواب عنه والخروج منه[2]» ثم قال لي . استنشدهما . فأنشد محمد الأمين :

وإنّـي لَعَفٌّ الفقْــرِ مُشترَكُ الغِنــى ... وتاركُ شكلٍ لا يوافِقُهُ شَكلي . . .

(الأبيات)

وأنشدني عبد الله المأمون :

بَكَــرَتْ تَلومُــك ، مطلعَ الفَجرِ ... ولقَدْ تلــومُ بغيرِ مــا تدري . . .

(الأبيات)

فسُرّ بذلك حتى تبينته فيه . ثم قال لي : يا علي ، كيف رأيت مذهبهما وجوابهما ؟»
فكان الدور على الكسائي في اعلان نتيجة الامتحان واعطاء التقدير للمرشحين . وفعل ذلك لكنّه لم يستطع أن يكون موضوعيّاً ، بل غلبت عليه صبغة رجل البلاط المُوالي للخليفة ، فانطلق في تقريظهما وكيل المدح للرشيد أبيهما بخطبة منها :

أرى قمــرَي مجــدٍ وفرعَيْ خِلافةٍ ... يَزينُهما عِــرْقٌ كريمٌ ومحتِدُ . . .

(الأبيات)

هما فرع زكا أصله وطاب مغرسه وتمكّنت في الثرى عروقه ، وعذبت مساربُه . أبوهما ملك أغرّ ، نافذ الأمر ، واسع العلم ، عظيم الحلم . . .»[3] ولعلّ هذه الأنماط من الامتحان تبين لنا أنّه ليس وقفاً على الأدباء والشعراء ، بل إنّه كأس يشرب منها كلّ من يتّصل بالبلاط ، حتى القائد والوزير والمستشار والفقيه لا بدّ ، منها ، شاربون . فالفضل بن سهل ، حين عزم على الدخول في خدمة جعفر ، قرّظه يحيى بحضرة الرشيد . «فقال له : أوصله إليّ» . وحين وصل ، أدركته حيرة فسكت . فنظر الرشيد إلى يحيى نظرة منكر لاختياره «فقال له الفضل : يا أمير المؤمنين ، إنّ أعدل الشواهد على فراهة المملوك أن تملك قلبَه هيبةُ سيّده . فقال له الرشيد : لئن سكتّ لتصوغ هذا الكلام ، لقد أحسنت . ولئن كان بديهة لهو أحسن وأحسن . ولم يسأله بعد ذلك عن شيء إلاّ

---

1 راجع ص 174 من البحث .

2 مروج الذهب ج3 ص 269 .

3 البيهقي ـ المحاسن والمساوىء ج2 ص 84 . وردت اشارة إلى الخبر ص 72 من البحث .

أجابه بما يصدق تقريظ يحيى له»[1] . وبهذا اجتاز الفضل بن سهل الامتحان والتحق بركب رواد البلاط ، ليبني لنفسه ، شيئاً فشيئاً ، دوراً كبيراً في الحكم العباسي .

ومع المكانة الكبيرة التي تمتّع بها الشافعي في الفقه وفي بلاط الرشيد ، فقد عمد الوشاة إلى افساد ما بينه وبين الخليفة واتّهامه بأنّه لا يرى الرشيد أهلاً للخلافة . فاستدعاه الرشيد محاولاً إذلاله بوضعه موضع الممتحَن «فجثا الإمام بين يديه بالمكان الذي يراه ويسمع كلامه» . فقال له بعد كلام طويل : «كيف علمك بكتاب الله ؟» فأجاب : «إنّ الله عزّ وجلّ جمعه في صدري وجعل جنبيّ دفّتيه وأنا اعتمد عليه في كلّ أموري . ولكن ، أي علم تريد منه ؟ اعلم تنزيله ، أم علم مكّيِّهِ أم علم مدنيِّهِ أم . . . أم علم عدد آياته وحروفه ؟ فقال الرشيد : هل يقدر أحد على ذلك ؟ قال الشافعي : وهل يُسمّى أحد حافظاً إلاّ بعد معرفته بالقرآن هذه المعرفة ؟» . . . . ثم سأله الرشيد : «كيف معرفتك بالأحكام ؟ قال : في التجارات تريد أم في الديات أم في الطلاق أم . . . . فقال أمير المؤمنين : كيف معرفتك بالشعر ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، اعرف الشاذ منه وما كرم للمنابر ، ورويت منه القديم والحديث في الجد والهزل . قال : كيف علمك بالنجوم ؟ . . . كيف علمك في الطبّ . . . . في العرب ؟ قال : اعرف وقائعهم وأنسابهم . . . . وأنا عالم بنسب أمير المؤمنين ونسبي . . .» هكذا يظهر الشافعي كدائرة معارف . ونحن لا نستغرب ذلك ، فتلك شيمة العالم في ذلك العصر . وكأنّ الرشيد أدرك أنّه ليس أهلاً لامتحان إمام كهذا ، فحوّل دفّة الحديث قائلاً : «لقد ادّعيت من الأمور كبارها ، فعظني بموعظة على البديهة لتستبين لي فصاحة لسانك وألاّ يكون هذا منك مُعَدّاً . فاشترط عليه قبول النصح والتواضع . فنزل الرشيد عن عرشه وجلس أمامه ، فراح يعدد مآخذه عليه وينصحه والرشيد يستزيده . ورفض الشافعي أن يطلب شيئاً من الخليفة . فأعطي بدرة تركها بالباب وكتب عليها :

ذُلُّ الحيـاةِ وهـولُ المماتِ   كُـلاً أراهُ طعامـاً وبيلاً
فإنْ لَمْ يَكُـنْ غيرُ إحداهُما   فَسَيراً إلى الموتِ سَيراً جميلاً[2]

فالرشيد إذن امتحن معظم من اتّصلوا به . إلاّ إنّ امتحان الأدباء والشعراء كان مولّداً دائماً لمتعة أدبية لديه ، فلمْ يترك فرصة لامتحان بديهة شعرائه إلاّ اغتنمها وكأنّه كان يقصد إلى تخليد كلّ لحظة من لحظات حكمه وحياته بما يستدعيه من شعر وأدب فيها . وتأتي المناسبات بشكل عفوي كأنّها الحياة . فهو مثلاً يسمع غناء بشعر يعجبه فيسأل عن قائله فإذا هو خالد بن يزيد الكاتب فيحضره ويسأله عن الشعر فيدعيه لنفسه . وفي هذه الأثناء تجري مبادلة طريفة بين الرشيد وإحدى جواريه فيطلب من خالد شعراً في ما رأى وسمع فيرتجل بيتين يجوز بهما الامتحان[3] . ويروي ابن المعتزّ أنّ أبا

---

1 الجهشياري ــ الوزراء والكتّاب ص 231 .

2 الأربلّي ــ الذهب المسبوك ص 211 .

3 مروج الذهب ج3 ص 285 راجع ص 165 من البحث .

الغول دخل على الرشيد يمدحه ، فطلب منه هارون أن يقول شيئاً على البديهة يثبت شاعريّته ويزيل من نفس الرشيد بقيّة شكّ في موهبته . فأصابه اضطراب يسير ثم ارتجل بيتين في الأمين والمأمون ناله معهما تقريظ من الرشيد[1] فقال : «يا أمير المؤمنين ، امتحنّي بما شئت ليزول ما بقلبك من الريبة والشكّ في شعري . فقال : لا حاجة بنا إلى ذلك . أنت شاعر مقتدر ، والذي قيل فيك باطل . ثم وصله بعشرة آلاف درهم وخلع عليه»[2] .

وفي الاتّجاه نفسه يأتي ارتجال الشعر الرقيق في مواقف عاطفية ، بناء على طلب الرشيد ، كما جرى لإسحاق الموصلي حين دخل على الرشيد وأمامه جارية وطبق ورد فطلب منه شعراً في وصفه[3] . لكن الامتحان الحقيقي ، المنهجي ، الموضوعي الذي تعدّدت نواحيه ومظاهره ، هو امتحان الرشيد للأصمعي لدى دخوله إليه للمرّة الأولى ؛ ولعلّ السرّ في شمول هذا الامتحان الذي أوردته مصادر كثيرة ، أنّ راويه هو الأصمعيّ نفسه ، المعروف بذاكرته العجيبة التي تحفظ من مرّة واحدة حفظاً لا ينسى مع الأيّام . وقد أشارت المصادر المذكورة إلى ملامح من هذه الجلسة النادرة ، بينما أورد صاحب العقد تفاصيلها كلّها ، وسنعتمد روايته في عرضنا لهذا الامتحان ، مستخلصين فكرة واضحة عن اتّصال أديب بالبلاط بعد أن يكون قد أمضى الساعات والأيّام في الموقف مترقّباً سانحة من مزاج الخليفة بحث عن اختصاصه . وتلك كانت حال الأصمعي ، إذ تسكّع على الباب متقرّباً إلى الخدم ، مؤانساً الحرّاس حتى كاد الملل ينال منه ، إلى أن ابتسم الحظّ و«خرج خادم في ليلة نثرت السعادة والتوفيق[4] . وذلك أنّ الرشيد تربّع الأرق بين عينيه ، فقال : هل بالحضرة أحد يحسن الشعر ؟ «وطارت نفس الأصمعي فرحاً ، فهجم داخلاً فواجه الرشيد في صدر البهو جالساً على عرشه ، إلى جانبه وزيره ، يحيط به خدمه ، والشموع تتلألأ بالأضواء فتزيد من روعة المنظر وجماله . ولا يحقّ للداخل عادة أن يتجاوز حدّاً معيّناً ، وهو أبعد مسافة يمكن للخليفة أن يسمعه منها بوضوح . هناك وقف الخادم بالأصمعي وطلب منه أن يلقي التحيّة ، فألقاها . إلاّ أنّ الأصمعي ، الذي بلغ به الحماس للدخول مبلغه ، أصابه ما أصاب جميع من تعرّضوا لامتحان الرشيد في دخولهم للمرّة الأولى ، أصابته روعة ، واضطربت نفسه . ولم يكن الأمر جديداً على الرشيد ، فأمر بتنحيته ريثما يسكن روعه . فأقدم من جديد على الكلام عارضاً البدء في الاختبار . وكما فعل جميع من تحدثنا عن امتحانهم ، عمد الأصمعي إلى الاعتذار عن اضطرابه وإلى التعبير عن

---

1 يروي ابن المعتزّ البيتين منسوبين إلى الأعرابي الباهلي ويورد تعليق الرشيد عينه عليهما . وقد يكون الخبر رواية خاصة بابن المعتزّ لدخول الأعرابي الباهلي ، وقد يكون خبر أبي الغول خبراً آخر تداخل مع خبر الأعرابي . انظر ص188 من البحث .

2 طبقات ابن المعتزّ ص 149 .

3 العقد الفريد ج6 ص 403 . راجع ص 44 هامش 3 من البحث .

4 راجع مقدمة الخبر ص 54 هامش 4 وص 119 هامش 1 من البحث .

أمله الكبير في حلم الخليفة ، قائلاً : «يا أمير المؤمنين ، اضاءة كرمك ، وبهاء مجدك ، مجيران لمن نظر إليك من اعتراض أذية لـه» . ويشدد الأصمعي في روايته على لفتة تعتبر أساسية في أدب الجليس : ألاّ يبتدىء الحديث إلاّ مستأذناً . فقد قال : «أيسألني أمير المؤمنين فأجيب ، أم ابتدىء فأصيب بيمن أمير المؤمنين وفضله ؟ فتبسّم الفضل ثم قال : ما أحسن ما استدعى الاختبار ، واستهلّ به المفاتحة . وأجدر به أن يكون محسناً» . وهنا تكوّنت اللجنـة الفاحصة من الرشيد رئيساً ، ومـن الفضل وزيره عضواً . وبدأ الاختبار . في سؤال أوّل حاول الرشيد أن يعرف من الأصمعي ميدان علمه ليحصر فيه أسئلته التالية . فإذا به : «راوية لذي جدّ وهزل ، بعد أن يكون محسناً» . فأعجب الرشيد بهذا التحديد ، وبخاصّة بالاستدراك الذي ختمه به ، فوعده بحسن الثواب إذا استمرّ على هذا المستوى من الاحسان . وكانت هذه لفتة التشجيع . والآن ، لنتصوّر في ذهننا أي جلسة امتحان ، كيف يتمّ السؤال ، ومن يحدّد صحّة الإجابة ؟ المفروض بالسائل أن يكون مطّلعاً أكثر من المسؤول ، ليحسن تقويم إجاباته ، أو ، على الأقلّ ، ألاّ يسأل إلاّ من ضمن معارفه ، وأن يكون بمتناوله مستندات تشكّل مراجع يأنس بها إذا أحسّ أي اشكال . فما مدى ثقافة الرشيد ، وما هي مراجعه التي يعتمد عليها في امتحان شخص كالأصمعي إذا افترضنا أنّه لم يعرف مسبقاً امكاناته ؟ أمّا ثقافته ، فقد سبق الحديث عنها وأمّا مصادره فرُقع مكتوبة دسّها تحت الفراش ، يخرج منها ما أراد ، ساعة يريد . أمّا الأسئلة فيظهر أنّ هناك نماذج وقوالب ، أفرزها ذلك العصر الذي حمي فيه وطيس الجدل والتبادل الفكري بين الفرق والمدارس ، فأصبحت معايير ، يكفي طرحها وتلقي الردّ عليها لمعرفة مدى اطّلا ع الشخص المسؤول على قضايا العصر ومشاكل ثقافته . وقد سبقت لنا إشارة إلى ذلك حين تحدّثنا عن امتحان الرشيد للضبي في كلمة . «فسيكفيكهم» ، وهي ، بلا شكّ ، أحد هذه القوالب . وفي امتحانه للأصمعي ، استخدم الرشيد قالباً آخر . «قد انصف القارة من راماها» . واندفع الأصمعي يفصّل ويشرح ، موفياً الغرض . فعـدل الرشيد عن هذه الأسئلة إلى اختبار الحفظ والرواية . والمعروف أنّ الأراجيز هي من الشعر البدوي القاسي ، على رغم رشاقة وزنها . فهي عادة مثقلة بالألفاظ الصحراوية الجلفة ، يصعب حفظها وتفسيرها . وأشهر الرجّاز اطلاقاً : رؤبة والعجّاج . فابتدر الأصمعي بالسؤال عنهما : هل يعرفهما ؟ فكان الجواب الواثق : «هما ، يا أمير المؤمنين ، يتناشدان لك بالقوافي ، وإن غابا عنك بالأشخاص» . إلاّ أنّ الرشيد لم يكن ليحفظ أراجيز رؤبة ولا العجّاج ، فاحتاج إلى مرجع . وهو في حيطة دائمة لذلك . فمدّ يده ، فأخرج من تحت فراشه رقعة نظر فيها ثم قال : أسمعني :

أَرَّقَنِي طـارِقُ هَـمٍّ طَرَقـا

قال الأصمعي . «فمضيت بها مُضيَّ الجواد في سَنَن ميدانه ، تهدر بها أشداقي» . إلاّ أنّ الأصمعي لم يكن يخوض امتحان الرواية فقط ، بل كان ، في الآن نفسه ، يخوض ، دون أن يشعر ، امتحان الجليس رفيق الخليفة . فهو ، في لفتاته العديدة ، وفي أسلوب خطابه للرشيد ، وتحاشيه ما قد

يسيىء إليه ، كان يثبت كفاية نادرة تجعل منه نموذجاً للجليس . من ذلك قوله : «حتى إذا صرت إلى امتداح بني أميّة ، ثنيت عنان اللسان إلى امتداحه للمنصور في قوله :

قلت لزيرٍ لم تصلْه مرْيمُهْ

قال : أعن حيرة أم عن عَمد ؟ قلت : بل عن عمد تركت كذبَه إلى صدقه فيما وصف به المنصور من مجده . قال الفضل : أحسنت ، بارك الله فيك . مثلك يؤمّل لهذا الموقف . قال الرشيد : «ارجع إلى أوّل هذا الشعر» . ولم يلبث الامتحان أن دمج النمطين من الأسئلة : الانشاد والقوالب المتداولة من أشكال المعرفة . فقد تدخّل الفضل ليوجّه الأصمعي : «احْدُ بنا ليلتك منشداً . هذا سيدي أمير المؤمنين يصغي إليك ، فمرَّ ، ويحك ، في عنان الانشاد ، فهي ليلة دهرك» . فراح الأصمعي ينشد ؛ حتى إذا وصل إلى معنى تداولته أيدي الشارحين ، أو روت عنه الرواة طرفةً أو خبراً ، قاطعه الرشيد سائلاً فأجاب ، بلا تردّد ؛ وتقوم هكذا ، بموازاة الانشاد حقائق أشبه بالحياة الخفيّة المتردّدة في أروقة المسرح موازية لما يجري على خشبته . ففي قصيدة عدي بن الرقاع كان الشاعر ينشد ، وجرير ، منافسه ، يستبقُه في القوافي وأعجاز الأبيات ، والممدوح يعلّق ، في حين كان الرشيد والفضل يستمعان إلى الانشاد ويتلقّيان إجابات الأصمعي ، معلّقَين هما أيضاً . ويبدو أنّ الرشيد ، إن لم يحفظ الأرجاز التي سأل عنها ، فقد درس معانيها وحفظ ما دار حولها من روايات وما صدر من تعليقات ، واستكمل ، بحدسه وصحّة حكمه ، ما فاته من ذلك فاستطاع ، لا أن يمتحن الأصمعي فقط ، بل أن يصوّب أيضاً خطأه ، حين أخطأ . من ذلك ما ذكره الأصمعي في روايته : «فمضيت حتى بلغت إلى قوله :

تأتيـهِ أسلابُ الأعِـزَّةِ عَنـوةً عُصُباً وتَجْمَعُ للحُروبِ عتادها

قال الرشيد : لقد وصفه بحزم وعزم ، لا يعرض بينهما وَكْلٌ ولا استذلال . قال : فماذا صنع ؟ قلت : ذكرت الرواة أنّه قال : ما شاء الله ! قال : أحسبك وهمت . قلت : يا أمير المؤمنين ، أنت أولى بالهداية ، فليردَّني أميرُ المؤمنين إلى الصواب . قال : هذا عند قوله :

وَلَقَـدْ أرادَ اللهُ ، إذْ وَلاَّكَها ، مِـنْ أُمّةٍ إصلاحَها ورشادَها

ثم قال : والله ما قلت هذا عن سمع ، ولكنّني أعلم أنّ الرجل لم يكن يخطىء في مثل هذا . قال الأصمعي : وهو والله الصواب» . وإذا عدنا إلى تصوّر جوّ امتحان شفوي أمام لجنة فاحصة ، يمكننا أن نتخيّل بسهولة ما قد تبعثه كلمة أو موقف من أحاديث جانبية بين أعضاء اللجنة ، فيكون بينهم تعليق ورد ، أمام المرشّح الصامت المستمع . مثل هذا حصل فعلاً في جلسة امتحان الأصمعي . فقد علّق الرشيد على قصيدة عدي بن الرقاع قائلاً : «والله إنّه لنقيُّ الكلام في مدحه وتشبيهه . قال الفضل : يا أمير المؤمنين ، لا يحسن عدي أن يقول :

شُمسُ العَداوَةِ حتى يُستقادَ لهمْ وأعظمُ الناسِ أحلاماً إذا قَدِروا

قال الرشيد : بلى ، قد أحسن إذ يقول في الوليد :

لِلحَمدِ فيـه مَذاهبٌ لا تَنتهي ومَكارمٌ يَعلُـونَ كُلَّ مَكارِمِ

ثم يقطع الرشيد الحديث الجانبي ليعود ويسأل الأصمعي عمّا يحفظه بمناسبة قول هذا البيت أو ذاك من القصيدة . ويبدو أنّ الأصمعي ، حين وصل إلى هذه المرحلة ، كان قد نجح في نظر الرشيد ، وإن لم تنته الجلسة . أو لعلّ الرشيد ، بعد أن اقتنع بكفاية المرشّح الماثل أمامه ، أراد أن يطيل الجلسة إلى ما بعد الامتحان لتكون جلسة سمر ومتعة أدبية ؛ فتوجّه إلى الأصمعي توجّهه إلى جليس ، لا إلى غريب يخضع لاختبار : «أرويت لذي الرمّة شيئاً ؟ . . . والله إنّي لا أسألك سؤال امتحان ، وما كان هذا عليك ، ولكنّني أجعله سبباً للمذاكرة ، فإن وقع عن عرفانك شيء ، فلا ضيق عليك بذلك عندي . فما أراد بقوله :

مُمَـرٌّ أَمـرَّت متنَـه أَسَدِيَّـةٌ يَمانيَّـةٌ حَلاَّلَـةٌ بالمَصانِـعِ ؟

فأجاب الأصمعي شارحاً ، مشيراً إلى أنّ الأسدية هي السحابة الممطرة بِنَوء الأسد . فكان حديثٌ عن الفلك وانتقل الموضوع نقلة جديدة من الرواية والانشاد والشرح ، إلى نوع من الحكم المنطقي أو العقلاني . فالسؤال الذي يجول في الذهن ، عند سماع الشعراء البدو يستخدمون منازل النجوم في أشعارهم ، هو : من أين للقوم الجاهليين البسطاء معرفة بالأفلاك ؟ «أترى القوم علموا هذا من النجوم بنظرهم ؟ – إذ هذا شيء قلّما يستخرج بغير السبب الذي رويت لهم أصوله ـ أو أدّتهم إليه الأوهام والظنون ؟ فالله أعلم بذلك» . ومع أنّ الرشيد أجاب عن تساؤله بنفسه وأقفل السؤال المفتوح ، لم يترك الأصمعي فرصة الكلام تمرّ ، فتدخل قائلاً : «يا أمير المؤمنين ، هذا كثير في كلامهم . ولا أحسبه إلاّ من أثرِ ألقي إليهم» . . . وبعد عودة إلى الرواية الشعرية في سؤال عن الشماخ ، وتبادل رأي بين المرشّح والممتحِن حول أفضل شعره ، مضى الأصمعي في إنشاد رائية الشماخ التي اعتدّها أحسن كلامه . وقال الرشيد : «أمسكْ ـ أستغفر الله ثلاثاً ، أرِح قليلاً واجلس»[1] . وانتهى الامتحان . ولئن كانت النتيجة قد باتت معروفة قبل اعلانها رسميّاً ، فلا بدّ من هذا الاعلان . ورئيس اللجنة الفاحصة يقوم بذلك بنفسه ، في خطبة قصيرة يختار لها الألفاظ ، يقرّظ بها الناجح المتميّز : «قد امتعت منشداً ووجدناكَ مُحسِناً في أدبك ، معبّراً عن سرائر حفظك» ولا بدّ من استطراد بسيط يحيط بمجمل ما دار حوله مجموع الامتحان : «لَكَلامُ هؤلاء ، ومن تقدّمَ من الشعراء ، ديباجُ الكلام الخسرواني ، يزيد على القدم جدةً وحسناً ، فإذا جاءك الكلام المزيّن بالبديع ، جاءك الحرير الصيني المذهّب ، يبقى على المحادثة في أفواه الرواة . فإذا كان له رونق صواب

---

1 العقد الفريد ج5 ص 309 وما بعد . قصص العرب عن البغدادي في خزانة الأدب ج4 ص346 . أمالي المرتضى ج3 ص 96 والفرج بعد الشدّة ج2 ص 238 .

وَعَتْهُ الأسماع ولذّ في القلوب» . وفي ختام هذا الامتحان لا بدّ من القول إنّنا قد عرضنا لكثير من التفاصيل في حديثنا عنه ، لا لشيء إلاّ لأنّ هذه التفاصيل معبّرة . وهذه الرواية من الروايات القليلة التي جاءتنا عن الرشيد وبلاطه ، كاملة الأطر ، وهي ، بذلك ، من المعالم النادرة التي تعطينا فكرة واضحة عمّا كان يجري في البلاط داخل المجالس . ولئن كان الأصمعي قد أفاض على الحوادث رونقاً إضافيّاً بما ألبسها من وشيه وزخرفه ، في طريقة العرض أو في كلماته ، فهذا لا يقلّل قناعتنا بصحّة وقائعها . إنّها وردت في كتب ثقة من المؤلّفين أمثال : البغدادي والمرتضى والتنوخي وابن عبد ربّه . وتبقى إشارة ضرورية إلى أنّ هذا النمط من الامتحان ، يخضع له الأصمعي أو سواه لدى دخوله إلى البلاط ، لا يحجب عنه أنماطاً أُخرى ، إن لم تهدف إلى سبر أغوار المعرفة ، فهي تهدف إلى التحدّي الذي يفتق العبقرية ويولّد الابداع . وهذا ما لا ينجو منه جليس أو محدّث . من هنا كان وضع الجلساء جميعهم ، هو وضع المرهف الحواس المترقّب المتوقّع لعب دور أي دور ، دون أن يكون أُعدّ له عدّته ، إلاّ ما وُهبه من حضور بديهة وصدق ذاكرة وارتجال . فالأصمعي يحدّثنا قائلاً : «دخلت على هارون الرشيد ، وبين يديه جارية حسناء عليها لُمّةٌ جَعدة وذؤابة تضرب الحقوَ منها . . . فقال : يا أصمعي ، صفها . فأنشأت أقول :

كِنانيةُ الأطرافِ ، سَعديَّةُ الحشا   هِلاليَّــةُ العينـين ، طائيّةُ الفمِ
لها حُكمُ لقمانٍ وسورةُ يوسفٍ   ونغمــةُ داودٍ وعفّــةُ مريــمِ

فقال : أحسنت والله ، يا أصمعي . فهل عرفت اسمها ؟ فقلت : لا ، يا أمير المؤمنين . فقال : اسمها دنيا . قال : فأطرقت ساعة ثم قلت :

إنّ دُنيــا هــي التــي   تَسْحَرُ العــينَ سافـِرةْ
ظَلَموها شَطْــرَ اسمِهــا   فَهْــيَ دُنيــا وآخِــرَةْ

فأمر لي بعشرة آلاف درهم»[1] .

وبمرور الأيّام يزداد عدد أعضاء اللجنة الفاحصة في البلاط ، بدخول من ثبتوا في اختبارات سابقة وحازوا الثقة بحسن حفظهم وصحّة حكمهم . فالأصمعي لم يلبث أن غدا في عداد هؤلاء الأعضاء وصار يكلّف أحياناً ، وحده ، باجراء الامتحان . أو يعتبر مستشاراً أدبيّاً له الرأي الأوّل والأخير . ويظهر أنّ الرشيد خصّه بامتحان الجواري والمفاضلة بينهنّ ، يستدعيه من أقصى مكان ، حين يطلبه فلا يجده بقربه . وقد يكون من الطرافة بمكان أن يعرف أحدنا ماذا يجري في امتحان الجارية ، وما هي موضوعاته ومعايير الحكم فيه . ولذلك يكفينا الرجوع إلى خبر استدعاء الرشيد للأصمعي من بغداد إلى الرقّة ، محرّكاً قائد الشرطة وصاحب البريد ووليّ العهد ، كلّ ذلك ليمتحن له

---

1 العقد الفريد ج6 ص 412 .

جاريتين أديبتين . أمّا نتيجة الامتحان وجائزة النجاح فنجدها في التقرير الذي رفعه الأصمعي إلى الرشيد ، مطرياً مواهب الجارية التي نالت اعجابه ، مقرّظاً ثقافتها . (بينما الثانية «دونها ، ما تبلغ منزلتها ، إلاّ أنّها ، إذا ووظب عليها ، لحقت») كما نجدها في فهم الرشيد هذا الجواب «الدبلوماسي» ، وإدراكه أنّ الأولى هي الفائزة ، وبالتالي هي التي يجب أن تجهّز له في ليلته[1] ، وتلك هي عقبى النجاح في هذا النوع من الامتحان . هكذا نجد الأصمعي يقوم ، في البلاط ، بمهمّة خاصة جدّاً . ومهمّته هذه كممتحِن ، ماشت دوره كمستشار أدبي في البلاط ، وكان ، في كثير من الأحيان ، صاحب الكلمة الأخيرة في صحّة رواية أو في جواز قول ؛ وبذلك يتحكّم في آمال الآملين . فقد روى ابن الجراح «عن العبّاس بن الأحنف أنّه أنشد الرشيد أبياته التي يقول فيها :

إذا ما شِئتَ أن تُبصِرَ شيئاً يُعجِبُ الناسا
فصوِّرْ هاهنا فَوزاً وصوّر ثَمَّ عبّاسا . . .
(الأبيات)

فاستحسنها الرشيد وقال : هل سبقك إلى هذا المعنى أحد ؟ فقلت : لا . فقال : عليّ بالأصمعي ، وكانت بيني وبينه نفرة ، فأخبره الرشيد باستحسانه الشعر والمعنى وسأله : هل تعرف شيئاً منه ؟ قال : كثير ، ولكنّي حاقن وأعجلني الرسول عن البول . فخرج ثم رجع وقد صنع أبياتاً مثلها على الراء والقاف ، قال فيها :

إذا ما شئتَ أن تبصر . . . . يعجبُ البَشَرا و. . . يعجب الخَلْقا

وأتمّها على هذا وزعم أنّه سمعها منذ دهر . فخجلتُ وانصرفتُ محزوناً . فقلت له لما خرجت : سألتك بالله ، ألستَ الذي صنعتَها ؟ قال . بلى ، والله ، وأنتَ فَعادِ الرجال»[2] . وهذه الرواية عن ابن الجرّاح تظهر الأصمعي مستشاراً خان الأمانة واستغلّ موقعه للانتقام من زميل له . . وهذا يمكن فهمه إذا تصوّرنا بيئة العصر وما يجري عادة في البلاط من عمليّات خلفية ، إلاّ أنّ الخبر نفسه يرويه الأصفهاني على أنّه محاولة عبث من الرشيد والعبّاس بالأصمعي[3] ، خرج هذا منها رابحاً يرفده حضور بديهة وسرعة خاطر ، فاجتاز بذلك امتحاناً آخر أثبت فيه كفايته ورسوخ قدمه في ميدانه .

ثالثاً : مجالس الإجازة

وهذه المجالس تشكّل النوع الثالث من وسائل الاختبار التي يفرضها الرشيد على جلسائه . فالسؤال الأدبي يجد جوابه في ذاكرة الجليس أو في صحّة حكمه ؛ والامتحان الأدبي يبرز صدق الموهبة ودقّة الحسّ الإنساني المميّز لجليس الخليفة . وهذه الصفات جميعها تتكامل في أدب

---

1 تاريخ بغداد ج10 ص 411 . راجع تفاصيل عن الخبر ص 156 هامش 1 من البحث .

2 ابن الجراح ــ أبي عبد الله محمد بن داوود ــ الورقة ص 31 .

3 الأغاني ج8 ص 357 .

الإجازة . فلا عجب من أن يشغل هذا الأدب حيّزاً كبيراً من اهتمام الرشيد ، يرتبط به التعبير غير المباشر عن أهوائه ونزعاته وأزماته العاطفية . والإجازة الأدبية تفهم عادة على أنّها نظم بيت أو أبيات على وزنٍ وقافيةٍ لبيتٍ آخر أو أكثر . ولكنّنا نرى في الإجازة ميداناً أوسع . فهي ، في نظرنا ، إجازة موضوع ومعنى ، كما هي إجازة مبنى . وليس المهمّ فيها الإتيان بشعر من الوزن نفسه والقافية عينها بقدر ما هي استكمال معنى البيت أو الأبيات بالشعر الذي يضاف إليه أو إليها . من هنا نعتدّ ، إجازةً أيضاً ، الشعرَ الذي يُرتجل تعبيراً عن معنى يُطرح على الشاعر ، أو وصفاً لحالة شعورية أو نفسية يستشفّها عند السائل . وبهذا يتساوى في طلب الإجازة موقف الرشيد الذي يعرض لجلسائه بيتاً شعريّاً طالباً رديفاً له ، وموقفه حين يضمر حالة أو شعوراً ويطلب منهم التعبير عنهما . ففي كلا الموقفين يكون ما يقال مؤكداً لموهبة الشاعر في التعبير العفوي ، وفي كلا الحالين هناك معنى يستقصى ويتابَع . من أجل هذا ألحقنا مجالس الإجازة بمجالس السؤال والامتحان . فهي جميعاً تنطلق من الرشيد لتضع على المحكّ ، بشكل أو بآخر ، شاعرية الرواد وبديهتهم . لكن هذا لا يعني أنّ الأنماط الثلاثة المشار إليها من مجالس الاختبار ، على رغم تقاربها وتداخلها في بعض النواحي ، لا يختلف بعضها عن بعض في نواحٍ أُخرى . فمجالس السؤال قد تهدف إلى كسب المعرفة ، وهذه صفة مميّزة لها ، ولكنّها قد تهدف إلى الاختبار ، فتشترك بذلك مع مجالس الامتحان ومع مجالس الإجازة التي تنفرد بأنّها ، في مجمل ما وصلنا منها ، مرتبطة بأحوال الرشيد النفسية والعاطفية . ونحن ، إذ نعرض لها ، نعرض في الوقت نفسه لهذه الناحية من حياة الرشيد ، لأنّ مجالس الإجازة التي نتحدّث عنها محورها الرشيد وأبيات راودت ذهنه أو نظمها في حالة خاصة من الإلهام ، وهو لم يكد يقول الشعر إلاّ في مناسبات عاطفية ، ولم يخرج إلهامه ، إلاّ قليلاً ، عن الغزل بجواريه[1] . وهذا يستدعي سؤالاً مهمّاً : إذا كانت جواري الرشيد هنّ الملهمات له ، فكيف كانت علاقته بهن ؟ وهل كان ، في مخادعه ، الخليفةَ الآمرَ الناهي ، المطاع المسموع الكلمة ؟ أم ينقلب هناك إنساناً ، كسائر أبناء آدم ، تنتهبه المشاعر البشرية فيهوى ويفارق ، يصل ويستشعر غيرة فينفر أو ينكمش ويهجر ؟ إنّ الجواب عن هذه التساؤلات نجده في دراستنا لشعر العشق عند الرشيد[2] . والذي يهمّنا هنا ، أن نؤكّد أمرين : أحدهما خضوع الرشيد لعواطف الناس العاديين تجاه المرأة والتسليم بسلطانها عن طيب خاطر . والأمر الثاني أنّ الرشيد كان يحبّ للشعر أن يعبّر عن علاقاته الغرامية التي لم تعرف الالتزام بمحبوبة واحدة ، لأنّ هذا الالتزام لا يناسب طبيعة الحياة في قصر يغصّ بالحريم . والتعبير عن علاقات الرشيد الغرامية كان ينطلق من الرشيد ، من شاعريته المتواضعة وقدرته المحدودة على النظم ، هذه القدرة ، وتلك الشاعرية اللتين كانتا تعجزان عن التحليق معه في أجواء عواطفه وأحاسيسه ، فلا

---

1 راجع في فصل الصراع بين الترف والحرمان عنوان : «أدب الترف في البلاط يتجلّى في شعر العشق» .

2 راجع في الفصل المذكور عنوان «شعر العشق عند الرشيد» .

تستنفدها معانيه ، ويحسّ بالحاجة إلى شاعرية أقوى وإلى إلهام أشدّ عمقاً ينجزان ما بدأه . وهذا يعطي مجالس الإجازة قيمة خاصّة ودلالة مهمّة في دراسة شخصية الرشيد . ولقد مرّ بنا ، في أحاديثنا السابقة عن الرشيد وجواريه ، بعض نماذج من إجازات شعرية تبادر بها جارية أو محظية فتولد عند الرشيد إثارة يتلقّاها بالقبول والرضا[1] . وقد ينعم الرشيد بقرب جارية له ثم يجري بينهما ما يكدّر صفاء الودّ والإخلاص . والخلاف ، على رغم ما يورثه من قلق وتنغيص للسعادة ، يبقى أمراً مقبولاً ، بل مرغوباً فيه ، إذا كانت المصالحة في نهايته . وهذه حالة عاشها الرشيد مع محظية : تجافيا ، فحلف ألاّ يدخل إليها . وبقي على موقفه أيّاماً منتظراً أن تقوم هي ببادرة لاسترضائه : أليست هي الجارية ، وهو الخليفة ؟ لكن المحظية لم تفعل . ولعلّها كانت واثقة من تأثيرها في الخليفة ، مدركة أنّ سلطان الحبّ أقوى من سلطان البردة والصولجان ، فاعتمل الوجد في نفس الرشيد وتفجّر بيتين من الشعر :

صَدَّ عنّـــي إذْ رآني مُفتَتِنْ   وأَطالَ الصَبرَ ، لمـا أنْ فطِنْ
كان مملوكي ، فأضحى مالكي   إنَّ هـذا من أعاجيبِ الزَمَنْ

وإلى هنا توقّفت قريحة الرشيد . لكن المعنى الذي في نفسه لم يُستوفَ . فاحتاج من يجيز البيتين . استشار جعفراً الوزير ، فأشار عليه بأبي العتاهية . وكان أبو العتاهية في الحبس ، وقد حلف ألاّ يقول شعراً غزلاً[2] . وأكبر الظنّ أنّ جعفراً كان يسعى لإخراج أبي العتاهية من سجنه ، وقد اغتنم تلك الفرصة له ، عسى أن تكون منفذاً . لكنّ الرشيد ، بما عرف عنه من صدق الحدس ، لم يتوقّع استجابة من أبي العتاهية ، وإن كان يتمنّاها لأنّها تلاقي هوى في نفسه . لذلك قبِل الفكرة ، بعد تردّد ، وبعث بالبيتين إلى أبي العتاهية في سجنه مع قصّتهما ، وطلب أن يلحق بهما سواهما . وباتت الحيرة في جانب أبي العتاهية . لقد واتته الفرصة ، فكيف يغتنمها دون أن يتنكّر لالتزامه ؟ وكان أنّ أجاز البيتين بشعر غير محدود الهوية وصف فيه وضعه هو ، لا وضع الخليفة ، وقابل فيه بين سجنه وبؤسه وبين نعيم الخليفة وبحثه عن المتع والمسرّات من كلّ مصدر ، حتى عند البؤساء واليائسين . فقال :

شُغِلَ المسكينُ عن تلكَ المِحَنْ   فارَقَ الروحَ وأَخلى مِنْ بَدَنْ
ولقـــد كُلِّفـتُ أمـراً عَجَباً   أُسْأَلُ التفريجَ ، من بيتِ الحَزَنْ !

لاقى هذا العتاب الحزين تجاوباً في نفس الرشيد ، ولامس نقطة ضعف عنده وهي سرعة التأثّر ، مع أنّه لم يستثمر المعنى الذي كان يشغل ذهنه فأمر باطلاقه وصلته ، واستدعائه . وحين نال أبو العتاهية مبتغاه وارتفع عنه ضغط القسر والاجبار ، عاد إلى أبيات الرشيد مصرّحاً «الآن طاب القول» وأنشد :

---

1 راجع ص 44 هامش 3 وص 157 من البحث .

2 راجع ص 82 من البحث .

عِــزَّةُ الحُــبِّ أَرتْــهُ ذِلّتي في هواهُ ، ولَــهُ وجهٌ حَسَنْ
ولهــذا صرتُ ممــلوكاً لــه ولهــذا شاع مــا بــي وعَلَنْ

هكذا ، فلتكن الإجازة : محكمة ، متمّمة للمعنى الذي عجز الشاعر الأوّل عن اتمامه . ولقد قال الرشيد مخاطباً أبا العتاهية : «أحسنت والله وأصبت ما في نفسي» وضاعف صلته[1] . . . ومن الجواري الشهيرات كانت ماردة . تمتّعت بسلطان كبير على قلبه فاجتازت الحاجز الذي يفصل الجارية عن المحظية ، وصارت تنتقل مع الرشيد حين ينتقل ، وتقيم معه حيث يقيم . إلاّ أنّ الرشيد كان يقرّر أحياناً الانتقال وحده ، دون حريمه ؛ فخلّفها ذات مرّة بالرقّة وقدم إلى مدينة السلام . وهناك لم يلبث أن اشتاقها واستبدّ به الوجد الذي تحوّل أبياتاً غزلة رقيقة قلّد فيها الخليفةُ المحبّين العاديين من الناس ، وأظهر الصبابة واتّهم المحبوبة بالصدّ وتعمّد البعد لاذكاء نار الهوى ، وأعلن أنّه سيبقى متجلّداً صابراً ، ساتراً ما كمن من عواطفه ، متظاهراً بالاهتمام بمن حوله لكي لا يدري الناس أين هواه الحقيقي :

أيا مَــنْ أعانَ على نفسِهِ بتخليفِهِ ، طائعاً ، من يُحبْ
سأسترُ ، والسَّتْرُ من شِيمتي ، هوى من أحبُّ ، بِمَنْ لا أحِبْ

ولم يكن هذا الوصف لماردة وصفاً لواقعها الفعلي . فهي قد تُدِلُّ على الخليفة وتغنج ، لكنّها لا تجرؤ على التحرّك والتنقّل دون أمر منه . فكان عليها إجازة البيتين ، رادّة الكرة إلى ملعب الرشيد شارحة ما بها من وجد لا تكتم بعضه حتى يفضحها دمعها المنسجم . ولم تكن ماردة شاعرة ، إنّما أبو حفص الشطرنجي كان بمتناول جميع من يحتجنه من ساكنات البلاط ، فقال على لسانها مجيزاً :

أتــاني كتابُــكَ يا سيّدي وفيهِ العجائــبُ كلُّ العَجَبْ
كتابُــكَ قــد زادَني صَبوةً وأسعَرَ قلبــي بحَــرِّ اللهَبْ
ولــولا اتّقــاؤكَ يا سيّدي لَوافَتْكَ بي الناجياتُ النُجُبْ . . .
(الأبيات)

فما كان إلاّ أن أرسل خادماً على خيل البريد «الناجيات» حتى حدرها إلى بغداد في الفرات وأمر المغنين جميعاً فغنّوا في شعره»[2] . وتكثر الأخبار عن أوضاع مشابهة يمرّ بها الرشيد . ومن المدهش أنّ الرواة عنوا بنقل هذه الأخبار ودوّنوها حتى أقلّها أهمّيّة ، وحتى الناقص منها ممّا لم تتّضح شخصية إبطاله وممّا لم تكن له خاتمة تلفت الأنظار ، كالخبر التالي : «خرج الفضل بن الربيع يوماً من حضرة

1 الأغاني ج4 ص 76 والسيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص 292 .
2 الأغاني ج22 ص 52 والديارات ص 225 وانظر ص 412 من البحث .

الرشيد ومعه رقعة فيها أربعة أبيات فقال : إنّ أمير المؤمنين يأمر كلّ من حضر ممّن يقول الشعر أن يجيزها» . أوّلها :

أهــدى الحبيبُ مــع الجنوبِ سلامَهُ   فارْدُدْ إليهِ مع الشَمالِ سلاما . . .

(الأبيات)

فلم يوجد من يجيزها ، فأمر إبراهيم الموصلي فغنّى فيها لحناً»[1] . فالخبر ، كما نرى ، ليس له أصل : هو لا يشير إلى قائل الأبيات ولا إلى مناسبة قولها ولا إلى طريقة وصولها إلى الرشيد ، أو سبب وقوعها منه موقع الاهتمام . وليس في الخبر عظة أو عبرة تاريخية ، اللهمّ إلاّ أن يكون طلب الإجازة الشعرية أمراً لا يقلّ أهميّة والحاحاً عن شؤون الحكم ، حتى يخرج الحاجب الوزير بنفسه يطلب إلى الشعراء قضاءها . وهذا يؤكّد ما ذهبنا إليه سابقاً من أنّ الفكرة ، إذا خطرت بذهن الرشيد ، فلا بدّ من تنفيذها ولو أقلق ذلك الناس وأقام عاصمة الملك وأقعدها . فقد ذكرنا أنّه «قال في الليل بيتاً ورام أن يشفعه بآخر فامتنع القول عليه» فأمر بحمل العبّاس بن الأحنف ثم قال له : «وجّهت إليك لبيت قلتُه ورمت أن أشفعه بمثله فامتنع القول عليّ . فقال : يا أمير المؤمنين ، دعني حتى ترجع إليّ نفسي ، فإنّي قد تركت عيالي على حالة من القلق عظيمة ، ونالني من الخوف ما يتجاوز حدّ الوصف . فانتظر هنيهة ثم أنشده البيت :

جِنــانٌ قــد رأيناهــا   ولَم نــر مثلَهــا بَشَرا

فقال العبّاس :

يزيدُكَ وجهُها حُسْناً ،   إذا مــا زِدْتَــهُ نَظَرا

فقال له الرشيد : زدني . فقال :

إذا ما الليلُ مالَ عليـ   ـهِ بالإظلامِ واعتكَرا

وَدَجَّ ، فلا تَرى قَمَراً ،   فأَبْرِزْهــا تَــرَ قَمَرا

فقال له الرشيد : قد ذعرناك وأفزعنا عيالك . . . وأمر له بعشرة آلاف درهم»[2] . ولنا أن نتساءل : من تكون جنان هذه التي لا يرى الرشيد بَشَراً نظيراً لها ؟ أهي جارية من حريم القصر لم يرد لها ذكر في غير هذه الحادثة ؟ أو قد تكون هي عنان ، جارية الناطفي التي دعتها بعض الأخبار باسم جنان ؟ وإن كنّا نستبعد هذا الاحتمال لأنّ علاقة الرشيد بعنان لم تدخل إطار العشق الحقيقي ، بل بقيت ضمن إطار الإعجاب بالفنّ والأدب . وللرشيد مع عنان قصّة طويلة . فقد أراد احتيازها لكن صاحبها كان شديد التعلّق بها ، كامرأة ، وكمورد رزق له لجهة ما ينفقه في داره المعجبون بها ، وكمجال شهرة نظراً للأهمية التي نالها بوجودها عنده . ومع أنّ الرشيد كان

---

1 الأغاني ج5 ص 161 والورقة ص 18 .

2 تاريخ بغداد ج12 ص 131 .

ينفق الكثير على شراء الجواري ، فإنّه أحجم عن دفع المبلغ الذي اشترطه الناطفي ثمناً لعنان[1] ، ربّما لأنّ علاقته بها شهرت وأنكرها الرشيد أمام وجوه بني هاشم الذين حرّضتهم زبيدة ليردعوه عنها . ولو أنّ الرشيد تعشّقها بالفعل لما ضنّ بمال لاشباع هواه . . . لذلك نرجّح أنّ علاقته بها اقتصرت على الاعجاب بفنّها ، بالشاعرة السريعة إلى الارتجال وإلى الإجازة الشعرية ، إذ «كان فحول الشعراء يساجلونها ويعارضونها فتنتصف منهم»[2] . ولئن لم تدخل عنان بلاط الرشيد ، كجارية أو كمحظية[3] ، فلقد دخلت اهتمامه وأولع بسماعها حتى هاجت كوامن الغيرة في نفس زبيدة ، كما أشرنا ، وظهرت عليها بوادرها ، وقلّما كانت تظهر عادة ، فبعثت إلى الأصمعي تقول : «إنّ أمير المؤمنين قد لهج بذكر هذه الجارية عنان ، فإن صرفَته عنها فلك حكمُك»[4] . وهذا كلّه يؤكّد ما هو مشهور عن عنان من أنّها لعبت دوراً في حياة الرشيد ببديهتها ، فكانت محور إجازات طريفة . كتبت مرّة «رقعة فيها :

كنتُ في ظِلِّ نعمةٍ بهَواكا ... آمناً لا أخافُ جَفاكا
فسعى بيننا الوشاةُ فأقررْ ... تَ عُيونَ الوُشاةِ بي ، فهَناكا
ولَعمري ، لَغيرُ ذا كان أولى ... بك ، في الحقّ ، يا جُعلتُ فِداكا

فأخذ الرشيد الرقعة بيده ، وعنده أبو حفص الشطرنجي فقال : أيّكم يشير إلى المعنى الذي في نفسي فيقول فيه شعراً وله عشرة آلاف درهم ؟» يقول الأصمعي ، راوي الخبر ، وكان حاضراً : «فظننت أنّه وقع بقلبه أمر عنان . فبدر أبو حفص فقال :

مجلسٌ يُنْسَبُ السرورُ إليه ... لِمُحِبٍّ رَيحانُه ذِكراكا

فقال : يا غلام ، بدرة . فقال من جديد[5] :

---

1 يروي الأصفهاني : «أنّ الرشيد طلب من الناطفي جاريته ، فأبى أن يبيعها بأقلّ من مئة ألف دينار ، على أن يأخذ الدينار بسبعة دراهم . فامتنع عليه . وحين صرف الرشيد النظر عن شرائها ، تصدّق الناطفي بثلاثين ألف درهم» . (الأغاني ج22 ص 529) .

2 المصدر السابق ص 521 .

3 الأخبار متضاربة في هذا الموضوع . يروي ابن عبد ربّه أنّ الرشيد «استعرض جارية الناطفي ليشتريها . . . ثم أمسك عن شرائها» . ثم يقول : بعد ذكر خبر إجازتها لأبيات جرير إنّ الرشيد قال : «خلعت الخلافة من عنقي إن باتت إلاّ عندي . . . . . فبعث إلى مولاها فاشتراها بثلاثين ألفاً . وباتت تلك الليلة عنده» . (العقد الفريد ج6 ص85) .

4 يقول الرشيد : «والله لولا أنّي لم أَجُرْ في حكمٍ قطّ متعمّداً ، لجعلتُ على كلّ جبل منه (الناطفي) قطعة ؛ وما لي في جاريته من أرب غير الشعر . فأطلق الأصمعي نكتته الشهيرة : «أجل والله ما فيها غير الشعر ، أفَيُسَرّ أميرُ المؤمنين أن يجامع الفرزدق ؟ . . . ونال بذلك مكافأة زبيدة» (الأغاني ج22 ص 528) .

5 في رواية العقد التي اعتمدناها «فقال جرير» . . . ولكن ليس في سائر الخبر ما يدلّ على وجود جرير ، كما لم نجد أحداً من شعراء البلاط بهذا الاسم . لذلك افترضنا أنّ هناك خطأً في النقل جعل «فقال جرير» عوضاً عن «فقال من

كلّما دارَتِ الزُجاجةُ والكأ   سُ أعارتْـهُ صَبْوةً فبَكـاكا

فقال : يا غلام ، بدرة . قال الأصمعي : فقلت :

لم يَنَلْكِ الرجاءُ أن تحضُريني   وتجافَتْ أمنيّتـي عـن سواكا

فقال الرشيد : أحسنتَ والله ، يا أصمعي ، لها ولك بهذا البيت عشرون ألفاً . ولكنّني أشعَرُكم حيث أقول :

وقد تمنّيتُ أن يُغَشّيني اللـ   ـهُ نعاساً لعـلّ عينـي تراكا[1]

ولا شكّ في أنّ الرشيد كان يعيش لحظة نشوة تثبت ما وصفتْه به الرواية من أنّه كان متخثّراً من أثر النبيذ أو متبذّلاً ، وتلك حالة نادراً ما يظهر بها للملأ .

ونحن اعتمدنا في هذا الخبر على رواية العقد ، من بين الروايات المتعددة ، لأنها الوحيدة التي تشير إلى الباعث على الإجازة وتربطه بأبيات عنان التي جاء شعر الرشيد وجلسائه متمّماً لها . إنّما لنا تحفظ على رواية العقد لجهة قوله بأنّ عنان كتبت إليه الرقعة . فنحن نستبعد أن تكتب جارية الناطفي النخاس رسالة حبّ شعريّة إلى خليفة ، وإذا سلّمنا بأنّها قد تكون كتبتها ، نستبعد أن تصل إلى الرشيد عبر أبوابه وحرّاسه والمشرفين على بلاطه . ونعتقد أنّ هناك نقصاً أو تحريفاً في عمل النسّاخ . فلو جاء الخبر على الشكل التالي . «وصلت إلى الرشيد رقعة فيها شعر قالته عنان . . .» كان أكثر واقعيّة ، فلا تكون الرقعة بخطّها ولا تكون موجّهة في الأصل منها إليه ، ولا الشعر كذلك . وعكس ذلك ممكن ، إذ لا يستبعد أن يخرج شعر من القصر ليصل إلى عنان ، تتلقّاه في بيت الناطفي وتجيزه . وهذا حصل فعلاً عندما غُني الرشيد ، في أحد أسماره ، بأبيات جرير :

إنّ الذين غَـدَوا بِلُبِّكَ غادَروا   وَشَلاً بعينِـكَ لا يـزال مَعينا

فطرب الرشيد طرباً شديداً وأعجب بالأبيات ، ولم تكتمل متعته بسماعها وحدها ، فأراد لها انسباء وأقرباء ، فتوجّه إلى الجلساء : «هل منكم أحد يجيز هذه الأبيات بمثلهنّ ، وله هذه البدرة ؟ فقالوا ، فلم يصنعوا شيئاً» . ولدى فشل أهل البلاط في الامتحان ، بينما رغبة الرشيد قائمة ، استأذن خادم واحتمل البدرة وذهب إلى عنان يقصّ عليها الخبر . فأخذت البدرة وقالت :

هيّجتَ بالقولِ الذي قـد قُلتَهُ   داءً بقلبـي مـا يَـزالُ كمينا

= جديد» . وهذا يتّضح من رواية البغدادي للخبر نفسه ، وفيه قول الشطرنجي : «قد حضرني بيت ثان ، يا أمير المؤمنين» .

1 العقد الفريد ج6 ص 58 ـ والأغاني ج22 ص 527 وتاريخ بغداد ج14 ص 10 مع الإشارة إلى أنّ رواية العقد تجعل القافية تنتهي بالكاف مع الألف «ذكراكا» بينما في الأغاني وتاريخ بغداد تنتهي بكاف المؤنّثة المخاطبة «ذكراكِ . . .» .

قـد أينعتْ ثَمَراتُـه في حينَهـا وسُقِينَ من مـاءِ الهَوى فَرَوِينا
كذَبَ الذين تَقَوّلوا ، يا سيّدي ، إنّ القلوبَ ، إذا هوَين ، هَوِينا

فرجعَ بالأبيات إلى الرشيد فقال له : ويحك ، من قالها ؟ قال : عنان جارية الناطفي . . .»[1] وهكـذا كانت الموازاة قائمة بين الرغبة في الإجـازة عنـد الرشيد ، والقدرة عليها عند عنان وسواها . . . ولعلّ إجازة عدّة أبيات «بمثلهنّ» أمر غير بعيد الحدوث في عالم النظم . فهي ، بتعدّدها ، تبرز معنى واضحاً وتحدّد حالـة تعبّر عنهـا فيسهل استقصاء المعنى بما يناسب تلك الحالة . وأصعب من هذا ، بلا شكّ ، إجازة بيت ، أو تعبير ، أو جزء من بيت يحتمل معناه غير تأويل ، ويمكن له أن يعبّر عن العديد من الحالات المتناقضة . من ذلك أنّه «اجتمع الشعراء ببابه فأذن لهم . فقال : من يجيز هذا القسيم وله حكمه ؟ فقالوا : ما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال :

المُلْكُ للهِ وحـــدَهْ

فقال الجمّاز :

. . . . وللخليفـــةِ بَعـــدَهْ
وللمُحِـبِّ إذا مــا حبيبُهُ بــاتَ عنـدَهْ

فقال : أحسنت وأتيت على ما في نفسي ، وأمر له بعشرة آلاف درهم»[2] . وإنّنا لنعجب أشدّ العجب للجماز ، كيف استطاع أن ينطلق من هذا القسيم الذي هو أقرب إلى الصلاة والتسبيح ، ليصل إلى مناغاة الحبيب لمحبوبه ، ويأتي على ما في نفس أمير المؤمنين ! إنّه ضرب من السحر أو التنجيم ، أو هو نتيجة لما ذهبنا إليه سابقاً من إنّ بعض الشعراء كانوا يعنون باستقصاء أخبار المقاصير وما خلف المجالس ، ويتتبّعون أحوال الرشيد مع خاصته وأهل بيته وجواريه ، في مدّها وجزرها ، وضوحها وخفائها ، حتى ليستطيعوا ، إذا ما ندّت عن الخليفة كلمة ، أن يتداعى لها في أذهانهم سلسلة مترابطة من الأفكار والصور . وهذا معروف عن أبي نواس بصورة خاصّة[3] . فقد «صعد الرشيد يوماً على بعض أسطح قصره فرأى جارية عريانة . فلم يزل يديم النظر إليها وهي تغتسل حتى التفتت فنظرت إليه . فلمّا رأته سترت فرجها بيدها ونزلت عن السطح الذي كانت عليه . ونزل الرشيد ، فقال : عليّ بأبي نواس فجيء به ، فلمّا دخل قال له : قل لي على بيت قلته :

نظــرتْ عَيني لِحَيني نظــراً وافَــقَ شَيني

فقال أبو نواس :

---

1 العقد الفريد ج6 ص 57 .

2 ابن رشيق ـ العمدة ـ ج1 ص 12 . راجع ص 119 هامش 2 من البحث .

3 ابن منظور ـ أبو نواس ـ ص 193 . انظر ص 119 هامش 4 من البحث .

سَتَرَتْهُ ، إذ رأتْني ، بـين طَـيِّ العُكنتينِ
فبـدَتْ منـه فُضولٌ مـا تُـوارى باليدينِ

فقال الرشيد : عرفت القصّة يا ابن الخبيثة ! . . . . .»[1] فإذا صحّ هذا الخبر يكون اختيار الرشيد له لأنّه يعرفه مختصّاً بهذا النوع من المواضيع إلى طرفة وجرأة لديه . وليس غريباً أن يُتداول بعضُ الأدب المكشوف في البلاط ، فهذا التداول ، إذا بقي ضمن حدود الإشارة والكناية والإلغاز ، كثيراً ما يكون التسلية المفضّلة لعلية القوم ، حين يتنادمون ويهزلون . أمّا إذا تركوا إطار الهزل إلى تسلية الجدّ ، فيكون كلامهم صافياً ، نقيّاً مختاراً ، شأن ما رأيناه من الرشيد حين استدعى وزيره للاصطباح عنده بشعر لطيف وكان الردّ عليه من جعفر شعراً شبيهاً له في صفائه واختيار ألفاظه ومعانيه ، وانطباعه بطابع تسلية الطبقة العليا في المجتمع[2] . ولا بدّ هنا من الإشارة ، بعد ما قدّمناه ، إلى أنّ الرشيد ، الذي كان دائماً محرّكاً لأدب الإجازة ، متطلّباً له ، قد عُرف عنه ذلك حتى بات يستدعي جليسه ويقول أمامه البيت من الشعر ، فيبادر الجليس إلى إجازته ، قبل أن يطلب منه ذلك ، أو هكذا يصوّره الرواة . وهم ، إذ يتّخذون هذا الموقف منه ، فعن قناعة بالدور الكبير الذي لعبته الإجازة في بلاطه . يروي ابن منظور أنّ أبا نواس أُدخل على الرشيد فقال له : «يا حسن ، أرقت في هذه الليلة فخطر ببالي هذان البيتان : وهما :

وقهـوةٍ ، كالعقيقِ ، صافِيـةٍ يَطيرُ من حُسنها لهـا شَرَرُ
زوّجتُها المـاء ، كي تَذِلَّ له فامتَنَعَتْ ، حينَ مَسَّها ذَكَرُ

قال : فقلت بديها :

كذلك البِكْرُ ، عند خُلوتِها ، يَظهرُ منهـا الحَياءُ والخفَرُ
حتى إذا ساسَها مُملّكُها ، فما لهـا فيه ، ثَـمَّ ، مُزْدَجَرُ
عـادتْ لـه ثَيِّباً تُفاكِهُهُ قد غابَ عنها ، بالرقّةِ ، الأَشَرُ[3]

---

1 ابن منظور ـ أبو نواس ـ ص 191 .

2 الغرر والعرر ص 441 . انظر الشعر والتفاصيل ص 166 من البحث .

3 (ابن منظور . أبو نواس ص 190) . وابن منظور ، بعد روايته لأخبار أبي نواس مع الرشيد التي تعتمد إجازة شعر يقوله ، أو معنى يضمره ، يشكّك في اتّصال أبي نوّاس بالرشيد ، أصلاً ، بقوله : «قال بعض المترجمين ممّن يحيط علماً بأحوال أبي نواس : إنّ هذه الحكايات عن أبي نواس والرشيد ، موضوعات . وإنّ أبا نواس ما دخل على الرشيد قطّ ولا رآه ، وإنّما دخل على محمد الأمين» (أبو نواس ص 194) . وفي رأينا أنّ هذا التشكيك في غير محلّه . قد يتناول الشكّ صحّة رواية أو ، غالباً ، بعض تفاصيلها ، لكن اتّصال أبي نواس بالرشيد لا مجال لانكاره إذ يؤكّده ثقات ممّن رووا أخباره وأشعاره أو أخذوا عليه الغلو والتناقض في بعض معانيه المدحية (انظر قدامة بن جعفر في نقد الشعر ص 63 والمرزباني في الموشّح ص266 وما بعد) . كما تؤكّده أشعار أبي نواس المثبتة في ديوانه والتي

والرشيد ، الذي وجدناه حتى الآن يقول البيت أو ينشده ، طالباً إجازته ، شارك أيضاً في فنّ الإجازة الشعرية . فالسيوطي يخبر عن «أوّل شعر قاله الرشيد ، أنّه حجّ سنة ولي الخلافة ودخل داراً ، فإذا في صدر بيت منها بيت شعر كتب على حائط :

ألا يا أميرَ المؤمنينَ ، أما تَرى ، فديتُكَ ، هِجرانَ الحبيبِ كبيرا ؟

فدعا بدواة وكتب تحته بخطّه :

بلى والهدايا المُشعَراتِ وما مشى بمكّـةَ ، مرفوعُ الأظَـلِّ حسيرا[1]

والبيت الشعري لم يكن يعنيه هو بالذات كأمير للمؤمنين ، ولكنّه اعتدّه سؤالاً موجّهاً إليه ، وعليه ألاّ يردّ سؤالاً ، متهرّباً من الجواب ، فهو لا يروغ من موقف يمكنه أن يثبت فيه كفاءة وقدرة . وإذا صحّت رواية السيوطي يكون أوّل شعر قاله الرشيد هو شعر الإجازة ، أي شعر البديهة الحاضرة والحسّ المرهف والذوق الأدبي .

هذا ، ولشعر البديهة في البلاط مظاهر أخرى ومواقف غير مواقف الردّ على سؤال أو امتحان وغير مواقف الإجازة ، مواقف أسرع ممّا ذكرنا وأقصر ونعني بها «أدب اللمحة الذكية» الذي نما واشتدّ في بلاط الرشيد ، فملأ كتب الأدب والرواية بأخباره ونوادره .

رابعاً : أدب الخطرات الذكية

وقد ألحقنا هذا اللون ، المعتمد على الفطنة وحسن التخلّص ، بمجالس الاختبار ، لأنّه غالباً ما تكون الخطرة الذكية تعبيراً عفويّاً في امتحان عسير ، أو جواباً ذكيّاً عن سؤال يهدّد المصير . وتشمل الخطرة ، في رأينا ، الإجابة البليغة ، أو الكلمة الموجزة الفصيحة ، أو تصحيحاً لقول أو موقف يشكّل اعتذاراً ، أو بادرة فطنة في موقف صعب . ونحن نتناول فيما يلي مختلف جوانب أدب الخطرة هذا ، باستثناء المظهر الاعتذاري الذي يأتي الحديث عنه في أدب الاعتذار .

وقبل البدء في عرضنا ، لا بدّ لنا من استشفاف نصيب الرشيد من هذا الأدب ، وقد عرفت عنه جميع صفات البداهة وسرعة الفهم والفطنة . من ذلك ما أدركه وعلّق به على خطبة المرأة

= تتوجّه إلى الرشيد صراحة وبالاسم . ومن الثابت أنّ الرشيد حبسه لمجونه وشرب الخمر ، علانية ، حتى أقلع . (انظر مقدّمة ابن خلدون ج1 ص 235) . إنّما نتساءل . هل كانت «الكلفة مرفوعة» بين الرشيد وأبي نواس ، وهل كان الشاعر يلازم الخليفة ، كما تصوّره الروايات ، ويحضر مجالس منادمته وشرابه ؟ إنّنا لا نصدّق ذلك . فإذا كان الفضل بن يحيى يرفض منادمة النواسي ، نظراً لأسلوبه في الحياة (انظر طبقات ابن المعتزّ ص 217) فمن المستبعد أن يرضى الرشيد ما رفضه الفضل . ومعظم أشعار أبي نواس في الرشيد هي أشعار جدّ أو طرافة لا هزل ومجون . فهذا قد خصّ به الأمين . ولعلّ الرواة أدمجوا أخباره مع الأمين في أخباره مع والده . يقول طه حسين : «هو جاد حريص ، إذا مدح الرشيد ، وهو يتردّد بين الجدّ والهزل إذا مدح الأمين» (حديث الأربعاء ص 126) . ونحن نعتقد أنّ بعض ما جاء في أشعار الإجازة أعلاه هو أقصى ما بلغه أمام الرشيد ، من تحلّل من جدّي القول .

1 السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص 292 .

البرمكيّة[1] التي دخلت عليه تقول : «أقرّ الله عينك ، وفرّحك بما آتاك ، وأتمّ سعدك ، لقد حكمت فقسطت . . .» فالتفت إلى الحاضرين من أصحابه قائلاً : «أتدرون ما قالت المرأة ؟ ما أظنّكم فهمتم ذلك . أمّا قولها : أقرّ الله عينك أي أسكنها عن الحركة ، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت . وأمّا قولها : وفرّحك بما آتاك ، فأخذته من قوله تعالى : ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة﴾ . وأمّا قولها : أتمّ الله سعدك ، فأخذته من قول الشاعر :

إذا تـمَّ شيءٌ بـدا نقصهُ   ترَقَّـبْ زَوالاً ، إذا قيل ، تَمّ

وأما قولها : لقد حكمت فقسطت ، فأخذته من قوله تعالى : ﴿وأمّا القاسطون ، فكانوا لجهنّم حطبا﴾ »[2] . ومع شكّنا في صحّة نسبة هذه الاكتشافات الكلامية كلّها إلى الرشيد ، فقد أوردنا الخبر لندلّل على ما تمتّع به الرشيد ، بكفاءاته ، من صيت بعيد في ذهن الناس ، والأدباء الرواة منهم على الخصوص ، حتى استسهلوا أن ينسبوا إليه مجموعة من القوالب الكلامية التي تبرز عادة بشكل تدريجي مع تجربة أجيال من العاملين في هذا الحقل ، من خلال التمحيص الطويل والتمعّن والدرس للتعابير الواردة في التراث الديني والأدبي ، مقارنة بالتعابير المتداولة في حديث الناس اليومي ، هذا التمحيص الذي يوضح الوجه الآخر للأشياء والأفكار والتعابير . ولئن ازدهر علم الكلام في أيّام الرشيد فإنّه كان لا يزال ناشئاً لم ينضج بهذا النوع من الاستنتاجات ، ولا الرشيد نفسه كان من مؤيّديه أو ممارسيه ، ولا كانت عنده الظروف المساعدة على التأمّل والمقارنة ؛ فمعظم ثقافته كانت حفظاً منقولاً أو حسّاً وتذوّقاً . وقد يكون وقع له أحد هذه الاستنتاجات فنسجت الروايات حوله ما بقي منها وأوجدت شخصية المرأة البرمكية لتقول له ويجيب عن قولها . أمّا أن تكون قد صدرت عنه الإجابات بشكلها المتراكم الذي أوردته الرواية ، فهذا ما نستبعده . على أنّ لنا ، على فطنة الرشيد ، أدلّة أُخرى ثابتة ، كالذي نجده في إدراكه لبادرة عبد الملك بن صالح الذكية : فقد أرسل عبد الملك إليه هديّة من بساتينه وضعها في أطباق من الخيزران وكتب إليه : «دخلت يا أمير المؤمنين بستاناً في داري عمرته بنعمتك وقد أينعت فواكهه ، فأخذت من كلّ شيء وصيّرتُهُ في أطباق قضبان ووجهته إلى أمير المؤمنين ليصل إليّ من بركة دعائه ما وصل إليّ من نوافل برّه» . وحين قرأ الرشد الكتاب ، راح يقول : «برّه الله ووصله» . وتعجب جلساؤه من دعائه له ، ولم يجدوا في الهدية ولا في الكتاب مسوغاً لهذا الاهتمام ، إلى أن قال لسائله : «يا صبي ، أما ترى كيف كنّى بالقضبان عن الخيزران اعظاماً لأمّنا رحمها الله ؟»[3] ولعبد الملك بن صالح ذكر كلّما جرى حديث

---

1 لقد مرّ بنا خبر مناظرة شعرية نسبت إلى الرشيد وأمّ جعفر البرمكيّ . والبرمكيّة هنا هي امرأة أُخرى ، والخبر نثري وليس فيه مناظرة ، وهذا ما يجعله مختلفاً عن الخبر الأوّل . (راجع ص 101 من البحث) .

2 الأحدب ـ إبراهيم ـ ثمرات الأوراق ـ ذيل بهامش المستطرف ج2 ص 226 .

3 المسعودي ـ مروج الذهب ج3 ص 281 .

عن البلاغة وحضور البديهة في البلاط ، أيّاً كان الموقف الذي يقفه . ففي لحظات الرضى عنه يتجلّى بأدب وفصاحة . وفي لحظات السخط عليه لا يفقد لفتة معجزة أو ردّاً محكماً . ولا يسع الرشيد إلاّ أن يعجب بأقواله ، مع أنّ الإعجاب قد يتنافى ومشاعر لحظته نحو قريبه المتّهم في ولائه . ففي أحد مجالس العتاب تدخّل يحيى بن خالد ليقول له : «بلغني أنّك حقود . فقال : أصلح الله الوزير ، إن يكن الحقد هو بقاء الخير والشرّ عندي ، إنّهما لباقيان في قلبي . فالتفت الرشيد إلى الأصمعي فقال . حرّرها فوالله ما احتجّ أحد للحقد بمثل ما احتجّ به عبد الملك»[1] . والرشيد ، يبدو كما يحبّ الرواة أن يصوّروه ، ميّالاً إلى الفخر بأبناء الهاشميين ، يسرّ لدرجة الطرب بكلّ جيد ينسب إليهم . أما إذا كان ذلك تحجيماً للبرامكة وسواهم من غير العرب ، فإنّه يشعر بنشوة تطغى على كلّ احساس آخر لديه[2] . وهذا ما دعاه في الخبر السابق إلى الإعجاب بافحام عبد الملك ليحيى بن خالد وزيره ، على رغم أنّه كان ناقماً عليه نقمة كادت تودي به . ويظهر أنّ عبد الملك كان واثقاً من أنّ الرشيد لا يقدم على قتل هاشمي ، لذلك كان يقارعه الحجّة بالحجّة والجواب القاسي بالجواب المشابه له . فقد أراد الرشيد في إحدى جلسات التقريع أن يعيّره غمزة في نسبه ، فردّ عليه بعنفوانه المعروف[3] ، فحبسه عند الفضل بن الربيع . ويظهر أنّ عبد الملك كان محظوظاً مع الرواة ، اعجبوا جدّاً بأقواله فكادوا لا يغفلون منها كلمة ، ولا يخلو منها كتاب من كتب الأدب .

ولمّا كانت الأمور تتداعى لنظائرها فإنّ بديهة الرشيد وتقديره للفطنة أحاطاه بحاضري البديهة أصحاب الفطنة . من هؤلاء سعيد بن سلم الباهلي . سأله الرشيد يوماً : «مَن بيتُ قيس في الجاهلية ؟»[4] ثم «من بيتهم في الإسلام ؟» فأجابه بالكثير الكثير من التبصّر والذكاء . فسعيد ، كجليس للرشيد ما كان يحقّ له الادّعاء أنّ قومه هم بيت قيس في الإسلام ، فيكون بذلك قد فخر بحضور الرشيد ، وهذا سوء أدب في البلاط . لكن السؤال قائم ويحتاج إلى جواب سعيد اللبق الذي حدا الرشيد على أن ينصفه ويعترف له بأنّه ، مع قومه ، هم بيت قيس في الإسلام . ومن حاضري البديهة في البلاط أبو يوسف القاضي . وقد شُهر بذلك في فتاواه المعروفة للرشيد ، إلاّ إنّه لم يقتصر الأمر لديه على الفتاوى . فقد قال له الرشيد يوماً ، وهو يحاوره : «بلغني أنّك تقول : إنّ هؤلاء الذين يشهدون عندك ، وتقبل أقوالهم ، متصنّعة . قال : نعم ، يا أمير المؤمنين . قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنّ من صحّ ستره وخلصت أمانته ، لم يعرفنا ولم نعرفه . ومن ظَهَر أمرُه وانكشف خبره لم يأتنا ولم

---

1 العقد الفريد ج2 ص 152 ومروج الذهب ج3 ص 263 وزهر الآداب ج3 ص 619 وجاء (في أمالي المرتضى ج1 ص 210) في جواب عبد الملك :«أنا خزانة تحفظ الخير والشرّ . . .» .

2 راجع ص 283 وما بعد من البحث .

3 تاريخ الطبري ج8 ص 305 والوزراء والكتّاب ص 263 والنجوم الزاهرة ج2 ص 90 . راجع ص75 هامش 5 من البحث .

4 العقد الفريد ج2 ص 129 . راجع تفاصيل ص 110 هامش 3 من البحث .

نقبله . وبقيت هذه الطبقة وهم هؤلاء المتصنّعة الذين أظهروا الستر وأبطنوا غيره . فتبسم الرشيد وقال : صدقت»[1] . وأكثر ما يتجلّى حضور ذهن أبي يوسف في الحكم اللبق . ولعلّ ممارسته الطويلة للقضاء ، الذي يعتمد الإصلاح ما بين الخصمين ، قبل النظر في القضيّة ، قد رسّخت عنده مهارة في تقريب وجهات النظر والتخلّص من المواقف المحدودة المحصورة ، كموقفه من الرشيد وزبيدة حين اختلفا في «الفالوذج واللوزينج» أيّهما أطيب ؟ وأحضراه ليحكم بينهما . فأوّل بادرة كانت منه قوله : «يا أمير المؤمنين ، لا يقضى على غائب» . وتلك كانت فرصة ليهيّيء جوابه متمهّلاً . وحين أحضر الطعامان «أكل حتى اكتفى . فقال له الرشيد : احكم . قال : قد اصطلح الخصمان يا أمير المؤمنين»[2] . ومن المشهورين بالفطنة والذكاء من أدباء البلاط ، أبو نواس ، بل لعلّه أشهرهم على الاطلاق ، وشهرته جعلته بطلاً لكلّ حكاية فيها هزل وضحك وذكاء مع أدب في كلّ عصر جاء بعده . وممّا يروى له في باب المواربة قوله في خالصة جارية أمير المؤمنين ، هاجياً :

لقد ضاعَ شِعري عـلى بابِكمْ كما ضاعَ حِلْـيٌ عـلى خالِصة

«فلمّا بلغ الرشيد ذلك أنكر عليه وتهدّده بسببه . فقال : لم أقل إلاّ :

لقد ضاءَ شِعري على بابِكـمْ كما ضاءَ حـلِيٌ عـلى خالِصة

فاستحسن الرشيد مواربته . وقال بعض من حضر : هذا بيت قلعت عيناه»[3] .

وفي أدب اللمحة يشترك عدد من رجال الدولة . فهم قريبون من الرشيد مسؤولون أمامه عن أخطائهم ، ومَن مِن الناس لا يخطىء ؟ لكن خطأهم ، نظراً لمراكزهم ، يكون خطيراً ، وقد لا يُغتفر إلاّ إذا أسعفهم الحظّ بردٍ بليغ على الاتّهام أو بقولٍ ذكي يستلّ الغمّ والحقد من نفس أمير المؤمنين . فقد روي عن حميد الطوسي أنّ الرشيد غضب عليه «فدعا له بالنطع والسيف . فبكى (وهو القائد الشجاع) . فقال له : ما يبكيك ؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين ، ما أفزع من الموت لأنّه لا بدّ منه ، وإنّما بكيت أسفاً على خروجي من الدنيا ، وأمير المؤمنين ساخط عليّ . فضحك وعفا عنه»[4] . أمّا يزيد بن مزيد ، قائد الجند ، فقد تعرّض لوشاية تتّهمه بالغرور وادّعاء الفضل على الدولة العبّاسية . وهو ، في الواقع ، ذو فضل عليها عميم ، لكنّ الرشيد لا يقبل دالة من أحد . فأرسل إليه ليلاً يدعوه وقال له : «أنت القائل : أنا ركن الدولة والثائر لها والضارب أعناق بُغاتها ؟ لا أُمَّ لك ، أي ركن ، وأي ثائر أنت ؟» وحين أحسّ يزيد بالخطر بادر إلى نفي تهمة الخيانة والادّعاء عن نفسه ، وإن لم ينف الأقوال ، فصحّفها قائلاً : «إنّما قلتُ : أنا عبد الدولة والثائر لها . فأطرق الرشيد وجعل غضبه

1 وفيات الأعيان ج3 ص 341 .
2 المستطرف ج1 ص 177 .
3 الحموي ـ خزانة الأدب ص 141 .
4 المستطرف ص 191 وأسرار الحكماء ص 94 .

ينحل عن وجهه . ثم ضحك» فقد وصل إلى مبتغاه وحجّم الرجل الكبير . لكن يزيد كان يخاف أن يكون قد بقي في نفس الخليفة شيء من هواجسه وأمامه تَمثُل عبر من التاريخ ، عبرة أبي مسلم[1] وأبي سلمة[2] ويعقوب بن داود[3] وغيرهم . فأراد أن يستلّ كل موجدة في نفس الرشيد فقال : «أحسن من هذا قولي :

خلافـــة الله في هرونَ ثابتةٌ ... وفي بنيه إلى أن ينفخ الصور

فقال : يا فضل اعطه مئتي ألف درهم قبل أن يصبح»[4] . والاعتذار عن ذنب بكلمة ظريفة كثيراً ما ينجّي من تهمة مهلكة . فقد حُمل إليه أحد الخارجين ، وتهمة الخروج هي الخيانة العظمى . فلمّا مثل بين يديه قال له : «ما تُريد أن أصنع بك ؟ قال : الذي تريد أن يصنع الله بك إذا وقفتَ بين يديه اذلَّ منّي بين يديك . فأطرق الرشيد مليّاً ، ثم رفع رأسه وقال : اذهب حيث شئت . فلمّا خرج قال بعض من حضر : يا أمير المؤمنين ، تُفني مالك وتقتل رجالك حتى تظفر بمثل هذا الباغي وتطلقه بكلمة واحدة ؟ إنّا لا نأمن أن تتسلّط عليك الأشرار بالإحسان إليهم . فأمر بردّه . فلمّا مثل بين يديه علم أنّه قد أُغري به فقال : يا أمير المؤمنين ، لا تُطِعْهم ، فلو أطا ع الله فيك خلقه ما استخلفك عليهم ساعة واحدة»[5] . فثبّت الخارجي بفطنته وحسْن بصيرته حكم العفو السابق ، مع أنّ أصحاب الرشيد كانوا على حقّ ، وذنب الخارجي لم ينتف بكلامه البليغ . لكن هذه هي طبيعة الرشيد ، سريع إلى الغضب ، سريع إلى العفو[6] ، لا تكون العقوبة دائماً لديه بمستوى الذنب ، ولا المكافأة بمستوى الإحسان . فممّن أذنبوا وعفا الرشيد عنهم بكلمة ، شعيب بن حرب الواعظ : رآه في طريق مكّة واعتقد أنّ من واجبه وعظه . فاعترضه صائحاً : «يا هارون ، قد أتعبت الأمّة وأتعبت البهائم . فقال : خذوه» . يقول شعيب راوياً : «أُدخلت عليه ، وهو على كرسي وبيده عمود يلعب به . فقال : ممّن الرجل ؟ فقلت : من افناء الناس . فقال : ممّن ؟ ثكلتك أمّك . قلت : من الأبناء . قال : فما حملك على أن تدعوني باسمي ؟ قال شعيب : فورد على قلبي كلمة ما خطرت لي قط على بال . فقلت له : أنا أدعو الله باسمه فأقول : يا الله ، يا رحمن ، ولا أدعوك باسمك ؟ وما تنكر من دعائي باسمك ، وقد

---

1 قائد جيوش الثورة العباسية قتله المنصور (اليعقوبي ج2 ص 367) .

2 وزير أبي العبّاس السفاح . وكان يلقّب بـ«وزير آل محمد» قتله أبو العبّاس (المصدر السابق ص352) .

3 وزير المهدي ، غضب عليه وحبسه فبقي محبوساً إلى أيّام الرشيد (الوزراء والكتّاب ص162) .

4 المستطرف ص 191 .

5 الوطواط ــ الغرر والعرر ص 412 .

6 هذه الطبيعة في الرشيد كانت مؤكّدة لهيبته وعظمته . فهو ، في سرعة غضبه ، بثّ الرهبة في نفوس الأعداء والمقرّبين ؛ وهو ، في سرعة عفوه ، ترك المجال واسعاً لخيال الرواة يتحدّثون عن عظمته المتفضّلة السمحاء بما يقارب الأسطورة . وكانت الكلمة الذكية مدخلاً إليه لا يُغلَق أبداً ، وهذا سبب تطوّرها ونموّها في أجوائه حتى غدت باباً من أبواب الأدب في بلاطه .

رأيت الله تعالى سمّى ، في كتابه ، أحبّ الخلق إليه : محمداً ، وكنّى أبغض الخلق إليه : أبا لهب فقال : (تَبَّتْ يداً أبي لهب وتبّ) . فقال : أخرجوه»[1] فأخرج وهو لا يزال على قيد الحياة ، فأنقذته بادرته . وممّن اكتسب العفو والاعجاب معاً ببادرة ، قينة غنّت بوجوده :

ما نَقَموا من بني أميّةَ إلاّ أنّهم يحلُمون إن غضِبوا

«فلمّا ابتدأت به تغيّر وجه الرشيد وعلمت أنّها غلطت وأنّها ، إن مرّت فيه ، قُتلت . فغنّت :

ما نَقَموا مِن بني أميّةَ إلاّ أنّهم يَجهَلون إنْ غَضِبوا
وأنّهمْ مَعدِنُ النِفاق فما تفسُدُ إلاّ عليهمُ العربُ

فقال الرشيد ليحيى : سمعت يا أبا علي ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، تُبتاع وتسنى لها الجائزة ، يعجِّل بها الآذن ليسكن قلبُها . قال : ذلك جزاؤها . قدّمي ، فأنت منّي بحيث تُحبّين . فأُغمي على الجارية»[2] . والموقف الصعب قد يصيب بالعيّ والحصر أفصح الناس ، بينما يكون حينها في أشدّ الحاجة إلى فصاحته . في هذه الحال ، يبادر صاحب البديهة إلى كلام منمّق في غير الموضوع المطلوب يصوغه اعتذاراً عمّا ألمّ به من حصر ، ويأخذ به متنفّساً لضيقه يهيّئه لاسترداد رباطة جأشه وبلاغته . ولقد رأينا نماذج متعددة عن هذا الموقف في دراستنا لمجالس الامتحان . ونعرض هنا لبعض اللمح في المضمار نفسه . منها ما صدر عن منصور النمري . فقد دخل يوماً على الرشيد ولم يكن أعدّ له مدحاً . وصدف أن كان الرشيد نشيطاً طيّب النفس مستعدّاً لتقبّل المديح . فتطلّع إلى شاعره الذي رام الارتجال ، فلم يحضره شيء . ولكن الشاعر الموهوب لم يطل التردّد بل حزم أمره وراح يشرح وضعه ريثما يستردّ أنفاسه . فحضرته أبيات في هذا المعنى ، أنشدها للرشيد فنال الاستحسان[3] . وبموقف مماثل مرّ منافس النمري : كلثوم بن عمرو العتابي ، فاعتذر بقوله : «الإيناس قبل الإبساس . لا يُمدح المرء بأوّل صوابه ، ولا يُذمّ بأوّل خطئه ، لأنّه بين كلام زوّره أو عِيّ حَصَره»[4] .

وممّا لا شكّ فيه أنّ أخبار الخطرات هذه لم تحفظ في الكتب فحسب ، بل تناولتها الألسن بالتداول فرويت في المجالس الخاصّة والعامّة حتى بات هاجس كلّ ذكي أو مدّع للذكاء ، أن تهبط عليه فرصة تضعه أمام الخليفة ليردّ على سؤال منه بجواب ذكي يعجبه وينال حظوة لديه . هذا ما يمثّله الحوار التالي بين الرشيد وأبي شعيب القلاّل الذي أسعفته ظروف الحظّ بالدخول إلى البلاط ، حين أحبّ الرشيد أن يرى كيف تُصنع القلال . فاغتنم الفرصة وحاول أن يرتّب حواراً بينه وبين

1 تاريخ بغداد ج9 ص 240 .
2 الأغاني ج5 ص 76 .
3 الأغاني ج13 ص 157 . راجع ص 86 هامش 2 من البحث .
4 زهر الآداب ج3 ص 638 .

الخليفة يخرج منه بنظرة معجب إن لم يكن بأكثر» فبينا هو يعمل ، إذا هو بالرشيد قائم فوق رأسه . فلمّا رآه نهض قائماً . فقال له الرشيد : دونك وما دُعيت له ، فإنّي لم آتك لتقوم إليّ ، وإنّما أتيتك لتعمل بين يديّ . قال : وأنا لم آتك ليسوء أدبي وإنّما أتيتك لأزداد بك في كثرة صوابي» . إلى هنا كان الحوار المحضّر في رأينا يسير سيره الطبيعي . لكنّ الرشيد ليس ممّن يؤخذ على حين غرّة ، أو بالمظهر الخارجي للناس . فأخذ المبادرة في سائر الحوار ووجّهه غير الوجهة التي تهيّأ لها أبو شعيب ، فأُغلق في يد القلال وقال أوّل ما خطر بذهنه فجاء سخيفاً متنافياً مع ذكاء الجواب السابق ، ذاك أنّ الرشيد شدّ مهاجماً أبا شعيب ليعجم عوده فقال : «إنّما تعرضتَ لي حين كسدتْ سوقُك . فقال أبو شعيب : يا سيّد الناس ، وما كساد عملي في جمال وجهك» ؟ فضحك الرشيد حتى غطّى وجهه ثم قال : «والله ، ما رأيت أنطق منه أوّلاً ، ولا أعيا منه آخراً»[1] .

خاتمة

قمنا ، في هذا الفصل ، بعرض لأخبار تقترب حيناً من النادرة وتنقلب حيناً إلى الأدب . ولقد اعتدّينا أخبار الخطرات داخلة في مجال الأدب لأنّ التعبير فيها كان تجسيداً فنيّاً لواقع داخلي أو خارجي لدى صاحبها . ولمّا كان هذا النوع من الأدب ، عادة ، مادّة دسمة لجامعي الأخبار ، وكلّهم يريدون تفكهة القارىء ، إلى جانب تثقيفه ، فقد اعتنوا بجمع الكثير ممّا قيل في بلاط الرشيد الذي كان قبلة أنظار المؤرّخين والرواة . لذلك كان لا بدّ ، لفصل من هذا النوع ، أن يغلب النقل على بعض أجزائه ، فجاءت فيه ملامح ، بعضها معروف متداول ، وأُخرى قليلة التداول ، إذ من الصعب جدّاً اكتشاف الجديد في موضوع استهوى الباحثين حتى استنفدوه . ولعلّهم لم يكتفوا باستنفاده ، بل زادوا فيه وأفاضوا . فالبحث ، إذا ما شحّ معينه ، عمد الراوي إلى الحاق زيادة بالأخبار ، أو ببعض جزئيّاتها وتفاصيلها ، ممّا يكون أعجبه في أخبار أُخرى ولم يستطع الاستغناء عنه إذا وجده يليق بمن يروى له . والرشيد من أكثر الخلفاء حظّاً في هذا المضمار لأنّه اختلط بأبطال الأدب الشعبي وتداولت الأخبار عنه ما لا يحصى من النوادر ممّا لم نعره اهتماماً في بحثنا . فنحن لم نورد إلاّ ما ذُكر في كتب الأدب ، مع أنّنا كنّا نشكّ أحياناً في المصدر أو في بعض ملامح الخبر ، وقد أشرنا إلى ذلك في حينه . . . ومع كلّ ما قدّمناه ، فإنّنا لم نحاول تحاشي بعض الملامح الواردة في الفصل لأنّه ، في رأينا ، يمثل وجهاً من وجوه البلاط الزاهية ، ومنطلقاً أمام الرشيد ومجالسه للدخول إلى عالم الخيال والأسطورة ، وهذا ما يجري تفصيله في لاحق البحث .

1 الجاحظ ـ البيان والتبيين ج2 ص 292 وياقوت المستعصمي ـ أسرار الحكماء ص 94 .

الفصل الرابع
النقد الأدبي في بلاط الرشيد

«البلاغة : التباعد عن الإطالة ، والتقرّب من معنى البغية ، والدلالة ، بالقليل من اللفظ ، على الكثير من المعنى . .»[1] .

هارون الرشيد

«البيان : أن يكون الاسم يحيط بمعناك ويجلّي عن مغزاك ، وتخرجه من الشركة ، ولا تستعين عليه الفكرة . والذي لا بدّ منه أن يكون سليماً من التكلّف ، بعيداً عن الصنعة ، بريئاً من التعقيد ، غنيّاً عن التأويل»[2] .

جعفر البرمكي

تمهيد : النقد الأدبي وعصر الرشيد

لكي نستطيع دراسة ما جرى من نقد في البلاط ، لا بدّ من تمهيد يتناول مفهوم النقد وحدوده في عصر الرشيد ، كما يتناول المؤهّلات النقدية في شخصيّته الأدبية .

في رأينا أنّ النقد الأدبي ، عند أيّ شعب من الشعوب ، لا يولد صدفة . فليس هو اكتشافاً ولا اختراعاً . إنّما هو عملية متدرّجة متطوّرة ترافق نموّ الفكر الجماعي وتقدّمه في مضمار الأحكام الفنيّة والانتاج الأدبي . والأدب نفسه ليس عملاً مفتعلاً ، إن هو إلاّ تعبير فنّي ، تمتاز به فئة من الجماعة ، يصدر عنها بشكل عفوي ، أو حتى ساذج أحياناً . وبقدر ما تبقى الجماعة قريبة إلى البدائية ، يكون انتاجها الأدبي ألصق بظروف حياتها الماديّة والاجتماعية ، ويندر ، لذلك ، النقد لديها . إنّها ، مع ارتقائها في سلّم الحضارة ، يبتعد التعبير الأدبي عن سذاجة العفوية ليصبح أكثر تعقّداً وإعمالَ فكرٍ وتصنّعاً ، ويشتهر ، خلال ذلك ، شعراء وأدباء يتميّزون بقدرتهم على الابداع وتفوّقهم في ابتكار المعاني واختيار الألفاظ ، فيصبح انتاجهم الأدبي نموذجاً يحتذى وجزءاً من التراث الثقافي للجماعة ، تعتزّ به وتتناقله وتنسج على منواله[3] . ولمّا كان التغيّر الحضاري بطيئاً في المجتمعات القديمة ، فقد كانت أنماط الحياة تتكرّر متشابهة لدى أجيال متعاقبة ، وبالتالي كان على

---

1 وفيات الأعيان ج2 ص 114 .

2 البيان والتبيين ج1 ص 129 .

3 نحن لا ندّعي القيام بدراسة شاملة للآداب العالمية ولا وضع معيار واحد لنشأة هذه الآداب وتطورها . بل إنّنا لا نؤمن بوجود هذا المعيار على رغم العديد من وجوه الشبه بين الشعوب البدائية جميعها . والذي نبغيه من هذا التمهيد هو تلمّس الخطوات الأولى التي خطاها الأدب العربي بالذات نحو إيجاد نقد أدبي ، لأنّ ذلك بدأ جدّيّاً في عهد الرشيد .

فئات وأجيال من الأدباء الخوض في مواضيع مماثلة للتي خاض فيها الروّاد السابقون ، والحديث عن أوضاع اجتماعية وحضاريّة قريبة من أوضاع هؤلاء الروّاد . هكذا ، يؤدّي التشابه في الظروف والتعلّق بملامح النتاج الأدبي السابق ، والسير على خطى الأوائل ، مع ما وصلوا إليه من تأثير في ضمير الجماعة وقدرة على تحقيق أهدافها ، يؤدّي ذلك كلّه إلى الاجترار الأدبي ، فيسطو جيل من الشعراء على معان وتعابير سبقه إليها سواه ، ويعيد صياغتها في قوالب جديدة ، مدّعياً ملكيّتها[1] . إنّ تعاور الأدباء معاني بالذات ، نقلاً وتكراراً وتطويراً ، يخلق معالم مشتركة بينهم يمكن أن تصبح منطلقاً للموازنة بين هذا الأديب وذاك ، أو لقياس ابداع كلّ منهما بالنسبة إلى الآخر[2] ، فتتولّد ، حينها ، باكورة النقد الأدبي . ولعلّ أبسط مظهر نقدي هو في السرقات الشعرية نفسها ، وفي قصائد النقائض ، لأنّ الشاعر ، الذي يأخذ معنى عن شاعر آخر ، يقوم بعمل نقدي لا إرادي : إنّه يعرب عن إعجابه بالمعنى واستحسانه له ، وفي الآن نفسه ، يكتشف نواحي نقص أو قصور يحاول تجاوزها بما يدخله من تعديل على ما أخذ ليجعله أكثر كمالاً أو أدقّ أداء أو أنضر وأبهى ، تحت كساء جديد من اللفظ والتعبير[3] ؛ حتى إذا ما أخطأ التقدير ، زاد في قيمة المعنى السابق . أمّا النقد الذي

---

1 إذا كنّا نربط الاجترار الأدبي بالعصور القديمة فهذا لا يعني أنّنا ننفيه عن العصور التالية المتطوّرة . فالمواقف الإنسانية ، في كلّ أمّة ، يمكن أن تتكرّر ضمن البيئة . وبتكرّر هذه المواقف يتكرّر التعبير الأدبي الذي يستوحيها فيكون دائم الخضوع للسطو الأدبي .

2 نعتبر القاسم المشترك من الأسس الأولى للنقد الأدبي . وقد تنبّه إلى ذلك بعض القدماء حتى ليزعموا أنّ الإمام عليّاً كان من أوائل المتنبّهين . فيروي الأصفهاني عنه أنّ الناس اختصموا ليلة حتى ارتفعت أصواتهم في «أشعر الناس» . فقال عليّ عليه السلام لأبي الأسود الدؤلي : قل ، يا أبا الأسود . فقال : أشعرهم الذي يقول : (هو أبو دواد الأيادي) .

وقد أغتَدي ، يُدافِعُ رُكني ، أحوذِيٌّ ذو مَيعةٍ إضْريج

فأقبل عليه السلام على الناس فقال : كلّ شعرائكم محسن . ولو جمعهم زمان واحد وغاية واحدة في القول ، لعلمنا أيّهم أسبق . . (الأغاني ج16 ص 297) .

3 نجد أمثلة كثيرة على ذلك في كتب اللغة والنقد والأدب القديمة . ونقتبس مثلاً عن أبي هلال العسكري : «ممّن أخذ المعنى فزاد على السابق زيادة حسنة أبو نواس في قوله :

يبكي فيُذري الدُرَّ مِنْ نَرجسٍ ويلطِمُ الوردَ بعُنّابِ

أخذه من قول الأسود بن يعفر :

يسعى بها ذو تُومَتَين كأنّما قَنَأتْ أنامِلُه من الفِرصادِ

وأخذ بعض المتأخّرين (وهو أبو الفرج الواوا ــ انظر العمدة ج1 ص 200) بيت أبي نوّاس فزاد عليه زيادة عجيبة فقال :

وأسْبَلَتْ لؤلؤاً من نَرجِسٍ فَسَقَتْ وَرْداً وعضّتْ على العُنّابِ بالبَرَدِ

فجاء بما لا يقدر أحد أن يزيد عليه» . (كتاب الصناعتين ص 150) .

نستشفّه من النقائض فيتجلّى في ردود تتناول عثرات الخصم ، معنىً أو أداءً ، لتقلّل من قيمته . وهذه العملية شبيهة بالسرقة الشعرية وإن لم تكن سرقة ، لأنّها مواجهةٌ وليست مواربةً ، باعثُها التحدّي لا الإعجاب . ونتيجتها إبراز العيب لا اقتباس الحسنات[1] . وهذه المظاهر النقدية ، كما أشرنا ، عفوية وغير مقصودة لذاتها ، إن هي إلاّ بداية متردّدة . فالنقد المقصود لا تظهر تباشيره إلاّ متى وُجد من يتتبّع المعاني من شاعر إلى آخر ، يحدّد ما أخذ اللاحق عن السابق ، ومدى ارتقائه بالمعنى والتعبير ، أو مدى تقصيره فيهما[2] ، وإلاّ حين يأتي من يقابل القصائد ويقارنها محاولاً اعطاء أحكام في اتجاه أو في آخر . أمّا النقد الموضوعي الذي ينصرف إليه أشخاص ويختصّون به متّخذين لأنفسهم قواعد وأصولاً يستهدون بها ، واضعين أمامهم مثالية فنيّة يحاولون بها قياس قيمة الأدب

---

1 من ذلك ما جاء في المهاجاة التي احتدمت بين مسلم بن الوليد والحكم بن قنبر . فقد افتخر مسلم بقومه الأنصار وراح يعرّض بقريش . وكان هذا خطأً فادحاً ، فقريش منها النبي ومنها الخلفاء جميعاً . وقد تعلّق ابن قنبر بذلك وانتقده ، مغرياً السلطان به قائلاً :

أَلا امْثِلْ ، أميرَ المؤمنينَ ، بمُسلمٍ وأَشْقِ بهِ الأحشاءَ من كلِّ مُجرمِ . . .

(الأغاني ج18 ص 349 ، ويمكن مراجعة تفاصيل أكثر عن هذه المهاجاة في فصل «صراع العصبيات») وفي الاتجاه نفسه ، وهو إبراز خطأ الخصم ، في النقائض ، عن طريق تسليط الضوء عليه ، أو تحاشيه ، يقارن الأستاذ أحمد الشايب بين قصيدة الأخطل : خف القطين . . . وقصيدة جرير : قل للديار . . . فيقول : «عني جرير بالديار التي وقف عليها ، ولكن الأخطل عني بمن رحلوا عن الديار» . وكانا معنيّين معاً بسبب الرحلة والرحيل إلى المربع بعد جفاف الديار . ولعلّ جريراً ، لما وجد الأخطل حائراً لا يتبيّن أوان الرحلة إذ يقول :

خَفَّ القَطينُ فراحوا منكَ أو بَكَروا وأزعجتْهُمْ نَوى ، في صَرْفِها غِيَرُ

تنبّه هو فعيّن وقت الرحيل وأكّده ، ونبّه إلى عدم جدوى الأشفاق والجزع الذي يقع فيه المحبّون :

نادى المُنادي بِبَينِ الحيِّ فابتَكَروا مِنّا بُكوراً ، فما ارتابوا وما انتَظَروا . . .

(تاريخ النقائض في الشعر العربي ص 388) .

2 من بوادر هذه العملية في النقد العربي ، ما ذكره السيوطي عن مواجهة بين الكميت ونصيب . فقد «أنشد الكميت :

هل أنتَ عن طَلَبِ الايقاعِ مُنقلِب

حتى إذا بلغ إلى قوله :

أَمْ هلْ ظَعائنُ بالعَلْياءِ نافعةٌ وإن تكامَلَ فيها الدَّلُّ والشَنَبُ

عقد نصيب بيده واحداً . فقال الكميت : ما هذا ؟ فقال : أُحصي خطأك . تباعدتَ في قولك : الدلّ والشنب : ألا قلت كما قال ذو الرمّة :

لمياءُ في شَفَتَيْها حُوَّةٌ لَعَسٌ وفي اللثاتِ وفي أنيابِها شَنَبُ

(المزهر ج2 ص 311) فأشار ، من طرف خفي ، إلى سرقة الكميت ، وبشكل واضح ، إلى تقصيره عن إدراك ذي الرمّة .

الذي يعرضون لـه ، هذا النوع من النقد المتطوّر يرتبط بعصور الإزدهار الفكري ويحتاج ، لكي يظهر ، إلى توافر عناصر أساسية كثيرة أهمّها ، في نظرنا ، ثلاثة : إنّه يحتاج ، قبل كلّ شيء ، إلى المادّة التي يبني عليها ، وهي الأدب الذي يجب أن يتوافر ، انتاجاً وانتشاراً ، وأن يكون بمتناول الناقد نفسه والجمهور الذي يتوجّه إليه هذا الناقد . لذلك لا يمكن البحث عن نقد سليم وموضوعي في عصور الرواية الشفوية حيث يقوم الرواة ، عادة ، بدور النقّاد ، أو يكون النقد متبادلاً بينهم ، لأنّ مادة النقد الأساسية ملك يمينهم . ويغلب على هذا النقد ، حين يوجد ، العنصر الشخصي المتحيّز : إذ قد يؤدّي الإنسياق مع العاطفة والهوى ، في سبيل مبدأ تبنّاه الراوي ، أو موقف يحاول اثبات صحّته ، إلى التزوير والنحل فيما يرويه ، طالما أنّه المصدر الوحيد لما يروى . ونشهد أثراً من ذلك استمرّ إلى أوائل الدولة العبّاسية مع حمّاد الراوية (ت156هـ/772م) وخلف الأحمر (ت180هـ/796م) والمفضّل الضبي (ت178هـ/794م) والأصمعي (ت213هـ/828م) وسواهم الذين تفاوتت مقدرتهم على الاختراع والنحل ، ورغبتهم فيهما ، فتفاوتت الثقة برواياتهم . وفكرة النحل هذه أخذت أبعاداً واسعة ومجالاً كبيراً من البحث والتمحيص مع الطبقة التالية من النقّاد الذين لم يعتمدوا الرواية الشفوية وحدها ، إذ توافرت بين أيديهم المؤلّفات المنسوخة فراحوا يدرسونها محاولين عزل المنحول منها ، وإصدار أحكامهم على رواتها ، معتمدين العقل والمنطق . وهذا ما يقودنا إلى العنصرين الآخرين اللذين افترضناهما أساساً للنقد المتطوّر وهما : توافر القواعد العقلانية التي لا ترسخ عادة إلاّ بعد أن ينفلت العقل الجماعي من عقال البدائية والبساطة ، ويتعامل بعمق مع المنطق وأساليبه التي تصنّف وترتّب وتقارن وتعرض وتستنتج . ثم توافر عنصر الزمن ، لأنّ النقد المقصود لذاته والهادف إلى إبراز جمال نصّ أو إحصاء سقطاته ، لا ينضج إلاّ بعد محاولات لا تحصى ، تبدأ عشوائية أحياناً وغير واضحة أحياناً أُخرى ، وتتتالى في انتقاء وارتقاء حتى تتبلور ، بعد مرور زمن كاف على عصور التدوين والنسخ والنشر وتداول التراث .

ولنا ، بعد هذا التقديم ، أن نتساءل : أين يقع عصر الرشيد من المسيرة التطوريّة للنقد العربي ؟ ونتناول ، في جوابنا ، بعض الظواهر التي تميّز بها العصر . وأوّلها ، في هذا المضمار ، أنّه كان عصر التدوين والجمع للتراث الأدبي ، وبداية عصر التحقيق ؛ ساعد على ذلك أمور أهمّها : الاستقرار الحضاري بعد عصور الفتح والحروب ، وانتشار صناعة الورق ، جنباً إلى جنب ، مع انتشار دكاكين الورّاقين الذين انصرفوا إلى النسخ وجمع الكتب وبيعها للناس ، كما لعبت دكاكينهم دوراً آخر إذ أصبحت أشبه ما تكون بمكتبات تحت تصرّف الشعراء والأدباء يستعيرون منها الكتب ويلتقون فيها ، أحياناً ، يتناشدون ويتناظرون[1] . والظاهرة الثانية التي نسجّلها لعصر الرشيد ، وهي ملازمة

1 يروي ابن المعتزّ ، عن ابن شقيقة الورّاق ، أنّه «كان يجتمع الشعراء في دكّان أبيه ببغداد ، وأنّ أبا العتاهية حضرهم يوماً فتناول دفتراً ووقّع على ظهره ينشد :

للأولى ، تأسيس المكتبات العامة وإعطاؤها دوراً في الرقابة على النقل ، وفي الضبط والنشر . ومنها «خزائن الحكمة» أو «بيوت الحكمة» التي كان من مهمّاتها ، على الأرجح ، فضلاً عن النقل وتفسير الكتب المترجمة ، حفظ نسخ عن المؤلّفات التي تصل إليها يد الخليفة أو التي تهدى إليه أو يغنمها في غزواته . والظاهرة الثالثة لعصر الرشيد ، أنّه كان ، كما مرّ بنا ، عصر جمع الأصول في الفقه والحديث وتنخّلها وتهذيبها على يد الأئمّة المجتهدين ، كما كان عصر جمع اللغة وضبطها وترسيخ قواعدها ، على يد أئمّة اللغويين والنحويين ، وكذلك وضع أسس العروض والبلاغة والبيان . لقد كان منطلق الحركة الأدبية اللغوية منطلق الأصول الفقهيّة ذاته . لأنّ ضبط العربية ، التي هي لغة القرآن ، لا يتمّ إلاّ بضبط الشعر القديم الذي يشكّل مرجعاً قياسيّاً لشرح ما غمض معناه من كلام الله ، وللاجتهاد في تطوير المعاني الظاهرة والخفيّة فيه . ومع أنّ بعض الخلفيّات العنصرية والمذهبيّة رافقت هذه العملية الجبّارة ، ومع أنّ بعض الأهداف السياسية قد تدخّلت في عمليّة النحل والنخل ، أو في التعمية على أشعار لم تصلنا لأنّ رواتها لم يناسبهم أن تدوّن وتصل ، مع هذا كلّه فإنّ عصر الرشيد شهد تدوين معظم الشعر الجاهلي والإسلامي ، مع تفسيره وشرح غوامضه والتعليق عليه من قبل الضبي والكسائي والأصمعي والأحمر النحوي واليزيدي والفرّاء وابن العلاء وغيرهم ، ومعظمهم أمّ البلاط وحضر مجالسه ، مُفرغاً فيها شيئاً من علمه . ولا بدّ من التذكير بأنّ الحركة اللغوية والنقدية التي ابتدأت موازية للعمليّة الفقهيّة ، لم تلبث أن ابتعدت عنها واكتسبت لنفسها حركة ذاتية اتّخذت أبعاداً جديدة مع ظهور المدارس الإقليمية التي شغلت العصر بصراعها وبراهينها وحججها . ومن المعروف أنّه ، في هذه المدارس ، وبين شيوخها ، بدأ التعامل بالمصطلحات النقدية . من هنا الظاهرة الرابعة التي نسجّلها لعصر الرشيد وهي تبلور الأساليب العقلية واشتداد الجدل المنطقي بين أصحاب النظريات المختلفة . أو لعلّ ، في أساس هذه الحركة ، ما ترجم من كتب اليونان وغيرهم في فجر الخلافة العبّاسية[1] ، وما ظلّ يترجم من

أيـا عجبـاً كيـف يُعصـى الإلـ ـــهُ أم كيفَ يَجحَدُهُ الجاحدُ . . . . .

(الأبيات)

فلمّا كان من الغد ، جاء أبو نوّاس فجلس ، فتحدّث ساعة . ووقعت عينه على ذلك الدفتر ، وقرأ الأبيات ، فقال : من صاحبها ؟ لوددت أنّها لي بجميع شعري . . . . فكتب تحتها :

سبحـانَ مَـــنْ خَلَـــقَ الخَلْـــ ـــقَ مـن ضَعفٍ مَهـينِ . . . . . .

(الأبيات)

فلمّا كان الغدّ ، جاء أبو العتاهية ، وقال : لمن هذه الأبيات ؟ لوددت أنّها لي بجميع شعري . . .» (طبقات ابن المعتزّ ص 207) .

1 يذكر المسعودي أنّ بدء الحركة كان مع المنصور «أوّل خليفة ترجمت له الكتب من اللغات الأعجمية إلى العربية ، منها كتاب كليلة ودمنة وكتاب السند هند . وترجمت له كتب أرسطوطاليس في المنطقيّات وغيرها ، وترجم له

هذه الكتب وسواها في أيّام الرشيد حيث أخذ النقل شكله المضبوط ؛ ولئن ساعدت الكتب المترجمة في إعارة المنطق الجدلي للمشتغلين بالنحو والنقد ، فإنّ المناظرات في الدين والفقه والوجود ، التي فرضها المناطقة على المجتمع ، والتي شغلت فئاته جميعها ، المثقّفة منها والجاهلة ، قد حفزت ، لدى الجميع ، رغبة في البحث والموازنة والمقابلة ، على ضوء المنطق والعقل ، لكلّ عنصر من عناصر ثقافة المجتمع ، بما في ذلك الفنون الأدبية .

بعد عرض هذه الظواهر ، أنستطيع القول بوجود نقد أدبي حقيقي أيّام الرشيد ؟ إنّ عصره تهيّأ له عنصران من العناصر الثلاثة الرئيسة التي فرضنا أنّها ضرورية لوجود النقد وارتقائه : لقد توافر له تدوين الأدب ونشره ، وانطلاقة العقل على درب المنطق وأساليبه . إنّما لم يتهيّأ له ، في نظرنا ، العنصر الثالث وهو عنصر الزمن الكافي للنضج ، إذ لم يمرّ على التدوين وتداوله ما يكفي للمحاولات النقدية أن تتحوّل ، تدريجاً ، إلى منهج واضح . لهذا ، فنحن لا نرى في عصر الرشيد مظاهر متطوّرة من النقد . إن هي إلاّ شذرات مبكرة كان عليها أن تنضج فيما بعد . وجلّ هذه الشذرات تتبلور حول محورين رئيسين : أوّلهما : تتبّع المعنى الواحد عند عدّة شعراء تناوبوا عليه ، إمّا بتوارد الخواطر ، وإمّا بالأخذ والتعديل . ولم يكن مرفوضاً أن يتناول الشاعر معنى سبق إليه ، وإن سُمّي عمله سرقة أدبيّة . لكنّه ، إذا ما أخذ المعنى ، وجب عليه أن يكسوه رونقاً يسوّغ سطوه عليه ، كأن يأتي به أكثر شمولاً أو أشدّ وضوحاً ، أو أدقّ تفاصيل أو أحلى صوراً بيانيّة وألفاظاً . وهكذا دواليك[1] . وقد عمد كثير من المؤلّفين ، منذ عصر الرشيد ، إلى افراد فصول ، في مؤلّفاتهم ، لتوارد الخواطر هذا ، أو للسرقات الشعريّة . فتتبّعوا معاني كثيرة عبر العصور وقارنوها موازنين ، مبدين

= كتاب المجسطي لبطليموس وكتاب الأرتيماطيقي وكتاب إقليدس وسائر الكتب القديمة ، من اليونانية والرومية والفهلوية والفارسية والسريانية ، وخرجت إلى الناس ، فنظروا فيها ونقلوا إلى علمها» . (مروج الذهب ج3 ص243) كما يذكر السيوطي أنّ المنصور أوّل خليفة ترجمت له الكتب السريانية والأعجمية إلى العربية (تاريخ الخلفاء ص 269) .

1 يفصّل ابن رشيق خطّة ذلك بقوله : «إنّ المتتبّع ، إذا تناول معنى فأجاده ، بأن يختصره إذا كان طويلاً ، أو يبسطه إذا كان كزّاً ، أو يبيّنه إذا كان غامضاً ، أو يختار له حسن الكلام إذا كان سفسافاً ، أو رشيق الوزن إذا كان جافياً ، فهو أولى به من مبتدعه . وكذلك ، إن قلّبه أو صرفه عن وجهه إلى وجه آخر . .» (العمدة ج2 ص 223) وعند العسكري خطّة مشابهة : «ليس لأحد ، من أصناف القائلين ، غنى عن تناول المعاني ممّن تقدّمهم ، والصبّ على قوالب من سبقهم . ولكن عليهم ، إذا أخذوها ، أن يكسوها ألفاظاً من عندهم ويبرزوها في معارض تأليفهم ، ويوردوها في غير حلّتها الأولى ، ويزيدوا في حسن تأليفها وجودة تركيبها وكمال حليتها ومعرفتها . فإذا فعلوا ذلك فهم أحقّ بها ممّن سَبَق إليها» . (كتاب الصناعتين ص146) وعن الحصري : «إن حق من أخذ معنى سُبق إليه أن يصنعه أجود من صنعة السابق إليه ، أو يزيد عليه حتى يستحقه . وأمّا إذا قصّر عنه فهو مُسيء ، مَعيب بالسرقة ، مذموم على التقصير» . (زهر الآداب ج4 ص 972) .

آراءهم الخاصة فيها . . .[1] والمحور الثاني هو تسمية أشعر الناس أو ذكر أفضل ما قيل في موضوع معيّن أو فنّ من الفنون الأدبية . وعمليّة التسمية هذه لم ينفرد بها عصر الرشيد ، بل لقد تبع من سبقه[2] ، كما لحقه فيها غير عصر بعده . وزعموا أنّ عليّاً بن أبي طالب وجد نفسه مضطرّاً إلى أن يحكم بين الناس في من هو «أشعر الشعراء» . ومع اعتراضه على هذا الأسلوب السطحي في المفاضلة ، أبدى ميلاً إلى تفضيل امرىء القيس «أصحّهم بادرة وأجودهم نادرة»[3] . إنّما ما تميّز به عصر الرشيد في هذا المضمار كان اتّساع رقعة هذه العملية وولع المشتغلين بالأدب ، وسواهم أيضاً ، بلعبة المفاضلة . وكأنّي بالواحد منهم ، خلال بحثه الدائب في حنايا ذاكرته أو في أمالي شيخه أو في دكاكين الورّاقين ، يحظى بالفلذة من شعر الشاعر أو بالقصيدة منه أو بالبيت الواحد يلاقي هوى في نفسه فيبلغ منه الإعجاب مبلغاً يجعله يعتدّه أشعر الناس لذلك[4] . ولا شكّ في أنّ هذا التعميم ، انطلاقاً من جزئية واحدة ، هو من مظاهر البدائية الفكرية ، أو ، على الأقلّ ، ضعف الخبرة في أصول الاستقراء . وغير بعيد أن يأتي يوم آخر على هذا الإنسان ، يكون في وضع نفسي مختلف ، فيجد مَن هو أشعر مِن «أشعر الناس» السابق ، أو يعثر على «أشعر الجنّ والأنس»[5] . وقد تزايد عدد «أشعر الناس»

---

1 على سبيل المثال : العمدة وكتاب الصناعتين ، المذكوران في الهامش السابق . والمثل السائر ص 300 وما بعد ، والمستطرف ج1 ص 60 وما بعد .

2 لقد مارس الناس ذلك منذ الجاهلية . فيروي القرشي عن لبيد أنّه سئل عن أشعر الناس فحكم لأمرىء القيس (جمهرة أشعار العرب ص 20) .

3 الأغاني ج16 ص 297 . وراجع ص 36 هامش 2 من البحث .

4 نذكر ، على سبيل المثال ، بعض أحكام رويت عن لسان من عاصروا الرشيد :
البغدادي عن الزبير بن بكّار أنّ «العبّاس بن الأحنف أشعر أهل زمانه . وقوله :

يَعْتلُّ بالشغل عنّا ، ما يكلّمنا ... والشغلُ للقلب ، ليس الشغلُ للبدنِ

لا أعلم شيئاً من أمور الدنيا ، خيرِها وشرِّها ، إلاّ وهو يصلح أن يُمثّل فيه بهذا النصف الأخير» . (تاريخ بغداد ج12 ص 129 وانظر الأغاني ج8 ص 360) .
كما يروي ابن رشيق عن أحمد بن يحيى قوله : «أعجز بيت قالته العرب ، قول امرىء القيس :

ما يُنكرُ الناسُ ، حينَ نَملِكهمُ ... كانوا عبيداً ، وكنّا نحنُ أربابا

(العمدة ج2 ص 115) .

5 أورد ذلك الأصفهاني عن لسان رجاء بن سلمة : «قلت لسلم الخاسر : مَن أشعر الناس ؟ قال : إن شئتَ أخبرتُك بأشعر الإنس والجنّ . فقلت :إنّما أسألك عن الإنس ، فإن زدتني الجنّ فقد أحسنت . فقال : أشعرهم الذي يقول :

سَكَنٌ يبقى له سَكَنُ ... ما بهذا يؤذِنُ الزَمَنُ

قال : والشعر لأبي العتاهية» . (الأغاني ج4 ص 14) .
وسئل ابن مناذر : من أشعر الناس ؟ فقال : الذي يقول :

والمتفوّقين في القول حتى باتت التسمية مبتذلة ، فقال مروان بن أبي حفصة ساخراً : «الناس والله أشعر الناس»[1] . ولا شكّ في أنّ تخصيص الأفضليّة بفنّ من الفنون الأدبية يشكّل مرحلة من التقدّم البسيط في العمليّة النقدية . هكذا ، وعوضاً عن البحث عن أشعر الناس إطلاقاً ، يقسم الشعر ، بحسب فنونه : فخراً ووصفاً ، مدحاً وهجاء ، غزلاً ورثاء إلخ . . . ولكلّ باب من هذه الأبواب إمارة تحتاج إلى أمير . ولهذا يظهر أشعر بيت في الهجاء أو الفخر أو أشعر الناس غزلاً أو مدحاً وما إلى ذلك[2] . وقد عرف العصر مرحلة أخرى أكثر تقدّماً في تقويم الشعر ، وهي الحكم على الشاعر من خلال النظرة إلى مجموع شعره ، لا من خلال البيت الواحد أو الأبيات أو القصيدة . واعتدّ أشعر الناس من تفوّق في كلّ فنّ من الفنون الأدبية . ولا يحظى باللقب من قصّر انتاجُه الأدبي عن الحجم المعقول الكافي لإعطاء نظرة صحيحة عنه»[3] .

= يـا قمراً أبصـرْتُ في مَأتَـمٍ ينـدُبُ شَجـواً بـين أتـرابِ
يبكـي فيُذْري الدُرَّ من نَرجِسٍ ويلطِـمُ الـوردَ بعُنّـابِ

هذا أشعر الجنّ والأنس ، وقد جاء بالشعر على سجيّته : أعني أبا نواس . (العمدة ج1 ص 200) .

1 يروي ذلك الأصفهاني بالسند عن العتبي : «أنشدنا مروان بن أبي حفصة يوماً شعر زهير ، ثمّ قال : زهير ، والله ، أشعر الناس . ثمّ أنشدنا للأعشى فقال : الأعشى أشعر الناس . ثمّ أنشد شعراً لامرىء القيس فقال : امرؤ القيس أشعر الناس . ثمّ قال : الناس والله أشعر الناس» . ويعلّق الأصفهاني قائلاً : «أي أنّ أشعر الناس من أنشدت له فوجدته قد أجاد ، حتى يُنتقل إلى شعر غيره» . المصدر السابق ج1 ص87 .

2 نسوق على سبيل المثل بعض الأحكام منقولة عن كتب الأدب :
ينقل أبو هلال العسكري : قالوا : أمدح بيت قالته العرب قول حسّان :
يُغشَون حتـى مـا تَهِرُّ كِلابُهـمْ ولا يَسأَلـون عن السَوادِ المقبـلِ
(ديوان المعاني ج1 ص 32) .
وابن رشيق عن دعبل بن علي : أفخر الشعر قول كعب بن مالك :
وببئرِ بدرٍ ، إذ يَـردُّ وجوهَهـمْ جِبريـلُ ، تحتَ لوائِنـا ، ومحمّـدُ
(العمدة ج2 ص 115) .
وله أيضاً عن الأصمعي : أغزل بيت قالته العرب قول امرىء القيس :
ومـا ذَرَفتْ عيناكِ إلاّ لتَضرِبـي بسَهمَيكِ في أعشارِ قلـبٍ مُقتَّـلِ
(المصدر السابق ص 97) .
وأمعن الأصمعي في تفريع مواضيع المفاضلة فقال : «أنعت الناس لمركوب من الإبل عُيينة بن مرداس . وأنعت الناس لحلوب في القصيد : الراعي . وأنعتهم لحلوب في الرجز : ابن لجأ التيمي . . .» (فحولة الشعراء ، ص 36) .

3 قال أبو هلال في ذلك : «سئل بعض العرب عن أشعر الناس فقال : جرير . وذاك أنّ بيوت الشعر أربعة : المديح والإفتخار والغزل والهجاء ، وفي كلّها سبق جرير . . .» (ديوان المعاني ج1 ص 31) ويقول الأصمعي عن الأعشى : «كان خلف لا يقدّم عليه أحداً . قال أبو حاتم : لأنّه قال في كلّ عروض وركب كلّ قافية . . .»

إنّنا ، نحاول ، لدى دراستنا للمجالس النقدية في البلاط ، أن ننطلق من المحورين اللذين عرضناهما لنستكمل تصوّراً عن النهج النقـدي النموذجي لذلك العصر . فنحن ، إذ قدّمنا هذا التمهيد ، إنّما كنّا نهدف إلى رسم إطار نضع داخله صورة عمّا يمكننا تسميته نقداً أدبيّاً في البلاط ، وهذا يتيح لنا إلقاء الضوء على تلك الملامح من البلاط الأدبي ، وأعطاءها حقّها النسبي مقيسة إلى ظروف عصرها لا عصرنا . إنّما ، لا بدّ لنا ، لكي تكتمل الصورة أمامنا ، من حديث قصير عن شخصيّة الرشيد النقدية ، لأنّها أحد المعالم الرئيسة تظهر وتتجلّى في كلّ ناحية من نواحي الصورة ، وفي كلّ زاوية . فالرشيد الأديب كان يتمتّع بالحسّ المرهف والذهن المتوقّد والذوق ، وهي صفات تتكامل لديه في شخصيّة ناقدٍ هاوٍ ، قادر على تمييز الغث من الثمين ، جيّد الشعر من رديئه ، وعلى كشف سقطات أدبيّة وهفوات قد غابت عن بعض محترفي الأدب . وممّا لا شكّ فيـه أنّ احتكاك الرشيد الدائم بأئمّة اللغة والرواية والأدب ، وما يستفيده دائماً من اجتماع الأقطاب في مجلسه ، قد زادا في ثقافته وارهاف ذوقه وفي قدرته على اطلاق الأحكام ، سواء على صعيد المعنى أو على صعيد المبني . ولم يفُتْه التدخّل في أصل إلهام الأديب ، يبحث عن جذوره ، مبيّناً مصادر أخذه ، مقلّداً بذلك أسلوب نقّاد عصره .

النقد الأدبي في مجالس البلاط

بعدما قدّمناه ، لسنا ندّعي أنّ بلاط الرشيد شهد مجالس نقد أدبي بالمعنى المعروف لدينا : لقد قامت مجالس كان فيها النتاج الأدبي موضوع بحث وتقويم ، وأعطى الرشيد رأيه فيها ؛ وأحياناً كانت له الكلمة الأخيرة بين الآراء ، لكن ذلك كلّه لم يتعدّ هذه الحدود . والأمر طبيعي بالنسبة إلى عصر الرشيد الذي تحدّثنا عنه ، وبالنسبة إلى ثقافة الرشيد التي هي ثقافة هاوٍ ، كما أسلفنا ، لأنّها ، أيّاً بلغت من العمق والاتساع ، تبقى دون ما تحتاجه عمليّة النقد من استقصاء ، كما أنّ انغلاق الرشيد على أساليب المتكلّمين وجدل أصحاب المنطق أبعده عن النقد العقلاني . . . . ذوق الرشيد هو الذي كان في يقظة مستمرّة تشحذه همّة البحث عن المعرفة والمتعة الجمالية ، وهو محور الشذرات النقدية التي صدرت عنه . . . إنّما البلاط كان أيضاً يحفل بأئمّة اللغة والأدب ، وهؤلاء أدلوا بدلوهم كاملاً في مجالس البلاط وإن كانت مواقفهم ، شأن كلّ من يتّصل بالقصور ، تبقى رهن إرادة أصحابها ، مائلة مع أهوائهم . ونعرض ، فيما يلي ، نماذج من هذه المجالس مستوحين المحورين اللذين تبلور حولهما النقد في ذلك العصر ، وهما : مصادر وحي الشاعر وأحسن ما قيل ، وننتقل بعدهما إلى محاور خاصة بالبلاط ، استكمالاً للبحث .

= (فحولة الشعراء ص 21) كما قـال أبو زيد القرشي : «قال الذين قدّموا الأعشى ، هو أمدحهم للملوك وأوصفهم للخمر وأغزرهم شعراً وأحسنهم قريضاً . . .» (جمهرة أشعار العرب ص 38) وفي مقارنة بين بشّار ومروان يقول الأصمعي : «إنّ بشاراً أكثر فنون شعر ، وأقوى على التصرّف ، وأغزر وأكثر بديعاً» . (الموشّح ص 186) .

أوّلاً : مصادر وحي الشاعر : أو أصل السرقات الشعرية . فالمعنى الواحد قد يرد إلى ذهن غير شاعر واحد في غير زمن واحد ، بتوارد الخواطر أو بعملية لا واعية من اللاشعور ، أو عن قصد وتصميم . والبحث عن مصدر الوحي الذي شغل عصر الرشيد وما قبله وبعده من العصور ، كان لا بدّ له من ارتياد البلاط مع أقطابه الباحثين فيه ومن أبرزهم الأصمعي الذي يقول : «دخلت على الرشيد ، وهو ينظر إلى شيبه في المرآة فأنشدته :

والشيبُ ، إن يَحلُـلْ ، فإنَّ وراءه عُمـراً يكـون خِلالَـه مُتَنفَّسُ
لم ينتَقصْ منّـي المشيبُ قُلامـةً آلآنَ ، حـينَ بَـدا ، أَلَبُّ وأَكْيَسُ[1]

فقال : ما صنع شيئاً ، إنّما أخذه من قول امرىء القيس :

ألا إنَّ ، بعدَ العُدم للمرءِ ، قِنوةً ، وبعدَ المشيبِ ، طولَ عمرٍ ومَلبسا[2]

فسجّل الرشيد بذلك نقطة على أستاذ ، في ميدان اختصاصه . ونحن لا نستغرب هذه المبادرة من الرشيد في الشيب وتذكّر الصبا ، لأنّ هذا الموضوع كان شاغلاً له بعد أن تجاوز فترة الشباب . وقد عرف الشعراء عنه ذلك فركّزوا عليه في أشعارهم . وأختيار الأصمعي للبيتين يدلّ على وعيه الوضع النفسي الذي يعانيه الرشيد : فهو خليفة عظيم ، تملك يمينه ألوف الجواري الحسان ، وله فيهنّ رغبة ، بل رغبات . فهل يسهل عليه الاقتناع بأنّ نجاحه معهنّ ، كرجل ، ينتهي بسبب تسرّب البياض إلى بعض شعر رأسه ؟ وأنّ إقبالهنّ عليه مجاملةُ جَوارٍ لخليفةٍ كبير ؟ بالطبع لا ، فهو كان يميل إلى الاقتناع بأنّ الشيب لا ينقص الرجولة ، بل يركّزها ويبرزها ، وتلك محاولة طبيعية للدفاع عن النفس ، يصحبها كل برهان تقع عليه عيناه أو تسمعه أذناه . من هنا تقصّيه لهذه المعاني في الشيب وتسرّبها إلى كثير من قصائد شعرائه[3] . وحين بلغ الرشيدَ قولُ أبي نوّاس :

---

1 لعلّ هنا نقصاً في النسخ فيكون الأصل : «أنا الآن» وقد يكون الشاعر عمد إلى ادغام الكلمتين حاذفاً نون «أنا» للتخفيف فأصبحتا آ لآن .

2 سمط اللآلي في شرح أمالي القالي ص 337 وأمالي القالي ج1 ص 112 .

3 من أبرز ذلك قصيدة منصور النمري العينية ومطلعها :

ما تنقضي حسرةٌ منّي ولا جَزَعُ إذا ذَكرتُ شَباباً ليس يَرتجِـعُ

زهر الآداب ج3 ص 668 . ويقول عنها ابن المعتزّ : «وقد أقام القيامة في تشبيب هذه القصيدة بالشباب» . (طبقات الشعراء ص 245 وانظر الأغاني ج18 ص 146 وج 13 ص 151) كما يروي الأصفهاني بالسند عن إسحاق الموصلي قوله : «غنّيتُ الرشيدَ يوماً :

هما فتاتانِ ، لمّا يَعرِفـا خُلُقـي وبالشبـابِ ، على شَيبي ، يُدِلاّنِ

فطرب وأمر لي بألف دينار» . (الأغاني ج11 ص 340) .

وكذلك تعرّض أشجع السلمي للمعنى في مطلع قصيدته :

تذكَّرَ عهدَ البِيضِ ، وهْوَ لها تِربُ وأيّامَ يُصبي الغانياتِ ولا يَصبو

يقولونَ : في الشيبِ الوقارُ لأهلِهِ وشيبي ، بحمـدِ اللهِ ، غيرُ وَقـارِ

«أنكر هذا البيت وقال للفضل : قل لهذا الماجن : أتقول إن الشيب غير وقار ، وهذا رسول الله ﷺ يقول : لا يشيب المؤمن في الإسلام إلاّ كان ذلك حجاباً له من النار ؟»[1] . كما سُجّلت له سورة غضب على عُلّويه إذ غنّاه عن تغيّر نظرة النساء نحو من دبّ الشيب إلى رأسه[2] ؛ وبالمقابل فإنّه حين وصل النمري في إنشاد قصيدته العينية إلى هذا البيت :

قد كدتَ تَقضي ، على فَوْتِ الشبابِ ، أسًى لـــولا تَعزّيـــكَ أنّ الأمـــرَ مُنْقَطِعُ

«بكى الرشيد وقال : ما خيرُ دنيا لا تخطرُ فيها ببُرد الشبابِ ؟»[3] ومن الأقطاب الذين دخل معهم الرشيد في نقاش نقدي أشجع السلمي ، وسجّل الرشيد عليه ، هو الآخر ، نقطة في تحديد مصادر الإلهام . فقد قال الصولي في الورقات ، يسنده إلى أشجع : «إنّ الرشيد قال لي : من أين أخذت قولك :

وعَلى عَـــدُوِّكَ يـا ابنَ عَمِّ مُحمّدٍ رَصَدانِ : ضوءُ الصُبحِ والإظلامُ

= (المصدر نفسه ج18 ص 144) .

ومثله فعل أحمد بن سيّار الجرجاني في قصيدته : «زَمَنٌ بأعلى الرقمتين قصيرُ»

حيث يقول : لا تبعُـدِ الأيّـامُ إذ وَرَقُ الصِّبـا خضِلٌ وإذ غَـضُّ الشبابِ نَضيرُ

ويعلّق الجرجاني قائلاً عن الرشيد : «فاستحسن هذا البيت . . .» (المصدر السابق ص 145) . وانظر ص 87 هامش 4 وص 521 من البحث .

1 حاشية الديوان ص 435 .

2 ذكر الأصفهاني أنّ عُلويّةِ غنّى الرشيد :

يَجحدْنَ دَيني بالنهـارِ وأَقتضي دَيني إذا وَقَـذَ النُعـاسُ الرُقَّـــدا

وأرى الغواني لا يُواصِلْنَ امـرَءاً فَقَدَ الشبابَ ، وقد يَصِلْنَ الأمردا

فدعا به الرشيد وشتمه وقال له : «أتغني في مدح المرد وذمّ الشَيب وستارتي منصوبة وقد شبتُ ، وكأنّك تعرّض بي ؟ ثمّ دعا مسروراً فأمره أن يأخذ بيده فيضربه ثلاثين درة ويخرجه من مجلسه» . (الأغاني ج5 ص 227) . وانظر ص 112 هامش 2 من البحث .

3 الحصري ، زهر الآداب ج3 ص 668 ويضيف أنّ الرشيد أنشد متمثّلاً :

أَتَـأْمَلُ رَحبَـةً الدنيـا سَفاهـاً وقـد صار الشبابُ إلى ذَهـــابِ

فليـتَ الباكيـاتِ بكُـلِّ أرضٍ جُمعـنَ لنا فَنُحْـنَ على الشَبـابِ

انظر ص 87 هامش 4 من البحث . وقريب من هذا استحسان الرشيد لبيت أحمد بن سيار الجرجاني (أعلاه) :

لا تبعُـدِ الأيّام إذ ورقُ الصِّبـا خضِلٌ وإذ غـضُ الشبابِ نضيرُ

حتى إن الفضل بن الربيع طلب القصيدة من ابن الجرجاني ليحفِّظها جواري الرشيد «من استحسانه إيّاها» . (الأغاني ج18 ص 145) .

فإذا تَنَبَّـهَ رُعتَـهُ ، وإذا غَفـا   سَلَّتْ عليـهِ سيوفَـكَ الأحلامُ ،

فقلت : لا أكذب والله ، من قول النابغة :

فإنّكَ كالليلِ الذي هـو مُدرِكي   وإن خِلتُ أنّ المنتأى عنكَ واسعُ

فقال : صه ، هو عندي من كلام الأخطل لعبد الملك بن مروان ، وقد قال له : أنا مُجيرك من الجَحّاف ، فقال : من يجيرني منه إذا نمتَ ؟»[1] . ولا نستغرب هذا الحكم أيضاً للرشيد لأنّه يتعلّق باختصاصه : كلام الملوك . وقد كان يتتبّع هذا النوع من الثقافة تتبّعاً دقيقاً . ومن الطبيعي أن يكون وقع على هذا القول بعد أن قال أشجع قصيدته فوجده ينطبق على معنى البيتين ، فعمد إلى امتحانه فيه . فكان سؤاله ، وكان جواب أشجع ، وتعليق الرشيد .

ومن أقطاب البلاط أيضاً سهل بن هارون . وقد دخل يوماً على الرشيد وهو يضاحك ابنه المأمون . فقال سهل : اللهمّ زده من الخيرات ، وابسط له من البركات حتى يكون كلُّ يوم من أيّامه موفياً على أمسه ، مقصّراً عن غده . فقال له الرشيد : يا سهل ، من روى من الشعر أفصحه ومن الحديث أوضحه ، إذا رام معنى لم يعجزه . قال :

يا أمير المؤمنين ، ما أعلم أحداً سبقني إلى هذا المعنى . قال : بلى ، سبقك أعشى همدان حيث يقول :

رأيتُكَ أمسِ خيرَ بني مَعَـدٍّ   وأنتَ ، اليومَ ، خيرٌ منكَ أمسِ
وأنتَ غداً تَزيدُ الضِعفَ خيراً   كذاك تَزيدُ سادةُ عبدِ شمسِ[2]

ونشير إلى أنّ مجالس الأدب والنقد في البلاط لم تكن دائماً معزولة عن المجالس خارجه ، طالما أنّ أقطابها هم شيوخ حلقات المجالس ، أو روّادها ، أو شعراء القبّة . ولقد سبقت لنا إشارة إلى مناظرات أدبية تبدأ خارج البلاط وتنتهي في أحد المجالس . ونذكر هنا العملية العكسيّة مشيرين إلى مجالس نقديّة تبدأ في البلاط وتنتهي خارجه . من ذلك مجلس تتّبع سرقات شعرية بدأ بسؤال الرشيد أبا نواس ، بحضور مسلم بن الوليد والأصمعي : «ما أحدثتَ بعدنا ، يا أبا نواس ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، ولو في الخمر ؟ قال : قاتلك الله ، ولو في الخمر . فأنشد :

يا شقيقَ النفس من حَكَمٍ . . . . . حتى أتى على آخرها . فقال : أحسنت . يا غلام ، اعطه عشرة آلاف درهم وعشر خلع . فأخذها وخرج . «وتحرّكت عداوة أبناء المهنة في مسلم بن الوليد . ولأمرٍ ما لم يجرؤ على الكلام بحضرة الرشيد . ولكن ، عندما أصبح والأصمعي خارج القصر قال مسلم : «ألم تر يا أبا سعيد إلى الحسن بن هانىء كيف سرق شعري وأخذ به مالاً وخِلعاً ؟» فأوقع مسلم نفسه بين يدي الأصمعي . فتساءل هذا متحدّياً : وأيّ معنى سرق ؟ فكان الجواب : فتمشّت في

---

1 البغدادي ــ خزانة الأدب ج1 ص 205 وانظر الكامل للمبرد ج1 ص 298 .

2 العقد الفريد ج5 ص 339 .

مفاصلهم . . . . أخذه من قولي :

. . . . تَجري مَحَبّتُها في قَلبِ وامِقِها جَرْيَ السلامــةِ في أعضاءِ مُنتكِسِ

وبدأ هنا مجلس هامشي يتتبّع هذا المعنى صعداً . فإذا مسلم قد أخذه ، وإن أنكر ، عن عمر بن أبي ربيعة في قوله :

. . . . لقد دبّ الهوى لكِ في فؤادي دبيـــبَ دمِ الحيـــاةِ إلى العـــروقِ

وعمر أخذه من بعض العذريين حيث يقول :

وأُشرِبَ قلبـي حبَّهـا ومشى بها كَمَشْيِ حُمَيّا الكأسِ في عقلِ شاربِ

ودَبَّ هواهـــا في عظامـــي وحبُّهـا كما دَبَّ في المَلسوعِ سُمُّ العَقاربِ

وهذا البدوي نفسه قد أخذ معناه من أسقف نجران حيث يقول في الشمس :

تَجـري عـــلى كَبْـدِ السمـــاءِ كما يَجـري حِمـامُ المـوتِ في النَفْسِ[1]

ثانياً : البحث عن «أحسن ما قيل» في موضوع معيّن

جرياً على عادة القصر في البحث عن الأفضل ، دار كثير من مجالس البلاط حول تسمية الشاعر المتفوّق أو البيت المميز في أحد الميادين الأدبية . من ذلك سؤال الرشيد جلساءه عن أفخر بيت مُدح به الخلفاء من الأمويّين والعبّاسيّين ، واختياره شعر الأخطل في عبد الملك بن مروان : شمس العداوة . . .[2] وسأل الرشيد يوماً جلساءه عن أفضل ما قيل في وصف العُقاب . فعجز الحاضرون عن الجواب باستثناء الأصمعي[3] . كما سأل إسحاق بن إبراهيم الموصلي عن أحسن ما قيل من عِتاب محبّ وهو ظالم متعتّب ، فأجاب إسحاق بأبيات لجميل بثينة أعجبت الرشيد فحفظها[4] . وذات مرّة استنشد جلساءه أحسن شعر في امرأة خَفِرة كريمة وأعجبه ، من بين ما أنشدوا ، أبياتُ محمد بن بشير الخارجي[5] . وحين أقام حواراً مع العبّاس بن الأحنف حول أرقّ بيت قالته العرب اعترف له العبّاس بالسبق في هذا الميدان[6] . وحين ناظر إسحاق الموصلي في أحسن ما قيل في رياضة النفس على الفراق كان له رأيه الشخصي وأبيات يحفظها دليلاً عليه[7] . ونحن نلاحظ من عرضنا للموضوعات

---

1 الكشكول ج2 ص 213 ونحن لا نستبعد أن تكون الإضافة ، وهي مروية على لسان الأصمعي ، قد زيدت إلى الخبر ، مأخوذة من مناسبة أُخرى ، ألحقت بالمجلس استقصاء واستكمالاً واستثارة لاهتمام السامع ومتعته . ومع ذلك أوردناها لأنّها ا نموذج لما نتحدّث عنه من تداول المعنى بين أجيال الشعراء .

2 الأغاني ج11 ص 61 .

3 ديوان المعاني ج2 ص 142 . انظر ص 186 من البحث .

4 الأغاني ج8 ص 147 . راجع ص 185 من البحث .

5 المصدر السابق ج16 ص 70 راجع ص 185 من البحث .

6 تاريخ بغداد ج14 ص 11 راجع ص 177 من البحث .

7 المصدر السابق ج4 ص 1008 راجع ص 177 من البحث .

السابقة أنّ التفريع الذي ينجم عن الإستقصاء والبحث في «الأفضليات» كان له طريق إلى البلاط . فعوضاً عن الاكتفاء بأفضل شعر في الوصف تفرّع البحث إلى أحسن ما قيل في وصف هذه الحالة أو تلك ، هذا الحيوان أو ذاك ، من العُقاب إلى الفرس فإلى الذئب . إذ دار برأس الرشيد في أحد المجالس السؤال التالي : ما هو أحسن ما قيل في وصف الذئب ؟ ولّما كان المفضّل الضبي حاضراً فقد كان عليه الإجابة ووعده الرشيد ، إذا أصاب ما في نفسه ، أن يهبه خاتماً كان بيده ، شراؤه ستمئة دينار . فقال المفضّل على الفور :

يَنامُ بإحدى مقلتيـهِ ويتّقي ‏ ‏ ‏ بأُخرى المنايا ، فهو يقظانُ هاجعُ

وكان اختياراً موفّقاً ، أعجب الرشيد فقال مازحاً : «ما ألقي هذا على لسانك إلاّ لذهاب الخاتم . وحلق به إليه»[1] . وكما سأل الرشيد عن أفخر بيت وأمدح بيت كان من الطبيعي تحديد أهجى بيت قالته العرب . وفي رأيه أنّ البيت المطلوب هو من نظم أبي نوّاس :

ومـــا رَوَّحتَنـا لتـــذُبَّ عنّا ‏ ‏ ‏ ولكن خِفتَ مرزِئَةَ الذئابِ

فكان يعلّق عليه قائلاً : «لم يُهجَ بادٍ ولا حاضرٌ بمثل هذا الهجاء»[2] .

وإذا كنّا قد عرضنا عرضاً سريعاً المواقف السابقة فلأنها لمحات جاءت في ثنايا أخبار تناولناها في فصول متقدّمة . إنما المفاضلة كانت موضوعاً لمجالس حقيقية تميّزت روايتها بإبراز وجهات نظر مختلفة أو متفقة ، ونتناولها فيما يلي بتفصيل أوفى . من هذه المجالس مفاضلة جرت في موضوع : رقّة الشعر بين المدينّيين وسكّان البادية ، في إحدى جلسات السمر التي أحياها عَبْثَر المغني . . . وعبثر «كان فصيحاً متأدباً عليّ الشعر» . فحين أنشد أحدُ الجلساء أبيات ابن الدمينة :

وأذكرُ أيـامَ الحِمـى ثـم أنثني ‏ ‏ ‏ على كَبِدي مـن خَشيةٍ أنْ تَصَدَّعا

وليست عشيّاتُ الحمـى بِرَواجعٍ ‏ ‏ ‏ عليكَ ولكن خَـلِّ عينيك تَدمَعا

بَكَتْ عينيَ اليُمنى ، فلما زَجَرتُها ، ‏ ‏ ‏ عن الجَهلِ بعدَ الحِلمِ ، أسبَلَتا معا

«أعجب الرشيد برقة الشعر» . إلا أن عبثرا المغنّي الأديب كان له رأي آخر ، وإن لم ينكر ما ينساب من رقة خلال هذه الأبيات . فقرّظها بأسلوبه الأنيق الذي خوّله أن يكون مسامراً لا مجرّد مطرب فقال : «إن هذا الشعر مديني رقيق قد غُذي بماء العقيق حتى رقّ وصفا فصار أصفى من الهواء» . إنما هو لا يزيد رقّة عن شعر بعض البدو . هكذا ، وببراعة قصوى ، اجتذب اهتمام الرشيد إلى ما يريد ، فلو شاء أمير المؤمنين لأنشده «ما هو أرق من هذا وأحلى ، وأصلب وأقوى ، لرجل من أهل البادية . قال : فإني أشاء ؛ فقال مترنّماً بشعر لجرير :

---

1 الأغاني ج 11 ص 61 .

2 ابن الأثير ـ المثل السائر ص 147 .

إن الذيـــنَ غَــدَوا بِلُبِّكَ غادروا وَشلاً بعينِـكَ مـا يَــزالُ مَعينا
غَيَّضنَ مِـــن عَبَراتِهِنّ وقُـلْـنَ لِي مــاذا لَقِيتَ مِـن الهـوى ولَقينا ؟

قال الرشيد : «صدقت يا عبثر . وخلع عليه وأجازه»[1] . وفي هذه المناظرة لم تكن المواقف ولا وجهات النظر متناقضة . إنما مناظرة الرشيد التالية لإسحاق الموصلي في المفاضلة بين أبي العتاهية والعبّاس بن الأحنف جرت من منطلقين متناقضين : ميل الرشيد المعروف إلى أبي العتاهية ، وتحامل عليه معروف عند إسحاق . يقول إسحاق : «دخلتُ على الرشيد فقال لي ابتداءً : أيُهما أشعر عندك ؟ العبّاس بن الأحنف أو أبو العتاهية ؟» وهذا السؤال المباشر في موضوع عُرف فيه موقف إسحاق دليل على أن الرشيد كان يقصد المواجهة ويتحدّى ليناظر . ويتابع إسحاق : فعلمت الذي يريد . فأطرقت كأني متثبّت ، ثم قلت : أبو العتاهية أشعر ، قال : أنشدني لهذا ولهذا ، قلت : فبأيهما أبدأ ؟ قال بالعبّاس . قال : فأنشدته أجوَد ما أرويه للعبّاس ، وهو قوله :

أُحــرِمُ مَنكـــمُ بما أَقولُ وقدْ نــالَ بــه العاشقون مــا عشِقوا
صِـرتُ كأني ذُبالــةٌ نُصِبَــتْ تُضــيءُ للناسِ ، وَهْــيَ تَحتَرِقُ

فقال لي : أحسن . فأنشدني لأبي العتاهية ؛ فأنشدته أضعف ما أقدر عليه . وهو قوله :

كأنّ عتّابــةَ ، في حُسنِهـــا ، دُميـــةُ قَسٍّ فَتَنــت قَسَّهــا

وعرف الرشيد خطّة إسحاق فردّ بعنف قائلاً : أتعيِّره هذا ؟ فأين أنت من قوله :

قـــال لي أحمدٌ ، ولم يَدْرِ ما بي ، أتُحِـبُّ الغــداةَ ، عُتبــةَ حقّا ؟
فتنفّستُ ، ثــم قلــتُ : نعــم حُبّاً جَرَى ، في العروقِ ، عِرقاً فَعِرقا

ويحك : أتعرف لأحد مثل هذا ؟ أو تعرف أحداً سبقه إلى قوله : فتنفّست . ثمّ قلت : كذا وكذا ؟ اذهب ، ويحك ، فاحفظها»[2] . والرشيد كان يرى خمريات أبي نوّاس قمّة الإبداع في هذا الفن ، وقد خالفه جعفر في ذلك لأسباب لا نعلمها ، قد تكون هجاء أبي نوّاس للبرامكة ، ولجعفر بخاصة ، ومدحه للفضل بن الربيع . وقد تجادل الرشيد وجعفر في هذا الموضوع . وفيما هما كذلك ، دخل إسحاق الموصلي . فلما بصر به الرشيد قال لجعفر : «أترضى بإسحاق ؟» . فردّ جعفر : «والله ما في علمه مطعن ، إن أنصف» . وكأن جعفراً كان يعرف ميلاً في إسحاق لإرضاء الرشيد . وكان إسحاق في موقف دقيق حين سأله الرشيد أن ينشده أفضل ما يعرف مما قاله المحدثون في الخمر . وكان خوفه من أن يخالف أحد المتناظرين حافزاً له على المداورة . فقد عدل عن أبي نواس وقال : لقد أحسن أشجع في قوله :

---

1 العقد الفريد ج 6 ص 33 .

2 الأغاني _ ج8 ص 374 .

ولقـد طعنـتُ الليـلَ في أعجازِهِ بالكأسِ بين غَطارِفٍ كالأنجُمِ . . .
(الأبيات)

فقال الرشيد : «قد عرفتُ تعصّبك على أبي نواس وأنك عدلت عنه متعمّداً . ولقد أحسن أشجع ، ولكنه لا يقول أبداً مثل قولي أبي نوّاس :

يـا شقيـقَ النفسِ مـن حَكَمٍ نِمـتَ عن ليلي ولم أنَـمِ . . .[1]

فقال إسحاق : «إنما أنشدتُ ما حَضَرني . فقال : حسبك ، قد علمتَ الجواب» .

هكذا تظهر لنا حقيقة معروفة ، وهي أن النقد غالباً ما يشوبه هوى إنساني ـ وما أصعب أن تتلاقى أهواء الناس ، وأن مناظرات البلاط لا تشذّ عن هذه القاعدة ، وليست فيها دائماً موضوعية النقد ولا استقصاؤه ، إنما تنتهي ، كما ينتهي كلُّ حديث هناك ، حين يدلي صاحب البلاط برأيه أو بحكمه .

ثالثاً : مجلس نقد طويل

ونقصد به المجلس الذي تهيّأت له جميع العناصر النظرية من فريقين يتبنّى كلٌّ منهما وجهةَ نظرٍ خاصة به ، إلى حكَم يزن ويقارن ويطلق الأحكام ، إلى تولّد أفكار نتيجة الطرح والرد والوزن والمقارنة . وهذا المظهر نادر في الروايات عن بلاط الرشيد إذ أن معظم كتب الأدب المؤلفة في ذلك العصر وبعده كانت تسعى وراء الشاهد الأدبي ووراء الطرفة والتنويع ، ونادراً ما كانت تستقصي نقاشاً أدبياً أو جدلاً نقدياً . والنادر الذي وصلنا عن مجالس طويلة جاء مروياً عن الأصمعي ، وهو أحد أبطاله ، يهدف من الرواية إلى إبراز موقف له من الرشيد أو بالعكس ، مستخدماً لروايته كل ما تمتّع به من قدرة على التزويق والتشويق . ولقد رأينا نموذجاً لمجلس أدبي طويل أثناء حديثنا عن مجالس الامتحان واتصال الأصمعي بالبلاط للمرة الأولى . ورأينا نموذجاً آخر أثناء حديثنا عن مجالس المناظرات الأدبية وما قام بين الرشيد ووزرائه البرامكة من تنافس في أحد هذه المجالس . ونحن الآن نعود إلى هذا المجلس بالذات[2] للنظر إليه من ناحية النقد الأدبي الذي حفل به . ولا بدّ لنا أولاً من أن نعيد إلى الذهن ما أوردناه في حينه عن رأينا في واقعية هذا المجلس ، ونعود لتأكيد أن الشك يرقى دائماً إلى تفاصيل الرواية التي تتناقلها الألسن قبل أن تتداولها الأيدي نسخاً وكتابة ، وإلى أسلوب التعبير وما يبرزه من خلفيّات تكشف عادة مواقف الراوي ، إنما نستبعد الشك عن المبادىء الأساسية التي تحفل بها الرواية ، خصوصاً إذا كان لها صدى في غير مرجع أدبي واحد . وحُجّتنا في ذلك أن الراوي المعاصر لأحداثها ، حين يمليها على عصره ، لا يمكن لهذا العصر أن يتقبّلها ويحفظها إذا لم تكن ممكنة الحدوث معقولـة . فإذا اكتسبت هذه الميزة كانت ، بلا شك ، معبّرة عن واقع

---

1 المصدر السابق ج 18 ص 150 ومعاهد التنصيص ج 4 ص 67 .

2 أورده الشريشي في «شرح مقامات الحريري» ج 2 ص 279 .

معروف ومقبول . ولمّا كنّا ، في أيّامنا التي بعدت جدًّا عن عصر الرشيد ، نحاول أن نتلّمس ملامحه تلمّساً ، ويهمّنا تحديد التيّارات التي حفل بها أكثر من تحديد تفاصيل الأقوال ، فإننا لا نُعنَى بهذه التفاصيل إلاّ لنستشفّ منها تلك التيّارات ، طالما أنها رويت في العصر نفسه أو في عصر قريب منه ، أي أقرب منّا إلى معالمه المنظورة والخفيّة .

ونذكّر بأن موضوع المجلس كان «أشعر بيت قالته العرب في التشبيه»[1] ، وأن الرشيد ووزراءه كانوا قطبي الإنشاد والتنافس فيه ، بينما الأصمعي رُشح ليلعب دور الحَكَم ، وكان قطبَ النقد الأوحد : قَوَّم ما أُنشد أمامه ، وانتقد ما وَجد فيه مجالاً للنقد ، وأثنى على ما استحسن ، وأدرك فيما بين هذا وذاك رواية طريفة أو مبدأ نقديا[2] . وأول مبدأ أرساه الأصمعي هو اعتراضه على موضوع المجلس : «أشعر بيت في الوصف» لأن اختيار بيت واحد ، من بين جميع ما قيل من شعر عربي ، يكون جامعاً لمثالية الوصف ، شاملاً لتطلّعات أمةٍ معظمُ إنتاجها الأدبي وصفي ، أمر مستحيل[3] . إنما يمكن استكناه ذلك من عدة أبيات للشاعر الواحد . وفي رأيه أن ذلك يتوافر لامريء القيس في أبياته المشهورة .

كأنَّ قلــوبَ الطيرِ رَطباً ويابساً ، لدى وَكرِها ، العُنّابُ والحَشَفُ البالي[4]
كأن عيــونَ الوحش ، حول خِبائِنا ، وأرحُلِنــا ، الجَـزْعُ الذي لم يُثَقَّبِ
ولــو عَـنْ نثـا غيرِهِ جـاءني ، وجــرحُ اللسانِ كجُـرحِ اليدِ
سموتُ إليهــا بعدمـا نـامَ أهلُها ، سُموَّ حَبابِ المـاءِ حــالاً على حالِ

والناظر إلى اختيار الأصمعي للأبيات ، وتنوّعها ، يرى أنها تكاد تُلمّ بمختلف الملامح الحضارية لحياة العرب في الصحراء . ففي البيت الأول يتناول ثمار الصحراء ، وفي البيت الثاني أدوات زينة النساء ، وفي البيت الثالث تجربة إنسانية وحكمة ، وفي البيت الرابع حركة الماء في الغدير تبدأ من القاع فقاقيعَ تتصاعد لتتلاشى على السطح . وكأن الأصمعي أراد أن يثبت الأولوية لامريء القيس كشاعر ، لا لبيت واحد من شعره ؛ ولذلك اختار عدّة أبيات يشكّل مجموعها أبرز المعالم في حياة شعبه . ولكن الرشيد بقي مصمّماً على البحث عن البيت النموذجي الواحد أو

---

1 الشريشي ، شرح المقامات ـ ج 2 ص 279–283 .

2 من أجل ذلك نهتم بالمجلس في هذا الفصل مشيرين إلى أن المبادىء التي تُقبل في البلاط هي التي يتبناها صاحب البلاط ، صراحة أو ضمناً . وأن أسلوب المناقشة فيه هو أحد وجوه أسلوب العصر .

3 فيما يلي قول الأصمعي : «إن التعيين على بيت واحد ، في نوع واحد ، قد وسّعت العرب فيه وجعلته معلماً لأفكارها ومستراحاً لخواطرها ، لبعيد أن يقع النص عليه» .

4 يذكر العسكري هذا البيت وأن الأصمعي أنشده أمام الرشيد ، شاهداً على أحسن ما قيل في وصف العُقاب . (ديوان المعاني ج 2 ص 142) .

المعنى الوصفي الواحد . ورأى الأصمعي أن القريب إلى ذلك وصف امرىء القيس للفرس :

كأنّ تَشَوُّفَهُ بالضُحى تَشَوُّفُ أزرقَ ذي مِخلبِ
إذا قَرَعَتْه جِلالٌ له تقولُ : سُلبتَ ، ولم تُسلبِ

ولكن الرشيد كان قد اتخذ قراره فوجد الأحسنَ وصفاً آخر للفرس لامرىء القيس أيضاً :

فَرُحْنا بِكابْنِ الماء يُجنَب وسْطنا تَصَوَّبُ فيه العينُ طوراً وتَرتَقي

والمبدأ الثاني يتعلّق بمعيار تمييز التشبيه الجيد من الرديء . فالتشبيه الجيّد هو المترفّع عن الابتذال . والمقصود بالابتذال اللجوء إلى مسمّيات غير مستحبّة ، أو مسمّيات لها وجه آخر غير الوجه الجمالي الذي به تدخل التشبيه . ويتبيّن ذلك من نقده لشعر النابغة الذي أنشده يحيى :

نَظَرَتْ إليكَ بحاجةٍ لم تَقضِها نَظَرَ السقيمِ إلى وجوهِ العُوَّدِ

فقال : أما تشبيهه مرض الطرف فحسن ، إلاّ أنه هجّنه بذكره العلة وتشبيهه المرأة بالعليل . وأحسن منه قول عدي بن الرقاع العاملي :

وكأنّها ، بينَ النِساءِ ، أعارَها عينيه أحورُ مِنْ جآذِرِ جاسمِ[1]

ورأي الأصمعي في بيت النابغة ثابت في غير مرجع أدبي ، بعضها يجعله يرويه عن أبي عمرو بن العلاء ، كما فعل العسكري في ديوان المعاني[2] ، وبعضها يجعله يقوله في أحد مجالس الرشيد ، كما فعل ابن رشيق[3] ، وهذا يؤكّد ما ذهبنا إليه سابقاً من أن المبادىء التي ترد في الخبر هي ، غالباً ، صحيحة ، وإن ارتقى الشك إلى التفاصيل .

---

1 الشريشي ـ شرح المقامات ـ ج 2 ص 279 .

2 يقول أبو هلال العسكري تحت عنوان «أحسن ما قيل في العيون» : «أخبرنا أبو بكر بن دريد عن أبي حاتم عن الأصمعي قال : قال أبو عمرو لأصحابه : ما أحسنُ ما قيل في العيون ؟ قال بعضهم : قول جرير : إن العيون التي في طرفها حور . . . . وقال آخر : قول ذي الرمة : وعينان قال اللّه كونا فكانتا . . . . وقال آخر : بل قوله : يذكّرني مياً من الظبي عينه . . . فقال أبو عمرو : أحسن من هذا كلّه قول عدي بن الرقاع : وكأنها بين النساء . . . .

وَسْنانُ أَقصَدَه النُعاسُ فرنّقتْ في عينِهِ سِنَةٌ وليسَ بنائِمِ

(ديوان المعاني ج 1 ص 235) .

3 يقول ابن رشيق : «عاب الأصمعيُ بين يدي الرشيد قولَ النابغة : نظرت إليك بحاجة . . . على أنه تشبيه لا يُلحَق ولا يُشَقّ غبارُ صاحبه ؛ ولم يجد فيه المطعن إلاّ بذكر السقيم . فإنه رغب عن تشبيه المحبوبة به وفضل عليه قول عدي ابن الرقاع العاملي :

وكأنها بين النساء أعارهـا . . . . .
وسْنان أقصده النعاس فرنّقت . . . . .

(العمدة ـ ج 1 ص 205) .

والمبدأ الثالث يتعلّق أيضاً بمعيارٍ للتشبيه الجيد . وهو أن يكون المشبّه به متميّزاً بالصفة التي يُستعار لأجلها ، فلا يتساوى معه فيها أيُ موجود آخر . فهو ينتقد النابغة أيضاً في البيت الثاني الذي اختاره يحيى :

فإنّـك كالليلِ الذي هـو مُدرِكـي وإن خِلتُ أن المنتأى عنكَ واسعُ

فيقول : «أما تشبيهه الإدراك بالليل فقد تساوى الليل والنهار فيما يدركانه . وإنما كان سبيله أن يأتي بما ليس له قسيم حتى يأتي بمعنى ينفرد به . ولو قال قائل : إن قول النمري في هذا أحسن لوجدنا مسوغاً له . ذلك حيث يقول :

فلـو كنـتُ بالعَنقاءِ أو بسَنامِهـا لَخِلتُـكَ ، إلاّ أن تَصُدَّ ، تَرَاني»[1]

ومرة أخرى نستعين بابن رشيق لتأكيد نسبة هذا الحكم للأصمعي . فقد ذكر بيت النابغة وعلّق عليه قائلاً : «تعلق بهذا المعنى جماعة من الشعراء . قال سلم الخاسر يعتذر إلى المهدي . . . .» وقال عبيدالله بن طاهر . . . واختار العلماء لهذا الشأن قول علي بن جبلة :

وما لامرئٍ ، حاولتَه ، عنك مَهرَبٌ ولو رَفَعَتْه في السماء المطالـعُ . . .

بلى هـاربٌ لا يهتـدي لمكانِــهِ ظـلامٌ ولا ضوءٌ من الصُبح ساطِعُ

لأنه قد أجاد مع معارضته النابغة وزاد عليه ذكر الصبح . وأظنه اقتدى بقول الأصمعي في بيت النابغة : ليس الليل أولى بهذا المثل من النهار . .»[2] .

والمبدأ الرابع يتعلّق بالاجترار الأدبي ؛ والأصمعي يشارك أهل عصره في فتح الباب أمام الشعراء لتناول المعاني التي أبدعها آخرون ، إنما بشرط أساسي هو تجويد الآخذ له حتى يحقّ له امتلاكه ، بل يصبح به أولى . ففي مأخذه على البيت الثالث للنابغة الذي اعتمده يحيى :

مـن وحشِ وجرةَ ، مَوْشيٌّ أَكارِعُهُ طاوي المصيرِ كَسَيفِ الصَيقَلِ الفَردِ

قال : «أما قوله : طاوي المصير كسيف الصيقل الفرد ، فالطرمّاح أحق بهذا المعنى لأنه أخذه فجوّده وزاد عليه ، وإن كان النابغة اخترعه . وقول الطرماح هو :

يبـدو ، وتُضمِرُه البـلادُ ، كأنّـه سيفٌ على شُرَفٍ ، يُسَلُّ ويُغمَـدُ

فقد جمع في هذا البيت استعارة لطيفة بقوله : وتضمره البلاد ، وتشبيهه اثنين بقوله : «يبدو وتضمر ، يسلّ ويغمد . وجمع حسن التقسيم وصحة المقابلة»[3] . وبالمقابل فإن قيمة الشاعر تثبت وتزداد إذا لم يستطع الشعراء الذين جاؤوا بعده أن يتناولوا معناه ويحسّنوا فيه ، أو إذا تناولوه فقصّروا

---

1 الشريشي ـ شرح المقامات ـ ج 2 ص 279–283 .

2 العمدة ج 2 ص 145 .

3 الشريشي ـ شرح المقامات ـ ج 2 ص 279–283 .

فيه عن اللحاق به . هكذا يكون امرؤ القيس قد أخذ تشبيهه للفرس : «على ظهر باز في السماء محلّق» من قول أبي دواد : كما ضمّ طير في السماء جناحاً ، ويبقى الفضل ، في نظره ، لأبي دواد . وكذلك تشبيه عدي بن الرقاع الغبار حول حمارين بالملاءة ، أخذه من قول الخنساء : «يتعاوران مُلاءة الحَضْر» ولم يستطع أن يبزّها فيه . وهي ، أصلاً ، سبقها إليه جاهلي من بني عقيل في قوله :

يُثيران مِـنْ نَسْجِ الغُبارِ عليهِمـا قميصـينِ أسمـالاً ويَرتديـانِ

وفي الوقت الذي أخذ عدي معناه كان شاعر آخر يأخذه ويورده في أحسن لفظ . هذا الشاعر هو أبو النجم[1] . . . ومثل امرىء القيس وعدي كان النابغة . فقوله : وإنك شمس والملوك كواكب . . .» تقدّمه فيه شاعرقديم من شعراء كندة يمدح عمرو بن هند ، وهو أحقّ به من النابغة لأنه أبو عذرته . . .»[2] والمبدأ النقدي الخامس يتعلّق بحجم الانتاج الشعري للشاعر وضرورة أن يكون الحجم معقولاً ليثبت موهبة النظم . ففي رأيه أن الشاعر الذي لم يقل سوى قصيدة واحدة (أو الذي لم يصلنا من شعره إلاّ هذه القصيدة) لا يمكننا ، مهما أجاد فيها ، أن نحشره في جملة الشعراء المجيدين الذين تتجلّى جودة شعرهم من خلال القصائد العديدة التي رويت لهم . والمنطلق لهذا الحكم كان شعر طرفة في تشبيهه :

ووجـهٍ كأنّ الشمسَ ألقتْ رداءها عليه نَقِـيِ اللـونِ لم يَتَخـدَّدِ

وتشبيهه :

يَشُقُّ حَبـابَ الماء حيزومُها بها كما قسَمَ التُربَ المُفايِـلُ بـاليَدِ

إذ قال الأصمعي : «هذا حسن ، وغيره أحسن منه . وقد شركه في هذا المعنى جماعة من الشعراء . وبعد ، فطرفة صاحب واحدة لا يقطع بقوله مع التجوز ، إنما يعدّ من أصحاب الواحدة»[3] . وهذا الرأي يتّفق وما أثر عن الأصمعي في مصادر أخرى . فحين سئل عن الحويدرة الشاعر قال : «لو كان قال خمس قصائد مثل قصيدته ـ يقصد العينية ـ كان فحلاً»[4] وعن المهلهل قال : «ليس بفحل . ولو كان قال مثل قوله : أليلتنا بذي حسم أنيري ، كان أفحلهم»[5] . وعن أوس

---

1 المصدر نفسه .

2 المصدر السابق والشاهد هو :

هو الشمس وافت يومَ سَعدٍ فأفضلت على كل ضوء ، والملوكُ كواكـب

(وقد وجدنا المقابلة نفسها في مصادر أخرى إنما دون نسبتها إلى الأصمعي أو دون تحديد المناسبة التي قيلت فيها . إذ ذكرها الحصري في جمع الجواهر ص 330 والعسكري في ديوان المعاني ج 1 ص 17) .

3 الشريشي ـ شرح المقامات ـ ج 2 ص 279–283 .

4 الأصمعي ـ فحولة الشعراء ص 34 (عن الموشح ص 80–81) .

5 المصدر نفسه . ص 22 .

ابن عفراء الهجيمي قال : «لو كان قال عشرين قصيدة للحق بالفحول . ولكنه قُطع به . . .»[1] وإذا كنّا نهتمّ بهذه المبادىء النقدية الواردة في المجلس ، فلأنها ثابتة للأصمعي . وهو ، بلا شك ، أستاذ عصره في هذا الميدان ، تمتّع بذاكرة عجيبة وبحفظ غزير وبرؤيا منطقيّة متبصّرة . وكان يكفيه ، ساعة يريد ، أن يمد يد التذكر إلى خزانة حفظه لتأتيه بالأبيات منقادة يستشهد بها على أي وجهة نظر يبديها ، كأنه يقرأ في كتاب مفتوح ؛ حتى لقد رويت معظم الملامح النقدية لهذه الحقبة عن لسانه . فالناظر في الأغاني والعقد الفريد والكامل والصناعتين والمزهر ، وغيرها ، واجد بالتأكيد اسم الأصمعي يتردّد في نهاية الكثير من الأسانيد لرواية أو حكم نقدي . من هنا تأتي قيمة المبادىء المذكورة إذ يمكن أن نعتدّها ممثلة لرؤيا العصر النقدية التي يكفينا ، لاستكمالها ، الرجوع إلى مصادر أخرى والاطلاع على سائر آراء الأصمعي في هذا المضمار[2] . إنما هذا كلّه لا يمنعنا من تسجيل نوع من التحفّظ على بعض نقاط ، أهمّها ما نسب إلى الرشيد من آراء نقدية مرتجلة . فالرواية تُدخل في روع القارىء أنه مخترعها لا ناقلها ، كقوله في بيتي عنترة : وخلا الذباب بها . . . .» «يا أصمعي ، هذا من التشبيهات العُقم التي لا تنتج» ، وقول الأصمعي مجيباً مثنّياً : «كذلك هو ، يا

---

1 المصدر نفسه ص (44) . ويقول مثل ذلك في العديد من الشعراء كقوله عن معقر بن جمار البارقي : «لو أتم خمساً أو ستّاً عُدّ في الفحول» . (ص 44) وعن سلامة بن جندل : «لو كان زاد شيئاً لكان فحلاً . . .» (ص 44) .

2 من المبادىء الأخرى التي رويت عن الأصمعي ، والتي نذكرها لاستكمال الصورة ، جلالُ الموضوع ورقيّ المعنى : فقد سئل عن مزرد أخي الشماخ فقال : «ليس بدون الشماخ ولكنه أفسد شعره بما يهجو الناس» (فحولة الشعراء ص 21) والصدق : فالأصمعي يقول : «أجود الشعر ما صدق فيه وانتظم المعنى كقول امرىء القيس :

أَلـمْ تَرَياني ، كلّمـا جِئـتُ طارقـاً وجـدتُ بهـا طِيباً ، وإنْ لم تَطَيَّبِ ؟

(المصدر السابق ص 47 والعقد الفريد ج5 ص 373 والموشح ص 226) .

ومفهوم الصدق هنا إمكانية الحدوث la vraisemblance ويتجلّى بمقابلة بيت امرىء القيس ببيتي كثيّر عزة :

فَمَا روضةٌ بالحَـزْنِ طاهـرةُ الثَـرَى يَمُجُّ النـدى جَثجاثُهـا وعِرارُهـا

بأطيـبَ مـن أردانِ عِـزّةَ مَوهِنـاً وقـد أوقَـدَت بالعَنبَرِ اللّدنِ نارَهـا

فقد علق عليهما أحدهم : «والله لو فعل هذا بأمة زنجية لطاب ريحها . ألا قلت كما قال سيّدك : ألم ترَ أني . . .» (المزهر ج 2 ص 310) والعفوية إذ كان الأصمعي يعيب الحطيئة فيقول : «وجدت شعره كلّه جيداً فدلّ على أنه كان يصنعه . وليس هكذا الشاعرالمطبوع . إنما الشاعر المطبوع هو الذي يرمي الكلام على عواهنه ، جيّده على رديّه» . (المزهر 2 ص110 والشعر والشعراء ج 1 ص 23) والمبدأ الأخير هو الجاهلية والقدم فالشعر الجاهلي في نظره هو الشعر الحقيقي وتطرف في التشبّث بهذا المبدأ حتى غدا الانتماء الجاهلي كافياً لتمييز الشعر الجيد من الرديء . فقد قال عن الأخطل : «لو أدرك من الجاهلية يوماً واحداً ما قدمت عليه جاهلياً ولا إسلامياً» . (فحولة الشعراء . وانظر في الأغاني ج 5 ص 28 حكمه على شعر إسحاق الموصلي) ومما يسجله بروكلمن عن هذه الحقبة قوله : «بيد أن علم اللغة الذي بدأ ازدهاره في الوقت عينه عني بتأسيس العقيدة القائلة بتفوّق الشعر الجاهلي تفوّقاً لا يُلحق شأوه . «تاريخ الأدب العربي» ج 2 ص 9 .

أمير المؤمنين ، وبمجدك آليت ، ما سمعت قط أحداً يصف شعره بأحسن من هذه الصفة ولا استطاع بلوغ هذه الغاية» فهل الرشيد هو أول من وصف أبيات عنترة بهذا الوصف ؟ إن كتب الأدب تتناقل القول دون أن تنسبه إلى أحد[1] . ولو كان الرشيد قائله الأوّل بالفعل ، لما أغفل أحدها ذكر ذلك . ومن المعقول أن يكون الرشيد مردّداً لهذا الوصف ، قد سمعه من أحد الرواة ، أما أن يعلّمه للأصمعي ، شيخ النقّاد ، فأمر مستغرب ، اللّهم إلا أن يكون الأصمعي متجاهلاً ، تجاهل العارف ، ليترك للرشيد نشوة الإحساس بالتفوّق . . . والتحفّظ عينه يمكن أن نسوقه على إنشاد الرشيد للأبيات العديدة المختارة والتي كان الأصمعي يوافقه دائماً على روعتها وندرتها وبالتالي تفوّقها . فموقف الأصمعي يبدو شديد التحيّز : يجور ويشتطّ على منافسي الرشيد ، بينما يحلم معه ويتغاضى عنه ، يعتمد الرأي مرة والرأي المقابل له أخرى لتبقى أحكامه في صالح الرشيد . وهذا نلاحظه عند الحديث عن الاجترار الأدبي : فمرة يقبل مبدأ الأخذ والمشاركة في ملكية المعنى إذا فاق اللاحق السابق ، وفي مرة ثانية يعتدّ الأول أحقّ بالمعنى لأنه «أبو عذرته»[2] .

رابعاً : تصويبات

وهذا محور يدور حوله البحث عن سقطات الشعراء ، ولا سيّما الكبار منهم ، واقتراح التصحيح لها . ولعلّ الجزء الثاني من العملية ، لكونه بنّاء وإيجابياً ، أصعب بكثير من كشف الخطأ . وقد سُجلت للرشيد مواقف في هذا المضمار ، منها ما أخذه على أبي نواس المعروف بتمكّنه من النظم وطبعه وعفويّته ، (وذلك في قصيدته البائية) : فقد دخل أبو نواس على الرشيد فقال له : «أنشدني قولك في الخصيب» . فأنشده حتى وصل إلى البيت :

فَإنْ يَكُ باقٍ إفكُ فرعونَ فيكُمُ ... فإنّ عصا موسى بِكَفِّ خَصيبِ

فتغيّر الرشيد ، وهو المعروف بتحرّجه في الحديث عن الأنبياء إذ يضعهم في مركز قدسية كبيرة ولا يقبل من أحد أن يتناولهم بالذكر كما يفعل مع سائر البشر . لذا لم يعجبه نقل العصا نفسها من يد موسى إلى يد الخصيب وبالتالي إعطاء الخصيب مكان النبوة في المعجزة . فاستوقف أبا نواس وبادره : «ألا قلت فباقي عصا موسى بكفّ خصيب» ، وبذلك تحفظ كرامة النبي ويصبح المعنى أقرب إلى المعقول ؟ ولقد اعترف أبو نواس بالتقصير عمّا حلّق إليه الرشيد فقال : «هذا أحسن ، والله ، ولكنه لم يقع لي»[3] . وسواء كان الرشيد قد واجه أبا نواس بخطئه ، كما تقول

---

1 انظر العمدة ج 1 ص 202 (يشير إلى البيتين ويشرح معنى العقم) . وفي (خزانة الأدب للبغدادي ج 1 ص 88) ؛ «وقد عدّه عدّة أرباب الأدب من التشبيهات العقم» .

2 هذا لا يمنع أن يكون المبدآن وجهين مختلفين لحقيقة واحدة وهي أن للأول فضل السبق وللاحق فضل الزيادة والتجويد إذا حصلا .

3 يظهر أن حكم الرشيد هذا ثابت لأن الخبر جاء في غير مرجع . فقد رواه المرزباني في الموشح ص 276 والعسكري في ديوان المعاني ج 1 ص 36 ونقله العبّاسي في معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ج 4 ص 271 .

الروايات ، أو أنه انتقد الشعر حين روي على مسمع منه ، كما نقدّر ، فقد فاتته حتماً مواجهة النابغة الجعدي ، وإن لم يفته تسجيل تقصير له في شعر مدحي . روي عن الأصمعي قوله : «أنشدت الرشيد أبيات النابغة الجعدي حتى انتهيت إلى قوله :

أشَمُّ ، طَوالُ الساعديْنِ ، شَمَرْدَلٌ ، إذا لم يـرُح للمجد أصبح غاديا

فقال الرشيد : ويله . ولِمَ لم يروّحْه للمجد ؟ ألا قال : إذا راح للمعروف أصبح غادياً ؟ فقلت : أنت والله يا أمير المؤمنين أعلم منه بالشعر . ويعلّق العسكري قائلاً : «وكان الرشيد جيد المعرفة ، ثاقب الفطنة»[1] .

في هذا النقد ، تصوّر الرواية الرشيد شخصية طامحة إلى المثالية الخلقية الممتلئة بعنفوان الفضائل العربية[2] : فلم يطق سماع النفي في حديث عن المجد ، وإن يكن نفياً يتضمّن تأكيداً . فنقد الرشيد مبنيّ على تأثّر فوري بظاهر المعنى ، بينما ، لو تمعّن فيه ، لوجد النابغة قصد أنه يروح للمجد دائماً ويغدو ، فإذا فاته الرواح مرة ، لم يفته الغدوّ ؛ ولا نعتقد أن هذه الإشارة قد فاتت الأصمعي ، لكن مواقفه من الرشيد باتت معروفة كما قلنا . وهذه الأخطاء التي ذكرنا أن الرشيد كشفها وصحّحها هي في الحس الفني لا في الأداء اللغوي . وعلى عكسها ، فقد سجّل سقطة لغوية فاضحة على العماني الراجز ، مع سليقته الشعرية وأصله البدوي : فحين أنشد العماني أرجوزته في وصف الفرس وقال :

كأن أذنيـه ، إذا تشوّفـا قادمـةً أو قلمـاً محرّفـا

عَلِم جميعُ الحاضرين أنه قد لَحَن إذ نصب خبر كأن بدلاً من رفعه . وهذه الخطوة السلبية الأولى في كشف الخطأ سهلة هيّنة ، إنما أكثر أهميّة منها اقتراح التصحيح . وفي ذلك يقول صاحب العقد : «ولم يهتد أحد منهم[3] إلى إصلاح البيت غير الرشيد فإنه قال : قل : تخال أذنيه إذا تشوّفا حتى يستوي الإعراب»[4] .

وكما حفل البلاط بمجالس الكشف عن الشاذ النافر في قصائد الشعراء فقد حفل أيضاً بجلسات التقدير للشعر الجيد والبحث عن معانيه القريبة والبعيدة . من ذلك ما سنراه في مجالس المناسبات ، ومنه قصيدة أبي نوّاس : يا شقيق النفس من حكم . . . . فالرشيد كان معجباً بها . وليس غريباً أن تغدو موضوع مناقشة ونقد ، ونخصّ منها البيت الذي طالما أعجب به النقّاد وهو :

---

1 العسكري ـ ديوان المعاني ج 1 ص 36 .

2 راجع باب «شخصية الرشيد كما تتجلّى من خلال الأجواء الأدبية» .

3 لم تذكر أي من الروايات من هم حضور المجلس ، لذلك لا نستطيع معرفة القيمة النسبية لمبادرة الرشيد .

4 العقد الفريد ج 5 ص 367 والكامل ج 3 ص 141 والموشح ص 792 وديوان المعاني ج 1 ص 36 .

فاسقِنـــي البِكْـــرَ التي اختمَرَت   بِخِمـــارِ الشَيـــبِ في الرَحِـــمِ

فوصفه الموصلي بأن معناه «مخترع لم يسبق إليه ، دقيق حتى كاد لدقّته أن يلتحق بالمعاني التي تستخرج من غير شاهد حال مُتصوَّر»[1] . أما ماذا يقصد النوّاسي بمعنى البيت ؟ فاختُلف عليه في حضرة الرشيد «فقيل إنه يريد بخمار الشيب في الرحم أن الخمر تكون في جوانبها ذات زبد أبيض على وجهها . فقال الأصمعي : إن أبا نواس ألطف خاطراً من هذا وأسدّ غرضاً ، فاسألوه . فأُحضر وسئل فقال : إن الكرم أول ما يجري فيه الماء ، يخرج شبيهاً بالقطنة ، وهي أصل العنقود . فقال الأصمعي : ألم أقل لكم إن الرجل ألطف خاطراً وأسدّ غرضاً ؟»[2] .

ونحن نرى أن الرواية ، على رغم إقحامها لأبي نواس في شرح معنى البيت ، لم تعط هذا المعنى حقّه لأنها تركته مربوطاً بالتفسير المادي بينما هو يحتمل معنى أبعد مرمى في المجال المجازي ؛ فالبكر هي ، بلا شكّ ، الخمر التي سكبت في الدن ، منذ استخرجت وختم عليها فيه فلم تمسّها يد طيلة دهر ، فظلّت ، بذلك ، عذراء بكراً ، مع تقدّمها في السن . فالدن رحمها ، والشيب دلالة على مرور زمن طويل عليها ، والبكورة هي الختم الذي منعها عن مفتضّي الدنان ، إلى أن وقعت في يد النواسي .

وأخيراً ، في حديثنا عن النقد الأدبي في بلاط الرشيد ، لا بدّ لنا من الإشارة إلى أن الروح النقدية لديه لم تكن تقتصر على إعطاء رأي أو آخر في بيت شعر أو في شاعر ، بل كانت تجعله يستحثّ المتّصلين به على تجويد أدبهم ، ناثراً في نفوسهم بذور المنافسة والتحدّي ، بهدف الإبداع . فالرشيد الأديب ، والرشيد الشاعر ، لم يكن يرضيه أي أدب ولا أي شعر كان . والرشيد الحاكم لم يكن يمنعه شيء من إبداء رأيه . وحين عرض له أعرابي من بني أسد «فأنشده شعراً مدحه فيه وقرّظه» لم يكن الشعر بذي بال . فأقبل الرشيد على الأعرابي ، منتقداً وموّجهاً : «ألم أنهك عن مثل هذا في شعرك ، يا أخا بني أسد ؟ إذا أنت قلت ، فقل كما قال مروان بن أبي حفصة في أب هذا (وأشار إلى شراحيل بن معن بن زائدة ، وكان حاضراً في حاشيته) .

بَنــو مَطَــرٍ ، يــومَ اللقاءِ ، كأنّهــمْ   أُسودٌ لهــا ، في غيل خِفّانَ ، أَشبُلُ»[3]

بل ، لقد ذهب الرشيد إلى أبعد من هذا إذ وجد نفسه قادراً على تعريف البلاغة شأن محترفي صناعة الأدب والنقد[4] .

ولا بدّ لنا أيضاً من القول إن مجالس النقد ، شأنها شأن سائر المجالس الأدبية ، كانت مجالاً

1 المثل السائر ص 125 .
2 المصدر السابق ص 127 .
3 العقد الفريد ج 5 ص 290 والعمدة ج 2 ص 113 .
4 ابن خلّكان ــ وفيات الأعيان ــ ج 2 ص 114 . (راجع المقتطفات المقدمة لهذا الفصل) .

لتجلّي الخلفيات الحزبية أو المدرسية ، وأن ما ألمحنا إليه ، من تدخل الأهواء في الانتصار إلى رأي دون آخر ، كان شيئاً طبيعياً في تلك البيئة . ولئن لم تقع لنا أمثلة على صراع المدارس ، من خلال مجالس النقد ، فهذا لا يعني أن الصراع لم يحدث ، إنما نعتقد أن أخباره لم ترو ، لأسباب نجهلها ، أو أنها رويت وفقدت مع الكثير الذي فقد . أما الصراع العربي الأعجمي ، فوصلتنا غير إشارة إليه ، في كلّ مرّة يلتئم مجلس يضمّ الرشيد والبرامكة . ولقد تحفّظنا ، تجاه هذه الإشارات التي كانت عرضة للخضوع لأهواء الرواة ، وإن اعترفنا بأن وراءها حقيقة لا بدّ من استشفافها . وفي المجلس الذي رواه الشريشي نجد تفاصيل الرواية تشير إلى أن الرشيد والبرامكة شكّلاً طرفين متقابلين ، لا لأنهما يختلفان فعلاً في الرأي الأدبي أو في الموقف النقدي ، بل لأنهما من عنصرين مختلفين . فالمادة التي طرحت في المجلس لم يكن فيها أي شيء يميّز اختيار المواقف بين المتنافسين ، لأن الشعراء الذين رشّحهم البرامكة ليأخذوا من شعرهم التشبيهات ، ويخوضوا بها غمار المفاضلة ، هم جاهليّون أو إسلاميّون ، وهم من نمط الذين رشّحهم الرشيد . فالبرامكة اختاروا أبياتاً لأمرىء القيس ، النابغة ، وطرفة ، والرشيد اختار لامرىء القيس وعنترة والحطيئة والشماخ والنابغة الجعدي وعدي ابن الرقاع . . . كان الخلاف ، إذن ، على هذا البيت أو ذاك للشاعر نفسه أو من شعر شاعر آخر قريب إليه . فليس من مجال لإبراز «الميول القومية» من خلال الاختيار ، إنما الراوي الأصمعي كان يصرّ على افتراض الصراع : فعل ذلك منذ بدء روايته للمجلس كما فعله في روايته للمجالس الأخرى .

خامساً : تقويم النقد الأدبي في عصر الرشيد وبلاطه

لكي نخرج برأي موضوعي عما سبق لنا عرضه من ملامح النقد الأدبي نطرح على أنفسنا سؤالين مهمين ، أولهما : إذا نظرنا إلى تلك الحقبة بالميزان النقدي لعصرنا ، وقد طعّمه اطّلاعنا على الآداب الأجنبية واقتباسنا مقاييسها إلى جانب ما بلغه تطور النقد الأدبي خلال العصور ، فهل نجد في ما رويناه نقداً أدبياً ؟ قد نقول : لا ، لكننا نبادر إلى طرح السؤال الآخر وهو : هل يحق لنا النظر إلى أدب عصر بمنظار عصر آخر ؟ وهل هناك ميزان نقدي موضوعي لكل أدب وكل عصر ؟ هذا ما نحاول الإجابة عنه . . .

لقد عمد بعض النقاد المعاصرين إلى القول بضعف النقد عند العرب في الفترة التي نتحدث عنها ورأوا أن الموازنة والنقد فيها يشوبهما الخلل في الأقيسة والخطأ في الموازين ، واستبداد الهوى وما إلى ذلك . . . كما أخذوا على النقاد الأوائل نظرتهم الجزئية إلى بيت في القصيدة ، أو نصف بيت ، وإغفالهم النظر إلى القصيدة ككل تتساوق أجزاؤه إلى غرض واحد .ولم يفتهم أن يعيبوا عليهم جهلهم العلاقة بين النقد الأدبي وعلم النفس ، إلى ما هنالك من معطيات النقد الحديث[1] .

---

1 انظر رأي الأستاذ الزيّات والأستاذ المعداوي في كتاب أنور المعداوي ـ نماذج فنية من الأدب والنقد ـ مكتبة مصر ـ ص 180 .

ويرى جرونباوم «أن العرب لم يحللوا أبداً فكرة الجميل في الأدب ، أي أنهم لم ينشئوا قواعد جمالية . . . وإنما اقتبسوا النظرة الأرسطوطاليسية التي تبحث في طبيعة الفن الأدبي ، ولذلك كتبوا إرشاداً للأديب الذي يود أن يبلغ المستوى المطلوب من الأسلوب الجزل ، ويبتعد عن الأسلوب السخيف . . .»[1] .

وفي رأينا أن معظم الأسباب التي ذكرها النقاد المشار إليهم هي مظاهر وليست أسباباً . والأسباب الحقيقية تعود إلى طبيعة المرحلة الحضارية التي نشأ فيها هذا النقد وترعرع ، وإلى نوع الهدف الذي حدا مَن جَمع الأدب وصنّفه وأطلق عليه أحكامه على أن يجمع ويصنّف ويطلق الأحكام . وفي اعتقادنا أن النقد الأدبي ، كالنقد الاجتماعي ، والنقد الخلقي ، لا يعدو كونه مقارنة انتاج الأمة الأدبي بمثالية العصر . ومن التعسف بمكان ، اعتماد مثالية عصر آخر ، أو أمة أخرى ، لهذه المقارنة . فالمثالية لا تستعار ، إنما تنبع من حاجات الأمة ومن تطلعاتها في المرحلة المعنية من حياتها ، وتختلف ، بالتالي ، عنها في مرحلة أخرى ، أو عند شعب آخر . بل لنقل إن هذه المثالية هي مجموعة مثاليات ، لكل فن من فنون الأدب ، ولكل غرض من أغراضه واحدة يقاس بها . ومن المغامرة أن يعمد المرء إلى البحث عن تعريفات ، أو افتراض قواعد تكون مقاييس ثابتة وشاملة للحكم على الأدب ، كل أدب . ولقد تنبّه القدماء إلى هذا التمييز . يعجبنا من ذلك ما رُوي عن أبي العتاهية حين جاءه ابن أبي الأبيض يطلب منه أن ينشده من جيد ما قاله في الزهد ليتقوّى به على ممارسة هذا الفن . فقال له أبو العتاهية : «اعلم أن ما قلته رديء . . . لأن الشعر ينبغي أن يكون مثل أشعار الفحول المتقدمين ، أو مثل شعر بشار وابن هرمة . فإن لم يكن كذلك ، فالصواب لقائله أن تكون ألفاظه مما لا يخفى على جمهور الناس ، مثل شعري ، لا سيما الأشعار في الزهد ، فإن الزهد ليس من مذاهب الملوك ، ولا من مذاهب رواة الشعر ولا طلاب الغريب . وهو مذهب أشغف الناس به الزهاد وأصحاب الحديث والفقهاء ، وأصحاب الرياء والعامة . وأعجب الأشياء لهم ما فهموه . . .»[2] هكذا يميّز أبو العتاهية ثلاث مثاليات شعرية : مدح الملوك والبحث عن الغريب وتوجيه العامة ، كل منها تتضمن معايير لا تنطبق على الأخرى . . . وإذا كان هذا الوضع قائماً بين غرض وآخر في زمن واحد ، فأَحْرِ به أن يبرز بشكل أوضح بين زمن وآخر . لذلك نحن نرى أنه ليس من حقنا مطالبة الرشيد وعصره بأسس ناضجة للنقد الأدبي ، ثابتة واضحة ، مضبوطة الموازين ، مرتكزة على علم النفس ، لأن المقاييس النقدية لا يمكن لها أن تسبق المواقف ، فهذا ضد طبيعة الأمور ومخالف لمبادىء التطور . وقد أوضحنا ، في هذا الفصل أنه لا بدّ لعلم النقد ، شأن كل علم ، من أن ينمو تدريجاً ، فيمر بمراحل من الملاحظات

---

1 جوستاف فون جرونباوم . دراسات في الأدب العربي – ص 20 .

2 الأغاني ج 4 ص 72 .

والأحكام العفوية التي تصدر في ظروف نفسية واجتماعية معينة ، ثم تجمع وتقارن في مراحل لاحقة لتشكل خطاً نقدياً يتجه باتجاه مثاليات اجتماعية أو دينية أو فنية ، أو باتجاهها جميعاً . وفي مرحلة من مراحل تطور الفكر واحتكاكه بأفكار ثقافات أخرى تتبلور قواعد وأصول موضوعية ، أو تظهر مدارس نقدية تدعو إلى مثاليات مفترضة تتخذها المحك التقويمي ، فتؤثر بها في توجيه الأدب . . . لكن عصر الرشيد ، كما أوضحنا ، شهد بداية عملية تبلور القواعد والأصول ، إنما لم يمكن لهذه العملية أن تنضج فيه إذ لم يمر عليها الزمن الكافي لذلك . ونضيف هنا أن العملية التطورية للفن والأدب لا تتم عادة إلا في صميم الجماعة ، مرافقة التطور الذي يصيب مستواها الثقافي ومثاليتها الحضارية ، وأن الاقتباس أو القسر ، اللذين قد يؤديان إلى انقلاب في المفاهيم ، عامة ، يصعب عليهما ذلك في الفن والأدب مباشرة . فالتغير في الفن والأدب ، وإن تأثر بالمعطيات الخارجية ، لا يأتي إلا من داخل الفنانين والأدباء ، وبعد حصول القناعة الفكرية والعاطفية لديهم ، لأن الفن والأدب هما ، قبل كل شيء ، تعبير عما يخالج النفس من مشاعر وعما ينتصب أمامها من طموحات .

من كل ما قدّمناه ، نخلص إلى أن النقد العربي قبل الإسلام كان بسيطاً ساذجاً[1] بساطة المثالية الفنية للجاهليين التي تركزت على الفصاحة والبلاغة . فلأنهما كادتا أن تكونا المظهر الوحيد للإبداع الفني عندهم ، فقد اعتدّوها الوجه المميز للعربي ، خص به الله هذا الشعب ، وبه فاخروا الأمم الأخرى في كل ما أنتجته من معالم حضارية . وحين جاء الإسلام عمد إلى السيطرة على العقل العربي من ناحية هذه المثالية ، إذ تبلور تعاليم وطقوساً مسطورة في القرآن الذي لا يداني فصاحة وبلاغة[2] . ونلاحظ هنا أن الانقلاب الكبير الذي أحدثه الإسلام على صعد الاجتماع والدين

---

1 يرى جرونباوم أن فقر التراث الأدبي الجاهلي كان سبباً في منع العمق الحضاري التاريخي عن إلهام أدباء العصور التالية ، بعكس ما حدث في أوروبة . يقول : «إن الناقد العربي معذور إذا قيس إلى وصيفه الكلاسيكي (وكلاهما يلتفتان إلى أدب القدماء) لأنه كان ، إذا التفت إلى موروث قديم ، اتجه بنظره إلى الجاهلية ، وهي ذات موروث فقير إذا قرنّاه بما كان لدى الداعين إلى الآداب القديمة من موروث غني خصب . والموروث الفقير لا يهيء ، لمن يتوجّهون إليه ، إلاّ إلهاماً ضئيلاً» (دراسات في الأدب العربي ص 23) .

2 يذكر المؤرّخون العرب خبر وفود عربية إلى كسرى ، وكلام رؤوسائها بين يديه ببلاغة وفصاحة أدهشتاه . وقد فخر النعمان بن المنذر بالعرب وهو في بلاط كسرى قائلاً : «أما حكمة ألسنتهم ، فإن الله تعالى أعطاهم في أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه ، مع معرفتهم بالأشياء ، وضربهم للأمثال ، وإبلاغهم في الصفات ، ما ليس شيء من ألسنة الأجناس» (العقد الفريد ج 2 ص 7) .

وقد ظلّت الفصاحة والبلاغة المثالية الأدبية بعد الإسلام ودارت حولها معظم مؤلفات النّقاد منهم ، بسبب تميّز القرآن بها . يقول أبو هلال العسكري : «إن أحق العلوم بالتعلم ، وأولاها بالتحفظ ، بعد المعرفة بالله جل ثناؤه ، علم البلاغة ومعرفة الفصاحة ، الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى الناطق بالحق ، الهادي إلى سبيل الرشد . . .

والسياسة وسائر العلاقات ، لم يغيّر شيئاً في المثالية الأدبية ، بل إنه عمّقها وزاد التركيز عليها حتى غدا كل الأدب السابق لظهوره مجموعة روافد لألفاظه ومعانيه ، وهذا أدى إلى ما ذهبنا إليه من قيام معادلة جدلية بين لغة القرآن ، الذي يجد جذور بلاغته في أدب الجاهليين ، وبين الأدب الجاهلي الذي يجد قمة فصاحته وبلاغته في القرآن ، مما أقام بينهما ارتباطاً وثيقاً لا ينفصم .

هكذا بقيت الفصاحة هي المثالية الأدبية والنقدية ، واشتد البحث ، في الحكم الأدبي ، عن «الشاهد» الذي يخدم وجهة نظر في الفصاحة اللفظية أو البلاغة المعنوية ، وجرى الاكتفاء ، في ذلك الحكم ، بالبيت أو البيتين . . . ويجد جرونباوم سبباً آخر لهذه النظرة الجزئية إلى النقد الأدبي ، وهو تجمع هذا النقد في أيدي النحاة ، لأن «النحوي العربي كان موكولاً إليه مهمة مزدوجة : أن يعلّم الفصاحة والسياق الشعري ، وكان هذا النحوي (كذلك) يعنى بالعروض . . . فهو حامي الوزن ، وهو أول من وضع للأوزان نظاماً عروضياً ، وهو يأخذ على عاتقه أن يلزم الناس بقواعده لأنه يتخذ لنفسه دور الناقد . . .»[1] والواقع أن النقد العربي ، في خطواته الأولى ، لم يبتعد كثيراً عن علماء اللغة وعلماء الفقه . فأولئك جمعوا اللغة والشعر ووضعوا القواعد ، خدمة للقرآن وضبطاً للفظه وإعرابه ، وهؤلاء استخدموا اللغة وقواعدها لشرح القرآن والاجتهاد فيه وإبراز إعجازه[2] . ومع ذلك ، فإن هناك سبباً ثالثاً ، في رأينا ، وهو سبب نفسي نابع عن طبيعة العربي المشبعة بروح الاستقلالية . فهذه الروح نمت معه في جاهليته وجعلته ينظر إلى بيته كوحدة اجتماعية قائمة بذاتها ، وإلى بيت قصيدته

= إن الإنسان ، إذا أغفل علم البلاغة وأخلّ بمعرفة الفصاحة ، لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب . . . وإنما يُعرف إعجازه من جهة عجز العرب عنه وقصورهم عن بلوغ غايته . . .» (كتاب الصناعتين ، ص2) ويقول أحمد بن فارس : «قال جلّ ثناؤه : ﴿وإنه لتنزيل ربّ العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلبك ، لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين﴾ . فوصفه ، جل ثناؤه ، بأبلغ ما يوصف به الكلام ، وهو البيان . . . فإن قال قائل : قد يقع البيان بغير اللسان العربي لأن كل من أفهم بكلامه ، على شرط لغته، فقد بَيَّن ، قيل له : إن كنت تريد أن المتكلّم بغير اللغة العربية قد يعرب عن نفسه حتى يفهم السامع مراده ، فهذا أخس مراتب البيان ، لأن الأبكم قد يدلّ ، بإشارات وحركات ، على أكثر مراده ثمّ لا يسمى متكلّماً ، فضلاً عن أن يسمّى بيّناً أو بليغاً . وإن أردت أن سائر اللغات تبيّن إبانة اللغة العربية ، فهذا غلط . . .» (الصاحبي ص12) .

1 دراسات في الأدب العربي صفحة 21 .

2 يقول ناصر الدين الأسد في حديثه عن علماء القرن الثاني الهجري الذين جمعوا الشعر الجاهلي : «إن رواية الجاهلية ، بأخبارها وأشعارها ، وإن ظلت متّصلة ، منذ الجاهلية نفسها إلى زمن هؤلاء العلماء . . . إلاّ أنها كانت ، قبل القرن الثاني ، من الثقافة العامة التي لا يختصّ بها أحد . ومع ذلك ، لا يتجرّد منها أحد . فقد كان المحدّث والفقيه والقاص يروون شعر الجاهلية وأخبارها . وكانت هذه الأخبار والأشعار آلة من آلاتهم يتوسّلون بها لتفسير لفظ في كتاب الله أو حديث رسوله ويسوقونها ليفصّلوا بها مجمل ما ورد في القرآن من القصص وأخبار الأمم . . .» (مصادر الشعر الجاهلي ص 276) .

كوحدة أدبية متكاملة . إلا أن هذه الروح لم تتركه نهائياً بعد إسلامه ، إذ ظل يخضع لسلطانها في كثير من مواقفه وتصرفاته وهي أحد أسباب استمراره في تقبل النهج الجاهلي الصحراوي في حياته الحضرية المتمدنة . . . وأخيراً فإن لنا على هذا المنهج الجزئي في النقد تعليقين : أولهما أن بساطته جعلت منه لعبة العصر . فأي امرىء حفظ القرآن أو بعضه ، وفهم معانيه ، وروى شعراً جاهلياً تذوقه ، وسمع بعض المقارنات والتعليقات من شيوخ اللغة ، يجد في نفسه كفاية لإعطاء حكم في شعر هذا الشاعر أو ذاك ، أو لادعاء الانشداه أمام روعة بيت شعري . . . ولا شك في أن انتشار الحكم النقدي بهذه الطريقة كان مثبتاً لها كأسلوب نقدي مرضيّ عنه . . . والتعليق الثاني هو أن الجيل التالي من النقاد العرب ، والذي تابع ، هو الآخر ، خط النظرة الجزئية في النقد ، برع أيما براعة في دراسة الألفاظ ومدلولاتها ، ومقارنة المعاني المتغايرة بتغاير الألفاظ ، ودراسة بنية الكلمة وقيمة الأصوات فيها والحروف ومخارجها ، وما إلى ذلك مما اقتضاه نقد الشعر وإبراز إعجاز القرآن وترسيخ أحكام التجويد . وهم في ذلك يلتقون الألسنيين المحدثين . فما عيب على النقاد العرب ، يعود عليهم ، مع الاتجاه الألسني الجديد في النقد ، رد قيمة وتقديراً . . .

خاتمة

لا بد لنا هنا من الوصول إلى قناعة وهي أن النقد الذي عرفه الرشيد وعصره كان وليد الظروف التي نشأ فيها . ولذلك نستغرب اللوم الموجه إلى من خاضوا غماره وسمّوا نقاداً فيه . فلماذا يطلب منهم أن ينقدوا أدبهم وفق معايير لم تكن من واقعهم ولا تدخل ضمن تصورهم واهتمامهم ، ولا مثاليتهم الفنية[1] ؟ بل إن اعتمادهم الفصاحة والبلاغة كان ينبع من إيمانهم بتميز لغتهم ، وبأنه ما من لغة أخرى تستطيع أن تستوعب ما أنتجته العربية من شعر ، فضلاً عن القرآن . وما كانوا ليستعيروا من سواهم نهجاً نقدياً ولا مبدأ لغوياً[2] . وهذه القناعة

---

1 يقول الأستاذ علي أدهم في معرض حديثه عن النقادة الألماني شلجل ومشكلة الدراما في علاقتها بالعصر الذي نشأت فيه وبيئته : «وقد انتهى ، في بحثها ، إلى نتيجة صائبة وهي أن لكل قوم أدباً خاصاً يعبّر عن نفسيتهم ويصف شعورهم ويستمد أهمّيته وقوّته من خصائصهم القومية وماضيهم التاريخي . . إن الفوارق الملحوظة بين آداب الأمم واختلافات القوالب والصور المعبّرة عن الأفكار ، ومجانبتها السير على وتيرة واحدة ، ليست من أسباب النقص والتدهور ولا من سمات التخلف ، بل هي ، على نقيض ذلك ، من المزايا الجديرة بالتقدير والبحث لأن ، من أسمى صفات الأدب ، . . . تمثيل الخصائص القومية ورسم ملامحها المختلفة وشمائلها المتنوّعة . .» (على هامش الأدب والنقد ص 34) .

2 يقول أحمد بن فارس (المتوفي عام 395هـ) مبيّناً تقصير اللغات الأخرى عن استيعاب إمكانات اللغة العربية : «وقد قال بعض علمائنا ، حين ذكر ما للعرب من الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير وغير ذلك من سنن العرب ، في القرآن : ولذلك لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شيء من الألسنة ، كما نقل الإنجيل عن

ضرورية لإنصاف تلك الأحكام النقدية بوضعها في إطارها التاريخي والحضاري في فترة كانت مفرقاً مهماً على طريق الفكر العربي . ولو عدنا إلى البلاط ومجالسه النقدية لنلخّص ما جرى فيه ، مستخدمين ما أوضحناه عن مثالية العصر الأدبية النقدية ، لأبدينا الملاحظات التالية : أولاها أن الرشيد ، كخليفة يُعتدّ ممثلاً للدين الإسلامي ، كان يمثل ، في الآن نفسه ، فكرة التمسّك بالشعر القديم الذي كان ، كما قلنا ، في جذور لغة القرآن . ولما كان الشعر الجاهلي قد غدا ، بالنسبة إلى أهل العصر ، رمزاً لعروبة الإسلام مقابل الهجمة الشعوبية ، فقد غدا هذا الشعر ، ككل ، بعموده وأغراضه ، بمعانيه وألفاظه ، نموذجاً للمثالية الأدبية . وبهذا الشكل تصوّره الرشيد وفرضه على الشعر الرسمي في البلاط[1] . وثاني الملاحظات أن الرشيد كان يوافق نقّاد عصره في ضرورة إبداع المعنى الجديد أو الارتقاء بالمعنى القديم . فكان يرفض المعنى «الملوك» الذي لا يخرج بأسلوب مبتكر[2] . وثالث الملاحظات أن من أصول البلاغة موافقة الكلام لمقتضى الحال . لذلك كان الرشيد يتطلّب المتانة والجزالة في شعر المدح ، ليكون مؤثراً في السامع بوقعه ومعانيه[3] ، بينما يفترض الرقة والسلاسة في شعر الغزل[4] . ولو جمعنا هذه الملاحظات إلى مواقفه التي ذكرناها عن أمدح بيت[5] وأهجى بيت[6] وأرقّ بيت[7] . . . لوجدنا نقد الرشيد قريباً جداً من النقد الذي نسب إلى الأصمعي في بلاطه ، وكلا النقدين صورة عما قَبِله العصر . ولنا ملحوظة أخيرة نحاول بها أن نستخدم ما استخلصناه من فكرة مثالية العصر الأدبية والنقدية ، لنناقش بعض التفاصيل الواردة في رواية اتصال الأصمعي بالرشيد .

= السريانية إلى الحبشية والرومية ، وترجمت التوراة والزبور وسائر كتب الله ، عزّ وجل ، بالعربية . لأن العجم لم تتسع ، في المجاز ، اتساع العرب . .» (الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ص13) .

1 راجع فصل الصراع العصبي ، عنوان «تمسك الرشيد ببناء الشعر القديم» وانظر فصل المناسبة الأدبية .

2 راجع اتهامه سهل بن هارون في العقد الفريد ج 5 ص 339 . انظر ص 226 من البحث .

3 راجع نقده لبيتَي إبراهيم الموصلي في مدحه (في الأغاني ج 5 ص 154) وتعليقه على قصيدة ابن مناذر في رثاء عبدالمجيد بن عبدالوهاب الثقفي (في المصدر السابق ص 140) وراجع كذلك توجيهه للأعرابي الذي مدحه ليقول شعراً شبيهاً بما قاله مروان بن أبي حفصة في مدح معن بن زائدة . راجع ص 238 من البحث . وقد أثرعن الرشيد أنه يعتدّ الشعر الجيد «الشديد الأصول ، الحسن الفصول ، القليل الفضول» . (الأغاني ج 5 ص 294 وزهر الآداب ج 4 ص 1041 ونهاية الأرب ج 5 ص 7) .

4 راجع مناظرته لإسحاق الموصلي في معنى رياضة النفس على الفراق (في زهر الآداب ج4 ص1008) وسمره مع عبثر المغني (في العقد الفريد ج 6 ص 33) . راجع ص 228 من البحث .

5 الأغاني ج 11 ص 61 . راجع ص 184 من البحث .

6 المثل السائر ص 127 .

7 الأغاني ج 22 ص 56 وفوات الوفيات ج 2 ص 106 (بينه وبين العبّاس بن الأحنف تبادل الوصف برقّة الغزل) . راجع ص 177 من البحث .

فالمثالية المدحية التي تعتدّ الشعر الجاهلي مقياس الشعر الجيد ، تعتمد ، ضمنياً ، مرحلة ركوب الناقة وقطع الفيافي إلى الممدوح من أجود معاني التمهيد للمدح[1] التي يتوسّل بها الشاعر أياً كان ممدوحه خليفةً أو وزيراً أو قائداً أو أميراً . ولقد التزم بهذه الصورة معظم الشعراء المتكّسبين ، العرب الأصيلون منهم وغير العرب الأصيلين ، كما تقبلها واقتضاها الممدوحون جميعاً : الهاشميون منهم والبرامكة الأعاجم[2] . فإذا رجعنا إلى خبر دخول الأصمعي بلاط الرشيد وما رواه عن مجابهة جرت بين الرشيد والفضل البرمكي حين وصل الإنشاد إلى صفة الجمل ، فإننا نقف موقف الشك من هذا التفصيل في الخبر[3] . ففضلاً عما أبديناه سابقاً من شك في اللهجة التي ردّ بها الرشيد على الفضل[4] ، نشكّ الآن في صحة الموقف الذي سبّب المواجهة . في هذا الموقف يظهر الفضل ممتعضاً من اطالة الأصمعي في وصف الجمل[5] وكأن الحديث عن الجمل ، رمز الصحراء العربية ، يسيء إلى نزعته الأعجمية . وفي رأينا أن الفضل ما كان ليمتعض من ذلك ، ولو أنه فعل لما بدا عليه ، فهو أكثر لياقة وحسن تصرّف من أن يصرح بإحساس من هذا النوع أمام الرشيد وحاشيته ، وأمام الأصمعي الذي يدخل البلاط للمرة الأولى ، لأن البرامكة عرفوا بالحكمة واللياقة والدماثة مع الناس ، حتى العاديّين منهم ، فلماذا يكون الفضل عدائياً مع الرشيد في موضوع شديد الحساسية يتعلّق بحياة العرب وقيمها الموروثة ؟ ولماذا يعترض الفضل على وصف الجمل طالما أنه يقبل ، هو وسائر البرامكة ، أن يمدح بشعر وفق المثالية المشار إليها سابقاً ، فيمعن شعراؤهم في وصف الناقة ومشقّة المسير في القفار للوصول إليهم ونيل رفدهم ؟ وللدلالة على ذلك نأخذ نموذجاً من مدح أبي نواس[6] للفضل حيث يقول :

---

1 يقول الحصري بعد عرضه لسبب الابتداء بالنسيب : «فإذا استوثق (الشاعر) من الإصغاء إليه والاستماع له ، عقّب بإيجاب الحقوق فرحل في شعره ، وشكا النصب والسهر وسرى الليل وحر الهجير وانضاء الراحلة والبعير . فإذا علم أنه قد وجب على صاحبه حق الرجاء وذمام التأميل ، وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير ، بدأ في المديح ، فبعثه على المكافأة . . .» (زهر الآداب ج 3 ص 618) .

2 يؤكد بروكلمن «أن مدائح الخلفاء والبرامكة جرت في معظم الأحوال على الأسلوب القديم، حتى عند الشعراء الذين لا تنميهم أصول عربية» (تاريخ الشعوب الإسلامية ص 190) .

3 لا يسعنا أن نرفض الخبر بكامله ، وليس من المنطق في شيء رفض خبر بمجمله ، بسبب شك في أحد التفاصيل ، خصوصاً إذا جاء الخبر على لسان ثقات ، كما هي الحال هنا . وشكّنا في الجزء لا يقلّل من ثقتنا بما يروونه لأنهم قد يكونون أخذوا بصدق السند والثقة بالراوي ، فنقلوه دون إبداء الرأي فيه .

4 راجع ص 168 هامش 3 من البحث .

5 راجع تفاصيل عن الخبر ص 169 وص 285 من البحث .

6 انظر القصيدة في الديوان ص 472 وفي الموضوع نفسه راجع مدح أشجع لجعفر بن يحيى في الأغاني ج 18 ص155 وراجع مدح مسلم بن الوليد للفضل بن جعفر البرمكي . (ديوان صريع الغواني ص 262) .

سأرحلُ مـــن قُــودِ المَهاري شِمِلَّةً مُسَخَّــرةً مـــا تُستَحَـــثُّ بحادي

مِنَ الريحِ ما قامت ، وإنْ هي أَعصفتْ ، نَهـــوزٌ بـــرأسٍ كالعَـــلاةِ وهادي

فكمْ حَطّمتْ مـــن جَندَلٍ بمَفَازَةٍ وخاضتْ ، كتيّـــارِ الفـــراتِ ، بِوادِ

ومـــا ذاكَ ، في جَنْبِ الأميرِ وزَورِهِ ، لِيَعدِلَ ، مِـــنْ عنسي ، مَدَبَّ قُرادِ

ونحن اخترنا الشاهد من شعر أبي نواس بالذات ليكون عميق الدلالة لأنه ، إذا كان أبو نواس قائدَ الحملة على هيكلية الشعر القديم والساخر الأول من عادة وصف الصحراء وركوب الجمل والوقوف على الطلل ، وإذا كان مضطراً لالتزام ما لا يؤمن به في مدح الخليفة المحافظ ، فلماذا يفعل ذلك عندما يتوجّه بمدحه إلى الفضل الذي تُصوره الرواية يتأفّف من سماع وصف الجمل ؟ ليس لذاك إلاّ مسوّغ واحد هو أن يكون الفضل يؤمن أو يتظاهر بالإيمان بهذا الوجه من المثالية المدحية . وفي هذه الحال يقوى لدينا الشك في صحة ما رواه عنه خبر الأصمعي .

القسم الثاني
الحياة العامة وأجواء الرشيد الأدبية

«يسود الظن بأن لُباب الشعر هو الوحي الذي يتنزّل على الشاعر الفرد ، وأن منابع هذا الوحي من وراء منال البحث الانتقادي . ولكن ، برغم ذلك ، فإنه ، في مختلف الفنون ، سرعان ما يدرك الطالب أن هؤلاء ، الذين يريدون التفوّق ، لا مناص لهم من مراعاة ظروف لم يخلقوها وليس لهم عليها سوى سيطرة جزئية ؛ وقد اعترف بذلك كل فنان عظيم . فالشاعر هو ، من بعض الوجوه ، خلاصة الحياة الخيالية لعصره وأمته . وفي الحق إنه يمكن أن يقال : إن ما يسمّى مادته الخام ، فكره وخياله وشعوره ، يتعاون أفراد أمته معه في تكوينه . . . والقصيدة العظيمة هي ، في الحقيقة ، صورة للشعور القومي . .»[1] .

كورتهورب

(الناقد الإنكليزي)

---

1 انظر علي أدهم في كتاب : «على هامش الأدب والنقد» ص 134 .



تمهيد

العلاقة بين أحداث الحياة العامة وظواهرها وبين دراسة النتاج الأدبي في حياة الرشيد

عاش الرشيد في قصور فخمة زيّنها ونمّق زينتها ، وأحب العلم والأدب فأقام لهما المجالس في قصره أو قصوره ، وفتح أبوابها للفقهاء والأدباء والشعراء . ولم يكتف بذلك ، بل كانت حياته كلّها عابقة بالأجواء الأدبية يتنشّقها كيفما التفت وأينما حل . لكن حياة الرشيد لم تكن ، كما يُتصوّر في الأذهان ، حياة قصور ودواوين ، حدائق ومقاصير . لقد عرفت أيام الرشيد من الإضطرابات والقلاقل ما ندر أن يجتمع مثله لخليفة واحد . وعرفت من الصراعات ما حمل ثقل الماضي برمّته وناء بكلكله على حكم الرشيد ، يضغط عليه ويكاد يحدّ من انطلاقه . والرشيد ، بحيويّة دائمة الشباب ، وعنفوان إرادة لا تلين ، وحبّ لقيادة الجيوش كبير ، ورغبة صادقة في السهر على راحة الناس وتأكيد هيبة الملك ونيل رضا الله ، عاش وجهاً آخر للخلافة غير وجه الترف في القصور ومع الجواري . فانتقل ما شاء له القدر أن ينتقل بين العاصمة والثغور ، بين الرقة والري والحجاز والشام ، يقود غزوة هنا ويقمع ثورة هناك ويقضي على فتنة أو مؤامرة ، يحجّ إلى بيت الله ويستخيره في قراراته ، مخلّفاً في قصوره ليالي الأنس والطرب ، حاملاً معه دوماً «جهازه الأدبي» فلم يكن يستغني عنه أياً كانت الظروف . هكذا قيض للأدب الذي عمرت به حياة الرشيد والذي طاف معظمه حول شخصه ، أن يسجّل حركاته وسكناته ، عواطفه وهمومه وتطلّعاته ، غزواته وانتصاراته ، لا يكاد يغفل حالة من حالاته أو وضعاً من أوضاعه أو فترة من حياته . لذلك كان كثير من الأدب الذي أنتج للرشيد أو بسببه أو حوله ، مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالأحداث التي رافقته وبالأوضاع الاجتماعية والسياسية والعسكرية التي توالت على خلافته ؛ فكان لا بدّ من تخصيص قسم من بحثنا لهذا النوع من الأدب الذي خلقته الصراعات وهيّأته المناسبات المختلفة ، مع ربطه بحياة العصر وأحداثه ، من جهة ، وبشخص الرشيد من جهة أخرى ، لأننا نؤمن بأن دراسة الأدب ، بحدّ ذاته ، إذا كانت مفيدة على الصعيد الجمالي أو الفني المطلق ، فهي تقصر عن إحداث المتعة الشاملة التي يولدها الأثر الأدبي عندما توضع ملامحه ضمن اطاره الذي يتضمّن بواعثه وعناصر الهامه ، كما يتضمّن أثره الفاعل في جماعته[1] .

---

1 يقول الدكتور مصطفى سويف : «أما عن الثقافة الإنسانية الشاملة ، فيظهر أثرها ، مثلاً ، في كوننا لا نستطيع أن نتذوّق الأدب الأغريقي إلاّ إذا كنّا على علم بالحياة في المجتمع الإغريقي ، ولن نستطيع أن نتذوق الشعر الجاهلي إلاّ إذا كنّا على علم بالحياة في المجتمع العربي الجاهلي ، وقل مثل ذلك في سائر الفنون جميعاً . فالعلم بشؤون الحياة الاجتماعية ، بأوسع معانيها ، التي أحاطت بظهور عمل فنّي ما ، شرط لا بدّ منه لاكتمال تذوّقنا له . وكلّما بعدت الشقة بيننا وبين موطن ظهور هذا العمل (في الزمان أو المكان أو الحضارة) ، ازداد شعورنا بهذه الحقيقة . . .» (الأسس النفسية للإبداع الفني ص 44) .

وهذا النوع من الأدب يؤكد لنا أن الرشيد لم يكن ، في عليائه ، بعيداً عن الحياة اليومية لشعبه ولعصره . فلم يكن الأدب الذي تمّ تداوله في البلاط ، إلاّ أدب الناس ؛ والذي أنتج للبلاط لم يبعد كثيراً عمّا كان ينتج خارجه (إذا اتفقت الأغراض) . ولم يكن النقد ، الذي يتبادل حول الأدب في مجالسه ، بعيداً عن النقد المتفق عليه خارجه . ولعلّ هذا يميّز بلاط الرشيد من بلاطات الملوك في أوروبا التي عرفت مجالسها الأدبية الاستقرار المكاني ، ولم يعرفه بلاط الرشيد ، وعرفت أغراضها الأدبية وضوح الخط واستمراره وتميّزه ولم يعرفهما بلاط الرشيد ، وكان الأدب الذي ينتج في معظمها موضوعياً لا يوجه إلى شخص الملك إلاّ نادراً ، بعكس الأدب الذي أنتج في بلاط الرشيد . لهذا كلّه خصصنا القسم التالي من البحث بالأدب الذي أوحت به ظروف اجتماعية أو سياسية أو عسكرية ، ونمت أمواجه في صميم خضم الحياة العامة أو حول البلاط ، وجاءت لتستقر عند أقدام الرشيد . ونودّ هنا أن نلفت النظر إلى أننا كنا نضطر ، لأجل فهم طبيعة هذا الأدب ، إلى تقديم نبذة تاريخية أو اجتماعية ، لا نهتم بتسجيل أحداثها كما رواها المؤرّخون ، بقدر ما نهتم بما وراء الأحداث من عوامل خفيت على المؤرخ واستطاع أن يستقرئها الباحث النتاجَ الأدبي ، لتلقي بذلك ضوءاً على الحدث التاريخي ، وتبرز قيمة أكبر للأثر الفنّي . وقد خصصنا باباً بالصراعات الاجتماعية التي عرفها العصر وتجلّت في مواجهات كلامية أو عسكرية ، كلامية ، وبالصراعات السياسية ، الداخلية منها والخارجية ، بينما أفردنا باباً آخر للمناسبات العامة والخاصة التي عايش أحداثَها البلاط[1] وكان الأدب السجل الرئيس لها : أعطى البلاط وجهَه المشرق وأخذ منه طابَعه وإرادة عاهله .

---

1 إن الحديث عن أدب أنتجه الصراع العصبي ، بمختلف أنواعه ، لا يتعلّق بشخص الرشيد ، بقدر ما يتعلّق بالمؤسسة السلطوية التي يمثّلها ويرئسها والتي تضم الخليفة وكبار رجال الدولة ؛ وهذا يدخل في مفهوم البلاط بمعناه الاصطلاحي دون ربطه ببهو معين أو بنوع محدّد من أنواع المجالس . وقد سبق لنا القول إن الأدب لا يقتصر على مجالس الرشيد الأدبية بل هناك أدب ينتج في أي مجلس من مجالسه ، سواء السياسي منها أو العسكري . وهذا ما يدخل ضمن مفهوم الأدب الإداري الذي نتحدّث عنه في آخر البحث .

الباب الأول
تيارات الصراع الاجتماعي والسياسي

الفصل الأول
صراع العصبيات

إشرَبا ما شَرِبتُما ، إنَّ قيساً ، مِـنْ قَتيـلٍ وهالِكٍ وأسيرِ ،
لا يحـوزنَّ أمرنَـا مُضَـريٌ بِخَفيـرٍ ولا بغيـرِ خفيـرِ[1]

تمهيد : معنى العصبية ومظاهرها

نعني بالعصبية التيّارات المختلفة ، الاجتماعية أو السياسية أو الدينية ، التي تنجم عن مواقف نفسية أو مصالح مادية تجمع فئات من الناس مقابل فئات أخرى ، خالقة بين الجميع موجات من التنافس الخفي أو الظاهر ، تنافسٍ قد يشتد ليتحوّل إلى مواجهة جدلية أو إلى مؤامرات وفتن وثورات ، وقد يتحوّل إلى غزوات وحروب . هذه التيّارات كثيراً ما كانت مولِّدةً لإنتاج أدبي مهم ، اتصل بعضه بالبلاط ، أو شارك البلاط فيه . والواقع أن هذا الموضوع واسع وشائك متداخل : فنادراً ما يمكن فصل التيارات بعضها عن بعض ، كما أنه تستحيل دراستها مجتمعة . ونحن لسنا بصدد هذا أو ذاك ، لكننا نحاول أن نقدم عرضاً موجزاً يهيّيء إطاراً لا بدّ منه لفهم العقلية التي سادت البلاط الرشيدي والتي حكمت العلاقات داخله ، كما حكمت تعامله مع الخارج . وعصر الرشيد حفل بأنواع من الصراعات غصّ بها التاريخ العربي . لقد ورث العصبية العائلية التي دارت حولها حياة الصحراء في الجاهلية ، ففرقت القبائل وقوّت الفرد أو التجمّعات الصغيرة ، وارتدَت مظاهر متعدّدة : فهي عصبية العرب عامة ، ضد من ليسوا عرباً ، وهي عصبيةٌ تُقاربُ العنصرية ، بل إنها ، بعد الإسلام وانتشاره بين الأمم والشعوب العديدة ، تحوّلت فعلاً إلى تمييز عنصري يمارسه العرب المسلمون الذين يمسكون بيدهم زمام السلطة ، ويقاسي منه المسلمون وغير المسلمين من أبناء الشعوب الأخرى المغلوبة . ومن مظاهرها أيضاً ، داخل الأسرة العربية ، صراع بين الجذرين الأساسين : قحطان وعدنان[2] ، أي بين عرب الجنوب وعرب

---

1 البيتان خلف وضع السيف في ربيعة ، حسب رواية الأصفهاني .

2 من المعروف أن العرب «البائدة» التي سكنت شبه الجزيرة العربية انقرضت وحلّ محلّها «العاربة» . ويبدو أن قحطان ، جد العرب«العاربة» ، أو ابنه يعرب ، هو أول من تكلم اللغة العربية ونقلها إلى ذريته . أما عدنان ، جد «المستعربة» فيرقى بنسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل ، الأعجمي المنشأ ، المتربي في أحياء عرب قحطان ، المتزوج

الشمال . أما مظهرها داخل الجذر الواحد فصراعات جزئية لا قرار لها ولا قاعدة ، ولا يمكن احصاؤها ، أهمها ، بين جنبي العدنانية : صراع مضر وربيعة . ولا بدّ من الإشارة إلى مظهر جديد أخذته العصبية العائلية بعد الإسلام ، وهو الصراع بين القرشيّين والأنصار ، الذي هو وجه آخر للصراع بين عدنان وقحطان . .[1] وكما ورث هذا العصر العصبية العائلية والعنصرية ، ورث أيضاً العصبية الإسلامية بمواجهة الأديان الأخرى ، وصراعات المذاهب المختلفة التي تفرعت من الدين الإسلامي . وقد عرفت هذه التيّاراتُ جميعها طريقاً إلى البلاط ، وخاض غمارَها الرشيدُ وعائلته وعماله ووزراؤه وشعراؤه وقضاته ، ككل إنسان في مملكته .

أولاً : العصبية القبلية أو العائلية في أيام الرشيد

1 ـ مظاهرها : هذه العصبية كانت ماثلة في البلاط ، مهيمنة على علاقات رواده المنتمين إلى مختلف القبائل ، بالنسب أو بالولاء . وقد مرّ بنا أن رؤساء القبائل كانوا من جلساء الرشيد ، يتربّعون على أماكنهم المعروفة في بلاطه ، ويتنافسون في كسب رضاه وفي تحقيق أكبر قدر ممكن من التميز . كذلك كان كل عامل من عمّاله مضطراً إلى أن يقدّم رؤساء القبائل في منطقة ولايته ويحدّد لهم أماكنهم في مجلسه ، حسب أهمية القبيلة وولائها للحكم ، أو أن يساوي بينها إذا أراد أن يتحاشى إذكاء النعرة العصبية وأن يتدارك فتنتها[2] . والرشيد نفسه ، مع ما عرف عنه من كره هذه

= منهم والمتعلّم لغتهم . وكان منزل القحطانيّين اليمن حيث أنشأوا مملكة قوية قام عليها ملوك التبابعة الذين وصلوا في غزواتهم إلى الصين . ومنهم كان الغساسنة الذين سكنوا الشام ، (تاريخ اليعقوبي ج 1 ص221 وما بعد) ، (وانظر مروج الذهب دار الأندلس ـ ج 2 ص 24 و 87 و89 ومقدّمة ابن خلدون ج 2 ص 427 ، وقطف الزهور في تاريخ الدهور ص 94 و100 وتهذيب سيرة ابن هشام ص 15 وما بعد وفجر الإسلام ص 4 وما بعد ، على سبيل الذكر لا الحصر . وانظر في الصراعات القبلية : المراجع السابقة والعقد الفريد ج 5 ص 132 وما بعد ، وتاريخ ابن الأثير ج 1 ص 285 وما بعد و (محمود إبراهيم وعلي البجاوي) في «أيام العرب في الجاهلية» و«أيام العرب في الإسلام» (على سبيل الذكر أيضاً ، لا الحصر) .

1 الأنصار من قبائل الأوس والخزرج ، وهم من الأزد المنتمين إلى عرب الجنوب . وقريش من قبائل عدنان .

2 يذكر محمد كرد علي تدبيراً اتخذه إبراهيم بن محمد المهدي ، أثناء ولايته على الشام ، بعد إطفاء فتنة العصبية فيها . ويقضي التدبير بتوزيع المقاعد في مجلسه بين اليمنية والمضرية . فيقول : «أمر حاجبه بإحضار وجوه الحيين وأمره بتسمية أشرافهم وأن يقدم ، من كل حي ، الأفضل فالأفضل منهم . فأمر بتصيير أعلى الناس من الجانب الأيمن مضرياً وعن شماله يمانياً ، ومن دون اليماني مضري ، ومن دون المضري يماني ، حتى لا يلتصق مضري بمضري ولا يماني بيماني» . واعتدّ نفسه ، كوالٍ من آل هاشم ، يمثل قريش . والله ، عزّ وجل ، «جعلَ قريشاً مَوازينَ بين العرب ، فجعل مضر عمومتها وجعل يمن خؤولتها ، وافترض عليها حب العمومة والخؤولة : فليس يتعصّب قرشي إلاّ للجهل بالمفترض عليه» . ولكي لا تحصل مفاضلة بين الحيّين بظنّ اليمين أشرف من اليسار ، خاطب الأشراف الذين رتبهم في مجلسه قائلاً : «إلاّ أن مجلسك ، يا رئيس المضرية ، في غد ، من الجانب الأيسر ،

النعرة وما سنتحدّث عنه من حربه لها لاستئصال شأفتها ، كانت تصدر عنه تصرّفات تدل على وجودها في أعماق نفسه[1] . ويبدو غريباً حقاً أن تستمر العصبية في حكم العلاقات العامة أيام الرشيد ، مع أن العبّاسيّين كانوا بعيدين من عصر الجاهلية ، مهد العصبية ، ومع أنهم اصطنعوا الخراسانيّين شيعة لهم ، لا أهل هذا الجذر أو ذاك من الجذور العربية . والأغرب من ذلك أن تكون العصبية قد تجاوزت حدود الجزيرة العربية والشام والعراق ، وأن تكون قد عشّشت في البلدان المفتوحة ، في خراسان وأرمينية ، وحتى في الأندلس حيث لعبت دوراً هائلاً في السياسة والحكم . فالعرب الفاتحون ، الذين كانوا يدعون العالم إلى اعتناق مبادىء الإسلام ، لم يستطع عدد كبير منهم التقيّد بتعاليم الدين الخاصة بالدعوة إلى الوحدة في الإيمان ، بعيداً عن سائر الاعتبارات الدنيوية ، وعن العصبية بخاصة . فبقيت هذه في ضمائرهم ، حملوها معهم أينما ساروا وحلّوا .

2 ـ أسبابها : لعلَّ أبرز الأسباب في تمرّد العصبية على الإيمان ، على الرغم من عنفه في عنفوانه ، يكمن في طبيعة العربي التي تميل إلى الشعور بالتميّز . فهذا الميل إلى التميّز كان يدفعه إلى الخوف من المجتمع الكبير الذي تذوب فيه شخصيّته لتصبح نقطة في خضم . لقد كان العربي دائماً يرفض الخضوع المطلق للسلطة والقانون لأن السلطة والقانون يهدفان إلى معاملة جميع الناس على قدم المساواة ، بينما هو يقضي حياته ، مخاطراً ومغامراً ، ليثبت تميّزه[2] . ولم يكن يتعارض ، وهذا الميل لديه ، انتماؤه إلى العائلة ، فهي تشكّل جماعة نفوذ وضغط أشبه بالجزيرة الراسية يقف فيها على أرض صلبة وسط محيط رجراج . وقد يكون هذا من ضمن الأسباب التي جعلت العرب في الجاهلية لا يثبتون على حلف واسع يجمع العشائر أو الجذور . ولطالما اعتدّ المؤرّخون تجمع القبائل في وجه الفرس ، يوم ذي قار ، حدثاً فريداً[1] ما قُدّر له أن يتكرر . فالعرب

= ومجلسك ، يا رئيس اليمنية ، في غد ، من الجانب الأيمن . وهذان الجانبان يتناوبان بينكما ، يكون كل من كان في جهته متحوّلاً عنه في غده إلى الجانب الآخر . فانصرف القوم كلّهم حامداً» . (الإدارة الإسلامية في عهد عز العرب ص 138) .

1 سنفصل ذلك في مكان لاحق من هذا الفصل . ونذكّر بحبس الرشيد أبا نواس لقصيدته المشهورة في هجاء قبائل عدنان .

2 مما يصف به ابن خلدون العرب قوله : «إنهم ، لِخُلق التوحش الذي فيهم ، أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض ، للغلظة والأنفة وبُعد الهمة ، والمنافسة في الرياسة ، فقلّما تجتمع أهواؤهم» . (المقدمة ج 2 ص 456) ويقول : «أيضاً فهم متنافسون في الرياسة ، وقلّ أن يسلّم أحد منهم الأمر لغيره ، ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته ، إلا في الأقل ، وعلى كره ، من أجل الحياء» . (المصدر السابق ص 455) .

3 يذكر المسعودي قول الرسول ﷺ عن ذي قار : «هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم . . .» (مروج الذهب ج 1 ص 307) ويرى أحمد أمين أن العرب لم تجتمع قومياً حتى في يوم ذي قار وأن الفخر عاد للقبائل المشتركة في المعركة لا للعرب جميعاً . (راجع ضحى الإسلام ج 1 ص 18) .

لم يلبثوا ، بعده ، أن عادوا إلى سابق عهدهم في التفرّق والصراع . ولا شكّ في أن الصراع على الخلافة ، بعد موت النبي ﷺ ، وبعد الخلفاء الراشدين بشكل خاص ، دفع أولي الأمر ومناوئيهم إلى إحياء العصبية الجاهلية لأن أيًّا من الطامحين إلى الخلافة لم يكن بوسعه أن ينال إجماع الآراء من مختلف نواحي الأمبراطورية التي كانت تترامى ، متزايدة باستمرار ، ولا أن يرضي أهواء جميع رعاياها . كان هناك دائماً مناهضون ممن لَحِقَهم الظلم ، أو ممن أصيبوا بخيبة الأمل ، أو ممن لم يصبهم من النعم ما أصاب سواهم ؛ كل هؤلاء ، وغيرهم كثيرون ، كانوا يستجيبون لمن يحرضهم على الحاكم لإنهاك قواه . وكان الحاكم نفسه يحرّضهم على خصومه السياسيين لإرباكهم ؛ كما أن العمال على المناطق لم يكونوا دائماً سياسيين محنّكين ، فراحوا ، أحياناً ، يضربون على وتر العصبية العائلية لتثبيت نفوذهم وإطالة مدّة ولايتهم ، فسبّبوا الفتن والقلاقل من حيث أرادوا الاستقرار[1] . ولم يشذّ عصر الرشيد عن أجواء العصبية هذه ، فاهتزّ البلاط مرّات ومرّات تحت ضرباتها ، وشهد ملامح من الأدب المعبر عن نعرتها والمتمثل في بعض النقائض والمهاجاة الشعرية .

3 ـ أدب النقائض والمهاجاة في العصر العباسي

أ ـ مظاهره : من المعروف أن العصبية العائلية التي كانت سبباً رئيساً لمعظم حروب الجاهلية ، أو أيامها ، كانت أيضاً مولداً لمعظم إنتاجها الأدبي ، وكثيرون من أبطال الجاهلية كانوا شعراء يستخدمون السيف إلى جانب سوط الشعر يلهبون به أعداءهم . ولا شك في أن نقائض العصر الأموي ، التي أنجبت أدباً غزيراً وفذًّا ، كانت تحيـي رواسب الجاهلية ، تنبش ، في أيامها وأحداثها ، عن حججها وبراهينها لتدعم فخراً أو تسوّغ ثلباً وإزراء ، كل ذلك تحت سمع الخلفاء الأمويين وبصرهم ؛ وقد أعجبهم انصراف الناس إلى متعة الشعر ، فهم ، بذلك ، ينسون الحاجة إلى امتشاق السيف وتنظيم الثورات . أما في العصر العبّاسي فقد تقلّص أدب النقائض والمهاجاة حتى كاد يختفي[2] ، ولم يصلنا إلاّ الشيء النزر منه عن أيام الرشيد ؛ وأبرزه المهاجاة بين مسلم بن الوليد والحكم بن قنبر ، وفيها أخذ مسلم وجهة نظر الأنصار لأنه انتسب إليهم بالولاء وأعتقد أن من واجبه توظيف قلمه ولسانه في الذود عنهم[3] ، بينما أخذ الحكَم جانب قريش يفضلها على

1 راجع ضحى الإسلام في اعتقاد الوالي أن قبيلته تلي معه (ج1 ص 21) . ويذكر اليعقوبي أن أرمينية كانت تغلب عليها اليمنية فوليها يوسف بن راشد السلمي فنقل إليها جماعة من النزارية . ثمّ ولي يزيد بن مزيد فنقل إليها ربيعة من كل جانب . (تاريخ اليعقوبي ج 2 ص426) .

2 انظر أحمد الشايب في (تاريخ النقائض في الشعر العربي ص 468 و469) .

3 يقول مسلم بن الوليد في ذلك ، مخاطباً الحكم :

رَفَعَتْ بنـو النَّجّارِ حلفي فيهـمُ	ثمّ انفردتُ فأفسحوا عن مَجلِسي
فاعقلْ لسانَكَ عـن شتائِـمِ قومِنا	لا يعلَقَنَّكَ خـادِرٌ مـن مَأنَسِ

العرب أجمعين . ولا بأس بأن نتوقّف هنا قليلاً ، نظراً لأهمية هذه المهاجاة ولما فيها من عناصر تميّزها مما سبقها . فوجهة نظر الأنصار أنهم كانوا سنداً للرسول حين كان غريباً في جماعته وبين أهله من قريش ، بل إنه كان مضطهداً منهم ، ومن قريش كان أشدُّ أعدائه عداءً له ؛ ولو بقي بينهم لخُنقت دعوته في مهدها . فإذا قُيض للإسلام العز والمنعة ، فبسبب الأنصار[1] . أما وجهة نظر ابن قنبر فهي أن النبي مرجع كل فخر ، والإسلام أساس كل عز . فلو لم تكن هناك قريش ، ومنها نبي أنزل عليه الإسلام ، فمَن كان الأنصارُ ينصرون وأيَّ عزّ كانوا ينالون ، وماضيهم ، قبل الإسلام ، موصوم بأنواع الذل التي سامهم إياها «فطيون» ملك اليهود[2] ؟ وقد تخلّلت المهاجاة مواقف كثيرة من السب والشتم والإهانات وتجريح الأنساب . إنما يهمّنا هنا أن نسجّل الملحوظات التالية على هذه النقائض : أولاها أن الناس ، في هذا العصر ، لم يعودوا يتحمّسون لهذا النوع من الأدب ، فلا يستسيغونه ولا يشجّعونه . فهم ، مع بقاء العصبية بينهم ، لم يعودوا يرتاحون إلى نبش المعايب وإبراز المثالب التي لا يخلو منها ماضي أيٍّ من القبائل : إنهم عن ذكرها في غنى . لهذا ، لم يكن الأنصار راضين عن افتعال قضية لهم وتبني مسلمٍ لها ، بل إنهم راحوا يلومونه على فتح معركة نابهم منها الهوان حتى قال له أحدهم :

ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ ، قد هَتَكْتَ حريمَنا ... وفَضحتَ أسرتَنا ، بني النَجّارِ
عمّمتَ خَزْرَجَنا ومعشرَ أَوسِنا ... خِزياً جنيتَ به على الأنصارِ
فعليكَ ، من مولىً ، وناصرِ أُسرَةٍ ... وعشيرةٍ ، غضبُ الإلهِ الباري[3]

وثانية الملحوظات : أن أي مهاجاة ، في هذا العصر ، يكون طرفها قبيلة الخليفة أو عشيرته أو عائلته ، لا تكون مهاجاة حرّة ، لأن الخليفة خصم غير عادي ولا قِبَلَ به لأي شاعر ، ولا يمكن لبيت أن يسير ويشتهر إذا ناهضه . لذلك نرى ابن قنبر يشد حجته باستعداء السلطان على مسلم .

---

1 يقول مسلم مشيراً إلى دور الأنصار في إجارة النبي :

أيكُمْ حاطَ ذا جِوارِ بِعِزٍّ ... قبلَ أنْ تَحتويه مِنّا الدارُ ؟
فبنا عَزَّ مِنكُمُ الذُلُّ والدهـ ... ـرُ عليكُمْ بِرَيبِهِ كرّارُ

2 من قصيدة الحكم بن قنبر :

وسُمّوا به الأنصارَ ، لا عَزَّ قائلٌ ... أرادَ قريشاً بالمَقالِ المُذَمَّمِ
وما كانتِ الأنصارُ ، قبل اعتصامِها ... بنَصرِ قُريشٍ في المَحَلِّ المُعَظَّمِ
ولكنَّهم ، باللهِ عاذوا ، ونَصرُهُمْ ... قريشاً ، ومن يَستَعْصِمِ اللهَ يُعصَمِ
فَعَزُّوا وقد كانوا ، وفِطيَوْنُ فيهِمُ ، ... من الذُلِّ ، في بابٍ من العِزِّ مُبهَمِ

(الأغاني ج 18 ص 348 و 349 و 350) .

3 الأغاني ج 18 ص 344 .

وتلك كانت أكبر ركيزة في هجائه ، فهي كافية ليسلِّم مسلمٌ سلاحه الهجومي ويتنصّل من قصيدته الهجائية ، بل ويتحدث عن فضائل قريش وعن الصلات العريقة التي ربطتها دائماً بالأنصار[1] ، ومن ثمّ حاول أن يرد إلى صدر الحَكَم سلاحَه مُعيباً عليه استخدامه تحريض الخليفة ، مؤكداً أن الخليفة أرفع بكثير من أن يؤخذ بهذه الحيلة[2] . ومهما يكن من أمر ، فلا شك في أن مقام قريش بين المسلمين بات رفيعاً ، أقرب إلى الإعظام والتقديس . وقد يكون لمرور فترة طويلة على تمرّس قريش بالخلافة وأمور السلطة ، دورٌ في تكريس فضلها وتميّزها ، تكريساً ساهم الخلفاء في ترسيخه وإقناع الناس به حتى باتوا لا يستسيغون ثلباً في قريش ، اللّهم إلاّ الشعوبيين منهم الذين غذَوا في أنفسهم كره العرب أجمعين ، وقريش الممثلة لعروبتهم وسلطانهم . وثالثة الملحوظات هي شكل جديد أخذته النقائض بعد الإسلام ، إذ أصبح الدين معياراً للفخر . وحاولت العصبية العائلية جذبه إليها واحتواءه ، فتنازعه الجذران الكبيران : قحطان وعدنان : الأول حمى الدين ونصره ، والثاني كان مهده ومنبته . هكذا تشكّل هذه المهاجاة نموذجاً نادراً في ذلك العصر[3] . والأرجح أنها لم تبق بعيدة عن البلاط ، فلا بدّ أنها طرقت سمع الرشيد فوقر في نفسه ما جاء فيها ، عن لسان مسلم ، من ثلب قريش . ومن يدري فقد يكون تشدد الرشيد في طلبه مع المتشيعين الخارجين على الدولة[4] ، يخفي وراءه حافز عصبية قرشيّة .

ب ـ أسباب ضعف أدب النقائض في العصر العبّاسي : يعيد بروكلمن[5] ندرة النقائض في العصر العبّاسي إلى سببين : أولهما تحوّل الشعراء من البداوة ، في عهد الأمويّين ، إلى الحواضر ، في عهد العبّاسيّين . وأهل الحضر ، بعقلهم ومزاجهم ، لا يستسيغون الانطواء على الماضي ينبشون

---

1 مما قاله مسلم في ذلك :

وإنَّ الذي يَسعـى لِيقَطـعَ بينَنـا   كَمُلْتَمِسِ اليُربوعِ في جُحرِ أرْقَمِ

المصدر السابق ج 18 ص 352 .

2 يقول مسلم من قصيدته المعارضة :

دعوتَ أميرَ المؤمنـينَ ولم تَكُنْ   هنـاكَ ، ولكنْ من يَخَفْ يَتَجَشَّمِ

وإنكَ ، إذْ تدعو الخليفَة ناصِراً ،   لكالمُتَرَقّـي في السمـاءِ بِسُلَّمِ

(المصدر السابق) .

3 هذا لا يعني أنها كانت الوحيدة . ونشير هنا إلى قصيدة الكميت في الفخر بنزار ، ونقض دعبل لها بذكر مناقب اليمن . (انظر مروج الذهب ـ دار الأندلس ـ ج 3 ، ص 231) .

4 العقد الفريد ج 2 ص 181 .

5 مما يقوله بروكلمن عن هذه الفترة : «خلَف شعراءَ البادية ، الذين استغرقت الخصومات القبلية والمنافسات التافهة معظم نشاطهم أيام الأمويين ، جيلٌ جديد من شعراء الحواضر . وتكاثرت شواغل الناس ، فهم لا يجدون متّسعاً من الوقت يفرغون فيه لقصائد الشعراء القدماء الطويلة المملة . .» (تاريخ الشعوب الإسلامية ص 189) .

فيه كما رأينا ، وأمامهم الحاضر المزهر المتطوّر . والسبب الثاني هو تغيّر الجمهور . فالمجتمع العبّاسي الذي غصّ بأنواع المتع ومجالات العلم والمعرفة ، شُغل بها عن القصائد الطويلة الرتيبة التي كانت تعتمدها النقائض[1] . ونحن نضيف سببين آخرين : أولهما اختلاف طريقة الحكم العبّاسية عن الأمويّة . فالحكم الأموي ، كما وُصف[2] ، هو حكم يشبه الخليفةُ فيه رأسَ العشيرة ، يخضع له أفرادها دون أن يبتعد عنهم أو يكبت حريّاتهم . والحكم العباسيّ ، مع إطلاقه الكثير من الحريات الشخصية ، كبت الحرية السياسية وزادت سطوته وسيطرته على الرعية حتى لم يعد يخفى عليه أمر من أمورها ولا يغمض العين عن حدث يجري إن كان لا يرضى عنه ، ولم يكن ليرضى عن إذكاء النعرة العصبية التي تؤدي حتماً إلى إشعال الاضطرابات وإثارة القلاقل[3] ، وما كان أكثرها في أيام العباسيين ، ولكم استهلكت من جهودهم في صراعهم الدائم معها ؛ وكان للرشيد حصة الأسد منها ! . . . وثاني السببين دخول فريق جديد معركة العصبية ، وهو فريق الموالي الذين بدأوا يجدون النفوذ والسند في الدولة الجديدة ، ويجدون معهما الجرأة والتطاول على العرب ، جميع العرب دون استثناء . لذلك انصرفوا إلى جمع المثالب وإخفاء المناقب . فتحوّلت معركة العصبية العائلية إلى عصبية قومية أو عنصرية كما سنرى . .

4 ـ مظاهر العصبية في بلاط الرشيد : إن جميع مظاهر العصبية التي سبق عرضها تجلّت في بلاط الرشيد وكان للخليفة موقف منها : من العصبية الهاشمية ، إلى القرشية ، إلى المضرية ، إلى العدنانية فالإسلامية . ونتناول كلاً من هذه المظاهر على حدة ، في تصرفات الرشيد ، بعد أن نتحدث ، بشكل عام عن تجلي هذه العصبية في أجواء البلاط . ونذكّر بأن بلاط الرشيد

---

1 هذا لا يعني أن الفخر بالعائلة والقبيلة اختفى من قصائد العبّاسيّين عموماً . ففضلاً عن الحركة التي أثارها بحث الموالي عن نسب بالولاء إلى القبائل العربية ، أو بالادعاء ، كان هناك شعراء يتعصّبون ، كبكر بن النطاح مثلاً الذي كان كثير التعصب لربيعة وفيها قال قصيدته الشهيرة : ومن يفتقر منّا يعش بحسامه . . .» (زهر الآداب ج 4 ص993) .

2 انظر مقدّمة ابن خلدون ج 2 ص 696 وحديث الأربعاء ص 21 .

3 لا بد من إشارة إلى أن رواسب العصبية كانت تفرض وجود أدب يعبر عنها وإن لم يكن كله أدب نقائض . والذي وصل إلينا منه قليل مبتور . من ذلك ما رواه المرزباني عن دعوة يزيد بن أُسيد قضاعة إلى التمضّر . مما أثار حفيظتها ، فانتضى كلثوم العتابي سيف لسانه مدافعاً عن قبيلته مؤكداً أن أمجادها تكفيها ، فلا تحتاج إلى الانتساب في سواها . وقال قصيدة طويلة أولها :

مَنْ رسولٌ لنا إلى ابنِ أُسيدٍ   بِقَوافي قَصائدٍ مُحْكَماتِ

وقال قصيدة أخرى جاء فيها :

ما وَلَدَتْنا وِلادةً مُضَرُ   ولا لنا في تَمَضُّرٍ أَرَبُ

(معجم الشعراء ص 245)

كان منتدى يتمثل فيه المجتمع العربي الأصيل[1] فباهلة لها ممثل[2] وسلم لها ممثل ، وثقيف لها ممثل[3] ، وكذلك عبس[4] ، ومثلها خزاعة[5] وحمير[6] وأهل الحجاز والمدينة ، ومعظم القبائل

---

1 كان الوجوه يقفون بباب الرشيد ينتظرون الأذن بالدخول إلى البلاط . فقد روى الأصفهاني عن موسى السلولي قوله : «بينما نحن بالرافقة ، على باب الرشيد وقوف وما أفقد أحداً من وجوه العرب ، من أهل الشام والجزيرة والعراق . . .» (الأغاني ج 13 ص 16) . راجع ص 101 هامش 4 من البحث .

2 تحدث الطبري عن سعيد بن سلم الباهلي في رواية دخول الأعرابي الباهلي على الرشيد فقال : «ذُكر أن سعيداً بن سلم الباهلي دخل على الرشيد فسلّم عليه فأومأ إليه فجلس . .» وراح يغري الرشيد بالاستماع إلى الأعرابي الواقف بالباب . وحين وافق الرشيد وأدخل الأعرابي وألقيت الكراسي كان سعيد بن سلم أحد المتربعين عليها . (تاريخ الطبري ج8 ص 363 وزهر الآداب ج 4 ص 1044) . انظر فيما بعد ص 259 هامش 3 من البحث .

3 يذكر الأصفهاني كلاً من أبي بكر السلمي وعثمان بن الحكم الثقفي في خبر وصول محمد بن مناذر إلى الرشيد . فقد نظم قصيدة «وأراد أن ينفذ بها إلى الرشيد . فلم يلبث أن قدم البصرة حاجًّا ليأخذ على طريق النِباج ، وهو كان الطريق قديماً ، فدخلها وعديله إبراهيم الحرّاني . فتحمّل عليه ابن مناذر بعثمان بن الحكم الثقفي وأبي بكر السلمي حتى أوصلاه إلى الرشيد فأنشده إياها . . .» (الأغاني ج 18 ص 118) .

4 في حادثة سبق ذكرها موضوعها ضرب المأمون عنق أسير من الروم في مجلس الرشيد ، قال الأصفهاني إن ذلك كان بعد أن نبا سيفاً ذُفافة العبسي وابن فليح المدني . وحين نجح المأمون قام اليزيدي يمدحه ويغمز من ذُفافة وأسرته :

أبقى ذُفافةُ عاراً ، بعد ضَرْبتِهِ عِندَ الإمامِ ، لِعَبْسٍ ، آخرَ الأبَدِ
كَذاكَ أسرَتُهُ تنبو سيوفُهمُ كسيفِ وَرْقاءَ لمْ يقطَعْ ولم يَكَدِ
ما بالُ سيفِكَ قد خانتْكَ ضَرْبَتُهُ وقد ضَربتَ بسيفٍ غيرِ ذي أَوَدِ ؟

(الأغاني ج 20 ص 181) وراجع ص 53 هامش 5 من البحث .

5 عبدالله بن مالك الخزاعي من الأشراف ، كان في صحابة الهادي ، والمهدي قبله ، والرشيد بعده . ويذكر الحصري خبر دخول المفضل الضبي على المهدي وإنشاده أربع أبيات ، بناء لطلبه ، أتت مجسّدة المثل الأعلى للعربي ، فأشار المهدي إلى عبدالله بن مالك ، قائلاً : هذا هو . ومن الأبيات :

فتىً يملأ الشيزى ويروي سنانَهُ ويضربُ في رأس الكميِّ المدجَّجِ
فتىً ليس بالراضي بأدنى معيشةٍ ولا في بيوتِ الحيِّ بالمتولِّجِ

(زهر الآداب ج4 ص 1070) ويذكر صاحب التاج أن الرشيد غضب عليه فتوسّل بمحمد بن إبراهيم الإمام لمحو موجدته عليه ، ونال العفو . «فكان عبدالله ، بعد ، إذا دخل على الرشيد رأى فيه بعض الإعراض والانقباض» . (التاج ص 170) .

6 من خؤولة الرشيد يزيد بن منصور الحميري . وكان أثيراً عنده ، وبه توسّل مسلم بن الوليد للدخول إلى البلاط ، كما ذكر البيهقي إذ قال : «خرج مسلم بن الوليد ذات يوم فلقي يزيد بن منصور الحميري بباب الرشيد ، فسلّم عليه فردّ عليه السلام ورحّب به وسأله عن شأنه فخبّره وسأله أن يقرّبه من الخليفة وأن يحتال حتى يُعدّ في ممازحيه ومن يُجري عليهم أرزاقه . فقال له الحميري : سأتأتّي لوصولك إلى أمير المؤمنين . . .» (عن المحاسن والمساوىء قصص العرب ج2 ص 300) .

العربية[1] . وجميعهم كانوا حاضرين بكامل إنتمائهم القبلي وعصبياتهم ، يخبت تحيّزهم بحضور الرشيد خوفاً من بطشه وسرعة انتقامه ؛ ويتسرّب ، من وقت إلى آخر ، تعصباً[2] واستثماراً لقربهم من الرشيد في مصلحة أبناء العشيرة والقبيلة[3] . والرشيد ، نفسه ، كان

---

1 منهم مالك بن طوق التغلبي ، وهو من الأشراف البارزين . وقد مرّ بنا ذكره مع أصحاب مجالس القصور . يصفه الوطواط بأنه أحد ندماء الرشيد . وقد أقطعه أرضاً فبنى عليها مدينة جميلة ، وساعده على ذلك بالمال والرجال . وهي «الرحبة» على الفرات ، بين بغداد والرقة . وخرج على الرشيد فأنفذ الجيوش حتى ظفروا به وحبسه ، ثم عفا عنه . (عن الغرر والعرر ، قصص العرب ج 2 ص 310) .
ومنهم عبدالله بن مصعب بن ثابت بن عبدالله بن الزبير . يصفه الأصفهاني بأنه «شاعر فصيح وخطيب ذو عارضة وبيان . . .» وذكر الطبري أنه كان «على خبر الناس للرشيد» وكان الرشيد كثيراً ما يستنشد شعره . (الأغاني ج 3 ص 285 وانظر الطبري ج 8 ص 297 وأمالي القالي ج 1 ص 254 وتاريخ بغداد ج 10 ص 175) .

2 يتجلى ذلك في رواية أحمد بن سعيد الباهلي لخبر دخول أشجع السلمي على الرشيد . يقول : «أنشده أشجع :

قَصْـرٌ عليـه تحيّـةٌ وسَلامُ   أَلْقتْ عليـهِ جَمَالَها الأيـامُ

فجعلتُ أتعصب له بالقيسية وأرفع منه ، إلى أن انتهى إلى قوله :

وعلى عـدوِّكَ ، يا ابنَ عم محمدٍ   رَصَدان : ضوءُ الصبح والإظلامُ

فاستحسن الرشيد ذلك ، وأومأت إلى أشجع أن يقطع الشعر ، إذ علمت أنه لا يأتي بمثلها ، فلم يفعل . ولما أنشده ما بعدهما ، فتر الرشيد وضرب بمخصرة ، كانت بيده ، الأرض . . فلما خرجنا قلت لأشجع : غمزتك أن تقطع فلم تفعل ، ويلك ! ولم تأت بشيء ، فهلاّ متّ بعد البيتين أو خرست ، فكنت تكون أشعر الناس ؟» (الأغاني ج 18 ص 146) .

ـ ويذكر الأصفهاني أيضاً مدح ابن مناذر للرشيد بقصيدته النونية ، «فلما بلغ آخرها كان فيها بيت يفتخر فيه ، وهو قوله :

قَومي تميمٌ ، عندَ السِماكِ ، لهم   مَجـدٌ وعِـزٌ ، فمـا يُنالونـا

فلما أنشده هذا البيت ، تعصب عليه قوم من الجلساء . فقال له بعضهم : يا جاهل أتفخر في قصيدة مدحت بها أمير المؤمنين ؟ وقال آخر : هذه حماقة بصرية . . . .» (المصدر السابق ص112) .

ـ ومن الأدلة على أن العصبية قائمة دائماً ، لا تنفكّ تظهر في أول مناسبة ، ما رواه الأصفهاني أيضاً عن أبي محمد اليزيدي ، قال : «أمر لي الرشيد بمال ، وحضر شخوصه إلى السن (مدينة على دجلة) . فأتيت عاصماً الغساني ، وكان أثيراً عند يحيى بن خالد ، فقلت له إن أمير المؤمنين قد أمر لي بمال ، وقد حضرت من شخوصه ما قد علمت ، فأحب أن تذكّر أبا علي (يحيى بن خالد) أمره ليتعجّله لي . فقال : نعم . ثم عدت إليه بعد يومين ، فقال لي ، يتفخّم في لفظه ، ما أصبت لحاجتك موضعاً . . . فلما خرجتُ لحقني بعض من كان في المجلس فقال لي : يا أبا محمد ، إني لأربأ بك أن تأتي هذا الكلب وتسأله حاجة . قلت : كيف ؟ قال : سمعتُه يقول ، لما ولّيتَ ، لو أن بيدي دجلة والفرات ما سقيت هذا منهما شربة . فقيل له : لِمَ ذلك ؟ أصلحك اللّه ، فإن له قدراً وعلماً ! قال : لأنه رجل من مضر ، وما رأيت مضرياً يحب اليمانية . . .» (المصدر السابق ص 192) .

3 ننقل بعض التفاصيل المعبّرة عن دخول الأعرابي الباهلي إلى الرشيد ، بوساطة جليسه سعيد بن سلم الباهلي وكفالته .

يشجع تنافساً معيناً بين جلسائه من ممثلي القبائل إذ يخصص يوماً كاملاً لشاعر يعجبه[1] ، فلا يسمع من سواه بعده ، أو لعشيرةِ هذا الشاعر فلا ينشده في يومه إلا شعراؤها[2] . ومن الواضح مغزى ذلك وأثره العميق في عالمٍ لم تزل القبائل والعشائر تتنافس داخله ، تتصارع ، وتترقب نبوغ الشاعر منها ليكون لها داعياً ، ولمناقبها باعثاً ، ولا سمها رافعاً[3] . ويظهر أن هذا الصراع قام على مستويات مختلفة : بين قبيلة وأخرى ، بين قيس واليمن[4] ، بين الحجاز والعراق

= يذكر الطبري أن سعيداً ، بعد دخوله وتسليمه وجلوسه ، قال : يا أمير المؤمنين ، أعرابي من باهلة واقف على باب أمير المؤمنين ما رأيت قط أشعر منه . قال : أما أنك استَبَحْتَ هذين ، نهبى لهما أحجارك (يعني العماني والنمري ، وكانا حاضرين) . قال : هما ، يا أمير المؤمنين ، يهباني لك . فيؤذن للأعرابي ؟ فأذن له . . «(تاريخ الطبري ج8 ص 362) (وراجع ، في فصل الصراع العصبي كيف تمكن منصور النمري وكلثوم العتابي من رفع السيف عن ربيعة) .

1 يروي الأصفهاني خبر دخول أشجع على الرشيد ، وقد جلس للشعراء ، فبدرهم أشجع وأنشد قصيدته :

لا زلــتَ تنشرُ أعياداً وتطويها . . . .

«قال : فأمر له بألف دينار وقال : لا ينشدني أحد بعده» : (الأغاني ج 18 ص 174) .

2 يروي الأصفهاني أيضاً أن الرشيد ركب يوماً قبةً ، وسعيد بن سالم معه في القبة . فقال : أين البيدق ؟ . . فحضر . فقال : أنشدني قصيدة الجرجاني . فأنشده . فقال : الشعر في ربيعة سائر اليوم» . (المصدر السابق ص 146) . . ومرة أخرى يذكر الأصفهاني أن الرشيد ، بعد سماعه أشجع السلمي ، «استنشد منصوراً النمري فأنشده قوله : ما تنقضي حسرة مني ولا جزع . . . فجعل يضرب بمخصرته الأرض ويقول : الشعر في ربيعة سائر اليوم . .» (المصدر السابق ص 147) .

3 جاء في ترجمة البغدادي لأشجع السلمي : «هو ابن عمرو السلمي ، يكنى أبا الوليد من ولد الشريد بن مطرود السلمي . تزوج أبوه امرأة من أهل اليمامة ، فشخص معها إلى بلدها ، فولدت له هناك أشجع ، ونشأ باليمامة . ثم مات أبوه ، فقدمت به أمه البصرة . . . وربى أشجع ونشأ بالبصرة . فكان من لا يعرفه يدفع نسبته . ثم كبر وقال الشعر فأجاد وعُدّ في الفحول . وكان الشعر يومئذ في ربيعة واليمن . ولم يكن لقيس عيلان شاعر ، فلما نجم أشجع افتخرت به قيس وأثبتت نسبه» . (خزانة الأدب ج 1 ص 203) .

4 لقد أفردنا هذا الفصل لصراع العصبيات المختلفة . ونذكر هنا حادثة يرويها الأصفهاني ، ذات دلالة واضحة فيما كان بين قيس واليمن من صدع صعب التئامه : اجتمع ، عند المأمون قبل خلافته ، وذلك في أيام الرشيد ، منصور النمري والخريمي والعباس بن زفر ، وعنده جعفر بن يحيى . فحضر الغداء . فأُتي المأمون بلون من الطعام . فأكل منه فاستطابه ، فأمر به فوضع بين يدي جعفر بن يحيى فأصاب منه ثم أمر به فوضع بين يدي العباس ، فأكل منه . ثم نحاه فأكل منه بعده الخريمي وغيره ولم يأكل النمري . وذلك بعين المأمون . فقال له : لِمَ لم تأكل ؟ فقال : لئن أكلت ما أبقى هؤلاء ، إني لنهم . قال : هل قلت في هذا شيئاً ؟ قال : نعم قلت :

لَهْفِـي ! أُتطعِمُها قَيساً وآكلُها ؟ إنّـي إذاً لَـدَنِيءُ النَفْسِ والخَطَرِ
ما كان جَدّي ، ولا كان الهُمامُ أبي ، ليأكُـلا سُؤْرَ عَبّـاسٍ ولا زُفَـرِ

والشام[1] ، أو بين قريش والأنصار[2] . وكان الرشيد معروفاً بحماسه الشديد لتميز قريش[3] ، وإن كان يكره النعرة القبلية ويعاقب من يثيرها ، كما فعل بأبي نواس حين حبسه بسبب قصيدته المشهورة في هجو عدنان والفخر بقحطان[4] . وبهذا يتجلى لنا تيار من التيارات الخفية التي كانت تطيف بالبلاط ، تَبرز منافسة أدبية حيناً وتتطرف أحياناً لتنفجر صراعاً سياسياً .

= شتّانَ مِنْ سُؤْرِ عَبّاسٍ وفَضْلَتِهِ وسُؤْرِ كلب ، مُغَطّى العينِ والوَبَرِ
مـا زال يُلقمُ ، والطَبّاخُ يلحَظُهُ وَقَد رأى لُقَماً ، في الحَلْق ، كالعُجَرِ

(الأغاني ج 13 ص 151) . . . ونشير أخيراً إلى أن العصبية كانت تعبق بها أجواء البلاط . فيزيد بن منصور خال المهدي ، وهو من اليمن ، كان يتعصّب لأبي العتاهية ، لأنه كان يمدح اليمانية . ويبدو أن أبا العتاهية كان يحاول إقامة توازن بين اليمن وقيس في ذكره لهما . يتبين ذلك من قوله ، في مدح المهدي :

سَأشكُرُ نِعمةَ المَهدِيّ حتـى تـدورَ عَـليَّ دائِـرةُ الحِمامِ
لَـهُ بيتـانِ : بيتٌ تُبَّعيٌّ وبيـتٌ حَـلَّ بالبَلَـدِ الحَرَامِ

(المصدر السابق ج4 ص 34) .

1 يروي الحصري قصة جرت لإبراهيم الحرّانيّ مع بائع قسيّ في مكة ، أثناء حجه مع الرشيد . وتدخّل فيها الرشيد مظهراً ميوله الحجازية ، لأن الحجاز موطن قريش . فحين أعجب بظرف بائع القسيّ الحجازي وذكائه ، قال للحرّاني : «يا إبراهيم ، تجد بالعراق طولاً وعرضاً واحداً له ما لأهل الحرمين من الظرف والذكاء ؟» (جمع الجواهر ص 62) ويروي المرتضى حديثاً لمروان بن أبي حفصة عن إحدى الجلسات الأدبية عند الرشيد وقد دخل منصور النمري . قال مروان : «دخل علينا اليوم رجل أظنه شامياً ، وقد تقدمته البرامكة بالذكر عند الرشيد . فأذن له الرشيد . فدخل فسلّم وأجاد . فأذن له الرشيد ، فجلس . قال : فأوجست منه خوفاً ، فقلت : يا نفس : أنا حجازي نجدي شافهت العرب وشافهتني ، وهذا شامي ، أفتراه أشعر مني ؟ قال : فجعلت أرقو نفسي إلى أن استنشده هارون فإذا هو والله أفصح الناس . فدخلني له حسد . فأنشد قصيدة تمنيت أنها لي وأنّ عليَّ غرماً» . (الأمالي ج 4 ص 184) .

2 راجع الملاحاة التي قامت بين مسلم بن الوليد والحكم بن قنبر والتي تحدثنا عنها في مطلع هذا الفصل .

3 يظهر لنا حماس الرشيد لقريش في الحادثة التالية يرويها البغدادي ، ويرجع بالسند إلى الربيع بن سليمان يقول : «ناظر الشافعي محمد بن الحسن بالرقة . فقطعه الشافعي . فبلغ ذلك هارون الرشيد ، فقال هارون : أما علم محمد بن الحسن ، إذا ناظر رجلاً من قريش ، أنه يقطعه ، سائلاً ومجيباً ؟ والنبي ﷺ يقول : قدّموا قريشاً ولا تَقدّموها ، وتَعلّموا منها ولا تُعلّموها ، فإن علم العالم منهم يسع طباق الأرض» . (تاريخ بغداد ج 2 ص 61) .

4 يخبرنا المسعودي ، وهو يتحدث عن أسطورة الضحّاك أنه «افتخر به أبو نواس الحسن بن هانىء ، مولى بني حكم ابن سعد العشيرة . . . في قصيدته التي هجا فيها قبائل نزار بأسرها ، وافتخر بقحطان وقبائلها . وهي قصيدته المشهورة التي أطال الرشيد حبسه بسببها . وقيل إنه حدّه لأجلها . وأولها :

لَسْتُ لِدَارٍ عَفَـتْ وَغَيَّرَهـا ضربانِ مِنْ قَطْرِهـا وحاصِبِها

وفيها يقول ، يهجو نزاراً :

واهـجُ نِـزاراً وأفـرِ جِلْدَتَهـا وكَشِّفِ السِتـرَ عـن مَعَايِبِهـا

وقد ردّ عليه قصيدته هذه جماعة من النزارية» (التنبيه والإشراف ص 87) .

5 ـ مظاهر العصبية في مواقف الرشيد

أ ـ العصبية الهاشمية ، مقابل فروع قريش الأخرى : فالرشيد ، مع أنه لم يلحق حرب الأمويين ، ولم يشارك في إزالة دولتهم ، كان لا يطيق ذكرهم . وعصبيته ضدهم كان يبطنها ، بلا شك ، عداء سياسي يعتدّ الأمويين عدواً تقليدياً لبني هاشم . فكان يدعوهم «أهل الشقاق والنفاق»[1] وكان عداؤه لهم في أساس ما روي عن سفارة منه إلى شارلمان دعماً له في حربه ضد الأمويين في الأندلس[2] . ونشير هنا إلى حادثة رواها التنوخي وتدور حول أموي كان يعيش في الشام عيشة عز وبذخ وصل خبره إلى الرشيد الذي لم يطق أن يتصوّر ذلك . لذا بادر إلى إرسال حملة صغيرة إلى الشام مهمّتها حمل الأموي مكبَّلاً إلى بغداد . ومع أن الرشيد لم يلبث أن أطلقه[3] ، متفضلاً عليه ، فإن لهذه الحادثة مغزاها الخاص في موضوع العصبية . ولقد أدرك شعراء البلاط هذا الميل عند الرشيد فذكره بعضهم في مدحهم له[4] . وبالمقابل ، فإن الرشيد كان يُظهر غيرة على العلويّين لمجرّد أنهم من بني هاشم . فهو لم يكن يكرههم لنسبهم ، الذي هو نسبه ويفخر به متعصّباً له ، إنما يأخذ عليهم انصرافهم إلى تهديد خلافته وسلطانه . وحين تعرّض النمري لهم أمامه ، هاجياً وثالباً ، معتقداً أنه ، بذلك يرضي الخليفة ، نهره هذا قائلاً : «يا ابن اللخناء ، أتظن أنك تتقرّب إليّ بهجاء قوم أبوهم أبي ونسبهم ونسبي وأصلهم وفرعهم أصلي وفرعي ؟ . . . وأمر مسروراً فوجأ في عنقه»[5] . ولما عاد النمري إليه مرّة أخرى يمدحه ويقول عن الطالبيين ، بعد عتابهم :

---

1 يذكر الطبري وصفه لهم بـ «أهل الشقاق والنفاق والبغض لأئمة الهدى والحب لشجرة اللعنة» (انظر تاريخ الطبري ج 8 ص 713) . انظر ص 461 من البحث .

2 لم يرد شيء عن ذلك في المراجع العربية . وما ورد عنها في المراجع الأجنبية يحوم حوله الشك . ولولا صحة الحافز إلى مثل هذه السفارة لرفضت قطعاً . راجع على سبيل المثال : Encyclopédie de l'Islam LEYDE Paris 1927 (مادة هارون الرشيد) وبروكلمن «تاريخ الشعوب الإسلامية» ص 188 و : Huart. Histoire des Arabes paris 1912 ص 296 .

3 الفرج بعد الشدة ص 98 . وراجع ص 213 من البحث تغير الرشيد لسماع جارية غنت بشعر يمدح الأمويين .

4 من ذلك مدح مسلم بن الوليد للرشيد وأخته بأنهما نجما بني هاشم ، وهذا يتضمّن تفضيل بني هاشم على الناس .

هـارونُ بـدرٌ لِبَنـي هـاشِمٍ ... وأخـتُ هـارونٍ لهـمْ شَمسُ

(الديوان ص 279) .

وهذا ما يقوله صراحة أبو الشيص :

يـا بَنـي هاشمٍ ، أفيقوا فإنّ الـ ... ـمُلكَ منكُمْ حيثُ العصا والرداءْ

مـا لهـارونَ في قُريشٍ كَفـيٌّ ... وقريشٌ ليستْ لهـمْ أكفِيـاءْ

(البيان والتبيين ج 3 ص 123) .

5 الأغاني ج 13 ص 144 وطبقات ابن المعتز ، ص 245 وأمالي المرتضى ج 4 ص 185 .

وإنـــك ، حين تُبلغهـــم أذاةً ، وإن ظَلَموا ، لَمحزونُ الضميرِ

قال : صدقت ، وإلاّ فعليّ وعليّ . وأمر له بثلاثين ألف درهم[1] . «وكانت هذه العصبية الهاشمية إحدى نقاط الضعف عند الرشيد ، مَنْ عرف كيف يُرضيها نال عنده حظوة أيًّا كان أصله وانتماؤه ولو أمويّاً . نرى ذلك ، (مع ترتيب الأنساب داخل قريش بحسب الأفضلية الرشيدية) ، في الحادثة التالية يرويها الجهشياري عن أموي كان له يحيى وسيطاً أوصله إلى الرشيد فلمّا وقعت عينه عليه ، استأذن في الكلام ، فأذن له ، فتكلّم وأحسن :

يـــا أمينَ اللهِ ، إني قائلٌ ، قولَ ذي رأيٍ ودينٍ وأدبْ :
لكُـــمُ الفضلُ علينـــا ولنا بِكُمُ الفضلُ على كلِّ العربْ
عبدُ شمسٍ كان يتلو هاشماً ، وهمـــا ، بَعْـدُ ، لأمٍ لأبْ
فَصِلوا الأرحامَ منّا ، إنما عبدُ شَمسٍ عمُ عبدِ المطّلِبْ

فأحسن الرد عليه ووصله ، وأجرى له رزقاً في بلده . . .»[2] .

ب ـ عصبيته القرشيّة : مرّ بنا أن الرشيد كان يتعصّب لقريش ويروي عن الرسول حديثاً يجعل «علم العالم فيها يسع طباق الأرض» . ولا غرو في عصبية الرشيد لقريش ، بإزاء قبائل عدنان قاطبة ، فهي مركز القلب من العروبة : أنجبت النبي ﷺ وكان منها الراشدون وسائر الخلفاء ، مذ وجدت الخلافة . ومن مصلحة الخليفة أن يدعم تميّز هذه القبيلة وربط الخلافة بها ، كحاجز في وجه الطامعين من الخوارج وسواهم ؛ وقد عرف شعراء البلاط هذه العصبية عنده فراحوا ينوّهون ، في أشعارهم ، بفضل قريش وبعراقة المنتسبين إليها . فقريش ، كما قال أبو الشيص ، «ليست لهم أكفياء» . ومدح أبو العتاهية الرشيد بانتسابه إلى قريش ، جاعلاً بيته ، بين بيوتها أوسطَها وأكثرها عزّاً[3] . ويعكس مروان بن أبي حفصة انتماء الفرد إلى القبيلة ليجعل قريشاً تتوجه إلى الرشيد ، تشتد به وتسلم أمورها إليه[4] . وأخيراً فإن قريشاً ، مهدَ النبوة الأخيرة ، صاحبةُ تاريخ عريق في هذا المضمار لأنها من سلالة ترجع في النسب إلى عدنان فإسماعيل بن

---

1 الأغاني ج 13 ص 144 وطبقات ابن المعتز ص 245 وأمالي المرتضى ج 4 ص 185 .

2 الوزراء والكتّاب ص 188 .

3 مما قاله أبو العتاهية :

وأوسطُ بيـــتٍ في قريشٍ لَبيتُـهُ وأولُ عِـزٍّ في قريشٍ وآخِـرُهْ

(الديوان ص 213 والأغاني ج 4 ص 17) .

2 يقول مروان ، من قصيدة طويلة :

علـى ثقةٍ ألقـتْ إليـكَ أمورَها قـريشٌ ، كما أُلقـى عَصاهُ المسافرُ

تاريخ الطبري ج8 ص 348 وخلاصة الذهب المسبوك ص 111 .

إبراهيم الخليل ، صاحب دين الحنيفية ، وباني الكعبة المقدّسة التي يعظمها جميع العرب ، وتنفرد قريش بمجاورتها ورعايتها[1] .

ج ـ عصبيته المضرية : في تصاعد متدرج ، تأخذ عصبية الرشيد القرشية منحىً مضرياً ، مقابل قبائل ربيعة . فنراه يغضب «غضبة مضرية» حين يتجرّأ أحد الشعراء على أن يساوي ، في مدحه ليزيد بن مزيد ، بين قريش ولُجيم[2] . فيستدعي قائده ابن مزيد ، يقرّعه ويتّهمه بتغذية أطماع مشبوهة تظهر في أقوال أصدقائه من الشعراء . وكانت هذه الغضبة ، من العنف ، بدرجة جعلت يزيد يتنصّل من سماعه الشعر ومن معرفة الشاعر ، ويبادر إلى إسقاط اسمه من ديوانه ، وإلى أمره بالاختفاء ما بقي الرشيد حيًّا[3] . وكما عرف الأقربون والأبعدون عصبية الرشيد القرشيّة ووظّفوا هذه المعرفة في علاقاتهم بالبلاط ، فإنهم عرفوا أيضاً عصبيته المضريّة ، ونخصّ منهم الشعراء الذين ضربوا على هذا الوتر ، والولاة الذين راحوا ، في بعض الأمصار يشدّدون على ربيعة ، يمعنون فيها التجريح ، ظانين أو متظاهرين أنهم ، بذلك ، يرضون الخليفة ، وهم إنما يرضون عصبيتهم ، مطمئنين إلى تغاضي الرشيد عنهم .

وضع السيف في ربيعة ضمن الإطار الذي رسمناه ، يأتي وضع السيف في ربيعة في منطقة نصيبين من الجزيرة[4] . وقد بلغ من إيمان الحاشية ورجال الدولة بعصبية الرشيد المضريّة أنهم ،

---

1 يشير الحكم بن قنبر إلى ذلك في مهاجاته لمسلم بن الوليد . ومن قوله :

وإنَّ قُريشاً ، بالمآثـــرِ فُضّلــتْ ... على الخَلق طُرّاً ، من فَصيحٍ وأَعْجمِ

أيُعــدَلُ بيــتٌ يَثرِبــيٌّ بِكعبَــةٍ ... ثَوَتْهـا قريشٌ في المكــانِ المُحَرَّمِ ؟

(الأغاني ج 18 ص 351) .

2 الشاعر هو بكر بن النطاح . والبيت يفخر بربيعة التي ينتمي إليها يزيد بن مزيد الشيباني ، فيقول ، معرّضاً بالقرشيّين المضريين :

فإن يكُ جَدُّ القومِ فِهرَ بنَ مالكٍ ... فَجَدّي لُجيمٌ قِرمُ بَكرِ بن وائلِ

(المصدر السابق ج 19 ص 37) .

وفِهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن مدركة بن الياس بن مضر هو الملقب بقريش . أما لجيم فابن صعب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصي بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة . وقد جاء في رواية الأصفهاني أن الرشيد رفض إنكار يزيد معرفة الشعر وقال : «والذي كرّمني وشرّفني ، إنك لتعرفه . . . هذا جلف من أجلاف ربيعة عدا طوره وألحق قريشاً بربيعة . فَأْتِني به» .

3 المصدر نفسه .

4 لم نجد ، فيما وقع لنا من كتب التاريخ ، تحديداً دقيقاً لزمن هذه الفتنة . ونرجّح أنه كان بين عامي 179هـ/795م/ و180هـ/796م . ذاك أنها حدثت أثناء ولاية عبدالملك بن صالح للجزيرة . وعبدالملك ولي الجزيرة مرتين أولاهما عام 177هـ/793م (النجوم الزاهرة ج2 ص191) ودامت هذه الولاية أقل من سنة عزل بعدها . ويبدو أن الولاية الثانية جاءت بعد فترة وجيزة لأن اليعقوبي يشير إلى وجوده على الجزيرة عام 179هـ أثناء ثورة الوليد بن طريف

حتى الربيعيون منهم ، لم يجرؤوا على التدخّل للحصول على عفو الرشيد وإيقاف المجزرة[1] ، إلى أن قام الشعر بالمهمة . ويعود الفضل في ذلك إلى أحد شاعرين ، أو إليهما معاً : منصور النمري وكلثوم العتابي . ونتناول هذه الحادثة بشيء من التفصيل لأهميّتها الاجتماعية ولأنها كانت موحية بوجه من وجوه أدب البلاط . والسبب الظاهر يعود إلى أن جماعة من ربيعة تعرّضت لأخرى من قيس ، فاشتكت هذه إلى عبدالملك بن صالح ، والي الجزيرة ، مثيرة لديه النعرة المضريّة . ووصل الخبر إلى الرشيد ؛ لكن عبدالملك قام بالمبادرة فأمر أحد قوّاده ، أبا عصمة ، بالتنكيل بربيعة . وهنا لا بدّ من الإشارة إلى عدّة من ظواهر ، أولاها أن العصبية ، التي بقيت تشدّ الأفراد بعضهم إلى بعض ، وتجعل الواحد منهم ينصر أبناء عشيرته ، كانت هي نفسها التي تجعل أفراد العشيرة كلّها شركاء في تحمّل وزر المذنب والمجرم منهم ، وهدفاً ، بالتالي ، للثأر والانتقام . ونحن نرى أن هذا الأمر ، إن كان مقبولاً أيام الجاهلية حيث لم توجد مؤسسات اجتماعية أو سياسية سوى القبيلة والعشيرة ، فإنه يبدو غريباً في عهد العبّاسيّين ، بعد مرور أكثر من قرن ونصف على ظهور الإسلام وانتشار تعاليمه ، في الحلم والمساواة والتسامح بين سكان المعمورة ، ووصول الدولة العربية إلى ما آلت إليه من حضارة وتطوّر في المؤسسات العامة والخاصة . إنما هي رواسب الجاهلية ، صعُب على العربي التخلّص منها على مدى العصور . . ، وطُبّق أيام الرشيد ، المبدأ الجاهلي في العقوبة إذ وضع السيف في ربيعة كلّها تكفيراً عن جرم ارتكبته فئة منها[2] . . ويبدو أن هذه المهمة

= (تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 411) ونرجّح أن وضع السيف في ربيعة كان أثناء هذه الولاية الثانية ، تأديباً لربيعة على مساندتها الوليد بن طريف ، كما سنفصّله فيما بعد .

1 يصوّر الأصفهاني يزيد بن مزيد الشيباني (وشيبان من ربيعة) متلّهفاً على رفع السيف عن عشيرته دون أن تكون لديه الجرأة على القيام بمبادرة لدى الرشيد . وحين جاء النمري يطلب المساعدة للوصول إلى الخليفة ، أدخله وهيأ له سبيل الاتصال إذ عرف نسبه وهدفه . وتظهر لهفة يزيد ، على أشدّها ، في نهاية الخبر حين لفظ الرشيد قراره برفع السيف «فخرج يزيد يركض . فما جاءت العصر من الغد حتى رُفع السيف عن ربيعة بنصيبين وما يليها» . (الأغاني ج 13 ص 152) .

2 لقد مرّ المؤرّخون بسرعة على أسباب هذه العقوبة . ونحن نعتقد أن هناك سبباً سياسياً خلف العملية . لأنها إذا تمّت ، كما قدّرنا ، بعد عام 179هـ ، تكون قد وقعت بعد ثورة الوليد بن طريف . والوليد من وائل ، من ربيعة . وقد تحصن في الجزيرة حيث قويت شوكته وساندته ، دون شكّ ، جماعات من ربيعة .
يقول اليعقوبي : «خرج الوليد بن طريف الحروري بالجزيرة سنة 179هـ وكان عبدالملك يتولاّها ويتولّى الشام . .» (تاريخ اليعقوبي ج2 ص 410) وكان الرشيد شديد الحساسية تجاه مساعدة الخارجين عليه ، وقد اتهم يزيد بن مزيد بالتغاضي عن الوليد بن طريف لأنه من عشيرته ، حين راح يداريه ويداوره . وقد جاء في رواية الأغاني لقصيدة العتابي اللامية في الاعتذار عن ربيعة : «عتب الرشيد على العتابي أيام الوليد بن طريف» . (الأغاني ج 13 ص 123) . فلو عمّمنا العتب قليلاً لوجدنا سبباً لنقمة الرشيد على ربيعة غير رغبته في الانتقام لجماعة من قيس .

انتُدب لها مضريّون : من الوالي إلى قائد الحملة أبي عصمة[1] أو أبي عتيمة[2] ، إلى أفراد الحملة ، على ما نعتقد ، يضاف إليهم مرتزقة من كل صوب ، وفئة خاصة من المحاربين تتكون من الأسرى الذين يفضّلون القتال على السجن لأنهم بذلك يتمتّعون بالكثير من حرّيتهم ، ويمارسون السادية على سواهم ، بدلاً من الخضوع لسادية السجان[3] . فطاب للجميع أن يُمعنوا في التنكيل بربيعة باسم القانون ، وبتفويض من الخليفة ، حتى أصبحت ، كما وصفها النمري «قد أُخربت منها الديار وأُخذت الأموال ، وهتك الحُرَمْ»[4] . والظاهرة الثانية التي نسجّلها عن صراع العصبية في هذه الفترة هي اختلاف مستوى المواقع بين طرفيها . فحين كانت العصبية تثور بين قبيلتين كانت المساواة في الواقع هي أرضية الصراع : كلا القبيلتين تؤمن بتفوّقها على الأخرى وبقدرتها على تجريحها والنيل منها ، وكل منهما تفخر بأبطالها وتسخر من منافسيهم . لذا كان معظم الأدب الناجم عن هذا الصراع في الفخر والإباء وذكر المثالب . أما حين يصبح الحاكم ، الوالي أو الخليفة ، أحد طرفي الصراع فإن المساواة تنتفي على أكثر الصُعد لأن الحاكم خصم لا قبل لجماعة به ، كما سبق لنا القول ، وإذا نِيل منه فجزئياً ولفترة وجيزة . والأدب الذي أنتجه الصراع في هذه الحالة غالباً ما كان من جهة واحدة هي غير جهة الحاكم ، ونادراً ما كان يشير إلى بطولات خارقة أو يحاول تجريح الخصم خصوصاً في أيام الدولة العبّاسية . فالأدب اتّجه هنا وجهة إثارة النخوة ، نخوة العربي ونخوة الحاكم الذي ينتظر منه أن يكون خيراً للجميع ، وإثارة النخوة العائلية التي تجد دائماً صلة نسب تضرب على وترها : فصراع العرب جميعُه لا يعدو التنافس بين الأخوة وأبناء العم .

رفع السيف عن ربيعة : بهذا الأسلوب استطاع الشعر أن يرفع السيف عن ربيعة[5] ، وأن

---

1 المصدر السابق ص 120 .

2 أمالي المرتضى ج 4 ص 187 .

3 يصف النمري للرشيد جنود الحملة مشيراً إلى أن فيهم كل شرّيري الكون وكل خارج على القانون فيقول :

يُجرِّدُ فينا السيفَ ، من بين مارقٍ ... وعـانٍ ، بُجـودٌ كلُّهـم متحاملُ

(الأغاني ج 13 ص 152) . (عان : أسير ـ بجود : جماعات من الناس) .

وتلفت نظرنا هنا هذه الظاهرة الفريدة التي تثبت أن فرقة من الجند كانت مجموعة من المجرمين والأسرى ، تستخدم لقمع الفتن . ولعلّ هذه الفرقة تشبه «الفرقة الأجنبية» في الجيش الفرنسي وتتميّز مثلها بالعنف والشراسة في ممارساتها .

4 أمالي المرتضى ج 4 ص 187 .

5 في رواية المرتضى أن ربيعة «أوفدت وفداً إلى الرشيد فيهم منصور النمري . فلما صاروا بباب الرشيد أمرهم باختيار من يدخل عليه منهم فاختاروا . . . رجلين» ، أحدهما النمري ، ليدخلا ويسألا حوائجهما (المصدر السابق) وفي رواية الأصفهاني أن النمري أرسل قصيدته العينية إلى الرشيد على الطريقة المعروفة ، أي تقديم الشعراء غير المعروفين رقعاً فيها قصائدهم التي تُقرأ ويُختار أفضلُها ليُسمح لقائلها بالدخول . هكذا نالت قصيدته الاستحسان فدخل إلى البلاط وأنشد . . .

ينجح حيث عجزت الوساطات وجُبْن النفوذ . فالنمري لم ينل ، في قصيدته من طرف الصراع الذي يمثّله الخليفة ، إنما حاول أن ينحى باللائمة على فئة مجرمة بطبعها ، مفرّقاً بذلك بين العناصر التي تجمّعت ضد ربيعة ، مقيماً عمليّة تصنيف لها يتحمّل بنتيجتها الردىء منها تبعةَ الأمر بينما يرتفع خيّرُها فوق مأساة التنفيذ البشع ، وبذلك يبتعد بالرشيد عن الضلوع في المؤامرة لأنه لا يمكن له أن يقطع صلة الرحم التي تصل ربيعة ومضر الأخوين ، فصلة الرحم يأمر بها الإسلام ، والخليفة هو حامي حمى الدين ؛ وصلة الرحم عطاء ، والرشيد ليس كعطائه عطاء ؛ ولأن المؤامرة تعتمد الإخافة والإذلال ، والرشيد موئل الخائف والمظلوم ؛ ولأن المجزرة هي قتل للأبرياء وما كان القتلة ليفعلوا ذلك لو تقيّدوا بأوامر الرشيد الذي يأبى الجور ولا يقبل بالعدوان[1] . هكذا كان شعر ربيعة استجارة من الخليفة بالخليفة : فارتفع السيف في طرفة عين ، وفعل الشعرُ فِعلَ السحر . والسؤال الذي يراود ذهنَ المتابع لأخبار هذه الحقبة هو أنه ، لو لم يُقيَّض لربيعة شاعر كالنمري أو كالعتابي ، يحمل قضيتها ويثيرها عند مقام الخلافة ببلاغة ولباقة ، إلى متى كان السيف بقي يعمل ، والمظالمُ ظلت تُرتكب باسم القانون ؟ وهل كانت كلمة النمري كافية لغسل ذنوب ربيعة كلِّها ولمحو الجريمة التي من أجلها عوقبت بذلك العنف ؟ لعلَّ في الروايات بعض الشطط إذ تصوّر الأمور تجري بهذه البساطة والسرعة ، ولعلّ الرشيد كان يحسّ بأن ربيعة أخذت عقابها وأن الأوان قد آن لوقف عذابها ، ولكن لا يجوز أن يتراجع الخليفة عن أمر أصدره دون دخول عنصر جديد . ولعلّ قوّاده أو بعض أهل الرأي من عقلاء المقرّبين كانوا قد هيّأوه للصفح[2] فكان ذلك من أسباب اختياره قصيدة النمري العينية ، من بين القصائد الأخرى التي عرضت عليه ، وبالتالي كان عند الرشيد علم مسبق بموقفه في نهايتها عندما يسمعها من فم ناظمها . وهذا يفسّر استعجال الرشيد النمري للوصول إلى الغاية ، إذ كان يقول له حين بدأ

---

1 يتبيّن ما ذكرناه من خلال أبيات النمري التالية :

وقد عَلِمَ العُدوانُ والجُورُ والخَنَا ... بأنَّكَ عَيَّـــافٌ ، لَهُـــنَّ مُزايِـلُ
ولـو عمِلـوا فينا بِأمرِكَ لم يَكُنْ ... يَنـالُ بَرِيًّـــا بـــالأذى مُتناوِلُ
لنـا منكَ أرحــامٌ ، ونَعْتَدُّ طاعةً ... وبأساً ، إذا اصْطَكَّ القَنا والقَنابلُ

(الطوائف من الناس والخيل : هي القنابل) .

وما يَحفَظُ الأنسابَ مثلَكَ حافِظٌ ... ولا يَصِلُ الأَرحــامَ مثلَك واصِلُ

(الأغاني ج 13 ص 153) . وراجع ص 537 من البحث .

2 نستشفّ ذلك من رواية الأصفهاني إذ ورد في نهاية خبر إنشاد النمري لقصيدته اللامية : «فقال الجلساء : أحسن والله الأعرابي يا أمير المؤمنين» . (المصدر السابق ص 151) ولا شك في أنه لا يعني بالجلساء جميع من كان في المجلس ، إنما هؤلاء الذين وصفناهم بالعقلاء ، وقد وجدوا منفذاً لتأكيد رأيهم إثر الجو المؤاتي الذي خلقه إنشاد النمري .

النسيب : «قل حاجتك وعدّ عن هذا»[1] وحاجته كانت معروفة ، وقد توسّل إليها بأسلوب قريب من أسلوب قصيدته اللامية : الضرب على وتر صلة القربى ومدح الرشيد بأنه موئل الناس جميعاً فكيف بأبناء عمّه[2] ؟ . . . وقد لا يكون صوت النمري هو الوحيد الذي ارتفع وحصل على الصفح ، فهناك دور أكيد لعبه العتابي بقصيدته الرائية التي بدأها حزيناً كئيباً دامع العين ، واصفاً نكبة ربيعة كأنه يسوّغ حزنه محاولاً نقل إحساسه بالأسى إلى الخليفة . ولم يلبث ، كما فعل النمري في قصيدتيه ، أن ينقر على وتر القرابة التي تربط ربيعة ومضر الأخوين ، وأن يمدح الرشيد بأعز مدح على نفسه : قرابته من رسول الله ﷺ . وتسجّل للعتابي نقطة مهمّة ، وهي الاعتذار ، عما بدا من بعض أبناء ربيعة فأحلّ النقمة عليها ، مشيراً ، من طرف خفي ، إلى ضرورة تحلّي الحاكم بالعدل والرويّة فلا يحمّل عشيرة كاملة ذنب بعض أفرادها . وهي عشيرة عريقة في خدمة الدولة ، ومنها كان أبطال صناديد حموا حماها ووطّدوا أسس الملك العبّاسي[3] . . .

د ـ **العصبية العدنانية** : هذا المنحى الجديد ، الذي ولّدته صراعات العصبية القبلية في تلك الفترة ، كان على جميع المستويات ، وأعلاها هو مستوى الجذرين الكبيرين : عدنان وقحطان . والرشيد ، الذي حاذى ، من قريب أو من بعيد ، خطوط العصبيات الأخرى ، لم يبتعد عن خط العصبية العدنانية أو القيسية ، ضد القحطانية أو اليمنية . ويبدو أن هذه العصبيةَ ، على عراقتها ، وليدةُ الإسلام في تبلورها على صعيد الصراعات . ذاك أن العرب ، في جاهليتهم ، لم يجتمعوا فريقين وفق هذا التقسيم الطولي ، إلاّ في لمحات عارضة[4] ، بينما نجد هذه العصبية واضحة في

---

1 أمالي المرتضى ج 4 ص 187 .

2 من قصيدة النمري العينية :

رَكْبٌ من النمرِ عاذوا بابنِ عمِّهِمُ	من هاشمٍ إذْ أَلَجَّ الأزكَمُ الجَذَعُ
مَتُّوا إليكَ بقُربـى أنـتَ تعرفُها	لهمْ بهـا ، في سَنامِ المجدِ ، مُطَّلَعُ

(المصدر نفسه) .

3 من قصيدة كلثوم العتابي نجتزيء الأبيات التالية :

نادَتْكَ أرحامُنا اللاتـي نَمُتُّ بها	كما تُنادي جِلادَ الجِلَّـةِ الخُورُ
إنْ كان منّـا ذَوُو إفكٍ ومارقةٍ	وعُصبةٌ دِينُهـا العُدوانُ والزُورُ
فإنَّ منـا الذي لا يُستَحـثُّ إذا	حُـثَّ الجِيادُ وحازَتْها المَضاميرُ

(الأغاني ج 13 ص 123) .

4 يذكر ابن الأثير ثلاثة «أيام» اجتمعت فيها العرب وفق هذه العصبية : اليوم الأول «حين تمذحجت مذحج وسارت إلى تهامة» وكان عامر بن الظرب قائد معدّ . واليوم الثاني «يوم السُلاّن بين أهل اليمامة واليمن» وكان ربيعة بن الحرث والد كليب قائد معد . أما اليوم الثالث فهو يوم خزاز «وكان قائدَ معد كليبٌ أو وائل بن ربيعة . (الكامل في التاريخ ج 1 ص 312 و313) .

الصراع السياسي الذي نشأ حول الخلافة بين المهاجرين والأنصار ، ثم نراها تأخذ مجرى طبيعياً ومستمراً في صراعات الأمويّين مع علي ومع الزبيريّين . وقد اجتذب الأمويون ، وهم عدنانيون ، في بدء الأحداث ، اليمانيةَ ، قومَ ميسون الكلبية زوجة معاوية وأم ولده يزيد[1] ، واعتمدوا تحريك العصبيات المختلفة لتفريق الناس والتمهيد لسيادتهم ، فلم يوفّروا إذكاء النار بين ربيعة ومضر وبين قيس وتميم ، وبين العرب والموالي ، وبين الأمويّين والهاشميّين[2] ؛ ثمّ تقلب الخلفاء الأمويون فيما بعد بين القيسية واليمنية ، وكذلك فعل عمالهم[3] . هكذا وصل العبّاسيّون إلى الحكم فيما كان الصراع على أشدّه بين القيسية واليمنية ، بل إن هذا الصراع كان أحد أسباب سقوط الدولة الأمويّة[4] . أما العبّاسيون فكان اعتمادهم الأساسي على شيعتهم من الخراسانيّين ، وقد تحفّظوا تجاه العرب ، بشكل عام لأن إضعاف هؤلاء كان أمراً في صالح الحكّام الجدد[5] . لكنهم لم يلعبوا لعبة العصبية والنعرة القبلية عن قصد ، شأن الأمويّين ، لأنها سلاح خطر ذو حدّين ، إنما كانت الميول العصبية في نفوسهم ، كما كانت في نفوس أهل العصر جميعاً ، وهي ميول تسير في اتجاه واحد : إلى قيس وعدنان ؛ إلاّ أن ميولهم هذه لم تدفعهم إلى دخول معركة العصبية كأحد أطرافها . لقد كان الرشيد ، مثلاً ، يخاطب الشعراء على أساس انتمائهم القبلي ويبدي إعجابه بشعر الشاعر عن طريق تخصيص اليوم كلّه لشعر قبيلته لا يسمع إلا من ديوانها ، أيًّا كان انتماء القبيلة ، وكأنه يحوّل الصراع إلى منافسة أدبية ، دون أن يكون الشعر الذي يسمعه شعر نقائض أو مثالب أو فخر . وحين ثارت العصبية بين القيسية واليمنية في الشام والجزيرة ، لم

---

1 ابن الأثير ـ المصدر السابق ج 3 ص 261 وانظر كلوب جون باجوت في امبراطورية العرب ص129 .

2 الشايب ، أحمد ـ تاريخ النقائض في الشعر العربي ص 58 و 59 (وكان العصر الأموي أغزر العصور بالنقائض الشعرية القائمة على العصبية) .

3 امبراطورية العرب ص 324 و 347 .

4 يظهر ذلك في أبيات نصر بن سيار الشهيرة التي يدعو فيها النزارية واليمنية إلى وقف الاقتتال وإلى الاتحاد في وجه العدو الذي يهددهما معاً ومنها :

ما بَالُكم تَلقَحونَ الحربَ بَينكمُ ... كأنَّ أهلَ الحِجا عن رأيكم عُزُبُ

وتتركونَ عَدُوًّا قد أظلكّمو ، ... مما تَأشّبَ ، لا دِينٌ ولا حسَبُ

العقد الفريد ج 4 ص 478 . وابن الأثير ج 4 ص 304 .

5 كان موقف دعاة العباسيين الأوائل حقداً على العرب أكثر منه تحفّظاً منهم . فقد كتب إبراهيم الإمام إلى أبي مسلم الخراساني : «إن استطعت ألاّ تدع بخراسان أحداً يتكلّم بالعربية إلاّ قتلته ، فافعل . . .» (انظر ضحى الإسلام ج1 ص 37) . وكان أبو مسلم بدوره يؤجج الفتنة بين قبائل العرب «فيكتب إلى شيبان الخارجي يذمّ اليمانية تارة ومضر أخرى ويوصي الرسول بكتاب مضرأن يتعرّض لليمانية ليقرأوا ذم مضر ، والرسول بكتاب اليمانية أن يتعرّض لمضر ليقرأوا ذم اليمانية . (المرجع السابق ص 33) .

يكن الرشيد هو الذي أشعل فتيلها ، أو أذكى نارها وإن كانت الأحداث التي تتابعت ، وتحيّز العمال والقوّاد في الشام ، قد ساهمت في جعل تلك الثورة من أخطر ما عرفه صراع العصبية ، بل إنها كادت تهدّد كيان الدولة وأمنها ، وأثارت قلق الرشيد حتى إنه تأهب للمسير إلى الشام بنفسه لإخمادها ، لو لم يذهب جعفر البرمكي بدلاً منه[1] .

فتنة العصبية في الشام : نحن نهتم بهذه الثورة لأنها امتدت في سلسلة من الفتن على مدى عشر سنوات ، أي ما يقارب نصف فترة حكم الرشيد ، وكان لها ، بعد ذلك ، طفرات حتى آخر خلافته . ومع هذا ، لا نطيل دراستها إنما نخلص ، بشكل سريع ، إلى النتاج الأدبي الذي نجم عنها في البلاط .

ـ **أسبابها** : باختصار ، كان لهذه الفتنة أسباب ظاهرة وأخرى خفية . وتتلخّص الأسباب الظاهرة في أن رجلاً من بني القين تناول بطيخة من حائط بطيخ لجماعة من لخم وجذام ، أعقب ذلك تشاتم ثم قتل رجل يمنيّ حاول ، على إثره ، جماعة من المصلحين رتق الفتق . لكن اليمنيّين طلبوا التأجيل وقاموا بهجوم ليلي على بني القين ، فأنجدت قيس هؤلاء وهاجموا اليمانية . هكذا التقوا غير مرّة ، نحو سنتين . ثمّ اصطلحوا ثمّ تقاتلوا وتعصب لكل طائفة آخرون[2] . أما الأسباب الخفية فتعود بنا إلى أهداف العصبية ومهمّاتها وهي ، في الجاهلية ، إعطاء الفرد هوية اجتماعية وإعطاء حقوقه منعة وحماية . وكون العصبية استمرت بعد قيام الدولة ومؤسساتها ، فذلك دليل على استمرار الحاجة الاجتماعية إليها ، وبقاء مهمّتها مع تطوّرها وفق التعديل الذي أصاب حياة العرب . ذاك أن من واجب المؤسسات العامة القيام بمهمة حماية الحقوق ومنع الاعتداء . فإذا ما تمّ ذلك انتفت الحاجة إلى العصبية . ويبدو أن الإنسان العربي لم يجد في ممارسات الحكّام تطبيقاً عملياً لتعاليم الإسلام الذي ارتضاه واعتنقه وجعل ولاءه له قبل أي ولاء آخر ، فاستمرت العصبية حرزه وحاميه . لهذا نجد في ثورة العصبية أيام الرشيد نكهة خاصة تميّزها عن «أيام الجاهلية» . فهي هنا مقرونة بإحساس من الظلم الاجتماعي والاضطهاد الرسمي نما خلال أجيال : فبلاد الشام كانت معقل اليمنية ، بصورة عامة ، أيام الأمويين ، وهم ، أي اليمانيون ، نصروا معظم خلفاء دمشق وساهموا في القضاء على حكمهم حين مال إلى المضرية[3] . ويبدو أن تغيّر الأسرة

---

1 أورد الجهشياري أن الرشيد قال لجعفر : «إما أن تخرج أنت إليها ، وإما أن أخرج أنا» . (الوزراء والكتّاب ص208) ، وذكر اليعقوبي أن الرشيد أرسل السندي وجماعة من القوّاد إلى الشام عام 167هـ وأنه «خرج يريد الشام . فلما بلغه قتل أبي الهيذام مضى إلى الثغر . . .» (تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 410) .

2 النجوم الزاهرة ج 2 ص 67 وانظر الكامل في التاريخ ج 5 ص 91 وما بعد .

3 آخر خليفة أموي ، وهو مروان بن محمد ، كسب عداوة اليمنية لميله إلى المضرية . فانحازت اليمنية إلى أبي مسلم (انظر ضحى الإسلام ج 1 ص 21 وبروكلمن ـ تاريخ الشعوب الإسلامية ص 163 وأمبراطورية العرب ص390) .

الحاكمة بعدهم لم يغيّر في معادلة التركيب الاجتماعي للمنطقة ، فبقي النفوذ اليمني فيها وبقي الحكّام الذين يلونها يتقربون إلى اليمنية بهدف ترسيخ نفوذهم الشخصي ، حتى إذا ما تتابع ذلك خلال أجيال ، قوى عند المضرية هناك إحساس بالظلم الاجتماعي . لذا ، حين رفض اليمانيون الصلح وبيّتوا الغدر ، تعنّتاً وتكبّراً ، تنادى القيسون بالعصبية المضرية وحملوا السلاح ضدهم . وقد بقيت المناوشات سطحية الخطر ، على رغم عدد القتلى الكبير ، إلى أن قذف القهرُ الاجتماعي إلى القيسيّين ، بزعيم بطل هو أبو الهيذام[1] ، وكان عاملُ الرشيد على سجستان قد قتل له أخاً فرثاه وصمّم على رفع لواء العصيان[2] . فاتصل به قيسية الشام يطلبون منه تولّي قيادتهم . فانضم إليهم[3] . حينها بدأت الثورة الحقيقية ، وباتت هيبة الحكم مهدّدة . هكذا راح أبو الهيذام يقود المعارك ضد اليمنية ، وضد عمال الرشيد وجيوشه ، منتصراً فيها جميعها . ويبدو أنه ، حين تخلّى نهائياً عن ثورته ، فَعَل ذلك بدافع العصبية أيضاً ، وإكراماً للرشيد شريكه في النسب المضري ، وبعد أن تأكد له اطّلاع الخليفة على الحقيقة التي طالما أخفاها عنه ولاتُهُ على الشام . وأكبر الظن أن الرشيد لم يهتم ، أول الأمر ، لهذه الفتنة ظاناً أنها سحابة صيف . لهذا ، لم يواجهها بالموقف المناسب والرجال الأكفياء . فكان يعزل والياً ويستبدله بآخر يأتي من طينة الأول نفسها فيعمد ، بالأسلوب نفسه ، إلى صب الزيت على النار ، عوضاً عن إصلاح ذات البين[4] . ومن

---

1 هو عامر بن عمارة بن خريم ، زعيم قيس وفارسها المشهور . وهو «قائد العرب المضرية في الفتنة العظمى الكائنة بدمشق بين القيسية واليمنية في دولة الرشيد» . (معاهد التنصيص على شواهد التخليص ج1 ص 251 وراجع «الورقة» ص 23) .

2 تضاربت الروايات في سبب قتل أخيه وحول اسمه . ويبدو أنه كان شخصية كبيرة أو ربما كان عاملاً على سجستان . وقد رثاه ، فاخراً ، ومنّدداً ومنذراً فقال :

سأبكيكَ بالبيض الرقاق وبالقَنا	فإنَّ بها ما يُدركُ الماجدُ الوِترا
ولستُ كَمَنْ يَبكي أخاه بعَبرةٍ	يُعصِّرُها مِن جَنْبِ مُقلَتِهِ عَصْرا
وإنّا أُناسٌ ما تَفيضُ دُموعُنا	على هالكٍ منّا ، وإن قَصَم الظَهرا
ولكنني أشفي الفؤادَ بغارةٍ	أُلَهِبُ في قُطرَي جوانِبِها جَمرا

(الورقة ص 24 والكامل في التاريخ ج 5 ص 91 وسمط اللآلي ص 593) .

3 الكامل في التاريخ ج 5 ص 92 .

4 كان الوالي على الشام عبدالصمد بن علي الهاشمي حين بدأت أحداثها . وقد عزله الرشيد وجاء بإبراهيم بن صالح بن علي الهاشمي أيضاً الذي يذكر عنه ابن الأثير ، أن ميله «كان مع اليمنية فوقع في قيس عند الرشيد . . .» (المصدر السابق ج 5 ص 92) واستخلف إبراهيم بن صالح على دمشق ابنه إسحاق «وكان ميله أيضاً مع اليمانية ، فأخذ جماعة من قيس فحبسهم وضربهم وحلق لحاهم . . .» . (المصدر نفسه) .
وحين جاء أبو الهيذام يرفع إليه قضية القيسية لم يستقبله ، بل لم يلبث أن أغرى به اليمانية ثمّ أمره بالكف ففعل .

يدري ، فقد يكون للبرامكة ضلع خفي في ذلك لأن الحركة بدأت عام 171هـ/787م ، في مطلع خلافة الرشيد ، حيث كان كل شيء يصدر عن مشورتهم[1] ، واختيار الولاة بموافقتهم . والذي يجعلنا نشكّ فيهم أنهم كانوا يثيرون بعض الفتن ثمّ يرسلون أحدهم ليطفئها كما سبق لنا القول . وفتن العصبية في الشام ظلّت تثور وتخبو إلى أن انجرد لها موسى ثمّ جعفر فأطفأها تماماً . ولما كانت هذه الفتنة بالذات صراعاً بين القوي العربية ، فإنهم كانوا المستفيدين من ذلك وكان في مصلحتهم مدّ الحبل لها حتى تقارب الخطر مع إبقاء طرف الحبل في يدهم يلجمونها متى أرادوا . فحين تفاقم أمر العصبية وكثر القتلى من الجانبين ، ولّى الرشيد موسى بن يحيى البرمكي الشام . فأقام موسى بها حتى أصلح بين أهلها فكسب المديح والثناء له وللبرامكة[2] . (وهذه جولة أولى ربحها البرامكة ، ثم ربح جعفر الجولة الثانية) .

ـ **الأدب الذي أوحته فتنة العصبية في الشام** نحن لا نشكّ في أن فتنة كهذه ، ذهب ضحيّتها

= ثمّ أرسل إلى اليمانيّة أن «قد كففته عنكم ، فدونكم الرجل ، فهو غارّ» . (المصدر نفسه) . ولم يلبث أن جمع جنوده ودخل المعركة بنفسه إلى جانب اليمنية . وكانت الهزيمة نصيبهم . وحين أتى اليمانيون أبا الهيذام يطلبون الأمان أجابهم إليه وفرّق أصحابه . فغافله إسحاق وأرسل جنوده في أثره فانهزموا . حينها أرسل الرشيد السندي قائد شرطته على رأس حملة إلى دمشق . فاجتمع بأبي الهيذام وصالحه وأمّن أهل دمشق ، ثمّ غادرها لواليها الجديد موسى بن عيسى الهاشمي . وقد حاول هذا أيضاً اغتنام غرّة من أبي الهيذام ليقبض عليه . فلم يستطع وعادت الفتنة من جديد . (المصدر السابق ص 93) . هكذا كان الولاة ، بسوء تصرّفهم وقصر نظرهم ، يسببون تحريك النار كلما خبت . والغريب أن الولاة هم من بني هاشم ، وينتمون حكماً إلى مضر إنما ، كانوا في الشام ضد أبي الهيذام وجماعته المضرية وإلى جانب اليمنية أعدائه . ولم تهدأ الفتنة إلاّ على يد حيادي غير عربي كالسندي مولى الرشيد وموسى بن يحيى البرمكي وأخيه جعفر .

1 مما يمكن أن يدل على ذلك أن الرشيد ، حين جاءه خبر انتهاء الفتنة ، في المرة الأولى على يد موسى البرمكي ، ردّ الحكم في أهل الشام إلى يحيى بن خالد «فعفا عنهم وعما كان بينهم . وأقدمهم إلى بغداد . وفي ذلك يقول إسحاق ابن حسان الخريمي :

مَنْ مُبلغٌ يحيى ، ودونَ لقائِهِ   زأْراتُ كلّ خُنابِسٍ همّامِ ،
يا راعيَ الإسلامِ ، غيرَ مُفرِّطٍ ،   في لينِ مُغتبِطٍ وطِيبِ مَشامِ . . .»

(الطبري ج 8 ص 251) .

2 يذكر الطبري قصيدة قيلت في مناسبة انتهاء هذه الجولة من فتن العصبية على يد موسى ، منها :

قد هاجَت الشأمُ هَيجاً   يُشيبَ رأسَ وليدِهْ
فَصبَّ موسى عليها   بخَيْلِهِ وجنودِهْ
ونالَ موسى ذُرى المَجْـ   ـدِ ، وهو حشوُ مُهودِه
مِنَ البرامكِ عُودٌ لَـ   ـهُ فأكرِمْ بِعُودِهْ . . . . . .

تاريخ الرسل والملوك ج8 ص 252 .

ألوف من الناس وأقامت الدولةَ وأقعدتها ، قد أنتجت أدب فخر ونقائض لكلا الفريقين . ولئن لم نعثر ، فيما بين أيدينا من مصادر ، على هذا الأدب فلنا نموذج عنه فيما ذكره ابن الجراح عن دعبل عن أبي الهيذام مفتخراً :

يقولون : الحديـــدُ أشدُّ منّـي ... وقـد يُثنَى الحديدُ ومـا ثُنيتُ
تُجَنُّ الأرضُ ، إن نوديتُ باسمي ، ... وتَنهــدُّ الجبــالُ إذا كُنيتُ
وكَمْ من شامــتٍ بي يومَ أُنعى ... ومِنْ بــاكٍ عَـليَّ ، إذا نُعيتُ

وفي ردّ أبي منيب الكلبي عليه :

فمَهلاً ، يا بني القينِ بنِ جسرٍ ، ... ولا يَغْرُرْكُــمُ مِنّــا السَرابُ
يُمنّيكــمْ أبــو الهَيــذامِ نصَراً ... ويُسْلِمكمْ ، إذا اختَلَفَ الضِرابُ[1]

وبالمقابل ، نجد أدباً من نوع آخر نما حول هذه الفتنة ، وهو يتناسب وجو البلاط وعقلية الخليفة العبّاسي ، وأهمّ ما فيه الإعتـذار . فحين سيق أبو الهيذام إلى الرشيد ، حسب بعض المصادر ، دافع عن قضيته بطريقة أخرى غير الأساليب الجاهلية التي مارسها مع عمال الرشيد المتحيّزين : لقد بادر إلى الاعتذار شارحاً أسباب ما حصل : لم يفخر ولم يأْبَ ولم يهدد ، بل أنحى باللوم على صديقه الذي استغلّ ثقته به وسلّمه إلى من كبّله وقيّده ، شأن المجرمين ، بينما هو من أهل السمع والطاعة ، هبّ إلى السيف والرمح حين لم ينفع الصلح . وهو ، إذا ثار في الشام ، فلإرضاء أخيه الشهيد الثاوي في سجستان . وهي زلة ، بلا شك ، والرشيد مُقيلُ العَثَرات . هكذا أقرّ أبو الهيذام بالذنب ، ولم يطلب البراءة منه ، بل طلب العفو من الرشيد الذي يتمتّع بنصر من الله وتأييد ، وإرادة الله هي التي أوقفته هنا طامعاً في فضل الحاكم العادل[2] . وهذا النوع من الشعر الإعتذاري ما كنّا لنراه من شاعر فارس قاد

---

1 الورقة ص 24 .

2 نذكر الأبيات التي جمعناها من مصادر متعددة :

أفي عامـرٍ ، لا قدَّسَ اللهُ عامراً ... أَبيتُ تُعنّيني السلاسلُ والكَبلُ ؟
فما ضَرَّ مَن كانتْ سُجُستانُ أرضَهُ ... بأَنْ فاتكٌ بالشامِ زَلّتْ بهِ النَعْلُ
إذا نحنُ خلّينا عن الصُلحِ عامراً ... وكان التصافي بيننا الرمحُ والنصلُ
فمـا نحـنُ إلاّ أهلُ سَمْعٍ وطاعةٍ ... وهل أنتَ إلاّالسيِّدُ الحكَمُ العَدْلُ
أَغِثْنِــي ، أميرَ المؤمنـين بنظـرةٍ ... تَزولُ بهـا عنّـي المخافـةُ والأَزْلُ
ففضلَكَ أرجـو ، لا البراءةَ ، إنهُ ... أبى اللهُ ألاّ أن يكونَ لكَ الفَضلُ
وإلاّ أكُـنْ أهـلاً لما أنتَ أهلُهُ ... فأنـتَ ، أميرَ المؤمنينَ ، لهُ أهلُ

(الورقة ص 24 ـ سمط اللآلِيء ص 593) . ومعجم الشعراء ص 92 ، وقد أورد الأبيات الثلاثة الأخيرة على أنها لأخ لأبي الهيذام كان عاملاً للرشيد على سجستان حُبس وطولب بخمسة آلاف درهم . ونرجّح أنها جزء من قصيدة أبي الهيذام . لذا أضفناها إليها . (معاهد التنصيص ج 1 ص 256) .

ثورة كهذه وحقّق من الانتصارات ما حقّق ، لو أنه عاش أيام الأمويين . . . وهناك نوع ثانٍ من الأدب أنتجته فتنة العصبية هذه ، واعتنى المؤرّخون بتسجيله وحفظه ، وهو ما نجم عنها بوصفها قضية من قضايا البلاط استأثرت باهتمام الخليفة فكان ذلك إيذاناً بتحريك الجيوش وترتيب لحملات ، وتوديعٍ لقوّاد ، وإلقاءٍ لخطب ، واستقبالٍ للعائدين المظفّرين بعد إخماد النار . كل ذلك شارك فيه أدباء ليسوا من قيس ولا من اليمن ، إنما هم من البلاط ، وللبلاط قالوا وأنشدوا . وكان من ذلك مدحٌ كثير للرشيد ووزيره جعفر وللبرامكة . ذاك أن الفتنة التي أخمدها موسى البرمكي عام 176هـ استنامت بضع سنوات ثمّ هاجت من جديد وبلغت أوجها عام 180هـ «فاغتمّ بذلك من أمْرهم الرشيد . فعقد لجعفر بن يحيى على الشام . . . فشخص في جلة من القوّاد والكراع والسلاح . . . فأتاهم فأصلح بينهم وقتل زواقيلهم والمتلصّصة منهم ، ولم يدع بها رمحاً ولا فرساً . فعادوا إلى الأمن والطمأنينة»[1] . . . وكان مسير جعفر إلى الشام مناسبة جلسة أدبية نحاول جمع شتاتها : فعلى عادة الرشيد في توديع البرامكة حين ينتدبهم لمهمّات جسام ، خرج مع جعفر ، حين شخص من الرقة ، يشيعه ومعه جميع من بحضرته من الوجوه والأشراف ، وفيهم عبدالملك بن صالح . وراح الأشراف يودّعونه ، كلّ بدوره ، يوصونه أو ينقلون إليه مطالبهم وأمنياتهم ، فلما اقترب منه عبدالملك قال له جعفر : أذكر حاجتك . فقال له : حاجتي ، أعز الله الأمير ، أن تكون لي كما قال الشاعر :

وكُونِي على الواشينَ لَدَّاءَ شَغْبَةً ... كما أنا للواشي أَلَدُّ شَغوبُ

فأجابه جعفر ، بحضور بديهته الرائع : بل أكون كما قال الآخر :

وإذا الواشي أتى يَسعى بها ... نفعَ الواشي بما جاء يَضُرُّ[2]

وفي هذا الجو الأدبي المتميّز ، بدأ الشعراء يتبارون في المدح وبسط الآمال ، ومن بينهم منصور النمري الذي اندفع ينشد قصيدة طويلة ذكر الطبري قسماً لا بأس به منها . ونحن نعرضها بشكل اجمالي ، مبيّنين النقاط التي تناولتها ، لتتكوّن في أذهاننا صورة عمّا كان يجري ويقال في حفلات الوداع ، خصوصاً حين يكون الرشيد حاضراًمع المودّعين . وتتناول القصيدة ذكر الحافز ، لهذه الحملة ، وهو الفتنة التي أوقدت نيرانها في الشام . ولا يتوقّف النمري عند ذلك ، بل يعدوه إلى مدح جعفر والبرامكة مؤكّداً أن إخماد الفتنة بات أمراً في حكم المبرم ، لأنّه لا بد لشرارتها من أن تنطفىء إذا اتجهت نحوها أمواج الجيش البرمكي[3] . ومن أهم ما ذكره في هذا المضمار إشارته إلى حياد

---

1 تاريخ الرسل والملوك 8 ص 262 .

2 الوزراء والكتّاب ص 208 .

3 من ذلك قول النمري :

لقد أُوقدتْ في الشأمِ نيرانُ فتنةٍ ... فهذا أوانُ الشَّأْمِ تُخْمَدُ نارُها

جعفر في معركة العصبية هذه . فهو من تتلاقى عليه قحطان ونزار[1] . وله مزايا أخرى كثيرة ، لكنها جميعها لا تكفي وحدها : لا بدّ ، معها ، من العصا ، تُشهر في وجه المخالف ليخاف ويُقلِع . لذلك يشير منصور إلى جيش جعفر الذي يسير وراءه ، جيش كثيف أشبه بغابة كبيرة ، أشجارها السيوف والرماح تلتمع الأنصال في أطرافها ، كأنها النجوم ؛ وويل من ثمارها ، فهي مميتة[2] . ولعلّ النمري كان يتوقّع أن يسير شعره إلى الشام ويسبق جيش جعفر ، ويعمل عمله في إلقاء الخوف في نفوس المتقاتلين . لذلك نجده يبْعث إليهم برسالة[3] تقوم على فكرتين : الأولى هي التنبيه إلى أهميّة الشخصية التي تتوجّه إليهم لأنها غير عادية : إنها أمير المؤمنين بالوكالة ، وزير الخليفة وكاتم أسراره وسيفه في الملمّات . من طبيعته الوفاء إذا عاهد ، وجبر العثرات ، والتنكيل بالمخالفين[4] . . . والفكرة الثانية هي وضع أهل الشام أمام خيارين : أولهما استمرارهم في القتال ، وبالتالي ، حصد الويل والثبور ، فقد أتاهم من يورث الخراب والدمار ولا يوفر سفك الدماء . والخيار الثاني هو التعقّل وترك الاقتتال وبالتالي نيل العفو والرضا . في هذه الحالة ، طوبى لهم : الحيا أتاهم ورمزُ العطاء نزل بين ظهرانيهم ، لأن أقل ما يجود به كبير كثير :

فطُوبى لأهلِ الشأمِ ، يا ويلَ أُمها : أَتاهــا حَياهــا أو أتاهــا بَوارُها

= إذا جــاش مــوجُ البَحرِ ، من آلِ برمكٍ ، عليهــا ، خبَــتْ شهبانُها وشَرَارُها

الطبري ج 8 ص 262 .

1 يقول النمري في ذلك :

رماهــا أميرُ المؤمنين بجعفرٍ وفيــه تَلاقَى صَدعُها وانجبارُها

رماهــا بميمونِ النقيبةِ ماجدٍ تراضَى بــه قحطانُهــا ونِزارُها

المصدر السابق :

2 غدوت تُزجِّي غابةً ، في رؤوسِهــا نجومُ الثريــا ، والمَنَايا ثِمارُها

المصدر السابق .

3 يقول :

فقولــوا لأهــلِ الشأمِ : لا يَسْلُبَنَّكمْ حِجاكم طويلاتُ المُنى وقِصارُها

المصدر السابق .

4 مما يصفه به قوله :

فــإنّ أميــرَ المؤمنــينَ بنفسِهِ أتاكــمْ ، وإلا نفسَهُ ، فَخِيارُهــا

وزيــرُ أمير المؤمنــينَ وسيفُــه وَصَعْدَتُهُ ، والحربُ تَدْمَى شِفارُهــا ،

ومن تُطْــوَ أسرارُ الخليفةِ دونَهُ فعنــدَكَ مأواهــا وأنتَ قَرارُها

الطبري ج8 ص 263 .

فإن سالَموا ، كانت غمامـةَ نائلٍ   وغيثٍ ، وإلا فالدِماءُ قِطارُها[1]

وهو ، في مدحه ، معرّجٍ حتماً على البرامكة جميعاً ، وعلى يحيى بالذات[2] . ويختم بالوداع يوجهه إلى أفراد الحملة متمنياً لهم السعد رفيقاً[3] ، آسفاً على بقائه في بغداد بعيداً عن الوزير يتحمّل صعوبة الفراق واستحالة السلوى :

فعــــينُ الأسى مطروفةٌ لِفراقِــهِ   ونَفسي ، إليهِ ، ما يَنامُ ادِّكارُها[4]

والرسالة النمرية لم تكن الوحيدة : فأشجع السلمي كان بين الشعراء المودّعين . فما إن نزل جعفر مضربه ، وأمر بإطعام الناس ، حتى انبرى أشجع يندّد بالفئتين من أهل الشام وينذرهم باقتراب القصاص ، إن لم يرتدعوا :

فئتــانِ : باغِيــةٌ وطاغيــةٌ   جَلَّت أُمورُهُما عـن الخَطْبِ
قــد جاءكُم بالخيــلِ شاذِبةً   يَنقلْنَ نحوكُـمُ رَحَـى الحَربِ
لم يبـقَ إلاّ أن تــدور بِكُمْ   قــد قــامَ هاديها على القُطْبِ[5]

ـ القضاء عليها

ويبدو أن الرسالة أو الرسائل أدّت مهمّتها ، أو أن مضمونها بات معروفاً من القاصي والداني ، فلم يجد جعفر صعوبة في إخماد نار الفتنة . وقد استخدم جعفر الطريقة البرمكية في حلّ المشاكل وهي : التلويح بالسيف وتحاشي العنف في آن واحد ، والسعي بالمداورة والمناورة إلى جعل المتمرد يستسلم راضياً ، مطمئناً[6] إلى الوعود بتحقيق الأماني . وقد صعد جعفر المنبر غير مرّة وخطب أهل

---

1 المصدر السابق وانظر ديوان المعاني ج 1 ص 35 (فطوبى لأهل الشام أم ويل أمها . .) .

2 من قوله في جعفر ووالده :

أبوكَ أبو الأملاكِ ، يَحيَى بنُ خالدٍ   أخو الجودِ والنُعمى الكبارُ صغارُها

الطبري ج 8 ص 263 .

3 غدا بنجومِ السعدِ مَنْ حَلَّ رَحلَهُ   إليكَ ، وعزّت عُصبةٌ أنتَ جارُها

المصدر السابق .

4 المصدر السابق .

5 الأغاني ج 18 ص 50 (والهادي هو قضيب الرحى الذي تدور حوله) .

6 وصف مسلم بن الوليد تفاصيل هذه الحملة في قصيدة مدح بها الفضل بن جعفر البرمكي وأتى فيها على ذكر إخماد الحرب الشديدة الناشبة في الشام بين الأقرباء المتجاهلين توصيات الدين ، المندفعين إلى الموت بطيبة خاطر ؛ وكذلك عرض لذكر الجيش اللجب المؤلف من الفرسان والراجلة بأعداد هائلة . وقد أكّد مسلم الأسلوب البرمكي : تحكيم السيف لمنع الاقتتال ، وأغداق العطاء لتشجيع الصلح . فهو ساقٍ ، بيديه دلوان : أحدهما حلَبه من ضرع الردى والآخر حلَبه من ضرع الندى ، يعطي لكلٍّ ما يستحق منهما ، مع أن سطوته وقوّته تمكّنانه من استخدام السيف وحده يرغم به أنف الجميع . ومن أبيات هذه القصيدة :

الشام بأسلوب إسلامي بليغ مرصّع بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية . ففي إحدى هذه المرّات ، حمد الله وشكره على نعمه التي لا تحصى ، أنعم بها على خلقه ، من يستحق منهم ويشكر ، ومن لا يستحق بل يسيء . وراح يشدّد على الائتلاف وتوحيد الكلمة وما في ذلك من قوة للفرد والجماعة . من ذلك قوله : «. . . إن الفرقة تنشيء بينكم إِحَنًا يطلب بها بعضُكم بعضاً ، وإن الجماعة تعقد بينكم ذمماً يحمي بها بعضكم بعضاً . . . إنه لم يجتمع ضعفاء قط إلاّ قووا حتى يمتنعوا ، ولم يفترق أقوياء قط إلا ضعفوا حتى يخضعوا . واجتماع الضعيفين قوة ، وافتراق القويّين مهانة تمكّن منهما . . .»[1] وفي مرة أخرى ، صعد جعفر المنبر في حمص إثر ظهور العصبية فيها ، وطفق يندد بأهلها ويحذّر ، مصعّداً اللهجة ، التي بدأت لينة ناصحة في الخطبة السابقة ، لتصبح عنيفة متوعّدة فتزيل أي خاطرة قد تجول بالبال لتفسّر لينه في خطبته الأولى ضعفاً وتهيّباً : «أحذّركم عواقب البطر ووبال ما لا يُشكر من النعم ، وملمةَ كل خطب يدفع إلى ندم . فإن السعيد من سعد بغيره ، وإن الشقي من شقي بنفسه واتعظ به غيره . . .»[2] هكذا فثأ جعفر حُميّا الفتنة وقفل إلى بغداد . وكانت العودة مناسبة أدبية لجلسة ثانية في البلاط على حساب العصبية . وقد رفرف في جو الجلسة فرحتان : إحداهما لإطفاء نار العصبية دون ضحايا واقتتال . وثانيتهما لعودة الوزير سالماً ومعه قوّاده وجنوده . والرشيد فتح لهم قصره وقلبه : يستقبلهم ويستمع إلى الخطباء والشعراء يقولون ويمدحون . ولما دخل جعفر على الرشيد «قبّل يديه ورجليه ثمّ مثل بين يديه»[3] وطفق يلقي خطبة مشهورة متميّزة بلون خاص : لون العلاقة التي كان الخليفة العبّاسي يريدها مع الآخرين ، في الملأ ، علاقة التابع والمتبوع ، أيًّا كان مركز الآخرين وإنْ وزراء ، وإن برامكة ، بل خصوصاً البرامكة ، ولو كان منهم جعفر أخوه في وقت السمر . والمتتبع لهذه الخطبة يفاجأ بما فيها من تودّد ، إن لم نقل تذلل ، يظهره جعفر البرمكي للرشيد ، حتى لتكاد هذه الخطبة تمحو من الأذهان صورة جعفر صاحب السطوة وصاحب النفوذ لدى الرشيد الذي كان يدخل معه في ثوب واحد في لحظات الصفاء[4] . لكن المدقّق في حوادث البلاط وتاريخ هذه الخطبة يرى أنها

= أبوكَ استردَّ الشامَ ، إذ نَفَـرَتْ بـهِ ، مُلَقَّحـةٌ شعـواءُ ليس لهـا بَعلُ
بجيشٍ كأن الليـلَ بعضُ حديـده تهادى الردى فيه الفوارسُ والرَّجلُ
نَضَى سيفَهُ فيهـمْ بحَقنِ دمائِهم وسَفْكِ دمـاءٍ عندَها ضَحِكَ التَبلُ
مـرى لهمُ خِلفين : بالحَتفِ والنَدَى لكلِ يَـدٍ من نَزْعِ ساعِدِها سَجْلُ

ديوان مسلم ص 266 .

1 الوزراء والكتّاب 208 .

2 تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 410 .

3 تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 263 .

4 الوزراء والكتّاب ص 205 .

كانت عام 180هـ أو 181هـ وهي الفترة التي كان الرشيد قد بدأ يظهر تغيّراً على البرامكة ، وهم قد أخذوا ، بالمقابل ، يتسلّحون بالحذر منه ويدارون مشاعره وعواطفه . فكأن إطفاء الثورة جاء تأكيداً لولاء البرامكة للدولة وبقائهم سيفاً من سيوفها يعمل لمصلحتها حين تعجز سائر السيوف . وأتى إلقاء الخطبة ترسيخاً لتبعية البرامكة للرشيد[1] ونفياً لأية فكرة عن أطماع لهم في التفوق على الهاشميين أو التساوي بهم . يكفي أن نقرأ المطلع ليطل علينا وجه التزلف الذي طبع ، فيما بعد ، أدب التراسل والإخوانيات : «الحمد لله ، يا أمير المؤمنين ، الذي آنس وحشتي وأجاب دعوتي ورحم تضرّعي وأنسأ في أجلي حتى أراني وجه سيدي وأكرمني بقربه وامتنّ عليّ بتقبيل يده ، وردّني إلى خدمته . فوالله ، إن كنت لأذكر غيبتي عنه ومخرجي ، والمقادير التي أزعجتني ، فأعلم أنها كانت بمعاص لحقتني وخطايا أحاطت بي . ولو طال مقامي عنك ، يا أمير المؤمنين ، جعلني الله فداك ، لخفت أن يذهب عقلي إشفاقاً على قربك وأسفاً على فراقك»[2] . ويعمد جعفر في خطبته ، كأمهر شاعر في البلاط ، إلى تصوير هيبة الرشيد طاغية على كل منطقة في مملكته : إرادة الله ترعاه وتسدد خطاه ، ومصلحة الجميع في طاعته ورضاه . لأجل هذا أصبح أهل الشام مطيعين له ، نادمين على ما بدر منهم ، راضين بحكمه فيهم ، ينتظرون عفوه وفضله» وعفو أمير المؤمنين عنهم ، وتغمّده لهم ، سابق لمعذرتهم . وصلة أمير المؤمنين لهم ، وعطفه عليهم ، متقدم عنده على مسألتهم»[3] . هكذا ، وعن طريق البرامكة مرة أخرى ، يحصل أهل الشام على العفو وصلة أمير المؤمنين . ويتحول جعفر إلى نفسه يظهر عواطف اعترافه بالجميل نحو الرشيد ، ولي نعمته ، معدداً آيات هذه النعمة ، مردّداً كلمات الولاء التي يحاول صبغها بألوان من المحبة والإخلاص والوفاء ، بأسلوب رشيق أنيق تشوبه الصنعة المقصودة والتكلف . من ذلك النموذج التالي : «ولكني أعرف من أياديك عندي ما لا أعرف مثلها عند غيري . فكيف بشكري وقد أصبحتُ واحد دهري فيما صنعته فيّ وبي ؟ ... وكيف بشكري وأنت تقدّمني ، بطَولك على جميع أكفائي ؟ أم كيف بشكري وأنت وليّي . . . ؟»[4] ولا شكّ في أن جعفراً

---

1 في هذه الخطبة يعيد جعفر إلى الرشيد الفضل في كل ما أتمه في الشام ، ويعتدّ نفسه إحدى الأدوات التي سخّرها الله ليُعز دولة الرشيد فيقول : «وأيم الله ، يا أمير المؤمنين ، لئن كنت قد شخصت عنهم ، وقد أخمد الله شرارهم ، وأطفأ نارهم ، ونفى مُرّاقهم ، وأصلح دهماءهم ، وأولاني الجميل فيهم ، ورزقني الانتصار منهم ، فما ذلك كلّه إلاّ ببركتك ويمنك وريحك ودوام دولتك السعيدة الميمونة الدائمة ، وتخوفهم منك ، ورجائهم لك . والله ، يا أمير المؤمنين ، ما تقدمت إلاّ بوصيتك ، وما عاملتهم إلاّ بأمرك ، ولا سرت فيهم إلاّ على حد ما مثلته لي ورسمته . . .» (تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 265) وفي تبعية البرامكة للرشيد يقول ابن خلدون : «كان جعفر بن يحيى بن خالد من أعظم الناس بيتاً وشرفاً بالانتساب إلى ولاء الرشيد وقومه ، لا بالانتساب في الفرس» . المقدمة ج 2 ص 434 .

2 الطبري ج 8 ص 263 .

3 المصدر السابق ص 264 .

4 المصدر السابق ص 265 .

كسب هذه الجولة كما كسب جولة الشام . فقرّبه الرشيد إليه وأطلق العنان للشعراء يمدحونه . فانبرى مسلم بن الوليد يقول ، مشيراً إلى ما قام به من إصلاح ذات البين عند أهل الشام :

استفسدَ الدهرُ أقواماً فأصلَحَهُمْ مُحمَّلٌ نَكَبـاتِ الدهـرِ مُحتمِلُ
بـهِ تعارَفَتِ الأحيـاءُ وائتلفتْ إذ ألّفتهـم إلى معروفـه السُبُلُ
كأنّـهُ قمـرٌ أو ضيغـمٌ هَصِرٌ أو حيّةٌ ذَكَرٌ أو عارضٌ هطِلُ . . .[1]

ولا ينسى مسلم الإشارة مرة أخرى إلى الأسلوب البرمكي في التعامل مع الخارجين بالترغيب والترهيب والكثير من العطاء وتحمل الديات وإغناء المحتاج وإزالة العلل ، هذا الأسلوب الذي يجعل البرامكة قبلة الناس[2] . . . وتطوى صفحة أخرى من صفحات الصراع العصبي بين العدنانية والقحطانية الذي لم يتجلّ على أرض الشام والجزيرة فحسب ، بل ظهر أيضاً في السند حرباً ضروساً أثناء ولاية طيفور بن عبدالله بن منصور الحميري ، ثمّ أثناء ولاية عيسى بن جعفر بن منصور[3] . وأرمينة أيضاً لم تخلص من اضطرابات كثيرة سببها صراع النزارية واليمانية[4] ، وقد أخذت هذه الصراعات أبعاداً جعلت مؤرخاً كابن تغري بردي[5] يرجع إلى أيام الرشيد الأساس الحقيقي للفتنة بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، تلك الفتنة التي استمرت طويلاً بعد ذلك ، متناسياً جميع فوراتها السابقة ، أو معتدًّا إياها تافهة إذا قيست بما جرى في هذه الحقبة[6] . وهذا يستوقف الباحث ويجعله يفتّش عن سبب آخر ، غير سوء تصرف الوالي وما ورث الناس من أحقاد ، يفتّش عن مثير لهذه الأحقاد ، مستغل لها ، مستفيد من صراع العرب بفئاتهم وقبائلهم[7] . وهذا ما يوصلنا إلى الصراع بين الموالي والعرب .

ثانياً : صراع العصبية بين الأجناس العربية وغير العربية

1 - مفهومها وأسبابها : نقصد به الصراع بين الجماعات العربية والجماعات المنتمية إلى

---

1 الوزراء والكتّاب ص 209 .

2 مما يقول مسلم في ذلك :

كُلُّ البريّـةِ مُلـقٍ نحـوه أَمَـلاً بالرغبِ والرُهبِ موصولاً به الأملُ
مستغرِقٌ لُمنـى العافيـنَ نائِلُـه تَفنى ، على وعـده ، الأموالُ والعِلَلُ

(الوزراء والكتّاب ص 209) .

3 تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 409 .

4 المصدر السابق ص 426 .

5 عاش ما بين 813هـ/ و874هـ .

6 يقول ابن تغري بردي معدّداً حوادث عام 171هـ «كانت الفتنة بدمشق بين المضرية واليمانية . وهذه الفتنة هي سبب العداوة بين قيس وبين اليمن إلى يومنا هذا . . .» (النجوم الزاهرة ج 2 ص 67) .

7 سبقت الإشارة قبل قليل إلى شكّنا في دورٍ للعبة البرامكة في إذكاء فتنة الشام . .

أصل غير عربي ، ممن اشتركت في تكوين شعب الأمبراطورية الإسلامية . والمعروف أن الدولة الأموية مارست التمييز العنصري بطريقة منهجية جعلت نقمة الموالي تتزايد باستمرار حتى بلغت ، في أواخر أيام الأمويين ، مبلغها من العمق والعنف . وقد استغلت الدولة العبّاسية هذه النقمة واعتمدت على الخراسانيّين ، بشكل خاص ، في تقويض أركان الدولة الأموية وإقامة الحكم الجديد . والموالي الذين ساعدوا الدولة الناشئة اعتدّوها المنقذ المخلّص لهم من آلامهم الاجتماعية ، وظنّوا أنها ستردّ لهم اعتبارهم كمواطنين . لكن ، إلى أي حد حقّقت الدولة العبّاسية أمانيهم ؟ وما كان وضعهم فيها ، أيام الرشيد بالذات ؟ . الواقع أن الموالي ، على الصعيد الرسمي والإداري ، في التعامل والوظائف والإدارات والقيادات ، حقّقوا كسباً كبيراً فنفذوا إلى السلطة حتى بلغوا أعلى مراتبها . وعلى الصعيد الاجتماعي والشخصي ، لم يضايق معظمُ الحكام العبّاسيين الناسَ في حياتهم الخاصة والعامة . فانطلق هؤلاء على سجيّتهم ، عربية كانت أو غير عربية ، وجهروا بآرائهم ، وأظهروا تمسّكاً بعاداتهم وتقاليدهم . وأقام أهل الطوائف غير الإسلامية ، وأبناء الشعوب غير العربية ، حفلاتهم وأعيادهم ، ومارسوا شعائرهم بحريّة . بل إن الناس عامة وبعض الخلفاء ، شاركوهم في بعضها واستمتعوا بالآخر . إنما كان هناك تحفّظ ، بل ضغط وكبت في حالتين : الأولى : أن تمسّ الأقوال والأعمال تعاليم الدين الإسلامي ، أو تهدد الإيمان الصادق وتدعو إلى التحلّل والفسق . والثانية : أن يبدر في حضرة الخليفة قول أو فعل ، يقلّل من شأن الإسلام أو العرب أو قريش . وبقي أثر الخلفاء في الحياة العامة محصوراً في الموقف السلبي من الأعاجم : لم يضطهدوهم ، كما فعل الأمويون ، إنما لم يقوموا بعمل ايجابي جذري لإعادة اعتبارهم وتأمين المساواة بالعرب لهم . لذلك لم تنمح النقمة من نفوسهم ، ولم يخلصوا الولاء للدولة الجديدة . ولو أن هذه الدولة ، التي اصطنعت العنصر الأعجمي وأطلقت له الكثير من النفوذ الإداري والسياسي ، قامت بمبادرة مماثلة على الصعيد الاجتماعي ، وعدّلت التشريعات والأعراف السائدة لتقيم المساواة بين المسلمين العرب والمسلمين من غيرهم ، وفق الشريعة الإسلامية ، لأمكن لأسباب النقمة العرقية أن تختفي وللشعوب المختلفة أن يندمج بعضها في بعض لتشكّل شعباً واحداً جديداً . لكن ذلك كان يلزمه تغيير «التركيبة» الاجتماعية وتعديل العادات والتقاليد الموروثة من مئات السنين والتي تتابع الخلفاء الأمويون على ترسيخها . وهذا التغيير ليس في قدرة الحاكم ، إنما تقوم به الثورات العسكرية والدينية ، وهو كان من أول اهتمامات الثورة الإسلامية التي قادها النبي ﷺ وتنكّر لها من جاء بعده وبعد الراشدين ، إذ عمدوا إلى شهر سلاح التفرقة ليسودوا . ومع أن العبّاسيّين أظهروا ، هدفاً لحركتهم ، تصحيح الأوضاع السيّئة التي أقامها الأمويون وأدّت إلى انحلال ملكهم ، ومع أن معظم الخلفاء العبّاسيّين كانوا أبناء لأمهات أولاد وتلاميذ لمؤدبين من الموالي ، فإنهم تشبّثوا بالتمييز العرقي لصالح العرب ، مع اعترافهم بفضل الأعاجم . هكذا استمر الضغط النفسي العام ، غير الرسمي ، على

حاله بالنسبة إلى الموالي ، واستمر إحساسهم بالضياع والنقص وسط عالم يقوم على الانتساب والفخر بالأصل والعائلة ، كما أسلفنا . والنتيجة أن يستميت الموالي في البحث عن هوية اجتماعية محترمة لهم ، أو في ايجاد كيان يجمعهم ويميّزهم بطريقة تفرض وجودهم . إلاّ أن الفشل كان نصيبهم في جميع محاولاتهم : لا الدين الذي اعتنقوه حقّق لهم المساواة الموعودة ، ولا الالتحاق بالقبائل العربية ، عن طريق التبنّي أو الولاء ، أعاد لهم اعتبارهم[1] ، ولا العلم الذي حصلوه وتفوّقوا في مجمل فروعه قدّم لهم الترقي الاجتماعي ، وإن رفع كثيراً من القيمة الشخصية لبعضهم ، ولا المراكز العالية ، التي تبوّأوها فأسلمتهم مقدّرات البلاد ومصائر العباد ، استطاعت أن تردم الهوة الفاصلة بين صاحب النسب العربي ومن لا نسب عربياً له[2] . فاستمرت النقمة تغلي في نفوسهم

---

1 نحاول فيما يلي إعطاء أمثلة سريعة على ما نذهب إليه . فمن المعروف أن أبا نواس حاول الانتساب إلى قبائل قحطان اليمنية بالولاء ، ففخر بها كما يفخر أي عربي بعشيرته ، وهجا أعداءها من عدنان قبيلة ، قبيلة . . ولكن يبدو أنه لم ينل ، بهذا الانتساب ، ما طمع به من منعة : فالرشيد حبسه لهجائه نزاراً فلم يحرك اليمنيون ساكناً ، بل على العكس ، عمد بعض الحُديجيّين من كندة إلى الإساءة إليه فأسلط عليهم لسانه وتخلّى عن انتسابه في العرب ليعود إلى خط بشّار في الفخر بالعجم والإزراء بالعرب عامة . وقصائده في ذلك كثيرة منها :

البائية وفيها :

تُفاخـرُ أبنــاءَ الملــوك سَفاهــةً ... وبولُك يجري فوق ساقِكَ والكعبِ ؟

(الديوان ص 510) .

والرائية وفيها :

إذا مـا كنـتَ بــالأشيا ... ءِ في الأعــرابِ مفتخِرا

فإنّــك ، أيَّمـا رَجُــلٍ ... وردتَ ، فلم تجدْ صَدَرا

(المصدر السابق ص 558) .

ومن أشهر الباحثين عن ولاء ونسب في العرب محمد بن مناذر : يروي الجاحظ عن انتسابه الخبر الطريف التالي : «كان محمد بن مناذر مولى سليمان القهرمان . وكان سليمان مولى عبيدالله بن أبي بكرة ، مولى رسول الله ﷺ . وكان أبو بكرة عبداً لثقيف . ثمّ ادعى عبيدالله بن أبي بكرة أنه ثقفي وادعى سليمان القهرمان أنه تميمي وادعى ابن مناذر أنه صليبة من صبير بن يربوع . فابن مناذر مولى مولى مولى ، وهو دعيٌّ مولى دعيٍ . وهذا مما لم يجتمع في غيره قط ممن عرفناه وبلَغنا خبره» . (الأغاني ج 18 ص 103) والهيثم بن عدي ، الراوية ، لإخباري المعروف ، ادعى نسباً في بني طيء . لكن انتسابه لم يُعل من شأنه ، إذ عمد الرشيد إلى التفريق بينه وبين زوجته العربية ، لعدم تكافئهما في النسب . (الأغاني ج 19 ص 307) فأذكى ذلك فيه ، بلا شكّ ، الرغبة في إيذاء العرب ، وزاد تصميمه على تضليل تاريخهم وتزييف أنسابهم ووضع أخبارهم وإبراز عيوبهم . (راجع الفهرست ص 99 وابن منظور ــ أبو نوّاس ص145) . ولو تتبّعنا هذه الفكرة لوجدنا وضعاً مشابهاً عند مسلم بن الوليد الذي انتمى إلى الأنصار ونافخ عنهم ابن قنبر ، كما رأينا ، وجنى اللوم والمسبة . ويطول الأمر في إحصاء هذه الحالات لأنها كانت منتشرة شائعة .

2 من المعروف أن إحدى التهم الموجّهة من المنصور إلى أبي مسلم الخراساني ادعاؤه نسباً في بني العبّاس ، وطموحه إلى الزواج من آسية بنت علي (راجع مروج الذهب دار الأندلس ــ ج 3 ص291) . ويردد كثير من المؤرّخين خبر

يدعمها السلاحان القويّان اللذان ذكرناهما وهما : النفوذ السياسي لفئة من الأعاجم ، والمعرفة العلمية اللغوية الفقهية التي حمل لواءها كثيرون منهم . ومن الطبيعي أن يؤدّي ذلك كلّه إلى الانفجار حين يخفّ الضغط الفوقي الذي يمارسه الحاكم . وقد خفّ الضغط ، كما أسلفنا ، أيام العبّاسيّين ، وخصوصاً أيام المهدي ثم الرشيد ، فتفجّرت ثورة حقيقية : اجتماعية ، ثقافية ودينية ، استخدمت فيها جميع أسلحة الصراع وعلى المستويات كافة .

2 ـ مظاهرها : من أبرز هذه المظاهر ردود فعل جديدة على تصرفات حائرة سابقة : فمقابل الانتساب إلى القبائل العربية ، والفخر بذلك ، قامت حملة تجريح في أنساب العرب وصحتها ، وحضارة العرب وقيمتها ، وأخلاق العرب وفعاليتها[1] . ومقابل البحث عن نسب بالولاء إلى العرب ، قامت موجة نقد وسخرية وتجريح تواجه من يحاول اعتناق نسب مزيف مهلهل كهذا[2] .

= العباسة أخت الرشيد جاعلين إقدام جعفر على الزواج منها سرًّا ، وتجاوزه الخط الأحمر الفاصل بين المولى والعربية ، سبباً في قتله دون البرامكة ، وفي نكبتهم جميعاً . ونحن ، مع استبعادنا صحة الخبر ، نورده دليلاً على عقلية العصر .

1 لقد كتب الكثير عن هذا الموضوع . راجع على سبيل المثال لا الحصر : «العقد الفريد ج 3 ص403 وما بعد» و«ضحى الإسلام ج 1 ص 66 وما بعد» و «طه حسين : في الأدب الجاهلي ص 163 وما بعد» و«محمد بديع شريف ـ الصراع بين الموالي والعرب» و «محمد نبيه حجاب ـ الشعوبية في الأدب العربي» و«هاملتون جب ـ دراسات في الحضارة العربية ص 588 وما بعد» و«مصطفى هدارة اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري . ص395 وما بعد . .» .

2 تمثّل هذه الظاهرة وضعين نفسيين تجاذبا فئة الموالي في ذلك العصر المضطرب اجتماعياً . ففي الوضع الأول نرى إحساساً عميقاً لدى المولى ، وإن شاعراً مفلّقاً أو عالماً أو حتى والياً ، بالهوة الواسعة بينه وبين العربي الأصيل . وهو إحساس قد يلطفه الشعور بالمشاركة في هذه الأوضاع مع آخرين لهم قيمة فنّية وأدبية معروفة . وبالمقابل ، في الوضع الآخر ، يتولد شعور بالخوف والقلق النفسي ، عند أفراد الجماعة حين يحاول أحدهم الإفلات من القاسم المشترك والالتحاق بنسب عربي . وكأني بالشاعر المولى ، الذي يحاول الابتعاد عن وضعه الموروث ، يصبح هدفاً للباقين يشدّونه بكل طاقتهم ليعودوا به إلى عالمهم ، يقووا به ويقوى بهم فيشكّلوا معاً طبقة لها ميزاتها ، تثبت كفايتها ، وجدواها للمجتمع ، وتفوق في ذلك من لا يملك إلاّ حسن النسب . هكذا هاجم أبو نواس ، بعد توبته عن الانتساب في العرب ، الهيثم بن عدي في شعر مشهور منه :

الحمدُ للهِ هذا أعجبُ العَجَبِ ... الهيثمُ بنُ عَديٍّ صار في العربِ

(الديوان ص 524) .

كما هاجم الفضلَ الرقاشي ، من ذلك قوله :

يا عربياً من صنعةِ السوقِ ... وصُنعَةُ السوق ذاتُ تشقيقِ

(المصدر السابق) .

وله فيه :

قلتُ يوماً للرقاشيِّ ... وقَدْ سبَّ المَوالي

وفي الطرف الأخير لهذه الموجة ، ارتفع صوت تفضيلهم على العرب[1] .

3 ـ دورها في البلاط

أ ـ اعتزاز الرشيد بكل ما هو عربي : هذه الموجة من الصراع العرقي ما كانت لتبقى بعيدة عن البلاط الذي واجهها وشارك فيها وتفاعل وأحداثَها . فالرشيد قد اعتز بنسبه العربي وفخر ، لا بأمجاد العرب فقط ، بل بكل ما ينتمي إليهم ويرقى ، ولم يسمح بالتطاول عليهم لأي أعجمي

= ما الـذي نَحَّاكَ عن أصلِـ ـكَ من عمٍّ وخالِ ؟

(المصدر السابق ص 576) .

وكذلك تناول أبو نواس أشجع السلمي لإدعائه نسباً في العرب :

أيها المدّعـي ولاء سُلَيـمٍ لستَ منها ولا قلامةَ ظفـرِ
أنـتَ فيها مستلحَقٌ مثـل واوٍ أُلحِقَتْ في الكتابِ ، ظلماً ، بعمرو

(ابن منظور ص 181) .

وتناول عليُ بن الخليل صديقاً له من الدهاقين ادعى الانتساب إلى تميم ، فقال معرضاً به وساخراً من القيم الصحراوية ، في شعر ينضح بالشعوبية :

يَـروحُ بنِسبـةِ المـولى ويُصبحُ يَدَّعـي العَرَبـا
فـلا هـذا ولا هـذا لكَ يُدرِكُـه إذا طَلَبـا
فرشتُ لـه قريحَ المِسـ ـكِ والنسريـنَ والغَرَبـا
فأمسكَ أنفَـهُ عنهـا وقـام مُولّيـاً هربَـا
يَشُمُّ الشيـحَ والقَيصـ ـومَ كـي يَستوجِبَ النَسبا

(الأغاني ج 14 ص 174) .

ولم ينس الشعراء بدورهم أن أبا نواس خاض مغامرة النسب وتقلب فيها حتى شرب مرارة اليأس . فتناوله الرقاشي :

نَبَطِـيٌّ ، فإذا قيـلَ لـهُ ، أنتَ مولى حَكَمٍ ، قال : أجلْ
هو مـولى اللهِ ، إذ كانَ بـه لاحقاً ، فاللهُ أَعـلى وأجَـلْ
واضعـاً نِسبَته حيث اشتهـى فـإذا مـا رابه ريـبٌ رَحَلْ

(ابن منظور ص 44) .

ولأن التجربة بالغة الأهمية ، لم يكد ينجو منها شاعر من الموالي . هكذا ، عبث ابن مناذر بالحجاج بن صوّاف هاجياً :

إن ادعـاءَ الحَجّاجِ في العَـرَبِ عنـدَ ثَقيفٍ من أعجب العجبِ

(الأغاني ج 18 ص 127) .

1 كان من أول الأصوات صرخة إسماعيل بن يسار أمام هشام بن عبدالملك الذي أمر بغطسه في البركة حتى أشرف على التلف (الأغاني ج 4 ص 423) وجاءت الصرخة الثانية بصوت بشّار بن برد (ضحى الإسلام ج 1 ص 39 وما بعد) . وفي أيام الرشيد تعالت الأصوات من أبي نواس إلى علي بن الخليل (الأغاني ج 14 ص 174 و 175) إلى إسحاق الخريمي وسهل بن هارون (ضحى الإسلام ج 1 ص 64 و 68) وغيرهم كثيرين .

أيًّا بلغت رتبته : قد يتواضع ، هو ، ويعامل وزراءه البرامكة معاملة النِدّ للنِدّ[1] ، أو نراه يحترم قوّاده ومواليه من الجنسيات المختلفة ، لكنه كان يرفض أن تصدر عنهم مبادرة تكرّس المساواة ، بل إن كل محاولة في هذا الاتجاه ، تجري أمامه ، تثير فيه غضباً هائلاً[2] : لقد كان يؤذيه أن يكون العربي جانباً ضعيفاً في حوار أو نقاش أو معركة ، ويلوم المقصّر لأن ضعفه هو ضعف لجنسه ، كما أن تفوقه هو تفوّق للعنصر العربي[3] . وكان يهتم بعادات العرب في الجاهلية فيسأل عن تفاصيلها وأسسها[4] . وهو يعتز بالأشياء الموروثة ويعتبرها الأفضل لأنها عربية ويرفض أن يقارن بها ما يقابلها عند الأعاجم . ويذهب به تعصّبه للعرب إلى تطرّف لم يعرفه العصر العبّاسي ، بل كان من شيعة الأمويّين ويتجلّى في منع زواج المولى من المرأة العربية[5] . وهذا الموقف إذا صح[6] ، يكون ، على الأرجح ، بعد نكبة البرامكة ويصبح رداً على إشاعة زواج جعفر من العبّاسة أخت الرشيد ،

---

1 فضلاً عن تسميته يحيى «أبي» وجعفر «أخي» كان الرشيد لا يطيق الانفصال عن جعفر ، فيجعله رفيقه الدائم أينما حل وذهب إلاّ حين يدخل إلى الحرم (الطبري ج 8 ص 299) .

2 حين ولّى سلاّماً الخادم ضياعاً له وحسنت سيرته استدعاه ليكافئه . فتكلّم سلاّم وذكر حسن سيرته وقال : «أنسيتهم ، وا لله يا أمير المؤمنين ، سيرة العمرين . فغضب واستشاط وأخذ سفرجلة فرماه بها وقال : يا ابن اللخناء ، العمرين ! العمرين ! العمرين ! . . .» (المصدر السابق ص 354) .

3 نورد الخبر التالي على سبيل المثال : ذكر الأصفهاني أن الرشيد سأل ابن جامع القرشي يوماً عن نسبه . فالتفت ابن جامع إلى إسحاق الموصلي وقال : «أخبره يا ابن أخي بنسب عمّك . فقال له الرشيد : قبّحك الله شيخاً من قريش تجهل نسبك حتى يخبرك به غيرك . وهو رجل من العجم» . (الأغاني ج 6 ص 274) .

4 راجع ص 174 وص 175 من البحث .

5 سبقت إشارة إلى حادثة زواج الهيثم بن عدي من عربية وتفريق الرشيد بينهما . ونوردها هنا بتفاصيل أكثر مع ذكر نماذج من الأشعار التي أوحتها . يقول الأصفهاني : «كان الهيثم بن عدي قد تزوّج إلى بني الحارث بن كعب . فركب محمد بن عبيدالله بن عبدالمدان الحارثي . . . ومعه جماعة من أصحاب الحارثيّين إلى الرشيد ، فسألوه أن يفرق بينهما . فقال الرشيد : أليس هو الذي يقول فيه الشاعر :

إذا نسبتَ عَديـاً في بنـي ثُعَـلٍ   فَقَدِّمِ الدالَ قبلَ العَينِ في النَسَبِ ؟

قالوا : بلى يا أمير المؤمنين . . . فأمر الرشيد داوود بن يزيد أن يفرق بينهما . فأخذوه فأدخلوه داراً وضربوه بالعصي حتى طلّقها» . وفي ذلك يقول علي بن جبله ، من قصيدة يهجو فيها الهيثم بن عدي :

نَفسي فِداءُ بنـي عبدِ المُدانِ وقَدْ   تَلُّوهُ لِلوجـهِ واستعلَـوهُ بالعَمَدِ
حتى أزالُوه كُرهـاً عن كريمتِهِمْ   وعرّفُـوه ، بِـذُلٍّ ، أين أصلُ عَدِي
يا ابن الخبيثةِ ، مَنْ أهجو فأفضحُهُ   إذا هجوتُ ، وما تَنمى إلى أحدِ ؟

(الأغاني ج 19 ص 306) .

6 يذكر ابن منظور سبباً آخر لنقمة الرشيد عليه وهو أنه «نقل عن بني العبّاس شيئاً» فحبسه لذلك سنين و«قيل إن ذلك نقل عنه زوراً لأنه صاهر قوماً فلم يرضوه ، فلبّسوا عليه ما لم يقله» . (أبو نواس ، ص 145) فيكون موقف الرشيد منه موقفاً خاصاً وشخصياً ، لا موقفاً مبدئياً عاماً .

بمعنى أن الرشيد ، الذي لا يرضى أن يتزوّج الهيثمُ بن عدي المولى في بني الحارث بن كعب ، لا يمكن أن يسمح لمولى ، أيًّا كان ، بالتزوج من أخته ، مهما كان عزيزاً عليه . ولم يكن الرشيد يستنكف عن إغلاظ القول للبرامكة عموماً حين يشتمّ رائحة العصبية الأعجمية في حديثهم . فعندما نصحه يحيى بعدم هدم إيوان كسرى ، ردّ عليه قائلاً : «هذا من ميلك إلى المجوس ، لا بدّ من هدمه»[1] . وإذا تضجّر الفضل بن يحيى من الاستماع إلى شعر في وصف الجمل ، يذكّره الرشيد بأن الجمل كان مركب الناس الذين دوّخوا الدنيا واغتصبوا ملك الأعاجم فأستعبدوهم[2] . حتى النعل العربية يتمسّك الرشيد بها ، وإن عقرت قدمه ، ولا يقبل بدلاً عنها نعلاً سندية مريحة[3] . ولا شك في أن عناية المؤرّخين والرواة بنقل تفاصيل صغيرة كهذه ، عن حياة الرشيد ومن أقواله ، نابعة من رغبتهم في تكريس انتماء الرشيد إلى الجماعة المناهضة للعجمة ، وتأكيد موقف له ثابت في جانب العرب . وقد يتبادر إلى الذهن أن إيراد هذه التفاصيل في ثنايا أخبار تاريخية أو أدبية أمر غير عادي ، وهو دليل على الافتعال ، وقد يكون دليلاً على النحل ، إنما نحن لا نعجب من ذلك لأن طبيعة العربي ، منذ الجاهلية ، تخضع لجاذب التفاصيل الجزئية ، وإنْ تافهة في نظرنا ، وقد شُحذت هذه الطبيعة إبان المعركة المفتوحة بين العروبة والعجمة حيث لم يكن يوفَّر أيُّ دليل أو حجة لكسب شخص أو فكرة مؤيدين . ونحن نعرف أنه ، لا العلم ، ولا التاريخ ، ولا الأدب ، ولا اللغة ، نجت من استخدامها مطية لحجج العصبية . فإذا كان ناقل الخبر ثقة ، وأبعدنا عنه تهمة التزوير ، فإننا لا نستطيع أن نحرمه من صفة الاهتمام المتزايد الذي يحفزه إلى البحث عن أدقّ تفاصيل وإيرادها في ثنايا

---

1 (الوزراء والكتّاب ص 229) . وإذا تساءلنا عن مدى صحّة خبر كهذا لا بدّ من تأكيد أنّ نفي الخبر أو الشك فيه يقويان ويشتدان عندما يمكن لفئة أن تستخدمه دعماً لمواقفها . والعكس صحيح . وخبر كهذا لا يخدم ، في حال وضعه ، إلاّ العصبية العربية العجمية . فأي الفريقين يستفيد من الخبر كما ورد ؟ إنه ليس في مصلحة الأعاجم لأن اتهام الرشيد الصريح ليحيى بالميل إلى المجوسية يسيء إليه وإلى جنس الموالي بأجمعه ، وهم حاولوا دائماً أن يتنصّلوا من هذه التهمة . والخبر لا يمكن أن يكون من وضع العرب لأن ممثلهم فيه ، وهو الرشيد ، يبدو مقصّراً عن يحيى في بعد النظر وحسن التبصّر في الأمور . وهذا كلّه في صالح صحّة الخبر الذي أورده الجهشياري (م 331هـ) وهو من الثقات في النقل ، من طبقة الطبري والمسعودي .

2 راجع ص 169 من البحث .

3 سبقت لنا إشارة إلى مجلس امتحان الأصمعي الذي حفل بغير دلالة على تيار العصبية العربية العجمية في البلاط . وفي نهاية خبر هذا المجلس ، نزل الرشيد عن العرش ، فقدمت له نعله . «فلما وضع قدمه فيها جعل الخادم يسوي عقب النعل في رجله . فقال له : إرفق ، ويحك ، حسبك قد عقرتني . قال الفضل : لله در العجم ، ما أحكم صنعتهم . لو كانت سندية ما احتجت إلى هذه الكلفة . قال : هذه نعلي ونعل آبائي ، رحمة الله عليهم ، وتلك نعلك ونعل آبائك . لا تزال تعارضني في الشيء ولا أدعك بغير جواب يمضّك» . العقد الفريد ج 5 ص 317 والفرج بعد الشدة ج 2 ص 240 . وراجع ص 169 من البحث .

الخبر المهم تحقيقاً لأغراض اهتمامه . لهذا ظهرت هذه الجزئيات ذات الدلالة ، ومن خلالها نستطيع أن نستشف بعض الملامح للتيارات الخفية . إلاّ أن عروبة الرشيد لم تكن أبداً موضع بحث أو شك ، ومن أبرز مواقفه في ذلك إظهار التمسّك ببناء الشعر القديم[1] ، وفرضه على شعراء البلاط .

ب ـ تمسّك الرشيد ببناء الشعر القديم : والواقع أن بناء الشعر الجاهلي ، الذي التزم به الشعراء البعيدون عن حياة الجاهلية والصحراء ، فَقَد ، أيام الرشيد ، صفته التمثيلية ليأخذ الصفة الأشمل والأعم وهي صفة الرمز . فإذا كان استمراره في قصائد الشعراء يمثل الإطار المتواصل للقصيدة المتكاملة ، الإطار الذي دام وبقي لعجز أي اطار آخر عن أخذ مكانه ، فقد وجدت أطر أخرى في أيام الرشيد ، وكانت بديلاً كفوءاً وقادراً[2] ، لكن البناء التقليدي استمر حينها ، على رغم ذلك ، لأنه أصبح رمز العروبة في العمل الشعري ، وبالمقابل ، الهدفَ الأولَ لحملات الأعاجم الشرسة[3] . فهؤلاء ، إثر فشلهم في الحصول على نسب محترم عن طريق الولاء والادعاء ، وتكتّلهم لهدم ذلك النسب الذي استعصى عليهم ، اتجهوا نحو استئصاله من جذوره . ولما كان الشعر الجاهلي أكبر حافظ للأنساب ، فإن عداوتهم له لم تقف عند حد . وقد وجدوا منفذاً للهجوم عليه في انعدام التكامل بين مواضيعه وكلماته وأساليبه وبين الحياة الجديدة الحضارية . وكان فتحهم الهجوم عليه مقترناً ، في ردّة عفوية ، بتمسّك العرب بـه وحفاظهم على بنائه في القصيدة الرسميـة . من هنا تحوّل هذا البناء ، كما أسلفنا ، من ممثل واقعي لظروف البيئة والحياة ، إلى رمز يرفعه ويصونه العرب ، كما يهاجمه ويزري به العجم . وقد حفل شعر هذه الحقبة بالكثير من أبيات التمرّد على قيوده ، حتى باتت القصائد التي قيلت في نقضه أداة تثبيت لنهجه : فالشاعر ،

---

1 لقد استمر النهج الشعري التقليدي حتى أيام الرشيد لأسباب كثيرة منها طبيعة التشبّث بالقديم عند أصحاب الامتيازات ، لأن التغيير فيه يؤدي إلى تعديل نفوذهم . ومنها ارتباط معاني الشعر الجاهلي بمعاني القرآن لاشتراكهما في البيئات المكانية والزمانية والاجتماعية مما جعل هذا الشعر مرجعاً لشرح ما غمض من الآيات (انظر ص 242 من البحث) . ومنها ظهور حركة التدوين الأولى والنقد بين أئمّة اللغة ، وهم بحاجة إلى شواهد ، للأسس التي يضعونها ، وفّرها لهم الشعر الجاهلي . ومنها أن الشعر الجاهلي حمل تراثاً حضارياً كاملاً أهم ما فيه أيامُ القبائل ومفاخرها . هذا فضلاً عن أسباب أخرى عديدة عالجتها كتب الأدب والنقد (راجع مثلاً : الأسد ، ناصر الدين ـ مصادر الشعر الجاهلي ص 276 وما بعد) .

2 يعطينا أبو نوّاس نموذجاً لبديل مناسب في قوله :

صِفَـةُ الطلـولِ بَلاغـةُ القِدْمِ   فاجعـلْ صفاتِـك لابنـةِ الكرمِ

(الديوان ص 57) .

3 من مطالع قصائد نوّاسية عديدة نورد المطلع التالي :

أيا باكـيَ الأطلالِ ، غيَّرَها البِلى   بكيتَ بعـينٍ لا يَجفُّ لها غَربُ

أتنْعتُ داراً قد عَفَتْ وتَغَيّرتْ ؟   فإني ، لِما سالمتَ من نَعتِها ، حَربُ

(الديوان ص 10) .

الذي يبدأ قصيدته برفض الوقوف على الأطلال لينتقل إلى رفض ركوب الناقة وبعده إلى رفض الحديث عن اجتياز البيداء والأرض الغليظة[1] ، إنما يتبع ، رغماً عنه ، هيكلية القصيدة القديمة . والشعراء ، في معظمهم ، متكّسبون ، والكسب الأكبر يأتي من قبل الخليفة . من هنا يبرز الدور الكبير الذي يلعبه أمير المؤمنين في صراع العصبية ، ومن هنا أهميّة كسبه إلى جانب هذا الفريق أو ذاك ، وتتبع أدق التفاصيل عن قول له أو تصرف يثبت موقفاً واتجاهاً . وإذا قلنا إن الرشيد كان متمسّكاً بعروبته وبالشعر القديم ، فليس ذلك حدثاً جديداً انفرد به لأن الخلفاء قبله كانوا جميعاً يتمسّكون . وإن ارتدى دور الرشيد أهمية أكبر فلأن الطاقة الأعجمية المكبوتة انطلقت ، في أيامه ، بأقصى إمكاناتها . فإذا سُمعتْ أصواتٌ منفردة أيام الأمويين تفخر بالعجم ، وإذا سُمع صوت بشّار أيام المهدي يزري بالعرب ، فإن الأصوات الفاخرة المزرية راحت تتعالى ، أيام الرشيد من كل جانب يعلوها ، جميعها ، صوت أبي نواس مهاجماً عمود الشعر الجاهلي ومواضيعه ، يتناغم وإياه أفراد الجوقة العجمية المعروفون . ولا شكّ في أن الرشيد ، بانحيازه إلى جانب النزعة العربية ، وتمسّكه بالشعر التقليدي ، كان متجاوباً والمبادىء التي تشرّبها حين كان يتلقّى العلم على يد أساتذة هم قمّة في الدعوة إلى القديم واعتداده معيار الفن الصحيح ، على رأسهم الكسائي والضبي ، كما تعلّمها من جلسائه الدائمين ، وأشدّهم عصبية الأصمعي ، أو تلقّاها بشكل عفوي في مجالس والده ، ولمسها في آراء الأمراء من أفراد العائلة المالكة ، ومعظمهم ربّوا تربيته وأشربوا عصبيّته[2] . هكذا مضى الرشيد الذي يسكن القصور الفخمة ، وسط الحدائق الغنّاء ، على ضفاف

---

1 ومرة أخرى نأخذ نموذجاً من شعر النواسي . ففي إحدى قصائده يرفض الإطار الجاهلي ويعطي بديلاً عنه إطاراً مدينياً حضرياً . ولكي يصل إلى وصف القصر والروضة وما بها من زرع ونخيل ، يمر مروراً عكسياً بوصف الطلل وركوب الناقة واجتياز القفار ـ يقول :

مالي بدارٍ خَلَت مـن أهلِها شُغُلُ	ولا شَجَاني لهـا شخصٌ ولا طَلَلُ
ولا رسومٌ ، ولا أبكـي لمنزلـةٍ	للأهلِ عنهـا ، وللجيرانِ ، مُنتَقَلُ
ولا قَطَعتُ ، على حَرْفٍ مذكَّرةٍ ،	في مِرفَقَيها ، إذا استعرضْتَها ، فَتَلُ
بيداءَ مقفـرةً ، يومـاً ، فأنعَتُها	وسَرَى بـي ، فأحكيهِ بها ، جَمَلُ
ولا شَتَوتُ بهـا عامـاً فأدركني	فيها المصيفُ فلي عن ذاكُ مرتَحَلُ
ولا شَدَدتُ بهـا ، من خَيمةٍ ، طُنُباً	جاري بها الضبّ والحرباء والوَرَلُ
لا الحزنُ منّي ، بِرأي العينِ ، أعرفُهُ	وليس يَعرِفُني سَهـلٌ ولا جَبَلُ
لا أنعَتُ الروضَ إلاّ ما رأيتُ به	قصراً مُنيفاً ، عليه النخلُ مشتمِلُ . . .

(الديوان ص 698) .

2 هناك رواية عن عيسى بن موسى الذي كان ولي عهد المهدي ، وخلَعه هذا ليولّي ابنه موسى الهادي ، موجزها أن عيسى سأل ابن أبي ليلى عن فقيه البصرة ثمّ فقيه مكة فالمدينة ، فعن أفقه أهل قُباء ، وعن فقيه اليمن ففقيه خراسان

دجلة المتدفق والفرات العذب ، وينعم بمتع الحياة المدينية الراقية ، بما فيها من تطوّر لدور المرأة ، بقي يطرب للمثالية البدوية التي تقيم المرأة في الحمى الحصين ، يتكبّد الرجل المشقّات ليقاربها فيبثّها لواعجه[1] ، كما ظلّ يعتدّ الشاعرَ المُجيد من يركب الناقة ويجتاز القفار للوصول إلى الممدوح ، منسلخاً عن الجماعة التي تنعم بلذات الشرب والمنادمة . ومن أطرف ما يروى لإثبات تمسّك الرشيد بالشكل التقليدي للقصيدة واعتماده مقياساً لشعر المناسبات الرسمي ، ما أورده الأصفهاني عن اتصال أشجع السلمي بالرشيد ووصوله إليه في آخر الشعراء ، حين كادت صلاة الجمعة أن تجب . فقد خاف أشجع أن يبتدىء بالتشبيب فيؤذَّن للصلاة فيفوته ما أراد من الإنشاد . لذلك بدأ من موضوع المديح في القصيدة . «فضحك الرشيد وقال : خفت أن يحضر وقت الصلاة فينقطع المديح عليك ، فبدأت به وتركت التشبيب ! وأمره أن ينشده إياه»[2] . فلم يدُر بخلد الرشيد ، لحظة واحدة ، أن يجرؤ شاعر على إنشاده شعراً على غير النموذج المعروف ، ولم يقبل أن يفوته مطلع القصيدة ومقدماتها ، لأي سبب . ولو عرضنا مطالع بعض القصائد التي قيلت في مناسبات البلاط الكبرى لتأكد لنا تمسّك الرشيد بهذا التقليد الموروث . لكننا نترك ذلك لفصل مستقل ، لأننا لو أردنا تتبّع الفكرة عند جميع شعراء البلاط لطال بنا الأمر ، ولأن هذه السُنّة كانت ملزمة ، تُفرض فرضاً على من لا يتبعها طوعاً ، حتى إن أبا نواس ، المعروف باللامبالاة وبالنفور من ذكر الأطلال وركوب الجمل وما يتبع ذلك ، يصرح أنه يلتزم ، في قصائده المدحية ، بما لا يؤمن به[3] إكراماً لأمير المؤمنين ، وهو ، إذ لا يستطيع أن يرفض له طلباً ،

= ثم الشام . . . وكان ابن أبي ليلى يذكر له أسماء فقهاء من الموالي . وكان عيسى ، كلّما أمعن في السؤال ، وجاءه الرد ، يربدّ وجهه ، ثمّ تنتفخ أوداجه ، ثمّ ينتصب قاعداً من الغيظ والحنق حتى خاف ابن أبي ليلى على نفسه . فحين سأله عن فقيه الكوفة وذكر له اسم اثنين من الفقهاء العرب ، قال عيسى : «الله أكبر ! وسكن جأشه» . (العقد الفريد ج 3 ص416) . ولئن راودنا الشك في تفاصيل الرواية ، وصحّة اختيار ابن أبي ليلى الذي ركّز على تعداد فقهاء الموالي ، فإننا لا نشكّ في الإطار العام الذي يتردد ضمنه وهو إطار العصبية العربية الأعجمية التي دخلت كل بيت ووصل تيّارها إلى الرشيد ورجالات هاشم فغدوا جميعاً متعصّبين للعرب ، مترفّعين عن الموالي .

1 راجع شعر الغزل في البلاط (فصل صراع الترف والحرمان) .

2 الأغاني ج 18 ص 144 ومعاهد التنصيص على شواهد التلخيص ج 4 ص 63 . أما مطلع القصيدة فهو :

تذكّر عَهدَ البِيضِ وهُوَ لها تِرْبٌ ، وأيـامَ يُصبي الغانيـاتِ ولا يَصبو

3 إلى هذا يشير بلاشير في قوله : «إن الداعين إلى التجديد ، أنفسهم ، كان عليهم العناية بهذه الأنواع مع استخدام الأطر التقليدية . فانتصار الجدد على القدماء لم يكن أبداً نهائياً حتى إن ابتكار الأطر الجديدة لم يفرض ، في ذهن شاعر كأبي نوّاس ، حتمية الاستغناء عن الأطر القديمة ، إنما فقط تخصيص هذه الأطر لأغراض أدبية محدّدة» .

Al-Moutanabbi - Un poète Arabe du IV s de l'Hégire, p. 12.

يرضخ لمشيئته مرغماً وعلى مضض[1] . . . وتجدر الإشارة هنا إلى أن عصبية الرشيد العربية جعلته يتمسّك بالشعر القديم وبالنمط التقليدي ، لكنها لم تؤدّ به إلى الانغلاق على الشعر الجديد : فالشعر الرسمي ، أي شعر المدح والمناسبات العامة ، هو الشعر الذي لا يُقبل إلاّ وفق العمود الجاهلي ، إعجاباً بهذا النموذج وتمسّكاً بالتراث اللغوي والحضاري الذي يحفل به ؛ إنما ، في مجالس السمر والمنادمة وفي المناسبات الخاصة ، كما في مواقف الارتجال على البديهة وفي مواضع المقارنة والنقد والتقويم ، فقد كان كلّ شعر يُقبل ويُتداول بشرط أوحد هو الجودة . وقد سبقت لنا دراسة مجالس تمّت فيها المقارنة بين أبي نواس وأشجع ، وبين العبّاس بن الأحنف وأبي العتاهية ، ومن إليهم ، في شعرهم الحديث[2] . وقد لازم البلاط هؤلاء الشعراء وسواهم ممن عرفت عنهم الدعوة إلى التجديد وحتى التهجم على القديم . فالشعر الذي يقال في البلاط وللبلاط يخضع لشروطه ، والشعر ، الذي يعبّر عن نزعات الشاعر الشخصية ومعاناته ، لا يخضع إلاّ لإرادته ، وقد يعارض فيه جميع التقاليد والأعراف المتبعة ، وحتى المعتقدات ؛ هذا ما فعله الزنادقة والمتزندقون في شعرهم الداعي إلى العصبية ضد الإسلام .

ثالثاً : صراع العصبيّات الدينية

1 ـ بين العصبية والتعصّب : قبل الحديث عن العصبية الدينية التي تبلورت في تيّارين : تيّار التمسّك بالإسلام ، وتيّار الزندقة ، لا بدّ من لفت النظر إلى أننا ، في حديثنا عن العصبية ، لا نقصد ، بهذه الكلمة ، معناها المكروه ، أي التعصّب الأعمى ، إنما نقصد بها الجو العام المسيطر على الجماعة والذي يجعلها تلتحم بصورة قوية ، يشدّ بعضها أزر بعض ، ينمّي ذلك إحساس بمصير مشترك وهدف واحد . صحيح أن التعصّب هو المظهر المتطرّف للولاء ، وصحيح أنه نادراً ما تنجو منه جماعة تقوم على العصبية ، لكنه يبقى مظهراً من مظاهرها ، دون أن يكون مرادفاً لها . وهو ، في كل حال ، ليس هدفاً لدراستنا . . .

2 ـ أسباب العصبية الدينية ومظاهرها : يبدو أن تيارات العصبية ، في هذه الفترة ، كانت تتداخل وتتشابك حتى كأنها ، جميعها ، تصدر عن أصل واحد ، أو تتلاقى في هدف واحد . فالعصبية العرقية لم تكن بعيدة عن العصبية العائلية ، لأن العصبية العربية أو الفارسية صارت تبرز

---

1 في ذلك يقول أبو نواس أبياته المشهورة :

أعِرْ شعرَكَ الأطلالَ والدِمَنَ القَفْرا ... فقدْ طالَ ما أزرَى بهِ نعتُكَ الخَمرا

دَعاني إلى نَعتِ الطلولِ مُسلَّطٌ ... تَضيقُ ذِراعي أنْ أجوزَ لهُ أمرَا

فَسَمعاً ، أميرَ المؤمنينَ ، وطاعةً ... وإن كنتَ قد جشّمتَني مركباً وَعْرا

(الديوان ص 21) .

2 راجع مناظرة الرشيد لإسحاق الموصلي في المفاضلة بين العبّاس بن الأحنف وأبي العتاهية . وراجع كذلك مناظرة الرشيد لوزيره جعفر في شعر الخمر عند أشجع وعند أبي نواس (راجع ص 229 من البحث) .

كرافد من روافد العصبية القبلية ، تماماً كعصبية العدناني ضد القحطاني[1] . ومع أن كثيراً من الموالي آمنوا بالدين الإسلامي وصحّ إيمانهم ، وتعمّقوا في الفقه والتفسير والرواية ، فقد بقي الدين الإسلامي مرتبطاً بوتد العصبية العربية ، فاستمر العنصر العربي مسيطراً على الدولة الإسلامية ، ضاغطاً على غير العرب من المسلمين أو سواهم ، كما رأينا ، مما جعل من آمن من غير العرب ومن بقي على دينه القديم ، يحسّان بالقربى لتشابه أوضاعهما الاجتماعية ويُعتدّان في خندق واحد من معركة العصبية . وقد يكون من نتائج ذلك ، مع ضعف الإيمان عند كثير من الموالي ، ميلهم إلى الحركات المتطرّفة التي كانت تناوىء الجماعة العربية القابضة على السلطة ، وتطالب بالسلطة لنفسها . وقد يكون من نتائجه أيضاً تفشّي البدع التي لا تحصى إذ تجد كلّ منها تربة خصبة عند ضعيفي الإيمان وعند الناقمين والموتورين . ولا شكّ في أن تطوّر حركة الترجمة وانتشار صناعة الورق ، وظهور الفرق المختلفة ، قد فتح معركة حقيقية بين العقائد والمذاهب والبدع . ولم تكن المعركة محصورة في ميدان القول والحجة ، بل غالباً ما تعدَّت ذلك إلى ميدان السلاح والثورات ، وحتى الحروب . كان على المسلمين المؤمنين بعمق وإخلاص أن يخوضوا هذه المعركة بكل أسلحتها . وبينما كانت الدولة تأخذ على عاتقها المعركة العسكرية ، تناضل ، في داخل الأمبراطورية وفي أطرافها ، كان المتكلّمون المسلمون يخوضون معركة عقيدية فكرية هي أشبه بمعركة نقائض دينية ، قياساً على النقائض الأدبية ، إنما ، بدلاً من الغوص في التاريخ القبلي للبحث عن الحجج ، كما كان يفعل شعراء النقائض ، فقد غاص المتحاورون في المنطق وكتب الفلسفة اليونانية وأسفار التوراة وعقائد المجوس ، يبحثون فيها عمّا يدعم مواقفهم . . ولم يبق الخلفاء على الحياد في المعركة الكلامية ، بل لم يلبثوا أن انضمّوا إليها ، والسيف بيدهم ، ليحموا الدين الإسلامي من الذين يحاولون هدمه والذين شملهم جميعاً لقب الزنادقة . وكان المهدي ، ثمّ الهادي ، قد استبسلا في قمع هذه الحركة وقتلا كل من ثبتت زندقته بمقاييسهما[2] . والرشيد كذلك كان له دوره .

3 ــ دور البلاط الرشيدي فيها[3]

أ ــ موقف الخليفة كحاكم ديني : لقد كان دور البلاط الرشيدي في هذا التيّار مرتكزاً على

---

1 كثر القول عن أصل الفرس العائد إلى الضحّاك المنسوب إلى اليمن . ويشير المسعودي إليه قائلاً : «وقد افتخر به أبو نواس وزعم أنه من اليمن لأن أبا نواس مولى لسعد العشيرة من اليمن» فقال :

وكان منّا الضَحّاكُ تَعبُدُهُ ... الجاملُ والوحشُ في مساربِها

(مروج الذهب ــ دار الأندلس ــ ج 1 ص 247 وانظر التنبيه والأشراف 86) .

2 انظر تاريخ الخلفاء ص 271 وتاريخ الطبري ج 8 ص 190 .

3 يتحدّث هاملتون جب عن السياسة الدينية التي جرى عليها العبّاسيون فيذكر أنهم «أخذوا يؤكّدون للناس ما للخلافة من منزلة دينية ومن مهمّات دينية ، ويرعون الفقهاء رعاية يكفلون بها حماية رسمية لمذهب سنّي . ولم

وظيفته الدينية . فالدولة العربية هي دولة دينية ، بلا شك : الدين هدف لها وأساس . لأجل نشره قامت ، وهو مصدر السلطة فيها ، يرفدها بالتعاليم والسنن والتشريعات . ورأس الدولة خليفة للرسول في رعاية أمور المسلمين وحفظ الدين ونشره . وقد أحاط الخلفاء أنفسهم برجال الدين ليمدّوهم بالاجتهادات ويضفوا الشرعية على تصرّفاتهم . ولم يطل الأمر بهم ليعتدّوا أنفسهم ، كقيّمين على الدين ، مختارين بإرادة الله ، لا يحقّ لأحد من أبناء الدنيا الفانية أن يحاسبهم أو يرفض طاعتهم أو يثور عليهم[1] . هذه القناعات وصلت ناضجة إلى الرشيد : آمن بها وعمل بموجبها ، وجعل شغله الشاغل الاقتصاص من أعداء الإسلام[2] . فشنّ الحروب والغزوات عند التخوم[3] ووقف بالمرصاد لمن شقّوا عصا الطاعة من الزنادقة على اختلاف فرقهم .

ب ـ ملاحقة الزنادقة : هذه الفرق كثرت في أيام الرشيد ما بين مانوية وثنوية ورافضة وأصحاب بدع مختلفة ، ونمت تجمّعاتها حتى باتت خطراً لا يفوقه خطر العدو الخارجي . **وكان هذا الخطر على مستويين** : **المستوى الأول** هو مستوى القناعة والتصرف . وفي هذا المضمار لعبت تعاليم المانوية دوراً ، سواء في الفرق الإسلامية المتطرّفة ، أو في تجمّعات الزنادقة المختلفة . وهي تعتمد في إغراء الناس على عنصرين : على تحليل المحرّمات التي كثيراً ما تشكّل كبتاً وتحتاج إلى تمرين الإرادة على تجنّبها وتطوير الضمير الخلقي للإحجام عن إتيانها ، وعلى التساهل في أداء الشعائر[4] ،

= يقتصروا على ذلك كلّه ، بل أخذوا يضعون المؤسسات الدينية تحت إشراف الدولة . .» دراسات في الحضارة العربية ـ نظام حكم العبّاسيّين ص13) .

1 جاء في خطبة للمنصور : «أيها الناس ، إنما أنا سلطان الله في أرضكم . . .» .
(تاريخ الخلفاء ص 263) . راجع ص 679 من البحث .

2 سنرى أن مدحه بكونه حامي حمى الدين هو من أعز المعاني على قلبه وقد استثمره شعراء بلاطه . راجع ص678 من البحث .

3 سنفرد فصلاً خاصاً لصراع الرشيد مع الروم . أما علاقة الرشيد بأهل الكتاب داخل المملكة الإسلامية ، فكانت حسنة بشكل عام . وفي كل حال لم يصدر عنهم أي تمرّد ضد الدولة . وبالمقابل ، لم يكن الرشيد يتعرّض لحرّياتهم العقيدية إلاّ حين يكون موتوراً من الروم في هجوم لهم على أهل التخوم وهدم للجوامع وإيذاء للمسلمين . حينها ، قد تظهر ردّة فعل منه تجاه نصارى المملكة ؛ ويذكر المؤرّخون أن الرشيد أمر ، عام 191هـ ، بهدم الكنائس بالثغور ، وأنه أمر بأخذ أهل الذمّة بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين . وقد يكون ذلك إثر الكمين الذي وقع فيه يزيد ابن مخلد ومعه عشرة آلاف مقاتل ، أثناء غزوه الروم ، ولعلّ بعض الشك حام يومئذ حول دور تجسّس قام به بعض الذمّيّين لصالح الروم . (انظر الطبري ج 8 ص 324 والنجوم الزاهرة ج2 ص 136 والكامل في التاريخ ج 5 ص 127 وضحى الإسلام ج 1 ص 312) .

4 البابكية مثلاً هي إحدى فرق المحمّرة ، بالتالي ، أحد فروع الخرّمية . يقول البغدادي فيها : «وللبابكية ، في جبلهم ، ليلة عيد لهم يجتمعون فيها على الخمر والزمر وتختلط فيها رجالهم ونساؤهم . فإذا أطفئت سرجهم ونيرانهم ، افتضّ فيها الرجال النساء على تقدير من عزّ بزّ . . . . وقد بنوا ، في جبلهم ، مساجد للمسلمين يؤذن فيها المسلمون .

يضاف إلى ذلك كلّه تشبّث أقطاب الزنادقة ، وجُلُّهم من الفرس ، بعادات الفرس وتصرّفات الأكاسرة ، مما أضفى عليهم طابع الأناقة واللياقة والظرف وحلاوة المعشر حتى باتوا فتنة للناس[1] ، يتشبّه بهم المجان والمتظرفون فيدفعون الثمن غالياً حين كانوا يحشرون معهم ويعذّبون عذابهم إلى أن تتضح حقيقتهم . من هنا كان التزندق يسير جنباً إلى جنب مع الزندقة . وقد فرض على الخليفة وجهاز حكمه أن يفرّق بين الزنديق والمتزندق قبل إنزال العقوبة ، فكانت الاستتابة . و **المستوى الثاني** لخطر تجمعات الزنادقة كان على الصعيد السياسي العسكري . فبعض فرق الزنادقة في الأطراف الشمالية الشرقية والشرقية للإمبراطورية اشتدت شوكتها وكثرت جموعها لدرجة أنها قامت بثورات وعصيان على الدولة . واقتضى ذلك من الرشيد جهوداً وهموماً ورجالاً وأموالاً ، لضبطهم وتفريق جموعهم . ولا يسعنا أن نغفل أهميّة المنطقة الجغرافية التي انطلقت منها هذه الجموع : فهي بعيدة عن العاصمة ، قائمة على تخوم شعوب عاشت العجمة قروناً طويلة ، فكان تأثرها بالإسلام سطحياً ، وقامت بعض الممالك المجاورة بتغذيتها بكل ما تحتاجه من شعارات وبدع ومال ورجال ، بلا شك . كما فعل ملك الخزر مثلاً ، وهو قد كانت له صولة مباشرة عام 183هـ/799م إذ دخلت جيوشه من «باب الأبواب» إلى أرمينية فاستباحت حرم المسلمين وأراقت من دمائهم وأزهقت من أرواحهم وسبت من نسائهم ما لا يحصى[2] . ونحن لا نستبعد أن يكون للدولة البيزنطية إصبع في كثير من هذه الاضطرابات[3] .

= وهم يعلّمون أولادهم القرآن ، لكنهم لا يصلّون في السر ، ولا يصومون في شهر رمضان ، ولا يرون جهاد الكفرة» . (الفرق بين الفرق ص 269) .

1 يمثّل هؤلاء يحيى بن زياد كاتب الرشيد ، يصفه الأصفهاني بقوله : «كان يرمى بالزندقة وكان من أظرف الناس وأنظفهم ، فكان يقال : أظرف من الزنديق . وكان الحاركي ، واسمه محمد بن زياد ، يظهر الزندقة تظارفاً فقال فيه ابن مناذر :

يا ابنَ زيادٍ ، يا أبا جعفرٍ ، أظهرتَ دِيناً غيرَ ما تُخفي
مُزَنْدقَ الظاهرِ باللفظِ في باطـنِ إسلامٍ فتىً عَفٍّ
لستَ بزنديـقٍ لكنّما أردتَ أن توسَمَ بالظَرفِ

(الأغاني ج 18 ص 115) .

وفي هذا المضمار يذكر الجاحظ عن ابن السندي قوله آسفاً : «وددتُ أن الزنادقة لم يكونوا حرصاء على المغالاة بالورق النقي الأبيض وعلى تخيّر الحبر الأسود المشرق البرّاق ، وعلى استجادة الخط والإرغاب لمن يخط . فإني لم أر كورق كتبهم ورقاً ولا كالخطوط فيها خطاً . . .» الحيوان ج 1 ص 55 .

2 تاريخ الطبري ج 8 ص 270 .

3 يشير التاريخ إلى اتصالات بين أباطرة الروم والقوى المعادية للدولة الإسلامية ، منها ، على سبيل المثال ، ما قام فيها بدور الوساطة قائد رومي من أصل فارسي هو تيوفوبس ، مهّد بذلك لدخول أعداد كبيرة من الخرّميّة ، الهاربة من

ولم يكن ذلك كلّه ليبقى دون صدى له يتردّد في الحركة الفكرية الأدبية داخل البلاط . فتهمة الزندقة باتت خبزاً يومياً فيه . وقبل الحديث عمّن شملتهم التهمة لا بدّ من تحديد أبعادها ، ونحن نفعل ذلك بشكل سريع لأن دراسات مفصّلة قد دارت حولها . فالزندقة[1] هي ، في أصلها ، تحريف التعاليم الأساسية . وأول تعاليم تناولها التحريف هي تعاليم زرادشت «وأول من قام بهذا التحريف اتباع ماني ومزدك» . وفي الإطار نفسه انتقلت اللفظة إلى محرّفي تعاليم السنة في الإسلام . وتركّزت ، بوجه خاص ، على أتباع ماني ومزدك أيضاً[2] . والجدير بالذكر أن الزندقة المنهجية هذه لم تكن دائماً تعتدّ نفسها خارجة عن الإسلام . بل إن الدعوة إليها انتشرت على أنها فرقة إسلامية . لذلك فإن أتباعها لم يكونوا ملحدين ، بشكل مطلق ، بل هم مؤمنون على طريقتهم . وبعضهم يقيمون شعائر الصلاة[3] ، وقد لا يمتنعون عن الحج أو الصوم[4] ، إنما ذلك كلّه بأسلوب خاص يميّزهم[5] . وكان لهم كتب خاصة يقرأونها بطريقة يتعلّمونها[6] . وهم يقدّسون ماني ويرفضون التنكّر له ، ولو كلّفهم ذلك حياتهم[7] . ومقابل هذه الزندقة العقيدية ، كان التزندق الماجن الذي سبقت الإشارة إليه ، وكان الاتهام بالزندقة الذي سنتحدّث عنه ،

= جيوش المسلمين بعد ثورة بابك ، إلى أراضي الروم (راجع «الدولة البيزنطية» ص 276 و 279 و 281) ومنها تعاون الطرفين على غزو الحدود العربية أثناء فتنة بابك .

1 انظر في موضوع الزندقة ومدلولاتها والداعين إليها وما إلى ذلك «ضحى الإسلام» ج 1 ص143 وما بعد .

2 يقول بروكلمن عن الزندقة : «إن هذه الكلمة كانت ، على عهد الساسانيّين ، كلمة ينبز بها كل من يجرؤ على تفسير الأبستاق (أو الأفستا) تفسيراً جديداً غير رشيد (زند) . وكانت تطلق على أتباع ماني ومزدك بخاصة» . (تاريخ الشعوب الإسلامية ص 184) . والبغدادي يذكرهم في أصحاب الإباحة وهم من الفرق التي انتسبت إلى الإسلام وليست منه (الفرق بين الفرق ص 233) .

3 يذكر المرتضى أن صالح بن عبدالقدوس ، الزنديق المشهور ، «رؤي يصلّي صلاة تامة الركوع والسجود (ويقصد صلاة عامة المسلمين لا صلاة الزنادقة التي تختلف عنها) فقيل له : ما هذا ، ومذهبك معروف ؟ قال : سنّة البلد وعادة الجسد وسلامة الأهل والولد . . .» (الأمالي ج 1 ص 100 وانظر كذلك طبقات ابن المعتز ص 91) .

4 من أعلام الزنادقة : يزدان بن باذان كاتب يقطين . وقد حجّ مرة فشبه الناس المهرولين في الطواف بالبقر . وهذا التشبيه مشهور عنه وكلّفه حياته عام 169هـ أيام الهادي . (تاريخ الطبري ج 8 ص 190) .

5 يذكر ابن النديم الفرائض التي جاء بها ماني ومجملها : «عشر فرائض على السمّاعين ويتبعها ثلاث خواتيم ، وصيام سبعة أيام ، أبداً في كل شهر . .» الفهرست ص 333 .

6 راجع خبر ابنة مطيع بن إياس (عن أمالي المرتضى ج 1 ص 100) وانظر ص 129 هامش 3 من البحث .

7 يذكر أبو هفان أنه أُتي الرشيد «برجل زنديق من الثنوية . فأمره أن يبصق على الصورة (صورة ماني) فقال : ليس البصاق من شأن أهل المروءة» (أخبار أبي نواس ص 123) وجاء عند ابن منظور في الخبر نفسه أن الزنديق أجاب : «وما معنى البصاق ؟ إنه من أخلاق الشرك ولا أفعله . وأبى أن يفعل . .» (أبو نواس ص 204) فكان في ذلك حتفه .

وكلاهما ضلال لا كفر ، يمكن اغتفاره بالتوبة الصادقة . لذلك كان المتهمون بالزندقة أمام الرشيد فئات متعددة أولها جماعة المؤمنين بمبادئها ، المتعصّبين لها ، وهم الذين حملوا السلاح في وجه الرشيد ، ممثّل أهل السنة ، ولعلّهم كانوا يعتقدون أنهم ، بذلك ، يدافعون عن الدين الحق ويكسبون أجر المجاهد أو ثواب الشهيد[1] . وبمقابل تشدّد هؤلاء في مذهبهم كان يزداد تمسّك الرشيد بدوره في حماية مذهب أهل السنّة وقسوته على الزنادقة . فالرشيد ، المشهود له بسرعة العفو ، لم يكن يصفح عن زنديق . وكانت له معهم مواقف ومواقع مشهودة . فحين تولّى الخلافة عام 170هـ وأصدر عفوه العام ، استثنى الزنادقة[2] . وحين ثار المحمّرة[3] بجرجان عام 180هـ ، وعلم أن الذي هيجهم هو عمرو بن محمد العمركي الزنديق ، أمر بقتله فقتل بمرو[4] . وعندما ثار أهل طبرستان عام 185هـ فقتلوا والي الرشيد مهرويه الرازي[5] خرج الرشيد إلى الري لمحاربة بندار هرمز أصبهبد طبرستان[6] . ولا شكّ في أن مسير الرشيد بنفسه لقيادة المعارك دليل على اهتمامه الشديد ومثير لقرائح الشعراء المدّاحين . ففي ذلك يقول أشجع السلمي إثر إخماد هذه الفتنة :

بنفسكَ ترميهــمُ والخيولِ كرمي العُقــاب بأفلائهـــا
نظرتَ برأيكَ ، لما هَمَمْتَ دون الرجـــالِ وآرائهـــا[7]

ويبدو أن المعركة مع أهل طبرستان كانت عنيفة وأعد لها الرشيد جيشاً ضخماً ، خوفاً من انتشار هذه الحركة وأمثالها فقمعها في مهدها وقطع دابرها . لذلك ركّز أشجع في قصيدته على

---

1 يجب أن نميّز هنا بين قناعة العامة وأهداف الخاصة . فعامة الزنادقة هم من بسطاء الناس ، يفهمون ظاهر الأمور ويبادرون إلى أسهلها ، فلا يرون في الدين إلاّ طقوساً تمارس وشعائر تراعى ، لا يفهمون الباعث إليها ولا يتعمّقون في فلسفتها . أما زعماؤهم الذين يبدعون المبدأ أو يفلسفونه ، فلا يمكن تبرئتهم من الأغراض السياسية والشخصية وأبرزها الاستيلاء على السلطة .

2 الطبري ج 8 ص 234 .

3 «المحمّرة من أسماء الغالية ، الذين غلوا في حقّ أئمتهم حتى أخرجوهم من حدود الخَلقية وحكموا فيهم بأحكام الإلهية . ولهم ألقاب ، وبكل بلد لقب : يقال لهم بأصبهان : الخرمية والكودية ، وبالري : المزدكية والسنبادية ، وبأذربيجان : الذقولية ، وبموضع : المحمّرة ، وبما وراء النهر : المبيّضة» . (الملل والنحل ص 132) بينما يذكر البغدادي أن فرق المحمّرة تضم البابكية والمازيارية وهما من فرق الخرّمية التي يصنفها من أصحاب الإباحة (الفرق بين الفرق ص 266) .

4 الطبري ج 8 ص 266 والنجوم الزاهرة ج 2 ص 99 .

5 المصدران السابقان ص 273 و ص 120 .

6 الأغاني ج 18 ص 223 .

7 المصدر السابق ص 175 والبيان والتبيين ج 3 ص 290 .

عنف الضربة التي وجّهها الرشيد ، وضخامة الحملة ، مظهراً الشماتة بطبرستان لما جرّته على نفسها[1] . وقد أعطى أبو العتاهية هذه الحرب صبغتها الدينية وردّها إلى خط صراع العصبية حين صوّرها تقوم بين حزبين : أحدهما حزب الله ، وهو يتميّز بالقدرة والمنعة ، يمثله الرشيد بتفويض من الله ودعم منه ومساهمة في تنفيذ رغباته ، وهو ، لذلك ، لا يستطيع عدو أن يهرب منه : يده تطاله أنى ذهب ، وراياته تدركه أينما احتمى . والحزب الآخر حزبٌ عدوٌ للإسلام ، كافر ، يمثله بندار هرمز . ونتيجة الصراع كانت هزيمة محتومة تلحق بالمتجبّر فيذلّ ، ويأتي صاغراً ليقدّم الطاعة ، مظهراً التوبة ، مكبّراً تكبيرة الإسلام[2] . . . لكن الخرّمية كانوا سريعين إلى التجمّع وإعادة تنظيم الصفوف لاستئناف الثورة . ففي عام 192هـ تحرّكوا بناحية أذربيجان . فاضطر الرشيد إلى إرسال جيش جرّار قوامه عشرة آلاف فارس ، انطلق يحرق الأخضر واليابس في تلك المنطقة ، يأسر ويسبي ، والرشيد في إثره . وحين عاد الجيش من مهمّته ، بعد أن أنجزها ، لقيه الخليفة بكرماسين . فأمر بإعدام الأسرى وبيع السبي[3] . . . هكذا ظلّ الرشيد يضع السيف في جموع الزنادقة ، يشتّتهم ويستأصل جذورَهم ؛ وجذورُهم ، ما إن تنقطع ، حتى تنبت من جديد . . ولم يكن موقف الرشيد من أفراد الزنادقة ليختلف عن موقفه من جموعهم : فالزنادقة أو المتهمون ، كانوا يقادون إلى البلاط ويمثلون أحياناً أمام الرشيد الذي يتولّى بنفسه توجيه التهمة وتلقي ردود الفعل ليحاسب بموجبها . وقد وصلتنا أخبار نموذجين من هذه الجلسات : النموذج الأول مع صالح بن عبد القدوس[4] ، والنموذج الثاني مع زنديق مجهول الهوية . ونحن لا

---

1 يقول أشجع :

أبـتْ طَبَرستانُ غيرَ الذي ... صَدَعْتَ بـهِ بينَ أعضائِهـا

ضَمَمْـتَ مناكبَهـا ضَمّـةً ... رمتكَ بما بين أحشائِهـا

سَموتَ إليهـا بمثـلِ السماءِ ... تَدَلّـى الصواعـقُ في مائِهـا

فلمـا نظرتَ إلى جُرحِهـا ... وضعتَ الدواءَ على دائِهـا

فرشتَ الجهادَ ظهورَ الجيـ ... ـادِ بأبنائِـهِ وبأبنائِهـا

(الأغاني ج 18 ص 223) .

2 جاء في قصيدة أبي العتاهية ، وقد غنى بها الزبير بن دحمان الرشيد عند عودته من الحرب :

ألا إنَّ حِـزبَ اللهِ ليس بمُعجِـزٍ ... وأنصـارُه في مَنعَـةِ المُتَحَـرِّزِ

إذا الرايةُ السوداءُ راحتْ أو اغتدَتْ ... إلى هـاربٍ منهـا ، فليسَ بمُعجِزِ

لطاعتْ لهارونَ العُداةُ لدى الوغى ... وكَبَّـرَ للإسلامِ بِنَـدارُ هُرمُزِ

(الأغاني ج 18 ص 223) .

3 تاريخ الطبري ج 8 ص 339 .

4 اختلف المؤرخون في تاريخ قتل صالح بن عبدالقدوس ، واتفقوا على القصة التي رافقت موته وعلى أن شعره قاده إلى حتفه . فيذكر المرتضي ، ومعه البغدادي ، أن قتله كان على يد المهدي ، بينما يورد الأغاني القصة على أنها جرت في

نتطرّق إلى رواية هذين النموذجين ، إنما نتوجّه مباشرة إلى استخلاص الملحوظات التالية منهما :
وأولى الملحوظات أن الزندقة تهمة وتبقى كذلك إلى أن يعترف بها صاحبها فيقتل ، أو ينفيها جاداً فيستتاب ويعفى عنه ، أو يثبت عليه بالحجة الدامغة ، من أقواله وأفعاله ، ما يستدل به على أنه زنديق ، فلا ينفعه حينها الإنكار وتوقع عليه عقوبتها . فالزنديق ، الذي أمر الرشيد بضرب عنقه ، اعترف قبل ذلك ، شامتاً ، بأنه كان يلفّق الأحاديث على الرسول ﷺ وآله[1] ، وفي ذلك إثبات لزندقته لأن الزنادقة يعادون الإسلام ، والمانوية منهم لا يؤمنون إلاّ بنبوة ماني الذي «ينتقض سائر الأنبياء في كتبه ، ويزري عليهم ويرميهم بالكذب ويزعم أن الشياطين استحوذت عليهم وتكلّمت على ألسنتهم»[2]. هذا الاعتراف للزنديق قابله ، في قصة قتل صالح بن عبد القدوس ، إنكار وتنصل وقسم : «لا والله يا أمير المؤمنين ، ما أشركت بالله طرفة عين ، ولا تسفك دمي على الشبهة . . .»[3].
والملحوظة الثانية هي أن الزنادقة ، كثيراً ما يتظاهرون بالإسلام ويهتمّون باهتمامات المسلمين من فقه ورواية حديث وشعر وأدب ، كما أن لهم ميلاً خاصاً إلى الزهد[4] وقول الحكمة ، وبعضهم عُرِفوا

= بلاط الرشيد . أما ابن المعتز فيشير إلى أنه أدخل على المهدي الذي قتله . ثم يقول : «وحدثت من غير هذا الوجه ، بما هو عندي أثبت من الأول ، وذلك ما رويناه ، أنه أُنهي إلى الرشيد عنه هذه الأبيات يعرض فيها بالنبي ﷺ :

غَصَبَ المسكـــينَ زوجتَـــهُ ... فَجَرَتْ عيناه من دُرَرِهْ . . . .

(الأبيات)

فأنكر صالح أن يكون هو قائلها ، وراح يأتي بالأحاديث والآيات لاستبعاد القتل على الظنة ، ويرقّق قلب الخليفة حتى كاد يعفو عنه لولا أنه استنشده قصيدته السينية وذكر منها بيتاً من نمطها ونمط الشعر السابق يستبعد التوبة :

والشيـــخُ لا يَـتركُ أخلاقَـهُ ... حتى يُوارَى في ثَـرى رَمسِهِ

فقتله به لأنه استبعد توبته . فإذا صحّت الرواية ، نرجّح أن العملية تمّت أمام الرشيد لأنه أقرب من المهدي إلى أن يقتل بكلمة كما كان يعفو بكلمة عن محكوم . وهو أقدر على مقارنة قصيدة بأخرى والحكم عليهما بأنهما من نمط واحد . (انظر طبقات ابن المعتز ص 89 والأغاني ج 14 ص 166 وتاريخ بغداد ج 9 ص 313 وأمالي المرتضى ج1 ص 100) .

1 السيوطي – تاريخ الخلفاء ص 293 .
2 ابن النديم – الفهرست ص 335 .
3 طبقات ابن المعتز ص 90 .
4 أورد ابن النديم شروط الدخول في شريعة ماني ومنها : «ينبغي للذي يريد الدخول في الدين أن يمتحن نفسه ، فإن رآها تقدر على قمع الشهوة والحرص وترك أكل اللحمان وشرب الخمر والتناكح . . . والسحر والرياء ، فليدخل في الدين . . . وليكن له . . . أوقات يتجرّد فيها للعمل والبر والتهجد والمسألة والتضرع . . .» (الفهرست ص333 و334) ويذكر الجاحظ أن «السياحة هي منهج رهبان الزنادقة كأنهم جعلوا السياحة بدل تعلق النسطوري في المطامير . . .» (الحيوان ج 4 ص 457) .

بالبلاغة والفصاحة ، وقد أثرّت بلاغة صالح في الرشيد «حتى رقّ له وأمر بتخليته» . ولصالح هذا أشعار في الحكمة وتمجيد الله جعلت ابن المعتز يقول : فواعجباً ، كيف يمكن أن يقول زنديق مثل هذا القول ؟ وكيف يكون قائله زنديقاً ؟»[1] والملحوظة الثالثة هي أن لغة الحديث والنقاش لكثير من الزنادقة المشهورين ، هي لغة إسلامية بحتة ، يخيّل لسامعها أو قارئها أنه أمام أشد الناس تقى . فهي تعطي الألوهية صفات القدسية والعدل واللطف بالعباد وما إلى ذلك ، وتستخدم التعابير القرآنية ويكثر فيها الاستشهاد بالآيات ، كما أن أقطابهم من حفظة القرآن ورواة الحديث[2] . وهذا دليل على أمرين : أولهما أن الزنادقة ، حين يتواجدون متفرّقين حيث لا قوّة لهم ولا سطوة ، قد يلجأون إلى التقية ويتستّرون بقناع من التدين والزهد ، يقولون ما لايعتقدون حفاظاً على الحياة أو «لسلامة الأهل والولد» ، كما يقول ابن عبد القدوس[3] . والأمر الثاني أن دخولهم مع الصالحين يجعلهم أقدر على كسب ثقة الناس وصداقتهم فيصبحون ، بذلك ، أقدر على نفث سمومهم في العقول والنفوس التي تستجيب لهم دون تحفظ أو توجّس ، حتى لقد ذهب بعضهم إلى تأليف الكتب في الرد على الزنادقة[4] . والملحوظة الرابعة التي نستخلصها من أخبار الزنادقة أمام الرشيد هي أن امتحانه لهم يتضمّن القراءة في كتاب ، كما فعل مع صالح بن عبد القدوس[5] . أما ماهية الكتاب وموضوع القراءة فلم يذكرا بوضوح ، ولعلَّ الكتاب هو أحد مؤلفات ماني أو تلاميذه أو خلفائه . وقد ذكر الجاحظ هذه المؤلفات ناقداً لها بقوله : «ليس في كتبهم مثلٌ سائر ولا خبر طريف ولا صنعة أدب ولا حكمة غريبة ولا فلسفة ولا مسألة كلامية ولا تعريف صناعة ولا استخراج آلة ولا تعليم فلاحة ولا تدبير حرب ولا منازعة عن دين ولا مناضلة عن نحلة ، وجل ما فيها ذكر النور والظلمة وتناكح الشياطين وتسافد العفاريت»[6] . وقد يكون الكتاب الذي امتحن فيه صالح هو كتاب «الشكوك» الذي ينسب إليه تأليفه ، وهو كتاب «من قرأ فيه شك فيما كان حتى يتوهّم أنه لم

---

1 طبقات ابن المعتز ص 92 ومن شعره هذا :

وليسَ بِعَجزِ المرءِ إخطاؤُه الغِنى ... ولا باحتيالٍ أدركَ المالَ كاسِبُهْ
ولكنّهُ قَبضُ الإلهِ وبَسْطُهُ ... فلا ذا يُجاريه ولا ذا يُغالبُهْ
إذا كمَّلَ الرحمنُ للمرءِ عقلَهُ ... فقد كمُلَتْ أخلاقُهُ ومَناقبهْ

2 راجع حوار صالح مع الرشيد في طبقات ابن المعتز ص 90 .

3 أمالي المرتضى ج 1 ص 100 .

4 يذكر ابن النديم محمد بن الليث الخطيب ويصفه بالفقه والبلاغة . . . ثمّ يقول عنه «ويرمى بالزندقة . . . وله من الكتب : كتاب الاعتبار ، كتاب الرد على الزنادقة . . .» الفهرست ص120 .

5 يقول المرتضى : «رمى إليه بكتاب وقاله له : أقرأ هذا . . .» الأمالي ج 1 ص 100 .

6 الحيوان ج 1 ص 57 .

يكن ، وفيما لم يكن حتى يظنّ أنه كان»[1] ، فهو أقرب إلى منطق السوفسطائيّين ، وقد يكون كتابه الآخر «نصرة الإثنين ومذاهب أهلها»[2] أو ما إلى ذلك . أما عن القراءة فيبدو أن للزنادقة ، فضلاً عن مواضيع كتبهم الخاصة ، أسلوباً خاصاً في قراءتها ، يميّزهم ممّن سواهم[3] ، كما كان لهم عناية متميّزة بإخراجها . ولا بدّ هنا من الإشارة إلى اختبار آخر سريع بسيط كان يلجأ إليه الرشيد وغيره من الخلفاء لكشف حقيقة الزنديق وهو جعله يتفل على صورة ماني[4] ، وهذا ما لا يفعله أي من أتباعه الحقيقيّين الذين يقدّسونه . ولا بدّ أيضاً من الإشارة إلى أن مجادلة الرشيد للمتهم واستماعه إليه فرصة نادرة لا يحظى بها كل زنديق ، فالقاعدة هي أن يحال المتهم إلى «صاحب الزنادقة» حمدويه ذي الأساليب الخاصة في الاستتابة وأخذ الأعتراف . أما الفقهاء المحيطون بالرشيد ، والذين لم يتعرّفوا جدّياً أساليب المتكلّمين في النقاش[5] ، فلم تكن لديهم قدرة على الدخول في جدل مع الزنادقة الذين تدرّبوا على ذلك وحفظوا صيغاً جدلية يتداولونها[6] . ولذلك رفض أبو يوسف مناقشة الزنديق وحوّله إلى الاستتابة[7] . وقد يكون سماع حديث الزنديق أحياناً كافياً لكشف أمره وإن لم يناقَش ، ذاك أن الصيغ التي حفظها من كتبه والكلام الذي يكرّره مع زملائه في طقوسهم ، يتردد دون إرادة منه في حديثه ، مهما حاول التقية والإنكار . وهذا ما يشير إليه الجاحظ قائلاً : «فصار حظ الزنادقة من الألفاظ التي سبقت إلى قلوبهم واتصلت بطبائعهم وجرت على ألسنتهم : التناسخ ، والنتائج ، والمزاج ، والنور ، والظلمة ، والدفاع ، والمنّاع ، والساتر ، والغامر ، والمنحلّ ، والبطلان ، والوجدان ، والأثير ، والصدّيق وعمود السبح ، وأشكالاً من هذا

---

1 انظر ضحى الإسلام ج 3 ص 101 .

2 الفهرست ص 338 .

3 راجع قصة ابنة مطيع بن أياس التي أقرت أمام الرشيد بالزندقة وقراءتها . راجع ص 129 هامش 3 من البحث .

4 راجع أخبار أبي نواس ص 122 ومروج الذهب ج 3 ص 422 حيث يذكر أيضاً امتحاناً آخر في ذبح الدُرّاج وهو طائر ماء يقدّسه المانوية . وانظر ص 293 هامش 7 من البحث .

5 انظر ضحى الإسلام ج 1 ص 358 (عن المرتضي ـ المنية والأمل) حكاية عجز قضاة الرشيد عن مسألة قدر عليها صبي من المتكلّمين .

6 راجع ما ذكره ابن النديم من عناوين مقالات الزنادقة وقولهم في الهيولي والعنصر والصورة والعدم والزمان والحركة الخ . . . وكلّها مسائل كلامية . (الفهرست ص 319) ونورد هنا ما ذكره ابن النديم عن الكندي أنه «نظر في كتاب يُقِرُّ به هؤلاء القوم ، وهو مقالات لهرمس في التوحيد ، كتبها لابنه ، على غاية الثقافة في التوحيد ، لا يجد الفيلسوف إذا أتعب نفسه مندوحة عنها والقول بها . .» (الفهرست ص 320) ويذهب ميشال انجلو إلى أن المعتزلة الأوائل كانوا فريقاً من السنّة متطرّفاً في معارضته لزندقة الشعوبية ، وأنهم اضطروا إلى اتخاذ أسلحة من الجدل أقوى إقناعاً من الاحتجاج بالوحي ، وأبلغ أثراً من تهديد السلطات المدنية (راجع هاملتون جب : دراسات في حضارة الإسلام ص 94) .

7 راجع ص 129 هامش 1 من البحث .

الكلام . .»[1] . أما عقوبة الزندقة التي تثبت على صاحبها ولا يظهر التوبة عنها ، فهي القتل الفوري . وكان الرشيد يتشدّد في إنزال هذه العقوبة ، ولا يرتاح كثيراً إلى توبة الزنديق ، وإن تساهل مع المتزندق .

ج ـ ميادين انتشار الزندقة :

ـ **بين الكتاب** : إذا تجاوزنا أوساط العامة الذين كثرت جموعهم وراء النهر وحملوا السلاح ضد الرشيد ، رأينا الزندقة ، تبرز في أوساط الخاصة وقد تتسرّب إلى البلاط نفسه . ذاك أن الكتاب البلغاء ، ومعظمهم من الموالي ، كانوا ، على ما يبدو ، إما زنادقة أو متزندقين[2] . وكأنها سنّة ابتدأت مع ابن المقفع وعبدالحميد الكاتب فيحيى بن زياد كاتب الرشيد ، وأنس بن أبي شيخ كاتب البرامكة[3] . وأنس هذا يعده ابن النديم من البلغاء العشرة[4] ، وقد رأينا أن الرشيد قتله بتهمة الزندقة[5] ، في صباح الليلة التي نكب فيها البرامكة . وسبق قتله كلام دار بينه وبين الرشيد بسبب ما نقله صاحب الخبر عنه من «أنه على الزندقة»[6] . ويرتبط مصرع أنس في بلاط الرشيد بالأبيات الشهيرة التي قالها فيه مسلم بن الوليد متنبّئاً بمصيره ، وأولها :

تلمّظ السيفُ من شوقٍ إلى أنسٍ   فالسيفُ يلحَظ والأقدارُ تنتظرُ[7]

ومن الكتّاب الذين وُصموا بالزندقة محمد بن الليث الخطيب ، كاتب البرامكة[8] . وكذلك وُصم بها علي بن عبدة ، أحد البلغاء والفصحاء . . .[9] ونحن لا نعرض هنا للكتّاب ، بمعنى الأدباء ، الذين انقسموا ما بين عربي أو منافح عن العرب وتراثهم ، وبين مولى أو مدافع عن العجم

---

1 الحيوان ج 3 ص 366 .

2 تحدّث الجاحظ عن ذلك في «ثلاث رسائل» .

3 قد تكون التهمة الموجّهة إليه تغطية لتصفية سياسية . فأنس كتب لجعفر ، ويمكن أن يكون قتلُه تتبعاً من الرشيد للبرامكة ورغبة منه في استئصال شأفتهم وأتباعهم . ومن الصعب معرفة الحقيقة المجرّدة لأن تفاصيل التهمة التي وجهت إليه لم تصلنا «أو لم تذكرها الأخبار» .

4 الفهرست ص 126 .

5 الطبري ج8 ص 297 .

6 المصدر السابق .

7 يذكر الطبري أن الرشيد تمثّل بهذا البيت ساعة ضربت عنق أنس أمامه بالسيف الذي أخرجه من تحت فراشه (تاريخ الرسل والملوك ج8 ص 297) بينما يذكر ابن عبد ربّه خبر القبض عليه مع مسلم ، وطلب الرشيد إلى هذا أن يرتجل أبياتاً في أنس ثمناً لعفو يناله ، فكانت الأبيات الثلاثة المشهورة ومنها البيت المشار إليه . (العقد الفريد ج 2 ص 181) .

8 الفهرست ص 120 .

9 وقد اختص فيما بعد بالمأمون . راجع الفهرست ص 119 .

وحضارتهم ، يحاول كل منهم التجريح في قيم الخصم وإبراز أفضلية الجهة التي اختار ، فالمعركة بين الفريقين طويلة عميقة الجذور وتناولها ، كما ذكرنا ، كثير ممن كتبوا عن الشعوبية[1] . إنما نخصّ من الكتّاب من كانت لهم وظيفة في البلاط وكانوا على اتصال مباشر بالرشيد ، أو غير مباشر عن طريق وزرائه البرامكة .

- بين البرامكة : الواقع أن تهمة الزندقة لم تبق بعيدة عن البرامكة أنفسهم فقد وصمهم الأصمعي بها وبالشرك بالله وباتباع المزدكية[2] . ويذهب بعض المؤرّخين إلى أن زندقتهم هي سبب نكبتهم[3] . ومع أنهم كثيراً ما كانوا يتظاهرون بالتقى والورع وصدق الإيمان ، فإنه يصعب علينا الوثوق بهذه المظاهرطالما أن كثيرين من الزنادقة ، كتّاباً وشعراء وسواهم كانوا على علاقة بهم أو من صنائعهم ، وقد يكون مبدؤهم في ذلك ما رواه الجهشياري عن نصيحة يحيى للفضل بن سهل : «أسلم حتى أجد السبيل إلى إدخالك في أمورنا»[4] .

---

1 يستخدم جب كلمة كتّاب بمعنى المؤلفين من الأدباء ، ويقصد بهم «الشعوبيّين» ، يرى أن المعركة الشعوبية ليست معركة قومية بقدر ما هي دينية ، فيقول : «يبدو لي من الخطأ القول بأن حملتهم على العرب ، من أي وجهة نظرت إليها ، كانت حملة قومية . فقد كانت المقاومة الفارسية في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري قد تجلّت مراراً في خراسان وولايات إيران الشمالية في شكل ثورات لم تكن موجهة ضد العرب فقط ، بل ضد الإسلام أيضاً. . .» (دراسات في حضارة الإسلام ص 87) .

2 ونضيف هنا أن شعراء آخرين هجوا البرامكة مركّزين على زندقتهم وسطحية إيمانهم . من ذلك ما قاله أحد الشعراء معرّضاً بيحيى :

إنَّ الفـراغَ دَعـاني ... إلى ابتغـاء المساجدْ
وإنّ رأيـيَ فيهـا ... كرأيِ يَحيى بـنِ خالدْ

(البيان والتبيين ج 3 ص 310) .

ويقول أبو الهول ، معرّضاً بجعفر متنبّئاً بمصرعه وصلبه :

أعني فتىً يُطعنُ في دينِهِ ... يَشُبُّ معهُ خَشَبُ الصَلْبِ

(المصدر السابق) .

ونضيف أيضاً ما أورده ابن النديم : «قيل إن البرامكة بأسرها ، إلاّ محمد بن خالد بن برمك ، كانت زنادقة» الفهرست ص 338 .

3 يذكر المقدسي عن قوم قولهم : «إنهم أرادوا إظهار الزندقة وإفساد الملك ونقله إلى عثمان بن نهيك الفاسق ، فقتلهم هارون على ذلك» (البدء والتاريخ ج 6 ص 104) ويقول البغدادي : «كانت البرامكة قد زيّنوا للرشيد أن يتّخذ في جوف الكعبة ، مجمرة يتبخّر عليها العود أبداً . فعلم الرشيد أنهم أرادوا من ذلك عبادة النار في الكعبة وأن تصير الكعبة بيت نار . فكان ذلك أحد أسباب قبض الرشيد على البرامكة» . (الفرق بين الفرق ص 285) .

4 يقول الجهشياري بعد ذكر إعجاب يحيى بفهم الفضل وجودة عبارته : «فقال له : إنّي أراك ذكيًّا ، وستبلغ مبلغاً رفيعاً ، فأسلم . . . فقال : نعم ، أصلح الله الوزير ، أسلم على يديك . فقال له يحيى : لا ، ولكن أضعك موضعاً تنال

ـ بين الشعراء : وتهمة الزندقة التي وصلت إلى هذا المستوى من شخصيّات المتّصلين بالبلاط ، أصابت عدداً من الشعراء الكبار في ذلك العصر ، اتهموا بها لمجونهم ، أو اتهموا بها لمناصرتهم شيعاً مناهضة للعبّاسيّين ، كالخوارج والعلويّين والرافضة منهم بشكل خاص ، وبعضهم اتهموا بالزندقة لأشعار قالوها في فلسفة الحياة والموت ، أو لموقفهم السلبي من بعض المسائل المتعلّقة بمبادىء الإسلام الأساسية . فممن اتهم لمجونه علي بن الخليل وأبو نواس . وكان علي بن الخليل شاعراً ماجناً محبًّا للشراب[1] ، لامه المهدي على ذلك فأظهر التوبة ولكنها كانت توبة ماجن لم يستطع الثبات عليها .[2] طلبه الرشيد مع الزنادقة فاستتر استتاراً طويلاً ثم قصد الرقة ، وهو شيخ كبير ، فأنشده قصيدته السينية ومطلعها :

يــا خيرَ مَــنْ وَخَدَتْ بأرحُلِهِ   نُجُبُ الرِكابِ بمَهْمَــهٍ جَلْسِ

ومنها :

إني رَحلتُ إليــكَ مــن فَزَعٍ   قد كانَ شرَّدَني ومِنْ لَبْسِ . . .

«فاستحسنها الرشيد وقال له : من أنت ؟ فقال : أنا علي بن الخليل الذي يقال إنه زنديق . فضحك الرشيد وقال له : أنت آمن ووهب له خمسة آلاف درهم[3] . ولم نقف على ممسك الرشيد عليه حين اتهمه بالزندقة ، إنما نرجّح أنه المجون والتزندق لأنه ، لو كان متّهماً بها عن عقيدة ، لما عفا عنه الرشيد . وبالتالي يكون شأنه شأن أبي نواس ، بل إن أبا نواس ، الذي وصلنا قسم عظيم من شعره ، يظهر لنا وقد اشتط في مجونه حتى تعرّض لتعاليم الإسلام وطقوسه وفلسفة الموت والبعث والحساب . فإذا كانت الزندقة تعني ، في الأصل ، تحريف التعاليم والشرود عن خط الدين القويم ، فإن ما تناوله أبو نواس من مواضيع ودعا إليه من استهانة بالتعاليم ، يترك المجال واسعاً لإثبات الزندقة عليه لأنه يسهّل على سامعه الاستخفاف بالدين ويشجّعه عليه[4] . وأبو نواس حبس

= به حظًّا من دنيانا» . فأدخله جعفر إلى المأمون فأسلم على يديه . . .» (الوزراء والكتّاب ص 232) وانظر (زهر الآداب ج 2 ص 320) وراجع (تاريخ الحموي ج 2 ص 18 ووفيات الأعيان ج 2 ص153) .

1 يذكر أبو هفان أن عليّ بن الخليل هو مولى يزيد بن مزيد ، قائد جيوش الرشيد ، ويحدّث عن اجتماعه في سوق الكرخ وجماعة من الشعراء المجان على رأسهم أبو نواس . (أخبار أبي نوّاس ص 86) ويقول عنه المرزباني : «هو أحد شعراء الكوفة وظرفائها ، وهو ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد طبقة يتصاحبون على المجون والخلاعة والشرب» . (معجم الشعراء ص136) .

2 الأغاني ج 14 ص 172 .

3 معجم الشعراء ص 136 وانظر الأغاني ج 14 ص 166 وأمالي المرتضى ج 1 ص 102 وزهر الآداب ج 4 ص 865 ، وأبو نواس لابن منظور .

4 لقد كثرت الأقوال في هذا المضمار وكثير منها يستند إلى شعر أبي نواس ، حتى باتت معروفة من الجميع . ونسوق هنا مثلاً من قصيدة له عنوانها «فتوى فقيه» :

مرّات بسبب شعره وبسبب الزندقة ، وعفي عنه مرّات لأن المجون أساس أقواله ، وبه كان عذره ، وبئس من عذر[1] . والذي يجعل أقوال أبي نواس تؤخذ على محمل المجون أنه لا يتمسّك بها ، شأن الزنادقة[2] ، بل سرعان ما ينكرها ويتنصّل منها وينتقل إلى نقيضها منشداً الشعر البديع في التوبة والاتكال على عفو الله . ويبدو لنا أن أبا نواس كان يعيش حاضره ، لا يفكر بالغد ، وهذا سرّ اللامبالاة وقلّة التفكير في العواقب عنده ، فلا يأبه لما يقول ويفعل ، وكأنه يعتمد بالفعل على حسن الحظ وعلى حسن نيّته بقدرة الله وعفوه ، إنما الحديث يقول : اعقل وتوكّل ، وأبو نواس يتوكّل دون أن يعقل ، ويجازف بالجهر بآرائه . ولأن شعره يسير بين الناس ، فسرعان ما يصل إلى أسماع ذوي الأمر . يروي المرزباني عن الجماز أن أبا نواس أنشده أبياته في الانكباب على لذّة اليوم والانصراف عن التفكير في الغد المجهول وأولها :

ومُلِحَّـةٍ باللـومِ تَحْسَبُ أنّني ،	بالجهلِ ، أُوثِرُ صُحْبَةَ الشُطّارِ . . .

فقال له الجماز : «يا هذا ، إن لك أعداء ، وهم ينتظرون مثل هذه السقطات ، فاتق الله في نفسك ، ودع الإفراط في المجون واكتمها . قال : لا والله لا أكتمها خوفاً ، وإن قضي شيء كان ؛

=

قلتُ : النبيـذُ تُحلّـه ؟ فأجـاب : لا	إلاّ عُقـاراً تَرتمـي بشِرارِ
قلتُ : الصلاةُ ؟ فقال : فرضٌ واجبٌ	صَلِّ الصَلاةَ وبِتْ حليفَ عُقارِ
اجمعْ عليكَ صَلاةَ حـولٍ كاملٍ	مـن فرض ليـلٍ فاقضِـهِ بنَهارِ
قلتُ : الصيامُ ؟ فقال لي : لا تَنْوِهِ	واشددْ عُـرى الإفطـارِ بالإفطارِ
قلتُ : التَصدُّقُ والزكاةُ ؟ فقال لي :	شيءٌ يُعـدُّ لآلـةِ الشُطّارِ
قلتُ : المناسِكُ ، إن حججت ؟ فقال لي	هـذا الفُضولُ وغايـةُ الإدبارِ
لا تَأْتيَنَّ بـلادَ مكّـة مُحرِمـاً	ولو آن مكّـةَ عنـدَ بـابِ الدارِ
قلتُ : الطغاةُ ؟ فقال لي : لا تغزُهُمْ	ولَـوَ آنهمْ قَرُبوا من الأنبارِ . . .

(الديوان ص 200) .

1 يصف أبو نوّاس نفسه بالظرف ، وهو أول قواعد المجون ، فيقول :

إني أنـا الرجـلُ الحكيمُ بطبعِهِ	ويَزيدُ في علمي حِكايـةُ من حَكَى
أتتبَّعُ الظُرَفاء ، أكتـبُ عنهمو ،	كيما أُحدِّثَ مَنْ أُحِبُ ، فيضحكا

(أبو هفان ص 17 وزهر الآداب ج 1 ص 172) .

2 كان أول اتصاله بالرشيد حسب روايتي ابن منظور وأبي هفان أنه قام يصلي وهو سكران خلف إمام قرأ «قل يا أيها الكافرون» فقال أبو نواس من خلفه : «لبّيك» فأمسكوا به وشهدوا عليه بالكفر . فاستدعاه الرشيد وطلب له حمدويه . ولما لم يكن مسجلاً على قائمة الزنادقة لديه فقد عرف أنه ماجن . فأخبر الرشيد ذلك ، فامتحنه بصورة ماني . فحاول أن يقيء عليها بدلاًمن البصاق . ولم يسعفه القيء فامتخط عليها . وضحك الرشيد . وهذا ما لم يفعله أبداً زنديق أصيل . (انظر أبو هفان في أخبار أبي نواس ص 122 وابن منظور في أبي نواس ص203) . راجع ص207 من البحث .

فنمى الخبر إلى الفضل بن الربيع ثمّ إلى الرشيد . فما كان بعد هذا إلاّ أسبوع حتى حبس . .»[1] وتفاصيل حبسه هذا نجدها في خبر المرزباني ، وهو يعطينا في الآن عينه صورة عن كيفية دخول الشعر المشبوه إلى البلاط ، وتداوله في مجالسه لتصدر بعد ذلك تهمة الزندقة ، يتلوها أحياناً الحكم فالعقوبة . والخبر يصوّر لنا مجلساً من مجالس الرشيد طرح فيه موضوع الشعر المحدث ، وكان بين الحاضرين سليمان بن أبي جعفر وآخرون . وقد استفاض الحديث عن الشعراء المحدثين فكان من الطبيعي أن يرد اسم أبي نواس ويُتداول شيء من شعره . ويبدو أنه كان لسليمان حفيظة على الشاعر[2] فغمز من قناته قائلاً : «يا أمير المؤمنين ، كافر بالله لا يرعوي من سكرة ولا يأنف من فاحشة . وقد كان نمي إلى الرشيد من خبره شيء فقال : يا عم ، هل تأثر عنه من ذلك شيئاً ؟ قال : قوله ، يا أمير المؤمنين :

يا ناظـــراً في الدينِ : ما الأمر ؟ لا قَـدَرٌ صَـحَّ ولا جَبْرُ
ما صَحَّ عندي ، مِنْ جميعِ الذي تَذكُـــرُ ، إلاّ المـوتُ والقَبرُ

فاستشاط الرشيد غضباً وطار شققاً وقال : عليّ بابن الفاعلة» . وكأن حظ النواسي بلغ قمّة السوء في هذا اليوم ، فغصّ المجلس بالناقمين عليه ، الراوين لأشعاره[3] . وهم ، إذ فُتحت صفحته ، قد اندفعوا يسوّدونها بمختارات من قصائده تثبت عليه التهمة وتؤدي إلى الإدانة الحتمية . فإلى

---

1 الموشح ص 278 ــ وأبو هفان ــ أخبار أبي نوّاس ص 46 وينقل الوطواط خبراً شبيهاً عن هذه الأبيات التي وصلت إلى الرشيد فقال : «هذا كلام زنديق» وأمر الفضل بن الربيع بحبسه . (الغرر والعرر ص 45) .

2 يذكر ابن منظور في أحد أخباره : «كان أبو نواس قد هجا سليمان بن أبي جعفر المنصور وأحيف عليه . . . فشكاه سليمان إلى الأمين بعد خلافته . . .» (أبو نواس ص 110) ولسنا ندري إذا كان هجاؤه سليمان قبل هذا المجلس فسبّب السعاية أم أنه جاء بعده نتيجة لتلك السعاية .

3 لا شكّ في أن اتهام أبي نواس بالزندقة وحبسه أمر مهم وله ، كالعادة ، خلفيات عميقة ليست بعيدة عن الحزازات الشخصية أو السعايات العربية انتقاماً منه لهجماته الشعوبية . إلاّ أن شعر أبي نوّاس ولا مبالاته أعطيا أعداءه ذرائعهم . فأبو هفان يروي قصة أخرى لهذا الخبر تدور حول سعاية الفضل بن الربيع به لأنه عرّض بوالدة الفضل ، «فلم يزل به حتى حبسه وطالبه بالزندقة وادعاها عليه وأراد أن يوجبها عليه بين يدي الرشيد ، فجمع له الفقهاء ودسّ إليهم الأموال ، وبعث إلى من كان يحسده من الشعراء فأحضرهم . ثم قال له : ألست القائل :

يا أحمدُ المُرتجـى في كُلِّ نائبةٍ قم سيّدي نعصِ جبّارَ السمواتِ

قال : بلى . قال : يا أمير المؤمنين ، كافر» . ووافقه الفقهاء والحضور على ذلك . لكن أبا نواس فاجأ الجميع بحضور بديهته : «أنى يكون زنديقاً من يقرّ أن للسموات جباراً ؟» وتخلّص من التهمة ، لكن إلى حين . فلم يزل الفضل بن الربيع يرصده بعد ذلك ويتطلّب سقطاته ويشيع عوراته حتى قال :

مـــا جاءني أحدٌ يُخبِّر أنّـــه في جَنةٍ مَنْ ماتَ أو في نـارِ

فحبسه بهذا البيت ، وانطلَق لسانه بالقول فيه وانحسر عن أبي نواس من كان يعاونُه (أخبار أبي نواس ص 107) .

جانب أشعاره في إنكار البعث والحساب ، تطوّع ، من الحاضرين ، من ينشد أشعاراً له تكشف ضعفاً في إيمانه وزعزعة في توحيده ، لينتهي إلى أشعار يعرّض فيها أبو نواس بالخليفة نفسه . وإذا تذكّرنا أن الخليفة هو الرشيد في عصبيته الدينية واعتداده بنفسه وسرعة غضبه ، تأكد لنا مصير النواسي البائس . وقد كان الشعر الذي أنشد عن لسانه مقاطع من قصيدته الميمية في الغزل بغلام نصراني ومنها :

فلولا دخولُ النارِ ، بعدَ بَصيرةٍ ، عَبَدتُ ، مكانَ اللهِ ، عيسى بنَ مَريما

وأنشد بعدها قصيدته على القاف ، وهي أيضاً تتغزّل بغلمان نصارى ومنها :

واللهِ لـــولا أنّنـــي مُتخـــوّفٌ أنْ أُبْتَـلى بِإمــامِ جُـــورٍ فاسِقِ
لَتَبِعتُهُــمْ في دِينِهِــمْ ودَخلتُــهُ بِبَصيرةٍ منّــي ، دُخولَ الوامِقِ . . .

«فضاق المجلس بأهله وأنكر الرشيد نفسه ثمّ قال : امض فيها ، فمضى . فقال الرشيد : برئتُ من المنصور إذا لم يبت هذا الكلب في المطبق»[1] . فبات أبو نواس في السجن لأن الفضل بن الربيع وجّه من ساعته من أخذ بأفواه السكك حتى وُجد . ولسنا ندري على وجه التحديد تاريخ هذه الحبسة ، إنما إغفال ذكر البرامكة في الخبر وورود اسم الفضل بن الربيع وحده ، دليل على أنها قد تكون بعد النكبة ، ولعلّها آخر حبسة[2] في أيام الرشيد ، وهي التي استمرت إلى خلافة الأمين[3] . ومع أن الخبر يظهر الرشيد بمظهر من لا يعرف أبا نواس شخصياً ، فلا شك لدينا في

---

1 الموشح ص 276 .

2 هناك إشارات إلى حبس أبي نواس أيام الرشيد ، قبل حبسه فيما بعد على يد الأمين . من ذلك ما سببه الإدمان على معاقرة الخمر . فقد أورد أبو هفان أن الرشيد ، حين احتاج إلى إجازة بيتٌ ذكر له الفضل بن الربيع أبا نواس الموجود في حبسه بسبب شرب الخمر ، فاستتابه وأطلقه . (أخبار أبي نواس ص 72) وذكر أبوهفان إشارة أخرى حين أورد شعراً لأبي نواس أرسله من الحبس إلى حسين الخادم ليشفع له عند الرشيد ، ورفض الرشيد حينها إطلاقه ، إلاّ أن «يتوب» وتصحَّ توبته» (المصدر السابق ص99) كما ذكر أبياتاً كتبها من الحبس يستغيث فيها بأبي عيسى بن أبي جعفر المنصور ليشفع له عند الرشيد ، فشفع . فكان إطلاقه على يديه بعد أن ضمن توبته . (المصدر السابق ص100) ولسنا ندري ما إذا كانت الحبسة التي أطلقه منها شفاعة الفضل بن الربيع هي نفسها التي نجّاه منها تدخّل أبي عيسى ، أو أنهما حبستان مختلفتان . إنما من المؤكّد حبس الرشيد له بسبب الشرب ؛ ذكر ابن خلدون في كلامه على الرشيد : «ولقد ثبت عنه أنه عهد بحبس أبي نواس لما بلغه من انهماكه في المعاقرة ، حتى تاب وأقلع» . (المقدمة ج 1 ص 235) . ومن المؤكّد أيضاً أنه حبس مرّة أخرى بتهمة الزندقة وبسعاية أو بمباركة من الفضل بن الربيع .

3 من المعروف أن أبا نوّاس كان محبوساً حين توفي الرشيد ، والسبب هو الزندقة والاستهتار بالدين . ويختلف المؤرّخون في المأخذ عليه ، فيذهب العبّاسي إلى أن التهمة جاءت من شعره في الخصيب ، وبالذات قوله «فإن عصى موسى بكف خصيب» مما سبّب استدعاءه إلى البلاط وقول الرشيد له : «يا ابن اللخناء ! أنت المستخف بنبي الله موسى عليه السلام ؟ وقال لإبراهيم بن نهيك : لا يأوينّ عسكري من ليلته» . ثمّ يشير إلى أنه بقي في حبس إبراهيم

أن أبا نواس كان معروفاً من الرشيد ، وأنه كانت له علاقة به . يكفي لذلك مراجعة الديوان والتوقّف عند قصائده المتعددة التي تمدح الرشيد أو تستغفره ، ذاكرة اسمه صراحة أو مواربة . وقد تكون معرفة الرشيد له هي التي حالت دون قتله بتهمة الزندقة ، لأننا نتصوّر غضب الرشيد وصل إلى أقصى قمّة العدائية حين سمع التعريض به واتهامه بالفسق والجور . وقد يكون لعدم وجوده أمام الخليفة ، في لحظة غضبه ، دور في تجنيب الشاعر القتل . ومن يدري ؟ فلعلّه ، لو وجد ساعتها لاستطاع التخلّص بحضور بديهته وقدرته على الارتجال والتحريف ، كما فعل في مرات أخرى[1] . ولا بدّ هنا من الإشارة إلى ملحوظة مهمّة تتعلق بسياسة العبّاسيّين للشعب . فهم ، بعد ضغط الأمويّين العنصري ، أحدثوا انفراجاً على هذا الصعيد وأباحوا حرّية التصرّف والقول للناس ، أيّاً كان انتماؤهم بالنسب . وكانت أقوال الشعوبيين من الموالي وأشعارهم تمسّ بعض العادات والتقاليد التي درج العرب على تقديرها واعتدّوها من ميزاتهم كشعب ، دون أن يهتم الخلفاء بها ، وهم لم يعاقبوا عليها . وكانت بعض الأشعار تدعو إلى الإباحة أحياناً وإلى الجرأة على الفضائل فيغضّون عنها النظر والسمع إلى أن تمسّ الأقوال أشخاصهم وسلطانهم فيتدخّلوا لوضع حد لها وكمّ فم القائل ، ويعمدون إلى تهمة الزندقة يقومون ، عن طريقها ،

= حتى مات الرشيد وأخرجه الأمين . (معاهد التنصيص ج 4ص 272) ونحن نشكّ في هذا الخبر لسببين : أولهما أن إبراهيم هذا قتله الرشيد عام 178هـ إثر نكبة البرامكة لأنه كان يبكي عليهم ويهدّد قاتلهم (النجوم الزاهرة ج 2 ص 221 وتاريخ الطبري ج 8 ص 310) ولما كان ابنُ إبراهيم عثمانُ هو الذي وشى به وتولّى تنفيذ القتل منافسة له «على المرتبة» (المصدر السابق ص 311) فقد يكون هو صاحب حبس أبي نواس ، لو صحّ الخبر . وإنما يؤكد لنا عدم صحّته ، السبب الثاني وهو أن العباسي نفسه يذكر خبر شعر أبي نواس في الخصيب وأن الرشيد حاول تصحيحه له لغوياً ومعنوياً ، دون عقابه عليه (معاهد التنصيص ج 4 ص 271) وهذا ما يذكره المرزباني في الموشح ص 762 والعسكري في ديوان المعاني ج 1 ص 36 . ويذكر الطبري أن أبا نواس كان في حبس الرشيد ، حين توفي ، بسبب قصيدته في هجو قحطان (ج 8 ص 514) ويذكر الزجاجي وجود أبي نواس في حبس الرشيد عندما توفي دون أن يشير إلى السبب إنما يورد شعراً أرسله من الحبس إلى الفضل بن الربيع : «تعزَّ أبا العبّاس عن خير هالك . . .» «فدخل الفضل على الأمين فاستوهبه الأمين فخلاّه وسهّل له الطرق إلى الدخول إليه . . .» (الأمالي ص 27) .

1 مما يرويه البيهقي أن أبا نواس أدخل إلى الرشيد فقال له : «أنت القائل :

عُتِّقَـتْ في الدَنِّ حتـى ... هِـيَ في رِقَّـةِ دِيني ؟

أحسبك زنديقاً . قال : يا أمير المؤمنين ، قد قلت ما يشهد لي بخلاف ذلك . قال : وما هو ؟ قال : قلت :

أيةَ نـارٍ قَـدَح القادِحُ ... وأيَّ حـدٍ بَلَـغَ المازِحُ

مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ فذاك الذي ... سَبَقَ إليـه المَتْجَرُ الرابحُ

(الأبيات)

ثمّ أنشده قصيدة تقليدية في مدحه ، وهي قصيدة «أبو الأمناء» فخلع عليه الرشيد وأجازه (المحاسن والمساوىء ج 1 ص 183) .

بتصفية المتهم الجريء . وهذا ما ذهب إليه أحمد أمين في حديثه عن قتل المهدي لبشّار[1] ، وهذا ما نراه في تعامل الرشيد مع أبي نواس : حُمل إليه على أنه زنديق ، فامتحنه وتأكّد من أنه ماجن خفيف الروح فاصطنعه للترويح عن النفس والمنادمة ، ودعاه إلى التزام عمود الشعر التقليدي في مدحه . ففعل النواسي ذلك على مضض ، كما ذكرنا[2] . ثمّ عنّ للرشيد أن يبعد أبا نواس عن الأمين حين أحسّ تعلّقه به[3] وأدرك مدى خطره على مستقبل ولي العهد السياسي ، فساق عليه تهمة الزندقة وأدخله السجن بها . وحين أخرج بكفالة الفضل بن الربيع وبتعهّداته الشخصية ، شعراً ونثراً ، بأن يلتزم إرادة الخليفة وحدوده[4] ، لم يلبث أن نسي العهود والتوسّلات واسترسل في مجونه حتى مسّ مقام الخلافة وقدسيّة الإسلام ، فلم يعد باستطاعة الرشيد التغاضي عنه ، خصوصاً في مجلس كالذي رويناه عن المرزباني لأنه ، لو فعل ، لوجد عليه الطامعون مأخذاً لا سبيل إلى دحضه ، كما وجدوا ، فيما بعد ، على الأمين[5] . لذلك كان عليه أن يعاقبه بشدة ، وإن كان مقتنعاً بمجونه ؛ إلاّ أنه لم يقتله ، واكتفى بزجّه في «السجن المؤبد» . ونحن لا نستبعد في هذا المضمار أن يكون الأمين تدخّل عند الفضل بن الربيع بالرجاء أو بالتهديد ليُبقى أبو نواس في الحفظ فلا تُدَبَّر له ميتة في السجن ، مما كان معروفاً في تلك الأيام[6] . . . هكذا إذن نستطيع أن نكوّن صورة عن مراحل الاتهام : شعر أو قول يروى يسمعه الرشيد فيغضب فيَتَّهِمُ ويحكم دون إبطاء ، أو تردّد ، أو تأخر لاستكمال المعلومات وللتحقّق من صحة ما يُروى وصدق من يَروي . والفرصة الوحيدة التي قد تسنح للمتهم هي أن يظهر توبة صادقة عندما يُستتاب ، فينجو ، وإلاّ واجه المصير المحتوم ، سواء في ذلك التهمة الموجهة بسبب المجون ، كما رأينا ، أو التي توجّه بسبب

---

1 انظر ضحى الإسلام ج 1 ص 157 .

2 راجع ص 289 هامش 1 من البحث .

2 من شعر أبي نواس في الأمين ، وهو ولي عهد :

إني لَصَبٌّ ولا أقولُ بِمَنْ … أخافُ من لا يَخافُ من أحدِ
إذا تفكرتُ في هواي لَهُ … مسستُ رأسي هل طارَعن جسدي ؟

(أخبار أبي نواس ص 104) .

3 يذكر الوطواط أن أبا نواس بقي فترة طويلة في السجن فكتب قصيدة إلى الفضل بن الربيع يصف فيها توبته ونسكه وزهده وتقاه ، منها :

لو تَراني شَبَّهتني الحَسَنَ البصريَّ في حالِ نُسكِهِ ، أو قَتادة . . .

فأطلع الرشيد عليها وكلّمه حتى أطلق سراحه . (الغرر والعرر ص 45) ويذكر الطبري أن هذه الأبيات قيلت من حبس الأمين .

4 الطبري ج 8 ص 517 وجمع الجواهر ص 167 و 168 .

5 نقول ذلك قياساً على قول الأمين لإبراهيم بن نهيك (والأصح لابنه عثمان بن إبراهيم) حين دفع إليه الرشيد أبا نوّاس ليحبسه عنده : «والله ، لئن مسست منه شعرة لأقتلنّك» . معاهد التنصيص على شوهد التلخيص ج 4 ص 272 .

الرأي الشخصي والقناعة الراسخة كما كانت حال المفكرين من الشعراء الذين تحدّثوا دون تحفّظ ، عن الموت وعن الحياة أو اللاحياة بعده . والزنادقة بصفتهم مانوية أو مزدكية أو من السائرين على الخط نفسه في أخذ مبادىء الزرادشتية محرّفة ، متداخلة مع تعاليم النصرانية والإسلام ، لم يكونوا يؤمنـون بالبعـث على طريقة الأديان السماوية ، أي يوم القيامة ، بل كانوا يرون الحياة سلسلة من الوجود والعدم والعودة إلى الوجود ، إلى أن تصفى الطبيعة النورانية وتلتحم بأصلها في «عمود السبح»[1] . من هنا كان اتهام أبي العتاهية بالزندقة لأنه ذكر الموت ولم يذكر البعث في شعره . حتى ، إذا فعل ، سقطت عنه التهمة[2] . ويبدو أن زهد أبي العتاهية لم يمنع عنه الاتهام[3] بل لعلّه كان أحد أسباب توجيه الاتهام إليه ، لأن الزهـد ، كما رأينـا[4] ، هو أحد المظاهر البارزة التي أقبل بها الزنادقة على الناس ، وأمعنوا فيه إلى حدّ السياحة[5] والمسكنة . وقد اتهم الرشيد أبا العتاهية بالزندقة . ويبدو لنا أن هذا الاتهام كان للاستفهام والعتاب أكثر منه للإدانة[6] . فالزندقة أصبحت كلمة متفشّية تصل

1 الفهرست ص 335 .

2 ذكر البغدادي أن منصوراً بن عمار جلس بعض مجالسه «فحمد الله وأثنى عليه وقال : إني أشهدكم أنّ أبا العتاهية زنديق ، أما ترونه لا يذكر في شعره الجنة ولا النار ، وإنما يذكر الموت فقط ؟» (الأغاني ج 4 ص 36) فبلغ ذلك أبا العتاهية ، فكتب إليه :

إنّ يـومَ الحِساب يومٌ عسيرٌ ليس للظالمـينَ فيه نَصيرُ
فاتخِذْ عدّة لَمطلَعِ القَبْـ ـرِ وَهَوْلِ الصراطِ يا منصورُ

ووجّه بها أبو العتاهية إلى منصور فندم على قوله ، وحمد الله وأثنى عليه وقال : «أشهدكم أن أبا العتاهية قد اعترف بالموت والبعث ، ومن اعترف بذلك فقد برِّىء مما قذف به» . (تاريخ بغداد ج 6 ص 254) . ويبدو أن منصور بن عمار كان يتعمّد متابعة أبي العتاهية واتهامه . فقد فعل ذلك مرّة أخرى حين سمع قوله في عتبة «كأن عتبة من حسنها . . . دمية قس فتنت قسها . . .» وقوله الآخر : «إن المليك رآك أحسن خلقه ورأى جمالك . . .» وأثار عليه العامة (الأغاني ج 4 ص 54) . ومن الذين اتهموه بالزندقة ، إبراهيم بن المهدي : ذكره بها في مجلس له ، فأرسل إليه أبياتاً مع إسحاق الموصلي يعاتبه فيها ، ومنها (مخاطباً نفسه) :

إني رأيتُـكَ مُظهِـراً لِزَهادةٍ تحتاجُ منكَ لها إلى أشبـاهِ

(المصدر السابق ص 103) .

3 يذكره ابن المعتز قائلاً : «ويرمى بالزندقة مع كثرة أشعاره في الزهد والمواعظ وذكر الموت والحشر والنار والجنة . والذي يصح لي أنه كان ثنوياً» . (طبقات الشعراء ص 228) .

4 انظر ص 296 من البحث .

5 ومفهوم السياحة ألا يبيت أحدهم في منزل ليلتين . ويسيحون على أربع خصال : على القدس والطهر والصدق والمسكنة . وفي تعريف المسكنة يقول الجاحظ : «أن يأكل من المسألة ومما طابت به أنفس الناس له حتى لا يأكل إلاّ من كسب غيره الذي عليه (أي على الغير) غرمه ومأثمه» . (الحيوان ج 4 ص 557 وما بعد) .

6 جاء بالخبر البغدادي كما يلي : «قال الرشيد لأبي العتاهية : الناس يزعمون أنك زنديق» . (تاريخ بغداد ج 6 ص253) .

أخبارها إلى البلاط وشاية أو تفكهة . لكن الرشيد كان يعرف أبا العتاهية معرفة وثيقة ، لأن الشاعر لازمه طويلاً ولم يكن يخفى عليه شيء من طباعه وأفكاره وحقيقة نمط حياته . ولأن أبا العتاهية اعتاد من الناس هذه التهمة[1] فإنه لم يفاجأ بها ولم يضطرب ، وكان دفاعه عن نفسه حاضراً مستمَدّاً من أقواله وأشعاره ، داعياً إلى الهداية والتأمل والتوحيد . ومما قاله : «يا سيّدي ، كيف أكون زنديقاً وأنا القائل :

أيا عَجَبي ، كيف يُعصى الإلـ ـهُ أم كيفَ يَجْحَدُهُ جاحدُ ؟
ولله ، في كلِّ تحريكـــةٍ ، وفي كلِّ تسكينـــةٍ شاهــدُ
وفي كلِّ شيءٍ لــه آيــــةٌ تَــدلُ على أنــه واحــدُ ؟[2]

ـ **بين المتكلّمين** : لا شكّ في أن التهمة التي كانت سريعة إلى الشعراء ، حتى الزهاد منهم ، كانت أسرع إلى المتكلّمين : فهم هدف سهل لها ، قاسى غير واحد منهم ضغط الرشيد عليه : لقد قبض على ثمامة بن أشرس المعتزلي فدفعه إلى سلاّم الأبرش السجّان وأمره أن يضيق عليه ويدخله بيتاً ويطيّن عليه ويترك فيه ثقباً»[3] . ذاك أن في طليعة اهتمامات المتكلّمين البحث في الوجود والعدم والقدرة والجبر ، والتشبيه ونفيه ، والقدم والحدوث وما إلى ذلك مما يتناول الأسس العميقة للعقيدة التي ، إذا دخل العقل في متاهاتها ، كثيراً ما يجد نفسه أمام الالحاد والشك . وقد اعتدّ المتديّنون هذه المواضيع محرماً لا ينبغي الدخول فيه ؛ وعلى رأس المتديّنين الخليفة الرشيد وقضاته وفقهاؤه ، وهم يكرهون المراء في الدين ، والجدل ، كما رأينا[4] . ومع أن تهمة الزندقة ، بالنسبة إلى المتكلمين ، واسعة الحدود غامضة الأبعاد ، شأنها بالنسبة إلى الشعراء والناس العاديين ، فإنها هنا تركّزت ، بشكل خاص ، على مشكلة خلق القرآن . ويبدو أن هذه المشكلة ليست من إنتاج عصر الرشيد ، إذ يُرجع البعضُ جذورَها إلى أيام النبي ﷺ حين قال بالخلق طالوت بن أعصم اليهودي الذي سحر النبي[5] ﷺ ، ثمّ غابت المشكلة لتبرز من جديد مع

---

1 راجع الأغاني ج 4 ص 53 و 103 .

2 تاريخ بغداد ج6 ص 253 وأورد الأصفهاني أبيات أبي العتاهية على أنه قالها في منزل النوشجاني نافياً بها الزندقة عن نفسه (الأغاني ج4 ص 37) .

3 تاريخ بغداد ج 7 ص 148 ويذكر الطبري ذلك في حوادث عام 186هـ مرجعاً السبب إلى أن الرشيد وقف من ثمامة على شيء من إعانة أحمد بن عيسى (تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص275) . ولعلَّ هذا السبب السياسي كان بطانة لتهمة الزندقة التي غدت وسيلة الحكام للتخلّص من الخصوم .

4 راجع ص 126 من البحث .

5 سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ص 293 .

غيلان بن يونس القدري[1] والجعد بن درهم مولى بني الحكم[2] ، ومعلّم مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويّين ، الذي أُخذ عنه القول بخلق القرآن كما أخذ النسبة إليه فدعي بمروان الجعدي[3] . وعانى أبو حنيفة (م150هـ) كثيراً من الاضطهاد لقوله بخلق القرآن[4] . أما الرشيد ، فكان ضد القول بالخلق واعتدّه معياراً يثبت زندقة الخاصة من الفقهاء والمتكلمين . وكما جعل المأمون ، فيما بعد ، هذا الموضوع محنة للعلماء ، فقتل كلّ من خالف رأيه في أن «القرآن مخلوق» ، كان الرشيد قد فعل فقتل أو هدّد بالقتل كلّ من خالف رأيه وقال بخلق القرآن . فمن ذلك ما مرّ بنا أن الرشيد نوى قتل بشر المريسي لأنه بلغه عنه القول بخلق القرآن[5] . ولا شك في أن موقف الرشيد هذا متأثر بافتاء قضاته وفقهائه وعلى رأسهم أبو يوسف الذي شُهر عنه قوله : «من قال القرآن مخلوق فحرام كلامُه وفَرضٌ مباينته»[6] .

د ـ تهمة الزندقة : لم يطل الأمر بتهمة الزندقة لتتخطّى حدود العصبية الدينية والغيرة على الإسلام ، وتنطلق في منعطفات الأهواء الإنسانية والرغبات البشرية وتغدو وسيلة لانتقام الناس بعضهم من بعض عن طريق إثارة العامة بها[7] أو استعداء الخليفة[8] ، لأن حركة الزندقة لم تلتزم حدود الجدل الكلامي والنقاش واستهواء الشبّان والمجان ، بل تحوّلت ، كما سبق القول ، إلى خطر سياسي وعسكري على المملكة ، شأن الفرق الأخرى المعارضة من خوارج وشيعة ورافضة ، وهذا ما فتح المجال أمام الحكّام لاتخاذها ذريعة للتخلّص من أعدائهم السياسيّين ولإزاحة من يشاؤون من دربهم . هكذا نجد الرشيد يقبض على الجهجاه المتسفسط ، عندما

---

1 المصدر نفسه ص 289 .

2 المصدر نفسه ص 293 .

3 الكامل في التاريخ ج 4 ص 332 .

4 تاريخ بغداد ج 13 ص 379 .

5 تاريخ بغداد ج7 ص 64 وتاريخ الخلفاء ص 284 .

6 تاريخ بغداد ج 14 ص 253 .

7 يروي الأصفهاني مشاجرة بين ابن مناذر ومحمد بن عبدالوهاب الثقفي سببها رفض ابن مناذر إطلاع الثقفي على كتاب العروض الذي يحمله في كمه . فراح الثقفي ينادي عليه بالزندقة ويجمع الناس حوله . (الأغاني ج18 ص121) وانظر حول هذا الموضوع كتاب الحيوان ج4 ص454 وضحى الإسلام ج1 ص146 وما بعد و156 وما بعد) .

8 يهجو أبو الشمقمق جميل بن محفوظ فيتّهمه بالزندقة ويتنبأ له بالقتل محرّضاً الخليفة عليه فيقول :

وقـد زَعَموا أنهُ كافـرٌ ... وأنّ التزنـدقَ مـن شكلـهِ
كأني بـه قـد دعاه الإمـامُ وآذن ربُّـكَ في قتلِهِ

(الحيوان ج4 ص 454) .

ادعى الخلافة ، ويقول له «لأضربنّك بالسياط حتى تقرّ بالزندقة»[1] . ويتغيّر على كلثوم العتابي فيقبض عليه بتهمة «الزندقة والرفض»[2] . ولم يكن العتابي زنديقاً ولا ماجناً ، وكان له أحد ذنبين : الميل إلى الاعتزال ، كما يقول التنوخي[3] والجهشياري ، ونستبعد أن يكون هذا سبب التهمة لأن خبر التنوخي يشير إلى أن طلب الرشيد له كان قبل أن يتّصل بالبلاط ، ولم يكن العتابي حينذاك شخصاً معروفاً ، ولم يكن الرشيد ليقبض على جميع من ساورتهم ميول اعتزالية . والأرجح أن يكون ذنبه الثاني هو السبب وقد ذكره ابن المعتز[4] ، كما أشار إليه الجهشياري في رواية ثانية[5] ، وهو تعريضه بالرشيد في ممازحته للنمري . فتكون غضبة الرشيد عليه شخصية ، والتهمة التي واجهه بها عامة ، وهي الزندقة .

هكذا تجلّت العصبية الدينية في البلاط تمسّكاً بالدين الإسلامي قبل كل شيء ، وملاحقةً لمن لا يقولون به على مذهب أهل السنّة ، أي على طريقة الخليفة والأئمة الذين يرضاهم ، والعلماء الذين يستشيرهم . والمخالفون غدوا خارجين على الصراط المستقيم : يجب تعذيبهم وحبسهم أو قتلهم . ونحن عرضنا هذا الموضوع لأنه يمثّل فعلاً ناحية فكرية وخلفية نقدية تؤثّر في الحكم على جزء من الانتاج الأدبي في ذلك العصر ، على رغم أنها لم تنتج أدباً خاصاً أو بصورة أدق ، لم يصلنا الأدب الذي قد تكون الزندقة أنتجته ، اللّهم إلاّ من خلال بعض الشعراء المتزندقين بحافز شعوبي أكثر منه كفراً بالدين ، وإلاّ من خلال مدح الرشيد بأنه عماد الدين وحامي حمى الإسلام مما نراه عندما ندرس المعاني المدحية ، وإلاّ من خلال ما أثير في البلاط من شعر أتى دعماً للتهمة أو ردًّا لها . وما كان للزندقة أن توصل أدباً أغزر ، وسيف الخليفة مصلت فوق رؤوس أصحابها . وإذا استثنينا ما قيل في حوادث طبرستان التي كانت على صلة بتحركات الزنادقة ، فإن أحداً من الشعراء لم يذكر مبادرات الرشيد في مواجهتهم ، سواء على الصعيد الفردي ، أو ضد تجمّعاتهم العسكرية .

---

1 ملحق البخلاء ص 157 (عن نثر الدرر) .

2 يقول المرزباني عن العتابي : «ورمي بالزندقة والرفض فطلبه الرشيد ، فهرب إلى اليمن ، وقال قصيدته : «فتّ الممادح . . .» فعُني به البرامكة . . . حتى أمّنه» . (معجم الشعراء ص351) .

3 يذكر التنوخي أن العتابي «كان يقول بالاعتزال قبل الرشيد . وكان الرشيد يطلبه بذلك فهرب إلى اليمن . وتلطّف يحيى بن خالد حتى أوصله إلى الرشيد» . (الفرج بعد الشدّة ص 346) ويذكر الجهشياري قصّة مماثلة (الوزراء والكتّاب 233) . إنما لم يذكر أن ذلك كان قبل اتصاله بالبلاط . ومن الصعب القول باعتزال العتابي قبل اتصاله بالبلاط لأنه كان ، حسب رواية الأصفهاني ، أعرابياً جلفاً يعيش في رأس عين من أعمال الجزيرة ، يخلط الملح بالتراب ويتناوله مع الرقاق . . .» انظر الأغاني ج 13 ص 121 .

4 طبقات الشعراء ص 242 .

5 الوزراء والكتّاب ص 233 .

خاتمة : تغلغل العصبية في النفوس

بعد هذه الجولة في أروقة البلاط وخلفيات من عاشوا فيه أو احتكّوا به ، يتبيّن لنا أن رواسب العصبية الجاهلية ظلّت باقية في النفوس ، أيام الرشيد ، بل الواقع أنها بقيت كذلك إلى ما بعد أيام الرشيد ؛ فحتى أيامنا الحالية ، لا نزال نشهد الكثير من مظاهر هذه الرواسب . والإسلام حارب العصبية وساوى بين الناس في الإيمان ، لكن الناس ، في الإسلام ، لم يكتفوا بألا ينسوا العصبية القديمة ، إنما زادوا عليها عصبيّات جديدة ؛ والفرق بين أيام الجاهلية وأيام الإسلام أن الإنسان في الجاهلية كان يتعصّب ويفخر بعصبيته لأنها نابعة من تركيب مجتمعه ، بينما الإنسان في الإسلام كان يتعصّب ويحاول إنكار عصبيّته ، لأنها مرفوضة مكروهة ، وفي الأخذ بها إزراء بالدين الذي حرمها ، وتناف مع التقدّم الحضاري الذي يأباها . ولنا مثل على ذلك في رواية الأصفهاني عن وضع السيف في ربيعة إذ جاء القيسي ، الذي قُتل أخوه ، إلى وجوه قيس يشكو إليهم أمره ، فنصحوه أن يدخل على عبد الملك بن صالح ، والي الجزيرة ، مستنجداً به على ربيعة . ففعل ثمّ قال له «وحسب الأمير أنهم ، لمّا قتلوا أخي وأخذوا مالي ، قال القائل منهم :

اشربا ما شربتما ، إنّ قيساً ، . . .[1]

فقال عبد الملك : أتندبني إلى العصبية ؟ وَزَبَرَهُ . فخرج الرجل مغموماً ، فشكا أمره إلى وجوه قيس فقالوا : لا تُرَع ، فوالله قد قذفتها في سويداء قلبه ، فعاوِدْه . . .» ولمّا عاوده مستعدياً ، أنصت إليه وسأله عن تفاصيل الحادث ، وسمع الشعر السابق مرة أخرى ، فقال : «كذب لعمري ، ليحوزنّها . . .»[2] وعمد إلى وضع السيف في ربيعة . هكذا كان وضع عبد الملك بن صالح حسب رواية الأصفهاني . وسواء صحّت الرواية عن سبب وضع السيف ، أو أن هناك أسباباً أخرى ، فإن موقف عبد الملك هذا هو موقف معظم الناس ، ومعهم الرشيد : يبغضون العصبية ويريدون تجاوزها ، إلاّ أنها باقية في أعماقهم . لقد كان في نفوس أولي الأمر ، والشرفاء منهم خصوصاً ، صراع دائم بين تيّارها وتيّار التجرّد عنها الذي يفرضه منصبهم بمقتضى تعاليم الإسلام . ولم يكن تيّار العصبية هو الأضعف في هذا الصراع . وكلّما أمعنّا في تأمل حياة البلاط وأحداثه ، اتضح لنا ، أكثر فأكثر ، دور العصبيات في حكم المواقف والتصرّفات ، وفي بعض ردود الفعل والمبادرات عند الرشيد ، سواء منها المتعلّق بالأفراد ، أو المتعلّق بالجماعات ، وحتى بالجيوش والدول .وهذا ما يستكمله حديثنا عن التيّارات السياسية والعسكرية في البلاط .

---

1 راجع التقديم لهذا الفصل .

2 الأغاني ج 3 ص 120 .

الفصل الثاني
التيارات السياسية الداخلية

اللهُ يَحفَـظُ لا الحِراسةْ ... ولَرُبَّمـا تُخطِـي الفِراسَةْ
طلَـبُ الرئاسةِ مـا عَلِمــ ... ــتَ تفاقمتْ فيـه النَفَاسةْ
والنـاسُ يخبِـط بعضُهمْ ... بعضاً عـلى طَلَبِ الرئاسةْ[1]

ما لي رأيتُ بني الدُنيا قــد اقتَتَلوا ... كأنّما هـذه الدنيا لهمْ عُرُسُ ؟
ما لي رأيتُ بنـي الدنيـا واخوتَها ... كأنهمْ ، لِكلامِ اللهِ ، ما دَرَسوا ؟[2]

أبو العتاهية

تمهيد

1 ـ معنى الصراع السياسي وبيئته

لم تكن تيّارات العصبية بعيدة عن الحياة السياسية ، كما رأينا . إلا أنها ، في هذه الفترة ، لم تدخل خضم الصراع الذي يدور حول السلطة . صحيح أن بعض القيّمين على الأمور كانوا يثيرون النعرة العصبية لصالحهم ، وصحيح أن بعض تحركات العصبية كانت ضد هذا الحاكم أو ذاك من المتحيّزين عصبياً ، لكنها ، بشكل عام ، كانت تحاول جعل السلطة بجانبها لا الاستحواذ عليها وتغيير معالمها وإحداث انقلاب فيها وفي مفاهيمها . وهذا يبعدها ، في رأينا ، عن التيّارات السياسية المتصارعة على النفوذ السياسي حيث يهدف التيار إلى الاستيلاء على رقعة جغرافية محدّدة وحكمها بمفاهيم جديدة ، أو يكون أكثر طموحاً فيشدّه إغراء حكم المملكة بأسرها . هكذا ، لم تنتج تيّارات العصبيّة أكثر من فتن ، لكنها أقلقت الرشيد وعايشته في سنوات حكمه ، سنة سنة ، أو سنة بعد أخرى . أما الصراع الذي استهدف السلطة فقد أنتج ثورات سياسية وحروباً أقضّت مضجع الرشيد طيلة أيام حكمه ، يوماً فيوماً . وأهم هذه الثورات في الداخل : تحرّكات الخوارج والعلويّين ، وفي الخارج الحروب مع الروم . ونحن لا نعرض لهذه الثورات والحروب إلا بمقدار ما كانت مدخلاً إلى جلسات أدبية ، أو كانت موحية لشيء من أدبها أو مؤثرة في معاني هذا الأدب وأفكاره . ونودّ هنا تسجيل ملاحظة عن الثورات السياسية وهي أنها ، لكي ترى النور ، يجب أن تحضنها بيئة جغرافية إنسانية ، وتغذّيها شعارات تلقى صدى عند الناس الذين

---

1 الديوان ص 231 .

2 المصدر نفسه ص 224 .

عليهم أن يحملوا السلاح ويموتوا في سبيلها . وقد وجدت حركات الخوارج بيئتها في مجال فقدان العدالة الاجتماعية ، كما وجدت انتفاضات العلويّين بيئتها في مجال مماثل حيث تجلى ظلم الحكّام واستبدادهم . ونحن ، حين نتأمّل تاريخ تلك الحقب من عمر الدولة الإسلامية ، ونرى كثرة الخارجين وأعدادهم التي ، ما إن تنقص في معركة ، حتى تكون قد تضاعفت بانتظار أخرى ، لا يسعنا أن نتصوّر جميع المحاربين المقاتلين من المؤمنين بمبادىء الخارج أو الثائر وشعاراته ، إذ من غير الطبيعي أن تنتشر الشعارات بتلك السرعة ، في أيام خلت من وسائل الإعلام التي نعرفها ، وأن تتعمّق في النفوس لدرجة تحفز على حمل السلاح والقتال حتى الموت ، وخصوصاً أن البيئة الواحدة كانت تؤوي من الخارجين ، بين فترة وأخرى ، مَنْ تتعارض شعاراتهم وتختلف أهواؤهم . وأغلب ظنّنا أن ظاهرة الخروج هذه تعود إلى تركيب المجتمع الإسلامي في ذلك العصر تركيباً فيه فئة كبيرة من المحرومين سياسياًواجتماعياً واقتصادياً ، ومن العاطلين عن العمل الذين لا يجدون طريقة لكسب عيشهم بشكل دائم ، فهم أحياء أموات : الحياة رخيصة عندهم ، وخسارتها لا تعني فقد الكثير . ولئن كانت الدولة تعتمد على المرتزقة في تغذية جيشها ، فهذه الفئة من المواطنين هي التي تقدّم الوقود البشري له ، وهي نفسها التي تغذّي الخارجين عليه . لكنها ، مع الخارجين ، يحدوها أمل بنصر يحمل كسب تقدير اجتماعي قد يصحبه نفوذ سياسي . ولا بدّ من الإشارة إلى أن هؤلاء المحاربين ، سواء كانوا مرتزقة في جيش الخليفة أو ثوّاراً مخالفين له ، كانوا مليئي النفوس بالنقمة على المواطنين السعداء الذين عرفوا الاستقرار والعز في ظل الحكم والسلطة . لذلك كانت أيديهم لا تتورّع عن تخريب البيوت الآمنة وتشتيت الأسر المستقرّة وقتل من تسوّل لهم نفسهم قتله ، كلّما كان ذلك في مجال عملهم . ولعلّ هذا يدخل في طبيعة المحاربين ، حتى الذين يعتدّون أنفسهم شرفاء منهم ، فكيف بالمرتزقة ؟ ولا بدّ من الإشارة كذلك إلى أن أسلوب العمّال في جباية الخراج وتحصيل الضرائب المختلفة ، ساهم في خلق أجواء من النقمة والتمرّد في بيئات اجتماعية واسعة[1] ، فكانت هذه البيئات تحتضن الثائرين والخارجين وتساعدهم ، انتقاماً لمشاعرها وتعبيراً عن مكانها في حيّز القهر الاجتماعي .

2 ـ **موقف الرشيد من الجباية** : إنّ ما سبق لا يعني أن الرشيد كان يرضى عن ظلم العمّال للرعيّة . بل العكس هو الصحيح . لقد كان الرشيد يتشدّد على عمّاله ويحاسبهم الحساب العسير[2] . أما موقفه من فرض الأعباء على الرعية فكان يتنازعه فيه هاجسان : هاجس العطف عليها والسهر على راحتها ورعاية مصالحها ، وهاجس تأمين المال لتغذية خزائن الدولة وتغطية النفقات الهائلة التي تقوم

---

1 من هذه البيئات : الجزيرة وسنتحدّث عنها في عرضنا ثورة الوليد بن طريف ، وحُوف مصر الذي اتفقت فيه قضاعة وقيس على الثورة على العبّاسيّين .
تاريخ الطبري ج 8 ص 256 وابن الأثير ج 5 ص 96 وراجع النجوم الزاهرة ج 2 ص 87 .

2 راجع المثالية الإدارية . راجع ص 661 وما بعد من البحث .

بها . من هنا سجّل له المؤرّخون موقفين متناقضين على صعيد القرارات العامة : الموقف الأول كان في بدء حكمه ، إذ عمد عام 172هـ إلى وضع العشر عن أهل السواد ، وذلك العشر كان يؤخذ منهم بعد النصف[1] . وكأني بهذا القرار ، كان هدية الخليفة الجديد إلى شعبه ، بعدما استقرّ على كرسي الخلافة . إنما ، بعد مرور سنوات على ذلك ، وبعدما قاسى ، من الثورات والأحداث الدامية والحروب ، ما زاد أعباء الدولة ، قام الرشيد باتخاذ القرار الثاني إذ أعطى الأوامر بالتشدّد في جباية أموال الخزينة إلى حد استخدام العنف في ذلك . وقد بلغ هذا العنف القمة عام 184هـ حين «أخذ الناس بالبقايا : ولّى استخراج ذلك عبدالله بن الهيثم بن سام بالحبس والضرب»[2] . والأرجح أن موقف الرشيد هذا كان استثنائياً ، لظروف معيّنة ، ولا يعبر عن خطّته في معاملة الرعيّة ؛ وقد أقلع عنه سريعاً ، بمجرّد أن عاده الفضيل بن عياض وحدّثه عن الرسول قوله : «من عذّب الناس عذّبه الله يوم القيامة»[3] . والرشيد يخاف الله ويعمل بتعاليمه ، كما يعتد الخارجين على الدولة أعداء الله تجب محاربتهم . وهذا ما نراه بالتفصيل فيما يلي :

أولاً : التيّار الخارجي : من المعروف أن الخوارج فرق كثيرة ليست جميعها متفقة ، بل إن بعضها خاض صراعاً عقيدياً وعسكرياً ضد بعضها الآخر ، فاقتتلت فئاتها اقتتالاً دامياً[4] . ويبدو أن ما يجمع فرق الخوارج جميعها هو «وجوب الخروج على الإمام الجائر»[5] ، فضلاً عن الاعتقاد بأن الإمامة حق لكل مسلم صادق الإيمان قادر على تحمّل أعبائها ، وبأنها ليست حكراً على قريش أو هذا البيت وذاك منها . وكان رئيس الخوارج يدعى الإمام ويبايَعُ على الإمامة وقد ينصَّب خليفةً . وتسمّى غير واحد من زعمائهم بلقب «أمير المؤمنين»[6] . فالخوارج إذاً فرقة سياسية تهدف أصلاً إلى مركز الخلافة . ولئن أقضّ الخوارج مضاجع الخلفاء قبل الرشيد ، فلقد كان له من ثوراتهم وفتنهم نصيب كبير[7] . ولمّا لم يكن يهمّنا من ثورات الخوارج إلا الجانب

---

1 تاريخ الطبري ج8 ص 236 .

2 المصدر السابق ص 272 ويفصّل اليعقوبي قائلاً : إن الرشيد أخذ «العمّال والتناة والدهاقين وأصحاب الضياع والمبتاعين للغلات والمقبّلين ، وكان عليهم أموال مجتمعة . فولى مطالبتهم عبدالله بن الهيثم بن سام فطالبهم بصنوف من العذاب «تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 415 .

3 تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 415 .

4 راجع سيرة حمزة السجستاني في «الفرق بين الفرق» ص 99 .

5 الفرق بين الفرق ص 73 .

6 منهم حمزة بن أكرك السجستاني ونافع بن الأزرق وقطري بن الفجاءة (المرجع السابق ص 98 و85 و86) .

7 نكتفي بتعداد هذه الثورات مع تواريخها ، لتتكوّن لدينا صورة عمّا قاساه الرشيد وما دفعه من ثمن ليُبقي لأيامه «بهاء العروس» . ففي عام 171هـ/787م خرج الفضل بن سعيد الحروري (الطبري ج8 ص 235) وفي العام عينه

الأدبي المتصل بالبلاط والجانب الاجتماعي الموحي فإننا نتناول فيما يلي ثلاثة نماذج للصراع العبّاسي الخارجي .

1 ـ ثورة الوليد بن طُريف : كانت في منطقة الجزيرة عام 187هـ/802م وهي من أهم ثورات الخوارج نظراً لأبعادها ولأنها الوحيدة ، تقريباً ، التي وصلنا بعض ما أنتجت من أدب . وكنّا نتمنّى أن نعرف بعض الحقائق الأكيدة عن أسباب خروج الوليد ، لكن كتب التاريخ لا تذكر سوى أنه «أحد الشراة» . ونادراً ما كان المؤرّخون يبحثون عن الأسباب الكامنة وراء الأحداث التاريخية . فإذا كفى الوليد أن يكون من الشراة ليعادي الرشيد ، فما السبب في تأييد سكّان الجزيرة له ودعمه وحمايته ؟ لقد كان بعض الشيبانيّين من الخوارج الصالحية[1] ، إنما لم

= خرج الصحصح بالجزيرة وهزم عسكر الوالي وقتل منهم كثيراً إلى أن سيّر الرشيد له جيشاً من عسكره (ابن الأثير ج5 ص 84) . وفي عام 175هـ/791م خرج حصين الخارجي بخراسان وعاث فيها فساداً وفي باذغيس وبوشيج وهراة ، وقتل خلقاً كثيراً من جنود الدولة . وبقي إلى عام 177هـ/793م (ابن الأثير ج5 ص 89) وفي عام 176هـ/793م خرج الفضل الخارجي في نواحي نصيبين وانتقل إلى المناطق المجاورة يجمع الأموال ويهزم العساكر إلى أن قتل (ابن الأثير ج 5 ص 94) وكذلك خرج أبو مسلم الشاري بباب الأبواب من أرمينية وقوي أمره إلى أن أرسل الرشيد لحربه يحيى الحرشي ويزيد بن مزيد (تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 426) ، وفي عام 177هـ/793م خرج العطاف الأزدي في الموصل وجبى الخراج وأقام على هذا سنتين ، إلى أن خرج الرشيد بنفسه إلى الموصل وهدم سورها بسببه (الطبري ج8 ص 266 وابن الأثير ج 5 ص 96 و103) . وفي عام 178هـ/794م خرج الوليد بن طريف . وفي عام 179هـ/797م خرج حمزة بن أترك السجستاني بخراسان (الطبري ج 8 ص 261 وابن الأثير ج5 ص 101) ، كما وثب الهيصم اليماني وغلب على اليمن وبقي إلى عام 192هـ/807 حيث قتله الرشيد . (تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 412) . وفي عام 180هـ/796م شرى خراشة الشيباني متحكّماً بالجزيرة (ابن الأثير ج5 ص 103 والطبري ج 8 ص 266 والنجوم الزاهرة ج 2 ص 99) ، وفي عام 183هـ/799م خرج بنسا أبو الخصيب ثم طلب الأمان عام 184هـ/800م وعاد إلى الثورة عام 185هـ/801م إلى أن قتل عام 186هـ/802م النجوم الزاهرة ج 2 ص 119 والطبري ج 8 ص 270 و 373 وابن الأثير ج5 ص 109–110–113) . وفي عام 184هـ/800م خرج أبو عمرو الشاري بشهرزور (الطبري ج 8 ص 272 وابن الأثير ج 5 ص 109) . وفي عام 185هـ/801م خرج قحطبة بمرج القلعة (الطبري ج 8 ص 273 وابن الأثير ج 5 ص 110) . وفي عام 187هـ/802م خرج عبدالسلام بآمد (الطبري ج 8 ص 302) وفي عام 190هـ/805م خرج سيف بن بكير في ناحية عبد القيس (ابن الأثير ج 5 ص 123) وكذلك خرج رافع بن الليث بسمرقند مخالفاً لهارون وخالعاً إياه ونازعاً يده من طاعته . وبقي يتنقّل ويقتل ويجبي الأموال حتى سار الرشيد إليه بنفسه وتوفي قبل أن يتمكّن منه (الطبري ج 8 ص323 و338 و340 و342 وابن الأثير ج 5 ص 127 و128) وفي عام 191هـ/806م خرج ثروان الحروري بناحية حولايا ، ثمّ عاد إلى التحرّك عام 192هـ/807م وقتل عامل السلطان بطف البصرة (الطبري ج8 ص 323 وابن الأثير ج 5 ص 127 و 128) .

1 الفرق بين الفرق ص 111 .

يكن سكان المنطقة جميعاً كذلك ، بل كانوا من ربيعة . فهل كان خروجهم معه لمجرّد أنه من ربيعة ، ألأجْلِ ذلك يعادون السلطان ، وهم يعرفون ما يمكن أن يصيبهم من انتقامه فيما لو أخفق تحرّكهم ؟ وقد سجّل التاريخ أنهم دفعوا الثمن غالياً بعد قتل الوليد حين وضع عبد الملك بن صالح السيف فيهم[1] . ونحن نرجّح أن الوليد ثار لربيعة ، ولم تثر ربيعة له . وتقديرنا أن ربيعة كانت تحس ظلماً قديماً من الحكّام ، منذ أيام الأمويّين . فلا هي من الأصل الجنوبي اليمني الذي نصر الأمويّين وحصل على امتيازات منهم ، ولا هي من القبائل المضرية التي تنتمي مثلها إلى عرب الشمال والتي منها قريش وبالتالي الخلفاء الأمويّون والعباسيون . بل هي قطب في الصراع العصبي : مضر ـ ربيعة ، الذي لم يتوقّف منذ أيام الجاهلية ، أي أنها على الخط المقابل لقريش وزعمائها . وهذا يفسّر دعم ربيعة لثورات الخوارج في منطقتها ، والخوارج كانوا يدعون إلى المساواة ونصرة المحرومين ، ولو في الشعارات على أقل تعديل . ولا شكّ في أن الوليد كان يدعمه ظرفان مؤاتيان : أحدهما شخصيّته كفارس شاعر عربي أصيل ، استطاع بذلك أن يؤلب حوله الجموع ويحصل على تأييد المقاتلين الشبّان المعجبين أبداً بالبطولات ، المتأثّرين بشعر الحماسة والتحريض . والظرف الثاني هو النقمة التي تحدّثنا عنها عند ربيعة والتي لمسها أيضاً عند سكّان نواح عديدة أخرى مجاورة للجزيرة زارها وجمع منها المحاربين وانكفأ إلى الجزيرة . وهناك ما يحملنا على الاعتقاد بأن ظلماً لحق الوليدَ نفسَه وحفزه على الخروج مثيراً فيه النخوة والرفض . وأن هذا الرفضَ كان داعيتَه الأكبر في المناطق التي تعاطفت معه إذ جمعها وإياه إحساس مشترك بالظلم . وقد عبّر الوليد عن ذلك صراحة في شعره الذي ارتجزه لدى تصدّيه لمبارزة يزيد بن مزيد ، وفيه يفخر بنفسه ويشير إلى جور الحكّام الذي أجبره على ترك دياره . فيقول :

أنا الوليدُ بنُ طُرَيفِ الشاري ‏ ‏ ‏ قَسْوَرَةٌ لا يُصطَلَى بِناري

جُورُكُمُ أخرجَني مِنْ داري[2]

وحين اشتدّت ثورة الوليد وانهزمت أمامه الجيوش ، أحسّ الرشيد بخطره ، كما أحسّ أن قوته تتضاعف بوجوده في ديار ربيعة ، فلم يكن أمامه إلا أن يرميه بقائد من ربيعة لتصبح العشيرة على الحياد . هكذا وجّه إليه يزيد بن مزيد الشيباني[3] . ويبدو أن هذا التدبيرنجح في قسمة ربيعة قسمين :

---

1 كان عبدالملك والياً على الجزيرة وعلى بعض الشام عام 179هـ/795م . وقد حصره الوليد بالرقة (اليعقوبي ج 2 ص 410) .

2 الأغاني ج 12 ص 87 .

3 يذكر ابن خلكان عن ثورة الوليد أنه «لمّا اتصل ذلك وكثرت جموع الوليد وظهر هذا الظهور العظيم قال الرشيد : ليس لها إلاّ الأعرابي يزيد بن مزيد الشيباني : فقال بكر بن النطاح الشاعر :

لا تَبعَثَنَّ إلى ربيعةَ غيرَها ‏ ‏ ‏ إن الحديدَ ، بغيرِهِ ، لا يُفلحُ

وفيات الأعيان ج 3 ص 297 .

أحدهما يؤيّد يزيد والآخر يؤيّد الوليد[1] . وكانت خطّة يزيد تحاشي الصدام داخل العشيرة . لذلك لم يخض مع غريمه معركة حاسمة بل راح يطاوله ويطارده ويستدرجه حتى طالت الحرب وتركت مجالاً للسعايات في بلاط الرشيد يؤجّجها أعداء العرب وعلى رأسهم البرامكة إذ رموه بالتقصير في واجبه انحيازاً إلى عصبيّته القبلية . وصدق الرشيد السعاية فاستشاط غضباً وكتب إلى يزيد كتابه الشهير يوبّخه ويؤنّبه ويتهدّده . هكذا وجد يزيد نفسه بين نارين : نار الخليفة ونار العشيرة . وكان الحل المثالي في المبارزة التي تنهي المعركة بقتل أحد الخصمين ، وتسْلم العشيرة .

قتل الوليد وانتهت ثورته وبدأت ذيول لها تنسحب على ميدان الأدب عامة وأدب البلاط خاصة . فعلى الصعيد العام برزت شخصيّة أدبيّة فذّة هي شخصية ليلى ، أو الفارعة ، أخت الوليد التي يعدّها البعض شبيهة الخنساء في إبداع رثاء الأخ ، وهي إنما تفوقها في الجرأة والفروسية إذ حملت الرمح ، بعد قتل أخيها ، وتقدّمت الفرسان لتثأر له لو لم يزجرها يزيد : «أعزبي عزب الله عليك ، فقد فضحت العشيرة ، فاستحيت وانصرفت . .»[2] وانكفأت إلى الشعر تبثه لواعجها وحسرتها على أخيها البطل ، ونقمتها على الذين تخلّوا عنه حيًّا وميتاً[3] . أما الأدب الخاص بالبلاط فقد غني باتهام الرشيد واعتذار يزيد وخطبته بعد نيل الرضا ، ثمّ بمدح مسلم بن الوليد له . ذاك أن الرشيد ، حين غضب على يزيد ، بعد اتهام البرامكة له بأنه «يتجافى عنه (الوليد) للرحم»[4] وجّه إليه كتاب مغضب يقول فيه : «لو وجهت بأحد الخدم لقام بأكثر مما تقوم به . ولكنك مداهن متعصّب ، وأمير المؤمنين يقسم بالله لئن أخرت مناجزة الوليد ، ليوجهن إليك من يحمل رأسك»[5] . ويبدو واضحاً ، من هذا الكتاب الذي أجمع عليه المؤرخون ، أن الرشيد لم يكن

---

1 يتبيّن ذلك من خبر ابن الأثير عن نهاية المعركة إذ يقول : «. . . حملوا عليهم حملة فثبت يزيد ومن معه من عشيرته ، ثم حمل عليهم فانكشفوا» . الكامل في التاريخ ج 5 ص 97 .

2 الأغاني – ج 12 ص 88 (وفيه «أغربي ، غرب الله عليك») . وابن الأثير ج 5 ص 98 .

3 نقتبس من قولها الأبيات التالية :

بِتَـلّ بتاتـا رسمُ قَبرٍ كأنّـهُ ... على عَلَمٍ ، فوق الجبالِ ، مُنيفِ
تَضمَّنَ جوداً حاتمياً ونائـلاً ... وسَورَةَ مِقْدامٍ وقلـبَ حَصيفِ
ولَلْبدرُ ، من بينِ الكواكبِ ، قد هَوَى، ... ولَلشمسُ همّت ، بعدَهُ ، بكُسوفِ
فيا شجرَ الخابـورِ ، مالكَ مُورِقاً ... كأنكَ لم تجزْع على ابنِ طَريفِ ؟

(ابن الأثير ج 5 ص 98)

ومنه :

أضاعـكَ قومُـك ، فليَطلُبـوا ... إفـادةَ مثـلِ الـذي ضَيَّعـوا

(الأغاني ج 12 ص 92) .

4 الأغاني ج 12 ص 87 .

5 المصدر نفسه وابن الأثير ج 5 ص 97 .

يسمح لأي رأس أن ترتفع أكثر مما يريده لها ، وأنه ليس لأحد من الحاشية والقواد دالة عليه بشكل يحس معه أنه لا يستغني عنه . فأيُّ عمل جليل يمكن أن يقوم به أي شخص يأمره الخليفة ، وأي بطل ذي هيبة فهو يستمد من الرشيد بطولته وهيبته ، وهو تابع له ، قَدَرُه بين يديه . وهذه هي سياسة العبّاسيّين ، رسخت بشواهد من تصرّف خلفائهم مع قوّادهم ووزرائهم . ولا بدّ من أن يكون يزيد قد اشتم السعاية من هذا الكتاب ، وأحسّ أن مكانته في البلاط قد زلزلت أركانها وعليه إعادتها إلى قرارها . لذلك أسرع بالقضاء على الوليد والعودة إلى البلاط . لكنه ، حين وصل ، «حُجب برأي البرامكة وأظهر الرشيد السخط عليه» . فقال كلمته المشهورة : «وحق أمير المؤمنين ، لأصيفنّ ولأشتونّ على فرسي ، أو أدخل . فارتفع الخبر بذلك ، فأذن له ، فدخل»[1] . ويبدو أن الرشيد كان مُظهراً السخط أكثر منه ساخطاً . فهو ، مهما كابر وأنكر ، يحب يزيد ويشعر بالحاجة إليه لأنه سيفه المصلت بوجه أعدائه ، ولو كانوا من قبيلة ربيعة . ولقد كان بلاؤه في الوليد خير دليل على إخلاصه . لذلك ما كان غضب الرشيد ليبقى حين تقع عينه على ابن مزيد . وهذا ما راهن يزيد عليه حين أصرّ على الدخول . «فلمّا رآه أمير المؤمنين ، ضحك وسرّ وأقبل يصيح : مرحبا بالأعرابي . حتى دخل وأجلس وأكرم»[2] . وكان على يزيد أن يقوم بالخطوة التالية لتبيضّ صفحته نهائياً ، وهي أن يقول كلمة تثبت للرشيد نقاء صدره من الأطماع ، وإخلاصه اللامحدود ، وأنه لا همّ له في هذه الدنيا إلاّ أن يحوز رضى الخليفة ، حتى إذا ما أقبل هذا عليه بوجهه ، حلّت النعمة عنده ، وانكشفت الكروب عنه بأفضال من أمير المؤمنين . فهو شاكر له أبداً ، رضي عنه أم سخط عليه ، ويتوجّه إليه داعياً : «جزاك الله ، في حال سخطك رضا المنيبين ، وفي حال رضاك ، جزاء المنعمين الممتنّين ، المتطوّلين : فقد جعلك الله وله الحمد ، تتثبّت تحرّجاً عند الغضب ، وتتطوّل ممتناً بالنعم ، وتعفو عن المسيء تفضّلاً بالعفو»[3] . ولا شك في أن هذا الخطاب دغدغ عزة نفس الرشيد ، وأفاء الاطمئنان على قلبه ، فرضي . وبرضاه ، فتحت الأبواب للشعراء يدخلون إلى مدح يزيد . وقد وصلنا نموذج عن هذه المناسبة هو مدح مسلم بن الوليد . جاء ذلك في قصيدة لامية طويلة يهمّنا منها ما يتعلّق بثورة ابن طريف وقضاء يزيد عليها . في هذه القصيدة يستخدم مسلم طريقة عنترة في الإشادة بالخصم لتضخيم قيمة الانتصار عليه . فالوليد المارق لم يكن خصماً سهلاً ، بل يرى مسلم أن قدحه رابح دائماً على قدح أي قائد للرشيد يتعرّض له ، إلا قائداً من سلالة شريك الشيباني يدخل جموع الخوارج فيجفلون كأنهم جراد أُخيف فتطاير :

والمارقُ ابنُ طريفٍ قد دَلَفتَ له بِعـارضٍ ، للمنايـا ، مُسبِلٍ هَطِلِ

---

1 الأغاني ج 12 ص 88 .

2 المصدر السابق .

3 تاريخ الطبري ج 8 ص 353 والعقد الفريد ج 2 ص 148 وزهر الآداب ج 3 ص 683 .

لـو أنّ غيرَ شريكيّ أطـافَ بـهِ فـازَ الوليدُ بِقدحِ الفاضِلِ الخصِلِ
مـا كانَ جَمعُهمُ ، لما دَلَفتَ لهمْ إلاّ كمِثْلِ جـرادٍ ، رِيحَ ، مُنجَفِلِ[1]

ويشير مسلم ، من طرف خفي ، إلى ما أخذ البرامكةُ على يزيد من مماطلة الوليد وعدم مبادرته بالعنف والقسوة ، فيعلّل تصرف ابن مزيد بأنه خطة القائد الواثق من النصر ، يلين عن قوّة ، لا عن ضعف ، ويأتي ، في أقصى حالات لينه ، بما يعجز عن أتيانه أشد الرجال في أعلى حالات عنفه . يقول في ذلك :

يَفتَرُّ عندَ افترارِ الحَـرْبِ مُبتسماً إذا تَغيَّرَ وجـهُ الفـارسِ البَطلِ[2]
يَنالُ ، بالرفِقِ ، ما يعيا الرجالُ به كالموتِ مُستعجِلاً ، يأتي على مَهَلِ

ولمسلم قصيدة أخرى ميمية في يزيد مطلعها :

سَلَّ الخليفةُ سيفاً مـن بني مَطَرٍ يَمضي فَيَخترقُ الأجسامَ والهاما

يعود فيها إلى الكلام على بأس الوليد وامتناعه على القواد مشيراً إلى أنه ، لو لم يعرض له يزيد ، لعاشت ثورته أعواماً أخرى طوالاً [3] . ويذكر مسلم فيها لفتة خاصة تدلّ على عظم خوف الرشيد من ثورة الوليد وشدّة رغبته في القضاء عليها ، وهي تزويده القائدَ بالسيف الذي ورثه وحفظه مقدساً ، السيف الذي حارب به عليٌّ بن أبي طالب ، أولُ من آمن من الشبّان ، وصلّى وصام وفق تعاليم الإسلام . فالرشيد «لما جهز يزيد بن مزيد إلى حرب الوليد بن طريف ، أعطاه «ذا الفقار» ، سيف النبي ﷺ ، وقال له : خذ ، يا يزيد ، فإنك ستُنصر به . فأخذه ومضى . وفي ذلك يقول مسلم بن الوليد :

أذْكَـرتَ سيفَ رسولِ اللهِ سُنَّتَهُ وبأسَ أولِ مـن صَلَّى ومن صاما

يعني بأس علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، إذ كان هو الضارب به . .»[4] ويبدو أن الوليد كان ، بالفعل قوى الشكيمة ، وأن ثورته راحت تهدّد كيان الدولة وتهزّ عرش الرشيد ، وأن يزيد كان ، وحده ، القادر على قمع تحركه بسبب انتمائه إلى العشيرة نفسها . وهذا ما يشير إليه بكر بن النطاح الحنفي (من فروع ربيعة) عندما يقول متألماً لما أصاب العشيرة ، وعاتباً عليها :

---

1 الأغاني ج 12 ص 90 . والخصل : المصيب ـ ريح : هبت عليه ريح .

2 الأغاني ج 12 ص 88 .

3 يقول مسلم مشيراً إلى عُمر ثورة الوليد :

لولا يزيـدٌ ، ومقدارٌ لـه سَبَبٌ ، عاشَ الوليدُ ، مـع العامينِ ، أعواما

(وفيات الأعيان ج 3 ص 297) .

4 المصدر ذاته .

يــا بني تَغلِبٍ ، لقــد فَجَعَتْكُــمْ مِــن يَزيــدٍ ، سيوفُـهُ بالوليدْ
لــو سيوفٌ سِوى سيوفِ يزيدٍ قارَعَتْه ، لاقتْ خِلافَ السُعودْ
وائــلٌ ، بعضُها يقتّــل بعضاً لا يَفُـلُّ الحديـدَ إلاّ الحديدْ[1] .

لهذا كلّه كان القضاء على الوليد بن طريف راحة كبرى للرشيد الذي أراد أن يشكر ربّه على ما أنعم عليه به من نصر ، فاعتمر في شهر رمضان ، «فلمّا قضى عمرته ، انصرف إلى المدينة فأقام بها إلى وقت الحج . ثم حجّ بالناس ، فمشى من مكّة إلى منى ثمّ إلى عرفات وشهد المشاهد والمشاعر ماشياً»[2] .

2 ـ ثورات أخرى للخوارج

ولم تكن ثورة الوليد المناسبة الوحيدة التي أحسّ فيها الرشيد بعرشه يهتز من تحته فقد سهر الخوارج على أن يجعلوه يعيش هذه اللحظات القاسية مرّات ومرّات : لقد كانت لهم مراكز كثيرة في أراضي الدولة العباسية ، وكانوا دائماً ينشطون في المكان الذي يحسون فيه نقمة على الحكم يستغلّونها ، أو ضعفاً في ولاء يضغطون عليه حتى يتحوّل إلى تمرّد وثورة . إلا أن أبرز أماكن ثوراتهم ثلاثة : الجزيرة ، خراسان وما يتبعها من ولايات ، ثمّ اليمن . وخراسان كانت ، في جميع العهود ، مركز قلاقل واضطرابات لسببين سبق ذكرهما : بُعدها المكاني وبُعدها العنصري والنفسي عن قلب الأمبراطورية ؛ وقلّما التزم أهلها بعهد خليفة ، وحين فعلوا ذلك في بدء الخلافة العبّاسية غَدَرَ بهم العبّاسيّون وقتلوا زعيمهم أبا مسلم . وفي خراسان لاقت ثورات الزنادقة التشجيع ، كما لاقته ثورات الشراة والعلويّين . وفي خراسان نمت وكبرت ثورة رافع بن الليث ، وهو من سلالة نصر بن سيار آخر وال للأمويّين على خراسان . ولذلك كان لثورته مغزى معيّن ، لدى الرشيد ، فهي تمثّل عودة عن الولاء لآل عباس ، لصالح بقايا الأمويّين ألدّ أعدائهم . من هنا كان ، لاستفحال أمر رافع ، ردّة فعل خاصة في نفس الرشيد دفعته إلى السير بنفسه ، حاملاً ثقل المرض ووطأة النزع ، للقضاء عليه ؛ وكان يدعو ربه ألا يموت قبل رؤية رافع ذليلاً أمامه ، وهي أمنية لم تتحقّق[3] . ويمكننا تصوّر مدى حقد الرشيد على رافع من هذا المشهد المؤسي الذي يرسمه لنا الجهشياري للحظات الأخيرة من عمر الرشيد . فيذكر أنه «جلس جلوساً عاماً . . . وخلف المسند خادم يمسكه بيده لئلا

---

1 زهر الآداب ج 4 ص 992 والبيت الأخير في تاريخ الطبري ج 8 ص 261 وتاريخ ابن الأثير ج 5 ص 98 .

2 تاريخ الطبري ج 8 ص 261 والكامل في التاريخ ج 5 ص 101 والنجوم الزاهرة ج 2 ص 69 ، ويذكر كلوب هذا الخبر معلّقاً : «قيل إنه مشى في هذه المرة نحواً من مئتين وخمسين ميلاً في الصحراء ، من المدينة إلى مكّة ، زيادة في الرغبة في التقرّب إلى الله» . امبراطورية العرب ص 521 .

3 يذكر الطبري قول الرشيد لأخي رافع الذي قبض عليه وأحضر إليه بطوس : «أما واللّه ، يا ابن اللخناء ، إني لأرجو ألا يفوتني خامل (يعني رافعاً) كما لم تفتني» . تاريخ الطبري ج 8 ص 342 .

يميل . . . حتى أمر بإحضار مروان[1] أخي رافع ، وقرابته الذي كان معه ، فأُحضرا . فقال الرشيد : أيتوهّم رافع أنه يغلبني ؟ والله الذي لا إله إلا هو ، لو كان معه عدد نجوم السماء لَتَلَقَّطْتُهُم واحداً واحداً حتى أقتلهم عن آخرهم . . . قال : عليَّ بجزّارين . . . وأمر القوم بتفصيلهما عضواً عضواً . فوالله ما فرغ منهما حتى توفي الرشيد»[2] . ونحن نرى في ثورة رافع ، كما في ثورة أبي الخصيب ، وثورة حمزة بن أترك السجستاني[3] ، بصمات أصابع الظلم التي تركها علي بن عيسى ، والي خراسان ، على تلك المنطقة . وقد اشتكى منه أعيانها ولكنه كان ينافق الرشيد حول حقيقة ثروته ومصادرها ، وكان يكثر من إرسال الهدايا والطُّرف إلى الرشيد والقواد[4] . وقد تنبّأ يحيى بن خالد بمصير خراسان إلى الثورة في جدل بينه وبين الرشيد حول ولاية الفضل البرمكي لها وولاية علي بن عيسى إذ قال : «إن خراسان ، سبيلها أن تُحمل إليها الأموال ولا تُحمل منها . والفضل أصلح نيات رؤسائها واستجلب طاعتهم ، وعلي بن عيسى قتل صناديد أهل خراسان وطراخنتها وحمل أموالهم . وسينفق أمير المؤمنين ، مكان كل درهم منها ، عشرة . .»[5] وتتجلّى نقمة أهالي خراسان على علي بن عيسى في خبر نقله الطبري وابن الأثير مفاده أن أهل نسف دعوا رافعاً ليعينهم على قتل عيسى بن علي . فاستجاب رافع لطلبهم فقتلوا «عيسى وحده ، ولم يعرضوا لأصحابه»[6] .

وفي اليمن تبرز ثورة الهيصم بن عبد المجيد الهمداني عام 179هـ ثورة طويلة النفَس : فقد استمرت تسع سنين . ومع أن المؤرخين ، كعادتهم ، أتوا عليها باختصار دون ذكر دوافعها الحقيقية ، فإننا نرى فيها أثراً مباشراً لوجود حماد البربري والياً على اليمن ، في ولاية هي من أطول ما عرفته أيام الرشيد . وإذا ذكرنا أن حماداً هو مولى من مواليه أعتقه في أول خلافته ووثق به ثقة

---

1 كذا في الوزراء والكتّاب وهو «بشير» في تاريخ ابن الأثير .

2 الوزراء والكتّاب ص 275 وانظر تاريخ الطبري ج 8 ص 342 والكامل في التاريخ ج5 ص129 .

3 كانت ثورته من أبرز ثورات الخوارج . وقد تسمّى بأمير المؤمنين كما أشرنا سابقاً واستشرى أمره فراح يتنقّل في مساحات واسعة من المنطقة حتى أن عيسى بن علي ، الذي أرسله والده في إثره ، شُبّه بالأسكندر الذي بلغ أقاصي الدنيا . فقال أبو العذافر الكلابي :

كادَ عيسى يكونُ ذا القَرْنَيْنِ بلَـغَ المَشرِقَينِ والمَغرِبَـينِ
لم يدَعْ كابُـلاً ولا زابُلُسْتا نَ ، فما حولَها ، إلى الرُّخَّجَينِ

تاريخ الطبري ج 8 ص 273 والبدء والتاريخ ج 6 ص 103 وابن الأثير ج 5 ص 110 ، وبقي حمزة ثائراً حتى أيام المأمون .

4 جاء الرشيد خبر أموال عظيمة دفنها عيسى ابنه في بلخ فقال : «خلّف مثل هذا المال وهو يزعم أنه باع حلي نسائه فيما أنفق على محاربة رافع ؟» . الطبري ج 8 ص 324 وابن الأثير ج5 ص 126 وانظر خبر هداياه للرشيد وحاشيته في المرجعين المذكورين الطبري ص 314 وابن الأثير ص 121 .

5 الوزراء والكتّاب ص 228 .

6 الطبري ج8 ص 323 وابن الأثير ج 5 ص 127 .

عمياء ، وأنه كان والياً ظالماً[1] ، زاد في وقع جوره إغضاء الرشيد عنه ورفضه أية مراجعة بشأنه ، عرفنا مبلغ النقمة التي أحسّها أهل اليمن حتى صاح قوم منهم بالرشيد ، وهو بمكّة : «نعوذ بالله وبك ، يا أمير المؤمنين ، أعزل عنّا حماداً البربري ، إن كنت تقدر . فقال : لا ، ولا كرامة»[2] . لقد زاد في إحساس أهل اليمن بالظلم أنه يأتي من مولى لا نسب ولا حسب له ، أمعن إذلالاً في أشرافهم . ونعود لنؤكد هنا أننا ، إذ نربط هذه الثورات بظلم العمّال ، فإنما نحاول أن نجد مسوّغاً منطقياً لتلك التحرّكات التي تكاد لا تحصى ، في أيام الرشيد . ومع ذلك ، فليس هدفنا الدلالة على أن أيام الرشيد اتسمت بالظلم والقهر ، بينما هو ، في عرف جميع المؤرخين ، من أعدل الخلفاء ، فالعلة هي في طبيعة التنظيم الإداري الذي يعطي الوالي سلطة مطلقة وصلاحيات الخليفة ، نفسه ، في ظروف من صعوبة الرقابة وكثرة السعايات في البلاط وخارجه ، ومن صراع التيّارات المختلفة ، وهذا ما جعل الحاكم يعزل الوالي أحياناً على الظنة ، ويتردد أحياناً أخرى إذ لا يحسن تمييز الخبرالصادق من المدسوس . ونريد أخيراً أن نؤكد أن مجابهة الخوارج للرشيد لم تكن مقتصرة على العمليات العسكرية ، بل إنهم جابهوه وجهاً لوجه ، بالقول والحجة والتحدي ، لا نشك في ذلك ، إنما لم يصلنا شيء كثير مما قيل ، شأن معظم النقائض التي لم يكن الحكم يرضى عنها وطمست معالمها ، ما عدا إشارات عابرة . من هذه الإشارات ما ذكره الجهشياري عن قريب رافع بن الليث الذي قُبض عليه مع مروان أخي رافع ، وحين قُدّما إلى الرشيد ، وحاول مروان أن يتنصّل من أخيه ، تدخّل قريبه ، ونهره قائلاً بتحدّ : «قطع الله لسانك : إنّا والله ندعو بالشهادة ، فلما رُزقناها على يدي شرٍّ خلقه أخذتَ بالإعتذار ؟» . وحين دعا الرشيد بالجزارين قال له : «افعل ما شئت ، فإننا نرجو أن يرزق الله الشهادة ونقف نحن وأنت بين يدي الله عزّ وجل في أقرب مدّة ، فتعلم كيف يكون حالك»[3] . ومنها كذلك ما أورده اليعقوبي في خبر مثول الهيصم اليماني أمام الرشيد ، أنه «أنشده في شعر طويل :

فشفاءُ مـا لا تَشتهيـ ـهِ النفسُ تَعجيلُ الفِراقِ[4]

وكأني بالهيصم ، عوضاً عن استرحام الرشيد ، يتابع ثورته ، وهو بين يديه ، طالباً منه التعجيل بقتله ليرتاح من دنيا ليس فيها ما يرجوه من عدالة . وكنّا نتمنّى أن نحظى بقدر أكبر من هذه القصيدة «الطويلة» ، فهي تمثّل وجهاً مهماً من أدب البلاط ، ووجهاً لا أمل لنا برؤياه .

---

1 يقول اليعقوبي إنه «جار على أهل اليمن وغلظ عليهم» ج 2 ص 413 .

2 اليعقوبي ج 2 ص 413 .

3 الوزراء والكتّاب ص 275 .

4 تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 412 .

ثانياً : تيار الصراع العباسي العلوي : حين كنّا نتحدّث عن عصبية الرشيد الهاشمية[1] ، قلنا إنه كان يظهر المحبة لأبناء علي ويصفهم بأنهم وإياه ينحدرون من أب واحد ، ولهم نسب مشترك أصلاً وفرعاً ، وأنه لام منصوراً النمري على هجائه لهم حتى ، إذ قال بيته المشهور :

وإنّـــكَ ، حين تُبلغُهم أذاةً ، وإن ظَلَمـوا ، لَمَحزونُ الضَميرِ

استحسن الوصف أيما استحسان وقال : «ويحك ، ما هذا ؟ شيء في نفسي منذ عشرين سنة لم أقدر على إظهاره ، فأظهرتَه بهذا البيت . ثمّ قال للفضل بن الربيع : خذ بيد النمري وأدخله بيت المال ودعه يأخذ ما يشاء»[2] . وهذه الحادثة تلخّص تماماً علاقة الرشيد بالعلويّين : فهي ، من جهة ، علاقة قربى ونسب توحّد المصالح وتجمع حول الأهداف . وهي ، من جهة أخرى ، علاقة تنافس ، بل صراع على السلطة والنفوذ . . أما علاقة القربى فتجمعهم في وجه الأمويّين الذين اغتصبوا الخلافة دون أن يحق لهم وراثة الرسول . وقد وحّد بينهم ما لاقوه من الأمويّين من اضطهاد وملاحقة وتصفيات . والمعروف أن توحيد جهود العلويّين والعبّاسيّين هو الذي أعطى للدعوة قوة ودعماً دفعاها بسرعة إلى إتيان أُكُلها . لكن انتصار الدعوة كان مؤذناً بالقطيعة وفرط عقد الوحدة وببدء التنافس والصراع ، لأن العبّاسيّين ، كما هو معلوم ، حين وصلوا إلى السلطة ، استبدّوا بها دون أبناء عمّهم ، وجعلوها إرثاً في أولادهم ، بل وعادوا يمارسون أساليب الأمويّين في اضطهاد أبناء علي وملاحقتهم وتصفيتهم . وهؤلاء لم يألوا جهداً في التنكيد على العبّاسيّين وتنغيص عيشهم وإحداث البلابل والفتن وتحريك الثورات التي تدعو صراحة إلى خلع الخليفة العبّاسي ورد العصا والصولجان إلى أصحابهما الشرعيّين . . . ولقد بدأت المعركة عمليّاً في أيام المنصور ، واستمرت طالما وجد خليفة عبّاسي . وبنتيجتها كان ينسلخ ، بصورة موقتة أو دائمة ، هذا القطر أو ذاك وهذه الناحية أو تلك من الامبراطورية لتعلن فيها خلافة علوية . وحين كانت الثورة المسلّحة تستكين ، ويعود الجزء المنسلخ إلى جسم الدولة ، لم تكن المعركة تتوقّف بل كانت تستمر معركة دعاية وإطلاق شعارات ، وشد حبل في خطبة هنا ورسالة من هناك ، وشعر لشاعر علوي تقابله قصائد عبّاسيّة . . . ونحن نعرض لدراسة هذا التيّار على المستويين المذكورين : مستوى الحرب العسكرية وما أنتجته من أدب ، ومستوى حرب الشعارات الكلامية .

---

1 راجع ص 88 هامش 2 وص 263 من البحث .

2 طبقات ابن المعتز ص 245 . ويبدو أن موقف الرشيد هذا كان موقف الخلفاء العبّاسيّين قبله . فأبو جعفر المنصور ، حين جيء برأس إبراهيم بن عبدالله وأذن للناس بالدخول فراحوا ينالون من إبراهيم وأخيه ، «دخل جعفر بن حنظلة البهراني فقال : أعظم الله أجرك في ابن عمك ، وغفر له ما فرّط فيه من حقّك . فسرّ أبو جعفر وقال : أبا خالد ، مرحباً وأهلاً ، ها هنا . فعلم الناس أن قد سرّته مقالته . فقالوا مثل قوله» . (تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 379) ويروي الطبري موقفاً مماثلاً للهادي . فحين جيء برأس الحسين بن علي فوضع بين يديه ، قال : «كأنكم والله جئتم برأس طاغوت من الطواغيت . إن أقل ما أجزيكم به أن أحرمكم جوائزكم . . . فحرمهم ولم يعطهم شيئاً» . تاريخ الطبري ج 8 ص203 .

المستوى الأول : الصراع العسكري

1 ـ ثورة إدريس بن عبدالله

أما عن الحرب والاغتيال ، فقد عرفت أيام الرشيد منهما وقعتين مهمّتين : إحداهما مع ثورة يحيى بن عبدالله ، والثانية مع اغتيال إدريس بن عبدالله . ونحن نهتم بهما أكثر من سواهما لأنهما مناسبتان لجزء من أدب متصل بالبلاط . إنما لا نتناولهما بالتفصيل لأننا لا نجد لهما ارتباطاً بظروف اجتماعية معيّنة : إن هما إلاّ حلقتان في سلسلة الصراع التقليدي الذي خاضه العلويّون ضد السلطان . فمن السنّة ، عند أئمّتهم ، أن يستقطب الواحد منهم الناس ، ويجمع الجموع حتى يعلن العصيان . أما إدريس فقد يمّم شطر المغرب بعد نجاته من وقعة فخ أيام الهادي ، وهناك تمكّن من إنشاء إمارة له[1] . وهذا ، بلا شك ، أزعج الرشيد لأنه لم يكن يرضى أبداً بانسلاخ جزء من مملكته ، ولا بقيام حكم علوي قد لا يلبث أن يمتد وينتشر ؛ فيكفيه وجود دولة أمويّة في الأندلس . إنما ، نظراً لبعد الشقة ، فإن الرشيد عمد إلى طريقة الاغتيال للتخلّص من إدريس . وكان نجاح الخطّة حدثاً مهمًّا في البلاط ، على رغم الأسلوب الكريه الذي استخدم . واعتبر المتزلّفون من الرّواد أن موت إدريس على يد الرشيد ، وهو على بعد مسافات شاسعة عنه ، دليل على حول الرشيد وطوله ، وعلى قدرته التي لا حدود لها ، وعلى يد انتقامه التي لا تقف ، دونها وما تريد ، بحارٌ شاسعة ، ولا فيافٍ أو بوادٍ أو أنهار . وقد روى المؤرّخون مما قيل في هذه المناسبة السعيدة بالنسبة إلى البلاط ، ثلاثة أبيات اختلفوا في قائلها ، فجعلها الطبري للهنازي ، وذكرها الحصري لأشجع السلمي ، في معرض الحديث عمّن سرقوا معنى النابغة المشهور : «وإنك كالليل الذي هو مدركي . . .» وفي كلتا الحالين ، فإن الشاعر يخاطب إدريس ساخراً من اعتقاده بأنه قادر على الإفلات من الخليفة ، في حين لات مفر ، إلا أن يستطيع الوصول إلى بلد لا تشرق عليه الشمس فلا يدخل بالتالي في امبراطورية الرشيد . والأبيات كما يذكرها الحصري :

أتظـن يـا إدريسُ أنّك مفلـتٌ ... كيـدَ الخليفة ، أو يَقيكَ حَذارُ ؟
هيهـاتَ إلا أن تَحِـلَّ ببلدةٍ ... لا يَهتـدي فيها إليـكَ نهارُ
إنَّ السيوفَ ، إذا انتضاها عزمُهُ ، ... طالــتْ ، وتَقصُرُ دونها الأعمارُ[2]

ويضيف الطبري بيتاً رابعاً يدخل في زمرة قصائد الإحالة التي وُضع فيها الرشيد فوق مواضع البشر[3] .

مَلِــكٌ ، كأنَّ الموتَ يَتبعُ أمرَهُ ... حتى يُقـالَ : تُطيعُـهُ الأقـدارُ[4]

---

1 الطبري ج 8 ص 198 .

2 زهر الآداب ج4 ص 1058 .

3 راجع ص 689 وما بعد من البحث .

4 الطبري ج 8 ص 199 .

وإذا كان الرشيد قد قلق بشأن إدريس واهتمّ بتتبُّعِهِ ثم باغتياله ، فإنّ تحرك إدريس لم يكن ثورة بمعنى الكلمة تضع في الميزان وجود الرشيد على كرسي الخلافة ، بينما كانت بعض تحرّكات العلويّين أشبه بانقلاب عسكري يتفاعل متصاعداً حتى يجعل الخليفة يتحسّس عرشه ويكاد لا يصدّق أنه تحته . عرف المنصور لحظات كهذه مع ثورة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم[1] ، وعرف الهادي ما يقاربها مع ثورة الحسين بن علي بن الحسن الطالبي[2] الذي انتهت ثورته بقتله في فخ . . .[3] ومع ثورة يحيى بن عبدالله عرف الرشيد لحظات عصيبة ، اغتم لها «وامتنع عن اللهو والشرب»[4] .

2 ـ ظهور يحيى بن عبد الله : كان ذلك عام 176هـ وقد أخذ أبعاداً سياسية كبيرة إذ مثّل الثورة العلويّة الجدّية والوحيدة على حكم الرشيد . اختار يحيى بلاد الديلم منطلقاً لدعوته ، وهي بلاد بعيدة عن بغداد واقعة «بأرض الجبال بقرب قزوين ، وهي بلاد كلّها جبال ووهاد»[5] مؤهلة للعصيان . فاستحكم أمره واشتد و «نزع إليه الناس من الأمصار والكور»[6] . ومع أن الرشيد كان في أوائل خبرته السياسية ، فإنه لم يتردّد في إعطاء هذه الثورة حجمها الذي تستحقه ، فلم يضع الوقت في تكليف هذا القائد أو ذاك بانتظار أن ينجح حتى إذا فشل أرسل سواه ، بل كلّف فوراً الفضل بن يحيى البرمكي وندبه للمهمة في خمسين ألف رجل ومعه صناديد القوّاد»[7] . ومن غير المستبعد أن يكون قد نظر للأمر بعين البرامكة ، وهم الذين كانوا مطلَقي اليد في الرأي والمشورة والتنفيذ : فيكون يحيى أوحى إليه باستخدام الفضل ، وهذا يدعم وجهة النظر القائلة إن البرامكة كانوا يشجعون الخارجين ويبقونهم في متناولهم ، حتى إذا اشتد أمرهم ، انجرد لهم أحد أولاد يحيى فأطفأ الفتنة وأمّن ، في الوقت نفسه ، مخرجاً للخارجين[8] .

---

1 حين ثار إبراهيم ، كان المنصور في قلة من العسكر ، وقد فرق جنوده وقوّاده في البلاد ، فقال بعد أن اشتدّ أمر إبراهيم : «والله ما أدرى كيف أصنع . . . والله ، لئن سلمت من هذه ، ما يفارق عسكري ثلاثون ألفاً» . (ابن الأثير ج5 ص 17) «وبقي المنصور على مصلاه خمسين يوماً ينام عليه ، وعليه جبّة ملوّنة قد اتسخ جيبها ، لا غيرها» (المصدر السابق ص 18) ومن قوله حين أهديت إليه ، في ذلك الوقت ، جاريتان من المدينة : «ليست هذه أيام نساء ، ولا سبيل إليهما حتى انظر : رأس إبراهيم لي ، أو رأسي له ؟ (المصدر السابق ص 18) .

2 انظر الطبري ج8 ص 203 .

3 الطبري ج 8 ص 197 .

4 النجوم الزاهرة ج 2 ص 81 .

5 آثار البلاد وأخبار العباد ص 330 .

6 الطبري ج 8 ص 242 .

7 المصدر السابق ص 242 .

8 راجع اتهام الرشيد ليحيى بن خالد بذلك في الوزراء والكتّاب ص 243 .

هذا ما حصل في فتنة الشام مع تدخل موسى ، أولاً ، وجعفر ثانياً ، وهذا ما نعاينه في ثورة يحيى بن عبدالله . وقد استخدم الفضل ، في معالجة الفتنة ، الأسلوب عينه الذي استخدمه جعفر فيما بعد لمعالجة فتنة الشام : الأسلوب البرمكي المعتمد على الترهيب والترغيب ، السيف بيد والعطاء والعفو باليد الأخرى ، مع ضمان العواقب سليمة لمن يستجيب له ؛ فقد « كاتب يحيى ورفق به واستماله وناشده وحذّره وأشار عليه وبسط أمله . . .»[1] «وواتر كتبه على يحيى . وكاتب صاحب الديلم وجعل له ألف ألف درهم على أن يسهل له خروج يحيى إلى ما قبله»[2] . ويروي اليعقوبي أن الرشيد كتب مباشرة «إلى صاحب الديلم يطلبه منه ويتهدّده . فطلبه . . .»[3] ولعلَّ خوف صاحب الديلم من تهديد الرشيد ، فضلاً عن رغبته في نيل جائزة الفضل التي «حملت إليه»[4] ، جعله يلعب دوراً كبيراً في وضع حد لتحرّك يحيى . وإذا عدنا إلى نظرية اتهام البرامكة «بتخريج الخارجين» يكون صاحب الديلم هو عميلهم الذي ساعد يحيى وأيّده بالعون ليخرج ، ثمّ أوقف عنه العون فاستسلم . وتكون المليون الدرهم التي نالها بشكل جائزة ، هي الثمن المتفق عليه سابقاً مع البرامكة ، تدفع من مال الرشيد وعن طيبة خاطر منه . وقد وفى البرامكة ليحيى بن عبدالله بوعودهم وحصلوا له من الرشيد على كتاب أمان فيه جميع الضمانات ، والتزموا حمايته حتى من غضب الرشيد . وحين نقض هارون أمانه وحبس يحيى عند جعفر ، أطلقه هذا على مسؤوليته[5] . ونحن لم نتوقّف أمام دور البرامكة هذا إلا لأن بعض الأدب الذي نجم عن هذه المناسبة دار حولهم وحول تصرّفهم المتميّز فيها . ويجدر بنا تدوين الملحوظات التالية حولها :

إن تكليف الرشيد للفضل رافقه ولايته على المشرق كلّه وتفويض كامل له بتعيين من يشاء والتصرف بأموال الحملة كيفما أراد . وقد وزع الفضل الأموال بين القوّاد الذين عيّنهم ، والشعراء الذين مدحوه بما يُتوقع منه أن يفعل[6] وبفضل الخليفة الذي لم يقف عند تكليفه وتوليته بل ظلّت كتبه «تتابع إليه بالبر واللطَف والجوائز والخلع»[7] . وكان ذلك كلّه أشبه بدعوة عامة للجميع : أن امدحوا الفضل وأغرقوا في ذلك . فغدا كل تحرّك يقوم به مجالاً لقول أو لمدح .

---

1 تاريخ الطبري ج8 ص 242 .

2 المصدر السابق ص 243 .

3 تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 408 .

4 تاريخ الطبري ج 8 ص 243 .

5 الطبري ج 8 ص 289 وابن الأثير ج 5 ص 114 .

6 يقول الطبري : «امتدحه الشعراء فأعطاهم فأكثر ، وتوسّل إليه الناس بالشعر ففرّق فيهم أموالاً كثيرة» ج 8 ص242 .

7 المصدر ذاته .

وباتت مناسبة التأهب للرحيل ، والوداع ، مناسبة أدبية كبرى ومنطلقاً للشعراء يقولون ما يقولون على مسمع من الخليفة ومرأى ومباركة منه . من ذلك ما قاله أبو قابوس الحيري مركّزاً على صفتين متقابلتين عند الفضل : إحداهما تمثل العطاء الغزير الذي عرف الشعراء معناه في ما نالهم من رفده ، والثانية تمثل البأس والحزم . وكأنه بذلك ، يغمز من قناة يحيى بن عبدالله مهدّداً بالويل والثبور . وكأنه بذلك أيضاً ، يستهدف توجيه رسالة إلى الثائر تضعه بين خيارين : إما أن يستمر في غيّه فيصطدم بالفضل في يوم بؤسه ، وإما أن يرعوي فيستقبل الفضل في يوم سعده ، ويحظى بالصفح والعفو والرفد :

رأى اللهُ تفضيلَ ابنِ يحيى بن خالدٍ ففضّلَــهُ ، واللهُ بالنــاسِ أعلمُ
لهُ يــومُ بُــؤسٍ فيه للناسِ أبْؤسٌ ويــومُ نَعيــمٍ فيــه للناسِ أنعُمُ
فيُمطِرُ ، يومَ الجُودِ ، من كفِّهِ النّدى ويُمطرُ ، يومَ البؤسِ ، من كفِّهِ الدمُ[1]

ويبدو أن عدداً من الشعراء رافقوا الحملة[2] ، كما كانوا يفعلون مع حملات الرشيد ؛ وكأني بهم يقومون بدور مراسلي الصحف ومصوّريها يتابعون الحدث ، وينقلونه بقلمهم وصورهم الشعريّة . وما كان الفضل ليأخذ الشعراء في ركابه ، وما كان هؤلاء ليتبعوه ويقفوا شعرهم على تحرّكاتـه ، لو لم يوافق الرشيد ويرض . إلا أن مناسبة الرحيل ، أيًّا كان شأنها ، لا يمكنها أن تضاهي مناسبة العودة ، وخصوصاً عودة مظفّرة وضعت حدًّا للاقتتال وحملت إلى بغداد ، يحيى الثائر راغماً ، راضياً ، مؤملاً بالعفو والغفران ، كما وعده البرامكة . ولقد كان لانتصار الرشيد على يحيى ، بجهود الفضل طبعاً ، نكهة خاصة : فهو انتصار ومصالحة في آن واحد . ويبدو أن ما أسلفناه ، من ادعاء الرشيد حبّه العلويّين خارج إطار السياسة ، كان صادقاً ، وأن تصريحاته ، بهذا الخصوص ، كانت عفوية وليست من باب الدعاوة ، وأنه كان ، بالفعل ، يتمنّى ، من صميم قلبه ، ألاّ تقوم بينه وبينهم

---

1 الوزراء والكتّاب ص 190 ويذكر الوطواط الأبيات على أنها للحسين بن مطير مع تعديل في صدر البيت الأول وإضافة البيتين التاليين :

ولــو أنّ يومَ الجودِ خلّى يمينَهُ ، على الناسِ ، لم يُصبحْ على الأرضِ مُعدَمُ
ولــو أنّ يومَ البؤسِ خلّى شِمالَهُ على الناسِ ، لم يُصبحْ على الأرضِ مُجرِمُ

(الغرر والعرر ص 250) .

2 يدل على ذلك ما ذكره الطبري عن موضع يقال له : أشبّ ، نزله الفضل ورجاله ، وكان شديد البرد كثير الثلوج . وفي ذلك يقول أبان بن عبد الحميد اللاحقي :

لَدورُ أمسِ بـالدولا بِ حيثُ السّيْبُ يَنعرِجُ
أحبُّ إليَّ مِنْ دُورِ أشَبَّ إذا هُمُ ثَلَجوا

(الطبري ج 8 ص 243) . (السّيب : مجرى الماء) .

خصومة ، تماماً كما يتمنّى ، من صميم قلبه ، أن يستنكفوا عن إدعاء الحق السليب ، وأن يكتفوا بما يقدّمه لهم من إنعام . ولعلّ آماله هذه راحت تتجسّد تدريجاً مع عودة الفضل مصحوباً بيحيى . لذلك كانت فرحة الرشيد بابن عمه لا توصف ، فلقيه «بكل ما أحب ، وأمر له بمال كثير ، وأجرى عليه أرزاقاً سنية وأنزله منزلاً سَريّاً بعد أن أقام في منزل يحيى (بن خالد) أيّاماً . وكان يتولّى أمره بنفسه ، ولا يكل ذلك إلى غيره . وأمر الناس باتيانه ، بعد انتقاله من منزل يحيى ، والتسليم عليه»[1] . ولم ينس الرشيد ، في غمرة الفرحة ، الفضل صاحب الفضل في كل ذلك . فبلغ الغاية في إكرامه ، وأطلق للشعراء الحريّة في مدحه . فأقيمت لذلك جلسات عامرة ، وقيلت قصائد طويلة ، فكانت مناسبة أدبيّة نادرة . وتركّزت موضوعات القصائد في النقاط الثلاث التالية :

النقطة الأولى : والمهمة جدًّا ، هي تَمكُّن الفضل من رأب الصدع بين جنبي هاشم . فيقول مروان بن أبي حفصة : إن الفضل نجح حيث عجز كل راتق ماهر ، وحيث فشل جميع من حاولوا ، وأعلنوا أن هذا الفتق مزمن ، مستعصٍ ، لا علاج له . وإذا كانت قيمة العمل تزداد بنسبة صعوبته ، فإن عمل الفضل هذا أكسبه مجداً باقياً مدى السنين :

ظَفِرْتَ ، فلا شُلّتْ يَـدٌ بَرمكيّةٌ   رَتَقْتَ بها الفَتْقَ الذي بينَ هاشِمِ
على حينَ أعيا الراتقينَ التئامُه   فكَفّـوا وقالـوا : ليس بالمُتلائِمِ
فأصبحتَ قـد فازتْ يداك بخُطّةٍ   من المَجدِ باقٍ ذِكرُها في المواسِمِ[2]

وفي معنى قريب ، ينطلق أبو ثمامة الخطيب ممجّداً الفضل الذي أعاد الألفة إلى بني هاشم بما أظهره من دراية ومهارة في وساطته ، ومنع ، بذلك ، أن يجرّد الأخ سيفه في وجه أخيه . هكذا تكون الوساطة الحقة لا كالتي تزيد الطين بَلاًّ ، وتؤوب مخفقة عاجزة[3] .

والنقطة الثانية ، التي تركّز فيها موضوع قصائد المناسبة ، هي عفو الرشيد عن يحيى : العفو الذي نبع من سرور الخليفة بحقن دماء بني هاشم ، والذي غدا منّة كبرى في عنق الطالبيين ، فراح شعراء البلاط يستثمرونه إبان بحثهم عن معان مدحية ، وفي طليعتهم كان منصور النمري ، فقد قال في رائيته المشهورة ، مادحاً الرشيد :

---

1 المصدر نفسه وانظر تاريخ أبي الفداء ج 2 ص 13 .

2 تاريخ الطبري ج 8 ص 243 .

3 يقول أبو ثمامة :

سَدَّ الثغـورَ وَرَدَّ أُلفَـةَ هاشِمٍ   بَعـدَ الشَتـاتِ ، فشَعبُهـا مُتدانِ
عَصَمتْ حكومتُـهُ جماعةَ هاشِمٍ   مِـنْ أن يُجـرَّدَ بينهـا سَيفانِ
تلكَ الحكومـةُ ، لا التي عن لَبْسِها   عَظُم النَبـا ، وتَفـرّقَ الحَكَمانِ

(المصدر السابق ص 244) .

منننتَ على ابــنِ عبداللهِ يَحيـى وكانَ ، مـن الحُتـوفِ ، على شَفيرِ
ولو جاريتَ مـا اكتنفتْ يـداهُ دَلَفْـتَ لـه بقاصِمَـةِ الظُهورِ
يـدٌ لكَ في رقـابِ بنـي عليٍّ وَمَـنٌّ ليسَ بالمَـنِّ الصغيرِ[1]

والنقطة الثالثة ، وهي أمر متوقّع ، كانت مدحاً للبرامكة ، واسترسالاً في تعداد صفاتهم ، وأخصّها : العطاء والكرم ، والتوفيق الدائم في فعل الخير للآخرين ، كقول مروان :

وما زال قِدحُ المُلكِ يَخرُجُ فائزاً لكُمْ ، كلّما ضُمّتْ قِداحُ المُساهِمِ

ونَعِم يحيى بن عبدالله بالراحة فترة قصيرة ، إنما لم تلبث السعايات أن وتّرت علاقة الرشيد به ، فوُضع تحت أنظار الخليفة في الإقامة الجبرية ، ثم في السجن حيث دُسّ له السم[2] . وفي أثناء ذلك دارت بينه وبين الرشيد أحاديث يأتي ذكرها في معركة الشعارات .

المستوى الثاني : معركة الشعارات العبّاسية العلوية

لقد كان شعار العلويّين ، قبل الثورة العبّاسية ، أن عليّاً وأولاده من فاطمة ابنة الرسول هم أصحاب الحق الشرعي في وراثته ، وبالتالي هم خلفاؤه الطبيعيون ، وأنه غُدر بهم حين حُولت الخلافة إلى غير عليّ ، ثم لعبت تيم وعدي دورهما في إيصال الخلافة إلى بني أميّة . يشير إلى ذلك منصور النمري :

لولا عديٌّ وتَيمٌ لم تكن وصلتْ إلى أميّـة تَمريهـا وتَرتضعُ[3]

أما حجتهم الكبرى فهي صلة القرابة التي تربط علياً بالرسول ، والتي تربط أولاد علي بالنبي ، وهي صلة نسب فريدة . وفي نظرهم أن الأمويّين كانوا مغتصبين لأن قرابتهم إلى النبي بعيدة لا تسمح لهم بوراثته . وحين دخل العبّاسيّون معركة استعادة الحق المسلوب ، ثمّ استأثروا بالسلطة دون العلويّين ، ادعى هؤلاء أنه غُدر بهم للمرّة الثانية ، ووُجّهت إليهم ضربة قاصمة ، وعلى يد أبناء عمّهم هذه المرة . وشكّل ذلك مفترقاً بدأت عنده الشعارات تأخذ منحىً جديداً : لقد باتت تتوجه ضد جماعة تَمُتُّ ، هي الأخرى ، بصلة القرابة إلى النبي ، ويحقّ لها أن ترثه . لهذا أصبحت المعركة أشدّ التحاماً وأكثر تداخلاً وأصعب منفذاً . وكان بدء فتحها أيام المنصور حين خرج عليه محمد بن عبدالله بن حسن ودارت بينهما مراسلات تُبودلت فيها الحجج والحجج المناقضة . وقد استنفدت هذه المراسلات مجمل أدلة الفريقين لدرجة أنّ أكثر من تناولوا الموضوع من الشعراء ، فيما بعد ، كانوا ينهلون من معين ما قاله المنصورأو محمّد . ونحاول فيما يلي عرض أهم الحجج التي استوحى معانيها شعراء الرشيد :

1 طبقات ابن المعتز ص 245 .
2 المصدر السابق ص 247 .
3 طبقات ابن المعتز ص 245 .

1 ـ **القرابة من الرسول ﷺ** : فالعلويّون ، كما قلنا ، يفخرون بأنهم السلالة الوحيدة من نسله ، ويمتّون إليه بغير صلة : «فهم بنو أم أبي رسول الله ﷺ ، فاطمة بنت عمرو في الجاهلية ، وبنو فاطمة ابنته في الإسلام . . . سيّدة أهل الجنّة» . وهي ابنته من خديجة ، أولى «من صلّى إلى القبلة منهن»[1] . ويبدو ظاهراً للعيان ما لاحظه أبو جعفر وردّ به على محمّد قائلاً : «فإذا جُلُّ فخرك بقرابة النساء لتُضلّ به الغوغاء . ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ، ولا كالعصبة الأولياء ، لأن الله تعالى جعل العم أباً وبدأ به في القرآن على الوالد الأدنى . . .»[2] ولقد استثمر مروان بن أبي حفصة هذا المعنى في المفاضلة بين حق النساء وحق الرجال ، لدى مدحه للمهدي في قصيدته الميمية التي طالما سمعها الرشيد وطرب لمعانيها[3] وفاخر بها :

ما لِلنساءِ مع الرجالِ فريضةٌ نَزَلَتْ بذلكَ سُورةُ الأَنعامِ[4]

وبمقابل فخر العلويّين بالانتماء إلى علي بن أبي طالب ابنِ عم النبي ، وزوجِ ابنته وأبي أحفاده ، وأولِ من أسلم من الشبّان ، تبنّى عدّة من الشعراء قوّة قرابة العم التي تحدّث عنها المنصور : فهو مكان الأب ، بل ومع الأب في سلطته على أبنائه . وهو ، بذلك أقرب من ابن العم . لهذا يدعو منصور النمري ، في قصيدته العينية التي مدح بها الرشيد ، إلى تحكيم العقول لتجنّب الوقوع تحت تأثير التضليل وجاذبية البدع التي تُبعد عن رؤية الحق وسماعِ النصيحة :

يا أيّها الناسُ ، لا تغرُبْ عقولُكُمُ ولا تُضِفكمْ ، إلى أكنافِها ، البِدَعُ
العَمُّ أولى مِن ابنِ العمِّ ، فاستمعوا قولَ النصيحِ ، فإنَّ الحقَ يُستمعُ[5]

وبما أننا نتحدّث عن القرابة إلى الرسول ، نشير إلى ميل الناس ، في الحياة القبلية ، إلى اختصار سلسلة الآباء والانتساب إلى الجد الأكبر مباشرة . من هنا دارت بين بني علي وبني العبّاس منافسة على هذا الانتساب : فأبناء علي ، أو أبناء بنت الرسول ، يدعون النبي أباهم . وقد حازوا عطف العامة بهذه التسمية إلى أن جاء العبّاسيّون ينقضونها على لسان المنصور بحجّتين :

---

1 من رسالة محمد النفس الزكية إلى المنصور ، العقد الفريد ج 5 ص 80 .

2 المصدر السابق ص 81 .

3 راجع أمالي المرتضى ج 4 ص 186 .

4 العقد الفريد ج 1 ص 311 . لعلّه يقصد ما جاء في سورة الأنعام عن الصور التي يمكن للوحي أن يصل بها إلى النبي ومنها أن يأتي عن طريق ملك يأخذ صورة رجل . فقد جاء في الآيتين الثامنة والتاسعة : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ولو أنزلنا ملكاً لقُضي الأمر ، ثمّ لا ينظرون . ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ولَلَبسنا عليهم ما يلبَسون﴾ . وفي رأينا أن المقصود بالرجل هنا الإنسان المطلق لا جنس الرجال ذاك أن الملائكة لا تقع تحت حواس الناس ، فإذا أراد الله إظهارها لهم ، ألبسها أشكالهم البشرية .

5 طبقات ابن المعتز ص 245 .

الأولى : أن الجد عن طريق الأم لا يعتبرالأب الأكبر في نظام الولاء الأبوي ، وهو النظام الذي قام عليه التشكيل القبلي العربي[1] .

والثانية : أن النبي تجرّد عن مثل هذه الأبوة ليكون في نبوتّه ، رمزاً لجميع المسلمين . وقد جاء في القرآن الكريم نصّ ينفي أبوّة النبي لأي من الناس إذ قال عزّ وجل : ﴿ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالِكم ، ولكنْ رسولَ الله﴾[2] . وبمقابل نفي أبوة النبي عن سلالة بني علي ، أجرى العبّاسيّون عمليّة استبدال في الشعارات . فإذا لم يكن النبي أبا أحد ، فهو ابن أحد من الناس لا محالة . والعبّاسُ ، بوصفه عمّاً للنبي وراعياً له بعد وفاة أبيه وجدّه وعمّه أبي طالب ، غدا بحكم الأب له[3] ، فيصبح النبي عديلاً لولد العبّاس في البنوّة . وقبل أن نرى انعكاس وجهة النظر هذه على الشعر في بلاط الرشيد ، نتوقّف أمام هذه الحادثة المعبّرة يرويها ابن خلكان ، فيقول : «إن هارون الرشيد حجّ فأتى قبر النبي ﷺ زائراً ، وحوله قريش وأبناء القبائل ، ومعه موسى (الكاظم) بن جعفر . فقال : السلام عليك ، يا رسول الله يا ابن عمي ، افتخاراً على من حوله . فقال موسى : السلام عليك يا أبت . فتغيّر وجه هارون وقال : هذا هو الفخر ، يا أبا الحسن ، حقًّا»[4] . ولم يكن الرشيد ليحتملها طويلاً ، إذ لم يلبث أن سُعي إليه بموسى ، وصدّق السعاية فقبض عليه وحبسه ، ثم دبّر مقتله[5] . وقد كان على شعراء الرشيد أن ينفوا ادعاء موسى البنوة فاستعاروا حجّة المنصور إذ قال النمري :

ألا ، للهِ دَرُّ بنـــي عـــليٍّ ... وزُورٍ مــن مقالَتِهِـمْ كَبيـرِ
يُسَمُّـونَ النبـــيَّ أبـــاً ويأبَـى ... مِنَ «الأحزابِ» سَطرٌ في سُطُورِ[6]

وقام أبو العتاهية فأبدل الفخر بالبنوّة ، فخراً بالأبوة فمدح الرشيد بأبوّة العبّاس للنبي ، قائلاً :

وحقيـــقٌ أن يُـدانَ لــــه ... مَــنْ أبــوُه ، للنبـــيِّ ، أبُ[7]

---

1 في مفاخرة وفد كندة للرسول ، يورد ابن الأثير قوله ﷺ : «نحن بنو النضر بن كنانة ، لانقفو أمّنا ، ولا ننتفي من أبينا» . الكامل في التاريخ ج 2 ص 204 .

2 سورة الأحزاب الآية (40) .

3 جاء في كتاب أبي جعفر المنصور : «فاجتمع للعبّاس أنه أبو رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء . . .» المبرد ـ الكامل ج 4 ص 120 .

وفي ذلك يقول أشجع السلمي مادحاً الرشيد :

أَدْنَتْكَ من ظلِّ النبيِّ وَصيّةٌ ... وقَرابةٌ وُشِجَتْ بهـا الأرحامُ

(الأغاني ج 18 ص 162 .

4 وفيات الأعيان ج 3 ص 14 .

5 الملل والنحل ج 2 ص 4 .

6 طبقات ابن المعتز ص 245 وزهر الآداب ج 3 ص 668 .

7 الأغاني ج 4 ص 108 .

وحين مدح المؤمِل بن أُمَيل المهدي ، بمناسبة البيعة لولديه ، أشار إلى أنه عديل النبي في بنوته من العبّاس :

وعِدْلُكَ ، يا ابنَ خيرِ الناسِ فينا ، نبـيٌّ اللهِ ، خيـرُ المـرسَلينا[1]

2 ـ وراثة الرسول : إن القرابة التي تنازعها الفريقان ليست هي الهدف ، بحدّ ذاتها . ولو كانت كذلك لمالت الكفّة إلى أبناء عليّ إذ هم على صعيد التوالد والعلاقة العاطفية ، أقرب إلى الرسول من أبناء العبّاس ؛ وما استطاع الرشيد إنكار ذلك على موسى الكاظم . ولكن المهم في الحديث عن القرابة هو ما يترتب عليها ، شرعاً وقانوناً ، من نتائج في الإرث . ونذكّر هنا بأن المبادىء القبلية في انتقال السيادة ، شأنها شأن سائر مظاهر العصبية القبلية ، ظلّت مسيطرة على نفوس العرب ، حتى بعد إسلامهم ، وقاومت مبادىء التسامح والمساواة التي جاء بها الإسلام ودعا العالم إليها[2] . فحين اندلع النزاع الأموي العلوي كان مبدأ الأحقيّة بالإرث ، كما رأينا ، هو محور كل ما قاله العلويّون واعتمده أئّمتهم للدعوة إلى أنفسهم واكتساب عطف العامة والخاصة . وقد أخذ حق العلويّين هذا صفة الثبوت على مرّ العصور حتى غدا أمراً لا جدال فيه . واعتمد العبّاسيّون هذا الحق المقرّر حين انخرطوا في الدعوة ، لأن نفوس الناس والمريدين ممّهدة لقبوله والدفاع عنه . ولدى استئثارهم بالسلطة ، وحاجتهم إلى دعم موقفهم من الوراثة راحوا يضعفون من قيمة حق العلويّين معتمدين أصول الشريعة ونصوص الكتاب ، انطلاقاً من طبيعة القربى التي تحدّثنا عنها . وقد لخّص المنصور وجهة نظره في نقطتين : أولاهما أن وجود العم يحوّل الإرث إليه عن أولاد البنت ، والبنت أصلاً «امرأة لا تحرز ميراثاً ولا ترث الولاء ولا يحل لها أن تؤم ، فكيف تورَث بها إمامة ؟»[3] .

والنقطة الثانية تعتمد على الأولى . فبعد إثبات حق الإرث للأعمام يبرهن المنصور أن العبّاس ، من دون الأعمام جميعاً ، هو الوحيد الذي يحق له أن يرث الرسول ؛ ويوضح أبو جعفر ، لمحمد النفس الزكية ، وجهة نظره بقوله : «وقد بعث الله محمّداً ﷺ وله عمومة أربعة . فأنزل الله عليه : ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ فدعاهم فأنذرهم ، فأجابه اثنان : أحدهما أبي ، وأبى عليه اثنان : أحدهما أبوك . فقطع الله ولايتهما معه ، ولم يجعل بينهما إلاًّ ولا ذمّةً ولا ميراثاً»[4] . ومن الاثنين اللذين آمنا ، كان العبّاس وحده الحي ، حين توفي الرسول[5] . من هذا المبدأ انطلقت الدعاوة

---

1 الأغاني ج 22 ص 258 .

2 راجع فصل العصبية ص 252 .

3 العقد الفريد ج 5 ص 83 .

4 العقد الفريد ج 5 ص 82 .

5 جاء في رسالة المنصور : «وتوفي رسول الله ﷺ وليس من عمومته أحد حيًّا إلا العباس ، فكان وارثه دون بني عبدالمطلب» . (الكامل للمبرّد ج4 ص 120) أما العم الثاني الذي استجاب للإسلام فكان حمزة وقُتل في وقعة أحد (انظر تاريخ اليعقوبي ج2 ص 47) .

العبّاسيّة وتجنّد لها الشعراء . ولعلّ أوّلهم كان المؤمّل بن أميل الذي أنشد المهدي شعراً يبلور فيه فكرة الإرث :

فإنّ أبا أبيكَ ، وأنتَ منهُ ، هــو العبّاسُ ، وارثُــهُ يَقينــا
أَبَانَ به الكتابُ ، وهذا حقٌّ ؛ ولسنا للكتــابِ مكذِّبينــا[1]

أما أشهر شعراء هذا النهج فهو مروان بن أبي حفصة الذي كاد أن يكون المبدع لأسلوبه ، حتى التصق اسمه به فصار يعرف بـ «مذهب مروان»[2] ، إذ جعل ديدنه في كل مدحة للعبّاسيّين ، أن يذكر حقّهم في الإرث ، فيؤكّده وينفي حق العلويّين بأسلوب واضح بليغ وبأبيات رنّانة تعلق بالذهن وتطير على الألسن . وقد أكسبه هذا المذهب ، كما رأينا[3] ، تقديرهم وتشجيعهم وتخصيصهم له بنمط من المكافأة اقترن هو الآخر باسمه فكان «رسم مروان»[4] . ثمّ راح الشعراء الآخرون يتبعون مذهبه[5] ويبارونه في إبداع القصائد والأبيات السريعة إلى الذهن ، الخفيفة على الألسن . أما بدء ذلك فكان مع المهدي إذ أنشده مروان قصيدته المشهورة : «طرقتك زائرة فحيّ خيالها . . .» ومنها ، مخاطباً بني علي :

شَهِدَتْ من الأنفالِ آخِرُ آيةٍ[6] بتُراثِهِــمْ ، فأَرَدْتُــمُ إبطالَهــا
هل تَطمِسون من السماءِ نجومَها بأكُفِّكُمْ أو تَستُرونَ هِلالَهــا
أم تَجحدون مقالــةً عــن ربِّكُمْ جبريــلُ بلَّغهــا النبيَّ فَقَالهــا ؟[7]

---

1 الأغاني ج 22 ص 258 .

2 الأغاني ج 13 ص 141 .

3 راجع ص 89 من البحث .

4 الأغاني ج 10 ص 91 وتاريخ بغداد ج 13 ص 144 .

5 يذكر الأصفهاني أن منصوراً النمري «عرف مذهب الرشيد في الشعر وإرادته أن يصل مدحه إياه بنفي الإمامة عن ولد علي بن أبي طالب ، عليهم السلام ، والطعن عليهم ، وعلم مغزاه في ذلك مما كان يبلغه من تقديم مروان بن أبي حفصة وتفضيله إياه على الشعراء في الجوائز . فسلك مذهب مروان في ذلك ونحا نحوه . . .» (الأغاني ج 13 ص141) ويذكر الأصفهاني كذلك أن أبانا اللاحقي سأل البرامكة إدخاله إلى الرشيد وقال : أريد أن أحظى بمثل ما يحظى به مروان بن أبي حفصة . فقالوا له : إن لمروان مذهباً في هجاء آل أبي طالب وذمهم ، به يحظى وعليه يعطى ، فاسلكه حتى نفعل» . (الأغاني ج 32 ص 28) . ولئن كان مروان شديد العداوة لآل أبي طالب فذهب ذلك المذهب (الأغاني ج 13 ص 141) فإن النمري ، على عكسه ، كان يتشيّع (الأغاني ج 32 ص 28 وأمالي المرتضى ج 4 ص 186) ولم يكن أبان يكره آل علي . ولكن السياسة هي السياسة .

6 يشير إلى قوله تعالى : ﴿والذين آمنوا من بعدُ ، وهاجروا وجاهدوا معكم ، فأولئك منكم ؛ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعضٍ في كتاب الله . إن الله بكلِّ شيءٍ عليم﴾ .

7 العقد الفريد ج 1 ص 311 .

وعندما أنشده قصيدته الميمية ، لم يكتف بمكافأته عليها ، بل فرض له عطاء على كل من أولاده . وقد سارت أبياتها بين العام والخاص ، ولا سيّما هذان البيتان :

الوحيُ ، بين بني البنات وبينكمْ ، قُطِعَ الخِصامُ ، فلاتَ حينَ خصامِ
أنّى يكـونُ ، وليس ذاكَ بكائنٍ ، لبنـي البنـاتِ ، وراثةُ الأعمامِ ؟[1]

ويروي الأصفهاني عن الفضل بن الربيع أنه رأى المهدي ، عندما سمع هذه الأبيات ، «قد زحف من مصلّاه حتى صار على البساط ، إعجاباً بما سمع»[2] . ومع أن هذه القصائد أنشدت للمهدي ، فإنها باتت وكأنها النشيد الملكي بالنسبة إلى العبّاسيّين ، تتردّد في كل مناسبة فلا يملّون الاستماع إليها . وحين دخل النمري على الرشيد للمرة الأولى يمدحه بقصيدته الرائيّة ، غمز الخليفة مروان لينشده متحدّياً فأنشد هذه القصيدة[3] . وبقي مروان ملتزماً هذا المذهب مع الرشيد : يؤكّد له حق الإرث وينفيه عن العلويّين متحدّياً إيّاهم ومزرياً بهم :

أمورٌ ، بميراثِ النبـيّ وَلِيتَهـا فأنتَ لها ، بالحَزْمِ ، طاوٍ وناشرُ
أبوكَ وليُّ المُصطفى ، دونَ هاشمٍ ، وإنْ رَغِمَتْ من حاسدِيكَ المَناخِرُ[4]

ولم يلبث النمري أن نال عند الرشيد حظوة لا تقل عن حظوة مروان ، لأنه جاراه ، إذا لم يكن قد بزّه ، في مذهبه . ويبدو أن مروان ومنصوراً وسواهما ، الذين استمدّوا ، من رغبات العبّاسيّين ، هذا المذهب في مدحهم ، قد ردّوا لهم الكرة تأثيراً في مثاليتهم المدحية وميزانهم النقدي ، فأصبحوا يقيسون ، على هذا النمط ، جودة الشعر وقيمة الجائزة التي يستحقّها ، وقدر الشاعر[5] . ومع حفظ قيمة مروان وشعره في بلاط الرشيد وهي قيمة الرواد الأوائل ، فإن منصوراً النمري لم يلبث ، على حبّه الضمني لآل علي ، أن غدا المستثمرَ الأكبر لمعاني المنصور ، والناشر الأول لمبدأ حق العبّاسيّين في

---

1 العقد الفريد ج 1 ص 311 .

2 الأغاني ج 10 ص 91 .

3 المصدر السابق ج13 ص 143 ويذكر البغدادي مجلس مناظرة أقطابه : مروان وسلم الخاسر ، ومنصور ، بحضور الرشيد ، دخل فيه مروان بقصيدته الميمية . (تاريخ بغداد ج 13 ص 144) .

4 تاريخ الطبري ج 8 ص 348 وخلاصة الذهب المسبوك ص 111 .

5 نورد الحكم التالي للدكتور زكي مبارك : «كما كان عبدالملك يؤثر شعر الأخطل كان الرشيد يؤثر شعر منصور النمري . ولكن ، لا تنس أن رجال السياسة لا يحبون الشعر للشعر ، ولا العلم للعلم ، وإنما يتّخذون الشعراء والعلماء مطايا لأغراضهم السياسية . فمن البله أن نظن أن جودة الشعر هي التي أدنت النمري من الرشيد أو أن اتصال النسب كان سبب تلك الحظوة ، كما توهّم بعض مؤرّخي العربية (يشير إلى الحصري في زهر الآداب ج 3 ص668) وإنما أدنى الرشيد هذا الشاعر لميله إلى إمامة العبّاس وأهله ، ومنافرته لآل علي بن أبي طالب . . .» . (الموازنة بين الشعراء ص 15) .

الإرث ، والمُزري بالعلويّين ، اللائمَ لهم على عدائهم للخليفة ، داعياً إيّاهم إلى إزالة غشاء الوهم والأماني الكاذبة عن عيونهم إذ يدّعون حقهم في وراثة الخلافة لأنهم بنو بنت الرسول . لا شكّ في أن قرابتهم منه واقع لا جدال فيه ، ولكنهم ينسون أنّ ، قبل إرثهم الذي يأتيهم عن طريق الإناث ، إرثاً أولى للذكور . من ذلك قوله في رائيته :

بني حسنٍ ، وقل لبني حسينٍ : عليكم بالسَّدادِ من الأمورِ
أميطوا عنكمُ كذبَ الأماني وأحلاماً يَعِدن عِداتِ زورِ
وإن قالوا : بنو بنتٍ ، فحقٌّ وردُّوا ما يناسِبُ للذكورِ
وما لبني بناتٍ من تراثٍ مع الأعمامِ في وَرَقِ الزَّبورِ . . .[1]

ويمضي النمري في هذا السبيل . ففي عينيته التي يفتتحها بأبيات الشيب المشهورة ، يعود بمشكلة الخلافة إلى بدئها ، ويرى أن من سُلب الحقّ منهم على يد الأمويّين هم العبّاسيون لا العلويّون . وإن كانت عدي وتيم قد أضلتاها الطريق ، فهما حرَفاها عن طريق العبّاس وأولاده لأن الإرث الطبيعي لهم ؛ ومن المغالطة الكبرى أن يفكر فيها آل علي وأن يطمعوا . يقول :

إن الخلافةَ كانت إرثَ والدِكم من دون تيمٍ ، وعفوُ الله متسعُ
وما لآل عليٍّ ، في إمارتكم ، حقٌّ ، وما لهمُ ، في إرثكم ، طَمَعُ[2]

وكسب النمري ، بانتهاجه هذا المذهب ، من الأموال ما لا يعلمه إلاّ الله . فالرشيد ، حين يلامس شعراؤه أوتار نفسه ، يحظون برفد منه لا حدود له . وهذا ما يزيد عدد حاسديهم والمحاولين انتهاج نهجهم وسلوك الطريق التي عبّدوها . ولا شكّ في أن هذا المذهب كان يصيب أصحابَ الدعوة العلويّة في الصميم ، في أعزّ ما يفخرون به من شعاراتهم ، وهو قرابتهم إلى الرسول التي أمّنت لهم عطف المسلمين ، خاصهم وعامهم . ولا شكّ أيضاً في أنهم تصدّوا لهذا المذهب يردّون عليه ويحاربونه بالقول وباليد ، إذا سمحت الظروف . يظهر ذلك من الخبرين التاليين ننقلهما عن الأصفهاني . الأول عن لسان محمد بن يحيى بن أبي مرّة التغلبي . «قال : مررت بجعفر بن عفان الطائي يوماً وهو على باب منزله . فسلّمت عليه . فقال لي : مرحباً يا أخا تغلب اجلس . فجلست . فقال لي : أما تعجب من ابن أبي حفصة ، لعنه ، الله حيث يقول : أنى يكون ، وليس ذاك بكائن . . . فقلت : بلى ، والله ، إني لأتعجّب منه وأُكثر اللعن له . فهل قلت في ذلك شيئاً ؟ فقال : نعم ، قلت :

لِمَ لا يكونُ ، وإنَّ ذاك لَكائنٌ ، لِبَنِي البناتِ وراثةُ الأعمامِ
للبنتِ نصفٌ كاملٌ من مالِهِ والعمُ متروكٌ بغيرِ سهامِ

---

1 طبقات ابن المعتز ص 245 والأغاني ج 13 ص 143 وأمالي المرتضى ج4 ص 185 .

2 طبقات ابن المعتز ص 245 .

ما لِلطليقِ ولِلتُراثِ ، وإنما صلّى الطليقُ ، مَخافَةَ الصَمْصامِ»[1]

والخبر الثاني عن لسان صالح بن عطية الأضجم «قال : لما قال مروان : أنى يكون . . . . لزمتُه وعاهدتُ الله أن أغتاله فأقتله أي وقت أمكنني ذلك . وما زلت ألاطفه وأبرّه وأكتب أشعاره حتى خُصصت به . فأنس بي جدًّا . وعرفت ذلك بنو حفصة جميعاً ، فأنسوا بي . ولم أزل أطلب له غرّة حتى مرض من حمى أصابته . فلم أزل أظهر له الجزع عليه وألازمه وألاطفه ، حتى خلا لي البيت يوماً فوثبت عليه فأخذت بحلقه ، فما فارقته حتى مات . . .»[2] .

3 ـ **حق الدعوة الموروث** : وهو الحجة الثالثة التي استوحى شعراء البلاط معانيها من كلام المنصور . فالعلويّون ، كما نعلم ، كانوا أول من ادعى حق آل البيت بالخلافة . وهم دعوا إلى أنفسهم بسبب انحدارهم من نسل الرسول . فتقبّلت الناس هذه الفكرة ، كما قلنا ، حتى إن العبّاسيّين استغلّوها ليركبوا سفينتهم إلى الحكم . والواقع أن حق الدعوة ليس بعيداً عن حق الإرث لأن الخلافة ، التي كانت شورى أيام الراشدين ، باتت ملكاً وراثياً بعدهم . أما لمن دعا العلويّون ؟ فالمعروف أنهم دعوا إلى عليّ في بادىء الأمر ، وإلى أولاده فيما بعد ، لأنه «الوصي والإمام» الذي كان «من أصحاب الرسول أقدمَهم إسلاماً وأوسعَهم عِلماً وأكثرَهم جهاداً»[3] . فأين كان العبّاسيّون في ذلك الوقت ، وما هو موقعهم من الدعوة ؟ . لقد كانوا مختفين عن ساحة السياسة . لم يحبّوا أن يُظهروا دعوة خاصة بهم ، بل تركوا المجال لأبناء عمّهم يستنفدون جهدهم . وقد فعلوا ذلك على مدى سنين ، فماذا كانت النتيجة ؟ يقول المنصور إنها كانت فشلاً ذريعاً متواصلاً منذ أيام علي ، إذ سجّل التاريخ للصحابة ، وأصحاب الشورى الذين كان عليٌّ منهم ، مواقفَ أبعدته عن الخلافة ، وكأنهم لم يرتضوه لها . أما هزيمته أمام دهاء معاوية فليست أبداً لصالحه . وجاء بعده ابنه الحسن ، فسلّم أمره إلى معاوية وباع حقّه «بخرق ودراهم ، وأسلم في يديه شيعته ، وخرج إلى المدينة ، فدفع الأمر إلى غير

---

1 الأغاني ج 10 ص 99 ويقصد بالطليق العبّاس عم الرسول الذي خرج مع المشركين يوم بدر ووقع في الأسر فافتدى نفسه حتى أُطلق ، وجاء إسلامه بعد ذلك . فيرى الشاعر أن إسلام العبّاس جاء خوفاً من القتل ولا فضل له فيه ؛ بينما يذكر اليعقوبي أن إسلام العبّاس لم يأت تحت أي ضغط ، بل جاء والعبّاس حرّ طليق ، وبعد معجزة أتاها النبي حين أخبره عن سرّ لا يدري به أحد سواه وزوجته . (تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 46) .

2 الأغاني ج 10 ص 100 وإذا صحّت هذه الرواية يكون الأضجم قد لازم مروان حوالي عشرين سنة لأن القصيدة قيلت في مدح المهدي ، أول اتصال مروان به . ومروان توفي عام 182هـ (النجوم الزاهرة ج 2 ص 106) . ومن المستغرب أن ينتظر هذه الفترة كلّها ليجد الغرة من مروان . ولعلّه لازمه بهدف الإفادة منه ورواية أشعاره ثمّ توفي مروان فكانت مناسبة للأضجم ليدعي قتله انتقاماً لآل علي ، تقرّباً من هؤلاء وردًّا لنقمتهم عليه من جرّاء ملازمته الطويلة لمروان وروايته أشعاره .

3 من رسالة محمد النفس الزكية إلى المنصور (الكامل للمبرّد ج 4 ص 118) .

أهله ، وأخذ مالاً من غير حلّه . . .»[1] يخاطب المنصور محمداً ، مستنتجاً : «فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه» .وخرج الحسين على يزيد بن معاوية «فكان الناس الذين معه عليه حتى قتلوه»[2] . وخرج غير واحد منهم على الأمويّين ، فماذا جنوا ؟ يجيب المنصور مخاطباً محمّداً وشيعته «قَتَلتْكم بنو أميّة وحرقوكم بالنار ، وصلبوكم على جذوع النخل حتى خرجنا عليهم ، فأدركنا بثأركم إذ لم تدركوه ، ورفعنا أقداركم وأورثناكم أرضهم وديارهم ، بعد أن كانوا يلعنون أباك في أدبار الصلاة المكتوبة كما تُلعن الكفرة ؛ فعنفّناهم وكفّرناهم وبيّنا فضله وأشَدنا بذكره»[3] . فلا يجوز بعد هذا كلّه أن يتّخذ العلويّون ذلك حجة على العبّاسيّين ويعتبروهم تنازلوا عن حقّهم وأولويّته ، ويظنّوا أنّهم ، إذا ذكروا فضل عليّ ، فإنهم يعنون تقديمه «على حمزة والعبّاس»[4] . إن حق الدعوة عند العبّاسيّين هو هو ، لم يتغيّر منذ العبّاس ، ولم يتنازلوا عنه أو يفرّطوا فيه ، ولم يصرفهم عنه أحد ، ولا يستطيع أيّ كان أن يدفعهم عنه ، طالما أن الطاعة لهم جزء من الإيمان . يقول ذلك اليزيدي مخاطباً الرشيد :

وَمَـــنْ لـــه إرثُ نبيٍّ الهُدَى بالحـقِّ لا يُدفَع عـن حَقِّـهِ
وَمَـــنْ لـــه الطاعةُ مفروضةٌ لائحـةٌ بالوحْيِ في رِقِّـــه[5]

كما انطلق الشعراء ، يُحزنون ويُسهلون ، مستلهمين هذه المعاني حول إثبات العبّاسيّين لاستحقاقهم الإمامة ، وحول الدور الذي لعبوه لنجدة أبناء عمّهم . يقول النمري للرشيد :

يا ابنَ الأئِمّةِ من بعدِ النبيِّ ويا ابنَ الأوصياءِ ، أقرَّ الناسَ أم دَفَعوا[6]

ويشير إلى أيادي الرشيد على الطالبيين مستغرباً عقوقهم نحو الذين أخذوا بثأرهم ورفعوا من قدرهم وأغدقوا عليهم من عطاياهم ما حوّل فقرهم غنى وعطشهم ارتواء :

أحين شَفَوكُمُ من كُلِّ وِترٍ وَضَمّوكُمْ إلى كَنِفٍ وثيـــرِ
وجادوكُمْ على ظَمَأ شديـــدٍ سُقيتمْ مـــن نوالِهِمُ الغزيـــرِ
فمـا كان العقوقُ لهم جزاءً بفِعلِهِـــمُ وآدى للثَـــؤورِ[7]

والرشيد ، كما قلنا سابقاً ، كان يتألم لهذا العقوق ويتمنّى أن يعيش بأمان وسلام معهم . إنه لا

---

1 المبرّد ـ الكامل ج 4 ص 118 .
2 المصدر السابق ص 119 .
3 المصدر نفسه .
4 الأغاني ج 20 ص 195 .
5 طبقات ابن المعتز ص 245 .
6 الأغاني ج 13 ص 144 .
7 المصدر نفسه .

ينكر النسبَ المتميّز لأبناء علي من صلبه «فهم سادة الأهل والسابقون إلى الفضل»[1] ويروي حديثاً عن والده بتسلسل الرواية عن النبي ، جاء فيه : «من أحبّهما (الحسن والحسين) فقد أحبّني ، ومن أبغضهما فقد أبغضني» . .[2] وفاطمة هي «سيّدة نساء العالمين غير مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم»[3] . ولكن يد المحبة التي يمدها الرشيد ، على طريقته ، تصطدم دائماً بحاجز الكره والحقد فيقول : «هؤلاء أشد الناس بُغضاً لنا وطعناً علينا ، وسعياً في فساد ملكنا ، بعد أخذنا بثأرهم ومساهمتنا إيّاهم ما حويناه ، حتى إنهم لأميل إلى بني أميّة منهم إلينا»[4] . وهو ، مع تألمه ، يصبر ويصبر ، حتى إذا ما طفح الكيل ، انفجر قائلاً : «حتى مَ أصبر على آل بني طالب ؟ والله لأقتلنّهم ولأقتلنّ شيعتهم ولأفعلنّ ولأفعلنّ . . . .»[5] .

4 ـ الحق المكتسب : بعد كل ما تقدّم لا بدّ من أن يتّجه الصراع وجهة رأي الأقوى ، وهو من بيده السلطة ، ووسائلُ الإعلام تتحدّث عنه بحريّة وانطلاق وتُثبت أن الخلافة به تليق ولا تليق بسواه ، بل هي تأبى أن توجّه إلى غيره :

فدونكَهــا ، فأنتَ لها مَحَلٌّ حبــاكَ بهــا إلَــهُ العالمينا
ولو قِيدَتْ لغيرِكِمُ اشمأزّتْ وأعيــتْ أن تُطيعَ القائدينا[6]

هذا ما قاله المؤمل بن أميل للمهدي . وشبيه به ما قاله النمري للرشيد[7] .

من هنا يتبلور حق جديد بالنسبة إلى الخلافة وهو الحق المكتسب الذي يؤكد الحق الموروث ويتممّه . فالعلويّون وأتتهم الفرص ففرّطوا فيها جميعها ، وهذا دليل على أنهم ليسوا أهلاً للإمامة لأن أحد وجوه الحق أن يستحقه صاحبه ويعرف كيف يثبّته ويحميه . أما العبّاسيّون ، فبمجرّد أن تعرّضوا للدعوة ، دانت لهم وأتتهم منقادة كما قال مروان :

أَتتــهُ الخلافــةُ مُنقــادةً إليــهِ تُجــرِّرُ أذيالهــا
فلــم تَــكُ تَصلحُ إلاّ لَهُ ولم يَــكُ يِصلحُ إلاّ لهــا[8]

وهذا ما قاله المنصور صراحة للنفس الزكية : «ورثنا دونكم خاتم الأنبياء وحزنا شرف

---

1 السيوطي ، تاريخ الخلفاء ص 293 .

2 المصدر نفسه .

3 المصدر نفسه .

4 تاريخ الخلفاء ص 293 .

5 الأغاني ج5 ص 204 .

6 المصدر نفسه ج 22 ص 258 .

7 تاريخ الطبري ج8 ص 348 .

8 مروج الذهب . دار الأندلس ـ ج 3 ص 316 .

الآباء وأدركنا من ثأركم ما عجزتم عنه ، ووضعناكم بحيث لم تضعوا أنفسكم . . .»[1]
والنتيجة هي نصيحة للعلويّين أن يأخذوا الأمور كما هي في الواقع : العبّاسيّون هم الذين يمارسون حالياً حقّهم المشروع ، بيدهم الأمر والنهي ، فجدير بأبناء عمّهم ألا يعاندوهم ، بل أن يدعموهم ولا يخرجوا عليهم . وجدير بالتجربة أن تكون علّمتهم ترك الأمور لأصحابها وإلقاء المسؤوليات على كاهل من يستطيع حملها . يتقدّم مروان بالنصيحة :

خَلُّـوا الطريــقَ لمَعَشرٍ عاداتُهــمْ حَطْمُ المناكِــبِ ، كلَّ يَومِ زِحامِ
إرضَوا بمـا قَسَمَ الإلـهُ لكمْ بِهِ ودَعُـوا وِراثةَ كلِّ أصْيَدَ حامِ[2]

خاتمة

وما كان العلويّون ليسمعوا نصيحة شعراء الرشيد ، وهم مشبعون بأولوية حقّهم ؛ وما كان القتل والتعذيب في الماضي والحاضر ليرهباهم ويكبحا جماح حماسهم لعقيدتهم ، وما كانت السعايات لتتركهم ، لو أرادوا ذلك . فهي تُظهرهم ، أبداً ، أعداء متربّصين . وينوء الحكم عليهم بكلكله ، يسحق منهم من ... ، لا يختلف في ذلك العبّاسيّون عن الأمويّين ، ولا الرشيد عمّن سبقه : ... عقدت عليه ، وكلامِه المعسول في المحبّة ، لم تغيّر من صلابة موقفه . ... الصرخة المتألمة تصحبها خيبة أمل كبيرة مع حبس موسى الكاظم ثمّ قتله ، ومع حـ... بن عبدالله ثمّ قتله ، ومع الاشتداد في تعقّب آل البيت ، فيقول علي بن عبيدالله الطي...

كلّمـــا قُلْنـــا : أتتن دولـةٌ أذْهبتْ عُسراً وجاءتْ بيُسُرْ
عطفَ الخوفُ علَينا والرَدَى وصفاءُ الدهـرِ رَهـنٌ بِكَدَرْ
صارَ ، واللهِ ، علينـا مـا لَنَا إنّ هـــذا لَبَـلاءٌ مُستمِـــرّ
نَــزَعَ الشيطـانُ فيمـا بيننا فأتانا ، من جهة ... خير ، شَرّ[3]

ولئن خسر العلويّون حروبهم مع الأمويّين والعبّاسيّين ، ولئن ارتفع صوت العبّاسيّين ، في معركة الشعارات ، فوق صوتهم ، لأنهم الحكّام وأصحاب النفوذ ، فلم تكن محبّة الطالبيين لتقل ، تبعاً لذلك ، في نفوس الناس ، لأن المحبة لا تعرف طريق القانون ولا التشريع ولا المنطق . يكفي أنهم أبناء بنت الرسول ، يزيد على ذلك استشهاد الحسن والحسين ومصرع الأئمّة بعد الأئمّة منهم وتألّب القوى العنيفة عليهم ، البعيد منها والقريب ، بل إن

---

1 الكامل للمبرّد ج4 ص 120 .
2 الأغاني ج 13 ص 143 .
3 معجم الشعراء ص 284 .

القريبة أشد ظلماً ، وظلمها أشدّ أسى[1] . بهذه المحبة استمرّ الطالبيّون يلقون التأييد ويجدون الجموع التي تدعو إليهم وتستطيب الموت لأجلهم[2] ، فلم تتوقّف معركتهم في يوم من الأيام . وعلى عكس ذلك كان العبّاسيون : فهم لم ينلهم ، من اندفاع الشعراء وحمية الخطباء ، ما نال العلويّين وغيرهم من أصحاب القضايا الكبرى ، ذلك لأنهم لم يكونوا أصحاب قضيّة . لقد كان لهم حقّاً شعارات ، وكانت لهم وجهة نظر في وراثة الحكم والخلافة ، لكنهم لم يجدوا أنفسهم مضطهدين بسبب وجهة النظر هذه ، كما كانت الحال مع أبناء عمّهم ، ولم يجدوا وجهة نظرهم ترتفع إلى مستوى الحق السليب الذي يستقطب النفوس الكبيرة ويجمع حوله كل مضطهد صاحب قضيّة حق لا يرى إلى تحقيقها سبيلاً آخر . صحيح أن العبّاسيّين شاركوا العلويّين الدعوة ، واستتروا مثلهم بانتظار نضجها ، لكنها كانت دعوة علويّة لا عبّاسية ، لها فلسفتها وشعاراتها التي آمنت بها أجيال ، واستُشهد في سبيلها ألوف حتى باتت قضيّة المعذّبين في الأرض ، وكلِ ذي مجد قديم داس الطغيانُ العربي مجده ، وكلِ ذي دين حارب الإسلام دينه ، وكلّ حرّ فقد حرّيته إثر حملة أو غزوة ، وقضية كلِّ مسلم ورعٍ تقي ، أحبّ الإسلام ، فقدّس النبي وآله ، ووجد في أولاد علي عقبه الحقيقي الذي يحمل دمه المقدّس الطاهر . لهذا كلّه كان للعلويّين قضية ولم يكن للعبّاسيّين ؛ فهم ، منذ أسفروا عن وجههم على مسرح السياسة ، كانوا حكّاماً أقوياء متسلّطين ، ووجهةُ نظرهم تبلورت أثناء دفاعهم عن أنفسهم بوصفهم مغتصبي حق العلويّين . ولهذا أيضاً لم يكن يخلص لهم ، من صميم القلب ، إلاّ أفراد عائلتهم . ولم يكن لهم من لسان الشعر والأدب إلاّ الشكر على

---

1 في ذلك يقول دعبل بن علي الخزاعي ، هاجياً الرشيد حين سمع نبأ موته :

وليسَ حَيٌّ من الأحياءِ نَعلمُهُ	مِن ذي يَمانٍ ومِنْ بَكرٍ ومِنْ مُضَرِ
إلا وهُمْ شُرَكاءٌ في دمائِهِمُ	كما تشارَكَ أيسارٌ على جُزُرِ
قَتْلٌ وأَسْرٌ وتَحريقٌ ومنهَبَةٌ	فِعلَ الغُزاةِ بأرضِ الرومِ والخَزَرِ
أرى أميّةَ معذورين ، إن قَتَلوا ،	ولا أرى لِبَني العبَّاسِ من عُذُرِ

(الأغاني ج 20 ص 138) .

2 من ذلك ما جاء في قصيدة النمري التي أحلّت عليه غضب الرشيد ، والتي يمدح بها آل علي منددّاً بسافكي دمائهم ، وبالمتخلّفين عن نصرتهم ، الراتعين كالشياه لا يحرّكهم ظلم يصيب أبناء بنت الرسول ، ولا يفكّرون بأي وجه يلقون النبي يوم القيامة . ومنها :

تُقتَلُ ذُرِّيَّةُ النبيِّ ويَرْ	جونَ خلودَ الجنّاتِ للقاتلِ
بأيِّ وجهٍ تَلقى النبيَّ وقدْ	دخلتَ في قتْلِهِ مع الداخلِ ؟
وما الشكُّ عندي في حالِ قاتلِهِ	لكنني قد أشُكُّ في الخاذِلِ

طبقات ابن المعتز ص 244 وتاريخ بغداد ج 13 ص 68 .

نعمة أو رجاء الحصول على هبة أو طلب العفو من نقمة . إن ما قيل في العبّاسيّين من شعر لم يكن تعبيراً عن مشاعر المؤمن بقدر ما كان تعبيراً عن أمنيات راغب أو راهب . فلم يكن شعراً بالمجّان ، بل هو ، سواء أرادوه وطلبوه ، أو قُدّم لهم ، شعرٌ مأجور . . حتى الخوارج لم يتساووا بالعبّاسيّين في هذا المضمار . فلقد كانوا أصحاب قضيّة ، وقضيّتهم هي طلب المساواة في الحقوق ، بعيداً عن صراع العائلات العربية ، المساواة التي بشّر بها الإسلام ووعد بها جميعَ الشعوب التي تدخل فيه طوعاً أو قسراً ، المساواة التي اختفت في مجاهل الصراع بين العصبيات . وقضيّتهم هذه اكتسبت شعاراتُها ثباتاً على مرّ الأيام ، وعرفت معمودية الدم ، شأن قضية العلويّين ، وراحت تستهوي كل مضطهد أبيّ ، يحس بالعنفوان والتمرد ، يكون مستعدًّا لطلب حقّه بالسيف . ونحن لن نمرّ في عرض قضايا العصر ، إنما هدفنا إبراز مقارنة سريعة بين دعوة العبّاسيّين ودعوة غيرهم ، لنؤكّد أنه ليس كل شعر قيل في هذه الدعوة ، تحمله عاطفة صادقة أو ضمير حرّ[1] . ولنا غير شاهد بين الشعراء الذين رسّخوا شعارات العبّاسيّين بإبداعهم الشعري ، وكانوا ، في حقيقة أمرهم ، يتشيّعون . وأبرز هؤلاء الشعراء منصور النمري الذي ثبت للرشيد تشيُّعُه ، فطلبه ليقتله ، فوجده قد مات فأمر بنبش قبره . .[2] ونحن لا نذكر هذا للتفكهة ، بل لنستدل منه على خيبة أمل الرشيد الكبيرة في أن يكون أشعرُ شعرائه «عميلاً مزدوجاً» ، يُبطن الولاء للعلويّين بينما تسير الركبان بقصائده في ترسيخ حق العبّاسيّين . أليس في هذا زعزعة لأساس مهم في مرتكزات الدعوة ، أية دعوة ، وهو أن يؤمن بها الناس كدعوة صادقة صاحبة حق ، وأن يضحّوا بحياتهم في سبيلها ؟ فأية دعوة هذه التي ينال الشاعر رفدها بينما هو يؤمن بسواها ويعمل له ؟ ألا يغدو كلُّ شعر ، قيل فيها ، نفاقاً ؟ وكل ما رفعه من شعاراتها مقلوباً ومحسوباً ؟ . لماذا لا يحب الناس العبّاسيّين لأنفسهم ، مجرّدين عن أموالهم وعطاياهم ؟ من الطبيعي أن تكون الصدمة قوية على الرشيد وأن يصعب عليه تقبّل الموقف . وله الحق في الثورة العنيفة . لكن حبّ العلويّين يجري في العروق .

وشراسة الدعوة العبّاسيّة[3] تظهر بوضوح هنا : فهي لا تسعى إلى كسب المؤيّدين المحايدين ، بل هي ترمي إلى زعزعة دعوة أخرى عرفت كيف ترسخ أساسها على عرش القلوب . وهي تحاول أن تحلّ محلّها ، إنما بأي ثمن ؟ ليس سوى سلطان القوة وسلاح السلطة

---

1 طبقات ابن المعتز ص 244 وتاريخ بغداد ج 13 ص 68 .

2 المصدر نفسه .

3 لقد اتسمت الثورة العبّاسيّة بالعنف الذي استخدمته لتثبيت أقدامها على كل صعيد وضد كل الأطراف ، سواء في ذلك الأمويّون وغيرهم ؛ ويروي عبدالصمد بن علي أنه قال للمنصور : «لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو . قال : لأن بني مروان لم تبل رممهم ، وآل أبي طالب لم تغمد سيوفهم . ونحن بين قوم رأونا أمس سوقة واليوم خلفاء ، فليس تتمهّد هيبتنا في صدورهم إلاّ بنسيان العفو واستعمال العقوبة» . (تاريخ الخلفاء ص 267) .

والمال ، وما أبعدهما عن القلوب ! لهذا احتاج شعر الدعوة العبّاسية إلى معان قوية ليكون مقبولاً في هذه المعركة العنيفة . وكان على الشاعر ، الذي يدخل إلى الرشيد فينشده قصيدة حماسية لا مناسبة لها سوى جلوس الخليفة للشعراء ، أن يأتي بالمعنى الجزل القوي الذي يثير اهتمامه ، وليس أنسب من شعارات الدعوة : يطلق المعنى الجديد أو يعمّق معنى سُبق إليه فيصوغه بأسلوب أكثر جزالة وأسهل قولاً . . . ولئن ضعفت حرارة العاطفة ، في كل شعر قيل حول هذا الغرض ، فقد عوّض عنها اتخاذ مواقع التحدّي وتعمّد تجريح الخصم .

وأخيراً ، فنحن لم نتوسّع في عرض أشعار العلويّـين الداعية إلى حقّهم ، الناشرة لمبادئهم ، لأن ذلك يبعدنا عن حياة الرشيد وبلاطه . فاكتفينا بما جاء منها على ارتباط وثيق بأقوال أو مواقف للخلفاء العبّاسيّين .

الفصل الثالث

التيارات السياسية الخارجية : العرب والروم

«لعل من الغريب أنه ، بالرغم من النصر العسكري الذي حققه على الروم ، لم يحاول الرشيد فتح القسطنطينية أو ضم آسيا الصغرى إلى ممتلكاته ، كما لم يتخذ أية إجراءات تضمن استمرار التفوق العربي في المنطقة أمداً طويلاً . . .»[1] .

جون كلوب

الصراع بين العرب والروم

(الجاهلي) «يكتفي بالتعبير الموجز عن خواطره ، فتأتي أوصافه لمحات خاطفة : لا إشباع فيها ولا تفصيل . فلو أراد أن يصف معركة اجتزأ ببضعة أبيات ترينا جواده وسيفه ورمحه وبطشه بالأعداء ، ومضات من البرق جميلة في سرعتها وتلويحاتها . غير أننا لا نخرج منها بفكرة عامة أو صورة تامة عن الموقعة . فما ندري كيف جرت حركات المتحاربين وكيف انتظم الجيشان ، وأين وقف الفرسان ، وأين وقف الرجّالة ، وكيف تمّ الهجوم والالتحام . . . ولا نرى من صفات السلاح إلا سيفاً قاطعاً ورمحاً طويلاً ودرعاً سابغة . . . على أن صورة الفارس لا تظهر ، في الغالب جلية ، بل يتركها غامضة مغشاة . ويعطينا المعركة ، على الإجمال ، تهاويل مقطّعة الخطوط والأوصال ، لا يتألف من أجزائها وحدة موضوعية متلاحمة . . .»[2] .

بطرس البستاني

تمهيد : ملوك الروم الذين عاصروا الرشيد

زمنياً ، عاصر الرشيد ثلاثة من أباطرة الروم هم : إيرين ، أرملة ليو الرابع (ت164هـ/780م) وابنها قسطنطين (حكم الابن والأم من 164 إلى 187هـ/780–802م) ثم نقفور (حكم بين 187 و196هـ/ أي 802 و811م) . أما ايرين فقد تولت الأمور بعد موت زوجها ، وصية على ابنها القاصر . واحتكّ بها الرشيد في غزوته عام 165هـ/781م/ التي قادها ، وهو ولي عهد ، وصل فيها إلى أسوار القسطنطينية ، وأبرم ، إثرها ، مع ايرين ، معاهدة صلح لمدّة ثلاث سنوات . وبقيت ايرين منفردة بالحكم حتى شبّ الامبراطور الصغير وبدأ يتدخّل في شؤون الدولة ويحاول اتخاذ قرارات ، منها قرار إلغاء الهدنة مع المسلمين[3] عام 169هـ/785م . حتى إذا حلّ عام

1 امبراطورية العرب ص 537 (منشورات دار الكتاب العربي – بيروت 1966) .

2 الشعراء الفرسان ص 14 . وسنرى أن ما يقال عن الشعراء الجاهليين في هذا المضمار ، ينطبق ، إلى حد كبير ، على شعراء الرشيد حين يتصدّون لوصف المعارك .

3 جون كلوب – امبراطورية العرب ص 533 .

174هـ/790م استطاع قسطنطين إبعاد والدته والانفراد بالحكم[1] . لكن ظروفاً عاكسته ، وأخطاء ارتكبها[2] وسعايات من والدته ، لم تتوقّف ، جعلت إيرين تعود لتقاسمه الحكم مدّة خمس سنوات[3] ، تمكّنت في نهايتها من سمل عيني ابنها (عام 182هـ/797م) والاستقلال بتاج الامبراطورية مدّة خمس سنوات أخرى خضعت بعدها لضغط ثورة نقفور فتنحّت عن العرش ، تاركة المجال للامبراطور الجديد . وكانت إيرين مسالمة للرشيد ، أعادت ، عند رجوعها إلى السلطة ، الاتفاق معه ؛ وكانت دائماً مستعدة لتجديده ، نظراً لضغط المسلمين وقوّتهم ، وللصعوبات التي كانت تمرّ بها الإمبراطورية ومنها : صراع عقيدي وسياسي على السلطة بين مؤيّدي عبادة الأيقونات ومناهضيها ، وتنافس المناطق المختلفة على إيصال الأباطرة إلى العرش ، والصراع بين انطاكية ورومة على زعامة العالم المسيحي ، وهجمات البلغار والصقالبة[4] . وقد اتهمت ايرين بالخضوع للخليفة المسلم بسبب كونها امرأة لا تستطيع قيادة الجيوش ، وبأنها ، لذلك ، عقدت معه الاتفاق ودفعت الجزية[5] . فكانت أول خطوة ، لمن جاء بعدها ، نقض الاتفاق . وهذا ما فعله قسطنطين لتأكيد سلطانه بعيداً عن إرادة والدته ، وهذا ما فعله نقفور حين ثبّت أقدامه في السلطة .

وفي أيام الرشيد تركّز الصراع العربي ـ الرومي على النقاط التالية :

1 ـ غزوات الصوائف والشواتي التي استمرّت طيلة سنيّ حكمه : قادها أحياناً بنفسه ، وأوكلها ، أحياناً أخرى ، إلى أولاده أو أكابر رجال أسرته أو بعض قواده .

2 ـ اتفاقيات تبادل الأسرى ، وهي الأفدية ، يتخلّلها تبادل هدايا ووفود .

3 ـ رسالة فريدة من الرشيد إلى قسطنطين يدعوه فيها إلى الدخول في الإسلام .

أولاً : الغزوات المتبادلة :

1 ـ أهميّة الغزو في بلاد الروم : يبدو أن الغزو في بلاد الروم كان ضرورة عسكرية واجتماعية

---

1 الدولة البيزنطية ص 226 . ويقول المسعودي : «فلما نشأ ، فسد وتعدى وطغى ونابذ الرشيد ، ونقض ما كان بينهم من الصلح» (التنبيه والإشراف ص 142) .

2 يصفه المسعودي : «كان طغيانه وقبح سياسته قد ظهر في رعيّته حتى سبّوه وأنكروه» . (المصدر نفسه) .

3 الدولة البيزنطية ص 226 .

4 انظر المصدر السابق ص 222 و226 و227 و229 و235 ، وأماكن متفرقة . وانظر كذلك : أسد رستم في «العرب والروم» ج 1 ص 292 . والمسعودي في «التنبيه والإشراف» ص 167 وفازيلييف في «العرب والروم» . ومادة : Constantine VI في Grand Larousse Encyclopédique والمادة نفسها في : Encyclopédia International (Grobier N. Y.) .

5 راجع رسالة نقفور إلى الرشيد في (الطبري ج 8 ص 307) .

واقتصادية ، بالنسبة إلى الرشيد ومن سبقه[1] . فهو ، على الصعيد العسكري ، محرّك لطاقات بشريّة ضخمة متمثّلة في جيوش الدولة ، التي بلغ تعداد جنودها مئات الألوف[2] ، والتي ، إذا لم تحارب بشكل مستمر ، تأنس إلى الدعة والاستكانة . وهذا ما يشير إليه الرشيد في رسالته إلى قسطنطين مؤكّداً سهولة القيام بالغزو ، قائلاً : «فإن جنود أمير المؤمنين فارغة كثيرة ، وخزائنه عامرة وافرة . . .»[3] أما على الصعيد الاجتماعي فإن الغزوات هي عنصر توحيد لإرادة الشعب بما تتطلّبه من مشاركة الفئات المختلفة . فهي تحاط بإعلام نشط ، ويُفتح لأجلها باب التطوّع كما تُقبل التبرّعات باسم المجاهدين . ويقوم الأئمّة بدورهم فينادون بها في الشوارع والحارات والدور والقصور حيث تشترك النساء في المساهمة فتُخلع الحلي عن المعاصم والنحور وتُرمى إلى بساط التبرّع تأييداً وتشجيعاً . ويبلغ مغزى الجهاد ذروة الحماس حين ترمي المحصنات من سيّدات القصور خصلاً من شعرهنّ إلى المجاهدين[4] . هناك تأتلف قدسية الواجب الديني ونخوة الفروسية العربية التي لا تتوانى في الدفاع عن العرض والشرف . . وعلى الصعيد الاقتصادي فإن ما يكسبه الجنود من السلب والنهب في البلاد المفتوحة يشكّل جاذباً كبيراً لهم وموردا لا يستهان به . ومجموعة الأسلاب والسبي تزوّد الناس في دار الإسلام بالرقيق ، وهو بضاعة لها قيمتها وثمنها ، وبالكثير من المواد الاستهلاكيّة والأثاث والفرش والمواشي والغلال . لذلك فإن أسعار السوق تتأثر غالباً بنتائج الغزو فتهبط بشكل مفاجىء إثر كلّ غزوة ناجحة[5] . ونشير أخيراً إلى أن نفقات الحملة التي تصرف من بيت مال المسلمين يستفيد منها الجند ومزوّدوهم باحتياجاتهم ، من التجّار والوسطاء والعمّال[6] .

---

1 يرى الدكتور أسد رستم أنها كانت تهدف إلى «الاستيلاء على معاقل جبال طوروس أو للنهب والسلب الشائعين في ذلك العصر» . (العرب والروم ج 1 ص 296) .

2 ي . هل . الحضارة العربية ص 84 .

3 جمهرة رسائل العرب ج 3 ص 323 .

4 يروي أبو حيان التوحيدي أن منصور بن عمّار حضّ الناس على الغزو في فناء دار الرشيد بالرقة ، وطرحت امرأة من حاشيته صرّة تصحبها رقعة قرىء فيها : «رأيتك يا ابن عمّار ، تحضّ على الجهاد . وقد ألقيت إليك ذؤابتي فلست أملك ، واللّه غيرها . فباللّه جعلتَها قيدَ فارس غاز في سبيل الله تعالى فعسى الله ، جلّ جلاله ، يرحمني بذلك . فارتجّ المجلس بالبكاء ، وضجّ بالنحيب ، وتعجّب الناس من ذلك . . .» . (البصائر والذخائر ج 2/2 ص 324) .

5 هناك رواية معروفة أوردها الطبري وسواه عن نتائج غزوة عام 165هـ التي قادها الرشيد . يقول الطبري : «ومما أفاء اللّه عليه من الدواب الذُلُل ، بأدواتها ، عشرون ألف دابة ، وذبح من البقر والغنم مئة ألف رأس . . . وبيع البرذون بدرهم والبغل بأقل من عشرة دراهم ، والدرع بأقل من درهم ، وعشرون سيفاً بدرهم . . .» (الطبري ج 8 ص 153 والنجوم الزاهرة ج 2 ص 47) .

6 في غزوة عام 165هـ نفسها ، «سار هارون في خمسة وتسعين ألفاً وسبعمئة وثلاثة وتسعين رجلاً (سوى المطّوعة وأهل الأسواق) وحمل لهم من العين مئة ألف دينار وأربعة وتسعين ألفاً وأربعمئة وخمسين ديناراً ، ومن الورِق أحداً

وإذا كانت الضرورات التي تحدّثنا عنها تفرض الغزو أيام الرشيد ، فإنها لم تكن هي المقصودة بالإشباع في تلك العمليات لأنها كانت تختفي خلف هدف واحد رئيس معلن لها : وهو الجهاد في سبيل الله ، استمراراً لنهج النبي والصحابة والراشدين ، وحتى الأمويّين ، في حملات الجهاد المقدس . على هذا الجهاد حثّ الدين ، وللمشاركين فيه وعد بالأجر والثواب إذا عاشوا ، وبالجنة إذا استشهدوا[1] . ولعلّنا نستطيع الآن أن نتصوّر قيمة حملات الغزو بالنسبة إلى الشعب أجمع . فالأمة كلها مشاركة فيها برجال أو بمال أو بعاطفة . أخبارها تُستقصى وتُتابع ونتائجها تُرتقب . ونستطيع كذلك أن نتصوّر عودة المقاتلين وما يرافقها من فرحة عامة ومن احتفالات على كل صعيد ، وإن لم نحظ بوصف لها . ولم يكن الخليفة بأقل كسباً من المجاهدين في حملات الغزو ، بل له فيها كسب ديني وآخر دنيوي ، مادي ومعنوي . إنه يثبت ، بمحافظته على هذه الفريضة ، تمسّكه بالدين وسنّة الأوائل ، وبذله للنفس في سبيل إعلاء كلمة الإسلام ، وهو الممثل له والقائد . وكان الرشيد بالذات يعتزّ بهذه المهمة فيحاول ، في جميع تصرّفاته ، أن يرسخ في الأذهان تمسّكه بها وتشبّهه بالنبي والخلفاء الراشدين . لذلك كان يقود الحملات بنفسه كلّما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وكان يجمع شغل الغزو إلى شغل الحج فلا يني بين الكعبة والثغور ، ساعياً ، قائماً . بل إنه اتخذ شعاره المعروف «غاز حاج»[2] فطرزه على ثيابه ، وأغرم بتطبيقه حتى كان يؤدي الفريضتين في عام واحد[3] ، على بعد الشقة وصعوبة الانتقال . وقد ركّز شعراء البلاط

= وعشرين ألف ألف وأربعمئة ألف وأربعة عشر ألفاً وثمانمئة درهم . . .» (الطبري ج 8 ص 152) والإشارة إلى المطّوعة وأهل الأسواق تعطي فكرة عن تشكيل الجيش العبّاسي : فإلى جانب الجند النظامي الذي يتقاضى الرواتب ، هناك فريق المطّوعة الذين نذروا أنفسهم للجهاد في سبيل الله لا يبغون سوى الثواب الذي وُعد به المجاهدون . وكانت هذه الفئة تقيم على الحدود وتتزايد أعدادها أثناء الحملات . أما أهل الأسواق فهم الذين يلبّون نداء الغزو تاركين أهلهم وأعمالهم ، تماماً كما يفعلون حين يؤدّون فريضة الحج . وقد كان من هاتين الفرقتين أخطر المحاربين لأن حافزهم هو الإيمان وهم يقاتلون عن عقيدة راسخة . (انظر ي . هل . في الحضارة العربية ص 84) .

1 ورد هذا المعنى في آيات كثيرة منها ، على سبيل المثال ، ما جاء في سورة الحجرات : ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون﴾ . (الآية 14) . وجاء في سورة النساء : ﴿فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة . ومن يقاتل في سبيل الله ، فيقتل أو يغلب ، فسوف نؤتيه أجراً عظيماً . .﴾ (الآية 73) .

2 يذكر الطبري أن الرشيد اتخذ قلنسوة مكتوباً عليها «غاز حاج» فكان يلبسها (ج 8 ص321) كما يذكرالجهشياري أن «الرشيد قد أحب الغزو ، وكان رسمه أن يحج سنة ويغزو سنة . وكان يلبس درّاعة قد كتب من خلفها : حاج ، ومن قدّامها : غاز» (الوزراء والكتّاب ص206) .

3 في تأريخه لعام 170هـ وهو العام الذي تولّى فيه الرشيد الخلافة ، يذكر ابن الأثير أنه «حجّ بالناس الرشيد وقسم بالحرمين عطاءً كثيراً وقيل إنه غزا الصائفة بنفسه» . (الكامل في التاريخ ج5 ص 83 وانظر الطبري ج 8 ص234) ويذكر الطبري في حوادث عام 181هـ أنه «كان فيها غزو الرشيد أرض الروم . . . وحجّ الرشيد بالناس

مدحهم على هذا الشعار .

2 ـ مدح الرشيد بالغزو وبالغزو ـ الحج : تداول هذه الفكرة عدة من الشعراء استنفدوا معانيها . ونحن نعرضها ، فيما يلي ، مع بعض التفصيل ، وكما أتى بها الشعراء ، معبّرين فيها عن وجهة نظرهم ، أو ما أرادوا إظهاره وجهة نظر لهم :

ـ يطالعنا أبو نواس بأبيات ينطلق فيها من معنى عزيز على قلب الرشيد ، يدنيه من الصحابة والخلفاء الصالحين : وهو أنه حام للإسلام ، يدافع عنه ويعلي من قدره في مواجهته لأهل الشرك ، مواجهة دائمة جعلتهم من أنفسهم في شغل شاغل . فلقد اعتدّهم هدفاً دائماً له : يزورهم سنويّاً كأن له فيهم رحماً يحاذر قطعه . والحقيقة أنه وصيّ على الإسلام ، مخلوق لأجل عزّه وإعلاء كلمته وتثبيت أركانه ، لذا رأى واجباً عليه أن يتجشّم قيادة الجيوش بنفسه ، فلا يترك الحرب والقتال والمعاناة لأهلها يحاربون بينما يفيء هو إلى نعيم قصوره يسعد بما تحفل به من كنوز الأرض والبشر . فيقول :

بَـــراكَ اللهُ للإسلامِ عِـــزّاً   وحُصْناً ، دونَ بيضَتِهِ ، حَصينا
لقد أرْهبتَ أهلَ الشِركِ حتى   تركتَهُـــمُ ومـــا يَتَذَمّرونـــا
تَزورُهُـــمُ بنفسِكَ ، كلَّ عامٍ   زيـــارةَ واصـــلٍ للقاطعينا[1]

ـ ويتناول الحجّاج التيمي المعنى نفسه ، فيخلص إلى نتيجة وهي أن قيادة الرشيد الجيوش بنفسه سبب في إبقاء عدوّه ذليلاً مقهوراً . فيقول :

مَلِكٌ تجـــرَّدَ للجهادِ بنفسهِ   فعدُوُّهُ ، أبـــداً ، بهِ مَقهورُ[2]

ـ وتجدر الإشارة إلى أن هذه الزيارة ، يقوم بها الرشيد إلى دار الشرك ، مجتازاً الثغور وما فيها من مشقّات ومخاطر ، تشكل خطوة جريئة بَعُدَ العهد بالخلفاء الذين كانوا يقومون بها . فالرشيد ، هنا ، يأتي حدثاً فريداً بين خلفاء المسلمين ، سجّله له أبو المعالي الكلابي وهو يمدحه بالحج والغزو[3] .

= في هذه السنة فأقام للناس الحج ، ثم صدر معجلاً» (ج8 ص 268) . ويذكر السيوطي خبراً عن الصولي : «خرج الرشيد في السنة التي ولي الخلافة فيها حتى غزا أطراف الروم ، وانصرف في شعبان ، فحجّ بالناس آخر السنة . . .» (تاريخ الخلفاء ص 292) .

1 الديوان ص 403 .

2 الطبري ج 8 ص 309 .

3 يقول أبو المعالي :

ومَنْ يطلُبْ لِقــاءَكَ أو يَــرِدْهُ   فبالحرمَــيْنِ ، أو أقصى الثُغورِ

ولا شكّ في أن جمع الحج إلى الغزو ، وكلاهما فريضة إسلامية أساسية ، هو مظهر إيمان عميق يناسب شخص حامي الإسلام ، المدافع عنه . فإيمانه العميق هو الذي جعله دائم التفكير في الله وفي إرادة اللّه ، يعمل دائباً ، جاهداً لإرضائه وتنفيذ إرادته . لذلك قسم أيامه ولياليه قسمين لا ثالث لهما : قسماً في تأدية المناسك في الديار المقدسة وقسماً فوق أرض الشرك . سائر أمور الدولة والدنيا يصرّفها من هنا أو هناك . .[1] وهذا الربط بين مظهري الحجّ والغزو ، وبين الإيمان العميق ، اجتذب الشعراء . فبعد أبي نواس ، تناوله داود بن رزين الخزاعي ملاحظاً أنه شتّان ما بين الحجّ ، كأداء فريضة يسقطها المرء عن كاهله أو الغزو رغبة في كسب نصر يتبعه ربح وأسلاب ، وبين الحجّ بحافز من الإيمان ، من محبّة الله ، من رغبة عميقة صادقة في القرب منه داخل كعبته المشرّفة ، يكرّر المرء ذلك ويعود إليه ويحنّ ، أو بين الجهاد لوجه الله بوصفه مظهراً آخر من مظاهر الحجّ إليه والسعي لمرضاته[2] .

- ويفصّل أشجع السلمي المعنى السابق جامعاً بين السفرتين في عام واحد ، بالغاً بالرشيد ، نتيجة ذلك ، الحدود القصوى لقدرة البشر في الجهد وعلى التحمّل . وما كان أحلى ذلك على قلب

= ففي أرضِ العدوِّ ، على طِمِرٍّ — وفي أرضِ التَرَفُّهِ ، فوقَ طُورِ
وما جازَ الثغورَ ، سواكَ ، خَلْقٌ — مِن المُستخلَفينَ على الأُمورِ

(المصدر السابق وتاريخ الخلفاء ص 283 . وفي تاريخ بغداد ج 14 ص 6 قائل هذا الشعر هو أبو الشغلي) ويقول إبراهيم الموصلي ، في هذا المعنى (الغزو والحج) :

رأيتُ الدينَ والدنيا — مُقيمَينِ بشِيداذِ
أقاما بين حَجّاجٍ — وغازٍ ، أيّما غازِ

(الأغاني ج 5 ص 154) .

1 يقول أبو نواس :

يلقَى جَميعَ الأمرِ وهُوَ مُقسَّمٌ — بينَ المناسِكِ والعدوِّ المُوفَقِ
إني حَلفتُ عليكَ ، جهدَ أَلِيَّةٍ ، — قَسَماً بكلِّ مُقصِّرٍ ومُحلِّقِ :
لقدِ اتّقيتَ اللهَ حقَّ تُقاتِهِ — وجَهَدتَ نفسَكَ فوق جَهدِ المُتَّقي

(الديوان ص 401) .

2 يقول داود بن رزين :

إمامٌ بِذاتِ اللهِ أصبحَ شُغلُهُ — وأكثرُ ما يُعنَى به الغَزوُ والحجُّ

(الطبري ج8 ص 234) .

ويقول الحجّاج التيمي :

يا مَنْ يريدُ رضى الإلهِ بِسعيِهِ — واللهُ لا يخفى عليهِ ضميرُ

(المصدر السابق ص 309) .

الرشيد لأن حافزه مخافة الله :

أَلِـفَ الحجَ والجهادَ فما ينفـ ـكُّ من سَفرتينِ في كلِّ عامِ
سَفَرٍ للجهـادِ نحـو عَـدُوٍّ والمطايـا لسَفْـرَةِ الإحرامِ
طَلَبَ اللهَ ، فهو يَسْعى إليهِ ، بالمطايـا وبالجيـادِ السوامي
فَيَـداهُ : يـدٌ بمكَّـةَ تَدْعـو هُ ، وأُخرى ، في غزوةِ الإسلامِ[1]

- كذلك يؤكّد أبو نواس جمع الرشيد للحج والغزو في عام واحد ، مشيراً إلى ما في ذلك من عظم المشقّة[2] .

هكذا أوحى الرشيد ، دون قصد ، إلى شعرائه معانيهم ، لكنه أصبح أسير ذلك الإيحاء لأن ما سجّلوه عليه صار نهجاً له لا يمكن أن يحيد عنه دون أو يتنكّر لنفسه والتزامه . وهذا الالتزام لم يقف عند حدود الأداء النكرة والتردّد الرتيب ، بل إنه تجلّى في أعمال صُورت رائعةً وأداءٍ وُصف بالبطولي . فكما حجّ ماشياً حِجّةً كاملة وبعضاً من حجّة ، فقد ترك على أرض الروم بصماتِ غزواتٍ نادرة لنا نموذجٌ عنها في فتح حصن الصفصاف .

3 - غزوة حصن الصفصاف : لم تأتِ المصادر على تفاصيل وافية عن هذه الغزوة بينما تدل الشذرات الشعرية التي وصلتنا على أهمّيتها وشدة إيحائها . ونحاول تصوّر ظروفها ضمن المعطيات التالية :

أ- كانت عام 181هـ/796م . وقاد الرشيد الحملة بنفسه . لم يكتف بمرافقتها ، بل شارك في المعارك و« كاد أن يعطب لولا الله عزّ وجلّ ، ثم يزيد بن مزيد»[3] .

ب - رافق الشعراء الحملة ، شأنهم في جميع تحرّكات الرشيد : فهو يريدهم دائماً شاهداً حيّاً يرى ويسمع ويسجّل ، ثم يصوغ له ذلك شعراً خالداً بطلب منه أو إشارة . ونحن نعرف ، على الأقلّ ، شاعرين ممن صحباه هما : مروان بن أبي حفصة ومنصور النمري . وحين فرغ الرشيد من ظفره قال لهما : «أنشدا» . . . فانطلقا في انشادهما[4] .

ج- قال مروان بن أبي أحفصة غير قصيدة استوحى فيها المناسبة . منها قصيدته على الفاء ، ولم

---

1 الأغاني ج 18 ص 175 .

2 يقول أبو نواس :

في كلِّ عـامٍ غَـزوةٌ ووِفادةٌ تَنْبَـتُّ بـينَ مَداهُمـا الأَقْرانُ
حَجٌّ وغزوٌ ، ماتَ بينهما الكَرَى باليعمـلاتِ ، شِعارُهـا الوَخَدانُ

(الديوان ص 404) .

3 الأغاني ج 13 ص 146 .

4 المصدر نفسه .

يصلنا منها إلا بيت واحد رواه الطبري هو التالي :

إنَّ أميـــرَ المؤمنـــينَ المُصطفَــى   قد تَرَكَ الصفصافَ قاعاً صفصفا[1]

ويذكر الأصفهاني عن لسان مروان أنه أنشد في هذه المناسبة قوله :

طرقَتْــكَ زائرةً فحــيِّ خيالَها   غَــرّاءُ تخلـطُ بالحيــاءِ دلالَهـا

ويقول : «وصفتُ الرجال من الأسرى كيف أسلموا نساءهـم ، والظفر الذي رُزِقـه . . .»[2] ولا يأتي الخبر على باقي القصيدة الذي ذكره مروان ، لكننا نعلم أن المطلع هو للقصيدة التي دخل بها مروان على المهـدي للمرة الأولى . فإما أن يكون مروان عدّل فيها وأضاف أبياتاً من وحـي المناسبة ، وإما أن يكون خطأً من المؤلف ذكرها وهو يقصد رائيته . ففيها وصف سريع للدمار الذي لحق بالحصن يصوّره قد دمر تدميراً وأصبح أثراً بعد عين ، أقفر حتى كأنه لم يك آهلاً بالسكان ، ضاجاً بالحياة ، من قبل[3] . والواقع أننا لا نعلم كم دام الحصار ولكنه طال به الوقت وبقي الرشيد مثابراً عليه لا يزيده صمود الحصن ومكابرته إلا تصميماً على النيل منه وقهره ، إلى أن افتتحه واستباحه وآب بالنصر . ولا يعنينا هنا ما جاء في القصيدة من معان مدحيّة عاديّة لأننا ندرسها في فصل لاحق .

د ـ تبلورت النتيجة الناجمة عن هذا النصر حول محاور ثلاثة طاف بها مـدح مـروان : أوّلها أن عسكر الرشيد مظفر أبداً وأن هارون لم يخسر معركة قادها بنفسه . وجنوده اختصوا بتفريق جموع الأعداء :

ومــا انفـكَّ معقوداً بنصرٍ لِواؤُه   لـهُ عسكرٌ ، عنه تَشَظَّى العساكِرُ[4]

وثاني المحاور مهمّ جداً لأنه يلامس فكرة ذات حساسية شديدة في الصراع العربي البيزنطي : فالرشيد كان دائماً يحاول فرض الوصاية على الامبراطور ، وهذا يبذل قصارى جهده لإثبات استقلال قراره ، فتكون الغزوات المتبادلة . إلى هذا يشير مروان ذاكراً أن نصر الرشيد سمح له بفرض الجزية على ملك الروم . وأن هذا ، كسابقيه وكمن يجيء بعده ، غدا ذمّياً تابعاً للمسلمين ، يدفع الجزية صاغراً مرغماً . (كانت الحملة في أواخر حكم قسطنطين السادس الذي أقصى عام 182هـ/797م) .

---

1 الطبري ج 8 ص 269 .

2 الأغاني ج13 ص 146 .

3 يقول مروان :

لقد ترك الصفصافَ هارونُ صفصفاً   كأنْ لم يُدَمِّنْـهُ مـن النـاسِ حاضرُ

أنــاخَ على الصفصافِ حتى استباحَهُ   فكابَــرَهُ فيهــا أَلَــجُّ مُكابِرُ

(الطبري ج 8 ص 348) .

4 المصدر السابق . وقد استغلَّ مروان بن أبي حفصة مبدأ النصر ليؤكد أحقية الرشيد بالخلافة . (راجع بيتي مروان ص 354 من البحث) .

وكُـلُّ ملـوكِ الرومِ أعطاهُ جزيـةً على الرُّغْمِ ، قسراً عَنْ يَدٍ ، وهو صاغِرُ[1]

أما المحور الثالث فهو تكريس الرشيد حامياً للثغور . وليس اللقب بالأمرِ القليل الأهمية ، فالثغور هي الباب الرئيس للمملكة المطل على أعداء الدين ، والممثل للخطر الدائم الأكيد ، وهو الممر الواسع للبطولات الحقيقية . فحمايته رمز لحماية الإسلام والمسلمين من الشرك والمشركين ، وهو تعبير عن ضبط أمورهم المحكم[2] .

هـ ـ إن قصيدة مروان الرائية قيلت بعد فترة من انتهاء المعركة . أما النمري فقد دُعي إلى القولِ إثر المعركة مباشرة بطلب من الرشيد ، لوصف فرسه . وهذه إشارة مهمّة تثبت رواية الطبري عن مشاركة الرشيد في المعركة ، أي مشاركة القائد الأعلى الذي يمتطي جواده ويحمل سيفه ويباشر القتال بنفسه ، مشجّعاً جنوده وطامحاً إلى أجر وثواب كبيرين كِبرَ المخاطرة التي يتعرّض لها . وقد درج العرب ، منذ عنترة ، على وصف شدّة المعركة من خلال رسم انفعالات الفرس . فهو ليس رفيقاً للفارس بقدر ما هو صنو له ومساعد ، يكرّ ويفرّ مستقبلاً الأخطار بصدره ويحسّ باللحظات المصيريّة . وهو ، بمقدار ثباته في هذه اللحظات ، يتفوّق على سائر الجياد ، فيتفوّق راكبه على سائر الفرسان . فكيف كان فرس الرشيد في تلك المعركة ؟ لقد كان يشدّ بفكّه على عارضة اللجام امتصاصاً لتهيّجه وعصبيّته دون أن تخفّ حيويّته وسرعة حركته . فحين كانت الجياد الأخرى تنوء تعباً وتتباطأ حركتها ، كان هو يضاعف من طاقته ورشاقة خطوه حتى كادت قوائمه لا تمسّ الأرض فيخيّل إلى الرائي أنه يطير ولا يجري . كذا كانت شدّة المعركة . أما نتائجها التي يصوّرها النمري فهي كنتائج أية معركة عنيفة وصفها شاعر عربي : القتلى غطّت الأرض واجتذبت جثثها جوارح الطير والحيوان : جاءت مستبشرة بالغذاء الوفير . . . وبعد هذا ، هل حصل الرشيد على ما يبغيه من الأجر والثواب ؟ الواقع أن الثواب بقدر المشقّة . فإذا طبق هذا المبدأ على معركة الصفصاف ، كان ثواب الرشيد أجراً كبيراً عند الله ، يقسم النمري على ذلك[3] .

---

1 الطبري ج 8 ص 348 . ولعلّ المقصود بملوك الروم : إيرين التي اتفقت مع الرشيد على دفع الجزية عام 165هـ وابنها قسطنطين الذي فشلت محاولته لنقض اتفاق الصلح ، ودَفَعَ الجزية (التنبيه والإشراف ص 167) وبرؤية مستقبليّة ، نقفور الذي تمرّد ثمّ دفع الجزية صاغراً .

2 يقول مروان :

وسُدّتْ بهـارونَ الثغورُ وأُحكِمتْ بهِ من أمورِ المسلمينَ المرائرُ (العزائم)

الطبري ج 8 ص 347 .

3 يذكر الأصفهاني أن الرشيد «قال للنمري : كيف رأيت فرسي ، فإني أنكرته ؟ فقال النمري :

مُضِنٍّ على فَـأْسِ اللِجامِ كأنـهُ ، إذا ما اشْتَكَتْ أيدي الجيادِ ، يَطيرُ

و ـ لا شكّ في أن شعراء الرشيد لم يكونوا موجَّهين لإبداع شعر الملاحم ، ولم تكن لديهم القدرة على تمثيل المعارك وانفعالات الفرسان . فهم أولاً وآخراً ، شعراء انتهاز فرص ، همُّهم المدح والثواب المادي عن طريق إرضاء ميول الخليفة ونزواته ، لا عن طريق إرضاء الحس الفنّي المطلق[1] . لذلك لا نجد في ذكرهم للمعارك دقّة ولا تفصيلاً ، ولا يبعدون فيه عن شخص الممدوح ، ولا يذكرون اسم سواه من الأبطال ، وبالتالي لا يسجّلون لهؤلاء ملامح بطولاتهم . إنهم يتحدّثون عن المعارك بشكل إجمالي ، وأي تفصيل يذكرونه عرضاً يكون ذكره بهدف تضخيم الأثر ، سبيلاً إلى تعظيم الممدوح ، ترقّباً لتوسيع العطاء . ولو استعرضنا قصيدة مروان ، أو الجزء منها الذي رواه الطبري والبالغ اثنين وعشرين بيتاً ، لوجدنا منها خمسة أبيات فقط تتحدّث عن المعركة وهي التي ذكرناها سابقاً ، في حين سائر القصيدة يغصّ بالمعاني المدحيّة المجترّة .

ز ـ إن أهمّ نتيجة نخلص بها من حديث الغزو أن الرشيد مارسه بشغف لأنه ، كما سبق القول ، كان مغرماً بحياة المعسكرات ، قريباً إلى الجنود والقوّاد ، يشاركهم همومهم ومعاركهم وأجرهم عند الله ؛ وهذا أمر ، إن كان عادياً بالنسبة إلى أباطرة الروم ، فهو استثنائي بالنسبة إلى خلفاء المسلمين ، لم يتولّه خليفة قبل الرشيد ، منذ أزمان طويلة[2] .

ثانياً : حرب هرقلة

1 ـ تمهيد : هيبة الرشيد : إذا كانت بريطانيا تفخر ، فيما مضى ، بأن ممتلكاتها لا تغيب عنها الشمس ، فإن هذا الوصف أجدر بأن يطلق على امبراطورية العرب أيام الرشيد[3] . وسواء أصحّت قصة خطابه للغمامة ، أم لم تصح ، فإن تداولها عبر الأجيال وتقبُّل الرواة لها والمؤرّخين ، لدليل على

= فَظَلَّ على الصَفْصافِ يومٌ تباشَرَتْ ضِبـاعٌ وذؤبانٌ بـهِ ونُسورُ
فأَقسِمُ لا يَنسى لـك اللهُ أجرَها إذا قُسِّمتْ بـين العبـادِ أُجورُ
(الأغاني ج 13 ص 146) .

1 لا شكّ في أن من بين شعراء الرشيد من كان ينظم الشعر كما يتنفّس ويتكلّم ، وهذه ملكة مهمة في كتابة الملاحم ، إنما هذا الفنّ لم يعتد العرب عليه ، وكان لكل من الشعراء المذكورين أسلوبه ، خارج شعر البلاط ، في إرضاء الحس الفنّي لديه . فأبو نواس مثلاً انغمس في شعر الخمر وأبو العتاهية في شعر الزهد وأبو الشمقمق في هجاء الناس . . .

2 إلى ذلك يشير أبو المعالي الكلابي . راجع أبياته ص 347 هامش 3 من البحث .

3 يقول لوبون : «من الإنصاف أن عُدَّ سلطان العرب السياسي في عصر الرشيد وابنه المأمون أقصى ما انتهى إليه سلطان العرب في الشرق . فقد كانت بلاد الصين حدًّا لدولة العرب في آسية . ودحر العربُ قبائلَ إفريقية المتوحشة إلى حدود بلاد الحبشة ، ودحروا الروم إلى البوسفور . ولم يقفوا في الغرب إلاّ عند المحيط الأطلنطي» . (حضارة العرب ص 176) .

إمكان حدوثها وواقعية انطباقها على قائلها . ولقد بلغت هيبة الرشيد ، لدى رعيّته ، وعند أعدائه ، أعلى قمّة عرفتها الخلافة ، كما أن النصر كان ، بالفعل ، حليفه في كلّ معركة خاضها ، وما أكثر ما خاض من معارك ! حتى الخارجون على الدولة في الداخل أو في أطرافها القصيّة ، كانوا يثورون ويغصبون ويتجرّأون على الوالي ، وقد يقتلونه ، لكن ، إذا ما أهلّ جيش بغداد وعسكر الخليفة ، فإن حجمهم الكبير كان يضؤل ، وغالباً ما كانوا يطلبون الأمان . هذه الهيبة الكبيرة ، يدعمها التوفيق الدائم ، أعطت الرشيد عنفواناً هائلاً وعنجهيّة لا تضاهى ، خصوصاً عندما تعرض منافسة يكون موضوعها النفوذ أو الكرامة . لهذا لم يكن يدخل في تصوّره أن أحداً يأبى الدخول في طاعته ، والاعتراف بتفوّق سلطانه . بهذه الشخصيّة وبهذه النفسيّة ، دخل الرشيد الصراع مع أباطرة الروم . كان يتواضع فيحترمهم حين يفون بالتزاماتهم نحوه ، أمّا إذا تمرّدوا ، أو طغَوا وتهدّدوا ، فالرشيد يصبح إعصاراً مخيفاً لا يعرف عقبةً ولا تردّداً : يجتاح ، يحاصر ، يدمّر ، يقتل يسبي ، ويستخلص الطاعة والوفاء بالالتزام ، قسراً ورغماً . ولقد كانت غزوة حصن الصفصاف درساً تأديبياً لقسطنطين السادس الذي تجرّأ على نقض العهود ، وتمادى فلم يقبل دعوة الرشيد إلى الإسلام أو الجزية[1] . وإذا لم يسعف الحظ قسطنطين بأن يبقى في الحكم ليفقه معنى درس الرشيد ويتّعظ به ، وإذا كانت والدته إيرين لا تحتاج إلى درس مماثل لأنها أخذت عظتها منذ عام 165هـ/781م فإن نقفور كان بأمسّ الحاجة إليه : جاء إلى الحكم عام 187هـ/802م إثر انقلاب شبه عسكري ، وجعل رائدَه القضاءَ على معقولية حكم النساء وإثبات أن الرجال هم ، وحدهم ، الأكفياء لضبط الأمبراطورية وتمكين هيبتها في نفوس الأعداء . لذلك تطلّع إلى تحدّي العدوّين اللدودين لبيزنطية وهما : العرب والبلغار . أما العرب ، فقد ردّوا التحدّي بهجومهم على هرقلة ، وأما البلغار فقد دفع نقفور حياته ثمناً لتحدّيه لهم[2] .

2 ـ أهميّة هرقلة : إنها حصن رومي حصين يقع في عمق الأمبراطورية البيزنطية «على البحر الأسود ، لا تبعد سوى مئة وخمسين ميلاً عن القسطنطينية»[3] و «باب هرقلة مطلّ على وادٍ وخندق يطيف بها»[4] . ويعطيها القزويني أبعاداً أكبر إذ يصفها بأنها «مدينة عظيمة ، كرسي ملك القياصرة ، بناها أحد القياصرة . . .»[5] ولا بدّ أن تكون ، لهذا الحصن أو هذه المدينة ، أهميّة كبرى عند الروم حتى يوجد فيها ، في فترة الحصار ، الأمبراطور وجلّة القوّاد والعائلات العريقة التي منها

---

1 راجع فيما بعد رسالة الرشيد إلى قسطنطين .

2 الدولة البيزنطية ص 245 .

3 جون كلوب ـ إمبراطورية العرب ص 536 .

4 مروج الذهب دار الأندلس ج 1 ص 368 والأغاني ج 18 ص 170 .

5 آثار البلاد وأخبار العباد ص 566 .

خطيبة ولي عهد الروم[1] . وقد يكون لثقتهم بمناعتها وحصانتها ، دور في تحصّنهم فيها واستدراج الرشيد إلى أسوارها . ونرى أن الرشيد ، حين قصدها ، كان يعنيها بالذات لأنه يعرف أهميّتها ، وكان يريد ، بفتحها ، توجيه ضربة مؤلمة إلى عدوه المتمرّد . وليس صحيحاً ما جاء في بعض المصادر من أنها أول حصن صادفه فنزل عليه يحاصره[2] ، إذ لا يعقل أن يصل الرشيد إلى عمق قريب من القسطنطينية دون أن يصادف في طريقه حصناً آخر ينيخ عليه . ومن يدري ؟ لعلّ الرشيد كان يريد القسطنطينية ، وهو الخبير بدروبها منذ غزوة عام 165هـ/781م وكان يمكن أن يتابع طريقه إليها ، بعد اقتحام هرقلة ، لو بقي نقفور على عناده ولم يذعن مطأطئاً رأسه أمام سلطان المسلمين . لكن الرشيد لم يفعل ، وأشفق على عدوّه فلم يسحقه ، فعل ذلك مرّتين عند هرقلة : المرة الأولى عام 187هـ/802م والمرة الثانية عند عودته عام 190هـ/805م . ونحن نجهل أسباب ذلك إنما لا شكّ في أن هذا الترفّع عن الإجهاز على العدو ، حين رمى سلاحه واستسلم ، يشكّل عنصراً من عناصر التصرّف ، الذي وصف بالبطولي والذي قارب الأسطورة في حرب هرقلة . فهذه الحرب عمرت بمواقف العنفوان والتحدي والعنف والصفح ، والحب ، وهي مواقف تستقرّ أحداثها في ضمير الشعب لشدّة ما تلامس مثاليّاته وحسّه القومي وطموحاته . لذلك رواها المؤرخون العرب جميعاً ، على اختلاف أهوائهم ، ضمن إطار من الإعجاب يداني التقديس ؛ وكذلك نقلها المؤرّخون ، من غير العرب ، دون أن يستطيعوا كتمان إعجابهم . ولو أنّ نظم الملاحم كان من طبيعة الشعر العربي ، لكانت قصّة هرقلة مادة كافية لكتابة ملحمة رشيدية . ونحن نحاول فيما يلي إبراز ما أفرزته حرب هرقلة من المعجب المدهش ، كما سجّلته الروايات واستلهمه الشعراء فأكّدوه بالتعبير الفنّي ، تاركين النظرة الموضوعية إلى الحقائق التاريخية للملاحظة[3] هامشيّة ، فالحقائق التي يحدّها الواقع ويشدّ العقل

---

1 تاريخ الطبري ج 8 ص 322 .

2 مروج الذهب دار الأندلس ج 1 ص 366 .

3 إن المتابع لأخبار فتح هرقلة في كتب التاريخ يجد نفسه أمام التباس ناجم عن تداخل في ذكر أحداثها يجعله يتصوّر تلك الأحداث تجري متتابعة كأنها تمّت في عام واحد وفترات متلاحقة . ولسنا ندري إذا كان المؤرّخون قصدوا ذلك عمداً لإعطاء تحرّكات الرشيد أبعاداً أسطورية ، أو أن ذلك يعود إلى ضعف الدقة التعبيرية والعلمية التي نتطلبها اليوم . فلو قرأنا الخبر في تاريخ الطبري عن عودة الرشيد إلى هرقلة لوجدنا الحقائق التالية : «فلمّا رجع من غزوته وصار بالرقة ، نقض نقفور العهد . . . وكان البرد شديداً فيئس نقفور من رجعته إليه . . . فكّر (الرشيد) راجعاً في أشدّ محنة وأغلظ كلفة حتى أناخ بفنائه ، فلم يبرح حتى رضي وبلغ ما أراد» . (تاريخ الطبري ج8 ص310) وواضح أنّ هذا الخبر يربط عودة الرشيد بسنة هجومه الأول أي عام 187هـ/802م ولا يذكر شيئاً عن فتح هرقلة ، وإن أورد معظم الأشعار التي تبشّر بالفتح أو تتحدّث عنه . ثمّ يذكر الفتح في عام 190هـ/805م وكأنه حادثة أخرى حتى ليتصوّر القارىء أن عودة الرشيد لتأديب نقفور غير حملته لفتح هرقلة . ويذكر ابن الأثير الخبر في إطار مشابه وبالكلمات نفسها تقريباً . لكنّه يضيف جملة صغيرة : «وقيل : كان فعل نقفور وهذه الأبيات

فيها الخيال ، حاجزاً بينه وبين التحليق ، نادراً ما تصلح للإبداع الفنّي .

= سبباً لسير الرشيد وفتح هرقلة على ما نذكره سنة تسعين ومئة» . (الكامل في التاريخ ج 5 ص 118) . وكأنّ ابن الأثير يؤكّد المفهوم الذي ذكرناه لكلام الطبري ، ويكون استدراكه ، في جملته الصغيرة ، شبه إشارة إلى رواية ثانية تربط العودة بحملة عام 190هـ/805م . . . وإذا قرأنا الخبر في «الوزراء والكتّاب» ، لا نجد حدود السنين ولكننا نشتمّ من تتابع الأحداث المذكورة أن الغزوة والفتح تمّا في عام واحد . والجهشياري يدخل يحيى بن خالد في عملية إبرام الهدنة مع أن نكبة البرامكة كانت في آخر المحرّم من العام 187هـ/802م ومن غير المعقول أن يرافق يحيى تلك الحملة بعد وضعه في السجن . يقول الجهشياري : «ولّما صار بالرقّة نكث نقفور وغدر» ، ويورد عن لسان الرشيد مخاطباً يحيى : «قد علمت أنّك احتلت في إسماعي هذا الخبر على لسان المكّي . . .» ونهض نحو الروم ، فافتتح هرقلة» . (الوزراء والكتّاب ص 207) . . . ويسير الأصفهاني على خطى الجهشياري في إشراك يحيى بن خالد في الحملة ، ويقول فيها : «فرجع الرشيد ، لّما أعطاه نقفور ما أعطاه إلى الرقّة . . . فلمّا سقط الثلج وأمن نقفور أن يغزى اغترّ بالمهلة ونقض ما بينه وبين الرشيد . . . فلمّا أنشده (المكي) قال الرشيد : أو قد فعل ؟ . . . . فغزاه في بقيّة من الثلج فافتتح هرقلة في ذلك الوقت» . (الأغاني ج 18 ص 169) . وقد وقع بعض المؤرّخين المعاصرين في شرك هذا الالتباس ومنهم جون كلوب إذ يقول : «وأدّى رجوع العرب وحلول الشتاء ، مع ما يحمله من ثلوج تسدّ ممرّات جبال طوروس ، إلى تجرّؤ نقفور على نقض عهده وخيانة اتفاقه بعد بضعة أسابيع من التوقيع عليه . ولكنه كان قد أخطأ للمرّة الثانية في تقدير قوّة خصمه . وعاد الرشيد فجمع جيشه وعبر به جبال طوروس بالرغم من الثلوج» . (امبراطورية العرب ص 535) ، ولو أردنا جمع شتات الأحداث التاريخية حسب تصوّرنا ، لقدّمنا الصورة التالية :

- في فتح الرشيد لهرقلة عام 190هـ/805م بدأ مسيره في 10 رجب ، وصل في شعبان وأمضى رمضان محاصراً ثمّ فتحها في شوّال (الطبري ج 8 ص 320 والكامل في التاريخ ج5 ص122 والنجوم الزاهرة ج 2 ص 133) فإذا أضفنا شهراً للعودة ، تكون مدّة الحملة كلّها حوالي أربعة أشهر أو خمسة . ونحن نعتمد هذا التقدير لتحديد زمان الحملة الأولى عام 187هـ/802م .
- في عام 187هـ/802م في نهاية المحرّم وأوائل صفر نكب الرشيد البرامكة (الطبري ج 8 ص 295 ، وخلاصة الذهب المسبوك ص 146) ويصادف أول محرّم في 30 كانون الأول من عام 802م فإذا قدّرنا فترة لانتهاء الرشيد من قضيّة البرامكة ، يكون قد مرّ معظم شتاء هذا العام (187هـ و803م) قبل أن يأتي ذكر لهرقلة . ولّما كان القاسم بن الرشيد وعبّاس بن جعفر تولّيا غزو الصائفة لهذا العام وضيّقا على الروم حتى عرضت إطلاق ثلاثمئة وعشرين رجلاًمن المسلمين ، فتكون عمليّة هرقلة قد حصلت بعد ذلك ، أي بعد مرور معظم الصيف .
- إذا كانت الحملة الأولى على هرقلة لم تقم بحصار ولم تفتح المدينة ، فهي لا تحتاج إلى أكثر من ثلاثة أشهر . فلا بدّ من أن تكون قد تمّت في الخريف ، وكانت العودة منها في أواخره . والواضح بالنسبة إلى هذه الحملة أن الرشيد لم يفتح الحصن لكنّه قاربه مكتفياً بتهديد نقفور . إنما «فتح وغنم واصطفى وأفاد وخرّب وحرّق واصطلم» . حتى أناخ بباب هرقلة» . (الطبري 318 وابن الأثير ص 118) فطلب نقفور الموادعة على خراج يؤدّيه . والأرجح أنّ الرشيد لم يصل إلى هرقلة ، بل «اجتاز درب قيليقية واتخذ طريقه إلى هرقلة» (الدولة البيزنطية ص 242) عن : Burry) (Eastern Romon Empire ونستأنس في ذلك بالأصفهاني الذي لم يذكر هرقلة وإنما ذكر أنه «صار إلى طرق متضايقة دون القسطنطينية» . (الأغاني ج 18 ص 168) .

3 ـ **الرهبة من الرشيد العظيم** : لقد اتفق الرواة ، فعلاً ، على أن الرشيد كان مهيباً ، إذا غضب

ـ لم تكن العودة على الفور في عام 187هـ/802م ولا في عام188هـ/803م حيث غزا إبراهيم بن جبريل الصائفة ودخل أرض الروم من درب الصفصاف ، والتقى نقفور الذي خرج من المعركة مع المسلمين بثلاثة جراحات وأربعين ألف قتيل (الطبري ص 313) .

ـ لم تكن العودة عام 189هـ/804م لأنه كان فيها الفداء الكبير بين العرب والروم . وهذا دليل على أن اتفاق الهدنة كان لا يزال ساري المفعول .

ـ في عام 190هـ/805م غزا الرشيد الصائفة . وهذه الغزوة هي غير الحملة لفتح هرقلة . وفيها خرجت الروم إلى عين زربة وكنيسة السوداء فأغارت وأسرت ، فاستنقذ أهل المصيصة ما كان في أيديهم» . (الطبري 320) .

ـ لا بدّ لنا الآن من وقفة لتلخيص ما عرضناه . فعلى ضوئه تتّضح لنا أمور منها : أن اتفاق الهدنة كان ملزماً لجانب واحد هو جانب الروم ، وأن العرب لم يوقفوا غزواتهم السنوية . . ومنها أنّ الروم حاولوا ردّ الاعتبار بغزوة مقابلة ففشلوا . وإذا أعدنا إلى الأذهان السبب الرئيس لحرب هرقلة ، وهو محاولة نقفور إعادة احترام الأمبراطور الرومي ، فإن مجموع الأحداث لم يكن في صالحه ، وفي اعتقادنا أن موقفه بات محرجاً أمام شعبه وقوّاده والطامحين إلى عرشه . لذلك أراد القيام بضربة تردّ إليه ماء الوجه مستفيداً من الإعداد الذي قام به لجيشه طيلة ثلاث سنوات (الدولة البيزنطية ص 238) ، ومن تجربته السابقة مع الرشيد ، محاولاً أن يحدّد مكان المعركة ، وهو هرقلة الحصينة ، وزمانها في ظروف غير مناسبة للمسلمين إذ اختار زمن عودة الرشيد من غزو الصائفة عام 190هـ/805م (لا من حملة هرقلة عام 187هـ/802م) ، وقدوم فصل الشتاء . وأعلم الرشيد بنقضه الاتفاق معتمداً على انفعال الخليفة وقراره السريع لجذبه إليه في فصل الثلوج ، مهيّئاً العدّة والخطة ، ومنها قطع الأشجار وإلقاؤها في درب الرشيد وإشعال النار فيها عند مروره . (الأغاني ج 18 ص 168) .

ـ لم يسر الرشيد على الفور هذه المرّة ، كما تقول بعض المصادر ، بل هناك استعدادات جرت ، وفترة زمنيّة مرّت . وتظهر ضخامة الحملة ، واتساع رقعة انتشار الجيوش العربية ، حتميّة الإعداد والتنسيق ، اللهمَّ إلاّ أن تكون فكرة الحملة موجودة ، والإعداد لها قائماً فتأتي رسالة نقفور لتعطي إشارة الانطلاق . يقول المسعودي ، بعد ذكر أبيات الشاعر التيمي : «فتجهّز وغزاه ونزل على هرقلة وذلك في سنة تسعين ومئة» . (مروج الذهب ، دار الأندلس ، ج1 ص366) ويشير الأصفهاني إلى المسير في آخر الشتاء ، قائلاً : «فغزاه في بقية من الثلج» (الأغاني ج 18 ص 170) .

ـ كانت الحملة ضخمة استهدفت معظم جهات الدولة البيزنطية ، لا هرقلة وحدها ، وهذا ما جعلنا نفكّر بأن الجيوش العربية ضربت موعداً للقاء على أسوار القسطنطينية . فيذكر الطبري وابن الأثير عن عام 190هـ/580م : «فيها فتح الرشيد هرقلة وبثّ الجيوش والسرايا بأرض الروم . وكان دخلها ، فيما قيل ، في مئة ألف وخمسة وثلاثين ألف مرتزق ، سوى الأتباع ، وسوى المطّوعة ، وسوى من لا ديوان له ، وأناخ عبدالله بن مالك على ذي الكلاع . ووجّه داود بن عيسى بن موسى سائحاً في أرض الروم في سبعين ألفاً . وافتتح شراحيل بن معن بن زائدة حصن الصقالبة ودبسة . وافتتح يزيد بن مخلد الصفصاف وملقونية . . . وولي حميد بن معيوف سواحل بحر الشام إلى مصر . فبلغ حميد قبرس ، فهدم وحرق وسبي من أهلها ستّة عشر ألفاً . . . .» (الطبري ص 320 وابن الأثير ص 122) . ولم يكن شيء يمنع الرشيد من تجاوز هرقلة ، بعد فتحها ، إلى القسطنطينية ، لو تمادى نقفور في غيّه . لكن خضوعه للرشيد والتماسه الفضل منه خفف من غضب الخليفة عليه فانخفض التوتّر المولّد للطاقة لدى الرشيد ، فقبل الفدية والجزية ، وفرض شروطه ، ثمّ عاد .

غدا مخيفاً حتى لترتعد لمنظره فرائص الأبرياء قبل المذنبين . وقد كان في قصة حرب هرقلة عدة من مناسبات تجلّى فيها ذلك[1] : **الأولى** حين تسلّم رسالة نقفور يتحدّاه فيها كأنما يدعوه إلى المبارزة . ولم يعتد الرشيد سماع التنديد من مخلوق . فلئن كان ليّن الجانب للوعاظ ، فإنه لم يرتفع أمامه رأسٌ ، بل ولا عينٌ أو صوتٌ . بذلك يصفه أشجع السلمي قائلاً :

مَلِكٌ ، مـن مخافـةِ اللهِ مُغْضٍ وهـو مُغضَىً لـه مـن الإعظامِ[2]

ويصوّر لنا الطبري مبلغ غضبه لدى تسلمه الرسالة فيقول : «لمّا قرأ الرشيد الكتاب ، استفزّه الغضب حتى لم يمكن أحداً أن ينظر إليه ، دون أن يخاطبه . وتفرّق جلساؤه خوفاً من زيادة قول أو فعل يكون منهم . واستعجم الرأي على الوزير من أن يشير عليه . . .»[3] إلى ذلك يشير أبو العتاهية ، عند التهنئة بالفتح :

إذا مـا سخِطْتَ الشيءَ كان مُسخَّطاً وإن ترضَ شيئاً كان في الناسِ مَرْضِيّا[4]

وحسب قول المؤرّخين لم يدعِ الرشيد أحداً من وزرائه أو كتّابه يردّ على نقفور ، بل كتب إليه بنفسه كلمات قليلة تنضح انفعالاً وغضباً وعنجهيّة ، تاركاً الرد الحقيقي للسيوف والرماح في ساحة المعركة . وهذا ما يعنيه أبو العتاهية في قوله :

غـدا هـارونُ يَرعُـدُ بالمنايـا ويَبـرُقُ بالمُذَكَّـرةِ القِضـابِ[5]

والمناسبة **الثانية** لغضب الرشيد كانت حين نقض نقفور العهد وكان الرشيد المظفّر عائداً بجيوشه المتعبة إلى الرقّة ، هانىء البال ، مطمئن الخاطر إلى استكانة جانب عدوّه ، وفي الآن نفسه مصمّماً على الراحة بسبب وعكة صحيّة . وكان خبر النقض مرشحاً ليُخرج الرشيد عن طوره فيزيد في علته ، أو يجعله يتّخذ قراراً سريعاً بالعودة إلى بلاد الروم ، فيضاعف من إنهاك جيوشه . ثم ، من يجرؤ على إخباره بهذا الخبر فيقف أمامه متلقّياً ردود فعله ؟ لم يتهيّأ ذلك لأحد[6] من

---

1 نلفت النظر إلى أن دراستنا لآثار حرب هرقلة الأدبية هي دراسة للأخبار التي أوردها المؤرّخون ، وجلهم متأثرون بحبّهم للمسلمين أو للرشيد ، ولا شكّ في أن طريقة رواية الأخبار وتداولها هي التي سمحت لبعض المواقف بأن تقارب الأسطورة . ونحن لا يهمنا تمحيص الخبر التاريخي بقدر ما يهمّنا إيحاؤه الاجتماعي المولد أو المرافق للانتاج الأدبي . (فالأخبار نوردها على ذمّة المؤرّخين والشعراء) .

2 الأغاني ج 18 ص 175 .

3 تاريخ الطبري ج 8 ص 309 .

4 المصدر نفسه .

5 تاريخ الطبري ج8 ص 310 ، ومروج الذهب ـ دار الأندلس ـ ج 1 ص 283 ومما قيل فيه :

غَضِبتْ لِغَضْبَتِكَ القواطعُ والقَنَا لَمّـا نهضْـتَ لنُصرةِ الإسلامِ

(خلاصة الذهب المسبوك ص 110 والغرر والعرر ص 101) .

6 المصدران السابقان : الطبري ص 308 ومروج الذهب ص 281 .

الوزراء أو القوّاد أو المقرّبين . «فكلّهم كَعَّ وأشفق»[1] إلى أن احتيل بالشاعر المكي أو التيمي الذي أخبره ، شعراً ، بنقض نقفور للعهد ، وعاجله بالمدح ،وبشّره بنصر لا مثيل له يشفي قلوباً لم يشفها الهجوم السابق ، وأكّد أن هذا النقض ليس خبر سوء ، بل هو أكبر من بشارة ، تلقتها الرعية بالفرح والحبور . من ذلك قوله :

نقضَ الذي أعطاكَــهُ نَقفور وعليـــه دائــرةُ البَوارِ تَدورُ
أبشِرْ ، أميرَ المؤمنين ، فإنَّــه فَتحٌ أتاكَ بــهِ الإلَـهُ ، كبيرُ[2]

والمناسبة **الثالثة** غضب فيها الرشيد حين ألقى الحصار على هرقلة وضيّق على أهلها ، فخرج فارس مدجّج من الروم يطلب ، حسب الروايات ، مبارزاً ، فإن لم يجرؤ فارس واحد فاثنان أو ثلاثة إلى أن وصل إلى عشرين . كان هو يزيد العدد ظاناً أن المسلمين جبنوا عن الخروج إليه ، بينما الحقيقة أن الرشيد كان نائماً فلم يجرؤ أحد على إيقاظه ، كما لم يجرؤ أحد على الخروج للمبارزة دون إذن منه[3] . ولسنا ندري ، أهي انضباطية قصوى من الجيش الرشيدي ، أم هيبة نادرة للرشيد ، أم هما الإثنان معاً ، إذ لا انضباطية دون هيبة وهيمنة ؟ وهذه الهيبة بالذات هي في أساس الإجلال الذي ينقل به الرواة أحداث هرقلة والتهور الذي وصفوا به نقفور في تحدّيه «الأرعن» ، لأنه استجلب لنفسه موتاً محتوماً وهزيمة أكيدة ، شأنه شأن من يعبث بالليث في معركة غير متكافئة[4] . والواقع أن هيبة الرشيد مرتبطة ، إلى حد بعيد ، بطبعه المتوفز الذي يجعله يخضع لسورة الغضب أو يستبد به الحماس لفكرة ومبدأ فتحسّ أنه مرجل تغلي مفجرة عنده طاقة لا حدود لها ، فلا يطيق صبراً ولا يعود التروّي جزءاً من مفاهيمه . هكذا رأيناه يغلي غلياناً للإهانة التي أحسّها من كتاب نقفور فيقرّر الهجوم فوراً[5] ، وهكذا نتصوّره متقلّباً على فراش الأرق

1 الأغاني ج 18 ص 170 .

2 المصدر نفسه وتاريخ الطبري ج 8 ص 308 ومروج الذهب ـ دار الأندلس ، ج 1 ص 281 .

3 لقد ورد الخبر عن رواة ثقاة ومع ذلك فقد يكون الحبك الروائي والميل إلى الأسطورة تركا طابعهما عليه . انظر الأغاني ج 18 ص 170 ومروج الذهب ـ دار الأندلس ـ ج 1 ص 368 وما بعد وآثار البلاد وأخبار العباد ص566 .

4 يصوّر الحجّاج بن يوسف التيمي ذلك في البيتين التاليين :

لَجَّتْ بنَقفورَ أسبابُ الرَدَى عَبَثاً لَمّا رأتْهُ بغِيلِ الليثِ قــد عَبَثا
ومن يَزُرْ غِيلَهُ لا يَخْلُ من فَزَعٍ إن فاتَ أنيابَه والمِخلبَ الشَبِثا

(تاريخ الطبري ج 8 ص 310 ورسل الملوك ص 44) .

5 قال لنقفور «قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه لا ما تسمعه . ثم سار من يومه حتى نزل على هرقلة» . (الأغاني ج 18 ص 168 . وتاريخ الحموي ج 2 ص 17 ، وجاء في الطبري : «ثم شخص من شهره ذلك يؤم بلاد الروم في جمع لم يسمع بمثله» . ص 309 .

يترقّب طلوع النهار ليردّ تحدّي الفارس الرومي لجماعة المسلمين أثناء قيلولته . ونراه في غليانه ، إثر نقض نقفور للاتفاق ، لا يهدأ ولا يستكين حتى يلامس جليد بلاد الروم وثلجها . إنه ، حين يغلي من الإهانة ، يردّها فوراً . وهو قادر على الرد . من هنا أتى تعلّق العامة بأخباره وإعجابهم به . فهم ، عادة ، جماعة الصامتين ، المحكومين ، الذين طالما صادفوا ما يغضبهم ، وطالما غضبوا للإهانة ، لكنهم ، غالباً ، لا يملكون لها ردًّا . ومن هنا يقترب الرشيد ، القادر ، من البطل الخارق بالنسبة إليهم لأنه يمثّل انفعالاتهم ويخالفهم في القدرة ، فيفعل ما يتمنّون فعله دون أن يستطيعوه . وهذا شبيه ، إلى حدّ ما ، بتعلّق العامة بعنترة وسواه من الفرسان ، وتعلّق الأطفال بأبطال الرسوم المتحرّكة . . . ولعمري ، لئن كانت سرعة الغضب ، والاستجابة الفورية لموجة الغليان ، تبعدان الرشيد عن الإنسان الكامل الذي يجب أن يتصف بضبط النفس والتخطيط ، فإن الطاقة التي يولدها عنده ذلك الغليان تجعله يتجاوز حدود الإنسان ويقارب الأسطورة[1] .

4 ـ الرشيد البطل الأسطوري في حرب هرقلة : لقد سبقت لنا إشارة إلى أن الشعر العربي ، وشعر بلاط الرشيد ، خصوصاً ، لم يكونا مهيأين لنظم الملاحم ؛ ومع ذلك ، ففي أدب كل شعب ، سواء أعرف الملحمة أم لا ، لمحات ملحميّة ترتبط ببطولات معروفة في تاريخه . والشعر العربي ، الذي قام في ماضيه على العصبية والمنافرات ، تحدّث كثيراً عن البطولة والانتصارات ، لكن وصف البطولة في الشعر العربي نادراً ما يأتي من سرد موقف محدّد أو تصرّف معيّن في معركة ، أو من رواية تفاصيل لها بطريقة تصويرية ، إنما يأتي حديث البطولة من طريق تمجيد البأس والقوة في الموقف أو المعركة . فكأن الشاعر الملحمي ينطلق من تفاصيل المشاهد ليصل إلى استنتاج أسطورية البطل ، وأحياناً لا يفعل ذلك ، بل يترك للسامع عمليّة الاستنتاج والتصنيف . بينما الشاعر العربي يتجاوز هذه التفاصيل وينطلق ، من النتيجة عينها : البأس والقوة ، نحو تمجيد هذه القوة وذاك البأس وينتهي بتمجيد من أتاهما ، فاخراً أو مادحاً . لهذا لا نجد في شعر معركة هرقلة ، الذي وصلنا ، على ما فيها من بطولات هزّت المشاعر ، أيّة صورة لبطل شاكي السلاح ، مُشرِعاً رمحاً ورافعاً سيفاً أو متدرعاً بالزرد[2] . وليس فيه كذلك وصف لمبارزة خاضها الرشيد أو

---

1 لقد مُدح الرشيد ، في غير مناسبة ، بصفات تتجاوز صفات البشر ، وهذا ما ندرسه في حينه . وهنا يصوّره بن جامع ، فبي قدرته الخارقة ، يضم أطراف العالم فلا يعجز عن الوصول إلى أي منها بلمح البصر ؛ شأنه ، في ذلك ، شأن الخضر ، ولي الله المعروف بإمكاناته الأسطورية في التنقّل واجتراح المعجزات :

تَناولْتَ أطرافَ البـلادِ بِقُـدرةٍ   كأنـكَ فيهـا تقتفي أَثَرَ الخُضْرْ

(الأغاني ج 18 ص 174) .

2 هناك إشارة عابرة أوردها الأصفهاني ، في مناسبة لبيتين غناه فيهما ابن جامع ، تدل على شدة حماس الرشيد واندفاعه وجرأته ، وهي أنه نظر ، وهو في معسكره عند هرقلة ، إلى غبار قد انعقد «فظن أن الطاغية قد أتاه ، فخرج يركض على فرس له ، وفي يده الرمح ، وتبعه الناس . فلما تبيّن أنها ماشية رجعوا . فغناه ابن جامع :

سواه وأظهر فيها قدرة خارقة ، إذا كانت القدرة الخارقة محصورة في حمل السيف والرمح والضرب بهما ، وفي مبارزة الفرسان . والواقع أن القدرة الخارقة قد تكون أيضاً في التحدّي الذي لا تقف دونه حدود : تحدّي الجموع الهائلة ، تحدّي المسالك الوعرة ، تحدّي الحصون المنيعة ، تحدّي العناصر الطبيعية التي تتألب على البشر وتَحُدُّ من طموحهم أو تشلّ قدرتهم . من هنا يمكن الحديث عن المظهر الأسطوري في حرب هرقلة . فنقفور ، حين كتب إلى الرشيد كتابه ، كان يستفزه ليستدرجه إليه ، وقد تحصّن داخل أسواره ورتب جموعه . وكان المفروض بالرشيد أن يتريث ريثما يدرس وضع العدو ويرسم الخطّة ويجهّز العدّة ، لكنه لم يفعل شيئاً من ذلك ، بل أمر فوراً بالهجوم وبأسرع ما يمكن لبشر . قد تكون جيوش الرشيد على استعداد دائم ، وقد تكون الظروف السياسية والعسكرية الداخلية سمحت له بذلك . وقد يكون الرشيد بحاجة إلى بطولات هرقلة ليعيد إلى حكمه بعض الألق الذي فقده بنكبة البرامكة . لكن مما لا شكّ فيه ، أن الرشيد في هجومه الفوري ، قد انتزع إعجاب التاريخ ، وهو في الآن نفسه ، قد حقّق موقف مباغتة للروم فاق جميع توقّعاتهم : إنه خرج على كل قاعدة منطقية حين وصل بأسرع مما كانوا يتصوّرون ، مع أنه تقدّم في طرق وعرة ومسالك جبلية لم يألفها العرب في بلادهم المنبسطة . . . ويبدو أن حماس الرشيد وانفعاله كانا يسريان في قوّاده ، فجنوده . ولعلّه كان يسير في مقدّمتهم ضارباً لهم المثل في التجلّد والجرأة ، فاتبعوه . . . وحين نقض نقفور العهد قام بالحسابات العادية كذلك : الرشيد وجنوده عائدون لتوّهم من سفر طويل ومعارك شاقة ، مرهقين ، مثقلين بالجرحى ، ميّالين إلى الراحة بعد التعب ، وإلى التمتع بالأسلاب والسبايا ، وموسم الشتاء يفصل ، بلثجه وجليده ، بين بلاد الرشيد وهرقلة . كل هذه الظروف كانت تقضي بمنع الخليفة من العودة والهجوم . لكن نقفور «كان قد أخطأ ، للمرة الثانية ، في تقدير قوة خصمه»[1] وإرادته الخارقة وحساسيته للتحدي . فعاد هذا على الفور ، بشراسة أكبر ، وبنيّة أكثر تصميماً على إعطاء الدرس الرادع[2] . صادفه الثلج فتجاوزه ، وصادفته النار ، أشعلها الأعداء في الأشجار المقطوعة ،

= رأى في السَمَا رَهْجاً فيمَّمَ نحوهُ يَجُرُّ رُدَينيّا ، وللرَهْجِ يَسْتقري . . .

(الأغاني ج 18 ص 174) .

ونحن ذكرنا الخبر بصرف النظر عن إمكانية حدوثه بذلك الشكل : معسكر ضخم لا حراس متقدّمين له ولا طلائع تستجلي الأفق على مسافات بعيدة ، والخليفة هو الذي يبادر لاستجلاء الأمر دون سائر القوّاد والجنود ! قد يحدث ذلك في بعض ظروف المعارك إذا كانت الفرق كلّها مشغولة بالحرب ، وقد يكون من نسج خيال المؤرخين . ونحن نذكّر بأننا نستجلي أحداث هرقلة من خلال الأدب بصرف النظر عن صحة الوقائع تاريخياً .

1 جون كلوب ـ إمبراطورية العرب ص 535 .

2 يبدو أن تأثر الشعراء ، وبعدهم المؤرخين ، بانفعال الرشيد ، لدى نقض نقفور العهد ، كان عميقاً لا حدود له ، ولا يمكن تصوّره إلا لمن عاش تلك اللحظات بأحاسيسه ، أو لمن سمعها من فم من عاشها فتردّد صداها في نفسه . لذلك

فاخترقها وجنودُه في ثياب النفّاطين[1] . وقفت أمامه الأسوار الحصينة فألحّ عليها حتى خربها . .[2] وربح التحدّي ، وكان البطلَ القومي الذي يحقّق أمنيات شعب ويرد عن كرامته . . . ولعمري ليس أمتع من رواية هذا السفر ومن الاستماع إليه بكل ما تضفيه العامة على قصصها من خيال ساحر وتفاصيل آسرة ؛ فلو أنها وصلتنا ، لوجدنا فيها صورة الخليفة الساهر على تفقّد أحوال الرعية ، الصاحي حين تغفو منهم العيون ، ترتبط بصورة الرشيد البطل القومي ، كما ترتبط بصورة البطل الفارس الذي يُجلّ المرأة ويعرف كيف يحبّها فيُذل كلّ ما يملكه لنيل رضاها ، معتدًّا الإشارة منها أمراً له ينفّذه أيّاً بلغت مخاطره[3] ؛ يضاف إلى ذلك كلّه صورة البطل الذي يعف عن تفوّق ، ويسامح من مكان القوة ، يرحم عدوّه الذي يقع تحت ضرباته ، يهبه حياته ومستقبله فلا يجهز عليه ، بل إنه يذهب إلى أبعد من ذلك فيحقّق له أماني ورغبات لا شيء يمنعه من رفض تحقيقها إلاّ روح الشهامة لديه . نرى ذلك في نهاية الحملة الأولى وفي نتائج الحملة الثانية : ففي الحملة الأولى اقتحم الرشيد أرض العدو ومضى كالإعصار يلفّ حصونه ومدنه وقراه حتى أشرف على مقرّه في هرقلة . هناك كان نقفور يقبع مع بطارقته وقوّاده ولا رادّ ظاهراً للرشيد عن الاقتحام والتدمير والإذلال . ومع ذلك ، ما إن أحسّ نقفور بالخطر ، وتقدّم إلى الرشيد مصالحاً ، ملبّياً ، دافعاً الجزية ، حتى أوقف هارون الحملة وقفل عائداً تاركاً لنقفور أن يلملم ماء وجهه أمام شعبه ويحاول استعادة احترامه ، مخلّفاً ، بالمقابل ، أسى ولوعة في نفوس المقاتلين المسلمين الذين لم يشتف منهم الحقد ولم يبلغوا من عدوّهم مأربهم . ولا شكّ في أن حالة الأسى هذه كانت عميقة ، ولكنها كبتت بهيبة الرشيد وتعوده الاستبداد بالرأي والقرار[4] . وكان على جنوده أن يستكينوا

= نراهم يعتنون بتسجيلها وتخليدها ، حتى إن معظم الشعرالذي وردنا على أنه قيل في هرقلة ، قيل عملياً في تلك الفترة ، وبعضه يصوّر هجوم الرشيد ونصره الساحق ، كما حصلا ، وذلك قبل أن يهجم وقبل أن ينتصر . (راجع فترة النكث بالعهد) .

1 الأغاني ج 18 ص 168) .

2 في ذلك يقول أشجع :

بثْتَ عـلى الأعـداء أبناءَ دُرْبَةٍ فلم يقِهِمْ منهم حصونٌ ولا دَرْبُ

(الأغاني ج 18 ص 144) .

3 تطالعنا الرواية بخبر جارية من سبي هرقلة أحبّها الرشيد وأمر ببناء هرقلة جديدة قرب مقر خلافته ، إكراماً لها . فقد أورد المسعودي «خبر الجارية التي سباها من هذا الحصن ، وهي ابنة بطريقه ، وكانت ذات حسن وجمال . فزايد فيها صاحب الرشيد في المغنم وبالغ فيها حتى اشتراها له . فبلغت من قلبه ؛ وبنى لها ، نحو الرافقة بأميال ، على طريق بالس ، حصناً سمّاه هرقلة ، على الفرات ، يحاكي به حصن هرقلة ببلاد الروم . . . وهذا الحصن باقٍ إلى هذه الغاية ، هناك خراب يعرف بهرقلة . . .» . (مروج الذهب ج1 ص 368 ـ دار الأندلس) .

4 يذكر ذلك أشجع السلمي في دخوله على الرشيد بعد حرب هرقلة . فيقول مشيراً إلى تفرّده بالقرار والرأي :

لإرادته ، ويذعنوا لقراره ويجيروا من أجار ، ولو على حساب معركة رابحة . . . وفي إقالة الخصم من عثرته وحمايته من السيوف والرماح المتعطّشة للقضاء عليه وعلى ملكه ، يقول الحجّاج التيمي مصوّراً عظمة الرشيد مشفقاً على نقفور :

أعطـاكَ جزيتَه ، وطَـأْطَـأَ خدَّه ، حـذَرَ الصوارمِ ، والردى محذورُ
فأجَرْتَـه مـن وَقعِهـا وكأنها ، بِأكُفِّنـا ، شُعَـلُ الضِـرام ، تطيرُ
وصرفتَ ، بالطَول ، العساكرَ قافلاً عنـه وجـارُك آمـنٌ مسرورُ[1]

وبالفعل فإن جار الرشيد آمن لأن هيبة الرشيد تحميه . لكن هذا لا يُسكت نهائياً نغمة الأسى فنراها تظهر ، بشكل حيي ، وبعارض من العتب ، لدى إخبار الرشيد بنقض نقفور للعهد . ينم عن ذلك استبشار المسلمين بالعودة لإتمام ما لم يتم في السابق .

أما لو تساءلنا : لماذا يوقف الرشيد معركة مضمونة ، ويحلم عن عدو تحدّاه وتعمّد إهانته ؟ هل لمجرّد أنه ورث الحلم عن آبائه فجرى في عروقه مجرى الدم[2] ؟ قد يكون هذا صحيحاً . ولكن لا بدّ لخيال الشاعر من أن يسعى إلى انتزاع مسوّغ للتصرّف من هالة العظمة التي يرسمها حول ممدوحه . فإذا الرشيد ، الهائل ، المخيف ، إنسان عطوف شفوق ، يتأثر بمنظر الزوجات اللواتي يشرفن على الترمّل ، ويندبن زوجاً عفّر بالهزيمة ، فيعفو عنه ويرده إلى حليلاته . هذا تعليل الحجّاج التيمي في شعره بعد فتح هرقلة :

كان الإمامُ الذي تُرجى فواضلُه أذاقَـه ثمـرَ الحِلـم الذي وَرِثا
فردَّ أُلفتَـه ، مـن بعدِ أنْ عَطَفَتْ أزواجُه ، مَرِهـاً ، يبكينه ، شَعِثا[3]

وكانت الحملة الثانية وفتح هرقلة مناسبة أخرى تجلّت فيها «العظمة المتواضعة» و«الهيبة المتفضّلة» ، استجابة للشعور «الفروسي» ، عينه ، الذي لا يرتاح ولا يقرّ له قرار إلاّ إذا جمّع المحبّين وردّ الألفة إلى المتفرقين . يقول الطبري : «كتب نقفور مع بطريقين من عظماء بطارقته ، في جارية من سبي هرقلة ، كتاباً نسخته : لعبدالله هارون ، أمير المؤمنين ، من نقفور ملك الروم . سلام عليكم . أما بعد ، أيها الملك إن لي إليك حاجة لا تضرّك في دينك ولا دنياك ، هيّنة يسيرة . أن تهب لا بني جارية من بنات أهل هرقلة ، كنت قد خطبتها على ابني . فإن رأيت أن تسعفني

= ومـا زلـتَ ترميهـم بهـمْ متفرِّداً أنيساك حزمُ الرأي والصارمُ العَضْبُ
(الأغاني ج 18 ص 144) .

1 الأغاني ج 18 ص 168 . وراجع أبياتاً أخرى ص 364 هامش 2 وص 366 هامش 1 من البحث .

2 انظر بيت الشعر التالي :

كان الإمـامُ الذي تُرجـى فواضلُه . . . .

3 تاريخ الطبري ج 8 ص 310 ورسل الملوك ص 44 .

بحاجتي فعلت . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته . . «فأمر الرشيد بطلب الجارية فأُحضرت وزيّنت وأجلست على سرير في مضربه الذي كان نازلاً فيه . وسُلّمت الجارية والمضرب بما فيه من الآنية والمتاع ، إلى رسول نقفور . . .»[1] فعند موقف الشهامة ، وأمام الرغبة في إجابة سؤال المؤمل فيه ، نسي الرشيد عداوته ونسي حقده وغضبه وتحدّيه ، وبالغ في تجميل جمع الشمل . وتجدر هنا ملاحظة كتاب نقفور إلى الرشيد الذي يختلف تماماً عن كتابه الأول . إنه هنا كتابُ واعٍ خفايا نفس الخليفة ، عالمٍ بطبع الشهامة عنده ، عارف قلبه الكبير وحب البذل لديه . وقد أثبت نقفور ، روحاً عملية تمتّع بها ، إذ قَبِل الهزيمة ، وطلب الصلح ودفع الجزية واستهدى الرشيد ما حلا له وفكّ من أسره خطيبة ابنه بحسن الخطاب واللباقة ؛ لأنه حين هوّن قيمة طلبه ، ضَمِن ثورة النخوة عند الرشيد الذي اعتاد العطاء دون حساب ؛ وحين لم يلحّ على الخليفة تاركاً له تقدير القرار النهائي ، كان ذلك كتاباً مفتوحاً على العظمة المعطاء التي اشتهر بها الرشيد وقد كان مبدؤه ، كما رأينا ، ألا يتصل به إنسان ، صغر أم كبر ، دون أن ينال منه رفداً . فإذا لاحظنا الابتداء بالسلام والانتهاء به ، عرفنا كم كان دهاء نقفور وبطارقته كبيراً في هذه المراسلة السياسية . ولعلّ هذا المستوى من المراسلات يعطينا سبباً خفيًّا ، إنما وجيهاً ، لاقتناع الرشيد بعدم حصار هرقلة في الحملة الأولى وعدم متابعة الزحف على القسطنطينية في الحملة الثانية[2] .

وأخيراً فالرشيد دخل عالم الحكايات الشعبية بالجوانب الإنسانيّة من شخصيته ، فهل نراه دخل عالم الأسطورة بشخصيّته العسكرية في حرب هرقلة ؟ إذا حصل شيء من ذلك فليس عن طريق معارك ومبارزات شخصيّة باشرها بنفسه ، ولكن عن طريق قيادته وسطوته ، لأن الحديث في شعر هرقلة كان يتّجه أكثر نحو بطولة الجماعة . فالأعمال المنسوبة إليه هي أعمال جماعته ، أعمال جيشه ، أعمال المسلمين المقاتلين : تدمج شخصيّته في شخصيّة الجماعة ويخاطَب عنها . إن هرقلة التي هوت تحت ضرباته ، هوت بالفعل تحت ضربات المسلمين ، وهرقلة التي ملكها الرشيد ، ملكها عملياً جيشه ومحاربوه ، ملكها الدين الذي يمتشق أبناؤه السلاح ويمثّل الرشيدُ رمزَه والتجسيدَ له . وبهذا يلتقي الشعرُ الذي قيل عن الرشيد في هرقلة الشعرَ الذي قيل عنه في

---

1 تاريخ الطبري ج 8 ص 321 .

2 يسجّل فازيليف الواقع التاريخي للعلاقات العربية ـ الرومية ، فيلاحظ «رغم هذه الحروب المتصلة ، أن علاقة العرب الشرقيّين والروم ، فيما عدا الحرب ، لم تتميّز قط بصفة الخصومة ، بل كانت أقرب إلى التودّد . . .» (العرب والروم ص 19) ومن مظاهر التودّد ، فضلاً عما ذكرناه سابقاً ، تبادل الهدايا بين نقفور والرشيد ، إثر حرب هرقلة . فيذكر الطبري أن نقفور استهدى الرشيد طيباً وسرادقاً من سرادقاته ، وأن الرشيد «بعث إليه ما سأل من العطر وبعث إليه من التمور والزبيب والترياق ، فسلّم ذلك كلّه إليه رسول الرشيد . فأعطاه نقفور وقْر دراهم إسلامية على برذون كميت كان مبلغه خمسين ألف درهم ، ومئة ثوب ديباج ومئتي ثوب بزيون ، واثني عشر بازياً ، وأربعة أكلب من كلاب الصيد ، وثلاثة براذين . .» . (تاريخ الطبري ج 8 ص 321) .

المناسبات الأخرى . فحين تحدّث أشجع عن غزو الرشيد لطبرستان ، لم يمدحه ببطولة فردية ، بل بعمل هو لجماعته ، بقيادته ، لأنه حين يضمّ الرشيد طبرستان بقوّة فتلفظ ما بداخلها ، إنما يحاصرها عمليّاً بجيوشه ، قوّاده وجنوده . ونحن نعتدّ ذلك نتيجة طبيعية للحكم «الأوتوقراطي» في أي مكان وعصر . فالرشيد ، بوصفه حاكماً مطلقاً ، يستأثر بالسلطة وبكل شيء : بكل إنتاج بلاده ، بجميع أعمال أبنائها وأمجاد جنودها وقوّادها ، فلا حديث إلاّ له ، ولا حديث إلاّ عنه . فنحن نعرف أن الشعراء ما تجرّأوا على مدح قائد من قوّاده أو وزير من وزرائه ولا تحدثوا عن بطولاته إلاّ بإذن منه ، حتى إذا تحوّل عنه ، تحول الشعراء وجميع الناس ، وويل يومئذ للأوفياء الذين لا يتحوّلون .

5 ـ فترة النكث بالعهد : لقد كانت لحظات توتُّر أقصى وانفعال هائل وترقّب على مستوى العاصمة وجميع الجهات التي سمعت النبأ . كانت هناك تساؤلات : من ينقل الخبر إلى الرشيد ، وكيف يُنقل إليه ، وماذا تكون ردّة فعله ، وما هي نتائج ذلك على الجيش وعلى المسلمين ؟ كلّها تساؤلات تحتاج إلى إجابات تُنتظر مع كتمان الأنفاس . ويبدو أن الشعر المعبّر عن النصر في الحملة الأولى لم يكتب لكثير منه أن يظهر قبل نكث نقفور لعهده . لذلك نجد في قصائد هذه الفترة أشعار المدح بالنصر السابق وتوقّع النصر اللاحق . ونحن نترسّم المعالم التالية في دراسة هذه المناسبة :

. . أول هذه المعالم تهوين الخطب وتوقّع نصر جديد وفتح آخر[1] أوسع وأعمق وأجدى في شفاء نفوس المسلمين وأشباع سيوفهم من أجساد الأعداء . ولعلّ أبرز ما في هذه المعاني هو نقل الخبر عن طريق البشارة لا الإنذار . فنقض نقفور للعهد استبشر به المسلمون وبشّ له المحاربون[2] واستحق الرشيد عليه التهنئة بغنيمة متوقّعة أكيدة وبنصر تمّ قبل أن يبدأ وبعودة مظفّرة ميمونة[3] . أما نقفور

---

1 يصفه الحجّاج بن يوسف التيمي :

فَتْحٌ يَزيـدُ على الفُتوحِ ، يَؤُمُّنا بالنصـرِ فيـهِ لِـواؤُكَ المَنصورُ

(مروج الذهب ج1 ص 365) .

2 يقول الحجّاج التيمي أيضاً :

أَبْشِرْ أميـرَ المؤمنـين فإنـه غُنْمٌ ، أتاكَ بـه الإلـهُ ، كَبيرُ

فَلَقَدْ تباشَرَتِ الرعيّـةُ أنْ أتَى بـالنقضِ عنـهُ وافِـدٌ وبَشيرُ

وَرَجَتْ بِيُمنِكَ أن تُعَجِّلَ غَزوةً تَشفي النفوسَ ، نَكالُها مَذكورُ

(الطبري ج 8 ص 309 ومروج الذهب ـ دار الأندلس ج 1 ص 365 والأغاني ج 18 ص 169) .

3 يقول أبو العتاهية :

أميرَ المؤمنينَ ، ظَفِرتَ فاسلَمْ وأَبْشِرْ بالغنيمـةِ والإيـابِ

الطبري ج 8 ص 310 .

فقد اعتمل نداء الموت في نفسه وطغى عليه حتى دفعه إلى دخول عرين الأسد وتحدّيه[1] . أما هرقلة[2] فإنها تستمطر الخراب على نفسها لأنها استدعت غضب الرشيد الملك الموفّق ، حليف النصر ، الهائل في غضبه ، الذي يُسمع هديرُ الموت من ثنايا إرادته ويُرى برق السيوف القاتلة من حركاته[3] .

ـ وثاني هذه المعالم تحقيرٌ لنقفور الذي لم يحسن تقدير الرشيد حقّ قدره ، ولم يحسن مكافأة حلمه معه وعفوه عنه في الحملة الأولى ، فيظهر في صورة ذوي النفوس الحقيرة ، الرعاديد ، يهابونك فيتذلّلون إليك ، حتى إذا غبت انقلبوا أسوداً ونموراً . لقد خاف الرشيدَ ، طأطأ خدَّه له وأعطاه ما طلب صاغراً بعد أن استجار به فأجاره من صوارم قوّاده وجنوده الذين كانوا مصمّمين على إذاقته حدَّها . فما إن غاب الرشيد حتى تنكّر نقفور لكل ما قدّمه له من عهود . من هنا كان اتهامه بالجهل وقِصَرِ النظر ، فضلاً عن الخيانة ونكث العهود . فبالنسبة للخيانة ، على نقفور أن يتذكّر أن من يخون وينكث وعده لا يضرّ إلاّ نفسه ، وعليه تدور الدوائر[4] . وأما قصر النظر فناجم عن اعتقاده بأنه قادر على النفاد بفعلته ، بعيداً عن انتقام الرشيد ، ظانًّا بأن بُعد الشقة يحميه ، وهو ما كان أبداً عائقاً للخليفة ؛ بل إن الرشيد ليطال نقفور ويكسر شوكته بعُدت به داره أو قرُبت . بذلك يخاطبه الحجّاج التيمي قائلاً :

نقفورُ ، إنّـكَ ، حـين تَغدِرُ أَنْ نَـأَي　　　عنـكَ الإمـامُ ، لجاهـلٌ مغرورُ

= يذكر الطبري أبيات هذه القصيدة على أنها قيلت بعد النصر الأخير . وفي رأينا أنها قيلت في فترة نقض العهد وقبل الحملة الثانية ، وأن الظفر في صدر البيت هو تنبّؤ بالنصر وتقريرلحقيقة مؤكّدة ، وعلى أساسه تكون للبشارة بالغنيمة والإياب قيمة كبرى عند من ينوي الهجوم ويحسب ألف حساب لمشقّاته وإمكانيّة العودة منه ؛ وتغدو بدون أيّة قيمة بعد أن يتّم النصر ، المقترن بشكل طبيعي بالغنيمة والإياب ، فلا مجال حينها للتبشير . ويؤيدُ رأينا ما ورد في القصيدة من وصف لغضب الرشيد ، وكان قبل الحملة ، ولاستعداده بالجيوش والرايات .

1 الطبري ج8 ص 310 ورسل الملوك ص 44 . (راجع بيتي الحجاج التيمي ص 358 هامش 2 من البحث) .

2 يتنبّأ بذلك أبو العتاهية لهرقلة :

أَلاَ نـادَتْ هِرَقْلَةُ بـالخَرابِ　　　مـن المَلِكِ الموفَّقِ بالصَوابِ

الطبري ج 8 ص 310 .

3 يقول أبو العتاهية :

غدا هـارونُ يَرعُـدُ بالمَنايا　　　ويَبرُقُ بالمُذَكَّـرَةِ القِضابِ
وراياتٍ يَحِـلُّ النصرُ فيها　　　تَمرُّ كأنّهـا قِطَعُ السَحابِ

(المصدر نفسه) .

4 من شعر التيمي أيضاً :

خانَ العهودَ ، ومَنْ يَنكُثْ بها فَعَلَى　　　حَوبائِهِ ، لا على أعدائِهِ ، نَكَثا

الطبري ج 8 ص 310 .

أظننتَ ، حين غدرتَ ، أنكَ مفلتٌ ؟ هَبلَتْكَ أمُّـكَ ؛ مـا ظننتَ غُرورُ
إنَّ الإمـامَ ، على اقتسارِكَ ، قـادرٌ قَرُبت ديارُك ، أم نـأَتْ بـكَ دُورُ

- وثالث المعالم : مرتبط بالثاني ويتعلّق بشخصيّة الرشيد وصفاته المتميّزة التي ، لو عرفها نقفور حق المعرفة ، لتحاشى الدرس الذي ينتظره من غدره وخيانته . وفي مقدّمة هذه الصفات أنه ، كإمام للمسلمين ، واعٍ مسؤوليّته ، يعرف كيف يسوس رعيّته ويسهر ، حين تغفو منهم العيون ، ليرعى أمنهم وطمأنينتهم . وإلى هذا ، فهو ملك يحارب مجاهداً ، ابتغاء مرضاة الله ، قائداً الجيوش بنفسه ، مظفراً أبداً ، غالباً دائماً[1] ، بإرادة من الله وقضاء[2] .

- ورابع المعالم : اعتذار الشاعر المبلِّغ ، ناقلِ الخبرِ المثير . وكأنه ، مع جميع الحجج التي يسوقها ليُظهر النبأ كبشارة ، يحسّ في قرارة نفسه أنه نبأ مؤلم لا يُرضي الرشيد ولا سواه . فيذهب الشاعر إلى ضرورة قول الحقيقة للإمام المسؤول كي يتصرّف بما ينسجم ومسؤولياته . إن ذلك من أهم واجبات المواطن ، يستحق عليه الثواب ، وبه كفارة الذنوب :

لا نُصْحَ يَنفعُ مَـنْ يَغُشُّ إمامَهُ والنُّصْـحُ ، من نُصَحائه ، مَشكورُ
نُصْحُ الإمـامِ عـلى الأنامِ فَريضةٌ وَلأهلِـهِ كَفّـارةٌ وطَهُـورُ[3]

6 - شعر الفتح والنصر : ليس في شعر هرقلة وصف للفرسان والمعارك والمبارزات ، فقد سبق لنا نفي ذلك حتى عن الرشيد الذي تغنّى الشعراء بحمده ومجّدوا بأسه وقوّته . وبالمقابل ، فقد فتن منظر الحصن ، تطيف به النيران ، أنظارَ الشعراء برهبته حتى طغى على كلّ منظر آخر . والشعراء لم يعتادوا المعارك ولا كانوا يرغبون في مشاهدتها لولا إرادة الرشيد وأمل بالمغنم والعطاء . لذلك كان

---

1 للتيمي أيضاً ، وهو بدرهذه المناسبة :

ليس الإمامُ ، وإن غفلنا ، غافلاً عمّا يَسوسُ ، بحزمِـهِ ، ويُديرُ
مَلِكٌ تَجـرَّدَ للجهادِ بنفسِهِ فعـدُوُّهُ أبـداً بـه مَقهورُ
يا مَنْ يريدُ رضا الإلهِ بسعيِهِ واللهُ لا يَخفـى عليـه ضَميرُ

المصدر السابق ومروج الذهب - دار الأندلس - ج1 ص 365 والأغاني ج 18 ص 170 .

2 يقول أبو العتاهية في تدخّل الله إلى جانب الرشيد ، جواباً عن حرب الرشيد في سبيل الله :

قَضَى اللهُ أن يَصفو لهارونَ مُلكُهُ وكانَ قضاءُ اللهِ في الخَلْقِ مَقْضيًا

(مروج الذهب - دار الأندلس - ج 1 ص 365) . ويؤكّد أشجع أنّ الرشيد يضرب بسيف الله :

إنّ الخليفـةَ سيـفٌ لا يُجـرِّدُهُ إلاّ الذي يَملِكُ الدُنيا ومـا فيها

(الأغاني ج 18 ص 174 وديوان المعاني ج 1 ص 92) .

3 الطبري ج 8 ص 309 .

الحصن الجبّار مصدر قلق لهم ، حتى إذا رأوا النيران تعلّقت بجدرانه ، تنعكس أضواؤها في مياه الخندق وعلى صفحة السماء ، فترتدّ لها أطياف تتراقص مع اللهب ، بدت لهم الجدران تحتها كأنها مقطّعات من الثياب متعدّدة الألوان ، صبغها القصّار ونشرها لتجفّ . إلا أن روعة المنظر تولّد العجب والدهشة ، عجباً ودهشة يبطنهما الرعب والأسى . فليس أدهى من سقطة الجبّار ، تفرح لها لأنك تستريح منه ؛ وتحسّ بالأسى لسقوطه لأنه يمثّل ، نوعاً ما ، تلك العظمة التي يطمح كلّ إنسان إلى أن يتحلّى بها . وعمليّة الإسقاط النفسي طبيعيّة بين المُشاهد وما يرتسم أمامه ؛ وهي أساس جميع انفعالاته لأنه ، لو لم يدمج المنظر في ذاته ، أو ذاتَه في المنظر ، لما انتابه أي إحساس أو شعور . ونرى الإسقاط لدى الشاعر المكّي الذي غمرته الدهشة لدى رؤية الحصن المشتعل فنقل هذه الدهشة إلى الحجارة الجامدة فإذا هي الأخرى يصيبها العجب لهول المفاجأة ممّا حلّ بها . وحين أفاقت من دهشتها كانت قد تهاوت وقضي عليها تحت ضربات الرشيد الجبّارة السريعة[1] . ولم تصلنا تفاصيل أخرى عن المعركة ، وهذا متوقّع من شعراء الرشيد ، فهم كسائر الشعراء العرب ، يستأثر بهم التفصيل الطاغي فيسجّلونه ويكتفون به عمّا سواه ؛ وهم إنما يفعلون ذلك ليضيفوا تمجيداً جديداً للخليفة القائد وتسبيحاً آخر بعظمته . هكذا نراهم يجاوزون ما جرى من مناوشات وكرّ وفرّ وبطولات على الأسوار وحول الخنادق ليركزوا على الفتح ونتائجه . وفي **مقدّمة** النتائج ثوب الذل والقهر الذي تسربلت به هرقلة وهي تهوى والدماء تسيل من جوانبها :

أمسَتْ هِرَقلةُ تَهوي من جوانِبِها ... وناصرُ المُلكِ والإسلامِ مُدميها[2]

وثاني هذه النتائج خضوعها للرشيد خضوعاً مطلقاً . فبعد التحدّي السابق غدت ملكَ يمينه يتصرّف بها كيفما شاء ، وينظّفها من بقايا الخونة ناكثي العهود :

ملكتَها وقتلتَ الناكثينَ بِها ... بنَصْرِ مَنْ يَملِكُ الدنيا وما فيها[3]

والنتيجة **الثالثة** أن هذه الضربة القاصمة باتت تشكّل دعماً معنويًّا لهيبة الرشيد في العالم ، ودرساً نموذجياً وعبرة ، لا لأهالي هرقلة وحدهم ، ولا للروم جميعهم ، بل لكلّ الشعوب الأخرى التي لا تدين بالإسلام والتي قد تلعب الأطماع بنفوس قادتها فتسوّل لهم حذو مَثَل

1 يقول عبدالله بن محمد ، الشاعر المكّي في هرقلة المشتعلة :

هَوَتْ هِرَقْلَةُ لما أنْ رأتْ عَجَباً ... حَوائمــاً ترتمي بالنَفْطِ والنَارِ

كأنَّ نيرانَنا ، في جَنْبِ قلعتِهِمْ ، ... مُصَبَّغَــاتٌ عــلى أرسانِ قَصَّارِ

(الأغاني ج 18 ص 167) .

2 (الأغاني ج 18 ص 174) وديوان المعاني (ج 1 ص 92) .

3 المصدر السابق .

نقفور في التمرّد . يقول أبو الشيص :

شددتَ ، أميرَ المؤمنينَ ، قــوى المُلْكِ صدعتَ ، بِفتحِ الرومِ ، أفئدةَ التُركِ[1]

وأكثر من هذا ، فقد غدا النصر الكبير تميمة للرشيد في حروبه القادمة يضمن له النصر الدائم ، فتطالعه الأيام بالفتح بعد الفتح ، ويستحقّ لذلك تهنئة :

لِيَهْنِـكَ النصــرُ ، والأيــامُ مقبلةٌ إليكَ ، بالفتحِ ، معقودٌ نواصيها[2]

والنتيجة **الرابعة** هي الوجه الآخر للحقيقة السابقة . فالشعراء ، بتوجّههم إلى المنتصر المنتشي ، لا ينسون أن يعرّجوا على المهزوم المقهور وقد قبع يبكي على ملك كان يؤمّله كبيراً منيعاً ، يقول أبو الشيص :

فأصبحتَ مسروراً ، بما كانَ ، ضاحكاً وأصبحَ نقفــورٌ عــلى مُلكِــهِ يبكي[3]

ويمعن الشعراء في هذه المقابلة ، بحافز خفي من النشوة والتشفّي . فبينما تتداعى الدنيا على قدمي الرشيد فيزداد عزاً فوق عزّ ، يخسر نقفور كل شيء . حتى ذاته فقدها ، وإرادته كذلك ، فغدا ذمّياً تابعاً لخليفة المسلمين[4] . من هنا يأخذ النصر منحى قوميًّا ، بل دينياً يتجاوز الأشخاص ، على أهمّيتهم . فلا يعود نقفور هو المهزوم والرشيد هو المنتصر ، بل أعداء الله هم الذين تناولتهم سيوف الإيمان ، فانهزم الشرك وطأطأ الرأس للإسلام . بذلك يخاطب أبو الشيص الرشيد :

قَرَيــتَ سيوفَ الله هــامَ عَـدُوِّهِ وطَأْطأتَ للإسلامِ ناصيةَ الشِرْكِ[5]

7 ـ الوجه الآخر للصراع العربي ـ الرومي رأينا أن حرب هرقلة بلغت بالصراع العربي ، الرومي قمّة التأزّم ، وجرت فيها أحداث تناولتها ألسنة الرواة وأقلام المؤرّخين فأحاطتها بالكثير من التبجيل والتقديس ، وصعّدت بها قرائح الشعراء فأنشأوا وأبدعوا ما شاء لهم النظم حتى جعلوا من الرشيد بطلاً دينياً وقوميًّا في معركة الإيمان والكفر ، ونسجوا حول قوّته وجبروته جميع معاني الإعجاب . إلاّ أن الرشيد لم يكن مجرّد خليفة يرافق حملة ، بل كان أكثر من ذلك ، كان القائد العام لجيش المسلمين ، يخوض المعركة معه ، ويعيش في المعسكر معه . وكان إنساناً ، شأن باقي أفراد الجيش ، ترَكَ دياره وأهله وابتعد عن كل من أحب وما أحب . ووسائل الإعلام التي اصطحبها معه

---

1 تاريخ بغداد ج 5ص 401 .

2 من شعر أشجع في هرقلة . انظر الأغاني ج 18 ص 174 وديوان المعاني ج 1 ص 92 .

3 تاريخ بغداد ج 5 ص 401 .

4 يقول أبو العتاهية :

تَحلَّبتِ الدنيا لهارونَ ذي الرِضا وأصبحَ نَقفورٌ لهــارونَ ذِمّيّــا

(الطبري ج 8 ص 309 والأغاني ج 18 ص 167) .

5 تاريخ بغداد ج5 ص 401 .

ما كانت لتترك هذا الوجه من حياته بدون أن تبرزه فصوّرته لنا متذكّراً بغداد وما فيها من نِعَم تنافي ما هو فيه من حياة المعسكر الحافلة بمظاهر الشظف والخطر في تلك البلاد النائية . ففي أحد مجالس التذكّر دخل عليه العماني بشعر نفَحه بموجة من ريح بغداد فيها رائحةُ الشواء وإحساسُ الشبع وامتلاء البطن بأطيب مآكل القصور[1] . وكما عنيت الروايات بتصوير الصعوبات التي اعترضت طريق الرشيد إلى هرقلة وعنيت أيضاً بتصوير تحمّله وصبره وهو يجتاز المضايق وقمم الجبال والجيش وراءه ، عنيت في المقابل ، بصورة القائد الكبير يتحوّل ، أثناء الليل ، أباً حنوناً يحدب على أولاده ويُعنى بهم . فإذا ما أوى الجنود إلى مضاربهم ، قام الخليفة يتفقّدهم ويطمئنّ عليهم لقناعته أنّ من أولِ واجباتِهِ كَرَاعٍ ، القيامَ حين تجنح الرعيّة إلى المنام . وهذا ما أوحى إلى الشعراء معنى رائعاً في وصف الحاكم الصالح :

نامــوا إلى كَنَفٍ ، بِعَدْلِكَ ، واسعٍ وسَهِرتَ تَحرُسُ غفلــةَ النُيّامِ[2]

أما عن علاقات الرشيد بالروم فقد أشرنا إلى ما فيها من تناقض عجيب : الوضع الطبيعي للدولتين هو وضع عداوة قائمة منذ عشرات السنين ، وصراع مستمر ، إن لم يكن على نفوذ عالمي ، فعلى امتلاك الأماكن الحدودية ، على أقل تقدير . هذه الأماكن باتت ملكيّتها رجراجة تنتقل سجالاً بينهما ، وتخضع ، من كليهما ، لكرّ وفرّ وتدمير وتخريب . ومع هذا ، ما إن تضع الحرب أوزارها ، أو ترجع الغزوة مهزومة أو منصورة ، إلى ديارها ، حتى تنقلب العلاقة بين المملكتين إلى معاهدة عدم اعتداء وتقدير متبادل . ولسنا ندري إذا كان هذا التقدير ناجماً عن احترام الخصم القوي في المعركة المتكافئة ، أو عن المصالح المشتركة ، المتبادلة بينهما والتي تحتاج إلى رعاية على الصعيد الرسمي وإلى مفاوضات تعقبها معاهدات تنظّم التبادل بين الدولتين المتجاورتين . وأبرز أنواع التبادل : التجاري والبشري . فالتجارة بين البلدين لا بدّ لها من أن تنشط وأن يعظم حجمها في فترات الأمن والصلح ، وعدد الأسرى لا بد من أن يزداد ويعظم في فترات الغزو والحرب . ويحتّم ذلك كلّه أن تقوم سفارات وأن تجري مباحثات وأن يكون تبادل للأسرى أو «فداء» ، وينعكس ذلك على المناطق الحدوديّة نشاطاً وازدهاراً قد يفسِّران تشبّث سكّانها بها ، مع كل المخاطر التي تلف الحياة فيها[3] .

أما السفارات والوفود بين البلدين ، فإن كلاًّ منهما كان يعطيها قدرها من الحفاوة ويحاول إحاطتها بكل ما يدهش ويبهر في مملكته ؛ وكان كل من الأمبراطور والخليفة يغدق العطاء على

---

1 الأغاني ج 18 ص 238 . وانظر ص 471 هامش 3 من البحث .

2 خلاصة الذهب المسبوك ص 110 والغرر والعرر ص 101 .

3 يتحدّث «هل» عن إقليم الثغور وما أحدث فيه الرشيد من تنظيم عسكري زوّده بالحصون والحاميات ، وما أقطع سكانه من أراض يستثمرونها ، ثمّ يقول «وفي عهد هارون الرشيد وخلفائه المباشرين ، انتقل أناس كثيرون بأُسَرِهم ، من ولايات الإمبراطورية القاصية ، إلى إقليم الثغور واستقرّوا فيه . وأدّى ذلك إلى ازدهار حياة هذا الجزء من البلاد الذي خربته الحروب المتكرّرة وأنقصت عدد سكّانه . . .» (الحضارة العربية ص 87) .

أفرادها ، فضلاً عن الهدايا الموجّهة إلى الملك العدو . وفي هذا المضمار تندرج سفارة نقفور إلى الرشيد بخصوص خطيبة ابنه التي فُقدت إثر فتح هرقلة وما تبادلاه حينها من هدايا . ولعلّ ما تجدر ملاحظته هو أن لبعض السفارات وجهاً ثقافياً كان يتجلّى فيمن يرافقها من أعلام الشعر أو الأدب أو الفقه بهدف الرد على حجج الخصوم أو مفاخرتهم بإبراز ما وصل إليه النتاج الثقافي في بلادهم . من هنا إشارة المسعودي العابرة ، في حديثه عن فتح هرقلة ، إلى يحيى بن الشفير الذي أرسله الرشيد إلى نقفور وأمره أن يتظاهر بالصمم . وقد قام بطرح مسائل على جماعة نقفور[1] .

أما الأفدية ، أو عمليات تبادل الأسرى ، فإنها كانت تتم في فترات متباعدة . ويكون ذلك عادة في ظلّ هدنة كتب لها أن تستمر ردحاً من الزمن . ولا شكّ في أن الأفدية تشكّل حدثاً نادراً في حياة الثغور يكون لها احتفال مهيب ويحضرها حشد هائل من الناس من كلا الطرفين ومن المستويات الشعبية والرسمية والعسكريّة والعلميّة والأدبيّة جميعها . وقد كُتب لأيام الرشيد أن تشهد ، وحدها ، ثلاثة أفدية ، أوّلها كان أول الأفدية في أيّام بني العبّاس وأكبرها[2] . وما كان ذلك ليمرّ دون أن يفتق قرائح الشعراء فينبري منهم من يخلد تلك الذكرى بمدح الرشيد ، صانع الفداء والمشرف عليه . يقول مروان بن أبي حفصة :

وفُكّتْ بكَ الأسرى التي شُيِّدَتْ لها ... محابسُ ما فيها حميمٌ يزورُها

على حين أعيا المسلمينَ فِكاكُها ... وقالوا : سُجونُ المشركين قبورُها[3]

---

1 مروج الذهب ـ دار الأندلس ـ ج 1 ص 371 .

2 يذكر معظم المؤرّخين فداءي عام 189هـ/وعام 192هـ ويضيف المسعودي فداء ثالثاً كان عام 181هـ واصفاً إياه بأنه من أفديةٍ «لم نجد لها حقيقة ولا اشتهر أمرها ولا استفاض خبرها» . (التنبيه والإشراف ص 195) ويؤكّد ابن الأثير أن أكبر الأفدية حصل عام 189هـ إذ لم يبق بأرض الروم مسلم إلاّ فودي به ، وكذلك يفعل الطبري . وفي حين لا يذكر الطبري شيئاً عن فداء 181هـ يذكره ابن الأثير على أنه أول فداء عرفه العبّاسيّون (الكامل في التاريخ ج5 ص106) .

3 الطبري ج 8 ص 318 والتنبيه والإشراف ص 190 . وفي المرجعين أن الأبيات من قصيدة قالها مروان بمناسبة فداء عام 189هـ . والأرجح أن اعتمادها ، لتحديد تاريخ الفداء الذي قيلت فيه الأبيات ، يقوم على أمرين : أولهما ما عرف عن فداء عام 189هـ من فك جميع أسرى المسلمين ، وهذا ما يشير إليه شعر مروان . وثانيهما أنه أول فداء أيام بني العبّاس ، وهذا ما يلمح إليه مروان بذكر المحابس التي طال أمد الأسرى بها حتى ساد الظن أنهم يموتون ، لا محالة ، فيها . ويبدو أن هناك التباساً وقع فيه المؤرخان لأن مروان توفي عام 182هـ بإجماع المراجع التي ذكرت تاريخ وفاته (معجم الشعراء ص 318 ـ الكامل في التاريخ ج 5 ص106 خلاصة الذهب المسبوك ص 127 ، وفيات الأعيان ، دار صادر ، ج 5 ص 193 النجوم الزاهرة ج 2 ص 106 وبروكلمن في تاريخ الأدب العربي ج2 ص 21) وهذا يثبت أن الشعر قيل في فداء عام 181هـ وأنه أول فداء أيام بني العبّاس ، وهو الأكبر.

2 التنبيه والإشراف ص 189 .

ولم يصلنا شعر آخر قيل في هذه المناسبات ، على عظم إيحائها وأهمّيتها ، اللهمّ إلاّ تعريض ، ذكره المسعودي ، بمرج دابق التي نزلها القاسم بن الرشيد وجماعته ممن مثّلوا الفريق الإسلامي في عمليّة الفداء الكبير فقيل :

يا أيّهــا النَفَــرُ الغــزا ةُ النازلونَ بِمَــرْجِ دابِـقْ
إنّــي لَغَــازٍ ، لــو تُرِكـ ــتُ ، إلى حبيبٍ لي مُوافقْ[1]

ونختم بهذه الصورة عن الفداء الأول الكبير يرسمها لنا المسعودي : «حضر هذا الفداء وقام به أبو سُليم فرج خادم الرشيد . . . في ثلاثين ألفاً من المرتزقة . وحضره من أهل الثغور وغيرهم من أهل الأمصار وغيرهم (من العلماء والأعيان)[2] نحو من خمسمئة ألف ، وقيل أكثر من ذلك ، بأحسن ما يكون من العدد والخيل والسلاح والقوّة ، قد أخذوا السهل والجبل وضاق بهم الفضاء . وحضرت مراكب الروم الحربية بأحسن ما يكون من الزي ، ومعهم أسارى المسلمين . وكان عدّة من فودي به من المسلمين ، في اثني عشر يوماً ، ثلاثة آلاف وسبعمئة ، وقيل أكثر من ذلك وأقل ، والمقام باللامس نحو من أربعين يوماً ، قبل الأيام التي وقع فيها الفداء ، وبعدها»[3] . . . .

ثالثاً : رسالة الرشيد إلى قسطنطين السادس ملك الروم

تمهيد : أ ـ ظروف الرسالة : هذه الرسالة الفريدة تستدعي وقفة متمعّنة أمام عدة من التساؤلات : هل كُتبت حقيقة ؟ هل أرسلت فعلاً إلى ملك الروم ؟ ومتى كان ذلك ؟

وما هي مسوّغاتها ؟ ثمّ ما هي أهمّيتها بالنسبة إلى البحث ؟ . . . لقد روى ابن طيفور هذه الرسالة في كتابه «اختيار المنظوم والمنثور» ، ويصف البغدادي ابن طيفور بأنه «كان أحد البلغاء الشعراء الرواة ، ومن أهل الفهم المذكورين بالعلم»[4] . وإذا لم نجد نص الرسالة في المصادر الأخرى التي وقعنا عليها ، ومعظمها كتب أدب وتاريخ ، فقد يكون السبب الصبغة الفقهية الكلاميّة التي تصطبغ بها ، من جهة ، ومن جهة أخرى طولها إذ تشكّل ، وحدها ، كتيّباً صغيراً[5] . إلاّ أن انعدام المصادر الأخرى لا يكفي للتشكيك في حقيقة وجودها التي يؤكّدها لنا ابن النديم في حديثه عن أبي الربيع ، محمد بن الليث ، كاتب الرسالة عن الرشيد . فحين يعدّد ابن النديم مؤلّفاته يذكر له «كتاب

---

1 التنبيه والإشراف ص 189 .

2 الزيادة من ابن الأثير ج5 ص 106 .

3 التنبيه والإشراف ص 190 .

4 تاريخ بغداد ج 4 ص 211 ويرى «روتشتين «أن كتاب «تاريخ بغداد» لابن طيفور هو الموحي لكثير من أخبار الأغاني ، ويُعَدُّ مرجعَ الطبري الأساسي في أخبار العصر العبّاسي» . (راجع ذيل «العرب والروم» لفازيليف ص339) .

5 بلغت اثنتين وسبعين صفحة في مجموعة «جمهرة رسائل العرب» .

جواب قسطنطين عن الرشيد»[1] . فانطلاقاً من حقيقة وجود الرسالة التي يؤكّدها ابن النديم ، ومن حسن شهادة البغدادي في ابن طيفور ، نميل إلى الاعتقاد بأنها كتبت وأرسلت إلى قسطنطين ، لأن رسالة كهذه لا تكتب لتحفظ في الديوان . أما زمن ذلك فلا يصعب تحديده على وجه التقريب إذ لا شكّ في أنّ الرشيد أرسلها إلى الأمبراطور الرومي حين تولّى هذا سلطاته بشكل مسؤول ، أي بعد تخلّصه من وصاية والدته نهائياً في عام 174هـ/790م[2] . وإذا كان قد استمرّ في تولّي مهمّاته حتى عام 182هـ/797م[3] تكون الفترة المعقولة لتلقّيه هذه الرسالة واقعة بين عامي 174هـ و182هـ ، وإذا استحضرنا في ذهننا ما ذكرناه سابقاً[4] عن محاولة قسطنطين إثبات استقلاله بالحكم عن طريق إلغاء اتفاقية الهدنة مع المسلمين ، فلا بد من أن يكون هذا الإلغاء قد تمّ مع تسلّمه زمام السلطة[5] . وفي هذه الحالة كان لا بدّ لقسطنطين من أن يشهر موقفه من الرشيد ، عند وصول هذا إلى الخلافة ، عن طريق موفد أو عن طريق رسالة يعلن فيها رفضه الخضوع للمسلمين وربّما رفضه الاعتراف بصحّة الدين الإسلامي جملة وتفصيلاً[6] . وهذا يعطي سبباً منطقيًّا لموضوع الرسالة التي يمكن تصوّرها ردّة فعل أولى ، هادئة ، وتصوّر غزوة حصن الصفصاف عام 181هـ الردّة العنيفة التي استدعاها فشل الإقناع بالتي هي أحسن[7] . من هنا تبرز أهمّية الرسالة إذ تمثّل نموذجاً فريداً للمراسلة بين بلاط

---

1 الفهرست ص 120 .

2 الدولة البيزنطية ص 226 و227 .

3 المصدر السابق .

4 راجع ص 344 من البحث .

5 قام بمحاولة للإلغاء عندما بلغ سنّ الرشد . لكن والدته كانت قسيمة له في الحكم فكبتتها وحاولت إعادة العلاقات الطيّبة مع المسلمين . وكان هذا النقض عام 168هـ ، أيام المهدي (راجع الطبري ج 8 ص 167) .

6 مما يجعلنا نذهب إلى ذلك تسمية ابن النديم الرسالة بأنها «جواب قسطنطين عن الرشيد» فهذا قد يعني ردًّا على رسالة سابقة أرسلها قسطنطين ، وفي هذه الحالة يمكن تقدير مضمون رسالة قسطنطين من الإطلاع على ما جاء في رسالة الرشيد . إنما لا شكّ في أن هذه الرسالة ، في حال وجودها ، لم تخاطب الرشيد بلهجة قاسية ولا متحدّية لأن جوابه خالٍ من الانفعال . وفي هذا الجواب أيضاً لفتات كثيرة يُشتمّ منها أن الكاتب كان يردّ على آراء محدّدة وينفي تهماً معيّنة . من ذلك قوله : «ومثل الذي نسبتم إلى النبي ﷺ ، من الخطأ عندكم والجهل في أنفسكم ، كثير لا يحصيه أحد ولا يبلغه عدد» . (جمهرة رسائل العرب ص 78) وقد لا تكون هذه الصيغ إلاّ من باب افتراض المجادل وتوقّع ما يقوله الخصم ، انطلاقاً من مواقف له أصبحت معروفة .

7 وقد تتلخّص ظروف الرسالة بما أورده «أرمان آبل» في «تحاجّ أهل الأديان في القرنين الثامن والتاسع» إذ قال : «يأتي التحاجّ الديني موازياً للنضال السياسي بين الروم ، ممثّلين في أنصار عقيدة خلقدونية ، وبين العرب . وكان ، إذا ولي السلطان خليفة جديد أوجب على نفسه ، طبقاً لتقليد يرتفع إلى النبي ، أن يرسل إلى الملوك المجاورين كتاباً يدعوهم فيه إلى الدخول في الإسلام . وكان من الضروري أن يكون لهذا الخطاب رد» . (انظر ذيل «العرب والروم» لفازيليف ص 369) .

إسلامي وآخر مسيحي . فهي ، لأنها تعرض لمبادىء العقيدتين الإسلامية والمسيحية ، تفنّدهما وتطرح الشكوك فيما يحوم حوله الشكّ منهما ، وتدلي بالحجج والحجج المضادة ، تشكّل مستنداً قيّماً لمستوى الفكر الديني المبني على العقل والمنطق الذي عرفه العصر وأطلّ عليه البلاط الرشيدي . والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو : إلى أي مدى كانت الرسالة تحمل أفكار الرشيد وأسلوبه في فهم العقيدة وإفهامها ؟ وما هو دوره الفعلي فيها ؟ لقد سبق لنا القول إن الرشيد كان يكره المراء في الدين واستخدام الجدل والمنطق في أموره . فهو مؤمن على طريقة أهل السنّة ، مصدّق للأحاديث ، رافض لكلّ ما من شأنه أن يوصل إلى الشك[1] . إلاّ أن الحديث عن كره الرشيد للجدل الديني حديث عام مستخلص من مجمل سيرته ولا يعني موقفاً ثابتاً له ، منذ بدء خلافته حتى نهايتها . فالثبات والجمود يخالفان طبيعة الحياة الإنسانيّة ، وخصوصاً حياة الشخصيّات العظيمة كالرشيد . فكلّ إنسان يمر من طور إلى آخر في تفكيره ، متأثّرًا بظروف البيئة الفعليّة والاجتماعية التي يحيا وسطها . فإذا كان الرشيد أظهر كرهاً لجدال الزنادقة في أمور الدين ، فلأن الفقهاء الذين أحاطوا به كانوا من هذا الرأي ، وكان على رأسهم أبو يوسف القاضي صاحب المواقف المعروفة الواضحة في هذا الموضوع[2] . لكن هل كان الرشيد بهذا التشدّد قبل دخوله في تأثير محمد بن الحسن الشيباني وأبي يوسف القاضي وغيرهما من الوعّاظ والزهّاد ؟ الواقع أنّ تتبُّعنا للشخصيّات المؤثّرة في الرشيد يوصلنا إلى أنه ، في بدء خلافته ، كان متأثّراً بشخصيّة واحدة هي شخصيّة يحيى بن خالد البرمكي الذي ربّاه ورعاه . ويحيى معروف بأدبه وعلمه وجمعه أساطين علم الكلام في مجلسه[3] ، فإلى أي حدّ بقي الرشيد ، حين كان في كنفه ، بعيداً عن هذا الجو ؟ أليس من المعقول أن يكون قد تأثّر بالمسائل التي تبحث في تلك المجالس ، أو يكون سمع عن بعض المناقشات ومنها ما لا يشكّك في الدين ، بل ، على العكس ، يؤكّد الإيمان بحجج العقل والمنطق ؟ وهذا يؤدي بنا إلى توضيح فكرتنا عن الرشيد الذي لم يكن ، حتى في أيام قاضي قضاته أبي يوسف ، متحفّظاً تجاه الجدل بشكل مطلق[4] ، ولم يكن

---

1 راجع ص 127 من البحث .

2 انظر ص 29 ، هامش 1 من البحث .

3 مروج الذهب ج 3 ص 370 (دار الأندلس) «كان يحيى بن خالد ذا علم ومعرفة وبحث ونظر ، وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام وغيرهم من أهل الآراء والنحل . . .» .

4 ينقل أحمد أمين عن المرتضى «أن ملك السند طلب إلى الرشيد أن يبعث إليه من يناظره في الدين . فبعث إليه قاضياً لا متكلّماً . «وعجز القاضي عن الإجابة عن مسألة كلامية» وكتب ملك السند بذلك إلى الرشيد ، فقامت قيامته وضاق صدره وقال : أليس لهذا الدين من يناضل عنه ؟ قالوا : بلى يا أمير المؤمنين ، هم الذين نهيتهم عن الجدل في الدين ، وجماعة منهم في الحبس . فقال : أحضروهم . . .» فاختاروا له معمّر بن عبّاد السلمي ، من شيوخ المعتزلة ليكون رسوله إلى ملك السند (ضحى الإسلام ج 1 ص 358 عن «المنية والأمل») .

يتفادى التعامل مع المتكلّمين حين تقتضي ذلك مصلحة الدين[1] ، وما كان يكره الاجتهاد الذكي ولا الحجّة المنطقيّة العقلانية التي تتوجّه إلى غير المسلمين لتقارع حججهم وتعطّل طروحهم . فإذا اجتمعت لدينا القناعة بأن الرشيد ، في بدء خلافته ، لم يكن بلغ من التحرّج في أمور الدين ما بلغه فيما بعد ، وبأن تأثّره الشديد بالبرامكة كان يجعله يتقبّل نصيحتهم ويشاورهم في كلّ صغيرة وكبيرة ، وأنّ مراسلة النصارى كانت أمراً بالغ الدقة ، لما عُرف عنهم من الجدل في أمور الدين ، وضح أمامنا سبب اختيار محمد بن الليث ليكون كاتب الرسالة . فهو من كتاب يحيى ، مشهور بالمنطق والبلاغة[2] ، وقادر بالتالي على القيام بالمهمة . ولا بدّ من أن يكون الرشيد تداول والبرامكة في شكل الرسالة وموضوعاتها قبل نقل ذلك إلى محمّد بن الليث . ومن الطبيعي أن تقوم مداولة حولها ، بعد الانتهاء من تدبيجها وقبل توجيهها إلى هدفها . وهذا يعني أن الرشيد تبنّى شكلها ومضمونها وإن لم يكتبها بنفسه . فما هي أهدافه منها ؟

ب ـ أهداف الرسالة : هناك هدف ظاهر ورد في أول الرسالة : «رأى أمير المؤمنين ، من أحسن قوله وأفضل فعله ، أن يكون إلى سبيل ربّه داعياً وبرسوله ﷺ ، متأسّياً ، ولقوله : ﴿ومَن أحسنُ قولاً ممن دعا إلى اللهِ وعمِلَ صالحاً وقال إنّني من المسلمين﴾ موافقاً . فالرشيد ، الخليفة الشاب ، المشبع بحب النبي والصحابة ، قرّر ترسّم خطاهم ؛ فإلى جانب الحج والغزو ، التزم دعوة إلى الدين الحنيف بالحسنى . وقد يكون ، في شخصيّة قسطنطين وظروف حكمه[3] ، ما اعتدّه الرشيد عنصراً مشجّعاً لدعوته ، فضلاً عن هدفه في تأنيبه لخروجه على عهود الصلح التي كانت معقودة مع والدته . ومن يدري فلعلّ لحداثة سنّه أهمية في تركيز الرسالة عليه دون من سبقه

---

1 كان سبب تحفّظه على المراء في الدين أنه «شيء لا نتيجة له ، وبالحرى ألاّ يكون فيه ثواب» (الطبري ج8 ص 347) ولذلك لا مسوّغ لرفضه إذا وجد فيه عكس ما اعتقده ، كما كانت الحال مع ملك السند .

2 الفهرست ص 120 .

3 ليس من أهدافنا استقصاء معلومات وافية عن قسطنطين السادس إنما يبدو حظه من المؤرّخين ضئيلاً كحظّه من الملك . فلقد طغت عليه شخصيّة والدته وهو وليّ للعهد صغير ، حتى إذا بلغ أشدّه وأراد التصرّف بملكه ، بدت تصرّفاته متشنّجة وشخصيّته متوتّرة عصبيّة سريعة إلى القرار ، وبالتالي إلى الأخطاء ، فاكتسب عداوات ليس أقلّها عداوة المؤرّخين : فالحديث عنه قليل وصورته بين الصفحات مهزوزة ، حتى إننا لا نلمس موقفاً واضحاً له من مشكلة المشاكل في بلاده وهي عبادة الأيقونات . فبينما نرى مناهضيها يساندونه في معركته لاستعادة صلاحيّاته ، نكاية بوالدته التي كانت تؤيّد عبادتها ، نراه يتنكّر فيما بعد لمن ساندوه . وفي اعتقادنا أن هذا التنكّر كان موقفاً سياسياً لا عقيديًّا لأن عداوته لأمه ونهجها تفترض ، حكماً ، أن يقف في وجه عبادة الأيقونات . ولمّا كان ، في أساس مبدأ المنع ، التوجّه إلى الخالق مباشرة بلا وسطاء ، وبالتالي الاقتراب من مبدأ نفي الشركاء له ، فإن هذا الموقف يقرّب أصحابه إلى معتقدات المسلمين . بل إنّ المؤرّخين يعيدون أساس حركة مناهضة عبادة الأيقونات إلى موجة آسيوية متأثرة بمجاورة المسلمين . (فازيليف ـ العرب والروم ص 13 ـ الدولة البيزنطية ص 183) .

أو لحقه من الأباطرة[1] . وفي رأينا أنه لا الرشيد مرسل الكتاب ، ولا ابن الليث محرّره ، كانا يتوقّعان أن يستجيب قسطنطين لدعوة أمير المؤمنين فيترك دين آبائه ومركزه وسلطانه ليدخل في الإسلام . فالتاريخ لم يسجّل ، حسب علمنا ، حادثة مماثلة دخل فيها أمبراطور عظيم ، كملك الروم ، الدين الإسلامي بمجرّد تسلمه رسالة خطّية كهذه . وهنا يتحتّم طرح سؤال جديد : لماذا ، إذن ، كتبت الرسالة ؟ نعتقد أنه ، إذا صحّ في الرسالة كونها جواباً عن كتاب من قسطنطين ، أو لم يصح ، فإن الرشيد في كلا الحالين كان يحاول أن يبهر قسطنطين . فالخليفة والأمبراطور كلاهما شابان حديثا العهد بالسلطة ، ولا أحد يعرف كم تدوم معاصرة الواحد منهما للآخر . وكان على كل منهما أن يسبر غور عدوّه . فتأتي محاولة الرشيد لإبراز قدرة العرب على الحجة والبرهان كدعوة لقسطنطين إلى أن يقدم ما لديه ، في الكفة الأخرى من الميزان ؛ وقد يكون العكس هو الذي حصل . وهذه العملية معروفة في تلك العصور[2] ، يحاول الملك بها أن يشرف على منافسيه من موقع عال ويحضهم على الدخول في طاعته ، متخذاً مواقف يسجلها التاريخ[3] .

أما أهمّية الرسالة ففي أنها تلقي الضوء على جانب من شخصية الرشيد ، في تعامله مع أنداده الملوك ، مما يجري تفصيله بعد عرض الرسالة . وأهمّيتها كذلك في أنها تمثّل خلاصة المعركة الكلامية التي قامت بين متكلّمي المسلمين ومتكلّمي النصارى ، وهي جزء من المعركة الأعم التي شملت أيضاً متكلّمي الزنادقة والمانوية والزرادشتية واليهود وسواهم . وهذه معركة اضطرّ الدين الإسلامي إلى أن يخوضها بعد ترسيخه أقدامه وربحه المعركة العسكريّة

---

1 يعطي الرشيد مسوّغاً لتوجّهه إلى إمبراطور الروم برسالته : أنه قيّم على جماعة كبيرة من الناس يأتمرون بأمره . فإذا ما اقتنع ونقل قناعته إليهم أدّى ذلك إلى هداية عدد كبير من البشر ، من أقصر السبل . تقول الرسالة لقسطنطين : «وكنتَ ، مِن كُتُب الله المنزلة ، وآياته المفسّرة ، وخلقه الكثير ، بحيث رجا أمير المؤمنين استماعك لموعظته . . وانتفاعُك بمحاولته انتفاعُ بشر كثير وخلق عظيم ، قد بؤت بأوزارهم مع وزرك ، واحتملت من آثامهم إلى إثمك ، فأحبّ أن يدعوك ومن رجا أن ينتفع بدعوته معك . . . جمهرة رسائل العرب ج 3 ص 253 .

2 راجع (ص 373 هامش 4) طلب ملك السند من يجادله ، (وابن عبد ربّه) في مسائل طرحها قيصر على معاوية الذي استعان بابن عبّاس للإجابة عنها (العقد الفريد ج 2 ص201) ورسالة ملك الروم إلى عبد الملك بن مروان الذي استعان بعبدالله بن الحسن للإجابة عنها (المصدر السابق ج 1 ص 203) . ويحكي القزويني أن عضد الدولة أراد أن يبعث رسولاً إلى الروم وقال : إن النصارى يسألون ويناظرون ، فمن يصلح ؟ . . .» (آثار البلاد وأخبار العباد ص 312) . وقد يكون الرشيد يترسم خطى والده الذي بدأ خلافته بدعوة الملوك إلى الطاعة فأجابه كثير منهم إليها كملك كابل شاه وملك طبرستان وملك السغد وملك طخارستان وملك فرغانة وملك أشروسنة . . . إنما كان الرشيد يطلب ما يفوق الطاعة (تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 397 وانظر ص 372 هامش 7 من البحث) .

3 راجع خاتمة هذا الفصل .

السياسيّة . ولعلّ هذه المعركة أحد أسباب نشوء علم الكلام وبروز أهمّية المعتزلة[1] . ويكفي القارىء أن يطلع على مواضيع الرسالة لترتسم في ذهنه أبعاد المعركة الكلامية بين الدينين ، والتي تداولتها الأجيال[2] وسلّمتها إلى عصر الرشيد .

عرض لمواضيع الرسالة

هي ثلاثة أقسام : قسم يتعلّق بالدعوة الإسلامية وقسم يتعلّق بالمعتقدات المسيحية ـ وقسم يتضمّن عروض الرشيد على قسطنطين .

القسم الأول : حول الدعوة الإسلاميّة : ويتضمّن ثلاث نقاط أساسيّة : إثبات وحدانية الخالق ـ إثبات نبوّة محمد ﷺ وصحّة الوحي ـ إثبات صحّة القرآن المتداول .

أ ـ إثبات وحدانيّة الخالق : ويأتي ذلك :

1 ـ عن طريق التأمل المباشر والاستنتاج : التأمّل في خلق السماوات والأرض وتسخيرها للناس . كإخراج النبت من الأرض ، وارتباط النبت بالماء والماء بالسحاب والسحاب بالريح تسوقه حيث يريد الله ، علاقة الريح بالأزمنة وبتغيرات الجو وبثباتٍ أو زوالٍ للحر والقر ، ثمّ علاقة الأزمنة بحركة الشمس والقمر التي بها يرتبط تتابع الليل والنهار ، ثمّ ارتباط الشمس والقمر بالفلك والفلك بالسماء . كل هذا في نظام دقيق متكامل لا يصدر إلاّ عن صانع واحد . والتأمّل في خلق الإنسان : من طين ، من نطفة تستحيل علقة ، تتحوّل إلى مضغة ، ثمّ تكون عظماً يكسى لحماً وتنفخ فيه روح فيستحيل خلقاً متآلف الأجزاء ، متصل الأعضاء ، من قدم إلى ساق إلى فخذ فما فوق . . . كل هذا لا بدّ صادر عن إله واحد ﴿وما كان معه من إله ، إذاً لَذَهب كلُّ إله بما

---

1 يذهب فازيليف إلى أن دمشق كانت «المسرح الذي قامت فيه مناقشات دينية بين المسيحيّين والمسلمين . ومن أكبر الخلافات ، التي قامت بين علماء الدينين ، تلك التي سجّلها يوحنّا الدمشقي وتيودور أبو قرّة . . . وإن المذاهب الأولى الخارجة على الإسلام نشأت عن هذه المناقشات الدينية مثل الإرجاء والقدر . . .» (العرب والروم ص13) .

2 يفصّل «أرمان آبل» بعض مواضيع هذه المعركة فيذكر عن يوحنّا الدمشقي «أنه يناقش بعض الآيات القرآنية ويردّ على مقالة الجبرية ، وينتقد الوحي القرآني وعادات الإسلام في العبادات والأخلاق . أما أبو قرّه فإنه يسوق حججاً يرفض بها بعثة محمد ﷺ رسولاً . وهو يجادل بعض الأقوال الفلسفيّة جدلاً منطقيًّا مثل : الخلق المستمر ، ونصيب الله في أعمال المخلوقات ، وهي أقوال يجرّ إليها الدخول في الإسلام . . . وقد قام أبو قرّه بعرض عقيدة النصارى عرضاً تاماً . وكان الجدل يومئذ يحتجّ بنصوص الخصم وبنصوص الدين المدفوع عنه وبطرق الاحتجاج المنطقي . .» راجع ذيل «العرب والروم» ص 370 لفازيليف عن «تحاجّ أهل الأديان» . والمقارن للموضوعات المذكورة بموضوعات الرسالة يرى أن الرشيد يتقمّص المجادلين المسلمين ويتوجّه إلى قسطنطين على أنه يمثّل المجادلين المسيحيّين ، وتبدو الرسالة مرحلة من مراحل هذه المعركة المستمرة .

خلق ، ولعَلاَ بعضُهم على بعض﴾[1] ولانفرط عقد التكامل الذي يطبع نظام الكون الدقيق .

2 ـ **عن طريق نفي التعدّدية** ، بنفي المشاركة وبنفي اتخاذ الأعوان من المخلوقات ﴿ أيشركون ما لا يخلُقُ شيئاً ، وهم يُخلقُون ؟﴾[2] وبرفض عبادة الملائكة . وأخيراً بنفي اتخاذ الأولاد وبنفي الألوهيّة عن المسيح : ﴿لن يستنكفَ المسيحُ أن يكونَ عبداً لله ، ولا الملائكة المقرّبون﴾[3] .

3 ـ **عن طريق التبصّر برسالة الأنبياء** . فقد اختارهم الله من خلقه ، وابتعث كل رسول بلسان قومه ليبيّن لهم ما يتّبعون . وهم ، مع تباعد ما بينهم من أزمنة ، ومع تعدّدهم واختلاف لغاتهم ، يصدّق آخرهم نبوّة أولهم ويصدّق أولهم قول آخرهم . وهذا دليل على أنهم ينطلقون من مصدر واحد ويقومون بدعوة واحدة تناهت ، في آخر المطاف ، إلى محمّد ﷺ .

ب ـ إثبات نبوة محمد ﷺ وصحة الوحي :

1 ـ من حيث ظروف الدعوة المتميّزة :

- بأصل النبي ومنبته . فهو آخر سلسلة من الآباء الأخاير والأمهات الطواهر من أثبت محاتد أرومات البرية أصلاً وخير البرية عند الله نفساً .
- وبيئتها الزمانية : إذ جاء النبي في زمن ترقّبه قوم اشتدّت حاجتهم إليه بعد أن كثرت فيهم المظالم وضاع الحق وانتشرت عبادة الأوثان وأصبح ظهور الهادي أمراً لا مفرّ منه .
- وبإطار خاص لحياة النبي الشخصيّة إذ كان يتيماً مستضعفاً إلى أن نصره الله . وكان أمّياً لا يعرف القراءة ولم يطلب العلم إلى أن علّمه الله . وكان مؤمناً برسالته ، واثقاً من نصر الله لها ، لم يثنه شيء عنها . جابه المشركين ذوي الأعداد الضخمة بفئة قليلة من المؤمنين فغلبهم وتحقّق وعد الله له .

2 ـ من حيث الآيات التي جاء بها والتي تثبت نبوّته . ومن مظاهرها :

العلم الغزير الذي جاء في القرآن على لسان محمد ﷺ الأمي ، وأمّيته ثابتة عرفها أهله ومعاصروه . ومن غير المعقول أن يكون اقتبس العلم عن أحد نعتبره معلمه : فهذا المعلّم لا يخلو أن يكون نصرانيًّا أو مجوسيًّا أو يهوديًّا ، فتكون الدعوة إلى النصرانيّة أو المجوسيّة أو اليهوديّة . ولو كان الشيطان معلّمَه لما دعا إلى عبادة الرحمن وترك الأوثان واتباع الخير ولعن الشيطان ؛ ولو كان أيًّا من البشر لما خفي وجوده عن أحد ولا خفي أخذ النبي عنه ، ولاعتُبر ادعاؤه الوحي كذباً ولانفضّ عنه أصحابه لذلك . ومن غير المعقول أن يكون طلب العلم في الخفاء دون أن يحسّ به أحد ، أو كتب بالنهار ودرس بالليل ، كما قال بعضهم ، فالمعرفة لها مراحل ، واكتسابها يتمّ

---

1 قرآن كريم سورة «المؤمنون» الآية 89 .

2 المصدر السابق سورة «الأعراف» الآية 191 .

3 المصدر السابق سورة «النساء» الآية 172 .

بالانتقال من مرحلة إلى أخرى ، مما لا يخفى على الناس . هذا ، فضلاً عن أن العلم الذي جاء به القرآن لم يكن ، لإنسان ، في ذلك الزمان والمكان ، الإحاطةُ به وجمعه وحمله وقوله وحفظه دون إسقاط حرف منه ، لولا قدرة من الله الذي قال لمحمّد ﷺ ﴿سنقرئك فلا تنسى﴾[1] .

ومن مظاهرها إخبار النبي بالغيوب ، قبل ظهورها ، والتنبّؤ لما يحصل في الأزمنة المتأخّرة . وهذه الرؤيا المستقبلية كانت على مستويين : المستوى الأول هو مستوى الدعوة ككل ، إذ بشّر النبي جماعته بنصر على القوى المتألّبة عليهم في بلادهم ، وعلى قوى العالم الخارجية ، المعروفة آنذاك . فقال لجماعته ، فيما يحدّثهم : سينصركم الله على جمع الروم ويغلب جنود فارس ويورثكم قصوره ، ويستخلفكم في الأرض بعدهم . وبذلك جاء الوحي : ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض . .﴾[2] . والمستوى الثاني لرؤيا المستقبل كان يرتبط بمناسبات محدّدة كتجمّع الأحزاب على المؤمنين . فقد أنبأ الوحي بذلك ووصفهم في شدّتهم : ﴿إذ جاؤوكم من فوقِكم ومن أسفلَ منكم ، وإذ زاغتِ الأبصارُ وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ ، وتَظنّون بالله الظنونا ، هنالك ابتُلِيَ المؤمنون وزُلزلوا زلزالاً شديداً﴾[3] . وبشّرهم بالفرج بعد الشدّة ﴿جندٌ هنالك مهزومٌ من الأحزاب﴾[4] . وقد ذهب الناس في تفسير نبوءات النبي مذاهب ، جميعها باطل . فقال البعض إنه يعرف النجوم والبروج ودقائق الحساب في حين أن الحجاز لم يكن دار نجوم ولا محلّ حساب . والمنجّم عادة يقيس فيصيب ويخطيء فيما يدّعيه ، بينما صدقت نبوءات النبي جميعها . . ومنهم من ردّ ذلك إلى رجم بالغيب وقياس المستقبل على معطيات الحاضر كثقته بقوّة رجاله واعتصامه بهم ، وقياسه النصر الذي كان يرافقه دائماً فيما مضى على ما سيحدث في المستقبل . . . ومنهم من ردّ ذلك إلى عمليّة شد عزيمة نفسيّة : يبشّر رجاله بالنصر فيثقون فيه ويحقّقونه . وكلّ ذلك لا أساس له لأن التنبؤ حصل قبل الأحداث ، لا في عشيّات المعارك ، ولأن المسلمين آنذاك كانوا قلّة ضعيفة خائفة من ذلّ وقهر ، حفاة عراة في معظمهم ، وهذا لا يوحي ثقة ولا يعطي عزّة ومنعة ، ولم يكن رجال النبي جميعهم ثابتي الجنان بل ﴿إنّ فريقاً من المؤمنين لكارهون . يجادلونك في الحق بعدما تبيّن ، كأنما يُساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾[5] . وأخيراً ، فما كان النبي ليرجم بالغيب ويؤكّد حدوث أمور قد لا تحدث فيكذّبه حينها رجاله وينفضون عنه . فهو إذن ، حين أطلق تنبؤاته ، كان يفعل ذلك بوحي يوحى إليه ، لا باجتهاد شخصي منه .

---

1 قرآن كريم (انظر جمهرة رسائل العرب ج 3 ص 274) سورة «الأعلى» الآية 6 .

2 قرآن كريم (انظر جمهرة رسائل العرب ج 3 ص 287) سورة «النور» الآية 55 .

3 المصدر السابق (انظر جمهرة رسائل العرب ج 3 ص 287) سورة الأحزاب الآيتان 10 و11 .

4 المصدر السابق (انظرجمهرة رسائل العرب ج 3 ص 286) سورة «صٓ» الآية 11 .

5 المصدر السابق (انظر جمهرة رسائل العرب ج 3 ص 284) سورة الأنفال الآيتان 5 و6 .

ومن مظاهرها الملموسة : القرآن ، كلام لم تسمع الآذان بمثله ، ولا يمكن أن يكون النبي اخترعه ، لأن ما أحاط به من علوم الأولين والآخرين ، وما قدّمه من تشريع وتعاليم ، يفوق قدرات محمد بن عبدالله الأمي ﷺ . أما فصاحته وبلاغته فدونهما كل كلام تفوّه به بشر ، وقد عجز العرب طراً عن أن يأتوا بمثله . والذي يلاحظ كلام النبي إلى أصحابه يرى بينه وبين كلام القرآن بوناً شاسعاً هو المدى بين كلام المخلوق وكلام الخالق . وكيف يمكن أن يكون القرآن من تأليف محمد ﷺ وهو يفصح عن مواقف وأقوال وأفكار للنبي ، كانت بينه وبين نفسه وما كان ليفشيها ، فأتى الوحي على ذكرها ونشرها ، وعظاً للنبي ودرساً في توحيد التصرّف علناً وسرًّا ؟

ومن آيات نبوّته المعجزات التي حقّقها وهي على نوعين : خواص تعرفها العرب ، قَبِلها الأتباع عن الأسلاف ، وبعضها لاتزال آثاره باقية ، لكن مضي الزمن عليها . وعدم تناقلها بين أجيال غير العرب جعلها لا تصل إلى سمع قسطنطين ، ولذلك لا يأتي الرشيد على تفاصيلها . ومن آياته العوام التي عرفتها الأمم وجادلت فيها واتخذت مواقف حيالها ، جاء في الرسالة :

ـ شجرةٌ ناداها النبي فأقبلت ثمّ أمرها فرجعت ، وبعيرٌ تظلّم ، وذئبٌ تكلّم ، وأطعمة يسيرة أشبعت جموعاً كثيرة ، ومياه قليلة أروتهم جميعاً . وقد نسبوا ذلك إلى عمل السحر والكهانة . والسحر قد يعمل في النظر ، لكنّه لا يملأ البطون . وإنكار هذا النوع من المعجزات على النبي محمّد ﷺ شبيه بإنكارها على عيسى المسيح وعلى موسى وسائر الأنبياء .

ـ حرب الطبيعة والملائكة إلى جانبه . ففي وقعة (الخندق) ، حين تألّبت الأحزاب على المسلمين من كل صوب ، وانقطع الرجاء ، أرسل الله ريحاً من الأرض وجنداً من السماء ، فباتت الريح تحوس الأحزاب حتى انهزموا لا يلوون على شيء ، وبات المسلمون منها في عافية وغفلة حتى أصبحوا ﴿وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً﴾[1] ، أنجز وعده وهزم الأحزاب وحده . . وفي معركة غير متكافئة أخرى (معركة بدر) اشتدّ الأمر على المسلمين ، وأحاطت بهم جموع الأعداء ، أنبأ النبي أن ﴿سيُهزم الجمع ويولّون الدُبُر﴾[2] . وحين جدّ الجد ، تناول النبي قبضة من تراب حثاها في وجوه المشركين فانصرفوا منهزمين ، بلا كثير قتال من المسلمين . ومما يثبت وقوع هذه المعجزات أن ذكرها ورد في الوحي الذي تلي على من عاش أحداثها . ولو لم تكن صحيحة لكذّبت جماعة النبي الوحي ، وانفضّت عنه .

ـ صفات النبي تجمع مكارم الأخلاق التي دعا إليها ، لا يمكن لبشر غيره أن يجمعها . فالله قد أدبه بها . وليس صحيحاً أن عقله هداه إليها فراض نفسه عليها وصبر لما أمل من ورائها من مكاسب ، لأن حياته اليومية تكذّب من يتّهمه بالبحث عن مصالح شخصية . فكل تصرّفاته إدبار

1 قرآن كريم سورة الأحزاب الآية 25 .

2 المصدر السابق سورة «القمر» الآية 45 .

عن الدنيا ومساواة لنفسه بسائر جماعته وزهد في الصيت والشهرة . بل إن ما تحمّله من جرّائها وفي سبيلها ، من ملامة وشتم ، ووعيد واستهزاء ، لأكثر من أن يوصف . وليس صحيحاً كذلك أنه رمى إلى توطئة الملك لأقاربه لأن ما نالهم لم يتجاوز القتل والتعذيب . والنبي لم يوص لأحد منهم . ولو فعل ، لما كان أحد ينقض له عهداً .

ـ السرعة الهائلة التي انتشرت بها دعوته ، وذلك يعود إلى إرادة إلهيّة ، لا إلى تقصير معاصريه في جداله ومقاومته ، ولا إلى استعماله القهر والقوّة لإدخال الناس في دينه ، لأن المسلمين القلائل ، الذين وقعوا في أسر المشركين ، كانوا يفضّلون الموت على الرجوع عن إسلامهم . والمعجز في هذا الانتشار هو منطلقه من رجل يتيم ضعيف ، أجير خامل ، لم يتل كتاباً ولم يتعلّم خطًّا ، ولم يك في محلّة علم ولا إرث ملك ولا بيت نبوّة . جمع الشتات فانتفت العصبية ومعها حمية الجاهلية ، وتألفت قلوب اعتادت الاختلاف ، فإذا العرب حزب واحد متفقون ، وجند مطيعون .

ـ حراسة السماء برجوم النجوم[1] . وهذه معجزة كبرى تدعم نبوّة محمّد ﷺ . فهي آية دامغة وحجّة بالغة وشهادة قاطعة تبطل أظانين المشركين . ذاك أن الجن والشياطين عندها القدرة على الارتقاء إلى جوار الملأ الأعلى . فكانت ، قبل محمّد ﷺ ، ترتفع حتى تقترب منه اقتراباً شديداً وتنصت إلى الوحي فتنقله إلى الأرض لاستخدامه في مجالات السوء . لذلك ، وحفظاً لقدسيّة الوحي المنزل على محمد ﷺ ، وإبقاء على سرّيّته ، جعل الله حرساً في السماء ، هي النجوم . فإذا اقترب أحد الشياطين من «حزام الخطر» رجمته بشهاب منها قتله . وموضوع الرجوم هذه ، ظاهر خفي ، شائك سهل ، لأن النجوم موجودة منذ الأزل وظاهرة للبشر . فربط مهمّة الرجم بها ، وتحديد هذه المهمّة انطلاقاً من نبوّة محمد ﷺ ، أمر كان فيه مجال للأخذ والرد . وقد جعلت الرسالة ، من مهمّاتها ، تفنيد الحجج وعرضها والرد عليها . جاء ذلك على أصعدة مختلفة أهمّها اثنان : إن **الشهب وجدت** بعد أن لم تكن ، **وأنها وجدت** ، في مهمّتها الردعية ، للمرة الأولى أيام محمد ﷺ . ولدعم وجهة نظره ، اعتمد محمد بن الليث نوعين من البراهين : براهين منطقيّة ، وأخرى نقلية تعتمد على استشهادات بآيات القرآن .

ـ أما البراهين المنطقيّة فأساسها النقاط التالية :

* لقد جاء ذكر النجوم والرجوم في القرآن . وما كان محمّد ﷺ ليخترع ذلك من عنده أو ليكذب فيه لأن موضوع السماء واضح للعيان يراه كل قصي ودان . والعرب ، بصورة خاصة ، على صلة قوية بالسماء . فهم ، في صحرائهم ، ليس بينهم وبينها فاصل ، يتأمّلونها في الليل والنهار . فلو أحسّوا ممسكاً على النبي فيما ادعاه ، لتمسّك به مناهضوه ولفصّلوه وطوّروه ليحاربوه به .

---

1 موضوع النجوم عامة كبير الأهميّة ، تردد اسمها كثيراً في القرآن ، وكانت مجالاً واسعاً لضرب الأمثال وشاهداً على قدرة الخالق .

* إن ما يقوله النبي بشأن الرجوم لا يتعارض وما عُرف عن الحكماء التي جعلت المنقّض من الكواكب ، بين الأعوام ، دليلاً على أمر جلل يحدث تلك الأيام . فالحكماء في ذلك ، تشير إلى أمر نادر كان يحدث مرّة بين الأعوام ، بينما اعتمد النبي في قوله على كثافة هذا الحدث الذي صار يملأ السماء من كل جانب .

* إن ظاهرة الشهب المنقضّة كانت حدثاً جديداً لاحظه معاصرو النبي فأقلقهم وملأ نفوسهم جزعاً ، حتى ربطها بعض عقلائهم بما أصاب عاداً وثمود وقوم نوح ، ومن شابههم ، من انتقام السماء ، فراحوا يدْعون إلى العطاء تكفيراً عن الذنوب .

ـ أما الأدلة القرآنيّة فتعود إلى الصعيدين المذكورين : الصعيد الأول : تسجيل الظاهرة . ورد ذلك في آيات كثيرة منها : ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين . . .﴾[1] و﴿إنّا زيّنّا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كل شيطان مارد . .»[2] والصعيد الثاني : حدوث الظاهرة بعد أن لم تكن . ومن الآيات التي تظهر ذلك قوله تعالى ، نقلاً لحديث الجن : ﴿ وأنّا لمسنا السماءَ فوجدناها مُلئت حَرَساً شديداً شُهُباً﴾[3] . ويبدو ذلك مفاجأة لهم بوضع لم يعهدوه . وحينها تساءلوا ﴿وأنّا لا ندري : أَشَرٌّ أُريد بمن في الأرض ، أم أراد بهم ربُّهم رَشَداً ؟﴾[4] وتضجّروا مما أصيبوا به من حجز وقصور ﴿وأنّا كنّا نقعد منها مقاعدَ للسمع . فمن يستمع الآن يجدْ له شِهاباً رَصَدا﴾[5] .

3 ـ من حيث التنبؤ بنبوّة محمّد ﷺ :

فهذه النبّوة حقّقت بشارة الكتب السماويّة ونبوءات الرسل والعرّافين ، فكانت حدثاً متوقّعاً وضرورياً ، يدل على ذلك :

ـ أن علماء بني إسرائيل كانوا يعرفون بأمر النبي وكذلك علماء النصارى . قال تعالى : ﴿أولم يكن لهم آية أن يعلمَه علماءُ بني إسرائيل ؟»[6] ولم يكن ليقول ذلك إلاّ وهو منه على ثقة ويقين ونور مستبين ، لأنه ، من غير المعقول أن يتوجّه إلى اليهود والنصارى ، مقنعاً وداعياً ومستجلباً ، باستخدام خبر مختلق لا يجدونه في كتبهم ؛ إذن لكانوا أدبروا عنه ونفروا منه .

---

1 قرآن كريم (انظر جمهرة رسائل العرب ج 3 ص 281) سورة «الملك» الآية 5 .

2 المصدر السابق (انظر جمهرة رسائل العرب ج 3 ص 281) سورة «الصافات» الآية 7 .

3 المصدر السابق (انظر جمهرة رسائل العرب ج 3 ص 282) سورة «الجن» الآية 8 .

4 المصدر السابق (انظر جمهرة رسائل العرب ج 3 ص 282) سورة «الجن» الآية 10 .

5 المصدر السابق (انظر جمهرة رسائل العرب ج 3 ص 282) سورة «الجن» الآية 9 .

وجاء في سورة «الحجر» ﴿وحَفِظناها مِنْ كُلِّ شَيطانٍ رَجيم ، إلا مَنِ استَرَقَ السَمْعَ فَأَتبَعَهُ شِهابٌ مُبين﴾ الآيتان 17 و 18 .

6 سورة «الشعراء» الآية 197 .

ولئن لم يوجد الخبر الآن في هذه الكتب فلأنّ العلماء كانت تكتمه بتحريف كلام الكتب عن مواضعه ، حسداً وبغياً . والمعروف أن عيسى ، عليه السلام ، قال للحواريّين : «أنا ذاهب وسيأتيكم البارَقْليط ، روح الحق . . .» وترجمة البارقليط : أحمد . ومما يقوله اشعيا عن لسان الخالق : «عبدي . . . الذي بشرت به نفسي . . . أحمد يحمد الله حمداً حديثاً ، تهليله يأتي من أقصى الأرض . . . سكانها يحمدون الله على كل شُرف ، ويكبّرونه على كل رابية . . .» ويذكر أشعيا رجلاً مسبّحاً لله من بني فيّار ، وهم قريش أهل فاران . كما يذكر أحد راكبَي بعيرين يبشّر بسقوط بابل وأصنامها . ولم يركب البعيرَ نبيٌّ بعد موسى إلا محمد ﷺ . ويتحدّث حَبَقّوق المتنبيء في زمان دانيال عن قدّيس من جبال فاران تضيء لنوره الأرض وتُحمل خيله في البحر ؛ وجبال فاران هي بلاد قريش . أما داوود فيشير في الزبور إلى الصالحين الذين يكبّرون الله بأصوات عالية ، بأيديهم سيوف ذات شفرتين . وهذا الوصف ينطبق على المسلمين . ويبتهل داوود إلى ربّه ليبعث «جاعل السنّة» يعلّم الناس أنهم بشر . وهذا يعني محمّداً ، صاحب السنّة ، الذي نفى الألوهية عن البشر . وورد في آخر التوراة : «جاء الله تبارك وتعالى من سيناء ، وأشرف من ساعير ، واستعلن من جبال فاران ، وجاء عن يمينه ربوات القدّيسين» . هكذا ، في طور سيناء أنزلت التوراة على موسى . وفي جبل ساعير (وهو جبل بالشام) أنزل الإنجيل على عيسى ، ونزل القرآن على محمّد ﷺ في جبال فاران ، وهي بلاد مكّة .

وبعد كلّ هذه الأدلة لا بدّ من استنتاج : هل صدق محمّد في ما نقله من الوحي ؟ والجواب أنّ الناس في هذا الموضوع ثلاثة أقسام : مصدّق من المؤمنين ، مكذّب من الكافرين ، شاك به من المنافقين . فالشاك يمكن تحييده إذا أجبر على اتخاذ موقف : فإما يتحوّل إلى مصدّق أو يتحوّل إلى مكذّب ، أو يعتزل . والمكذّب ، لو طلب إليه تقديم بيّنة تثبت تكذيبه لأصابه لَبس : هل يفتري على الكتب ويقول إنها نفت مجيء نبي بعد عيسى ؟ ، (كما نفى محمّد أن يأتي نبي بعده) فيخالف بذلك ما ذكرتْه فعلاً عن توقّع ظهور النبي الهاشمي ؟ أما المصدّق ، فلو طلبت منه بيّنة على تصديقه لجاء بشواهد شبيهة بما سبق ذكره في الرسالة .

وتجدر الإشارة إلى أن الجماعات ، التي يتحدّث عنها كاتب الرسالة ، مُجادلة أو رافضة ، فئتان : فئة العرب الذين عاصروا النبي وحاولوا تكذيبه ، مع أنّهم عاينوا آياته ومعجزاته وكانوا على معرفة بما خفي من أمره وما ظهر ، وفئة الذين رفضوا ، على مرّ العصور ، نبوّته وتنكّروا لآياته ، منهم العرب ومنهم غير العرب ، وكثيراً ما استشهد على الفئة الثانية بمواقف اتخذها ، أو لم يتّخذها ، أصحاب الفئة الأولى . مما نراه بعد قليل .

ج ـ إثبات صحّة القرآن المتداول : جاء في ثنايا الحجج التي قدّمتها الرسالة إشارة إلى أن القيّمين على الكتب السماويّة ، قبل محمّد ، قاموا بتحريف مضمونها لكتمان ما جاء فيها من إشارات إلى نبوّته . فهل سلم القرآن من التحريف ؟ وللنظر في هذا الموضوع لا بدّ من ذكر ثلاث

مراحل : الأولى : نقل النبي له والسماع منه والحفظ . الثانية : جمعه وتدوينه . والثالثة : تداوله . أما نقل النبي للوحي فهو صادق بلا شك لأن أولى علامات النبي أنه لا يبتدع في الدين أمراً من عنده . وأي خطأ قد يرتكبه يأتي الوحي التالي ليصحّحه له أو ليكشفه للملأ . وقد مرّ بنا أن الوحي أفشى للناس مواقف شخصية للنبي ظنّها تبقى خفيّة ، كعبوسه في وجه الفقير الأعمى ، وكمراعاة الناس دون الله في نصيحته لمن أنعم عليه الله ، وكلحظة ضعف أصابته كاد يستسلم فيها للتخاذل لولا أن ثبّته الله ؛ وكحالة تردّد مرّ بها حين أمره الله بتحويل القبلة من القدس (التي سُلّط عليها الكافرون ولم تُمنع من الظالمين) إلى مكّة (العظيمة على المنافقين ، المنيعة ، التي دافع الله عنها بجنود من عنده) . وأمّا جمع القرآن وتدوينه ، فقد تمّ ذلك بأخذ ما ترسّخ في صدور الصحابة[1] ، وقد عايشوا النبي فسمعوا منه وقرأوا بين يديه عشرين عاماً . وتدوين القرآن تمّ بمقارنة شهادات هؤلاء الرجال المتفرقّين في الأمصار المختلفة ، والمنتمين إلى شعوب وقبائل متفرّقة ؛ فأما وقد تمّ إجماعهم عليه ، فلا سبيل إلى الطعن في صحّته لأن العقل لا يمكن له أن ينكر إجماعاً كهذا لأناس لا تربطهم رابطة خاصة ولا تجمعهم مصلحة . والإجماع هو قاعدة اجتماعية وعُرْف به تُحدّد هويّة أمور كثيرة . فبإجماع المعارف والأقارب والجيران ، مثلاً ، يَعرف الولد انتماءه إلى أبويه . وبعد هذا ، إذا كان من شكّ في صحة تدوين القرآن فهذا الشك يمكن أن يقع بالمثل على جميع الكتب السماويّة . فما هي الحجّة في صحّة الإنجيل ، والبيّنة في خلوص التوراة من الشوائب ؟ مع أن الفارق بين القرآن والإنجيل هو لمصلحة القرآن ، لأن هذا الكتاب يحتوي الوحي الذي نزلت به الملائكة على النبي ، بينما الإنجيل فيه الوحي الذي أنزل على عيسى وفيه الأحاديث التي شافه بها أصحابه ، وفيه أيضاً فعلٌ أُثبت من بعده . وهذا لا يعني تشكيكاً من أمير المؤمنين بالإنجيل ، فهو يؤمن بأن الوحي لا يمكن أن تخالطه شائبة . . . وأما القرآن المتداول ، في أيام الرشيد ، فلا يمكن أن يكون فيه تحريف أو زيادة لأن الزيادة تأتي ، إما من القدماء أو من المعاصرين . فالقدماء من التابعين وتابعي التابعين ليس بمقدورهم التعديل فيه لسببين : أنّهم كانوا إما مخلصين في إيمانهم فليسوا بموضع تهمة ، وإما منافقين فهم عاجزون عن الزيادة فيه ، خصوصاً أنهم قلّة في خضمّ المؤمنين الحافظين . والمعاصرون لا شبهة عليهم ، لانتشار القرآن قبلهم وامتداد الزمان عليه ، مع العلم أن كتب اللّه محفوظة وحججه مخزونة لا يزاد فيها على

---

1 يقول ابن الأثير : «إن القتل ، لمّا كثر في الصحابة يوم اليمامة ، قال عمر لأبي بكر : إن القتل قد كثر وأستحرّ بقرّاء القرآن ، وإني أخشى أن يستمرّ القتل بالقرّاء فيذهب من القرآن كثير . إنّي أرى أن تأمر بجمع القرآن . فأمر أبو بكر زيد بن ثابت فجمعه من الرقاع والعسيب وصدور الرجال . فكانت الصحف عند أبي بكر ، ثمّ عند عمر ، فلّما توفي أخذتها حفصة فكانت عندها ، فأرسل عثمان إليها من أخذها منها وأمر زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبدالرحمن بن الحرث بن هشام فنسخوها في المصاحف . . . وأرسل إلى كلّ أفق بمصحف ، وحرق ما سوى ذلك» الكامل في التاريخ ج 3 ص 56 .

تقادم العهد : فاليهود لم يستطيعوا الزيادة على الإنجيل ، والمنافقون لا يستطيعون الزيادة على القرآن ، وإلاّ لفسدت المسيحية إذا فسد الإسلام . ولا شك في أن المضل ، المشكّك في القرآن يتّخذ ذلك منطلقاً وذريعة إلى التشكيك في الإنجيل وفي دين عيسى .

القسم الثاني : حول المعتقدات المسيحية ويتناول : إبطال الثالوث الإلهي وإثبات طبيعة المسيح البشريّة .

أ ـ **إبطال الثالوث الإلهي** : وذلك نابع من الاعتقاد بوحدانية الخالق التي تقرّ بها جميع الأديان السماوية . وتتناول الرسالة الموضوع من جهات أربع :

* مدلول الألفاظ : آب ـ ابن ـ روح القدس . هل هو غير المدلول المألوف ؟ هم إذن يلعبون : يتعسّفون الألفاظ ، يخالفون منطق النبوّة حيث يرسل كل نبي بلسان قومه . وإذا كان هو المدلول المعروف ، أيقصد بها المعنى الحقيقي أم المعنى المجازي ؟ فالمعنى الحقيقي باطل لأن وجود الابن مرتبط بمعنى الولادة . فإذا كان الأب والداً والابن مولوداً قبل الولادة ، انتفى المعنى المألوف للولادة . . . وإذا كانا كذلك بعدها ، دلّت على حدث بعد عدم إذ يصبح الابن حدثاً مخلوقاً لم يكن حتى ولد ، ولم يولد حتى خُلق ، وهذا ينفي عنه الألوهية (القدم) . . . وإذا أخذت الولادة بمعنى مجازي كأن يقال إنّ الأب والابن اسمان علّقا على غير معنى كان ذلك إقراراً بأن عيسى خُلق كسائر البشر وأن معنى الولادة غير المعروف في لغة قومه .

* التعدّد في الأقانيم الثلاثة ينتفي مع الإقرار بالوحدانية : لأن الأب إذا كان ولم يزل ، والابن ولد بعد أن لم يكن ، وروح القدس كذلك ، أصبحت الأقانيم الثلاثة متباينة ولها ثلاثة أسماء متفاوتة ، وهذا إشراك بالواحد . . . أما إذا كان الأب والابن وروح القدس واحداً ، بعضه أب وبعضه ابن وبعضه روح ، أدى هذا المعنى إلى التبعيض وهو كفر متفق عليه . هذا مع الإشارة إلى أن الوحدانية لا تجتمع مع التعدّدية إلاّ في حالة الشيء الذي أصله واحد وأجزاؤه متعدّدة كالإنسان : أصل يجمع أجزاء تلزمها أسماء : يد ، سمع ، نفس الخ . . وشرط هذه الحالة وقوعها على مخلوق ، محدود ، لأننا لو طبّقناها على الله وقلنا : الأصل واحد والأجزاء متعدّدة : أب ، ابن ، روح ، كل جزء منها إله على حياله ، فلا مهرب من إلحاق الأجزاء بكل جزء فيكون له يده وعينه ونفسه الخ . . فتتكاثر الآلهة ويصبح الرب متعدداً ، مجزأً ، مبعّضاً . . .

وأما إذا كان المعنى واحداً : الله عزّ وجل . والأسماء متعدّدة : أب ، ابن ، روح ، (على طريقة الأسماء الحسنى) فإن عبادة كلّ إله على حياله تصبح عبادة أسماء . وهذا يوجب عبادة جميع أسماء الله الحسنى على أنّ كلاً منها إله مستقل ، وهذا غير سليم . . .

وأخيراً ، إذا قيل : إنّه ليس ثلاثة متباينين وليس مبعّضاً ولا مجزوءاً ولا محدوداً ، أشبه ذلك كلام قوم يلعبون : الأب ابن والابن أب ، الوالد مولود والمولود والد ، الكبير صغير والصغير كبير . . . .

* العلاقة بين الأقانيم الثلاثة : على صعيد **العظمة** : أيهما أعظم وأيهما أصغر ؟ الأب أم الابن ؟ إذا

كان أحدهما عظيماً ، معنى ذلك أنّهما اثنان متباينان . وإذا كانا واحداً كلاهما عظيم بالتساوي ، فهذا يخالف قول المسيح : «. . . فإنّ إلهي أعظم منّي» . وعلى صعيد المستويات المكانية يقول المسيح : «إنّي صاعد إلى أبي وأبيكم ، إلهي وإلهكم» . فمن هو هذا الإله ؟ إذا كان إلهاً في السماء والمسيح في الأرض فهما إذن ، اثنان متباينان . وإذا كان إلهاً هو به متصل وكانا واحداً ، فكيف أذن يذهب إليه ؟ هل بعضه يذهب إلى بعضه ؟ وهذا تبعيض مرفوض .

* **النتيجة** : إن معنى الألفاظ هو غير ما تقع الحقائق في الآباء والأبناء عليه : هو كقول الله لإسرائيل : «أنتَ بِكري» لا يعني ولادة الرحم . وكقول المسيح للحواريّين : «أنتم إخوتي» لا يعني أخوة النسب ، وإلاّ كانوا آلهة مثله . وفي صلاة الحواريّين التي أخذوها عن المسيح : «أبانا الذي في السماوات تقدّس اسمك» يتعدّد الأبناء ، وليس المقصود بنوّة الولادة ، وإلاّ لماذا يكون عيسى ابناً دونهم ؟ وكذلك في قول المسيح : «إنّي ذاهب إلى أبي وأبيكم» . لماذا أفردوا الربوبية له وقد شملتهم البنوّة معه ؟ المسيح إذن ليس أبناً لله أكثر من سائر البشر . وهذا ما يثبته الحديث في طبيعة المسيح .

ب ـ طبيعة المسيح : **من جهة علاقتها بالله ، بمريم ، بعيسى**

* المسيح ابن الله أو ابن الإنسان ؟ يقولون : المسيح ابن الله وهو يقول إنه ابن الإنسان : هو إذن ، إله إنسان . فمتى كان ابن الله ؟ وابن الإنسان ؟ إذا كان ابن الإنسان منذ الأزل فهناك ، مع الله ، إنسان قديم . وإذا لم يكن كذلك ، كان الله إنساناً ، حديثاً . وهذا يقود إلى تناقض إذ يصبح المسيح ابن الله ، لم يزل ، وابن الإنسان ، فيما حدث .

* المسيح ومريم : إذا كان المسيح قد خرج من بطن مريم بإكماله ، فهذا يخالف قولهم : إن الله في كل مكان ، إذ كيف يمكن للرحم أن يحتوي الخالق الموجود في كل مكان من السماء والأرض ؟ وإذا لم يخرج المسيح ولم يخلِ البطن ، فقد كذب من قال إنه خرج وأقرّ بالولادة .

* المسيح وعيسى : لماذا يهبط المسيح الإله إلى بطن مريم ويتجسّد باللحم ؟ هل ليمحق الخطايا عن البشر ؟ ويربط الشيطان عن الخلق ؟ لماذا ، إذن ، لم يربطه عن نفسه وعن جماعته الذين عُذّبوا وقُتلوا ؟ وكيف كان هبوطه ؟ هل التحم بجسد حيّ فيه روح ؟ إنّ الالتحام لا يمكن أن يكون كلّياً لأن الجزء لا يستوعب الكل . ومن غير المعقول أن يلتحم بعضه دون بعض لأن في هذا تحديداً له وتبعيضاً لا يجوزان ولأن هذا يعني أن بعض المسيح الإله جيفة ، بموت جسد عيسى ، وبعضه حيّ طيّب ، وأن بعضه يدخل الخوف عليه والفزع والعطش وما إلى ذلك ، كما على سائر الأجساد الحيّة ، وهذا كلّه كفر عظيم . . . ويذهب بعض الأساقفة والشمامسة إلى أن عيسى هو المسيح ويرفعونه عن أن يكون عبداً . فعلى أي شيء وقع اسم المسيح ؟ إذا كان على الروح ، لأن الروح إله دون غيره ، فهذا يعني أن الإله يأكل ويشرب ويمشي (فعل عيسى) وهذا هراء . وإذا كان وقع على جسد عيسى ، يصبح المسيح هو الجسد والجسد مخلوق ، فيكون الإله

مخلوقاً ، فكيف يعبدونه ، ويتركون مَن خَلَقه ؟ . . . وإن كان المسيح أُطلق على روح عيسى وجسده جميعاً ، وقع التناقض في حال إضافة الأعمال إليهما معاً . فيقال : إنّ الجسد المخلوق هو خَلَقهم ، وإنّ الروح الخالقة ماتت قبلهم . . . .

ج ـ النتيجة : لِمَ يعبدون المسيح ؟

* هل لأنه رُفع إلى السماء ؟ في هذه الحال ، تفضله الملائكة لأنها توجد قبله في السماء . وكذلك إدريس ، رُفع إلى السماء ولكنه لم يُعبد .

* هل لأنه أحيا الموتى ؟ لقد أحيا حَزقيل قبله أكثر منه . وأحيا أليسع ، تلميذ الياس ، الموتى بعد مئين من السنين .

* هل من أجل الأسقام التي أبرأ والعجائب التي أَرى ؟ فماذا يقولون بعجائب موسى وآياته العظيمة ، من انقلاب البحر له يجوز فيه مع الجيش ، ومن الحجر يضرب به الأرض فتنفجر بعيون الماء ؟ وما رأيهم بيوشع وقد حَبس الشمس ثلاث ساعات ؟

إن العجائب يقوم بها البشر ولكنها تتم بإذن الله وأمره وقضائه . فليس في المسيح ما يدعو إلى عبادته ونسْب الألوهيّة إليه ، متميّزاً من سائر البشر . وهو ، أصلاً لم يقل في شيء من الكتب : أعبدوني فإنّي ربّكم .

القسم الثالث : **عروض الرشيد على قسطنطين** : بعد الجولة السابقة بين الإسلام والمسيحية ، وما خلصت إليه الرسالة من خطأ في فهم الدين المسيحي ، كان لا بدّ من دعوة إلى الإسلام يتلوها خيار آخر .

أ ـ الدعوة إلى الإسلام : في الإسلام خلاص قسطنطين ومن معه من النار ، وضمان الجنة لهم ؛ هذا في الآخرة . أما في الدنيا فيكون له ما لسائر المسلمين وعليه ما عليهم .

ب ـ في حال رفض الإسلام هنالك أحد خيارين : الجزية أو الحرب .

* ففي قبول الجزية حسنات كثيرة لقسطنطين وجماعته : فيها حقن لدمائهم ومنع سبائهم وقوام لمعاشهم وصلاح لبلادهم وبركة على فقرائهم . ذاك أن الجزية يعقبها وقف الحرب وحلول الأمن فيهم وبسط يد المسلمين في أعدائهم . وقد خبروا ذلك عقب الفدية التي جرت على يدي الرشيد ، وعاينوا البركة العظيمة التي حلّت بهم من تفرّغ القوّاد لحرب الأعداء وفرض الهيبة عليهم ، ومن الدعة والاستقرار مع الأزواج والعيال . فلم يعودوا يترقّبون الجيش من كل شُعب ، كالحال الآن ؛ كذلك تَفرَّغ أهل الحراثة وإخوان العمارة فأصلحوا وعمّروا وغرسوا وتركوا رؤوس الجبال وأقحام الغِياض . . . وفي الجزية تسهيل التجارة والتبادل في الأموال والبضائع والمواشي مع مشارف بلاد المسلمين . ولا شك في أن الجزية يصاحبها الغفران والتسامح وبذلك يتم الانسجام مع تعاليم المسيح ويكسب الحاكم رضا الرعية وتقديرها وحبّها ، لرحمته لها ورأفته بها . وهذا الخير العميم فَقَده الروم بنقضهم العهود . ويتساءل الرشيد عن السبب الذي دعاهم

إلى ترك الدعة والراحة إلى عالم من الخوف وترقّب السباء والقتل والأسر . لا بد أن ذلك شيء اختدعهم الله به عن أنفسهم .

* التهديد والوعيد : يندّد الرشيد بقسطنطين لخروجه على اتفاقيات الصلح . فالعهود من وضع الله في عباده ، تطمئن بها القلوب . وفي نقضها جرأة على الله واستخفاف به لا يمكن التغاضي عنهما . فالله المنتقم يجازي كلّ ملك أو أمّة تبيح حماه . وأمير المؤمنين يرجو ربّه أن يكون انتقامه على يد المسلمين .

ويمضي الرشيد في التهديد : فتوقّعوا العقوبة في حال رفضكم الجزية ، لأن أمير المؤمنين وثق من حلول عذاب الله بكم إن شاء الله . ومن بوادر ذلك عزم الرشيد على غزو بلادكم والتفرّغ لكم «حتى تؤمنوا بالله وأنتم طائعون أو كارهون ، وتؤدوا الجزية عن يد ، وأنتم صاغرون»[1] . أما وسيلته لذلك فجنود كثيرة فارغة ، وخزائن عامرة وافرة ، ويد للخليفة سخيّة باذلة .

* نصيحة يختم بها الرشيد وهي أن يبادر قسطنطين إلى قبول عرضه ودفع الجزية التي دعاه إليها وسبقه الملوك قبله ، لأنها عملُ خيرٍ فيه مصلحة عامة الناس ، والضعفاء المساكين الذين يتأثّرون أكثر من سواهم بالغزو وويلاته . ولأن ذلك جزء من الآداب المسيحية «طوبى للذين يرحمون الناس» . ولأن للمساكين في ديار الروم منزلة خاصة عند أمير المؤمنين ، لو يعلمون بها ، لتركوا تلك الديار إلى مناطق المسلمين ينعمون فيها بالأرض والماء والحريّة في العبادة . وعلى قسطنطين ألاّ يستشعر عاراً أو نقيصة في أدائه الجزية لأمير المؤمنين ، لأن دفعها هو مقابل خدمات تنتقل من يد الروم لتتم ، بإرادة الله ، على يد أهل بيت النبوّة والرحمة ، الذين يفون بما يقولون ، ينفّذون العهود والشروط والقيود ، وقلوبهم ممتلئة بالمحبّة وطاعة الله ، يدعمهم اتحاد الكلمة في الجيش والشعب . وهم ، إذ يفرضون الجزية ، فليس ذلك عن حاجة بهم إليها ، وإنما طاعة لله وباباً للدعوة إليه ، لأنهم يُعطون ، في المجلس الواحد ، أضعافها ؛ والرشيد ، منهم بصورة خاصة ، معروف العطايا والهبات .

إن المسلمين ، بعد أن خبروا نكث الروم ونقضهم للعهود ، وجرأتهم على اللّه ، لن يتركوا للروم ، في حال رفضهم الجزية ، إلاّ الاختيار بين الإسلام والحرب . . .

هكذا عرضنا «بشكل سريع» هذه الرسالة الطويلة محاولين استخدام لغتها وأساليب التعبير فيها ، دون التكرار والإطناب ، جاهدين في تفكيك موضوعاتها المتداخلة ، وتبويبها بشكل منطقي متسلسل دون إعادة ، وعلى الأخصّ بلا اجتهاد أو زيادة إلاّ في ما يقتضيه توضيح فكرة تبدو غامضة ، تاركين إبراز انطباعاتنا وتقويمنا للسطور التالية :

3 ـ تقويم الرسالة : ونتناول فيه أسلوب عرض الأفكار والتأثير النفسي ثمّ اللهجة التي صيغت بها الرسالة ، ونختم بالحديث عن أسلوبها الإنشائي .

---

1 جمهرة رسائل العرب ج 3 ص 321 .

أ ـ **أسلوب عرض الأفكار** : إنه أسلوب يعتمد المنطق ويستعير أسس الجدل ويتجلّى في النواحي التالية :

ـ الخطاب وافتراض السؤال ، ثمّ تقديم الجواب : فمصطلحات الخطاب تبدأ معظم فقرات الرسالة وتتوجّه تارة إلى قسطنطين شخصيًّا ، وطوراً إلى أبناء المسيحية وأهل الكتاب ، وأحياناً إلى جماعة غير محدودة لها مصلحة أو رأي في موضوع الجدل . من ذلك ، على سبيل المثال ، في مناقشة معجزات الرسول وإحداث الشهب : «ستقول ، فيما يذهب إليه الظن ، أنت ومن عقل من أمّتك وأهل ملّتك : هذه آية حاسمة . . . إن أقرّت العقول بما تقول ، أو قامت بيّنة على ما تدّعي . بلى ، ثمّ نقول : وأنّي لك بالبيّنة ولسنا نقرّ بكتابك ولا نؤمن برسلك ؟ فأرجع إليكم ، إن قلتم ذلك ، فإنّ وجدان القضاة قبل طلب البيّنات . . .»[1] وفي صحّة قصة أصحاب الفيل : «فإن قلت : إنّ محمداً ﷺ ، خبرّهم بما عاينوه وأدركوا خلافه ، نَقُل : إنّه أراد أن يفرّقهم عنه . . . كلا ، فلا تكوننّ في مثل هذا من الممترين ، ولا بأمر الفيل من المكذّبين . . .»[2] ومن ذلك : «فيا أهل الكتاب ، لا يحملنّكم الإلف لدينكم على اللعب بتوحيدكم . . .»[3] فسبحان الله يا أهل الكتاب ، ما أبين حق النبي ﷺ ، لمن طلبه !»[4] .

ـ انتهاج التسلسل للقيام بنقلة من نقطة إلى أخرى تبدو بعيدة عنها للمرة الأولى . من ذلك ، البرهان على تكامل المخلوقات ، كدليل على وحدة الخالق . فقد بدأ بالتكامل الموجود في الجسم البشري ، من القدم إلى الرأس . وهذا أمر بديهي مسلّم به . وانتقل من الإنسان إلى خلق الأرض التي وطّأها الله له وسخّرها لحياته عن طريق ما تنتجه من نبت ضروري له ولأنعامه و «جعل ذلك الخلق متصلاً بالنبت لا يقوم إلاّ به ولا يصلح إلاّ عليه . وجعل ذلك النبت ، الذي جعله متاعاً لكم ومعاشاً لأنعامكم ، متصلاً بالماء الذي ينزل من السماء بقدر معلوم لمعاش مقسوم» . والسحاب متّصل بالريح «تثيره من حيث لا تعلمون ، وتسوقه وأنتم تنظرون» والرياح متأثّرة بظروف البيئة من حرّ وقر . وهذه الظروف مرتبطة بحركة «الشمس والقمر الدائبين لكم ، المختلفين بالليل والنهار عليكم ؛ وجعل مسيرهما ، الذي لا تعرفون عدد السنين إلاّ به ، ولا مواقع الحساب إلاّ من قبله ، متّصلاً بدوران الفلك الذي فيه يسبحان وبه يأفلان» . ومسير الفلك واضح ثابت لمن يحسن النظر إليه . فهذه الدقّة اللامتناهية ، وهذا الثبات الذي لا يضطرب ، وهذه القاعدة التي تتكرّر دائماً دون تفاوت أو تباين ، دليل على إرادة واحدة تسيّرها . «ولو كان لله شريك . . . يمسك منه ما يرسل أو يرسل منه ما

---

1 جمهرة رسائل العرب ج 3 ص 264 .

2 المصدر السابق ج 3 ص 301 .

3 المصدر السابق ص 267 .

4 المصدر السابق ص 262 .

يمسك ، أو يؤخّر شيئاً من ذلك عن وقت زمانه ، أو يعجّله قبل مجيء إبّانه ، لتفاوت الخلق ، ولتباين الصنع ولفسدت السماوات والأرض ، ولذهب كلّ إله بما خلق . .»[1] هكذا تتجلّى ، في هذه المتابعة الدقيقة لأمور بديهية واضحة ، طاقة منطقيّة لا يستهان بها .

- تعداد الحجج ثمّ استبعاد الواحدة بعد الأخرى . ولنا مثل على ذلك في إثبات أُمِّيَة محمد قبل النبوّة ، وأنّ علمه جاء من مصدر وحيد هو الوحي . جاء في الرسالة : «إذا قالت العلماء من المسلمين : كان نبيّنا ، ﷺ ، عليماً بباطن أخبار النبيّين . . . كان أحيا الناس قلباً وأسرعهم أخذاً ، يتتبّع ذلك ويحبّه ، وقد رواه وعُلّمه . سبحان الله ! ألا يعلمون أن المتعلّم معروف العلم ، متفاوت الحالات . . . تارة تلميذ وتارة مقارب ، وأخرى حاذق ، وبكلّ ذلك موصوف من أهله ، معروف عند قومه ؟ ولو كان ذلك . . . لما أمره الله ، عزّ وجل أن يحتجّ عليهم . . . لقد لبثتُ فيكم عمراً من قبله لا أتلو قرآناً ولا أدّعي وحياً ، أفلا تعقلون ؟ . . . ولو كان له معلّم ، فمن هو ؟ . . . لو كان نصرانيًّا لدعاه إلى النصرانية ، أو يهوديًّا لدعاه إلى اليهوديّة ، أو مجوسيّاً لدعاه إلى المجوسيّة . ولو لم يكن له معلّم لما وقع على الحقيقة . . . ولو كان معلّمه الشيطان لما دعاه إلى عبادة الرحمن . . . وكسْر الأصنام . . . والإصلاح في الأرض . . . كلاّ ، ما كان لينقذهم من حبائله . . . وفتنته وحزبه . . . هيهات ! لقد ذهبتم بالشيطان الرجيم إلى صراط العزيز الحكيم ، فقلتم قولاً تنكره العقول . . .»[2] .

- تفريع الحجج وتفنيدها لإبراز التناقض فدحض البراهين المفترضة : يبرز لنا ذلك في موضوع ظهور الشهب الراجمة مع نبوّة محمد ، فيؤكّد كاتب الرسالة أنّ ملاحظة النجوم كانت من اهتمامات العرب ، ولم يكن النبي ليكذب في موضوع كهذا وإلاّ لكان أول من يواثبه به ويجادله فيه ، أعداؤه من قريش عامة ، وحسّاده . . . ونظراؤه من أهل بيته دنية الذين كانوا . . . يقعدون له على كل سبيل . . . فأيم الله ، لئن قلتَ إن النجوم شيء كانت العرب تراه بعيونها وتعرفه بقلوبها ، فما كان محمد ، ﷺ ، وهو عارف بها ، غير جاهل لها ، ليقول فيها إلاّ حقًّا . . . لا تجد ، مع الإقرار بذلك ، بدًّا من التصديق برسالته . . . ولئن زعمت أنه ادعى أمر النجوم كذباً ، وانتحلها باطلاً ، عارفاً كان بها أم جاهلاً ، لقد نسبتَه ، من الخطأ . . . إلى ما لا يخطيء فيه بشر ، فأكذبت نفسك وتركت قولك إنه لم يكن التأليف لقلوب العرب . . . إلاّ برأي سديد وعقل أصيل . . . إلى أحد أمرين . . . إمّا أن تقول : إنه ألّف قلوب العرب وفرّق جمع الأمم بتنزيل الوحي ، فتؤمن أنه نبي ، وإما أن تقول : فعل ذلك بجهل ، وهذا قول لا يقبل . . . وهم يجوزون به حدود الأنبياء . . . تسديداً لعقله»[3] .

---

1 المصدر السابق ج 3 ص 256 .

2 جمهرة رسائل العرب ج 3 ص 270 و271 .

3 المصدر السابق ص 267 و268 و269 .

ب ـ أسلوب التأثير النفسي : ويعتمد النواحي التالية في الترغيب والترهيب :

* الخطاب ، والمبادلة أحياناً بينه وبين الحديث عن الغائب . وهي بلاغة متأثّرة بالقرآن تعطي الحديث أبعاداً عميقة .

* استعمال أساليب معيّنة تهيّىء المخاطب للاقتناع وتتدرّج من :

- إظهار النصح له والاهتمام به . كما نرى في قوله : «إن أمير المؤمنين قد أحبّ أن ينصح لك في أولى داريك بك . . . وإن رددت نصيحة أمير المؤمنين فيما فيه الحظ في آخرتك ، فإنّ أمير المؤمنين ينصح لك فيما فيه الصلاح في عاجلتك . . .»[1] .

- إلى إظهار الثقة بحسن تمييز المخاطب واحترام حصافته وذكائه ، كدعوة له إلى الوقوف في جانب الحق . يقول الرشيد مخاطباً قسطنطين : «لولا أن هذا ما لا ينكره عقلك ، ولا يدفعه نظرك ، لما جادلتك . . .»[2] وفي مكان آخر يطلب منه استخدام ميزان العقل المعروف لديه وأصحابه لأن «العقول موازين للأمور ، فزنوا ما سمعتم من حجج كلام الرب بما تنفون به الشبهة عن الحق . . .»[3] ويقول له : «ليس يجعل أمير المؤمنين ، فيما ينازعك ويحاجّك فيه ، حاكماً غير عقلك ولا قاضياً سوى نفسك»[4] .

- إلى عزل المخاطب عن جماعته الخاطئة بمحاولة للمباعدة بينه وبينها ، ونصبه خصماً لها يقوم بجدالها ودحض آرائها تارة ، وجعله حكَماً وسائلاً ممتحناً ، طوراً . فيهيّئه بذلك للتخلّي عن مواقفه ، وتقبّل أفكار جديدة ، أو ، على أقل تعديل ، ترك موقف التحيز إلى موقف الشكّ والتفكّر ، وهو مقدّمة للاقتناع . نرى ذلك في العبارات التالية : «لعمر الله ، لئن اتّهمتَ عقول الأساقفة على دينك ، واهتممت بالنظر في توحيدك ، لتعلمنّ أن الواحد لا يكون ثلاثة . . .»[5] . «فأنتم ، إن تنكروا ما يقولون لكم . . .»[6] «ولئن رجعت إلى قلبك ، لتقولنّ في نفسك : لو كان هذا الأمر . . . حقًّا وصدقاً لبشّرَت به الكتب . . .»[7] «فإن أشارت الأساقفة . . . فقل : لا . . .»[8] «اجمع العلماء والنصراء الذين عندك ، والأساقفة والرهبان

---

1 جمهرة رسائل العرب ج 3 ص 316 .

2 المصدر السابق ص 289 .

3 المصدر السابق ص 281 .

4 المصدر السابق ص 264 .

5 المصدر السابق ص 303 .

6 المصدر السابق ص 295 .

7 المصدر السابق ص 296 .

8 المصدر السابق ص 305 .

الذين قبلك فقل : لأي شيء نسبتم المسيح إلهاً ؟ . .»[1] «وسل مَن قِبلَك من أساقفة وشمامسة أهل ملّتك الذين يزعمون أن عيسى المسيح . . .»[2] .

وكاتب الرشيد ، باستخدامه هذه الأساليب ، يستبق مواقف لا بدّ للأمبراطور من أن يقفها ، بعد تسلمه الرسالة واطّلاعه علماء بلاده وقساوسته على محتواها ، أو يردّ على براهين وحجج عرفها الجدل الإسلامي المسيحي خلال أجيال ، كما سبق لنا القول . والملاحظ أنّ كاتب الرشيد يركّز على لوم رجال الدين ويحمّلهم وزر تضليل الرعيّة والملك ، فيدعوه إلى التمرّد على أوامرهم والتنكّف عن طاعتهم والاتجاه مباشرة إلى الله الذي سيقف قسطنطين أمامه راعياً مسؤولاً عن رعيّته .

- التحذير من الميل مع الهوى والخضوع لرأي رجال الدين وأصحاب المصالح ، ومن تقبّل أمور غير معقولة دون إخضاعها للحكم المجرّد . يخاطب الرشيد قسطنطين قائلاً : «فإن مالت الأهواء بك وغلبت الأساقفة عليك وحضرك الرؤساء الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى ، بلا حجة عندهم . . فقل . . .»[3] ويلومه مرّة أخرى على قول يفترض أنه قال : «كيف ينبسط لسانك أو يجتريء قلبك أن يقول : إنّ محمّداً ، ﷺ ، أخبر أصحابه بالكذب ، وهم يعلمون ؟ . .»[4] وينصح للروم في مكان آخر : «فألطفوا النظر في صحّة معانيه ، ونحّوا الهوى عن شبهة ما وقعت فيه . .»[5] .
- الإتهام بالخضوع لرجال الدين وبأتباع معتقدات الآباء على علاّتها ، مع كل ما فيها من تناقض ، وذلك تمسّكاً بنمط الحياة المعتاد وبحطام الدنيا الذي حصلوا عليه ، وهو زائل فان . يخاطب الرشيد الروم : «لقد أكثر المؤمنون العجب من ذهاب الأساقفة بكم . .»[6] «لقد اقتديتم بهم وجريتم معهم وأخذتم عنهم ، بلاحجّة لكم ، ولا قوّة معكم ، إلاّ الاقتداء بالآباء ، والاتباع للآثار . . .»[7] ويوجّه أصبع الاتهام إلى قسطنطين : «ثمّ أنت لا تؤمن بمقالته (محمّد) ولا تقرّ برسالته ، إلفاً لدينك ، وضنّاً بملكك ، وطمعاً في قليل من الدنيا قدّمه اللّه إليك ، ورغبة في صبابة عيش غير باقية بين يديك . . .»[8] .

---

1 جمهرة رسائل العرب ص 308 .

2 المصدر السابق ص 305 .

3 المصدر السابق ج 3 ص 301 .

4 المصدر السابق ص 289 .

5 المصدر السابق ص 281 .

6 المصدر السابق ص 295 .

7 المصدر السابق ص 296 .

8 المصدر السابق ص 291 .

ـ التخويف من الله ومن المسؤولية التي يتحمّلها الحاكم : «فاتق الله ، وكن من القائمين بالحق»[1] ، «فأحسن النظر في أمرك ، والتثبت في دينك»[2] ، «فاتق عقوبة الله ربّك ، ولا تمش مكبًّا على وجهك . . .»[3] ، «فاتق الله ، إذ كنت إماماً وقائداً لأهل ملكك ، لاتقدهم إلى النار فتحمل أوزاراً مع وزرك . .»[4] «فاتق الله في نفسك واتهم الرجال على دينك . .»[5] .

ج ـ **أسلوب الخطاب** : لقد ذكرنا سابقاً الأسلوب الذي استخدمه كاتب الرسالة في تدبيجها ؛ ولئن لم يستخدمه بالتسلسل الذي ذكرناه ، فهو ، بلا شك ، كان يعيه تماماً ويتبعه عن قصد ، هادفاً إلى التأثير به . إنما ، ومع جميع ما ورد من تعابير تحاول مراعاة المخاطب واجتذابه إلى فيء القناعة ، فإن نبرة عامة ، كانت تشع من الرسالة ، تذكّر بالرشيد المعتد بنفسه ، الواثق بصواب رأيه ، وتؤكد أن الكتاب ، إذا لم يكتبه الرشيد بيده ، أو لم يكتبه اطلاقاً ، فإن فيه شيئاً كثيراً من روحه يجعله معقولاً فمقبولاً . هذه النبرة هي نبرة المتفوق المتفضل ، أو الواعظ المبشر بالحق الذي يصل به الحماس إلى الأمر والنهي ، يعطيه المسوغ لذلك ما يرى أمامه من ضلال ، وما يرى نفسه عليه من هدى . فلنستمع إليه يخاطب قسطنطين : «فأحضر كتابي هذا فهمَك ، واصبر له ، وإن خصَمك . .»[6] «وإن أمير المؤمنين . . . دعاك إلى الإسلام وأمرك بالإيمان . . .»[7] ولعلّ الأمر هنا ليس أمر الرئيس للمرؤوس بقدر ما هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي وضعه الدين على كاهل من سبقوا إلى عالم الهداية والنور . ويتمادى في الدور حتى يصل إلى التقريع بسبب الأخطاء المنكرة التي يعلم بارتكابها : «إلاّ إن أعجب عذركم وأفظعَه كان ، عند أمير المؤمنين ، إذ بلغه جرأتكم على الله عزّ وجل ، في نقض عهده . . .»[8] ولا بدّ من الإشارة إلى صيغة في الرسالة تتصاعد من جوانبها موازية للنبرة الأولى ؛ وهي ، إن جاءت على لسان الرشيد متبنيّ الرسالة ، فإنها تشير إلى كاتبها «المتكلم المحارف»[9] . فهي صيغة تعليمية تعوّدها أصحاب الطرق والنظريات مع تلاميذهم ، من لفت النظر واستحضار الانتباه وتركيز الذهن على ما يقال ، والحث على طلب الحقيقة . . حتى طبع هذا الأسلوب في الكلام أحاديثهم

1 جمهرة رسائل العرب ص 308 .
2 المصدر السابق ص 290 .
3 المصدر السابق ص 307 .
4 المصدر السابق ص 299 .
5 المصدر السابق ص 296 .
6 المصدر السابق ص 286 .
7 المصدر السابق ص 315 .
8 المصدر السابق ص 320 .
9 الفهرست ص 120 .

وكتاباتهم ، ثم انتقل إلى سواهم ، وقد عرّج على البلاط . ويمكن ملاحظة هذه الصيغة في كثير من الاستشهادات التي سبق لنا ذكرها ، ونضيف هنا أمثلة مقتضبة كقوله : «إن أمير المؤمنين واصف لكم ومقتصّ عليكم من ذلك ، إن شاء الله ، ما فيه شهادات واضحات وعلامات بيّنات . . . فأردت أن تكونوا على علم ومعرفة ويقين وثقة . . .»[1] ويخاطب قسطنطين : «فأحضر كتاب أمير المؤمنين فهمك ، وألقِ إلى ما هو واصف ، إن شاء الله سمعك . .»[2] ويقول له : «فأحسِن النظر وقلّب الفكر . . .»[3] ويخاطبه متحدّثاً عن آيات النبي : «. . . لا تغلقْ أبواب الفهم عنك . . . ولكن انصب نفسك للفهم . . . وأرد الحق وقبوله»[4] . وفي حديثه عن وجود دلائل تتحدّث عن مجيء محمد في الكتب السماوية ، يخاطبه ، حاثّاً إيّاه على البحث والاستقصاء : «وأيم الله ، لئن طلبت لتجدنّ ، ولئن اجتهدت لتُوَفَّقَنّ . . .»[5] ونتساءل هنا عن موقف الرشيد من هذا الأسلوب في الخطاب : ألم يلحظه ويعترض عليه ؟ والأغلب أنه لحظه وقبله لأحد أمرين : إمّا أن يكون الرشيد أُعجب بهذا الأسلوب يخاطب به قسطنطين كما يخاطب المعلّم تلاميذه ، وذلك يضعه في مرتبة أعلى ، من العلم ، ويتفق مع اعتداده بنفسه ، الذي سبقت الإشارة إليه . وإما أنه وجد الشكل والمضمون لا ينفصلان في هذا النوع من الكتابة : فإذا قبل المضمون الذي قدّمه أبو الربيع ، كان عليه أن يقبل الإطار الذي يبرزه فيه . .

خاتمة : بعد هذه الجولة في صفحات الرسالة وبين السطور ، وبعد عرض مضمونها وحججها ومواضيعها وأساليب الجدل فيها والنبرات التي تتصاعد منها ، وبعد الإشارة إلى تمثيل ذلك كلّه للبيئة الفكرية التي لفّت عصر الرشيد ، لا بدّ من لمحة عن الأسلوب الإنشائي للرسالة . فهو مزيج من أسلوب المتكلّمين والكتّاب المترسّلين : يأخذ من الأولين لغة علميّة واضحة بعيدة عن التقعير واصطياد الألفاظ وتصنّع الصور البيانية والمحسنات البديعية ، كي يتمكّن من إيصال الفكرة بوضوح فلا تكون متاهات اللغة حاجزاً دون العقل والفهم . وهو يأخذ من الآخرين الميل الشديد إلى الإطناب ، يستنفدون به المعنى في جمل مترادفات متلاحقات ، وصفات متراصّة مسجوعة لا تترك السامع إلا وقد أحس بالحاجة إلى الانتقال إلى معنى جديد ، بل إلا وهو يترقب هذا المعنى الجديد ويتلهف عليه ، وكأن الكاتب يقوم بالتشويق عن طريق خلق الملل . والأسلوب هذا ، الذي يتفشى في الرسالة بكاملها ، على درجات متفاوتة من الحدّة ، نجده بارزاً في المقطع التالي يتحدث عن شرف نسب محمد وحاجة العرب إلى نبوة «النبي الأمي

---

1 جمهرة رسائل العرب ج 3 ص 258 .

2 المصدر السابق ص 258 .

3 المصدر السابق ص 260 .

4 المصدر السابق ص 265 .

5 المصدر السابق ص 296 .

الذي أنتخبه الله لوحيه ، واختاره بعلمه ، فلم يزل ينقله بالآباء الأخاير والأمهات الطواهر ، أمةً فأمةً وقَرناً فقَرناً ، حتى استخرجه الله في خير أوان وأفضل زمان ، من أثبت محاتد أرومات البرية أصلاً ، وأعلى نبعات العرب فرعاً ، وأطيب منابت أعياص قريش مغرساً ، وأرفع ذرى مجد بني هاشم سمكاً . . . على حين أوحشت الأرض من أهل الإسلام والإيمان ، وامتلأت الآفاق من عبدة الأصنام والأوثان ، واشتعلت البدع في الدين ، وأطبقت الظلم على الناس أجمعين ، وصار الحق عافياً ، خلقاً بالياً ، ميتاً وسط أموات ، ما إن يحسّون للهدى صوتاً يسمعونه ، ولا للدين أثراً يتبعونه . . .»[1] هكذا يمضي محمد بن الليث في إطنابه ، يشك عقد الأوصاف والمرادفات ، موازناً بين السجعات معتمداً ، بلاغة تهدف إلى التأثير باللفظ ، إلى جانب التأثير باللهجة المنطقية . وكأني به ، مع كل تفكيره المنطقي ، غاب عن باله أن أمبراطور الروم لا يفقه العربية ، وأن هذه الرسالة ستنقل إليه ، مترجمة ، باليونانية[2] أو اللاتينية ، وأن هذه اللغة أو تلك ، شأن أي لغة أخرى غير العربية ، قد لا يكون من طبيعتها استيعاب الإطناب ومعادلة المرادفات المتقاربة التي لا تحصى في الرسالة ، وأن الناقل سوف يجهد ليحفظ للنص المنقول شيئاً يسيراً من رونقه ، لكنه سوف يعجز حتماً عن إبقائه كله عليه . وهذا ما يجعلنا نعتقد أن الرسالة ، التي وجّهت إلى قسطنطين ، هي في الواقع كتاب موجّه ، عبره ، إلى التاريخ .

---

1 جمهرة رسائل العرب ج 3 ص 259 .

1 هي اللغة الرسمية منذ أيام ليو الثالث ، أصدر بها مجموعة القوانين المعروفة باسم الأكلوجا (عام 108هـ/672م) انظر الدولة البيزنطية ص 193 .

الفصل الرابع
صراع الترف والحرمان حول الرشيد

الثروة السراب

جـاء البشيرُ ، مُقَـدِّمُ البُشَراء منـه عـليَّ بأعظـمِ العُظَماء :
أبشِرْ ، أبا إسحاق ، أدركتَ المُنى والسُؤْلَ منـه ، فأعَطِني بُشرائي
فطفِقتُ أُعطي بالبِشارةِ ما حوتْ كفّـاي مـن صُفرٍ ومن بيضاءِ
حتى إذا بقيتْ يـدي مِن مُلكِها صِفراً ، وجُدْتُ بجُبّتي وردائي
وبكلِّ مـا يدعـو ويَذكرُ ذاكرٌ وبخاتَمي ، فضلاً على الأشياءِ ،
صار الـذي أمَّلتُـهُ ورَجوتُـهُ يـأساً ، رهينـاً قبضـةَ العَنْقاءِ
قد كنتُ قبلَ اليـوم أُدعى مُسلِماً واليوم صارَ الكفرُ مـن أسمائـي[1]

إبراهيم بن سيّابة

عرس الرشيد

«زوّج (المهدي) ابنه الرشيد بأم جعفر ابنة أخيه ، فاستعدّ لها ما لم يستعدّ لامرأة قبلها ، من الآلة وصناديق الجوهر والحلي والتيجان والأكاليل وقباب الفضة والذهب والطيب والكسوة . وأعطاها بدَنة عبدة ابنة عبدالله بن يزيد بن معاوية ، امرأة هشام ، ولم يُرَ في الإسلام مثلها ومثل الحَب الذي كان فيها . وكان في ظهرها وصدرها خطان ياقوت أحمر وباقيها من الدر الكبار الذي ليس مثله . . . وحُشر الناس من الآفاق وفُرّق فيهم من الأموال أمر عظيم . فكانت الدنانير تُجعل في جامات ذهب ، ونوافج المسك وجماجم العنبر والغالية في بَواطي زجاج ، ويُفرّق ذلك على الناس ، ويُخلع عليهم خلع الوشي المنسوجة . وأوقد بين يديه في تلك الليلة شمع العنبر في أتوار الذهب . وأحضر نساء بني هاشم ، وكان يُدفع إلى كل واحدة منهن كيس فيه دنانير وكيس فيه دراهم وصينية كبيرة فضة فيها طيب ، ويخلع عليها خلعة وشي مثقل . . .»[2] .

الشابشتي

تمهيد : دور البلاط في خلق التناقض الاجتماعي

لقد مرّ بنا أن تيّارات العصبية كانت تقسم المجتمع العبّاسي ، رأسياً ، إلى فئات يقوم الصراع

---

1 طبقات ابن المعتز ص 92 .

2 الديارات ص 156 .

داخل كل منها ، كما يقوم بين الفئة والأخرى . أما الآن فنحن نعرض للحديث عن صراع من نوع آخر كان ينجم عن قسمة أفقية للمجتمع إلى : مترفين ومحرومين . والحقيقة أننا لا نهدف إلى البحث عن تقسيم طبقي للمجتمع العبّاسي كلّه ، بحسب مستوى الغنى والفقر[1] ، إنما نقصد إلى دراسة ظاهرة التناقض في مستوى العيش التي كان البلاط يسببها بإفرازه لفئتين من الناس تمايزتا على الصعيد الحياتي ، وتصارعتا بسبب ذلك . لقد كان الحكم ، كما نعرف ، دينياً استبدادياً ، والبلاط محور المؤسسات الاجتماعية ، كما كان الخليفة يمثل مركز الثقل في هذه المؤسسة الرئيسة : بيده الغنى والفقر ، وبلسانه الحياة والموت . لذلك كان لـه دور كبير في خلق الترف عند المترفين من المتصلين بـه ، كما كان له دور مقابل ، إيجاباً وسلباً ، في حرمان بعض المحرومين ، أو في دوام الحرمان عليهم . لذلك نتناول بالدراسة في هـذا الفصل بعض مظاهـر الترف التي عرفها البلاط وما طاف بها من أدب ، ثم نعود بعدها إلى الحديث عن الإحساس بالحرمان لدى من لم يتّصلوا بالبلاط أو من لم يستطيعوا تثبيت أقدامهم فيه ، وكيفية تجلّي ذلك في أدبهم المتمرّد على الترف ، وفي حركة الزهد الذي هو حرمان مقصود ، والذي ألقى ظلاً طويلاً على بلاط الرشيد . ولا بدّ هنا من التمييز بين الحرمان والفقر . فالمحرومون ليسوا دائماً فقراء ، لأن بعضهم ، في عصر الرشيد ، كان يتّخذ الحرمان منهجاً لكسب العيش أو منطلقاً لتأمين غنى الآخرة . وكان بعض هؤلاء يكنزون المال ، وبعضهم الآخر يترفّعون عنه وهم ، لو أرادوا الإفادة من النفوذ الذي نالوه بالتزام الزهد في الدنيا ، لأكلوا في صحاف الذهب بملاعق الفضّة .

أولاً : الغنى والترف في بلاط الرشيد

1 ـ غنى الدولة والبلاط : تحدّثت كتب التاريخ والسيرة والنوادر ، وكتب الأدب ، عن غنى الدولة أيام الرشيد وعن حياة الترف التي كان يحياها . ونحن لا نريد أن نتوسّع في ذلك ، بل نكتفي بإشارات سريعة معبّرة . أما غنى الدولة ، الذي بلغ القمّة في عهد الرشيد ، فقد شمل جباية الخراج من معظم أقطار العالم المعروف آنذاك ، والجزية من ملوك الروم ، والطرف والهدايا من ملوك الهند وسواهم[2] . فبلغ مدخول الدولة : سبعة آلاف وخمسمئة

---

1 إن الأساس الاقتصادي ، حسب أدموند جوبلو ، يصعب استخدامه لتحديد طبقي (راجع Edmond Goblot في كتاب La Barrière et le Niveau ص 13 Collection SUP طبع باريس 1967) وفي رأينا أن هذا الأساس لا يصلح لتقسيم المجتمع العبّاسي بالذات لأننا ، لو أخذنا معيار الغنى ، لوجدنا الأغنياء أشتاتاً لا يمكن لوعي طبقي أن يجمعها : فمنهم العرب وغير العرب ، المسلمون وغير المسلمين ، التّجار والمغامرون ، شعراء ومعلّمون ، اقطاعيّون وقوّاد وسواهم ، فيراوح الغنى بين أبناء العائلة المالكة والسوقة : كلّ وصل إلى ثروته بطريقه الخاص ، وينفق أمواله بأسلوبه المختار . والحرمان الاجتماعي ، فضلاً عن الاقتصادي ، يجمع أشتاتاً لا تقل تنوّعاً . وهذا كلّه يجعل التقسيم الطبقي ، في المجتمع العبّاسي ، صعباً جدًّا إذا اعتُمد المفهوم العلمي للطبقة .

2 العقد الفريد ج 2 ص 203 .

قنطار سنوياً[1] . وهذا الدخل خاص ببيت مال الدولة ، أو بيت مال المسلمين ، الذي يتمّ منه الإنفاق على الشؤون العامة . إنما ، إلى جانبه ، برزت بيوت أموال أخرى . فإذا تجاوزنا بيت مال الخاصة ، أو بيت مال السرور[2] الذي كان الرشيد ينفق منه في عطاءاته ، وإذا تجاوزنا بيت مال البرامكة الذين لم يكد «ينجو» إنسان في بغداد من إحسانهم ، نرى دخل الخيزران ، والدة الرشيد ، ستة آلاف وستين مليون درهم في العام[3] . أما زبيدة ، زوجة الرشيد ، فقد بلغ من غناها أن تقوم بمشاريع عامة على حسابها الخاص[4] ، كما تصوّرها الروايات تلبس من حليّ الذهب ما يجعلها تستند إلى جاريتين حين تمشي[5] . وهي أول من اتخذ القباب من الفضّة والأبنوس والصندل وكلاليبها من الذهب والفضة ، ملبّسة بالوشي والسمّور والديباج وأنواع الحرير . . . واتخذت الخفاف المرصّعة بالجواهر ، وشمع العنبر . .»[6] وزعموا أن محمد بن سليمان الهاشمي كان يملك خمسين ألف عبد ، منهم عشرون ألفاً عتقاً[7] . وحين ولي البصرة قدّم إلى الخيزران هديّة نادرة : مئة وصيف ، بيد كلّ منهم جام من ذهب مملوءاً مسكاً[8] . وحين توفّي ، صادر الرشيد تركته فكانت شيئاً خياليّاً[9] . أما عن تركة الرشيد ، فيقال إنه خلّف أكبر مقدار من المال وهو ثمانية وأربعون مليون دينار[10] . وكان في

---

1 (مقدمة ابن خلدون) ج 2 ص 504 وأدب الكاتب ص 198) والأرجح أن يكون الوزن من الفضة ، لأن تحويله إلى أرطال (7500 x 100) يعطينا 000 750 رطلاً . فإذا كان رطل الفضة يعادل في الأصل مئة دينار تكون القيمة (000 750 x 100) 000 000 75 دينار . وبحساب الدينار الرسمي مساوياً سبعة دراهم تصبح القيمة (525 مليون درهم) . وهذا الرقم قريب من الذي أورده الجهشياري ملخصاً به قيمة إحدى قوائم الخراج السنوية أيام الرشيد ، وهو (000 312 530 درهم) . (انظر الوزراء والكتّاب ص 288) .

2 آدم ميتز ـ الحضارة الإسلامية ـ ج 1 ص 227 .

3 (النجوم الزاهرة ج 2 ص 72) ويذكر الأربلّي أنها مئتا مليون وستون ألفاً (خلاصة الذهب المسبوك ص 171) ولا نشك في وجود مبالغة أو خطأ في كلا الرقمين .

4 مروج الذهب ج 4 ص 244 .

5 Vasiliev-Byzance et les Arabes p. 10 . ويذكر المسعودي أن ثمن الثوب من الوشي الذي اتخذ لها بلغ خمسين ألف دينار (**مروج الذهب** ج 4 ص 244) .

6 مروج الذهب ج4 ص 244 .

7 النجوم الزاهرة ج 2 ص 74 .

8 خلاصة الذهب المسبوك ص 116 .

9 الطبري ج 8 ص 237 والنجوم الزاهرة ج 2 ص 75 .

10 آدم ميتز ـ الحضارة الإسلامية ج 1 ص 229 ويقول الطبري : «مات هارون الرشيد وفي بيت المال تسعمئة ألف ألف ونيف» (ج 8 ص 364) . ويقول الثعالبي «إن الرشيد خلّف من المال ما لم يخلفه أحد مثله ، مذ كانت الدنيا . ذلك أنه خلف من الأثاث والعين والورِق والجوهر والدواب ، سوى الضياع والعقار ، ما قيمته مئة ألف ألف وعشرون ألف ألف دينار» (طائف المعارف ص 118) ويذكر السيوطي أنه خلّف مئة ألف ألف دينار ، ومن

خزائنه المخصّصة للسلاح : عشرة آلاف سيف محلّى بالذهب ، وخمسون ألف سيف للشاكرية والغلمان ، ومئة وخمسون مليون رمح ، ومئة ألف قوس ، وألف درع محلاّة وألف درع عامة ، وعشرون ألف بيضة وعشرون ألف جوشن ومئة وخمسون ألف ترس ، وأربعة آلاف سرج محلاّة بالذهب وثلاثون ألفاً عامة . . .»[1] .

2 ـ **ملامح الترف** : إنّ هذه المداخيل الضخمة ، التي وصلت إلى الرشيد وأفراد عائلته ووزرائه وقوّاده ، تحوّلت إلى التفنّن في أساليب الإنفاق والتنافس فيه . من هذه الأساليب التأنّق في اللباس باستخدام أنواع القماش الثمين المطرّز ، الموشّى ، المزركش ، وفي بناء القصور وفرشها وأدواتها وحدائقها وبركها ، وفي التفنّن باستخدام المراكب من هوادج وخيل وسفن ، وفي ابتداع وسائل التنعّم والراحة كالتبريد في الصيف والتدفئة في الشتاء . ولنا نموذج فريد للتبريد والتبخير أبدعه الرشيد . فقد «كان أول من اتّخذ ، في بيت مقيله في الصيف ، سقفاً دون سقف . وذلك أنه ، لما بلغه أن الأكاسرة كانوا يطيّنون ظهور بيوتهم في كل يوم ، من خارج ، ليكفّ عنهم حرّ الشمس ، اتّخذ هو سقفاً يلي سقف البيت الذي يقيل فيه» . روى الطبري عن عليّ بن محمّد عن أبيه : «خبرت أنه كان له في كل يوم قيظ ، تغار من فضة يعمل فيه العطار الطيب والزعفران والأفاويه وماء الورد . ثم يُدخل إلى بيت مقيله ويُدخل معه سبع غلائل قصب رشيدية تقطيع النساء . ثم تغمس الغلائل في ذلك الطيب . ويؤتى ، في كل يوم ، بسبع جوار ؛ فتَخلع كل جارية ثيابها ، ثم تُخلع عليها غلالة وتجلس على كرسي مثقّب ، وترسل الغلالة على الكرسي فتجلله . ثم تبخّر من تحت الكرسي بالعود المدرج في العنبر ، أمداً ، حتى يجفّ القميص عليها . يُفعل ذلك بهنّ ، ويكون ذلك في بيت مقيله ، فيعبق ذلك البيت بالبخّور والطيب»[2] .

أما المآكل ، فحدّث عنها ولا حرج . «وكان جعفر بن سليمان أحضر على مائدته ، بالبصرة ، يوم زاره الرشيد ، ألبان الظباء وزبدها وسلاها ولبَأها»[3] . واشتهر خبر جام من ألسنة السمك قدّمه إبراهيم بن المهدي على مائدته للرشيد كلّف أكثر من ألف درهم[4] . ووصف العماني مائدة محمد بن سليمان ، وما حوته من سلسلة مأكولات دسمة ، في قصيدة مشهورة[5] .

= الأثاث والجواهر والورِق والدواب ما قيمته مئة ألف ألف وخمسة وعشرون ألف دينار . «(تاريخ الخلفاء ص296) .

1 ثمرات الأوراث بهامش المستطرف ج2 ص 131 . ومع اقتناعنا بعدم دقّة الأرقام فلها ، بلا شك ، تعبير عمّا بلغه الرشيد من غنى استثار خيال الناس .

2 الطبري ج 8 ص 356 .

3 الحيوان ج 7 ص 188 . واللِّبأ : أول اللبن عند الولادة ، قبل أن يرقّ .

4 مروج الذهب ـ دار الأندلس ـ ج 3 ص 363 .

5 القصيدة في الأغاني ج 18 ص 236 ومطلعها : جـاؤوا بفَرنيٍّ لهـم ملبـونِ بات يُسقّى خالصَ السُّمون

وقد استُخدم الغلمان والجواري للخدمة والمتعة وتزيين القصور بالجمال الحي ، بشكل فاق ، عند أهل العصر ، كل وصف . فحفلت القصور والدور بأنواع من هذه «السلعة البشرية» بلغ التفنّن في انتقائها وعرضها حدًّا لا يوصف . ولعلّها كانت ، مع الخمر ، من المتع القليلة التي لم يملّها العربي . فهو لم يتوان عن الاستزادة من الجواري ، طالما أمكنه ذلك . ويعطينا الأصفهاني صورة معبّرة في الخبر التالي : «أُهديت إلى الرشيد جارية في غاية الجمال والكمال . فخلا معها يوماً وأخرج كل قينة في داره واصطبح . فكان جميع من حضره ، من جواريه المغنيات والخَدمة في الشراب ، زهاء ألفي جارية في أحسن زي من كل أنواع الثياب والجوهر» . وسمعت زبيدة الخبر فاتفقت وعُليّة أخت الرشيد على إعادته إلى قاعدة الزوجية . «فلمّا جاء وقت صلاة العصر ، لم يشعر الرشيد إلاّ وعُليّة قد خرجت عليه من حجرتها ، وأم جعفر من حجرتها ، معهما زهاء ألفي جارية من جواريهما وسائر جواري القصر ، عليهنّ غرائب اللباس ، وكلّهن في لحن واحد هزج صنعته عليّة :

مُنفصِلٌ عنّي وما قلبيَ عنه مُنفصلْ
يا قاطعي اليومَ لِمَنْ نَويتَ ، بعدي ، أن تَصِلْ ؟

فطرب الرشيد وقام على رجليه حتى استقبل أم جعفر وعُليّة ، وهو على غاية السرور . وقال : لم أر كاليوم قط . . .»[1] وأخيراً فإن العطاء أو الهبة التي يقدّمها صاحب القصر إلى المتّصلين به ، هي أحد مظاهر استخدام المال ، وسبب لخلق تيّار من الترف في صميم طبقة المحرومين . وهذا ما نعود إليه فيما بعد .

ثانياً : البلاط وأدب الترف

مع أن حياة الترف التي ألمحنا إليها كانت مرشّحة لتؤثّر في الإنتاج الأدبي المرافق للرشيد وبلاطه ، فإننا لا نجد ، فيما وصل إلينا من ذلك الإنتاج ، تغنّياً من الشعراء بجمال الحياة في البلاط ، ولا وصفاً لترف العيش داخل جدرانه[2] . وقد يبدو ذلك غريباً مع ما عرف عن شعراء

---

1 الأغاني ج 10 ص 182 ونهاية الأرب ج4 ص 209 وانظر ص 159 من البحث .

2 قد يكون الشعراء الذين اتصلوا بالبلاط عاشوا حياتهم الشخصية بترف . فوصفوها وما فيها من متع وملذّات . لكنها حياتهم وليست حياة البلاط . يقول غرونباوم : «كان من الطبيعي أن يعمد الشعراء المتصلون بالبلاط إلى وصف كل مظهر مرموق ، وتعظيم كل بادرة بارزة في حياة المجتمع الراقي . ولعلّ هذا الاتجاه يفسّر لنا نشوء الطرديات التي امتاز بها أبو نواس . . .» «دراسات في الأدب العربي ص 149) . ونحن ، مع تأكيدنا من جديد ضآلة ما أبدعه شعراء البلاط من وصف لمعالم الحياة فيه ، نرى أن الصيد ، ككثير من مظاهر السلوى الأخرى ، لم يكن وقفاً على البلاط ولا على المترفين . وأن أبا نواس اتصل بالرشيد لكنه لم يلازم بلاطه ولم يرافقه في تنقّلاته ، إذ لا تذكر المصادر الأدبيّة الموثوقة ذلك . (خلافاً لما تحكيه الروايات والنوادر) . لذلك من الصعب القول إن طرديات أبي نواس هي رسم لوجه من حياة البلاط . والمتأمّل لقصائد الطرد في ديوانه يرى أنها تشكّل باباً مستقلاً : لم تنظم

الرشيد من تسجيلهم حركاته وسكناته في أشعارهم[1] . فلا قصور الرشيد ، ولا الحدائق في تلك القصور ، ولا الفرش والزينة ، ولا المآكل والمشارب ، ولا الطيب والملابس ، ولا المجالس الرائعة بين الآس والريحان ، على ضفاف دجلة والفرات ، يظهر منها في أدب المتّصلين بالرشيد وبلاطه أكثر من إشارات نادرة وعابرة[2] . أمام هذا الواقع لا بدّ من وقفة متسائلة : لماذا ؟ . . . كيف ينحرف درب الأدب عن تلك العظمة التي قاربت الأسطورة ودوّخت خيال العربي وغير العربي ؟ ونتلمّس الإجابة في الملحوظات التالية :

1 ـ أدب البلاط لا يعبّر عن بيئة البلاط : لأن معظم الشعراء والأدباء ، الذين أحاطوا بالرشيد ، كانوا غرباء عن بيئته وعن مستوى حياته . فمعظمهم انتشلهم من الحضيض بطريق المصادفة أو

= لتوجّه إلى خليفة ، وإن كانت مرشّحة لتستأثر باهتمامه ، وهي لا تصف حياة البلاط وصيده لأن أبطالها ، من الكلاب ، لها علاقة بأبي نواس لا بالرشيد .

1 قد يكون بعض الشعر قيل في وصف القصور والمجالس ، إنما لم يصلنا لأن المؤرّخين أهملوه أو لأنه ضاع في النكبات المتواصلة التي ألّمت بالمكتبة العربية . إلاّ أننا نستبعد أن لا يصلنا نموذج منه ، وهذا يجعلنا نتساءل : هل كان الرشيد مثلاً يريد أن يوصف بالترف وأن يسجّل الشعر ملامح حياته المنعمة ؟ أكبر الظن أن لا .

2 هناك إشارة إلى قصر الرشيد في مطلع قصيدة مروان بن أبي حفصة المدحية . يذكر بيتٌ منها علوّ القصر الذي يتجاوز السحاب ، ويلمّح بيت ثالث إلى الحدائق التي انتثرت فيها الزهور بديعة شتّى كأن الربيع ألمّ بالأرض . وعثرنا على بيت رابع يتحدّث عمّا في داخل القصر من كل عجيب نادر :

قصرٌ عليه تحيّةٌ وسلامُ ... نشرتْ عليه جمالَها الأيامُ
قصرٌ سقوفُ المُزْن دون سقوفه ، ... فيه ، لأعلامِ الهُدى ، أعلامُ
نشرتْ عليه الأرضُ كُسوتَها التي ... نسجَ الربيعُ وزخرف الإرهامُ

(الأغاني ج18 ص 162) والإرهام : المطر .

فيه العجائبُ والغرائبُ نُوِّعت ... فتحيّرتْ في نَعْتِها الأقلامُ

(إعلام الناس ص 99) .

ونجد إشارة إلى احتفالات وإجراء سباق للخيل من خلال وصف أفراس الرشيد ، إنما ليس فيها ما يميّز البلاط ولا ما ينأى بفرسه عن أي فرس في أي عصر ومكان . ونجد كذلك وصف العماني لمآكل بغداد ، وهو مع الرشيد بعيد عنها يحاصر هرقلة . إنما هذا ليس وصفاً لمجلس معيّن أو لقصر معيّن ، بل هو وصف عام للحياة في بغداد . ونجد لمحة أخرى في نموذج قدّمه لنا النمري حين استجاب لطلب زبيدة وقال شعراً يرغّب الرشيد في العودة إلى بغداد :

ماذا ببغدادَ من طِيبٍ أفانينِ ... ومن عجائبَ للدنيا وللدينِ
إذا الصَّبا نَفَحتْ ، والليلُ مُعتكِرٌ ، ... فحرَّشتْ بين أغصانِ الرَّياحينِ

(طبقات ابن المعتز ص 246) .

(والشعر عينه مع بعض التعديل مذكور في تاريخ بغداد ج 1 ص 51) ونلاحظ أيضاً أن الوصف عام لبغداد وليس لناحية من حياة الرشيد أو البلاط .

بسبب إلحاحهم في السعي للدخول إليه وتوسّلهم كبار رجال الحاشية لذلك . فهم لم ينشأوا ، إذاً ، في بيئة البلاط الراقية ، بل نبتوا في البيئة المقابلة لها تماماً ، في البيئة الشعبية حيث جدّوا في تحصيل العلم والمعرفة ، غذّوا مواهبهم في حلقات الأدباء ، ملأوا ذاكرتهم من إنشاد الرواة ، وقوّموا ألسنتهم بمعاشرة الأعراب ، ثم حملوا ذلك كلّه ، كما حملوا إرث القبائل التي ينتمي إليها العرب منهم ، إلى البلاط ، وراحوا يبنون منه مدحاً للخليفة ، أو يقدّمونه إليه زاداً يفيد ويسلّي ويمتع . أما بيئة البلاط ، وحياة البلاط ، فكانتا بالنسبة إليهم ، زينة الحياة الدنيا . إنما دنيا ليست دنياهم : عاشوا فيها ، وغرفوا منها ، وظلّوا ، في العمق النفسي ، بعيدين جدًّا عنها . حتى الذين أتيحت لهم الإقامة في البلاط ، ملازمين الرشيد ، مشاركينه طعامه وشرابه ومجالسه ، كانوا يعرفون أن وجودهم قربه مرهون بإشارة منه ، وأنهم ، متى ضجر منهم يكون عليهم أن ينزووا بعيداً ، ومتى غضب على أحدهم فالويل له . فبيئة القصر إذن ، بما اتسمت به من رفعة وروعة ، وشخصية الرشيد بما أثر عنه من مزاج متقلّب ، خلقا حاجزاً نفسيًّا أمام الشعراء والأدباء منعهم من الاندماج فيها ، والامتزاج بحياتها إلى درجة الإحساس بالانتماء ، ومن التأثر بمعطياتها إلى درجة التعبير الأدبي[1] . بل لعلّهم كانوا ، مع قربهم من الرشيد ، يحسّون بعداً عن بيئته ، وغربة فيها ، ونقمة عليها لامتناعها عليهم ، ورغبة في إظهار الزهد بها تشفّياً منها . ويبدو ذلك واضحاً في محاولة العتّابي اعتزالها[2] ، وفي موقف أبي العتاهية حين جلس الرشيد إلى مائدة زُيّنت بالأطايب وقال له : «صف لنا ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا»[3] إذ اندفع ينشد أبياتاً في الزهد وتقريع المنعّمين لانغماسهم في متع «الفانية» وابتعادهم عن سعادة «الباقية» . لم يرعَ للمجالسة عهداً ولا للرشيد خاطراً فكأنّه كان يجد متعة في قلب سروره غمًّا وسعادته أسى . هذا الإحساس يخالف تماماً مشاعر أهل البلاط الذين نشأوا فيه وعاشوا . فحين طلب المعتصم إلى إبراهيم بن المهدي عمّه ، وصف باقة نرجس في يده ، ارتجل بيتين لطيفين يفيضان رقّة وانشراحاً[4] . وهذا يقودنا إلى استنتاج مهمّ جداً وهو أنّ من يعبّر عن بيئة ما ، يجب أن يكون وليدها ، وأن شعر الترف في القصور يمكن أن يُلتمس في شعر أبناء القصور الذين

---

1 وهذا الحاجز لا نجده بين الشعراء وشبّان الهاشميّين مثلاً . فلأبي نواس وصف رائع لمجلس أبي عيسى بن الرشيد في قصر مشرق ، على ضفاف الأنهار وسط الأشجار تدار فيه الخمر ، والندامى في عالم النشوة . انظر العقد الفريد ج 6 ص 420 .

2 انظر ص 433 من البحث.

2 الأنوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية . ج 1 ص 92 وانظر ص 636 من البحث . والكامل في التاريخ ج5 ص133 والفخري في الآداب السلطانية ص 193 وانظر ص 636 من البحث .

3 الأغاني ج 10 ص 122 والبيتان هما :

ثلاثُ عيونٍ من النرجسِ   على قائمٍ أخضرٍ أملَسِ
يُذكِّرنني طِيبَ ريَّا الحبيبِ   فيمنعْنَني لـذّة المجلسِ

ينبُغون فيها فيصوّرونها بأحاسيسهم وانفعالاتهم ، معبّرين عن واقعهم الحياتي ، إذ لم نجده في شعر الغريب الذي ينظم بناء على رغبة صاحب النفوذ والسلطان .

2 ـ أدب أبناء البلاط المترفين يتجلّى في شعر العشق : إذا كان شعراء البلاط المعروفون قد جاؤوا من بيئة غير بيئته فلم يتقمّصوا حياته ومشاغله ، ولا عبّروا عنها لأن كلّ ما يهمّهم منها كان مناسبة يستغلّونها لشعر تكسّبي ، وإذا كان التعبير الحقيقي ، عن بيئة البلاط وما عرفته من ترف ، من مهمّة أبناء القصور الملكية ، فإلى أي حدّ اضطلع هؤلاء بالمهمّة ؟

لا بدّ ، قبل الإجابة ، من الإشارة إلى الذين عُرف لهم أدب من أبناء القصور ، أي الهاشميّين أعمام الرشيد وأولاد عمومته ، وأشهرهم عبد الملك بن صالح وأخوه إبراهيم ، والرشيد نفسه ، وأخوته لا سيّما إبراهيم بن المهدي وعُليّة أخته وأبناء الرشيد ، من الأمين إلى المأمون ، إلى أحمد فأبي عيسى[1] . ومن المفروض أن نلحق بهم البرامكة ، ومعظمهم أدباء وشعراء ، لأن لهم دوراً كبيراً في توجيه حياة البلاط وجهتها التي عرفت بها . والبرامكة ، مع أن حياتهم قد بزّت ، في ترفها وغناها ، حياة الهاشميّين بمن فيهم الرشيد ، فإن الأدب الذي أثر عنهم كان معظمه في الحكمة والتوجيه وتقريظ حسن التصرف . ذاك أنهم كانوا رجال سياسة لهم أهداف يخطّطون للوصول إليها بتعقّل وروية ، وكانوا يزنون كلامهم جاعلين ، من كل كلمة يتفوّهون بها ، داعية لهم وباباً لحمدهم والثناء عليهم . ولم يكن يفيدهم ، لا بقليل ولا بكثير ، أن يصفوا متع الحياة أو يدّعوا العشق واللهفة . وهذا التحفّظ ، الذي أوردناه عن أدب البرامكة ، لم يكن وارداً عند جميع أبناء الأسرة المالكة ، وفيها الشبان الذين تأخذهم عزّة السلطان والسؤدد فيبيحون لأنفسهم أن يتبعوا أهواءهم . من هنا يمكن أن نتوقّع ، في إنتاجهم الأدبي ، تعبيراً صريحاً عن واقع حياة الترف التي يحيون . والسؤال الذي يطرح هنا هو : ماذا نتوقّع منهم أن يقولوا ؟ إنهم يحيون حياة العز ، قصورهم في غاية الروعة ، يزيّنها الأثاث النادر ، تحفّ بها البساتين التي تأخذ بالألباب ، يلبسون الفاخر ويأكلون الشهي ، وتحت تصرّفهم ، بين الغلمان والجواري والإماء ، أجمل مخلوقات الأرض . فماذا تراهم يصفون ؟ . . . إذا كان الحافز إلى الفن ، كما يقال[2] ، هو فقدان التوازن النفسي بين الوعي واللاشعور ، تضاعفه أنواع الكبت

---

1 كان عبد الملك بن صالح أكثر الجميع تعقّلاً ورزانة ، وكان إبراهيم بن المهدي أكثرهم إنتاج شعر وتنوّع موضوعات لأنه عاش حياة متقلّبة ، ذاق فيها الحلو والمر ، وصل إلى سدّة الخلافة ، كما عانى من وضع المنبوذ ، الخارج على القانون ، الهارب المطلوب حيًّا أو ميّتاً . وهو ، لأنه ابن جارية سوداء أورثته لونها ، لم يكن يُعامَل دائماً بالاحترام الواجب لأبناء الملوك ، وخصوصاً أنه عرف بصنعة الغناء . طرق في شعره مواضيع المدح والعتاب والاعتذار وشكوى الدهر والحكم والغزل .

راجع أخباره وأشعاره في الأغاني ج 10 ص 101 وما بعد ، وفي شعراء بغداد ج 1 ص 62 والورقة ص 20 و21 وتاريخ بغداد ج 6 ص 142 وما بعد ، والمنتحل ص 81 و122 و132 . . . .

2 راجع التفسير النفسي للأدب ص 48 .

الذي يكون التعبير الفني متنفّسَه (لأن التعبير الفنّي يساهم في إعادة توازن وهمي إلى النفس المضطربة) فأي نوع من أنواع الكبت نجده في بيئة البلاط وأي مواضيع التنفيس يطرقون ؟ إننا لا نتوقّع منهم أن يصفوا قصورهم وأثاثهم أو موائدهم لأنها معالم عادية ، مألوفة في حياتهم ، لا تثير فيهم أدنى انفعال . قد يفعل ذلك إنسان يقارن بين حال وحال ، إنسان عاش في القصور ثمّ وجد نفسه في العراء فيورثه ذلك حسرة وانفعالاً فتعبيراً أدبيًّا . وقد يفعل ذلك إنسان حكم عليه بالتنّقل وترك معالم ذكرياته هنا وهناك يتعلّق بأتفه الأشياء ويكسبه قوّة إيحائيّة لا توصف . ولم يكن هذا الإنسان أو ذاك من سكان البلاط الذي عرف عنه الاستقرار إلاّ نادراً . والشيء نفسه يمكن أن يقال عن وصف الحدائق والطبيعة وعن وصف المجالس . فالشاعر ينصرف إلى وصف الطبيعة ومعالم العمران فيها ، برأينا ، في حالات أهمّها اثنتان : الأولى أن يكون نمط حياته يجعله يواجه الطبيعة وحيداً فتقوم بينه وبينها صلات ، أو يكون مفرطاً في الحساسية ، شديد التأثر بتناقضات الحياة البشرية وقيود المجتمع فيفرّ من عالم الإنسان «المزيّف» إلى عالم الطبيعة «البكر» يهيم في أجوائها ويستعيد ، في أحضانها ، استقراره النفسي ، لذا يصفها ويجسّدها ويبثّها خواطره . . . والحالة الثانية أن تكون الطبيعة ، أو معالم الحياة ، ميداناً لتجربة عاطفية عميقة ترتبط بمواقف نفسيّة ومشاعر يلتقط الشاعر أدنى تفاصيلها بأنامل خياله ويضفي ، على أقل مظاهرها ، وجدانيّة وشاعرية تعطيانها القيمة وتسبغان عليها الجمال . فهل كان من طبيعة حياة القصور أن يتذوّق أبناؤها المترفون لذّة الانفراد بالحدائق والبساتين ؟ وهل كان لأحدهم أن يعيش تجربة عاطفية فريدة فيها الحب الصادق واللقاء الخفي والموانع والعذل ، ثم الوصال والصد أو الفراق لكي تطبع اللوعة ذكرياته على صفحة الطبيعة فيعود إليها ، بين الحين والحين ، يقرأها بقلبه ويتلوها علينا شعراً وجدانيّاً ؟ . لا شك في أن أبناء البلاط أحبّوا الجواري وعشقوهنّ ، لكن هذا الحب ليس مولّداً للعاطفة العميقة الموحية ، وهو بعيد جدًّا عن حب قيس لليلى الذي روته كل حبّة رمل في الصحراء . قد يكون أحدهم علق ابنة عمّه أو إحدى قريباته ، وقد يكون قال فيها شعراً عاطفياً صادقاً ، لكن أخباره حجبتها عنّا أسوار القصور ، ولم يرو شعراً كهذا أي من الرواة الذين وقعت لنا أخبارهم . أما حب الجواري فقد جهروا به ، لأنه غدا أحد معالم بيئتهم ومظهراً من مظاهر زينتهم والميدان شبه الوحيد لتجلّي شاعريّتهم وإثبات عاطفتهم . لم يكن هذا ، غالباً ، حبًّا بمعنى الحب المعروف ، بل هو عشق يلبسه المرء كما يلبس ثوبه ، وينضّه عنه ، حين يملّه ، ليستبدله بسواه . وقد كانت معظم الجواري فنّانات في أمر العشق : توسّلن حتماً بالصد والغنج والدلال ، لكنّهن ما كنّ يمتنعن ، في نهاية الأمر ، على عاشق من هذا المستوى ، ولم يكن العاشق يعدم وسيلة لامتلاك الجارية ، إما شراء ، وإما استيهاباً ؛ وهذا ينفي عن الحب الذي نتحدّث عنه أي نوع من أنواع الكبت المصاحبة عادة له ، كما ينفي عنه الحافز النفسي للإبداع لولا العادة التي شاعت في ذلك العصر وصارت تجعل الشعر أشهى طريقة لمقاربة المحبوبة .

3 ـ **مظاهر العشق في البلاط** : لا بدّ لنا ، لنكوّن فكرة عن هذه العلاقة وعن مظاهرها في حياة الرشيد وعائلته ، من عرض بعض الحوادث التي عني الرواة بإيصالها إلينا . وأولاها حادثة يرويها ابن عبد ربّه فيقول : «عتب المأمون على جارية من جواريه ، وكان كلفاً بها ، فأعرض عنها وأعرضت عنه . ثم أسلمه العزاء وأقلقه الشوق حتى أرسل يطلب مراجعتها . وأبطأ عليه الرسول» . وحين رجع إليه قال المأمون أبياتاً يحسده فيها على رؤيته للمحبوبة . ثمّ أقبل عليها مسترضياً فسلّم عليها ، فلم تردّ عليه ، وكلّمها فلم تجبه ، فأنشأ يقول ، على ذمّة الراوي :

تكلَّمْ ، ليس يُوجِعُكَ الكلامُ ... ولا يؤذي محاسنَك السلامُ
أنا المأمونُ والمِلكُ الهُمامُ ... ولكنّي بحبِّكِ مُستهامُ
يَحِقُّ عليكِ ألاّ تقتُليني ... فيبقى الناسُ ليس لهمْ إمامُ[1]

وقد جرت للرشيد حادثة قريبة مع ذات الخال : «دعته يوماً ، فوعدها أن يصير إليها ، وخرج يريدها فاعترضته جارية فسألته أن يدخل إليها فدخل وأقام عندها . فشقّ ذلك على ذات الخال . «فدعت بمقراض وقصّت الخال الذي كان يعجب الرشيد على خدّها . فأغتاظ الرشيد واغتمّ ، فدعا بالعبّاس بن الأحنف وطلب منه شعراً يتّفق والمناسبة . فقال بيتيه :

تخلّصتُ ممّن لم يكن ذا حَفيظةٍ ... ومِلتُ إلى مَنْ لا يُغيّرُه حالُ
فإنْ كان قَطْعُ الخالِ ، لمّا تَعطَّفتْ ، ... على غيرِها ، نفسي ، فقد ظُلِمَ الخالُ

«فنهض الرشيد إلى ذات الخال ، مسترضياً لها ، وجعل هذين البيتين سبباً . . .»[2] .

وننقل حادثة ثالثة جرت للرشيد مع زبيدة . فقد زارها وجلس أمامها يحدّثها حين لفتته جارية عند رأسها . فراح يرسل إليها قبلات في الهواء ، وهي تتعلّل وتتدلل . ولم يلبث أن استوهبها من زوجته وأقام معها أسبوعاً[3] .

ويروي الأبشيهي نموذجاً طريفاً فيقول : «حكي أن الرشيد فُصد يوماً فأرسلت إليه بعض حظاياه قدحاً فيه شراب مع وصيفة لها ، حسنة الوجه ، جميلة الطلعة ، بديعة المحيا ، وغطّته بمنديل مكتوب عليه هذه الأبيات :

فصدْتَ عرقاً تبتغي صحّةً ... ألبسَكَ اللهُ به العافيةْ
فاشربْ بهذا الكأسِ ، يا سيّدي ، ... وأهنأ به من كفِّ ذي الجاريةْ
واجعلْ لِمَنْ أنفذَهُ خَلْوةً ... تحظَى بها في الليلةِ الآتيةْ

1 عيون الأخبار ج4 ص 105 والعقد الفريد ج 6 ص 408 .

2 الأغاني ج 16 ص 267 .

3 المستطرف ج 2 ص 157 .

قال : فنظر الرشيد إلى الوصيفة التي جاءت بالقدح فاستحسنها ، فافتضّها ، ثم أرسلها . فعلمت مولاتها بذلك ، فكتبت إليه رقعة تقول فيها هذه الأبيات :

بعثتُ الرسولَ فأبطا قليلا على الرغم منّي ، فصبراً جميلا
وكنتُ الخليلَ ، وكان الرسولَ فصرتُ الرسولَ ، وصار الخليلا
كذا من يُوجِّهُ في حاجةٍ إلى من يُحبُّ ، رسولاً جميلا

قال : فاستحسن الرشيد ذلك ، وأرسل إليها : أنا عندك الليلة»[1] . وفي رأينا ، إذا صحّت الحادثة ، أن المحظيّة لم تفاجأ بفعل الرشيد ، بل كانت تتوقّعه وتخطّط له . ويبدو أن الرشيد كان قد أهملها لفترة ، مشغولاً عنها بسواها ، فاغتنمت الفرصة لتلفت انتباهه وتطفو على سطح فكره صاعدة من أعماق النسيان ، فاستخدمت الوصيفة طعماً ، والمثير الأدبي جاذباً وحقّقت نصراً في المعركة القائمة في البلاط ، على قدم وساق ، بين جارية وجارية ، محظيّة ومحظيّة ، حول أيّهن أقرب وأيّهنّ أشد حظوة وأكثر مهارة وأقدر على الاحتفاظ بانتباه الخليفة ، إذا لم نقل بحبّه . وهذا يقودنا إلى تصنيف العلاقات بين الرشيد وجواريه ، بحسب وضع الجواري :

أ ـ علاقة عابرة : تنالها جارية أهديت إليه فدخلت «مجاله» للمرّة الأولى ، أو أخرى اشتراها أو استوهبها[2] ، أو جارية لفتت انتباهه صدفة إذ طلع عليها من بعيد وهي تغتسل وقد تجلّلت بشعرها الغزير[3] ، أو ظهرت له من إحدى المقصورات أثناء مروره[4] ، إلى غير ذلك من المناسبات المفاجئة التي تحفل بها حياة البلاط . والرشيد ، شأنه شأن كل مترف شبع ، شديد التأثر بعنصر الغرابة والتجديد ، في محتوى الحدث أو في إطاره ، يلتقط أقل ملامحه فيتشبّث بها . وإذا تذكّرنا عدد الجواري في البلاط ، تأكّد لنا أن صاحبه لا يمكن أن يذكرهنّ جميعاً كما لا يعقل أن يكون مرّ بهنّ كلّهن ، وأن الصدفة وحدها هي التي تستطيع أن تلفته إلى إحداهنّ ، إلاّ أن تعتمد الجارية خطّة للترصّد وجلب الانتباه ، أو لمواجهةٍ له وإثارةٍ لأحاسيسه وتحدٍّ لذكورته[5] . . فإذا ما واتت الفرصة ، يعود إلى إمكانيّة الجارية الجسديّة والذهنيّة اغتنامها : فيكون لما وُهبته من جمال وما ثقفته من أدب وما استطاع لسانُها إطرافَ سمع الخليفة به من كلمة منتقاة أو جواب ذكي أو ردّة من بديهة حاضرة ، كلّ هذا فضلاً عمّا حذقته من فنون الغرام ، يكون له دور في جعلها «محظيّة».

---

1 المستطرف ج 7 ص 457 .

2 هيلانة ، التي أحبّها الرشيد ورثاها ، عند موتها ، بشعر عاطفي ، التقاها في ممرّ بقصر يحيى بن خالد أيام كان وليّاً للعهد ، فاستوهبه إيّاها . (تاريخ بغداد ج 1 ص 98) .

3 ابن منظور ص 191 وص 193 وراجع ص 119 من البحث .

4 الأغاني ج 16 ص 267 .

5 العقد الفريد ج6 ص 403 .

ب ـ **علاقة ثابتة** : متواصلة أو متردّدة في فترات تطول وتقصر ، وهي علاقته بالمحظيّات . وهؤلاء ، بمجرّد وصولهنّ إلى هذه المرتبة ، يخرجن من خضمّ النكرات المجهولات وتُفرد لهنّ أجنحة أو مقصورات وتُلحق بهنّ جوار وصيفات ، وأخريات للخدمة ، وتغدق عليهنّ العطايا والهبات ، وتخصّص لهنّ موارد ينفقن منها[1] ، هذا عدا ما يمكن أن يصل الرشيد الواحدة منهنّ حين يبيت عندها ؛ ولا شكّ في أن المنافسة بين المحظيات أشدّ منها بين سائر الجواري لأن الخصم هنا معروف ومنظور ، والمباهاة والفخر عند الرابحة لا حدود لهما . مع هؤلاء المحظيّات ، قد نلمس في شعر الرشيد معالم حبّ صادق ، وإن كان الحب ، كما نتصوّره ، الحب الأوحد المخلص ، صعب الوجود في بيئة البلاط ؛ وتجدر الإشارة إلى أن مرتبة «المحظيّة» ، على ميزاتها وخطورتها ، مرتبة مرحليّة في مخطّط الجارية الذكيّة . فأملها الأكبر هو الإنجاب لأنها حينذاك تنتقل إلى مرتبة «أم ولد» حيث تصبح بمثابة زوجة للخليفة لها سلطان ونفوذ ولها طموح مستقبلي في أن تصبح أمًّا لولي عهد ، فوالدة لأمير مؤمنين .

4 ـ **ملامح العشق في أدب أبناء البلاط** : قلنا إننا ، إذا أردنا أن نستقرىء البلاط شعره المترف ، فمن الطبيعي أن نتوجّه إلى أدب أبنائه لأنهم هم الذين يمثّلون بيئته . وقد لاحظنا أن تجربة العشق استغرقت معظم هذا الأدب ، ففاضت بشعر العشق قرائح ذكورهم وإناثهم وملأت صفحات من الغزل فيها وصف المحبوب وفيها صدّ ودلال وعتاب ، وصل وهجران ، إلى ما هنالك من أفانين[2] .

---

1 نجد ذلك في ثنايا أخبار منها خبر الجاريتين اللتين امتحنهما الأصمعي (تاريخ بغداد ج 10 ص 413) والجارية التي أفتى أبو يوسف الرشيد بالزواج منها في ليلته (تاريخ بغداد ج 14 ص 250) ومن خبر المحظيّة التي أرسلت جارية لها إلى الرشيد . (انظر الصفحة السابقة والصفحة 156 هامش 1 وص 426 من البحث) .

2 يمكن الرجوع إلى كتاب «أشعار أولاد الخلفاء» بشكل عام . وبشكل خاص : راجع الأغاني ج 10 ص 196 و204 في غزل لأبي عيسى بن الرشيد . وديوان عُليّة بنت المهدي (دار صادر) .
وراجع العقد الفريد ج 6 ص 62 وص 408 وعيون الأخبار ج 4 ص 105 وأمالي القالي ج 1 ص 225 في أشعار غزلة للمأمون . وديوان هارون الرشيد (دار صادر) .
وراجع الأغاني ج 10 ص 121 و 142 و 143 و 146 ودلائل الإعجاز ص 348 في أشعار غزل لابراهيم بن المهدي . وديوان الأمين والمأمون (دار صادر) .
وراجع النجوم الزاهرة ج 2 ص 61 في بيتين عن الفراق لإبراهيم بن صالح .
وراجع معجم الشعراء ص 423 في غزل لأبي أيوب محمد بن الرشيد .
ونورد على سبيل المثال هذه الأبيات الرقيقة لأبي عيسى بن الرشيد :

أَسهَرَني ثم رَقَدْ ... وما رَثَى لي مِنْ كَمَدْ
ظبيٌ إذا زدتُ هوىً ... وذِلّةً ، تاه وَصَدْ
واعَطَشي إلى فَمٍ ... يَمُجُّ خمراً من بردْ

(شعراء بغداد ج 2 ص 68) .

والواقع أننا لن نعرض بالتفصيل لهذا الإنتاج الأدبي لأنه لم يكن على علاقة مباشرة أو غير مباشرة بحياة الرشيد . ولنا فيما ندرسه من شعر هارون الغزلي خير ممثّل لهذه النزعة عند جميع أبناء البلاط ، اللهمّ إلاّ في ظاهرتين متميّزتين برزتا في البلاط على رغم الرشيد ، ولهما مغزاهما الخاص في الحديث عن أدب الترف ، وهما : غزل المذكر بالمذكر وغزل الأنثى بالذكر . أما عن غزل المذكّر ، وهو أحد معالم الحياة العبّاسية المميّزة ، فيعود ، في رأينا ، إلى أسباب أهمّها اثنان : التقاليد الاجتماعية الدينية التي تشدّد الحرج على علاقة الرجل بالمرأة وتقيم وزناً كبيراً لقضيّة البكارة عند الفتاة ، وهذا ما تجلّى في المستوى الشعبي بشكل خاص ، وأدى إلى انحراف العلاقة الجنسية إلى الذكور حيث لا خطر ولا فضيحة . والسبب الثاني هو الرغبة في الإثارة عن طريق التجديد ويكون ذلك عندما يملّ الرجل الحياة الجنسية الطبيعية من جراء توافر العلاقة وسهولتها وعدم التحرّج فيها ، مما عرفه المستوى المترف مع تضخّم عدد الجواري ، من كل جنس ولون ، وانفتاح باب التسرّي إلى ما لا حدّ له . وبلا دخول في تفاصيل أكثر ، فإن بيئة البلاط عرفت حالات من الإعجاب بالغلمان ، على أقل تقدير ، وخلّفت ملامح من الغزل المذكّر . إذ المعروف أن الأمين أولع بالغلمان ، على طريقة النواسي[1] ، وأنّ والدته قامت بمبادرة تسوية بين ميول ابنها والعرف الاجتماعي للتصرّف السوي حين أوجدت الغلاميات ، مُلبسة الجواري ثياب الغلمان ، فأحدثت «موضة» جديدة لم تلبث أن انتشرت واستشرت . ولعبيدالله بن موسى الهادي قصيدة تناقلها الرواة في غلام لصالح بن الرشيد اسمه : «لا تسل»[2] .

أما غزل المرأة بالرجل فقد اختصّت به عُليّة أخت الرشيد . ونودّ هنا الإشارة إلى أنّ بعض سيّدات العصر كان لهنّ مجالس يؤمّها الشعراء والأدباء[3] ، شأن «الصالونات» في أوروبا ، إبّان عصر النهضة والقرن السابع عشر ، وكان لهنّ دور في تشجيع الشعراء[4] بأعطياتهنّ . ولا يبعد أن

---

1 انظر غزلاً له بخادمه كوثر ، وآخر بخادمه طاهر ، في معجم الشعراء ص 361 وتاريخ الخلفاء ص 304 والأغاني ج 19 ص 324 وانظر هجاء له في ابن الأثير ج 5 ص 170 .

2 الأغاني ج 10 ص 206 .

3 ورد ذكر مجلس خاص بزبيدة في الأغاني ج 18 ص 372 في ثنايا خبر عن بيت للعبّاس بن الأحنف . ووردت إشارة كذلك في البصائر والذخائر ج 1/2 ص 37 في خبر عن شاعر مدحها فأخطأ . (انظر كذلك الغرر والعرر ص 227) وأورد القالي خبر مجلس نسائي لزبيدة ، ناقشت فيه سيّدات حمى ضريّة البدويات بموضوع العشق (سمط اللآلىء 692) . ويذكر ابن منظور مجلساً يوميًّا لأسماء بنت المهدي يجتمع فيه الشعراء ومنهم أبو نواس (أبو نواس ص 140) (وانظر أخبار أبي هفّان ص 28) كما يذكر الأصفهاني مجلساً للعبّاسة بنت المهدي تنشدها فيه الحجناء ابنة نصيب (الأغاني ج 22 ص 421) .

4 انظر عطيّة زبيدة للنمري في طبقات ابن المعتز ص 246 وتاريخ بغداد ج 1 ص 51 ، ولنصيب في الأغاني ج 22 ص 416 ولأشجع في الأغاني ج 18 ص 156 ولسلم الخاسر في وفيات الأعيان ج 1 ص 354 ولأبي الجنوب في الورقة ص 45 .

تشترك سيدة المجلس في المناقشات وأن تنشد البيت أو الأبيات من حفظها أو نظمها . لكن ذلك لم يكن في الاتجاه الذي نتحدّث عنه . . ومن جهة أخرى ، فقد سبقت الإشارة إلى أن كثيرات من الجواري والقيان ، في بيوت النخّاسين ، أو في بيوت خاصة ، كنّ قبلة أنظار شعراء وظرفاء ، وبعضهنّ كان لهنّ مجلس شبيه بمجلس سيّدات القصور[1] . لكن هؤلاء الجواري كنّ دائماً طرفاً في المطارحات الأدبية والإجازات الشعرية التي تجري بحضورهن . وقد قلن الأشعار في الغزل أو سواه ، وكانت لهنّ ردود مرتجلة في مقدّمات لبعض لشعراء[2] . ولم يكنّ يتحرّجن عن خوض غمار الأدب المكشوف وأفحام أشهر جهابذته من الرجال[3] . ولكن هذا أيضاً ليس في الاتجاه الذي نتحدّث عنه . إننا نتحدّث عن الصفحة الأخرى لنشاط المرأة الأدبي الذي دخلت به ميداناً عُرف للرجال . فقد عُرف عن الغزل العربي أنه غزل الرجل بالمرأة ، ينذر فيه الشاعر نفسه للمحبوبة ، أو لمحبوبة بعد أخرى ، ويتحدّث عن هواه لها وعمّا يقاسيه في سبيل ذلك الهوى ، بسبب الفراق أو الصد أو كلام الوشاة ، وعن لقاءاته بها وما يتبع ذلك من حديث وعناق وقبل مسروقة ، أو عن تسلّله إليها في النهار وادلاجه في الليل وما إلى ذلك . إلاّ أن هذا الغزل أراد دائماً للمرأة أن تتلقّى ، أن تقوم في برج عاجي تترقّب وتنتظر ، أن تغدو قبلة أنظار الرجل يتوجّه إليها من أعماق كيانه ، ومن أبعد أماكن الأرض لتجود عليه بالنظرة أو الكلمة و البسمة . . . هذه المثالية الشعرية للمرأة التي يحدّدها الأدب والشعر ، دون واقع العلاقة بينها وبين الرجل ، هي التي قلَبتها عُليّة ، جاعلة المبادرة للمرأة : تقول الشعر وتتوجّه به إلى الرجل ، تشكو من صدوده ، ودلّه وهجرانه ، تتهم العذول وتدعو على الواشي المحرّض ، تكتم اسم من تهوى ، وتداريه ، كما تبدّل من تهواه ، فعل الرجل تماماً بشعره ومحبوباته . ونحن ننسب هذه المبادرة إلى الترف لأنها وليدة تلك البيئة التي حفلت بكل ما تشتهيه النفس وامتلأت بالأشكال البشرية في أحلى مظاهرها ، بالجواري والغلمان لإرضاء كل ذوق . فعُليّة ، المطربة المبدعة ، والشاعرة الملهمة ، والفنّانة الذوّاقة ، كانت تضجّ بالحيوية وحب الحياة ، كما كانت لها مكانة كبيرة في قلب الرشيد أخيها ، تُدلّ عليه بمواهبها التي يقدّرها . وكانت ، شأن أبناء الطبقة الراقية ، أجرأ من سواها على مخالفة عرفٍ أو البوح بسرٍ ومشاعر ؛ وكثيرٌ من المشاعر أثارتها فيها حياة البلاط . ولا بدّ هنا من التنبيه إلى أن العرف هو العرف ، داخل البلاط وخارجه ، خصوصاً إذا قام على تعاليم دينية ؛ وأن اختلاط المرأة الحرّة

---

1 انظر مثلاً أخبار مجلس عنان في بيت النّطاف (أخبار أبي هفّان ص 110 وابن منظور ص123) وخبر عبّادة في منزل أبي عمير (الأغاني ج 22 ص 456) .

2 انظر بعض مساجلات عنان جارية الناطفي للشعراء في الأغاني ج 22 ص 234 وما بعد وانظر خبر حسناء جارية البرمكي في الأغاني ج 20 ص 310 وخبر خلوب جارية يحيى البرمكي في الظرف والظرفاء ص 23 .

3 انظر قطع عنان لأبي نواس وسواه في الأغاني ج 22 ص 521 وما بعد ، وابن منظور ص37 .

بالرجال كان محدوداً بأطر ضيّقة ، خصوصاً بالنسبة إلى الفتيات الكواعب[1] . فالأسوار تحجب عُليّة عن الشبّان من طينتها كما تحجبها عنهم مقاصير الحرم ، خلف الأبواب . إنما كان العرف يهيىء لها الأحتكاك بالغلمان ، كما كان يهيّىء للشبان الاحتكاك بالجواري . وكان من الطبيعي أن تعشق غلماناً لها ، كما عشق كثير من أبناء القصر جواريهم ، ولعلّ هذا الوضع كان شائعاً ، إذ هو حتمي . لكن عُلية ، بحسّها المتوقّد ، وروحها الفنيّة ، لم تكتف بالعشق ، ولم تحاول ستره ، شأن ترائبها ، لأن ذلك يخالف طبيعتها المميزة ، بل راحت تلجّ به وتقول فيه الشعر ، وتسمّي أبطال أحلامها[2] . وقد ظلّت تفعل ذلك إلى أن ضجّ البلاط بقصصها ، وتناقلت مقاصيره وردهاته أشعارها ، فوصلت إلى الخليفة الذي حظر عليها ذكر خدمها في شعرها[3] . وهنا دخلت موهبتها مرحلة ثانية أكثر إلهاماً وإثارة وهي مرحلة التستر والخوف من الوشاة ، والكناية عن غلمانها بأسماء الإناث ، تعمية وتخلّصاً[4] . وقد بقيت هذه الصفحة من أدب البلاط نادرة المثال ، إنما هي تؤكّد أن ترف أبنائه ركّز موهبتهم الشعريّة حول العشق والغرام وما يتبعه من لواعج . وهو دائماً غرام متنقّل بين الجواري والغلمان ، لكثرة مجالات العشق .

5 ـ شعر العشق عند الرشيد : نتناول في بحثنا حوافز هذا الشعر عند الرشيد وارتباطه بطبيعة تجربته العاطفية مع جواريه ، ثم المعاني التي طرقها في شعره الغزل :

أ ـ حوافز الغزل عند الرشيد : إذا كان الشاعر يتغزّل معبّراً عن لواعجه ، فهل كان الرشيد العظيم يحسّ بلواعج الشعراء من سائر الناس ؟ وإذا كان شعر الحب يقدّم إلى المحبوبة ، عربوناً لمشاعر الإخلاص وترجمة لصدقها ، فهل كان الرشيد بحاجة إلى تقديم هذا العربون ؟ وإذا كان الشاعر ، أيًّا كانت نواياه من شعره ، يرضيه أن يسير شعره ويشتهر به ، فهل كان الرشيد بحاجة إلى شهرة العاشق ، فضلاً عن شهرة الخليفة ؟ الواقع أن أعمال الإنسان تصدر عنه انطلاقاً من مجمل شخصيّته المتأثرة ببيئتها القريبة والبعيدة . والرشيد ، أيًّا كانت مهمّته الوظيفية ، هو إنسان عاش في

---

1 كان هذا العرف في أساس قصة العباسة مع جعفر البرمكي ، إذ أنها تعتمد تحريم لقاء المرأة برجل ليس من أهلها الأقربين .

2 انظر شعرها في خادمها «طل» (الأغاني ج 10 ص 173) و (نهاية الأرب 4 ص 208) حيث يصف النويري شعرها لطل بأنه مجرّد مراسلة .

3 الأغاني ج 10 ص 173 ونهاية الأرب ج 4 ص 208 ونزهة الجلساء في أشعار النساء ص84 .

4 صارت تكنّي عن «طل» بـ «ظل» من ذلك قولها :

أيا سَرْوَةَ البُستانِ طالَ تَشوُّقي فهلْ لي إلى «ظِلٍّ» إليكِ سبيلُ ؟

(المصدر السابق) ، كما كنّت ، عن غلام آخرأحبّته اسمه «رشأ» ، بزينب وريب (المصدر السابق) ويمكن الاطلاع على أشعارها في المصادر السابقة وفي (زهر الآداب ج 1 ص 13 وج 3 ص 745) وفي (فوات الوفيات ج 2 ص100 وما بعد) . وانظر «ديوان عليّة» (دار صادر) .

عصر معيّن ، وهو بحاجة إلى إثبات إنسانيّته بلغة عصره . بل أكثر من ذلك ، كان الرشيد ، في رأينا ، يظن نفسه نموذجاً أعلى لإنسان عصره تتجمّع فيه نخبة الصفات التي تعجب بيئته . ومن أهم صفات إنسان العصر : الحس الفنّي والذوق الأدبي والمعرفة . وتجدر الإشارة هنا إلى أن العصر لم يعرف التصنيف والفصل : لم تفصل فروع المعرفة ، بحسب الاختصاص ، ولم يجرِ ، كذلك ، فصل بين السلطات ، فجميعها ، دينية كانت أو دنيويّة ، تشريعية أو تنفيذية ، تجتمع مقاليدها بيد الخليفة . ولّما كان هذا الخليفة من قريش التي «يسع علم العالم منها طباق الأرض»[1] فمن الطبيعي ألا يصعب عليه أمر يسهل على سواه من البشر . فالرشيد كان على قناعة بأنه الرمز الذي يُقاس به . كان يحب أن يروي الأحاديث لتذكر عنه[2] ، ويحب أن يتحدّث للتاريخ[3] ، ويحاول أن يطلع بنبوءات[4] ليَدُلّ على ثاقب بصره وانفتاح الحجب أمام بصيرته . ولولا ذلك ، لما قبل أن يمدح بصفات تتجاوز البشر . . والشعر إلهام ، والإلهام من الله ، أفلا يلهم الله أفضل عباده في ذلك العصر ، خليفتَه في الأرض ؟ هكذا كان من الضروري للرشيد أن يشارك الشعراء شعرهم ، كما جادل اللغويّين وحكم بين الفقهاء . إنما لماذا قال شعر العشق أكثر من سواه ؟ فذلك يقتضينا تحديد حوافز الإلهام الشعري لديه . فأي الحوافز تدعوه مباشرة إلى النظم ؟ من غير المعقول أن ينشىء شعراً في الفخر ، وهو لم يدخل في منافسة مع أحد ، ولا يُعتدُّ من المنافسة صراعُه مع العلويين ، وكان يجلّ نفسه عن مقارنتها بأي مخلوق آخر . وهو لم يكن ، شأن الوليد بن يزيد ، ليقول شعراً في الخمر لأنه يقدّس مركز الخلافة ويوظّف تلك القدسيّة في إعطاء حكمه صبغة دينية وسلطة مطلقة . ولم يقل شعر الوصف لأنه لم يكن خيالياً يحب الخلوة بنفسه في أحضان الطبيعة ، بل كان ، على العكس ، كثير الملل ، سريعاً إلى الضجر ، لا يفترق عن صحابته

---

1 راجع في تاريخ بغداد ج 2 ص 61 حديثاً يرويه الرشيد عن قريش وانظر ص 262 من البحث .

2 راجع تاريخ بغداد ج 2 ص 214 وتاريخ الخلفاء ص 293 و297 .

3 يذكر الجهشياري عن لسان الأصمعي أن الرشيد استدعاه ذات ليلة ، بعد قتل جعفر ، وأنشده أبياتاً في سبب القتل ، ثمّ قال له : إلحق بأهلك . يقول الأصمعي : «فنهضت ولم أحر جواباً . وفكّرت فلم أعرف لما كان منه معنى إلاّ أنه أراد أن يسمعني شعره فأحكيه . . .» (الوزراء والكتّاب ص 238) . ونحن ننسب إلى الحافز نفسه استدعاءه لأبي بكر بن عيّاش الزاهد ، من الكوفة ، وقد ضعف بصره وشاخ ، ليسأله أي الدولتين ، الأموية أو العباسية ، كانت أخير . فلا شكّ في أنه كان يهدف إلى أن يسجّل التاريخ اتصال الخيّاط ببلاطه وأن يؤثَر عنه تقريظ للعبّاسيّين . (تاريخ بغداد ج14 ص 375) . ومن الباب عينه صبّه الماء على يدي أبي معاوية الضرير وسؤاله له : «يا أبا معاوية ، أتدري من يصبّ على يديك ؟» ثمّ جوابه : «أنا . . . إجلالاً للعلم» . (تاريخ بغداد ج 14 ص 8 وتاريخ الخلفاء ص 528 وخلاصة الذهب المسبوك ص 109) .

4 ينسب إليه رؤيا تحدّد مكان موته (انظر الطبري ج 8 ص 343) كما تروى عن لسانه أبيات في التنبّؤ لما ينتظر الأمين والمأمون بعد موته . (معجم الشعراء ص 484 ـ فوات الوفيات ج 2 ص 269) .

وندمائه إلاّ ساعات قليلة في ليله ونهاره ؛ وهذا يبعده عن شعر الطبيعة . لقد عرضت له مشكلة البرامكة ، فحلّها بأسلوبه ، وقال الأبيات في قتل جعفر[1] . وعرضت له مشكلة ولاية العهد ، فعقدها لغير ولد واحد وهو يحسّ بخطأ لا يمكنه تفاديه ، فقال الأبيات القليلة تعبيراً عن تصوّره[2] . . . إنما النساء كنّ شغله الدائم في لحظات فراغه واختفائه عن الندمان . والمرأة هي الملهمة الأولى للشعراء ، ترتبط علاقة الرجل بها بأعمق الغرائز وبأبعد مجالات اللاشعور ؛ فالرشيد وجد إلهامه الشعري يسير حكماً في طريق الغزل . وإذا ما وصلنا إلى هذه القناعة لا بدّ لنا من التساؤل : هل يكون غزل الرشيد كغزل سائر الناس ؟ وهذا يستدعي سؤالاً آخر وهو : هل كانت علاقة الرشيد بالمرأة المحبوبة كعلاقة سائر الشعراء ؟ ونبادر إلى تحديد المرأة التي يقول فيها الرشيد شعره : بأنها المرأة الجارية . لأن الرشيد لم يقل كلمة غزل واحدة في نسائه الحرائر . إنّ عواطفه نحوهنّ خاصة ، وأحاديثه معهنّ لا يعرفها إلاّ مخدع الزوجية . ولقد مرّ بنا أن الجواري لعبن دوراً بارزاً في أدب البلاط[3] فاشتركن ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، في الإيحاء به ، بل وفي إنتاجه ، وكان الرشيد يختار منهنّ المثقّفات الأديبات ، ولا يبخل بثمن لاقتنائهن[4] . أما علاقة الرشيد بهؤلاء الجواري فقد سبق لنا الحديث عن مستوياتها[5] ، ونحن الآن نحاول تحديد نوعها وكيف حاول الرشيد الشاعر إظهارها لنخلص بعد ذلك إلى تقويم شعره فيها من ناحية صدق تعبيرها عن انفعالات النفس .

ب ـ طبيعة تجربة الرشيد الغزلية مع جواريه : ترى هل كان الرشيد يستخدم نفوذه في نيل ما يريد من جواريه ، وكلّهنّ يتمنّين القرب منه وينتظرن بادرة أو إشارة ؟ وهل كانت علاقته بهنّ تقتصر على إشباع غريزي كما تصوّر الحكايات ملوك المغول والتتر ؟ إن هذا بعيد جدًّا عن طبع الرشيد[3] ذي الحسّ الفنّي والذوق الراقي . وهو يدرك تفاهة المشاعر التي يحّسها الذكر تجاه الأنثى يمتلكها بقوّة سلطانه لا بقوّة جاذبه[7] . ولا شك في أنّ الرشيد ، الذي ثقف ثقافة شعريّة واسعة ، حفظاً وسماعاً ونقداً ، وألمّ بمشاكل الشعراء وعلاقاتهم بنساء أحلامهم ، كان يعجب بأدبهم ويتأثر

---

1 الأبيات هي أربعة مطلعها :

لو أنّ جعفرَ هابَ أسبابَ الرَدَى ... لنجـا بمُهجتِـهِ طِمِرٌّ مُلْجَـمُ

راجع الوزراء والكتّاب ص 238 ومعجم الشعراء ص 484 .

2 راجع ص 490 من البحث .

3 راجع ص 165 وما بعد من البحث .

4 اشترى ذات الخال بسبعين ألف درهم (الأغاني ج 16 ص 266) .

5 راجع ص 406 وما بعد من البحث .

6 كان للجواري اللواتي يحبّهنّ تأثير كبير فيه . فحين مرضت جاريته المصرية أحضر لها أشهر طبيب مصري (ضحى الإسلام ج 1 ص 276) وحين اشتاق ذات الخال واستدعاها حلف ألاّ تسأله «في يومه ذلك شيئاً إلاّ أعطاها ولا حاجة إلاّ قضاها» (الأغاني ج 16 ص 266) .

7 سبقت الإشارة إلى استيائه ، حين شاب ، من أن يقال عن الشيب إنه ينقص الرجولة ويقلّل من اهتمام النساء بصاحبه .

بعواطفهم ، بل كان يتأثر بعواطف العشّاق جميعاً ويستخدم نفوذه لتذليل الصعوبات أمام تحقيقهم أمانيهم[1] . ذاك أنه كان يرى فيهم جزءاً من ذاته ، ولمحة من طموحه إلى أن يكون عاشقاً معشوقاً ، شأنهم ، بعيداً عن أُبّهة السلطان والملك[2] . وأشعار الرشيد ، تثبت هذا الطموح لديه ، فهو يقول عن جواريه الثلاث الشهيرات :

إننـــي وزّعــتُ حُبّـي طائعاً بين شَجـوٍ وضِيـاءٍ وخُنُثْ
يتنازعْنَ الهوى ، مِنْ ذي هوى ، آمنـــاتٍ عُقـدةً لا تُنتَكَثْ[3]

والرشيد ، بالتجاوز عن جميع الظروف الخاصة ، يريد أن يظهر نفسه متعاملاً مع أنثاه تعامل الندّ للند ، إرضاء لرجولته . لذلك نراه يغتنم الفرص ، التي يعيش فيها أوضاعاً مشابهة لأوضاع الشعراء المشهورين ، لينهج نهجهم ويحاول إظهار اللوعة التي أنتابتهم ويعبّر عنها شعراً . فمثلاً ، حين انحدر إلى بغداد مخلّفاً ، بالرقة ، محظيّته ماردة ، اشتاق إليها وهو بعيد عنها ، فكانت فرصة تجربة شعريّة جديدة : الإحساس باللوعة من غياب الحبيب . فراح ينظم فيها شعراً يحاول أن يجعله وجدانياً ، ويحشر ، به ، نفسه ، في زمرة العذريّين الذين يتألّمون فيكتمون الألم ويحملونه وحدهم خوفاً من الإساءة إلى الحبيب بذكر اسمه . إنه مع التستر ، ومع التجلّد والصبر . وكأني به ينتقد ، من طرف خفي ، موقف عمر بن أبي ربيعة المصرّح الفاضح ، ويصمّم على اتخاذ الموقف المقابل . وإذا كانت محبوبة عمر تطلب منه ألاّ ينظر إليها ، حين يراها ، لكي لا تُعرف بحبّه لها ، فالرشيد يستبق الطلب ويستجيب لرغبة محبوبته قبل أن تصرّح بها ، فيكتم خوفاً من اشتهار علاقته بها . ونحن نـرى أن الموقف لطيف ، لكنه ، إذا صحّ ، مصطنع من أساسه . فلا هو مضطرّ للستر ولا المحظيّة ترغب في ستر علاقته بها . بل العكس هو الصحيح ، فإشتهار هذه العلاقة هو أقصى أمنياتها . . وفي كل حال ، فإن نفَس هذه التجربة قصير : لم يكن الرشيد قادراً على الانصراف إليها وتعميقها ، ولم يكن طبعه يتحمّل هذا النوع من الانشغال ، ولا نمط حياته يسمح له بالتوقّف طويلاً عنده ، عدا عن أن أسلوبه في التصرّف غير أسلوب الشعراء . فبينما يناجي الشاعر حبيبه البعيد ، يسائل عنه الريح والنجوم ، ويحمّل القمر رسائل الشوق إليه[4] ، نرى الرشيد يبعث بالأبيات إلى ماردة فلا تتأخّر هذه عن الردّ عليها بشعر يظهر تجاوبها مع مشاعره

---

1 راجع حوادث تثبت ذلك في الأغاني ج 5 ص 386 وفي الفرج بعد الشدة ج 2 ص 396 وص 432 . وانظر ص 60 هامش 4 من البحث .

2 يروي الحصري أنه كان يقول : «قلب العاشق عليه مع معشوقه» . وحين أنشده الأصمعي أبيات عروة بن حزام لعفراء في هذا المعنى قال : «من قال ذلك وهما فقد قلته علماً» . (زهر الآداب ج 4 ص 975) .

3 الديارات ص 227 .

4 يلمّ الرشيد ببعض ملامح هذه الصورة الشعرية في إحدى مقطّعاته . لكنه إلمام سريع يبدو كأنه استكمال لإطار العاشق أكثر منه تعبيراً عن واقع عاطفي . (راجع لقاء الروح ص 415 من البحث) .

وترقّبها لمبادرة منه توجّهها إليه . وبسرعة هائلة يتم اللقاء وتنطفيء جذوة التجربة الملهمة[1] . . ولم تكن نهاية هذا الحدث هي التي تميز الرشيد من شعراء الغزل العاديّين ؛ بل إنّ من يتوجّه الشعر إليهنّ ، وهنّ الجواري ، كنّ من الكثرة لديه ، بسبب غناه وترفه ، بدرجة تمنعه من الإحساس بالحب العميق واللوعة . لكن قمة الترف تتجلّى في عشقه ثلاث جوار دفعة واحدة[2] وفي أن يقسم قلبه بينهنّ قسمة يصرّح بأنّها غير عادلة : لسحر الثلثان والثلث الباقي لضياء وخنث معاً[3] . ونلفت إلى أن خنث هي ذات الخال وأنّها ، وحدها ، ألهمت الحبّ والغزل لعدد من فحول الشعراء ولعدد آخر من أكثر الرجال ترفاً ، وقال فيها إبراهيم الموصلي ، على كثرة ما مرّ به من جوار وما احتازه منهنّ ، شعراً غزيراً يسيل هياماً وعذوبة . فإذا عرفنا ذلك استطعنا أن نتصوّر مبلغ جمال الأخريات ، وترف الرشيد بجمعهنّ معاً . إنما ، ما لا نستطيعه بالفعل ، هو تصوّر حقيقة المشاعر التي كانت تنتاب هؤلاء الجواري وهنّ يقبلن واقع المشاركة ويتنافسنَ على هوى الخليفة ، ولا نستطيع أيضاً أن نتصوّر مشاعر الملك الذي يوزّع قلبه هنا وهناك وهنالك ، ولا مشاعر الزوجات القابعات خلف الستائر تحجبهنّ الأسوار ، وهنّ يحتلن في ايجاد موطيء قدم لهنّ ، عند هذا الزحام .

والآن ، إذا اقتنعنا بأن الرشيد كما يظهر من الشعر الذي روي له ، حاول إقامة علاقة طبيعية مع المرأة ، شأن سائر الرجال ، بعيداً عن سلطة الخلافة ونفوذها ، مما هو غير مألوف في سيرته ، وأنه قال شعر الغزل لإثبات ذلك ، فأيّ المعاني تناولها في شعره ، وإلى أي مدى وفّق ؟

ج ـ المعاني الغزليّة في شعر الرشيد : لقد تناول الرشيد المعاني العادية المعروفة وإن لم يقاربها دائماً بالأسلوب الطبيعي لأن تعبيراً من هنا ، وتفصيلاً من هناك ، كانا يكشفان عن أن العاشق هو

---

1 الرواية مع المقطوعة موجودة في الأغاني ج 22 ص 52 وج 18 ص 229 والديارات ص225 ومسالك الأبصار ج 1 ص 269 وراجع ص 219 من البحث . وآخر بيت فيها :

سأسْتُرُ ، والستر من شيمتي ،   هوى من أحب بمن لا أحبْ

ومطلعها مشهور وهو :

سلامٌ عــلى النازحِ المغترِبْ   تحيّــةَ صَــبٍّ به مُكْتَئِبْ

2 يقول فيهنّ :

مَلكْنَ الثلاثُ الآنساتُ عِناني   وحَلَلْنَ مِن قَلبي بكلِّ مكانِ

(الأغاني ج 16 ص 269 وانظر ص 415 هامش 1 من البحث) .

3 يقول في ذلك :

إنّ سِحْـراً وضِيـاءً وخُنُثْ   هُنَّ سِحـرٌ وضِيـاءٌ وخُنُثْ

أخذَتْ سِحْرٌ ، ولا ذنبَ لها ،   ثُلُثَي قلبــي ، وتِرباها الثُلُثْ

(الأغاني ج 16 ص 268) .

الخليفة ، وأن التجربة التي يصفها هي من إبداع خياله لا من حقيقة واقعه . هكذا تحدّث الرشيد عن الحبّ والهيام ، والنحول والهزال ، وعن عهود الحب والوفاء ، ولقاء الروح على البعد . وتغزّل بالمحبوبة متحدّثاً عن جمالها وعن دلّها وصدودها ، وبالغ في إظهار سلطانها عليه .

الحب والهيام ونحول الجسم من الهوى : إذا استثنينا الوليد بن يزيد فإن الخلفاء لم يستسيغوا نظم شعر الغزل والهيام . وإذا رُوي منه لأحد فالبيت أو البيتان في معنى غزلي عام . أما التشبّه بالعشّاق وتبنّي مشاعرهم ، فلا شك في أن الرشيد كان رائد الخلفاء ، العبّاسيّين منهم على الأقل ، في هذا المضمار . ولم يكن الرشيد ليفعل ذلك لولا ترف في حياته سبق لنا إبراز أسبابه ومظاهره . فالرشيد يصوّر نفسه ، في الشعر المنسوب إليه ، مغرماً عريقاً ، أنحله الجوى فصيّره خيالاً ، وكوى قلبه فما يستطيع كتمان ما به . وما به بات ، كما يقول ، يُقرأ على جبهته : حكماً عليه مبرماً أنه قتيل الهوى»[1] . أما قاتله فظالم لا يرحم ، قوي وقوّته في جمال ليس له مثيل[2] . ويلذّ للرشيد أن يغالي في صورة العاشق التي يرسمها لنفسه حتى ليكاد يصبح عاشقاً نموذجيًّا يحمل علل العشّاق جميعاً ، ويقاسي متاعبهم . فهو «مضطرّ إلى أن يستر» اسم من يهواه لئلا يفتضح وتلوكه الألسن . لكنه عبثاً يحاول الكتمان : فكما أن هواه يُقرأ على جبينه ، فإن دموعه تكشف لواعجه . ولا هوى بلا دموع[3] .

عهود الحب والإخلاص : وهي معالم تابعة لصورة العاشق المدنف . لكن الرشيد لا يجد غضاضة في أن يكون عهده جماعيًّا موجّهاً إلى المحبوبات الثلاث معاً : يقدّم لهنّ مكاناً في قلبه لا ينزلن عليه ضيوفاً بل يمتزجن به وتشتبك شغافه بشغاف قلوبهن حتى تغدو جميعاً نسيجاً واحداً لا تمايز فيه . ويستدرك الرشيد : إنّ قلبه ليس بكراً وهو يريد لهنّ منزلة لم يسبقهنّ إليها أحد . لذلك نراه ينقلهنّ إلى منزل آخر لم يوطّئه لغيرهنّ : إلى سواد العين . ويعاهدهنّ على الوفاء وعلى أن

---

1 يقول الرشيد :

صَيَّرني الحُبُّ إلى ما تَرَى   أَنْحَلَ جسمي ولِقلبي كَوَى
قد كَتَبَ الحُبُّ على جَبْهتي :   «هذا قتيلٌ في سبيلِ الهَوَى»

(الديارات ص 226 راجع تعليقنا ص 421 من البحث) .

2 يصف الرشيد محبوبته فيقول :

أحسنُ مَـنْ أَبصَرَهُ مُبصرٌ   لـو أنّه ، في حُسنِهِ ، راحِمُ

(المصدر السابق) .

3 ويقول في غير ماردة :

لِساني كَتـومٌ لأسرارِهِـمْ   ودمعي ، بِسرِّي ، نَمومٌ مُذيعْ
فلولا دُموعي كَتَمتُ الهوى   ولولا الهوى لم يكنْ لي دُموعْ

(خزانة الأدب ـ للحموي ـ ص 202) .

يقيهنّ قريبات إلى نفسه حتى يناديه أجله[1] . وعلى رغم غرابة الصورة على خليفة هو الرشيد ، فإننا نجد فيها نفثة صادقة تتناسب وما شهر عنه من ولعه «بآنساته الثلاث» ، دون أن ننكر نفَس التقليد والمغالاة البارز فيها .

بُعد الحبيب ولقاء الروح : وهذا أيضاً من المعالم الثابتة لصورة العاشق . لأن البعد يؤجّج الشوق فتشفّ الروح وتنفلت من عقال الجسد لتهيم في أجواء الخيال حيث تلتقي روحها التوأم ، ثم يكون الاتحاد وتكون السعادة . والروح ، متى شفّت ، تصبح في وضع تلقٍّ مرهف : تلتقط النفحة والنأمة ، متنسّمة رائحة الحبيب . . وقد اعتادت الأرياح أن تحمل الرسائل من محب إلى محبوب : سلام مع ريح الجنوب يعود الرد عليه مع ريح الشمال . لكنّ تبادل التحيّات لا يتوقّف إذا سكنت الريح ، لأن المحبّين لا يعدمون اتصالاً مباشراً من القلب إلى القلب ولأن أي جوى ، في فؤاد الواحد ، يعرفه الفؤاد الآخر مما يحسّه ويقاسيه . وأي دموع ترغرغ في عين العاشق لا بد من أن يكون لها مثيل في عين المعشوق . فليتّق المحبُّ اللهَ في محبوبه ، وليشفق عليه بحبس دموعه ، ضنًّا بجفونِ إلفه أن يقرّحها البكاء . تلك هي نصيحة الرشيد :

أهدى الحبيبُ ، مع الجَنوبِ ، سلامَهُ　　فَارْدُدْ عليه ، مع الشمالِ ، سَلاما
واعْـرِفْ بقلبِكَ مـا تضمّنَ قلبُه　　وتـداولا ، بِهَواكُمـا ، الأيامـا
فإذا بكيـتَ لـه ، فأيقِـنْ أنّه　　سَيَفيضُ منـهُ ، للدُمـوعِ ، سِجاما
فاحبِسْ دموعَـكَ رحمـةً لدموعِهِ　　إن كنتَ تحفَظُ أو تَحوطُ ذِماما[2]

ولا شكّ في أن هذه الأبيات كان يمكن لها أن تفيض شاعرية ووجدانية لو أن الرشيد صاغها عن لسانه بلهجة المتكلّم ، لا بلهجة الخطاب التعليمية الجافة ، ولو أنه تبنّى ما يثيره من مواقف ، واستبدل حفظ الذمام بمعنى يتجاوب وحافز الرحمة لدموع المحبوب في الشطر الأول . ومن المؤكّد أن الرشيد كان يعني نفسه بالخطاب ، وكأنه ، بتحويله الصيغة ، أراد أن يموّه عواطفه ، أو ينكر تبنّيه لعاطفيّة الأبيات . أو لعلّه عمد إلى التحوّل من التكلّم إلى الخطاب ، كصيغة معروفة في الصناعة الأدبية تهدف إلى لفت النظر . . وفي كل حال ، لو أن الأبيات كانت كما نتمنّاها ، لقوي شكّنا في نسبتها إلى الرشيد : فهو ، أولاً وأخيراً ، هاوٍ لا محترف في الإنتاج الشعري .

---

1 ممّا قاله في سحر وضياء وخنث :

ثلاثٌ قد حَلَلنَ حِمى فؤادي　　ويُعطَينَ الرغائبَ من وِدادي
نظمتُ خيوطَهُنَّ بخيطِ قلبي　　فهنّ قَرابتـي حتـى التنادي
فمن يَكُ حَلَّ ، من قلبٍ ، مَحَلاً　　فهنّ مـع النواظرِ والسوادِ

(الأغاني ج 16 ص 270) .

2 الورقة ص 18 والديارات ص 226 .

وصف المحبوبة : يجب أن تكون محبوبة سيد الناس سيّدة المحبوبات ، ليس كمثلها أحد في المحاسن[1] ، في مستوى السماء يطلع من وجهها القمر ، وهي ، من البهاء ، بحيث لا يقع عليها بصر إلاّ ويتعلّق بها فلا يستطيع الارتداد عنها لأنه يشتغل بها . وهي ذات سلطان في الجمال شبيه بسلطان الخليفة بين الناس ، سلطان يجرّد سيوفاً لا كالسيوف ، ونصالاً لا كالنصال ، فأينما وقعت العين منها وجدت نصلاً فاتكاً من روعة الحسن . وجمالها طبيعي لا تكلّف فيه ، فالعين كحلاء ، وكحلها غير مجلوب[2] . وإذا بلغت المحبوبة هذه الدرجة من الجمال فلن تكون جاهلة بقدرها ، ولن تغفل سلاحاً من أشدّ أسلحة الحسن وهو الدلال والغنج وإثارة الغيرة والتلاعب بالعواطف . . . والرشيد راضٍ يقبل كلّ ذلك منها بشفاعة جمالها[3] . لكن إلى أي حد ؟

التعامل والمحبوبة : لقد كان الرشيد يخضع لسلطان الجمال طالما لا يمسّ الخضوع هذا كرامته . بل إنّه يقبل أن تتمادى المحبوبة في إغرائه . ولا بدّ هنا من التذكير بأنّ هذه المحبوبة هي جارية خبرت ، غالباً ، فنون اجتذاب القلوب ، داخلة في منافسة مع جوار أخريات ، وبأنّ الرشيد ، السريع إلى الملل من الغنيمة السهلة ، يحبّ المواقف الصعبة ويحلو له أن يرى تأثيره في المرأة ، تماماً كما لا يستنكف عن إبراز ما يدّعيه من تأثيرها عليه ، في عمليّة أخذ وردّ تضفي نوعاً من الواقعية العادية على علاقة هي أصلاً غير متكافئة وغير عادية . ولعلّ أشد فنون الجواري بروزاً في عملية الإغراء هو فن الصد والإقبال[4] . وهذا الفن دقيق الحدود ، خطر على اللاعبين ، يجب على من يمارسه أن يحسن

---

1 يقول الرشيد في ماردة ، مصوّراً جمالها :

شغَلَتْكَ وهْي ، لكلِّ ذي بَصَرِ	لاقَى محاسنَ وجهِهَـا ، شُغُلُ
ولِوجَهِهـا ، من وجهِهَا قَمَرٌ	ولعينها ، مـن عينِها ، كُحُلُ

(المصدران السابقان) .

2 ويقول فيها أيضاً :

وتَنـالُ منـكَ بِحَدِّ مُقْلَتِها	ما لا يَنـال ، بِحَدِّه ، النَصْلُ
وإذا نظـرتَ إلى محاسِنِهـا	فَلِكُـلِّ موضعِ نَظرةٍ قَتْلُ

(المصدران السابقان) .

3 يقول الرشيد :

أحبتُه من دونِ هـذا الورى	وَهْـوَ بِحُبّـي خَبِرٌ عالِمُ
قبيحُ فِعْلٍ ، حَسَنٌ وجهُـه ،	يُعـذَر ، في أمثالِـهِ ، اللائمُ

(الديارات ص 226) .

4 لعلّ من ألطف ما قيل عن لعبة الصد والإقبال ، في أدب أبناء البلاط ، قول المتوكّل في قينة :

أُمازِحُهـا فتغضبُ ، ثم تَرضى	فكلُّ فِعالهـا حَسَنٌ جَميلُ
فإن غَضِبتْ ، فأحسَنُ ذي دلال ،	وإنْ رَضِيـتْ ، فليسَ لها عَديلُ

(المستطرف ج 2 ص 158) .

حساب المقادير لئلا يتحوّل مفعولها إلى الضد . ويصف الرشيد هذه اللعبة فيقول :

صَدَّ عنّي ، أنْ رآني مُفْتَتِنْ وأطالَ الصدَّ لمّا أَنْ فَطِنْ[1]

فالمحبوبة تصدّ عندما تشعر بنفوذها على رجلها ويتأكد لها أن الصدّ لا يبعده عنها ، بل على العكس ، يضرم النار في قلبه ويزيده تعلّقاً بها . ولعلّ من أصول الصدّ أن تبطنه الرغبة في الوصال ، والاستعداد للتراجع عنه . والجارية ، الفنّانة في هذا الميدان ، تحسن إظهار هذه الرغبة الخفيّة بأساليب تتقنها هي دون سواها . فتارة تظهر العقل والجد فيفضحها الطرف الفاتر ، وتارة تنظر بعين الغضب بينما القلب يفيض رضى وحبًّا . كلّ هذه الخبرة في التعامل مع الجواري يقدّمها لنا الرشيد في وصف دقيق ، مقلّباً معالمها على وجوهها فيقول :

تُبدي صدوداً ، وتُخفي تحتَهُ صِلَةً فالنفسُ راضيةٌ ، والطَرْفُ غَضبانُ[2]

وفي المعنى نفسه يقول :

فلِقَلْبِها حِلمٌ يُباعِدُها عن ذي الهوى ، ولطرفها جهلُ[3]

إلاّ أنّ للرشيد ، كما أسلفنا ، موقفاً من الصدّ يحدّه الحفاظ على الكرامة . فإذا ما فاق الحد ، ثارت في الرشيد أنفة العاشق المترف ورفضه للاستبداد . إنه يذلّ للمحبوب ، برضاه ، أمّا أن يفرض عليه الذل ، فبُعداً لمن يفعل ذلك . والرشيد يعتدّ نفسه هنا عاشقاً عادياً ، لا ملكاً ولا خليفة . فإذا نازعته نفسه إلى استخدام نفوذه أبى واحتكم إلى قضاء الحب ، قابلاً حكمه ، ملتزماً به . يقول :

لو شئتُ لاستاقَتْه لي قُدرةٌ لكنَّ حكمَ الحُبّ لي لازمُ[4]

فماذا يقول قاضي الحب ؟ حكمه أن الصدّ يقابله الصد إلى أن يلين القلب القاسي ويرجع عن غيّه . هكذا كانت حكايته مع سحر : أحست بأن لها دالة عليه تفوق بها سواها ، بل تفوق أجمل منافستين لها : ضياء وخنث ، إذ لم يكتف بإعطائها ضعفي ما أعطاهما معاً من قلبه ، بل زاد فجعلها قادرة على شفائه من داء الحزن والهم ، لأنه ، إذا تراكمت عليه هموم الدنيا ، تكفي زيارتها له لتكشف عنه غمامة الأحزان[5] . وأرادت سحر أن تلعب لعبة الصدّ علّها تزيد اضطرام غرامه فاشتطّت في دلّها واعتلّت بعلّة حين وجّه إليها لتصير عنده . ويبدو أنها ، في الغد ، أحسّت

---

1 الأغاني ج4 ص 76 وتاريخ الخلفاء ص 292 .

2 العقد الفريد ج 6 ص 411 .

3 الورقة ص 18 والديارات ص 226 .

4 الديارات ص 226 .

5 يقول في سحر ، وقد صحف بعض النسّاخ اسمها إل شجو :

وإذا شَجْوٌ أتتْ زائرةً كشفتْ عنّيَ شجوٌ كلَّ بَثّ

(الديارات ص 227) .

بخطئها وأرادت أن تجبر عثرة الأمس . فأنف الرشيد ورفض دعوتها معلناً مجافاته لها لأنه ، هو أيضاً ، يعرف أسرار لعبة الصدّ والإقبال . يقول معرّضاً بها :

أَيَـا مَـنْ ردَّ وُدّيَّ أمـ ـسِ ، لا أُعطيكَهُ اليوما
ولا ، واللهِ ، لا أعطيـ ـكَ ، إلاّ الصـدَّ واللوما
وإن كانَ بقلبـي منـ ـكَ ، مـا يَمنعُني النوما
أَيَـا مـن سُمتُه الوصلَ ، فأغـلى المَهرَ والسوما[1]

والرشيد ، في هذه العلاقة العاطفية ، واعٍ حذر لا يشتطّ في إظهار الغضب ، بل تتدرج لهجته من العنف إلى الاعتدال ، بالإشارة إلى بقاء الحب في قلبه ، وينتهي إلى العتب . ولا شكّ في أن العتب هو صابون القلوب . والمتأمل بعمق لهذه الأبيات يمرّ بخياله شريط مصوّر يظهر فيه الرشيد العظيم إنساناً رقيقاً وعاشقاً لبقاً يعرف كيف يقارب المرأة وكيف يروّضها ويعجم عودها بمهارة فلا يخدشه ولا يكسره . فهو ، لكثرة ما عرف من نماذج أنثوية ، قد بات خبيراً بنفسيّة النساء وتصرّفاتهنّ وردود فعلهنّ ، خبرة ما كانت لتقيّض له لو لم ينصبّ معظمُ ترفه في الحياة على الانشغال بهن .

ـ **الغرام الملكي** : رأينا أن الرشيد كان يجهد لإخراج علاقته بجواريه عن علاقة المالك بالمملوك إلى شكل طبيعي من أشكال العلاقة بين الرجل والمرأة . فإلى أي مدى تمكّن من إقناعنا بذلك ؟ . الواقع أن كثيراً من التعابير والتفاصيل كانت تفضح حقيقته وتهزّ الصورة التي يحاول إعطاءها عن نفسه . ولعلّ أبرز ما يؤدي إلى ذلك هو تكرار معنى الخضوع والامتلاك في أشعاره ، خضوعه هو للحبيب وامتلاك معشوقه له ، مع الاستدراك دائماً بإشارة إلى سلطانه المطلق واستكانة الدنيا له . والمعروف أن الرشيد ما كان يخضع إلا لربّه . وموقفه هذا مفهوم ، يتّخذه عن وعي وعنجهيّة ، يعرفه الناس كلّهم به . المرأة وحدها كان لها سلطان ، يعترف به ، فوق سلطانه[2] ، تستمده منه طوعاً فتحكم به عواطفه وميوله ، طالما سمح لها بذلك . وهو يظهر سعادة بهذا التحكّم[3] لأنه يخرجه من

---

1 الأغاني ج 16 ص 269 .

2 يعبّر الرشيد عن ذلك بقوله :

يـا من وضعتُ له خدّي فذلَّله وليس فوقي سوى الرحمنِ سُلطانُ

(العقد الفريد ج 6 ص 411) .

1 يرسم الرشيد لنفسه ، وبأسلوب مرح ، صورة المظلوم الذي تتحكّم به المحبوبة وتقسو عليه ، تصيبه ألحاظها في الصميم محاولة قتله ، فيعمد إلى استعطاف ظالمه واسترحام قاتله :

يـا ربَّةَ المنزل بـالبَرْكِ وربّـةَ السُلطانِ والمُلْكِ

رتابة الأدوار في حياته اليومية ويجعله ، كما قلنا ، يتحوّل ، من خليفة إلى أحد مشاهير العشّاق أو إلى فارس عربي نموذجي يُجلّ المرأة ويضعها في برج عاجي . لكنه ما إن يذكر خضوعه للمحبوبة حتى يتداعى إلى لسانه ، بصورة تلقائية ، التذكير بأنه هو الذي تخضع الرقاب ، عادةً ، له[1] ، وكأنه يُدلّ عليها بما أعطاها من سلطان . . وهذا يقودنا إلى التساؤل عن القيمة الفنّية لشعر العشق عند الرشيد بشكل خاص وفي البلاط بشكل عام .

د ـ القيمة الفنّية لشعر العشق للجواري : هذه القيمة ، في رأينا ليست كبيرة لأن التجربة العاطفية ، التي يقوم عليها الشعر ، سطحيّة ، والتعبير معظمه مستعار مصطنع . صحيح أن الغزل بالجواري بات من ملامح العصر الرئيسة ، وأن كثيراً من الشعراء أبدعوا في هذا الحقل وحلّقوا ، إنما الوضع خارج البلاط يختلف عنه داخله . فخارجاً ، أحب الشعراء جواري في بيوت القيان أو بيوت النخّاسين أو في بيوت خاصة . وما كان للواحد منهم أن يحظى بخلوة قصيرة إلاّ بصعوبة ، قد ينال منها قبلة أو تجميشة وقد لا ينال[2] ، فيحسّ بكبت يولّد عاطفة صادقة ، وأحياناً

= تَحَرّجي باللهِ من قَتْلِنا لسنا من الدَيلَمِ والتُركِ

(الأغاني ج 1 ص 178) .

1 يكثر ذلك في مقطوعاته . فمنه قوله ، مركّزاً على معنى الملكية ولفظها ، مبيّناً تبادل الأدوار فيها بينه وبين محبوبته :

مَلَكْتُ من أصبَحَ لِيْ مالكاً لكنَّهُ ، في مُلكِهِ ، ظالِمُ

(الديارات ص 226) .

ومنه قوله :

كان مملوكي فأضحى مالِكي إنّ هذا من أعاجيبِ الزَمَنْ

(الأغاني ج 4 ص 76) .

ومن قوله في آنساته الثلاث الشهيرات :

ملَك الثلاثُ الآنساتُ عِناني وحَلَلْنَ مِنْ قلبي بِكُلِّ مكَانِ
مالي ؟ تطاوعني البرّيةُ كلُّها وأُطيعُهنّ ، وهنَّ في عصياني
ما ذاك إلاّ أنّ سلطانَ الهوى ، وَبِهِ غَلَبْنَ ، أعزُّ من سُلطاني

(الورقة ص 17) .

ويقول في صرف :

قُلْ لِمَنْ يَمْلِكُ الملو كَ ، وإن كانَ قد مُلِكْ

(المصدر السابق ص 19) .

ومنه قوله :

أما يكفيكِ أنّكِ تملكيني وأنّ الناسَ كلَّهُمُ عبيدي ؟

(تاريخ بغداد ج 14 ص 11) .

2 راجع على سبيل المثال خبر سلاّمة الزرقاء والصيرفي في الأغاني ج 15 ص 52 وص 73 .

حبًّا ملهماً[1] . ومع ذلك لم يكن الأمر دائماً على هذه الحال . فشعر الغزل بالجواري ، خارج البلاط ، كان أحياناً ، كالشعر داخله ، شعر «مقاربة» لا تعبيراً صحيحاً عن لواعج النفس ، لأن مقاربة المرأة لها وسائل تختلف باختلاف النساء وباختلاف الحضارات . ولما كانت كثيرات من الجواري المشهورات في ذلك العصر ، متميّزات بثقافة شعريّة وأدبيّة خاصة ، فقد غدا التقرّب إليهن وإثارة انتباههنّ يتمّ من هذا الباب : باب الشعر والأدب . وسبق لنا القول إن الأدب ، في أيام الرشيد ، أصبح غذاء يوميًّا لا بدّ منه لكلّ الناس : فمن لم ينظم سمع وروى وتمثّل إرضاء للمتعة الفنّية التي كانت طابع العصر . أما الغزل ، فكان أكثر الأبواب الشعرية انتشاراً لأنه كان ، بالذات ، واسطة المقاربة التي تحدّثنا عنها . فلم يخلِ شعر شاعر ، أيًّا كان طابعه ، من شعر غزل ، حتى الفقهاء والمتكلّمون والقضاة تغزّلوا ، وأحياناً تغنّوا بشعر الغزل[2] . ولأن المقاربة الأدبية كانت تسبق التقارب العاطفي والجسدي ، فقد كثرت الروايات عن شاعر يرى جارية تعجبه فلا يلبث أن يُسمعها بيت شعر يرويه أو يرتجله ، فتردّ عليه أو تجيزه ، فيكون أخذٌ وردّ فمعرفة فعلاقة[3] . ونحن لا نشكّ في أن

---

1 يبرز لنا قيمة الحرمان والكبت كمثير للشاعرية خبر يرويه الأصفهاني عن ربيعة الرقّي الذي كان يهوى «عثمة» أمة ابن مرّار . فقد كان مولاها أحد الوجهاء ؛ وحين سمع بغرام ربيعة لجاريته ، أحضره وعرض عليه أن يهبه إياها . فقال ربيعة : «لا تهبها لي ، فإن كل مبذول مملول . وأكره أن يذهب حبّها من قلبي . ولكن ، دعني أواصلها هكذا ، فهو أحبّ إليّ» . الأغاني ج 16 ص 197 .

2 راجع مروج الذهب ـ دار الأندلس ـ ج 4 ص 12 خبر سوّار بن عبدالله القاضي ودفتره الذي يخطّ فيه أشعار الغزل ، وانظر أشعار عبدالله بن المبارك الغزلية في مجلّة «معهد المخطوطات العربية» المجلّد السابع والعشرين الجزء الأول ص 44 و47 و 60 وكذلك في العقد الفريد ج 5 ص 290 وانظر في العقد أيضاً ج6 ص 12 نسبة غناء إلى الإمام مالك . وانظر في المستطرف ج 2 ص 38 شعراً غزلياً للماجشون الفقيه . وانظر في الأغاني ج 15 ص197 خبر محمد بن إسماعيل بن علي بن عبدالله بن العبّاس العالم بالفقه والغناء معاً . وانظر في جمع الجواهر» ص 59 خبر ابن جريج فقيه مكّة يتغنّى بشعر غزلي .

3 على سبيل المثل راجع العقد ج 6 ص 101 و367 و412 وزهر الآداب ج 3 ص 742 والمستطرف ج 2 ص175 ، ونودّ هنا أن نسجّل ملحوظة مهمة وهي أن من يقرأ كتب الأخبار ، كالعقد والأغاني والمستطرف والديارات وما إليها ، يشعر كأن علاقة الرجل بالمرأة أمر سهل التحقيق ، وأن الكثيرين يتولّهون بالفتاة من نظرة واحدة فلا يجدون صعوبة في مقاربتها ومطارحتها ، وأحياناً نيل الأرب منها ، بشكل قد يتعدّى ما هو معروف اليوم عن المجتمعات المنفتحة . ونحن ، إذ نشكّ في صحة بعض هذه الأخبار وكثير من تفاصيلها ، نحذّر من التعميم انطلاقاً من جزء واحد . فراوي الخبر يروي وقائع سمعها تتعلّق بفئة من الناس ، من مستوى اجتماعي معين ، في موضوع محدّد وظروف بعينها . وحتى ، لو صحّت الجزئية هذه ، فإن من الخطأ الفاضح اعتبارها تمثّل المجتمع بأسره ، كما يخطىء من يعتقد أن العلاقة السريعة يمكن أن تنشب بسهولة بين الرجل والمرأة من جميع المستويات . وفي رأينا أن وسط هذه الأخبار لا يتجاوز محيط الجواري ممن ترسلهن سيّداتهنّ في حاجاتهنّ ، خارج المنزل ، ووسط بعض الأعراب حيث تنال الفتاة بعض الحرّية وتمتهن اجتذاب الرجال . وقد تتعاطى فئةٌ من المترفات العبث بالرجال على سبيل التسلية والتفكهة . إنما ضمن الحدود التي تفرضها قيم الجماعة .

المنافسة كانت كبيرة بين الجواري على التباهي بالمعجبين والفخر بالعشّاق ، وفي أنهنّ كنّ يتناشدن باعتزاز ما يقال فيهنّ من شعر . ولذلك كنّ سريعات إلى التجاوب مع ما يُنشَد على مسامعهنّ ، وإلى الإقبال على المعجَب الذي يحسن النظم وإظهار الحب واللوعة ، حتى بات هذا النوع من صناعة الشعر عملة لا بدّ منها لمن يريد التعامل مع أسواق الجواري . وبسبب ذلك نقول إن هذا الشعر غدا مصطنعاً ، مفتعلاً في غالبيته ، يعتمد الإخراج أكثر من اعتماده الانفعال . ومن هنا جاء تفشّيه في جميع المستويات الاجتماعية حتى لنرى الرجل ، خليفة أو أميراً ، من غير الشعراء ، لا بد له من أن يقرض البيت أو الأبيات في الغزل بالجواري ، لأنه يحسّ بضرورة أن يدلي بدلّوه في هذا الميدان ، ولأن ما يقوله شعراً ويُقبَل لا يصحّ له قوله بأي أسلوب آخر[1] .

أما بالنسبة إلى الرشيد فهو ، على ما بلغه من الغنى ، وما عمرت به مقصوراته من جَوارٍ ومحظيّات ، وما كان له من نفوذ لا حدود له ، قد حاول ، كما رأينا ، أن يتّخذ مواقف من المرأة تعتمد على رقي العلاقة وسموها ، ومساواة الجاذب ، والثقة بالرجولة . لقد كان يأنف أن تساق إليه المرأة كما تساق الشاة إلى المذبح . لقد كان يأبى من يرفضه ، ويترفّع عن المرأة التي لا تستطيع أن تهبه قلبها ونفسها[2] . بل إنه قد يحنّ عليها ويحوّل رغبته فيها إلى عطف تفيد منه[3] . وإمعاناً في الارتقاء بالعلاقة ، كان يتصنّع مواقف العشق ويتبنّى حالات الانفعال ، محاولاً التعبير عنها ليكون شعره مساعداً لجاذبه ووسيلة لإغراء المحبوبة . لكن هذا الشعر ، كما سبق لنا القول ، بقي مفتعلاً ، ونذكّر هنا بتردد معنى الخضوع في شعره ، وبتكرار فكرة انقلاب الدور بين المالك والمملوك ، مؤكّدين أن أكثر ميدان تتجلّى فيه بوادر التصنّع ، هو حديثه عن هوى مكتوم تضجّ في نفسه لواعجه ، ومحاولته التكتّم إذ يكنّي عن المحبوب الخفي المنال ، بسواه ممن يضطرّ إلى خطابهم وهو لا يحبّهم . ونتساءل : أية صحة وواقعية يمكن أن تتجلّيا في وصف نحوله حتى غدا خيالاً ، وفي وصف لوعته حتى بات قتيل الهوى ؟ بل أي معنى أشد افتعالاً وأكثر بعداً عن الواقع والمعقول ، من مخاطبة الرشيد لمحظيّة ، مشيراً إلى مبلغ تمكن حبها منه ، بقوله :

وإنّكِ ، لــو قَطَعْتِ يَدي ورِجلي ، لقلتُ ، من الهَوَى ، أحسنتِ ، زيدي[4]

---

1 يرى العسكري أن صاحب الرياسة والأبهة ، لو خطب بذكر عشيقٍ له ووصفِ وجده به وحنينه إليه وشهرته في حبّه ، وبكاه من أجله ، لاستُهجن ذلك منه وتُنقص به فيه . ولو قال في ذلك شعراً لكان حسناً . (الصناعتين ص104) .

2 ترفض دنانير أن تغنّي أمامه ، بعد البرامكة ، فيأمر بصفعها ، فتغنّي بشعر حزين فيطلقها (نهاية الأرب ج5 ص 20) .

3 تمتنع جارية زلزل عن أن تنضمّ إلى حريمه ، بعد موت مولاها ، فيشتريها ويعتقها وفاء لذكراه (الأغاني ج 5 ص206) .

4 تاريخ بغداد ج 14 ص 11 .

فإذا كان من صدق في هذه الصورة ، فهو رسم الرشيد لنفسه بصورة غير مباشرة : ملكاً يؤكّد سلطانه بالسيف والسيّاف ، يقطع الأوصال ويطيح بالرؤوس ، حتى إذا ما أراد إعطاء ملامح لسلطان الهوى أخرجها على نمط سلطانه : تارة يمسك بالصولجان ويحكم القلوب ، وطوراً يلوّح بالسيف ويقطع الأطراف . وهذا كلّه يؤكّد لنا أن الرشيد ، مهما حاول مساواة نفسه بشعراء الغزل ، فإنّ شعره لن يساوي شعرهم لأنه لا يصدر عن وجدانيّتهم الصادقة ، ولأن هذه الوجدانيّة بعيدة عنه إذ لا يمكن له أن يوجد في مواقف شبيهة بمواقفهم ولا أن يحسّ الانفعالات والعواطف التي تعتريهم عندما يعانون من كبت مشاعرهم : إنه كان قادراً على التنفيس المادي عمّا يعتريه ، فأين مجال التنفيس الشعري ؟

ومع تأكيدنا ضعف القيمة الفنّية لشعر العشق في البلاط ، لا بدّ من التنبيه إلى أن قيمته الاجتماعية والحضارية كبيرة ، وهذه القيمة هي التي حدت بنا إلى عرضه ودرسه . إنه يمثل ، في موضوعه وأسلوبه ، وحتى في تصنعه وافتعاله ، جانباً من حياة البلاط أعدناه إلى الترف الناجم عن فورة الأموال وتزايد عدد السراري تبعاً لذلك . والحافز إليه هو الترف أيضاً : إذ غدا الشعر ، بعد انتشار الثقافة الأدبية وتداول الجميع لنتاجها ، وسيلة تقرب[1] وحلية لا بدّ منها للعاشق المثقّف الذي أفرزه ذلك الجو . وسؤال أخير : لماذا نلحق شعر العشق عند الرشيد ، من دون سائر الناس ، بأدب الترف ، مع أن معظم البشر يعشقون ، بمن فيهم المحروم والمحتاج ، بل لعلّ المحروم والمحتاج أعمق مشاعر في الحب منه ومن أبناء بلاطه ؟ والجواب أننا نؤكد هذا وننطلق منه لتأييد ما ذهبنا إليه من سطحيّة العشق عند الرشيد وضعف الوجدانية فيه : إن هو إلاّ عبث مترف .

ولنا أن نضيف هنا أن هذا النمط من التعبير الأدبي لم يبق وقفاً على البلاط ، بل انتقل منه إلى الخارج ، مرافقاً الأعطيات الخيالية التي صدرت عن الخليفة وكبار دولته ، والتي أمّنت للرّواد تحقيق نموذج مصغّر من جو الترف فيه ، وعلاقات غراميّة منقولة عنه ، مع عدد أقل من الجواري ، ومجال محدود للتنقّل .

ثالثاً : دور الأعطيات في صراع الترف والحرمان

رأينا ، حتى الآن ، بعض المظاهر التي تجلّى فيها الترف داخل البلاط وكيف ترجمت هذه المظاهر إلى نتاج أدبي . لكن البلاط كان له دور الريادة في نشر الترف الذي عرفه . وكان الشعراء المتصلون بالبلاط ، مع أنهم لم ينصرفوا إلى وصف الحياة فيه ، قد تأثروا بهذه الحياة واعتاد بعضهم

---

1 يعطينا أبو نواس فكرة عن استخدام الشعر في تطويع المحبوبة المستعصية :

فما زلتُ ، بالأشعارِ في كلِّ مشهدٍ ، ألينهـا ، والشعـرُ من عُقَد السِحرِ
إلى أن أجابـتْ للوصالِ وأقبلـتْ علـى غيرِ ميعـادٍ إليَّ مـع العصرِ

(ابن منظور ص 144) .

اللقمة السهلة السائغة من أموال البلاط ، فراحوا ، هم الآخرون ، ينفقون ، في حياتهم الخاصة ، ما يحصلون عليه ، ينعمون ويترفون ، حتى بات معظم الظرفاء والمتأنّقين والسمار من الشعراء المتكسبين . وقد جعل بعضهم لزملائهم ، من رقيقي الحال ، نصيباً في عطاياهم[1] ، أو أنّهم أشركوهم في سبل إنفاقها . وقد حفلت كتب الأخبار والأدب والنوادر بذكر هذه الحياة المبذرة المترفة ، وما أنتج فيها من أدب ، معظمه مرتجل ، وميزته الأناقة والظرف[2] . . . وأعطيات البلاط لم تكن شيئاً يسيراً ، كما أنها لم تكن وقفاً على الشعراء . ولقد كان الرشيد ووزراؤه ينفقون بلا حساب[3] : حتى كادوا يستغربون أن يبقى في مملكتهم فقراء ، بعد تلك الأعطيات ، وينقمون ، على المتصلين بهم ، أيَّ مظهر للحرمان أو التقتير[4] . وكان الرشيد يرى أن أقل واجب عليه ، حيال من اتصل به ، أن يعطيه ما يفي به دينه . وذلك يساوي ، في نظره ، عشرة آلاف درهم[5] . فكأنّ الإنسان العادي ، في اعتقاد صاحب البلاط ، هو الذي يحمل ديناً بعشرة آلاف . ولعلَّ القيّمين على البلاط كانوا يقيسون سائر الشعب على هذه الفئة منه التي قُيض لها الاتصال بهم وكانت تنفق ثمّ تستدين ، ثم تنال وتنفق . لكن الحقيقة لها وجه آخر : فالإنسان العادي الذي لا يمارس تجارة ولا يحسن عملاً إلاّ الأدب ، لا يستدين لأنه لا يجد الكثيرين ليقرضوه ، وإذا فعل فلن يصل دينه أبداً

---

1 راجع الأغاني ج 18 ص 133 خبر إعانة أبي نواس لمحمد بن مناذر بثلاثمئة دينار . وانظر طبقات ابن المعتز ص150 خبر وصل عمر بن أبي السعلاء الشعراء من صلته .

2 نشير إلى بعض اجتماعات للشعراء كانت مناسبات انتاج أدب مرتجل ، ظريف أو ماجن . انظر مثلاً أبو هفان ص85 وص 79 وطبقات ابن المعتز ص 207 وابن منظور ص 115 و120 وخلاصة الذهب المسبوك ص 164 .

3 يورد الأبشيهي «أن الرشيد وصل في يوم واحد بألف ألف وثلاثمائة ألف وخمسين ألفاً من الدراهم» . (المستطرف ج 1 ص 165) .

4 يذكر الجهشياري أن جعفر بن يحيى زار الأصمعي في بيته ، وفي نيّته إعطاؤه كيساً فيه ألف دينار إذا أضحكه . وقد استنفد الأصمعي جهده في إضحاكه فلم تفتر شفتاه ، وتركه دون أن يصله . فقال له أنس : «ليس عادتك ردّ شيء قد أمرت بإخراجه من بيت مالك . فقال له جعفر : ويلك . قد وصلنا هذا بخمسمئة ألف درهم ، ولم أدخل له بيتاً قبل هذه الدفعة . ورأيت حبه مكسوراً وعليه برنكان منجرد ، وتحته مصلّى وسخ ، وكل ما عنده رث . وأنا أرى أن لسان النعمة أنطق من لسانه ، وأن ظهور الصنيعة أنطق وأهجى من مديحه وهجائه . فعلام أعطيه الأموال ؟ . . .» (الوزراء والكتّاب ص 206) ويروي الأصفهاني حادثة مماثلة جرت لمروان بن أبي حفصة . فقد علم يحيى البرمكي أن مروان أودع يزيد بن مزيد مئة وخمسين ألف درهم ، بينما يعيش كالفقراء ، ويشتري خبزه من البقّال . فدعا به وأنّبه ثـمّ قال : «والله ، لَما يُرى من أثر البخل عليك أضرّ من الفقر ، لو كان بك» . (الأغاني ج 10 ص 81) .

5 قال الرشيد للعبّاس بن الأحنف : أقل الواجب عليك أن نعطيك دينك . وأمر له بعشرة آلاف درهم» . (تاريخ بغداد ج 12 ص 131) . وقال الرشيد ، حين مدحه المفضّل : «يا فضل بن الربيع ، احمل إليه مئة ألف درهم لقضاء دينه» (الطبري ج 8 ص 362) .

إلى عشرة آلاف درهم لأن نفسه لا تسمح له برؤية ذلك في الحلم ، فضلاً عن الحقيقة . بل إنّ بعض الشعراء ، كما سنرى ، كانوا يحلمون بالدرهم أو الدراهم القليلة ، وقد وصل الحرمان ببعضهم الآخر إلى أن يحلموا بالرغيف ويناجوه . وهذا ما يعطينا صورة عن الفارق الكبير بين من أتصل بالبلاطات ومن لم يتّصل .

1 ـ مظاهر الغنى عند المتصلين بالبلاط : نتحدث فيما بعد عن أعطيات الرشيد لمروان وأشجع والعماني وسواهم[1] . والواقع أن الرشيد ، حين كان يعطي ، كان يفعل ذلك بلا تبصّر ولا قياس ، اللّهم إلا تجاوباً مع عمق انفعاله بما يرى ويسمع . وما فعله مع منصور من إعطائه كل ما في بيت المال ، كرره مع يحيى المكي[2] . وما فعله مع أشجع ، من إعطائه قدر ما يطلب ، كرره مع إبراهيم الموصلي[3] ، وقد حلف ، لذات الخال ، في إحدى الجلسات ، ألا تسأله حاجة إلاّ قضاها[4] . وفي إحدى الليالي وهب إبراهيم الموصلي «الهنيء والمريء» . وهما أعز ضيعتين على قلبه[5] . ويطول الأمر لو أردنا أن نعدّد عطاياه ، فقد بلغت ما يفوق الوصف ويتجاوز الأحلام . يكفي أن نقول إن المال لم يكن يعني له شيئاً ، بل إن تبديد المال غدا عنده وسيلة تنفيس عن انفعاله وتعبير عن نشوته . طرب مرّة لسماع جواري أخته وزوجته ، فنثر جميع ما في بيت المال[6] . ولعلَّ أصدق وصف فيه وصف أبي العتاهية حين بلغه خبر توزيع الرشيد مال خراج بأكمله بين بعض جواريه ، فأصابه من ذلك شبه الجنون ، ودخل على الرشيد منشداً :

اللهُ هَــوَّنَ عندكَ الدُنيــا وبغّضها إليكا
فأبيتَ إلاّ أن تُصغِّرَ كُلَّ شيءٍ في يَدَيكا
ما هانَتِ الدُنيا على أَحَدٍ كما هانَتْ عَلَيكا[7]

أما نتيجة الأعطيات والجرايات[8] ، فقد كانت ثروات بحق ، يبدّدها بعضهم ويحفظ حرمتها بعضهم الآخر : بلغ مجموع ما حصل عليه إبراهيم الموصلي من الرشيد مئتي ألف دينار أي ما يقارب مليوني درهم[9] . أما مجمل ثروته من «الأموال والغلاّت وثمن ما باع من جواريه» فقد

---

1 راجع ص 606 من البحث .

2 الأغاني ج 6 ص 177 .

3 المصدر السابق ج 5 ص 160 .

4 نهاية الأرب ج 5 ص 89 .

5 الأغاني ج 5 ص 152 (ولّما أصبح الموصلي فاوضوه عليهما بمئتي ألف درهم) . والهنيء والمريء ، كما عند ياقوت ، نهران بإزاء الرقة والرافقة حفرهما هشام بن عبدالملك وأحدث فيهما مدينة «واسط الرقة» .

6 راجع ص 159 من البحث .

7 الأغاني ج 4 ص 69 .

8 من أمثلة الجرايات خمسون ألف درهم لأبي العتاهية في كل سنة (الأغاني ج 4 ص 65) .

9 الأغاني ج 5 ص 177 .

بلغ «أربعة وعشرين ألف ألف درهم ، سوى أرزاقه الجارية وهي عشرة آلاف درهم في كل شهر ، وسوى غلاّت ضياعة ، وسوى الصلات النزرة التي لم يحفظها . . .»[1] وقد قال أحد أولاده : «لو عاش لنا ، لبنينا حيطان دورنا بالذهب والفضّة»[2] . وبلغ مجموع ما خلفه سلم الخاسر ، **مما أخذ من الرشيد ومن زبيدة خاصة** ، «ألف ألف وخمسمئة ألف درهم ، سوى ما خلفه من عقار وغيره»[3] . ومع كل ما عرف عن أبي نواس من الميل إلى إتلاف المال وتحاشي قيود القصور ، فقد استطاع ، مما ناله عن طريق إسحاق الموصلي من الرشيد ، أن «يبني لنفسه ، في نهر طابق ، الدور التي لم يبن مثلها عظماء الناس . . .»[4] ويذكر ابن المعتز أن أبا الأسد الثعلبي «لحق بالمعسكر ومدح الملوك وأجزلوا له . فكان يقْدُم القَدْمة ومعه من الورِق الكثير ، ومن الحملان والطُرف ، ما يعلمه الله ، حتى أعتقد ضياعاً بالجزيرة . وكان من أيسر أهلها»[5] . والواقع أن البلاط غدا منجم ذهب وفضّة يغرف منه المتصلون به ، لأن الرشيد لم يكن وحده الذي يعطي ، بل إن عطاء البرامكة ، إن لم يفُقْه ، في المرة الواحدة تحاشياً لتحدّيه ، فقد كان أكثر منهجية . كانوا يميلون عن العطاء العقيم إلى العطاء المثمر . فإذا اصطنعوا شخصاً لعطائهم ، راحوا يتداولونه ، فيما بينهم ، أحدهم يفي ديونه والآخر يعمّر داره ، وثالث يفرشها له ، ورابع يهبه الجواري والمركب ، أو يعطيه صك ضيعة تغلّ له إيراداً ثابتاً . وقد يكتبون له عطاءً شهرياً أو سنوياً ، حتى يخلقوا بينه وبين الفقر حاجزاً يصعب اختراقه[6] .

ولئن عجبنا من أمر هذه الأعطيات ونسبنا إلى الرواة تضخيمها ، فلأنها لم تعد من عادات عصرنا الذي غلبت عليه المادية واعتماد المصلحة المتبادلة قاعدة للعلاقات . وهي أصلاً لا تصلح لزمن يكون كسب الفرد فيه بمقدار إنتاجه . إنما ، مما لا شكّ فيه ، أن هذه العادة قامت . وأنها كانت ، إلى جانب أسباب أخرى ، مولّداً لتنافس على أصالة الأريحية . وإذا ما صدّقنا أنّ قيمة دخل البرامكة كانت تبلغ سنوياً عشرين مليون دينار ، يُنفق معظمها[7] ، فلا بدّ من تصديق معظم أخبار عطاياهم ، وبالتالي عطايا الرشيد . ثمّ إنه إلى جانب الرشيد والبرامكة ، قامت مراكز عطاء أخرى

---

1 الأغاني ج 5 ص 149 وابن منظور ص 121 .

2 ابن منظور ص 121 .

3 الأغاني ج 19 ص 236 .

4 ابن منظور ص 192 .

5 طبقات ابن المعتزص 331 .

6 انظر طبقات ابن المعتز ص 195 حول عطاء الفضل بن يحيى لنصيب الأصغر وشرائه داره ، وإعطائه صك ضيعة تغل الكثير فضلاً عن الجرايات والجوائز . وانظر الوزراء والكتّاب ص195 حول عطاء الفضل لمحمّد بن إبراهيم الهاشمي . وانظر تداول يحيى وأولاده على إعطاء أحد كتّابهم في الفخري ص 199 .

7 العقد الفريد ج 5 ص 61 .

في البلاط . فسيّداته أعداهنّ مرض العطاء . ونحن لا نستغرب عطاءات زبيدة ، فهي شريكة الرشيد . ولكن الجواري والمحظيّات كنّ يعطين . فيذكر البغدادي أن جارية لعيسى بن جعفر كان أبو يوسف القاضي سبباً في زواج الرشيد منها ، أرسلت له مكافأة : نصف مهرها ، أي عشرة آلاف دينار . فاستقلّ أبو يوسف المبلغ ولم يقبله إلاّ بعد إلحاح ورجاء ووعود بالمزيد[1] . وأبو يوسف يمثّل فئة أخرى من المستفيدين وهي فئة الفقهاء والقضاة ، كما كان الكسائي والأصمعي والأحمر يمثّلون فئة الأدباء المعلّمين . ومثلما راح شعراء البلاط ومغنّوه يرفلون في حلل الترف التي لم يحلم بمثلها سواهم من أبناء صنعتهم ، فإن الفقهاء المتصلين بالبلاط عرفوا الرواتب الثابتة ونال بعضهم الأعطيات والمنح ، بينما كان الفقيه ، من سواهم ، يقضي عمره يحدّث الناس ويفهّمهم أمور دينهم ، دون أن يناله إلاّ ثواب الله وبعض الهدايا ، ويكون عليه أن يمتهن مهنة أو حرفة يعيش من دخلها عيشة كفاف . وبينما يشتغل شيخ بالحياكة[2] ، ويعمل آخر حذّاء[3] ، ويقيم ثالث بين الغزّالين[4] ، وفيما كان أبو حنيفة خزّازاً بالكوفة[5] ، نرى تلميذه أبا يوسف ، قاضي قضاة الرشيد ، يجالس الخليفة ويأكل معه الفالوذج بدهن الفستق[6] . وفيما كان المعلّمون ، أقطاب النوادر التي تحاك حول حمقهم وضعف عقولهم ، يحملون لواء الفقر ، يأكلون خبزاً يبس وتغيّر لونه فاختلف عن خبز البقّال الطازج[7] ، نرى المعلّم في البلاط يبلغ من النفوذ ما يجعله يضرب ولي العهد[8] ، وينال من الهبات ما يجعله شخصاً مرموقاً في مجتمعه[9] ، ويذوق من الترف حلاوته ويبلغ من الأناقة ذروتها[10] . . . . ومن الطبيعي ، بعدما قدّمناه ، أن ينشأ تصنيف يميّز بين الشاعر

---

1 تاريخ بغداد ج 14 ص 250 .

2 الحسين بن محمد النجار ، من شيوخ المجبرة (الفهرست ص 179) .

3 عبيدة بن صهيب الكوفي المتوفى عام 190هـ (بغية الوعاة ص 327) .

4 واصل بن عطّاء ، وكان يلقّب بالغزال (العقد الفريد ج 2 ص 386) .

5 الفهرست ص 201 .

6 الفرج بعد الشدّة ج 2 ص 218 وتاريخ بغداد ج 14 ص 244 .

7 ورد وصف خبز المعلم في شعر أبي الشمقمق ، وكان أحد المعلّمين :

خبز المعلّمِ والبقـالِ متّفـقٌ والّلونُ مختلفٌ والطعمُ والصورُ

(غرونباوم ـ شعراء عبّاسيّون ص 137) وهذا لا يمنع وجود معلّمين معروفين بالوقار والعلم ، دون أن ينتفي عنهم الفقر ، يعدّد ابن قتيبة طائفة منهم (انظر المعارف ص 185) .

8 تاريخ بغداد ج 10 ص 184 والأذكياء ص 200 .

9 انظر ما ناله الأصمعي من مال ونفوذ عن طريق تعليمه أبناء البلاط في (الفرج بعد الشدة ج 2 ص 222) وراجع ص 78 هامش 5 من البحث .

10 يبدو أن الناس جميعاً يتأثرون بالتصنيف الذي أشرنا إليه أعلاه . فقيمة الأحمر النحوي تضاعفت في عين تلاميذه حين اختير مؤدباً لأولاد الرشيد . ومع أن الأحمر لم يكن ليعادل الفرّاء في العلم ، إذ كان ينقل إلى أولياء العهد

وشاعر البلاط ، بين الفقيه وفقيه البلاط ، بين المغنّي ومغنّي البلاط ، بين المعلّم ومعلّم أولاد الخليفة . ولا بدّ لهذا التمييز من أن يخلق صراعاً ومنافسة وردود فعل متناقضة ، نحاول التقاطها .

2 ـ **ردود الفعل على أعطيات البلاط** : يحسن بنا التمييز بن ردود فعل داخلية وأخرى خارجية . فالداخلية هي التي تكون بين روّاد البلاط الذين يتمايزون فيما بينهم ويصنّفون درجات في قيمة الأعطيات أو في دوامها وانقطاعها . والخارجية هي التي تكون بين الواصلين ، من جهة ، ومن لم يستطيعوا الوصول أو لم يريدوه من جهة أخرى .

أ ـ **تنافس الرّواد** : فعلى صعيد ردود الفعل الداخلية ، نرى أن المنطلق لها هو عدم تساوي المتصلين بالبلاط ، في المكانة أو مستوى العطاء[1] ؛ وأنها صاحبت بذور الحقد والحسد التي نمت في نفوس المتخلّفين منهم ، الذين كان يُغمط حقّهم بتقليل عطائهم عمّن سواهم ، وبتصنيف موهبتهم في درجة متأخرة . فإسحاق برصوما الزامر كان في الطبقة الثانية للموسيقيّين . طرب الرشيد يوماً لزمره فطلب إليه أن يزمر على غناء ابن جامع ، وهو من أفراد الطبقة الأولى . رفض برصوما الاستجابة إلاّ إذا رفع إلى الطبقة الأولى ، وقال ، متمرّداً : «إن كنت أزمر على الطبقة العالية ، رُفعتُ إليها . فأما أن أكون في الطبقة الثانية وأزمر على الأولى ، فلا أفعل»[2] . فأمر الرشيد برفعه إلى الطبقة الأولى . ولا شكّ في أن المتميّزين يفخرون بتميّزهم ، وأن المتخلّفين يبذلون كل طاقاتهم للّحاق بهم . وفي مجال التنافس هذا تراعى أبسط الظروف وأدقّ التفاصيل التي ترافق العطاء لتكون منطلقاً إلى نيل الإعجاب . فالفرق كبير مثلاً بين آلاف الدراهم يرميها الرشيد بين يدي المادح ، فيحملها بنفسه ويسعى إلى نقلها بإشرافه ، وبين أن يأمر لـه الخليفة ، إلى جانب المال ، بغلمان وجوار ومراكب ، يحملون وينقلون ويخدمون[3] . وفرق كذلك بين ملابس جديدة

= الدروس التي يتلقّاها من الكسائي ، فإن ارتفاع قدره يظهر في المقابلة التالية يقدّمها لنا السيوطي : «أملى الأحمر شواهد النحو ، فأراد الفرّاء أن يتّمها فلم يجتمع له الناس كما اجتمعوا للأحمر ، فقُطع . وقال محمد بن الجهم :كنّا نأتي الأحمر ، فندخل قصراً من قصور الملوك فيه فرش الشتاء في وقته ، وفرش الصيف في وقته ، ويخرج علينا وعليه ثياب الملوك ينفح منها رائحة المسك والبخور ، ويلقانا بوجه طلق وبشر حسن ، ثمّ ننصرف إلى الفرّاء فيخرج إلينا معبَّساً ، قد اشتمل بكسائه ، فيجلس لنا على بابه ، ونجلس على التراب بين يديه . . .» (بغية الوعاة ص 334) .

1 راجع إنشاد النمري ومروان بن أبي حفصة أمام الرشيد وخروج الجائزتين متمايزتين : مئة ألف لمروان وسبعون ألفاً للنمري ، مع أن إنشاد النمري ، بشهادة مروان ، كان يتفوّق جودة وجدّة . (في الأغاني ج 13 ص 143 وانظر كذلك دخول مروان وسلم والنمري على الرشيد وإنشادهم ثمّ إخراج جوائز متعادلة لهم إلاّ مروان فقد نال عشرة آلاف درهم زيادة (المصدر السابق ص 145) .

2 التاج ص 89 .

3 راجع عطية مروان المشهورة في الطبري ج 8 ص 349 .

يأمر بها للشاعر ، وبين قمصان ودرّاعات من خاص ملابسه[1] . فإذا ما دعا بملابس جديدة لنفسه ، ونضّ عنه ما يلبس من ثياب ووهبها للشاعر ، فإن قيمة العطاء المعنوية تعلو حتى لا يدانيها ثمن[2] . وكذلك نرى فرقاً بين عطاء للخليفة ، كلّه من صلب ماله ، وعطاءٍ آخر تمّ تجميعه فرضاً على أفراد الحاشية وأبناء العائلة المالكة . نجد ذلك في منافسة قامت بين مروان بن أبي حفصة وسلم الخاسر . فالمعروف أن عطاء مروان كان أكبر عطاء يناله شاعر . وكان سلم يحسده ، ويدأب ليساويه . ويبدو أن أقصى ما ناله مروان من المهدي ، دفعة واحدة ، هو سبعون ألف درهم منها أربعون ألفاً من صلب ماله وثلاثون ألفاً فرضها على أهل بيته وجلسائه . فلمّا ولي الرشيد الخلافة ، واعتاد سلم مدحه ، اغتنم فرصة سروره بسماع إحدى قصائده التي نال عليها سبعين ألف درهم ، وطلب رفع العطاء إلى ثمانين ألفاً ليتجاوز الرقم الذي توقف عنده مروان . وقد حصل سلم على مبتغاه وأصابته نشوة فخر واعتزاز ترجمها شعراً متحدّياً مروان :

أَلاَ قـلْ لِمَروانٍ أَتَـتْـكَ رسالـةٌ ... لهـا نَبَـأٌ لا ينثني عـن لقائِكَا

حبـاني أميرُ المؤمنـينَ بنَفْحَةٍ ... مُشَهَّرَةٍ قـد طأطأتْ مـن حِبائكا

ثمانين ألفاً ، حُزْتُ من **صُلبِ ماله** ، ... ولم يَـكُ قَسماً من أُلي وأولائكا

وقد أجاب مروان ، مدافعاً عن تفوّقه الذي حقّق له أرباحاً عظيمة وعطايا كلّها سنيّة ، ساخراً من سلم الذي ساق إليه الحظ ، بواسطة ابن الربيع ، عطية واحدة ذهبت بعقله وجمع عليها ثيابه متشبّثاً ، خائفاً :

أَسَلْمَ بنَ عمَروٍ قـد تَعاطيتَ غايـةً ... تُقصِّرُ عنهـا ، بعـد طـولِ عنائكا

فأُقسِمُ ، لولا ابنُ الربيعِ ورفدِهِ ، ... لمـا ابتلّتِ الدلـوُ التي في رِشائكا

وما نِلْتَ ، مـذ صُوِّرْتَ ، إلاَّ عَطِيَّةً ... تقومُ بهـا ، **مصرورةً** ، **في ردائكا**[3]

ومن مظاهر التنافس الذي نتحدّث عنه ، دعوة الأقران إلى المناظرة في محاولة لإظهار التفوّق في المعرفة . وقد تحدّثنا عن ذلك في مجالس المناظرة . ومنها كذلك ، ما ينقله الجليس إلى الرشيد عن زميل له ، منافس ، مما قد يسهم في زعزعة مكانة هذا المنافس في البلاط وذلك ما نسمّيه «الوشاية الأدبيّة»[4] .

---

1 انظر الأغاني ج5 ص 186 .

2 الطبري ج8 ص 349 وجمع الجواهر ص 60 وراجع ص 608 من البحث .

3 الأغاني ج 19 ص 235 (نلاحظ الإشارة إلى احتمال سلم جائزته بنفسه في ردائه) .

4 نورد مثلاً على ذلك ورد على لسان إسحاق الموصلي قال : «اغتابني بعض الناس عند الرشيد ، وعابني عنده وقال ، عقب ذلك : وبحسبك ، يا أمير المؤمنين ، أن يخالفك في العبّاس بن الأحنف ، على صغر سنّه وقلّة حذقه وتجربته ، ويقدّمه على أبي العتاهية ، مع ميلك إليه . . .» (الأغاني ج 8 ص 374) . ولنا مثل آخر فيما قام به أبو العتاهية من

ب ـ **مجاري الأعطيات** : كيف ينفق المتّصلون أعطياتهم ، ويحدّدون على أساسها نمط حياتهم ؟ الحقيقة أن بعض المتّصلين بالبلاط كانوا روّاداً دائمين تجري عليهم لجرايات وتّابع المنح والعطايا ، فعرفوا الاستقرار الاقتصادي وانتهجوا في حياتهم اليومية منهج الترف وأحياناً البذخ ، فالنعمة هبطت عليهم واستقرت عندهم . وبعض هؤلاء أحسنوا استثمار مداخيلهم حتى اقتنوا الضياع والبيوت وجمعوا الثروات ، كما رأينا ، إنما هم القلة : فمن الرّواد من كان دخولهم إلى البلاط مزاجياً ، وهم بين دخول وآخر ، ينفقون ما أصابهم من نوال فيذوقون الإفلاس ويقاربون حياة الفقر والحرمان فيعيشون حالة من القلق النفسي وينظرون إلى المال نظرة تختلف من أحدهم إلى الآخر ، وقد تتناقض . فبينما نجد فيهم من يتشبّث بالدرهم لا ينفقه ، تحسّباً لأيام انقطاع العطاء ويعيش في فقر دائم[1] ، نرى الآخرين يعيشون لحظتهم بكل كيانهم ، يعبّون من لذات الساعة وينفقون كل ما تصل إليه يدهم ، يدّخرون زاداً من السعادة واللذة إلى أوقات انقلاب الحظ . وعلى رأس هؤلاء ، كان أبو نواس والعبّاس بن الأحنف ومسلم بن الوليد وأشجع السلمي . لقد كانوا ينالون الكثير ، لكنه كان دائماً يقل عن حاجتهم إلى الإنفاق . وهذه الظاهرة لاحظها ابن خلدون عند «أبناء عصبية الملك وما أشبه ، ممن ينفق عليهم السلطان» وسجّلها في ملاحظته : «إن طبيعة الملك تقتضي الترف ، فتكثر عوائدهم وتزيد نفقاتهم على أعطياتهم ولا يفي دخلهم بخرجهم . فالفقير منهم يهلك ، والمترف يستغرق عطاءه بترفه . ثمّ يزداد ذلك في أجيالهم المتأخرة إلى أن يقصّر العطاء كلّه عن الترف وعوائده . . .»[2] من خلال هؤلاء المتصلين ، الذين ينالون المال بسهولة وينفقونه دون حساب ، وبلا تفكير بالغد ، يمكننا أن نستشف معالم الحياة المترفة التي غذاها العطاء . ودواوينهم تحفل بذكر ليالي الأنس واجتماعهم في مجالس يزينها كل ما لذّ وطاب ، تقدّمه أيد ناعمة وعيون ساحرة وأصوات تخلب الألباب[3] .

= التعريض بمحمّد بن مناذر إذ «دخل على الرشيد فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا ابن مناذر ، شاعر البصرة ، يقول قصيدة في سنة . وأقول أنا ، في سنة ، مئتي قصيدة . . .» (المصدر السابق ج 18 ص 140) .

1 هذا ما عرف عن الأصمعي وأبي العتاهية ومروان بن أبي حفصة (انظر الوزراء والكتّاب ص206 والأغاني ج 4 ص 18 وج 10 ص 81) .

2 مقدّمة ابن خلدون ج 2 ص 482 .

3 وعلى سبيل المثال ، نشير إلى قصيدة أبي العتاهية :

لَهْفي على الزَمَن القصيرِ ... بين الخَوَرْنَقِ والسَديرِ

(انظر الأغاني ج 4 ص 62) .

وشعر أبي نواس ، في ذلك ، كثير لا يحصى . منه قصيدته المشهورة :

وفتيانِ صدقٍ قد صرفتُ مطيَّهم ... إلى بيت خمّارٍ نزلنا به ظهرا

(راجع ابن منظور ص 182) وانظر اجتماع أبي نواس وداود بن رزين والحسين بن الضحّاك والفضل الرقاشي

وهذا النمط من الحياة ، الذي يعتمد مبدأ : «إصرف ما في الجيب يأتك ما في الغيب» ، يعرف أيام الشدة كما يتمتّع بأيام الرخاء . فإذا ما تأخر «المنتظَر» بدأت اللحظات الصعبة واللجوء إلى بيع الأثاث والحاجيات ورهن الأدوات واستمناح الخلاّن والأصدقاء . لذلك حفل إنتاج هؤلاء المتّصلين بالبلاط أيضاً ، بنفثات تصف انقلاب حالهم وبؤسهم في ساعات شقائهم[1] ، وتدعو إلى الابتعاد عن القصور لاكتساب السلامة وحريّة القرار .

ج ـ **الدعوة إلى الابتعاد عن الخليفة وأعطياته** : لقد كان معظم المتّصلين بالبلاط ، من الذين احترفوا الأدب والفقه ، لا يتقنون صنعة أخرى تكون مورد رزق لهم . إلاّ أن مورد البلاط بالنسبة إلى شاعرٍ معيّن لم يكن متواصلاً دائماً ، كما سبق القول . وهذا يؤدي إلى عدم استقرار حياتي وإلى فقدان الرؤيا المستقبلية . ثمّ إن مجرّد الاتصال لا يعني دائماً عطاء وغنى . فالعطاء لا يكون من الخليفة إلاّ حين يرضى ، والرشيد كان يصعب إرضاؤه أحياناً ، كما كان شديد القلق على ملكه ونفوذه ، سريعاً إلى الشك ، مستعدّاً لسماع الوشاية إذا كانت معقولة . ولأنه حاكم مطلق ، ولأن كلمة منه كانت سبيلاً إلى الثروة ، فإن كلمة أخرى كانت كافية لتجريد الإنسان من كل ما يملك ، بل لتجريده من حرّيته ، وحتى حياته . لذلك ، نادراً ما كان شخص يتصل به ويطول بقاؤه معه ، دون أن يصيبه منه لوم أو تقريع أو عقوبة أو مصادرة ، إذا لم يحبس أو يعدم . ولعلّ أقرب الرجال إليه كانوا أشد الناس تعرّضاً لانقلابه عليهم ، لا تفريق بين وزير وقائد ، ومعلّم وشاعر . وهذا الانقلاب إذا كان ظاهرة معروفة عند الخلفاء ، وبرز بوضوح أيام الرشيد ، فقد ترك أثراً في الأدب وفي سلوك الأدباء . فأشار إليه ، مثلاً ، أبو نواس ، عندما هجا زياداً بن محمد الزيادي لاغتراره بمركزه ونفوذه ، فقال :

وَكَمْ قَـدْ رَأَينا مُطاعاً هُنا ... كَ ، صار المذلَّلَ للمَجلِسِ[2]

= وعمر الوراق والحسين الخيّاط ، وعنان جارية النطاف وإسماعيل القراطيسي ورزين الكاتب ، في سوق الكرخ وما قاله كل منهم في أفانين اللهو والترف . (ابن منظور ص 115 وأبو هفان ص 79) .

1 يقول مسلم بن الوليد :

دَلَّتْ على عيبِها الدُنيا وصَدَّقها ... ما استَرجَعَ الدهرُ مما كان أعطاني

ويقول كلثوم العتابي :

بينمـا المرءُ في غَضارةِ عَيشٍ ... وصـلاحٍ من أمـرِهِ واتفاقِ

عَطَفَتْ شِدّةُ الزمـانِ فَــأَدّ ... تْـه إلى فاقـةٍ وضيقِ خِناقِ

(زهر الآداب ج 3 ص 641) وراجع الأغاني ج 18 ص 322 في خبر افتقار مسلم بن الوليد وج 5 ص 352 في خبر افتقار الأصمعي . وراجع الذهب المسبوك ص 68 في افتقار علي بن الجهم .

2 الديوان ص 521 .

كما قال مسلم بن الوليد :

كَمْ رأينا مِنْ ملوكٍ سُوِّقوا ورأينا سُوقَةً قد مُلِّكوا
وَضَعَ الدهرُ عليهمْ بَرْكه فاستداروا حيث دارَ الفَلَكُ[1]

كذلك أفردت كتب الأدب فصولاً تعرض ما قيل في تحول السلطان وغدره ، فربط بعضهم غدر الدنيا بغدرالملوك ونصح بالابتعاد عنهم[2] ، وندّد كثيرون بالوزراء والعمّال الذين تحوّلوا من العز إلى الذل . . . فسرت ردّة إلى القناعة تقابل النهم إلى الغنى[3] ، وتنصح بتحاشي القصور مقابل اللهفة للوصول إليها ، وتشيع أن الفقر ، مع السلامة ، أفضل بكثير من الغنى مع القلق والتهديد وعدم الاستقرار[4] . ومن ألطف ما قيل في هذا المعنى ، قصيدة أبي العتاهية التي نجتزىء منها الأبيات المعبّرة التالية ، مذكّرين بأن أبا العتاهية قد قاسى غدرَ السلطان وحبْسَه :

رغيفُ خُبزٍ يابسٍ تأكلُهُ في زاويةْ
أو مسجدٌ بِمَعْزِلٍ عن الورى في ناحيةْ

---

1 طبقات ابن المعتز ص 240 .

2 يقول الشاعر :

إنّ الملوكَ بَلاءٌ حيثُما حَلُّوا ، فلا يكنْ لَكَ في أكنافِهِمْ ظِلُّ
ماذا تُريدُ بقومٍ ، إنْ هُمُ غضِبوا جاروا عليكَ ، وإن أرضيتَهُم مَلُّوا
فاستغْنِ باللهِ عن إتيانهمْ أبَداً إن الوقوفَ على أبوابِهِمْ ذُلُّ

(العقد الفريد ج 3 ص 200) .

3 يظهر ذلك في قول مسلم بن الوليد :

فلا يغرَّنْك ، من دهرٍ ، عطيتُه فليس يترُكُ ، ما أعطى ، على أَحَدِ

(المصدر السابق ص 208) .

وفي قول كلثوم العتابي :

ولو قنعتُ أتاني الرزقُ في دَعَةٍ إن القُنوعَ الغنى ، لا كَثْرةُ المالِ

(المصدر السابق ص 209) .

وقد جاء ، فيما بعد ، من يفلسف الفقر ويفضّله على الغنى لأن الإنسان يعصي الله في الغنى ، وليس كذلك في الفقر . (انظر شعر محمود الوراق في العقد الفريد ج 3 ص 209 ، والوراق كان في أيام المعتصم) .

4 يتحدث منصور الأصبهاني ، الذي عاصر الرشيد ، عن أمله في الطواف بالبلاد للحصول على ثروة يعيش بها موفور الكرامة ، بعيداً عن أصحاب النفوذ :

فإن يُقضَ لي يوماً رجوعٌ فإنني سأكفرُ بالديوانِ والقَرْضِ والغَرْضِ
وأُبعِدُ نفسي عن أمور تَشينها وألزمُ بيتي وافرَ الدِينِ والعِرضِ

(طبقات ابن المعتز ص 346) .

تـــدرُسُ فيـــه دفتراً	مستنِـــداً بساريـــةْ
معتبِراً بمَـــنْ مضى	مـــن القرونِ الخاليةْ
خيـــرٌ مـــن الساعا	تِ في فيء القصورِ العاليةْ
تَعقُبُهـــا عقوبـــةٌ	تَصْلَى بِنارٍ حاميةْ[1]

ولئن أظهر أبو العتاهية الزهد ودعا إلى الابتعاد عن البلاط ، فلم يكن هذا ما يطبّقه في حياته الفعلية ، بينما العتابي كان أكثر منه صدقاً في ذلك لأن موقفه نابع من خوف عميق على حياته وكرامته . لذلك كان «يتجنّب غشيان السلطان قناعة وتنزّهاً وصيانة وتعزّزاً»[2] . وقد وصل الأمر به إلى لبس الصوف ، شأن أبي العتاهية . لكن العتابي ، مع ذلك ، لم يستطع الامتناع نهائياً عن المدح ونيل الثواب ، يتساوى في ذلك وأبا العتاهية . وقد يكون لِهَمِّ العائلة والرغبة في إرضاء الزوجة يد في ذلك ، لأنه لم يستطع إقناعها بما آمن به من خطر السلطان وغدره ، أو لأنها وجدت القناعة لا تعوّضها عن مجاراة نساء الجيران في الملبس والمأكل والحلي . ونجتزىء أبياتاً من قصيدته المشهورة يخاطب فيها زوجته الباهلية :

تَلـــومُ على تـــركِ الغِنى باهليةٌ	زَوَى الفقرُ عنها كلَّ طِرفٍ وتالدِ
أَسرَّكِ أنّي نلـــتُ مـــا نالَ جَعفرٌ	من العيشِ أو ما نال يحيى بنُ خالدِ
وأنَّ أميـــرَ المؤمنـــينَ أغصَّني	مُغَصَّهما بالمُشرفاتِ البوارِدِ ؟
دعيني تَجِئْني ميتتـــي مُطمئنـــةً	ولم أتجشَّمْ هَوْلَ تِلكَ الموارِدِ[3]

ونحن نلاحظ العتابي ، في ردّة فعله على الاتصال بالبلاط ، يفرض على نفسه وعائلته نوعاً من الحرمان رأى بعضهم تسميته زهداً ، ونحن نسميه حرماناً مقصوداً ، لأن العتابي لم يكن أبداً بعيداً عن البلاط إلاّ في فترة غضب الخليفة عليه وهروبه منه[4] . ولكنه بعد أن حاز رضاه ظلّ قريباً منه ينال عطاياه[5] . ولئن شابه هذا الحرمان الزهد في بعض مظاهره ، فهو يختلف عنه في الحافز . فالدافع إليه الخوف من الانقلاب ومن الإذْلال ، لا شراء الدنيا بالآخرة . وهو ، إذا ما عضّه ناب الحاجة ، لا

---

1 ديوان أبي العتاهية ص 488 .

2 تاريخ بغداد ج 12 ص 488 .

3 الأغاني ج 13 ص 122 .

4 انظر في غضب الرشيد عليه ، (الأغاني ج 13 ص 111) دون ذكر سبب الغضب ، وانظر كذلك (معجم الشعراء 224) حيث يذكر أنه رُمي بالزندقة عند الرشيد فهرب ثم عاد فمدحه ونال رضاه . وفي (الوزراء والكتّاب ص 233) يذكر أنه رُمي بالاعتزال فهرب .

5 ظل العتابي يتصل بالبلاط حتى بعد موت الرشيد ، فقد اتصل بالمأمون (طبقات ابن المعتز ص262 والأغاني ج31 ص 114 وزهر الآداب ج 3 ص 640 وتاريخ بغداد ج 12 ص488) .

يستنكف عن العودة إلى المدح والربح . ولعلّه ، في ذلك ، يعتمد فلسفة واقعية يلحظها بقوله :

أُسجُدْ لِقِردِ السَوءِ في زمانِهِ   وإن تلقّـــاك بخَنْزُوانِــــهِ

لا سيّما مـــا دام في سلطانِهِ[1]

ونضيف هنا أنه ، إذا كان أبو العتاهية والعتابي اتصلا بالبلاط وذاقا فيه الحلو والمر ، ثمّ اقتنعا بضرورة الابتعاد عنه ، فهناك أبو نواس الذي لم يتصل به إلاّ راغماً حسبما يدّعي[2] ، وكلا الثلاثة ، وغيرهم كثيرون من المتّصلين ، قاسوا من غضب الرشيد وسجنه أو نقمته ، ولم يستطيعوا الابتعاد عنه بل قضوا عمرهم يتّصلون به وينالون رفده ويحملون أوزار قربهم منه . بينما فئة أخرى قضت عمرها تحاول الاتصال دون أن يقيَّض لها ، ولطالما وقف في طريقها من سبقوها إلى البلاط .

التنافس بين المتّصلين بالبلاط والطامحين إلى الاتصال : وهو من ردود الفعل الخارجية . إذ أن معظم من اشتغل بصناعة الأدب كان أقصى طموحه الاتصال بالبلاط . لكن الواصلين السابقين كان عليهم ، لحفظ مكاسبهم ، منع غيرهم من الوصول ؛ فالتنافس بين الفئتين على أشده . ولنا نموذج عنه فيما جرى للكسائي ، يرويه السيوطي فيقول : «لما أصاب الكسائي الوضَح كره الرشيد ملازمته أولاده . فأمر أن يَختار لهم من ينوب عنه ممن يرضاه ، وقال : «إنك كبُرتَ ، ولسنا نقطع راتبك» . فدافَعَهم **خوفاً من أن يأتيهم برجل يغلب على موضعه** . إلى أن ضُيق الأمر عليه وشُدد وقيل له : إن لم تأت برجل من أصحابك ، اخترنا لهم من يصلح . وكان بلغه أن سيبويه يريد الشخوص إلى بغداد ، والأخفش . **فقلق لذلك وعزم على أن يُدخل عليهم من لا يخشى غائلته** . فقال للأحمر : هل فيك خير ؟ قال : نعم . قال : إنّي عزمت على أن أستخلفك على أولاد الرشيد . . . وأنا ألقّنك ، كل يوم ، قبل أن تأتيهم ، فتحفظ وتعلّمهم . . .»[3] وهذه الحادثة تعطينا صورة عن الصراع على مراكز البلاط ، كما أنها تعطي تفسيراً منطقيًّا لاستماتة الكسائي في هزم سيبويه ، عندما ناظره المناظرة المشهورة ، ولجوئه إلى المشروع وغير المشروع من الأساليب لتحقيق انتصاره . فليس صراع الكوفة والبصرة هو السبب الحقيقي ، إنما الصراع على «الدجاجة التي تبيض ذهباً» . وهذا يفسّر لنا أيضاً أوجه التنافس الأدبي التي كانت تقوم بين مؤيدي المدرسة الواحدة ، والتي لا تفسير لها إلاّ من هذا

---

1 الحيوان ج 1 ص 355 .

2 يقول ابن المعتز إن أبا نواس ، بعد أن فرغ من إحكام ثقافته الأدبية «اتصل بالوزراء والأشراف ، فجالسهم وعاشرهم ، فتعلّم منهم الظرف والنظافة . فصار مثلاً في الناس وأحبّه الخاصة والعامة . وكان يهرب من الخلفاء والملوك بجهده . ويلام على ذلك فيقول : إنما يصبر ، على مجالسة هؤلاء ، الفحولُ المنقطعون الذين لا ينبعثون ولا ينطقون إلاّ بأمرهم ؛ الله ! لكأني على النار إذا دخلت عليهم ، حتى انصرف إلى إخواني ومن أشاربه . ولأني ، إذا كنت عندهم ، فلا أملك من أمري شيئاً» . (طبقات الشعراء ص 202) .

3 بغية الوعاة ص 334 .

الباب . وقد غدت أكبر مكيدة ، تحاك حول أحد المتّصلين ، هي استقدام شخص إلى البلاط ، موهوب في الميدان الذي يصول فيه ويجول ؛ كما فعل إسحاق الموصلي حين جاء بأبي عبيدة إلى بغداد ، نكاية بالأصمعي[1] . بقي أن نقول إن هذا التنافس أفرز ، خارج البلاط ، فئة من المحرومين جعلت دأبها التهجّم على النائلين والمنيلين . ذاك أن المتّصلين ، إن خاضوا فيما بينهم صراعاً ومنافسة ، فإنهم ، في وجه الطامحين ، موقف واحد : يفخرون عليهم ويُدلّون بتميّزهم الذي يؤكده انتسابهم إلى حاشية الخليفة لأنها مجمع النخبة على كل صعيد[2] . فإذا ما اعتقد المتخلّفون عن ركب البلاط أن الموهبة الفنّية لا تنقصهم ، وأن الحظ العاثر هو ، وحده ، المسؤول عن بقائهم على هامش حياة القصور ، فإن إحساساً عميقاً بالحسد والحسرة يغمرهم . وتسوء حالهم لهذا البعد ، فيزيدهم سوؤها إمعاناً في البعد حتى يفقدوا الأمل بالوصول فيعمدوا إلى التخريب ، تفجيراً لنقمتهم . وهذا ما ندرسه في أدب الحرمان .

تحاشي الاتصال بالبلاط ورفض عطاياه : فكما وُجد بين المتصلين من دعوا إلى الابتعاد عن الخليفة وأمواله ، وجدت فئة خارج البلاط أبت أن تسخّر علمها ولسانها لخدمة أهواء السلطان ، محتقرة عطاياه ، مختارة حياة الفقر والحرمان مع الكرامة ورضى الله . ونحن نرى أن هذا الموقف هو أيضاً ردّة فعل لعطايا البلاط ، وحصيلة التقاء التيارات المختلفة المتنافسة حوله . ويلخص هذا الاتجاه شعر السيد الحميري مخاطباً بشار بن برد :

أيها المــادحُ العبادَ لِيُعطَى　　　إنّ للهِ مــا بأيــدي العِبــادِ
فاسألِ اللهَ مــا طلبتَ إليهم　　　وارجُ نفــعَ المُنَزِّل العَوّادِ[3]

من هذه الفئة[4] أدباء وشعراء وفقهاء : فالخليل بن أحمد الفراهيدي انقطع إلى العلم ولم يقصد

---

1 يشير الأصفهاني إلى هذا التنافس في خبر مكيدة أدبية دبّرها الأصمعي لإسحاق الموصلي . وتتمّة الخبر ، وهي التي تهمّنا هنا ، يرويها الأصفهاني على لسان إسحاق : «فغاظني فعله . فلمّا خرج عرّفت الفضل بن الربيع قلة شكره لعارفة ، (الحديث عن الأصمعي) ، وبخله بما عنده . ووصفت له فضل أبي عبيدة معمر بن المثنى وعلمه ونزاهته وبذله لما عنده واشتماله على جميع علوم العرب . ورغّبته فيه حتى أنفذ إليه مالاً جليلاً وأستقدمه . فكنت سبب مجيئه من البصرة» . (الأغاني ج 5 ص 353) .

2 يؤكد ذلك فخر العرب بأخذ جوائز الملوك ، وباعتداده أشرف ما يتموّلونه ، كما يقول ابن عبد ربّه ، ويستشهد بشعر ذي الرمة :

وما كانَ مالي مــن تُــراثٍ ورثته　　　ولا دِيّــةٍ كانت ، ولا كسبِ مأثمِ
ولكــن عطــاء الله من كلِّ رِحلةٍ　　　إلى كلِّ محجوبِ السُرادِقِ ، خِضْرِمِ

(العقد الفريد ج 1 ص 275) .

3 الأغاني ج 7 ص 231 .

4 نلم بملامح سريعة عنها ، لبرهان ما نذهب إليه ، أما الاستقصاء ، فليس من مجال بحثنا .

البلاطات لأنه ، كما يصفه ابن النديم «كان من الزهّاد في الدنيا»[1] . . . ومنها محمد بن حازم الباهلي الشاعر ، الذي عاصر الرشيد ، والذي يأخذ عليه الأصفهاني قلّة الهمة وضعف الذكر لأنه لم يتّصل بالخلفاء[2] . ولّما كانت الموهبة الشعرية لا تنقصه[3] ، وقد أثبتها في الهجاء ، فإن مظاهر الترفّع عن طلب العطاء بشعره ، وتعفّفه عن الاتصال بالسلطان ، (بصرف النظر عن أسبابهما) ، يجعلانه يمثّل هذه الفئة التي نتحدّث عنها . ومن ذلك قوله :

وصْلُ الملـوكِ إلى التَعَـالي ووفا الملوكِ مِـن المُحَالِ[4]

ومن هذه الفئة من كانوا يأبون خدمة السلطان لأن البلاط ، بترفه وحياته اللاهية ، بؤرة فساد للدين ، وتبعية تحوِّل الإنسان عن واجبه نحو ربّه وضميره . وهم يرون أن مال العطاء ملوّث محرّم . من هؤلاء ، على سبيل المثال : مصعب بن عبدالله الزبيري الذي تمنّع كثيراً عن قبول الولاية إلى أن رضخ لضغط الرشيد فقبلها على شروط[5] . ومنهم عبدالله بن إدريس ، ووكيع بن الجراح[6] . وحين قدم الرشيد إلى الكوفة ، وكتب لكل قارىء ألفين ، حُملت حصةُ داوود الطائي إليه ، لأنه لم يُجب الدعوة ، فرفضها ولم يقبلها[7] . وكذلك عبيدالله بن عمر ولاّه الرشيد قضاء المدينة فاستعفاه . ولّما لم يعفه احتال بيحيى بن خالد حتى تخلّص[8] . وقَبِل شريك بن عبدالله القضاء فقاطعه سفيان بن عينية فلم يكلّمه إلى أن مات[9] . وكذلك فعل وكيع الرؤاسي إذ قاطع صديقه حفص بن غياث لأنه تولّى

---

1 الفهرست ص 42 .

2 الأغاني ج 14 ص 87 . وكان له اتصال بالمأمون فقط .

3 يذكر ابن الجراح أنه «كان كثير الشعر وله أشياء مختارة» . (الورقة ص 109) .

4 الأغاني ج 14 ص 99 ومن شعره في رفض الخنوع وفي الرضا بالقليل ، مع أنه كان أبعد الناس عن حياة الزهد :

أشدُّ مِـنْ فاقـةٍ وَجُوعِ إغضاءُ حُـرٍ على خضوعِ
فارضَ من الدَهرِ قوتَ يومٍ وأنـتَ بـالمنزلِ الرفيعِ

(الورقة ص 109) .

5 تاريخ بغداد ج 10 ص 175 .

6 يقول البغدادي : «لما جيء بعبد الله بن إدريس وحفص بن غياث ووكيع بن الجراح إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد ليولّيهم القضاء ، دخلوا عليه : فأما ابن إدريس فقال : السلام عليكم ، وطرح نفسه كأنه مفلوج . فقال هارون : خذوا بيد الشيخ لا فضل في هذا . وأما وكيع فقال : والله ، يا أمير المؤمنين ، ما أبصرت بها منذ سنة . ووضع أصبعه على عينه – وعنى إصبعه ، فأعفاه . . .» تاريخ بغداد ج 8 ص 189 .

7 تاريخ بغداد ج 8 ص 352 .

8 قال ليحيى : «والله ، ما أُحسن القضاء . فإن كنتُ صادقاً ، فما يسعكم أن تولّوا من لا يحسن . وإن كنت كاذباً فلايحل لكم أن تولّوا من يكذب . .» تاريخ بغداد ج10 ص 310 .

9 خلاصة الذهب المسبوك ص 122 .

القضاء ، فلم يكلّمه إلى أن مات[1] . . . . ولم يكن موضوع الاتصال بالبلاط أو تحاشيه موضوعاً ثانوياً يقتصر تجلّيه على النتف من الأخبار التي سبق ذكرها . إن الموضوع في اعتقادنا حيوي بالنسبة إلى أهل العصر ، ونخص المشتغلين منهم بأعمال أدبية أو علمية أو فكرية يهتم بها البلاط ، والذين غدا هذا الموضوع محور حياتهم . وعلى هذا ، تبدو النتف المذكورة كأنها الشوارد من الأخبار التي اجتازت إلينا حقب التاريخ ، بينما غاب عنّا المهمّ منها الذي يظهر تدريجاً مع كل مجموعة شعرية تلم شمل ما تناثر في ثنايا الكتب والمخطوطات : فالمطّلع على ما جُمع من شعر عبدالله بن المبارك ، وهو الذي يمثّل فعالية تناقض تماماً فعالية الخليفة ، سواء في نمط الحياة أو في النفوذ المعنوي[2] أو في الإنتاج الشعري ، يرى عنده الإزراء برزق الملوك ، والحض على تجنّبهم ، وزيف حياتهم . يتردّد ذلك في أبياته وقصائده ، همّه الدعوة إلى الابتعاد عنهم والتقرّب إلى الله :

فاستغْنِ باللهِ عن دنيـا الملـوكِ كما ··· استغنى الملوكُ ، بدنياهمْ ، عن الدينِ[3]

فالملوك أصل البلاء وموطن الفساد :

وهـل بَـدَّل الديــنَ إلا الملوكُ ··· وأحبــــارُ سَوْءٍ ورُهبانُهـــا ؟[4]

ويستنكر ابن المبارك تبعية العلم للسلطة السياسية :

يـا أيّها الناسُ مــا لعالِمِكـمْ ··· في بحرِ ماءِ الملوكِ قد كَرَعَـا ؟[5]

ويدعو بصراحة إلى اجتناب البلاط وأعطيات البلاط ، والقناعة بالكفاف مع الصلاح ، ففي ذلك النجاح[6] .

---

1 تاريخ بغداد ج 13 ص 477 .

2 كان نفوذ ابن المبارك ، عند العامة ، يفوق نفوذ الخليفة ، بحسب بعض الأخبار ، إذ يروي البغدادي وابن خلّكان أنه «قدم هارون الرشيد الرقة ، فانجفل الناس خلف عبدالله بن المبارك ، وتقطّعت النعال وارتفعت الغبرة . فأشرفت أم ولد أمير المؤمنين من برج الخشب ، فلمّا رأت الناس قالت : ما هذا ؟ قالوا : عالم أهل خراسان قدِم الرقة ، يقال له عبدالله بن المبارك . فقالت : هذا والله المُلك ، لا ملك هارون الذي لا يَجمع الناس إلاّ بِشُرَطٍ وأعوان . « تاريخ بغداد ج 11 ص 156 ـ وفيات الأعيان ج 14 ص 444 .

3 (انظر مجلّة معهد المخطوطات العربية ـ المجلّد 27 الجزء الأول ص 70) .

4 انظر مجلّة معهد المخطوطات العربية ـ المجلّد 27 الجزء الأول ص 67) .

5 المصدر نفسه ص 53 .

6 يقول في هذا :

قد أَرَحْنا واستَرَحْنا ··· مِـنْ غُـدوٍّ ورَواحِ
واتصـالٍ بــأميرٍ ··· ووزيــرٍ ذي سَماحِ
بِعَفـافٍ وكَفَــافٍ ··· وقُنــوعٍ وصَلاحِ
وجَعَلْنـا اليـأْسَ مِفتا ··· حـاً لأبوابِ النجاحِ

(المصدر نفسه ص 43) .

رابعاً : أدب الحرمان

نذكّر بأن منطلق بحثنا هو دائماً الرشيد وبلاطه . ولذلك فالأدب الذي نعنيه هنا ليس أدب الطبقة الفقيرة المعدمة ، على وجه الإطلاق ، فهذا بعيد عن بحثنا . وإنما نقصد بالمحرومين : الذين تحدّثنا عنهم ممن حرموا عطايا البلاط ، وكان يمكن لهم أن ينالوها ، لو قُيّض لهم الحظ ، وأرادوا ؛ والذين كانوا ، في الآن نفسه ، على علاقة مباشرة وثيقة بالمتّصلين بالبلاط أو ببعض شخصيّاته ، صاحبة النفوذ . ولقد برهنّا ، فيما سبق ، أن بذور الحرمان كانت تنبعث في صميم مراعي الترف فتولّد ردود فعل تراوح بين النقمة والتمرد والزهد . ونحن ندرس هذه المظاهر ، في ما أفرزته من أدب ، بسرعة واختصار ، ثم نعمد بعد ذلك إلى تحديد حوافزها النفسية وربطها بترف البلاط .

1 ـ مظاهر الحرمان في الأدب : إذا كان أدب الترف يتناول مظاهر الغنى ورفاهية العيش ، فلا بدّ لأدب الحرمان ، الذي عددناه ردّة فعل له ، من أن يصف مظاهر الفقر في هيئة الناس ومساكنهم وحاجاتهم اليومية ، ولا بدّ له ، لكونه ظاهرة تمرّد على ترف المتّصلين ، من أن يذهب إلى هجاء هؤلاء في نمط حياتهم أو في أشخاصهم ، أو في مستوى شاعريتهم ، ويذهب إلى هجاء من يغدقون عليهم العطايا ، كما سبقت الإشارة . ولا يبعد أن يولّد التمرد حالة من السلبية تجعل الإنسان يظهر الاحتقار لهذا الجو الذي لم يتسنّ له الوصول إليه والعيش فيه ، فيأبى أن يتمنّاه ، ويزهد فيه . هذه الموضوعات الرئيسة التي تناولها أدب الحرمان نعرضها في شعر المتصلين بالبلاط والمتخلّفين عنه .

أ ـ وصف الفقير المعدم : يتولّى العماني وصف الأعرابي الشيخ يأتي بغداد ويضيع في خضمّها . ومع أن العماني اتصل بالخلفاء الأمويّين والعبّاسيّين[1] ، فنال رفدهم ، ومع أنه كان من روّاد قصر الرشيد ومن مرافقيه في بعض تنقّلاته ، فقد ظلّ في مستوى من تتواتر عليهم العطايا والديون ، وذاق حالات اليسر والعوز . ونحن نقول هذا لأن الشيخ الذي يصفه العماني ليس في رأينا إلاّ العمانيَّ نفسه . فالأخبار لم تعرفه إلاّ شيخاً ، وقد بقي محافظاً على مظهره الأعرابي[1] . لذا فقد أحسن وصف هذا الطاعن في السن ، الطامح إلى أجواء البلاط ومقاربة أصحاب النعمة والجاه ، يقف بأبوابهم ، مع كثير من الواقفين غيره ، الطامحين مثله[2] . ويبدو أن تأثر العماني ، بحالة الفقر هذه ، كبير ، وإحساسه بالفقر عميق ، يزيده عمقاً ما يراه حوله من مظاهر ترف وغنى وشبع تتنافى وما يحسّ به ، في لحظات افتقاره ، من معاناة الذل والجوع ؛ فنراه ينسى الأعطيات

---

1 اجع ص 88 من البحث .

2 انظر دخوله على الرشيد بزي الأعراب في عيون الأخبار ج 1 ص 93 وفي الشعر والشعراء ص 176 .

3 كان ذلك في مقطوعته التي مطلعها :

يا رُبَّ شَيخٍ عَرِقِ الجَبينِ يغدو ببغدادَ معَ الغادينِ

(طبقات ابن المعتز ص 114) .

التي نالها ، ويترك لحقده العنان ينصبّ على المترفين[1] : أَمِنَ العدل أن يمشي الأعرابي هائماً غريباً في بغداد ، لباسُه الأطمار وغطاؤه الغبار ، وقد طالت من أصابعه الأظفار ، في حين يعيش المنعَّم في قصره ، وسط جواريه وقيانه ، في جوّ من النظافة والأناقة ؟ أمن المعقول ألاّ يستطيع الشيخ تأمين أسباب النظافة ولا عناية المزين ، بينما حمار المترف يجد من يهتّم به فيرتّبه أو يقصّص شعره عندالبيطار ؟ أمِنَ العدل أن يجوع الشيخ بينما المنعمون يعبّون من الدنان وينصبون القدور يتصاعد منها الدخان ورائحة المآكل الطيّبة الشهيّة ؟ أمِنَ العدل أن تكون ثياب الشيخ الأطمار ، بينما المنعَّمُ يرفُلُ في «ثوبِ قوهيٍّ» وثوبِ لين ؟ وتقف نقمة العماني عند حدود المقابلة ، ولا تتحوّل إلى نقمة ثائرة . إنه يكتفي بنعت الموسرين بالبخل ، فطعامهم لا يطمع فيه الجار . وينعتهم كذلك بتصلّب الحسّ الإنساني وغلبة الأنانية ، إذ ما أن يفيئوا إلى موائدهم وطعامهم وشرابهم ، حتى ينسوا أن هناك مساكين أصحاب حاجة يعقدون عليهم الآمال . . .[2] ويستتبع وصف الفقير وصف صغاره المحرومين مثله . ويتولي ذلك أبو فرعون الساسي فيرسم صورة لأطفاله يظهرون فيها كالِجي الوجوه ، عراةً أو شبهَ عُراةٍ ، يجابهون بعريهم قَرَّ الشتاء ، يلتمسون الدفء بالالتصاق بصدر أبيهم ، بينما المسكين لا يقلّ عنهم حاجة إلى هذا الدفء[3] .

هذه بعض معالم الحرمان ، معالم إنسانية حيّة ، ولا بدّ لها من إطار .

ب ـ اطار الحرمان : كيف يعيش المحرومون وأين ؟ ماذا يأكلون وما هي آمالهم ؟ نحاول أن نلمّ بلمحة سريعة عن ذلك لتكتمل الصورة . فقد توجّه بعض الشعراء إلى وصف هذا الإطار واختص كلٌ منهم بلون : اختصّ أبو الشمَقمَق مثلاً بوصف منازل الحرمان بتداعيها وإقفارها من المؤن ومعالم الحياة الأخرى ، الظاهر منها والخفي . ويمعن أبو الشمقمق في وصف حالة العدم التي يدّعيها ، كأنه يتلذّذ بإبراز مظاهر حرمانه ، فهو لا يملك شيئاً وليس له شيء يخاف عليه وليس عنده نقود ولا أثاث يحمل همّه إذا نودي للرحيل . وهو لا يملك عبداً ولا دابة يخشى هلاكها ولا سريراً وملاءات ، ليس إلا حصير وأطمار . وبمرارة يقول :

وفي ذا راحـــةٌ وفـــراغُ بـــالٍ فَدَأْبُ الدهرِ ذا ، أَبَداً ، ودأْبـي[4]

---

1 ورد ذلك في مقطوعته التي مطلعها :

لا يستوي مُنعَّـمٌ بُنْدارُ لـه قِيانٌ ولـهُ حِمـارُ

(المصدر السابق ص 113) .

2 طبقات ابن المعتز ص 113 وص 114 .

3 ابن المعتز ص 376 والورقة ص 53 وانظر وصف أبي الشمقمق لصغاره في طبقات ابن المعتز ص 127 وص 128 .

4 العقد الفريد ج6 ص 216 ويصف أبو فرعون الساسي بيته المقفرالذي يسرق فيه السارق ، ويسمّي نفسه «أبو الفقر وأم الفقر» (ابن المعتز ص 376) .

والرغيف ، عند أبي الشمقمق . هو بَرُّ الأمان . فأفضل ما يفعله المرء في حياته أن يجمع الخبز في البيت[1] . إلاّ أن شاعراً آخر تغنّى بالخبز وهو ابن سيّابة الذي يعتدّ فقدانَ الدقيق في المنزل مصيبةً تفوق مصيبة من فقد إنساناً عزيزاً على قلبه[2] . واختصّ أبو المخفّف بوصف الخبز حتى سمّي «شاعر الرغيف» : خصّه بكثير من شعره ، واعتدّه أحسن أعطية :

إنّ الرغيــفَ مُحَبَّـــبٌ   في الناسِ مَطَلبُـهُ جميلُ[3]

ولا بدّ هنا من التذكير بملحوظة بدأنا بها حديث الترف ، وهي أن المتصلين بالبلاط نالوا مئات ألوف الدراهم وأنفقوها بينما أشباه لهم في الحياة بلغوا ، من الإفلاس ، أن تغنّوا بالرغيف وأنشدوا للدرهم كابن سيّابة الذي صار يذلّ نفسه لأصحابه وأصدقائه بهدف الحصول عليه[4] . . . وملحوظة أخرى نلفت النظر إليها وهي أن الفقر ، عادة ، حليف القذارة ، ومع القذارة تنمو الطفيليات ، وعلى أجساد الفقراء يعشّش القمل والصئبان . وللقمل مع الفقر حكاية طويلة . وأسلوب التخلّص منه «بالتفلية» و«الطقش» استرعى انتباه بعض الشعراء ، وعلى رأسهم أبو نواس الذي عرفت له عدة مقطوعات في وصف صيد القمل عن الجسد[5] ، كما أن للجاحظ مقطوعة نثرية في وصف امرأة البقال تفلّي حبيبها و «تشدخ» القمل بين ظفريها ، ملتذّذة بصوت الفرقعة التي تحدثها[6] . هذه المناظر تقابل منظر القصور والحدائق وما فيها من غنى ورفاهية لم يغيبا عن أنظار شعراء الحرمان . والشاعر الذي يصف مظهر الفقر أو يتلبّسه ، الممتلىء بالنقمة على الواصلين ، الحاسد لهم ، يمرّ بتجربة نفسيّة عميقة الغور ، شديدة الإيحاء ، لا بدّ لها من أن تنفجر أدباً ينفّس عن الكبت الذي يرافقها ، ويتخذ مجريين : أحدهما يدوّي نقمة صريحة واضحة تنصبّ على فئة المحظوظين وقد يعقبها ابتزاز بالهجاء أو بالتهديد به . والمجرى الثاني سلبي يتردّى الشاعر فيه ثوب الحرمان ويفخر به لأنه يعتده رمز الترفّع والتعفّف ، مزدرياً كل ما يتباهى به المترفون ويتسابقون في اقتنائه لأنه رمز عبوديتهم للإنسان .

---

1 يقول :

مــا جَمَع الناسُ لِدُنياهُمُ   أنفعَ في البيتِ مـن الخُبْزِ

(ابن المعتز ص 127) .

2 الأغاني ج 12 ص 83 .

3 الورقة ص 116 .

4 يقول مخاطباً بعض إخوانه :

هَــبْ لي ، فَديتُكَ ، دِرهماً   أو درهمــينِ إلى ثلاثــةْ

(شعراء بغداد ج 1 ص 28) .

5 انظر مقطوعاته في أيوب مفلّي البراغيث (الحيوان ج 5 ص 379 والديوان ص 532) .

6 الحيوان ج 5 ص 379 .

ج ـ التهجّم على المستفيدين من نعم البلاط وابتزازهم : ما الذي يميّز المتصلين من سواهم ؟ هل يميّزهم العقل والأدب والعبقرية والنسب ؟ هل صحيح أنهم النخبة وأنهم وحدهم يستحقون النعمة ؟ ليس هذا رأي الفئة الأخرى من أصحاب المواهب الذين يحملون جرح الغبن ومشاعر الحقد ويتألمون من سخرية الأقدار في تقسيم الغنائم . يروى المسعودي أن محمد بن سليمان الهاشمي ركب يوماً وبقربه سوّار القاضي يسايره . فاعترضهم «رأس النعجة» الشاعر وقال : «يا محمّد ، أمن العدل أن تكون غلّتك في كل يوم مئة ألف درهم ، وأنا أطلب نصف درهم ، فلا أقدر عليه ؟ ثم التفت إلى سوّار فقال : إن كان هذا عدلاً ، فأنا أكفر به»[1] . وينظر أحد الأدباء إلى قوم من كتّاب السلطان في أحوال جميلة ، فتذوب نفسه أسى ، ويجد أن الدنيا هي حيث يعيش هؤلاء ، بينما هو يمضي أيامه على هامش الحياة يراقب ويتألم كأنه ليس من أبناء هذه الحياة[2] . وأبو نواس كان دائماً قريباً من الطبقة الشعبية ، يراقبها ويصفها ويتقمّص أحاسيسها . فنراه مرّة يستعير ثوب الحرمان ليغدو مفلساً ، خفيف الأحمال ، قليل الزّوار ، لا يملك إلاّ شخصه[3] ، ونراه في مرّة ثانية يتبنّى آمال هذه الطبقة التي تتجلّى في الوصول إلى الغنى ويحدّد طريقين يمكن لهما تحقيق الهدف : طريقاً حلالاً يؤدّي إلى البلاط ، فمنادمة الخليفة ، فنيل أنعامه ، وطريق خروج على القانون يؤدّي إلى الصعلكة والشطارة ، فقطْع الطريق على المنعمين ، فسلْبهم بعض ما للمحرومين بذمّتهم . يقول :

سأبغي الغِنى ، إما نديـمَ خليفةٍ ... يُقيـمُ سَواءً ، أو مخيـفَ سبيلِ
لِنخْمِسَ مـالَ اللهِ من كلِّ فاجـرٍ ... وذي بِطنـةٍ ، للطيِّباتِ أكـولِ[4]

وهذا الموقف[5] المتطرف ليس وليد الصدفة ، بل هو وليد قناعة تكوّنت عند الشعراء وتأكدت بالملاحظة والتجربة الشخصية ، من أن الحق لا يذهب دائماً إلى صاحبه ، وأن الحظ لا يتبسم أبداً

---

1 مروج الذهب ـ دار الأندلس ـ ج 3 ص 338 .

2 ينسب ابن الجراح الأبيات إلى الخاركي ومنها :

مَـنْ كانَتِ الدنيا له شارةً ... فنحنُ مـِنْ نَظّارةِ الدُنيـا
نَرقُبُها عـن كَثَـبٍ حسرةً ... كأننا لفـظٌ بـلا معنى

(الورقة ص 58) .

3 العقد الفريد ج 6 ص 217 .

4 الديوان ص 17 .

5 في رأينا أن موقف أبي نواس يمثّل عقلية العربي الذي قلّما فكر ببناء ثروة عن طريق تجميع الدرهم على الدرهم ، وقلّما فكّر في أن يبدأ بالأعمال اليسيرة ليصل إلى العمل الجليل ، بل كان دائماً يطمع بعمل كبير يكون فرصة العمر . وهذه النفسية هي في أساس عمليات الغزو التي دوخت الصحراء ، وقد تكون من أسباب الفتوح الجبارة التي طالت أطراف الدنيا . وهي ، كما يبدو ، في أساس تحوّل الأدب إلى أبواب الملوك .

لمستحقه ، وأن الحر والثروة لا يجتمعان ، وأن الغنى لا يناله ذو العقل ، كما يقول ابن أبي الشيص[1] . ونتيجة هذه القناعة ، يصبح مال الفئة الواصلة ، وهي لا تستحقه ، حلالاً على المحروم العاقل ، بل هو حقّه سرقوه منه لأن معيار الأفضليّة هو العقل ، وعلى أساسه يجب أن يتم توزيع الثروات[2] . هكذا يتكرر ربط الحمق بالمراكز والثروة والجاه . فيقول أبو العتاهية إن بعض ذوي الجاه يتساوون والبهائم :

أَرَى قوماً يتيهونَ بِهاماً رُزِقوا جاها[3]

ويرى أبو الشمقمق أن الكثيرين من الجلساء ، نالوا حظوتهم بحسن المظهر ، وهم ، في قلّة فهمهم ، كالحمير :

كم من فتىً ، تُبصِرُ ، ذا هيئةٍ أَبْلَدَ في المجلِسِ من عَيْرِ[4]

فإذا ما انتفت سمات التمييز عن المرفّهين ، والملتحقين بالبلاط وجلسائه بصورة خاصة ، تكون الخطوة التالية فخراً بالشاعرية المظلومة وإبرازاً لتفوّقها . يقول مسلم بن الوليد قبل أن يتصل ببلاط الرشيد : «إن نفسي تذوب حسرات من أنه يحوي خزائن الخلفاء من لا يقاربني في أدب ولا يوازيني في نسب ولا يصلح أن يكون شعرُه خادماً لشعري»[5] . والآن ، إذا كان المحرومون هم أصحاب الموهبة الحقيقية والحق في النوال ، وإذا كان الواصلون هم الذين ينالون الأعطيات ، وهذا اختلاس ، فلا بدّ من أن يترتب على هؤلاء كفّارة للشاعر الأصيل ، وحق طبيعي في عطاءاتهم يأخذه منهم هبة عفوية مقابل مدح ، أو يأخذه عنوة عن طريق الهجاء أو التلويح به[6] . وهذا الابتزاز كان دائماً يؤتي ثماره لأن هجاء شاعر من شعراء البلاط سلاح قاطع يوجَّه إلى سمعته التي هي رصيده الكبير . فإذا أصابتها وصمة ، إن صدقاً أو كذباً ، قد تصل

---

1 يقول :

أَظُنُّ الدهرَ قد آلى ، فَبَرَّا بألا يُكسِبَ الأموالَ حُرّا

(طبقات ابن المعتز ص 365) .

2 لا نستغرب هذه العقلية في ذلك العصر الذي عرف توجّه الفلسفة نحو الأفلاطونية ، وأبرز فكرة المجتمع الفاضل الذي يتربّع الفلاسفة على أعلى مراتبه .

3 الديوان ص 459 .

4 شعراء عبّاسيّون ص 155 .

5 المحاسن والمساوىء ج 1 ص 181 .

6 من أبرز المبتزّين أبو الشمقمق . يصفه غرونباوم باختصار قائلاً : «وعلاقاته مع شعراء عصره تلوّنت بإخفاقه في الحصول على عطف الكبراء ، ولذا كان يجد نفسه مضطراً إلى أن يلتقط فتات موائدهم» . (شعراء عبّاسيّون ص 124) وكان قد فرض على بشار مئتي درهم كل سنة (الأغاني ج 3 ص 188) .

إلى سمع الخليفة فيتغيّر حكماً على الشاعر ويغلق في وجهه «أبواب الجنّة»[1] . . . لذلك كان الشعراء يسارعون إلى دفع «الضريبة»[2] ، حتى أقذعُهم لساناً وأكثرهم شاعرية كان يفعل ذلك ، لأنهم ، على هذا المستوى ، قد يقامرون بكل مكاسبهم بينما خصمهم المعدم ليس لديه ما يخسره[3] . إلا أن الشاعر المحروم ، مع ما يحسّه من شفاء لغليله بهجائه زملاءه الميسورين ، يصل في النهاية إلى قناعةٍ : إن المذنب الحقيقي هو من يُعطي لا من يأخذ ، وإنه ، بالتالي ، هو المسؤول عن سوء الاختيار وعن عدم إتاحة الفرصة العادلة للمغمورين من ذوي المواهب . لهذا كان لشخصيّات البلاط نصيب وافر من الهجاء . فقد هُجي الوزراء والقوّاد والكتّاب ، كما هجي الشعراء . حتى البرامكةُ الأسخياء ، هُجوا ووُصفوا أحياناً بالبخل[4] . ولا بدّ أخيراً من كلمة سريعة عن دَور بغداد وأجوائها في تعميق حرمان المحرومين[5] : فهي مدينة كبيرة يضيع فيها الغريب

---

1 حين قال أبو نواس قصيدته في أبان اللاحقي يهزأ به ويردّ عليه فخره بكفاياته ، سمع جعفر الشعر فقال : «والله لقد قرّفه بخمس خلال لا تقبله السفلة على واحدة منها ، فكيف تقبله الملوك ؟ فقيل له : يا سيّدنا ، إنه كذب عليه ، فتمثّل يقول :

قد قيل ذلكَ ، إن حقّا وإن كَذِبا ، فما اعتذارُكَ عن شيء إذا قيلا ؟

وحين سمع سلم الخاسر أن هجاء أبي العتاهية له بالبخل وصل إلى سمع المأمون ثارت ثائرته وسبّ أبا العتاهية وشتمه . (الأغاني ج 19 ص 231) .

2 يسمّيها أبو الشمقمق «الجزية» . وقد فرضها على بشار بن برد وعلى سلم الخاسر وعلى مروان بن أبي حفصة .

3 يؤكد ذلك الحوارُ الذي دار بين بشّار وأبي الشمقمق ينقله إلينا الأصفهاني . فقد جاء بشاراً يطلب «جزيته» . فقال بشّار : «ويحك . أجزية هي ؟ قال : هو ما تسمع . فقال بشّار يمازحه : أنت أفصح منّي ؟ قال : لا قال : فأعلم منّي بمثالب الناس ؟ قال : لا . قال : فأشعر منّي ؟ قال : لا . قال : فلِمَ أعطيك ؟ قال : لئلاّ أهجوك . . .» (الأغاني ج 3 ص 188) . وكان يأتيه كلّما سمع بجائزة نالها ليأخذ نصيبه منها (المصدر نفسه) كذلك كان يفعل بمروان بن أبي حفصة (الأغاني ج 10 ص 83) وبسلم الخاسر (الأغاني ج 9 ص 231 و 240) . وقد هجا هؤلاء الشعراء جميعاً وسواهم ، (ممن هجاه يوسف الشاعر ، ولعلّه ابن الحجّاج انظر الحيوان ج 1 ص 225) ونال منهم ما يريده قسراً .

4 من مهجّوي أبي الشمقمق ، مثلاً ، ولاة وقوّاد كداود بن بكر (الكامل ج 2 ص 53) وسعيد بن سلم بن قتيبة الباهلي (المصدر السابق ص 24 و25) . ومنهم أيضاً كتّاب كمنصور بن زياد وعمر بن مساور (الوزراء والكتّاب ص 224 و232) والسبب دائماً هو العطاء . ويذكر المرزباني أنه هجا يحيى بن خالد وفرجا الرخّجي (معجم الشعراء ص 319) ونورد له هذا الهجاء الجماعي المعبّر :

وبَقينا في عُصبةٍ من قريشٍ يشتَهـون المديـحَ بالمَجّانِ

(تاريخ بغداد ج 13 ص 146) .

5 حين اجتمع أبو بكر الهذلي بسفيان بن عُيينة سأله : «بأي ذنب دخلتَ بغداد ؟ . .» (تاريخ بغداد ج 9 ص 741) ويقول مطيع بن إياس :

زادَ هذا الزمانُ شرًّا وعُسراً عندنـــا ، إذ أَحَلّنـا بغداذا

(تاريخ بغداد ج 13 ص 225) .

ويشعر بالتخلّي إذ يبعد عن انتمائه القبلي وعصبيته العائلية . ثم إن مستوى المعيشة ، المرتفع فيها ، يجعل ما يكفي المرء خارجها ليعيش حياة رغدة ، يبقيه فيها فريسة للفقر والبؤس . ولطالما قصّر مدخول المقيمين فيها عن تلبية حاجاتهم للتمتّع بمباهج الحياة التي تعجّ بها . إنها بلدة العزِ والسلطان والترف ، ومطمح صائدي الجوائز[1] . وهي شؤم على الفقير ، كابوس على صدر المحروم . لذا نالها نصيب من الهجاء صبّه عليها شعراء أتوها آملين فردّتهم خائبين . أو أنها قدّمت لهم من مغرياتها ما جعلهم ينفقون ويفلسون . وفي المدن الكبيرة ، كبغداد ، يسرع دولاب الحياة ويأخذ ساكنيها معه بالركض الدائم الذي لا يتوقّف ، كأن شياطين الشقاء والعوز في إثرهم ، وهم يتسارعون ليتحاشوها[2] . . . وفي المدن الكبيرة أيضاً تسيطر المادية ، والمصلحة الشخصية ، وتضيع الصداقة والمروءة ، ويقل اهتمام الفرد بالآخرين ومشاكلهم[3] بسبب التنافس على جمع الثروات ، وتبدو العلاقات سطحية ، فتختفي الحقيقة تحت قناع من الزيف[4] . . كل هذه الصفات لبغداد يكتشفها المحرومون بعد تجارب بائسة ، ويجدون أنهم ، إن لم يؤمّنوا لأنفسهم موطىء قدم في البلاط ، فعليهم أن يغادروا بغداد لأنها ليست مرتعاً لأمثالهم[5] . اللّهم إلاّ جماعة استطاعت أن تقف صامدة أمام تيّار الإغراءات الجارف ، أو أنها خافت عواقب الانجراف في التيّار فابتعدت عنه مترفعة .

---

1 يقول ابن المبارك الزاهد :

إن بغـداذَ للملوكِ مَحَـلٌّ ومُنـاخٌ للقـارىء الصيَّـادِ

(مجلة معهد المخطوطات العربية مجلد 27 ج 1 ص 45) .

2 يصف ذلك أبو الشمقمق بقوله عن بغداد :

أخذَتْ أهلَها الشياطينُ بالركـ ـضِ لِطـولِ الشقاء والإعوازِ

(شعراء عبّاسيّون ص156) .

3 يذمّها العماني قائلاً :

في بلـدةٍ ، عـالٍ بهـا الغُبارُ ليس عـلى كَهْـلٍ بهـا وَقَارُ

(طبقات ابن المعتز ص 113) .

4 يصفها أبو الشمقمق قائلاً :

ليس فيهـا مُـروءةٌ لشريـفٍ غيرُ هـذا القناعِ بالطيلَسانِ

(تاريخ بغداد ج 13 ص 146) .

5 نسمع هذه النغمة من أبي الشمقمق في قصيدة يقارن فيها بين حياة النعيم في الأهواز وحياةِ الشقاء في بغداد . ومنها :

مـا أراني إلاّ سأتْرُك بغـدا دَ وأهـوي لكـوُرةِ الأهوازِ
حيث لا تُنكَرُ المعازِفُ واللهوُ وشُربُ الفتـى مـن التقمازِ
ذاك خيرٌ من التَرَدُّدِ في بغدادَ تَنزو بيَ البِغالُ النوازي . . .

(شعراء عبّاسيّون 155) .

د ـ الدعوة إلى الانكماش والعزلة : لقد سبق لنا الحديث عن دعوة فئة من الناس إلى الابتعاد عن نمط حياة الخليفة وعن أعطياته الملوثة . والبديل الذي تقدّمه هذه الفئة ، للغنى والترف اللذين يؤمّنهما البلاط ، هو القناعة بأن ما عند الله ، من وعد حق وخير ، أفضل بكثير من كنوز الملوك والأمراء . ولئن كانت الدنيا جنّة لهؤلاء ، فهي سجن المؤمنين المتّكلين على الله ، الذين يتوقّعون مكافأتهم في العالم الآخر . وهكذا ، كلّما أمعنت فئة المترفين في التمتّع بمباهج الحياة ، زادت الفئة الأخرى في فرض الحرمان على نفسها ، والانصراف عن إغراءات الدنيا الفانية . وحين تشبع النفوس بروح الزهد هذه ، تأخذ على عاتقها الدعوة إلى مبادئها وتذكير الغافلين بحقيقة النعيم الأبدي ، فتتحوّل حركة الزهد ، من ردّة فعل عكسيّة لمظاهر الترف ، إلى قوة فاعلة تغزو القصور ، تهزّ سبات الخليفة والأمراء لتتمخّض عن أدب الزهد ، الذي نتناوله بعد تحديد الحوافز النفسيّة لأدب الحرمان .

2 ـ **الحوافز النفسية لأدب الحرمان** : إن الباحث عن الحوافز لشعر الحرمان الذي نما حول أدب البلاط لا بدّ له من أن يجدها في أعماق الشاعر النفسيّة ، لا في محيطه الخارجي . فالشاعر الذي يصف فقره ، ليس من الضروري أن يكون فقيراً ، لأن الفقير نادراً ما يتباهى بفقره ، ونادراً ما يعلنه على رؤوس الأشهاد ؛ بل إنّ كرامته تجبره على ستره ، طالما هناك سبيل إلى الستر . إن الشاعر الذي يصوّر الفقر هو شاعر مفعم بالنقمة على المجتمع ، وهو ينتقم منه بهذا التصوير . إنه يرى القصور تحفّ بها الحدائق ، تعمرها الحور العين ، كما يرى الأكواخ والأزقة والأرامل والزمنى . لكنه يصف البؤساء ويتقمّص بؤسهم ، لا رأفة بهم وشفقة عليهم ، فذلك لا يجديهم فتيلاً ، إنما يفعل ذلك ليكون إنتاجه الفنّي صفعة على وجه الجماعة التي لم يحترمها ولم يثق بها ولا أحبّها . إنه وجه من وجوه الهجاء ، هجاء الجماعة عن طريق هجاء الذات بتصوير معالم فقرها . ولو عرضنا أسماء الشعراء الذين وصفوا الفقر ، واشتهروا به أيام الرشيد ، والذين أوردنا نماذج لمعانيهم ، لتأكّد لنا الافتراض الذي قدّمناه . فإبراهيم بن سيّابة ، شاعر الدرهم ، لم يكن دائم البعد عن البلاط : لقد اتصل بيحيى بن خالد وبالفضل بن الربيع ، وقبلاً اتصل بالمهدي[1] . ولأبي فرعون الساسي ، شاعر الرغيف ، قصيدة في الحسن بن سهل «أجمع الناس على حسنها وفصاحتها»[2] . أما أبو الشمقمق ، رائد هذا النوع الأدبي ، فقد اتصل بيزيد بن مزيد[3] وبابنه خالد[4] ، ومدح ، من الأعيان ، منصور بن زياد ومالكاً الخزاعي[5] ، فضلاً عن تعريضه بالكثيرين

---

1 البيان والتبيين ج 3 ص 207 والأغاني ج 12 ص 83 وطبقات ابن المعتز ص 92 .

2 طبقات ابن المعتز ص 377 .

3 تاريخ بغداد ج 14 ص 336 ـ وفيات الأعيان ج 3 ص 303 .

4 طبقات ابن المعتز ص 129 .

5 شعراء عبّاسيّون ص 150 .

منهم ومن زملائه الشعراء هاجياً ومبتزّاً[1] . والعماني ، اتصل بمعظم الخلفاء الذين عايشهم ، من أمويين وعبّاسيّين ، كما أسلفنا ، وأبو نواس ، المعروف باتصالاته وترف حياته ، كان يحلو له أن يمارس أدب الفقر ويدّعي الحرمان والعوز[2] . فجميع هؤلاء الشعراء نالوا أعطيات ، وعرفوا ، بلا شك ، أيام رخاء . وإذا كانوا قد عاشوا أياماً عسيرة ، فإن العسر الحقيقي كان في رؤيتهم ، على بعد خطوات منهم ، قصوراً يسيل منها الترف وتخرج العطاءات وتورثهم ردّة فعل ناقمة تعمد إلى التجريح . ذاك أن إغراق الواحد منهم في رسم المنظر المقرف ، هو ، في نظرنا ، بقصد تجريح الجماعة : كأنه يكذّب ما تدّعيه من رقي وازدهار في واجهة حياتها ، بإبراز القبح القابع في «شوارعها الخلفية» ، أو كأنه يتمرّد على الترف الظالم والجمال المزيّف بتشويه صورتهما في مرآة العصر ، بل كأنه يتشفّى من ذاته التي تطمح وتطمح ، والفقر المدقع يلفّها من كل جانب . ولا شك في أنّ هذا الشعر يجبّه أصحاب القصور الذين يدّعون حب الرعيّة ، وتنظيم شؤونها وإغداق العدالة والخير عليها . فأين هم ، وأين عدالتهم ، وفي شعبهم المتألم ، وفيه الجائع والعريان ؟ إنها نقمة المحرومين على المرفّهين . . . الحرمان حافز آخر يرتبط أيضاً بالبلاط وعطاءاته ، لأنه رفيق دائم لأدب التكّسب : فمنذ القديم ، كان الشعراء يتوسّلون ، إلى إذكاء نخوة الممدوحين ، بذكر الأطفال الجياع الذين ينتظرون أوبة عائلهم بالنوال والعطايا[3] . وقد تطوّر وصف حالة الحرمان في شعر التكّسب حتى بات يستغرق كثيراً من عناصره . وما لبث ، شأن كثير من موضوعات الأدب الأخرى ، أن استقل بنفسه ، فبتنا نرى مقطوعات شعرية تكسبية تستقل بوصف الفقر أو الحرمان ، ينظمها شعراء حاولوا أن يشهروا أنفسهم بالعوز ، كما كان سواهم يشتهر بالخمر أو المجون أو الغزل ، أو الحمق أو الزهد[4] . . . وهؤلاء لا يهدفون إلى

---

1 يفصل غرونباوم أسماء مهجوّيه ومقامهم في كتابه «شعراء عبّاسيّون» ص 122 وما بعد .

2 له مقطوعة ذكر منها ابن عبد ربه ثلاثة أبيات هي :

الحمـدُ للهِ ليس لي نَشَبٌ ... فخفَّ ظهـري وقلَّ زوّاري
مـن نَظَرَتْ عينُـه إليّ فقد ... أحاطَ عِلماً بما حَوَتْ داري
جهريَ في البيت كامنٌ وعلى ... مَدرجـةِ الرائحـين أسراري

(العقد الفريد ج6 ص 217 وانظر الديوان ص 437) .

3 نسوق على سبيل المثال بيتين للحطيئة ، من قصيدة مدح بها الوليد بن عقبة :

وإني لأرجوهُ ، وإن كنـتُ نائياً ، ... رجـاءَ الربيع أنبتَ البقـلَ وابِلُهْ
لِزُغْبٍ كأولادِ القِطارات ، خَلْقُها ، ... على عاجزاتِ النهضِ ، حمرٌ حواصِلُهْ

(التكسب بالشعر ص 41) .

4 مقطوعة أبي نواس السابقة يتبعها ، مباشرة ، طلبه من الممدوح تغيير العسر باليسر . من ذلك قوله :

إنّي حَـريٌّ بـأن يُبدِّلَنـي ... جُـوْدُ يديـهِ يُسْراً بإعسارِ

(الديوان ص 437) .

تلطيخ صفحة الجماعة المشرقة فقط ، بل إلى جعل المرفهين يحسون بالذنب أيضاً ، لأنهم يعيشون في النعيم ، بينما زملاء لهم يعانون الحرمان . عسى أن تكون نتيجة الإحساس بالذنب محاولة للتكفير عنه بالعطاء والمقاسمة والمشاركة . . .[1] .

والسؤال الذي يراود الذهن هو : هل المشهد الذي يصوّره شاعر الفقر ، أو القبح الذي يبرزه ، هما من المظاهر الواقعية التي تمثل الصفحة الأخرى لحياة العصر ، أم هما إبداع من نسج الخيال ؟ ونحن لا نرى سبباً يجعل الشاعر يقدح زناد فكره ليأتي بنسج يحيك به هذه المشاهد ، فصورها موجودة في كل زمان ومكان ، خصوصاً في البيئة المتواضعة ، أو حتى الفقيرة ، التي نشأ فيها معظم الشعراء . لكن الشاعر قد يلجأ ، بهدف تضخيم الأثر الذي يريده لشعره في النفوس ، إلى النهج المعروف لموليير ، إذ يجمع في الصورة التي يرسمها ، ملامح للفقرمتفرقة في الحياة ، أو يبرز فقيراً نموذجياً تتجلى في حياته معالم فقر أمّته . وعلى كل افتراض ، فهذه المعالم يتداعى بعضها لبعض : فالفقر والحرمان والكآبة والبؤس والنقمة . . . معالم تتجاور ، والشاعر يستخدم موهبته لتسليط الأضواء عليها ، في الوقت الذي يحاول فيه أولو الأمر كبتها وإنكارها وإخفاءها كي لا تنغّص عليهم قناعتهم بأن الخير العميم يلف شعبهم .

3 ـ صوت المحرومين في البلاط : كما ينمو الشوك مع الورد على جذع واحد ، نما أدب الحرمان مع أدب الترف على تربة العصر ، وغذّتهما معاً روافد البلاط . والفرعان يثمران في شعر أبي العتاهية الذي عاش حياة القصر : غرف من بحر الخليفة وظلّ ، في الآن نفسه ، يتشبّث بأرض الفقر التي شبّ عليها وترعرع ، ويحشر نفسه في زمرة المحرومين ، يجمّل في أعينهم الحرمان ويشجّعهم على تحمّل الفقر ، مؤكّداً أنه الطريق إلى غنى الآخرة . بل إن الأمر يصل به إلى أن ينصب نفسه محامياً عنهم ، يعرض قضيّتهم ويفنّد أسباب فقرهم ومظاهر الظلم الذي يجثم على صدورهم ، مطالباً الخليفة بالتدخّل لرفع الحيف وإنصاف الرعيّة . وقصيدة أبي العتاهية التي كانت كتاباً مفتوحاً موجّهاً إلى الرشيد ، في هذا الشأن ، نادرة المثال ولذلك نعطيها مزيداً من الأهميّة ونتناولها ببعض التفصيل .

وأول ما يلفت القارىء لهذه القصيدة أن أبا العتاهية يحاول ، فيها ، أن يكون محامياً بارعاً في عرضه لقضيّة الشعب . ومن براعته أنه لم يوجّهها إلى الرشيد مباشرة ، لأن ذلك يمكّنه ، في رأينا ، من عرض أفكاره في الحياة والموت ، وتقديم عظته التي تحفز على إعطاء الفقير المحتاج دون أن يُعتبر حديثه تعريضاً بشخص الخليفة . وهذه المقدّمة تعتمد على التذكير بأن الدنيا عرَضٌ زائل ، مهما بلغ الإنسان فيها من الرفعة والمنعة والقوة ، وأنّ صروف الدهر أقوى من الإنسان ، أيّ إنسان ، وتصيّره حتماً إلى تراب يتساوى فيه الجميع . وهذا التذكير يؤدي إلى نتائج واضحة : التحفّظ

---

1 كتب كلثوم العتّابي إلى صديق له يشكو حاله ويستعينه «فشاطره صديقه ماله ، حتى أعطاه إحدى نعليه ونصف قيمة خاتمه» . (أمالي القالي ج 2 ص 135 وديوان المعاني ج 1 ص 154) .

أمام اغراءات الدنيا ، التشبّث باللحظات السريعة لملئها بعمل الخير ، منع العقل من التخطيط لأمور العالم الفاني ، وتحويله إلى التفكير بالجنان الخالدة ، وأخيراً كبح أهواء النفس التي تصبو إلى دنيا الغرور ، دافعة صاحبها إلى حتفه ، شأن العدو المبغض له . . . ولو تأمّلنا هذه المعاني جميعها لوجدناها مبطّنة بالنقد لذوي النفوذ ولأصحاب الترف ، وللرشيد الذي يتربّع على قمّة الهرم . وهذا النقد يتناول تشبّثهم بما يملكون وبالنفوذ وبالمتع التي يؤمنها المال ، وبما هم فيه من غفلة عن مساعدة المحتاج التي ، بها ، تُشترى الجنة . وهذا كلّه يشكّل عرْضاً ، غير مباشر ، لنمط من الحياة يقابل ويناقض حياة الحرمان التي يهيىء للحديث عنها ، مستخدماً التضادّ لإبرازها . وهنا تظهر لباقة أبي العتاهية إذ انتقل من المقدمة ، التي جعلها عامة ، إلى ذكر الرشيد وهو يتلفّت باحثاً عن المنقذ الذي يزيح عن صدرالشعب كابوس الفقر والمعاناة ، مؤكّداً أن الرشيد هو الوحيد الذي يمكنه أن يعمل على تخفيف بؤسه ورفع الظلم عن كاهله . وإمعاناً في اللباقة لم يتوجّه مباشرة إلى الرشيد ، بل إلى متبرع يوصل إلى الرشيد خبر الرعية المظلومة التي انطلق يعدّد مظاهر شكواها . ومع أن أبا العتاهية قريب من البلاط ، يدخله متى يشاء ، ويقول في مجالسه شعر المدح والزهد والوعظ ، فإنه لم يحمل الخبر بنفسه ، بل أراد له أن يصل عن طريق سواه . وهذا يدعونا إلى التوقّف أمام فارق مميّز ، أدركه أبو العتاهية بين أدب الوعظ والأدب الاجتماعي . فالأدب الوعظي يذكّر ويرشد ، بشكل مطلق ، والذي يوجّه إليه له حريّة التقدير لمدى انطباق المعاني الوعظية على واقعه . أما الأدب الاجتماعي فإنه نقد مفضوح يسمي الأشياء بأسمائها ، وكذلك الأخطاء ونواحي التقصير ، ويحض على علاجها . وهذا تدخّل في أمور الإدارة والسياسة لا يقبله الحاكم المطلق . ولسنا ندري تفاصيل عن ظروف القصيدة ، لماذا قيلت ولا كيف وصلت إلى الخليفة ، ولا من الذي «تبرّع» بإيصالها ، إنما نستطيع أن نستشفّ حذر أبي العتاهية في عرضه للقضيّة . فهو لم يقل كلمته ، داخل البلاط ، لأنه فيها يعتد نفسه من الفئة المحرومة ، بينما دخوله إلى البلاط يقرّبه من المرفهين ؛ وهو لم يتوجّه إلى الخليفة لأنه لا يجرؤ على نقده . ومع كل هذه الحيطة راح يؤكّد أن الصرخة ، التي يودّ إيصالها إليه ، هي من باب النصح له[1] والاستنجاد بنخوته . ونراها تسير في خطّين متوازيين : خط يعرض المعاناة ، وآخر يطري الرشيد ويبعده عن أن يكون سبباً لها ، بل يصوّره برّ الأمان الذي تتوجّه إليه أنظار المشرفين على الغرق[2] . . . إلى هنا وتكون قد اتضحت

---

1 يقول ذلك بوضوح :

مَن مُبلغٌ ، عني الإما   مَ نصائحاً متواليةْ

ألقيتُ أخباراً اليـ   كَ من الرعيةِ شافيةْ

(الديوان ص 487) .

2 من ذلك قوله :

وَأَرَى اليتامى والأرا   ملَ في البيوتِ الخاويةْ

أمامنا معالم الخطة التي رسمها أبو العتاهية : بدأ بالتذكير بالآخرة . وبزيف الحياة الدنيا لخلق استعداد عند السامع للقيام بمبادرة يشتري بها الآخرة[1] . ومن ثم عمد إلى كسب الرشيد إلى جانب القضيّة عن طريق تحييده عن أسباب الأذى ، وجعله أخيراً الملاذ الذي يتوجّه إليه المتأملون[2] . أما أسباب الألم الذي يحزّ في جسد الشعب فهي : غلاء الأسعار ، قلّة المكاسب ، العوز والفقراللذان توسع في وصف مظاهرهما . ومنها الغم المخيّم على حياة الناس ، العيون الباكية ، الأرامل واليتامى فريسة للإملاق ، الضرع الذي جفّ في صدر المرضعات ، والصبايا الجائعات يبتن على الطوى ، بطونهن خاوية ، وجسومهنّ عارية . .

والحل ، كما يراه أبو العتاهية ، بسيط : كل القدرات تجتمع عند الرشيد . فنظرة منه ومبادرة يمكن أن يكون فيهما كفكفة الدموع وشبع الجائعين ودفع الكرب وكساء الأجسام[3] . ولا يستبعد ذلك عن الرشيد لأنه ابن الخلائف ، والفرع الزكي ينبت من الأصول الطيّبات[4] .

= مِنْ بين راجٍ لم يـزلْ ... يسمو إليكَ وراجيةْ
يَشْكون مَجْهَدَةً بأصوا ... تٍ ضعافٍ عاليةْ
يرجونَ رِفْدَكَ كي يَرَوا ، ... مما لقَوه ، العافيةْ

(المصدر السابق) .

1 مما يقول في ذلك :

إن العقولَ ، عن الجِنا ... نِ ودُورِهِنَّ ، لَساهِيةْ
أفلا تبيعُ مَحَلَّةً ... تَفنى ، بأخرى باقيةْ ؟
نصبو إلى دارِ الغرورِ ... ونحن نعلم ماهيةْ
وكأن أنفُسَنا ، لنا ، ... فيما فَعَلْنَ ، مُعاديةْ

(المصدر السابق ص 486) .

2 لقد توقفنا طويلاً ، عند عرض خطة أبي العتاهية في قصيدته هذه ، لأننا لمسنا بوضوح مدى حذره من الرشيد المعروف بعدم تقبله النقد وبرفضه التعريض به ، كما لمسنا ما بذله من مهارة فائقة في التوفيق بين المواقف ، في تطويع المعاني لكي لا تثير حفيظة الرشيد فيخسر الشعب قضيّته ويخسر الشاعر نفسه . وهذا يعطي أدب الحرمان الذي مارسه أبو العتاهية طابعاً معتدلاً ينتفي عنه التمرد والثورة ، ويكتفي بالسلبيات والتحذير .

3 يقول :

مَنْ يُرتجى للناسِ غيرُ ... ك ، للعيونِ الباكيةْ ؟
مَنْ للبطونِ الجائعا ... تِ ، وللجُسومِ العاريةْ ؟
مَن لارتباعِ المسلميـ ... ـنَ ، إذا سَمِعنا الواعيةْ ؟

(الديوان ص 487) .

4 يناشد الرشيد : يا ابن الخلائفِ لا فَقَدْ ... تَ ، ولا عَدِمتَ العافيةْ
إن الأصولَ الطيّبا ... تِ لها فروعٌ زاكيةْ

(المصدر نفسه) .

بعد هذا العرض لصور من حياة الفقر قد لا تقلّ إبداعاً فنّياً وبعداً اجتماعياً عن صور حياة الترف ، نؤكّد أننا عرضناها لأنها تشكّل أرضيّة عميقة نما عليها بعض الشعر الذي دخل البلاط مع المتّصلين ممن تعرّضوا لعظمة ساكنيه وهطل عليهم صوب من نداهم ، أو ألمّ بهم لسان من برقهم ورعدهم . فصور الفقر هذه تشكّل إذن الوجه الآخر لعالم الترف الذي رسمه ، حول الرشيد ، معظم المؤرخين والرواة . وقد تكون هي السبب في ما ذهبنا إليه من قلة النتاج الأدبي الذي يفترض فيه أن يستوحي أجواء «العرس» الذي وصفت به أيام الرشيد . ونعيد إلى الذهن أن شعراء الحرمان الذين تحدثنا عنهم لم يكونوا كلّهم فقراء ؛ ومن عرف الفقر منهم لم يعرفه بالشكل الذي صوّره لنفسه : إنما هم تلبّسوا ثوب الحرمان نكاية بالمترفين الذين كانوا يتيهون بثوب العز . فالحرمان الذي يدّعونه مقصود وليس واقعياً . إنه تعبير عن نقمة ربما يكون أبرزَ مظهر لتجلّيها عمليّاً اختيارُ طريق الزُهد ، وهو قمة الحرمان المقصود .

خامساً : أجواء الزهد حول البلاط

لا شكّ في أن الإنسان الذي عاش في عصر الرشيد وعاين الطموحات وأنواع الإحباط التي حفل بها ، كان يجد نفسه خاضعاً لتيّارات تتجاذبه في كل اتجاه . فبينا يرى السلطان نهراً تتدفّق مياهه سمناً وعسلاً ، يجده ناراً تحرق من يقربها : نادراً ما كان يخلص الود والعطاء . وبينا يشتهي البعيدون عن البلاط الحياة داخله ، ويغبطون الواصلين إليها ، وهم منها محرومون ، يظهر المتصلون بالبلاط كالجالسين على فراش الإبر . ولا عجب حينها في أن يتساءل ذلك الإنسان عن حقيقة السعادة والغنى ، أين هما في هذه الحياة ؟ وقد يأتي من يجيبه بأنه لا غنى ولا سعادة حقيقيين في هذه الدنيا لأن كل ما فيها زائل ، زائف[1] : الحقيقة الأبدية الأزليّة هي حقيقة الآخرة ، فأجدر به أن يسلك طريقها بانتهاج العبادة والتقى وعمل الخير والتخلّي عن عرَض الدنيا[2] . وتبدو هذه الدعوة إلى الزهد ، في أحد أسبابها ، ردة فعل عكسية للترف والمجون : ترتبط به وتعنف بإشتداده . ومع أن الإسلام لا يدعو إلى التنّسك ، فقد بالغ بعض المسلمين في ممارسة

---

1 يقول أبو العتاهية :

ألـمْ تَرَ المَلِكَ الأمسيَّ حـيـن مَضَى	هل نال حـيٌّ ، من الدنيا ، كما نالا ؟
أفناهُ مَنْ لم يزل يُفني القرونَ فَقَدْ	أضحى وأصبح ، عنه المُلْكُ قَدْ زالا

(الأغاني ج 4 ص 91) .

2 يقول الزاهد المعروف عبدالله بن المبارك (ت 181هـ) :

تَنَعَّمَ قــومٌ بــالعبادةِ والتُّقــى	ألــذَّ النعيــمِ ، لا اللذاذةَ بالخَمرِ
فَقَرَّتْ به ، طولَ الحياة ، عيونُهم	وكانت لهمْ ، واللهِ ، زاداً إلى القبرِ
على بُرْهةٍ نالـوا بهـا العِزَّ والتُقى	ألا ولذيــذُ العيشِ بالبِرِّ والصبرِ

مجلة معهد المخطوطات العربية ـ الكويت ـ المجلّد 27 الجزء الأول ص 51 .

العبادات ، من صلاة وصوم وتسبيح وذكر لله ، كأنهم يحتمون بها من الإغراء ، فانقطعوا إليها ، حتى تجاوزوا جميع النسّاك[1] . وقد شهد عصر الرشيد موجة زهدية ضخمة يصعب إحصاء المنتمين إليها ، بل إحصاء أعلامها ؛ وبلغ بعضهم درجة من الورع وتعذيب النفس تعادل ما بلغه بعض ذوي النفوذ من الترف وآخرون من اللهو والمجون . ولأن ظاهرة الزهد عمّت ، تلك الأيام ، وانتشرت بالشكل الذي أشرنا إليه ، فإنه يمكن اعتدادها حركة دينية اجتماعية فيها ثورة سلبية على الناعمين برفاه الدنيا ، وعلى السلطان وأصحابه لأنهم يمثّلون الخطيئة والمعاصي والتنكّر للدين الحقيقي ، في نظر الزهاد . أما البديل الذي قدّمته الحركة لمريديها فهو الوعد بنعيم الآخرة الأبدي السرمدي . فالزاهد الذي يختار الحرمان في هذا العالم يعتدّ نفسه الرابح الحقيقي باحتمال ما سيجنيه من غنى الآخرة . وتمتّعَ الزهاد بنفوذ كبير عند العامة والخاصة . فالعامة أعجبت بهم وقدّستهم لما أظهروه من بطولة في كبح جماح النفس وترويضها ، ومن جرأة على الحكام في الدعوة إلى المعروف ، ومن كرامات أهّلتهم لها ، في نظرهم ، كفاياتهم في الورع والتقرب إلى الله . ولأجل هذا هابتهم الخاصة ، ولأن بعضهم أصبح بَرَكة يُستبشر بها ، ومعظمهم غدا رمزاً للقيم التي يخجل أبناء الخاصة من إهمالهم لها في مجرى حياتهم اليومية . لذلك كان الحكّام نادراً ما يتجرّأون على زاهد ، بل ، على العكس ، كانوا يحاولون التقرّب إليه كسباً لاعتبار ديني معيّن . وفي أيام الرشيد ازدهرت هذه العلاقة وخلقت أدباً زهدياً نما حوله ، وعاش جنباً إلى جنب مع أدب المنادمة والطرب والسمر . مما ندرسه في حينه .

خاتمة الباب الأول : حول تيّارات الصراع

لقد قمنا ، في هذا الباب ، بدراسة بعض تيارات الصراع وما خلّفته من أثر في أجواء الرشيد الأدبية . فالصراع ، في رأينا ، طاقة مولدة لانفعالات لا حدود لها تجعل الفنان الذي تلامسه يحسّ

---

1 نورد نماذج مما شهر به زهّاد العصر من كبح جماح النفس :كان بشر بن الحارث الحافي (ت 227هـ) يستحي من أكل الرطب . وقد رفضَ إزاراً غزلته أخته لأنها زادت في صوفه . اشتهى سفرجلة ، وهو يموت ، فجيء بها ، فشمّها ولم يأكلها . وحين اشتهت نفسه الباذنجان ، حكم عليها بالحرمان منه حتى مات (تاريخ بغداد ج 7 ص47 و76) . ومكث سلم البلخي (ت 194هـ) أربعين سنة لا يتّخذ فراشاً ولا يفطر إلاّ يوم فطر أو أضحى ، ولم يرفع رأسه إلى السماء أكثر من أربعين سنة (تاريخ بغداد ج9 ص 141) وكذلك شعبة بن عياش الخياط (أبو بكر ت193هـ) لم يضع جنبه على الأرض أربعين سنة . ومكث عشرين سنة ، وقد نزل الماء في إحدى عينيه ، ما يعلم به أحد . يقوم الليل في قباء صوف وسراويل وعكّازة يضعها في صدره ، حين كبر ، يتكيء عليها فيحيي ليلته (تاريخ بغداد ج 14 ص 380 و381) أما هشيم بن بشير (ت 183هـ) فقد مكث يصلّي الفجر بوضوء العشاء الآخرة ، قبل أن يموت ، عشر سنين (تاريخ بغداد ج14 ص 93 وخلاصة الذهب المسبوك ص 136) . ويبدو أن الصوفية كانوا معروفين أيام الرشيد لأن البغدادي يذكر خروج عبدالله بن المبارك ، من بغداد ، إلى المصيصة للغزو ، وبصحبته الصوفية . (تاريخ بغداد ج 10 ص 157) .

بفقدان التوازن النفسي . وفقدان التوازن هذا ، الذي يبلغ الحالة المَرضية عند العُصابي ، يقف عند حد التوتر المبدع لدى الفنّان[1] . فالفنان ، عندما يعاني الكبت الذي يولده اشتراكه في الصراع ، خصوصاً إذا كان منه في طرف غير متكافيء ، يعمد إلى الإبداع الفنّي يعيد فيه التكافؤ الذي يتمنّاه إلى ميدان الصراع ، كما يعيد إلى نفسه الرضى والاستقرار . وعندما يكون الصراع ، بطَرَفيه ، داخل الفنان فإنه ينتج أدباً وجدانيّاً . أما حين يكون بين الفنان والعالم الخارجي ، فإنه ، عادة ، ينتج أدباً اجتماعياً ووجدانيّاً ، في حين إذا كان طرفا الصراع خارج الفنان فإنه ، حين يُقدم على المشاركة فيه ، يكون أداؤه الفنّي تكّسبيًّا لأن التزامه ، بهذا الطرف أو ذاك ، يكون بقدر الكسب الذي يؤمنه له الالتزام . . . إلاّ أن أهمّية الصراع لا تقتصر على إلهامه الفنانَ فنّه ، بل إن دراسته تهيّيء لفهم دينامية التطوّر الاجتماعي بشكل عام ، وتستحقّ منّا وقفة ولفتة . . . يسجّل دارندورف[2] لماركس أنه «أبرز فكرة الصراع الدائم في المجتمع ، أي مجتمع» وقوله : «إن الصراع يرافق دائماً الحياة . فكل من يحيا يعرف حالات من الصراع لا تتوقّف . . . كذلك المجتمع فإن الصراع من صميم طبيعته وعمله . . والصراع هو المحرّك الرئيس للتاريخ ، يؤدي حتماً إلى تغيّرات في فترات زمنية قد تطول أو تقصر . . .»[3] وقبل أن نبحث عن صدى هذه الأقوال في المجتمع العبّاسي ، نذكر الاستدراك التالي لـ Guy Rocher : «إن بعض التناقضات قد لا يكون لها تأثير في «دينامية» المجتمع ، على أقل تقدير خلال فترة من الزمن : حينها تتعايش العناصر المتناقضة ، بسلام ، دون أن تثير احتكاكاً أو صراعاً . ويمكننا في هذه الحالة ، القول إن وظائف التكامل وخفض التوتّر ، الحيّة دائماً في المجتمع ، تكون

---

1 «يقول C. Langfeld إن أحوال الفنّانين تشير إلى حقيقةٍ واقعةٍ مؤداها أن الإبداع الفنّي ينشأ بوجود صراع لا يمكن حلّه حلاً مباشراً فيما يسمّى بعالم الواقع العملي . . . وبراون يقول : إن الجنون والعبقرية يرتبطان برباط وثيق . . . وفرويد يقول إن شخص الفنان ينصرف عن الواقع ويطلق العنان لتهويماته . . . وقد ألقى بأحاديث كثيرة حول الصراع اللاشعوري واندفاعه إلى الظهور في الأعمال الفنّية عن طريق التسامي . وموقف يونج مشابه . . . وكذلك أدلر ، فالنبوغ ، فيما يرى ، مدفوع بالشعور بالدونية وما يولده هذا من صراع لا سبيل إلى القضاء عليه إلاّ بالتعويض ، في نفس الطريق الذي أتى منه القصور» . (الأسس النفسية للإبداع الفنّي ص 124) ويقول الدكتور مصطفى سويف : «أي اختلال في اتزان الشخص مع بيئته ، يستتبع محاولات من الشخص لإعادة تنظيم الموقف سعياً وراء تكيّف جديد . . .» (الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي ص 340) ولا شكّ في أن إعادة التنظيم هذه يقوم بها كلّ إنسان بحسب إمكاناته ، فتتم ، عند الفنان ، من خلال انتاجه الفني .

2 Ralf Dahrendorf ، باحث اجتماعي ألماني . وهو من بين الباحثين المعاصرين الذين ركّزوا دراستهم على الطبقات والصراعات الاجتماعية ، وهو يعد من أبرز ممثّلي علم اجتماع الصراعات . من أهم مؤلفاته : «الطبقة والصراع الطبقي في المجتمع الصناعي» .

3 Guy Rocher, Introduction à la Sociologie Générale, Tome III (Le changement social) p. 106-107.

من القوة بحيث تمتص هذه التناقضات ، فتخفيها أو تجعلها مقبولة . إلاّ أن الأمر ليس دائماً هكذا ، فهناك تناقضات تستعصي على وظائف التكامل فتثير توتّرات لا يمكن قمعها ، وتولّد الصراعات . . . ومن البديهي أن المجتمع ، بقدر ما يكون معقّداً وسريع التطوّر ، يتضمّن تناقضات لا يمكن لنظامه امتصاصها . . .»[1] هذه المقتطفات تلقي بعض الضوء على ما عاناه المجتمع العربي من تناقضات ، منذ مهده ، في الجاهلية . ولا يزال يعاني منها حتى الآن : تخبت حيناً وتتوهّج أحياناً . فلو أخذنا صراع العصبية كمنطلق لوجدنا أنها كانت عنصر رفع للتوتّر ، وعنصر صراع مفتّت لجسد المجتمع . وقد بلغت من القوة درجة جعلت الإسلام ، في تصدّيه لجمع شتات القبائل المتصارعة ، يقوم بمعجزة اجتماعية . ومع أن الإسلام شنّ حرباً شعواء على العصبية ، وقام بدور خفض التوتّر بين العناصر المتصارعة ليعمل على تكاملها ، فإن التناقضات خبتت ولم تندثر ، إذ ما لبثت أن نفضت عنها غبار الزمن لتنطلق مجدّداً من عقالها ، بعد الخلفاء الراشدين ، يدعمها تناقضات جديدة ظهرت في تكوين المجتمع الإسلامي مع ما دخل فيه من عناصر هي أصلاً ، غير متآلفة . وهذا كلّه أدّى إلى تعقيد المجتمع ، أيام العباسيّين ، وجعله بالتالي أكثر تقبّلاً لهذه التناقضات . . أما أبرز حافز على الصراع ، فقد كان تنازع البقاء في العصر الجاهلي ، وغدا الاستيلاء على السلطة في المجتمع الإسلامي . وهذا يخالف ما ذهب إليه ماركس من أن «منطلق الصراع هو التوزيع غير العادل للملكية ووسائل الانتاج» ويجعل الحقيقة ، بالنسبة إلى المجتمع العربي ، أقرب إلى ما ذهب إليه دارندورف من أن المنطلق هو «التوزيع غير العادل للسلطة بين الأفراد والجماعات»[2] . فكثير من القوى ، في المجتمع الإسلامي ، كانت ترى نفسها مؤهلة للحكم بشكل لا يقلّ عن أهليّة الفئة الحاكمة ، أيّاً كان اسمها . فإذا ما بقيت هذه القوى ، خارج السلطة ، وهي عادة مضطهدة مغلوبة على أمرها ، كان لا بد من أن تشكل طرفاً في تمرّد أصبح صراعاً يتكرّر ويتّسع مداه حتى بتنا نرى خليفة كالرشيد ، وهو في قمّة العظمة السياسية والنفوذ والغنى ، يألف حياة المعسكرات لكثرة ما خاض من معارك مع المناوئين والطامعين . بل إننا نستطيع القول إن الامبراطورية العظيمة التي تسلمها الرشيد وخاض أنواع الصراع لأجل حمايتها ، لم يستطع أن ينقلها ، كاملة إلى خلفه ، إذ بدأت الشرذمة منذ عهده ، وأخذت أجزاء منها بالانسلاخ عنها في أيامه[3] . وهذه طبيعة الصراع السياسي والعسكري ، وأحياناً الاجتماعي ، تؤدي إلى الضعف والتفكّك .

---

1 Guy Rocher, Introduction à la Sociologie Générale, Tome III (Le changement social) p.126-127.

2 Guy Rocher, Introduction à la Sociologie Générale, Tome III (Le changement social), p. 110

3 يقول جون كلوب : «يعتد عصر هارون الرشيد العصر الذهبي في الأمجاد التي حقّقها العبّاسيّون ، بل في تاريخ الدولة الإسلامية كلّه . لكن هذه الدولة كانت أكثر اتساعاً وأكبر ، من الناحية العسكرية ، في عهد الوليد بن

وفي خطّ موازٍ كانت الصراعات ، على الصعيد الفكري ، تسرّع التطوّر الحضاري وتوسّع المفهوم الديني ، وتعمّق الأصول اللغوية ، وتوثّق التراث الأدبي ، وتدخل العقل عنصر بحث وعنصر تحكيم في الجدل والمناقشات . فبات احتكاك الآراء المتناقضة ، الصادرة عن أهواء متنافرة ، مجالاً لكسب حضاري متنوع ساهم في إحداث التغيرات الأساسية التي عرفها المجتمع العربي في البنية الاجتماعية وفي الاجتهاد الديني وتطوير العلوم النظرية والعملية . وهذه طبيعة الصراع الفكري تؤدي إلى نشر العلم وتعميق غور الثقافة لأن الأطراف المتصارعة لا تترك حقيقة صغيرة أو كبيرة ، واقعية أو مفترضة ، إلاّ تستثمرها في دعم مواقفها . وإذا حصرنا حديثنا في الأدب العربي ، تلفت نظرنا ملحوظتان : الأولى أن الأدب لعب دوراً أساسياً في الحياة العربية وصراعاتها ، قبل الإسلام وبعده . ذاك أن العرب لم يعرفوا الكثير من النماذج الحضارية يفخرون بها . لم يكن لهم إلاّ هذا اللون من الفن الإنساني : الأدب به فخروا واختصّوا ، وعليه ركّزوا في مفاخرتهم لأمم الأرض ، واعتقدوا ، بصدق ، أنهم وحدهم الموهوبون للبلاغة والفصاحة ؛ وكان مستوى الفصاحة معياراً للتميّز داخل المجتمع العربي . ومن المعروف أن القرآن تحدّى العرب بفصاحته ، وبها أعجزهم وأعيا زعماء المشركين إذ قصّروا جميعاً عن مجاراة بلاغته ، وفقدوا بذلك الكثيرمن رصيدهم لأن الفصاحة كانت إحدى مقوّمات السيادة . والملحوظة الثانية هي أن الأدب العربي ، من بين آداب الأمم جميعاً ، هو أكثرها ارتباطاً عضوياً بالحياة الاجتماعية وظواهرها المختلفة . فهو ، إذ رافق التناقضات ، منذ الجاهلية ، كان دائماً ، يلعب وظيفة أساسية في الصراعات : تارة يرفع التوتّر ويزيد العنف (إذ استخدمه المتصارعون سلاحاً في معاركهم الكلاميّة التي كانت توازي أو تفوق المعارك العسكرية لأنها تنال من الكرامة وتطعن في الأعراض) وطوراً يخفض التوتّر ويعمل على التقارب ، عندما يتصدّى العقلاء والمصلحون لرأب الصدع . وظلّ الأدب العربي يحافظ على دوره ، فحمل هموم الأفراد وطموح الجماعات وتطلّعات الأمة . ومن هذه الناحية يمكن أن نؤكد واقعية الأدب العربي عموماً . فالواقعية هي القاعدة الدائمة التي قام عليها والتي تتجلّى في ارتباط مواضيعه بالحياة وبالأحداث الاجتماعية : يؤرخ لهذه الأحداث وتُستشف من خلاله معالم الحياة ؛ فإذا عالم التاريخ يستشهد بالشعر العربي ، وعالِم الاجتماع لا غنى له عن تحليل القصائد العربية . وهذه الميزة نسجّلها للأدب العربي الذي طالما أُخذ عليه أنه لم يعرف المسرحية ، ولم يقصد إلى الملحمة ولم يمر بمراحل المدارس التي عرفها أدب الغرب . ونحن نقول إن الأدب الغربي مرّ بالكلاسيكية فالرومانسية فالرمزية ليحطّ في الواقعية ، بينما الأدب

= عبدالملك الأموي . . . وعندما جاءالرشيد إلى الحكم ، كانت الدولة قد خسرت الأندلس للأمويّين ، كما أنها فقدت المغرب ، بعد مجيئه إلى الحكم . ويمكن القول ، في الواقع ، إن الدولة قد خسرت افريقية كلّها ، إذ أنّ حدود سلطان الخليفة الفعلي كانت تقف عند برقة . . . (أمبراطورية العرب ص 543) .

العربي كان واقعياً دائماً ، دون أن يعني ذلك تجرّده عن الملامح الإنسانية التي نادت بها الكلاسيكية أو الرومانسية ، ودون أن يغفل أسلوب الرمزية ، فهو مدرسة واحدة : واقعية في مواضيعها ، قاربت الرمزية في أسلوبها وتعبيرها ، وتلبّست الرومانسية في غنائيتها ووجدانيتها ، وضارعت الكلاسيكية في الحكمة الإنسانية المطلقة المجرّدة عن الزمان والمكان ، والتي لا يكاد يخلو منها شعر شاعر . إنما كان يعود إلى هذا الأديب ، أو ذاك ، في هذا العصر أو ذاك ، أمر التركيز على أحد العناصر أكثر من سواه . . والأدب المرتبط بالبلاط ، الذي حافظ على شكل تقليدي للقصيدة ، والذي بَعُد ظاهريًّا عن البيئة الحضارية الجديدة ، لم يخرج في الحقيقة عن الواقعية التي تحدّثنا عنها . فبعد المقدّمات التقليدية كان أدب البلاط يعرض دائماً لأحداثه حتى غدا سجلاً لها ، (وهذا ما يجعلنا نفرد الباب التالي لأدب المناسبات) . فإذا ما ولد للخليفة ولد قيل فيه شعر ، وإذا ماتت محظيّة رثيت بلسانه ، وإذا خاصم جاريته توسّل الشعر لاسترضائها ، وإذا انبثقت ثورة قام شاعر يندّد بها ، فإذا قُمعت انجرد آخر يمجّد الخليفة ويستخلص العبرة . وإذا ما ثارت عصبية ساهم الشعر إلى جانب السيف ، في الواقعات ، وإذا ما لحق الضيم بقبيلة توجّهت إلى الخليفة تستنجد به وتعتذر إليه . كذلك إذا ما أصاب الإسلام نكسةٌ تطلّع الشعراء إلى الخليفة القائد المنقذ ، حتى إذا ما ردّ الاعتبار ارتفعت الأصوات تسجّل مظاهر البطولة وآيات المجد . فلعمري هل كان لأي أدب آخر هذا الارتباط بحياة الفرد والجماعة ؟ في رأينا ، لم يكن لأي أدب آخر الدور الذي لعبه الأدب العربي في صراعات الفئات المتناقضة داخل المجتمع ، سواء على صعيد تسجيل الوقائع ، أو على صعيد تأزيمها أو ايجاد الحلول لها : فلطالما مثّل التحدّي ، وكان حسم الصراع عن طريقه ، لأن الفرق المختلفة ، أيًّا كانت هويّتها ، عائلية أو دينية أو اجتماعية أو سياسية ، جعلت الأدب مطية لها للفخر بنفسها وتسجيل مواقفها ونشر شعاراتها والإزراء بخصومها . حتى الصراع الغامض الحدود الذي لا يقوم على العصبية ، بل على التناقض في مستوى إشباع الحاجات ، والذي يمثّل الترفُ والحرمانُ قطبيه المتطرّفين ، هذا الصراع لم يقلّ إيحاء أدبيًّا ، كما رأينا ، عن سائر أنواع الصراع . فأبرزَ الأدبُ ترف المترفين وحمل آمال المحرومين . ونحن نختم بمقطوعة لأبي الشمقمق نعطيها هذا العنوان بالذات : «آمال المحرومين» لأنها بعيدة الدلالة على ارتباط الأدب بمعاناة الإنسان العربي . وهي مزدوجة التعبير عن الواقع : فبينا تمثّل ما يتمنّاه المحروم ، نجدها تُظهر ، بالمرآة العاكسة ، بعض ما يتمتّع به المرفّه المُنعَّم . يقول أبو الشمقمق :

مُنايَ من دنيايَ ، هاتي التي   تَسْلَح بالرزق على غيري ،
الجَردقُ الحاضِرُ مع بُضعةٍ   من ماعزٍ رخصٍ ومن طَيرِ
وَجَرَّةٌ تهدُر ، ملآنةٌ ،   تحكي قِراةَ القسّ في الديرِ
وَجُبَّةٌ دَكناءُ فضفاضةٌ   وطيلسانٌ حَسَن النيرِ

وبَغلــةٌ شهبــاءُ طيّــارةٌ تطوي ليَ البلدانَ في السيرِ
وقيّنـــةٌ حسناءُ ممكـــورةٌ يَصرَعُها الشوقُ إلى . . . .
وبَــدْرةٌ مملــوءةٌ عسجداً مــا بالذي أذكُرُ مِن ضَيرِ
ومنزلٌ في خيرِ مــا جِيرةٍ قــد عُرِفــوا بالخيرِ والمَيرِ
وصاحبٌ يلزمُني ، دهرَه ، مثــلَ لــزوم الكيس للسَيرِ
مساعــدٌ يُعجبنـــي فَهمُـــه مُرتفــعُ الهمّـــةِ في الخَيرِ[1]

1 شعراء عبّاسيّون ص 155 .

الباب الثاني
أدب المناسبات

رأينا أنه قام ، حول الرشيد ، وفي بلاطه ، جوّ فنّي كان الأدب فيه وجهاً من وجوه الحياة اليومية ، وعقدت مجالس عفوية أو مقصودة تناولت النتاج الأدبي القديم والمعاصر روايةً واستشهاداً ، استنشاداً أو نقداً . إنما لم تتميّز هذه المجالس بإنتاج أدبي خاص بالرشيد أو ببلاطه ، بقدر ما كانت تعرض النماذج الأدبية المتداولة ، بينما الأدب الذي يحق لنا أن نربطه بالرشيد هو الأدب الذي أنتج له ، أو في بلاطه ، تخليداً لمناسباته أو تزييناً لاحتفالاته ، أو تعبيراً عن مشاكله ومعاناة عاهله . في هذا الأدب نجد صورة البلاط ، أي بلاط عربي ، ووجه الخليفة ، أي خليفة مسلم ، كما نجد ملامح تميّز الرشيد من سائر الخلفاء ، وبلاطه من أي بلاط آخر . ونذكّر هنا بالمعنى الذي حدّدناه لكلمة «بلاط» إذ ترتبط بالمؤسسة المعنوية التي يرئسها الرشيد ، أكثر من ارتباطها بـ «بهو» معيّن في قصر معيّن . ونحن ندرس ، بعد قليل ، حركة البلاط الرشيدي التي جعلتنا نؤكّد الطبيعة الرجراجة لإطار البلاط المكاني ، مستقصين أسبابها . ونعود بعد ذلك إلى عرض الأدب الذي أنتج من وحي المناسبات . والمناسبات الموحية لا تحصى في حياة الرشيد : بعضها في مجلس ، وبعضها بلا مجلس . بعضها في قصر السلام بالرقّة أو بستان أبي جعفر ، أو دار إبراهيم بن المهدي في «شبداذ» ، أو قصر الخلد في بغداد . ووصل بعضها إلى مكة ، وانتثر جزء منها على طريق الحج ، أو نزل مخيَماً عسكرياً في «الدروب» أو على أرض الروم . . . وقد تكون المناسبة مجرد جوّ لسماع شعر أو غناء ، كما تكون لحل مشكلة أو استقبال قائد أو وداع وزير ، لاحتفال بنصر أو إحياء عيد . وقد تكون حديث سمر في إحدى العشايا ، أو صلاة استغفار يقدمها مذنب تائب . . . وقد مرّ بنا بعض هذه المناسبات في معرض حديثنا عن المجالس الأدبية وعن تيارات الصراع . ولنا حديث عن مناسبات أخرى كانت هدفاً بحدّ ذاتها ، حافزاً للإنتاج الأدبي وموضوعاً له ، مستقلة عن أي حدث عام آخر : ليس فيها إلا الأدب .

واخترنا أن نبدأ بالحديث عن مناسبات التنقل لسببين : أولهما أنها ظاهرة لفتت أنظار الكثيرين من المؤرخين فسجّلوها دون أن يحاولوا تحديد ظروفها وأسبابها . وثانيهما أنها كانت ، حيناً ، منطلقاً لمناسبات عامة ، وطوراً مناسبة مستقلة لها أدبها الخاص الذي ينتج لأجلها في مراحلها المختلفة . ونلفت النظر إلى أننا لا يمكن أن نقدر أدب هذه المناسبة حق قدره إذا لم نعرف أهميتها بالنسبة إلى الرشيد ، ومعنى اتخاذه التنقل سنة لحياته . وهذا لا يمكن إظهاره دون الغوص قليلاً في نفس الرشيد ، وخلف الأحداث التاريخية المعروفة لنتبيّن الأسباب ، مما يضطرنا إلى بحث تاريخي اجتماعي شخصي ، لا مفر لنا من خوضه بلمحات حاولنا ألا تكون طويلة .

الفصل الأول
مناسبة تنقل الرشيد

لقد كان الوطن يتمنى على لويس الرابع عشر أن يفضّل قصر اللوفر وعاصمته على قصر فرساي الذي ينعته دوق دي كريكي بأنه أثير وغير جدير»[1] .

فولتير

«وعلم (أي الرشيد) أنّ ، لِما شملَ مَن بمدينة السلام مِن الأمن والفراغ ، نتيجة مكروهة ، فشخص عنها ، عند تحقيق ذلك ، مؤثراً لأبغض وطنيه على أحبّهِما وأخشنِ عيشيه على ألْينهما[2] .

يحيى بن زياد

أولاً : أسباب تنقّل الرشيد

لطالما أعجب المؤرخون بحيويّة الرشيد التي جعلته يغزو عاماً ويحجّ آخر . وكانوا يستدلّون ، بذلك ، على تقاه وتديّنه . والواقع أن هناك أسباباً أخرى لهذه الحركة غير التقى والتديّن ، وأن حركة الرشيد لم تكن فقط للغزو والحجّ ، بل كانت أيضاً لإخماد ثورات وفتن ، كما كانت لمجرّد الانتقال وتغيير الجو . ففي فترة حكمه التي امتدّت زهاء ثلاثة وعشرين عاماً (من 170هـ/ إلى 193هـ) أحصى له المؤرخون عشرين رحلة كان لها أهميّة بارزة ونتائج خطيرة ، عدا التنقّلات الأخرى التي نجد إشارة إليها في بعض الأخبار الأدبية ، ولم يحفل بتدوينها المؤرّخون . فإذا عرفنا أن معظم هذه التنقّلات يحتاج إلى شهور في الذهاب ومثلها في الإياب ، وأن العام الواحد يشهد أحياناً غير تحرّك واحد ، تبيّن لنا ما تمتّع به الرشيد من الحيويّة والقدرة على الحركة ، حيوية وقدرة قلّ مثيلهما إلاّ عند الفاتحين الكبار . فما هي أسباب هذه الحركة الدائبة التي اتخذها الرشيد نمطاً لحياته ، منذ اعتلى العرش إلى أن ووري اللحد ؟ في رأينا أن الأسباب كثيرة وأهمّها ثلاثة : حب حياة المعسكرات ، عقدة البرامكة ، والدور الديني .

1 ـ حب حياة المعسكرات : قد يبدو غريباً أن نقول ذلك عن الرشيد الذي اشتهر بترفه

---

1 Le Siècle de Louis XIV, p. 86
ويبدو أن الأسباب التي جعلت لويس الرابع عشر يتحاشى باريس وقصر اللوفر لا تبعد كثيراً عن الأسباب الحقيقية التي جعلت الرشيد يتحاشى بغداد . فقد كان لويس «يحس بريبة عميقة تجاه باريس ومجلس النواب وكبار رجال الدولة (بسبب موقفهم خلال اضطرابات لافروند) ، وقد عمل فعلاً على إبعادهم جميعاًعن مسرح السياسة Larousse Encyc وسنرى خلال الفصل أن ريبة الرشيد من البرامكة كانت أحد حوافزه لترك عاصمة ملكه . وأنه قد عمل ، أيضاً على إبعادهم عن مسرح السياسة .

2 من رسالة يحيى بن زياد في تقريظ الرشيد (جمهرة رسائل العرب ج 3 ص 249) .

وبذخه[1] . والواقع أن حياة المعسكرات كانت تجذبه كما تجذبه حياة القصور[2] ، أَلِف ذلك مذ كان وليّ عهد قام بحملتين موفّقتين إلى بلاد الروم[3] اكتسب فيهما صيتاً واسعاً وخبرة حربية . ولا بدّ هنا من الإشارة إلى أن هارون الفتي ربّي مدلّلاً مقرّباً إلى والده المهدي ، أثيراً عند أمه الخيزران ، وأن الهاشميّين كانوا يتغامزون عليه عندما قاد الحملة الأولى ملمّحين إلى طراوة عود فيه[4] لا تبشّر خيراً في قيادة الجيوش ، فضلاً عن قيادة أمّة . ولا شكّ في أن الرشيد كان يحس ذلك في نفسه ويقرأه في عيون المحيطين به[5] ، حتى إذا ما حاز النصر في غزوة عام/163هـ واقتاد الأسرى والسبايا وأخذ الجزية والفدية[6] ، طار له في البلاد صيت كبير أقام له تقديراً وبعث فيه ثقة بنفسه جعلته يسارع إلى قيادة حملة أخرى بعد عامين والتوغّل في ديار المشركين والعودة بنصر كبير آخر . فتجربة الرشيد الناجحة في هاتين الحملتين جعلته ، فضلاً عن استشعار القوة وقطف المجد وإسكات الألسنة الخبيثة ، يرتاح إلى هذا التحرّك العسكري ويأنس إلى حياة المخيّمات ، بين القوّاد والجنود . وقد عُرِف للرشيد اهتمام دائم بالجند وتقريب للقوّاد حتى جعل بعضَهم من جلسائه في نهاره وسماره في ليله . ثم وجدت متعة قيادة الجند صدىً آخر لها في نفس الرشيد حين تسلّم الخلافة . فقد كان حينها حدثاً قليل التجربة السياسية ، بل إنه ذاق الأمرّين من السياسة

---

1 نقتبس مقطعاً عن جون كلوب يقول فيه : «لا يعرف قراء الإنجليزية ، عن هارون الرشيد ، شيئاً سوى ما قرأوه عنه في كتاب (ألف ليلة وليلة) حيث يبدو إنساناً يحب اللهو والحياة العابثة . ولا ريب في أن هذا الانطباع الذي يحمله القارىء الإنجليزي عنه ، لايتفق مع حقيقة هذا الرجل العظيم ، ولا ما تميّز به من حيوية وفاعلية . . .» (إمبراطورية العرب ص 540) .

2 كان يحب أن يوصف «بأخي السفر» . عن الأصمعي : «قال لي الرشيد : أنشدني أحسن ما قيل في وصف رجل قد لوّحه السفر . فأنشدته قول عمربن أبي ربيعة :

رأتْ رجلاً ، أمّا إذا الشمسُ عارَضَتْ فيَضحى ، وأما بالعشيّ فَيَخْصَرُ
أخا سفرٍ ، جوّابَ أرضٍ ، تقاذفت به فلواتٌ ، فهو أشعث ، أغبرُ . . .

. . . فقال . . : أنا والله ذلك الرجل . .» (الأغاني ج 1 ص 90) .

3 كانت الأولى عام 163هـ والثانية عام 165هـ .

4 عن الطبري عن أبي بُديل : «أغزى المهدي الرشيد وأغزى معه موسى بن عيسى وعبدالملك بن صالح . . . فلحقتُ القوم ، فأقبلتُ أنظر إلى الرشيد يخرج فيضرب بالصوالجة ، وأنظر إلى موسى بن عيسى وعبدالملك بن صالح وهما يتضاحكان منه . . .» تاريخ الرسل والملوك ـ ج8 ص 145 .

5 لا نستبعد أن يكون الرشيد حفظ الموقف السابق لعبدالملك بن صالح ، حتى إذا بلغته السعايات به وبطمعه في الخلافة اتّسع صدره لوشاية الواشين وعجز عبدالملك ، مع كل ما أوتي من فصاحة وذرابة لسان ، عن استلال موجدته عليه . (راجع اتهام الرشيد ورد عبدالملك في المصدر السابق ص 302 وما بعد) .

6 يقول الطبري عن هذه الغزوة : «ففتح الله عليهم فتوحاً كثيرة ، وأبلاهم ، في ذلك الوجه ، بلاء جميلاً . . .» (المصدر السابق ص 146) راجع ص 57 من البحث عن يزيد بن مزيد .

وأطماعها أثناء ولايته عهد الهادي[1] . ولعلّ ذلك ولّد عنده كرهاً للسياسة وتخوّفاً من ممارسة السلطة ، فلم يجرؤ على خوض غمارها ، فكان أن عهد إلى مربّيه ، السياسي المحنّك الذي أوصله إلى الخلافة ، بأمرها وطلب إليه أن يتدبرها بنفسه مع أولاده[2] ، بينما انصرف هو إلى قطف الأمجاد العسكرية ، وباشر الغزو منذ السنة الأولى لحكمه[3] . ثمّ عُرف بذلك وفخر به ومُدح ، فوجد نفسه ملتزماً بهذا الخط ليس له عنه من مناص .

2 ـ **السبب الثاني هو ما أسميناه عقدة البرامكة في نفسه** : وسبق لنا أن أشرنا إلى علاقة الرشيد بالبرامكة ومبلغ ما حازوه من إعجابه وثقته ورضاه في بدء خلافته ، ثمّ انقلابه عليهم وتنكيله بهم بعد ذلك[4] . والظاهر أن الخليفة الشاب كان يحب يحيى وأولاده ويعترف لهم بجميل التربية ومنّة الوصول إلى الخلافة ، فأطلق لهم صلاحيات التصرّف بالمهمة المقدّسة التي آلت إليه ، فكانت فترة حكمه الأولى ، بحق ، دولة برمكيّة . إلاّ أن الرشيد لم يلبث أن نضج بعد سنوات قليلة ، وأحسّ في نفسه حبًّا آخر ، غير حبّ البرامكة ، ينمو ويقوى ، وهو حب السلطة وممارسة النفوذ السياسي الذي يعود إليه دون سواه . لكنه وجد نفسه تابعاً للبرامكة ، مضطرًّا إلى طلب العون منهم ، وأحياناً الرضى ، يتبعه في ذلك كلّ عربي وهاشمي ، حتى غدا سؤالهم طابعَ العصر ، لا يجد أحد فيه غضاضة ولا انتقاصاً . وإذا بقضيّة نفوذ البرامكة تتحوّل قضيّة قوميّة تعني كل هاشمي أو عربي يفخر بأصله ونسبه ويعتدّ بنفوذه في البلاط . وأحسّ الرشيد بضعفه حين كبُر التململُ في أفراد عائلته وحاول بعضُهم الدعوة إلى نفسه[5] . ثمّ إن العمل السياسي خبرة وتجربة وعبرة تستمد من إرث السلف . ولم يكن بعيداً عنه ما فعله أخوه الهادي بأمه حين وجد الناس يقفون ببابها أكثر من وقوفهم ببابه ، ولا ما فعله أبوه المهدي بوزيره يعقوب بن داوود ، وهو لا يزال في سجنه . كما أن تنكيل السفاح بأبي سلمة ، والمنصور جدّه بأبي مسلم لم يكن قد عفّى عليه الزمن . لا بد لهذه العوامل من أن تكون عملت عملها في نفس الرشيد فبدرت منه تصرفات تدل على تغيّره[6] لم يلبث أن كَبَتَها حين

---

1 راجع في محاولة الهادي خلع الرشيد من ولاية العهد الطبري ج8 ص208 ومروج الذهب ـ دار الأندلس ـ ج3 ص333 وانظر ص 45 من البحث .

2 راجع ص 45 وص 58 هامش 5 من البحث .

3 راجع ص 346 هامش 3 من البحث .

4 يحكي الجهشياري قصّتين متتاليتين ، في الأولى يُسَرّ الرشيد برؤية الناس تقصد أبواب البرامكة فيباركهم ويعترف لهم بالجميل . وفي الثانية التي جرت بعد فترة ، يقف الرشيد أمام المشهد نفسه متذمّراً ناقماً قائلاً عن يحيى : «فعل الله به وفعل ، يذمّه ويسبّه ، استبدّ بالأمر دوني وأمضاها على غير رأيي ، وعمل بما أحبه ، دون محبّتي . .» الوزراء والكتّاب ص 226 . راجع ص 62 هامش 3 من البحث .

5 راجع ص 65 هامش 2 من البحث .

6 يذكر الطبري والجهشياري مواقف للرشيد يقسو فيها على يحيى (الطبري ج 8 ص 288 والوزراء والكتّاب ص227) كما يذكر الجهشياري أن الرشيد «صرف الفضل بن يحيى عن الأعمال التي كان يتقلّدها أولاً بأول . ثمّ ظهر من

رأى البرامكة يأخذون حذرهم ويسعون لتأمين تغطية عسكرية لوجودهم ، بعد حصولهم على التغطية الشعبية[1] . فعاد إلى إظهار الرضى والقبول مبقياً على أسلوبه السابق في معاملتهم[2] ، بينما راح يعدّ العدّة بتأنّ وبعد نظر[3] . وزيادة في إظهار الرضى ، جعل وليّي العهد ، واحداً ، بعد آخر ، في حجرهم ليعطيهم الأمل في استمرار نفوذهم ، مستقبلاً ، من خلالهما : يأمل الفضل أن يجدّد مع الأمين ، وجعفر مع المأمون ، وَضْعَ يحيى مع الرشيد . هكذا يمكن أن نتصوّر تطوّر عواطف الرشيد نحو البرامكة وفق التدرج التالي : محبة وثقة ، ثم غيرة من نفوذهم وتخوّف منهم ، ثم نكبة وانتقام . وبعد ذلك مرحلة غموض اختلطت فيها أخبار الصمت والاستئصال والتشفّي بأخبار الأسف والندم . أما عقدة البرامكة في نفس الرشيد فقد تجلّت خلال المرحلة الثانية وظهرت ملامحها في محاولة الرشيد الهروب من بغداد ، كما تجلّت في انغماسه في رحلات الغزو والحج ، وكانت عنصراً حاسماً في أخذ البيعة لأولياء العهد[4] . ومع ما يبدو عليه رأينا من الغرابة فإننا نؤكّد وجود محاولات من الرشيد للهروب من بغداد : فمدينة السلام التي كانت دائماً عاصمة العبّاسيّين لم تستطع الاحتفاظ بالرشيد إلاّ فترة من خلافته . وحتى ، خلال هذه الفترة كان يتركها دائماً[5] ، في حركة نشطة نعزوها إلى ملله بغداد وتحاشيه البقاء طويلاً فيها ، قبل بحثه عن بديل دائم لها . وقد بدأ ذلك مبكّراً . ففي السنة الثانية لحكمه أحسّ بالضغط النفسي في بغداد فخرج إلى «مرج القلعة مرتاداً بها منزلاً ينزله . . .» والسبب الذي يعطيه الطبري لذلك هو أنه «استثقلها . . . فكان يسمّيها بالبخار . . .» لكن مرج القلعة لم تفِ بالمطلوب لأن مناخها لم يناسبه ، أو لأن ظروفاً أرادت له أن يعتل ، فانصرف عنها ؛ وسمّيت تلك السفرة سفرة المرتاد[6] . إلاّ أن الحوادث أثبتت فيما بعد أن الرشيد لم يكن يشتكي من مناخ بغداد الطبيعي . فالطبري نفسه يروي في حوادث عام 189هـ أن الرشيد عاد من الري إلى بغداد وطواها متجهاً إلى الرقة دون أن ينزل في عاصمته . ويذكر عن

= الرشيد ، في سنة ثلاث وثمانين ومئة ، سخط على الفضل بن يحيى ، فشخص إليه إلى الرقّة ومعه أمه زبيدة بنت منير . فرضي عنه وأقرّه مع الأمين ، لحضانته . .» (الوزراء والكتّاب ص 227) وكذلك يسجّل الطبري غضب الرشيد على موسى بن يحيى وحبسه عند العباس بن موسى الهاشمي . (تاريخ الطبري ج 8 ص293) .

1 يذكر الطبري في حوادث سنة 178هـ تأسيس الفضل لجيش العبّاسية الخراساني ومنه فرقة الكرنبية التي جعلها تقيم في بغداد (المصدر السابق ج 8 ص 257) وراجع ص 65 هامش 3 من البحث .

2 تاريخ الطبري والغرر والعرر ص 405 .

3 يذكر ابن عبد ربّه أن الرشيد صارح إسحاق بن علي بن عبدالله بن العبّاس بنيّته ، ست سنوات قبل النكبة . (العقد الفريد ج 5 ص 66) .

4 نبيّن ذلك في الفصل التالي : مناسبة البيعة لأولياء العهد .

5 يقول ابن الجراح : «كان الرشيد لا يقيم بمدينة السلام من السنة إلاّ شهراً أو شهرين» (الورقة ص 37) .

6 تاريخ الطبري ج 8 ص 236 .

بعض قوّاد الرشيد أنه صرّح لهم (وكأنه يردّ على عتاب العاتبين عليه لبعده الدائم عن مدينة لسلام) : «والله ، إنّي لأطوي مدينة ما وضعت بشرق ولا غرب مدينة **أيمن منها ولا أيسر** . . . . وما رأى أحد من آبائي سوءاً ولا نكبة منها . . . **ولنعم الدار هي** . ولكنني أريد المناخ على ناحية أهل الشقاق والنفاق والبغض لأئمة الهدى والحب لشجرة اللعنة ـ بني أميّة ـ . . . ولولا ذلك ما فارقت بغداد ما حييت ولا خرجت عنها أبداً»[1] . وهذا السبب الثاني الذي يعطيه الطبري لترك الرشيد بغداد وجيه نظرياً وإن لم يكن له مسوّغ عمليّاً ولم يكن وارداً حين قام بسفرة المرتاد والسفرات الأخرى . فبنو أميّة لم تقم لهم قائمة في عهده . وما أقلق الرشيد من الشام هو هياج العصبية العربية ، لا العصبية الأمويّة . وقد هاجت العصبيّات في معظم مناطق الدولة الرشيدية[2] . والسبب الحقيقي ، في رأينا ، لترك الرشيد بغداد هو عقدة البرامكة : إن مناخ بغداد النفسي هو الذي لم يعد يلائم طبيعة الرشيد . ففيها لم يكن أكثر من طائر في قفص ذهبي يأتيه كل ما يريد ويرسل ما يحلو له من الأنغام ، لكنه لا يملك حرّية الطيران ، ومفتاحُ القفص بيد البرامكة[3] ، لأن وجودهم على رأس الجهاز الإداري أخذ ، تدريجاً ، يقوّي نفوذهم ويغيّب شخصيّة من ولاّهم وأطلق يدهم ؛ ولم يعد يُذكر له اسم إلاّ مقروناً بأسمائهم ، ولا يقال فيه مدح إلاّ مقروناً بمدحهم . وهم لم يعودوا يحكمون ليوطّدوا خلافته بل صاروا يسعون ليرسّخوا مجداً لهم وقاعدة شعبية هائلة في بغداد ، فضلاً عن شيعتهم الثابتة المخلصة في خراسان ، بينما يبقى الرشيد ضعيف الحَول والطول . نعم ، لقد كان محبوباً من شعبه ومن أهل عاصمته ، لكن البرامكة كانوا محبوبين مثله أو أكثر ، لأنهم كانوا أقرب منه إلى الناس والشعب . بل لنقل إنهم كانوا واسطة الشعب إليه وطريقه إلى الناس ، يُحدثون الصلة متى أرادوا ويستطيعون إحداث الفصل حين يريدون ، حتى إنّ تنكّر الرشيد الليلي ، الذي شهرته به بعض الروايات ، كان جعفرٌ البرمكي رفيقَه الدائم فيه . والمتابع لأخبار عطاء الرشيد وأياديه على بعض الناس وعلى الشعراء والأعيان يجد في معظمها أيادي

---

1 تاريخ الطبري ج 8 ص 317 وتاريخ بغداد ج 2 ص 17 .

2 على سبيل المثال نذكر هياج العصبية في الشام بين المضرية واليمنية ما بين عامي 171 و 180هـ (تاريخ الطبري ج 8 ص 239 و 251 و 262 . والنجوم الزاهرة ج 2 ص 67) وكذلك هياج الحوفية في مصر من قضاعة وقيس عام 178هـ (النجوم الزاهرة ج 2 ص 92) . وفي عام 174هـ وقعت العصبية وثارت الفتن بين أهل السنّة والرافضة . (النجوم الزاهرة ج 2 ص 77) ويذكر الأصفهاني هياج العصبية بين قيس وربيعة في الجزيرة (الأغاني ج 13 ص120 و151) ويذكر اليعقوبي حرباً بين النزارية واليمانية في السند (تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 409) واضطرابات عديدة في أرمينية سببها العصبية النزارية اليمانية (المرجع السابق ص426) .

3 Huart Histoire Des Arabes, p. 275 . ويبدو أن الأموال كانت بيدهم واتفقوا معه على مبالغ محدودة لنفقاته الشخصية (الوزراء والكتّاب ص 249) وكان إذا أراد إنفاقاً أكبر يطلب منهم المال . وقد يستكثرون فيما اطلون (المصدر السابق ص 243 و 250 والكامل في التاريخ ج5 ص 269) .

للبرامكة ، سواء في أولها أو آخرها ، تمهّد للوصول إلى عطائه أو تشاركه العطاء . ولم يكن الرشيد ، أول الأمر ، يفكّر في التخلّص منهم بل لم يذهب إلى اتهامهم بالخيانة ، إنما كان لديه إحساس غامض داخلي تجلّى بشكل طبيعي في موقف دفاع سلبي : أن يبتعد عنهم ، متحاشياً منطقة نفوذهم ، محاولاً البحث عن ذاته كحاكم . من هنا كان تركه بغداد للبرامكة : يأسرون أهلها بكرمهم ولطفهم ويخطّون ، يوماً بعد يوم ، ملامح مشرقة من شخصيّاتهم الأسطورية . ومن هنا كان كذلك بحثه عن قاعدة أخرى غيرها تكون حماه ، يمنعها وتمنعه ويتحرّك فيها على هواه . فكّر بالسكن في أنطاكية فأُقنع بالعدول عنها[1] : فهي بعيدة عن وسط المملكة وعن بغداد . وكان للرقة ميزات متعددة عرفها جدّه المنصور[2] : إنها تقع على الفرات ويمكن الوصول إليها من بغداد على ظهر السفن[3] . وكانت قريبة من الثغور ، صالحة لبرنامجه الحربي الذي اختطّه لنفسه في متابعة الغزو . فاتخذها موطناً وكان ذلك بشكل نهائي عام 180هـ أي بعد مضي عشرة أعوام من حكمه وفي الوقت الذي بدأ فيه يفكّر فعلياً في التخلّص من البرامكة . لكنّ بُعد الرقة عن المناطق الجنوبية وعن المناطق الشرقية جعله يبحث عن وطن آخر يضمّه إليها . وظنّ بالحيرة خيراً «فسكنها وابتنى بها المنازل وأقطع من معه الخطط وأقام نحواً من أربعين يوماً . فوثب به أهل الكوفة وأساؤوا مجاورته فارتحل إلى مدينة السلام ، ثم شخص من مدينة السلام إلى الرقة»[4] . والجدير بالذكر أن البرامكة لم يكونوا ملازمين له دائماً في الرقة ، بل كان يكلّفهم بمهمّات في بغداد . وفي بغداد أيضاً كان يترك أهله في قصورهم كأنه يحاول إيهام الجميع أن وجوده خارجها مؤقّت وأن عودته إليها وشيكة . وتبقى القصور والحرم برعاية يحيى وكذلك أولاد الرَشيد برعاية أبناء يحيى[5] . إلاّ أن ترك بغداد يستمر ، وما هو مؤقت يصبح دائماً

---

1 (الجاحظ ـ الحيوان ج 3 ص 143) ويذكر المسعودي عن أنطاكية : «أراد الرشيد سكناها فقيل له بعض ما ذكرنا من أوصافها (رياحها السوداوية الباردة والقولنجية الغليظة) وترادف الصدأ على السلاح من السيوف وغيرها ، وعدم بقاء ريح أنواع الطيوب بها ، واستحالته على اختلاف أنواعه . فامتنع عن سكناها» . (مروج الذهب ـ دار الأندلس ـ ج 1 ص 335) .

2 بالقرب من موقعها بنى المنصور الرافقة . وقد عمد الرشيد عام 186هـ إلى الإقامة في الرافقة حتى أعاد بناءها (تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 415) وكانت ، مع الرقّة ، تدعيان «الرقتين» (الشابشتي . **الديارات** ص 219 وص 220) .

3 تاريخ الطبري ج 8 ص 272 .

4 تاريخ الطبري ج 8 ص 267 .

5 يذكر الطبري في حوادث سنة 180هـ أن الرشيد ، حين ترك الحيرة ، «ارتحل إلى مدينة السلام ثم شخص من مدينة السلام إلى الرقة ، واستخلف بمدينة السلام ، حين شخص إلى الرقة ، محمّداً الأمين (المصدر السابق ص267) . كذلك يذكر في حوادث سنة 182هـ أنه «كان فيها انصراف الرشيد من مكّة ومسيره إلى الرقّة وبيعته فيها لابنه عبدالله المأمون . . . وضمّه إياه إلى جعفر بن يحيى ، ثم توجيهه إياه إلى مدينة السلام ومعه ، من أهل بيته ، جعفر بن أبي جعفر المنصور . . . وانصرف فيها يحيى بن خالد إلى مدينة السلام» . (ص 269) . وعلى سبيل المثال

مزمناً ، ويستقر الرشيد في الرقة حيث يقضي معظم أوقاته ، منها ينطلق في تنقّلاته وإليها يعود . وحين نكب البرامكة لم يرجع إلى بغداد ، فقد كانت معبأة بجو من النقمة على انتفاضته التي حرمت ساكنيها سيلاً متدفّقاً من الخيرات والأيادي وأبواب الفرج ، فكان من غير المعقول أن يستكين إليها . وحين مرّت السنون على النكبة وأحسّ الرشيد أن أيامه بعد البرامكة لم يعد لها زهو أيامهم ولا رونقها[1] ، لم يكن بوسعه العودة إلى العاصمة عودة لا ترجع أَلَقَ الأيام الغابرة . وكان ، إذا أتى بغداد ، مرّ بها مرور الكرام ولم ينزل فيها[2] ، حتى لقد أحسّ أصحاب المصالح أنه يقاطعها وتألموا من ذلك ورجوا الخليفة أن ينظر إلى مدينتهم بعين أكثر حنوًّا واهتماماً[3] ، فليس انصراف ملك عن عاصمة ملكه أمراً عاديًّا ولا محمود النتائج بالنسبة إلى أهلها . كذلك نساؤه اللواتي كان يخلّفهنّ في قصور بغداد كن يحتلن لاجتذابه بين الفينة والفينة مستعينات بالمثير الأدبي أو بميله إلى السماع والطرب ، فيأتيهن زائراً لا يلبث أن يعود[4] .

3 ـ الدور الديني : وهو دور الخليفة كإمام للمسلمين ، أمير للمؤمنين . وهذا السبب ديني في الظاهر ولكنه ، في الواقع ، مرتبط بالسببين السابقين ، يحفزه التعويض عن التقصير في حمل المسؤولية السياسية ، أول عهد الرشيد بالخلافة . فهارون ، بلا شك ، مؤمن إيماناً قويًّا صلباً ، وكان يخاف الله كثيراً ويحاول التقيّد بما يرضيه ، ويعرف الدين : أصولاً وتعاليم ، متفقّهاً به . لكن لم يصلنا ما يدلّ على أنه كان شديد التديّن والالتزام قبل تولّيه الخلافة . ولم يكن هناك ما يحول دون هذا الالتزام ، ودون تسجيله ، لو وُجد في تلك الفترة . فحج الرشيد العام ، بعد العام ، ليس استمراراً لسنة عرفها قبل الخلافة ، وليس نذراً أو سياسة نوى مسبقاً انتهاجها . ويبدو لنا أن الأمر حدث عفوياً ثمّ ارتدى طابع القصد واكتسب معطيات الاستمرار . ذاك أن الرشيد ، الذي يخاف الله ، ارتكب ، في بدء خلافته ، إثماً كبيراً أنّبه عليه ضميره الشخصي ، ونغّص عليه فيه وازعه الديني : إنه تزوّج محظيّة أخيه ، أمة العزيز أو غادر . وهذا ليس أمراً غريباً ولا محرّماً في الأحوال العادية . أما أن يكون الرشيد ، ولي العهد ، قد أعطى العهود والمواثيق للهادي الخليفة بأنه لن يفعل ذلك ، وأن يكون أقسم الأيمان ومنها الحج مشياً في حال نقضه للعهد ، فهذا ما يجعل العمل يقع تحت طائلة تأنيب الضمير

= أيضاً نسوق خبراً للجهشياري ملخّصه أن الرشيد جعل ابنه «محمداً في حجر الفضل بن يحيى وأسكنه معه في قصره المعروف بالخلد وضمّ إليه عمّاله ودواوينه وشخص إلى الرقة . وأنفذ الفضل مع الرشيد محمد بن منصور بن زياد يخلفه بحضرة الرشيد . . .» (الوزراء والكتّاب ص 193) .

1 الجهشياري ـ الوزراء والكتّاب ص 258 .

2 تاريخ الطبري ج 8 ص 317 والكامل لابن الأثير ج 5 ص 121 وتاريخ أبي الفداء ج 2 ص 17 .

3 المصادر السابقة : اعتذار الرشيد لتحاشي بغداد وتاريخ بغداد ج 2 ص 17 .

4 راجع موضوع «الاستجابة للمثير الأدبي» ص 153 وما بعد من البحث .

ومحاسبة الوازع الديني . وكان لا بدّ للرشيد من الخضوع لأحكام الدين وتأدية الكفّارة ، وهي الحج مشياً[1] لأن جميع الأيمان يمكن فداؤها إلاّ هذه ، فلا فداء لها[2] . وقد ذكر معظم المؤرخين أنه حج ماشياً وأنه الخليفة الوحيد الذي فعل ذلك ، وإن لم يتفقوا جميعاً على تفاصيل هذه الحجة وتوقيتها[3] . وأغلب الظن أن السبب الحقيقي لها لم يعرفه الناس جميعاً في حينه ، وأن ظاهر الحجة بالنسبة إليهم كان التقى والورع لدى الخليفة الشاب ، الذي يشكر ربه على ما أنعم عليه به ويستجيب لوصيّة النبي له في المنام[4] . ولقد جنى الرشيد ، نتيجة لذلك ، تقدير العامة ومحبّتهم ،

---

1 يقول ابن تغري بردي في حوادث 170هـ «فيها حجّ الرشيد ماشياً : كان يمشي على اللبود . كانت تبسط له من منزلة إلى منزلة ولم يحجّ خليفة قبله ولا بعده ماشياً . . . . (النجوم الزاهرة ج 2 ص 65) وينسب حجّته هذه إلى وصية النبي له حين جاءه في المنام ثم يعود (ص 73) فينسبها إلى قصة غادر . ولا يذكر الطبري شيئاً عن حجّ الرشيد ماشياً في هذه السنة لكنه ينسب الحج مشياً إلى عبدالله بن مالك الخزاعي . وفي حوادث 179هـ يقول عن الرشيد إنه «اعتمر في شهر رمضان شكراً لله على ما أبلاه في الوليد بن طريف . فلمّا قضى عمرته انصرف إلى المدينة فأقام بها إلى وقت الحج ، ثمّ حجّ بالناس فمشى من مكّة إلى منى ثم إلى عرفات ، وشهد المشاهد والمشاعر ماشياً ، (تاريخ الطبري ج8 ص 261) ويبدو أن هذه المشية غير المشية التي أشرنا إليها لأن ابن تغري بردي يذكرها أيضاً بنص مشابه (النجوم الزاهرة ج2 ص 96) ويذكرها السيوطي كذلك (تاريخ الخلفاء ص 288) ، والمقريزي في (الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ص 49) ويشير المقريزي إلى قصة أمة العزيز وحج الرشيد ماشياً من بغداد إلى مكّة ، دون تحديد السنة فيقول : «لما مات الهادي ، تزوجّها ومشى راجلاً من بغداد إلى مكّة» . (المصدر نفسه ص 50) ويعطي المقريزي كذلك تفاصيل عن هذه الحجة : «لما دخل الرشيد مكّة ، وهو خليفة ، كان يُطرح له الرمل حول البيت ومقدار عرضه ذراعان ، ويرشّ بالماء ، ويقوم الحرس بينه وبين الناس . وكان يطوف بين المغرب والعشاء ثلاثة عشر أسبوعاً ، ولا يطيق ذلك أحد ممن كان معه . . .» (ص 50) ويذكر ابن طباطبا حجّ الرشيد ماشياً دون تحديد السنة والتفاصيل (الفخري ص 193) ويذكرها الوطواط دون تحديد السنة : «لما حجّ هارون ، فرش له ، من جوف العراق إلى مكّة ، لبود مرعزية فمشى عليها لقضاء نذر وجب عليه» (الغرر والعرر ص 232) . كذلك يذكرها ابن عبد ربّه : «لّما مشى هارون إلى مكّة ، ومشت معه زبيدة ، كانت تبسط الدرانق أمامهم ، وتطوى خلفهم» . (العقد الفريد ج 6 ص 228) . ويجعل ابن قتيبة حجه ماشياً تكفيراً عن يمينه بإلحاق الأذى بوزيره عمرو بن مسعدة . (الإمامة والسياسة ج 2 ص 156) . وأيّاً كانت أسباب هذه الحجّة فلا شكّ في أنها غدت أسطورة تعمل لصالح الرشيد .

2 في حديث الطبري عن حج عبدالله بن مالك الخزاعي ماشياً عام 170هـ يقول : «وكان سبب مشي عبدالله بن مالك الخزاعي إلى مكّة على اللبود أنه كان شاور الفقهاء في أيمانه التي حلفها لبيعة جعفر (بن موسى الهادي) فقالوا له : كل يمين لك تخرج منها إلاّ المشي إلى بيت الله ، ليس فيه حيلة» (ج 8 ص 233) .

3 في رأينا أن الحجة كانت ، كزواجه من غادر ، في السنة الأولى لتولّيه الخلافة أي عام 170هـ لأن كفّارة كهذه لا تؤخر . وغادر توفيت عام 173هـ (النجوم الزاهرة ج 2 ص 73) .

4 جاءه النبي ﷺ في المنام ، قبل تولّيه الخلافة وإبّان محنته في ولاية العهد مع أخيه ، فقال له : «إن هذا الأمر صائر إليك في هذا الشهر . فاغز وحجّ ، ووسّع على أهل الحرمين» (تاريخ الخلفاء ص 292 والنجوم الزاهرة ج 2 ص 65) .

فوجد نفسه ، منهم ، في درجة عالية من التبجيل تقارب التقديس ، وكان عليه أن يمضي قدماً في هذا الطريق ، وأن يعيد الكرّة مرّات[1] ، فيكسب بذلك فريقاً من القاعدة الشعبية التي أحسّ بالحاجة إليها والتي كان البرامكة في بغداد يسعون للاستئثار بها . هكذا بات لأيامه خطّان واضحان ، فبموازاة العمل العسكري الذي باشره والانتصارات التي حقّقها ، راح يمارس هذه الشعيرة الدينية مستكملاً بها الصورة الورعة التقية للخليفة الذي يخاف الله ويتقرّب إليه ، فيحبّه الناس . وبقي الرشيد على مسيرة الحج وتواتره مع الغزو حتى نكبة البرامكة . فلم يحجّ بعدها إلا حجّة واحدة حيث «جعل طريقه على المدينة فأعطى أهلها نصف العطاء»[2] .

وأخيراً ، فسواء أكانت أسباب انتقال البلاط هي ما ذكرناه ، أم كانت أسباباً أخرى غيرها أو معها ، فالمؤكد أن الرشيد لم يستقرّ طويلاً في مكان واحد ، وأنه لم يقم دائماً في قصره ، أو قصوره ، بل تصوّره الأخبار مرّة في قصر الخلد ببغداد ، ومرّة على ظهر حراقة[3] ، ومرّة على صهوة حصان أو في هودج[4] ، ومرة في سرادق نُصب على الطريق أو في ساحة معركة . وهو في كل مكان ، يجمع مجلسه أو مجالسه ، ودائماً كان يصحبه حاشيتُه وأفرادُ بلاطه ، أو يسبقونه ليستقبلوه . وهم في تنقّلهم معه ، يشاركونه في كل شيء : يعيشون عيشه ، ويبتعدون ابتعاده ، ويشتاقون إلى أحبابهم اشتياقه ، فيقولون في ذلك ما يقولون ، معبّرين عن سعادة وتفاؤل ، أو لوعة وأسى ، عن حماس أو خيبة أمل . ولعلّ الرشيد ، إذ قصد هذا التنقّل عن تصميم سابق ورتّب أمور حياته على أساسه ، كان يجده مجالاً للفخر ودليلاً على الشباب والحيوية والسهر على الرعيّة ، فيعجبه أن يُذكر به وأن يمدحه المادحون لأجله[1] حتى غدا الانتقال ، بحد ذاته ، مناسبة أدبية تقام لها المجالس ويقال في موضوعه

---

1 أحصى له ابن تغري بردي واليعقوبي ثماني حجّات ، بينما ذكر له الطبري تسعاً وكذلك المقريزي في (الذهب المسبوك في ذكر من حجّ من الخلفاء والملوك) .

2 (الطبري ج 8 ص 313) وعطاء الخلفاء لأهل الحجاز له هدف سياسي ، نظراً لقلّة الموارد في تلك البلاد ، ولعلوّ شأن المقيمين فيها ، لذلك كان قدوم الرشيد إلى الحجاز وإنفاقه الأموال الطائلة فيه ، ووفود أشياخ القبائل إليه ، مقدّمين الولاء ، يمشون في ركابه ويأخذون الجوائز والهبات ، كان ذلك كلّه حدثاً يترقّبونه ويهلّلون له . يصوّر لنا العماني ذلك في داليته ، مخاطباً الرشيد :

. . . .	لمّا قَدِمتَ بـين باقي الجُندِ
في وفد بيتِ اللهِ ، خير وفدِ ،	قالتْ قريشٌ ، وهي أختُ حَتْدِ :
جـاء الغِنـى ، ووثقوا بالرِفْدِ	عن ملِكٍ ، نائلُه لا يُكدي

(طبقات ابن المعتز ص 112) .

3 الطبري ج 8 ص 292 وص 299 .

4 يشير الأصفهاني إلى ركوبه قبة (الأغاني ج 18 ص 147) .

5 يخبرنا الأصفهاني أن الرشيد ، انصرف من الحج وطوى المنازل فوصف ذلك «سلم الخاسر» إذ دخل عليه وأنشده قصيدة يشير في مقدّمتها إلى التنقّل والفراق ، مطلعها :

الأشعار ، وغدت خاتمةَ كل تحرّك عودةٌ ميمونة تُتوّجها احتفالات مرّصعة بالشعر والأدب .

ثانياً : أدب مناسبة الانتقال

هي مناسبة طبعت إذن بلاط الرشيد وأخذت من الأبعاد والأهميّة ما أشرنا إليه ، وكانت في الوقت نفسه إحدى المناسبات العامة التي دار حولها جزء من أدب البلاط .

ونتجاوز البحث في تفصيل رحلات الانتقال وتسجيل ما قيل فيها ونكتفي في هذا الفصل بتناول الانتقال كمناسبة مجرّدة عن الهدف منه ، محاولين أن نلتقط الشذرات الأدبيّة التي رافقت هذه العملية من ساعة الوداع إلى ساعة العودة ، وواكبتها في الحل والترحال . ولا شكّ في أن موكب الرشيد كان مهيباً ، شأن مواكب الملوك والخلفاء ، وقد يفوقها جميعها . لكننا ، مع الأسف ، لم نجد وصفاً له ، في أي من تنقّلاته المختلفة التي تحدّثت عنها كتب الأخبار ، إنما عثرنا على وصف موجز لمواكب تهمّ الرشيد ، كأن يخرج في وداع أمير هاشمي[1] ، أو وزير برمكي ، أو يخفّ لاستقباله . من ذلك ما ذكره الجهشياري عن تولية الرشيد الفضل بن يحيى المشرق كله من النهروان إلى أقصى بلاد الترك . وحينها شخص «الفضل إلى عمله سنة ثمان وسبعين ومئة ، وودّعه الرشيد والأشراف والوجوه وساروا معه . فوصل وأعطى وأفضل ، ومدحه مروان بن أبي حفصة يوم سار فقال :

لِيَحيا بِكَ الإسلامُ ، إنّــكَ عِـزُّهُ ،   وإنّك من قومٍ صغيرُهمُ كَهلُ . . .»[2]

من خلال هذا الخبر ومن ثنايا أخبار متفرّقة نستطيع أن نستشف ما يمكن أن يكون عليه أي مسير للرشيد : فهو ، حين يخرج من مدينته ، يخرج في ركابه جميع رجال الدولة والوجوه والأعيان لتشييعه[3]، وكلّهم في أجمل حلة وأفخم مظهر . ومن الطبيعي أن يتقدم موكبَ الرشيد

= حَضَـر الرحيـلُ وشُدَّت الأحـداجُ   وغــدا بهــنّ مُشمِّرٌ مِزعـاجُ

ومع ما في القصيدة من مواضيع شدّت انتباه الرشيد فكراً وسمعاً وتعليقاً ، فإنه اعتدّ مطلَعَها أهمَّ ما فيها لأنه يصف حركته الدائبة في حزم الأمتعة والتنقّل أو يعبّر عن أحاسيسه خلال ذلك من شوق يتأجّج في قلبه إلى حث الركاب للوصول إلى الأحبّة . . . وحين انتهى سلم من الإنشاد بدا الرشيد وكأنه لم يسمع من القصيدة إلاّ هذا المطلع ، فهو الذي فتح شاهِيَتَه للموضوع فأراد شعراً آخر من شاعر آخر في المعنى عينه ليروي عطش نفسه إليه ، فقال للفضل بن الربيع : هل قال أحد غير سلم في طيّنا المنازل شيئاً ؟ . . . فقال الفضل : نعم ، يا أمير المؤمنين ، النميري . . .» (الأغاني ج 19 ص 243) .

1 يذكر البغدادي إكرام الرشيد لمحمّد بن سليمان الهاشمي حين وفد عليه من البصرة «فلمّا أراد الخروج شيّعه الرشيد إلى كلواذى» . تاريخ بغداد ج 5 ص 291 .

2 الوزراء والكتّاب ص 190 .

3 يذكر السيوطي في مسير الرشيد إلى خراسان حكاية عن محمد بن الصباح الطبري يُستدل منها على أنه خرج مع المشيعين له «فوصل معه إلى النهروان ، ثم قفل عائداً» . (تاريخ الخلفاء ص289) وانظر (خلاصة الذهب المسبوك ص 169) .

حرسُه بألبسةٍ مزركشةٍ محلاّةٍ بالقصب والذهب ، يرفعون الأعلام السوداء . وفي اعتقادنا أن وداع الموكب يكون في ظاهر البلد حيث قد تنصب السرادقات العظيمة لهذه الغاية وتوضع الكراسي وتُفرش البسط[1] ، ثم يتكلّم المتكلّمون من أدباء وخطباء وشعراء يتناولون الرحلة وأهدافها وما يُنتظر لها من خير تحقّقه للخلافة والمسلمين عامة . من ذلك ما قاله أبو العتاهية في خروج الرشيد إلى الري مسقط رأسه :

إنّ أمــينَ اللهِ في خَلْقِــــهِ   حَــنَّ بـــه البرُّ إلى مَولِدِهْ

لِيُصلــحَ الـــرَيَّ وأقطارَهـــا   ويُمطِرَ الخَيْرَ بِها مِنْ يَدِه»[2]

وفي هذه المناسبة يتطرّق القائلون ، بلا شك ، إلى التيمّن والتفاؤل . فالرشيد كان شديدَ التأثر من هذه الجهة ، وكان سريع التطيّر[3] يحب الخبر المفرح والبشرى السارة والأوصاف المتألقة ، كما كان يصدّق النبوأات ويتأثّر بالمنجمين[4] ، شأن جده المنصور[5] . وقد يكون لنشأته في حضن البرامكة مغزى لهذا التأثر ، فهم كانوا يؤمنون بالتنجيم[6] بحكم انتمائهم الفارسي ، وكان لهم منجّمهم[7] . ويبدو أن العادة الجاهلية ، في أن يرافق الجيوشَ الذاهبة إلى الحرب منجّم يُستشار قبل الإقدام على أمر جلل ، قد عادت إلى الظهور بأثر أعجمي . كما نرى أحياناً أن الشاعر يأخذ مكان المنجم في هذا

---

1 إن الموكب والحرس والمضارب والسرادقات والأعلام من مستلزمات أي تحرّك وتوقّف للرشيد مهما كان بسيطاً أو مختصراً . يدل على ذلك خبر يرويه الأصفهاني عن وفاة العبّاس بن محمد بن خالد بن برمك واشتراك الرشيد في تشييع جنازته . فيقول : «حضر الرشيد والأمين ، وأخرجت المضارب إلى مقابر البرامكة بباب البردان ، وفرش للرشيد في مسجد هناك . وجاء الرشيد ، في الخلق ، بالأعلام والحراب . . .» (الأغاني ج 16 ص 182) .

2 تاريخ الطبري ج8 ص 317 .

3 ويروي القلقشندي عن تطيره حكاية طريفة فيقول : «حكي أن بعض العمال بعث إلى الرشيد بعبد أسود . فقلب كتابه ووقّع عليه : أمّا بعد ، فإنّك ، لو وجدت عدداً أقل من الواحد ولوناً شراً من السواد لبعثت به إلينا ، والسلام» . (صبح الأعشى ، ج 2 ص 13) .

4 ينسب إليه المؤرّخون التنبؤ بمكان موته نتيجة لرؤيا رآها (الطبري ج8 ص 343 والأغاني ج 18 ص 177 والكامل لابن الأثير ج5 ص 129) ويجعل القزويني هذه النبوءة على لسان منجّم . فيتحاشى الرشيد المرور بطوس ، إلى أن دخلها خطأً ومات فيها (آثار البلاد وأخبار العباد ـ ص 192) ويشير ابن خلدون إلى منجم خاص بالرشيد هو الكندي وينسب إليه كتاب الجفر (المقدمة ج 2 ص 772) ويروي ابن خلكان أن منجّماً تنبّأ له بموت قريب فأصابه غمّ شديد . (وفيات الأعيان ج 1 ص 186) .

5 تاريخ الخلفاء ص 269 .

6 يستشيرون المنجّمين قبل الإقدام على عمل مهم . (ذيل أمالي القالي ص 92) .

7 يذكر الطبري ذلك في غزوة الرشيد الأولى عام 163هـ فيقول : «كان لخالد في ذلك ، بسمالو ، أثرٌ جميل لم يكن لأحد . وكان منجّمهم يسمّى البرمكي تبرّكاً به» . تاريخ الطبري ج 8 ص 147 .

العصر ، فالثاني يرجم بالغيب والأول يحدِس ويُبشّر ؛ وإذ كانوا يعتقدون أن لكل شاعر قريناً من الجن يهتف له بالشعر ، فلا عجب في أن يأخذوا قوله ، متفائلاً أو متشائماً ، مأخذ الجد ، فيتفاءلوا به أو يتشاءموا . هكذا لا يخلو شعر يقال في مناسبة مسير للرشيد من الإشارة إلى اليمن والبركة وتوقّع الخير ، سواء عند الانطلاق أو بعده أو لدى العودة ، وهذا ما نراه في حينه . وتجدر الإشارة هنا إلى أن انتهاء مراسم الوداع وتحرّك الموكب وعودة الأعيان المودّعين إلى مراكزهم ، كل ذلك لا يفرط عقد المجلس الأدبي . فالإنتاج الأدبي الذي ألهمته احتفالات الوداع يستمر أثناء المسير لأن المبدأ الدائم هو : «حيث يوجد الرشيد يوجد مجلسه الأدبي» وعماده أقطابه المرافقون للموكب ، أو أشخاص يلتقطهم أثناء سيره ، أو يكمنون له بانتظار مروره ليظهروا له ويفجأوه مدخلين عليه تجديداً يحبه الرشيد ويترقّبه[1] . ويبدو أن دور الأدب أثناء المسير ليس هامشيًّا ، فهو شأنه في حياة الاستقرار ، تعامُلٌ يومي ودائم[2] . . بل لعلَّ الرشيد ، في أسفاره ، يحتاج ، أكثر منه في أي وقت آخر ،

1 يحكي الوطواط «أن الرشيد مَرَّ بِدَيْرٍ في ظاهر الرقة . فلما أقبلت مواكبه أشرف أهل الدير ينظرون إليه وفيهم مجنون مُسلَّل . فلمّا رأى هارون ، رمى بنفسه بين يديه وقال : يا أمير المؤمنين ، قد قلت فيك أربعة أبيات ، أفأنشدك إياها ؟ قال : نعم . فأنشده :

لَحَظاتُ طَرْفِكَ في العِدَى ... تُغْنيكَ عن سَلِّ السيوفِ . . .

(الأبيات)

ثمّ قال : يا أمير المؤمنين ، هات أربعة آلاف درهم اشترى بها كبيساً وتمراً . فقال هارون : تدفع له . فحملت إلى أهله» (الغرر والعرر ص 128) . ومن المفاجآت المحبّبة ظهور أحد شعراء البلاط ومعه أبيات جديدة أعدّها خصّيصاً للمناسبة . من ذلك ما يرويه الأصفهاني : «لما ورد الرشيد الرقة خرج يوسف بن الصيقل وكمن في نهر جاف على طريقه . وكان لهارون خدم صغار يسميهم النمل يتقدّمونه ، بأيديهم قسيّ البندق يرمون بها من يعارضه في طريقه . فلم يتحرّك يوسف حتى وافت قبّة هارون على ناقة . فوثب إليه يوسف . وأقبل الخدم يرمونه . فصاح بهم الرشيد : كفّوا عنه فكفّوا . وصاح به يوسف :

أَغَيْثاً تَحمِلُ الناقةُ ... أمْ تَحمِلُ هارونا . . .

(الأبيات)

فمدّ الرشيد يده إليه وقال له : مرحباً بك يا يوسف ، كيف كنتَ بعدي ؟ ادن مني . فدنا وأمر له بفرس فركبه وسار إلى جانب قبّته ينشده ويحدّثه والرشيد يضحك» . (الأغاني ج 23 ص90) ويروي ابن المعتز الأبيات على أنها لابن أبي السعلاء أنشدها الرشيد حين تصدّى له بالمدينة وهو حاج وقد خرج منها يريد مكّة على راحلة . (طبقات الشعراء ص 150) . وممّا يدخل التجديد إلى البلاط شعراء معروفون بأماكن يمر بها الرشيد يخرجون إليه فيها ويمدحونه . من ذلك ما ذكره ابن عبد ربّه وابن رشيق عن شاعر من بني أسد «كان يلقاه ، إذا حجّ فيمدحه» . (العقد الفريد ج 5 ص 290 والعمدة ج 2 ص 113) .

2 يذكر الأصفهاني أن الرشيد ركب يوماً قبّة وسعيد بن سلم معه فقال : «أين محمد البيدق ؟ فحضر . فقال : أنشدني قصيدة الجرجاني فأنشده . فقال : «الشعر في ربيعة سائر اليوم» (الأغاني ج 18 ص 146) وهذه الإشارة ، إذا صحّت ، تدل على أن الأدب كان يشغله النهار بكامله وكل يوم .

إلى أدب يسلّيه ويقطع معه رتابة الطريق ومللها . لهذا ، ونظراً لكثرة تحرّكات الرشيد ، ولطمع العديد من صائدي الجوائز بأعطياته ، فإن موكبه يتعرّض كثيراً لمداخلة أدباء أو متأدبين أو أصحاب حوائج ، فيكون على الحرس مهمّة إبعاد المتطفّلين عن الطريق . إلاّ أن عملية الإبعاد ، إذا تمّت بعنف ، قد تؤدّي إلى الأذى وتقلّل من محبّة الناس . فعالج الرشيد هذا الموضوع بشكل طريف مبتكر : كان له هؤلاء الخدم الصغار الذين يدعون «النمل» ، لعلّهم من الأقزام تمّ جمعهم وتدريبهم وألبسوا الخاص من الثياب . ويبدو أنهم كانوا عديدين ، يعطون الموكب طابعاً مميّزاً ويزيدون من شغف الناس برؤياه . أما سلاحهم فكان قسي البندق ، يطلقونه على كل من يعترض الطريق ، إلاّ أن يكفّهم عنه الخليفة . والرشيد ، في مسيره ، قد يركب الفرس إذا لم تبعد الشقة ، أما إذا بعدت فركوبه على راحلة غالباً ما تعلوها قبّة تسدل عليها الستائر يطل منها حين يريد ويختفي عندما يشاء . أما إذا اتسعت القبة لراكبين فيقتضي حينها أن يكون للرشيد «عديل» أو «زميل» فيها ، تأميناً للتوازن ، ويختاره محدثاً لبقاً أو وجيهاً كريماً[1] . وقد يركب السفينة فيكون فيها نواح وأبواب : واحد للعامة وآخر للخاصة . . . كل يدخل إليه من الباب المخصّص له[2] . والأدب المتداول أثناء السير معظمه أدب منقول أو مُعاد ، يُروى أو ينشد شأن أدب السمر ، إلاّ أن تجدّ حادثة ينبري لها شاعر مجيد فيرتجل بمناسبتها البيت أو الأبيات أو القصيدة ، أو أن يدخل عنصر جديد ، كما قلنا ، يحمل معه بعض الإبداع . ولا شكّ في أن من أبرز النواحي الإبداعية لأدب التنقّل الإحساس بالشوق إلى الأحباب والتذمّر من طول الفراق ، والعتب على الدهر . وهذا الإحساس ينتاب الجميع بمن فيهم الخليفة ، فيهبّ شاعر لينشد شعر التجمّل والصبر والاستعداد لتحمل المشاق طالما أن الصحبة هي صحبة الرشيد : فمن يرافقه يحب المسير لأنه معه ولا يستسيغ من الأحاسيس إلاّ ما يستسيغه الخليفة . إنهم يحبّون المشقات إذا أحبها ويرغبون في النزول إذا رغب ، ويستمرّون في المسير معه إذا استمر ، دون أن يبالوا أطال الغياب أم قصر ، إذا كان هو لا يبالي[3] . إلاّ أن للمشاعر

---

1 يذكر ابن عبد ربه أن الرشيد حجّ و«زميله» أبو يوسف القاضي (العقد الفريد ج 5 ص290) ويذكر ابن رشيق الخبر نفسه على لسان شراحيل بن معن بن زائدة : «كنت أسير تحت قبّة يحيى بن خالد وقد حجّ الرشيد ، وعديله أبو يوسف القاضي» (العمدة ج 2 ص113) ويقول الأصفهاني في أحد أخباره : «قدم الرشيد البصرة حاجاً ليأخذ على طريق النِباج ، وهو كان الطريقَ قديماً . فدخلها وعديله إبراهيم الحراني» . . . (الأغاني ج 18 ص118) ويقول الحصري : «لمّا حجّ الرشيد سنة ست وثمانين ومئة ، دخل مكّة وعديله يحيى بن خالد . . .» (زهر الآداب ج 4 ص 1016) .

2 يروي ذلك الطبري متحدّثاً عن يحيى بن خالد : «وقد صار إلى أمير المؤمنين في حرّاقته ، فدخل إليه من باب صاحب الخاصة فكلّمه في حوائج الناس . . . ثم خرج» . (تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 299) .

3 يقول العبّاس بن الأحنف مخاطباً الرشيد :

إنّمـا حبّـبَ المسيرَ إلينـا   أنّنا نستطيـبُ مـا تستطيبُ

الإنسانية حدوداً ، وكذلك لطاقة التحمّل . فإذا طالت الغربة ، ولم يبد الرشيد عجلة للرجوع ، كأن ينزل في الري مسقط رأسه وملعب طفولته فيقيم فيها طويلاً[1] ، تصبح مشاعر المرافقين ، من أدباء وشعراء ، (وهم ليسوا برجال سياسة أو حرب) ، على المحك : هل يستطيعون الصبر ويستطيبون الإقامة فعلاً لأن الرشيد يستطيبها ؟ إن التجمّل بضبط النفس يضعف تدريجاً فتظهر مسحة من التململ وعارض من التشاؤم تحت ستار من تسليم الأمر إلى الله والاتكال عليه . . . هكذا لا يعود الوجود في معسكر خير إمام وخير وزير كافياً لإسكات صوت الشوق[2] إلى الأحباب . بل إن نغمة التململ قد تتصاعد أكثر فأكثر لتصل إلى سمع الخليفة متسائلة عن آخر هذا الليل الطويل الذي ، ما إن تلوح فيه تباشير الصبح ، حتى يدلهمَّ من جديد ، فكأن عين حسود أصابت الأحباب المتقاربين فتفرّقوا أيدي سبا . والرشيد يتأثر بالشعر الرقيق والمشاعر الملتاعة ويفهم ما بين السطور . لذلك لا

= مـــا نُبـــالي ، إذا صحِبنـــــا أميــــ ـــنَ اللهِ هارونَ ، أن يطولَ المَغيبُ

(الديوان ص 36) .

1 توجّه الرشيد إلى الري عام 179هـ بهدف الوصول إلى خراسان لمحاسبة واليها علي بن عيسى بن ماهان على سوء تصرّفه في ولايته . لكنه أقام في الري واستدعاه إليه . وبقي هناك أربعة أشهر فتكون هذه السفرة قد امتدت إلى ما يقرب من نصف العام بين الذهاب والإياب . (انظر الطبري ج 8 ص 316 والكامل لابن الأثير ج 5 ص 127 والنجوم الزاهرة ج 2 ص127) .

2 قال العبّاس بن الأحنف وهو مع الرشيد في مسيره إلى خراسان :

أسألُ اللهَ خيرَ هذا المسيرِ وإيابــاً في غِبطَــةٍ وسرورِ
أنــا في عسكرٍ لخير إمامٍ زانه ربُّـــه ، وخيرِ وزيرِ
غير أنّي بَغَضْتُ ما أنا فيهِ بمُناخٍ مـــن الهوى مَقرورِ
وبهَجْرٍ من الحبيبِ فلا تســـ ـــأَلْ بأحوالِ عاشقٍ مهجورِ

(الديوان ص 89) ، وفي خبر للأصفهاني يشير إلى وجود إسحاق الموصلي والزبير بن دحمان وسواهما مع الرشيد في الرقة واشتياقهم إلى بغداد ، وتذكرهم الأهل والأحباب فيما كان الرشيد يصحبهم معه في رحلة صيد ، يقول إسحاق : «فذكرت بغداد وطيبها وأهلي وإخواني وحرمي . فتشوّقت ذلك شوقاً شديداً . وعرض لي همّ وفكر حتى أبكاني فقال لي الزبير : مالك يا أبا محمد ؟ فشكوت إليه ما عرض لي وقلت :

أَسْعِدْ بدمعِكَ ، يا أبا العوّامِ ، صَبًّا صريعَ هوىً ونِضوَ سِقامِ
ذَكَرَ الأحبّةَ فأستُجنّ وهاجَه للشوق نوحُ حمامةٍ وحَمامِ
لم يُبدِ ما في الصدرِ إلا أنهُ حَيَّا العراقَ وأهلَــه بسلامِ
ودعــاهُ داعٍ للهوى فأجابَهُ شوقاً إليه ، وقــادَهُ بزِمامِ

. . . فصنعتُ في الأبيات لحناً . فلما جلس الرشيد للشرب ، ابتدأت فغنيته إياه فقال لي : تشوّقت والله ، يا إسحاق ، وشوّقت وبلغت ما أردت . . . ورحل إلى بغداد بعد أيام . .» (الأغاني ج 18 ص 225) .

يشدّد على المصاحبين بل يعطي الإذن لمن يشاء بترك البلاط والقفول[1] . . . ومن الطبيعي ألاّ يكون ما يحسّه المرافق من مشاعر بعيداً عمّا يحسّه الرشيد[2] ، فهو ، إذا طال غيابه عن مركز خلافته الذي ترك فيه أحباباً له ، كما فعل غيره ، يطيب له ، وهو سهران في ليالي المعسكر ، الحديث عن بغداد وما فيه أهلها من هناء وراحة بال وما ينعمون به من رفاه ، فيجيبه الشاعر المتربّص بقصيدة «يذكر فيها طيب العيش في بغداد وسعة النعم وكثرة اللذات» ويخصّ منها أنواع المآكل الفخمة الغزيرة من دجاج مقدّد أو طرىء محمّر ، ومن لحم سمين دُقّ بعناية وأُنضج بالشواء المتمهّل ، يمتلىء بـه البطن الكبير الجائع ، فتحنّ النفس ، إذ ذاك ، إلى قينة تسقي وتُطرب[3] .

---

1 يروى عن العباس بن الأحنف في مسير الرشيد قاصداً خراسان ، وقد رافقه في رحلته :

قالوا : خراسانُ أقصى مـا يُرادُ بنا ... ثـمّ القفولُ ، فقـد جئنا خراسانا

ما أقدرَ اللهَ أن يُدني ، على شَحَطٍ ، ... سكّانَ دجلـةَ مـن سكانِ جَيحانا

يا ليـت من نتمنّى عند خَلوتنا ، ... إذا خـلا خَلـوةً ، يومـاً ، تَمنّانا

متى يكـونُ الذي أرجـو وآملُهُ ... أمـا الذي كنتُ أخشاهُ فقد كانا

عينُ الزمانِ أصابتْنا ، فـلا نظرَتْ ... وعُذِّبـتْ بصنـوفِ الهجـرِ ألوانا

(الديوان ص 162) ، ويورد القزويني بيتين من هذا الشعر مع تغيير في المناسبة (آثار البلاد وأخبار العباد ص 392) ، ويذكر الأصفهاني الخبر ثمّ يختمه بقوله : «فقال الرشيد : قد اشتقت يا عبّاس ، وأذنتُ لك خاصة . وأمر له بثلاثين ألف درهم» . (الأغاني ج 8 ص375) . ولا شكّ في أن الإحساس بالغربة نسبي . فإذا أحسّ به العبّاس في خراسان ، فإن عُليّة أخت الرشيد ، التي طلب إليها مرافقته إلى الرقة وترك بغداد ، أحسّت بالغربـة وهي بالمرج . فعملت «شعراً وصاغت فيه لحناً وغنّت به وهو :

ومغتربٍ بـالمرجِ يبكـي لشَجْوِهِ ... وقد غاب عنه المُسعِدونَ على الحُبِّ

إذا مـا أتاهُ الرَكْبُ من نحو أرضِهِ ... تنشّقَ ، يستشفي برائحـةِ الرَكْـبِ

فلمّا سمع الصوت علم أنها قد اشتاقت إلى العراق وأهلها به . فردّها . . . (الأغاني ج 10 ص 192 وفوات الوفيات ج 2 ص 100) .

2 وأخت الرشيد عُليّة هي ممن يَشتاق إليهم . وقد ذكر الأصفهاني في الخبر السابق أن سبب طلب الرشيد عُليّة إلى الرقّة هو شوقه إليها فكتب إلى خالها يزيد بن منصور في إخراجها إليه فأخرجها . فقالت في طريقها :

اشربْ وغـنِّ على صوتِ النواعيرِ ... ما كنتُ أعرفها لولا ابنُ منصورِ

لـولا الرجاءُ لمـن أمّلتُ رؤيتَـه ... ما جُزتُ بغدادَ في خوفٍ وتغريرِ

(الأغاني ج 10 ص 192) .

3 يذكر الأصفهاني في أخبار غزو الرشيد في بلاد الروم أن العماني دخل عليه وهو يذكر بغداد وما ينَعم به أهلها فأنشده قصيدة منها :

ثمّ أتوهُمْ بالدَّجاج الدُجَّجِ ... بـين قديـدٍ وشواءٍ مُنضَجِ

وبعبيـطٍ ليس بالمُلَهْـوَجِ ... فدُقَّ دَقَّ الكودَنِيِّ المُديَرجِ

وأخيراً ، لا بدّ لكل سَفرة من نهاية تكون بها العودة . ونحن لم نجد ، فيما وقع لنا من مراجع ، وصفاً دقيقاً لاحتفالات العودة . لكننا نعود لنستشف ذلك من خلال وصف المؤرّخين لعودة الفضل بن يحيى من خراسان ، ومن إشارات في أخبار متفرقة . فقد «خرج الرشيد إلى بستان أبي جعفر يستقبل الفضل ، وتلقّاه بنو هاشم والناس والقوّاد والكتّاب والأشراف . فجعل يصل الرجل بالألف ألف وبالخمسمئة ألف»[1] وجمع الرشيد له «الناس وأكرمه غاية الإكرام وأمر الشعراء بمدحه والخطباء بذكر فضله . .»[2] فإذا كانت هذه صورة عودة الفضل البرمكي من خراسان ، فما بالنا بعودة الرشيد من أداء فريضة دينية أو من إخماد فتنة أو فتح أو غزوة ؟ إنها مناسبة كبرى بلا شكّ ، يكثر فيها الكلام والنظم ، وتوزّع «البِدَر بخواتمها» ، يتسارع الناس إلى ظاهر المدينة يستقبلون الموكب ويرحّبون بالعائدين . وقد عرف الشعراء أهمّيتها فراحوا يتوقّعونها ويسعون إليها سابقين موكب العودة ، مهيّئين القصائد أو الأبيات القليلة التي تبهر وتحقّق وقعاً سريعاً . ولشعر استقبال الرشيد العائد نكهة خاصة : ففيه الشوق والترقّب لرؤية الغائبين[3] ، وفيه التهنئة بالوصول ، وفيه المدح . ولا بدّ من المدح في أي شعر يوجه إلى الرشيد[4] ، وأقل المدح فيه وصفه بالتميّز من جميع الخلفاء السابقين : فهو أفضلهم وهو أجملهم وهو أكرمهم ، إذن هو خيرهم جميعاً . ونجد في شعر العودة أحياناً الإشارة إلى التنقّل الذي قام به الخليفة وبلاطه . والإشارة هذه قد تكون تفصيلاً للأحداث وإشادة بالأعمال العظيمة والبطولية ، وهذا شعر الغزو والحرب الذي درسناه فيما سبق . وقد تكون الإشارة عامة مادحة ، تصور التنقل الذي يقوم به الرشيد نعمة على كل مكان يحل فيه ، يحسده عليها أي موضع آخر لم يحظ بهذا السعد . والسعد أيضاً معنى ملازم للانتقال ، كما رأينا ، يلازمه عند الانطلاق ، وعند المتابعة ، وبالتأكيد عند العودة[5] . والتركيز على هذا المعنى ، مع ما أشرنا إليه من تطيّر الرشيد ،

= حتى مـلا أعفاجَ بطنٍ نُفَّج   وقال للقينةِ : صُبّي وامزُجي . .

وقد لاقت هذه القصيدة صدىً عميقاً في نفس الرشيد المتخوشن فوهب العماني عليها ثلاثين ألف درهم» . الأغاني ج 18 ص 238 .

1 تاريخ الطبري ج 8 ص 259 .

2 الوزراء والكتّاب ص 191 .

3 من ألطف ما قيل : أبيات لأبي السعلاء في إحدى عودات الرشيد منها :

قَـرَّت عيـونُ المسلميـ   نَ . بمَقْدَمِ الملك الرشيدِ
قَـرَّت بـه عـينُ القريـ   بِ مـن الرعيّةِ والبعيدِ

(طبقات ابن المعتز ص 151) .

4 الأغاني ج 4 ص 104 .

5 في هذه المعاني ، نورد الأبيات التالية ، لأبي نواس :

يظهر لنا الخليفة ، الذي دانت له الدنيا ، يستشعر خوفاً من المجهول ، ويحسّ ضعفاً أمام الغيب ، ويحتاج دائماً إلى كلمة حلوة مشجّعة تمثّل التفاؤل بانضمام القوى الغيبية إلى القوى البشرية المعروفة ، لتقدير أعماله وإنجاح خطواته . هكذا فإن الرشيد ، الذي ينزل الخيرُ أينما نزل ، يكون قدومه ، عند العودة ، قدومَ سعادة وسلامة . بل إن طائر السعد المرافق له يسبقه ليبشّر به مع ريح الصبا وريّق الغيث[1] . وعندما نتابع بحث شعر المناسبات وما قيل فيه من مدح ، سنرى أن الخير الذي يرافق الرشيد ، واليمن الذي يشعّ من «شخصه المبارك» ، هما من أهم المعاني التي ركّز عليها الشعراء ، يذكرونها ويعيدون ذكرها ، فيسمعها الرشيد ويطرب لها ، ثمّ يصدّقها فعلاً إذ تلعب يد القدر لعبتها أحياناً وتهيىء من المصادفات كل عجيب :كأن يقترن وصول الرشيد بسقوط مطر طال انتظاره[2] ، أو أن يتوجّه إليه الناس العطاشى ، الشاكون من القحط ، يستسقي لهم فيسُقَون ويعمّهم الخير[3] .

بهذا نكون قد ألممنا بحركة الرشيد وانتقاله الدائم وما أوحى به ذلك من أدب . وقد أوليناها اهتمامنا وأفردنا لها فصلاً خاصاً لاقتناعنا بأهمّيتها النفسية ، بالنسبة إليه ، والعملية ، بالنسبة إلى شعبه وبلاطه . وإن كنّا لم نستطع رسم سورة واضحة لحركة الرشيد ومواكبه ، فلأن المصادر الموثوقة لم تكن تعني كثيراً بالتفاصيل الحضارية التي لا تَظهر إلاّ نتفاً متفرّقة في ثنايا الأخبار التاريخية والنكت الأدبية واللغوية والنوادر المسلّية . ولعلّ هذا السبب ، فضلاً عمّا يجب أن تكون عليه مواكب الرشيد من الرونق والروعة النادرين ، جعل بعض المؤلفين يطلقون العنان

= هارونُ ، يا خيرَ الخلائف كلِّهم ... مِمّن مضى منهم ، وهذا الغابرُ
تتحاسَدَ الآفاقُ وجهَك بينها ... فكأنهن ، بحيثُ كنتَ ، ضَرائرُ
فأقدُمْ قدومَ سعادةٍ وسلامةٍ ... فلقد جَرَى لكَ بالسعودِ الطائرُ
(الديوان ص 401) .

1 من ألطف الاستقبالات الصرخة التي أطلقها العماني حين ذهب للقاء الرشيد القادم إلى الرقة ، ومطلعها : (هارون يا ابن الأكرمين منصبا) . . . ويقال إن الرشيد أعطاه على هذا الشعر خمسة آلاف دينار وخمسين ثوباً . . . (الأغاني ج8 ص 232) وراجع الشعر ص 89 هامش 1 من البحث .

2 يروي ذلك الأصفهاني كما يروي عن أشجع السلمي شعراً مدحياً منه :

إنَّ يُمنَ الإمامِ ، لمّا أتانا ، ... جلبَ الغيثَ من مُتونِ الغمامِ
فابتسامُ النباتِ في أثَرِ الغيـ ... ـثِ ، بنُوّاره كَسُرجِ الظلامِ
(الأغاني ج 18 ص 118) .

3 راجع ص 40 هامش 1 من البحث : استسقاء الرشيد وتذكره شعر ابن مناذر في ذلك وص 646 هامش 1 وص687 .

لخيالهم يرسم ، من خلال ما عرف عن الرشيد وحاشيته وعصره ، صوراً لحياته في حلّه وانتقاله .
ونحن نقتبس صورتين لمواكب الرشيد نقدمهما دون تعليق :

الصورة الأولى ننقلها عن كابرييل أوديسيو : «كان الجو جميلاً ليلة نُصّب الرشيد خليفة . . . وفي صباح يوم مشرق دخل بغداد دخولاً رسميًّا . كانت ترافقه جنود الضواحي ، وقد تقدمت ، لاستقباله ، حامية مدينة بغداد . كان اليوم جمعة ، يوم الراحة والانصراف إلى العبادة . تنادى الناس من الملحقات البعيدة ، وتدافعوا ، باتجاه القصور ، إلى طريق الموكب على مدخل الجسر الكبير . دوّت أرجاء المدينة كلّها بهتافات الشعب التي تحيّي أمير المؤمنين ، وراحت زغاريد النساء تتطاير من الشرفات ، كأنها رفوف من العصافير تصفّق بأجنحتها وتمتزج بخفيف البيارق . أما الجنود والضبّاط ، فقد ارتدوا بزاتهم السوداء ، واعتمروا القلانس الطوال ، تتقدّمهم الأعلام كأنّها ، فوق أرض الشارع المائج ، سيل من قار يتدفّق وسط المدينة الترابية اللون ، أو كأنها ، على صفحة السماء ، عرق فحمي يخترق زرقتها المتألقة تحت أشعة شمسٍ التمعت فوق الدروع ، على نصال السيوف وأسنّة الرماح ، على الأبواق وعلى الطبول . . . بدأ الفرسان يمرّون ، تخبّ بهم الركائب ، ثمّ برز الوزراء والأمراء ، فهتف الناس للبرامكة العظام ، ليحيى صانع هذا النصر ، وقد حف به أولاده . ثمّ تلت فرقة حرس من أنصارهم ، بأيديهم السيوف مشرعة ، على عاتقهم الهراوات ، وقد وترت بأيديهم القسيّ . . . وأطل الخليفة نفسه ، ملتفًّا بعباءة سوداء ، ممتطياً جواداً يتألق بذهب الوشي ، فأشرف على الجماهير المشدودة الأنفاس . . .»[1] .

والصورة الثانية هي لموكب عسكري ، يرسمها جون كلوب : «وكان أمير المؤمنين يسير في وسط الجنود ، يمتطي جواداً مطهّماً ضخماً ، عتاده مرصّع بالذهب والجواهر . يحيط بالخليفة أولاده وحجّابه وكبار ضبّاط جيشه . وكانت روعة المنظر تزداد بالألبسة الجميلة التي يرتديها رجال حرس الخليفة الخاص ، ذات الألوان الزاهية والمقصّبة . وترفرف فوق الجيش ، بكامله ، سحابة من الرايات والأعلام ، وكلّها موشاة بخيوط الذهب . ويسير خلف موكب الخليفة رهط من العبيد والخصيان يجرّون هوادج أسدلت عليها الستائر الكثيفة ، وقد ضمّت نخبة من نساء الخليفة وجواريه»[2] .

---

1 Gabriel Audisio La vie de Harun Al Rachid, pp. 50-51.

2 إمبراطورية العرب ص 538 .

الفصل الثاني

مناسبة البيعة

قَلِّدْ أمورَ عبادِ الله ذا ثقةٍ   موحَّدَ الرأي ، لا نِكسٌ ولا بَرَمُ
واترك مقالةَ أقوامٍ ذَوي خَطَلٍ   لا يفهمون إذا ما معشرٌ فهموا[1]

(الرشيد)

مشكلة البيعة

هذه المناسبة مثلت دوراً كبيراً في الحياة السياسية ، كما رافقها إنتاج أدبي معيّن عكس ناحية من هموم العامة والخاصة في تلك الفترة . فبالنسبة إلى هذا الموضوع كان الرشيد في موقع غير عادي : مَلَكَ وهو في الثانية والعشرين ، ليس له ولي عهد مسبق وليس من المعقول أن يكون له ولد في عمر البيعة الجدية . والمستقبل غامض مجهول : كم يطول عمره في الخلافة ؟ وهل يستمر حتى يشبّ أحد أبنائه عن الطوق ؟ إن القاعدة الدائمة حتى أيامه أن يكون للخليفة ، منذ جلوسه على العرش ، ولي عهد جاهز يخلفه حين تدعو الحاجة ويسنده في الأزمات . صحيح أن خلافات حصلت بين الخلفاء وأولياء عهدهم من غير عقبهم ، وصحيح أن ولايات عهد جاهزة ألغيت واستبدلت ، إنما لم يمرّ وقت على خليفة عبّاسي بشكل خاص بلا ولي للعهد . وبدأت الأنظار تتركّز على المكان الشاغر ، وأحسّ كثير من الهاشميّين بصلاحهم له وأحقّيتهم به ، وظهرت على بعضهم علامات الطموح والطمع[2] . فكان على الخليفة أن يتخلّص منهم واحداً بعد آخر بأساليب مختلفة لم يصل أحدها إلى التصفية الجسدية طالما القضية بين بني العبّاس . والتمعت الرغبة باسترداد الحق في عيون العلويّين ، فكان منهم التحدي والثورة ، وازداد عدد شهدائهم وعلى رأسهم موسى الكاظم ويحيى بن عبدالله . ثمّ تزايد نفوذ البرامكة وبدأوا بتأسيس مركز هو أقرب إلى قاعدة الملك منه إلى قاعدة الوزارة ، فكان على الرشيد أن يتّخذ موقفاً . ولم يكن خليفة ليولي العهد شخصاً من غير عقبه ، طالما عنده عقب . ولو فعل ذلك اليوم لتراجع عنه في الغد حين يكبر أولاده . لا بدّ ، إذاً ، من اختصار الطريق وتحويل الولاية إلى الأبناء . وهنا كانت المشكلة المزدوجة أمام الرشيد : إنها مشكلة الأبناء الأطفال الذين ولدوا مع تولّيه الخلافة ، كما هي مشكلة أيّهم يولي عهده ؟ أكبرهم هو عبدالله المأمون ، ابن محظيّة ، يكبر محمّداً بشهر أو أشهر . ومحمّد هو

---

1 مروج الذهب ـ دار الأندلس ـ ج 3 ص 352 .
النِكْس : الرجل الضعيف الدنيء لا خير فيه ـ البَرَم : البخيل اللئيم .

2 راجع الطبري ج 8 ص 240 وانظر ص 65 وص 74 من البحث .

ابن زبيدة زينة بني هاشم . فأي الإثنين يكون أصلح من أخيه ؟ الله وحده يعلم . ويطيب للمؤرخين هنا أن يصوّروا الرشيد متردّداً ، في تسمية ولي العهد الأول ، بين محمد وعبدالله ، كما يطيب لهم أن يرجعوا تردّده إلى معرفته بطباع كلّ من الولدين وميله إلى المأمون الذي كان يتخايل فيه حزم المنصور ونسك المهدي وعز نفس الهادي[1] . . . وما إلى ذلك . كل هذا وعمر الطفلين لا يجاوز خمس سنين . ونحن نعتقد أن المقارنة قد وردت في ذهن الرشيد ، ولكن ليس في هذه المرحلة الأولى أي عند البيعة للأمين عام 175هـ . إنما وردت فيما بعد ، حين شبّ كل من الولدين وبدأت ملامح شخصيّتيهما تتّضح ، ووجد حينها أن تصحيح خطأ البيعة الأولى ، التي لا سبيل إلى نقضها ، يكون بإضافة بيعة ثانية لعبدالله[2] . أما البيعة الثالثة لولده الثالث القاسم فلا نرى لها أي مسوّغ ظاهر . ولعلّه قام بها في وضع خاص ، وهو لم يعطها من الأهمّية إلاّ جزءاً يسيراً مما أعطاه للبيعة للمأمون ، إذ جعل إليه أمر نقضها أو إحكامها ، إذا صارت الخلافة إليه[3] .

والبيعات لأولاد الرشيد كانت موضوعاً لاحتفالات ضخمة ، مفتوحة على فترة طويلة ، لأن ولاية العهد قضيّة عامة واجتهاد سياسي له أثره في الأمبراطورية كلّها . ولا نقصد بالاحتفال إقامة المهرجانات العامة والأفراح فقط ، فاحتفالات البيعة أبعد مرمى وأعمق جذوراً : إنها باب مفتوح لتسجيل التأييد ، بل للتنافس في إظهار الولاء . وهذا ما يعطي صفة الشرعية لعملية هي أصلاً غير شرعية إذا نظر إليها على ضوء التعاليم الإسلامية الأصيلة . وتجدر الإشارة إلى أهمّية إعطاء الشرعية عن طريق إلزام المبايعين الوفاء بها وجعلهم يقسمون الأيمان المغلظة ، وهم يبايعون . ويبدو من مراجعة التاريخ أن المبايعين كانوا أكثر التزاماً بالبيعة من أولي الأمر أنفسهم الذين أكثروا من عمليات النقض وإجبار الناس على الخروج من أيمانهم والتزامهم بمختلف وسائل التكفير ، أو بالضغط على صاحب البيعة لسحب ترشيحه . وكلّما كثرت عمليّات النقض ، جاءت البيعات التالية تشدّد أكثر فأكثر على الالتزام بها ، مدخلة في نص القسم نقاطاً محرجة وفنوناً من الأيمان لا يمكن الخروج منها حتى بات هذا القسَم ، أيام الرشيد ، يمتد على صفحات طوال تصعب الإحاطة بمجمل تفاصيله[4] .

ولا شكّ في أن الرشيد زاد كثيراً في نص أيمان البيعة بمقدار تخوّفه من نقض الناس لها وإحساسه بفرضها عليهم قسراً لأنها ، بحد ذاتها ، لم تكن طبيعية ولا مقنعة ، بل كانت تحمل في طيّاتها بذور خلاف وشرّ مستطير . وأول أخطاء هذه البيعة أنها ولت العهد طفلاً لما يبلغ الخامسة ، لم تظهر بوادر

---

1 الأغاني ج 18 ص 232 .

2 مروج الذهب ــ دار الأندلس ــ ج 3 ص 352 .

3 راجع ص 89 هامش 2 وص 482 من البحث .

4 راجع نص قسم البيعة الذي علق في الكعبة في كتب التاريخ حوادث عام 186هـ وعلى سبيل المثال تاريخ الطبري ج8 ص 278 وما بعد .

كفاياته ولا مخايل شخصيّته ، كما أسلفنا ، ولا يستطيع القيام بأعباء الأمر إذا حدث طارىء حوّل الخلافة إليه . لهذا كانت مبايعته أمراً شططاً كلّف المبايعين ما هو فوق طاقة ضميرهم ، وحمّلهم مسؤولية مستقبل غامض قلق ، واحتاج إلى دعم متواصل . وكان ثاني هذه الأخطاء المبايعة لغير ولي عهد واحد وقسمة الأمبراطورية بين الولدين ، على صعيد المناطق والقوّاد والحاشية . وهذا خطأ فادح لم يخف على أحد : حقيقته واضحة وتجارب الماضي تنبيء به . والحقيقة الواضحة في الخطأين كانت بحاجة إلى غطاء كثيف لسترها ، غطاء أمّنته الدعاوة والإشاعة والشعر . من هنا الدور الكبير الذي لعبه شعراء الرشيد بمناسبة البيعة حتى لتكاد كل خطوة منها تتمّ إثر حضٍ ودعوة من شاعر مجيد . . . والدعاوة بمناسبة البيعة كانت تلتزم الأسس الثلاثة التالية :

الأساس الأول : إظهار الرشيد مستجيباً ، في هذه العملية ، للرأي العام ورأى المعنّين بأمرها من أفراد العائلة المالكة ورجال الدولة ، مبعدة عنه صفة المستبد الذي يفرضها بقوّة مركزه ونفوذه .

وثاني الأسس : التركيز على أن الرشيد كان ، في استجابته هذه ، متردّداً متخوّفاً ينظر بعين الشك إلى مستقبلها ويستشعر لها رعشة . بل إنه يتنبأ لها ، حسب بعض ما قيل ، بالفشل وتسبيب الدمار .

وثالث هذه الأسس : إظهار الإجماع ، على تأييد موقف الرشيد ، إجماعاً لا مثيل له اتفق عليه عناصر الأرض وإرادة السماء : فهو حتمي لا مفرّ منه ، وهو صائب لا شطط فيه .

مراسم البيعة

نظراً لأهمية هذه الأسس في النتاج الأدبي الخاص بالبيعة ، ولأن معظم هذا النتاج دار حولها ، فنحن نتناولها ببعض التفصيل ، بعد الحديث عن احتفالات البيعة . فالبيعة مناسبة رسمية وشعبية كبرى ، بل هي مناسبة مصيرية تصاحبها مراسم وتقام لها أفراح تعم الأمبراطورية جمعاء . ولا شك في أن البيعة لا تعقد بين ليلة وضحاها ، بل يتم التحضير لها ، وأحياناً التآمر لها أو عليها ، في العاصمة أو أطراف الأمبراطورية . إلاّ أن البيعة متى تمّت وأعلنت يعمّ الاحتفال بها جميع الأقاليم ، تقال الخطب وتُنشد القصائد وتُجمع من كل مكان لتصبّ في قصر الرشيد . واحتفالات العاصمة هي ، بالتأكيد ، الأبهى والأجمل والأروع . وفي البلاط تقام لها مراسم وتعقد الجلسات الأدبية[1] . فيجتمع بنو هاشم والأعيان وقوّاد الجند[2] ، توزّع عليهم العطايا

---

1 وجدنا وصفاً مختصراً لِمراسم البيعة وجلساتها عند اليعقوبي (ج 2 ص 408) كما توجد بعض اللمحات في ثنايا الأخبار الأدبية أو الأشعار ، حاولنا استخدامها لتكوين الصورة السريعة التي نقدمها .

2 في كل خبر بيعة ذكر واضح لأخذ موافقة الجند أو لإرضائهم بهدف كسب سكوتهم . ولعلَّ ذلك يَحدث خوفاً من انشقاق الجيش أو إحداث الشغب ، خصوصاً إذا كانت البيعة غير مكتملة الشروط التي يحدّدها العرف والمنطق . وعلى سبيل المثال ننقل ما ذكره ابن تغري بردي في البيعة للأمين : «وأرضوا الجند بأموال عظيمة حتى سكتوا» (النجوم الزاهرة ج 2 ص76) .

والهبات ، ثم يعلن متحدّث باسم الخليفة قراره بحيثياته . بعدها ، يأتي دور ولي العهد ليقف بين الناس خطيباً كأنه يعرّفهم بنفسه[1] ، وهذا يوازي تقديم برنامج العمل والقسم الدستوري في أيامنا ، فتتعالى صيحات الإعجاب والتقدير ويتقدّم الحاضرون ، واحداً واحداً ، إلى ولي العهد أو إلى من يأخذ البيعة له ، يصفق كفّه بكفّه[2] ، مرتجلاً كلمة تعبّر عن تأييده أو عن أمنياته[3] ، مقرظاً ولي العهد ، مادحاً الخليفة في شخصه أو في قراره . فإذا ما انتهى الكلام ، نُثرت على الموجودين الدراهم والدنانير وفأر المسك وبيض العنبر[4] ، تعبيراً عن الفرحة وتقديماً لنوع من التذكار الرمزي بالمناسبة . ونودّ هنا الإشارة إلى أن العملية الإعلامية ، في هذا الظرف ، يتولاّها الشعراء فيأتي شعرهم لينبّه إلى ضرورتها ، ويحضّ عليها ثم يحمد الاختيار ويؤكّد الخير المتوقع .

أولاً : الحض على البيعة

لقد بايع الرشيد لأولاده الثلاثة : الأمين والمأمون والمؤتمن ، على فترات ثلاث . وتُجمع الروايات ، وما وصلَنا من أدب المناسبة ، على أن الرشيد ، في هذه الحالات الثلاث ، أو في اثنتين منها ، على الأقل ، كان مُلبّياً إرادة الهاشميّين والبرامكة ورجال الدولة ، مستجيباً لرغبة الرأي العام الذي يهتف به على ألسنة الشعراء . فالبيعة للأمين انطلقت من زبيدة وأخيها عيسى بن جعفر إلى الفضل بن يحيى في خراسان[5] الذي نشرها بين أهل ولايته و «فرّق فيهم أموالاً ، وأعطى الجند أعطيات متتابعات . ثم أظهر البيعة لمحمّد بن الرشيد ، فبايعه الناس ، وسمّاه الأمين . فلما تناهى الخبر إلى الرشيد بذلك ، وبايع له أهل المشرق ، بايع لمحمد وكتب إلى الآفاق ، فبويع له في جميع الأمصار»[6] . وفي ذلك يقول منصور النمري ، مؤرّخاً ومادحاً :

أمست بمروٍ ، على التوفيق ، قد صَفَقت ، على يد الفضل ، أيدي العُجْمِ والعَرَبِ

---

1 وحتى الأمين ، ابن السنوات الخمس ، كان عليه أن يقول كلمته . فأخرجه الرشيد «إلى القوّاد ، فوقف على وسادة فحمدالله وصلّى على نبيّه . .» (تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 408) .

2 جاء ذلك في بيت للنمري . راجع الأبيات في الصفحة التالية .

3 يصف اليعقوبي ذلك ، بعد حديثه عن وقوف الأمين على الوسادة وحمده الله : «وقام عبدالصمد بن علي فقال . . . . وجعل الرجل من بني هاشم يقول في ذلك حتى انقضى المجلس» . (المصدر السابق ج 2 ص 408) ويذكر الأصفهاني ، في مناسبة أرجوزة العماني الرائية : «لما وجه الفضل بن يحيى الوفد من خراسان إلى الرشيد يحضّونه على البيعة لابنه محمد ، قعد لهم الرشيد . وتكلّم القوم على مراتبهم وأظهروا السرور بما دعاهم إليه من البيعة لابنه . . .» (الأغاني ج 18 ص 232) .

4 تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 408 .

5 الطبري ج 8 ص 240 .

6 الطبري ج 8ص 241 .

ببَيعـــةٍ لــوليِّ العهــدِ أحكمَهَــــا بالنُصحِ منــه ، وبالاشفاقِ والحَدَبِ[1]

ولا شكّ في أن زبيدة كانت تسعى ، بكل ما أوتيت من قوّة تأثير ، ونفوذ وسلطان ، إلى جعل الخلافة لابنها بعد أبيه[2] . وعرف الشعراء ذلك ، وهم المتربّصون بلمحات النفوس وشطحات الآمال في البلاط ، فراحوا يشيرون إلى كفاية الأمين وصلاحه لولاية العهد[3] . وفي اعتقادنا أن ضغوط زبيدة ، على أهميتها وشدة إقناعها ، لم تكن كافية لجعل الرشيد يُقدم على عمل لا يميل إليه . فلا بدّ من حجج دامغة تجعله يتقبّل ، ومعه الجند الذين عرف لهم دور كبير ، ثمّ الخاصة والعامة ، أن ابن الخمس السنين ، الذي لم تتضح معالم شخصيّته بعد ، هو فعلاً الشخص المطلوب ، وولي العهد المنتظر . وهنا كان الدور للإعلام الذكي الذي قاده الشعراء ، مقدّمين الأسباب الموجبة ، وهي موجودة ، إن لم يكن في شخصه الصغير ، ففي انتمائه الذي يميّزه من سواه من أولاد الرشيد ، بل من معظم الخلفاء السابقين : أمه هاشمية عربية ، بينما والدات سائر إخوته محظيّات تحوّلن إلى أمهات أولاد . وهذه الحجة التي تشكل ميدان التمايز الوحيد ، استثمرها أكثر الشعراء الذين حضوا الرشيد على البيعة الأولى . فأشجع السلمي ينظر إلى الأمين الطفل يجلس إلى المؤدبين ، فيتخايل له فيه ملك المستقبل الذي يجمع ، إلى أصالة الأب ، أصالةَ الأم ، ويرتبط بجذر النبوة ، عن طريق كلٍّ منهما ، ارتباطاً صافياً لا مزاج فيه . فيجهر بذلك الخاطر قائلاً :

مَلِكٌ أبــوهُ وأُمــه مـــن نَبْعةٍ منها سِراجُ الأمـــةِ الوّهاجُ
شَرِبا بمكّة ، في ذُرا بطحائها ، ماءَ النبوّةِ ، ليس فيــه مِزاجُ

فتأمر له زبيدة بمئة ألف درهم[4] . أما الرشيد ، فلما «سمع هذين البيتين ، كاد يطير ارتياحاً . ثمّ قـال : يا أشجع ، لقد دخلت عليّ وأنت أثقل الناس على قلبي ، وإنك لتخرج من عندي وأنت أحب الناس إليّ . . .»[5] كذلك يحض العُماني الرشيد على البيعة لمحمد

---

1 الطبري ج 8 ص 241 . وتتمّة الأبيات :

قد وَكّدَ الفضلُ عَقداً لا انتقاضَ له لمصطفىً مـــن بنـي العباسِ منتَخَبِ

2 فضلاً عما أورده الطبري من سعي أخيها بالبيعة للأمين ، أورد ابن تغري بردي الخبر نفسه في قصة مشابهة (النجوم الزاهرة ج 2 ص 76) ثمّ ذكر في مكان آخر هذه البيعة قائلاً : «وكانت أمه زبيدة حرّضت الرشيد . . .» (المصدر نفسه ص 81) .

3 كانت زبيدة ، حين يعجبها قولهم ويوافق هواها ، تجيزهم بسخاء ، وأحياناً تملأ فم الشاعر درًّا . فيذكر ابن خلّكان والبغدادي أن سلماً الخاسر ، حين أنشد قصيدته «قل للمنازل في الكثيب الأعفر ، إثر المبايعة للأمين ، حشت زبيدة فاه درًّا فباعه بعشرين ألف دينار» (تاريخ بغداد ج 9 ص 138 ووفيات الأعيان ج 1 ص 354 : ويذكر ابن الجراح أنها حشت فم أبي الجنوب درًّا حين قال في بيعة الأمين : «لله دَرُّكِ يا عقيلةَ جعفرٍ . .» (الورقة ص 45) .

4 الأغاني ج 18 ص 156 .

5 طبقات ابن المعتز ص 251 .

الأصيل[6] . بينما ينبري سلم الخاسر ، بعد البيعة ، ليؤكّد ميزة الأمين النَسَبية ، مُلحقاً إياه بزبيدة بنت جعفر[1] دون ذكر لنسبه الأبوي . ولم يكن ذلك تقليلاً من قيمة هذا النسب ، إنما هو انصراف عن العادي إلى النادر ، لأن أولاد الرشيد كُثُر ، وابن زبيدة الهاشمية واحد ؛ ويبشر أبو الجنوب بحتمية خلافة الأمين لأن على جبينه نوراً من السيادة وضّاحاً لا يخفى على أحد ، ولا سبيل إلى إنكاره ، سواء عُقدت بيعة أم لم تُعقد : والسبب في ذلك كلّه أنه ابن زبيدة ، وأنها ، لِتَلِدَه ، وَجدت نفسها حُبلى بالندى والسؤدد . فيقول :

لله درُّكِ ، يــا عقيلــةَ جعفرٍ ماذا ولدتِ ، من الندى والسؤددِ ؟
إنَّ الخلافــةَ قــد تبيّنَ نورُهــا للناظريــنَ ، على جبـين محمّد
إنّي لأعلــم أنّــه لَخليفــةٌ إنْ بيعةٌ عُقِدتْ ، وإن لم تُعْقَد[2]

إلاّ أن الحجج السابقة ، جميعها ، حجج عاطفية مندفعة . أما الإقناع المنطقي فيعتمد التفسير والتمثيل بأحداث التاريخ وعبره . فهناك حقيقة واقعة : لم يبايع أي خليفة ، قبل ذلك ، لابن له ، وهو طفل في عمر الأمين . فكيف يجرؤ الرشيد على إبداع هذه السنة ؟ وتأتي الحجة على لسان عبد الصمد بن علي في خطبته القصيرة ، لحظة إعلان البيعة : «أيها الناس ، لا يغرّنكم صغر السن . فإنها الشجرة المباركة : أصلها ثابت ، وفرعها في السماء»[3] . ويشترك العماني في التخفيف من غرابة الفكرة ، مستدعياً إلى الأذهان ، تجربة الروم مع ولي عهدهم الطفل[4] . ثم تأتي حجة أبّان اللاحقي لتختم كل جدل بهذا الخصوص ، تقنع من لم يقتنع ، وتلقم حجراً كل معارض : لماذا الاحتجاج على صغر السن ، وهو لم يكن يوماً حائلاً دون حمل المسؤولية أو الرشاد في الرأي ؟ أولم يحمل عيسى عليه السلام مسؤولية النبوة ، وهو طفل في المهد[5] ؟ هكذا تتوالى الحجج والأقوال لتُذهب تردد الرشيد وتظهر أنه ، حين أقدم على هذه الخطوة ، كان مستجيباً لامبادراً . ونحن لا يدور بخلدنا لحظة واحدة أن الرشيد ، مع كل ما عرف عنه من التأثر والتسرع ، يتّخذ قراراً مصيرياً ، كقرار البيعة ، في

---

1 راجع أرجوزة العماني ص 484 وما بعد من البحث .

2 يقول سلم الخاسر :

قد بايَـعَ الثقَلانِ مَهديَّ الهُدَى لمحمّدِ بنِ زبيــدةَ ابنــةِ جَعفَرِ

انظر تاريخ بغداد ج 9 ص 138 ووفيات الأعيان ج 1 ص 354 ومعاهد التنصيصَ ج4 ص 43 .

3 الورقة ص 45 وانظر العقد الفريد ج 1 ص 313 .

4 تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 408 .

5 راجع قصيدة العماني ص 489 من هذا الفصل .

6 يقول ابان :

وما قَصَّرتْ سِنٌ بــه أن ينالَها وقد خُصَّ عيسى بالنّبوةِ في المهدِ

(البدء والتاريخ ج6 ص 106) .

لحظة انتشاء ببيت من شعر أو قصيدة . لا شكّ في أن عمليات التفكير والموازنة والمقارنة والتدبير كانت آخذة دورها خلال فترة سابقة ، وأن المشاورات التي كان يجريها ، والآراء التي كان يتقبّلها ويقلّبها على وجوهها ، كانت مما يصعب إخفاؤه ، فيها تتجلى ميوله وكل همومه . فأي قول جرؤ على الظهور في هذا المجال ، وأي شعر بلور هذه الآراء وحضّ عليها ، إنما كان يماشي تيار الرشيد دون أن يخلقه أو يعارضه . إن القرار ، في النهاية ، هو قرار الرشيد ، في رأي من آراء الرشيد . ويؤكّد لنا ذلك أن الشاعر كان يحضّ على البيعة للأمين ، ثمّ لا نلبث حتى نراه ، هو نفسه ، يحضّ على البيعة للمأمون أو للمؤتمن أو لكليهما[1] . فمن غير المعقول أن يكون الرشيد في غفلة عن البيعة لولده ، ثمّ يبادر إليها بمجرّد سماعه شعراً يلقيه شاعر . بل إننا نؤكّد ، من دراستنا لما عُرف من طباع الرشيد ، أن أي شاعر ما كان ليجرؤ على أن يملي على الرشيد تصرّفاً لا يكون مستعداً ، مسبقاً ، لاتخاذه . والشاعر ، في هذا المجال ، كان يستخدم ، بلا شك ، حدْسه المرهف يشم رائحة المطر كما يشيم برق العواصف .

وما قلناه عن ولادة البيعة العسيرة للأمين ، يقال أيضاً عن البيعة للمأمون ، مع فارق بين الوضعين هو أن الرشيد ، حين بايع للأمين ، كان متردّداً ثمّ استجاب لرأي النصحاء من رجال الدولة والعائلة المالكة . أما حين بايع للمأمون فكان متردّداً ثمّ استجاب لرأيه الشخصي المبني على معرفته بكل من ولديه . وأسباب التردّد مختلفة في كلا الحالين : ففي الحالة الأولى كان سبب التردد صغر سن المرشح ، أما في الحالة الثانية فكان السبب تعدّد أولياء العهد . وكانت الحجة المقنعة ، في الأولى ، ضرورة ملء الفراغ ولو بصبي ، أما حجة البيعة الثانية فكانت تصحيح البيعة الأولى التي لم تكن ناضجة ، إنما كانت أشبه بقفزة في المجهول سلّمت الأمور إلى من يصعب تحديد كفاياته ، بينما في البيعة الثانية كان الأساس ما تبيّن من صفات للولدين ترجّح صلاح

---

1 كانت أرجوزة العماني الرائية «لمّا أتانا خبر مشهر» ، والتي ندرسها بعد قليل هي النقطة التي أفاضت الإناء وحقّقت البيعة للأمين ، حسب الأصفهاني . فحين فرغ من إنشادها : «قال له الرشيد : بشّر ، يا عماني ، بولاية محمد العهد . فقال : أي والله ، يا أمير المؤمنين ، بشرى الأرض المجدبة بالغيث ، والمرأة النزور بالولد ، والمريض المُدنَف بالبُرء . فقال : ولِمَ ذاك ؟ قال : لأنه نسيج وحده وحامي مجده وموري زنده . قال : فما لك في عبدالله ؟ قال : مرعى ولا كالسعدان . . .» (الأغاني ج 18 ص 234) والعماني هذا ، المتحمّس للأمين ، عاد فيما بعد يُغير على معاني أرجوزته الرائية في البيعة للأمين ، يُغيّر كلّماتها ويصوغها أرجوزة دالية تمتدح ولاية العهد للمأمون ومنها :

لمّا خشيتَ بَغْيَ أهلِ الحَشْدِ   وكِدْتَ كلَّ حاسدٍ صِلَّخْدِ . . .

(طبقات ابن المعتز ص 112) . والعماني نفسه طالب بعد ذلك بولاَية العهد للقاسم . وكانت أرجوزته الميمية الحد الفصل إذ قال الرشيد بعدها : «قد ولّيناه العهد» . كذلك كان سلم الخاسر ممن بشّر بالبيعة للأمين في رائيته : «قل للمنازل . . .» ، وهو نفسه عاد ليبشّر بتصحيح الخطأ والبيعة للمأمون في لاميته ، ومنها :

فَتَمَّ بالمأمونِ نـورُ الهـدى   وانكشفَ الجَهلُ عن الجاهلِ

(تاريخ الطبري ج 8 ص 276) .

عبدالله وتُضعف الثقة بمحمّد[1] . ويبدو أن الرشيد كان يفضّل استبدال محمد ، كولي للعهد بعبدالله ، إلاّ أنه كان واقعاً بين نارين : نار بني هاشم وقدسيّة البيعة إذا فعل ، ونار ضميره إذا لم يفعل[2] . لذا تُجمع المصادر على تصويره ، في هذه الفترة ، شديد القلق والتفكير . يحدّثنا عنه المسعودي ، على لسان الأصمعي : «بينما أنا أساير الرشيد ذات ليلة إذ رأيته قد قلق قلقاً شديداً . فكان يقعد مرة ويضطجع مرة ويبكي . ثم أنشأ يقول :

قَلِّدْ أمورَ عبـاد الله ذا ثقـةٍ ....

(الأبيات)[3]

ويظهر أن الرشيد وجد الحل الوسط في إضافة بيعة ثانية إلى الأولى ، تصحيحاً لها[4] . لذلك لم نجد شعراً يحض على هذه البيعة قبل إبرامها ، مع أن البيعة الثالثة ، وهي أقل أهمية منها ، أو لأنها كذلك ، عرفت الحض عليها بالشعر . ويبدو أن عبدالملك بن صالح كان أول من بادر إلى ذلك ، حين جعل الرشيدُ ابنَه القاسم في حجره «فقال يحض على أن يوليه العهد بعد أخويه الأمين والمأمون :

يـا أيّهـا المَلِكُ الذي لـو كان نجمـاً كان سَعدا
اعقُـدْ لِقـاسِمَ بَيعـةً واوقِدْ لـه ، في المُلْكِ ، زَنْدا
اللهُ فـردٌ واحـدٌ فاجعلْ وُلاةَ العهـد فردا[5]

ثمّ ثنّى العماني بأرجوزة قال فيها :

قُـلْ للإمامِ المُقتَدَى بِأَمِّـهِ ما قاسمٌ دون مَدَى ابنِ أُمِّهِ
قد رضيناه فَقُمْ فسمِّهِ[6]

فجعله ثالثهما ؛ والغرابة في هذه البيعة أن الرشيد الذي كان يخاف البيعة لاثنين ، داوى خوفه

---

1 يصف الرشيد ولديه في هذه الفترة ليحيى بن خالد قائلاً عن المأمون : «أرضى سيرته ، وأحمَدُ طريقه ، وأثق بحسن سياسته وآمن ضعفه ووهنه ، وبنو هاشم يميلون إلى محمّد بأهوائهم وفيه ما فيه من الانقياد لهواه ، والتصرّف مع طوّيته ، والتبذير لما حوته يده ، ومشاركة النساء والإماء في رأيه . .» (مروج الذهب ـ دار الأندلس ـ ج 3 ص352) .

2 ويقول الرشيد : «فإن مِلتُ إلى عبدالله سخطتُ بني هاشم ، وإن افردتُ محمّداً بالأمر لم آمن تخليطه على الرعية» (المصدر نفسه) .

3 مروج الذهب ج 3 ص 352 .

4 يبدو أن المشاورة الأخيرة كانت بين الرشيد ويحيى بن خالد ، حسبما رواه المسعودي . فهو يقول ليحيى في ختام الخبر السابق : «فأشر عليّ ، في هذا الأمر ، برأيك مشورة يعم فضلها ونفعها . . .» . . . «فما زالا في مناجاة ومناظرة طويلة حتى مضى الليل وافترقا على أن عَقَد الأمر لعبدالله بعد محمّد» . (المصدر السابق ص 353) .

5 تاريخ الطبري ج 8 ص 276 .

6 تاريخ الطبري ج 8 ص 362 والأغاني ج 18 ص 235 والعمدة ج 1 ص 31 .

ببيعة ثالثة . ولعلّ البيعة كانت شكليّة ، لذلك لم يهتم الرشيد كثيراً بعقدها ولم يهتم برفضها ، حتى أن جائزة العماني المطالِب بها لم يدفعها الرشيد بل أحاله على القاسم[1] . وقد يكون للفضل بن الربيع دور في ذلك ، كما يُشتم من خبر الأغاني[2] ، لأن الفضل بن يحيى كان وراء الأمين ، وجعفر بن يحيى وراء المأمون[3] وكلاهما برمكيّان أعجميّان فتكون البيعة للقاسم التي طالب بها عبد الملك بن صالح العبّاسي ترضي الفضل بن الربيع ممثل الجناح العربي في البلاط ، وبذلك يعود نوع من التوازن إلى القوى النافذة وراء الحجب . . . أما الحجج التي وردت في الحض على البيعة الثالثة فهي من أوهى ما عرف العقل . فحجة عبدالملك أن الله عدد فرد ، فالعدد الفرد إذن هو مقياس السعد . فإذا أراد لولاية العهد النجاح أضاف القاسم إلى الأمين والمأمون فصار عدد ولاة العهد فرداً . أما حجة العماني فهي أن القاسم ليس دون أخويه فلماذا لا يكون له ما كان لهما طالما أن الذين رضوا بولايتي العهد السابقتين موافقون على الثالثة ، وهم بانتظار كلمة تصدر عن الخليفة بتسميته ؟ ومع سطحية هذه الحجج ، تمّت البيعة للقاسم[4] .

أرجوزة العماني الرائية

وقبل الانتقال إلى نقطة جديدة نتوقّف عند أرجوزة العماني الرائية في الحض على البيعة للأمين . فهي في رأينا ، أثر أدبي نموذجي من أدب المناسبات ومناسبة البيعة بالذات ، تتميّز بالنفَس الطويل والإحاطة بالظروف والملابسات ، تتناول المقدمات والإشاعات والأقاويل وبعض الملامح الحضارية ، تفنّد وتحاول الإقناع بطريقة شعرية لا جدلية . والذي يهمنّا منها هو استقراء الملامح العامة والخاصة لبيعة الأمين ، سعياً منّا إلى الربط بين الأدب والمناسبة ، في حديثنا عن أدب المناسبات ،

---

1 يذكر الطبري في نهاية الخبر أن الرشيد قال للقاسم : «إن هذا الشيخ قد دعا إلى عقد البيعة لك . فأجزل له العطية . فقال : حكم أمير المؤمنين . قال : وما أنا وذاك ؟» الطبري ج 8 ص 362 . والمصدران الآخران .

2 يذكر الأصفهاني في بدء الخبر أن العماني دخل إلى الرشيد خلف الفضل بن الربيع .

3 يذهب الجهشياري إلى أن جعفر بن يحيى هو الذي أشار على الرشيد بالبيعة للمأمون فاستجاب له (الوزراء والكتّاب ص 211 و292) .

4 يمكن أن نجد حافزاً خفيًّا قد يكون وراء سهولة قبول الرشيد البيعة للقاسم ، السهولة التي تدل على تهيّؤ نفسي لها عنده . وهذا الحافز نتنسّمه من نص البيعة الثانية التي تمّت قبل ذلك بست سنوات . فقد جاء في شرط عبدالله لمحمّد : «وإن أراد محمد بن أمير المؤمنين أن يولي رجلاً من ولده العهد من بعدي ، فذلك له ما وفى بما جعل لي أمير المؤمنين هارون . . . ولا أقدّم قبله أحداً من ولدي ولا قريباً ولا بعيداً من النساء أجمعين ، إلاّ أن يولي هارون أمير المؤمنين أحداً من ولده العهد بعدي فيلزمني ومحمّداً الوفاء بذلك . . .» . (اليعقوبي ج 2 ص 420) ولا شكّ في أن هذا الشرط دقيق وصعب التنفيذ وكافٍ وحده لذّر الخلاف بين الأخوين فيما لو انتفت سائر الأسباب . فتكون البيعة للقاسم جاءت تصحيحاً يضع حدًّا لهذه الفقرة ويسحب الحق الذي أعطي لمحمّد دون أن يلزم عبدالله إلزاماً مبرماً .

1 ـ وأول الملامح الواقعية التي تطالعنا بها الأرجوزة هو الإشاعة : إشاعة ذهبت في كل اتجاه ، انتقلت على جميع الأفواه ، لا فرق في ذلك بين المشرّق والمغرّب ، بين مؤيّد هذا الاتجاه أو ذاك : حملها الكوفي ، كما حملها البصري ، علت النجاد وغوّرت في الأودية حتى باتت أكثر من إشاعة ، باتت خبراً حقيقياً واضحاً ينقله راويه مؤكداً لا متسائلاً شاكاً ، إلى أن وصلت إلى العماني . ولا بدّ هنا من الإشارة إلى هذه اللفتة النادرة في شعر العماني وفي أدب البلاط ، تصوّر ظاهرة تتعلّق بالعامة حين تتحدّث عن الخاصة . ولا شكّ في أن كل إشاعة يضخّمها التناقل ، لكن لا بد لها من أن تقوم على أساس . والأساس هنا هو عزم الرشيد على البيعة لابنه محمّد . ولم تكن الإشاعة لتسري لو لم تظهر بوادر ومؤشرات تتمثّل في قلق الرشيد وكثرة استشاراته وبعض تلميحاته إلى جلسائه ، كما تتمثّل فيما يتسرّب من القيّمين على أخذ البيعة المهتمّين بتحقيقها ، الذين يهمّهم أن تسري الإشاعة ليعرفوا ردّة الفعل عند الناس ومدى تقبّلهم الخبر . وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من أن الحض على البيعة في أدب البلاط هو الخطوة الأخيرة في مشروعها ، لا الخطوة الأولى . أما كيف تلقّى العماني الإشاعة ؟ فما يقوله يبرز طبيعة التكسّب الكامنة في نفسه والتي كان يشركه فيها معظم روّاد البلاط : لقد تلقّى الإشاعة فلم تحمل إليه جديداً ، وتوجّه إلى الناس أن يوقفوا لهجهم بها كأنها شيء غريب نادر التحقيق صعب الحصول[1] : إنّ ما يراه الآخرون إشاعة ، وإنْ قويّة ، هو بالنسبة إليه حقيقة اطّلع عليها في كتب النبوءات[2] .

2 ـ و**كتب النبوءات** هي ثاني الملامح التي ينقلها إلينا العماني عن ثقافة العصر ومعتقداته . فذكرها يتردد في كتب الأدب والتاريخ ، ينقل مافيها دون تشكيك[3] ، وكان الجميع يؤمنون به ،

---

1 مطلع أرجوزة العماني هو التالي :

لمّـــا أتانـا خبـرٌ مُشَهَّـرُ	أغرُّ لا يَخفـى عـلى مـن يُبصرُ
جــاء بـه الكــوفيُّ والمُبصِّـرُ	والراكــبُ المُنْجِـدُ والمُغوِّرُ
يُخبِّرُ النـاسَ ولا يَستخبرُ	قلتُ لأصحابي ، ووجهي مُسفِرُ ،
وللرجالِ : حسبُكم لا تُكثِروا	فــاز بهـا محمّــدٌ فأقصِروا

2 يتبع ذلك : قـد كان هـذا ، قبـل هذا ، يُذكـرُ — في كُتُبِ العلمِ التي تُسَطَّرُ

3 إن الإيمان بكتابات مسطورة تتنبأ بالغيب وبأحداث جسام تحصل في المستقبل وتعطي لها أمارات وإشارات ، إيمان قديم جداً . وظهور الرسل كان دائماً يسبقه في الأخبار ، نبوءات تعتمد ملامح معيّنة تبشّر بهم وتشير إليهم . ولا شك في أن هذا الإيمان من رواسب الاعتقاد بنبوءات الكهّان والعرّافين . لذلك كانت كتب النبوءات ، حين يأتي ذكرها ، تظهر غالباً في حوزة قيّمين على المعابد الدينية والرهبان المتنسّكين . فالمعروف أن ظهور محمد عليه الصلاة والسلام كان متوقّعاً ، حسب معظم رواة السيرة ، حيكت حوله نبوءات أشهرها تلك المتعلقة بالراهب بحيرا الذي كان ، كما يحدّثنا ابن الأثير ، ينزل بصرى من أرض الشام «في صومعة له . وكان ذا علم في النصرانية . ولم يزل بتلك الصومعة راهب يصير إليه علمهم وبها **كتاب** يتوارثونه . . .» (الكامل في التاريخ ج 2 ص 23) وتُروى في ذلك أبيات عن لسان أبي طالب منها :

خصوصاً فيما يتعلق بالخلفاء ، حتى ليظنّ القارىء أن اسم كل خليفة وصفاته مكتوبة في كتب النبوءات ومسطور معها مدّة خلافته . على هذه الكتب ، يعتمد العماني ليضع حدًّا للإشاعة ويوقف متناقليها ويشير بيده إلى محمّد على أنه الفائز حكماً بولاية العهد . ونفهم من هنا أن الإشاعة كانت تسري بعزم الخليفة على البيعة لولي عهد له ، إنما كانت تتردّد عدة أسماء قد يكون بعضها من أقربائه البالغين (وهذا يفسّر ما سيأتي في القصيدة من تحذير العماني الرشيد تولية العهد غير الأولاد من صلبه) وبعضها يتردّد بين هذا الولد أو ذاك من أبناء الرشيد ؛ ولولا هذا الغموض لما كان لنبوءة النعماني أي أثر مهم .

3 ـ ويهتم العماني ، في هذه الأرجوزة ، بإعطائنا لمحة إنسانية أخرى تبرز علاقة الوضع السياسي بالوضع الاقتصادي . فالناس قد ألفت الثورات والانتفاضات والحروب الداخلية وباتت تتوجّس منها خيفة وشراً . فإذا ما أحسّت باقتراب ريحها جمدت المعاملات التجارية وتبادل البضائع ، وبات الناس يفضّلون المال السهل الحمل على البضائع والعقارات المُربكة والتي تتعرّض للتلف والخراب والسلب أثناء الشغب . ولعلّ حروب الخلافة من مصادر القلاقل الدائمة ، سواء كانت لنقل الخلافة من عائلة إلى أخرى ، كما فعل العبّاسيون ، أو كانت لإزاحة خليفة أو لاغتصاب الحكم كما فعل عبدالله بن علي مع أبي العبّاس ، أو كانت للطموح إلى مركز الحكم كما فعل أبو مسلم ، أو كانت تمرّداً من ولي عهد على إقصائه عن حقه في الخلافة كما جرى لموسى بن

= ألم تعلموا أنّـا وجدنـا محمّـــداً نبيًّا ، كموسى ، خُطَّ في أول الكُتْبِ ؟

(المصدر نفسه ص 62) . وحين يذكر المؤرّخون الأوائل خبر هذه الكتب يفعلون ذلك وكأنها أمر حقيقي واقع . فالزجاجي مثلاً روى حادثة عن عمر بن الخطّاب قادته إلى دير عُدس . فأكرمه صاحب الدير لأنه عرف فيه خليفة المستقبل ، وأخذ منه أماناً لديره استقضاه إياه عند خلافته (أمالي الزجاجي ص 28) . ويبدو أن الإيمان بالنبوءات لم ينقطع في الإسلام ، على رغم تعريض القرآن بالمنجّمين وحصره معرفة الغيب بالله تعالى وحده . ومن الأحداث الكبرى التي سبقتها نبوءات : ولادة الدولة العبّاسية ؛ فيذكر المسعودي أن أعرابية نظرت إلى السفاح و المنصور وعبدالله بن علي وتفرّست فيهم ، ثمّ قالت للمنصور : «والله ليلينّها هذا ، وأشارت إلى السفاح ، ولتخلفنّه أنت ، وليخرجنّ عليك هذا ، وأشارت إلى عبدالله بن علي» . (مروج الذهب ، دار الأندلس ، ج 3 ص 252) كذلك يروي أن نهاية مروان بن محمد كانت معروفة (أي في الكتب) وأنه يقتل على يد «عين بعين» فينطبق ذلك على عبدالله بن علي . (المصدر نفسه ص 260) ويشير الطبري في أخبار المهدي إلى كتاب النبوءات فيروي في حوادث عام 163هـ عن أبي بديل قوله : جئت الربيع الحاجب والحسن الحاجب «وعندهما رجل فقالا لي : هذا غلام الغمر بن يزيد ، وقد أصبنا معه كتاب الدولة . قال ، ففتحت الكتاب فنظرت فيه إلى سني المهدي ، فإذا هي عشر سنين» . (تاريخ الطبري ج 8 ص146) (وراجع مقدمة ابن خلدون في كتاب الجفر الذي ألفه الكِندي منجم الرشيد والمأمون وأسماه الشيعة بهذا الاسم ـ ج 2 ص 772) ومن الطبيعي أن هذه النبوءات سُجّلت بعد وقوع أحداثها ، فلا سبيل إلى التوقّف عند مدى صحّتها .

عيسى وعيسى بن موسى وغيرهما . كل هذا كان مثاراً للمخاوف مولداً للجمود والتحفّظ . أما ما أخاف الناس في فترة ما قبل الإشاعة فهو عدم وجود ولي عهد للرشيد ، وهذا معناه أن وفاته المفاجئة ، إذا حصلت ، تفتح الباب على مصراعيه لاقتتال لا هوادة فيه بين الهاشميّين أنفسهم أو بينهم وبين العلويّين ، الثائرين الدائمين على كل خليفة ، أو بينهم وبين فئات أخرى غير متوقّعة . ويصوّر العماني الناس كأنها ترى المستقبل المرعب بأم العين وتلمسه باليد وتتمنّى على الرشيد أن يطْلع عليها بولي لعهده ، أي ولي عهد يملأ المكان الشاغر ويُسكت الأطماع . والعماني يستغل المناسبة ليحمل البشرى إلى الملأ ، ليهنّيء بتمام الأمر المنتظر ، وليطمئن النفوس القلقة ملتفتاً إلى كل تاجر أوقف تجارته يحضّه على إعادة مبادراته ، على السفر في سبيل الرزق والعودة إلى البيع والشراء ، مؤكّداً أن الحق وُضع في نصابه والعدل سيستمر في انتشاره ، أما السيف الذي كان يلتمع نصله فسيبقى في غمده : إن الله «قدّر ولطف» وكفى الناس شر الفتنة[1] .

4 ـ وقناعة العماني بتمام الأمر لمحمّد لم تمنعه من الاعتراف بأن الأمر لم يتم بعد وأن من واجبه الحض عليه والتغلّب على تردّد الرشيد بشأنه . وهو يفعل ذلك على خطوط أربعة :

الخط الأول : يشير فيه إلى التردّد ومساوئه وإلى ضرورة الجرأة والإقدام في اتخاذ القرارات ، والجرأة هذه أمر متوقّع من الرشيد ، يجب أن تكون لديه إرثاً من آبائه وأجداده لأنها من أهم شعائر الخلفاء العبّاسيّين . فهم لم يقصّروا في أمر ، وأقدموا حين اقتنعوا فكسبوا الملك وأمسكوا زمامه بيدهم الحديدية يعيّنون ويصرفون ، لا يشاركهم في ذلك مشارك[2] . ويبيّن العماني حاجة الرعية إلى الراعي الحازم . فهي قطيع أغنام مستكين يهم به الذئب كل حين إذا لم يكلأه الراعي بالحيطة والحذر[3] . ثمّ يصعّد العماني لهجة طلبه فيحوّلها إلى رجاء بل استعطاف يسوقه إليه باسم الأمة ألاّ يبخل عليها بتحقيق طلبها وألا يُغمض عينيه عما ترى فيه خيرها[4] . ثمّ يتابع التصعيد في

---

1 فَقُـلْ لِمَـنْ كانَ قديمـاً يَتجَـرُ : قـد نُشِرَ العَدْلُ فبيعوا واشتروا
وشَرِّقــوا وغَرِّبــوا وبَشِّروا قـد كفى اللهُ ، الذي يُستَقدَرُ ،
بِمَنِّهِ ، أفعالَ مـا قـد يُحـذَر والسيفُ غنيّ ، مُغمَّدٌ ، ما يُشهَرُ
(الأغاني ج 18 ص 232) .

2 إن بنــي العبّـاس لم يُقصِّـروا إذ نهضوا لملكهـم فشمّروا
وعَقَــدوا ونَزَعـوا وأمَّـروا ودَبَّروا فأحكمـوا مـا دبّروا
وأوردوا بـالحَزم ثـم أصدروا والحـزمُ رأيٌ مثلُـه لا يُنكَرُ

3 مــا النــاسُ إلاّ غنــمٌ تَنَشَّرُ إن لم تداركْهـم براعٍ يَخطِرُ
عـلى قواصي طُرْقِهـا ويَسترُ ويمنـعُ الذئـبَ فـلا يُنفِّرُ

4 فامنــن علينــا بيــدٍ لا تَكفُـرُ مشهورةٍ مــا دام زيتٌ يُعصَرُ
وانظر لنا وخلِّ من لا ينظُرُ واجسُر كما كان أبـوك يَجسُرُ

لهجة الطلب حتى يقارب العتاب واللوم . فالبيعة التي يعتقد العماني جازماً أنها تمّت وانتهت ، والتي يكتمها الرشيد ، هي بيعة ناقصة : فلا خير في بيعة تخفيها الصدور ولا تلفظها الشفاه عالياً ، لأن البيعة مصلحة عامة وليست مصلحة خاصة للرشيد ، فالناس ينتظرونها انتظار الأرض العطشى لقطرات الغيث . وهم في انتظارهم ، يستبدّ بهم القلق ويضجرون من الترقّب ، يسهرون الليل يفكّرون في المستقبل الغامض بينما الرشيد الذي ارتاح باله لقراره واطمأنّ إلى غده ، يرقد هانئاً مرتاح الضمير[1] . وكأن العماني أراد بهذا اللوم الموجّه إلى الرشيد أن ينهي إيضاح الفكرة التي حاول ترسيخها : وهي أن البيعة للأمين مطلب ، بل رجاء ، بل حاجة ملحّة للناس جميعاً ، بل هي رحمة لهم يصلّون إلى الله ليتمّها عليهم . وبذلك يرفع عن كاهل الخليفة أحد الهموم التي كانت تعذّبه وتسبّب تردّده وهو تحمّل وزر ولاية عهد لطفل ، لأول مرّة في الإسلام . . . **والخط الثاني** الذي سار فيه العماني هو مدح محمّد والحديث عن صفاته التي تؤهله للمنصب الكبير المرتقب . فهو صبوح الوجه ، وهذه صفة تجعله قريباً إلى القلوب . ولعلّها دليل رضى الخالق الذي ، إذا أحبّ عبداً ، حبّب به عباده . فوجهُه المشرق يُستمطَر به الغيث في أعوام القحط والجدب . والناس قد ارتضته أميراً عليها . وكأن العماني يرى البيعة وقد تمّت وأعلنت ، فعَلا البشرُ الوجوه وراحت الألسن تلهج بشكر الله على إلهامه الخليفة هذا الاختيار الذي يثبّت دعائم المملكة ويطيل عمرها[2] . أما **الخط الثالث** الذي أنتهجه العماني فهو الإشارة إلى الطامعين ، الذئاب المتربصة بالقطيع ، والذين لا يحد مطامعهم إلاّ الرشيد بإرادته وسطوته . هؤلاء الطامعون هم الذين يضغطون على الرشيد لجعله يتردّد . فلماذا يصغي إليهم ويهتمّ لرأيهم ؟ ولو وازنّا بين ترك الفتنة تستعر فيقتتل المسلمون فيما بينهم قتالاً مريراً ، قتال أبناء العقيدة الواحدة الذي يؤدي حتماً إلى الخراب والدمار وتشتّت الكلمة وإلى إضعاف الدين ، وتلك جريمة يُسألون عنها ووزرٌ

---

1 لا خير في مُجَمْجَمٍ لا يظهرُ ... ولا كتابِ بيَعةٍ لا يُنشَرُ
وقد تربّصتَ فليس . . . . تُعذَرُ ... فليتَ شِعري ما الذي تَنتظِرُ
أنائمٌ أنت به أم تَسهرُ ؟ ... ما لك في محمّدٍ لا تَقدِرُ ؟
وليت شعري ، والحديثُ يؤثَر ، ... أترقُدُ الليلَ ونحنُ نسهر ،
خوفاً على أمورِنا ونَضجَرُ ؟

2 وقُلِّدَ الأمرَ الأغرُّ الأزهرُ ... نَوْءُ السِماكين ، الذي يُستمطرُ
بوجههِ ، إن كان عامٌ أغبرُ ، ... سُرّت به أسِرّةٌ ومِنبرُ
وابتهج الناس به واستبشروا ... وهلّلوا لربّهم وكبّروا
شُكراً ، ومِنْ حقهمْ أن يَشكُروا ... إذ ثُبّتت أوتادُ مُلكٍ يَعمُرُ
من هاشمٍ في حيث طابَ العُنصرُ

لا مهرب لهم من تحمّله ، لو وازنّا بين ذلك والمقابل له : أن يعلن الخليفة ابنه محمّداً ولياً لعهده وهو الهاشمي ابن الهاشمي ، فيستلّ من هؤلاء الطامعين أملهم الذي يغذّونه بالوصول إلى الخلافة ، فهل يمكن لنا التردّد في اتخاذ الموقف المناسب ؟ لا شك في أن الخير ، كل الخير أن يُبرم الرشيد خطوته ؛ أما الحاسدون ، أما المعارضون والطامعون فليموتوا بغيظهم[1] . **والخط الرابع** الذي ينتهجه العماني للتغلّب على تردّد الرشيد هو ، من جهة ، تحذيره الحازم والنهائي من التفكير بولي عهد من غير صلبه يسبق أحد أبنائه ، فهذا يكون من باب تحدّي تجربة السلف وحقائق التاريخ بل تجربة الرشيد الشخصية مما لا يحتاج معه إلى لفت نظر إليه وتبصير به . فأي شخص يصل إلى الخلافة ينسى منّة من أوصله ولا يستنكف عن الغدر بأولاد من أوصى له وإزاحتهم عن دربه ، لأن عزة الملك وزهو السلطة يأخذانه ويكون أولُ ما يفكّر به هو نقل السلطة إلى من يقربه من عقبه . فالأمور التي تتعلّق بالملك ، وبالتالي بالسياسة ، أمور لا دخل فيها للعاطفة ولحفظ المودّة والعرفان بالجميل وصلة الرحم ، إنما هي تهدف إلى تحقيق المصلحة الذاتية قبل كل شيء[2] . . . ومن جهة أخرى يحاول العماني أن يهوّن على الخليفة الإقدام على أخذ البيعة لابنه الطفل : إذا كانت الخطوة جديدة فلأن الأوضاع لم تجبر من سبق الرشيدَ على اتخاذها إذ لم يمرّ خليفةٌ قبله بظروف شبيهة بظروفه . أما وأنه يواجه المشكلة فليدرس معطياتها لدى من جرّبها من الشعوب . ها هم الروم ملّكوا صبيًّا عليهم فملك[3] ، ووفوا له بعهودهم فاستمر . وإذا كانت هذه الحال مع أعلاج الروم ، وهم غير العرب المعروفين بالوفاء والتمسّك بالعهود ، وملكهم طفل من طينتهم وعلج من أعلاجهم ، فما بالنا بالمسلمين وبمحمّد طفل أمير المؤمنين ، الرقيق ، اللطيف كبحر صافٍ يغوص أصله فيه إلى أعمق أعماقه لا يكدّره مكدّر ؟ . إن محمّداً ينتمي إلى جوهر نادر من عمق هذا البحر ، فَرْدٍ لا مثيل له ، انشقّ نصفين فكان أحدهما محمد المهدي والد الرشيد والآخر

---

1 وطـاحَ مَـنْ كان عليهـا يَزفُـرُ ... واللهِ واللهِ الـذي يُستغفَـرُ
لأنْ يمـوتَ مَعشرٌ ومَعشرُ ... خيـرٌ لنـا مـن فِتنةٍ تَسَعَّرُ
. . . . يهلِكُ فيهـا دينُهـم ويُوزَروا

2 واعلـم ، وأنـت المرءُ لا يُبَصَّـرُ ... واللهُ يُقيـك لنـا ، وتَجبِرُ
منا ذوي العُسرةِ حتى يوسروا ، ... إنَّ الرجال ، إن وَلَوها ، آثروا
ذوي القَراباتِ بها واستأثروا ... بها وضَلَّ أمرُهمْ واستكْبَروا
والمُلك ، لا رِحْـمٌ لـه فيَأصِرُ ... ذا رَحِـمٍ ، والناسُ قد تَغيّروا

3 يشير إلى قسطنطين السادس ابن ليو الرابع وإيرين الذي عمد والده إلى تتويجه وعمره خمس سنين ثم توصل إلى الحكم وعمره عشر سنين . ولم يشر العماني بالطبع إلى الصراع الذي دار بينه وبين والدته ايرين وانتهى بسمل عينيه وانفراد إيرين بالسلطة . لأن ذلك تمّ بعد البيعة للأمين . (الدولة البيزنطية 222 وما بعد) .

جعفر بن أبي جعفر ، والد زبيدة[1] ، يرفده بعد ذلك سلسلة طويلة من الخلفاء الأفذاذ تنتهي به إلى النبي محمد ﷺ[2] . وحين يصل العماني إلى هنا ، ويعتقد أنه بلغ مراده ، وقال ما يجب أن يقوله ، يتوقّف ليسكب النقطة الأخيرة في الأناء المليء ، وهي إيهام الرشيد بأن الأخطار التي تحدّث عنها ليست أخطاراً وهميّة أو ادعاءات بعيدة الحدوث ، إنما هي أخطار حقيقية تتجمّع وتزحف متقدّمة منه يوماً بعد يوم . فإذا كان قادراً على أخذ المبادرة اليوم ، ليأخذْها دون تلكّؤ لأن هذا الأمر لا يؤخّر ، وفي الغد قد لا تسمح له الظروف بإبرامه[3] .

ثانياً : تخوّف الرشيد من البيعة لأولاده

وهذه النقطة دار حولها أيضاً جزء من تأريخ ولاية العهد وأدبها . وأبرز مظهر لهذا التخوّف هو نصوص كتب البيعة التي تشدّد «على الخاصة والعامة ، والشروط لعبدالله على محمد وعليهم»[4] وجعل «الكتابين في البيت الحرام» بعد أخذه البيعة على محمد وأشهاده عليه بها الله وملائكته ومن كان معه في الكعبة من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقوّاده ووزرائه وكتّابه وغيرهم[5] . . . وكانت الشهادة بالبيعة والكتاب في البيت الحرام . وتقدم إلى الحجبة في حفظهما ومنع من أراد إخراجهما والذهاب بهما»[6] . وسبقت الإشارة إلى التفنّن الذي أنتهجه الرشيد في نصّ كتاب البيعة وإلى استنباط أنواع من الأيمان ، إذا حاول المبايع نقضها ، عجز عمليّاً عن التكفير عنها ووجد نفسه يخرج من نفسه وماله وزوجاته وعائلته ودينه وربّه . . . وإلى ذلك أشار إبراهيم الموصلي في قوله :

خيرُ الأمــورِ مَغَبَّــةً وأحَــقُّ أمــرٍ بالتمامِ

---

1 يشير بذلك إلى ما اتفق عليه المؤرّخون من أصالة نسب الأمين الذي يجمع الانتماء الهاشمي في فرعيه : عن أبيه وأمه .

2 وقد وفى القومُ الذيــن نُصِّــروا لصاحــبِ الروم وذاكَ أصغرُ
منــه . وهذا البحرُ لا يُكدَّر وذاكُمُ العِلجُ ، وهذا الجوهرُ
يَنمى بــه مُحمّدٌ وجَعفَــرُ والخُلفــاءُ والنبــيُّ الأكبـرُ
ونبعةٌ من هاشمٍ وعُنصرُ

3 فَنأحكِمِ الأمرَ ، وأنتَ تقدِرُ ، فمثلُ هذا الأمــرِ لا يُؤَخَّــرُ
(القصيدة وردت في الأغاني ج 18 ص 232 و233 و234) .

4 تاريخ الطبري ج8 ص 286 وما بعد حيث نصوص كتب البيعة .

5 قد يعود تشدّد الرشيد في كتب البيعة إلى تخوّفه من خطر أكبر من خطر اختلاف وليّي العهد ، وهو تدخّل فئة ثالثة تحاول الاستفادة من الخلاف أو زرعَه لتضع يدها على السلطة أو تنقلها إلى أياد أخرى . وقد أشار الرشيد إلى هذا الخوف في كتابه إلى العمّال ، بعد إتمام البيعة في الكعبة (المصدر السابق) . ولا نستبعد أن يقصد الرشيد البرامكة بذلك .

6 المصدر نفسه .

أَمـرٌ قضــى إحكامَـهُ الرحمنُ في البيتِ الحَرَامِ[1]

وقد كان تخوّف الرشيد أكبر من أن يطمئنه شعر للموصلي أو لسواه . فقدسية العهد التي يضفيها إبرامه وتعليقه في الكعبة ، ثم استبشار بعض الناس ، لم تُعد الاطمئنان إلى نفس الرشيد ولم تطرد التوجّس المستقر في أعماقها . وأدرك المؤرّخون ذلك فسطروه له في صفحات كتبهم . من ذلك قول الكتبي : «كان الرشيد يعرف ، بالفراسة ، ما يجري بين الأمين والمأمون . فكان ينشد :

محمّــدُ ، لا تُبغِضْ أخــاك فإنّه يعودُ عليكَ البغيُ ، إن كنتَ باغياً
فــلا تعجــلا فالدهرُ فيه كِفايةٌ ، إذا مالَ بالأقوامِ ، لم يُبقِ باقيا»[2]

ويذكر ابن تغري بردي تولية الرشيد للمأمون بعد الأمين ويرى أن «هذا من العجائب لأن الرشيد رأى ما صنع أبوه وجدّه بعيسى بن موسى حتى خلع نفسه من ولاية العهد ، ثمّ ما صنع به أخوه الهادي ليخلع نفسه من العهد ، ولو لم يعاجله الموت لَخلَعه»[3] . وينسب إليه المرزباني أبياتاً معبّرة «بعد ندمه على تقديم الأمين في العهد على المأمون :

لقد بانَ وجهُ الرأيِ لي غيرَ أنني غُلبتُ على الأمرِ الذي كان أجزَما
فكيف يُرَدُّ الدَرُّ في الضَّرعِ بعدما تُوزِّع حتى صارَ نَهْبــاً مُقَسَّما ؟
أخافُ التواءَ الأمرِ ، بعد استوائِهِ ، وأن يُنقَض الحَبلُ الذي كان أُبرِما»[4]

وسواء كانت هذه الأقوال للرشيد بالفعل ، أو أنها نُسبت إليه ، فلا شكّ في أنها كانت تمثّل رأيه ورأي العارفين بخفايا الأمور ورأي الشعراء الذين اشتُهروا ، آنذاك ، بتنسّم رياح الأحداث الخفيّة وصوغها في قصائدهم . فحين يُذكر المأمون يُذكر العقل والخلق الفاضل ، كما يذكر الكرم ومساعدة المحتاج ، فضلاً عن العلم والرأي الصائب والحكم السليم[5] ، بينما

---

1 تاريخ الطبري ج8 ص 286 .

2 فوات الوفيات ج 2 ص 269 .

3 النجوم الزاهرة ج2 ص 98 .

4 معجم الشعراء ص 484 .

5 نجد ذلك كلّه في قصيدة سلم الخاسر اللامية ومنها :

بايَعَ هــارونُ إمـامُ الهدى لذي الحِجـا والخُلُـقِ الفاضِلِ
المُخلِــفِ ، المُتلِفِ أموالَــه والضامــنِ الأثقــالَ للحامِلِ
والعالِــمِ الناقــدِ في عِلْمِهِ والحـاكمِ الفاضِــلِ والعادلِ
والراتِقِ الفاتِــقِ حِلفَ الهـدى والقائلِ الصادقِ والفاعلِ . . . .

(الأبيات) ، (تاريخ الطبري ج 8 ص 276) .

يقترن ذكر الأمين ، بشكل طبيعي ، باللهو والمرح واقتناء السفن المصنوعة على شكل الحيوانات ، من ليث وعقاب ودلفين[1] ؛ هذا ، مع نعته بجمال الوجه[2] ، كما رأينا ، وجمال وجهه فيه سرّ طيشه وغروره بنفسه . . والعواقب الوخيمة لبيعات الرشيد لم تكن لتغيب عن ذهنه طالما هي لم تغب عن ذهن الخاصة والعامة . فالطبري يورد شعراً يسجّل لنا ما دار في تلك الأيام من آراء وما سرى بين الناس من إشاعات وما خامرهم من تخوّف ، حتى بات البعض ينظرون إلى المستقبل بنفس مغمومة وعين دامعة ، ويعدّون العدّة لأيام هائلة تسلب الرقاد من العيون التي ينتظرها ألوان من الكآبة والسهاد : كل ذلك بسبب رأي رآه الخليفة ، وهو شرّ الرأي ، إذ أراد أن يمنع خلاف بنيه فقسم بينهم الملك والبلاد ، وهذا خطأ فادح . لقد قام هكذا بعمل لو أحكم النظر في عواقبه لابيضّ شعر رأسه من هول ما يراه : فهو ، من حيث أراد لهم الوفاق ، غرس بينهم من العداوة ما ينذر بحرب عوان تجرّ الويل والمصائب والفساد والتضعضع . ستجري الدماء بحوراً ويحمل الرشيد ، وحده ، وزر هذا البلاء[3] . . . وإذا كانت هذه الآراء والتوقّعات التي أوردها الطبري جاءت في قصيدة مجهولة النسبة فلأنها رأي عام شائع تبنّته جميع فئات الشعب . . ولا شكّ في أن الرشيد كان ، إبّان هذه الأزمة ، في وضع نفسي يحتاج إلى دواء يخفّف عنه الغمّ ويورثه التفاؤل بالمستقبل ، يؤكد له أن توجّسه هو مجرّد أوهام في غير مكانها ، وأن الجميع يرون ، فيما فعل ، تمام الخير والرشاد . فكانت أشعار امتداح البيعة وأولياء العهد والرشيد .

---

1 نجد هذا في شعر لأبي نواس :

ألا ترى ما أعطيَ الأمينُ ؟	أعطيَ ما لم تَرَهُ العيونُ
ولم تكن تبلُغه الظنونُ :	الليثُ والعُقاب والدلفينُ

(الديوان ص 413) .

2 وهذا أيضاً يظهر في شعر النواسي :

تتيهُ الشمسُ والقمرُ المنيرُ	إذا قلنا كأنّهما الأميرُ
فإن يَكُ أشبها منه قليلاً	فقد أخطاهما شَبَهٌ كثيرٌ . . .

ديوان المعاني ج 1 ص 230 . راجع ص 494 هامش 4 من البحث .

3 القصيدة طويلة نجتزىء منها :

أقولُ لِغُمَّةٍ في النفس مني	ودمعُ العين يَطَّرِدُ اطّرادا
خُذي للهولِ عُدَّتَهُ بحزمٍ	سنلقى ما سيمنَعُكِ الرُقادا
فويلٌ للرعيةِ عن قليلٍ	لقد أهدى لها الكُرَب الشدادا
ستجري من دمائِهِمُ بحُورٌ	زواخرُ لا تَرون لها نَفَادا

الطبري ج 8 ص 277 .

ثالثاً : امتداح الرشيد في خطوات توليته العهد أبناءه

وأول المعاني التي تطالعنا في هذا الموضوع معنى الصواب فيما أقدم عليه الخليفة[1] ، مما يُنتظر له أن يكون بادرة خير يترقّبه الناس ليشبع حاجتهم إلى الاستقرار ، كما تتوقّع المنازلُ المقفرةُ في الصحاري المجدبة ، قطراتِ الغيث . وهذا ما نجده في أبيات سلم الخاسر التي يعلن فيها فرحته واستبشاره بولاية العهد لمحمّد الأمين[2] . . وثاني المعاني المهمة التي ركّز عليها الشعراء ، وصف خطوة الرشيد في البيعة بعمل رعاية لمصالح الناس ورأفة بهم ورحمة . فهو ، لشدّة اهتمامه بالرعية وسهره على سعادتها ورفاهها ، قرّر عقد البيعة واختار أولاده لولاية العهد ، وهم المتميّزون ، المصوغون من معدن نادر . وليس هدف الرشيد طلب عرَض من أعراض الدنيا ، إنما هو ، على العكس ، يفعل ذلك زهداً بهذه الفانية وحفظاً لغد الأمة من الاضطراب بعده[3] ، لأنه ، بلا شك ، زائل ككل حي آخر . والرشيد ، كمسؤول يؤمّن عزة الإسلام في حياته بما يتكبّده من مشاق ويقوده من حروب ، من واجبه أن يدفع الشر والأذى عنه في الغد ويؤمّن اتحاد الكلمة ودوام الازدهار[4] . وحول المعنى نفسه تدور أبيات عبدالملك بن صالح الذي توجّه ، بعد أن حصل على

---

1 يقول سلم الخاسر في بيعة الأمين :

وليّتَــه عهدَ الأنــام وأمرَهم فدمغتَ بالمعروفِ رأسَ المُنكَرِ

(تاريخ بغداد ج 9 ص 138 والطبري ج8 ص 240 ومعاهد التنصيص ج 4 ص 43) وفي البيعة نفسها يقول أبان اللاحقي :

عزمتَ أميرَ المؤمنــين على الرُشدِ برأيِ هدىً ، فالحمدُ للهِ ذي الحمدِ

(تاريخ الطبري ج 8 ص 241) .

ويقول أشجع السلمي في البيعة للمأمون :

بيعــةُ المأمــونِ آخذةٌ بِعِنــان الحــقِ في أُفقِــهْ

(الأغاني ج 18 ص 128) .

ويعود سلم الخاسر ليقول في بيعة المأمون :

فتَــمَّ بالمأمونِ نــورُ الهــدى وانكشفَ الجهلُ عن الجاهلِ

(تاريخ الطبري ج 8 ص 276) .

2 وذلك في مطلع قصيدة سلم الرائية :

قلْ للمنازلِ في الكثيبِ الأعفرِ سُقيتِ بغاديةِ السحابِ المُمطِرِ

(تاريخ بغداد ج 9 ص 138) .

3 يؤكّد الرشيد هذه المعاني في كتابه للعمّال إثر الفراغ من البيعة (انظر الطبري ج 8 ص 286) .

4 يطالعنا ذلك في أبيات أبي العتاهية :

رحلتُ على الرَّبْعِ المُحيلِ قَعودي إلى ذي زُحوفٍ جَمَّــةٍ وجنودِ

ولاية العهد للقاسم ، إلى هارون شاكراً له قبوله تولية لعهد الأمين والمأمون والمؤتمن رأفة منه بالناس[1] . . وثالث المعاني إشراك القدرة الإلهيّة والسماء والأرض والإنس والجن في إقرار هذه البيعة وإبرامها ، ومن ثمّ الفرح بها والاستبشار[2] . وتأتي قمّة التصعيد في هذا الاتجاه مع أبيات عبدالملك بن صالح الذي يركّز على الحق الإلهي : على إرادة الله التي تتجلّى في أعمال الخليفة ، وطاعة الله التي تتم من خلال طاعة أمير المؤمنين : فهو لا يمكن أن يريد للناس ما لا يرتضيه لهم خالقهم ، وهم لايمكن أن يطيعوا ربّهم إذا خرجوا على هارون[3] . . . وعلى هامش هذه المعاني المستمدة من فلسفة البيعة ، معنى أشار إليه الشعراء وقد التقطوه من إطار البيعة : فالرشيد أحكمها في بيت الله . وهذا يعطيها صفة القدسيّة فلا يجرؤ أحد على إنكارها ، فكيف بنقضها ؟ وكأن تناول هذا المعنى بالذات أشبَهَ مسحَ البلسم على جرح دائم النزف ، وهو محاولة لإدخال الأمان إلى نفس الرشيد التي لم تعرف الهدوء والاستقرار لشدّة قلقها[4] . . أخيراً ، جرياً على العادة حين يتحدث الشعراء إلى الرشيد عن أعماله ، لا بدّ من معنى التفاؤل وذكر البركة وجعلها تقترن بمبادرة الخليفة . وهذا التفاؤل موجّه إلى الرشيد ، ليطمئنّ ، وإلى الرعية لتشعر بالمنة الكبيرة له عليها لرعايته

= وراعٍ يُراعي الليلَ في حِفظِ أُمَّةٍ ... يُدافِع عنها الشرَّ غيرَ رَقُودِ
تجافى عن الدنيا وأيْقَنَ أنها ... مُفارَقَةٌ ليست بِدارِ خُلودِ
وَشَدَّ عُرى الإسلام منه بفتيةٍ ... ثلاثةِ أملاكٍ وُلاةِ عُهودِ

(الأغاني ج 4 ص 106) .

1 راجع أبيات عبدالملك بن صالح .

2 يشير سلم الخاسر ، في بيعة الأمين ، إلى إرادة الله لهذه البيعة التي حظيت بموافقة الإنس والجن فيقول :

قد وَفَّقَ اللهُ الخليفةَ إذ بنى ... بيتَ الخليفة للهجانِ الأزهرِ
قد بايعَ الثَقَلانِ في مَهدِ الهُدى ... لِمُحمّدِ بنِ زبيدَةَ ابنةِ جعفرِ

(الطبري ج 8 ص 240) .

3 يقول عبدالملك بن صالح بعد إتمام البيعة الثالثة :

حُبّ الخليفةِ حُبٌّ لا يَدينُ به ... مَنْ كان للهِ عاصٍ يعمل الفِتَنَا
اللهُ قلّدَ هاروناً سياستنا ... لَمّا اصطفاهُ فأحيا الدينَ والسُنَنا
وقلّد الأرضَ هارونٌ ، لرأفتِهِ ... بنا ، أميناً ومأموناً ومؤتَمَنا

(تاريخ الطبري ج 8 ص 276 وتاريخ الخلفاء ص 290) .

4 يقول أشجع السلمي عن البيعة للمأون :

أحكمتَ مُرّانَها عُقَداً ... تمنعُ المُختالَ في نَفَقِهْ
لن يَفُكَّ المرءُ رِبقَتَها ... أو يفكَّ الدينَ من عُنُقِهْ

(الأغاني ج 18 ص 158) وراجع بيتي الموصلي في المعنى نفسه ص 489 من البحث .

مصالحها . ويتولى أبو العتاهية شرح أسباب تفاؤله فإذا هي تتلخّص بأنه عرض في ذهنه جدود الرشيد وتوصّل إلى أنهم جميعاً كانوا مصدر خير يعمّ الأمة ، كانوا كالشمس والنجوم تتراءى في سعد السعود . والرشيد فرع من هذه الشجرة المباركة ، وأولياء عهده فروع منها كذلك ، فهم لا يمكن إلاّ أن يكونوا مصدر خير ويمن للإسلام[1] . هكذا أخذ الشعراء والخطباء على عاتقهم تغطية الأخطاء وإبراز حسنات القرار . وقد تسابقوا في ذلك مزيّنين للرشيد أن يفعل ما ينوي فعله ، ممكّنين الحاكم المطلق من أن يمارس الحكم المطلق دون تردّد أو تخوّف . وجرياً على عادة شعر التكسّب ، لا يدع الشاعر مناسبة تمرّ دون بث الإطراء في ثنايا شعره . والمديح ، في هذه المناسبة ، يُوزَّع بين الرشيد وأولاده ويبادَل بينهم ، فتارة يُمدح بهم ، وطوراً يُمدحون به ، ومرّة ثالثة يُمدحون جميعاً بجدودهم ، كما مرّ بنا . فأشجع يمدح المأمون بأنه صورة طبق الأصل عن والده الرشيد في هيئته وفي أخلاقه[2] . وفي المأمون يمدح سلم صفاتٍ نموذجية مختارة ويميّزه بانتمائه إلى بني العبّاس وبأنه خيرهم للناس وذوي الحاجات ، يلطفُ بهم أثناء مصائبهم ، وينقلب حازماً صارماً إذا اعترضه الباطل والظلم ، وهو بذلك أفضل مثل لصفات جدّه المنصور[3] . أما أبو نواس فقد خَصَّ بالأمين ، أحب فيه جمالَه ومدَحَه به ، فهو جمال تتمنّاه الشمس ويتمنّاه القمر ولا يصلان إليه لأن جماله ثابت ليل نهار بينما نور الشمس يختفي في الليل وقرص القمر يتناقص مع الأيام[4] . كما يمدحه بالندرة

---

1 يتابع أبو العتاهية قصيدته المشار إليها في الصفحة السابقة .

هُمْ خيرُ أولادٍ ، لهم خيرُ والدٍ ... لهُ خيرُ آباءٍ مضَتْ وجدودِ
جدودهُمُ شمسٌ أَتَتْ في أَهِلَّةٍ ... تَبَدَّتْ لِراءٍ في نجومِ سُعودِ

(المصدر نفسه ج 4 ص 106) .

2 يورد الأصفهاني أبياتاً لأشجع في بيعة المأمون آخرها :

ولــه من وجــه والدِهِ ... صورةٌ تمّت ، ومن خُلُقه

(الأغاني ج 18 ص 158) .

3 يذكر الطبري قصيدة سلم الخاسر في بيعة الأمين ومنها :

لِخيرِ عبّــاسٍ إذا حُصِّلوا ... والمُفضلِ المُجدي على العائلِ
أَبرِّهــمْ بِــرًّا وأولاهُــمُ ... بالعُرف عنــد الحَدَثِ النازلِ
لِمُشبهِ المنصورِ في مُلْكــهِ ... إذا تَدَجَّــتْ ظلمــةُ الباطلِ

(الطبري ج 8 ص 276) .

4 سبقت لنا إشارة إلى بيتي أبي نواس وفيما يلي الأبيات التي ذكرها العسكري جميعها :

تتيه الشمسُ والقمـرُ المنيرُ ... إذا قُلنـــا كأنّهمـــا الأميرُ
فإنْ يَكُ أشبها منــه قليلاً ... فقد أخطاهمــا شَبَــهٌ كثيرُ
لأن الشمسَ تَغربُ حين تُمسي ... وأنَّ البــدرَ يُنقِصُهُ المسيرُ

التي تجعله وحيد عصره وزمانه ، بل وحيد الكون مذ وجد : ليس له شبيه يدانيه إذا استثنينا النبي ﷺ جدّه والرشيد أباه[1] . يشدّد أبو نواس على هذا المعنى جاعلاً إياه مظهراً لإرادة الله يتجلى فيه حسن تدبيره وإنعامه على خلقه بخليفة هو الرشيد ليس كمثله خليفة ، أب لنجوم ثلاثة أمناء : الأمين والمأمون والمؤتمن ، هم أولياء عهد وليس كمثلهم أولياء عهد[2] . وهناك صورة استهوت غير شاعر فتصدّى لرسمها : صورة الرشيد بين أولياء عهده ؛ فقد وجدوا فيها معالم ولا أجمل : شكلاً وأصلاً وخلقاً ، يتفاءل رائيها بخير يبشّر به مستقبل مشرق . هذه الصورة يراها الشاعر الحضري فينقلها على طريقة أهل الحضر : الملك في إيوانه ، يشد عضده أهل بيته ، وخيرُهم بنوه ، يلتفّون حوله قياماً وقعوداً ، يتيه بهم فخراً وينقّل أبصاره بينهم فيخشعون بأنظارهم لهيبته ويغضّون الطرف حياء منه : ذاك بسبب التهذيب ، لا الجبن والخوف ، لأن قلوبهم ، في عزمها وصلابتها ، قلوب الليوث الضواري[3] . والصورة نفسها يراها الأعرابي فيجد فيها رمزاً للوحدة والتكامل يقابل رمز البيت ، أي الخيمة ، بالنسبة إلى البادية . فالخيمة يعود تكاملها إلى تماسك أجزائها : عمود في الوسط يرفعها ، وطُنْبان أو أكثر إلى الجانبين ينشرانها . هكذا هو الرشيد بين ولديه : عائلة موحّدة متماسكة يرفعها الخليفة وينشرها الأمين والمأمون[4] . . . وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال : أين ومتى قيلت هذه الأشعار ؟

= ونـورُ مُحمّدٍ أبـداً تمـامٌ ... على وَضَح الطريقة لا يَحورُ

(ديوان المعاني ج 1 ص 230) .

1 جاء في قصيدة أبي نواس «ولي عهد ما له قرين» :

وليٌّ عهدٍ مـا لَـهُ قَرينُ ... ولا لَـهُ شَبَـهٌ ولا خَدينُ

أستغفرُ اللهَ ، بـلى هارونُ ... يا خيرَ من كانَ ومن يكونُ

إلاّ النبـيُّ الطاهرُ الميمونُ ... ذَلَّت بكَ الدنيا ، وعَزَّ الدينُ

(الديوان ص 413) .

2 قصيدة «أبو الأمناء» التي قالها أبو نواس في الرشيد مشهورة جدًّا ، ومن أبياتها :

تَبـارَكَ من ساسَ الأمورَ بعلمِهِ ... وفَضَّـلَ هارونـاً عـلى الخُلَفاءِ

نعيشُ بخيرٍ ، ما انطوينا على التُقى ، ... ومـا ساسَ دنيانـا أبـو الأُمَناءِ

(الديوان ص 402) .

3 في قصيدة أبي العتاهية الدالية ، ذكرنا أبياتاً منها البيتان التاليان :

بنو المصطفى هارونَ حـولَ سريره ... فخيـرُ قيـامٍ حولَـه وقُعـودِ

يُقلِّبَ ألحـاظَ المهابـةِ بينهـم ، ... عيونُ ظِبـاءٍ في قُلـوبِ أسودِ

الأغاني ج 4 ص 106 وديوان المعاني ج 1 ص 20 .

4 يقول إعرابي من باهلة :

بَنَيْتَ بعبدِاللهِ ، بعـدَ مُحمّدٍ ... ذُرى قُبَّةِ الإسلام فاخْضرَّ عودُها

والجواب أن بعضها قيل ، بلا شك ، في احتفالات البيعة التي كانت تمتد وتطول ، وقد اقترنت بإشارات إلى ذلك[1] . إلاّ أن هذه الاحتفالات ، مهما طالت ، لا بدّ لها من أن تنتهي ، بينما ولاية العهد قائمة مستمرة يهتم الرشيد بترسيخها في النفوس وإقناع من لم يقتنع بصلاحها . لذلك نراه لا يألو جهداً في إبراز وليي العهد للناس ، ويستدرج الشعراء والخطباء إلى وصفهما وتقريظهما[2] . فمرة يطلب إلى الكسائي مؤدب الأمين تحفيظه خطبة يتلوها يوم الجمعة ، فينطلق الشعراء مظهرين الفرح والنشوة ، مطبّلين مزمّرين للحدث الفذ ، محاولين التدليل بهذه اللمحة على التفاؤل الذي يلف المستقبل بوجود ولي للعهد أثبت أنه عند حسن الظن به وعلى مستوى ما يُنتظر له من حمل أعباء الحكم . ويتوجّه أبو العتاهية إلى الناس يحضّهم على التفكير في أمور دينهم والتشبّث بتعاليمه وشكرالله على ما قيّض لهم من خطيب قام فيهم منذراً ناصحاً ؛ وتلك ، في رأي أبي العتاهية ، نعمة كبيرة ، بل فاتحة نعم كثيرة وخيرات يستحق عليها الشكر والإطراء[3] . وما قاله أبو العتاهية عن الأمين الخطيب قال اليزيدي مثله ، بل أكثر منه بكثير عن أخيه المأمون إذ أطال الحديث عن صفات المأمون الإنسان وصفات المأمون الخطيب . فهو كإنسان ، حازم ثابت الجنان في الخطوب ، شأن والده ؛ فالولد سرّ أبيه وطيب الأصل أساس لطيب الأغصان والفروع . أما حسن تصرفه في كل ما يوكل إليه من أعمال فدليل على صواب رأي والده في اختياره وليّا للعهد . . . وهو ، كخطيب ، يتمتّع بجميع ميزات هذه الصفة : رباطة في الجأش حين تتركّز عليه الأنظار ، قول مدهش يأسر

= هما طُنُباها ، بـارِكَ اللهُ فيهمـــا ، وأنـــتَ ، أميرَ المؤمنين ، عَمودُها

(طبقات ابن المعتز ص 149 وتاريخ الطبري ج 8 ص 363 وزهر الآداب ج 4 ص 1045) .

1 من بعض الأخبار نستدل على أن أحد مظاهر البيعة أن يقول المبايع في المناسبة قولاً محضَّراً أو مرتجلاً ، أو يستشهد بشعر ينطبق على هذه المناسبة . فيذكر الطبري أنه عندما «بايع الرشيدُ لولده ، كان فيمن بايع عبدالله بن مصعب الزبيري فلمّا قدم ليبايع قال :

لا قَصَّـرا عنها ولا بَلَغَتْهُما حتى يطـولَ على يديكَ طِوالُها

فاستحسن الرشيد ما تمثل وأجزل له صلته . . .» (تاريخ الطبري ج 8 ص 364 وانظر ص 478 هامش 3 من البحث) .

2 طبقات ابن المعتز ص 149 وتاريخ الطبري ج 8 ص 363 وزهر الآداب ج 4 ص 1045 .

3 من قصيدة أبي العتاهية في مدح الأمين الخطيب :

يا بني آدمَ صونوا دينَكُمْ ينبغـي للديـنِ ألاّ يُطَّرَحْ
واحمَدُوا اللهَ الذي أكْرَمَكُمْ بنذيرٍ قـامَ فيكـمْ فنَصَحْ
بخطيبٍ فَتَـحَ اللهُ بـهِ كلَّ خيرٍ نِلتُمـوه وشَرَحْ
فنذيـرُ الخيرِ أولى بالعُـلى ونذيـرُ الخيـرِ أولى بالمِدَحْ

(الديوان ج 1 ص 67 و68) .

سامعه فينصت إليه مشدوهاً مشدود القلب ؛ وحين يعظ مذكِّراً يُجري الدموع في المآقي بينما هو ساكن ، مهيب ، جريء لا يخفق قلبه ، مع أن الموقف تضطرب له أقوى الأفئدة ؛ حتى إن الناس ، حين ينفضّون عنه ، لا يكون لهم حديث إلاّ حديثه : حاضرهم يخبر عنه غائبهم[1] . ولا شكّ في أن الرشيد كان ظاهر الميل إلى المأمون ، فحين أحسّ تقصيراً من الشعراء بحقّه ، شكا ذلك إلى العبّاس بن محمد : يا عم ، إن الشعراء قد أكثروا في مدح محمد بسببي وبسبب أم جعفر ، ولم يقل أحد منهم في المأمون شيئاً ، وأنا أحب أن أقع على شاعر فطن ذكي يقول فيه : فذكر العبّاس ذلك لأشجع وأمره أن يقول فيه ، فقال :

بَيعــةُ المأمــونِ آخــذةٌ   بِعِنانِ الحقِّ في أُفُقِهْ . . .[2]

(الأبيات)

كذلك كان الرشيد يغتنم فرصة الركوب في الأعياد والاحتفالات المختلفة ليجعل أولياء عهده يركبون معه : يُحلّون موكبَه ، يُركّز صورتَهم في أذهان الناس فيَذكُرُهم الشعراء والخطباء حين يذكرونه ، ويكون ذلك امتداداً لاحتفالات البيعة وترسيخاً لها في نفوس العامة والخاصة . والعامة ، بالذات ، تتأثر بجلال المواكب وجمال الشكل واللباس وصباحة الوجه ، وبالقول الرنّان السريع إلى

---

1 نثبت فيما يلي مقطعاً كاملاً من قصيدة اليزيدي ليتمكّن القارىء من وضع نفسه في جو التنافس الخفي والواضح في البلاط على كسب إعجاب الرشيد باستثمار المعاني التي ترضيه بصرف النظر عن واقعيتها أو مصداقيّتها . وفي مناسبة القصيدة يروي الأصفهاني : لما بلغ المأمون ، وصار في حد الرجال ، أمرَنا الرشيد أن نعمل له خطبة يقوم بها يوم الجمعة . فعملنا له خطبته المشهورة ، وكان جهير الصوت حسنَ اللهجة ، فلمّا خطب بها رقّت قلوب الناس وأبكى من سمعه . فقال أبو محمّد اليزيدي :

لَتَهْــنِ أميرَ المؤمنــين كرامــةٌ   عليــه بهــا شُكْرُ الإلهِ وَجوبُ
بأنَّ ولِـيَّ العهدِ مأمونَ هاشمٍ   بدا فضلُه ، إذ قامَ وهو خطيبُ
فلمّا رماه الناسُ من كلِّ جانبٍ   بأبصارهمْ ، والعُودُ منه صليبُ
رماهمْ بقولٍ أنصتوا عَجَباً له ،   وفي دونِـهِ ، للسامعين ، عَجيبُ
ولمّا وعــتْ آذانُهم ما أتى بــهِ   أنابتْ ورقّــت عند ذاك قلوبُ
فأبكـى عيونَ الناس أبلغُ واعظٍ   أغــرُّ ، بِطاحيُّ النِجارِ ، نَجيبُ
مَهيبٌ ، عليــه للوقارِ سكينةٌ ،   جـريءٌ جِنانٍ ، لا أكَعُّ هَيوبُ
ولا واجــبٌ فـوقَ المنابرِ قلبُهُ   إذا ما اعترَى قلبَ الخطيبِ وَجيبُ
إذا مـا عـلا المأمونُ أعوادَ مِنبرٍ   فليس لــه في العالمينَ ضَريبُ
تصدّعَ عنه الناسُ ، وهو حديثُهم ،   يُحدِّثُ عنه نازحٌ وقريبُ . . . .

(الأبيات)

(الأغاني ج 20 ص 202) .

2 الأغاني ج 18 ص 158 .

السمع واللسان . فلو تصوّرنا موكب الرشيد المهيب ، في جنده وحرسه ، بلباسهم المميّز وسلاحهم الكامل ، يسير الخليفة في المقدمة بما عرف عنه من وجه مشرق وإلى جنبيه ولداه : الأمين بفتنته والمأمون بوقاره ، لَتَصوّرنا مبلغ حماس الجماهير المصطفّة على جانبي الطريق وانفتاح قلوبها على هذه الأسرة الرائعة ، وإسراع ألسنتها إلى الترديد مع شاعر ذلق اللسان كعمر بن أبي سلمة :

إنّ للموكِبِ نوراً ساطعاً يغشى العُيونا
أَتَرَوْنَ البدرَ فيهِ أم أميرَ المؤمنينا ؟
وولاةُ العهدِ عِطفيـ ـهِ شِمالاً ويميناً[1]

فيعلو هتافهم ، وقد تُنثر عليهم الدراهم والدنانير . . .

خاتمة : هكذا حظيت البيعة لأولاد الرشيد ، نظراً لظروفها الخاصة جداً[2] ، باهتمام لم تحظ به البيعات الأخرى . وفي هذه البيعة قيل كثير مما لم يصلنا جميعه ، وفيها أطلقت نبوءات عن لسانه وعن لسان سواه . وقد تكون بعض هذه النبوءات دوّنت أو قيلت بعد أن وقعت الواقعة بين الأخوين وجرى ما جرى ثمّ رويت على أنها قيلت إثر البيعة مباشرة ، وهذا أمر طبيعي وتصرّف إنساني . فكثيراً ما يعلّق الناس على حصول أمر مصيري بقولهم : والله كنت أحسّ بما سيجري وكنت أقول كذا وكذا في توقّع ما حصل . ولكن ما قيل ، أيًّا كان تاريخ قوله ، لا يقلّل من قيمة الصورة التي يرسمها لنا ، ولا الأدب الذي يرافق الرواية لأنه بالفعل أدب استوحي من البيعة وظروفها التي جعلت احتفالات البيعة ، وهي من أجمل أعياد يمكن للبلاد أن تشهدها ، احتفالات تشوبها الغصّة ويحفّ بها الكثير من التحفّظ .

---

1 طبقات ابن المعتز ص 152 .

2 نريد أن نعيد إلى الأذهان هنا ما سبق أن أشرنا إليه من ارتباط مناسبة البيعة لأولاد الرشيد بعقدة البرامكة عنده وتخوّفه منهم . وهي تؤكّد لنا أن العقدة هذه لم تبق مجرد حالة نفسية لديه ، بل تحوّلت إلى إحساس بخطر حقيقي ، بسرطان ينتشر ويحتاج إلى البتر قبل أن يجتاح كل شيء . ومن يتابع تشدّد الرشيد في أحكام البيعة لأولاده يأخذه العجب : فكأن الخليفة كان يخاف هاجساً في قرارة نفسه ، ويحاول استباق الأحداث . لذا ذهب المؤرّخون إلى أنه كان يخاف ألاّ يفي الناس بالبيعة لطفل ، ثمّ صار يخاف أن يغدر الأمينُ بالمأمون فراح يشدّد على تقييد الناس وعلى تقييد الولدين قولاً وكتابةً وتعليقاً للعهد في الكعبة . ويدلّل المؤرّخون ، على رأيهم ، بما حصل فعلاً ، بعد ذلك ، من حرب الأمين والمأمون ؛ ولكنّ رأينا أن الرشيد كان يخاف أمراً آخر أشد مضاضة وأبعد خطراً : إنه يخاف البرامكة الذين أخذ نفوذهم يتزايد وسلطانهم يتطاول حتى جاوز سلطانه . ويقول ابن طباطبا عن لسان الرشيد : «الخلافة على الحقيقة له (يعني يحيى ابن خالد) وليس لي منها إلاّ اسمها» . (الفخري ص 208) وخوفه الأكبر كان من احتمال اختفائه شخصياً أو اختفاء وليّ العهد الأول أو ظهور عدم صلاحه ، أو اختلاف أولياء العهد فيما بينهم ، حين تعدّدوا ، مما يفسح مجالاً واسعاً لتدخل البرامكة واستيلائهم على السلطة في الوقت المناسب أو تحويلها إلى عائلة أخرى . والملاحظ أن الرشيد لم يقدم على نكبة البرامكة إلاّ بعد توثيق البيعة وأخذ العهود لها . ويخيّل إلينا أن الرشيد ، حين بيّت أمر النكبة لم يكن ضامناً لنتائجها ، بل كان يقوم بمغامرة كبيرة ، بقفزة في المجهول ، وكانت حياته وخلافته في الميزان .

الفصل الثالث
مناسبة الأعياد والاحتفالات

بـــين المنابِـــرِ والمجالسِ والمدائـــــحِ والنشيـــدِ
هــرونُ أنــت خليفَــةٌ صُوِّرْتَ من كَرَمٍ وجُودِ
الناسُ مــن طـينٍ وأنـ ـت البدرُ في فَلَكِ السُعودِ
وهَــمُ كأيـامِ الشهـو رِ ، وأنتَ فيهم يومُ عيدِ[1]

(ابن أبي السعلاء)

مناسبة الأعياد والاحتفالات

لم نحاول أن نفرد فصولاً مستقلة للمناسبات العامة المتعددة التي عرفها بلاط الرشيد ، وذلك لسببين : أولهما أن كثيراً منها سبق الحديث عنه في معرض بحث المجالس والصراعات . وثانيهما أن المادة المتوافرة بين أيدينا ، المستخرجة من المصادر الأدبية ، وخصوصاً الإنتاج الأدبي ، غير كافية لرسم صورة مفصّلة لكل من هذه المناسبات على حدة . ونحن نكرّر ، هنا ، شكوانا الدائمة من أن المؤلّفين العرب لم يهتمّوا كثيراً بتسجيل الظاهرة الحضارية والاجتماعية ، وإن كل ما كتبوه عنها جاء عرضاً ، في ثنايا الأخبار التاريخية أو النوادر الأدبية ، وغالباً ما كانوا يغفلون رواية الجزء المتعلّق بها ، والذي لا نشكّ في أنه وجد في الأدب وكان غزيراً ، لأن الشاعر العربي مولع بذكر التفاصيل الكثيرة عن حياته والإطارِ الذي يعيش فيه ؛ ونحن أيضاً لا نشكّ في أن الأدب ، الذي نما حول الرشيد ، لم يدع مناسبة تمرّ دون اغتنامها ، ولا مظهراً لتجلّي الخليفة أو تحرّكه إلاّ قال فيه واصفاً ومادحاً . وهذا أمر طبيعي مع خليفة كالرشيد كان أكبرَ مستهلك للأدب ، يعتده غذاء يومياً ، كما قلنا ، وهو مستعد لتلقّيه في كل لحظة ، في شتّى الظروف ، وفي أصعب حالات مزاجه وحياته . ومع هذا ، فقد كان للأدب مناسبات كبرى يروج فيها ، تصاغ منه أجمل الحلل وأروع القلائد ، تماماً كما يجري في سوق البيع والشراء ، في مناسبات الأعياد والمواسم . وقد مرّ بنا أن الرشيد ، حين كان يرتحل ، وفي أثناء انتقاله ، ولدى عودته ، كان يلذ له سماعُ الشعر ، ويهيّيء له المناسبة . كما مرّ بنا أن حملات الرشيد العسكرية كانت ترافقها ألسنة الشعراء ، حتى إذا ما عاد منها ، ازدهرت سوق الأدب وغزر الإنتاج المحمول إليها واشتدّ التنافس . فالرشيد ، كما كان يعمّق مُتَعَه جميعَها بطلب المتعة الأدبية ، كان يريد أن يخلّد أعماله كلّها بوضعها في الإطار الأدبي . ولأجل ذلك كان يفتح أبواب خزائنه على

---

1 طبقات ابن المعتز ، ص (151) .

مصاريعها . . . ونتناول ، فيما يلي ، ثلاثة نماذج لهذه المناسبات : مناسبات الأعياد ، مناسبات الاحتفالات الرسميّة ، ومناسبة لاحتفال ترفيهي .

أولاً : مناسبات الأعياد

لقد كانت الأعياد مناسبات كبرى لفتح بوّابات القصر واستقبال علية الناس ، يفدون زرافات ووحداناً ، يهنّئون ويصوغون الأمنيات مجدّدين الولاء . وكان للشعراء والمطربين دور بارز في إعطاء الكلمة واللحن مكاناً مهمًّا في ذلك الزحام . ولئن لم نستطع تكوين صورة واضحة عن برنامج احتفال العيد ، فإننا نحاول تحديد بعض معالمه من خلال إشارتين ، وصلتا إلينا ، نتناول كلّ منهما نوعاً من الأعياد . . الإشارة الأولى تتحدّث عن عيد ديني هو عيد الفطر : إذ دخل أشجع السلمي على الرشيد في ثاني أيام العيد وأنشده أبياتاً تعمر بالتفاؤل ، وتطفح بأمنيات الخلود ، مطلعها :

استقبِلِ العِيــدَ بعُمرٍ جديــدْ   مَدَّتْ لك الأيامُ حبلَ الخلودْ[1]

وقد تمتّع الرشيد بهذه الأبيات ، ما شاء الله له التمتع ، ثمّ أراد أن يعمّق إحساسه ونشوته «فأمر أن يغنى بها»[2] وهذا يقودنا إلى الاعتقاد بأن الرشيد كان يجلس ، في العيد ، للوجهاء يستقبلهم ، ويبقي المجال مفتوحاً لدخول الشعراء يلقون المدائح ويطلقون الأمنيات . فإذا ما انفضّ هذا المجلس ، وزالت عنه صفة الجد والوقار ، جاء دور المغنّين يعطون النكهة لفرحة العيد . ويبدو أن الأعياد الأخرى ، غير الدينية ، كانت مجالاً واسعاً للهو واجتناء المتع الفنّية . ففي المهرجان والنيروز تقدّم الهدايا إلى أمير المؤمنين والوزراء[3] ، وفيها أيضاً تعقد مجالس الطرب يتنافس المغنّون في التحضّر لها بكل جديد من الألحان والكلمات . وهذا ما يقودنا إلى الإشارة الثانية التي وردت عند الأصفهاني . فهو يسند إلى أبي محمد اليزيدي قوله ، متحدّثاً عن المغنّي سليم بن سلاّم : «كان سليم بن سلاّم صديقي . . . فجاءني يوماً . . . وقال : قد جئتك في حاجة . . . إن المهرجان بعد غد ، وقد أمرنا بحضور مجلس الخليفة ، وأريد أن أغنّيه لحناً أصنعه في شعر لم يعرفه هو ولا من بحضرته . فقل أبياتاً ، أغني فيها ، مِلاحاً[4] . . .» فقال اليزيدي أبياتاً منها :

أتيتُكَ عائــذاً بــك منــ   ـكَ لمــا ضاقتِ الحِيَلْ[5]

وهكذا يكون المهرجان مجالاً لتقديم الهدايا ، يهيّيء كلٌّ ما تطاله يده أو يتفوّه به لسانه . وليس

---

1 الأغاني ج 18 ص 175 .

2 المصدر نفسه .

3 يذكر الأصفهاني دخول سلم الخاسر على الفضل بن يحيى «في يوم نوروز ، والهدايا بين يديه . . .» (الأغاني ج19 ص 238) و (معاهد التنصيص ج 4 ص 43) .

4 الأغاني ج 6 ص 157 .

5 المصدر نفسه .

أحبّ إلى الرشيد من هديّة فنّية تجمع بلاغة شاعر إلى إلهام مطرب. ويذكر المسعودي، عن المبرّد، أن أبا العتاهية أهدى المهدي، «في يوم نوروز أو مهرجان، برنية صينية فيها ثوب ممسَّك، فيه سطران مكتوبان عليه بالغالية[1] . . .» وهذا يبيّن أن الاحتفال بهذه الأعياد كان عادة عند العبّاسيّين، ولم يبدأ مع الرشيد.

ويظهر أن العيد لم يكن مجالاً لدخول الخاصة إلى البلاط، وحسب، بل كان أيضاً مناسبة يخرج فيها الخليفة إلى العامة، يطل على رعيّته في موكب رائع يخلب لب المتفرّجين ويجدّد إعجاب الناس بأمير المؤمنين المختار. فيروي ابن المعتز أن أشجع السلمي قال في الرشيد «وقد ركب، يوم عيد، ركبة لم ير الناس مثلها، أحسن هيئة، وتمام زينة وأكمل أداة وأكثر قوّاداً وجنداً . . . :

لا زلتَ تَنشُرُ أعيـاداً وتَطويها   تَمضي بهـا لك أيـامٌ وتُثنيها[2]

وإذا تذكّرنا أن هذا العيد كان بعد فتح هرقلة، وأن الرشيد المنتصر كان يريد أن يزهو بما أتاه، ويسمع صيحات الإعجاب من المؤمنين الذين أهدى إليهم الفوز وأخضع لهم المشركين، فهمِنا ما كان عليه الموكب من ضخامة، وتصوّرنا عِظم الآلة التي ظهر بها، وأن الرشيد كان يطمح، من ركوبه، إلى جني تهنئتين: تهنئة بالعيد، وتهنئة بالنصر. وهذا ما قدمه له أشجع. فبعد التهنئة بالعيد قال:

لِيَهنِـكَ النصرُ، والأيـامُ مُقبِلةٌ   إليـكَ، بالفتحِ معقودٌ نَواصيها[3]

أما المعاني التي يتناولها الشعر في تهنئة الرشيد بالعيد، فهي المعاني العادية التي يتبادلها الناس جميعاً في هذه المناسبة. منها:

* الاستبشار والفرحة والسعادة. معها الدعاء باستمرارها، بامتدادها على مرّ الأيام مقرونة بالتوفيق؛ يقول أشجع:

تَمضـي لـكَ الأيـامُ ذا غِبطةٍ   إذا أتـى عيـدٌ طَوَى عُمرَ عيدْ[4]

* الأمنياتُ: أمنيات بالصحة وطول البقاء، بل بالخلود على كر الليالي، فلا يمر يوم إلاّ ويزيد في عمر الخليفة. يقول أشجع أيضاً:

---

1 مروج الذهب ـ دار الأندلس ـ ج 3 ص 317.

2 طبقات ابن المعتز ص 252.

3 المصدر نفسه.

4 الأغاني ج 18 ص 175 ويقول أشجع في قصيدته على الهاء، في المعنى نفسه:

مستقبلاً غُـرّةَ الدنيـا وبهجتَهـا   موصولةً لك، لا تَفنـى، وتُفنيها

(المصدر السابق ص 174. وطبقات ابن المعتز ص 252 وديوان المعاني ج 1 ص 92).

ولا تَقَضَّت بكَ الدُنيا ولا بَرِحت   تَطوي بكَ ، الدهرَ ، أياماً وتَطويها[1]

بذلك يبدو العيد ، في إيحائه ، رتيباً قليل الإبداع . ومع هذا فقد كانت هذه الكلمات ، المفعمة بالدعاء والتمنّيات ، تفعل فعلها في نفس الرشيد فيتأثر بالعاطفة التي تتخايل فيها ، متغاضياً عن كل شيء آخر . ويثيب عليها الكثير[2] .

ثانياً : مناسبات الاحتفال الرسمي

نعني بها الاحتفالات التي تقام في مناسبة تهتمّ لها الدولة ، بحكّامها ومواطنيها ، فيقيمها الخاصة ، ويشارك فيها العامة ، كلٌّ من موقع . وتشمل هذه الاحتفالات ، فيما تشمل ، تولّي الخليفة مقاليد السلطة ، وأخْذ البيعة لأولياء العهد ، وتوديع الجيش الذاهب لمحاربة الأعداء ثم استقباله ؛ ومن هذه الاحتفالات أيضاً وداع الخليفة واستقباله حين يسير لغزو أو لحج أو لانتقال من أي نوع . وقريب من هذا وداع وزير برمكي كلّف مَهَمّة حسّاسة في أحد أطراف الأمبراطورية . وحين يعود يكون له استقبال لا يقلّ رواء عنه في الوداع . في هذه الحالات جميعها ، وفي حالات أخرى غيرها ، لا بدّ من إنتاج أدبي يصف ويسجل وينوّه ويمدح . . . أما انتقال الرشيد مع حاشيته ، وعودته ، فقد أشرنا إليهما وذكرنا ما قيل فيهما من أشعار[3] . وكذلك الأمر بالنسبة إلى البيعة وإلى غزوات الرشيد وحملاته العسكرية[4] . ولقد تناولنا بالتفصيل ما قيل في وداعٍ أو استقبالٍ للفضل بن يحيى البرمكي عند خروجه لإخضاع يحيى بن عبدالله العلوي[5] . وفعلنا الشيء عينه في وداع أخيه جعفر المنتدب لإخماد فتنة الشام ، وفي استقباله عند العودة[6] . ونحن لن نعود إلى ما سبق لنا بحثه وإنما نتناول مناسبة مشابهة هي شخوص الوزير البرمكي الفضل بن يحيى إلى بعض الولايات (خراسان ونواحيها) وعودته ، لنحدّد من خلالها معالم هذا النوع من أدب المناسبات .

1 ـ يتميّز الاحتفال بحضور الرشيد ومعه ، بطبيعة الحال ، جل أهل المملكة من الهاشميّين

---

1 (المصدر السابق) ويقول أشجع ، في هذا المعنى أيضاً من قصيدته الدالية :

استقبـلِ العيـد بعُمـرٍ جديـدْ   مدّت لك الأيامُ حبـلَ الخلودْ

واطوِ رداءَ الشمسِ ، ما أُطْلعتْ ،   نوراً جديـداً ، كلَّ يـومٍ جَديدْ

(المصدر السابق ص 175) .

2 وصل الرشيد أشجع على قصيدته الدالية بعشرة آلاف درهم . ووصله على قصيدته على الهاء بألف دينار وأمر ألاّ ينشده أحد بعده (المصدر السابق ص 175) .

3 راجع ص 466 من البحث .

4 راجع ص 449 وما بعد فتح هرقلة وغزوة حصن الصفصاف .

5 راجع ص 327 من البحث .

6 راجع ص 274 من البحث .

والبرامكة والقوّاد والكتّاب . . .[1] .

2 ـ كما يتميّز بحضور الشعراء والخطباء يصدحون بأناشيدهم ليطربوا أسماع الخليفة ومَن لأجله أقيم الاحتفال[2] . وهذا الحضور ، وهذه الأناشيد ، لازمة لا غنى عنها في عصر شُغف أهله باجتناء المتع الفنّية .

3 ـ يتناول أدب هذه الاحتفالات نقاطاً شبه محدودة نستخلصها من قصيدة مروان في مدح الفضل العائد من خراسان :

أ ـ مناسبة العودة واستقبال حافل بتعابير الفرحة والاستبشار بالسعد ، يصحبهما راحة البال وهدوء الخاطر الذي لم يستقر طيلة الغياب[3] .

ب ـ المدح : ويتناول مدح الوزير في صفاته كإنسان وفي صفاته كقائد . وأهمها صفتان تبلغان حد التطرّف وهما : الكرم الذي عُرف عنه ، والبأس الذي شُهر به . والملاحظ أن مدح البرامكة (وأحياناً مدح الرشيد) كان يتردّد دائماً بين هاتين الفضيلتين ، وجمعهما معاً . ومن هاتين الصفتين تتبلور الخطة البرمكية في التعامل مع الخارجين على القانون[4] : عرض القوّة

---

1 يقول الطبري في هذه المناسبة : «فخرج الرشيد إلى بستان أبي جعفر يستقبله ، وتلقاه بنو هاشم والناس من القوّاد والكتّاب والأشراف . فجعل يصل الرجل بالألف ألف وبالخمسمئة ألف . . .» (تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص260) .

2 يعطينا الجهشياري تفاصيل أكثر عن هذه المناسبة فيحدّد تاريخها ويذكر أمر الرشيد للشعراء والخطباء بمدح الفضل : «انصرف في آخر هذه السنة (179هـ) إلى العراق . فتلقّاه الرشيد ببستان أبي جعفر ، لما ورد . وجمع له الناس وأكرمه غاية الإكرام . وأمر الرشيد الشعراء بمدحه ، والخطباء بذكر فضله . فكثر المادحون له . فأمر الفضل بن يحيى أحمد بن سيار الجرجاني أن يميّز أشعار الشعراء ويعطيهم على قدر استحقاقاتهم» . (الوزراء والكتّاب ص191) .

3 يقول مروان بن أبي حفصة :

حمدنا الذي أدى ابنُ يحيى فأصبحت ... بمقدَمِهِ تجري لنا الطيرُ أسعُدا

وما هجَعْت ، حتى رأته ، عيونُنا ... وما زلن ، حتى آبَ ، بالدمعِ حُشَّدا

(الطبري ج 8 ص 259) ، وتجدر الإشارة هنا إلى أن إكرام الرشيد لوزرائه لا يقل في مسيرهم عنه عند رجوعهم . فكما يرجعون حاملين معهم النصر والأمن ، فإنهم حين يسيرون ترافقهم الآمال بالنصر والسلام والأمن . هكذا ، حين شخص الفضل بن يحيى إلى خراسان سنة ثمان وسبعين ومئة هجرية ، ودّعه الرشيد والأشراف والوجوه ، وساروا معه ، فوصل وأعطى وأفضل . ومدحه مروان بن أبي حفصة ، يوم سار ، فقال : (من قصيدة) .

ليحيا بك الإسلامُ ، إنك عِزُّهُ ... وإنّكَ من قومٍ صغيرُهُم كَهلُ»

(الوزراء والكتّاب ص 190) .

4 راجع ص 276 من البحث .

والتهديد بالنقمة والتنكيل ، من جهة ، والتلويح بالعفو عن المسيء وبالإحسان إليه ، من جهة أخرى . وقد استطاعوا ، بهذا الأسلوب ، أن يقمعوا كل فتنة تصدّوا لقمعها . إلى هذه الخطة يشير مروان في قوله متحدّياً الثائر الكابُلي (نسبة إلى منطقة كابُل) :

فأطلعتَهـا خيـلاً وطئـن جموعَـه قتيـلاً ومـأسوراً وفَـلاً مُشَرَّدا
وعادت على ابنِ البَرْمِ نُعماك ، بعدما تحوّب مخذولاً ، يرى الموت ، مُفْرَدَا[1]

ج ـ لا بدّ من ربط كل ما تقدم بالخليفة الذي يرئس الاحتفال : فكل مَجدٍ له ، وكل نصر موجَّهٌ إليه . الفضل ليس إلا سيفاً من سيوفه ومنفّذاً لإرادته ، يلين لمن والاه فأطاعه ، ويضرب العاصي حتى يشبع النصل من دمه . وهو كذلك ، سيف من سيوف الدين الذي يرعاه الخليفة ويحميه ، يحارب في سبيل عزّه ونشره ، يُذلّ المنافقين ، ويُخضع المشركين[2] .

د ـ أما تعامله مع الرعية ، فيتم وفق خطة الدولة : برفع الظلم عن المظلومين ، وتحرير من سُجن عدواناً وتعدّياً ، وبإشاعة العدل ، كأمر واجب عليه لا فضل له فيه . وفوق هذا بإكرام الناس وإكثار من المعروف فيهم ، فيغدو الخائف وقد ذهب روعه ، والأيتام يأتون رافلين في إنعامه ، يذوقون ما لم يعرفوه من آبائهم[3] .

على هذا المنوال ، يجري شعر الاحتفال بالعودة : مدح للقائد ، وتعداد لأعماله وانتصاراته ، ووصف لنتائج غزواته ، ثم ذكر الخليفة الذي لا مجد إلاّ به ؛ وتركيز كبير على معاني الكرم والعطاء والبذل ، إعلاء لشأن الجائزة المرتقبة[4] .

---

1 الطبري ج 8 ص 260 .

2 يشير مروان إلى ذلك بقوله :

أذَلَّتْ ، مـع الشِركِ ، النفاقَ سيوفُه وكانت ، لأهل الدينِ ، عِزًّا مؤبَّدا
وشدَّ القُوى مـن بَيعةِ المُصطَفَى الذي به الله أعطى كُلَّ خيرٍ وَسَدَّدا . . .

(المصدر السابق) .

3 يقول مروان :

وأجدى على الأيتامِ فيهـمْ بِعَرفِهِ فكان ، مـن الآبـاء ، أحنى وأعْوَدَا

(المصدر السابق) .

4 ولمروان أيضاً :

إذا الناسُ راموا غايةَ الفضلِ في النَّدَى وفي البأس ، ألفَوها ، من النَجمِ ، أبعَدا

(المصدر نفسه) .

ويذكر الطبري أن حفص بن مسلم دخل على الفضل «مقدمه من خراسان ، وبين يديه بِدَرٌ تُفرّق بخواتيمها ؛ فما فُضّت بَدرة منها» . فقال :

كفى اللهُ بالفضلِ بن يحيى بنِ خالدٍ وَجُودِ يديـه ، بُخـلَ كلِّ بخيلِ

(الطبري ج 8 ص 260) .

ثالثاً : مناسبة احتفال ترفيهي : إجراء الخيل

رأينا فيما سبق ، أن شعر المناسبات لا يتوقّف طويلاً عند وصف الاحتفال . فهذا الوصف لم يكن يفيد الشاعر بشيء ، وخصوصاً أن هذا النوع من القصائد يحضّر ، عادة ، قبل الاحتفال . ورواة الخبر لا يعنيهم من معالم المناسبة إلاّ ما يحصل فيها من مفاجآت ، أو نكتة أدبية . أما التركيز فهو على موضوع الاحتفال وعلى من يُحتفل به أو له . وما قلناه عن الاحتفالات السابقة يقال أيضاً عن الاحتفال بإجراء الخيل ، إذ لا نرى في الأخبار إلاّ وصفاً سريعاً لموقع الرشيد من الاحتفال ، في التمهيد للخبر الأدبي[1] ، هذا التمهيد الذي يشكّل مناسبة للشعر الذي قيل في فرس رابح ، أو في صاحب الفرس ، أو لحديث بليغ استدعته ضرورة ناجمة عن نتيجة السباق[2] . فنعرف مثلاً ، من ابن عبد ربّه ، أن الرشيد «ركب ، في سنة خمس وثمانين ومئة ، إلى الميدان لشهود الحلبة»[3] . وأن الأصمعي دخل الميدان «لشهودها ، فيمن شهد من خواص أمير المؤمنين»[4] . وهناك بقي مترقّباً ، مترصّداً مناسبة لاصطياد جائزة بسهم أدب . ونعرف من المسعودي أن الرشيد كان يتّخذ له مجلساً في صدر الحلبة ، وأن الخيل توافي إليه هناك[5] . وكان الرشيد يحب الخيل ويعتني بها ، وقد وكّل بها خبراء بشؤونها . فيخبرنا أبو هفان أن ذُفافة العنسي كان صاحب خيل الرشيد[6] . ونستشف من خبر الجهشياري أن هناك جوائز للأفراس الثلاثة الأولى ، وأن الرشيد كان يحب أن يحوز قوس السبق[7] ،

---

1 وصلت إلينا أرجوزة لأبي النجم العجلي يعتدّها ابن عبد ربّــه ، «أفضل شعر يصف الحلبة» (العقد الفريد ج 1 ص174) ، ولكننا لم نتوقّف عندها ، على ما حفلت به من تفاصيل دقيقة ومن وصف حي ، لأن أبا العجل لم يعش إلاّ إلى أيام هشام بن عبدالملك (معجم الشعراء ص 180) ، إنما نشير إليها لكي يرجع إليها من يرغب في ذلك .

2 يروي الجهشياري خبر سباق للخيل جاء الرابح فيه خيلٌ لجعفر . فغضب الرشيد لذلك . فقال «العباس بن محمد الهاشمي لجعفر : يا أبا الفضل ، ما أحسن الشكر وأدعاه للمزيد ! من أين لك هذا الفرس السابق ؟ فقال له : أمه من خيلك . فقال : والله لأرضينّك . ثمّ أقبل على الرشيد فقال : كنتُ ، يا أمير المؤمنين ، مع أمير المؤمنين أبي العبّاس ، ونحن في المدائن ، وقد أُرسلت الخيل . فبينا نحن ننظر ، طلع فرس سابق قد حصل في الغبار ، فما تُرى علامته . فقال عيسى بن علي : لي . وقال غيره : لي . ثم طلع آخر على تلك الصفة ، ثم طلع ثالث . . . فنظروا فإذا هي لخالد بن برمك ، وقد أخذت قصبات السبق . فقال خالد : يا أمير المؤمنين ، من يقبضها ؟ فقال : هي لنا عندك ، فإنك عُدّة من عُددنا . فسُرّي عن الرشيد ، وزال الغضب عنه» . (الوزراء والكتّاب ص 208) .

3 العقد الفريد ج 1 ص 166 .

4 المصدر نفسه .

5 مروج الذهب ـ دار الأندلس ـ ج 3 ص 362 .

6 أخبار أبي نواس ص 88 .

7 في خبر ابن عبد ربّه : «فجاء فرس أدهم ، يقال له الربِد ، لهارون الرشيد سابقاً . فابتهج لذلك ابتهاجاً عُلم ذلك في وجهه . وقال : عليّ بالأصمعي . . .» (العقد الفريد ج 1 ص 166) . وجاء في خبر المسعودي : «وكان في أوائلها

فيسرّ إذا سبقت خيلُه وخيل أولاده ، ويستاء في الحالة الأخرى[1] . وذلك ، بلا شك ، ينبع من إحساسه بالتفوق ورغبته في أن يكون النموذج ، في شخصه ، والأفضل في ما يملك ويفعل . إلاّ أن سرور الرشيد بفوز خيله ما كان ليكتمل إلاّ إذا أكده إنتاج أدبي يخلّد المناسبة[2] ، ويمدح الخيل الرابحة أو يمدح صاحبها . والرشيد يدفع الكثير مقابل ذلك[3] . أما الخيل التي تجري في الحلبة ، فلا تتجاوز «حظيرته» و«حظيرة» أولاده وأفراد عائلته[4] ، ووزرائه البرامكة[5] .

وأما الموضوع الأساس لهذا النوع من الأدب فهو ، بلا شك ، وصف الفرس وفق المثالية العربية التي وصلت إلى العصر[6] . فهو فرس سريع ، تعجز الريح عن اللحاق به : يتجاوز الأفراس الأخرى المنافسة في السباق ، ببساطة ، متهادياً ، على هينة فلا يحتاج إلى زجر ، ولا يحس إجهاداً

= سوابق من خيله يقدمها فرسان ، في عنان واحد ، لا يتقدّم أحدهما صاحبه . فتأمّلهما ، فقال : فرسي ، والله . ثمّ تأمّل الآخر فقال : فرس ابني المأمون . قال : فجاءا يحنكان أمام الخيل . وكان فرسه السابق وفرس المأمون الثاني . فسرّ بذلك . .» (مروج الذهب ـ دار الأندلس ؛ ج 3 ص 362) .

1 في خبر الجهشياري : «أجرى جعفر خيله يوماً بالرقة فسبقت خيل الرشيد . فغضب الرشيد . . .» الوزراء والكتّاب ص 207) .

2 ينسب ابن عبد ربّه . إلى احتفال باجراء الخيل ، وسبق «الربد» ، طلب الخليفة إلى الأصمعي أن يأخذ بناصية الفرس ثم يصفه ، «من قونسه إلى سنبكه ، (لأنه) يقال إن فيه عشرين اسماً من أسماء الطير» . (العقد الفريد ج 1 ص 167) وانظر (المزهر ج 1 ص 323) . وحين جاء «المشمّر» سابقاً وقد سُرّ به الرشيد «أمر الشعراء أن يقولوا فيه» (الأغاني ج 4 ص 45) . راجع ص 140 من البحث .

3 نال الأصمعي ، مثلاً ، على تعداد أجزاء الفرس ، عشرة آلاف درهم (العقد الفريد ج 1 ص166) وحين وصف أبو العتاهية «المشمِّر» أجزل الرشيد صلته . . . (الأغاني ج 4 ص45) .

4 في خبر ابن عبد ربه عن إجراء الخيل عام 185هـ يقول الأصمعي : «والحلبة يومئذ أفراس للرشيد ولولديه ، الأمين والمأمون ، ولسليمان بن أبي جعفر المنصور ، ولعيسى بن جعفر» . (العقد الفريد ج 1 ص 166) .

5 يذكر الجهشياري أن الرشيد أمر «جعفراً أن يتّخذ خيلاً يجريها في الحلبة» (الوزراء والكتّاب ص 207) .

6 هذه المثالية معروفة ونستخلصها مما يرويه أبو عبيدة عن مناظرة امرىء القيس لعلقمة الفحل ، أمام أم جندب ، زوجة امرىء القيس . وفيها وصف امرؤ القيس فرسه السريع بأبيات منها :

فَلِلْسَوط الهـوبٌ ، ولِلساقِ دِرّةٌ   وللزَجر ، منه ، وقعُ أخرجَ ، مُهْذَبِ

ومما وصف به علقمة فرسه :

فَأَدْرَكَـهُ حتـى ثَنَى مـن عِنانِهِ   يَمُـرُّ كَغَيـثٍ رائـحٍ ، مُتَحَلِّبِ

فحكمت أم جندب لعلقمة . وردّت احتجاج امرىء القيس قائلة : «لأنك زجرت فرسك وحركته بساقك ، وضربته بسوطك . وأنه جاء ، هذا ، الصيدَ ثم أدركه ، ثانياً من عنانه» . (الأغاني ج 21 ص 227) .

ولا ينبهر . . .[1] وقد اغتنم الأصمعي فرصة وصول فرس الرشيد ، وخلفه فرس المأمون ، ليمدح الخليفة ووليّ عهده بشعر من حفظه ، قالته الخنساء . فأصاب من الرشيد نقطة ضعف معروفة وهي حبّه للمأمون وتفضيله إيّاه ، واعتقاده أنه خير خلف له[2] .

ولا بدّ من ملاحظة قاسم مشترك بين هذه المناسبات جميعها ، وهو الهدف الأخيرلكل ما قيل فيها من أدب ، ويتلخّص في المدح : المدح المباشر أو غير المباشر . ففي كل مناسبة يشترك الرشيد في إحيائها ، مدح لشخصه كسيد للمناسبة ، أو إعلاء لشأنه من خلال مدح من أقيمت المناسبة له ، وهو المرتبط بالخليفة بانتماء أو تبعية . ونلاحظ أيضاً أن المناسبات التي تحدّثنا عنها سابقاً كانت هدفاً للاحتفال ، وجاء الإنتاج الأدبي فيها كجزء من منهاجها أو كحلية ترصع معالمها . . لكن أجواء الرشيد الأدبية عرفت مناسبات أخرى كان الإنتاج الأدبي فيها هو المحور والحافز والهدف ، وهي مناسبات يفتح فيها باب البلاط ليدخل منه كل ذي أدب : يقول هناك ما يحلو لموهبته أن توحي به إليه ، وينال من الرشيد ما يحلو لنفس الخليفة أن تجود به من عطاء . وهذه هي المناسبات الأدبية التي ترسم ، في البلاط ، صورة للأسواق الأدبية القديمة ، والتي ندرسها في الفصل التالي .

---

1 وفقاً للمثالية السابقة ، بدر أبو العتاهية الشعراء حين طلب الرشيد إليهم أن يصفوا المشمر ، فقال مادحاً :

جـاء المُشَمِّرُ والأفـراسُ يقدُمها   هَوْنـاً ، عـلى رِسْلِهِ ، وما انبَهَرا
وخَلَّف الريحَ حَسرى وهي جاهدةٌ   ومَـرَّ ، يختطِفُ الأبصـارَ والنَظَرا

(الأغاني ج 4 ص 45 والعقد الفريد ج 1 ص 172) .

2 قال الأصمعي للرشيد : يا أمير المؤمنين ، كنتَ وابنُك اليوم ، في فرسيكما ، كما قالت الخنساء :

جـارى أباه فأقبلا ، وهما   يتنازعان مُـلاءَةَ الحَضْرِ(*)
وهُما كأنهما ، وقد بَرَزا ،   صِقرانِ قد حَطَّا عـلى وَكْرِ
بَرَزتْ صحيفةُ وجـهِ والدِهِ   لولا جـلالُ السِنِّ والكِبْرِ

(*) في ديوان الخنساء : الفخر) (مروج الذهب ـ دار الأندلس ـ ج 3 ص 363) .

الفصل الرابع
المناسبة الأدبية

«. . ونحن قائلون ، بعون الله وتوفيقه وتأييده ، وتسديده ، في مخاطبة الملوك والتزلف إليهم بسحر البيان الذي يمازج الروح لطافة ، ويجري مع النفس رقة . . . والكلام الرقيق مصايد القلوب ، وإنّ منه لما يستعطف المستشيط غيظاً ، والمندمل حقداً ، حتى يطفيء غيظه ويسلّ دفائن حقده . وإن منه لما يستميل قلب اللئيم ويأخذ بسمع الكريم وبصره . وقد جعله الله تعالى ، بينه وبين خلقه ، وسيلة نافعة وشافعاً مقبولاً . قال تبارك وتعالى : ﴿فتلّقى آدمُ من ربِّه كلماتٍ ، فتاب عليه . إنه هو التوّابُ الرحيمُ﴾» .

ابن عبد ربه

المناسبة الأدبية والقصيدة الرسمية

نقصد بالمناسبة الأدبية تلك التي يكون فيها الأدب هو الحافز وهو الهدف ، لأجله يُعلَن عنها وتُقام ، وبه ، دون سواه ، يتم التعاطي فيها . قد ترافق هذه المناسبة أوقات احتفال أو قد تتلو أحداثاً مصيرية ، لكنها قد تستقل لتكون سوقاً أدبية من نمط جديد . . في هذه المناسبات برزت عظمة الرشيد وروعة أيامه سطّرها ، للأجيال التالية ، قلم الشعر والأدب ؛ في تمجيده أُنشدت القصائد وفي تأكيد حقّه وامتداح أعماله قيل أروع النظم ، فيها رُفع وزراؤه وقوّاده وعمّاله بإذنه ، وبسببها ، على ما نعتقد ، اختارت الأسطورة الرشيد لتقيمه على عرشها ممثّلاً للشرق الغني ، للشرق الساحر الغامض . ولعلَّ أهم ما يلفت النظر في هذه المناسبة أنها كانت غاية لِذاتها[2] ، وفرصة تفتح عندها أبواب البلاط ليلج منها الشعراء ، ممن سجّلوا أسماءهم ، أو أرسلوا رقاعهم ، أو أُخذ الإذن لهم ، أو دعاهم الخليفة بعد أن سمع بهم وتشوّق إلى رؤياهم . . . وفي هذه المناسبة يكتمل عقد البلاط بكامل روعته وبهائه ، فيغصّ البهو الكبير بالوافدين ، ويتربّع الرشيد على عرشه في صدر الإيوان ، تحفّ به الكراسي من الجانبين وقد جلس عليها المتميّزون من أبناء العائلة المالكة والقوّاد والوزراء وشعراء البلاط وأدبائه ، وطرحت الوسائد أبعد من ذلك فجلس عليها عدد من الرّواد الدائمين المعروفة لهم أماكن محدّدة عند التئام جمع البلاط . ويلي هؤلاء سائر الرّواد وقد جلسوا على المصلّيات[3] بحسب تسلسل أهمّيتهم عند الرشيد ، ويختم الصفين الواقفون من الزوّار الجدد أو من

---

1 العقد الفريد ج 2 ص 122 .

2 إن الوصف الذي نقدّمه لمجلس الرشيد مستمدّ من الإطار الزمني والمكاني والبشري الذي درسناه في فصل مستقل ، بتفاصيله التي نجمعها هنا لنشكّل منها وحدة كاملة .

3 في خبر دخول إبراهيم الموصلي على الرشيد إلى الصحن الواسع ، صاح الرشيد بالخدم : «مقطّعة لإبراهيم» ويقول الأصفهاني : «وكان هو أوّل من قطّع المصلّيات» . (الأغاني ج 5 ص 204) .

صغار الشعراء والجلساء ، الذين يتمنّون أن يسعفهم الحظ بالارتفاع إلى مرتبة من مراتب الجالسين[1] ، فتقطّع لهم مقطّعة[2] أو تطرح لهم وسادة . أما الحصول على شرف الجلوس فوق الكراسي ، فذلك حلم العمر ، وكثيراً ما يفنى قبل إدراكه . وتكتمل الصورة بصفّين من الحبال تربط من أسطون إلى آخر ، في البهو ، وخلفها يقف الحرس بأيديهم الحراب ، وقد لبسوا أجمل ما أبدعت أيدي صنّاع العالم من ثياب عسكرية زركشت وطرّزت ورصّعت وحلّيت . وخلف الأساطين يكون الخدم مختفين وقد استنفر كلّ منهم جميع حواسه بانتظار كلمة أو همسة أو نظرة من الرشيد ليظهر ، فيلبي رغبات الخليفة قبل أن تجوز رغباته هذه حافة عرشه . ووراء الرشيد يقف مسرور ، بسيفه المشهور ، ويقف الحاجب الذي بيده توزيع تذاكر الدخول إلى ذلك الحفل المهيب . ولا نستغرب أن تقبع ، في إحدى زوايا البهو ، بِدَر الدراهم والدنانير في أكياسها الحريرية ومظهرها المغري[3] ، ومحتواها الأشد إغراء ، بانتظار من يحسن الأداء ، فيحمل منها العز والثروة .

في هذه المناسبة ، بعد إعلان مسبق أو بلا إعلان ، في مواعيد دورية ، أو لمجرّد هوى في نفس الرشيد ، يجد شعراء أو خطباء أنفسهم وسط هذا الحشد المهيب ، ويكون عليهم أن ينشدوا الخليفة ما شاء من شعرهم أو شعر سواهم . فإذا ترك لهم الخيار ، عرضوا ما أعدّوا للحظتهم ، وقالوا ما وقفوا ينتظرون الفرصة لقوله . وأهم ما في هذا الذي يعرضونه ويقولونه أنه أدب تكسّبي ، مدحي في مجمله ، وأنه لم يكن بِدعةَ أيام الرشيد ، بل هو قديم قدم الشعر العربي . فالبلاطات العربية ، كما ذكرنا سابقاً ، اعتادت ، منذ أيام الجاهلية ، استقبال الشعراء والخطباء والبلغاء : تستل منهم المديح وتعوّضهم دراهم ودنانير ، ونوقا عصافير . والظاهر أن جميع ملوك العرب في الجاهلية ، سواء وجدوا في الصحراء أو في الحواضر ، أقاموا مجالس للأدب استقبلوا فيها الشعراء ووفود القبائل التي تقصدهم طالبة أو راجية أو شاكرة ، فتحظى بنوالهم وتكيل لهم التقريظ عرفاناً بالجميل . ففضلاً عن بلاطي الحيرة ودمشق ، اللذين خَلدت أخبارَهما أشعارُ النابغة الذبياني والنابغة الجعدي والأعشى وحسان بن ثابت وسواهم ، عُرفت بلاطات أخرى في مناطق مختلفة . فيكفي تتبّع أخبار شاعر متكسّب ، كالأعشى ، مثلاً ، لنسمع بذيَ فائش الحميري من ملوك اليمن ، وبقيس بن معديكرب ، ملك كنده ، وبملوك نجران من بني عبد المدان في اليمن ، وبصاحب اليمامة هوذة بن علي بن تمامة الحنفي . . . إلخ وممّا لا شكّ فيه أن البلاغة كانت محور هذه المجالس لأن التعبير

---

1 نهاية الأرب ج 4 ص 306 .

2 الأغاني ج5 ص 204 .

3 كان مسرور ، فضلاً عن وظائفه ، كخادم ، وكسيّاف وكمرافق أو أمين للسر ، يلعب دور الخازن المتنقّل يحمل معه دائماً ، حين يكون مع الرشيد ، مبالغ ضخمة من المال تحسّباً لعطاء يريده الرشيد نقداً فيدفعه فوراً . (انظر العقد الفريد ج6 ص 336) .

الفصيح عن الحاجة كان أفضل وسيلة لضمان قضائها ، كما أن حسن الاعتذار كان ضمانة للعفو والصفح . لذا كان قاصد البلاط يتأنق في إخراج تعبيره . وكانت الوفود تترك أفصحها أو أشعرها يتكلّم باسمها ، ولو كان أصغر أعضائها سنّاً . ولأن ظاهرة قدوم الوفود وطالبي العطاء استمرت طيلة عصور الجاهلية والخلافة الإسلامية (يأتون البلاط مرّة واحدة ، يأخذون ويمدحون ويرجعون) فقد عرف الأدب العربي كثيراً من اللمح الأدبية المتفردة والشعراء المغمورين والقصائد اليتيمة والإجابات البليغة التي تذهب مثلاً أو تصبح حكمة .

فالمناسبة الأدبية ، التي نتحدّث عنها ، كانت إذن ، إرثاً وصل إلى بلاط الرشيد عبر كلّ بلاط عربي سبقه . وهذه المناسبة كانت عادة ، دعوة عامة مفتوحة لأهل الأدب . وغالباً ما كانت موقوتة بمواسم أو بمرّات محددة[1] ، يتهيّأ لها الداخلون ، وتكون منافستهم في المجلس على أشدّها . وقد تخلق مناسبة أدبيّة ، غير موقوتة ، بعد ظروف الانتصارات والأحداث الكبرى ، كما يمكن أن ترتبط بالأعياد والاحتفالات الدورية . وقد كان الرشيد يفتح أبواب البلاط للأدباء ليدخلوا دخولاً عاماً ، ويعقد لهم مجالس الأدب ، شأن من سبقه من الخلفاء والملوك . إنما هذه المجالس هي غير التي تنمو على هامش مجلس إداري أو تنبت فجأة بمناسبة حدث من أحداث البلاط ، وما إلى ذلك مما سبق الحديث عنه ، وهي تتميّز بواقع الأدب الذي يقال فيها ، كما تتميّز بشكله وموضوعه .

أولاً : واقع الأدب في المناسبة الأدبية

إن ما نقل إلينا مما كان يدور في هذه المجالس يراوح بين الاستماع إلى شاعر يتصل بالبلاط للمرة للأولى وبين إذاعة الشعراء المعروفين في البلاط للجديد من إنتاجهم ، وبين ما تقوله الوفود من القبائل التي تأتي إلى البلاط سائلة ، طالبة لجماعتها عطفاً أو عطاء ، وأخيراً بين ما يقوله أصحاب الحاجات ، إما طلباً لعطاء أو دفاعاً عن موقف أو اعتذاراً عمّا ظهر من أخطاء .

1 ـ اتصال الشعراء للمرة الأولى : مرّ بنا أن اتصال الشاعر بالبلاط ، للمرة الأولى ، كان يتم من إحدى طرق ثلاث : إما أن يوصله أحد رواد البلاط المعروفين ، مغرياً الرشيد بسماعه ، مثيراً اهتمامه

---

1 يذكر الأصفهاني إشارة إلى استقبال عمرو بن الحارث الأعرج الغساني الشعراء مرّة كل عام (الأغاني ج15 ص241) وكان للمنذر بن ماء السماء يومان شهيران : يوم بؤس ويوم سعد (الأغاني ج 23 ص 410) . ويحدّثنا القرشي عن سنة اختطها النعمان بن المنذر في مجلسه وأسلوب الحوار فيه ودخول الشعراء إليه ، على لسان حسان بن ثابت (جمهرة أشعار العرب ص 32 وانظر العقد الفريد ج 2 ص 22) . ويشير السيوطي إلى إحدى المرات التي أذن فيها معاوية للناس «إذناً عاماً ، فلمّا احتفل المجلس قال : أنشِدوني ثلاثة أبيات لرجل من العرب ، كل بيت قائم بمعناه . . .» (تاريخ الخلفاء ص203) . وتحدد الأخبار بوضوح سُنة المهدي في استقبال الشعراء مرّة كل عام (الأغاني ج10 ص91) . وإذا استثنينا مجالس المنادمة ، فإن المجالس الأدبية ترتبط ، قبل الرشيد ، بالإذن العام ، وتندر المجالس الأدبية الخاصة . بينما تعدّدت المجالس الخاصة والعامة عند الرشيد وكثرت مناسباتها حتى ليصعب احصاؤها وفصل بعضها عن بعض .

له وتوقّعه لمتعة كبيرة يحملها عنصر جديد[1] ، وإما أن يسمع الرشيد بالشاعر فيبدي رغبة في رؤيته والاستماع إليه[2] ، وإما أن يقف بباب الخليفة منتظراً أن يفتح له أو له ولسواه في إذن عام ، ليدخل مع الداخلين ويدلي بدلوه مع المدلين ، متذرّعاً بموهبته للفت نظر الرشيد إليه علّه يصبح من أدباء القصر[3] . . . ودخول البلاط ، للمرّة الأولى ، أيًّا كان الحافز إليه وقوة الرغبة فيه ، هو حدث خطير بالنسبة إلى الذي يدخل ، ومصدر حَرَجَ كبير يفوق كلّ وصف . ففي ذلك الإطار المهيب لا بدّ من روعة تصيب الداخل للمرة الأولى ، روعة لا يمكن استباقها وتجاوزها مهما جمع الداخل من أطراف الشجاعة وللملم من الإرادة ، ومهما حضّر نفسه وهيّأ . بل إن التحضّر والتهيّؤ يغدوان سبباً من أسباب القلق المولّد للاضطراب . فالصورة التي يهيّيء الداخل نفسه لها من خلال ما يوصف له ، أقل بكثير مما يفاجأ به . ولعلّ كثرة ما يسمع عن الحاضرين ممن يدخلون ، ويعيون ، على فصاحتهم ، يزيد خوفه من العي ، وخوفه يزيد ارتباكه ، فإذا البليغ يتلعثم ، وإذا الفصيح لا يجد ما يقول ، وإذا الجريء يهاب[4] ، وإذا الرشيد يتبسم : لقد اعتاد مثل هذه المواقف ، وأعجبه دائماً أن يرى تأثير عظمة ملكه وإيوانه مباشرة على وجه الداخلين إليه وعينهم ولسانهم وحركتهم ، بل لعلّه كان يترقّب هذه اللحظات وما يصدر فيها عن الرائد الجديد ، فهي امتحان عسير ، إنما دقيق ، لصدق الموهبة وفيض الخاطر . وقد يأخذ الرشيد بتهوين الخطب وإمهال المرتبك ريثما يثوب إليه ما هرب من نفسه ، ويعود إليه وعيه وبصيرته ، فيقول ما يقول في الاعتذار عمّا أصابه ؛ ومن طبيعة الرشيد أن يتأثّر بمظهر الداخل ؛ بشكله وبنطقه . فإذا ارتاح إلى ذلك أصغى إليه بكلّ جوارحه وتتبّع أفكاره وتفهّم معانيه تفهّم الخبير ، حتى ليستبقها أحياناً[5] ويصحّح أخطاء فيها أحياناً أخرى[6] ، كما رأينا . ويطيب جو المجلس إذا وجد فيه من يشارك في النقد ويحسن التعليق فتقوم

---

1 راجع ص 99 من البحث (خبر دخول مسلم بن الوليد والأعرابي) .

2 راجع ص 62 هامش 3 من البحث (خبر دخول أشجع) .

3 راجع ص 98 هامش 2 من البحث (خبر دخول علي بن الخليل) وانظر ص 194 وما بعد (خبر دخول الأصمعي) .

4 في خبر دخول مسلم بن الوليد الذي يرويه ابن عبد ربه ، يستمهل مسلم الرشيد ريثما يفرخ روعه لأنه «لم يدخل على خليفة قط» (العقد الفريد ج 2 ص 18) والحصر أصاب الأعرابي الباهلي كذلك راجع ص 189 من البحث . ولا ننسى ما أصاب الأصمعي ، على شدّة تمنّيه للحظة الدخول . ويروي الحصري عن اتصال الفضل بن سهل بالرشيد أنه «لمّا رآه ، أفحم . فنظر الرشيد إلى يحيى كالمستفهم . فقال (أي الفضل) : يا أمير المؤمنين ، إن من أدلّ دليل على فراهة المملوك ، أن تملك هيبة مولاه لسانه وقلبه . فقال الرشيد : لئن كنت سكتَّ لتقول هذا ، فقد أحسنت . ولئن كان هذا شيئاً اعتراك عند الحصر ، لقد أجدت . . . وجعل لا يسأله ، بعد ذلك ، عن شيء إلاّ أجابه بأفصح لسان وأجود بيان . .» (انظر الوزراء والكتّاب ص 231 وزهر الآداب ج 2 ص 320) .

5 انظر الأغاني ج 19 ص 242 وما بعد في تعرّفه على المعاني الخفيّة في قصيدة سلم الخاسر وراجع ص 167 من البحث .

6 راجع ص 236 وما بعد من البحث .

مناظرات تعتمد ثقافة مروية أو ارتجالاً وقولاً على البديهة ، مما يؤكد شاعرية أو علماً . وكثيراً ما يحسّ المتنافسون بمشاعر تشمل الثقة بالنفس والغيرة والحسد ، والأسف على معنى سُبقوا إليه[1] . ونحاول ، بلمحة سريعة ، أن نلمّ بما روته الأخبار عن دخول شعراء إليه للمرّة الأولى ، ومعظم هذه الأخبار جرى تفصيلها في أماكن متفرقة من البحث .

أ ـ اتصال مروان بن أبي حفصة بالرشيد : وقصة الاتصال مشهورة إذ ترتبط بعنفوان الخليفة . ذاك أن مروان كان قد مدح معن بن زائدة ورثاه بعد موته قائلاً :

وقُلنا أينَ نَرحَـلُ بعـدَ مَعْنٍ ‏ ‏ ‏ وقد ذَهَبَ النَوالُ فلا نَوالا

وهذا النفي بلا استثناء رفضه الرشيد ، كما رفضه المهدي من قبله ، ولذلك أمر بجرّ مروان من رجله حين دخل إليه للمرة الأولى . لكن مروان كان مثابراً مصمّماً على الدخول . فأعاد الكرة بعد أيام فوجد نفس الرشيد قد اشتفت منه وتعطّشت إلى قول ما يمحو به الموجدة فأنشد قصيدته :

لَعمرُكَ ما أنسى غَداةَ المُحصَّبِ ‏ ‏ ‏ إشارةَ سلمى بالبنَانِ المُخضَّبِ

فأُعجب الرشيد بالقصيدة وأمر له بعدد أبياتها ألوفاً من الدراهم[2] .

ب ـ اتصال منصور النمري : وله قصّتان إحداهما يرويها المرتضى والأخرى الأصفهاني ، وكلتاهما تتّفقان على المناسبة التي دفعت النمري إلى البلاط : وهي وضع السيف في ربيعة ، كما تتّفقان على أثر هذا الدخول الأول وهو رفع السيف .

ويجعل المرتضى النمري يأتي في وفد من ربيعة إلى الرشيد الذي يطلب ممثّلين اثنين عن الجماعة ، كان أحدهما النمري . ويؤكّد أن النمري لم يكن قد «سُمع منه شعر قط قبل ذلك» وإن كان عرف عنه الأدب . وكانت قصيدته الأولى ، عينية : «ما تنقضي حسرة منّي ولا جزع . . .»[3] أما رواية الأصفهاني فتختلف كثيراً في الحيثيات . بل يذهب إلى اتهام النمري باستعارة شعر منصور ابن بجرة . ولعلّ ما عرف عن النمري من أنه لم يكن يقول الشعر هو مسوّغ صاحب الرواية هذه ، ولكن ما برهن عنه النمري بعد ذلك من ثبات قدم وعلو كعب في مضمار النظم يجعلنا نستبعد هذه التهمة . كما يذهب الأصفهاني إلى وصف النمري بدمامة الخلقة وقصر القامة وضآلتها والزرقة مع الحمرة ، إلى عمش . وهذه «المزايا» الجسمية جعلت ابن الربيع يستبعده من الداخلين مما أجبره على

---

1 حين قال النمري قصيدته الرائية وفيها : فإن قالوا : بنو بنت فحق . . . كان مروان يتأسّف على هذا المعنى أن يكون سبقه إليه ، وإلى قوله : «وما لبني بنات من تراث . . .» راجع ص 179 من البحث (الأغاني ج 13 ص 145) . وذكر صاحب الطيوريات ، بسنده إلى إسحاق الموصلي ، قال أبو العتاهية لأبي نواس : البيت الذي مدحت به الرشيد ، لوددت أني كنت سبقتك به إليه : قد كنت خفتك ثمّ أمّنني . . . (تاريخ الخلفاء ص 295) .

2 الأغاني ج 10 ص 91 وتاريخ بغداد ج 13 ص 144 .

3 أمالي المرتضى ج 4 ص 187 .

التوسّل بيزيد بن مزيد لإدخاله . ويجعل الأصفهاني قصيدة النمري اللامية هي التي تكسب له إعجاب الرشيد والعفو عن ربيعة ، بينما كانت العينية ، التي نسب إليه استعارتها ، سبباً في لفت النظر إليه . واللامية تبدأ ، كالعينية ، بالتشبيب والحسرة على الشباب ومطلعها : «أتسلو وقد بان الشباب المزايل . . .»[1] ويروي المرتضى قصة أخرى لدخول النمري وهي أنه «ورد على البرامكة ، وهو شيخ كبير» وأن البرامكة تقدّمته في الذكر عند الرشيد فأذن له بالدخول . وأنشد قصيدته الرائية : «أمير المؤمنين ، إليك خضنا . .»[2] وتتفق هذه الرواية مع رواية أخرى للأصفهاني تجعل البرامكة يذكرونه للرشيد فيتطلّع الخليفة إلى رؤية الشاعر وسماعه . فيتم ذلك يوم نوبة مروان وكانت قصيدته هي الرائية[3] . ونحن نستبعد أن تكون الرائية أول قصيدة قالها في الرشيد لأن الأصفهاني يروي قصّة غضب الرشيد على النمري إذ هجا آل أبي طالب أثناء مدح له فأنّبه ، نظراً للقرابة بين الهاشميّين والعلويّين ، فكانت قصيدة النمري الرائية بعد ذلك محاولة لإقامة توازن بين حب الرشيد لأبناء عمّه وكرهه لأعمالهم ضدّه[4] . والأرجح أن يكون الاتصال جرى بالقصيدتين : العينية التي أرسلها في رقعة حازت الاستحسان والثانية اللامية التي أنشدها حين نال الإذن بالدخول»[5] .

ج ـ **اتصال مسلم بن الوليد** : يتّفق البيهقي وابن المعتز على أن الاتصال تمّ بالقصيدة اللامية الشهيرة :

أديـــرا عـــليَّ الكأسَ ، لا تشرَبا قبلي ... ولا تَطلُبا مـــن عندِ قاتلتـي ذَحـلي[6]

وفيها يقول :

هَـلِ العيشُ إلاّ أن تروَح معَ الصّبا ... وتغدو صريعَ الكأسِ والأعينِ النُجلِ ؟

وقد علّق الرشيد على هذا البيت مخاطباً مسلماً : «أنت صريع الغواني ، فسمّي بذلك حتى صار لا يعرف إلاّ به»[7] . أما الوسيط للدخول فهو يزيد بن منصور الحميري . وظرف الدخول : «لَقَسٌ» في نفس الرشيد[8] كان دخول الشاعر سبباً في إزالته .

---

1 الأغاني ج 13 ص 151 .

2 أمالي المرتضى ج 4 ص 185 .

3 الأغاني ج 13 ص 141 وما بعد .

4 المصدر السابق ص 144 .

5 يتّفق الأصفهاني والبغدادي على أن النمري كان تلميذاً للعتابي وراوية لشعره (المصدر السابق ص 140) . ويضيف البغدادي إشارة لاتصال النمري بالبلاط مؤداها أن العتابي وصله بالفضل بن يحيى فاستقدمه من الجزيرة واستصحبه ثمّ وصله بالرشيد . (تاريخ بغداد ج 13 ص 66) .

6 طبقات ابن المعتز ص 239 والمحاسن والمساوىء ج 1 ص 181 .

7 طبقات ابن المعتز ص 239 .

8 المحاسن والمساوىء ج 1 ص 181 ويذكر ابن عبد ربه (العقد الفريد ج 2 ص 181) قصة القبض على مسلم

د ـ اتصال أشجع بن عمرو السلمي : وهو آخر شاعر وصلتنا إشارة إلى دخوله الأول على الرشيد . وهناك غير رواية لطريقة الاتصال . فالبغدادي يتحدّث عن اتصاله بالبرامكة واختصاصه بجعفر منهم[1] ؛ والعبّاسي يتحدّث في إحدى روايتيه عن هذا الاتصال بالبرامكة ويذكر تدخّل الفضل بن الربيع «واشياً» بهم عند الرشيد ، متّهماً إيّاهم بإخفاء أشجع عن الخليفة ، معدّداً محاسن الشاعر حتى اشتهى الرشيد سماعه فأمر بايصاله مع الشعراء[2]. والقصة الثانية لدخول أشجع مع الشعراء يرويها الأصفهاني والعبّاسي . ولا ذكر فيها لاتصاله بالبرامكة . بل هناك إشارة إلى تركه البصرة قاصداً الرشيد مباشرة بالرقة . ولمّا وجده غازياً عاد إليه بعد رجوعه من الغزو ، ودخل متوسّلاً «بعض أهل داره» الذين أَلِفهم أثناء انتظاره . وفي القصة وصف للمجلس الرسمي الذي أُدخل إليه أشجع ، والرشيدُ جالسٌ على كرسي وأصحاب الأعمدة بين يديه سِماطان» . ثمّ الرواية المعروفة عن وصول الدور إلى أشجع في الإنشاد ، وقد وَجَب وقتُ الصلاة ، فحاول تجاوز النسيب ، فتنبّه الرشيد وجعله بعيد الإنشاد من مطلع القصيدة :

تَذَكَّـرَ عهـدَ البِيضِ وَهْو لها تِرْبُ ⁂ وأيـامَ يُصبي الغانيـاتِ ولا يَصبو

وقد ختمها بقوله :

جَهدتُ فلـم أبلغْ عُلاكَ بِمدحةٍ ⁂ وليس على مـن كان مُجتهِداً عَتْبُ

وحاز أشجع إعجاب الرشيد ، وخصوصاً أنه اغتنم مناسبة العودة من الغزو الظافر لِيُشيد بعظَمة جيش الخليفة وجرأته في الحرب وتجاوزه مصاعب الطريق وأذلالِه لمنيع الحصون . من ذلك قوله :

= وأنس بن أبي شيخ بشكل يُفهم منه أن وصول مسلم في هذه الحالة إلى الرشيد كان لأول مرّة لأن الرشيد كان يجهل شاعرية مسلم وكاد يقتله لو لم يظهر فطنةً وحضورَ بديهة لفتتا نظر الرشيد ، ودعمَهما شهادةُ الحاضرين بأن الإبقاء عليه سيريه منه عجباً . وفي هذه المناسبة يرى ابن عبد ربّه أن مسلماً أنشد الرشيد قصيدته اللامية : أديرا عليّ الكأس . . . ونحن لا نستبعد أن يكون مسلم اتُهم بالتشيّع وأن يكون استتر ثمّ حُمل إلى الرشيد مع الزنادقة وأدخل إليه مع أنس ، ولكننا نستبعد أن يكون لقاؤه هذا للرشيد هو الأول . فربط المناسبة بقتل أنس يحدد وقتها بعد نكبة البرامكة أي بعد عام 187هـ والمعروف أن مسلم بن الوليد مدح الرشيد في رائيته (أعددت للحرب سيفاً من بني مطر . . .) وذكر إيقاعه بالروم ، مشيراً بلا شك إلى غزوة حصن الصفصاف (وكانت عام 181هـ) ومتوعّداً الخزربمصير مماثل (وكان اجتياحهم عام 183هـ) ، مادحاً يزيد بن مزيد الذي توجّه على رأس الجيش لحرب خاقان ملك الخزر ، ويزيد توفي عام 185هـ . ومن المعروف أيضاً أن الرشيد نبّه يزيد بن مزيد إلى قصيدة مسلم الميمية التي امتدحه بها وأعانه على مكافأته . ولمسلم كذلك مدح لجعفر بن يحيى حين أخمد فتنة الشام . وكان ذلك عام 180هـ . فكل ما قدّمناه يجعل مسلماً قريباً من الرشيد ، معروفاً منه ، قبل مقتل أنس بكثير .

1 تاريخ بغداد ج 7 ص 45 .

2 انظر معاهد التنصيص ج4 ص 226 ويجعل العبّاسي قصيدة أشجع هي الميمية المشهورة : قصرٌ عليه تحيّة وسلام . . .

بثثتَ على الأعداءِ أبنـاءَ دُرْبَـةٍ فلم يَقِهِم منهم حصونٌ ولا دَرْبُ

وكانت النتيجة أن أمر الرشيد لكل من الشعراء بعشرة آلاف درهم ولأشجع بضعفها[1] .

2 ـ **نشر الجديد من إنتاج أدباء البلاط** : وهذا الجديد يتوقّعه الرشيد دائماً من شعرائه وأدبائه ، يسألهم عنه[2] ، ولعلّه يقيم مجالسه لأجله . فكأنه يسابق الزمن ليستأثر بأكبر إنتاج أدبي . ويضاعف مجالسه ليتكاثر ذلك الإنتاج فيخلّد كل يوم ، بل كل لحظة في حياته . وهذه الظاهرة تجعل بلاط الرشيد يقترب أكثر فأكثر من سوق أدبية خاصة يشرف عليها الخليفة ، يفتتحها بإرادته ، ويختتمها متى حلا له ، يحدّد على هواه مواضيع الكلام وأوليات الحديث . فإذا أعجب بقصيدة شاعر نجده ، أحياناً ، يرفض الاستماع إلى غيره[3] أو يخصّص يومه لأبناء عصبية هذا الشاعر[4] . وتلك جائزة معنوية كبيرة تفوق ، في قيمتها ، أي عطاء مادي[5] . . . ويبدو أن تأثّر الرشيد بما يقال في بلاطه كان بحجم رغبته في سماع الجديد وحماسه له . وقد عرف له هذا التأثر حتى بات الشعراء والحاضرون يراقبون انفعالاته ويترجمون حركاته ؛ ونرى رواة الأخبار يسجّلون مظاهر هذه الانفعالات ، لا يُغفلون منها صغيرة ولا كبيرة . ونحاول ، فيما يلي ، أن نعرض بسرعة بعض مواقف يكون فيها الرشيد بمقابلة الشاعر ، هذا يُنشد ، وذاك يستمع إليه باهتمامه المعهود ، وفطنته وسرعة تأثّره : دخل أحمد بن سيار الجرجاني وأشجع السلمي وأبو محمد التميمي وابن رزين الخزاعي على الرشيد في الرقة . «أنشده أبو محمد التميمي قصيدة له يذكر فيها نقفور ووقعته في بلاد الروم . فنثر عليه الدر ، من جودة شعره»[6] أما أشجع فأنشد ، حسب رواية الأصفهاني ، قصيدته الميمية (قصر عليه تحية وسلام . . .) وحين بلغ إلى قوله : وعلى عدوّك يا ابن عم محمد . . . والبيت الذي يليه ، اهتزّ الرشيد وارتاح وقال : هذا ، والله ، المدح الجيد والمعنى الصحيح ، لا ما عللت به مسامعي هذا اليوم»[7] . وفي مكان آخر ، في وصف تأثّر

---

1 الأغاني ج 18 ص 144 .

2 انظر في عيون الأخبار ج 1 ص 94 وانظر في الكشكول ج2 ص 212 سؤال الرشيد لأبي نواس ، حين دخل عليه : «ما أعددتَ بعدنا ، يا أبا نواس ؟ . . .» والسؤال عينه وجّهه إلى كلثوم بن عمرو العتابي : «ما أحدثتَ بعدي يا عتّابي ؟» (الفهرست ص 131) .

3 حين هنّأ أشجع الرشيد بالعيد ، مشيراً إلى فتح هرقلة (أمست هرقلة تهوي من جوانبها . . .) أمر له بألف دينار وقال : «لا ينشدني أحدٌ بعده» . (الأغاني ج 18 ص 175) .

4 حين سمع الرشيد قصيدة الجرجاني ، قال : «الشعر في ربيعة سائر اليوم» . وردّد القول نفسه عندما سمع قصيدة النمري العينية . المصدر السابق ص 146 و 147) . راجع ص 260 من البحث .

5 يقول أشجع : «والله ، لأمره بألا ينشده أحد بعدي أحبّ إليّ من صلته» . (المصدر السابق ص 175) .

6 المصدر السابق ص 145 .

7 طبقات ابن المعتز ص 252 .

الرشيد بالبيتين المذكورين يقول مهرويه : «طرب الرشيد ، وكان متّكئاً فاستوى جالساً وقال : أحسن والله ، هكذا تُمدح الملوك»[1] . أما الجرجاني فقد أنشد قصيدته الرائية وفيها :

لا تَبعُدِ الأيـامُ ، إذ وَرَقُ الصِّبا خَضِلٌ وإذ غَضٌّ الشبابِ نضيرُ

فاستحسن الرشيد هذا البيت . وحين فرغ من الإنشاد طلب منه الفضل بن الربيع نسخة عن القصيدة ليحفّظها جواري الرشيد[2] .

والمتتبّع لأخبار إنشاد الشعراء ما نظموه ، في البلاط ، بشكل شبه مستمر ، وأحياناً بلا مناسبة يُعلَن عنها مسبقاً ، يظنّ أن المناسبة الأدبية قائمة دوماً ، وأن مجالسها في انعقاد مستمر . وهذه ميزة خاصة ببلاط الرشيد ، يكاد لا يشاركه فيها من سبقه من الخلفاء ؛ وقد جعلت الشعراء والأدباء لا ينتظرون الفرصة السنوية أو الموسمية ليأتوا فيمدحوا فيذهبوا بنوال ينفقونه على مهل ، إنما صيّرت دأبهم الوقوف ببابه وتوقّع دعوته لإدخالهم في كلّ لحظة ، يُسمعونه شعرهم ويأخذون منه عطاء ينفقونه سريعاً ، بلا حساب ، آملين ألاّ يتأخر العطاء التالي . وكأن أعطيات الرشيد للشعراء غدت مصدر عيش دائم لهم ، وكأن البلاط راح يقرب ، أكثر فأكثر ، من السوق بمعناها التجاري . وهذا ما ندرسه في وقته .

ثانياً : نوع الأدب المتداول في المناسبة الأدبية : القصيدة المدحية

إذا كان أدب المناسبات المختلفة يتطرّق ، حتماً ، إلى المدح لأنه لا يجوز أن يوجّه شعر إلى الخليفة ليس فيه مدح له ، فإن المناسبة الأدبية ، التي قد لا ترتبط بأي حدث آخر ، وتكون بالتالي هدفاً بحد ذاتها ، تغدو مناسبة مدحية بشكل مطلق . ومهما اختلفت حوافزها فإن أهدافها تتركّز على طلب العطاء أو العفو أو رفع الظلم ، كما أسلفنا . ولّما كانت هذه الأهداف ترتبط جميعها بإرادة الرشيد ، فلا بدّ من أن يكون نوع الأدب المقدّم إليه يتناسب وهذه الإرادة التي حدّدت الشكل بالقصيدة التقليدية ، وفق عمود الشعر القديم ، وهذا ما يجعلنا ننعت قصائد هذه المناسبة بالرسمية . فالرشيد ، الذي كان يقبل المقطوعات الشعرية والبيت أو الأبيات ، والكلمة الموجزة ، فضلاً عن الشعر المرويّ ، في مجالس أدبيّة خاصة ، لم يكن ، في هذه المجالس العامة ، يتساهل بقبول المدح المبتور الذي لا يسبقه المقدّمات المعروفة ، أو النسيب ، على الأقل[3] . وسبق لنا أن نسبنا تشبّث الرشيد بهيكلية الشعر القديم إلى عصبيّته العربية ، وذهبنا إلى أن موضوعات القصيدة الجاهلية أستعيدت أيام الرشيد بصفتها الرمزية ، لتمثّل العروبة في العمل الشعري مقابل العجمة التي أخذت على عاتقها التهجّم على كل ما يمت إلى العرب بصلة[4] . ونوضح هنا أن الرمز الذي

---

1 الأغاني ج 18 ص 146 .

2 الأغاني ج 18 ص 147 .

3 الأغاني ج 18 ص 144 وراجع ص 514 من البحث «دخول أشجع السلمي» .

4 راجع ص 286 من البحث .

نذهب إليه يعني أن شعراء الرشيد ، وغيرهم من المعاصرين ، حين كانوا يتداولون الموضوعات الجاهلية كانوا يطرقونها من حيث هي اصطلاح يوحي بمواقف ، لا من حيث هي معالم ترتبط بحياتهم . فالعمليات الاجتماعية والنفسية التي يعبّر عنها هذا الرمز علاقات إنسانية ، إذا نظرنا إليها نظرة مجرّدة أمكننا تخليصها من ظروف الزمان والمكان واعتدادها ، بشكلها المطلق ، صالحة لكل عصر وبيئة . فالفراق واللقاء والذكرى عمليات إنسانية يومية ، وإن لم ترتبط دائماً بالظعائن والأحمال . وريادة أماكن اللهو والسعادة أمر طبيعي ودائم ، يشدّ الفرد إليه حنين معروف عند البشر ، وإن لم يكن في هذه الأماكن بعر أرام وبقايا أثاف . والأمر نفسه يقال عن الغزل والتشبيب وعن الحسرة على أيام الشباب . . . وكل مادح يتوجّه إلى ممدوحه يجتاز إليه مسافات قد تطول أو تقصر ، وتعترضه دونه صعوبات قد تقلّ أو تكثر ، وإن لم يجتز إليه فيافي وقفاراً يلتمع فيها السراب ، وإن لم يركب ناقة يقارب عدوها عدو النعامة أو بقرة الوحش أو غيرهما من حيوان لم يره الشاعر في حياته . وعلى رغم وجود النفَس الصحراوي في وصف العبّاسيين لهذه المعالم فإنها باتت مختصرة ، تخلو غالباً من التفاصيل وتلوّنها أحياناً ألوان حضرية[1] ، على الخصوص في النسيب والتشبيب[2] . ونحن لا نأخذ على عاتقنا دراسة القصيدة العباسيّة ، بشكلها المطلق ، إنما الإشارة إلى إطار القصيدة التي وجهت إلى الرشيد والتي نحاول فيما يلي تحديد أبرز معالمها . ونكتفي هنا بدراسة مقدّمات هذه القصيدة ، وهي إما مدحية أو اعتذارية ، مفردين فصلاً خاصاً لمعاني الاعتذار ، وفصلاً آخر للمعاني المدحية . وبالنسبة إلى مقدّمات القصيدة الرسمية ، فإنها إذا خلت ، كل منها على حدة ، من عناصر القصيدة الجاهلية مجتمعة ، فإنها ، لا بدّ ، محتوية على بعض هذه العناصر ، مجملة أو مفصّلة . فنصادف فيها صورة الطلل والظواعن وطرق طيف الحبيب خيالَ المُحب المُسهَد ، وفيها صور الناقة القوية تجتاز الفيافي إلى الممدوح . ولا يخلو بعضها من ذكر البقرة الوحشية تعدو هرباً من مصير محتوم . ويكثر في هذه المقدّمات ذكر الشباب الزائل والشيب الداهم والصراع بين الغواية والتوبة ، ووصف الغواني اللواتي يلعبن باللب ويورثن الحسرات . وأخيراً لا بدّ لكل ما تقدم من أن يصب في خانة التوجه إلى الخليفة ، محط الآمال . ونفصّل فيما يلي ،بعض ما أجملناه :

---

1 انظر وهب روميه في «قصيدة المدح حتى نهاية العصر الأموي» ص 615 وما بعد و638 وما بعد .

2 مع تسجيل هذه الملاحظة على مجمل النتاج الأدبي العبّاسي لا بدّ من تسجيل ظاهرة لدى بعض الشعراء وهي إمعانهم في الغوص في معالم القصيدة التقليدية وإغراقهم في استثمار معانيها ، بل وتفصيل تلك المعالم ، كأنهم ، بذلك ، يتحدّون الجاهليين أنفسهم . وهم في الواقع يتحدّون الداعين إلى القديم كأنهم يحاولون إثبات كفايتهم الشعرية واللغوية ، ليؤكّدوا أن ثورتهم على القديم ، ومعظمهم من أبرز دعاة الجديد ، ليست بحافز التقصير . يكفي أن نطالع قصيدة أبي نواس في الفضل بن الربيع : «وبلدة فيها زَوَرْ . . .» لنرى مبلغ ما فيها من تحدّ للمعتزين بالقديم .

1 ـ صورة الطلل : وتبدو باهتة ، ضعيفة الألوان ، ضعيفة الظلال ، تتعلقها مشاعر النفس أكثر مما تتعلقها حواس السمع والنظر . يعطينا العتابي صورة سريعة لطلل بحَوّارين كشفت الرياح بقايا دِمَنِه . ويستخدم الصورة الممسوخة ليخفّف ما في نفسه من اضطراب أجرى الدمع من عينيه . فما قيمة هذه الآثار لتغمر بالماء إنسان العين[1] ؟ وبصورة تكاد تكون مطابقة ، يتوجّه نصيب الأصغر إلى نفسه يلومها على دموع غزيرة تذرفها لمجرد ذكر طلل ليس فيه إلاّ آثار تشبه كتابة في صحيفة أو وشياً على رداء :

أَمِنْ أجل آيـاتٍ ورسمٍ كأنه بقيـةُ وحي أو رداءٍ مُسلسَلُ
جرى الدمعُ من عينيكَ حتى كأنَّهُ تحـدُّرُ دُرٍّ أو جُمانٌ مُفَصَّلُ[2]

وكذلك يفعل أبو نواس إذ يتجاوز وصف الرسوم إلى وصف لواعج النفس التي تثيرها فيها تلك الرسوم . ويلمّ أبو نواس بهذه اللواعج متسلسلة بالأسلوب الذي عهدناه للجاهليّين : وقوف وبكاء ، طواف وعناء ، بحث عن شيء ولا شيء فحيرة كبيرة ، ثمّ يأس لا بدّ معقب ذلك كله يحوّل الشاعر إلى الناقة وإلى السرى ، يبحث فيه عن عزاء[3] .

2 ـ الظعائن وذكرى الفراق : تلك لحظة مصيرية تنطبع صورتها في النفس ؛ فإذا ما أثيرت أثارت معها الأحاسيس ، وأحيت في النفس اللوعة التي زادها الفراق الطويل عمقاً وحرقة يحاول إطفاءها الدمع المنسكب . والذكرى التي تجدّد الشوق تستدعي الوعد بالبقاء على العهد . فنصيب الأصغر يتذكّر ويتشوّق ويقسم :

خليليَّ ، إني ما يزال يشوقُني فطينُ الحمى والظاعنُ المتحمِّلُ
فأقسمتُ لا أنسى ليالِيَ مَنعِجٍ ولا مأسِلٍ ، إذ منزلُ الحي مأسِلُ[4]

---

1 رائية العتابي المشهورة وبها حصل على رفع السيف عن ربيعة ومطلعها :

ماذا شجاكَ ، بحَوّارينَ ، من طَلَلٍ وَدِمنةٍ كشفتْ عنهـا الأعاصيرُ
شجاكَ حتى ضميرُ القلبِ مُشترَكٌ والعينُ إنسانُها ، بالمـاء ، مغمورُ

(الأغاني ج 13 ص 123) .

2 لامية نصيب الطويلة ، يمدح بها الرشيد (المصدر نفسه ج 22 ص 402) .

3 يقول أبو نواس في قصيدته المعروفة . أبو الأمناء التي مدح بها الرشيد إثر إتمام البيعة لأولياء العهد :

لقد طالَ في رسمِ الديارِ بُكائي وقد طـالَ تَردادي بها وعَنائي
كأني مُريغٌ ، في الديارِ ، طريدةً أراها ، أمامـي ، مرةً وورائي
فلمّا بدا لي اليأسُ عَدَّيتُ ناقتي عن الدارِ واستولى عَليَّ عزائي

(الديوان ص 402) . وفي قصيدته النونية «حي الديار إذ الزمانُ زمانُ . . .» يحن إلى سفوان حيث ذاق الهوى والسعادة ، ويَعِدُ بأن يمر دائماً بالديار ليسلم عليها فديار أميمة لن تشكو من هجرانه . (الديوان 404) .

4 الأغاني ج 22 ص 400 .

وأبو الشيص يتذكّر من كان قريباً فغدا بعيداً فيحق لعينيه البكاء :

فحُـقَّ لعينيـــكَ ألاّ تجــفَّ دموعُهمـا ، وهمـا تطرفـانِ
ومن كان في الحيِّ بالأمس منك قريـبَ المكـان بعيـدُ المكـانِ[1]

ويمعن أبو الشيص في وصف الشوق الذي يثيره فيه نعيبُ الغراب ، وهذا النعيب هو الذي يذكّره بالفراق لأنه داعية دائم له . ويصف العتابي السهر الذي انتابه نتيجة اضطرابٍ ولّده الشوق والحنين ، فيصوّر جفنيه أصابهما قِصَرٌ فلا يلتقيان[2] . ويذكر سلم الخاسر ساعة الرحيل وركوب الظعائن هوادجهنّ فيعصف به الشوق ويلج به الهوى[3] .

3 ـ وصف الغانيات وحديث المغامرة الغرامية : الغانيات هنا هنّ النساء كما عرفهنّ الشعر القديم ، نساء الهوادج والخيام والإقامة والظعن . ومثاليتهن هي مثالية المرأة الجاهلية . والعلاقة بهن علاقة مسروقة تخفى عن أعين الرقباء وتنكر في الملأ خوفاً من اشتهارها وما يعقب ذلك من أذى وحرمان[4] . حتى التشابيه التي تستخدم للوصف وللتعبير عن المشاعر تشابيه بدوية ، وإن كان الوصف ، بصورة عامة ، مجملاً ، سريعاً ، لا تفصيل فيه . هذا مسلم بن الوليد يتحدّث عن الإغراء الذي يغلب التعقّل ، والذي تمارسه النساء القريبات إلى الهوى ، الممتنعات عنه ؛ هنّ بُدور ، في الوجوه ، وهنّ أغصان ، في القدود ، وهنّ كثبان في الأعجاز ، يشبهن ، في صورتهنّ ، بقراتِ الوحش النافرة[5] . ويمعن مسلم في هذه المثالية البدويّة : خفّة ورشاقة من فوق ، ثقل وبطء من تحت :

---

1 طبقات ابن المعتز ص 78 .

2 يقول : في ناظـريَّ انقبـاضٌ عـن جفونهمـا وفي الجفونِ عـن الآمـاقِ تقصيرُ
لو كنتِ تدرين ما شوقي إذا جَعَلَتْ تنأى بِنا وبِـكِ الأوطانُ والدُورُ
(الأغاني ج 13 ص 123) .

3 يقول سلم من قصيدته في مدح الرشيد بعد عودته من الحج وقد عدّد فيها أبطال الدولة العبّاسية :
حضرَ الرحيـلُ وشُدَّتِ الأحـداجُ وغـدا بهـنَّ مُشمِّـرٌ مِزعاجُ
للشَوقِ نيـرانٌ قدَحْـنَ بِقلبِـهِ حتـى استمـرَّ بـه الهوى المِلجاجُ
(المصدر السابق ج19 ص 213) .

4 أبو نواس : إنـا نَسَبنا ، والمناسِبُ ظِنّـةٌ حتى رُميتِ بنا ، وأنتِ حَصَانُ
(الديوان 404) .

5 يقول مسلم في مطلع رائيته المشهورة التي منها : «أعددتَ سيفاً من بني مطر . . .» :
يرميـه بالحـزمِ معقولٌ فتنزعُهُ إلى التصابي القريباتُ الهَوَى النُفُرُ
أهِلَّةٌ فوق أغصانٍ ، على كُثُبٍ كأنّها صُـوَرٌ تمشي بها البَقَرُ
(الديوان ص 253) .

إذا أطاعتْ ، عَصَاها ثِقْلُ رادِفِها ، كالدِعْصِ يَفرعُـه غُصنٌ مـن البَانِ
كأنها ، بعدما قـام الصباحُ بها ، وَسْنَى تمشّت بهـا أعطافُ نَشْوانِ
وَلَّتْ كما انساب ثُعبانٌ ، وقد نَهَضَتْ ، إلاّ وقيـذةَ أردافٍ وأركـانِ[1]

وهذه الحسناء التي تنفلت من مسلم في الصباح ، بخفّة ثقيلة ، هي التي أمضى معها ليلة لا يكاد النجم يظهر فيها :

وليلـةٍ ، مـا يكادُ النَجمُ يَسْهَرُهـا سامرتُهـا بِقَتُـول الـدَلِّ مِفْتـانِ[2]

ولا تقلُّ أوانسُ علي بن الخليل عن «قَتول» مسلم ، صورةً ومثاليةً وألفاظاً بدوية ؛ فهنّ كبقرة دُجّنت اتسعت عيناها وعلا السواد شفتها البيضاء ، وتضمّخت بالطيب وراحت تخالس النظر ، مرحّبة به على حياء[3] . أما أبو الشيص فمغامرته ليلة جامحة قصر فيها سهره على المحبوبة بين دفوف تُقرع وقيان تعزف وخمرة تُسقى . فهي أقرب إلى قينة عبّاسية[4] .

4 ـ **خيال الحبيب وسهر الليل وضعف التجلد** : هذا الموقف ، البعيد عن حياة الحضر وسهل العيش اللذين عرفهما العبّاسيون ، طبيعي لدى البدوي المحب ؛ يفارقه أحبابه ويشتطّ بهم النوى ، فيعمد إلى الطواف ببقايا الديار وأماكن اللقاء . ثمّ يستعيد الذكريات ويتخيّل الحركات والهمسات ، حتى يكاد يلمس ويسمع . فإذا ما اشتد به هاجس المحبوب واختلط واقعه بالخيال ، فإن صورة الغائبين ترتسم أمامه ، بلا شكّ ، في حلم من أحلام اليقظة أو في لحظة من لحظات المنام . وقد عرف الشعر الجاهلي هذا الموقف واستخدمه الشعراء كثيراً حتى غدا أحد المعالم التي ورثها عنهم مقلّدوهم من الإسلاميّين والأمويّين والعباسيّين . فمسلم بن الوليد يطرقه خيال المحب النائي ، وما إن يراه حتى ينهار كلُّ ما راضَ نفسه عليه من صبر . لكنّ الطيف لا يعايش الحقيقة ولا يطيل المكوث مع يقظان متنبه ، فلا يلبث أن يمضي ، تاركاً السهد للجفون . وهو يعاود : فكلّما أطبق الجفنان يطلبان النوم ، تجلّى من جديد ليطرده عنهما . وإذا أمكـن قلبَـه العزاء والسلوان ارتسم له وأوتر سهمين من عينيه أصابا صميم

---

1 ديوان مسلم ص 124 (الوقيذة : المثقلة) .

2 المصدر السابق ص 123 .

3 يقول علي بن الخليل في سينيّته التي أمّنت له عفو الرشيد :

مـا ذاك إلاّ أنني رجـلٌ أصبو إلى بقـرٍ مـن الإنسِ
بقـرٍ أوانسَ ، لا قرونَ لهـا ، نُجلِ العيون ، نواعـمٍ ، لُعْسِ
رَدْعُ العبيرِ عـلى ترائبِهـا يُقبِلـنَ بالترحيـبِ والخَلْسِ

(الأغاني ج 14 ص 168) والرَدْع : أثر الطيب في الجسد .

4 طبقات ابن المعتز ص 78 .

القلب[1] . وقد استثمر مسلم هذه الصورة حتى لم يدع فيها مجال زيادة لسواه . فهو يتناول المعنى مرّة أخرى في قصيدته على النون :

سعت علـيّ لياليهـا بزائـرةٍ زفّ الكرى طيفَها وَهْناً فحيّاني
باتت تَـأَبّى وما تدري بما صنعت بنائـمٍ ، وَرَنَّتــه سُؤْلَ يقظان[2]

ويستقبل منصور النمري طيف المحبوبة ، ورفيقتها كأنهما تجسّدتا أمامه ، فيحيّي ويسلّم :

يا زائرينـا من الخيـامِ حيّـاكما اللهُ بـالسلامِ
يحزنُنـي أن أطفتُما بي ولم تنـالا سوى الكلامِ[3]

وفي عملية استدعاء الطيف والتأثّر به وطرده ومحاولة النسيان يقوم صراع دائم لا يغفل عن ذكره شاعر تحدّث عن الطيف والذكرى . ولا بدّ من عزاء . قد يكون العزاء ركوب الناقة والارتماء في أحضان الصحاري ، كما رأينا ، أو يكون العزاء في الخمر ، في التوجه :

إلى بيت حـانٍ لا تهـرُّ كلابُـه عَلَيَّ ، ولا يُنكِرْنَ طولَ ثَوائي[4]

5 ـ الشباب والمشيب والتصابي والتوبة : إن أولى الشعرات البيضاء تظهر في الرأس تشكّل إنذاراً للشاب الغرير بأنه غدا على مفترق طرق ، وأنه آن لجهله أن يتوقّف ولغوايته أن تنتهي وللحلم أن يزينه . والغواني أنفسهنّ تُغيّر الشعرةُ البيضاء موقفهنّ[5] . وهذا الموقف إنساني مطلق ، إذا استثمره الجاهليون فلا يمكن أن يكون وقفاً عليهم . ويبدو أن الرشيد ، كما سبق لنا القول ، حين غدا في منتصف العمر ، بات شديد التأثر بهذا المعنى فكثر في أشعار

---

1 يقول مسلم في داليته التي يمدح بها الرشيد :

خيالٌ مـن النائي الهوى المتبعِّد سَرَى فسرى عنـه عزيمُ التجلُّدِ
دعا وَطَراً ، حتى ، إذا ما أجابه ، أطاف بمطروفِ الجفونِ مُسَهَّدِ
إذا أَلِفَ النومُ الجفونَ تقسّمت كَـرَاهُ تباريحُ الهـوى المُتَجَدِّدِ
إذا أمكــن السلوانُ حَبَّـةَ قلبِهِ ثنى شوقَه سهمـانِ رِيشا بإِثْمِدِ

(الديوان صريع الغواني ص 69) .

2 المصدر السابق ص 125 .

3 طبقات ابن المعتز ص 247 والأغاني ج 13 ص 139 .

4 ديوان أبي نواس ص 402 .

5 يقول مسلم بن الوليد واصفاً لحظات التجاذب عند مفترق الشباب والمشيب :

تبكي لبيضاءَ لاحتْ في مفارقِهِ بيضاءُ لا ينقضي منها لـه وَطَرُ
يَروعها الشيب تاراتٍ ويُعجبها بقيـةٌ منـه لم يعنُف بها الكِبَرُ

(الديوان ص 253) .

روّاده ، خصوصاً أن معظمهم كانوا في مرحلة مشابهة من العمر ، وأن طرق هذه المعاني يرضي داعية الجديد ويعجب داعية القديم . والمعاني التي لا بدّ ، واردة في هذا المضمار هي الحسرة على الشباب الزائل وعلى ما يتبع ذلك من تقصير في ميادين الغرام ، وانصراف الغواني عمّن ابيضّت منه اللِّمَّة ، وإذا أظهرن العكس فهذا لا يخفي تماماً حقيقة الجفاء القابع في نفوسهنّ ، ولا لوم عليهنّ فيه[1] . ويتلو ذلك تعزية النفس ورياضتها على التعقّل وصدّها عن الجهل . هذا أبو الشيص يَحِنُّ إلى أيام الصبا ويتمنّى عودة السعادة ثمّ يتوقّف عن التمنّي مواجهاً نفسه بالحقيقة : الشيب يقف حاجزاً أمامه لا يمكن تجاوزه :

فهل لكَ يا عيشُ من رَجعةٍ — بأيامــكَ المونقاتِ الحِسانِ ؟
فيــا عيشَنا ، والهـوى مُورِقٌ — لــه غُصُنٌ أخضرُ العودِ دانِ
وهيهاتَ يــا عيشُ من رَجعةٍ — بأغصانكَ المائــلاتِ الدواني
لقد صَدّعَ الشيبُ مــا بيننا — وبينكَ صَدْعَ الرداءِ اليماني[2]

ويرسم أبو الشيص صورة الشاعر الذي اعتاد مغازلة الحسان ثم دهمه الشيب فبدأن يتحوّلن عنه :

فأقصرتُ لما نهاني المشيبُ — وأقصر عن عذليَ العاذلانِ
وعافت عَيوفٌ وأترابُها — رُنُوّي إليها وَمَلّت مكاني
وراجعتُ لما أطار الشبابَ — غُرابانِ من مَفرِقٍ طائرانِ
رأتْ رجلاً وَسَمَتْه السنونُ — بريب المَشيب ورَيب الزمانِ
فصدّتْ وقالتْ : أخو شَيبةٍ — عديمٌ . ألا بِئستِ الحالتانِ[3]

ويظهر منصور النمري ، في قصيدته العينية ، متألّماً متحسّراً على فوت الشباب . وقد استطاع أن يُبرزَ ما في أحاسيسه من التناقض . فهو مُتَحَسِّرٌ جَزِعٌ ، وهو يعزّي نفسه بأنّ ذهاب الشباب يعني ذهاب الطيش وخدع النساء ومصائب التهوّر . ثمّ هو يحاول التعالي على الجراح : ليس أولَ

---

1 نجد ذلك في عينية النمري إذ يقول إزاء تعجب فتاته من بكائه ، بأنها لم تذق ما ذاق :

تَعجّبتْ أن رأت أسرابَ دمعتِهِ — في حَلْبَةِ الخدِّ أجراها حشىً وَجِعُ
إن كنتِ لم تَطعمي ثُكلَ الشباب ولم — تَشْجَيْ بغُصّتِــهِ ، فالعــذْرُ لا يَقَعُ
لا أَلْحيــنَّ فتاتــي ، غير كاذبــةٍ — عــين الكذوب ، فما في وُدِّكُمْ طَمَعُ

(طبقات ابن المعتز ص 245 وزهر الآداب ج 3 ص 668) .

2 طبقات ابن المعتز ص 78 .

3 المصدر السابق ص 79 .

من سُلِبَ شبابَه ، وليس ذهابُ الشيب هو آخر الدنيا[1] . ويعلن منصور توبته عن اللهو والتصابي ويأسف لرجوع محبوبته ورفيقتها (في الخيال طبعاً) دون أن ينالا منه وطراً :

هيهاتَ للّهــو والتصابي ... وللغــواني وللمُــدامِ
أقصرَ جهلي وثَابَ حِلمي ... ونَهْنَهَ الشيبُ من عُرامي
لله حِبّــي وتِربُ حِبّي ... ليلــةَ أعياهمــا مَرامي[2]

ومروان بن أبي حفصة يصحو بعد جهل فينحسر عنه الباطل عندما ينتابه المشيب ومن يعمّر لا بدّ ذائق الشيب :

صحا بعد جهلٍ ، فاستراحت عواذلُهْ ... وأَقصَرَ عنــه ، حين أَقصَرَ ، باطِلُهْ
ومــن مُــدّ في أيامِـهِ فتأخّرَتْ ... مَنيَّتُهُ ، فالشيبُ ، لا شكَّ ، شاملُهُ[3]

ومسلم بن الوليد ، صريع الغواني ، أصبح يعيش على ذكرى مغامراته :

سائِلْ جديدَ الهَوَى ، هل كُنتُ أُخلِقُهُ ... إذ للصِبى مِهجةٌ تمشي بجُثماني

ويعلن توبته عن الجهل :

لَقَـدِ اطَّلَعْـتَ على سِرِّي وإعلاني ... فاذهبْ لشأنكَ ، ليس الجَهْلُ من شَاني[4]

ولأبي نواس توبة نزع فيها «عن الغواية والصبا»[5] ولأبي العتاهية توبة عنيفة تضع الموت نصب العين وتطلب من الناس صيانة دينهم في صيانة أنفسهم[6] . ولا شكّ في أن هذه التوبة عبّاسية لا جاهلية ، وهي تندرج ضمن ما ذهبنا إليه من أن هذا الموقف الإنساني لايمكن تحديده بزمان .

---

1 يبدو النمري ملتاعاً في حسرته على شبابه وقد نالت أبياته في وصف الشباب الزائل إعجاب الرشيد حتّى إنه علّق عليها متمثّلاً بشعر . يقول منصور :

ما تنقضي حسرةٌ منّي ولا جَـزَعُ ... إذا ذكـرتُ شباباً ليس يرتجعُ
ما كان أحسنَ أيـامَ الشباب وما ... أبقى حـلاوةَ ذكـراهُ التي تَدَعُ
ما كنتُ أوفي شبابـي كُنه غُرَّتِهِ ... حتى انقضى ، فإذا الدنيا له تَبَعُ
ما كنتَ أولَ مسلوبٍ شبيبَتَــه ... مكسوِ شيبٍ ، فلا يذهبْ بك الجَزَعُ

(تاريخ الطبري ج 8 ص 362 والأغاني ج 13 ص 151 وزهر الآداب ج 3 ص 668) وراجع ص 87 هامش 4 وص 224 من البحث .

2 طبقات ابن المعتز ص 246 .

3 أمالي المرتضى ج 2 ص 169 .

4 ديوان صريع الغواني ص 121 .

5 ديوان أبي نواس ص 404 .

6 يقول أبو العتاهية من أبيات مدح بها الأمين ولي العهد :

لاحَ شيبُ الرأس منّي فاتّضحْ ... بعــدَ لهـوٍ وشبابٍ ومَرَحْ

6 ـ **وصف الناقة** : وهو أمر لا بدّ منه ، فالناقة تحمل الشاعر عبرالمفاوز لتوصله إلى الممدوح ، إذ لا يليق به أن يأتيه من مكان قريب ودون مشقّات سفر . وأبرز من يركب الناقة بهدف المدح أبو نواس . وناقته بيضاء خالصة البياض كقرطاس الوليد الناصع ، وهي شديدة البنيان ، دقيقة الأنف ، مسبلة المشافر سهلة القياد[1] . ويصف أبو نواس اضطراب النوق وسرعتها الناجمة عن حنينها إلى أعطانها ، مشبّهاً نظراتها بنظرات بقرة وحشية تسرع إلى جؤذرها الذي لم تنجب سواه فتجده شلواً ممزّقاً . . .[2] ولمسلم بن الوليد ناقة قوية صلبة اعتادت سُرى الليل فارتاحت إليه ، تضرب أخفافُها الحصى بقوّة فتتطاير لتضرب بحصى أخرى عن غير قصد :

بوجناءَ حَرْفٍ يستجدُّ مِراحَها مِراحُ السُّرى والكوكبِ المتوقّدِ
إذا قَدَحتْ إحدى الحصى قذفتْ بها فتقذِفُ في أخرى ، وإن لم تَعَمَّدِ[3]

يتحوّل نُصيب عن الحسان المزدرياتِ الشيبَ إلى جمل شق ناباه ، أصيل ، عريض الزور سريع ، إذا ما عدا سبح باليدين وأشرع عنقه واصطك ناباه كالمقرور . يقول :

وعُجتُ إلى جَمَلٍ بازل رحيبِ رحى الزَور ، فحلٍ ، هِجانِ
سَبوحِ اليدين ، طموحِ الجِران غـؤولٍ لأنساعه والبِطانِ
فعضّيتُ أعوادَ رحلي به ونابـاه من زَمَعٍ يضربان
فلمّا استقلّ بأجرانِه ولان على السيرِ بعضَ اللّيان
قطعتُ به . . . .[4]

ويركب مسلم ، إلى الرشيد ، في مرّة ثانية ، ناقة تسابق الريح وتشبه الظليم في سرعة عدوها ،

= فلَهَونا وفَرِحنا ثمّ لم يَدَعِ الموتُ لِذي لُبٍّ فَرَحْ
(ديوان أبي العتاهية ص 118) .

1 يقول في قصيدة يمدح بها الرشيد بالحج والغزو :
لمّا نزعتُ عن الغِواية والصِّبا وَخَدتْ بيَ الشَدَنيَّةُ المذعانُ
سَبْطٌ مشافرُها ، دقيقٌ خَطمُها وكأنّ سائر خَلقِها بُنيانُ
واحتازها لونٌ جرى في جِلدِها يَقَقٌ كقِرطاس الوليدِ هِجانُ
(الديوان ص 404) .

2 من هذه القصيدة بعنوان : «خليفة لم يسبق» نجتزىء وصف البقرة الوحشية :
خنساءُ تَرعى جؤذراً بخميلةٍ وبها إليهِ صَبابةٌ كالأَوْلَقِ
(الديوان ص 400) .

3 ديوان صريع الغواني ص 76 .

4 طبقات ابن المعتز ص 79 .

فإذا ما اندفعت في السير ، عند الفجر ، تحسبها ظبية أفلتت من رمية الصيّاد فنفرت لا تلوي على شيء[1] . ويشارك منصور النمري في هذا السباق :

بِخُـــوصٍ ، كالأهلَّـــةِ ، خافقاتٍ ، تَلِـــينُ عــلى السُرى وعلى الهجيرِ[2]

بينما يعدو نصيب :

على أرحبيّاتٍ ، طوى السيرُ ، فانطوت ، شمائلُهـــا ، ممـــا تُحَـــلُّ وتُرحَلُ[3]

7 ـ وصف المفاوز التي يقطعها الشاعر إلى الممدوح : إنها صحارى مقفرة ، يصعب عليها السير ، مخيفة تقطع أرجل عابري السبيل عنها فلا يجرؤ أحد على اجتيازها ، تتجاوب في أنحائها أصوات الريح فكأنها عزيف جِنٍّ في تلك القفار . أما سطحها فصخور هائلة تمنع اللحظ من أخذ مداه ، ورمال تتناثر متموجة كأنها حرف مبرد ، وهي مفعمة بالأصوات والأصداء تتردّد فيها من كل جانب[4] . وفي الصحراء منبسطات تنخرق فيها الرياح ويضلّ فيها الهادي[5] . وفيها الفلوات الواسعة تعلوها المرتفعات وتهبط بها الوهاد[6] . والصعوبات التي تعترض من يجتاز الفلوات الواسعة هي اضطراره إلى مواصلة السير فيها فلا يتوقّف نهاراً خوفاً من حرّ الهجير ولا ينزل ليلاً خوفاً من مفاجآت الظلام . فهو على ظهر الناقة ليل نهار يقاوم النعاس ويقاوم التعب ويقاوم الهواجس والمخاوف[7] . يقول علي بن الخليل :

---

1 والوصف في قصيدة مسلم على النون ، ومنه :

كأنّ إفلاتَهـــا ، والفجرُ يأخذُها ، إفلاتُ صادرةٍ عــن قَوس حُسبان

(الديوان ص 127) .

2 الأغاني ج 13 ص 142 .

3 الأغاني ج 22 ص 401 .

4 نرى ذلك كلّه في دالية مسلم بن الوليد ، نجتزىء منها :

وقاطعــةٍ رِجــلَ السبيل مخوفــةٍ كأنّ عــلى أرجائهــا حــدَّ مِبردِ

مــؤَزَّرَةٍ بــالآلِ فيهـــا كأنهـا رجــالٌ قُعــودٌ في مُــلاءٍ مُعضَّدِ

(الديوان ص 74) .

5 أبو الشيص : قطعــتُ بــه مــن بــلادِ الشآم خَروقــاً يَضِلُّ بهــا الهاديــان

(طبقات ابن المعتز ص 80) .

6 العماني : فجئــتُ مــن حَنظَلَـــةٍ وسَعْـدِ أطــوي الدياميمَ بِسَيرٍ إدِّ

على بنــاتِ الأرحبيّ الوَخْدِ بِكُــلِّ نَشْزٍ وبكــلِّ وَهْــدِ

(المصدر السابق ص 112) .

7 مسلم بن الوليد :

أخذْنَ السُرى أخذَ العنيفِ وأسرَعَتْ خُطاها بهــا والنجمُ حيرانُ مُهتدِ

كَـمْ قدْ قَطعتُ إليكَ مُدَّرِعاً ليـلاً بهيـمَ اللـون كالنِقْسِ[1]

8 ـ التوجّه إلى الممدوح : وهو النقلة الفنّية الموروثة عن القدماء . فكل ما ذُكر وعُرض ، له هدف واحد : إفهام الممدوح أن الشاعر الواقف أمامه لا يقدُم إليه كعابر سبيل ، بل يأتي إليه قاصداً ، طامعاً ، تاركاً خلفه تجارب الحياة ومشقّاتها . وغالباً ما يكون الانتقال في بيت واحد ، نصفه تلخيص للمشقّات والآخر ذكر للتوجه إلى الممدوح ، مع الإشارة إلى أن بعض الشعراء الذين لا يستسيغون الإمعان في وصف الناقة والسرى والمفاوز ، يختصرون كل ذلك ببيت الانتقال هذا . ونحاول أن نلمّ بمجموعة من الأبيات تصور هذه النقلة ، تأكيداً لدورها الفنّي :

نُصيب الأصغر ، وهو ممن يختصر المقدّمات بهذا البيت :

قَصَدْنـا أميرَ المؤمنين ودونَـه مَهامِهُ مَوماةٍ من الأرضِ مَجهلُ[2]

منصور النمري :

أميرَ المؤمنـينَ إليـك خُضنا غِمـارَ الهول من بلـدٍ شطيرِ[3]

أبو نوّاس :

إنّا إليكَ ، من الصليتِ فداسِمٍ طلعَ النِجادَ بنا وظيـفُ الأينُقِ[4]

مسلم بن الوليد :

إليكَ ، أمينَ الله ، ثارت بنا القَطا بناتُ الفلا في كل مَيثٍ مُسَرَّدِ
أقلّتْ إليكَ الناجيـاتُ مُعَرِّساً على أملٍ ، جوّابَ بيـداءَ قَرْدَدِ[5]

ولمسلم أيضاً :

إلى الإمـامِ تهادانا بِأرحُلِنـا خَلَقٌ من الريحِ في أشباحِ ظِلمانِ[6]

ويلي هذه النقلة مباشرة تصوير باب الخليفة منتهى الأمل ومستراح البلابل ومحط الأحمال :

متى تبلُـغِ العيسُ المراسيلُ بابَهُ بنا فهناك الرَّحبُ والمنزلُ الرَحبُ[6]

= يكـون مَقيـلُ الركـبِ فـوق رِحالِهـا إذا مَنَعت لمسَ الحصى كلُّ صَيْخَدِ
(الديوان ص 74) . (الصيخد : شدة الحر) .

1 زهر الآداب ج 4 ص 866 وأمالي المرتضى ج 1 ص 102 . (النقس : المداد) .

2 الأغاني ج 22 ص 400 .

3 أمالي المرتضى ج 4 ص 184 والأغاني ج 13 ص 141 .

4 ديوان أبي نواس ص 399 .

5 ديوان صريع الغواني ص 73 و 76 .

6 المصدر السابق ص 126 .

7 من قصيدة أشجع السلمي (الأغاني ج 18 ص 144 ومعاهد التنصيص ج 4 ص 63) .

حتى ، قبل الوصول إليه ، كان الرجاء بالدخول عليه كافياً لدفع جميع حوادث الدهر التي كانت تتراءى لمسلم :

تراءت لــه الأحداثُ حتى إذا اقتنى رجاءك ، صدّتْ عنه عن قُربِ مَعهدِ[1]

وكان مجيء أبي الشيص ، من بلاد الشام ، وعبر المتاهات :

إلى ملـكٍ مـن بنـي هاشمٍ كريـمِ الضرائـبِ ، سِبْط البَنان[2]

وكانت النوق التي تحمل منصوراً النمري تحمل معها آمالاً كباراً تضيء حياته كالصبح والقمر :

حملـن إليك آمـالاً عظامــاً ومثـلَ الصُبحِ والبـدرِ المنيـرِ[3]

9 ـ **صور حضرية** : إذا كان هيكل القصيدة القديمة مفروضاً في القصيدة الرسمية ، وإذا كان على الشاعر ترسم معالم القدماء في أغراضهم الشعرية ، فهذا لا يمنع من وضع صورة جديدة في الإطار القديم . من ذلك مثلاً ، صورة الصيّاد الذي يتربّص بالبقرة الوحشية . وهي صورة عزيزة جداً على قلب الجاهلي ، لكنها بهتت واضمحلّت في بلاط الرشيد ، وقد استطاع أبو نواس أن ينحرف بالصورة إلى أسلوب قديم في الصيد استمر في الحياة الحضرية وبات من تسلية علية القوم وهو الصيد بالباز أو بالصقر . والصقر الذي يصفه أبو نواس مدجّن ، مدرّب ، ميّزته علامة ، ووُضعت في قوائمه المستدقة أجراس ذات جلاجل . عيناه كعقيقتين عالقتان في أعلى رأسه . أما ثوبه فرائع كأنه الديباج يخلقه إذا ما زمجر ونفش ريشه وتهيّأ للهجوم . هذا الصقرصادق في معركة الصيد يهاجم سرب الإوز يختارأفضلها لينشب فيها أظفاره ويحملها إلى مدرّبيه يأكلون من لحمها ويقدّدون[4] .

ونستطيع الآن أن نؤكّد ما قدّمناه سابقاً من أن بناء الشعر الجاهلي غدا وسيلة لرسم خطوات القصيدة . ولئن استعار الشعراء صور البادية ومواقفها ، وأحياناً كثيرة تعابيرها ، فقد اختصروا الكثير من التفاصيل التي لم يتسنّ لمعظمهم معاينتها ولا رؤيتها ولا معرفة قيمتها الإيحائية . وكانوا من خلال الإطار التقليدي ، ينفذون أحياناً إلى التعبير عن تجربة لهم حقيقية ، والحديث عن صراعات عرفتها أنفسهم البشرية ، فأرضوا بذلك الإمام وأرضوا المهارة اللغوية التي يتباهون بها ،

---

1 ديوان صريع الغواني ص 76 .

2 طبقات ابن المعتز ص 80 والضرائب : السجايا .

3 الأغاني ج 13 ص 141 .

4 انظر ديوان أبي نواس ص 398 والقصيدة على القاف . ومنها :

يجلو القــذى بعقيقتين اكْتَنَّتا بِذُرا سليمِ الجَفنِ ، غيرِ مُخرَّقِ
ألقــى زَآبــرَه وأخلَقَ بِـزةً كانــت حياكــةَ صانعٍ متنوِّقِ

وأرضوا كذلك الإلهام الشعري . فالوقوف على الطلل وذكر الشيب والشباب ، والظواعن والأحباب ، والطيف وذكريات الأنس واللهو ، جميعها تستوعب الخطرات الوجدانية وتشكّل ما يجتزئه الشاعر لنفسه من القصيدة . أما سائرها من ركوب الناقة وترك الملذات وتحمّل المشقّات في سرى الليل ووقت الهجير ، فهي تشكّل ما يقدّمه الشاعر إلى الممدوح ويطلب مقابله العطاء ، مادياً كان أو معنوياً . وبقدر المعاناة يجب أن يكون الثواب . فإذا كانت المبالغة في عواطف الواقف على الطلل ، الذاكر للأحباب ، قد تزيد من تعلّق محبوبته به ، فإن المبالغة في عقد الآمال على الممدوح تزيد من قدر ما يعطيه . وتكون هذه المبالغة عادة ، عن طريقين : الأول وصف حاجة الشاعر إلى العطاء بتأزيم وضعه وربطه بالحليلة والأولاد ، كما نرى في شعر التكسّب ، والثاني بتضخيم مشقّات السفر . وهناك طريق ثالث لا بدّ منه وهو الإفراط في مدح الممدوح والإغراق في وصف جوده وحلمه وكرمه . وهذا ما نراه أيضاً في فصل لاحق .

الفصل الخامس

مناسبة الاعتذار

العتّابي الهارب

لـو رأتنـي بـذي المَحارةِ فرداً	وذراعُ ابنـةِ الفـلاةِ وِسادي
أُطفيءُ الحـزنَ بالدموعِ إذا ما	جُمَّةُ الشوقِ أثّـرتْ في فؤادي
خاشعَ الطرف قد توشّحني الضُـ	ـرُّ فلانتْ لـه قنـاةُ قِيادي
تربَ بؤسٍ ، أخا همومٍ ، كأن الحـ	ـزنَ والبـؤسَ وافيـا ميلادي
وكأني استشعرتُ مـا لفظَ النا	سُ مـن النائـراتِ والأحقادِ
أتصـدّى الردى وأدَّرِعُ الليـ	ـلَ بِهوجاءَ فوقهـا أقتادي
حظُّ عيني مـن الكَرَى خفقاتٌ	بين سَرجـي ومُنحنَـى أعوادي
أوحشَ النـاسُ جانبـيَّ فمـا آ	نسُ إلا بوحـدتي وانفـرادي
قـد ردَدْتُ الذي بـه أتّقي النـ	ـاسَ وأبرزتُ للزمـانِ سوادي[1]

كلثوم العتابي

مناسبات اعتذارية

ما كان لنا أن نتحدّث عن الرشيد ، الملك الجبّارِ بطبعه المتوفّز ، وتأثره الشديد بما يؤتى ويقال ، دون أن نعرض ، ولو بشكل سريع ، لأدب الاعتذار الذي نما حوله . فقد عرف هذا الفن ازدهاراً في بلاطه ، وكان له أقطابه ، شأن كل لون أدبي أو فكري آخر . ودون أن نأخذ على عاتقنا تحديد فن الاعتذار والبحث عن شروطه ، فإننا نرى من الطبيعي وجوده في كل بلاط ، لأن الخليفة يغضب ، وحين يغضب الخليفة يدفع الثمنَ أحدُ أفراد الحاشية ، إما حبساً وإما طرداً وإما إبعاداً وجفاء ، وكلّها عقوبات قاسية على من اعتاد مجالسة الخليفة وارتياد بلاطه ونيل عطاياه .

---

1 (زهر الآداب ج 3 ص 643) . يذكر الحصري شهرة العتابي الاعتذارية ويختار ، من جيّد اعتذاره ، «بائيته : جعلت رجاء العفو عذراً . . .» ثم يقول بعد ذلك : «وقال أيضاً : . .» ويورد القصيدة أعلاه ، دون تأكيد أنها قيلت في الاعتذار من الرشيد . لكن إيرادها في هذا الموضع ، وبالشكل الذي ذكرناه ، والمعاني التي حفلت بها والتي تردد بعضها في اعتذاريات أخرى ، كلها تحمل على الاعتقاد بأنها جزء من اعتذارية تتضمن القسم الذي يبرز توحّد الهارب وخوفه وتنقله الدائم وحرمانه النوم وتحاشي الناس له . . . ولأن نسبة القصيدة غير واضحة تماماً إلى شعر الاعتذار ، فإننا لم نستثمرها أثناء البحث .

لذا يكون اعتذارٌ ، يليه عادة عفو ، فعودة إلى المدح والرضا . إلاّ أن بعض البلاطات تشهد كثافة في هذا النوع من الإنتاج الأدبي فيزدهر في أرجائها ، أكثر منه في بلاطات أخرى . وذلك في رأينا ، يحتاج إلى قطبين متميّزين : القطب الأول : ملك كريم معطاء ، متواضع ، قريب المنال ، سريع العفو ، يأنس إليه الجليس ويتعلّق به ؛ وهو في الوقت نفسه ، عاتٍ شديد ، سريع الغضب ، عنيف الانتقام . والقطب الثاني شاعر أو أديب ذاق حلاوة القرب ولذّة النوال . إذا انقلبت به الحال هاب انقلابها . وهو في الآن نفسه ، مستعد لأن يتنازل عن الكثير من عنفوانه لاسترجاع ما فات . وليس الخوف ، دائماً ، سبب الاعتذار . فقد يستطيع المغضوب عليه التخفّي والاستتار ، أو اللجوء إلى ملك آخر يجد عنده الأمان وحسن الاستقبال والإكرام . فأفضل أشعار النابغة الاعتذارية قيلت في النعمان ، والشاعر بعيد عن سطوته ، مطمئن إلى حماية الغساسنة ، متقلّب في نعمائهم . إنما الذي جعل النابغة يعتذر هو حنينه إلى أيام سعيدة باتت ذكراها هاجساً في نفسه ، يمنعه من تذوّق السعادة في إطار آخر ، وهو كذلك طمعه بالحياة الرضية الهنية التي اعتادها ، بالنفوذ الذي كان يتمتّع به بين أهله وجماعته ، وبالعطاء اللامحدود الذي كان ينال ، والذي كان يجعله يعيش عيشة الملوك ، لا عيشة من يتّصل بهم . وأهم من ذلك كلّه ، كان ردّ الاعتبار . فهو حافز نفسي قوي دفعه إلى إظهار الخوف حين كان آمناً غير خائف ، لأنه وجد نفسه ، في بلاط الغساسنة ، على كثرة ما احتفلوا به ، شاعراً مُبعَداً منبوذاً ، لاجئاً إليهم على رغم منه[1] . والتاريخ لم يحفظ شعر اعتذار شهيراً قيل لمعاوية . فمعاوية لم يكن جبّاراً عتيّاً ، وإن كان كريماً معطاء . كان يعطي في اتجاه سياسي ، وعطاؤه محدود وكذلك غضبه : فهو كثير العفو ، يسع حلمه جميع الذنوب . والسفّاح كان عاتياً جبّاراً ، إنما لم يشتهر بسخاء اليد ولا بتقريب الشعراء . وكان قريب المعاقبة ، قليل المسامحة ، فصبغ حياته بالدم ولم يسل عليها شعر اعتذار . كذلك المنصور كان قريباً إليه في جبروته ، وكان مشهوراً بالبخل . ومع المهدي ، بدأت بوادر الاعتذاريات تتفتّح من جديد[2] . فهو الذي بدأ الأعطيات السخية في أيام بني العباس ، كما أخذ بتقريب الشعراء حتى كادوا ينالون منه رزقاً ثابتاً يجعلهم يتحلّقون حوله ويحومون . وكان الهادي شرساً عاتياً ومهدراً للمال في آن واحد ، وكان مهيّأ ليكون هدفاً لكثير من شعر الاعتذار ، لو طال به الأجل .

وبلغ الرشيد القمّة في جمع طرفي النقيض . فعنده السرعة في التأثر ، وهو قريب إلى الغضب ، عنيد لا يتراجع أحياناً عن كلمة أو موقف إلا بصعوبة ، وهو مغرور جاءته الدنيا صاغرة : لم يعلُ

---

1 قال أبو عبيدة : «قيل لأبي عمرو : أفمن مخافته امتدحه وأتاه بعد هربه منه ، أم لغير ذلك ؟ فقال : لا ، لعمر الله ، ما لمخافته فعل . إن كان لآمنا من أن يوجه النعمان له جيشاً . وما كانت عشيرته لتسلّمه لأول وهلة . ولكنه رغب في عطاياه وعصافيره . وكان النابغة يأكل ويشرب في آنية الفضة والذهب ، من عطايا النعمان وأبيه وجده ، لا يستعمل غير ذلك» . (الأغاني ج 11 ص 25) .

2 راجع اعتذاريات بشّار للمهدي (في الأغاني ، مثلاً ، ج 3 ص 234 و235) .

أمامه رأس إلاّ حطّمه شر تحطيم . وهو في الآن نفسه ، سمح معطاء دمث ، قريب إلى الجليس الذكي . وما أشبه بلاطه ببلاط النعمان ، على تطوّر أكبر لجهة الثقافة والرفاه والسلطان . . . في بلاط الرشيد هُيّيء لِفنّ الاعتذاريات قفزة إلى الأمام . ويطول بنا الحديث لو أردنا تصنيف شعر الاعتذار ، في حياة الرشيد . فسواء كان أبياتاً أو قصائد ، فإننا لن ندرس كل قصيدة أو مقطوعة على حدة . فالذي يهمّنا هو أن نرى كيف خاطب المعتذرون الرشيد ليؤثّروا فيه ، وبأي الأساليب حاولوا نيل عفوه ورضاه . أما المدح الذي لا تخلو منه ، عادة ، قصيدة أو مقطوعة اعتذار ، فندرسه في فصل لاحق ، مع سائر المعاني المدحية . إنما لا بدّ لنا من الإشارة إلى أقطاب الاعتذار في البلاط وهم : أبو العتاهية الذي غضب عليه الرشيد حين تحوّل من شاعر بلاط إلى شاعر نسك وزهد ، ورفض قول شعر الغزل وسواه من أمور الدنيا . فبقي في حبس الرشيد إلى أن تراجع عن موقفه . من هناك ، كان يرسل إلى الرشيد قصائد الاعتذار ، الواحدة تلو الأخرى[1] . والقطب الثاني ، الذي حظي أيضاً بحبس الرشيد ، كان أبا نواس : اتهم بالزندقة وأودع المطبق ونُسي هناك . فراح يذكّر بنفسه ، معتذراً تارة ، جاهراً بالتوبة أخرى ، مستعطفاً مرة ثالثة ، إلى أن استجاب الخليفة وأفرج عنه[2] . والقطب الثالث هو كلثوم بن عمرو العتابي الذي عرّض بالرشيد في كلام عابث به النمري[3] ، نقله هذا إلى الرشيد فغضب وأرعد وتوعّد ، مما جعل العتابي يتوارى عن الأنظار ، يبيت في خوف ويصبح على وجل ، يقول شعر الاعتذار ويطلب الصفح والغفران حتى حظي بهما . وللعتابي «اعتذاريات قومية» أنشدها الرشيدَ حين كان السيف يعمل في ربيعة . هذه الاعتذاريات ساهمت ، مع قصائد مشابهة للنمري ، في رفع السيف عن القبيلة المنكوبة[4] . كما أن الرشيد حبس منصوراً النمري[5] ، حسب بعض الروايات ، واستنطقه ، بذلك ، شعراً اعتذارياً . . وأخيراً ، فقد عرف البلاط شطحات اعتذارية من شاعر أو عامل أو قائد أو قريب[6] ، تناولته سعاية عند الرشيد فصدّقها إلى أن انتصب المتهمُ مدافعاً

---

1 طبقات ابن المعتز ص 132 و232 . . . والأغاني ج 4 ص 67 و 70 وأماكن أخرى وزهر الآداب ج 2 ص 349 وانظر ص 82 من البحث .

2 راجع ص 304 من البحث .

3 زهر الآداب ج 3 ص 642 ويشير الحصري إلى أنه هرب إلى بلد الروم .

4 راجع ص 266 وما بعد من البحث . والواقع أن الأخبار تشير إلى غير غضبة للرشيد على العتابي . فالأصفهاني يذكر غضبه عليه بعد ثورة الوليد بن طريف ، وهو مثله من ربيعة (الأغاني ج 13 ص 123) ويذكر المرزباني غضبة له عليه بتهمة الزندقة والرفض ، هرب أثناءها إلى اليمن (معجم الشعراء ص 351) ويذكر التنوخي أيضاً طلب الرشيد له بتهمة الاعتزال وهروبه إلى اليمن ، إنما قبل اتصاله بالبلاط ، هذا الاتصال الذي تمّ بوساطة يحيى بن خالد (الفرج بعد الشدة ص 634 وانظر ص 71 هامش 1 من البحث .

5 يذهب الأصفهاني إلى أن الرشيد حبس منصوراً النمري بسبب الرفض . فخلّصه الفضل بن الربيع . ثمّ طلبه بسبب شعره في مدح آل علي فستره الفضل بن الربيع ، ثمّ أظهره له فاعتذر ومدح (الأغاني ج 13 ص 149) .

6 طلب الرشيد علي بن الخليل بالزندقة فهرب . ثمّ دخل إليه مع الشعراء فمدحه واعتذر (زهر الآداب ج4 ص 658)

عـن براءته ، معتذراً عن ذنب اقترفه أو لم يقترفه ، فحظي بعفو الخليفة أو عجز عن نيل رضاه .

أولاً : المعاني العامة في شعر الاعتذار للرشيد :

من الطبيعي أن تختلف هذه المعاني باختلاف التهمة الموجّهة إلى طالب المعذرة ، وموقعه وحالتهِ النفسية ، زمن الغضب عليه . فشعر الاعتذار يقوله سجين في حبس الرشيد يجب أن يختلف عن شعر اعتذار يرسله شاعر طليق الجناحين ، حرّ . ومن الطبيعي أيضاً أن يتوسّل الشاعر المعتذر معاني تناسب طبيعة الرشيد ، دون سواه من الملوك ، فضلاً عن المعاني المعروفة التي يستخدمها الناس عامة ، في مثل هذه الظروف ، مع أي ملك أو أمير . هذه المعاني هي التي نتولى عرضها ، محاولين ، أثناء البحث ، ذكر التميّز الذي يتجلّى فيه هذا الاعتذار أو ذاك .

1 ـ نفي التهمة ـ الاعتراف بالذنب ـ إعطاء المسوّغ : من المعروف عن الرشيد أنه إذا أراد أمراً فلا سبيل إلى اعتراضه ، بل يتوجّب تنفيذه . وكل تقصير في ذلك يعتدّه ذنباً لا يغتفر . لقد انتابت أبا العتاهية موجة من العزوف عن الدنيا اللاهية . فامتنع عن قول الشعر الغزلِ . واعتقد الخليفة أن الشاعر يتجنّبه ، وفاء لذكرى الهادي أخيه . فصمّم على استنطاقه الشعر الخفيف . لكن الشاعر كان يقصد الالتزام ولا يقع تحت تأثير عارض سطحي . فرفض وظل يرفض على رغم إصرار الخليفة . فأودعه هذا الحبس . وأحسّ أبو العتاهية بالتمرد : إنه عوقب على غير ذنب . فهو شاعر والشاعر لا يستطيع التعبير عن عواطف لا يحسّها ، ولا يحسّ عواطف لا تهفو إليها نفسه أو يصبو إليها فؤاده . لقد كان يجد في نفسه تغيراً جذرياً ، ويكتشف في فكره تحوّلاً إلى الجد والتأمّل . لم يعد يميل إلى طرب ولا يجد مزاجاً للهو وشرب ومجون ، فكيف يصرّ الخليفة على جعله يصبو ويتشبّب ويتغزّل ؟ والرشيد ما كان ليصدّق هذه التوبة ، وما كان ليصدّق أيضاً أن إنساناً ، كأبي العتاهية ، يرفض له طلباً . استدعاه من الحبس وعاتبه : «بالأمس ينهاك أمير المؤمنين المهدي عن الغزل فتأبى إلاّ لجاجاً ومَحْكاً ، واليوم آمرك بالقول فتأبى ، جرأة عليّ وإقداماً[1] ؟ وكان على أبي العتاهية أن ينفي عن نفسه تهمة الخروج عن الطاعة ، شارحاً : «كنت أقول الغزل ولي شباب وجدّة ، وبي حراك وقوّة . وأنا اليوم شيخ ضعيف لا يحسن بمثلي تصاب . فردّه إلى حبسه[2] ، فهو مقتنع بأن كبر السن قد يمنع التصابي ، لكنه لا يمنع حتماً من التغزّل . وتطول

= ويمكن أن نشير إلى أبيات أو خطب قصيرة لعبدالملك بن صالح يردّ فيها اتهامات الرشيد له بالعمل على الخروج على الدولة والدعوة لنفسه ، وأن نلحق ، بهذه اللمحات ، الاستشفاع لمغضوب عليه ، يقوم به صديق له يتوسّل أسلوباً بليغاً ويختار لحظة مناسبة فيحظى له بالعفو ، كما كان الوضع بالنسبة إلى زلزل الضارب . فقد وَجَد الرشيدُ عليه «لشيء بلغه عنه فحبسه عشر سنين أو نحوها . فقام الرشيد يوماً لحاجته ، فجعل إبراهيم (الموصلي) يغنّي صوتاً صنعه في شعر كان قاله في حبس زلزل . . .» فلمّا دخل الرشيد استعاد الصوت واستدعى زلزل وعفا عنه . (الأغاني ج 5 ص 184) .

1 زهر الآداب ج 2 ص 349 .

2 المصدر السابق .

الأيام بأبي العتاهية نزيل السجن ويزداد عجبه من تناقض الأهواء عند أمراء المؤمنين . فتارة يُطلب إليه الحشمة والوقار ، وطوراً يمنع من تنفيذ الأمر السابق ويفرض عليه أن يرهن قلبه لأمر مولاه . فيكتب من الحبس ، نافياً الخطأ عن موقفه ، رافضاً الإتهام بالذنب ، مظهراً استحالة قيامه بما يريد أمير المؤمنين :

وكلَّفتني ما حلتَ بيني وبينه وقلتَ سأبغي ما تريدُ وما تهوى
فلو كان لي قلبان ، كلّفتُ واحداً هواكَ ، وكلّفتُ الخليَّ لما يهوى[1]

إلاّ أن عناد أبي العتاهية لم يزد الرشيد إلاّ إصراراً . وراحت رطوبة السجن تعمل عملها في صلابة أعصاب الشاعر التي بدأت تنهار ، وتنهار معها مقاومته . هكذا ندّت عنه صرخة : لنفرض أنني مذنب ، ألستَ يا أمير المؤمنين ، مشهوراً بالعفو ؟ فاعف عمّا تراه ذنبي ، وإن كنتُ لم أقترفه ولا جال لي ببال . وليتك استطعت قراءة ما في القلوب ، لكان بإمكانك التأكد من سلامة نيّتي وصفاء سريرتي :

تفديكَ نفسي من كلِّ ما كرهَتْ نفسُك ، إن كنتُ مذنباً فاغفرْ
يا ليت قلبي ، لديك ، صُوِّر ما فيه لِتستَيقِنَ الذي أُضمِرْ[2]

ومع لين موقف الشاعر تتحلحل نقمة الخليفة ، لكنه يبقى في ترقب وانتظار للاستجابة الكاملة . فلا سبيل إلى نيل العفو إلاّ بتنفيذ الأوامر ، والاعتراف بالخطأ . وهذا الذي طال الوقت بالشاعر لإدراكه ، بينما يدركه السياسي للوهلة الأولى . فعندما اتهم الرشيد الحسن بن عمران ، واليه على دمشق ، بسوء الائتمان ، وقد وقف بين يديه «يرسف في قيوده» ، لم ينفِ الحسن التهمة ، ولم يعاند بكبر ، بل اعترف واعتذر ، مقدّماً الدليل على حسن النية والصدق في خدمة الخليفة . فقال : «ما قصدتُ لغير التوفيق من جهته . ولكنّي ولّيت أقواماً ثقُل على أعناقهم الحق فتفرّغوا في ميدان التعدّي ، ورأوا أن المراغمة بترك العمارة أوقع بإضرار السلطان وأنوه بالشنعة . فلا جرم أن موجدة أمير المؤمنين قد أخذت لهم بالحظ الأوفر من مساءتي . .»[3] فكان أن أحسن الاعتذار ما شاء له الإحسان[4] . . . ولم يكن اعتراف العتابي بأقل وقعاً من اعتراف ابن عمران . فهو يذكر زلة ارتكبها ، ومن لا يرتكب زلّة من الناس ؟ لكن الليالي كانت له بالمرصاد ، فما إن استشعرت منه هذا الخطأ حتى انقضت عليه تمعن فيه تجريحاً وتستنزف دماءه :

---

1 الأغاني ج 42 ص 65 .

2 طبقات ابن المعتز ص 231 .

3 زهر الآداب ج 3 ص 683 وأسرار الحكماء ص 123 .

4 يروى عن لسان عبدالله بن مالك نعته لقول الحسن بن عمران بأنه «أجزل كلام سُمع لخائف . وهذا (كما يقول) ، مما كنّا نسمعه من الحكماء ، أفضل الأشياء : بديهة أمن وردت في مقام خوف» . (المصدران السابقان) .

فتىً ظَفِرت منه الليالي بِزلَّةٍ فأقلَعْن عنه داميات المخالبِ[1]

ويقول ، في قصيدة أخرى ، محاولاً استلال موجدة الرشيد ، باعترافه :

أخِضْني المُقامَ الغمرَ ، إن كان غرَّني سنا خُلَّبٍ أو زَلَّتِ القدمانِ[2]

واقتيد إلى الرشيد عامرُ بن عمارة بن خريم قائد فتنة الشام . فاعترف بالذنب ولم يطلب البراءة لكنه أظهر الطمع في إحسان أمير المؤمنين الذي لا مفرّ لإنسان من أن يجد نفسه محتاجاً إلى إحسانه :

فَفضلَك أرجو ، لا البراءةَ ، إنه أبى اللهُ إلا أن يكونَ لكَ الفضلُ[3]

وحين شفع أبو قابوس الحيري للفضل بن يحيى ، لم يطلب العفو عنه ، لأن السعايات كثرت ولم تترك مجالاً للعفو ، ولكنه طلب من الرشيد أن يرضى عنه ويكون هو شفيعه أمام ذاته ، فأسباب هذه الشفاعة وذلك الرضى كثيرة في ما انطوى عليه شخص الفضل وماضيه . يقول أبو قابوس من قصيدة مشهورة :

أمينَ الله ، هب فضلَ بن يحيى لنفسِكَ ، أيها المَلِكُ الهُمامُ
وما طلبي إليك العفوَ عنهُ وقد قَعَدَ الوشاةُ بهِ وقاموا
أرى سببَ الرضى عنه قوياً على اللهِ الزيادةُ والتمامُ[4]

أما عليّ بن الخليل ، فقد افتُرى عليه بتهمة الزندقة ، وما هو بزنديق ، إن هو إلاّ إنسان يحبّ الحياة فيقبل عليها : يصبو إلى العيون النجل يختلس منها النظرة ، وتهفو نفسه إلى الندمان يجاذبهم قهوة صهباء ، لكنه ، فيما عدا ذلك ، مؤمن بالله ، مسلّم أمره إليه ، متوكِّل عليه ، قائم بفروض إيمانه ، محافظ على الصلوات الخمس في مواعيدها ، من ذلك قوله :

إن هاجني ، من هاجسٍ ، جَزَعٌ كان التوكُّلُ عنده تُرسي
ما ذاك إلاّ أنني رجلٌ أصبو إلى بَقرٍ مِنَ الإنسِ
وأجاذب الفتيانَ بينهُم صهباءَ مثلَ مُجاجةِ الوَرْسِ
واللهُ يعلمُ ، في بقيّته ، ما إن أضعتُ إقامةَ الخمسِ[5]

والسلطان ، بقدر ما يقوى سلطانه يزداد عقابه وتُخاف سطوته ، وبقدر ذلك يتوجّب على

---

1 زهر الآداب ج 3 ص 642 .

2 الأغاني ج 413 ص 111 .

3 معجم الشعراء ص 256 .

4 العمدة ج 1 ص 33 .

5 الأغاني ج 14 ص 166 وأمالي المرتضى ج 1 ص 102 وزهر الآداب ج 4 ص 866 .

المذنب أو المتهم أن يداريه ، فيتوسّل الكلمة اللطيفة عسى أن ترقّق قلبه فيقبل الاستماع إلى حجج المتهم والاقتناع بأن الذنب ، إذا ثبت ، فلا يقصد به النيل من شخص أمير المؤمنين ، أو تحدّيه ، أو مخالفة أمره . هذا التأكيد رأيناه عند أبي العتاهية ونراه يتردّد على لسان أبي نواس :

فـإني لم أخُنكَ بِظَهـرِ غيبٍ ولا حدّثـتُ نفسي أن أخونا[1]

وفي هذا المضمار نشير إلى اعتراف العتابي ، أثناء اعتذاره عن جماعته ربيعة ، بأن الذنب وقع ، لكنه وقع من فئة قليلة ، وهذا لا يستوجب أن تدفع العشيرة ، كلّها ، الثمن[2] .

2 ـ **الصفات المشجّعة على الاعتذار** : أهم هذه الصفات : الحلم والعفو عند الاقتدار . فالرشيد شُهِر بعفوه ، يغدقه على القريب والبعيد ، حتى «وسع به جميع العالمينا» . وهو ، إلى ذلك ، معروف بالجود والإحسان ، فلماذا يعمّ عفوه الناس ويتعذّر على أبي نواس ؟ وإذا كان يعطي ويتفضّل ، فلماذا لا يلوذ أبو نواس بهذه الصفات جميعها ، المركّزة فيه ؟ إنه يستجير به من الخوف حين ينام ، ومن الخوف حين يصحو ، ومن الذل الذي ينزله به الخوف . فهل لمستجير بالرشيد أن يذل[3] ؟ ويرى منصور النمري أن الرشيد يجمع مكارم الأخلاق ، لا كما يجمعها الناس الآخرون ، بل كما تجتمع للنموذج الأعلى ، والمثال الذي يحتذى[4] : فهو الرأس بالنسبة إلى الجسد الذي يجمع شعبه ورعيته[5] . ولأنه المثال ، فهو الذي اختاره الله وميّزه ، يسوسه «بكل بر» وهو ، بدوره ، يسوس رعيّته «بخير برّ»[6] : يعطيهم من الأمان ما يعجز

---

1 ديوان أبي نواس ص 403 وأخبار أبي نواس ص 99 .

2 راجع ص 268 من البحث .

3 يقول أبو نواس ، مخاطباً الرشيد :

بعفوكَ ، بل بجودِك ، عُذْتُ لا بل بفضلِكَ ، يـا أميرَ المؤمنينا
فـلا يتعـذّرنَّ عـليّ عفوٌ وسعـتَ بـه جميـع العالمينا
إذا مـا الهَونُ حَلّ بِدارِ قومٍ فليس لجـارِ مثلكَ أن يَهونا

(ديوان أبي نواس ص 403 وأخبار أبي نواس ص 99) وفي هذا المعنى يقول منصور النمري :

لما أخذتُ بكفـي حبلَ طاعتِهِ أيقنتُ أني ، من الأحداثِ ، ممتنعُ

(ديوان المعاني ج 1 ص 59) .

4 يقول منصور النمري في قصيدته التي يعتذر فيها عن ربيعة :

إن المكـارمَ والمعروفَ أوديـةٌ أحلّك الله منهـا حيث تجتمع

(ديوان المعاني ص 58) .

5 أبو العتاهية : كأن الخلـقَ رُكّـبَ فيـه روحٌ لـه جسدٌ وأنـتَ عليهِ راسُ

(طبقات ابن المعتز ص 231) .

6 ولأبي العتاهية من المقطوعة نفسها :

عنه إنسان سواه ، فيغدو المفزَع الوحيد والملاذ الذي ما بعده ملاذ ، ينظر إليه المرتاع فتستقر منه الحنايا وتذهب عنه البلابل[1] . وبذلك يغدو الرشيد ، لا نموذجاً للإنسان القادر ، بشكل عام ، بل هو يمثل ، بشكل خاص ، القدرة على الحماية وإشاعة الاطمئنان لدى الخائف ، والراحة عند القلقِ المضطرب . إنه محور الكون ، هو الرجاء : عن طريقه يأتي رضى الله . فطاعته من طاعة الخالق واتقاؤه من اتقاء الرحمن :

هارونُ ، يا خيرَ من يُرجّي ... لم يُطِعِ اللهَ مَــن عصاكا
في خيرِ ديــنٍ وخيرِ دنيا ... مــنِ اتقــى اللهَ واتقاكا[2]

بلَ هو ممثّل لرحمة الله على الأرض ، يكفي أن يبتسم لإنسان حتى ينجو من كل سوء[3] . . .
وفي عرضنا هذا لشعر الاعتذار ، الذي وُجه إلى الرشيد ، تلفتنا ظاهرة الاعتذار عن الجماعة والحك على جدار العصبية القبلية كما تتجلّى في اعتذار النمري والعتابي عن ربيعة ، مما سلف الحديث عنه . لكننا نسجّل هنا مبدأ التوسل بالقربى التي ، أيّاً كان بُعدُها ، وأيّاً كان أسلوب استخدامها ضد الحكام ، وجد الشعراء بها طريقاً إلى نيل رضاهم . وحين يذكر النمري هذه القربى ، يضيف إليها الطاعة التي يكنّها الربيعيّون لآل عباس والتي جعلتهم يدعمون الإسلام ودولة المسلمين ويرفدونهما بالجنود والقوّاد . والرحم صلة مقدّسة لا يُنتظر من الرشيد أن يقطعها ، كما لا يُنتظر منه التنكّر لإحسان[4] .

= أمــينَ الله أمنُــك خيــرُ أمــن ... عليــكَ ، من التُقى فيه ، لِباسُ
تُساسُ مــن السماء بكلِّ بِرٍّ ... وأنتَ بــه تَسوسُ ، كما تُساسُ

(المصدر نفسه) .

1 منصور النمري :
وأنتَ ، إذا عاذَتْ بوجهِكَ عُوَّذٌ ... تطامَنَ خوفٌ واستقرَّتْ بلابلُ

(الأغاني ج 13 ص 153) .

2 الشعر لمنصور النمري (انظر الأغاني ج 13 ص 150) وكأن منصوراً وأبا العتاهية ضربا موعداً عند معنى الرجاء : يقول أبو العتاهية :
ألا يا أيها الملــكُ المُرَجَّــى ... عليــهِ نواهِضُ الدنيا تَحومُ

(المصدر نفسه ج 4 ص 71) .

3 يقول أبو العتاهية في شعر أرسله من الحبس إلى الرشيد :
إنما أنــتَ رحمــةٌ وسلامَهْ ... زادكَ اللهُ غِبطــةً وكرامَــهْ
وحقيــقٌ ألا يُــراعَ بَسُوءٍ ... من رآك ابتسمتَ له ابتسامَهْ

(طبقات ابن المعتز ص 231) .

4 يقول منصور النمري في اعتذاره عن ربيعة :
لنــا منــك أرحامٌ ، ونَعْتَدُّ طاعةً ... وبأساً إذا اصطكَّ القَنــا والقنابلُ

3 ـ **تذكّر أيام الخير** : وهو مرحلة طبيعية من مسلسل الخوف الحافز على الاعتذار . ذاك أن الإنسان لا يعرف قيمة السعادة إلا حين تتنكّر له وتتجنّبه . فهي أشبه بالصحة التي يقال عنها إنها «تاج على رؤوس الأصحّاء ، لا يراه إلاّ المرضى» . لذا يشتد الحنان إلى أيام الصفاء ، وقت المحنة ، فتعود الذاكرة بالمرء إلى عهد الرضى والقبول ، حين كانت رياح الخليفة تهبّ رخاء . لكن الهدف من ذكر تلك الأيام ، في أشعار الاعتذار ، ليس مجرّد التغنّي بالماضي السعيد والتحسّر عليه ، وإنما إثارة الحنين في قلب الخليفة ، بالعودة به إلى جو لم يكن فيه متوتر الأعصاب ولا ناقماً ، إلى أيّام كان فيها يستطيب قرب الشاعر المتهم يرفق به ويكرمه . وبهذه النقلة الخيالية يحاول الشاعر ، عادة ، إجراء نقلة نفسية عند الرشيد بهدف زعزعة الموقف الواجد . وليست هذه المناورة جديدة في أدب الاعتذار ، بل لعلّها وجدت فيه ، منذ وجد . وقد استخدمها النابغة في قصيدته التي منها :

ومَن يغرفْ مِن النعمانِ سَجْلاً فليس كَمَنْ يُتيَّه في الضَّلالِ[1]

ونراها عند أبي العتاهية ، كما نراها عند العتابي ، وكل منهما يستخدمها بأسلوب مختلف . فأبو العتاهية يعيد الذكرى إلى ذهن الرشيد ، ذكرى أيام كان يُسرّ فيها بتقريب الشاعر إذ يُدني مجلسه ويتطلّع إليه بوجه يطفح بشراً . ولا بدّ لهذه الأيام من أن تكون قد أكسبته حرمة عند الخليفة . لذلك هو يتوسّل بتلك الذكرى ليصوغ أمنية : أن يعود الرشيد فينظر إليه بتلك العين الباشّة . يقول أبو العتاهية :

تذكّر ، أمينَ الله ، حقّي وحُرمَتي وما كنتَ توليني ، لعلّك تَذكرُ
ليالِيَ تُدني منكَ ، بالقُربِ مَجلِسي ، إليّ بها ، من سالفِ الدهرِ ، تَنظرُ[2]

بينما العتابيُّ يُلمّ سريعاً بوصف «أيام الخير» ليقابلها بأيام بؤسه وشقائه وغضب الرشيد عليه :

فأنزَلَ بي هجرانُك اليأسَ بعدما حلَلْتُ بوادٍ ، منك ، رَحْبِ المشاربِ
أظلُّ ومرعايَ الجديبُ مكانَهُ وآوي إلى حافاتِ أكدرَ ناضِبِ[3]

= وما يحفظ الإحسانَ مثلَك حافظٌ ولا يصلُ الأرحامَ مثلَك واصلُ
(الأغاني ج 13 ص 153) . (القنابل : ج قَنبلة وهي الطائفة من الناس والخيل) .

1 ديوان النابغة الذبياني ـ دار صادر ـ ص 96 وما بعد وراجع ص 267 من البحث .

2 العقد الفريد ، ج 2 ص 165 ، ويقول ، أيضاً ، في شعر أرسله من الحبس ، معاتباً مادحاً :
علِقَ الهمُ بقلبي كلُّهُ وإذا ما علقَ الهمُ عَلِقْ
بأبي من كان لي من قلبِهِ مرّةً وُدٌّ قليلٌ فسُرِقْ
(الأغاني ج 4 ص 70) .

3 زهرالآداب ج 3 ص 642 .

وذِكرُ «أيام زمان» السعيدة يتوسّله إبراهيم الموصلي ليرقّق قلب الرشيد على منصور زلزل القابع في المطبق . فهو يسترجع تلك الأيام حين كان الوئام المخيّم عليها يثير حفيظة الأعداء . لقد كانت أياماً كلّها أمن ، وخيرها فيض :

هل دهرُنـا بك راجعٌ يا زلزلُ　　أيامَ يبغينا العدوُّ المُبطلُ
أيام أنتَ من المكارهِ آمنٌ　　والخيرُ متّسعٌ ، علينا مُقبلُ ؟[1]

4 ـ لوم الذات : وقد تُستخدم تلك الذكرى لعتاب النفس على جحودها ، على تضييع سعادة كانت في متناولها ولم تحسن صيانتها . فنرى العتابي مثلاً ، يقيم المقابلة بين وضعيه ، القديم والحالي ، ويتوجّه إلى نفسه معاتباً لائماً : آتاك الله خيراً فلم تُحسن صيانته . كنتَ في عز وراحةِ بال تأتيك النِعَمُ خالصةً من كل شائبة ، وكانت طريق المستقبل الضاحك ترتسم أمامك لتبلغ عليها أقصى أمانيك . كان القليل من تلك النعم ، لو دام عليك ، يكفيك . لكن النفس أمّارة بالسوء ، فما زلتَ تُبادلُ النعمة بكل سخيف من القول بذيء ، يعبر عمّا تخفيه من خُلق ذميم وحب للنميمة والولوغ في أعراض الناس[2] ، حتى تقطعت حبال تلك النعم وتلاشت هباء . ويتابع العتابي خطابه لذاته : بهذه النفس الضعيفة أضعتُ النعمة وبتُّ قلقاً مضطرباً لا أعرف للنوم طعماً ولا للقرار . أسلم جنبي إلى فراش لين آملاً بإغفاءة هنيئة فأهبّ مذعوراً لأقلّ حسّ وأضعف نأمة ولو صدرت عن طفل رضيع . ونلاحظ إمعان العتابي في تعذيب نفسه . فكأنه يريد أن يقنع الرشيد بأمرين : أولهما أنه نال من العقاب النفسي فوق ما يحتمل ، وما ناله يكفيه . وثانيهما أن إحساسه بالذنب يعذّبه كما يعذبه بُعده عن الرشيد وخوفه منه . وهو إذ يحاول تهوين الأمر على نفسه وإيجاد العذر في كونه بشراً والبشر يخطئون ، إنما يقول ذلك ليسمعه الرشيد . فليس ضبط النفس من سهل الأمور ، وليس كل من رأى طريق الخير مشى فيه ، لأن غرائز الإنسان له بالمرصاد تشدّه إلى الانحراف . . . والخلاص ؟ في خطوة جريئة : يوافي أمير المؤمنين مستغفراً تائباً معلناً عزمه على اختيار الطريق الصحيح والسير قدماً نحو المعالي[3] . ونحن نرى أن هذا اللون من الاعتذار ، المبطّن بحساب المرء نفسه حساباً عسيراً ، ثمّ

---

1 الأغاني ج 5 ص 184 وانظر ص 565 من البحث .

2 يقول :
وكم نعمـةٍ ، آتاكها الله جزلـةً　　مُبـرَّأةً من كل خُلـق يَذيمُها
فسلّطتَ أخلاقـاً ، عليها ، ذميمةً　　تَعاوَرْنَهـا حتى تَفَـرّى أديمُها
وُلوعـاً وإشفاقاً ونطقـاً من الخَنا　　بعوراءَ يجري ، في الرجالِ ، نميمُها
وكنتَ امرأ ، لو شئتَ أن تبلغَ المدى　　بلغـتَ بأدنـى نِعمةٍ تستديمها
(الحيوان ج 3 ص 62) .

3 يقول العتابي من القصيدة السابقة :
وكنـتُ أمـرأ هيّابـةً تستفزُّني　　رِضاعـي بأدنـى ضَجعةٍ أستلينُها

إبرام اتفاق معها على أن تخرج من ضعفها وتترك سوء الخلق ، وترتفع عمّا يضعها ، هو لون فريد يختص به العتابي فيبرز لديه مقدرة أدبية وعمقاً نفسياً ومعرفة بأخلاق الملوك . فماذا يبغي الرشيد من شاعر كالعتابي ؟ أليس الاعتراف بالخطأ وإعلان التوبة ؟ وقد فعل العتابي ذلك ، وأضاف مدحاً لا يصمد الرشيد طويلاً أمام إغرائه .

وبمقابل هذا الحوار مع الذات عند العتابي ، نجد حواراً آخر عند أبي العتاهية ، إنما مع شخص غير منظور ، لعلّه جرّده من نفسه فخاطبه وعاتبه ، كأنه يخاطبها ويعاتبها . لكن هذا الحوار بعيد عن الاعتراف بالذنب . فهو عظة دينية تنعى على الناس انصرافهم إلى الدنيا ونسيانهم الموت المتربّص ، وما بعد الموت . يعتقد أحدهم أنه مخلّد في هذا الكون ، فينسى الله وأوامره بالإحسان والعدل . وغداً ، عندما يقف الجميع أمام أعدل الحاكمين ، يتبيّن الظالم من المظلوم[1] . وكما فعل العتابي في حواره ، وأسمع الرشيد توبته ، فإن أبا العتاهية لم يورد هذا الحوار عبثاً ، بل إنه أراد ، بلا شك ، أن يسمعه الخليفة فيهزّ ضميره ويحسّسه ما هو فيه من ظلم وما أصابه من جور . ولعلّ افتعاله ذلك الحوار قبل الشروع بالمديح[2] ومخاطبة الخليفة ، كان من باب التعمية وإبعاد الشبهات . وهذا اللون من المقدمات خاص بأبي العتاهية ، يصعب على سواه الخوض فيه ، يحتاج إلى لباقة وإلى مطاوعة الكلام والوزن ، ليقارب الهجوم دون أن يهجم ، ويتصنّع الاستكانة وهو يهم باتخاذ موقف الرفض .

5 ـ **الشدة الناجمة عن غضب الخليفة** : ويتبع ذكرُها ، بشكل عفوي ، ذكرَ «أيام الخير» كما رأينا عند العتابي في حواره مع نفسه . ومن الطبيعي أن يبالغ الشاعر في وصف ما يلقاه في هربه أو حبسه من بؤس وتنكّر الناس وتوجّس وخوف . فلا نومه هادئاً ولا نهاره خيراً ولا ليله ستراً .

= أوافي أميـرَ المؤمنـين بهمّـةٍ تَوَقَّـلُ في نيـل المعالي فنونُهـا

وما كلُّ موصوف له الحقُّ يَهتدي ولا كلُّ مـن أَمَّ الصُّوى يَستبينهـا

ولكنْ فِطـامُ النفس أعسرُ محملاً من الصخرةِ الصمّاء ، حين ترومها

(المصدر نفسه) .

1 قصيدة أبي العتاهية طويلة منها :

أمـا واللهِ إن الظلمَ لُـومُ وما زال المُسيءُ هو الظَلومُ

إلى دَيّـانِ يومِ الدينِ نَمضي وعندَ اللهِ تجتمع الخُصومُ

تنـامُ ، ولم تَنمْ عنكَ المَنايـا تَنَبَّهْ للمنيّـةِ يـا نَـؤومُ

(الأغاني ج 4 ص 71) .

2 يبدأ المديح بقوله :

ألا أيهـا الملـكُ المُرجّـى عليهِ نواهضُ الدنيا تَحوم . . .

(المصدر نفسه) .

وهذه المعاني تتضمّن سطوة الخليفة التي تطال الجاني أينما كان . وهي مدح ، غير مباشر له ، بالحول والطول والهيبة[1] . ويتبع ذلك عن قرب وصف المشقّات التي يتحمّلها الشاعر ليصل إلى الرشيد فيقدم اعتذاره أمامه[2] . ولّما كانت المشقّات التي تعترض السجين لا تقل عن التي تعترض الحُرَّ الهارب ، فإننا نرى أبا العتاهية السجين يصوّر نفسه مُبعَداً ، وحيداً خائفاً ، ينام الناسُ ويأرقُ ، يغفو السامرون ، ولا أحد قربه يواسيه . يقول :

أرِقتُ وطارَ عن عَيني النُّعاسُ ونـامَ السامرون ولم يُواسُوا[3]

ولعلّ أدقّ ما يصوّره أبو العتاهية في حالة المتهم المُبعَد ، هو وضع القلق الذي يعيش فيه : يترقّب الكلمة تصدر عن الرشيد فتتناقلها الأفواه حتى تصل إلى سمعه . ولكن الكلمة ليست دائماً حلوة كما يتمنّاها . ولو أنها كانت كذلك وبقيت كلمة لم تنفّذ فأي خير له فيها ؟ هكذا جاء من يقول له ، عن لسان الرشيد : «لا بأس عليك» . وكيف لا يكون عليه بأس وهو ما يزال مرميّاً في

---

1 يقول العتابي في رائيته الإعتذارية :

إمامٌ لـه كـفٌّ تَضُمُّ بَنانُها عصا الدينِ ممنوعاً ، من البَرْي ، عوُدها
وعـينٌ مُحيـطٌ بالبريّـة طَرفُهـا سواءٌ عليـهِ قريبُهـا وبعيدُها

(معجم الشعراء ص 351) .

2 عن ذلك وصف العتابي ، المتوجّه إلى الرشيد ، نفسه : بأنه أشعث الشعر ، مُجهَد ، يشتهي النوم فلا يستطيع إغفاءة . يجتاز الفيافي ليلاً حتى ليمل النظر إلى الكواكب ، نحل جسمه حتى أشبه ، في ظلمة الليل ، سيفاً ملتفاً بالسواد . ومن قوله :

وأشعثَ مشتاقٍ رَمَى في جُفونـه غريبَ الكرى بين الفِجاج السباسبِ
سَحَبتُ له ذيلَ السُّرى ، وهو لابسٌ دُجى الليلِ حتى مَجَّ ضوءَ الكواكبِ
إذا ادَّرَعَ الليـلَ انجـلى وكأنه بقيـةُ هنـديّ الحُسامِ المُضارِبِ

(زهر الآداب ج 3 ص 643) . (الفِجاج : ج فَج : الطريق الواسعة بين جبلين) ويعتمد العتابي ، في مرة ثانية ، صورة مشابهة :

علمتُ أنّ سُرى ليـلي ومُطَّلعـي من بيتِ نجرانَ ، والغَورين ، تغويرُ
إذِ الركائـبِ مخسوفٌ نواظرُهـا كما تَضَمَّنـتِ الدُّهـنَ القواريرُ

(الأغاني ج 13 ص 123) .

ويستخدم عليّ بن الخليل مقدمة قريبة :

لما استخـرتُ الله في مَهَـلٍ يمّمـتُ نحـوكَ رِحلـةَ العَنْسِ
كم قـد قطعتُ إليـك مُدَّرعـاً ليـلاً بهيـمَ اللـون كالنِقْسِ

(الأغاني ج 14 ص 167 وأمالي المرتضى ج 1 ص 102) . (النِقس : المِداد) .

3 الأغاني ج4 ص 5 .

السجن[1] ؟ وقيل له إن الرشيد رضي عنك ، لكن أين هي علامات الرضى[2] ؟ وتمضي الأيام والكلمات تجيء وتروح وترجع متلاعبة بعواطف الشاعر ، بانية قصور الآمال ، في لحظة ، لتهدمها في لحظة تالية . فيقول ، في نفثة حرّى :

وا بلائـي مـن دعـاوَى أمَلٍ   كلّمـا قلتُ : تدانـى ، بَعُدا
كم أُمنَّى بِغَـدٍ بعـدَ غـدٍ !   ينفُـدُ العُمـرُ ولم ألقَ غدا[3]

ويقول في زفرة أخرى :

أنا اليومَ لي ، والحمدُ للهِ ، أشهُرٌ   يَروحُ عليَّ الهمُّ مِنكمْ ويَبكُرُ[4]

هذه كانت أوضاع السجين ، فما يقابلها من أوضاع الهارب ؟ وصف علي بن الخليل بعض ما يصيبه وهو يستثمر حرّيته في الهرب من الرشيد . فذكر هيامه على وجهه وتشرُّده والتباس هويته ، وهواجس الجزع التي تنتابه[5] . ومثل عليٍّ ، كلثُومُ العتابي الذي يقاسي من هجران الرشيد ويجد نفسه مبعَداً عن رضاه ، وتلك أقصى عقوبة له[6] . وهو ، في بُعده ، وخطورة وضعه كطِلْبَةٍ للرشيد ، يشبه من أمسك بيديه نصل السيف الهندي المصقول القاطع الحدّين ، يرى هلاكه في ذلك ولا يقلع عنه[7] . بهذا يقترب وصف العتابي لنفسه من وصف النابغة الذبياني[8] .

---

1 يقول : أمـينَ اللهِ ، إنّ الحبـسَ بـاسٌ   وقـد أرسلتَ : ليس عليكَ باسُ
(طبقات ابن المعتز ص 232) .

2 يقول :
قِيلَ لي · قد رَضيتَ عنّي ، فمنْ لي   أن أرى لي على رِضـاكَ عَلاَمَهْ ؟
(طبقات ابن المعتز ص 232) .

3 الأغاني ج 4 ص 67 .

4 المصدر نفسه ص 65 وزهر الآداب ج 2 ص 349 .

5 يخاطب عليّ الرشيد بقوله :
إنْ هاجَنـي مـن هاجِسٍ فَزَعٌ   كان التوكُّـلُ ، عنـدَه ، تُرسي
(الأغاني ج 14 ص 168) .

6 يمثل إبراهيم الموصلي ، في شعره المستشفع لزلزل ، هذه العقوبة المادية المعنوية بقوله :
يـا بـؤسَ من فَقَـد الإمامَ وقُربَه   مـاذا بـهِ مِن ذِلـةٍ ، لو يعقِلُ !
(الأغاني ج 5 ص 184) .

3 يصف العتابي نفسه للرشيد :
فهـا أنا مُقصىً من رِضاكَ وقابِضٌ   على حَدِّ مصقولِ الذُنابين ، قاضبِ
(زهر الآداب ج 3 ص 642) .

4 لاحظ النقّاد ذلك منذ القديم . يقول عنه الحصري : «وله قصائد يعتذر فيها ، جيدة مختارة ، وهو مشبّه ، في حسن الاعتذار ، بالنابغة الذبياني» . (زهر الآداب ج3 ص 642) .

فكما كانت البلاد تتقاذف النابغة ، وكما كانت الليالي تمرّ عليه طويلة وكما كانت الهموم والمخاوف تنتزع الرقاد من عينيه ، كذلك كان العتابي في الوصف السابق . ويتساوى النابغة والعتابي في أنهما ، كليهما ، كانا بعيدين عن مصدر الخوف والقلق ، وفي الوقت عينه كانا ينجذبان إليه ، كالجالس على شفا هاوية يشدّه الفراغ إليها[1] .

6 ـ **الأذعان والتوبة** : يمثّل أبو العتاهية المتهم الذي يؤمن ببراءته والذي يعاند ، أول الأمر ، إثباتاً لتلك البراءة ، ثم ، عندما لا يجديه العند نفعاً ، يذعن للأمر الواقع عن لوعة ، فيحفل شعره بإعلان النزول عند رغبة الخليفة . فبينما نجده مرة يطلب من «الملك المرجى» إقالته من زلة افترضها هو فيه ، دون أن يقصدها الشاعر ، نجده بعد ذلك يعلن استجابته المطلقة لإرادة الخليفة :

يا ابنَ عمِّ النبـيّ ، سمعـاً وطاعـةْ　　　قـد خَلَعْنـا الكِساءَ والدُّرّاعهْ
ورجعنـا إلى الصِناعـةِ لّمـا　　　كان سخطَ الإمامِ تركُ الصناعهْ[2]

ولما لم يكفِ الإعلان لإقناع الرشيد ، عمد إلى الغزل ينشد فيه بيتين سطحيين يغلب عليهما التكلُّف . لذا لم يبلغا ما أراده الرشيد ، وبقي الشاعر خلف القضبان . وكانت حيرة كبيرة بالنسبة إليه شلّت ذهنه فعجز عن التفكير في ما يرضي سجانه ، ولم يجد أفضل من التوجّه إليه طالباً منه أن يوضح موقفه منه ، وهو مستعد لتنفيذ ما يأمر به :

يـا رشيـدَ الأمـرِ أرشدْني إلى　　　وجهِ نُجحي ، لا عدِمتَ الرَشَدا[3]

وإذْ لا يأتيه الجواب ينقم على حبسه وعلى شعره وعلى إذعانه ويشكو أمره إلى الله :

صبرتُ ، ولا واللهِ مـالي جلادةٌ　　　على الصَبْرِ ، لكنْ قد صَبَرتُ على رَغمي
كفاكَ ، بِحَقِّ اللهِ ، ما قـد ظلمتَني　　　فهـذا مقـامُ المستجير مـن الظُلمِ
ألا في سبيلِ اللهِ جسمي وقوّتـي　　　ألا مُسعِدٌ حتى أنوحَ على جِسمي[4] ؟

---

1 راجع أبيات العتابي الدالة على يأسه وفيها يقارن سوء حاله بوضع النازل في واد غير ذي زرع ، الشارب من الماء الآسن . ونضيف إلى ذلك بيتين يصوّر فيهما لوعة يخفيها تحت ستار التجلد ، وهي لوعة استكانت إلى قلبه وطابت لها الإقامة فيه حتى كادت نفسه تتلف . بل هي تالفة حتماً إذا لم يتحقّق لها الرجاء ببقية عطف عند الرشيد يعود عليها بالرضا :

وتحتَ ثِيابِ الصَّبْرِ مِني ابنُ لَوعَةٍ　　　يَظَـلُّ ويُمسي مستلينَ الجوانِبِ
ولم يُثنِ عن نفسي الرَدَى غيرَ أنها　　　تَنـوءُ بباقٍ مـن رَجائِـكَ ثائِبِ

(المصدر نفسه) .

2 الأغاني ج 4 ص 71 .

3 الأغاني ج4 ص 67 .

4 ديوان أبي العتاهية ص 409 .

وحين يصل المرء إلى هذا الحد من اليأس ، ولا تعود تنفعه حيلة للخلاص ، يتحتّم عليه أن يصبر على المكاره ويزداد كبتاً ، أو أن يمعن في إذلال نفسه مستغيثاً ، متضرّعاً ، كما نرى بعد قليل . ولعل وضع أبي العتاهية ، كسجين ، هو الذي وصل به إلى هذه الدرجة من فقدان الأمل حقيقة ، لا تظاهراً كما يفعل متهم آخر يؤمن ببراءته إنما يتمتّع بحريّته ، وهو علي بن الخليل . فعليّ يسلّم أمره إلى الرشيد ويهرب منه إليه ، شأن معظم الشعراء ، وهو يتّخذ قراره هذا بعد إمعان الروية وإحكام الرأي ، لأن الملجأ عنده وحده ، وعنده وحده الخلاص من التشرّد وجلاء الالتباس الذي وقع فيه . والإذعان الذي يظهره عليّ إذعان كامل نهائي يبطنه عهد بالطاعة مدى الحياة[1] .

أما إذا كان «الذنب» ثابتاً على «المتهم» فإن «الاعتراف به» فضيلة . والتوجّه إلى «القاضي» بذلك الاعتراف ، مع «طلب العفو» ، هو أول خطوات التوبة . فإذا ما رافق هذا وعدٌ صريح وعهد بعدم اقتراف الذنب مرّة أخرى ، فقد يلامس ذلك حلمَ الخليفة الذي يعرف كيف يغفر ، كما يعرف كيف يعاقب . بل إن الشاعر ، في لهفته ، واستعداده للتشبّث بحبل من خيال ، يغدو متأكّداً من الغفران . فالعتابي مثلاً يعلن أن رجاءه بالعفو هو العذر الذي يقدّمه إلى الرشيد مصحوباً بتوبة نصحاء وعهدٍ بالإقلاع عمّا يكرهه الخليفة ، ووعد بالالتزام بما يحب أمير المؤمنين ، دون سواه :

هِيَ النفسُ مَحبوسٌ عليكَ رجاؤها ... مُقيَّدةُ الآمالِ ، دون المَطالبِ
جعلتُ رجاءَ العفوِ عُذراً وشُبْتُه ... بهيبةِ ، إما غافرٍ ، أو مُعاتِبِ
ومنتزِعٌ عما كرهتَ وجاعِلٌ ... هواكَ مثالاً بين عيني وحاجِبي[2]

وإعلان التوبة والإذعان يكون أبعد وقعاً في حال الاعتذار عن الجماعة لأنه يكون بمثابة تجديد الولاء الذي زعزعه ما أغضب الخليفة . لذلك يحرص عليها شعراء الاعتذار . نجدها عند أبي الهيذام :

فهل نحنُ إلاّ أهلُ سمعٍ وطاعةٍ ... وهل أنتَ إلا السيّدُ ، الحكَمُ العدْلُ ؟[3]

ويقول النمري في كتاب إلى الرشيد : «إنما نحنُ حُرمة من حُرَمك وطرفٌ من أطرافك . فَنُنشِدُكَ اللهَ أن يحولَ غضبُكَ لنا غضباً علينا ، ونقمتُكَ فينا نقمةً مِنّا . فقد صرنا نشتري ألا تغضبَ لنا بألاّ تغضبَ علينا ، وألا تنتقمَ فينا بألا تنتقمَ منّا»[4] . وإذا كانت التوبة واجبة لا بدّ منها

---

1 يقول علي بن الخليل :

إنّي التجأتُ إليكَ من هَرَبٍ ... قد كانَ شَرَّدَني ومن لَبْسِ
واخترتُ حُكمَكَ ، لا أُجاوزُهُ ، ... حتى أوسَّدَ في ثرَى رَمْسي

(الأغاني ج 14 ص 166) .

2 زهر الآداب ج 3 ص 642 .

3 الورقة ص 24 وسمط اللآلي ص 593 .

4 جمهرة رسائل العرب ج 2 ص 186 (عن المنظوم والمنثور ج 13 ص 388) .

لنيل صفح الرشيد فالتوبة أنواع تختلف جداً وهزلاً بحسب الشاعر والقضية . ولعلّ أطرف توبة هي التي يرويها الوطواط عن أبي نواس حين كتب واصفاً وضعه في حبسه :

فارعوى باطلي وأقصرَ جَهْلي — وتبدّلتُ عِفّةً وزَهادةْ
بركوعٍ أزينُهُ بخشوعٍ — واصفرارٍ مثل اصفرارِ الجرادةْ
لو تراني شبّهتَني الحسَنَ البصـ — ـريَّ ، في حالِ نُسكه ، أو قَتادةْ
المسابيحُ في ذراعيَّ والمُصحـ — ـفُ في لبّتي مكان القِلادةْ
فإذا شئتَ أن تَرى طُرفةً تَعـ — ـجَبُ منها ، مَليحةً مُستجادةْ
فادعُ بي ، لا عدمتَ تقويمَ مثلي — وتأمّل بعينكَ السجادةْ
تَرَ أثْراً من الصلاةِ بوجهي — تُوقِنُ النفسُ أنه من عِبادةْ
لو رآها بعضُ المُرائين يوماً — لاشتراها ، يُعِدُّها للشهادةْ
ولقد طالَ ما شَقِيتُ ولكنْ — أدْركَتْني على يديكَ السعادةْ[1]

7 ـ الاستغاثة والتضرّع : حين لا ينفع الإذعان ولا تجدي التوبة ، ليس على المتهم إلاّ طلب الاسترحام . عند ذلك يغدو الخليفة الحاكمَ والشفيعَ . فإذا لم تؤثّر فيه كلمة الحق لا بدّ من أن يؤثّر فيه موقف الذلّة يقفه مَن اعتاد منه الإكرام . إن نفسه الخيّرة الكريمة ، لا مفرّ لها من أن تستجيب . ونحن نرى مواقف الاستغاثة تتوجّه إلى هذه الطبيعة عند الرشيد لأنها الأمل الأخير . فإذا ما تحرّكت لم تعد هناك حاجة إلى أعذار وبراهين ، إذ تصدر عنها ، حينئذ وبشكل عفوي ، كلمةُ الرحمة والرضى . ويبدو أبو العتاهية أكثر المتهمين ضراعة ، مع أنه كان ، في بدء سجنه ، عنيداً سلبياً ، كما أشرنا . فهو إذ يشكو الخوف والتسويف والشدّة والبلاء ، يمدّ يديه إلى الرشيد مدّ مستغيث :

أعِنِ الخائفَ وارحمْ صوتَهُ — رافعاً نحوكَ ، يدعوكَ ، يَدَا[2]

وهو ، في استغاثته ، شأنَ طُلاّب الحسنة ، يجهر بالدعاء :

لو توجّعتَ لي فروّحتَ عني — روّحَ اللهُ عنك ، يوم القيامةْ[3]

ويبلغ أبو العتاهية قمّة التضرّع حين يصوّر نفسه عبداً أذلّه الرشيد الذي لا شفيع لديه إلاّه ، إليه المشتكى وهو الذي يُخشى ويرجى[4] . ولعلّنا لا نستغرب هذه الصرخة إذا عرفنا تفاصيل وضعه

---

1 الغرر والعرر ص 45 .

2 الأغاني ج 4 ص 67 .

3 طبقات ابن المعتز ، ص 232 . ويقول في مقطوعة أخرى :

وَخلِّصني تُخَلَّصْ يومَ بَعثٍ — إذا ، للناسِ ، بَرِّزتِ الجحيمُ

(الأغاني ج 4 ص 70) .

4 المصدر نفسه ج 4 ص 67 ، والأبيات هي :

الذي أوحى بها . وهذا ما يصفه لنا الأصفهاني برواية عن ابن أخت خالد الحربي : «قال لي الرشيد : احبس أبا العتاهية وضيّق عليه حتى يقول الشعر الرقيق في الغزل ، كما كان يقول . فحبسته في بيت خمسة أشبار في مثلها . فصاح : الموت ، أخرجوني فأنا أقول لكم ما شئتم . فقلت : قل . فقال : حتى أتنفّس . فأخرجته وأعطيته دواة وقرطاساً ، فقال أبياته . . . .»[1] وفي رأينا أن هذا السبب وراء تفرّد أبي العتاهية بهذه الصرخات وانعدامها عند العتابي وسواه ممن لم يذوقوا الحبس ؛ وكذلك نجد استغاثة في شعر عامر بن عمارة أو أخيه عثمان بن عمارة الذي اقتيد مكبّلاً إلى الرشيد ، وإن لم تكن استغاثته بعنف صرخة أبي العتاهية ، بسبب ضعف المعاناة»[2] .

ونسمع من منصور النمري صوت استغاثة جماعية . فالوضع الذي تعيش فيه قبيلته دونه الحبس في خمسة أشبار . كان السيف يعمل في أبنائها يحصد المذنب والبريء . فالمصيبة الهائلة مكشّرة عن أنيابها ، ولا زجر لها إلاّ بتجلٍّ من الرشيد :

جعلناكَ ، فامنَعنا ، مَعـاذاً ومَفزعاً　　　لنا ، حين عضّتنا الخُطوبُ الجلائلُ[3]

وتأتي استغاثة العتابي عقلانية أكثر منها عاطفية ، فهي تقدّم سبباً وجيهاً لدحض ما وصل إلى الرشيد عن الشاعر : يكفي النظر إلى الماضي ، أيام الرضى ، وإلى الحاضر الذي يصبغه غضب الخليفة عليه ، للتأكّد من أنه ما كان ليقصد إساءة فيما قال ، طالما أن الإساءة تؤدّي به إلى ما صار عليه . فمن غير المعقول أن يهدف ، قولاً أو فعلاً ، إلى ما يؤذي صاحب نعمته ومصدر عزّه وكرامته مستبدلاً سعادته بذِلّةٍ . كلا ، ما لهذا خُلقت مواهبُه ، إنها ما خُلقت أبداً لتشتري الهوان بالعز وتذوق الهجران بعد الودّ . لقد بلغ من شعوره بالعذاب درجةً يحسّ معها أنه لم يعد يدفع ثمن زلّةٍ واحدة ، بل ثمن جميع زلاّت حياته[4] . ويأخذ العتابي ، من شدّة إحساسه بالذنب ، ذريعة ليتوجّه إلى الرشيد لائماً :

= 　مَـن لِعبــدٍ أذلّـهُ مـولاهُ　　　مـا لـه شافعٌ إليـه سواهُ

يشتكي مـا بـه إليه ويخشا　　　هُ ويرجوه مثـلَ مـا يخشاهُ

1 المصدر نفسه .

2 يقول : اغثنـي ، أميرَ المؤمنـين ، بنظـرةٍ　　　تزولُ بهـا عنّي المخافةُ والأزلُ

وإلاّ أكنْ أهـلاً لِما أنتَ أهلُهُ　　　فأنتَ ، أميرَ المؤمنينَ ، لَـهُ أهلُ

(معجم الشعراء ص 256) .

3 (الأغاني ج 13 ص 153) .

4 يقول العتابي :

حَنانيكَ ، إني لم أكن بعتُ عِزةً　　　بِـذُلٍّ ، وأحرزتُ المُنى بالمَواهِبِ

فقد سُمْتَني الهجرانَ حتـى اذقتَني　　　عقوبـةَ زلاّتـي وسوء مناقبِ

(زهر الآداب ج 3 ص 642) .

أَتترُكُنـــي جَـدبَ المعيشةِ مُقتِـراً وكفّاك ، من ماءِ النَدَى ، تَكِفانِ
وتجعلُني سهــمَ المطامــعِ بعدَما بللتَ يمينـــي بالنَدَى ولِساني ؟[1]

وكأنه ، بذلك ، يستشفع الخليفة بدالة عليه اكتسبها من إحسانه السابق إليه . (أليس من ينقذ غريقاً يحسّ بالتزام نحو حمايته والسهر عليه ؟) وفي ذلك ما فيه من عمق نفسي ومعرفة بطباع الخليفة والناس ، ومن حسن استنتاجٍ ، كلاهما غير بعيدين عن العتابي[2] .

وفي الحديث عن التضرّع والاستغاثة ، لا بدّ من الإشارة إلى لون خاص منها صدر عن شخص ذي قدر وهيبة وقربى من الرشيد وهو عبدالملك بن صالح . فاستغاثته تخلو من الضراعة وتحفل بالعتب والتضجّر . فيها وصف لِهَمِّهِ ، همٍّ لا أحد سواه يحسّ به ، فلا أحد ، أصلاً ، مستعد لحمل هموم الآخرين . وفيها الألم من استنفاده أساليب الاسترضاء بلا فائدة . فإذا أحسن ، تجاهل الرشيد إحسانه . وإذا أساء حاسبه حتى لا يجد مكاناً للعفو . ويصل إلى نتيجة مريرة : لا سبيل إلى إرضاء هارون[3] .

ثانياً : خاتمة المدح في شعر الاعتذار

رأينا أن شعر الاعتذار لا يكتفي بوصف حال المتهم ، أو بذكر طموحه إلى الرضى وآماله بالعفو والحرّية ، بل لابدّ له ، لكي ينال الرضى والعفو والحرّية ، من إقناع الرشيد باتخاذ الخطوة ، وبما أنه من الصعب إقناع الرشيد بتغيير موقفه عن طريق الدليل العقلي أو المادي ، فإن الشعراء توجّهوا إلى التأثير العاطفي ، في محاولة لخداع قلبه ، والتجاوز عن عقله وهواه . وقد عُرف عن الرشيد انقياده إلى هذه المحاولات ، وتصريحه بأن «الكريم إذا خادعتَه انخدعا»[4] . من هذا الباب دخل معظم شعر الاعتذار ، ومن هذه الطريق حصل معظم المعتذرين على العفو المرجو ومعه

---

1 الأغاني ج 13 ص 111 .

2 نجد عند أبي العتاهية معنى يشبه ما ذهبنا إليه من استثمار الدالة على الرشيد التي يكسبها مَن حظي يوماً من الأيام بعطفه ورضاه . فعنده أن من ابتسم له الرشيد يوماً أصاب تميمة تقيه السوء وتنجيه من خوف .

3 يقول عبد الملك مخاطباً الرشيد :

أخِلاّيَ بي شَجوٌ ، وليس بكم شَجوُ وكلُّ امرئٍ عن شجوِ صاحبِهِ خلْوُ
مِن ايِّ نواحي الأرضِ أبغي رضاكُمُ وأنتمْ أناسٌ مــا لمرضاتكمْ نَحــوُ
فـلا حَسَنٌ نأتـي بـه تعرفونــه ولا إنْ أسأنا ، كان عندكُـمُ عفوُ

(هامش البيان والتبيين ج 1 ص 349) .

وقد علّق الرشيد على الأبيات قائلاً : «والله ، إن كان قالها فقد أحسن ، وإن كان رواها فقد أحسن» . والواقع أنّا وجدنا البيت الأول في شعر لأبي العتاهية ، ضمن أبيات ليس فيها البيتان الثاني والثالث (انظر الأغاني ج 4 ص 43 وص 121 ، وانظر كذلك الديوان ص 479) .

4 أسرار الحكماء ص 94 والمستطرف ج 1 ص 191 .

الإحسان . ولقد سبقت لنا إشارة إلى أن شعراء الاعتذار استثمروا الصفات الضرورية لاتخاذ خطوة العفو ، فأكثروا من نسبتها إلى الرشيد فأبرزوه حليماً ، غفوراً ، كريماً ، معطاء ، متفضّلاً ، أمانُه أفضل أمان واللوذُ به أفضل لياذ . وكان لا بدّ ، كذلك ، من مدح للرشيد لكسبه إلى جانب قضية المعتذر . فالمدح هو الثمن الوحيد الذي يتقاضاه من الآخرين ، وفيما عدا المدح والخراج ، فالرشيد مُعطٍ دائماً ، بل مبذّرٌ في العطاء . وقد مُدح الرشيد بالصفات التي أشرنا إليها ، المتعلّقة مباشرة بعملية العفو والغفران[1] . إنما لم يكن هذا كل شيء ، بل إنه كان منطَلَقاً إلى مدح أكبر في مجال أوسع . فمع صفات الحلم والتفضّل والكرم ، وكلّها مظاهر لتواضع الإنسان المقتدر أمام بؤس الآخرين ، لا بدّ من التأكيد على القوة والسطوة التي تمتد فتشمل المعمورة بأسرها حتى لا يعود للهرب منه معنى . فهذه السطوة تعطي عمقاً بعيداً لمعاني اليأس من النجاة ودوام القلق والخوف التي يتوسّلها الشاعر لكسب عطف الخليفة ، وبصورة خاصة لدعم فكرة الهرب منه إليه . فهو صاحب اليد الطويلة تحمي الإسلام ولا يجرؤ أحد على مقاومتها ، وهو صاحب العين البصيرة ترى كل ما على وجه الأرض ، فلا يفوتها شيء ، قَرُب أو بَعُد ، أما سهره الليل في مناجاة نفسه وتقليب أفكاره ، فللاهتمام بمشاكل الرعية ؛ وأما مقامه حيث تجتمع الخطوب فلمواجهتها وتحدّيها . وتتضاعف الصفات النادرة وتتضخّم صورة الرشيد شيئاً فشيئاً لتصبح شخصيّة خارقة لخليفة إنسان ، نتناولها بالتفصيل في حديثنا عن شخصية الرشيد في شعر البلاط .

---

1 نضيف إلى ما أوردناه في مكانه من الفصل قول العتابي نثراً : «يا أمير المؤمنين ، قد آذتني الناس لك ولنفسي فيك ، وردّني بلاؤهم إلى شكرك ، وما مع تذكُركَ قناعةٌ بغيرك . ولنِعمَ الصائنُ لنفسي كنت ، لو أعانني عليك الصبر» . (الأغاني ج 13 ص 111) .

الفصل السادس
مناسبات ترفيهية
سمر ومنادمة وغناء

قلتُ ، في القُفْصِ ، لموسى	وندامــــايَ نِيــــامُ
يــا رضيعَيْ ثَــدْيِ أُمٍّ	ليس لي عنــهُ فِطــامُ
إنمــا العيشُ سَمــاعٌ	ومُــــدامٌ ونِـــدامُ
فــإذا فاتــكَ هــذا	فَعَــلى الدنيــا السلامُ[1]

أبو نواس

تمهيد

يقول ابن خلدون : «كان الغناء في الصدر الأول من هذا الفن ، لما هو تابع للشعر ، إذ الغناء إنما هو تلحينه . وكان الكتّاب والفضلاء ، من الخواص في الدولة العبّاسيّة ، يأخذون أنفسهم به ، حرصاً على تحصيل أساليب الشعر وفنونه . فلم يكن انتحاله قادحاً في العدالة والمروءة»[2] . بل العكس هو الصحيح : لقد اعتدّوه زيادة في الذوق وشفافيةِ النفس حتى استمع إليه بعض الفقهاء ، وبعضهم تطلبه أو مارسه ، خصوصاً إذا كان في الغزل الناعم الرقيق الذي لا يترفّع عن سماعه أحد . ويبدو أن الغناء ، في ذلك العصر ، لأنه يقوم ، في قسمه المعروف المشهور ، على عيون الشعر ، لم يكن مظهراً للتصرّف المبتذَل . . ويبدو ، كذلك ، أن وجود أقطاب ، عاشوا في تلك الحقبة أو قبلها ، وعرفوا كيف يختارون الكلمة التي تعجب الخاصة ، قد ساهم في رفع قيمة الغناء وجعل الطرب جزءاً لا يتجزأً من حياة هذه الخاصة . وذلك أمر طبيعي إذ إن الكلمة المنظومة يزداد فعلها مع اللحن والأداء . ولعلَّ هذا كان في أساس ارتباط الشعر بالغناء في طفولة الشعوب ، لا يستثنى منها الشعب العربي ، فكانت القصائد تنشد مرتّلة أو مغنّاة[3] . ونودّ هنا أن نسجّل ملحوظة مؤداها أن الغناء لم يكن دائماً

---

1 العقد الفريد ج 6 ص 221 .

2 المقدمة ج 4 ص 1268 . ويضيف ابن خلدون ، مقوّماً الأصفهاني وكتابه : «وقد ألّف القاضي أبو الفرج الأصفهاني ، وهو ما هو ، كتابه في الأغاني جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم . . .» .

3 المعروف عن أعشى قيس المشهور أنه «كان يغنّي في شعره . فكانت العرب تسمّيه : صناجة العرب» . (الأغاني ج9 ص 106) وهناك أعشى آخر كان يغنّى شعره بصوت شخص آخاه . فيقول الأصفهاني عن أعشى همذان ، (وهو إسلامي أموي) «قال الشعر وآخى أحمد النصبي . . . فكان إذا قال شعراً غنى فيه أحمد . .» (المصدر نفسه ج6 ص 34) .

فُضلةً ورفاهية في حياة الناس ، بل كان غالباً ممتزجاً بتلك الحياة ، فارتبط بكثير من الطقوس الدينية حيث يؤدي الترتيل الجماعي إلى خلق جو من الوحدة الروحية للمنشدين فيحس كل منهم بالامتزاج في جو كبير ، ويصبح أكثر استعداداً لتقبل الايحاءالجماعي . وهذه الوحدة الروحية التي يخلقها الغناء تكون أحياناً عنصر تنسيق وتنظيم لأعمال جُمَعية تعتمد على وحدة الحركة في لحظة معيّنة من لحظات العمل[1] . أما تأثير الغناء في تنشيط الحركة فمعروف على الإنسان وعلى الحيوان ، من مظاهره الحداء الذي يجعل الإبل تغذ السير .

وقد شغل الغناء ، وأساليب الترفيه الأخرى ، حيّزاً كبيراً في حياة الرشيد ، كما شغل مجالاً أكبر في الروايات والأخبار عنه ، خصوصاً أن معظمها ورد في كتاب الأغاني ، أو نقل عنه . «والأغاني» ، كما يقول أحمد أمين[2] ، «أُلّف في باب الغناء ، وكان من الطبيعي أن يقصر قوله على هذا الباب وما إليه» . والرشيد ، كما سبق القول ، كان يحبّ الحياة ، يحب نِعَمها ، ويطيب له أن يملأ نفسه من لذّاتها ، وإن لم يمنعه ذلك من الجد والتقوى والصلاح . وسبق لنا كذلك التركيز على أهميّة المتعة الأدبية التي كانت شغله الشاغل والقاسم المشترك لجميع مظاهر لذّته . ونحن ، في دراستنا للمناسبات التي أسميناها «ترفيهية» ، إنما نقصد إلى هذا الوجه من المتعة الأدبية الذي أراده مرفرفاً على لحظات سروره وخلوته بندمائه وسماره ومطربيه . فالسمر ، في نظره ، هو شعر ، أدب ، أو خبر . والمنادمة ليست مجرّد مشاركة في شراب ، إنها مجلس أدبي خاص ، بل كثيراً ما تحوّلت جلسة أدبية خالصة . والغناء ما أدراك ما الغناء بالنسبة إلى الرشيد ؟ إنه قمّة المتعة الأدبية ، يسمو بها لترضي جميع أحاسيسه الفنّية . وقد أولع به ، وكيف لا يولع وهو المترف الضجر[3] ، والمحتاج إلى كلّ بادرة ترفيه وتسلية ، وإلى كل جديد يثير فيه انفعالات بِكراً ؟ وكيف يصبر على الابتعاد عن السماع وفي متناوله فحول من المغنّين كانوا قادرين على أن يذهلوا الناس عن أعمالهم والراحلين عن رحلتهم والساعين عن أهداف سعيهم ؟ هذا مخارق يقف بباب الكُناسة ، حيث يتجمّع الناس ويرتحلون إلى مكّة ، فيندفع مؤذّناً فتراه قد «استوقف أولئك الخلق واستلهاهم حتى

---

1 نقصد بذلك أغاني الصيادين حين يرمون الشباك أو يسحبونها ، والملاحين حين يضربون بالمجاذيف . وكذلك أغاني البنّائين ، ومن إليهم مما يمكن اعتداده شبه نشيد إيقاعي ينظّم حركة العاملين بإيقاعه .

2 ضحى الإسلام ج 1 ص 118 .

3 كانت كثير من المجالس الأدبية تهدف إلى طرد الملل عن نفس الرشيد . وقد وردت الإشارة إلى ذلك في مواقعه . إنما يبدو أن الملل غدا ظاهرة طاغية على تلك الأيام المترفة . يسجل ذلك آدم متز قائلاً : «أضحى التمتّع بالغنى باهظ الثمن ، كثير المتطلّبات وأضحى الملل والأذن المتعبة علامة مميّزة لكل الأدب الحضري والاجتماعي . . . ففي ذلك الوقت ، احتلّ الفعل (ملّ) مكان الصدارة في النقد . وقال أحد أصدقاء جعفر البرمكي للشاعر : قل أبياتاً ولا تطل ، فإنه يمل الإطالة . . .» (مقدمة حكاية أبي القاسم البغدادي ــ ترجمة طارق حيدر العاني ــ بغداد مجلة المورد ــ عدد خاص ببغداد ــ المجلّد الثامن . العدد الرابع 1979) .

جعلت المحامل يغشى بعضها بعضاً وهو (أي البعض) كالأعمى ، لِما خامر قلبه من الطرب لحسن ما سمع»[1] . ويسمعه محمد بن سعيد الترمذي فيقول : «كدت أسعى على وجهي طرباً»[2] . ويسمعه أبو العتاهية فيبكي قائلاً : «لقد رققتَ حتى كدتُ أحسوك . فلو كان الغناء طعاماً لكان غناؤك أُدْماً ، ولو كان شراباً لكان ماءَ الحياة»[3] . ويصفه محمد بن محمد بأنه «كان ، والله ، ممن ، لو تنفس ، لأطرب من يسمعه استماعُ نفسه»[4] . حتى الظباء طربت لسماعه «فعطفت راجعة إليه حتى وقفت بالقرب منه مستشرفة ، تنظر إليه ، مصغية إلى صوته»[5] . جثا مرّة على ركبتيه وغنّى (صوتاً) «وصاح فيه حتى اهتزّ منكباه ، فما ظنّنا إلاّ أن الأرض قد زلزلت بنا وغلب والله ما سمعنا على عقولنا»[6] . ولم يكن مخارق وحيداً في إبداعه . فعمرو بن أبي الكنّات ، حين جمعه الرشيد بأقطاب الغناء والعزف ، تحمّس وتحدّاهم أمام الخليفة قائلاً : «لأُغنّينّك غناء يخرق هذا السقف وتجيبه الحيطان»[7] . ويبدأ مطلع بيت بـ «ألاَ ، لاَ . . .» فيخيّل إلى ابن جامع أن الحيطان تجاوبه بالفعل . ويجلس مرّة على طرف جبل عرفة ثم يندفع في الغناء ، فيركب الناسُ بعضُهم بعضاً ، يصيحون به مستغيثين : «يا هذا . الله ، الله . اسكت عنّا يَجُزِ الناسُ . . .»[8] وماذا نقول عن ابن جامع وزرزر الرفاء وإبراهيم الموصلي وابنه إسحاق وغيرهم من أعلام الغناء والطرب ؟ لقد زيّنوا مجالس الرشيد ، وكان أداؤهم عجباً من الأعاجيب . في هذه المجالس قامت منافسة على إجادة الألحان ، كما كانت مناظرات في اختراع الأصوات وتحدّيات في أدائها . من هؤلاء الجلساء من كان ينظم الشعر فيخلق الكلمة ويحلّيها باللحن ويخرجها برائع الأداء . ومنهم كان أخوة للرشيد ، أو أبناء . ولئن لم يُروَ عنه غناء ، فإننا نجهل السبب : هل هو في تحفّظ منه أو في فقدان موهبة الصوت ؟ لكنّنا متأكّدون من أن موهبة التذوّق والنقد وتقدير الغناء الجيّد وتشجيعه كانت عنده في أقصى حالات التوفّز ، وبشكل شبه دائم ، حتى لنحسب أحياناً أن الغناء بشعر الشاعر يجعل المعاني والأخيلة تتغلغل في كل خلية من خلايا جسم الرشيد ، بينما قراءة الشعر أو سماعه بالإلقاء العادي ، يجعل حدود تأثيره في الأذن والعقل والقلب ، وإن كان هذا ليس بالشيء اليسير . فالغناء ، بالنسبة إلى الرشيد ، ولعلّه كذلك بالنسبة إلى أهل عصره ، لم يعد مظهراً نافلاً من مظاهر الترف ، بل غدا

---

1 الأغاني ج 18 ص 261 .

2 المصدر نفسه .

3 المصدر نفسه .

4 المصدر نفسه ص 273 .

5 المصدر نفسه ص 274 .

6 المصدر نفسه ص 279 (الكلام لأبي معاوية الباهلي) .

7 نهاية الأرب ج 4 ص 301 .

8 المصدر نفسه .

ضرورة من الضرورات الأساسية ، غدا «خبزاً وأُدْماً» لا يتمّ الطعام الأدبي الفني إلاّ بهما . لقد كان الرشيد ، إذا سمع بيتاً من الشعر أعجبه ، يطلب فيه لحناً وغناء . وإذا وجد نفسه في مناسبة خاصة ، طلب فيها شعراً يلَحَّن ويغنّى . وإذا أراد إتمام نشوته ببيت أو مقطوعة شعرية ، طلب إجازتهما ، فإذا لم يتمّ له ذلك ، مال بالإحباط الأدبي الذي يحسّه ، إلى الإسقاط الفني ، فيطلب الطرب بدلاً من الأدب . فكيفما تتبّعنا ملامح لـذّات الرشيد ، وجدنا في نهايتها ، بل في قمّتها ، معنى بديعاً ولحناً رائعاً . . . ومع أننا لا نهدف إلى البحث في تفاصيل مجالس المنادمة والطرب ، فلا بدّ من كلمة واطار ، قبل أن نستجلي الأجواء الأدبية في هذه المجالس .

أولاً : إطار المجالس الترفيهية

لقد سبق لنا حديث عن إطار المجالس الأدبية التي نعتد مجالس السمر ضمنها . ونحاول فيما يلي رسم لمحات سريعة لإطار مجالس المنادمة فمجالس الغناء .

1 ـ المنادمة : تكون ، عادة ، على مائدة تحوي الشراب واللذيذ الطيّب من المآكل . والمشاركة في الطعام والشراب مجال لرفع التكلّف وللانطلاق على السجيّة ضمن حدود أدب المائدة والمنادمة . إلاّ أن المنادمة ليست هذه المشاركةَ مجرّدة . بل هي تفترض معها الأنس بالحديث الحلو والرواية الممتعة والنكتة المسلّية ، وأحياناً الأغنية المطربة . وهذه كلّها ألوان من الأدب ، معظمه ، في بلاط الرشيد ، راقٍ فصيح . ولا شكّ في أن اختيار النديم لما يقوله في مجلس الخليفة يعتمد أساسين : الأول هو الانتقاء المسبق ، من الحفظ أو من بطون الكتب ، لكل خبر طريف أو شعر ليّن سهل ، أو كلمة مختارة . وثانيهما الارتجال المبني على وحي الساعة ، أو على مناسبة ذكرت ، أو خبر عُلم في لحظته[1] . . . ولا شكّ ، أيضاً ، في أن شخصيّة الخليفة هي التي توجّه سير أحاديث المنادمة ، شأنها في سائر المجالس . فأمير المؤمنين يختار ندماءه ، ويختار مواضيع الحديث . وهم ، من جهتهم ، يهيّئون له ما يضمنون حسن تأثيره فيه ويتوقّعون أن يقع منه أفضل موقع . وقد حفظت لنا الأخبار بعض ملامح لمجالس السمر والمنادمة ، نستطيع أن نستشفّ منها ما كانت عليه ليالي الرشيد وصباحاته من تحدّي الكلمة للكلمة ، كما نستطيع أن نكوّن فكرة عن مجمل ذوق الرشيد في حالة الانفتاح النفسي . ولكي نضع هذه المجالس في إطارها الصحيح نبدأ بالتساؤل : هل شرب الرشيد ؟ وماذا كان يشرب ؟ وأين ومتى ؟ لقد أخذ موضوع شرب الرشيد الكثير من الجدل والبحث . وأعطاه الدكتور أحمد أمين حقّه من النقاش ، ووصل إلى نتيجة أنه قد يكون شرب النبيذ المصنوع من التمر الذي كان يحلّله أهل العراق ، ورائدهم في ذلك أبو حنيفة[2] . ونحن لا نجادل في هذا الموضوع لأنه ليس أساسياً في بحثنا ، لكنّنا نرى ، بمقارنة الأخبار في مصادر عدّة ، ومعظمها ينقل

1 في هذا المفهوم لمجالس المنادمة ، يصعب فصلها عن مجالس السمر التي لا تختلف عنها إلاّ في عدم وجود الشراب .

2 ضحى الإسلام ج 1 ص 114 ويوافق أحمد أمين في ذلك ابن خلدون .

عن الأصفهاني ، أنه شرب نوعاً محدّداً من الشراب وفي ظروف محدّدة . فنحن مثلاً ، لا نتصوّر الرشيد جالساً وسط الندماء إلى طاولة شراب يقرع الكأس بالكأس ، بل إننا نستبعد أن يجلس الندامى للشرب بحضوره . واعتقادنا هو أن الرشيد ، حين يشرب «نبيذه» يكون وحده أو مع واحد من أقرب المقرّبين إليه . ومجالس المنادمة التي يرد ذكرها تتميّز حكماً بضرب الستارة ، يجلس خلفها الرشيد وإلى جانبه نديم مقرّب ، كجعفر بن يحيى مثلاً ، وأمام الستارة تنصب طاولة الندمان وعليها شرابهم . فإذا ما اقتضى الأمر رفع الستارة ، وخروج الرشيد إلى جلسائه ، فإن شرابه لا يخرج معه ، كما أن شرب الندماء يتوقّف . أما «نبيذ» الرشيد ، فشراب خاص به لا يتناول سواه ، حتى إذا اضطر إلى الانتقال وكان من المتوقع أن يشرب في ذلك الانتقال ، حمل شرابه معه[1] .

أما أين يقام مجلس المنادمة ؟ فذلك لا سبيل إلى تحديده بشكل مطلق لأنه مرتبط بإقامة الرشيد ، والرشيد لم يعرف الاستقرار ؛ وكان ، في تنقّلاته ، يحمل مجالس أنسه ، منادمته ، وطربه ، كما يحمل مجالسه الأدبية . لهذا نجد إشارة إلى مجالس منادمة أقيمت في قصره ، في بعض الحجرات الخاصة[2] ، أو في جناح شيّد حديثاً وانتظر مجلس منادمة ليدشّنه[3] . كذلك التقطنا إشارة إلى مجلس في دمشق ، في قصر مسلمة بن عبدالملك[4] . وجاء ذكر مجلس بتل دارا[5] وآخر في منطقة «القائم» على طريق الرقة[6] . وورد كذلك ذكر تَحمُّلِهِ فجأة إلى دار إبراهيم الموصلي ، في إحدى الليالي ، حيث طرب وشرب[7] . أما مع من شرب الرشيد ؟ فذلك يقتضي الفصل بين مجالس المنادمة الخاصة ، والمجالس غير الخاصة . في المجالس الأولى يكون الرشيد مع المقرّبين إليه من أعمامه وأولاد عمّه أو إخوته ، أو مع وزيره جعفر ، شقيق الروح . وقد ينعم على مغنّ نديم ، إذا كان أديباً ، فيدعوه إلى جلسة منادمة خاصة لا يكون فيها سواهما ومن يسقيهما أو يساهم في الغناء من الجواري والخدم .

---

1 في خبر مجلس ، يأتي ذكره فيما بعد ، أقامه الرشيد في بيت الموصلي ، يقول الأصفهاني إنه أصاب من طعام الموصلي «شيئاً يسيراً ثمّ دعا بشراب حمل معه . فقال الموصلي : يا سيّدي ، أؤغنيك ؟ . .» (الأغاني ج 5 ص 991) والواضح من الخبر أن الرشيد كان يشرب وحده ، دون الموصلي الذي كان عليه العمل على إدخال السرور والطرب إلى نفسه . ويقول صاحب التاج : «من خبّرك أنه رآه قط وهو يشرب إلاّ الماء فكذّبه ، وكان لا يحضر شرابه إلاّ خاص جواريه» . التاج ص 84 .

2 الأغاني ج 5 ص 208 .

3 راجع ص 47 هامش 5 من البحث .

4 المصدر نفسه ج 5 ص 186 .

5 المصدر نفسه ص 227 .

6 المصدر نفسه ج 5 ص 383 .

7 المصدر نفسه ص 198 .

وحتى في هذه الحال ، فإن الرشيد ، عادة ، هو وحده الذي يشرب ويكون على نديمه أن يحدثه أو يغنّيه . فإذا ما دعاه إلى الشراب يكون قد أنعم عليه نعمة معنوية كبيرة يُدلّ بها عليه ، ويحق لهذا النديم أن يفخر على نظرائه وأن يروي قصة المنادمة هذه إلى أبنائه وأحفاده ، دلالة على عظم موقعه من نفس الخليفة . ونحن نرى ذلك في الخبر الذي وردنا عن دعوة الرشيد لإبراهيم الموصلي إلى مجلس منادمة خاص في إيوان مسلمة بن عبدالملك ، أثناء مروره بالشام ، في إحدى غزواته . فقد جعل الرشيد إبراهيم الموصلي يشاركه الطعام والشراب . ثمّ خلع عليه خلعة من وشي ثيابه وأمر له بألف دينار ، وراح يعدّد له ما اختصّه به من إنعام : «انظر يا إبراهيم ، كم نعمة أوليتك إيّاها اليوم : نادمتني مفرداً وآكلتني ، وخلعتُ عليك ثيابي من بدني ، ووصلتك ، وأجلستك في إيوان مسلمة بن عبدالملك تشرب معي»[1] . فهذه النعم التي عدّدها الرشيد كلّها أمور نادرة ، قليلة الوقوع . وقياساً يكون شرب النديم ، مع الخليفة ، نادراً إذا لم يكن هذا النديم من الهاشميّين أو البرامكة . والأخبار كثيرة عن شرب الرشيد ، في الوقت الذي ينهمك فيه نديمه في إدخال السرور على قلبه غناء وعزفاً[2] . لكن الرشيد ، إذا ظهر لبعض المنادمين الغرباء ، فرادى ، فهو لم يكن يظهر لمجموعهم إلاّ في لحظة معيّنة من الجلسة كما أسلفنا القول ، ويكون الرشيد قبل ذلك خلف الستارة ومعه خاصته . مع هؤلاء يتناول شرابه ، بينما سائر الندماء يتناولون شرابهم أمام الستارة[3] . فإذا ما

---

1 الأغاني ج 5 ص 186 . ويبدو أن إبراهيم الموصلي كان المحظوظ الوحيد من أبناء طبقته . فما وقع له لم يقع لأحد سواه . وقد جاء ذكر خبر آخر جعل الرشيد فيه الموصلي يشاركه الشراب مع جارية مغنّية (المصدر السابق ص208) كما ذكر خبر مماثل (في المصدر نفسه ص 205) ولم ترد أخبار مشابهة عن أحد آخر غير إبراهيم .

2 يذكر الأصفهاني دعوة الرشيد لإبراهيم الموصلي إلى صحن واسع في دار حديثة البناء حيث جلس ومعه خادم يسقيه . فلمّا دخل الموصلي قال له : «إنّي اشتهيت أن أجلس في هذا الصحن فلم يتفق لي إلى اليوم وأحببت ألاّ يكون معي ومعك أحد . . . ودعا بعود وقال : بحياتي أطربني بما قدرت . .» (الأغاني ج 5 ص 204) (مرت إشارة إلى الخبر في الصفحة السابقة) وفي خبر آخر عن إبراهيم الموصلي أنه دخل على الرشيد فطلب منه صوتاً ينشّطه . فغنّاه «فطرب ودعا بالطعام فأكل وشرب» . (المصدر السابق ص 223) وتكثر هذه العبارة في مجالس المنادمة والغناء : «فطرب وشرب» «فاستحسنه وشرب» (انظر الأغاني أيضاً ج 5 ص 227) . وفي مجلس بتل دارا ، غنّاه يحيى المكّي صوتاً عشر مرّات . فكان يطرب للصوت ويتناول قدحاً . قال المكّي : «فلم أزل أغنيه إياها ويتناول قدحاً إلى أن أمسى . فعددت عشر مرات استعاد فيها الصوت ، وشرب عشرة أقداح وأمر لي بعشرة آلاف درهم» . (الأغاني ج6 ص174) . وفي ذكر صوت لابن جامع نال إعجاب الرشيد ، يقول ابن يحيى المكّي : «فأعجب به الرشيد واسترده مراراً . . . وجعل يسمعه ويشرب عليه» (الأغاني ج 6 ص 177) في كل هذه الأخبار كان الرشيد يشرب ولم يكن يسقي نديمه المطرب .

3 يذكر الأصفهاني مجلساً اجتمع فيه الندماء ، فكان الرشيد خلف الستارة وأخوه إبراهيم بن المهدي أمامها مع المغنّين . يقول إبراهيم : «فلمّا جلسنا للشرب خرج الخادم إليّ . . .» الأغاني ج 5 ص 197 .

اكتفوا جميعاً وبدأت الجلسة ، وراح المغنّون يؤدون فيبدعون ، أمر الرشيد برفع الستارة[1] ، أو خرج من خلفها مع جعفر ، أو سواه[2] ، أو أدخل المغنّين إليه في مقصورته الخاصة ، إذا كان معتزلاً بها بدلاً من الجلوس خلف الستارة[3] . هنا يتم اجتماع الرشيد بمجمل الندماء ، ويكون الشرب في رأينا قد توقّف . ويبدو أن شرف المنادمة في مجالس منفردة ، أو خلف الستارة ، الذي حازه جعفر البرمكي إبان عز البرامكة ، لم ينتقل إلى الفضل بن الربيع ، لا أثناء دولتهم ولا بعد نكبتهم . فلا تذكر الأخبار أن الرشيد شرب مع الفضل . ولا بأس هنا بذكر سائر ندماء الرشيد لتكتمل أمامنا عناصر الإطار . ونختار لذلك خبر المجلس الذي اقترحه الرشيد لجمع الندماء والإشراف عليهم دون أن يدروا بوجوده . وقد رواه الأصفهاني بالسند إلى إسحاق بن إبراهيم الموصلي : «قال الرشيد للحارث بن بُسخُنَّر : قد اشتهيت أن أرى ندمائي ومن يحضر مجلسي من المغنّين ، جميعاً في مجلس واحد ، يأكلون ويشربون ويتبذلون منبسطين على غير هيئة ولا احتشام ، بل يفعلون ما يفعلون في منازلهم وعند نظرائهم . وهذا لا يتمّ إلاّ بأن أكون بحيث لا يرونني ، من غير علم منهم برؤيتي إياهم . فأعدّ لي مكاناً أجلس فيه أنا **وعمّي سليمان** وإخوتي **إبراهيم بن المهدي وعيسى بن جعفر ، وجعفر بن يحيى** . فإننا مغلّسون عليك غداة غد . واستزر أنت **محمد بن خالد بن برمك وخالداً أخا مهرويه ، والخضر بن جبريل ، وجميع المغنّين**»[4] . هكذا نجد الندماء ثلاث فئات : الفئة الخاصة جداً المؤلفة من عم الرشيد وأخيه وأبناء عمومته . كلّهم ، كما نرى ، هاشميّون يضاف إليهم شقيق نفس الرشيد : جعفر البرمكي . هؤلاء ، في رأينا ، هم الذين يمكنهم أن يجلسوا إلى طاولة الرشيد ويتناولوا معه شرابه ، مجتمعين . والفئة الثانية تتألف من أشخاص مقرّبين إليه ، ويبدو أنهم من مواليه . أما الفئة الثالثة فيؤلفها المغنّون والجلساء المعروفون في الأخبار .

أما أوقات مجالس المنادمة والشرب فغير محدودة بنظام معيّن . تذكر الأخبار ، مثلاً ، أنها تكون ليلاً بعد صلاة العشاء[5] . لكن الاصطباح مع الندماء كان أمراً معروفاً أشارت إليه عدّة أخبار[6] . كما أن مجلس المنادمة قد يكون في أي وقت من أوقات النهار يحلو للرشيد فيه أن يخلو

1 يطرب لغناء الموصلي بعد ابن جامع فيقول : «ارفعوا الستارة» (الأغاني ج 5 ص 205) .

2 جمع الجواهر ص 128 .

3 الأغاني ج 19 ص 246 .

4 المصدر نفسه .

5 يذكر الأصفهاني ، بالسند إلى إبراهيم الموصلي ، «قال لي الرشيد ، يوماً ، يا إبراهيم ، إنّي قد جعلت غداً للحريم وجعلت ليلته للشرب مع الرجال . وأنا مقتصر عليك من المغنّين . فلا تشتغل غداً بشيء ، ولا تشرب نبيذاً ، وكن بحضرتي وقت عشاء الآخرة» . (الأغاني ج 5 ص 221) وواضح أن الرجال المعنيّين هم خاصته الذين سبق ذكرهم لأنه استثنى منهم المغنّين .

6 يروي الأصفهاني عن لسان مخارق : «أن الرشيد قال يوماً للمغنّين ، وهو مصطبح ، من منكم يغنّي : يا ربع

بأصفيائه أو يروّح عن نفسه .

2 ـ **الغناء** : لقد بدأنا الفصل بذكر قيمة الغناء وأهمّيته بالنسبة إلى الرشيد . ونودّ هنا أن نلفت إلى مامرّ بنا من اقتران مجالس المنادمة بالغناء . فالرشيد لم يكن بينه وبين النبيذ تعلّق وجداني كما كان بين الخمر وشعرائها ، إنما كان يشرب لاستكمال المتعة . والمتعة عنده فنّية أدبية ، أولاً وآخراً . ولأنها كذلك ، فقد كانت هناك مجالس للطرب لم يذكر فيها الشرب ، ولم يكن فيها ندامى . هذه المجالس تكون ، في وضعها وتوزيع الحاضرين فيها ، أقرب إلى مجالس الأدب : يستوي فيها المغنّون على أماكنهم بالشكل المعروف للمجالس المذكورة ، ويكون ترتيبهم بحسب درجاتهم ومراتبهم[1] ، بعضهم يجلس وبعضهم الآخر يبقى واقفاً لأنه لا يكون قد بلغ مرتبة الجالسين[2] . في هذه المجالس المخصّصة للغناء ، يكون الرشيد ، عادة ، خلف الستارة ، أو في بدء الجلسة على أقل تعديل . وقد يكون معه خاصة حاشيته ، شأنه في مجالس المنادمة . ويكون صاحب الستارة حلقة الوصل بين الرشيد وجماعة المغنّين . ومن طريف دور صاحب الستارة هذا أنه لا يتكلّم إلاّ بما يأمر الرشيد ، فهو صوته الناطق أمام الجلساء . وفيما عدا ذلك ، يستعمل الإيماء لإعطاء الجو وخلق صلة بين من هم أمام الستارة ومن هم خلفها . ذاك أن انسجام الجالسين لا يمكن أن يكتمل من جانبي الستارة . فالمغنّون يصعب عليهم الإبداع أمام جمهور غير منظور لا يرون انفعالاته ولا يحسّون تجاوبه مع غنائهم . فيأتي الموكل بالستارة لينقل إليهم صورة ما يجري في الجانب الآخر بحركات معبّرة . «حكى إبراهيم الموصلي قال : بينما أنا عند الرشيد وعنده ابن جامع وعمر الغزّال ، وغيرنا من الندماء والمغنّين ، إذ قال صاحب الستارة لابن جامع : تغنّ من شعر عبدالله بن معاوية . . . فأرتج على ابن جامع . فلمّا رأيت ما حلّ به ، اندفعت فغنّيت لعبدالله : يَهيم بِجُمْلٍ . . . فإذا يد رفعت الستارة ، ونظر إليّ وقال : أحسنت ،

= سلمى . . . فقمت وقلت : أنا . . . فغنّيته ، فطرب وشرب . .» (الأغاني ج 18 ص 257) . وفي خبر آخر عن لسان إبراهيم الموصلي : «قال لي الرشيد : يا إبراهيم ، بكّر عليّ غداً حتى نصطبح . . . فبكّرت . . . فشرب وسقاني . .» (المصدر السابق ج 5 ص208) . وفي خبر ثالث : «قال الرشيد لإبراهيم بن المهدي وإبراهيم الموصلي وابن جامع وابن أبي الكنّات : باكروني غداً . . . ثمّ غدونا إلى الرشيد» (المصدر السابق ص 196) .

1 يذكر صاحب «التاج» أن الرشيد «جعل للمغنّين مراتب وطبقات على نحو ما وضعهم أردشير بن بابك وأنوشروان . .» وبحسب الطبقة تخرج الصلة (التاج ص 86) . وكانت الطبقة التي ينتمي إليها العازف أو المطرب حدًّا ثابتاً لا يحق له تجاوزه إلاّ بامتحان عسير ، وبموافقة الرشيد ، كما حصل لبرصوما الزامر حين طلب إليه الرشيد الزمر على غناء ابن جامع فرفض إلاّ إذا رفّع إلى طبقته . فرفّع إلى الطبقة الأولى (التاج ص 89) .

2 جاء في خبر للنويري : «كان مخارق يقف بين يدي الرشيد مع الغلمان لا يجلس ، ويغنّي وهو واقف» . وبتحريض من الموصلي غنى صوتاً سبقه إليه ابن جامع «وتحفّظ فيه ، فأتى بالعجائب . وطرب الرشيد . . . فقال لمخارق : اجلس إذاً مع أصحابك . فقد تجاوزت مرتبة من يقوم» (نهاية الأرب ج 4 ص 306) .

أعده . . . ثم انفضّ المجلس . فلما كان المجلس الثاني ، قال صاحب الستارة لابن جامع : تغنّ من شعر أبي جعفر ، يعني عبدالله بن معاوية ، فوقع مثل ما وقع فيه بالأمس . فغنّيت . . . : يا قوم كيف سِواغُ عيش . . . قال : فأومأ إليّ صاحب الستارة أن أمسك . ووضع يده على عينه كأنه يومي إليّ أنه يبكي . فأمسكت . . . ثمّ حضر بعد ذلك . . . قال صاحب الستارة : يا ابن جامع ، تغنّ في شعر عبدالله بن معاوية . فقال ابن جامع : لو كان عندهم في عبدالله بن معاوية خير لطار مع أبيه . ولم يقبل على الشعر . فسمعنا ضحكة من وراء الستارة . قال إبراهيم : فاندفعت أغنّي . . . : فلست بأول من فاته . . . فأومى إليّ صاحب الستارة أن أمسك . وأشار بيده إلى أنه يبكي . فأمسكت . . .»[1] إلاّ أنّ بقاء الرشيد خلف الستارة لم يكن دائماً . فلا لذّة بلا مشاهدة[2] . لذا تكثر الأخبار عن خروج الرشيد من خلف الستارة لاستكمال المتعة الفنّية[3] . بقي أن نضيف هنا ملحوظة على جانب من الأهمية تتعلّق بالقاعة التي تقام فيها حفلات الطرب . ونستطيع أن نتصوّر تلك القاعة مسرحاً مصغّراً ، نستشفّ ذلك من وصف أورده الأصفهاني والحصري في خبر دخول ابن جامع إلى الرشيد ، للمرّة الأولى[4] . وأول هذه الملامح أن قاعة الحفلات الغنائية موجودة في دارالخلافة نفسها لا في قصر آخر من قصور الخليفة[5] . وثاني هذه الملامح أن القاعة كبيرة واسعة الجوف[6] . وثالث الملامح أن في وسط القاعة مجموعة أسرّة «أضيف بعضها إلى بعض»[7] لتشكّل مرتبة عالية يصعد إليها ويتربّع عليها المطربون والعازفون[8] . وكأني بها تعادل

---

1 سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ص 351 وانظر ص 579 من البحث .

2 يؤثر عن المهدي قوله حين ظهر للندماء وألغى الستارة : «إنما اللذة مع مشاهدتهم» (تاريخ الخلفاء ص 727) .

3 حين جمع الرشيد المغنّين ، اقترح صوتاً غنّاه ابن جامع ، وتلاه بعض من حضر ، لم يحرّك أحد منهم شيئاً في الرشيد . «فقال صاحب الستارة لمسكين المدني : يأمرك أمير المؤمنين ، إن كنت تحسن هذا الصوت فغنّه . . . فلما فرغ منه سمعت الرشيد يقول ، وقد رفع صوته : يا مسكين ، أعده . . . فقال الرشيد : أحسنت ، والله ، وأجملت . ورفعت الستارة بيننا وبينه . . .» (مروج الذهب ج 3 ص 360 و361 ـ والحديث لإبراهيم الموصلي) .

4 يصف الخبر ابن جامع في قدومه إلى بغداد ، حين كان لا يعرف أحداً فيها ، وعثور سلامة بن الأبرش ، مولى الرشيد ، عليه ، وإدخاله أحد قصور الخلافة حيث حُضّر للمثول أمام الرشيد . (الأغاني ج 6 ص 293 وما بعد ـ وجمع الجواهر ص 126 وما بعد) .

5 يقول ابن جامع : «فحملت على دابة إلى دار الخلافة . وعرفتها بالحرس والتكبير والنيران . . .» (المصدران السابقان) .

6 يتابع ابن جامع : «فجاوزت مقاصير عدّة حتى صرت إلى دار قوراء فيها أسرّة» (المصدر نفسه) .

7 المصدر نفسه .

8 وله أيضاً : «فأمرني رجل بالصعود فصعدت . وإذا رجل جالس ، عن يمينه ثلاث جوار ، في حجرهن العيدان ، وفي حجر الرجل عود» . (المصدر نفسه) .

خشبة المسرح في أيامنا . ورابع الملامح مجالس النظّارة[1] يجلس فيها المستمعون من الندماء ، كما يجلس فيها الرشيد حين يخرج من خلف الستارة[2] . هكذا تستكمل عناصر قاعة المسرح التي تستعمل للحفلات الغنائية الخاصة حين يُحيي مطرب أو مطربان سهرة الغناء . ولا بدّ من التذكير هنا ، كما كنا نفعل في أية دراسة لمجالس الرشيد ، بأن هذه المجالس ، أيًّا كان نوعها ، لم تكن تقام في أماكن ثابتة . لذلك فلا قيود مكانية أو زمانية لاجتناء الرشيد المتعة الفنية . ولذلك لازمه المغنّون ، كما لازمه الأدباء : ارتحلوا معه في غزواته[3] وفي تنقّلاته بين بغداد والرقّة ، وفي رحلات صيده[4] . ورؤيته لهم يومية[5] ، ولعلّ سماعه لهم كذلك : يتعلّقون بشخصه فلا يحقّ لهم التصرّف بأوقاتهم إلاّ بإذنه أو حين يصرفهم عنه لانشغاله بأمور أخرى[6] . وهو ، في هذه الحال ، يبقى معهم بروحه وفكره ، ويستاء من أن يُحيوا المجالس عند سواه[7] ، ويحاسبهم على كيفية تمضيتهم أوقاتهم أثناء الإجازة[8] . ونراه يعتب على المخالفين ، وقد يقاطعهم أو يؤنّبهم إن لم

---

1 ويصف الجهة المقابلة للأسرّة التي جلس عليها الرجل والجواري : «وإذا مجالس ، حياله ، كان فيها قوم قد قاموا عنها» . (المصدر نفسه) .

2 ويصف الرشيد حين خرج من وراء الستارة وأقبل عليه حيث كان متربّعاً : «قال لي الفضل بن الربيع : هذا أمير المؤمنين قد أقبل إليك . فلمّا صعد السرير وثبت قائماً . فقال لي : ابن جامع ؟ . . . قال : اجلس ، ويحك . يا ابن جامع . ومضى هو وجعفر فجلسا في بعض المجالس . .» (الأغاني ج6 ص 298) – وفي (جمع الجواهر ص128) وردت عبارة «فجلسا في المواضع الخالية» .

3 يقول إبراهيم الموصلي : «خرجت مع الرشيد إلى الشام ، لما غزا . . .» (الأغاني ج 5 ص186) .

4 «قال أبو الفرج عن أبي إسحاق قال : مُطرنا ونحن مع الرشيد بالرقة مع الفجر . . .» (نهاية الأرب ج 4 ص 50 ، ويروي أيضاً عن إسحاق الموصلي : «خرجنا مع الرشيد ، يريد الرقّة . فلمّا صرنا بالموضع الذي يقال له (القائم) نزلنا . وخرج يتصيّد . وخرجنا معه» (الأغاني ج 5 ص 383) .

5 مرّ بنا طلب الرشيد إلى مغنّيه ، وهو مجتمع به ، أن يوافيه في صباح اليوم التالي أو بعد العشاء . ونضيف هنا قول إبراهيم الموصلي : «سألت الرشيد أن يهب لي يوماً في الجمعة ، لا يبعث فيه إليّ بوجه ولا بسبب ، لأخلو فيه بجواريّ وإخواني . فأذن لي في يوم السبت» (المصدر السابق ص 210) .

6 في خبر إبراهيم الموصلي عن يوم المطر بالرقة يقول : «. . . وعرفنا خبر الرشيد أنه مقيم عند أم ولده المسمّاة سحر . فتشاغلنا عنه في منازلنا» . (نهاية الأرب ج 4 ص 50) وفي يوم ، قال الرشيد للموصلي : «قد جعلت غداً للحريم . . .» (الأغاني ج5 ص 221) . ويذكر إسحاق الموصلي أنه وجد فرصة ليلزم جعفر بن يحيى ببغداد حين كان الرشيد بالرقة وهو «يومئذ بعقب علّة قد عوفي منها وليس يشرب . .» (المصدر السابق ص 358) .

7 يقول إسحاق الموصلي : «نهاني الرشيد أن أغنّي أحداً غيره . ثمّ استوهبني جعفر بن يحيى وسأله أن يأذن لي في أن أغنّيه ، ففعل . .» (المصدر السابق ص 358) وحين سمع أن الموصلي غنّى الفضل بن يحيى ، حفظها له ، وعندما حان الوقت عاتبه مؤنّباً : «إيه يا إسحاق ، تركتني بالرقة ، وجلست ببغداد تغنّي للفضل بن يحيى ؟ . .» (المصدر نفسه) .

8 في خبر مصاحبة الموصلي للرشيد عند مسيره إلى الرقة ، يذكر إبراهيم أنه ترك الرشيد يصطاد ودخل ديراً فاستضافه

يقدّموا عذراً مقبولاً[1] أو يأتوه بإلهام جديد في صوتٍ حديثٍ وقصة طريفة . وهذا ما نراه في دراستنا للأجواء الأدبية في مجالس الترفيه .

ثانياً : الأجواء الأدبية في مجالس الترفيه

إذا كنّا أطلنا قليلاً في استكشاف معالم إطار هذه المجالس ، فلأنها تبرز لنا وجهاً مهمًّا من وجوه حياة الرشيد ارتبط بالصورة المنطبعة عنه في ضمير الأجيال العربية وغير العربية ، وبالتصور الساحر الذي تثيره في الأذهان ليالي الشرق الغامض . والواقع أننا ، مع ما ألمحنا إليه من إطالة ، نحسّ بتقصيرنا عن إعطاء الموضوع حقّه ، إنما ليس إعطاؤه هذا الحق من أهداف بحثنا أصلاً . فالذي يعنينا من تلك المجالس هو ما كان يرافقها من أجواء أدبية يمكن أن نسمّيها «خاصة» بمقابل الأجواء «العامة» التي كانت تسيطر على الاحتفالات . ونعود مرّة أخرى إلى التذكير بأن التسميات الاصطلاحية يصعب تطبيقها على كل ما يتعلّق بالرشيد . فإذا ألمحنا إلى تداخل مجالس السمر والمنادمة والطرب ، نضيف هنا أن السمر ، المعروف لأحاديث الليل ، المرتبط عادة بالسهر في ضوء القمر ، قد تقام مجالسه ليلاً أو صبحاً أو ظهراً أو مساءً ، شأن مجالس المنادمة والطرب ومجالس الأدب . بل لا نغالي إذا قلنا إن جميع المجالس كانت متقاربة على صعيدالتنفيذ لدرجة أن أي مجلس منها قد ينبت في صميم مجلس آخر . وهذا يجعلنا ندرس مجالس الترفيه ، بلا تصنيف دقيق ، محاولين إبراز الأدب كقاسم مشترك لها ، وكسبب للتداخل فيما بينها .

1 ـ مجالس السمر[2] : إذا سلّمنا بأن مجالس السمر تعتمد تسلية الرشيد بالنادرة والطرفة

= الراهب وقامت راهبة حسناء على خدمته . ثمّ يقول : عدت عشاء إلى العسكر «والرشيد جلس للشرب وطلبني فلم يجدني . . . فقال لي : أين كنت ، ويحك ؟» (الأغاني ، ج 5 ص 383) وفي يوم آخر من هذه الرحلة ، حين صاروا بتل عزاز ، من دابق ، يقول : «خرجت أنا وأصحاب لي نتنزّه في قرية فأقمنا بها أياماً . وطلبني الرشيد فلم يجدني . . . ثم دخلت . . . وهو مغضب . فقال : أين كنت ؟ . .» (المصدر السابق ص384) .

1 لإبراهيم عدّة أخبار كالتي ذكرناها في الهامش السابق حيث كان يغيب عن الرشيد ثمّ يعود إليه فيجده غاضباً . وكان يبادره بحكاية مغامرة طريفة ، وينشده صوتاً جديداً من وحيها ، فيرضى عنه ؛ وفي إحدى هذه المرّات ، عندما أنشده الشعر وغنّاه إياه ، تبسّم وقال : «عذر وأبيك ، وأي عذر» . (المصدر السابق ص 384) .

2 إيضاحاً لما سبق عن شمول معنى المسامرة غير أحاديث الليل ، نشير إلى استخدام البيهقي فعل المسامرة للدلالة على تبادل الحديث ، بقصد الترفيه والتسلية في الصباح . وبالذات لحديث التخفيف عن المعتل ، فيقول : «حدّث الأصمعي أنه دخل ذات يوم على أمير المؤمنين الرشيد ، وكان لا يحجب عنه ، وكان في فرد رجليه خف وفي الأخرى جورب ، لعلّة كان يجدها . فسامره ساعة ثمّ نهض ليخرج . فقال له الرشيد : «يا أصمعي ، ماذا تشتهي أن يُتخذ لك ليُتقدم فيه وتتغذى معنا ؟ . .» (المحاسن والمساوىء ج 2 ص 87) ويروي الأصفهاني خبر دخول أبي العتاهية على الرشيد ، في علته ، وملازمته له «يسامره ويحدّثه إلى أن برىء . .» (الأغاني ج 4 ص 16) .

والحكاية ، أو رواية الشعر له وإجازته وارتجاله ، فإنها تتم ضمن مجالس خاصة تقام ، لا في البهو الكبير ، بل في أماكن أكثر خصوصية[1] ، في الحجرات أو المقاصير . أما عدد السمار فقد يكون واحداً ، وقد يكون غير واحد[2] . وإذا كان عدد المسامرين كبيراً فذلك يفرض اتخاذ المجلس في قاعة كبيرة . ولا يستبعد أن يكون الندماء بين المسامرين[3] ، وغالباً ما يشكّل المغنّون فريقاً منهم[4] . أما كيف يلتقي السمّار عند الرشيد وكيف يجري توزيعهم في مكان السمر ، فقد يجلسون جميعاً في أماكنهم المعروفة أمام الستارة إذا كانت منصوبة . وقد يدلف أحدهم أو بعضهم إلى الرشيد خلف الستارة ، بناء على رغبة الخليفة ، لتسليته بحديث وتلبية خطرات ذهنه بمخزون أدبي أو حضور بديهة . وحين يخلو الرشيد بأحد المسامرين أو بعدد قليل منهم ، فإنه يواجههم ويقبل عليهم مستنشداً أو طالباً الإجازة والحكاية . وقد يستقبل سميره في حجرة خاصة وعلى وضع من عدم التكلّف .

2 ـ من السمر والشعر إلى الغناء والطرب : إذا كان المغنّون يحضرون مجالس سمر الرشيد ،

---

1 يذكر الأصفهاني دخول الأصمعي على الرشيد يوماً ، وهو محموم ، وقول الخليفة له : «أنشدني شعراً مليحاً . . .» (الأغاني ج 22 ص 377) . ويدخل الأصمعي وأبو حفص الشطرنجي على الرشيد ، وهو متخثّر ، ليجيزا له بيتاً . (المصدر نفسه ص 527) ويدخل الأصمعي وحده على الرشيد ، وهو يقرأ في كتاب ويبكي تأثراً من شعر أبي العتاهية . (مروج الذهب ج 3 ص 283) كما يدخل إليه وبين يديه جارية حسناء فيصفها له (العقد الفريد ج 6 ص 403) . ويدخل إليه وهو ، «في الفرش ، منغمس كما ولدته أمه» وينشده شعراً يحبّب إليه الشرب . (العقد الفريد ج 6 ص 336) . كما يدخل عليه «وهو جالس متفرد» ليمتحن له جاريتين ويروي له حكاية . (تاريخ بغداد ج 10 ص 413) .

2 في أخبار الهامش السابق تتضح معالم المسامرة المنفردة . أما المسامرة مع غير واحد ، فنسوق لها ما رواه الأصمعي عن دخوله على الرشيد مع إسحاق الموصلي وإنشاد إسحاق شعراً من نظمه . (نهاية الأرب ج 5 ص 7) . وتأتي في الهوامش التالية إشارات كافية إلى المسامرة الجماعية .

3 تستعمل المنادمة أحياناً كمرادف للسمر والترفيه ، في مجلس لا يأتي فيه أي ذكر لشراب ، بل يستبعد احتمال الشراب فيه . فالأبشيهي ، مثلاً ، يذكر سؤال الرشيد للفضل بن الربيع عمّن بالباب من الندماء . فيدخل إليه أحد موالي الأمويّين الذي يطربه بغناء ويسلّيه بحكاية عن الصوت الذي غنّاه . (المستطرف ج 2 ص 152) فهذا المجلس للغناء والمسامرة . ومن المستبعد جدًّا أن يشرب الرشيد بحضور مولى الأمويين ، أو أن يجعله يشاركه شرابه .

4 كان إسحاق الموصلي من السمار ، وهو شاعر كوالده . يقول : «دخلت على الرشيد يوماً فقال لي : أنشدني أحسن ما تعرف عن عتاب محب وهو ظالم متعتب . . .» . وكان عبثر المغنّي مسامراً لبقاً . فحين «تذاكروا رقّة شعر المدينيين» أنشد شعراً لجرير برهاناً عن رقّة شعراء البادية . (العقد الفريد ج 6 ص 33) وراجع ص 228 من البحث . وكما يذكر ابن عبد ربّه «مسامرة عبثر المغنّي الرشيد» يذكر أن الرشيد جلس ليلة مع سماره ، فغنّاه بعض من حضر من المغنّين بأبيات جرير . . . (وهذا يثبت وجود المغنّين) فطرب الرشيد لها طرباً شديداً . . . وقال لجلسائه : هل منكم أحد يجيز هذه الأبيات بمثلهنّ وله هذه الدرة ؟» (وهذا يثبت وجود الشعراء) (المصدر نفسه ص 57) .

بصفتهم مغنّين ، كما يحضرون مجالس الشراب بصفتهم منادمين ، وإذا كان بعض مغنّي الرشيد موجودين في مجالس سمره ومشاركين فيها ، بصفتهم مسامرين ، فإن الشعر والطرب سيتلازمان في مجالس الرشيد الترفيهية ، لا في الكلمة الملحّنة المغنّاة فقط ، بل أيضاً في شخص الشاعر المسامر والمغنّي المطرب ، وفي الاثنين حين يجتمعان لموهبة فذّة نادرة تمتّع بها كثير من جلسائه[1] . وقد سبقت لنا إشارات إلى ربط الرشيد متعة سماع الشعر بسماع الغناء فيه . ونعطي مثلاً على ذلك قصيدة يوسف بن الحجّاج الصيقل : «أغيثاً تحمل الناقة أم تحمل هارونا . . .» فحين عرض له يوسف على طريق الحجاز وأنشده قصيدته طلب له الرشيد فرساً ، فسار إلى جانب قبّته «ينشده ويحدّثه ، والرشيد يضحك . . . ثمّ أمر له بمال ، وأمر أن يغنّى في الأبيات»[2] ففعل ذلك ابن جامع . وحين حاول الرشيد إمضاء الليل على شاطىء دجلة ، ليسرّي همًّا لحقه ، وسمع غناء من أحد البيوت ، استدعى المغنّي ، وكان الزبير بن دحمان ، وسأله عن الشاعر ، فكان العبّاس بن الأحنف ، فحُمل إليه «واستنشده الشعر فأنشده إياه . وجعل الزبير يغنّيه وعبّاس ينشده ، وهو يستعيدهما ، حتى أصبح . .»[3] وأثناء مرور الرشيد بدير مُرّان (وهو يقع بظاهر دمشق) كان معه الحسين بن الضحاك «فأمره أن يقول فيه شعراً ، فقال . . . وأمر عمرو بن بانة فغنّى فيه لحنين[4]» وكل ما قدّمناه يثبت تعلّق نفس الرشيد الفنّانة بالغناء واعتداده إياه أقصى حدود المتعة الأدبية . وفي هذا المضمار تدخل الأخبار التي رويت عن مقطوعات شعرية سمعها الرشيد أو قرأها فأعجب بها وحوّلها إلى أقطاب الغناء ليلحّنوها ويسمعوه إياها . فهذا أشجع السلمي ينشده أبياته المعروفة[5] مهنّئاً بالعيد ، فتلقى من الرشيد

---

1 كان إبراهيم بن المهدي ، أخو الرشيد ، شاعراً ملهماً ومغنّياً موهوباً . وكان إبراهيم الموصلي شاعراً غزلاً رقيقاً ، وشاعر مناسبات ، كما سنرى . ومثله كان ابنه إسحاق . بل إن إسحاق جمع إلى ذلك رواية الحديث واللغة والفقه ، وقد «سأل المأمونَ أن يكون دخوله إليه مع أهل العلم والأدب والرواة ، لا مع المغنّين ، فإذا أراده للغناء غنّاه ، فأجابه إلى ذلك . ثمّ سأله بعد حين أن يأذن له في الدخول مع الفقهاء فأذن له» . (الأغاني ج 5 ص 258) . وممن درس الفقه من المغنّين ابن جامع . وحين اجتمع به أبو يوسف على باب يحيى البرمكي ، ولم يكن يعرفه ، ظنّه أحد فقهاء الحجاز (الأغاني ج 6 ص275) وكان للزبير بن دحمان ولابن صدقة أشعار يؤلّفانها ويغنّيانها الرشيد في مناسبات معيّنة ، يأتي ذكرها .

2 الأغاني ص 23 ص 92 .

3 المصدر نفسه ج 18 ص 229 .

4 مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ج 1 ص 355 والأبيات هي :

يا دير مُرّانَ ، لا عُرّيتَ من سَكَنٍ ... قد هِجتَ لي حَزَناً ، يا ديرَ مُرّانا

حُثّ المُدامَ ، فإن الكأسَ ، مترعةً ، ... مما يَهيج دواعي الشوقِ أحيانا

ويشير ابن شداد إلى هذا الخبر في قوله عن الدير : «نزل به هارون الرشيد وقصف فيه وشرب» (الأعلاق الخطيرة ص 282) .

5 مطلعها : استقبل العيد بعمر جديد . . . .

استحساناً ولا يجد تقديراً لها أكبر من أن يأمر بـ «أن يغنّى بها»[1] . وكان الرشيد معجباً بشعر أبي العتاهية ، تصله المقطوعة منه فيقرؤها منفرداً ، ويحسّ بلواعج كثيرة تثور فيه ، فيشرق بدموعه[2] ، أو يستشعر نشوة متصاعدة تفرض سماع غناء يسمو بها ويلطفها[3] . وما ذكرناه عن أبي العتاهية وغيره يكاد يكون قاعدة عند الرشيد : كل شعر ينال إعجابه يحوّله إلى التلحين والغناء . وقد سبقت لنا إشارة إلى جارية عربية صغيرة أعجبته بشاعريتها المبكّرة ، فدعا إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق لسماعها ، ثمّ راحا يسابقان سائر المغنّين في صياغة ألحان بشِعرها[4] .

3 ـ من الطرب إلى الأدب : إن التداخل الحاصل بين مجالس السمر ومجالس الطرب لا يمكن له أن يكون في اتجاه واحد . فكما يتحوّل مجلس السمر والشعر إلى مجلس غناء وطرب ، فكثيراً ما ينتهي مجلس الغناء ، أو يتحوّل مجلس المغنّين ، إلى إنشاد الشعر ورواية الحكايات الطريفة . من ذلك ما رواه المسعودي ، بالسند عن إبراهيم الموصلي ، من أنه حضر مجلس طرب جمع فيه الرشيد المغنّين ، ومنهم كان مسكين المدني[5] . ولم يستطع أحد ، غير مسكين ، إعطاء الغناء حقّه ليطرب الرشيد ؛ والسبب يعود إلى أن الصوت المقترح له قصة مرتبطة بمرحلة من حياة المدني . وقد تشوّق الرشيد لمعرفة القصة . فراح مسكين يقصّها عليه ، والرشيد يتابعها باهتمام ويضحك لما فيها من طرافة ويقول : «ويلك . ما أدري أيما أحسن : حديثك أم غناؤك . . .»[6] وفي مجلس آخر خاص ،

---

1 معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ج 4 ص 74 .

2 مروج الذهب ج 3 ص 283 .

3 يروي الأصفهاني ، بالسند عن إسحاق الموصلي ، قوله : كان الرشيد معجباً بشعر أبي العتاهية . فخرج إلينا يوماً ، وفي يده رقعتان على نسخة واحدة . فبعث بإحداهما إلى مؤدب ولده وقال : ليُروّهم ما فيها . ودفع الأخرى إليّ وقال : غنّ في هذه الأبيات . ففتحتها ، فإذا فيها :

قُـلْ لِمَنْ ضَنَّ بِوُدِّهْ	وَلَـوَى القلبَ بِصَدِّهْ
ما ابتلى اللهُ فـؤادي	بـكَ إلاّ شؤمُ جَـدِّهْ
أيهـا السارقُ عقـلي	لا تضنَّـنَّ بِـرَدِّهْ
مـا أرى حُبَّكَ إلاّ	بالغـاً بـي فوقَ حَدِّهْ

(الأغاني ج 4 ص 99) .

وحين قال أبو العتاهية أبياته : مَنْ لعبدٍ أذلّه مولاهُ . . . ، بعد ضغط طويل في حبس الرشيد ، رأى الرشيد أن الجهد الذي دُفع ثمناً لهذه الأبيات يقتضي تخليدها ، فلا تقال مرّة ثم تنسى . وتخليدها كان بأن «تقدم إلى إبراهيم الموصلي ، فغنّى فيها» . (المصدر نفسه ص 267) .

4 المصدر نفسه ج 5 ص 225 وراجع ص 163 من البحث .

5 يصفه الموصلي في الخبر فيقول : «يعرف بأبي صدقة . وكان يوقع بالقضيب ، مطبوعاً ، حاذقاً ، طيّب العشرة ، مليح البادرة» .

6 مروج الذهب ج 3 ص 278 .

دخل عليه إسحاق الموصلي وبين يديه جارية وردية اللباس ، وجعل يغنّي الرشيد وفي نهاية الجلسة قال هارون لإسحاق : حدّثني . قال إسحاق : «فجعلت أحدّثه بأحاديث القيان والمغنّين طوراً ، وأحاديث العرب وأيامها وأخبارها تارة ، وأنشده أشعار القدماء والمحدثين . . .»[1] وهذا إبراهيم الموصلي يخلو بنفسه في أحد الأيام فيزوره إبليس[2] بهيئة شيخ يأخذ منه العود فيلقنه أصواتاً ثم يختفي . وما إن يحقّق إبراهيم أن الزائر هو إبليس حتى يسرع إلى الرشيد يحكي الحكاية فيتعلّق به الرشيد : «ويحك . تأمّل هذه الأصوات ، هل أخذتها ؟» . وحين وجدها راسخة في صدره ، أنشدها الخليفة فطرب وأمر للموصلي بصلة ، وقال عن إبليس : «ليته أمتعنا بنفسه يوماً واحداً كما أمتعك !»[3] . . . وتكثر مسامرة المطربين للرشيد . وقد سبقت الإشارة إلى مسامرة عبثر المغنّي له[4] ، وفي إحدى جلسات الصفاء سأل الرشيد إبراهيم الموصلي كيف يصنع إذا أراد أن يصوغ الألحان . فقال : يا أمير المؤمنين ، أُخرجُ الهمَّ من فكري ، وأمثّل الطرب بين عيني ، فتسوغ لي مسالك الألحان التي أريد ، فأسلكها بدليل الإيقاع ، فأرجع مصيباً ظافراً بما أريد» . وهذا الوصف ، كما نرى ، واقعي ، دقيق وبليغ في آن واحد . والرشيد لم يتمالك نفسه ، إذ سمعه ، أن يقول : «يحقّ لك يا إبراهيم أن تصيب وتظفر . وإنّ حسن وصفك لَمُشاكلٌ حسنَ صنعتك وغنائك»[5] . وفي حديث السمر بين الرشيد وأحد فناني البلاط ، ودّ الرشيد أن يعرف تقديره لزملائه ، فسأله ، وهو برصوما الزامر : «ما تقول في ابن جامع ؟ قال : زق من . . . عسل . قال : فإبراهيم ؟ قال : بستان فيه فاكهة وريحان وشوك . قال : فيزيد حوراء ؟ قال : ما أبيض أسنانه ! قال : فحسين بن محرز ؟ قال : ما أحسن خضابه ! قال : فسليم بن سلاّم ؟ قال : ما أنظف ثيابه !»[6] ونحن نرى ، في هذه الإجابات ، منتهى

---

1 الأغاني ج 5 ص 270 .

2 ننقل الخبر على ذمّة الموصلّي والأصفهاني . وكان أهل العصر يعتقدون ظهور الجن والشياطين متلبّسين هيئات وأشكالاً مختلفة ، حسب الحاجة .

3 المصدر نفسه ص 213 . ونحن إذا نقلنا ما تقول الرواية على أنه كان مقبولاً في تلك الأيام فإننا نستطيع تفسيره بتهيؤات نفسية عند إبراهيم . بمعنى أنه رأى الشيخ بعين ذاته لا عين رأسه . ففي بعض اللحظات ، تشف نفس الإنسان وتنسلخ عن عالم الواقع لتعيش مع الرؤى وأحلام اليقظة . وإذا كان الإنسان العادي يفيق منها ويعرف أنها خيال ، فإن الفنان قد يمزجها بالواقع حتى لا تعود تتميّز منه ، وذلك شكل من أشكال الإلهام الفني . إلاّ أننا نريد هنا أن نتحفّظ تجاه تمنّي الرشيد مجالسة إبليس . فهذه الأمنية توافق المُجّان ، ومن غير المعقول أن تخطر ببال خليفة يعتدّ نفسه ممثّلاً لله على الأرض وحامياً للدين ورمزاً للفضيلة والخير بينما يمثل إبليس في ذهنه وذهن جميع المؤمنين ، الكُفرَ والشر والغواية وعصيان الخالق . فهو قد يقبل ذلك للموصلي ، لكنه لا يمكن أن يرتضيه لنفسه ، ولا أن يجهر به .

4 العقد الفريد ج 6 ص 33 وراجع ص 559 هامش 4 من البحث .

5 الأغاني ج 5 ص 209 .

6 المصدر نفسه ج 6 ص 154 .

الظرف واللباقة ، وهما من أهم صفات الجليس ، فما قولنا بجليس خليفة هو الرشيد ؟ ودخل عليه مرّة هاشم بن سليمان ، مولى بني أميّة ، وكان الرشيد يشتهي سماعه . فغنّاه بشعر لجميل :

إذا مــا تراجعنــا الذي كان بيننــا   جرى الدمع من عيني بثينةَ بالكحل ...

(الأبيات)

فطرب الرشيد وقلّده عقداً نفيساً ما إن رآه هاشم حتى طفق يروي قصة جرت له بسبب العقد ، أيام بني أميّة[1] .

ولعلّ من أبرز المجالس التي تمثّل الانتقال من الطرب إلى الأدب ، المجلس الذي رواه المسعودي عن غناء جارية بشعر خالد بن يزيد :

أرقــتُ حتــى كأني أعشق الأَرَقَا   وذُبــتُ حتى كأن السُقم لي خُلِقا

وفــاض دمعــي على قلبــي فأغرقَــهُ   يا مَــنْ رأى غرِقاً ، في الماء محترقا[2]

فإلى هذا المجلس ، الذي حضره البرامكة وإسحاق الموصلي والجارية المغنّية ، أُحضر خالد بن يزيد واستُنشد الشعر ثم طلب إليه أن يرتجل أبياتاً في حادثة غزليّة جرت أمامه بين الرشيد وجاريةٍ رسولٍ ؛ وقد سبق ذكر ذلك . ويتكرّر هذا النوع من تصرّفات الرشيد : يسمع الغناء لشاعر معاصر ، فيسأل عنه ويحضره ، فيرشف من كأس الغناء رشفة ، ومن كأس الإنشاد رشفة حتى يسكر من النشوة الفنية المضاعفة . وفضلاً عما ذكر سابقاً ، نقدم النموذج الطريف التالي للغناء يقترن بالإنشاد ، وهو هنا في معرض الاعتذار ونفي التهمة : سمع الرشيد ليلة رجلاً يغنّي :

إن كانتِ الخمرُ قد عزّت وقد مُنعت   وحالَ من دونِها الإسلامُ والحَرَجُ

فقــد أباكرهــا صِرفــاً وأَشربُها   لها ، إذا رَجَّعت ، في صوتِها ، غُنُجُ

وتَرفــعُ الصوتَ أحيانــاً وتخفِضُه   كما يَطِــنُّ ذُبــابُ الروضــةِ الهَزِجُ

وهذه الأبيات ، كما نرى ، تحفل بتحدّي الشريعة التي تحرّم الخمر . وعلى قائلها ، إذا ضُبط متلبّساً ، أن يأتي معجزة لينفذ من العقاب . وقد جيء بالرجل إلى الرشيد «وهو يرعد . فقال (الرشيد) : لا تُرَعْ ، فإنما أعجبني حسنُ صوتك . فقال : والله ، يا أمير المؤمنين ، ما تغنّيت بهذا الشعر إلاّ وأنا قد تبت عن شرب النبيذ . هذا شعر يقوله الأقيشر في توبته من النبيذ[3] : فقال له الرشيد : وما حملك على تركه ؟ قال : خشية الله . وإني فيه ، يا أمير المؤمنين ، كما قال زيد بن ظَبيان :

---

1 المستطرف ج2 ص 152 وراجع ص 574 من البحث .

2 مروج الذهب ج 3 ص 285 وراع ص 165 من البحث .

3 يستدرك الأصفهاني في آخر الخبر : أن الرواية نَسبت الأبيات للأقيشر . ويقول : «وجدتها في شعر أبي محجن لما تاب من الشراب» (الأغاني ج 11 ص 256) .

جاؤوا بقاقُزَّةٍ[1] صفـراءَ ، مُتْرَعَـةٍ هل بين ذي كَبْرَةٍ والخمرِ من نَسبِ ؟
بئسَ الشرابُ شرابـاً ، حين تشرَبُهُ يوهي العظامَ ، وطوراً مُفْتِرُ العَصَبِ
إني أخـاف مليكـي أن يُعذِّبَنـي وفي العشيرةِ أن يُزري على حَسَبي[2]

وقد ساهم أدب المغني في نيل العفو من الرشيد ، وهو لم يكن يقصد إلى إيذائه ، بل إلى سماع غنائه . ومن ثمّ وصله .

وتمضي الأيام والليالي حافلة بجلسات وأحاديث وأنغام يتقاسمها السمار والمنادمون ، أو ينفرد بها بعضهم فينظم ويغنّي ويحدّث .

4 ـ أدب المغنّين المثقّفين : وهم نخبة نادرة ، قلّ أن اجتمعت لغير الرشيد ، ساهمت بقسط كبير في إعطاء الألق لملكه الزاهي . على رأسهم كان إبراهيم الموصلي ، شيخهم جميعاً ، وأستاذ عصره في الغناء والمنادمة[3] . يصفه ابنه إسحاق لحفيده حماد بن إسحاق ، مقارناً بينه وبين حذاق المغنين : «كانوا يصنعون فيحسنون ، ويؤدّون غناء غيرهم فيحسنون . . . كانوا بمنزلة خطيب أو كاتب أو شاعر يحسن صناعته ، فإذا انتقل إلى غيرها لم يبلغ منها ما يبلغ من صناعته . وكان جدك كرجل مفوّه : إن خطب أجزل ، وإن كتب رسالة أحسن ، وإن قال شعراً أحسن . ولم يكن فيهم مثله . . .»[4] ولإبراهيم شعر غزل رقيق ، ليس هنا موضع الحديث عنه . وله شعر مناسبات كان يوجهه إلى الرشيد غناء ليهنّيء أو ليعتذر أو ليتواسط . فإبراهيم الموصلي كان أول من هنّأ الرشيد بالخلافة . لذا كانت «أول جائزة خرجت لشاعر من الرشيد ، لما ولي الخلافة ، جائزة لإبراهيم .

---

1 القاقزّة : كلمة فارسية تعني القارورة الصغيرة .

2 الأغاني ج 11 ص 256 .

3 يقول فيه إبراهيم بن سيّابة :

ما لأبراهيمَ في العلمِ بهذا الشأنِ ثاني
إنما عمرُ أبـي إسحـاقَ زينٌ للزمانِ
جنّةُ الدنيا أبو إسحاقَ في كل مكانِ
منه يُجنى ثمرُ اللهو وريحـانُ الجنانِ

(الأغاني ج5 ص 156) .

وقال فيه أبو العتاهية ، حين حبسه الرشيد :

حُبِس اللهوُ والسرورُ فما في الأرض شيء يلهى بـه أو يُسرُّ

(المصدر نفسه ص 156) .

زاره الرشيد فجأة في إحدى الليالي ليستمع إلى جواريه (المصدر نفسه ص 198) وكان يطلب منه أن يبكر عليه ليصطبحا (المصدر نفسه ص 207) .

4 الأغاني ج 5 ص 155 .

فإنه قال يمدحه ، وغنّى فيه :

أَلَم تَـرَ أنّ الشمسَ كانت مريضةً فلمـا ولي هــارونُ أَشرقَ نُورُها
فأُلبستِ الدنيـا جمـالاً بوجهِـهِ فهارونُ واليهـا ويحيـى وزيرُها»[1]

وبعد أن استقرت الأمور للرشيد وفرغ للندماء والمغنّين «كان أول من غنّاه إبراهيم الموصلي بشعره فيه» ومنه :

إذا ظُلَـمُ البـلادِ تَجَلّلْتنـا فهـرونُ الإمـامُ لهـا ضياءُ
رأيـتُ الناسَ قـد سَكنَوا إليه كما سَكَنَتْ ، إلى الحَـرَم ، الظِباءُ

«فقال له الخادم ، من خلف الستارة : أحسنت يا إبراهيم ، في شعرك وغنائك . وأمر له بعشرين ألف درهم»[2] . وقد بلغ إبراهيم ، بإحساسه بكفاياته ، مبلغ الاعتداد بالنفس . فحين خالف إبراهيم بن المهدي إسحاق الموصلي الرأي ، بحضور الرشيد ، استُدعي إبراهيم الموصلي ، فوافق رأيهُ رأيَ ابنه ، دون أن يتصل به . فضحك الرشيد «وعجب . ولم يبق أحد في المجلس إلاّ قرّظ وأثنى ووصف ، ولا أحد خالف إلاّ خجل وذلّ وأذعن . فقال إبراهيم الموصلي ، في ذلك ، مندّداً مفاخراً :

ليتَ من لا يُحسن العلـ مَ كفانـا شَرَّ عِلْمِـهْ
فـاخبُرِ الحـقَّ ابتداءً وقِس العِلـمَ بفَهمِـهْ
طيّبُ الرَيحانِ لا تعرِفُـ ـــهُ إلاَّ بِشَمِّـــهْ»[3]

وبلغ من دالته على الرشيد أن يستطيع جعل الخليفة يعفو عن منصور زلزل بعد أن قضى عشر سنوات في السجن ، وذلك حين تغنّى بشعر كان صنعه للمناسبة . وحين خرج زلزل ، أعاد الموصلي الغناء وكان الضارب زلزل «فزلزلا الدنيا»[4] . وكان الموصلي يضاهي شعراء الرشيد شاعريةً وحضورَ بديهة ومعرفةً بمواقع الكلام منه ، وتلبية لحاجاته العاطفية . يروي الأصفهاني

---

1 الأغاني ج 5 ص 219 .

2 المصدر نفسه ص 187 .

3 المصدر نفسه ص 175 .

4 أبيات الموصلي هي :

هـل دهرُنا بِـكَ راجعٌ يا زلزلُ أيـامَ يبغينا العـدوُ المُبْطِلُ
أيامَ أنـتَ ، مـن المَكارهِ ، آمِنٌ والخيرُ متّسعٌ علينـا ، مُقبِـلُ ؟
يا بؤسَ من فَقَدَ الإمامَ وقُربَهُ ما ذا بـه من ذِلّةٍ ، لو يعقِلُ ؟
ما زلتُ ، بعدَك ، في الهمومِ ، مردَّداً أبكـي بأربعـةٍ ، كأني مُثْكل

(المصدر نفسه ص 185 وانظر ص 538 من البحث) .

أن الرشيد قال «لإبراهيم بن المهدي وإبراهيم الموصلي وابن جامع وابن أبي الكنّات : باكروني غداً وليكن كلُّ واحدٍ قد قال شعراً ، إن كان يقدر أن يقوله ، وغنّى فيه لحناً . وإن لم يكن شاعراً غنّى في شعر غيره» . وقد وجد الموصلي أن شعراً في الخمر أفضل ما يطرح في مجلس اصطباح على منادمة . فنظم أبياتاً رقيقة لحّنها واستطاع إبراهيم بن المهدي سرقة الشعر واللحن منه فيما هو يردّده ليتقنه . فنال بالأبيات ثلاثمئة ألف دينار من الرشيد[1] . لهذا كلّه أعجب الرشيد بشخصية الموصلي ووجده متمّماً ضرورياً لمجالس أنسه ، ورفيقاً للحظات نشوته الفنية ، فلم يكن يطيق فراقه : أخرجه معه «لما خرج إلى الرقة . . . وكان به شغوفاً» لدرجة أن غيابه عن الرشيد يصبح ذنباً عنده يثير غيرته ونقمته ، فلا يهدئهما إلاّ «عذرٌ فنّي» مبدع . من ذلك أن الموصلي لزم خماراً ثلاثة أيام ، لا يُعرف مكانُه ، ثمّ عاد ليواجه غضب الرشيد بحكاية عن الخمار وظرفه وسخاء نفسه . وأردف ذلك بأبيات قالها في الخمار ، ثمّ غناه فيها صوتاً زمر عليه برصوما ، فطرب الرشيد ووصل الخمار والموصلي[2] . ونودّ هنا أن نسجّل ملحوظة على بعض أخبار الأصفهاني التي تتحدّث عن اهتمام الرشيد بمغامرات ندمائه الخمرية ، ووضع نفسه في المواضع التي كانوا فيها ليعايش أجواء مغامرتهم في خمارة أو دير . فإننا ، إذ ننقل هذه الأخبار ، كما وردت ، نسوق عليها تحفّظنا عما يرد فيها من شرب الرشيد للخمر ، دون النبيذ ، وإحضاره الخمار إلى مجلسه يحدثه ويسقيه ، أو عن تحمل الرشيد إلى دير وَرَد في الحكاية ينزل فيه ويشرب وينصرف مخذولاً لأنه لم يستطع أن يجاري في الشرب من سبقه من أواخر الخلفاء الأمويّين[3] . فكيف يمكن لخليفة المسلمين ، الذي تجوب عساكره الشوارع ليلاً للقبض على السكارى وإيداعهم السجن ، ويرتجف مغن أمامه لمجرد القبض عليه متلبّساً بغناء عن الخمر ، كما رأينا ، وهو تائب عن شربها ،

---

1 الأغاني ج 5 ص 196 والأبيات هي :

إذا سُكبت في الكأس ، قبل مِزاجها ،	ترى لونَها ، في جلدة الكأس مُذهَبا
وإن مُزجت ، راعت بلونٍ تخاله ،	إذا ضُمِّنَتْهُ الكأسُ ، في الكأس كوكبا
أبوها نِجاءُ الكرم ، والكرمُ أمُها	فلم أر زوجاً ، منـه ، أشهى وأطيبا
فجاءتكَ صفراءَ أشبهتْ غيرَ جنسها	ومـا أشبهت في اللون أماً ولا أباً

2 المصدر نفسه ص 161 والأبيات هي :

سَقياً لمنزل خمّـارٍ قصفتُ بـه	وسْطَ الرُصافـةِ يومـاً بعـد يومين
مـا زلتُ أرهَـن أثوابي وأشربُها	صفراءَ قد عُتّقت في الدنّ حولين
حتـى إذا نفـدت مني بأجمعها	عاودتُـه ، بالربـا ، دَنّـا بِدَنّين
فقال : «إزلْ بشينٍ» حـين ودّعني	وقـد ، لعمرُك ، زلنا عنـه بالشَين

(إزل بشين : كلمة فارسية تفسيرها امض بسلام) .

3 المصدر نفسه ص 242 .

ويحبس أبا نواس إلى أن يتوب عن تعاطيها ووصفها وذكرها في شعره ، كيف يمكن له بعد ذلك كلّه ، أن يشرب الخمر علناً ويقرّب الخمارين أو يتقرّب إليهم ويكافئهم ؟ إلاّ أننا ، مع تمسّكنا بالتحفظ على تفاصيل الأخبار ، نتابع رسم صورة هذا الوجه من الأدب الذي لفّ حياة الرشيد الخاصة ، والذي بنى عليه الرواة أخبارهم وضخّموها . فإبراهيم الموصلي لم يكن ، وحده ، المغنّي الشاعر المثقّف ، صاحب شخصية النديم النموذجي . وإذا كنّا قد توسّعنا قليلاً في أخباره ، فلأنه ، كما قلنا ، كان شيخ أبناء الصنعة ، وأقربهم إلى الرشيد . ولقد برز إلى جانبه ابنه إسحاق . ولعلّ إسحاق كان أكثر ثقافة عامة من والده . «وموضعه من العلم ، ومكانه من الأدب ، ومحلّه من الرواية ، وتقدّمه في الشعر[1] ومنزلته في سائر المحاسن أشهر من أن يُدَلّ عليه فيها بوصف . وأما الغناء فكان أصغر علومه . . . . وإن كان الغالب عليه . . . فهو إمام أهل صناعته جميعاً ، ورأسهم ومعلّمهم . . . كان المأمون يقول : لولا ما سبق على ألسنة الناس ، وشهر به عندهم من الغناء ، لولّيته القضاء بحضرتي[2] . «وكان له ، كما كان لإبراهيم ، سهم دائم في مجالس المنادمة والطرب والسمر ؛ فقد رأينا منافسته للأصمعي في اصطياد دراهم الرشيد[3] ، كما رأيناه ، في إحدى جلسات السمر ، ينشد الرشيد شعراً في رياضة النفس على الفراق[4] . ونراه يرافق الرشيد في مسيره إلى الرقة ويترك الرشيد في صيده ، حين توقف عند «القائم» ، ليتوجّه إلى دير هناك يقضي فيه يومه بين أكل وشرب ، تخدمه جارية راهبة بارعة الجمال . فإذا ما وافى الرشيد ، وقد تفقده واستبطأه ، فبادره متوعّداً ، كانت حكاية للخبر وتشويق للرشيد لرؤية الدير وسماع الغناء بأبيات نظمها إسحاق من وحي الساعة[5] ، ثمّ زيارة

---

1 يروي الأصفهاني أن أبا زياد الكلابي دُعي إلى وليمة جارٍ له اسمه أبو سفيان . وانتظر رسوله ، فلم يأت . فقال لامرأته :

فإنّ أبــا سفيــان ليس بمُولِمٍ فقومي فهاتي فلقةً من حُوارِكِ

(ولد الناقة لما يفطم) .

فسمعه إسحاق وعرض إجازته فقال :

فبيتُكِ خيرٌ مــن بيوتٍ كثيرةٍ وقِدرُكِ خيرٌ من وليمةِ جارِكِ

فأعجب الكلابي ، وهو الشاعر المعروف ، بإسحاق وقرّظه قائلاً : «ما ألوم الخليفة أن يجعلك في سمّاره ويتملّح بك . وإنك لمن طراز ما رأيت بالعراق مثلَه . ولو كان الشباب يشترى لابتعته لك بإحدى عيني ويمنى يديّ . .» (الأغاني ج 5 ص 249) .

2 المصدر نفسه ص 242 .

3 انظر الأغاني ج 5 ص 292 وراجع ص 79 من البحث .

4 راجع ص 177 من البحث .

4 الأبيات هي :

بديرِ القائـــمِ الأقصى غـزالٌ شادنٌ أحوى
برى حبّي لـه جسمي ولا يَعلـمُ مــا ألقى
وأكتمُ حبّه ، جهدي ، ولا ، بالله ، ما يخفى

الرشيد للدير يأكل ما أكل منه إسحاق ويشرب ما شرب منه ، تخدمه الجارية الراهبة البارعة الجمال ويأمر بألف دينار للدير وبأن يحتمل خراجه له سبع سنين[1] . وإلى جانب إبراهيم وإسحاق ، نضيف مطرباً سبقت الإشارة إلى شاعريته هو الزبير بن دحمان ، وقد وردت بعض أبياته في مدح الرشيد عند الحديث عن انتصاره في غزوة طبرستان[2] . وهي أبيات تشيد بعنفوان العبّاسيّين ودولة الرشيد ، لنا عودة إليها عند دراستنا المعاني المدحية . ويهمّنا الآن ، بعد كل ما قدمناه عن مجالس الرشيد الترفيهية وما كان يجري فيها ، التعرّف ، بشكل أدق ، إلى ماهية الأدب الذي تمّ تعاطيه فيها .

5 ـ طبيعة الأدب الذي عرفته مجالس الترفيه : هذه المجالس وجدت للترويح عن النفس ورفرفت عليها أجنحة التباسط ورفع التكلف ، والفرح ، فلم تكن تتناول شيئاً من موضوعات الجد ، ونادراً ما تقارب موضوعات السياسة : جل ما فيها شعر خفيف ورواية مسلية .

أ ـ أما الشعر الخفيف فنقصد به شعر الغزل والمغامرات العاطفية وذكر الندمان وأماكن القصف ، ووصف الخمر . ونعود هنا ، على ذكر الخمر ، لنؤكّد أن الحديث عنها ووصفها شعراً لم يكن مستهجَناً في أي اجتماع لأية فئة من الناس . فالخمر قد تكون حقيقية ، وقد تكون رمزاً وخيالاً ، وقد تكون خمراً إلهية . والخمريات فقرة معروفة وأصيلة من فقرات القصيدة التقليدية ، سمعها وتقبّلها وحفظها ، بل أنشدها ونظمها عدد كبير ممن لا يشربون خمراً ولا يقربون مسكراً . حتى الفقهاء تعاطوا هذا النوع من الشعر ، أحياناً ، كما تعاطوا شعر الغزل . والتحفظ الذي أوردناه سابقاً عن الأخبار التي تتناول شرب الرشيد الخمر ، غير وارد عن ذكرها ووصفها وتأثيرها في شاربها ، أو وصف أماكنها والندمان في مجالسها . فالذكر قول ورواية ، والقول غير الفعل ، فكثيراً ما يكون للتندر والمفاكهة . . في مجالس السمر والمنادمة ، كثرت أيضاً الإجازات الشعرية ، وأحياناً الارتجال بوحي من المناسبة . وعرفت هذه المجالس ، كذلك ، العبث[3] . ولا

---

1 الأغاني ج 5 ص 383 ويروي الأصفهاني مغامرة أخرى لإسحاق قام بها حين وصل الركب إلى تل عزاز (قرب حلب) إذ خرج يتنزّه في قرية حيث أقام ثلاثة أيام عاد بعدها ليواجه مرّة ثانية غضب الرشيد وليرده عن نفسه ، هذه المرة أيضاً ، بشعر صنعه يحكي قصة مغامرته العاطفية بتل عزاز ، وبغناء له أرضى الرشيد وسرّه . والأبيات هي :

إن قلبـي ، بالتَـلِّ ، تَلِّ عَزازٍ	عنـد ظبيٍ من الظِباء الجَوازي
شادنٍ يسكـن الشآم وفيـــه	مع ظَرفِ العراقِ ، شكلُ الحجازِ
يا لَقومـي ، لِبنتِ قَسٍّ أصابت	منك صفوَ الهوى ، وليس تجازي
حلفَتْ بالمسيح أن تُنجزَ الوعــ	ــدَ وليست تهـمُ بالإنجازِ

(المصدر السابق ص 384) .

2 الأبيات على قافية الزاي تنسب إليه وإلى أبي العتاهية (المصدر السابق ج 18 ص 223) .

1 نشير إلى مجلس سبق ذكره ، حاول فيه العبّاس بن الأحنف العبث بالأصمعي فارتدّ عبثه عليه : فأخزاه الأصمعي بحضور بديهته (انظر الأغاني ج 8 ص 357 وراجع ص 199 من البحث) . وهناك مجلس عبث مشهور تذكره

شك في أن العبث بشاعر أو مطرب أو جليس ، لمراقبة ردود فعله وتصرفاته ، يتجاوز الوقار وحياة الجد ، ويغدو تسلية مرغوبة ، فيها كسر لجليد الرتابة ، وإشراف على الجديد من الأحاسيس والموضوعات . وقد درسنا بعضها في معالجتنا للمجالس الأدبية بصورة عامة . لذلك ، نحن نولي اهتمامنا الشق الآخر من موضوعات مجالس الترفيه ، وهو الرواية والحكاية .

ب ـ الرواية والحكاية في مجالس الترفيه : يجب ألاّ يتبادر إلى ذهننا أن هناك فنًّا قصصياً حقيقياً ظهر في بلاط الرشيد . فهذه الروايات التي نتحدّث عنها يصعب إدخالها في فن القصة أو الأقصوصة لأنها ليست لها جميع مقوّماتها ، بل هي أقرب إلى النادرة الطويلة . ومن المؤكّد أن ذكرها ، حيث تذكر في كتب الأدب ، يتم بهدف التندّر بقول أو تصرّف ، لا بهدف صياغة

= معظم كتب الأخبار ، كان بطلاه : العبّاس بن محمد عم الرشيد ، وربيعة الرقي ، أو ابن أبي مريم المدني مضحك الرشيد ؛ الموضوع برنيّة فيها غالية أحضرها العباس هدية للرشيد وراح يمتدحها ويقرظها بأسلوب أبطال المقامات : «صنعتها لك بيدي ، اختير عنبرُها من شِحر عُمان ، ومسكُها من مفاوز التُبَّت ، وبانُها من ثغر تهامة . فالفضائل كلّها مجموعة فيها ، والنعت يقصر عنها . . .» وقد أمضّ هذا الوصف ربيعة الرقي (لنقمة كانت له على العباس إذا أساء إثابته على قصيدة مدحه بها ، أو استثار المدني المضحك ، لنزق طبيعي فيه) فانبرى له يقرّعه على مدحه غالية أمام الرشيد ، وهو على ما هو معروف عنه من البذخ والترف . ومما قاله : «وما قَدْرُ غاليتك هذه ، أعزَّك الله ، حتى تبلغ في وصفها ما بلغت ؟ أأجريت بها إليه نهراً ؟ أم حملت إليه منها وقراً ؟» ثمّ استأذن الرشيد في أخذ الغالية وراح يطلي بها جسده ، ما يخفى منه وما يظهر . . و «ضحك الرشيد حتى غُشي عليه» . (في الأغاني ج 16 ص 193 يظهر ربيعة الرقيّ بطل القصة ـ وفي الطبري ج 8 ص 349 يظهر البطل ابن أبي مريم المدني) . . . وأوردت الأخبار عبثاً شخصياً بريئاً قام به ، مع نفسه ، إسحاق الموصلي ، ليدخل المتعة على قلب الرشيد . فقد علّق الرشيد يوماً على عمامة إسحاق المكورة ، قائلاً «كأنها من الأنبار» . وأوحى ذلك فكرة إلى إسحاق . يقول راوياً : «فلما كان من الغد . . . أُمهلت حتى دخل المغنّون جميعاً قبلي ، ثمّ دخلت عليه في آخرهم ، وقد شددت وسطي بمشدة حرير أحمر لباساً مشتَهراً ، وأخذت بيدي صفّاقتين ، وأقبلت أخطر وأضرب بالصفاقتين وأغنّي :

اسمعْ لِصوتٍ مَليحٍ — من صَنعةِ الأنباري
صوتٍ خفيفٍ ظريفٍ — يَطيــرُ في الأوتــارِ

فبسط يده إليّ ، حتى كاد يقوم . وجعل يقول : «أحسنتَ ، وحياتي ، أحسنت ، أحسنت» . (الأغاني ج 5 ص385) وإذا عددنا هذا العبث نوعاً من الأدب الترفيهي ، فهناك عبث آخر فنّي يعتمد سرقة الصوت من مطرب ، بعد أن يكون بذل فيه جهده ، وادعاء إبداع هذا الصوت دونه ، أو ادعاء معرفته سابقاً لأنه قديم مشهور . ويكون ذلك بغنائه أمام الرشيد ، بعد صاحبه مباشرة وأحياناً قبله (إذا تمّت السرقة بالاستماع إلى الفنان في منزله ، من خلف الأبواب والنوافذ) . وتكون النتيجة عادة جائزة من الرشيد للسارق ، فاعتراف منه بالسرقة ، فجائزة للمبدع الأول الذي يكون قد مرّ بلحظات من الغم والكمد والقهر . ويُتوسل عادة لهذه السرقة ، مغنّ ذو موهبة نادرة في حفظ اللحن والكلمات ، وكان محمد الزف مشهوراً بذلك استغلّه الموصلي غير مرّة للعبث بمنافسه ابن جامع . (انظر الأغاني ج 14 ص 178 و180 على سبيل المثال) .

القصة . وأقطاب هذه الروايات هم : الأصمعي ، من جهة ، وبعض المطربين والمسامرين ، من جهة أخرى . وبصرف النظر عمّا رواه كلّ منهم ، نحاول أن نجري تصنيفاً للروايات التي وصلت إلينا ، من حيث المواضيع ، لا من حيث شخصية الرواة . ونستطيع أن نقسمها ، طولياً ، قسمين : قسماً يتعلّق بأخبار القدماء ، من ملوك وأناس عاديّين ، وقسماً آخر يتعلّق بالأعراب المعاصرين ، أو بحادثة جرت للراوي : شهد أحداثها أو شارك فيها أو كان لها أثر بارز في حياته .

أخبار القدماء : وراوي هذه الأخبار هو الأصمعي بلا منازع[1] . وقد وصلتنا عنه ثلاث روايات كل منها في موضوع . إحداها تتناول جشع مزرّد أخي الشماخ بن ضرار ، والأخرى شره سليمان بن عبدالملك ، والثالثة عقوبة علي بن أبي طالب للشاعر السكران . ونحاول الإلمام السريع بهذه الحكايات الثلاث ، مركّزين على ما ورد فيها من شعر يعطيها طابع الواقعية . ففي قصّة مزرّد أخي الشماخ (الشاعر الجاهلي المخضرم) جاءت الرواية بناء على طلب الرشيد الذي يبدو أنه كان يلم بطرف من الخبر وأحب أن يسمعه من الأصمعي . فحين قُدمت فالوذجة بين يديه توجّه إلى الأصمعي طالباً الحكاية ، فهي ، من الأصمعي ، تصبح ذات نكهة خاصة لما يضفيه على حديثه من التشويق يقرن به حسن الإنشاد : المزرّد غلام جشع أكول ، كانت أمه تتضجّر منه وتحرمه الطعام ، وتؤثر عليه سائرَ أبنائها . . . نما الحقد عند المزرّد بسبب سوء المعاملة هذا ، وزاد نهمه بسبب الحرمان ، وصار يترقّب الفرصة ليشبع بطنه وينتقم لكرامته . وجاءت الفرصة حين خرجت أمه تزور بعض أهلها «فدخل مزرّد إلى الخيمة ، وعمد إلى صاعي دقيق وصاع من تمر وصاع من سمن ، فجمعه ثمّ جعل يأكله ، وهو يقول :

ولّما غـدتْ أمي تُميرُ بناتِها ... أَغَرْتُ على العِكْمِ الذي كان يُمنعُ
لَبَكْتُ بِصاعَي حِنطةٍ صاعَ عَجْوةٍ ... إلى صاعِ سمنٍ ، فوقـه يتربّعُ
ودبّلـتُ أمثـالَ الأثـافي كأنّها ... رؤوسُ نقادٍ ، قُطِّعَتْ يوم تُجْمَعُ
وقلتُ لبطني : أبشِرِ ، اليومَ ، إنه ... حِمى أُمّنا ، ممـا تحـوزُ وتَرفعُ
فإن كنتَ مصفوراً ، فهذا دواؤه ... وإن كنتَ غرثاناً ، فذا يومَ تشبعُ

فضحك الرشيد حتى استلقى على ظهره . ثمّ قال : كلوا باسم الله . هذا يوم تشبع يا

---

1 لا بدّ من الإشارة إلى موهبة الأصمعي الروائية . فهو ليس مجرّد صاحب أخبار ، بل إن معظم ما روي عن العرب وغير العرب ، مما تحفل به كتب الأدب والنوادر ، ينسب إليه ، سواء ما ورد منه في كتب ألّفها ، أو ما أخذ عنه مشافهة . ويمكن للباحث أن يتتبّع هذه الأخبار ويشكّل منها بحثاً ضخماً مستقلاً . كما يمكن له ، من خلال دراستها ، إبراز كثير من الأخلاق العربية والعادات الاجتماعية ، في مختلف مراحل حياة العرب حتى أيام الأصمعي . إنما ذلك ليس من مهمّاتنا في هذا البحث .

أصمعي . . .»[1] والحكاية الثانية شبيهة بهذه من حيث موضوع الشره ، وإنما بطلها سليمان بن عبدالملك الخليفة الأموي ، وللشره عنده مظهر آخر : فقد بلغ من شرهه ونهمه أنه كان «إذا أتي بالسفود وعليه الدجاج السمين المشوي ، لا يصبر إلى أن يبرد ولا أن يؤتى بمنديل ، فيأخذ بكمّه ، فيأكل واحدة واحدة ، حتى يأتي عليها»[2] . وفي رواية أخرى : «كان يجلس ويحضر بين يديه الخراف المشوية ، وهي كما أخرجت من تنانيرها . فيريد أخذ كلاها ، فتمنعه الحرارة ، فيجعل يده على طرف حلته ، ويدخلها في جوف الخروف ، فيأخذ كلاه . .»[3] والنهاية المحتومة أن يكون بطرف أكمامه بقايا دهن لا يذهب به الغسيل . وقد استمع الرشيد إلى هذه القصة باهتمام ، واتضحت أمامه أمور كانت خافية عليه . فتوجّه إلى الأصمعي موضحاً : «قاتلك الله : ما أعلمك بأخبارهم ! إعلم أنه عُرضت عليّ ذخائر بني أميّة ، فنظرت إلى ثياب مذهبة يمانية ، وأكمامها ودكة بالدهن . فلم أدْرِ ما ذلك[4] حتى حدثتني بالحديث . ثمّ قال : عليّ بثياب سليمان . فأتي بها . فنظرنا إلى تلك الآثار فيها ظاهرة . . .» وكان نصيب الأصمعي حلة يلبسها ويتباهى بها قائلاً : «هذه جبّة سليمان التي كسانيها الرشيد»[5] . . . والرواية الثالثة فيها عبرة وتوجيه وليست لمجرد التندّر والمفاكهة . فقد جيء بسكران في رمضان إلى الرشيد . «فهمّ به ، ثمّ سأل عنه» . وكأن الأصمعي خاف أن يتردد الخليفة في إيقاع الحد به وأراده أن يحزم الأمر متّبعاً سيرة الراشدين ، لأن عليّاً بن أبي طالب جيء إليه بالنجاشي وقد شرب الخمر في رمضان ، والنجاشي من أشراف العرب ، وكان شاعراً هجّاء هدّده عمر بقطع لسانه . ومع شرف أصل النجاشي ، ومع سلاح الشعر الذي ينتضيه لسانه ، فإنّ عليًّا لم يتردّد في إقامة الحد عليه : «فضربه ثمانين للسكر ، ومئة لحرمة شهر رمضان ، وحمله على جمل وطاف به في الكوفة ، فجعل الصبيان يصيحون به : سَلَح ! سَلَح ! . .» وكان ذلك سبب هجائه المقذع لأهل الكوفة . وقد أنشد الأصمعي الرشيد هذا الهجاء للنجاشي ، وفيه الطريف جدًّا من الدعاء على الخصم :

إذا سقى الله قوماً صوبَ غاديةٍ ... فلا سقى اللهُ أهلَ الكوفة المَطَرا
وأرسلَ الريحَ تسفي في عيونهمُ ... حتى إذا لا تُري ماءً ولا شجرا

---

1 عيون الأخبار ج 3 ص 204 . والعكم : النمط ، تجعله المرأة كالوعاء . . . لبكت : خلطت . . . دبّلت الشيء : جمعته ، بعضه على بعض وعظّمته مثل الكتلة . . . نقاء : صغار الغنم . . . المصفور : من به داء الصفرة . . . غرثان : جائع .

2 المستطرف ج 1 ص 180 .

3 وفيات الأعيان ج 1 ص 519 .

4 هذه رواية وفيات الأعيان . وجاء في رواية المستطرف : «فظننتُهُ طِيباً حتى حدّثتني» .

5 المصدر السابق .

ألـقِ العـداوةَ والبغضاءَ بينهـمُ   حتى يكونوا ، لمن عاداهُمُ ، جُزُرا
السارقينَ ، إذا مـا جُنَّ ليلُهمُ ،   والدارسونَ ، إذا ما أصبحوا ، السُوَرا
والتاركينَ ، على ظهـرٍ ، نساءهُـمُ   والناكحين ، بظهر الكوفةِ ، البَقَرا[1]

أخبار الأعراب : وهذا الميدان يرتاح فيه الأصمعي ، يصول ويجول على هواه يروي وينشد . ويهمنا منه ما دار في مجالس الرشيد على الخصوص . وقد وصلتنا ثلاثُ حكايات : الأعرابي المتكاسل ، والأعرابي العجوز العاشق ، والأعرابي المتمنّي . ولكل منها مناسبة في مجلس استدعت روايتها . أما الأعرابي المتكاسل[2] ، فقد لقيه الأصمعي في إحدى الصحاري في يوم شديد البرد والريح . ويبدو أن الأصمعي أعطى روايته هذا الإطار الزماني والمكاني الخاص ، ليكون ظرفاً غير عادي يساهم في إبراز قيمة الحديث الأساسي الذي يشكّل بيت القصيد في الحكاية . ففي هذا الإطار كان الأعرابي يجلس على أجمةٍ وهو عريان . أما كساؤه فقد احتملته الريح وألقته على الأجمة . أما سبب جلوسه هناك فموعد ضربه لسلمى ، وهو ينتظر قدومها ، في ذلك الجو ، إلى تلك البقعة من الصحراء . وكان من غير المعقول انتظاره ، ومن غير المعقول بقاؤه عرياناً ورداؤه على بعد خطوة منه . فما السبب ؟ يجيب الأعرابي : إنه العجز . ويتساءل السامع : أي جليس لسلمى يمكن أن يكونه هذا العاجز ؟ وكيف يتصرّف لو أنها حضرت بالفعل ؟ أراد الأصمعي الجواب فأعطاه الأعرابي ، شعراً ، بعد أن شرط عليه إعادة ردائه إليه . والجواب هو التالي :

لعـلَّ الله أن يأتـي بسلمى   فيبطحَها ويلقيني عليهـا
ويأتي ، بعد ذاك ، سحابُ مُزنٍ   يطهّرنا ، ولا نسعى إليها»[3]

وحُق للرشيد أن يضحك حتى يستلقي على ظهره ، ويقول للأصمعي مازحاً : «خذ البدرة ، لا بورك فيها» . والحكاية الثانية لا تقلّ طرافة عن السابقة . وبطلها أعرابي متصاب : إنه شيخ بلغ ستًّا وتسعين من العمر . وهذا العمر يشكّل الإطار المميّز الذي يحمل الحدث بعيداً عن المعروف والمعقول ، ويعطي الحكاية صفة النادرة . فهذا الشيخ العجوز ، وهو «أصحّ الناس ذهناً ، وأجودهم كلاماً وأقواهم بدناً» ، غدا ، على رغم ذلك ، عاشقاً مغرماً ، شَفَّهُ العشق وأنحله الغرام . أما التي تعشّقها فجارية لاهية ، «لاثت رأسها ، وطلت بالورس ما بين قرنها إلى قدمها ، وعليها قميص وقناع مصبوغان . والمناسبة التي التقاها فيها : لحظة كان يقوم بزيارة أقرباء له في

---

1 البصائر والذخائر ج 2 مجلد 2 ص 468 .

2 أوردنا هذه الحكايات من أخبار الأعراب وحدها ، مع أنها تندرج في أخبار الحوادث المعايشة . والسبب أنها تتحدّث عن الأعراب ، دون تسمية ، وأن حوادثها لا ترتبط بزمان . وقد يكون الأصمعي ادعى أنه كان شاهداً عليها ليعطيها بعض ألوان الواقع وزهو الحقيقة . ومن الواضح أنه لم يكن له فيها أكثر من دور الراوي .

3 عيون الأخبار ج 3 ص 300 والعقد الفريد ج 3 ص 497 .

أحد الأحياء . وكانت الجارية قد علقت في عنقها طبلاً تُوقّع عليه وتُنشد :

محاسنُها سهامٌ للمنايا مُرَيَّشَةٌ بأنواع الخطوبِ
بري ريبُ المنون لهنّ سهماً تُصيب بنصله مُهَجَ القلوبِ

وأصاب سهمُها قلب الشيخ ، فأُغرم بها من النظرة الأولى ، وأجابها متغزّلاً :

قِفي شفتي في موضع الطبل ترتقي كما قد أبحتِ الطبلَ ، في جيدِكِ الحَسَنْ
هبيني عُوداً أجوفاً تحت شنَّةٍ تمتعَ فيها بين نحرك والبَدَنْ

فأجفلت الجارية ورمت العاشق بالطبل واختفت . وبقي العجوز الولهان واقفاً في الشمس . وضعُه مع المحبوبة كما قال الشاعر :

فوالله ، يا سلمى ، لطال إقامتي على غيرِ شيءٍ يا سُليمى أراقِبُهْ

وحين فقد الأمل من ظهورها ، انصرف ، «سخين العين ، قريح القلب» . يعمل فيه العشق هزالاً . وقد ضحك الرشيد أيضاً هذه المرة حتى استلقى وهو مستغرب : «ابن ست وتسعين سنة يعشق ؟»[1] .

والأعرابي المتمنّي كان غنيًّا ، لكن سنة مجدبة ساقت عليه المحْل حتى راح كلبه يعوي جوعاً . فأنشد الأعرابي متمنّياً :

تشكّى إليَّ الكلبُ شدّةَ جوعِهِ وبي مثلُ ما بالكلبِ أو بيَ أكثرُ
فقلتُ : لعلّ الله يأتي بغيثةٍ فيُضحي كلانا قاعداً يتأمّرُ
كأني أميرُ المؤمنين من الغنى وأنتَ ، من النُعمى ، كأنكَ جعفرُ[2]

وقد أغرق الرشيد في الضحك ، لدى سماعه الحكاية ، وقال : قاتله الله من أعرابي .

الحوادث المعاشة : وأبرزها حوادث جرت للراوي وكان لها أثر واضح يلمسه الرشيد . وتصبح الرواية هنا رابطاً يصل بعض صور الماضي بواقع الحاضر . وتتكرر في مجالس الرشيد حكاية بيت من الشعر أو صوت غنائي حفظهما راوي الخبر ، أُخذا عن جارية صادفها على عين ماء مثلاً ، وأعطاها الثمن دريهمات لم يكن يملك سواها ، فذاق الفقر والحرمان نتيجة هذه التضحية . إلاّ أن ما أخذه بهذا الثمن «القليل الباهظ» يقدّمه للرشيد فينشده الشعر أو يسمعه الصوت وينال ، بدل الدريهمات ، آلاف الدنانير . هكذا كان الأمر مع مسكين المدني ، أبي صدقة ، حين كان عبداً لبعض آل الزبير يعمل خيّاطاً ويقدّم لمولاه درهمين في اليوم . وفيما كان يحمل درهميه ، في أحد الأيام ، لقي سوداء على رقبتها جرّة وهي تغنّي صوتاً رفضت أن تلقيه عليه

---

1 تاريخ بغداد ج 10 ص 413 .

2 العقد الفريد ج 3 ص 436 .

إلاّ بدرهمين . فدفعهما إليها ونال من مولاه ضرباً مبرّحاً أنساه الصوت . وفي اليوم الثاني راح يفتّش عن الجارية وحين وجدها رهن بعض ثيابه ليعطيها الدرهمين وتعيد عليه الصوت . لكنه هذه المرّة اعترف بالحقيقة لمولاه وأسمعه الصوت . فأعجب به وقال : «ويحك . معك مثل هذا الصوت ، ولم تعلمني ؟ امرأته طالق لو قلته أمسِ لأعتقتُك»[1] . وأبو صدقة بعد رواية هذا الخبر للرشيد وبعد أن أسمعه الصوت ، نال أربعة آلاف دينار مكان الدراهم الأربعة . وكان هذا ما توقّعته له الجارية السوداء . أما الصوت فكان :

قِـفْ بـالمنازلِ ساعـةً فتأمـلِ هل بالديارِ ، لرائدٍ ، من منزلِ ؟
ما بالديارِ ، من البِلى ، فلقد أرى فلسوفَ أُحَمَلُ للبِلى في مَحمَلِ

ومن الحوادث الشخصية ما رواه هاشم بن سليمان ، مولى بني أمية ، للرشيد عن قصة العقد الذي ناله منه تقديراً لغنائه . وملخّص الخبر أنه غنّى الوليد بن يزيد فأطربه ، وأصلح أمامه صوت جارية فاستطاعت أن تبدع . فأعطته ، اعترافاً بجميله ، عقداً هو هذا الذي وهبه إياه الرشيد . أما كيف فقده ؟ فإن الوليد ، حين ترك المكان وصعد الحراقة تبعته الجارية . ولكن زلقت رجلها فسقطت في الماء ولم يستطع أحد إنقاذها . كان جزع الوليد شديداً ، وبكاؤه غزيراً وكذلك كان وضع المغني . ثمّ قال الوليد لهاشم : «ما نرجع عليك بما وهبناه لك ، ولكن نحب أن يكون هذا العقد عندنا نذكرها به» . هكذا اشتراه منه بثلاثين ألف درهم . ودارت الأيام وعاد العقد إلى صاحبه والذكريات المؤلمة إلى قلبه والدموع إلى عينيه . وقال الرشيد : «لا تعجب فإن االله ، كما ورّثنا مكانهم ، ورّثنا أموالهم»[2] .

ولإبراهيم بن المهدي مغامرة ناقصة يرويها للرشيد فيصنع لها أجمل خاتمة . حجّ مرّة معه ، وفقد الركب في الطريق وهو ساهم . انتبه فوجد نفسه وحيداً على غير الجادة يقاسي الحر والعطش . ولحسن الحظ وجد مضرباً قرب بئر ماء ، فتوجّه إليه ووجد بداخله عبداً أسود . ناداه إبراهيم : يا أسود ، إسقني من هذا الماء . تطلّع إليه العبد بعينين محمرّتين ، فهو الآخر عبد . لذا كان جوابه : إن كنت عطشاناً فانزل فاشرب . هنا رفع إبراهيم عقيرته بصوت معروف عن بئر عروة . فإذا الأسود يتغيّر ، يرقّ ، ويروح يضرب رأسه وصدره : إنه عاشق فتح الغناء شجونه فتوسّل إلى إبراهيم أن يتابع الغناء وهو يمشي أمامه يحمل له الجرّة ويسقيه كلّما عطش . هكذا أوصله إلى الجادة وقال بلغة أعجميّة : «سر رعاك الله ، ولا سلبك ما كساك من هذه النعم» . إلى هنا تنتهي القصة المرويّة . لكن الرشيد ، الذي شُغل باله على أخيه ، لقيه بارتياح واستمع إلى القصة بشغف ، ثمّ استدعى العبد وعرف مولاه وفهم من هي محبوبته فاشتراه وأعتقه وفعل

---

1 مروج الذهب ج 3 ص 362 .

2 المستطرف ج 2 ص 152 وانظر ص 563 من البحث .

كذلك بميمونة وزوجهما ووهبهما من ماله بالمدينة ، حديقتين وثلاثمئة دينار»[1] .

هذه الحوادث كلّها عادية ممكنة الوقوع ولا يصعب تصديقها إنما إذا «دخلت الحكايةَ قوى غيبيةٌ تتشكّل بأشكال بشرية ، فيجب أن ننظر إليها بعقلية عصرها لا بعقلنا . وأبرز مظاهر هذا التدخل هو الإلهام الفني . ولا نستغرب إدخال الجن في عملية الإلهام ، فلطالما وقفت الشعوب القديمة مدهوشة أمامها لا تجد لها تفسيراً . وقد كان بعض الجاهليّين يعتقدون بوجود قرين للشاعر من الجن يوحي إليه أشعاره ، ناسبين إليه عملية الإلهام ، بينما يفسّر غيابُه ما ينتاب قريحة الشاعر أحياناً من جمود[2] . ولئن لم يصرح إبراهيم الموصلي بأنه يأخذ ألحانه من الجن[3] ، فقد تهيّأ له ، في بعض لحظات الإلهام ، أن ما يحسّه ويعبّر عنه لا يأتيه من ذاته ، بل من مصدر خارج عنه ، من جهة غير بشرية تتشكّل بهيئة البشر أو الحيوان ، تطرقه وتلقّنه وتختفي دون أن يدري بها أحد سواه . ضمن هذا الإطار يروي إبراهيم الموصلي للرشيد قصّة شيخ ذي هيئة وجمال انتصب أمامه يوم خلا بنفسه . وكان الشيخ في أحسن رداء بيده عكّازة مقمّعة بفضّة ، وروائح المسك تفوح منه . اغتاظ الموصلي من دخول الشيخ عليه دون استئذان وازداد غيظه حين طلب منه هذا الشيخ أن يغنّيه ، ومن تقريظه الغناء عندما سمعه . وتحوّل غيظه إلى استخفاف حين عرض الشيخ أن يسمعه غناءه . إلاّ أنه حين غنّى : ولي كبد مقروحة . . . قال إبراهيم : «فوالله لقد ظننت الحيطان والأبواب وكل ما في البيت يجيبه ويغنّي معه ، من حسن غنائه . حتى خلت ، والله ، أني أسمع أعضائي وثيابي تجاوبه . وبقيت مبهوتاً . . .» ثمّ غنّاه صوتين آخرين بإبداع مماثل ، وقال له : «يا إبراهيم ، هذا الغناء الماخوري ، فخذه وانحُ نحوه في غنائك ، وعلّمه جواريك»[4] . ويكرّر إبراهيم هذه الحكاية مرّة أخرى ، إنما الزائر يأتيه هذه المرة في المنام ، بصورة شيخ أشوه الخلقة يقول له : «يا موصلي ، مالي أراك مغموماً ؟ فيردّ عليه : لم أصب شعراً أغنّي فيه الرشيد الليلة . قال : فأين أنت عن قول ذي الرمة : ألا اسلمي يا دار سلمى . . .» وغنّاه منه لحناً وكرّره . حين انتبه تناوب اللحن مع جارية حتى استوى له . ثمّ توجّه إلى الرشيد وأخبره القصّة وأسمعه الصوت . طرب الرشيد و«أسكت المغنّين»[5] وجعل يستعيده ليله كلّه . . . وفي مرة ثالثة ، ينام الموصلي في سرداب له فيه بركة ماء . و «بينما هو نائم في نصف الليل ، فإذا سنورتان قد نزلتا من

---

1 مروج الذهب ـ دار الأندلس ـ ج 3 ص 347 .

2 في أيام الرشيد كان أبو السري الشاعر يدّعي رضاع الجن وأنه أخذ البيعة منهم للأمين (مواسم الأدب ج 2 ص89) .

3 يروي الأصفهاني أن ابن جامع انتبه يوماً من قائلته فقال : «عليّ بهشام (يعني ابنه) أدعوه عجّلوه . فجاء مسرعاً . فقال : أي بني ، خذ العود فإن رجلاً من الجن ألقي عليّ ، في قائلتي ، صوتاً ، فأخاف أن أنساه . . .» الأغاني ج 6 ص 278 .

4 الأغاني ج 5 ص 210 .

5 المصدرنفسه ص 216 .

درجة السرداب ، بيضاء وسوداء . فقالت إحداهما : أتراه نائماً ؟ فقالت السوداء : هو نائم . فاندفعت السوداء فغنّت بأحسن صوت : عفا مزج إلى لصق . . . وراحت الهرتان تعيدان الصوت حتى أخذه . وتحرّك فسمع إحداهما تقول للأخرى : «واللّه ، لا طرحه على أحد إلاّ جُنَّ . فطرحه من غد على جارية فجنّت . .»[1] ونستطيع أن نتصور شغف الرشيد بالاستماع إلى هذه القصص وتشوقه إلى سماع الأصوات ، وطربه الشديد لها ، فهي أصوات نادرة تأتي من عالم مجهول . ولسنا ندري أكان إبراهيم مقتنعاً فعلاً بأن إبليس طارحه الغناء ، أم أنه كان يفتعل هذه الحكايات ليضفي على أصواته لوناً غيبياً يعطيه مكانة خاصة لا يأخذها مَنْ كان إلهامُه مقتصراً على ما يأتيه البشر . ويبدو أن رواج سوق هذه القصص وجو الغموض الذي أضفته على غناء إبراهيم ، حفزا ابنه إسحاق على أن ينهج نهجه ويرى أخيلته ، ويتمثّل أقرانه وشياطينه . لكن شيطان إسحاق يتسلل إلى بلاط الرشيد ، ويتجلّى على إسحاق من خلف ظهراني الخليفة . فما إن يستسلم إلى إغفاءة ويضع إسحاق العود من يده ليستريح ، حتى يظهر له «شاب صبيح الوجه ، حسن القد ، عليه مقطّعات خز وهيئة جميلة» . وبدأ مهذّباً : دخل فسلم وجلس . ولم يلبث أن خرج عن وقاره فتناول العود وأصلحه واندفع يغنّي : ألاَ علّلاني قبل أن نتفرقا . . . ثم وضع العود وقال : «يا . . . إذا غنّيت فغنّ هكذا ؛ ثمّ خرج» . وحين أقسم له الحاجب أن أحداً لم يدخل ولم يخرج ، تأكدت لأسحاق هوية جليسه . وحين تنبّه الرشيد أخبره القصة «فبقي متعجّباً وقال : لقد صادفتَ شيطاناً»[2] . لكن ذلك لم يمنعه ، حين سمع الصوت ، من أن يطرب طرباً شديداً .

6 ـ دور الرشيد في مجالس الترفيه : مع أن الرشيد كان هدف هذه الجلسات ، وأن جلساءه كانوا يبذلون قصارى جهدهم وأقصى إبداعهم لإدخال البهجة على قلبه ، فإننا لا نستطيع تصوره مكتفياً بالتأثّر بما يرى ويسمع . قد يكون الرشيد منفعلاً في مجالس الغناء ، وأحياناً متلقّياً في مجالس السمر ، لكنّه غالباً ما يأخذ المبادرة الايجابية في تحديد ما يُلْقَى من شعر أو يُروى من حكايات . لقد كان هو الذي طلب من الأصمعي حكاية مزرّد قائلاً : «حدّثنا بحديث مزرّد»[3] . وفي قصة الأعرابي المتكاسل ، كان الرشيد يحسّ فتوراً حين قال للأصمعي : «إن حدّثتني بحديث في العجز ، فأضحكتني ، وهبتك هذه البدرة»[4] . أما في مجالس السمر ، بما كان يتجلّى فيها من إجابات لطيفة وإجازات شعرية ورواية وإنشاد ، فنادراً ما يكون قولٌ لم يحدّد الرشيدُ موضوعَه وفق

---

1 الأغاني ج 5 ص 178 .

2 مروج الذهب ـ دار الأندلس ـ ج 3 ص 359 .

3 عيون الأخبار ج 3 ص 204 .

4 المصدر نفسه ج 1 ص 300 .

مزاجه النفسي . كذلك كان له دور بارز في اختيار الشعر الذي يغنّى به ، وفي تحديد اللحن أيضاً ، مُظهراً معرفة واسعة وثقافة فنّية حقيقية[1] . والذي يهمّنا ، أكثر من سواه ، هو الكلام الملحّن الذي يغنّى به الرشيد . فهذا الكلام كُلُّه من عيون الشعر المروي أو من بديع الشعر المنظوم[2] . وتلك ميزة لمجالس الرشيد الغنائية ولمجالس عليّة القوم . ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أن غناء أهل العصر لم يكن ، كلّه ، بالشعر الفصيح ، بل إن الطبقية الاجتماعية تمتدّ آثارها إلى الأدب والفن . ولعلّ الغرض من الفن هو الذي يحدّد نوعه ، موضوعه ، وأداءه . فمع شعور المرفهين بقيمة الغناء في ليالي أنسهم ، يبقى هذا الفن ، بالنسبة إليهم ، مطلباً مترفاً ، بينما هو ، عند فئات عديدة من العامة ، مثير عصبي يساهم في أداء العمل اليومي ويساعد عليه ، إذا كان فردياً ، وينظّمه بتوقيعه ، إذا كان جماعياً . والرشيد لم يكن يستسيغ الكلام الملحون ، ولا المبتذل ، في الغناء ، ويحاول أن يرقى به حين يحس رغبة في سماعه . ولمّا كان من المحتم على ساكني شاطىء دجلة ، وأولهم الرشيد ، أن يسمعوا غناء الملاحين ، وكان يجد نفسه وسطهم عندما يركب زلاّلة أوحرّاقة ، وكان يميل إلى هذا الغناء ، فقد عهد إلى أبي العتاهية أن يقول شعراً يحفظه الملاحون ويغنّون به ، لكي لا يتأذى سمعه المرهف[3] ، ولكي يستطيع التمتّع بأصواتهم . لكن أبا العتاهية ، كما نعرف ، اختار الشعر وعظا وألقاه على الملاحين . فما إن سمعه الرشيد حتى بكى تأثّراً . من هذا الشعر نختار الأبيات التالية :

خانـكَ الطرفُ الطموحُ	أيّهـا القلـبُ الجَموحُ
كيـف إصلاحُ قلـوبٍ	إنّمـا هـنّ قُـروحُ ؟
كم رأينـا مـن عزيـزٍ	طُويـتْ عنـه الكُشوحُ
سَيصيرُ المـرءُ يومـاً	جَسَداً مـا فيـه روحُ

---

1 في تعليق على جلسة طرب أحياها ابن جامع وإبراهيم الموصلي ، وتجلّى فيها الرشيد كناقد فني دقيق يحدّد الخطأ ويقدّر الصواب ، قال إبراهيم لابن جامع : «والله ، ما أعلم أحداً بقي في الأرض يعرف هذا الغناء معرفة أمير المؤمنين . قال : حق والله ، لهو إنسان يسمع الغناء منذ عشرين سنة ، مع هذا الذكاء الذي فيه» ! (الأغاني ج 6 ص 284) وفي خبر الجارية الوردية التي كانت مع الرشيد حين دخل عليه إسحاق الموصلي ، كان إسحاق ، كلّما غنّى لحناً ، يبادره الرشيد ذاكراً لحناً آخر سمع الصوت به ويطلب أداءه أمامه (انظر الأغاني ج 5 ص 270) .

2 حين نزل الرشيد بشبداذَ وغنّاه الموصلي بيتين من تأليفه وتلحينه «لم يستحسن الشعر وقال له : يا إبراهيم ، صنعتك فيه أحسن من شعرك . فخجل وقال : يا سيدي ، شغل خاطري الغناء ، فقلت، لوقتي ، ما حضرني . فضحك الرشيد من قوله وقال : صدقت» . (المصدر نفسه ص 154) .

3 يروي الأصفهاني الخبر بقوله : «كان الرشيد ، مما يعجبه غناء الملاحين في الزلاّلات ، إذا ركبها ، وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم . فقال : قولوا لمن معنا من الشعراء يعملوا لهؤلاء شعراً يغنّون فيه . فقيل : ليس أحد أقدر على هذا من أبي العتاهية . . .» (عيون الأخبار ج 4 ص 105) .

نُحْ على نفسِكَ ، يا مسكـ ـينُ ، إن كنـتَ تَنوحُ
لتموتُـنَّ ، وإن عُمِّـرْ تَ مـا عُمِّـر نُـوحُ[1]

ولأنّ الرشيد يتأثر بالغناء ، تأثره بالخطبة الوعظية ، والمقطع الشعري ، فإننا نعود إلى اختياره الشعر الذي يغنّى به . فكثير من أخبار المغنّين التي مرّت بنا تذكر بوضوح تحديده للأصوات التي يسمعها أو للأبيات التي يرغب في تلحينها . ونذكّر بخروج الرشيد يوماً ، إلى شعرائه ، برقعة فيها أبيات رقيقة دفعها إلى الموصلي قائلاً : «غنّ في هذه الأبيات»[2] . وقد «خرج رسول الرشيد (المقصود به صاحب الستارة) ذات ليلة إلى المغنّين فقال : غنّوا :

يـا خليليّ قـد مللتُ ثَوائي بالمُصلَّى ، وقـد سئِمتُ البَقيعا
بلّغاني ديـارَ هنـدٍ وسُعدى وارجعاني ، فقد هَويتُ الرجوعا[3]

ورأينا ، في حديثنا عن تحوّل مجالس السمر إلى الطرب ، كيف كان الرشيد يحوّل كل شعر يعجبه إلى التلحين والغناء . . . والواقع أن فكرة الغناء بشعر نال الإعجاب لا تنبت دائماً ، فجأة مصادفة ، بل إنها تكون ، أحياناً ، مبيّتة . فيتم اختيار البيت المرشح للغناء قبل أن يوجد المغني والندامى . ثم يُختار المغنّي الكفؤ ، برويّة ، فيُستدعى ليصنع فيه لحناً خاصاً . . . اختار الرشيد يوماً هذا الشعر :

متى تلتقي الأُلاّفُ ، والعيشُ ، كلما تَصَعّدْن من وادٍ ، هبطنْ إلى وادِ ؟

ثمّ أرسل يطلب يحيى المكّي وأمره أن يغنّيه . ثمّ راح يتابع الاستماع إليه ، حتى أمسى[4] . ونحن لا نستغرب ، بعد ذلك كلّه ، أن يأتي اختيار الشعر حسب المناخ النفسي الذي تمرّ به نفس الرشيد . فإذا ما أحسّ بلوعة الهجران ، اختار شعراً كالسابق . وإذا أحسّ بالضجر ، اختار شعراً يسلّي . وإذا أحسّ بالكآبة اختار شعراً أو شاعراً عرف بالكآبة وطابع الحزن ، فيجمع حزن ذلك الشاعر إلى حزنه ، يستثير العبرات يغسل ، بذرفها ، بعض الهم . ويكون الرشيد ، هنا ، أشبه بهواة سماع الموسيقى التصويرية ، يطلبون منها ألوناً بحسب مزاجهم في لحظتهم . وفي هذا الاتجاه

---

1 القصيدة طويلة . انظر الأغاني ج 4 ص 105 .

2 الأبيات لأبي العتاهية ومطلعها :

قُـلْ لِمَنْ ضَنَّ بِـوُدِّهْ وكَـوَى القلـبَ بِصَدِّهْ

(المصدر نفسه ص 99) .

3 الأغاني ج 5 ص 205 . ومثل ذلك قوله للمغنّين ، وهو مصطبح : من منكم يغنّي : يا ربع سلمى ، لقد هيجت لي طرباً . . . .

فقام مخارق يغنّي وينال الاستحسان . (المصدر نفسه ج 18 ص 257) .

4 الأغاني ج 6 ص 174 .

نعرض خبر الغناء بشعر عبد الله بن معاوية . فقد طلب الرشيد سماعه ذات يوم ولم يكن أحد من المغنّين يحفظ له إلا إبراهيم الموصلي . فغنّاه قوله :

يا قــومُ ، كيف سِواغُ عيشٍ ليس تُؤمَن فاجعاتَهْ ؟ . . .

وراحت دموع الرشيد تبلّل خدّيه . لكن ذلك لم يمنعه ، في المجلس الثاني ، من طلب الغناء بشعر عبداللّه أيضاً فغنّاه الموصلي :

سلا ربّــةَ الخِدْرِ مــا شأنُها ومن أيّما شأنِنا تَعجبُ ؟ . . .[1]

وعاد الرشيد إلى البكاء تأثّراً ، شأنه هنا شأن هواة الأشرطة السينمائية الدرامية الكئيبة ، يشهدونها وهم يعرفون ، مسبقاً ، أنهم سيبكون لمشاهدتها ، بل يحتاطون بمضاعفة عدد المناديل تحسّباً للبكاء المنتظر . ولعلّ في هذا البكاء بعض عقاب النفس ومظهراً مازوشياً (لا يهمّنا أن نبحث هنا سببه) ، أو لعلّ به بعض الانفراج من همّ غير محدود المعالم . أما مغنّو الرشيد ، فقد عرفوا هذا الضعف عنده ، وهو الخضوع للمزاجية ، فراحوا ، شأن سائر جلسائه ، يحاولون تصوّر الحالة النفسية التي يكون فيها ، أو الأزمة التي يمرّ بها ، ليختاروا من الشعر ، حين يُترك لهم الخيار ، ما يلائم وضعه فيصيبون إعجابه وينالون جوائز مضاعفة . (ويكون الرشيد ، حتى في هذه الحالة ، موجِّهاً للأدب والغناء ، بطريق غير مباشر) . وفي رأينا أن هذه المهمة ليست سهلة كما تبدو . فالمغنّي ، حين يحسن اختيار الشعر واللحن في موقف معيّن ، وإن كانت كلمات الشعر لسواه ، وإن كان اللحن كذلك أيضاً ، فإنه لا يقلّ فنًّا وأدباً عن الشاعر الذي يرتجل في المناسبات المفاجئة . بل إن الاختيار يدل على عمق الجذر الفني الذي يرفد مغنّي الخليفة ، وعلى ثقافته وحفظه من الشعر والأدب ، فضلاً عن الألحان . وأكثرما تتجلّى لباقة المغنّي ، في اللحظات الحرجة ، حيث تبنى الآمال على حسن اختياره ، أو يصبح حسن الاختيار منجاةً من التهلكة . فحين قام مسرور «مقامه الذي كان إذا قامه علم الرشيد أنه يريد أن يسارّه بشيء وأسرّ له ، بالفعل ، كلمة خفية عن الطالبيّين «استشاط غضباً واحمرّت عيناه ، وانتفخت أوداجه» وراح يهدد ويتوعّد أبناء عمّه . وعبق الجو بالوعيد ، ولم يعد المكان يصلح لمغنّ ، أو لأي إنسان . فغضَبُ الرشيد ، في هذه الحالات ، قد ينصب على من أمامه لأتفه الأسباب . وكانت اللحظة حرجة بالنسبة إلى الموصلي الذي شهد التغيّر . وهو ، إن لم يتحمّل جريرة سواه ، فإن الجائزة المبتغاة كانت قد تبخّرت ، في حين لا يريد لها ذلك . هنا تجلّت بديهة إبراهيم ومعرفته بطبع الرشيد : لقد اندفع يغنّي بشعر يحث على الشراب . وليس كالشراب ما يزيل الهم . ويبدو الموصلي واثقاً

---

1 سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ص 350 . راجع ص 555 و556 من البحث .

من أن الرشيد سيستجيب للإغراء . فعندما سمع هارون الصوت[1] قال : «ويلك ، اسقني ثلاثاً ، لا أمت همًّا . . .» وظل يشرب حتى استكمل العشر ، ثم نهض وقد سُرّي عنه . وأمر للموصلي بمئة ألف درهم لا يُستأمر فيها ولا في شيء منها ، أمراً باتاً مبرماً[2] . . . وحين اصطحب الرشيد ابن جامع معه ليصطبح عند زبيدة ، وأمره أن يغنّي ، أحسن ابن جامع اختيار شعر عاطفي حافل بالوجد . منه :

بتنا وباتــتْ عــلى نمارِقِها حتى بدا الصبحُ ، عينُها أَرِقَهْ
أَنْ قيل : إن الرحيلَ بعد غدٍ والدارُ ، بعد الجميعِ ، مُفترِقَهْ[3]

وأُعجبت زبيدة ، من حيث كانت في مقصورتها ، باختيار ابن جامع ، وبغنائه ، فلم تتمالك نفسها وأخذت المبادرة إلى إثابته عن كل بيت مئة ألف درهم ، مستبقة بذلك أريحية الرشيد ، وخارقة القاعدة المعروفة للتصرف بحضوره . ونحن ، إذ نقول ، إن الإعجاب يبدأ بمعنى الأبيات ، قبل البدء بالأداء ، فلأن إجادة الأداء لا تُلمس عادة ، إلاّ بعد التكرار والعودة ، بينما جودة اختيار المعنى تظهر للوهلة الأولى . فإذا ما كان الاختيار سيئاً ، لم يكن مجالٌ للشاعر أن يغطي خطأ الشعر بحسن الأداء ولا جمال الصوت . وحادثة علُّويهِ باتت معروفة إذ غنى الرشيد في ذم الشيب وامتداح المرد فاجتلب لنفسه نقمة الخليفة[4] .

بقي لنا ، في هذا الحديث عن الرشيد كمحرّك لمجالس الترفيه ، أن نسجّل إشارة مهمة وهي أن الرشيد كان أحياناً يحرج جلساءه أو يضعهم في أقصى حالات التوتّر ليأخذ منهم أفضل ما يمكنهم من أداء فنّي . فالمعروف عن أبي صدقة ، مثلاً ، أنه كثير المسألة ، إذا تنسّم ريح جائزة أو عطاء طار صوابه وضاعف من طاقاته . فكان يضعه في موقف من الحرمان بينما يثيب باقي الجلساء[5] .

---

1 مطلع الأبيات :

نِعْمَ عوناً على الهموم ثلاثٌ مُترعَاتٌ ، من بعدهنّ ثلاثُ
بعدها أربــعٌ تَتِمّةُ عَشرٍ لا بِطاءٌ ، لكنّهنّ حثاثُ . . .

2 الأغاني ج 5 ص 205 .

3 المصدر نفسه ج 6 ص 291 .

4 المصدر نفسه ج5 ص 227 . انظر ص 112 هامش 2 وص 225 هامش 1 من البحث .

5 اتفق عليه مرّة مع وزيره جعفر بأن وعده الوزير بفرش دار له بناها . وبعد فترة من المماطلة والعبث عرض عليه أن يفرشها له بالبردي والبواري ، ووافقه الرشيد على ذلك . وحين جاء دور أبي صدقة للغناء : «أخذ يغنّي غناء الملاحين والبنّائين والسقّائين وما يجري مجراه من الغناء . فقال له الرشيد : أي شيء هذا الغناء ؟ قال : من فُرش داره بالبواري والبردي ، فهذا الغناء كثير منه . . .» (نهاية الأرب ج 4 ص 50) وله حادثة أخرى معه حين ضمن منه عطاءه لليلته بخمسمئة دينار جعله يقسم ألاّ يطلب زيادة عنها . ثمّ راح يوزّع الآلاف على باقي المغنّين . (انظر المصدر نفسه ص 48) .

والمعروف كذلك ، عن ابن جامع ، أنه كان أحسن ما يكون غناء إذا حزن . فأحب الرشيد وضعه في اطار الحزن ، فبعث إليه بخريطة فيها نعي أمه . فلما استوعب ابن جامع الخبر ، «اندفع يغنّي بتلك الحرقة والحزن الذي في قلبه :

كَم بالدروبِ ، وأرضِ السندِ من قَدمٍ ... ومن جماجمَ صرعى ، مـا بها قُبروا
بِقندُهـــارَ ، ومـــن تُكتبْ منيّتُه ... بقُندُهـــارَ ، يُرجَّـم دونـــه الخَبَرُ

قال أحمد بن يحيى المكّي : «فوالله ما ملكنا أنفسنا . ورأيت الغلمان يضربون برؤوسهم الحيطان والأساطين . وأمر له الرشيد بعشرة آلاف دينار»[1] .

7 ـ **خاص الخاص من المجالس الترفيهية** : ونقصد بها مجالس يحضرها ، إلى جانب الرشيد ، بعض نسائه أو إخوته . وهذا أمر يندر الحديث عنه ، فضلاً عن وصفه ، لأن الحرية ، المعطاة للجواري والإماء ، محظورة على الحرائر وأمهات الأولاد . فهؤلاء ، يشكّلن «الحريم» الذي تُحرّم رؤيته على الناس ؛ وهنّ «العِرض» الذي يُحمى خلف الأبواب ويدافع عنه بالدم . ولقد مرّ بنا ، منذ قليل ، ذكر مجلس الغناء الذي أحياه ابن جامع في جناح زبيدة ، وقد مالت إلى إحدى المقاصير بحيث تسمع ولا تُرى ، مشاركة في المجلس ، بحضورها ، لا بجسدها[2] . ويذكر الأصفهاني أن الرشيد أخذ بيد جعفر ، ذات ليلة وراح يدخل به من حجرة إلى أخرى ، حتى وصل إلى باب نقر عليه فسُمع حس ، ثمّ نقر فسُمع جس عود ، ثمّ نقر فاندفعت جارية تغنّي . وحين غنّت «صوت الرشيد» :

ومُخَنَّثٍ شَهِدَ الزِفافَ ، وقَبلَه ... غنّـى الجواري حاسراً ومُنَقَّبا

لم يملك الخليفة والوزير نفسيهما ، فرقصا طرباً . وعرف جعفر أن المغنّية هي عُليّة بنت المهدي وأن عليه أن يحفظ السر بثمن حياته[3] . . . وتحدّثت الأخبار عن مجالس هيّأتها ، للرشيد ، عُليّة وحدها ، أو عُليّة مشتركة مع زبيدة للفت نظر الرشيد أو لتحويل اهتمامه عن محظيّة جديدة . وقد مرّ بنا ذكر ذلك اليوم المشهود الذي اصطبح فيه الرشيد وحوله ألفا جارية مغنّية وضاربة وراقصة . فما إن جاء وقت العصر حتى خرجت عليه زبيدة وأخته عليّة بألفي جارية ، وكلّهنّ في لحن واحد صنعته عليّة ؛ ففرق الرشيد كل ما في بيت المال ، لشدة طربه . . .[4] ويروي الأصفهاني أيضاً خبر مجلس طلب فيه الرشيد غناء من عُليّة ، فنظمت على الفور شعراً ولّحنته وغنّته . فطرب الرشيد ،

---

1 نهاية الأرب ص 299 .

2 المصدر نفسه ص 300 .

3 الأغاني ج 10 ص 188 .

4 المصدر نفسه ص 182 وانظر ص 159 وص 399 من البحث .

وراح يسمع الصوت ويستعيده طوال يومه[1] . ومع أن هذا النوع من المجالس لا يجري ذكره على لسان شاعر ، لأن غرباء لا يحضرونها ، فقد نقلها لنا الرواة ، مع القليل أو الكثير من المبالغة . لكن هناك مجلس فريد جاء ذكره شعراً ، وهو مجلس أقامه الرشيد عند أخته بمناسبة فصده . ويبدو أن مسلم بن الوليد حضر التهنئة التي تبعت الانتهاء من الفصد[2] ، وما هيّأته أخت الرشيد للمجلس من ملامح الأنس ومعالم الاحتفال . فذكر ذلك في شعر قد يكون تهنئة للرشيد بالمناسبة . منه :

يا أختَ هارونَ ، أبوكِ الذي	يَقْصُِّرُ عنه القولُ والحَدْسُ
طاب لكِ العيشُ ، على يومِهِ ،	هذا الذي يحسده أمسُ
قد فَصَد العرقَ إمامُ الهدى	في ساعةٍ جانَبَها نَحسُ
في مجلسٍ تمّت لذاذاتُه	يَعجِزُ عنه الجنُ والأنسُ
أعقبه اللّهُ سروراً به	وَقَرَّتِ العينانِ والنفسُ[3]

خاتمة : لقد حاولنا «في صفحات محدودة ، أن نعطي صورة لما كان يجري ، في حياة الرشيد الخاصة ، وأن نبرهن أن الأجواء الأدبية كانت تظلّلها جميعاً . ولعلّ هذه الصورة تمثّل الوجه الآخر لبيئة الرشيد ، الوجه الذي تنبسط فيه الملامح وترتاح الأعصاب ، وتنطلق النفس على سجيّتها ، تسترسل في اجتناء متعتها ، لتنسى الهموم والمشاغل ، ولتجدّد النشاط . وقد يكون هذا الوجه ، كما أسلفنا ، هو الذي استرعى اهتمام العامة وكثير من المؤلفين ، من المعاصرين ومن سبقهم . ومهما قيل عن تبذّل الرشيد في هذه المجالس ، فإننا لا نستطيع تصوّره ، بكل إمكاناته الفكريّة والفنّية ، متبذلاً . بل إنه ، في رأينا ، كان يتباسط مع جلسائه ويُلين لهم جانبه ، لكنهم كانوا دائماً يرهبونه ، حتى في حالات تجلّيه الأقصى . ولم يكن هو ممن يتركون مجالاً لجليس ليرفع طرفه ، أو يخرج عن المألوف في تصرّفاته أمامه . لهذا رفضنا فكرة شرب الرشيد أمام

---

1 الأغاني ج 10 ص 191 والأبيات هي :

تفديك أختُك ، قد حبوتَ بنعمةٍ	لسنا نَعُدُّ لَها الزمانَ عديلا
إلاّ الخلودَ ، وذاك قربُك ، سيدي ،	لا زال قربُك ، والبقاءُ ، طويلا
وحمدت ربّي ، في إجابة دعوتي ،	فرأيت حمدي ، عند ذاك ، قليلا

2 كان الرشيد والوجهاء يحتفلون بالفصد احتفال شفاء وفرح ، يجلسون بعده للناس يتقبّلون التهاني والهدايا . انظر (الوزراء والكتّاب ص 250) قول الرشيد لجعفر : «يا أخي ، أنا على الفصد ، وأريد التشاغل بالنساء ، فكم تبعث إليّ لما أهيّئه لهن ؟» .

ثم تقصير جعفر بحق الخليفة واغتنام الفضل بن الربيع الفرصة لتقديم هدية ، لا تنسى إلى الرشيد . وقد جاء في الخبر : «ثم قال لجلسائه ، وقد افتصد ، أي شيء تهدون إليّ ؟» .

3 الديوان ص 280 .

جلسائه ، وأكّدنا أن الرشيد ، إذا كان يشرب النبيذ فقد يشربه خلف ستارة أو في مقصورة ، وبالقدر الذي يحفظ له كرامته ولسانه . وإذا جعل ، يوماً ، أحدَ الجلساء يشاركه الشراب ، فذلك خاص جداً ، واستثنائي جداً . وإننا لواثقون من أن النديم ، في هذا الوضع ، لا يكون في حالة ارتياح . بل على العكس ، هو ، بلا شك ، في حالة توتر شديد : يخاف أن يصدر عنه ما يغضب الخليفة ، ويخاف أن يصدر عن الرشيد أمامه ما لا يجب أن يعرفه عنه الناس فيكون ، في ذلك ، هلاكه . ولا نستطيع القول إن الرشيد ، حين كان يخلو بنديم ، كان يخلو به خلوة تامة . فالجدران لها عيون ، والخدم مبثوثون في كل مكان منتظرين إشارة من الخليفة[1] . فكلام الليل ، هنا ، لا يمحوه النهار . وما يجري في جلسة المنادمة ، لا يستطيع الندماء إلاّ كتمانه .

حول أدب المناسبات ومناسبات الأدب : دور الشاعر والجليس

رأينا في دراستنا لصراع الترف والحرمان ، أن هناك أدباً حرًّا نما وعاش في البلاط ، أنتجه أبناء البلاط ، إما تعبيراً عن مشاعر ، أو إثباتاً لموهبة شعرية ومقدرة على النظم . هذا الأدب الذي لم يكن برسم البيع ، كان مع ذلك برسم الاستهلاك المحلّي ، وارتبط أحياناً بأحداث البلاط ومناسبات خاصة فيه . أما شعراء البلاط الذين اتصلوا به من الخارج ، فقد كان هاجسهم الكبير الحصول على الأعطيات . فاغتنموا كل مناسبة ليكيلوا المدح ويمجّدوا البطولات ، أو ليعزّوا ويعتذروا . . . ويقبضوا . وقد سبقت لنا إشارة إلى تفشّي المتعة الأدبية بين أبناء العصر ، وإشارة أخرى إلى تباهي الملوك والوجهاء بمن يؤم قصورهم من الشعراء . وهذا كلّه أدى إلى ازدياد قيمة الشعراء بازدياد الإقبال على شعرهم ، وبتعاظم الطلب على بضاعة الأدب التي ينتجون . ونحن لا نقصد أن هذه الظاهرة كانت بدعة عصر الرشيد ، بل إنها استمرار لمفاخر الجاهلية ، تركّزت معالمها وتطوّرت حتى وصلت إلى عصر الرشيد ، وبقيت مستمرة في التصاعد مع ازدياد عدد البلاطات الذي شهدته الأمبراطورية العربية بعد ذلك . إنما نسجّل هنا ظاهرة أخذت أبعادها مع الرشيد : وهي تَلبّس الشاعر دور النديم واقترابه ، أحياناً ، من دور المسلّي والمرفّه . فقبل الرشيد ، كان الشعراء عادة يدخلون على الخلفاء في مواعيد محدّدة ترتبط بمناسبات عامة واحتفالات أو بمجالس سنوية تشبه المواسم يدعى فيها الشعراء إلى التنافس على أرض البلاط . أما مع الرشيد والبرامكة ، فقد غدا كثير من الشعراء المطربين المثقّفين جلساء دائمين ، في حال القرار ، ورفقاء للخليفة ، في حال الترحال ، يقولون فيه أشعارهم ويتحفونه برواياتهم وما حفظوه من أشعار سواهم ، ويشركونه أحياناً في تقدير قصيدة ، أو إجازة بيت ، فيبدو لمتتبّع هذه الأخبار أن الأديب غدا أحد عناصر البلاط الأساسية ، وأن له دوراً دائماً فيه ، شأن الوزير والكاتب والقاضي . وبطبيعة الحال ، لم يكن يصمد ، في هذه المهمة ، من اعتمد على البديهة والموهبة فقط ، وإنما من

---

1 الأغاني ج 5 ص 204 .

ثقف ثقافة أدبية وفنية واسعة ، فحفظ ، وروى ، وتفقّه ، وشافه الأعراب ، وجالس شيوخ اللغة .
ولنا نموذج عن الجليس في إسحاق الموصلي ، إذ يروي عنه البغدادي اليومية الطريفة التالية : «بقيتُ ، دهراً من دهري ، أغلّس ، في كل يوم ، إلى هشيم أو غيره من المحدّثين ، فأسمع منه . ثمّ أصير إلى الكسائي أو الفرّاء أو ابن غزالة ، فأقرأ عليه جزءاً من القرآن . ثمّ آتي إلى منصور زلزل ، فيضاربني طريقين أو ثلاثة . ثمّ آتي عاتكة بنت شهدة فآخذ منها صوتاً أو صوتين . ثمّ آتي الأصمعي وأبا عبيدة ، فأناشدهما وأحدّثهما وأستفيد منهما . ثمّ أصير إلى أبي فأعلمه ما صنعت ومن لقيت وما أخذت ، وأتغدّى معه . فإذا كان العشي ، رحت إلى أمير المؤمنين الرشيد . . . .»[1] وقد أغدقت العناية الإلهية على الرشيد عطاءها في مضمار الجلساء أيضاً فوهبت بلاطه نخبة من المواهب جرى الحديث عنها في كل مضمار خضناه . وإذا شابه الأديب ، في أهمّيته ، سائر موظّفي البلاط ، فإن دوره يختلف عن دورهم في أنّ ما يقدّمه من خدمات لم يكن محدوداً منصوصاً عنه ، ونادراً ما كان يقبض راتباً أو جراية . فما يأخذه كان ثواباً على كل عملية إنتاج أدبي يقوم بها ، ولكل عمليّة ثمن . لذلك كان يحاول ، بمختلف الأساليب ، رفع تأثر الرشيد بما يقول ، بهدف رفع تقويمه لما يسمع ، وإعلاء الثمن . وفضلاً عن ذلك ، فإن دور الأديب ألصق بحياة الرشيد من دور الموظف . وهو ، بعيداً عن تلبية الحاجات الإدارية ، حاضر لتلبية حاجات الخليفة النفسية والعاطفية . فإذا ما احتاج عذراً قدمه له ، وإذا ما احتاج جواباً أدبياً أتاه به على الفور ، وإذا مرّ بأزمة نفسيّة تطوّع ليَلبَسها له ويعبّر عن أحاسيسه ومشاعره . وتشير بعض الأخبار إلى أن الرشيد كان يقسم أيامه بين شعرائه الملازمين له . فلكل شاعر نوبة يكون فيها إلى جانب الرشيد[2] . ولعلّ ما يميّز الرشيد من سواه من الخلفاء قبله ، أنه راح يدخل شعراءه إلى مجاهل حياته الخاصة ، فضلاً عن حياته النفسية ، فيجعلهم ينتجون له أدباً ، يريد هو أن ينتجه وتتوقّف موهبته دونه ، أدباً يكون سلاحاً ووسيلة له في علاقاته الحميمة ، وقلّما كنّا نسمع عن خليفة أو ملك فعل ذلك . وقلّما نسمع عن شاعر كأبي حفص الشطرنجي الذي كان يقيم في البلاط بين الرشيد وأفراد عائلته ، مهمّته تلبية الطلبات على الشعر وصوغه في المشاعر المطلوبة . فيقول أبيات عتاب هنا ، وينشد أبيات اعتذار هناك ، وينظم شعراً هنالك يداوي جرحاً سبق إليه اللسان[3] . وكان العبّاس بن الأحنف رفيقاً لكثير من مشاعر الرشيد المتعلّقة بالمرأة ، وهو

---

1 تاريخ بغداد ج 6 ص 340 .

2 يقول الأصفهاني عن اتصال النمري بالرشيد : «وصادف دخوله إليه يوم نوبة مروان» (الأغاني ج 13 ص 141 وانظر ص 513 من البحث) . ويقول عن لسان عبد الله بن العباس الربيعي حين اكتشف الرشيد موهبته في الغناء «أمرني بالملازمة مع الجلساء ، وجعل لي نوبة» (المصدر نفسه ج 19 ص198) .

3 أبو حفص الشطرنجي هو عمر بن عبدالعزيز مولى بني العباس . يقول عنه محمد بن الجهم البرمكي : «رأيت أبا حفص الشطرنجي الشاعر ، فرأيت منه إنساناً يلهيك حضوره عن كل غائب . . . قربه عرس وحديثه أنس ، جده لعب ولعبه جد . . . وكان أقل ما فيه الشعر . .» (المصدر نفسه ج 22 ص 51) ويذكر الأصفهاني أنه «انقطع إلى

المختص بالغزل ، فغدا لسانَهُ المعبّر عن خلجاته : يقيسها على ما يعتمل في نفسه الحسّاسة الشاعرة ، لأن الرشيد لا يقلّ رهافة حسّ ورقّة مشاعر عنه ، وإن قصّر في الموهبة الشعرية . وكان عليه أحياناً أن يتمّم ما بدأه الرشيد من التعبير ورسائل الغرام الشعرية ، حتى اختلط ما قاله الرشيد بما قاله العبّاس وصعب أحياناً معرفة الحقيقة في نسبتهما . ولما كنّا تحدّثنا عن هذه المعالم العاطفية في أبواب سابقة ، فإنّ ما يهمّنا الآن هو مشاركة العبّاس في شعر المناسبات . فقد تبنّى ابن الأحنف ، فيما تبنّى من حالات الرشيد العاطفية ، حالة الأسى على فقد محبوبة عزيزة على قلبه ، فصار ينظم لها المراثي . وليس شعر الرثاء حدثاً جديداً في عالم الأدب ، لكن استعارة الرثاء ظاهرة تسجّل للرشيد . ذاك أن العبّاس لم يكن يرثي محظيات الرشيد باسمه الشخصي ، وما كان ليُسمح له بذلك ، إنما كان يرثي باسم الخليفة فيسخّر مقدرته الفنّية ومطاوعة الشعر له لإخراج الانفعالات التي عجز الرشيد عن إخراجها تعبيراً شعرياً . وأبرز مراثيه ، باسم الرشيد ، في هيلانة وضياء ، وهما من أشهر المحظيّات العزيزات على قلب هارون ، أصابه ، لموتهما ، غمّ شديد كاد يشلّ قريحته . فقال الأبيات القليلة في رثاء هيلانة[1] ، ثم توقف معطياً المبادرة للعبّاس الذي قال :

يا مَنْ تباشَرَتِ القبورُ لموتِها ... قصدَ الزمانُ مساءتي فَرَماكِ
أبغي الأنيسَ ، فلا أرى لي مؤنساً ... إلا الترددَ حيث كنتُ أراكِ
مَلِكٌ بكاكِ وطال ، بعدك ، حزنُه ... لو يستطيعُ ، بملكه ، لَفَداكِ

= عُليّة . . . يقول لها الأشعار فيما تريده من الأمور بينها وبين إخوتها وبني أخيها» . (المصدر نفسه ص 50) وحين غضب الرشيد عليها قال الشطرنجي شعراً على لسانها غنّته الرشيد فرضي عنها (المصدر نفسه ص 54 وفوات الوفيات ج 2 ص 106) وحين كتب الرشيد إلى ماردة مشتاقاً «أمرت أبا حفص الشطرنجي . . . فأجاب الرشيد عنها . . .» (الأغاني ج 22 ص 53) وساهم أبو حفص مع الأصمعي في محاولة التعبير عمّا في نفس الرشيد (تاريخ بغداد ج 14 ص 9) .

1 يقول البغدادي : «هيلانه جارية الرشيد التي يقول فيها :

أفٍ للدنيا وللزينـ ... ـةِ فيها والأثاثِ
إذ حثا التُربَ على هيـ ... ـلانَ في الحفرةِ حاثِ

(تاريخ بغداد ج 1 ص 97) .

ويقول أيضاً : «كان الرشيد شديد الحب لهيلانه . . . غلبت عليه . . . فأقامت عنده ثلاث سنين ثمّ ماتت» . فوجد عليها وجداً شديداً وأنشد :

أقولُ ، لمّا ضمّنوكِ الثرَى ، ... وجالتِ الحسرةُ في صدري
اذهبْ ، فلا واللهِ لا سَرَّني ، ... بعدكِ شيءٌ ، آخِرَ الدهرِ

(المصدر نفسه ــ ونساء الخلفاء ص 55) .

يحمي الفؤادَ عـن النساءِ حفيظةً كيلا يحـلَّ حمـى الفؤادِ سواك[1]

وقال أيضاً ، على لسان الرشيد ، يرثي ضياء :

ألا إن صفو العيشِ ، بعدكِ ، أكدرُ وكلُّ نعيم سوف يُقلى ويُهجرُ
لعمري لنعمَ المستُغاثُ به البُكا ، إذا فنـيَ الصبرُ الذي كان يُذخَرُ
سأبكي ضياءَ ، مستقلاً لها البُكا ، ويُسعدني يحيـى وفضلٌ وجعفرُ[2]

وكما قام الأديب بهذا الدور الخاص في حياة الرشيد وشارك في المناسبات الحميمة لحياته ، وُجد له دور آخر عام ، أكثر اتساعاً ، كان فيه الصحفيَّ ومؤرخَ الأحداث والداعية . فقد مرّ بنا ، في حديثنا عن الصراعات المختلفة ، كيف كان الشعر يرافق الحدث ويؤرخ له ، أو يحمل وجهة نظر العبّاسيّين يصوغها شعراً يَجُبُّ به من يدعي حق سواهم ، ويفوّت عليه حججه ، كما كان يستبق الجيوش إلى أهل الفتنة يهدّد ويتوعّد ، أو يحصد نتائج الحملات التأديبية ملوّحاً ببطش الخليفة وطول باعه ، منذّداً بسخف الذين يعرّضون أنفسهم لنقمته . وكذلك كان يأخذ على عاتقه الدعوة إلى ولي العهد هذا أو ذاك ، محسّناً في عين الخليفة وعين الناس مواقف تسبق خطوة مصيرية أو تتبعها . . .

وفي المناسبات المدنية والعمرانية ، لم يتخلّف الشعر . فإذا ابتنى الرشيد قصراً بباقردي يقول الشاعر أبياتاً مسجّلاً الواقعة ، مثنياً على الخليفة الذي أحسن اختيار منطقة صحية ، مزرياً بمناخ بغداد الذي يتهمه الشاعر بدفع الرشيد بعيداً عن عاصمة ملكه بحثاً عن منتجع يصيف فيه ويرتبع . (وهذا يدخل ضمن إطار تبنّي الشعراء لوجهة نظر الخليفة ؛ فقد سبق لنا الحديث عن محاولاته المتكررة للهروب من بغداد ، ملقياً اللوم على مناخها ، تارة ، وعلى بعدها عن أعدائه الأمويين تارة أخرى)[3] . . . وإذا أمر الرشيد بحفر نهر ، يستفيد منه أهل السواد ، اندفع أشجع يمتدح أفضال

---

1 تاريخ بغداد ج 1 ص 98 . وأمر له الرشيد بعشرة آلاف درهم لكل بيت . وجاء في ديوان العبّاس رثاء آخر باسم الرشيد :

أأبغي صباً من بعـد هَيلانةٍ إذاً أرانيَ ملغـىً من وفاء الحبائبِ
سأوحشُ قلبي بعدها من سرورهِ وأونسُ عيني بالدموعِ السواكبِ
إذا ذرفتْ عينـي ، بحَرِّ مُصيبةٍ ، تمثّلتُ قـول المبتَلَـى بالمصائبِ
«أجدَّكَ ، ما تعفو كلومُ مصيبةٍ ، على صاحبٍ ، إلا فُجعتُ بصاحبِ

(الديوان ص 36 و 37) .

2 المصدر نفسه ص 89 .

3 يذكر الطبري البيتين التاليين في مناسبة بناء قصر باقردى وبازبدى :

بِقـرَدى وبازَبدى مَصيفٌ ومَربعٌ وعَـذبٌ يحاكي السلسبيلَ بَرودُ

الرشيد ومبادراته التي تحيي موات الأرض ، وتجعل الفرات يُرضع مناطق بعيدة عنه لم تكن تحلم باستكناه أسراره ، ولا بامتصاص لبنه :

أجرى الإمـامُ الرشيدُ نهراً ... عـاش بعمرانـه المَـواتُ
جـاد عليـه ، بريـقِ فيـهِ ... وسِرِّ مكنونـهِ ، الفُراتُ
ألقمـه دِرَّةً لَقوحـاً ... يَرضَـعُ أخلافَهـا النباتُ[1]

ويبرز أشجع شاعر مناسبات من الدرجة الأولى ، يلازم أحداث البلاط فلا تكاد تفوته فرصة إلاّ ويغتنمها . فهو صاحب موهبة متميزة في هذا المضمار ، مع سرعة بديهة وسهولة نظم وارتجال[2] . ومع أن البلاط كان يحفل بالمواهب الكبيرة وبأصحاب البديهة الحاضرة لكن بديهة الآخرين ، كما يبدو ، كانت تتجلى في مجالات أخرى[3] ، فيما كان لأشجع هذه القدرة على الوصف ، ممزوجاً ببعض الصناعة اللفظية وبكثير من التملق واستدرار العطاء ، مما لا يستسيغه العباس بن الأحنف مثلاً ، ولا يقبله أبو نواس وأبو العتاهية ، على كثرة ما قالوا من مدائح في الرشيد . فأشجع هو الذي يتغنى بقصر السلام[4] الذي ابتناه الخليفة في الرقة أو في

= وبغـدادُ ، مـا بغدادُ ؟ أمـا تُرابُها ... فَخُرْءٌ ، وأمـا حَرُّهـا فَشديدُ

(تاريخ الطبري ج 8 ص 239) .

1 الأغاني ج 18 ص 176 .

2 من أبرز الشواهد على مقدرة أشجع حادثة رواها الأصفهاني عن جلوس جعفر بن يحيى للشرب ، وحوله الندماء وبينهم أشجع . فجاءه أعرابي أنشده ، بناء لطلبه ، قصيدة لحميد بن ثور . فاندفع أشجع فأنشده مديحاً على وزنها وقافيتها منه :

ذَهَبَتْ مكارمُ جعفرٍ وفِعالُـهُ ... في الناسِ مثلَ مذاهبِ الشَمسِ

فقال له جعفر : صف موضعنا هذا فقال :

قصورُ الصالحيـةِ كالعَذارى ... لبسنَ ثيابهَنَّ ليومِ عُرسِ . . .

فقال جعفر للأعرابي : كيف ترى ، يا هلالي صاحبنا ؟ قال : أرى خاطرَهُ أطوَعَ من بيانه . وقد جعلتُ له كلَّ ما تصلني به . . .» (الأغاني ج 18 ص 148) . وله مع جعفر موقف بديهة مشهور حين عُزل عن خراسان فتقدّم إليه أشجع بالشعر التالي :

ثـم أراه رأيُـه أنّـهُ ... أمسى إليه منهمُ أحوَجا . . .

(والضمير يعود إلى الرشيد) (المصدر السابق ص 156) .

3 تروي الأخبار الكثير عن بديهة أبي نواس وأبي العتاهية والعباس بن الأحنف وسواهم ، ولكن معظم هذه الأخبار تدور حوادثها حول مواضيع شخصية وحالات نفسية . (راجع فصل الإجازة الشعرية) . أما العماني فهو يقارب أشجع اغتناماً للمناسبات ، ومثله مسلم بن الوليد . ولا يقل مروان بن أبي حفصة عنه في هذا المضمار ، وإن فاقه في مضمار المناسبات السياسية ، ينافسه في ذلك منصور النمري . واعتدادنا أشجع متميزاً كشاعر مناسبات لا يعني تفرده بهذا الباب ، وإنما اخترناه كنموذج نظراً لتنوع المواضيع التي طرقها .

4 القصيدة في الأغاني ج 18 ص 161 ومعاهد التنصيص ج 4 ص 226 وانظر ص 400 من البحث .

الرافقة[1] ، وهو الذي يهنئه بالأعياد[2] ، وهو يؤرخ لخروج جعفر إلى الشام لإطفاء الفتنة[3] وهو الذي يهنيء الرشيد بانتصاراته على الروم[4] ، وهو الذي يندد بإدريس الذي اعتقد أن بُعد الشقة ينجيه من غضب الخليفة ، فدفع حياته ثمناً لسوء تقديره[5] . وأشجع عايش قصة المنجم الذي تنبأ للرشيد بموتٍ قريب ولنفسه بحياة طويلة ، فكان أن علقه الرشيد بعد أن قتله وأثبت بهتانه ، وقد خاطبه أشجع ساخراً . . . .

سَلِ الراكبَ المُوفي على الجذعِ : هَلْ رأى ... لراكِبِه نجماً بدا غيرَ أعوَرِ ؟
ولو كانَ نجمٌ مخبراً عن منيّةٍ ... لأخبَره عَن رأسِهِ المتحيّرِ
يعرّفنا موتَ الإمامِ كأنّه ... يعرِّفُنا أبناءَ كسرى وقيصَرِ
أتُخبِرُ عن نحسٍ ، لغيرِك شؤمُهُ ... ونجمُك بادي الشرِّ يا شرّ مُخبِرِ ؟[6]

وأشجع هذا المهنيء الشامت ، يغدو حزيناً إذا أصابت الرشيدَ مصيبة . فحين مات له ابنٌ قدّم إليه أفضل تعزية ، تعزية الكلمة البليغة تَسَع الأسى الكبير فقال :

نَقصٌ مِنَ الدينِ ومِنْ أهلِهِ ... نَقصُ المنايا من بني هاشمِ
قَدَّمْتَه ، فاصبِرْ على فَقدِهِ ... إلى أبيهِ وأبي القاسِمِ[7]

وأخيراً ، فلقد سبق لنا الحديث عن دور الأدب في حياة الرشيد وبيّنا أنه كان ، بالنسبة إليه ، مجدداً للقوة والنشاط[8] . وهذا يعطي أهمية كبيرة لدور الشاعر الجليس في حياة الرشيد الخاصة وفي مجالس سمره ولهوه . وذهب بعض الكتّاب إلى أن الأصمعي وأبا نواس لعبا دور المرفّه ، وأحياناً المضحك ، بما كانا يرويانه من نوادر وأخبار مسلية . ونحن لم يتضح لنا أن أبا نواس كان يرافق الرشيد ويؤم مجالسه مقدّماً له الفكاهة والحركات المضحكة ، كما كان يفعل ابن أبي مريم

---

1 Le Strange, The Lands of The Eastern Caliphate, p. 101
ويذكر البغدادي مناسبة القصيدة فيقول : «لمّا دخل أشجع على الرشيد بالرقّة كان قد فرغ من قصره الأبيض فأنشد : قصرٌ عليه تحيةٌ وسلامُ . . .» (خزانة الأدب ج 2 ص 205) .

2 راجع فصل مناسبات الاحتفال .

3 راجع فصل صراعات العصبية (ص 275 وما بعد) .

4 الأغاني ج 18 ص 167 .

5 راجع ص 324 من البحث .

6 وفيات الأعيان ج 1 ص 186 .

7 الأغاني ج 18 ص 153 ولقد قال الرشيد لدى سماعه الشعر : «ما عزّاني اليوم أحد أحسن من تعزية أشجع» .

8 راجع ص 153 من البحث .

المدني مثلاً ، أو كما هو معروف عن مضحك الملك في البلاطات الأخرى . ولم يثبت لنا أصلاً أن الرشيد كان يتعاطى المزاح مع أبي نواس . كل ما وجدناه أن النواسي كان يدخل على الرشيد ، مع من يدخل ، وينشده . أو كان يدخل إليه بناء على طلبه ليجيز له البيت أو الأبيات ، كما كان يحصل لأبي العتاهية وللعباس بن الأحنف وأبي حفص الشطرنجي وسواهم . لكنه كان يتنسم أخبار الحجرات والمقاصير ليتمكن من إحكام تلك الإجازات . أما الأصمعي فكان فعلاً رفيق الرشيد شبه الدائم ، شأنه شأن الكسائي . إنما كان الكسائي أشبه بالعالم المتزن ، فكانت أخباره محدودة ، فيما كان الأصمعي البلبل الغرّيد ، ملأت أناشيده كل ناحية من البلاط ، وجميع لحظات الرشيد . ومع أن الرشيد كان يجد التسلية مع كل أديب وفنان ، فإن أخبار الأصمعي غطّت على أخبار الجميع . لكن ذلك لا يعني أبداً أنه اسفّ إلى مستوى الابتذال ولعب دور «مضحك الملك» . فما قدّمه الأصمعي للرشيد كان دائماً ، إنتاجاً أدبياً ، بل عيون الانتاج الأدبي . وجميع النوادر والأخبار التي رواها تحفل بالشعر البديع والإجابة البليغة والطرفة . وقد مرّ بنا الكثير مما رواه الأصمعي في مجلس الرشيد ، من شعر أو حكاية ، ونؤكد هنا أن الأصمعي كان يروي للعصر كله ، بل للأجيال اللاحقة جميعها ، أدب معاصريه [1] والسابقين ، المعروفين والقدماء ، بكل ما فيه من جد وهزل .

---

1 مع تشبث الأصمعي بعمود الشعر القديم ، كان يروي الكثير من الشعر والأدب للمعاصرين ، كما ينقل عن الأعراب ، وضمن حدود النادرة الأدبية التي يكون شاهداً عليها . من ذلك مثلاً خبر الجارية التي وجدها تستعطي بالشعر على طريق الحج فأخبر بها الأصمعيُّ الرشيدَ الذي قصدها واستمع إليها ثم ملأ قصعتها دنانير . (الأذكياء ص 214 وانظر ص 604 من البحث) ومنها خبر الغلام المسمى حريقيص ، والذي دافع عن اسمه وأنشد شعراً للمرّار الأسدي . وقد نقل الأصمعي إلى الرشيد خبر الغلام وعبّر عن بلاغة إنشاده قائلاً : «فكادت الأرض تسوخ بي لحسن إنشاده وجودة شعره» . فتحمس الرشيد لرؤية الغلام . (أمالي القالي ج 1 ص 66) .

موسوعة

هارون الرّشيد

تأليف

الدكتور سعدي ضنّاوي

المجلّد الثّالث

دار صادر

بيروت

القسم الثالث
الرشيد وأجواء الأدب

لقد قمنا ، حتى الآن ، بدراسة الأجواء الأدبية التي عاش الرشيد ضمنها وحاولنا ربط هذه الأجواء بتربة الواقع الاجتماعي والسياسي ، وأحياناً النفسي ، التي نمت عليها حياته . ومن خلال ذلك ، ظهر لنا الرشيد أديباً ومتأدباً ، مشاركاً في إغناء تلك الأجواء ، ومتلقياً للنتاج الأدبي الذي أنجبته . ونودّ ، في هذا القسم ، أن نتحدث عن دور للرشيد أكثر إيجابية ، وأبعد تأثيراً في خلق تلك الأجواء . فنحاول أن نبيّن أثر الرشيد الفاعل في خلق النشاط الفكري والأدبي وفي تحويله ، بإرادته ، أو بردّة فعل عكسية ، إلى الاتجاهات التي سلكها . كما نحاول ، من جهة أخرى ، أن نبيّن أثر الأجواء الأدبية ، التي أحاطت بالرشيد ، في الصورة التي رُسمت عنه للتاريخ وللأجيال التالية .



الباب الأول
الرشيد محرك الثقافة والأدب

الفصل الأول
دور الرشيد في تنشيط الحركة الفكرية

كتب فولتير عن لويس الرابع عشر[1] :

«لقد قامت في فنوننا ، في عقولنا ، في طباعنا ، كما في حكومتنا ، ثورة عامة أصبحت ، بشكل حتمي ، الطابع الخالد لمجد وطننا الحقيقي . وهذا الأثر الطيب لم يتوقف عند حدود فرنسا ، بل امتد إلى انكلترا . . . ونقَل الذوق إلى ألمانيا . . . والعلومَ إلى روسيا . وحتى ايطاليا ، التي كانت تذبل ، أنعشها . فأوروبا كلها تدين بآداب التصرف والفكر الاجتماعي لبلاط لويس الرابع عشر»[2] .

فولتير

تمهيد : موقع الرشيد من حركة العصر الثقافية

إذا كان عصر الرشيد قد شهد انطلاقة الحركة الفقهية واللغوية ، وإذا كان قد رعى شيوخ اللغة والرواية وعايش الأئمة الكبار الذين أرسوا مذهب السنّة ، ورافق ولادة علم الكلام ومذهب الاعتزال والصوفية ، فقد كان معظم أقطاب هذه الحركة على علاقة بالبلاط العباسي : علاقة ولاء ، كما هو الأمر مع الأصمعي والكسائي واليزيدي والأحمر النحوي ، أو علاقة احترام متبادل كما كان الأمر مع الإمام مالك والإمام الشافعي في بلاط الرشيد ، أو علاقة تحدّ وصراع ، كما كان الأمر مع الإمام أبي حنيفة في بلاط المنصور والإمام أحمد بن حنبل في بلاطي المأمون والمعتصم . أما شيوخ المعتزلة فقد عرف البلاط الرشيدي بعضهم كجلساء شعراء ومتأدّبين ، وإن كان رَفَضَهم كمتكلّمين في الدين والفقه . إلاّ أن موقف الرشيد المتحفّظ من علم الكلام لم يشمل سائر العلوم . فقد كانت آفاق الرشيد الفكرية تمتد امتداد العلم المعروف آنذاك ، فتهيّيء التربة الخصبة لنمو هذه العلوم وازدهارها ، وتهيّيء لها المناخ الملائم مع الكثير من التشجيع والتوجيه . ويبدو أن الحركة العلمية الحقيقية بدأت ، بشكلها الجدّي ، أيام الرشيد ، فعرفت حينها أقطاباً كباراً لها أمدّوها بالغزير من مؤلفاتهم كما ساعدوا على إغنائها بالكثير من ترجماتهم . وفي مقدّمة هؤلاء الأقطاب نذكر جابر بن حيّان[3]

---

1 نقلنا هذا المقطع المعبر ، مع أنه لم يكتب عن الرشيد ، لقناعتنا بأنه ينطبق ، إلى حد كبير ، على بلاطه وأيامه .

2 Le Siècle de Louis XIV, p 21.

3 جابر بن حيّان كان من كبار العلماء المؤلفين في عدة ميادين منها الفلسفة والحيل والمنطق والزيج والطب والهندسة والمرايا وآلات الحرب . وقد ألّف للبرامكة كتاب «أسطقس» الأس الأول والثاني والثالث . وقد عمل في صناعة

وقسطا بن لوقا[1] والكندي[2] . وفي أيام الرشيد تبلورت حركة الترجمة وأخذت الطابع الرسمي بعد أن أغناها ما حُمل إلى بغداد من كتب الطب والنجوم والحكمة والعلوم الأخرى مع الغنائم التي أخذت «من أنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم»[3] ، إثر الغزوات التي كان يقوم بها الرشيد . وتجدر الإشارة هنا إلى أن القاعدة المعروفة «الناس على دين ملوكهم» جعلت اهتمام الكثيرين من الأمراء وعليّة القوم والموسرين ينصبّ في اتجاه اهتمامات الرشيد التي أذكاها وأجّجها ، بلا شك ، تأثير البرامكة فيه . فتوسّعت حركة الترجمة والتأليف والنسخ ، كما توسّعت من قبل حركة اللغة والأدب . . . ومثلما رعت القصور والدور الأدباءَ والرواةَ واستقطبت الكثير من إنتاجهم وتنافست على حمايتهم ، كذلك كان الأمر مع المترجمين والمؤلفين في الفلسفة والعلوم . هكذا ، وبمقابل يوحنا بن ماسويه والحجّاج بن يوسف بن مطر والفضل بن نوبخت وعلان الشعوبي وسهل بن هارون ، الذين نقلوا ونسخوا للرشيد ، كان للبرامكة نَسَخَتهم ونقلتهم ومؤلفوهم خاصة ، منهم مثلاً سلاّم الأبرش الذي «يوجد بنقله ، السماع الطبيعي»[4] . ولمحمد بن خالد بن برمك فسّر أيوب وسمعان زيج بطليموس[5] . وللبرامكة كان ابن دهن ينقل من اللسان الهندي إلى العربي[6] . وخاض أمراء الهاشميّين هذا الميدان : فكان داريشوع يفسّر لإسحاق بن سليمان بن علي الهاشمي[7] . وكان في

= الذهب والفضة . «كان يدبّر أكسير الكوفة لصحّة هوائها» أيام المهدي (وكأن علم البيئة وتنقيتها من التلوث ، الذي يشغل العالم اليوم ، وجد بزرة له عند ابن حيان) أما انقطاعه فكان إلى جعفر البرمكي ، وقيل إلى جعفر الصادق العلوي (الفهرست ص 355) .

1 قسطا بن لوقا البعلبكي كان بارعاً في علوم كثيرة منها الطب والفلسفة والهندسة والأعداد والموسيقى . أجاب أبا عيسى المنجم عن رسالته في نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، وعمل «الفردوس في التاريخ» . نقل أشياء وأصلح نقولاً كثيرة . عاصر يعقوب بن إسحاق الكندي . (أخبار الحكماء ص 173 والفهرست ص 250) .

2 هو يعقوب بن إسحاق بن الصباح . «اشتهر في الملّة الإسلامية بالتبحّر في فنون الحكمة اليونانية والفارسية والهندية ، متخصّص بأحكام النجوم وأحكام سائر العلوم ، فيلسوف العرب وأحد أبناء ملوكها . كان أبوه أميراً على الكوفة للمهدي والرشيد» (أخبار الحكماء ص 239) وكان منجم الرشيد والمأمون . وله كتاب الجفر (مقدّمة ابن خلدون ج 2 ص 772) انتقل إلى بغداد واشتغل بعلوم الفلسفة جميعها وحلّ مشكلات كتب الأوائل وحذا حذو أرسطوطاليس . وصنّف الكتب الجليلة الجمّة . (سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ص 231) (وانظر ترجمة له واسم مؤلفاته في الفهرست ص 256 وما بعد) .

3 أخبار الحكماء ص 249 .

4 الفهرست ص 243 .

5 المصدر نفسه ص 244 .

6 المصدر نفسه ص 245 .

7 المصدر نفسه ص 244 .

جملته أيضاً : منكه الهندي ينقل له من الهندية إلى العربية[1] . هذا فضلاً عن أسر موسرة اشتهرت باهتمامها بالترجمة والإنفاق عليها وعلى المترجمين شأن أسرة بني شاكر المنجم[2] . . . . ولما كان هذا الموضوع واسعاً متشعّباً ، أُلّفت فيه الكتب الكثيرة ، فإن ما يهمّنا منه مجرّد إشارة تكمل صورة الأجواء التي عايشها الرشيد . فالأدب هو جزء من الثقافة والفكر لا ينفصل عنهما . ونحن نحاول تركيز إشارتنا هذه في النقاط التالية :

أولاً : الطابع المؤسسي لحركة النقل والترجمة والتأليف

وهذا الطابع هو الذي يعطي قيمة لمساهمة الرشيد في الحركة . فقد أسّس الرشيد بيت الحكمة أو دار الحكمة أو خزانة الحكمة ، وجعلها مركزاً للترجمة والتأليف والنسخ . ولّما كان البلاط الملكي نموذجاً يحتذى ، وكان بين الأمراء والوجهاء من بلغت ثرواتهم مبلغاً يجعلهم يعيشون عيش الملوك ، فإن المبادرات الملكية كانت دائماً تُقتبس ويكون لها أصداء في القصور والدور الأخرى . ونحن نعتقد أن ظاهرة خزانة الحكمة لم تبق وقفاً على بلاط الرشيد ، بل غدت لوناً معروفاً في القصور الأخرى ، شأن مجالس الأدب والغناء ورعاية المترجمين ؛ وكان من الطبيعي أن يتنافس أصحاب تلك القصور في إنشائها وتجهيزها وإغنائها . ومع أن الأخبار عن هذه المؤسسة محدودة ومختصرة ، فإن استقراءها بتمعّن يؤكّد ما ذهبنا إليه من أنّ الرشيد كان عنده بيت حكمة ، والبرامكة كان لهم بيت أيضاً[3] ، ولا نستبعد أن يكون لإسحاق بن سليمان بن علي الهاشمي بيت حكمة أيضاً ، ولآخرين سواه[4] . ويقول ابن النديم إن عليّاً بن المنجم «اتصل بالفتح بن خاقان[5] وعمل له خزانة حكمة نقل إليها من كتبه ، ومما استكتبه ، أكثر مما اشتملت عليه خزانة حكمة قط»[6] . والإشارة في هذا الخبر واضحة جداً ، سواء على صعيد تعدّد خزائن الحكمة وانتشارها ، أو على صعيد التنافس القائم بين أصحابها ، تماماً كما كان التنافس قائماً على صعيد المجالس الأدبية ومجالس الترفيه .

---

1 الفهرست ص 245 .

2 ممن التحق بهم كان حبيش بن الحسن وثابت بن قرة ؛ فأجروا عليهم خمسمئة دينار في الشهر للنقل والملازمة . وقد «بذلوا الرغائب وأنفذوا حنين بن إسحاق وغيره إلى بلد الروم ، فجاؤوهم بالطرائف» (الفهرست ص 243) .

3 يقول ابن النديم عن علاّن الشعوبي إنه «كان منقطعاً إلى البرامكة . وكان ينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة» . (الفهرست ص 105) .

4 إذا كان لإسحاق مفسّر هو داريشوع ونقلة منهم منكه الهندي ، وكان يقتني الكتب ويهتم بالترجمات فمن الطبيعي أن تكون عنده مقوّمات إنشاء خزانة حكمة . وكذلك آل المنجم . فإذا كان أحدهم وهو عليّ قد عمل خزانة الحكمة لابن خاقان وأمدّها بكتب من عنده ومما استكتبه فلماذا لا يكون عندهم ، هم أيضاً ، خزانة حكمة ؟

5 «من أولاد الملوك ، أتخذه المتوكل أخاً وكان يقدّمه على سائر ولده وأهله» وقتل بالسيف مع المتوكّل (الفهرست ص116) .

6 المصدر نفسه ص 143 .

ونحاول الآن ، من استقراء الأخبار القليلة ، تحديد الأعمال والمسؤوليات في بيت الحكمة ؛ وتتلخّص مهمّاتها في حفظ الكتب والتفسير والنقل والضبط والاستنساخ والتأليف . فهي إذن مؤسسة تأليف وترجمة ونشر إلى جانب حفظ المؤلفات النادرة التي تطالها يد مالكها . وعلى هذا يكون أولُ أدوار هذه المؤسسة وأبسطها البحثَ عن الكتب القيّمة واقتناءها وخزنها فيها . وقد سُجّل لغير مسؤول فيها رحلة وراء كتب العلم . وإن لم تصلنا أخبار من هذا النوع عن أيام الرشيد ، فقد وصلنا عن أيام المأمون خبر سفارة شهيرة وجّهها إلى أمبراطور الروم لحمل الكتب إلى بغداد . وكان من جملة أفراد البعثة : الحجّاج بن مطر وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة . وقد «أخذوا مما وجدوا ما اختاروا»[1] . والدور الثاني لهذه المؤسسة هو القيام بالنقل إلى العربية ، لذلك كان يلحق بها مترجمون وكتّاب يساعدونهم ، كما يلحق بها نسّاخ . فالرشيد وضع يوحنا بن ماسويه «أميناً على الترجمة ورتّب له كتّاباً حذاقاً يكتبون بين يديه»[2] . أما الدور الثالث فهو التأليف . ويبدو أن بعض المختصين بالتأليف كانوا ينقطعون إلى خزانة حكمة يخصونها بكامل إنتاجهم ، شأن المؤلف المتعاقد مع دار نشر لا يتعامل مع سواها . هكذا كان الخوارزمي ، مثلاً ، منقطعاً إلى خزانة الحكمة للمأمون»[3] ، ومعظم مؤلفاته في الهيئة ، (ولم يذكر له ترجمات) . . . أما المسؤوليات في خزانة الحكمة فترتبط بتوزيع الأدوار . فالمسؤول الأول هو القيّم على الخزانة[4] ، أو هو صاحبها[5] . ومن الصعب تحديد مهمّة هذا المسؤول بالضبط ، وإن كنّا نعرف أنه يساهم في اختيار الكتب التي تحمل إليها ، وقد يقوم بدور في الترجمات داخلها ، إنما لا يُلزَم ذلك . فسهل بن هارون مثلاً ليس في مؤلفاته ترجمات لكتب الفلسفة والعلوم ؛ ليس فيها إلاّ أدب وقصص بعضها مقتبس عن الفارسية . وسعيد بن هارون ، شريك سهل في بيت الحكمة له مؤلفات في الحكمة ولا يذكر له ترجمات ، بينما كان لسلم صاحب بيت الحكمة نقول من الفارسية إلى العربية ، ومثله كان للفضل بن نوبخت . ونسجّل هنا وقفة استغراب أمام وظيفة مسؤول يذكر لها ثلاثة موظفين في آن واحد[6] . ويمكن أن نتصوّر دور صاحب الخزانة بمزيد من الوضوح في الخبر التالي يوافينا به ابن النديم . فحين أراد يحيى بن خالد إخراج كتاب

1 الفهرست ص 243 .

2 أخبار الحكماء ص 249 .

3 الفهرست ص 274 .

4 «الفضل بن نوبخت ، كان في زمن هارون الرشيد وولاّه القيام بخزانة كتب الحكمة» (أخبار الحكماء 168) .

5 سهل بن هارون «صاحب خزانة الحكمة» (الفهرست 120) وسلم «صاحب بيت الحكمة» (المصدر السابق) .

6 ابن النديم في الفهرست ص 120 يذكر سهل بن هارون على أنه «صاحب خزانة الحكمة» وسعيد بن هارون على أنه «شريك سهل بن هارون في بيت الحكمة» . وسلما «صاحب بيت الحكمة . مع سهل بن هارون» .

المجسطي إلى العربية ، ولم يعجبه النقل الأول له ، استعان بشخصين : واحد اسمه أبو حسّان والثاني هو سلم صاحب بيت الحكمة . وهذان لم ينقلا الكتاب بنفسهما بل «أحضرا النقلة المجوّدين ، فاختبرا نقلهم ، وأخذا بأفصحه وأصحّه ، فأتقناه واجتهدا في تصحيحه» [1] . . . هكذا كان دور المسؤول الأول في الإشراف والتوجيه . وكان إلى جانبه مترجمون . ويبدو أن المترجمين لم يكونوا يلحقون بالمؤسسة بشكل دائم وانصراف تام ، فأحياناً يُختار المترجم بحسب الطلب والحاجة . والأخبار لم تذكر تراجمة ملحقين ، إلاّ أن يكون صاحب الخزانة مؤهّلاً لهذه المهمة . والأمر نفسه يقال عن الناسخ الذي قد يعمل في غير خزانة واحدة كعلاّن الشعوبي الذي يظهر ، في الخبر الذي نقلناه سابقاً ، ناسخاً في بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة [2] وقد يكون بيت الحكمة الخاص بالرشيد هو الذي تحوّل إلى المأمون ، إنما بيت حكمة البرامكة أمر آخر . . وعلى كل حال ، فالموضوع يحتمل مزيداً من البحث والاستقصاء [3] .

ثانياً : الطابع المؤسسي للحركة الطبّية

يتجلّى ذلك في إنشاء البيمارستانات . والمعروف عن جنديسابور أنها كانت مركزاً طبّياً كبيراً منذ عهد سابور بن أزدشير . وكان فيها بيمارستان مشهور أيام الرشيد [4] . لكن الاستعانة بالطب ظلّت ، في بغداد وسواها ، تعتمد على الطبيب الخاص والصيدلاني والعطّار والمشعوذ . وكان الخليفة أو الأمراء ، إذا اعتراهم داء لم يشفه أطبّاؤهم المرافقون لهم ، استدعوا طبيباً مشهوراً من أقاصي الأرض ، وبقي الأمر كذلك إلى أن ارتأى الرشيد إقامة بيمارستان في بغداد [5] . ذكر القفطي عن لسان جبرائيل بن بختيشوع قوله : «الرشيد أمرني باتخاذ بيمارستان . فأحضرت «دهشتك» من بيمارستان جنديسابور لأقلده في البيمارستان الذي أمر الرشيد باتخاذه . فامتنع من ذلك . . .» [6] ثمّ نصحه «دهشتك» باستخدام أحد الصبيان الذين يعملون في الأدوية منذ مدّة فيضمّه إلى طبيب

---

1 الفهرست ص 268 .

2 الفهرست ص 105 والعبارة قد تعني عمله في غير خزانة أو وجوده في خزانة الحكمة الرسمية وتلبيته طلبات النسخ التي ترد عليه من الخارج .

3 يمكن أن يراجع في هذا الموضوع : أحمد أمين في ضحى الإسلام ج 2 ص 61 و62 وكذلك : Encyclopédie de l'Islam, Paris, 1960, p. 1175 .

4 أخبار الحكماء ص 93 .

5 يقول دومينيك سورديل : «راح بعض الخلفاء ، كالرشيد مثلاً ، يجتذبون إلى بغداد أطبّاء نصارى من المركز الفارسي جنديسابور ، وقاموا بإنشاء مستشفى في العاصمة كان ، بلا شك ، أول مؤسسة من هذا النوع في العالم العربي» . Arabica p. 264, Volume Spécial BAGDAD, Leiden 1962 . «وكان هذا المستشفى الأول في بغداد ، على معبر كرخايا في الضاحية الجنوبية الغربية» Encyclopédie de l'Islam, Paris 1975, p. 1259 .

6 أخبار الحكماء ص 251 .

من تلاميذه يقلّده البيمارستان . وتمّ ذلك بالفعل . وكان الصبي المذكور هو ماسويه[1] . ويجدر بنا التساؤل عن طبيعة مهمّة هذا البيمارستان : هل هو مجرّد مستشفى عام أو هو مؤسسة طبيّة متكاملة ؟ والواقع أنه ، إذا أقيم على نمط بيمارستان جنديسابور ، كما تقول الأخبار ، يكون مستشفى للعلاج ومركزاً لتحضير الأدوية ومدرسة طبّية تخرّج الأطباء[2] . فيبدو أقرب ما يكون إلى جامعة طبيّة من جامعات هذه الأيام . ولا شكّ في أن هذا المستشفى كان عاماً لأن للخاصة أطبّاءهم ، كما أسلفنا ، إنما هذا لا يمنع أحدهم من أن يطلب طبيباً من البيمارستان لمعالجته في القصر . ويبدو أن هناك فرقاً بين هذا البيمارستان والآخر في جنديسابور . فنرجّح أن بيمارستان بغداد كان مجانيًّا»[3] بينما قال «دهشتك» رئيس أطبّاء جنديسابور لجبرائيل «إنه ليس للسلطان عنده أرزاق جارية»[4] مؤكّداً ، بذلك ، استقلالية ذلك البيمارستان . فلم يكن تابعاً للدولة ، ولم يكن أطبّاؤه يتناولون راتباً منها . إنما كانوا يقومون بالعمل «حسبة»[5] . ونفهم من ذلك أنهم كانوا يتناولون الأجر ممن يعالجونهم . . والسؤال الآن هو : هل بقي البيمارستان ، الذي أسّسه الرشيد ، الوحيد في بغداد أو أن المنافسة بين أصحاب الدور والقصور ، التي قامت على مستوى المجالس الأدبية والترفيهية ، ثمّ على مستوى رعاية الترجمات وإقامة خزانة للمؤلفات ، قد امتدت إلى ميدان الطب وإنشاء البيمارستانات ؟ الواقع أننا التقطنا إشارة تذكر بيمارستانا للبرامكة . فيقول ابن النديم ، متحدّثاً عن ابن دهن الهندي : «وكان إليه بيمارستان البرامكة ، نقل إلى العربي من اللسان الهندي»[6] ؛ وهذا ما يجعلنا نذهب إلى أن البيمارستان كان يوازي خزانة الحكمة من حيث مهمة التأليف والترجمة والتفسير والنسخ ، إنما كان مختّصاً بالميدان الطبّي . ولابن النديم كلمة عن «كتاب سيسرد» فقد «أمر يحيى بتفسيره لمنكه الهندي في البيمارستان»[7] . وحين ذكر كتاب «سند ستاق» . قال : «معناه كتاب صفوة النجم ، تفسير ابن دهن صاحب البيمارستان»[8] .

ثالثاً : ازدهار صناعة الورق

قبل عصر الرشيد ، كان الرّق هو المستعمل لكتابة القرآن «لطول بقائه ، أو لأنه موجود

---

1 أخبار الحكماء ص 251 .

2 المصدر نفسه ص 93 .

3 نقول ذلك قياساً على مبادرة عرفت عن الوليد بن عبدالملك إذ بنى مستشفى أقام فيه أطبّاء أجرى عليهم رواتب . انظر مادة بيمارستان في دائرة المعارف الإسلامية المذكورة أعلاه .

4 أخبار الحكماء ص 251 .

5 المصدر نفسه .

6 الفهرست ص 245 .

7 المصدر نفسه ص 303 .

8 المصدر نفسه .

عندهم حينئذ . وبقي الناس على ذلك إلى أن ولي الرشيد الخلافة . وقد كثر الورق وفشا عمله بين الناس ، فأمر ألاّ يكتب الناس إلاّ في الكاغد لأن الجلود ونحوها تقبل المحو والإعادة ، فتقبل التزوير ، بخلاف الورق ، فإنه متى محي فسد وإن كشط ظهر كشطه»[1] . ويقول ابن خلدون : «كانت السجلاّت أولاً لاستنساخ العلوم وكتب الرسائل السلطانية والاقطاعات والصكوك في الرقوق المهيّأة بالصناعة من الجلد ، لكثرة الرفْه وقلّة التآليف ، صدرَ الملة ، كما نذكره ، وقلّة الرسائل السلطانية والصكوك مع ذلك . فاقتصروا على الكتابة في الرِّق ، تشريفاً للمكتوبات وميلاً بها إلى الصحة والاتقان»[2] . كما ينسب ابن خلدون صناعة الورق إلى الفضل بن يحيى فيقول : «. . . ثم طما بحر التأليف والتدوين ، وكثر ترسيل رسائل السلطان وصكوكه ، وضاق الرق عن ذلك ، فأشار الفضل بن يحيى بصناعة الكاغد ، وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه ، واتخذه الناس من بعده صحفاً لمكتوباتهم السلطانية والعلمية ، وبلغت الإجادة في صناعته ما شاءت»[3] . وإلى ذلك يشير هاملتون جب بقوله : «وما حلّت أواخر القرن الثاني حتى وجد الورق بكثرة ورخص الثمن»[4] . أما مصدر صناعة الورق فيبدو أنه الصين عن طريق أسرى وقعوا في أيدي العرب في عام (133هـ)[5] . ومع كل ما قدّمناه ليس لدينا تفاصيل عن مؤسسات صناعة الورق وعن مالكيها وعمّا إذا كان للدولة أو للرشيد بالذات مصانع ، أو أن الصناعة كانت حرّة ودور الدولة في ذلك كان التشجيع واستهلاك الإنتاج في الرسائل والمؤلفات . وأياً كان واقعها ، فإن للرشيد يداً في عملية الازدهار التي تسجّل لعصره ، سواء أعطى الأوامر هو شخصياً أو أعطاها وزيره ابن يحيى البرمكي . ونحن لن نتحدّث عن أهميّة انتشار الورق في الحركة الثقافية فذلك واضح للعيان يعرفه الخاص والعام . وقد سبقت إشارة لنا إلى الدور الذي لعبته دكاكين الورّاقين إذ غدت خزائن للكتب والمراجع الأدبية وملقى للشعراء والأدباء . ونكتفي هنا بالقول إن انتشار صناعة الورق ، لأول مرة في الشرق العربي ، وبهذا الشكل ، وضع الثقافة على مفترق طرق ، فسهّل النسخ والتداول ، وجعل العلم والمعرفة في متناول معظم الناس .

رابعاً : رعاية حركة التأليف واستقطابها

لا شكّ في أن العملية التطوّرية في البحث العلمي والاستقصاء العقلاني تأخذ أبعادها ، بشكل طبيعي ، على مرّ السنين والأيام ، معتمدة تدرّج الخبرات التي تحصل عليها الشعوب في حياتها

---

1 القلقشندي ـ صبح الأعشى ج 2 ص 475 .

2 المقدمة ج 3 ص 962 .

3 المقدمة ج 3 ص 962 .

4 دراسات في حضارة الإسلام ص 296 .

5 مصادر الشعر الجاهلي ص 88 .

تلبية لحاجاتها وتحقيقاً لتصوّراتها . ولا شك ، أيضاً ، في أن احتكاك الشعب بشعب آخر ، سبقت له تجربة ثقافية وعلمية متقدّمة ، يختصر الكثير من مراحل التطوّر الطبيعي ويؤدي إلى قفزة تكبر أو تصغر . ولا شك ، أخيراً ، في أن الجهود العلمية تحتاج إلى الكثير من النفقات لتأمين مادة المعرفة والتجربة والقياس ، ولضمان عيش المشتغلين بها وانصرافهم إلى البحث والتأليف ، حتى تصبح مهمّة التمويل من مسؤوليات الدولة الغنيّة حين تبلغ البحوث مرحلة متطوّرة جداً ، كما نشهد في أيامنا . ولقد اهتمّ الرشيد شأن غيره من الخلفاء برعاية الحركات العلمية ، وساهم ، مع وزرائه والأمراء ، في إحداث نقلة تطوّرية بما بذلوا لها من أعطيات سهّلت عملية الانصراف إلى العلم والبحث . ولكننا نلاحظ أن ذلك كان يتم بمبادرات شخصيّة ، من الرشيد والوزراء والأمراء ، مبادرات بعيدة عن أن تكون اهتماماً حكومياً رسمياً يرصد المال ويرعى النتائج وفق مصالح الأمة . حتى التوجيه الذي كان الرشيد أو سواه يعطيه للحركة بقي توجيهاً شخصياً يلائم ذوقه وأهواءه ، وليس توجيهاً مدروساً مبنيًّا على تقدير الحاجات . وقد يكون العذر في ذلك أن العصر كان يغرف من مادة وجدت قبله ، لا يعرف مدى عمقها ، ولا يقدّر مضمونها ، بل يكتشف منها ما تقع يده عليه . فالانتقاء ظلّ تلمّساً عشوائياً ، وكان عليه أن يبقى كذلك فترة طويلة قبل أن يتحوّل إلى منهج مدروس . ولذلك فإننا نعتقد أن الاهتمام بالحركة ، لو اقتصر على الرشيد ، لما كان كافياً لرعايتها وإعطائها الأبعاد التي اتخذتها ، والتي إنما وصلت إليها نتيجة اتفاق ذوي الشأن والجاه والمال ، بشكل عفوي ، أو بسبب المنافسة ، على دعم الحركة الأدبية العلمية الثقافية . وهذا يعطينا صورة عن مستوى الثقافة التي باتت منتشرة بين الناس من جميع الطبقات في ذلك العصر . لقد كان لهذه الثقافة جنود وقوّاد ، وجميعهم يعملون لها عن قناعة وقصد . فهؤلاء الذين رعوا المترجمين ، إنما فعلوا ذلك ليحصلوا على الكتب المترجمة ويعبّوا من معين علومها ومعارفها . وهؤلاء الذين دعموا المؤلفين فإنهم لم يفعلوا ذلك لمجرّد اقتناء الكتب والمؤلفات بل لأنهم كانوا يهتمّون بموضوعاتها ويحسون حاجة إلى معلوماتها . هكذا ، وكما كان لكل منهم شعراؤه ومغنّوه ومترجموه وأطباؤه كان له مؤلفون يوجّههم ويرعاهم ويثيبهم ، ويغدو ، أحياناً موضوعاً لبعض كتبهم[1] . ولعلّ وصف «العروس» الذي كان يطلق على أيام

1 إذا تتبّعنا أخبار المؤلفات التي زخر بها العصر والتي يعد «الفهرست» مرجعها الأول والأشمل ، نجد أن بعض هذه المؤلفات كتبت خصّيصاً للرشيد ، هذا فضلاً عن المؤلفات القصصية أو العلمية التي تؤلف بإشرافه أو تهدى إليه ليثيب عليها . كما نجد أن هذه العملية لم تكن وقفاً عليه . فقد كان البرامكة يثيبون أصحاب المؤلفات والمترجمين ، كما وجهت إليهم مؤلفات ، شأنهم في ذلك شأن الرشيد ، من جهة ، وشأن الكثيرين من شخصيّات المجتمع ، من جهة أخرى . ويبدو أن معظم المؤلفات التي وجهت إلى الخليفة والوزراء كانت تستلهم الحكمة الفارسية والهندية لتلفت نظر المسؤول الحاكم إلى أخطاء يرتكبها دون أن يدري ، ولكي ترسخ في نفسه أساليب العدل والاهتمام بالرعية . هكذا نسجّل ، فيما أهدي للرشيد ، كتاب الخراج الذي ألّفه أبو يوسف القاضي مفصّلاً فيه ما غمض من

الرشيد يعود إلى هذه الأنوار الزاهية التي كانت تنبعث من كل ركن في العاصمة والملحقات ، دون أن تكون وقفاً على قصر الخلد أو قصر السلام . وكأن الدور والقصور ، في هذه الحقبة ، بالنخبة التي شكّلها أصحابها ، وبالنخبة التي أمّتها من الأدباء والمؤلفين والمترجمين ، «صالونات» القرن السابع عشر في فرنسا ، تتخاطف الشعراء والمفكّرين وتزهو بإنتاج من ينتمي إليها منهم ، وفوقها جميعاً البلاط الملكي ، مطمح الآمال ومحط الأنظار .

= موضوع الخراج الشائك المتفرع ، مقدّماً له بنصائح في سياسة الحاكم نتناولها في حينها . ونسجّل كذلك كتاب عظة هارون الرشيد لمحمد بن الليث (الفهرست ص 315 وص 120) ورسالة مالك ابن أنس إلى الرشيد (المصدر نفسه ص 199) . ونضيف كتباً أخرى ، إن لم يذكر فيها اسم الرشيد ، صراحة ، فالاحتمال كبير أن تكون ألّفت له ، ولا فائدة منها ترجى في غير ذلك . منها كتاب «آداب السلطان» للمدائني (الفهرست ص 102) وكتاب «فنون الحكم» لكلثوم العتابي (المصدر نفسه ص 121) . . . أما البرامكة فكان دورهم يضاهي دور الرشيد ، إن لم يفقه نظراً لعددهم وثقافتهم وحوافزهم . فقد ألّف محمد بن الليث كتاب «يحيى بن خالد في الأدب» (المصدر نفسه ص 120) وألّف ليحيى «كتاب في العطر» (المرجع السابق ص 317) وعمل له أبو علي الخياط «كتاب المنثور» (المصدر نفسه ص 274) . ثمّ ألّف أبو محمد اليزيدي «كتاباً في النوادر» ، لجعفر بن يحيى (المرجع السابق ص 51) وألّف له جابر بن حيّان «كتاب أغراض الصنعة» (المصدر نفسه ص 356) . وإذا تتبعنا قليلاً أعمال جابر بن حيّان نجده يؤلف لغير واحد من الوجهاء . . فله مثلاً كتاب إلى علي بن يقطين وكتاب إلى علي بن إسحاق البرمكي وكتاب تليين الحجارة إلى منصور بن أحمد البرمكي . . . (المصدر نفسه ص 356) . ونحن لم نحاول إحصاء المؤلفات الموجهة إلى الرشيد والأمراء ، ولكننا أردنا إعطاء لمحة قد تكون معبّرة .

الفصل الثاني
دور الرشيد في تنشيط الحركة الأدبية

«كان لا يضيع عنده إحسان محسن ، ولا يؤخر ذلك في أول ما يجب ثوابه .
«وكان يحب الشعر ويميل إلى أهل الأدب والفقه .
«وكان يحب المديح ، لا سيّما من شاعر فصيح ، ويشتريه بالثمن الغالي»[1] .

الطبري

تمهيد

إذا كان الرشيد قد شارك في رعاية الحركة العلمية الثقافية ، فلأن هذه الحركة كانت قد انطلقت بقوّة وعنف وغدت طابع العصر ، ومجرى لا يمكن لمثقّف أن يستنكف عن النهل منه . لكن الرشيد لم يكن هو باعث هذه الحركة ، ولم يكن راعيها الوحيد ، كما سبق القول ، فهو لم يثقّف ، منذ صغره ، بمبادئها ولم يترعرع على اجتناء متعتها . لذلك كان اهتمامه بها ، في رأينا ، حادثاً وجديداً ، فلم يتأصّل تأثيرها في نفسه ، شأن تأثيرالأدب . فعلاقته بالأدب حميمة إلى أقصى حد ، واهتمامه به لم يكن له حدود ، يدعمه الحافز والهدف واللذة ، عايشها مذ كان حدثاً صغيراً . ولقد سبق لنا أن درسنا مساهمة الرشيد في الإنتاج الأدبي وتحدّثنا عن استمتاعه بهذا النتاج واستقطابه لجزء كبير منه . ونودّ هنا أن ندرس دوره المنشط لذلك الإنتاج ، المتمثّل في الدفع الذي أعطاه للتيار الأدبي ، والتوجيه الذي حباه به محدداً له سرعة اندفاعه وخط سيره . وفي رأينا أن هذا الدور ذو شقّين : أولهما مباشر يبدو فيه الرشيد راعياً للأدب ، مشجّعاً للأدباء بما أبداه من اهتمام وبما أغدقه عليهم من ثواب ، مستدرًّا منهم بدائع الفن المتكَسّب . وثانيهما غير مباشر كانت فيه شخصية الرشيد ، بما اعتراها من تناقض النوازع ، تارة تُقبل على ملذات الدنيا وطوراً تسعى إلى نعيم الآخرة ، هدفاً لألسنة الزهّاد والوعّاظ تتدفّق بمقاطع أدبية من نوع خاص ، ممّا أدّى إلى ازدهار أدب الزهد حوله بشكل لم يعرفه خليفة آخر . ونحن في هذا الفصل القصير نحاول تحديد المظاهـرالتي تبرز الرشيد مهيمناً على جزء من معالم العصر الأدبية ، ثمّ نعمد بعد ذلك ، في فصل تال ، إلى دراسة أثر الرشيد المباشر في دعم اتجاه الأدب وجهة التكّسب ، تاركين لفصل أخير دراسة أدب الزهد في حياة الرشيد .

أما عن تشجيع الرشيد للأدباء ، فقد سار فيه على خطى كثيرين من الملوك قبله . إن جميع البلاطات العربية ، قبل الإسلام وبعده ، عرفت الأداة الأدبية كما عرفت الأداة الحربية واستخدمتهما متصاحبتين متوازيتين وفي الآن نفسه ، لم تغفل عن التعرف على الأدب كوسيلة

---

1 تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 347 .

متعة وتسلية راقية ، أو مقدّمة لحاجة تُطلب من صاحب الأمر . وقد رأينا هذا الاهتمام من الرشيد في نواح متعدّدة من بحثنا ، لكننا نريد هنا أن نؤكد أن الرشيد تجاوز هذه الحدود في تعامله مع الأدب وفي تطلبه له ، حتى وصلتنا روايات عن تحريضه الشعراء على قول الشعر ، وتحريضه رجال بلاطه على إثابة من يقولون فيهم مدحاً ، وعن حمايته العاملين في الحقل الأدبي بإجراء الأرزاق عليهم ، وعن مكافآت فاقت حد الوصف وباتت باباً من أبواب الغنى والثروة التي تهبط فجأة من السماء . وذلك ما يعبّر عنه أبو نواس في قوله :

سأبغي الغنى ، **إما نَديمَ خليفةٍ** يُقيمُ سَواءً ، أو مُخيفَ سبيلِ

أولاً : تسقط الأدب وتشجيع الشعراء

قلنا إن الرشيد كان ، حسب بعض الروايات ، يحرّض على قول الشعر ويشجّع من يقوله على تجويده . فدعبل الخزاعي كان ، أول نشأته ، مغموراً فقيراً «ينام في إزار مسلم بن الوليد» أستاذه . وبقي كذلك وهو في محاولاته الشعرية البدائية إلى أن قال :

لا تَعجَبي ، يا سَلْمُ ، من رَجُلٍ ضَحِكَ المَشيبُ برأسِهِ فَبَكَى

وغنّى فيه بعض المغنّين وشاع حتى وصل إلى سمع الرشيد . فطرب له «وسأل عن قائل الشعر ، فقيل له : غلام نشأ من خزاعة ، يقال له دعبل بن علي ، فأمر بإحضار عشرة آلاف درهم وخلعة من ثيابه . . . فدفعه مع مركب من مراكبه إلى خادم من خاصته وقال له : اذهب بهذا إلى خزاعة فأسأل عن دعبل بن علي . فإذا دُللت عليه ، فأعطه هذا وقل له : ليحضر إن شاء ، وإن لم يحب فدعه . . . فصار إلى دعبل وأعطاه الجائزة وأشار عليه بالمصير إليه . فلمّا دخل عليه وسلّم ، أمره بالجلوس ، فجلس . واستنشده الشعر فأنشده إياه . فاستحسنه وأمره بملازمته وأجرى عليه رزقاً سنياً . فكان أول من حرّضه على قول الشعر»[1] . ويروي القالي عن الأصمعي أنه حدّث الرشيد عن غلام شاعر ظريف ، صاحب إنشاد جيد ، وأسمعه أبياته فقال : «وددت ، يا أصمعي ، أن لو رأيت هذا الغلام فكنت أبلّغه أعلى المراتب»[2] . وكذلك يروي الأصمعي قصّة معبّرة عن مدى اهتمام الرشيد بالشعر والمتعاملين به ، واكتشاف المواهب الجديدة ، يقول : «لما قدم الرشيد

---

1 ويبدو أن دعبل الخزاعي كان ميّالاً إلى الطالبين ، لذلك لم يحبّ الرشيد ولم يستغل الفرصة التي سنحت له ، ولم يلازمه ، بل كان يتحاشاه ويناصبه العداء . يقول الأصفهاني في نهاية الخبر السابق : «. . . فوالله ، ما بلغه أن الرشيد مات حتى كافأه ، على ما فعله من العطاء السني والغنى بعد الفقر والرفعة بعد الخمول ، بأقبح مكافأة . وقال من قصيدة مدح بها آل البيت ، عليهم السلام ، وهجا الرشيد :

قَبرانِ في طوسَ : خيرُ الناس كلّهِمُ وقبرُ شرهِمُ ؟ هذا من العِبَر» .

مشيراً إلى قبر علي الرضا ، وقبر الرشيد . (الأغاني ج 20 ص 137) .

2 أمالي القالي ج 1 ص 61 .

البصرة يريد الخروج إلى مكّة ، خرجت معه . فلمّا صرنا بضريّة ، إذا أنا ، على شفير الوادي ، بصبيّة قدامها قصعة لها . وإذا هي تقول :

طَحَنَتْنا طَواحِــنُ الأعــوامِ وَرَمَتنا نَوائب الأيامِ . . . .

(الأبيات)

قال : فرجعت إلى أمير المؤمنين ، فقلت : صبية على شفير الوادي . وأنشدته ما قالت . فعجب . فقلت : يا أمير المؤمنين ، أفآتيك بها ؟ قال : لا ، بل نذهب إليها . . . فوقف عليها أمير المؤمنين ، فأنشدته ولم تهبه . فقال : يا مسرور ، املأ قصعتها دنانير . . . فملأها حتى فاضت يميناً وشمالاً . . .»[1] .

ثانيا : إكرام العلماء والأدباء وحمايتهم

ونقصد بالحماية أن يشمل برعايته العلماء والأدباء ، فلا يتركهم بحاجة إلى سؤال أحد أو إلى إذلال نفوسهم لسائر الناس ، سعياً وراء معاشهم . ثمّ إنصافهم ممن يتحامل عليهم أو يبخسهم حقهم . وفي هذا المضمار لا بدّ من ذكر حادثة مشهورة جرت بين ربيعة الرقي ، الشاعر ، والعبّاس بن محمد ، عم الرشيد . إذ امتدح ربيعةُ الرقي العبّاس بن محمد بن علي بقصيدة لم يُسبق إليها يقول فيها :

لــو قيــل للعبّاس ، يا ابنَ محمدٍ قل : لا ، وأنت مخلَّدٌ ، ما قالها . . .

(الأبيات)

«فبعث إليه العبّاس بدينارين ، وكان يقدِّر فيها ألفين فلمّا نظر الدينارين كاد يجن غضباً وقال للرسول : خذ الدينارين فهما لك ، على أن تردّ لي الرقعة من حيث لا يدري العبّاس . . . فأخذها ربيعة وأمر من كتب بظهرها :

مدحتُك مِدحــةَ السيف المُحَلّى لِتجـريَ في الكِـرامِ كما جَرَيتُ
فهبْهــا مِدحــةً ذَهَبــتْ ضَياعاً كذبــتُ عليــكَ فيهــا وافتريتُ

ثمّ دفعها إلى الرسول ، فأعادها إلى موضعها . ولمّا قرأها العبّاس غضب وقصد الرشيد شاكياً . وكان الرشيد «يُجلّه ويقدّمه ، وكان قد همّ أن يخطب إليه ابنته» . فأحضر الرشيد ربيعة وصبّ عليه غضبه وتهديده . لكن ربيعة استطاع أن يعرّف الرشيد حقيقة الأمر . فدعا بالقصيدة وقرأها وأبدى إعجابه بها قائلاً : «والله ما قال أحد من الشعراء في أحد من الخلفاء مثلها» . لكنه ، عندما أقرّ له العبّاس بما أثاب عليها الرقي «تغيّر لونه وغصّ بريقه» وغضب غضباً شديداً وقال للعباس : «سَوْءَةٌ لك ! أيـة حـال قعـدت بك عن إثابته ؟ أقلّة مال ؟ فوالله لقد موّلتك جهدي ، أم انقطاع المادة

---

1 ابن الجوزي ــ الأذكياء ــ ص 214 .

عنك ؟ ، فوالله ما انقطعت ، أم أصْلك ؟ ، فهو الأصل الذي لا يدانيه شيء . أم نفْسُك ؟ ، لا ذنْب لي . بل نفسك والله فعلت بك ذلك حتى فضحتَ أجدادك وفضحتَني وفضحتَ نفسك . . . ياغلام ، أعط ربيعة ثلاثين ألف درهم وخلعة . واحمله على بغلة»[1] . ونحن نرى أن السبب الرئيس في ثورة الرشيد على عمه هو بخسه قيمة الشعر وتحقيره الشاعر ، وهذا ما يرفضه . وهو يرفض أيضاً أن يتحامل أحد جلسائه على شاعر يقدّره ، وقد ينبري للدفاع عنه كما فعل مع إسحاق الموصلي الذي كان يتحامل على أبي العتاهية ، تارة[2] ، وعلى أبي نواس ، تارة أخرى[3] . والواقع أنه لا يمكننا الحديث عن حماية الرشيد للأدباء والعلماء وتشجيعهم ، من غير أن نستشف أثراً خفيًّا للبرامكة ، لأنه كان ، في موقفه ، إما معجباً بهم مقلّداً لهم ، وإما منافساً لهم يريد أن يبزّهم ، وهم الأساتذة في فن العطاء وإكرام الشعراء والإحسان إلى جميع الناس : بذلوا بلا حساب ، وأثابوا على مدحٍ لسواهم . ونادراً ما كان الرشيد يثيب شاعراً بحضورهم ولا يثيبونه بعطاء منهم مماثل أو قريب . وقد بالغ جعفر في ذلك حتى روى عنه أنه أعطى مروان بن أبي حفصة ألفاً وستمئة دينار عن مرثيته لمعن بن زائدة ، لأن معناً ، وهو ميت ، لم يستطع إثابته ، ولم يقم بذلك أبناؤه[4] . ولعلّ هذا يفسّر لنا تشبّث الرشيد بإظهار نفسه مشجّعاً للعلم ، حامياً للأدب ، حتى ليخيل إلينا ، أحياناً ، أنه يقوم بتصرّفات مفتعلة يقصد منها أن يروي التاريخ ، وتتناقل الألسن ، تواضعه للعلم . من ذلك ما ذُكر عن صبّه الماء على يدي أبي معاوية الضرير ، مع تنبيهه إلى من يفعل ذلك ، مما جعل الضرير يقول : «يا أمير المؤمنين ، إنما أكرمتَ العلمَ وأجللته ، فأجلّكَ الله وأكرمك ، كما أكرمت العلمَ وأهله»[5] . ومثل ذلك ما روي من تغاضيه عن محمد بن الحسن الفقيه إذ لم يقف له ، مع الواقفين ، أثناء مروره[6] . وحين رفض مالك أن

---

1 طبقات الشعراء لابن المعتز ص 157 والأغاني ج 16 ص 191 . . وشبيه بموقف الرشيد من العبّاس موقفه من يزيد بن مزيد إذ سمع أبياتاً تمتدح يزيد دون أن يقوم هذا بإثابتها . فاستدعاه وسأله عنها وعن قائلها . فأجاب : «والله لا أدري يا أمير المؤمنين . فقال : سبحان الله ! أيقال فيك مثل هذا ولا تدري من قاله ؟ . . .» (الأغاني ج18 ص 319 والمستطرف ج 2 ص 70 وتاريخ بغداد ج 14 ص 334) . . وفي رواية أخرى للأصفهاني ، يرد جواب الرشيد : «سوءة لك من سيد قوم يُمدح بمثل هذا الشعر ولا يعرف قائله ، وقد بلغ أمير المؤمنين فرواه ووصل قائله ، وهو مسلم بن الوليد . . .» (الأغاني ج 18 ص 322) .

2 المصدر نفسه ج 8 ص 374 .

3 المصدر نفسه ج 18 ص 150 .

4 زهر الآداب ج 2 ص 387 ووفيات الأعيان ج 2 ص 565 وفي ذلك يقول مروان مادحاً جعفراً :

نفحتَ مكافئاً عن جودِ معنٍ   لنا فيما تجودُ به سِجالا

5 أسرار الحكماء ص 94 . راجع ص 410 هامش 3 من البحث .

6 (تاريخ بغداد ج 2 ص 173) «ولما اشتدت العلّة على الكسائي بالري جعل الرشيد يدخل عليه ويعوده دائماً» . (الفهرست ص 65) .

يأتيه ليقرأ عليه «الموطّأ» ذهب هو إليه وجلس بين يديه يسمع منه ، وحوله عامة الناس[1] .

ثالثاً : أعطيات الرشيد

هذه الأعطيات غدت مشهورة حتى كادت تكون أحد الأبواب التي دخل منها الرشيد عالم الخيال . فالرشيد أول خليفة جعل أعطياته هبات وجرايات . وهذه الجرايات ، منها ما كان فردياً شخصياً كإجرائه على أبي العتاهية خمسين ألف درهم سنوياً سوى الجوائز والمعاون»[2] . ومنها ما كان عاماً نادر المثال في غير أيامه ، يشمل كل عامل في ميدان العلم والفقه والأدب . وهنا نورد خبراً عن ابن قتيبة يذكر عودة الرشيد إلى بغداد ، بعد حجّه ولقائه الفضيل بن عياض ، فيقول : «كان أول ما ابتدأ فيه النظر أن كتب إلى الأمصار كلها ، وإلى أمراء الأخبار : أما بعد ، فانظروا من التزم الأذان عندكم فاكتبوه في ألف من العطاء . ومن جمع القرآن وأقبل على طلب العلم وعمر مجالس العلم ومقاعد الأدب ، فاكتبوه في ألفي دينار من العطاء . ومن جمع القرآن وروى الحديث وتفقّه في العلم واستبحر ، فاكتبوه في أربعة آلاف دينار من العطاء . وليكن ذلك بامتحان الرجال السابقين لهذا الأمر ، المعروفين به من علماء عصركم وفضلاء دهركم . فاسمعوا قولهم وأطيعوا أمرهم ، فإن الله تعالى يقول : ﴿أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمر منكم﴾ ، وهم أهل العلم . قال ابن المبارك : فما رأيت عالماً ولا قارئاً للقرآن ولا سابقاً للخيرات ، ولا حافظاً للحرمات في أيام ، بعد أيام رسول الله ﷺ وأيام الخلفاء والصحابة ، أكثر منهم في زمن الرشيد وأيامه : لقد كان الغلام يجمع القرآن وهو ابن إحدى عشرة سنة»[3] . ولهذا الخبر ، بلا شك ،

---

1 يقول ابن نباته : «وجه الرشيد إلى مالك ، رضي الله تعالى عنه ، ليأتيه فيحدّثه . فقال مالك : إن العلم يؤتى . فصار الرشيد إلى منزله واستند إلى الجدار . فقال مالك : يا أمير المؤمنين ، من إجلال رسول الله ﷺ ، إجلال العلم . فقام فجلس بين يديه فحدّثه . . . فكان الرشيد يقول : يا مالك ، تواضعنا لعلمك فانتفعنا به . . .» (سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ص 262) وقال ياقوت المستعصمي : «قال مالك رحمة الله عليه : دخلت على هارون الرشيد فقال : يا أبا عبد الله ، نريد أن تختلف إلينا حتى يسمع صبياننا منك . فقلت : أعزّ الله أمير المؤمنين ، إن هذا العلم منكم خرج ، فإن أنتم أعززتموه عزّ ، وإن أذللتموه ذلّ . والعلم يؤتى ولا يأتي . فقال : صدقت . اخرجوا إلى المسجد حتى تسمعوا من الناس» (أسرار الحكماء ص 105) ويقول المستعصمي مرة أخرى : «يحكى أن الرشيد أراد أن يسمع الموطأ من مالك ، رحمة الله عليه ، فاستخلى المجلس ، فقال مالك : إن العلم ، إذا مُنع منه العامة ، لم تنتفع به الخاصة . فأذن للناس فدخلوا» . (المصدر نفسه ص 109) .

2 (الأغاني ج 4 ص 65) ونضيف خبراً عن الجهشياري أن الرشيد سأل رجلاً من آل أبي طالب عن البيعة لأولاده الثلاثة فقال : «يا أمير المؤمنين ، رأيتك أخذت ثلاثة أسياف مشحوذة فجعلتها في غمد واحد . فانظر ما يكون بينها . فأطرق الرشيد مليّاً ثم قال للفضل بن الربيع : يا فضل ، أعطه ثلاثمئة دينار واجعلها دارّة عليه في كل شهر ، باقي عمر أمير المؤمنين» (الوزراء والكتّاب ص 270) .

3 الإمامة والسياسة ج 2 ص 165 .

أهمّيته البالغة لأن صاحبه ، وهو ابن قتيبة ، قد توفي عام 270 أي أنه لحق الجيل الذي عاصر الرشيد والتقى ، حتماً ، بعض هؤلاء الذين كانوا غلماناً أيام هارون ، طلبوا العلم والأدب ونالوا جراياته[1] . وهذا وحده كافٍ ليبين لنا إلى أي مدى كان الرشيد محرّكاً أول لعملية طلب العلم والأدب ، ودافعاً لها لتكون خبزاً يومياً ، بل صناعة يمتهنها الناس وسيلة لكسب المعاش . وهذا الحديث عن الجرايات يستدعي البحث في هبات الرشيد . وكثير منها كان أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة . ولاكتمال الصورة نعرض بعض نماذج لهذه الهبات ، مركّزين على أعطيات غير عادية ، تاركين النماذج العادية لأنه لايمكن إحصاؤها . وهبات الرشيد تكون ، عادة ، على نوعين : نوع يخضع لرسم محدّد ، ونوع لا حدود له إلاّ حالات مزاجه . والرسم المحدود كان لمروان ، وقد سبقت إشارة إلى «نهجه» في مدح العبّاسيين وهجاء العلويين . و«الرسم» الذي جعله له العبّاسيون هو ألف درهم عن كل بيت في القصيدة ، ولم يعرف رسم لسواه . وهذا لا يعني أن مروان لم يصب من جوائز الرشيد الأخرى التي كان يغدقها على الشعراء ، إنما كان له دائماً أفضلية عليهم ، بوصفه شاعر الرشيد خاصة . وتميّز مروان بهبة من أشمل ما صدر عن الرشيد إذ أعطاه «خمسة آلاف دينار ،فقبضها بين يديه ، وكساه خلعته ، وأمر له بعشرة من رقيق الروم ، وحمله على برذون من خاص مراكبه»[2] . وهذه الهبة تعطينا فكرة عمّا كان يعطيه الرشيد : إنه يعطي المال ، دراهم ودنانير ، بكميّات خيالية . فالمعروف أن منصوراً النمري ، حين مدحه بقصيدته الرائية ، بلغ من تأثيره فيه أن قال للفضل بن الربيع «خذ بيد النمري فأدخله بيت المال ودعه يأخذ ما يشاء»[3] . وحين مدحه أشجع السلمي بقصيدته على الجيم قال له : أسأل ما بدا لك . قال : ألف ألف درهم . قال : ادفعوا له . .»[4] وحين مدحه أبو العتاهية مع أولياء عهده بعد البيعة لهم «وصله بصلة ما وصل مثلها شاعراً قط»[5] . وإلى جانب الأموال كان الرشيد يعطي الملابس الفاخرة . ومما يذكر في ذلك أن العماني دخل عليه مرّة فأنشده بيتين فأعطاه خمسة آلاف دينار وخمسين ثوباً[6] . والثياب التي يعطيها الرشيد لم تكن دائماً مجرّد ثياب فخمة . بل هي

---

1 يحدّثنا البغدادي عن جراية أخرى على أهل العلم فيقول : «قدم هارون الكوفة ، فكتب قوماً من القراء وأمر لهم بألفين ألفين» . (تاريخ بغداد ج 9 ص 179) .

2 (الطبري ج 8 ص 349) و(خلاصة الذهب المسبوك ص 111) و(تاريخ الخلفاء ص 285) .

3 (ابن المعتز ـ طبقات الشعراء ص 245) ، ويذكر النمري أنه لم يكن في بيت المال سوى سبع وعشرين بدرة (البدرة تحوي عشرة آلاف درهم) فاحتملها . (وانظر زهر الآداب ج 3 ص 668 وانظر ص 88 هامش 2 من البحث) .

4 طبقات ابن المعتز ص 252 .

5 (الأغاني ج 4 ص 106) وأخذ ابن جامع ، بصوت غنّاه الرشيد عشرة آلاف دينار (المصدر نفسه ج 6 ص 279 و290) .

6 المصدر نفسه ج 18 ص 231 (يا ناعش الجد ، إذا الجد عثر . . . .) .

أحياناً من ثيابه الخاصة[1] ، وأحياناً هي خلعته التي يلبسها ينبذها عنه ويلبس سواها ، ليهبها إلى جليس لامَسَ وَتَراً من نفسه فأحسن العزف عليه[2] . وإلى جانب الثياب ، يعطي الرشيد المراكب والرقيق[3] ، كما يعطي الحلي والجواهر[4] ويعطي البيوت والجواري . يروي ابن جامع قصّة اتصاله بالرشيد لأول مرّة وحصوله منه على ثلاثة آلاف دينار نقداً ثمّ يقول : «فما هو إلا أن نزلتُ عن الأسرّة ، حتى وثب إليّ فرّاشان فأخذ أحدهما بيدي . فمضيا بي ، ولا أدري إلى أين يتوجّهان ، حتى وقفا على باب داري هذه (وكان ابن جامع يأتي بغداد للمرة الأولى ، وهو غريب فيها لا يدري أين يقضي ليله) فإذا أمير المؤمنين قد أمر سَلاّماً الأبرش فابتاع داراً ، وحشاها بالجواري والخدم والوصفاء والفرش والطعام والشراب . ورفع إليّ أحدهما إضبارة مفاتيح ، فقال : أدخل ، بارك الله لك ؛ هذا مفتاح بيت مالك ، وهذا مفتاح حجر جواريك ، وهذا مفتاح بيت فرشك وآنيتك . فدخلت الدار وأنا أيسر أهل بغداد وأحسنهم حالاً»[5] .

هكذا كانت أعطيات الرشيد تجتذب الأدباء والشعراء والمترجمين ، وأحياناً الفقهاء وسواهم . فهل يحق لنا القول بمساهمة الرشيد في ازدهار الحركة الأدبية الفكرية وتطويرها ، أو أننا يجب أن نتهمه بالهيمنة عليها وجعلها تنحرف عن طريقها الطبيعي لتسير في تيار أهوائه ومصالحه ؟ الواقع أن الحركة الفكرية كانت أقوى من أن يكبتها الرشيد أو أن يحوّلها عن مسيرتها . وكل ما حمله لها من تأثير هو بعض التشجيع وبعض التنظيم والرعاية . أما في عالم الأدب فمما لاشكّ فيه ، أنه كان له ، شأن كل ملك مطلق السلطة والصلاحيات ، أثر واضح فيه طبعه بطابعه ؛ ولكن هذا لا يعني أنه استطاع الهيمنة على جميع أدب العصر ، أو حتى على جميع إنتاج شعرائه . فلم يكن الرشيد ، ولا سواه ، قادراً على منع الشاعر من التعبير عمّا في نفسه ، حين يريد التعبير . فالشاعر ، حين يقول للرشيد ما يريد الرشيد أن يسمعه ، كثيراً ما يقول معه ما يريد هو أن يعبر عنه . ومع هذا فقد يكون الشاعر ممالئاً للرشيد ، أو يكون ، في

---

1 يذكر الأصفهاني أن الرشيد ، حين دعا إبراهيم الموصلي إلى منادمته خلع عليه خلعة وشي من خاص ثيابه وقال له : «خلعت عليك ثيابي من بدني» . (الأغاني ج 5 ص 186) .

2 يذكر الحصري أن الرشيد ، تجاوباً مع رغبة أحد الجلساء ، «دعا بثياب فلبسها ونبذ إليه ثيابه . .» (جمع الجواهر ص 60) .

3 مرّ بنا ذلك في عطائه لمروان .

4 في رواية للبغدادي ، أعطى الرشيد المفضل الضبي خاتمه حين أنشده أحسن ما قيل في الذئب . وكان الخاتم عزيزاً على قلب هارون «فاشترته أم جعفر بألف وستمئة دينار وبعثت به إليه وقالت : قد كنت أراك تعجب به ؛ فألقاه إلى الضبي وقال : خذه وخذ الدنانير ، فما كنّا نهب شيئاً فنرجع فيه» . (تاريخ بغداد ج 13 ص 122) وقد روي أنه وهب «دنانير» «في ليلةٍ عقدا قيمته ثلاثون ألف دينار» . (نهاية الأرب ج 5 ص 90) .

5 جمع الجواهر ص 128 .

قرارة نفسه ، ضد ما يقوله في البلاط وينشده على مسامع الخليفة ، بل وحتى قد يقول المدائح في أعدائه . فالرشيد فرض على ناحية من أدب عصره أن تجري في قنواته ، لكن هذه الناحية هي وجه من وجوه أدب العصر . والأرجح أن الشعراء الذين سخّروا شعرهم له ونالوا عطاياه ، كانوا يصرفون تلك العطايا في وجوه من الحياة قد لا يرضى عنها ، وكثيراً ما كانوا يعبّرون ، في شعرهم الشخصي ، عن هذه الحياة . وهذا يفسّر لنا وجود الشعر المتحفّظ عند بعض روّاد البلاط ، وعلى رأسهم أبو نواس شاعر الخمر . فهو يتحفّظ في الشعر الذي يوجّهه إلى الرشيد ، مظهراً طاعته وطالباً رضاه ، لكنّه لا يتقيّد عمليّاً بما يقول ويعد . فأبو نواس ، مع حظر الخلفاء ، ملأ الدنيا بشعر الخمر . بل إنه تغزّل بالخمر وهو يدّعي مقاطعتها . والرشيد لم يكن يتدخّل دائماً في معاناة شعرائه ، ولا في كامل انتاجهم ، إنما كان يفترض نهجاً معيّناً في الشعر الذي يقدّمونه له ، ومنطقة محرّمة في سائره ، وهذا حق لمن يدفع الثمن . وقد قامت بين الرشيد وشعرائه علاقة تجارية حقيقية نحاول إبرازها في الفصل التالي .

الفصل الثالث
التكسّب بالشعر

بيع الأدب في سوق البلاط

وبضاعةُ الشعراء ، إن أنفقتَها نَفَقَتْ ، وإن أكسدتَها ، لم تُنفقِ

أبو نواس

التكسّب بالشعر : تمهيد

جرى الحديث غير مرّة عن الطبيعة التكسّبية للأدب الذي طاف بالبلاطات العربية ، بسبب ارتباطه بإرادة صاحب البلاط ، من جهة ، واقترانه بعطائه ، من جهة أخرى[1] . فغدا بعض الأدب حرفة يُطلب بها المعاش ، تماماً كالغناء والتجارة والصناعة ورسم اللوحات التذكارية وأخذ الصور في المناسبات . . . ولقد بلغت عملية التبادل بين الشاعر والخليفة أوجَها في عهد الرشيد لأنه اجتمعت فيه الخلتان المميّزتان : حبّه المدح وسخاؤه في العطاء ، حتى بتنا نلمس لمس اليد ، في بلاطه ، سوقاً تجارية يتم فيها البيع والشراء ، وتخضع فيها سلعة الأدب لقانون العرض والطلب والمنافسة الحرّة . ونحن ، إمعاناً منّا في تتبع الطابع التكسّبي لمعظم الأدب الذي وجّه إلى الرشيد ، نحاول ، فيما يلي ، تقصّي أوجه الشبه بين بلاط الرشيد وسوق التبادل التجاري ، وذلك بهدف إبراز الأثر الفكري والنفسي للرشيد في المتصلين به من الأدباء ، ممن تربطهم به الفائدة المتبادلة : حاجتهم إلى عطاياه ونفوذه ، وحاجته إلى سماع مدحهم والاكتساب من علمهم ، والتسلّي بفنّهم ونوادرهم .

---

1 تحدّث عن ذلك أيضاً معظم الذين درسوا الأدب العربي من عرب ومستشرقين . (انظر مثلاً ضحى الإسلام ج 1 ص139) وإلى ذلك يشير Sourdel في مقاله عن بغداد : «كان الشعراء والأدباء يطوفون ببلاط الخليفة ، داعمين بقصائدهم المدحية وردودهم النقضية ، مواقفه ومذاهب الخلفاء المتتابعين السياسية» Arabica, p. 264 (عدد خاص ببغداد) ويقول Blachère : «لما كان الشعراء ، أو معظمهم ، قد ولدوا في وسط الشعب ، فإنهم كانوا يحسّون بوضوح بالحاجة إلى دعم الكبراء والأغنياء لهم ليتمكّنوا من الإفادة من موهبتهم . والواقع أنهم خضعوا لهذا التأثير منذ أمد طويل ، منذ القرن السادس الميلادي ، حيث كانت تبعية الشاعر أمراً مفروغاً منه ، سواء أكان من شيوخ القبائل الرحل ، كعمرو بن كلثوم أو زهير بن أبي سلمى ، أو كان من الصعاليك ، مثل عروة بن الورد ، أو كان من قوّاد الحرب مثل عنترة ، أو كان أخيراً من الشعراء الذين يمدحون الملوك كالنابغة . إننا نجدهم ، جميعاً ، يرتضون هذه التبعية . فجميعم مرتبطون بعشيرتهم أو بجماعة سياسية أو اجتماعية يهدونها أشعارهم ويتلقّون منها مالاً ونفوذاً . ولم يغيّر الإسلام هذا الوضع ، إنما حدّ منه بعض الشيء . . . وفي أيام العبّاسيين ، تعمّقت عبودية الشاعر ، فلم يعد مجرد مبخّر متملّق ، إنما صار يظهر أكثر فأكثر ، في دور المُلهي والمسلّي» . Al-Moutanabbi, p. 8 .

أولاً : سوق البلاط وبيع الأدب للملوك

نقصد بالسوق هنا معناها الاصطلاحي ، حيث تتم المواجهة بين العرض والطلب . ولئن كان هذا المفهوم للسوق قديماً ، استخدمه الجاهليون لعملية تبادل السلع ، فإنه لم يكن كذلك بالنسبة إلى الأدب في تلك الأيام . فالأدب كان يعرض فيها لكنه لم يكن يباع ويشرى . كان يستخدم للدعاوة والفخر والتحريض ، وكان مردوده معنوياً ، غالباً . ومع ذلك فالأدب ، منذ القديم ، خضع للبيع والشراء ، فكان الشعراء ، ممن لم يقصروا نظمهم على خدمة قضية قبيلتهم ، وممن لم يمتشقوا السيف ليكسبوا ، عن طريقه ، ثروتهم ومجدهم ، يبيعون ما لا يملكون سواه : موهبتهم وإنتاجهم الأدبي . ويجب هنا أن نلاحظ الفرق الكبير بين شاعر يمدح عظيماً لأنه أولاه خدمة أو قام بمبادرة إنسانية ، ومن يمدح عظيماً أو غير عظيم ليطلب منه عطاء يستعين به على الحياة . فهذا الأخير لا يتجاوز عملية البيع بهدف الكسب . وقد سبقت لنا إشارة إلى أن الأدب العربي عرف ، في جميع مراحل تاريخه ، شعراء يتوجّهون إلى الممدوح ، يقطعون إليه الفيافي والقفار ، في الحقيقة والخيال ، يدّعون تحمّل المشقّات ، يحدوهم أمل بعطائه ، أو رجاء بألا يخيّب توقعات عيال جياع ونساء مترقّبات منتظرات[1] . وسبق لنا التلميح إلى أن استخدام هذه الصورة في الشعر ، وقبول الرأي العام لها ، جعلها أحد عناصر البناء الشعري التقليدي التي انتقلت مع هذا البناء ، في الشعر الأموي والعبّاسي التكسّبي ، حتى وصلت إلى أيام الرشيد . ويعود السبب في ذلك إلى أن منصب الخليفة يجعل منه قيّماً على أمور المسلمين : على دينهم وسلامتهم ، وكرامتهم ومعاشهم ، تجتمع عنده أموال الدولة ينفق منها على الرعية ، وأموال الزكاة والصدقات يعطي منها المحتاجين . لهذا ، فمن الطبيعي أن يغدو البلاط مركزاً يستقطب ذوي الحاجات يؤمّونه ويسألون ، فيتوسّل كلّ بأسلوب لعرض حاله واجتذاب اهتمام الخليفة إلى حاجته ؛ وليس أفضل من الكلمة الحلوة والبيان الفصيح محامياً يعرض فيقنع ، وليس أجمل من أبيات الشعر كلمات تدخل قلب الخليفة دون استئذان . . ولا بدّ من أن تكون التجربة قد أثبتت للشعراء أن أدبهم ، الذي يحمّلونه عرض حاجتهم ، يؤدي هذه المهمة بنجاح أكبر كلّما اهتمّ أكثر بحاجات الممدوح . وحاجات الممدوح منها النفسية الشخصية ، ومنها السياسية التي تدعم مواقفه ، تبلور تطلّعاته ، وتحطّ من شأن أعدائه . هذا ما كان يحدو الخليفة إلى انتقاء الشاعر والشعر ، واختيار من يناسبه وما يناسبه ، فغدا ، تدريجاً ، محور أدب البلاطات ، تتجمّع حوله نماذجه ، كما يجمع محبّو التحف حولهم كل نادر وثمين منها ، وغدا فناء البلاط معرضاً لهذا النمط من التحف الأدبية تتألق فيه بأبهى حللها ، علّها تستأثر باهتمام الخليفة فيشتريها . . . صحيح أن شعر المدح لم يقتصر على الخلفاء ، وأن كثيراً من الشعراء كانوا من الفقر بحيث باعوا

---

1 ذكرنا في دراستنا للقصيدة الرسمية مضمون مقدّماتها التي قيلت في الرشيد ، مدعية ركوب الناقة وتحمل المشاق وتغذية الآمال بلقاء الخليفة (صراع الترف والحرمان) وانظر ص 524 وما بعد من البحث .

شعرهم في سوق البيض والخضار مقابل ما يسد الرمق[1] ، وصحيح كذلك أن الخليفة الأموي ظلّ المسؤول الأول ، أمام الشعب ، عن ردّ غائلة الجوع عنه : تأتيه الوفود وتطالبه بحقها من أموال المسلمين ، بمدح أو بلا مدح[2] ، لكن علاقة الناس بالبلاط تغيّرت أيام العبّاسيين : غدت الدولة أكثر غنى والخليفة أكثر بعداً عن الناس ، والوصول إليه أشد صعوبة ، وإرضاؤه ليس بالأمر اليسير ، وعطاياه ، حين يعطي ، ثروات كاملة . وقد رأينا أن الشعراء والأدباء والفقهاء كثروا بباب الرشيد يترقّبون إشارة ويتوسلون بأفراد الحاشية ليضمنوا طريق الدخول إليه وعرض ما يحملون من بضاعة الأدب[3] ، ثمّ أخْذ ما تُقوَّم به من مال . ويبدو أن الناس أَلِفوا عملية بيع الأدب في سوق القصور ، فغدت هذه العملية ، لا أمراً عادياً ، بل أمراً مرغوباً فيه ومجالَ منافسة عنيفة[4] مردّها ، في رأينا ، إلى سببين : أولهما أن الشاعر ، الذي تنفق بضاعته ، ينال المال والنفوذ والجاه ، مما لا يمكن للشاعر أن يصل إليه من أي طريق آخر . فالشاعر ، عادة ، ابن البيئة الشعبية ، وغالباً ما كان ، في عصر الرشيد ، لايحسن سوى الشعر عملاً ، ولا دخل له إلاّ منه . ولعلّ هذا ما جعل نَفاق الأدب في سوق البلاط أساساً لنقلات اجتماعية تخترق جدران الطبقات الموروثة وحدودها الفاصلة ، فتخلطها جميعها . وثاني السببين أن الخلفاء كانوا ذوي ثقافة أدبية رفيعة ، وكانوا يحسنون نقد الأدب وتقويمه ، وإلى جانبهم ، في حاشيتهم ، عاش شيوخ اللغة والفقه والنقد وشاركوهم الرأي والتقدير ، فغدا قبول الشاعر في البلاط بمثابة نجاح في امتحان الشاعرية والإبداع ، بل كثيراً ما كان يقام له امتحان فعلي[5] . أما استمراره على علاقة بالبلاط ، فدليل على أصالة تلك الشاعرية وقدرة هذا الإبداع على التجديد . ولعلَّ هذا من أهم أسباب الصراع ، الذي سبق الحديث عنه ، بين الواصلين إلى البلاط ، ومن لم يتح لهم الوصول من الشعراء الأدباء . إذ كان على هؤلاء المقصّرين ، الدفاعُ عن شاعريتهم

1 هذا الشعر كثير في الأدب العربي . ومن طريفه ، فضلاً عما هو معروف لبشّار ، قول أبي الشيص لصديق وعده مخدة فأبطأت :

يا صديقي ، وأخي ، في كل مـا يعـرو وشِدّةْ
ليت شعري ، هل زرعتم بـزرَ كتّـانِ المِخَدّةْ ؟

(ديوان المعاني ج 2 ص 252) .

2 حين وفد محمد بن الجهم ، مع جملة من أهل الحجاز ، على هشام بن عبدالملك قال له ، فيما قال : «. . . إن لي حوائج ، فأذكرها ؟ قال : هاتها . قال : كبرت سني ودقّ عظمي ونال الدهر منّي . فإن رأي أمير المؤمنين أن يجبر كسري وينفي فقري . قال : وما الذي ينفي فقرك ويجبر كسرك ؟ قال : ألف دينار وألف دينار وألف دينار . فأطرق هشام طويلاً ثمّ قال : هيهات يا ابن الجهم ، بيت المال لا يحتمل ما سألت . قال : أما إن الأمر لواحد ، ولكن الله آثرك لمجلسك . فإن تعطنا ، فحقّنا أديت . وإن تمنعنا نسأل الذي بيده ما حويت» . (صبح الأعشى ج1 ص265) .

3 انظر ص 117 وما بعد من البحث .

4 المصدر نفسه ص 485 و698 .

5 المصدر نفسه ص 203 . راجع ص 188 وما بعد من البحث .

وأصالتهم ، اللتين يشكّك فيهما وجودُهم بعيدين عن البلاط .

أما الشاعر الذي يتّصل بالبلاط ، ويبقى متوفّز الحس الفنّي ، متنسّماً لأخبار الخليفة في حركاته وسكناته ومشاعره ، كي يستطيع إبداع ما يرضيه حين يحتاج إليه[1] ، فلا يعود مجرّد حامل لبضاعة يعرضها في سوق الأدب ، بل هو أقرب إلى «المنتج» الذي «يدرس حالة السوق» وحاجتها ، فينتج ما يلائمها ويُستهلك فيها . بذلك تتمّ «تبعية» الإنتاج الأدبي للسلطة السياسية والاقتصادية ، ويقترب الأدب ، أكثر فأكثر ، من «السلع» التي تعرض في «سوق البيع والشراء» . ونحن ، إنما نستخدم هذه التعابير التجارية ، لأننا نرى ، بأم العين ، الشبه الكبير القائم بين بلاط الرشيد ، كسوق للأدب ، وبين أية سوق استهلاكية أخرى . والأدب فيها ، فضلاً عن كونه ينتج ملائماً لرغبات الممدوح ، نراه يخضع لقانون «العرض والطلب» ، فيغدو أكبر قيمة حين يصبح «نادراً» يبحث عنه الخليفة فلا يجده ، أو حين يطابق «حاجات» الرشيد النفسيّة ، فيقبل عليه بكل كيانه . ونرى بيع الأدب في سوق البلاط يتمّ بعمليات مشابهة «لبيع السلع» في «سوق الاستهلاك» : فلا نعدم شاعراً يهبّ إلى «المطالبة بالدَين» ، داعياً الوسطاء إلى مساعدته على تحصيله . وهذا ما نفصّله فيما يلي .

ثانياً : الشعر بضاعة تعرض في سوق البلاط

يسمّيها كذلك أبو نواس ، ويعتدّ الرشيدَ المستهلك الأول لها ، إن قبلها واشتراها نفقت ، وإلاّ ، أصابها الكساد[2] . وأبو نواس يقصد ، بلا شك ، أن يمدح الرشيد بتشجيع الأدب والأدباء ، وبأنه نصيرهم الأكبر ، بل الأوحد ، يقول ذلك تسويغاً لتوجّههم إليه ؛ لكنه لم يستطع ، في محاولة التسويغ ، التخلّص من قناعته بأن إنتاج الشعر بات مرتبطاً بإرادة المستهلك الذي هو الخليفة ، فكان تعبيره عن هذه القناعة بالحرف والكلمة المستعارين من قاموس التجارة[3] . وتكتمل صورة البيع والشراء وعملية التبادل مع منصور النمري إذ يصوّر فناء البلاط كساحة السوق : تأتي إليها الركائب محمّلة ببضاعاتها ، تناخ فيها ، تفرغ أحمالها ، تُعرض ، تُباع ، ويُقبض الثمن مالاً تحمله وتعود به من حيث أتت :

---

1 صبح الأعشى ج 1 ص 197 .

2 راجع بيت أبي نواس الذي اتخذناه شعار هذا الفصل ومرجعه الديوان ص 401 .

3 اعتاد العرب أن يفعلوا ذلك فهذا زهير بن أبي سلمى يقول :

ألم ترَ ابنَ سنانٍ كيف فَضَّله ... ما يُشترى فيه حمدُ الناسِ بالثمنِ ؟

وهذا أعشى بكر يصرح :

وَجُبْتُ للمال آفاقَه ... عُمانَ وحمصَ وأوريشلمْ

(التكسب بالشعر ص 19 و23) .

فِنـاءٌ لا تـزال بـه رِكابٌ   وَضَعْنَ مدائحاً وحَمَلْنَ مالا[1]

وعملية البيع هذه تقترن بجميع مقوّماته من العرض والدعاوة إلى المساومة في الثمن والجدل حوله .

1 ـ عرض ودعاوة : يعمد بعض الشعراء المادحين إلى عرض شعرهم وإبراز جودة مدحهم وتفوّق موهبتهم المولدة للشعر وذلك بهدف إقناع الشاري بدفع الثمن المطلوب ، أو بغرض جعل الشاري يقبل على توظيف تلك الموهبة في استثماراته . ومع تأكيد ضرورة دفع القيمة المتفق عليها ، قد يورد الشاعر إشارات إلى كلمة الشرف التي تربط البائع والشاري في عقد بيع شفوي . نرى ذلك في أبيات لسلم الخاسر الذي يبدو أن الرشيد وعده ، أثناء ولايته للعهد أيام أخيه الهادي ، بإعطائه مئة ألف درهم ، إذا وصل إلى الخلافة ، وذلك ثمناً لرثائه المهدي . لكن الرشيد ، حين وصل ، نسي الوعد ، وسلمٌ لم ينس ، ولم يكن من طبعه إغفال أمر كهذا ، ولا كان ممن يسكتون عن «حق» لهم . فكتب إلى الرشيد :

أرى المئةَ ألفاً ، **صادقـاً وُعدْتُها** ،   لِمَرثيـةِ المَهـديّ ، **غيرَ كثيرِ**
ولـو غيرُ هـارونٍ يجودُ بوعدِها   لمـا عُجـتُ عـن موعودِهِ بنَقيرِ
شبيهُ أبيه ، في السماحـة والنـدى   فَإنْ قـال ، لم يأخُـذْ بحبل غرورِ[2]

ونحن نرى في هذه الأبيات عملية متفرعة عن البيع : فيها عرض البضاعة وتأكيد الثمن والإلحاح على أنه موازٍ لها مناسب . وفيها الاعتماد على كلة الشرف يقولها الشاري الثقة فلا يتراجع عنها ، وإن أحسّ بالغبن . والخليفة أحق من حفظ كلمة وأنجز وعداً . . . أما تقريظ الآلة الشعرية والموهبة الشخصية فمن أوضح ما قيل فيها جاء في قصيدة أبّان اللاحقي يعرض على الفضل بن يحيى خدماته :

أنا مـن بُغيـةِ الأمير وكَنزٌ   مـن كنوزِ الأمير ، **ذو أرباحِ**
كاتبٌ ، حاسبٌ ، أديبٌ ، لبيبٌ   ناصحٌ ، زائد على النُصّاحِ . . .[3]

2 ـ مساومة وجدل في قيمة الثمن : وهذا وجه آخر للشبه بعملية البيع والشراء . فكما كانت البضاعة الأدبية تقدّم ويزيّن لها بالقول والدعاوة ، تمهيداً لإغلاء الثمن ، أو تعليلاً للثمن المحدّد ، فقد كان الثمن ، أحياناً ، موضع مساومة وجدل ، شأن أية عملية بيع ، مع فارق أن البائع ، في عملية تبادل السلع ، هو الذي يحدّد الثمن المبدئي ، بينما الشاري ، أو الممدوح ، في العملية الأدبية ، هو الذي يقدّر عادة ، حسب تأثره ، ووفق أهوائه ، قيمة الشعر المعروض عليه . لهذا لم تكن قيمة المديح

---

1 الأغاني ج 13 ص 157 .

2 تاريخ بغداد ج 9 ص 138 .

3 العقد الفريد ج 4 ص 203 .

تقع دائماً في موقع تقدير الشاعر الذي تكون له ردّات فعل مختلفة باختلاف معطيات كثيرة . إنما أبسط مظاهر ردّة الفعل هذه أن يعترض صاحب البضاعة على التقدير ، وأن يستأنف ، بشعر آخر ، محاولة للحصول على «حقّه كاملاً» . ونحن نرى ذلك في الحادثة التالية يرويها الأصفهاني : «أعطى جعفر بن يحيى مروان بن أبي حفصة ، وقد مدحه ، ثلاثين ألف درهم . وأعطى أبا البصير عشرين ألفاً ، وأعطى أشجع ، وقد أنشد معهم ، ثلاثة آلاف درهم ، وكان ذلك في أول اتصاله به . فكتب أشجع يقول :

أعطيتَ مروان الثلا ... ثين التي دلّت رعاثَهْ (جعلته يفخر)
وأبا البصير وإنما ... أعطيتني منهم ثلاثهْ
ما خانني حوكُ القريـ ... ـض ، وما اتّهمتَ سوى الحداثهْ

فأمر له بعشرين ألف درهم أخرى»[1] . وحين ولي الرشيد الخلافة ، ومدحه سلم الخاسر ، أعطاه سبعين ألف درهم . فقال سلم : «يا أمير المؤمنين إن أكثر ما أعطى المهدي مروان سبعون ألف درهم ، فزدني وفضّلني عليه . ففعل ذلك ، وأعطاه تتمّة ثمانين ألف درهم»[2] . ولعلّ أطرف مطالبة شاعر باستكمال الثمن الذي يعتدّه ، ناقصاً مطالبة نصيب الأصغر لزبيدة . فقد مدحها ، حين حجّت ، بقصيدة . فأمرت له بعشرة آلاف درهم وفرس . فأُعطيه بلا سرج . فتلقّاها لما رحلت ، وقال أبياتاً منها :

وأُعطيتُ النُهى ، لكنّ طِرفي ... يريد السَّرْج منكم واللجاما

فأمرت له بسرج ولجام»[3] .

ثالثاً : الثمن النقدي والمطالبة بالديون

كان المادحون ، مقدّمو الخدمات الفكرية ، المتّصلون بالبلاط ، يفضّلون الثمن النقدي لأن الثمن المؤجّل قد لا يدفع تلقائياً ، أو يحتاج إلى معاملات ومطالبات يمكن أن تعترضها العقبات . فالرشيد ، حين يتلقّى المديح ، يكون في حالة من الانشراح تفتح أريحيته لتلبية الطلبات وللعطاء . فإذا كان في مجالس الإنس والأدب والسمر ، وأراد شاعراً فاستدعاه ، تفتح أبواب القصر مشرعة أمام الداخل . وهذا يخالف وضعه ، وهو في الديوان يصرّف الأمور وينهض بأعباء الدولة ، هناك يصعب الوصول إليه لأمور مهمّة ، فكيف للمطالبة بدين ؟ لهذا نرى العماني ، حين مدح الرشيد بالعطاء ، يؤكّد له أن أفضل أنواع العطاء ما كان معجلاً ، سريع الوصول :

---

1 الأغاني ج 18 ص 157 .

2 المصدر نفسه ج 19 ص 235 .

3 المصدر نفسه ج 22 ص 419 .

أنتَ ربيعي ، والربيــع يُنتظرْ وأفضلُ أنواعِ الربيعِ ما بَكَرْ[1]

فأحسّ الرشيد بما عناه العماني وقال : «إذن يبكُرعليك ربيعُنا . . . يا فضل ، أعطه خمسة آلاف دينار وخمسين ثوباً» . وحين أُوقظ أبو يوسف القاضي من نومه ليقدم فتوى للرشيد ، طالب بقبض مكافأته فوراً . فقيل له : «إن الخازن في بيته والأبواب مغلقة . فقال أبو يوسف : فقد كانت الأبواب مغلقة ، حين دعاني ، ففُتحت . . .»[2] ولا يكاد اليزيدي ينتهي من مدح المأمون ، ولي العهد ، حتى يتوجه إلى الرشيد طالباً الثمن ، وكأنه يؤكّد خيار الدفع نقداً بلا تسويف . والغريب أنه يطلب نَصيباً لابنه ، إلى جانب نصيبه ، فيقول :

أثبني ، على المأمون ، وابني محمّداً ، نــوالاً ، فإياه ، بـذاك ، تُثيبُ[3]

وحين لا يتم دفع ثمن المديح نقداً ، تحتاج معاملة استيفائه إلى رتابة ديوانية معيّنة ، وإلى مغالبة مطل يمارسه الكتّاب والخزنة ، إما غيرة من الشاعر المادح وحسداً له ، وإما لفرض «خوّة» عليه ، كصاحب مصلحة لم يتعب كثيراً في الوصول إلى وعد بالعطاء ، فيضطر إلى مقاسمتهم جزءاً مما نال[4] . وهذا يفقد الشاعر راحته ويوتّر أعصابه ، فيغدو ملحاحاً يذكّر ، يثير النخوة ويهدّد بالسلبية في التعامل مستقبلاً ؛ فعندما أبطأت جائزة أشجع السلمي ، كتب إلى الرشيد :

أبلــغْ أميرَ المؤمنـين رسالـةً لهــا عَنَقٌ ، بين الرواة ، فسيحُ
بــأنَّ لسانَ الشعرِ يُنطِقُهُ الندى ويُخرسُه الإبطاءُ ، وهو فصيحُ

«فضحك الرشيد وقال له : لن يخرس لسان شعرك . وأمر بتعجيل صلته»[5] . والذي يستوقف النظر في هذا الخبر أن كل شيء تمّ بشكل طبيعي . فلا أشجع استنكف عن المطالبة بما اعتدّه حقّه وثمن إنتاجه ، بل إنه لم يتحرّج عن التعريض بتأخر الرشيد عليه وإرسال تهديد مبطّن بمقاطعة التعامل معه ، ولا الرشيد ساءته جرأة الشاعر أو تعريضه به ، فكأنه كان يعترف بتقصيره في أداء ما يجب عليه . لكن استيفاء الدين يحتاج أحياناً إلى جهد أكبر . فيعمد الشاعر إلى أسلوب

1 الأغاني ج 18 ص 231 .

2 تاريخ الخلفاء ص 292 .

3 الأغاني ج 2 ص 203 .

4 راجع تسلّط كتّاب الديوان في خبر الجهشياري عن حمدونة بنت الرشيد التي ، مع كبر منزلتها ، خضعت لابتزازهم . فحين أمر لها الرشيد بإقطاعٍ غلّته ألف درهم وألف ألف درهم ، ولم يف كاتبها بما «دافعهم عليه من بر» . «زاد بعضهم في التوقيع عند موضع الواو من (وألف ألف درهم) ألفاً فصارت (أو ألف ألف درهم)» فشكتهم إلى الرشيد فقال لها : «أحسب أن كاتبك هذا الجاهل لم يبرّ الكتّاب . وأعاد التوقيع وأمرها أن تبرّ الكتّاب بما يرضيهم» . (الوزراء والكتّاب ص 233) .

5 الأغاني ج 18 ص 154 .

فطن يذكّر به ويرغّب ، مستخدماً معرفته بنفسية الخليفة ، باحثاً عن وتر من أوتارها يضرب عليه ليؤدّي أفضل إيقاعَ وتجاوب . والأوتار المعروفة تتلخّص في تأكيد الثقة بالممدوح وإثارة نخوته والتلميح إلى رجولة من يحفظ كلمته ويفي بوعده . نرى أبا العتاهية مثلاً يطالب الرشيد بما وعده به ويستخدم أسلوباً مبتكراً : يرسل إليه ثلاث مراوح ، على كل منها بيت شعر أو أكثر . حتى إذا اجتمعت الأبيات عملت على استدرار همّة الرشيد للسداد . والأبيات هي :

ولقد تنسّمتُ الرياحَ لحاجتي فإذا لها ، من راحتيكَ نسيمُ
أشربْتُ نفسي ، من رجائكَ ، ماله عَنَقٌ ، يخبُّ إليكَ بي ، ورَسيمُ
ورميتُ نحو سماءِ جودكَ ناظري أرعى مخايلَ برقه وأشيمُ
ولربّما استيأسْتُ ، ثم أقول : لا **إنّ الذي ضَمِنَ النجاحَ كريمُ**[1]

فقال الرشيد : قاتله الله ، ما أحسن ما قال : ثمّ دعا به وقال : ضمنت لك يا أبا العتاهية : في غد نقضي حاجتك ، إن شاء الله[2] . إلاّ أن استيفاء الدين لم يكن يكفيه ، دائماً ، هذا الجهد البسيط . فلطالما اضطر الشاعر إلى دقّ أبواب الوزراء وأفراد الحاشية يتوسل بهم ليذكّروا الخليفة وعده . ويتولى هؤلاء تلبية الرجاء ، إما خوفاً من لسان الشاعر ، أو رغبة في نيل مديح منه . ولكنه قد يكون مضطرًّا إلى نظم أبيات في المطالبة ينقلونها إلى الرشيد ، يسلّونه بها وينطلقون منها إلى تذكيره . هكذا أمر الرشيد لليزيدي بمال ، وشخص إلى محلّة السِنّ على دجلة . فقصد اليزيدي عاصماً الغسّاني ليذكّر يحيى بن خالد بجائزته . لكن عاصماً ماطله ، متعصّباً عليه ، إلى أن صادف الشاعر يحيى فسأله ، فحوّله إلى ابنه جعفر ، فمدحه بأبيات وعرّفه الخبر . فطلب منه جعفر شعراً في موضوع الدَين فقال :

أحقُّ من أنجزَ موعودَهُ خليفةُ الله على خَلقِهِ . . .
والراتقُ الفتقَ العظيمَ الذي لا يَقدِرُ الناسُ على رتْقِهِ[3]

ومن يتابع خبراً كهذا ، بكل ما فيه من هم وغمّ وتسويف ومطل وتذلّل ، يعطي الشعراء الحق في أن يفضلوا الثمن النقدي . ويبدو أن هؤلاء الشعراء ، وإن تأخر عليهم العطاء ، كانوا دائماً يحصلون عليه . لهذا لم يذهب أحد من شعراء البلاط إلى حدّ هجاء الرشيد بسبب تقصيره في وفاء دين ، كما حصل لسواه . فالبرامكة ، مثلاً ، لم يقلّوا عطاء عن الرشيد ، ولا نفوذاً وسطوة . ومع أنهم ساعدوا كثيرين من الشعراء ، ذوي الديون ، على تحقيق رصيدهم ، مضيفين إليه رصيداً من

---

1 ديوان أبي العتاهية ص 407 .

2 المصدر نفسه .

3 الأغاني ج 20 ص 195 .

عندهم ، فقد تجرّأ عليهم بعض الشعراء ، ولم يتوان البعض عن هجائهم بسبب التقصير ، وعن التعريض بهم بإظهار الأنفة من عطائهم . ونسجّل هنا هذه المناورة بين أشجع ويحيى بن خالد . فقد استعجل أشجعُ يحيى عطاءً له بذمّته ، فقال :

رأيتــكَ لا تَستَلِــذُّ المِطــا ... لَ ، وتُـوفي إذا غدَرَ الخائنُ

ولما لم يعجّله كتب إليه ، متأنفاً ، متعفّفاً :

رُوَيــدَكَ ، إنّ عِزّ الفقرِ أدنى ... إليّ من الثَراءِ مع الهَوَانِ . . .[1]

رابعاً : تنافس المنتجين وتجويد البضاعة

من المعروف أن التنافس هو ميزان التبادل التجاري في سوق البيع والشراء الحرة ، وأن تنافس المنتجين على اجتذاب المستهلك يؤدي ، عادة ، إلى تجويد الإنتاج وخفض الأسعار . فإلى أي حدّ ينطبق ذلك على سوق الأدب في البلاط ؟

لا شكّ في أن التنافس بين الشعراء يؤدي فعلاً إلى رفع مستوى الإنتاج الشعري وتجويده والابتكار فيه بشكل مستمر ، لأن التأثير في السامع يتركّز ، بقوة الاحتكاك الأول ، في لحظة المفاجأة التي يخلقها المعنى المبتكر ، أو العرض الطريف . والمثل على ذلك واضح في المقابلة التي جرت ، بين مروان بن أبي حفصة ومنصور النمري ، في البلاط ، أمام الرشيد . فمروان صاحب نهج معروف في مدح العبّاسيّين ، ومنصور النمري ، الذي كان يدخل البلاط للمرة الأولى ، جاء يتحدّاه في نهجه محمَّلاً بإنتاجٍ كلُّه جديد لأنه لم يسبق عرضه في السوق ؛ ولأن مروان كان من شعراء الرشيد الملازمين لمجلسه ، فقد دخل المنافسة بإنتاج له سابق ، مسموع ومعروف . ومع أن الرشيد كان يدفع مروان إلى التقدّم ويريد له أن يبرع ويتفوّق لأنه يمثل البلاط وترتبط قيمة أدبه بقيمة المجلس الذي يتبنّاه ، فإن عنصر الإدهاش كان إلى جانب الجِدّة التي أتى بها منصور . فثبت في المنافسة ، واعترف له مروان بجودة البضاعة الشعرية ؛ وكذلك كان الرشيد معجباً به فجاء الثمن مؤكداً إعجابه[2] . ويجدر بنا هنا أن نقدّم ملحوظة وهي أن التنافس في سوق الأدب لا يؤدي إلى خفض سعره لأن الخليفة لا يستهلك كل ما يعرض عليه من أدب ، ولا يثيب إلاّ على ما يستجيده منه ويشعر أنه يلبي حاجاته الآنية أو الدائمة . وهذا ما يجعل التنافس ينصّبّ على تجويد الإنتاج وتحسين نوعه ليلاقي هوى عند المستهلك الأكبر لأن الخليفة يدفع أثماناً خيالية ، حتى إنه قد يغني مقابل قصيدة واحدة أو مقابل أبيات ، بل مقابل بيت واحد . ومع أن السائد ، عن بيع الأدب بالمال أو تسخيره لإرادة ذوي النفوذ وأهوائهم ، أنه لا يشكّل مجال فخر للشاعر أو الأديب ، لأنّه ، في سبيل ذلك ، يضطرّ إلى التنازل عن حرّية الانفعال وصدقه ، فإننا نرى أن بيع

---

1 الأغاني ج 18 ص 159 .

2 راجع ص 179 وما بعد من البحث .

الأدب في سوق البلاط كان مرغوباً ومطلوباً بشدّة ، وموضوع فخر لأنه شهادة لصالح جودة الإنتاج[1] ، ففي أحد مظاهر المنافسة التي غالباً ما تتحوّل إلى صراع ، قد يعمد الشاعر إلى التعرّض لشعر شاعر آخر ، أو شعراء آخرين ، محاولاً التقليل من قيمة شعرهم عن طريق إبراز ما في الثمن الذي نالوه من قصور أو عيوب . ونحن نعيد هنا إلى الأذهان الملاحاة التي قامت بين سلم الخاسر ومروان بن أبي حفصة ، وفيها يفخر سلم بأن أعطيته كانت كلّها من صلب مال الخليفة (بالقطع النادر) بعكس أعطية مروان . ويردّ مروان بأنه نال من العطايا ما لا يحصى ، وكلّها سنية (راسخ القدم في السوق) بينما طار صواب سلم لأول أعطية حصل عليها[2] . ولا شكّ في أنّ هذا النوع من الصراع هو من صميم عمليّات السوق : يمثّل الدعاوة المتطرّفة التي لا تكتفي بترويج بضاعة ما ، بل تعرض للبضائع الأخرى ، مزرية بها ، مقلّلة من شأنها ، كأنها تريد أن تصرف المستهلك عنها ليخلو لها الجو فتحتكر السوق .

خامساً : تقلّبات السوق

ونحن لن نتوسّع في هذه النقطة لأنه سبق لنا الحديث عن تقلب الأحوال بالمتّصلين بالبلاط ، وعن وصول بعضهم إلى درجة الإفلاس ، في حال ابتعادهم عن البلاط أو ابتعاد الرشيد عنهم[3] . ونضيف هنا أن سوق الأدب ، ككل سوق أخرى ، تعرف الازدهار والكساد ، والمواسم وفترات الركود . فمع أن الرشيد كان يستهلك الأدب كغذاء يومي ، وكان مستعدًّا لسماعه في كل لحظة وفي الظروف المختلفة ، فقد وُجدت مناسبات ، منها الدائم ومنها العَرَضي ، كان الأدب يروج

1 أشرنا إلى ذلك في مطلع هذا الفصل ونضيف أن الفخر بعطايا الملوك بدأ منذ الجاهلية واستمر مع الخلافة الإسلامية ، فيقول حفيد لزهير ابن أبي سلمى مفتخراً بجدّه لأخذه من عطاء الملوك :

رَعَوا عليه ، كما أرعى على هرِمٍ ... جدّي زهيرٌ ، وفينا ذلك الخُلُقُ
بمدحِ الملوكِ ، وسعيٍ في مسرّتهمْ ... ثم الغنى ، ويدُ الممدوحِ تنطلقُ

(التكسّب بالشعر ص 19) .

ويقول مروان بن أبي حفصة مفتخراً :

ولقد حُبيتُ بألف ألفٍ لم تكن ... إلاّ بكفِ خليفةٍ ووزيرِ
ما زلتُ آنفُ أن أؤلفَ مِدحةً ... إلاّ لصاحبِ منبرٍ وسريرِ

(العمدة ج 1 ص 53) .

ومن ذلك قول ذي الرمة :

ومـا كان لي من تُراثٍ ورثْته ... ولا دِيَةٍ ، كانت ، ولا كَسْبِ مأثمِ
ولكن عطاءُ اللهِ من كلِ رحلةٍ ... إلى كلِّ محجوبِ السُرادقِ ، خِضْرِمِ

(العقد الفريد ج 1 ص 275) .

2 راجع ص 428 من البحث .

3 راجع ص 429 وما بعد من البحث .

فيها ، ويُستَعَدّ لها بإنتاج وفير متميّز بأجمل الحلل وأروع القلائد[1] . أما إذا مرض الرشيد ، أو أغلق بابه في وجه الشعراء بسبب نزوة نفسية[2] أو انشغال بأمور السياسة ، أو غاب عن قصره ، عرف شعراؤه ، إذ ذاك ، معنى الحرمان .

سادساً : استغلال الفرص واستثمار المواقف

من المعروف عن العاملين في ميدان التجارة والتبادل ، عموماً ، أن الواحد منهم يعمل يومياً بدأب وصبر ، لكنه ، دائماً ، ينتظر فرصة العمر ، فرصة مؤاتية لعملية تبادل ناجحة تنفحه بالثروة التي تشكل حلم لياليه . ولم يبعد الأمر كثيراً عن هذه الصورة مع منتجي الأدب للبلاط . فنرى الشاعر ، الذي يفخر بنيل عطايا الملوك والتعامل معهم ، يتوجّه ، بكل كيانه ، إلى نيل رفدهم ، وتخصيص معظم قصيدته المدحية لطلب ذلك العطاء ، أو يتركه يستغرق أحياناً جميع شعره . وهو ، في كل حال ، يختم به أجمل أشعاره المدحية ، مفسداً روعة الصورة الفنّية بذلّ السؤال ، طمعاً في تعجيل ثمنٍ حاصل ، ورفعه ليصبح ثروة تغني ، يحقق بها «ضربة العمر» . وهذا يفسّر ما نراه ، في معظم القصائد ، من ذكر الشاعر لما يتوقّعه من ثمن لمدائحه . فالزبير بن دحمان ، بعد أن غنّى الرشيد أبياتاً تمتدح فعاله في طبرستان ، ونال ألف دينار ، صمّم على متابعة استثمار الموقف المتمثّل في إقبال الخليفة على سماعه ، وانطلق في محاولة الحصول على الغنى دفعة واحدة . لذا توجه إلى الرشيد ، يطلب ذلك ، صراحة ، منه ، في شعر أنشأه لهذه الغاية :

وقلتُ مديحاً أُرجّـــي بِـــهِ   من الأجر حظاً ونيلَ الغِنى[3]

ولما كان الرشيد لا يستكثر أي ثمن لمديح يعجبه ، فقد قَبِل عرض ابن دحمان الذي ما «فرغ من الصوت حتى أمر له الخليفة بألف دينار أخرى . فقبضها ، وخف على قلبه واستظرفه . فأغناه في مدّة يسيرة من الأيام»[4] . والعجيب أنّ أريحية الرشيد باتت معروفة ، وعطاءاته ثمناً للمديح قاربت الأسطورة ، ومع ذلك ، فإن الشعراء لم يكونوا يُغفلون المطالبة الصريحة بثمن المديح . يذكر الأصفهاني أن النمري وصف فرس الرشيد وحُسن أدائها في حرب طبرستان ، ومدَحه بالجهاد وكسب الأجر وثواب الله ، ثمّ لم يلبث أن قال في نفسه : «وما يمنعني من إذكاره بالجائزة ؟ فقلت : إذا الغيث أكدى واقشعرّت نجومه . . . (الأبيات) . فقال : أذكرتني . ورأيتُه متهلّلاً»[5] . وهذا يقودنا إلى الحافز الذي كان يجعل الشعراء لا يغفلون طلب العطاء في شعرهم ،

---

1 راجع فصل المناسبة الأدبية .

2 طبقات ابن المعتز ، ص 150 .

3 الأغاني ج 18 ص 223 .

4 المصدر نفسه ص 223 .

3 المصدر نفسه ج 13 ص 146 .

ألا وهو الرشيد ، لأن الشعراء ما كانوا ليفعلوا ذلك لو لم يكن يستسيغه . فما هي الحوافز الخلفية في نفس الرشيد ، التي تدفعه إلى أن يكون موضوعاً لسؤال الراغبين ، ويستشعر السرور من تركّز الآمال عليه وبناء قصور الأحلام على كرمه ؟ لا يمكننا أن نرد السبب إلى إحساس بالنقص لديه ، فقد كان للرشيد كل ما يخطر ببال إنسان في دنياه ، وما لا يخطر . وفي رأينا أن هناك سببين : أولهما الإرث الحضاري العربي الذي يتربّع فيه الكرم على عرش الصدارة بين الفضائل . وقد وصل إلى الرشيد عبر قرون من تاريخ الأمة ، مدعوماً بآلاف الأبيات والقصائد ، ومئات الحكايات والروايات عن تطرّف العرب المشاهير في القِرى والجود ، حتى ليغدو أحدهم أشبه بمريض العطاء ، إذا لم يجد من يطمح إلى عطائه أو يستفيد من قراه تنكّد عيشه وظللت السويداء قلبَه وبيته . وقديماً قال زهير بن أبي سلمى مادحاً :

تــراه ، إذا مــا جئتَه ، مُتَهَلِّلاً ، كأنكَ تُعطيهِ الذي أنتَ سائِلُهْ[1]

ولا نعجب ، بعد هذا ، من أن يرتبط الكرم بالغرور وعزّة النفس . فبقدر إحساس المرء بحاجة الناس إليه وازدياد قيمته في أعينهم ، تزداد قناعته بقيمة نفسه . هكذا وصلت مثالية الكرم إلى الرشيد فتبنّاها لأنها تمثّل فخر التراث الحضاري العربي ، ولأنه ، هو ، يمثّل التجسيد البشري لمثاليات هذا التراث . والسبب الثاني يعود إلى واقع حياة الرشيد وما كان فيها من منافسة خفيّة بينه وبين البرامكة ، منافسة كان العطاء أحد مظاهرها التي برزت للعيان . وقد قلنا سابقاً إنه كان ، في عمقه النفسي ، يغار منهم وينقم ، لا على من يمدحهم فقط ، بل على كل من تسول له نفسه التوجّه إليهم دونـه . ولئن كَبت هذا الشعور أول الأمر ، وتظاهر بعكسه ، فيما بعد ، إخفاءً لما دبّر ، فإنه ، بعد النكبة ، أطلق له العنان . وقد زاد الإحساسَ عمقاً ذلك الجيشُ من المتزلفين الذين التفّوا حول الرشيد ، وكانوا حاضرين لإرضاء نزعاته في كل لحظة . ولا نستبعد أن يكون هؤلاء المتزلفون قد بالغوا في إيقاظ غرور الرشيد ، استدراراً لكرمه المرتبط بعنفوانه ، ولإغرائه باستهلاك إنتاجهم ، حتى نمّوا لديه متعة مشوّهة تنجم عن تعلّق الآخرين به ، وهو مُدِلّ عليهم متفضّل[2] . فغدا وجهُه يتهلل استبشاراً حين يُسأل حاجة ويستاء ممن يترفع عن عطائه . وغدا مدحه بالجود والعطاء من أبرز المعاني التي تناولها شعراؤه والتي ندرسها لاحقاً[3] .

1 ديوان زهير ــ دار صادر ــ ص 68 .

2 أغرق بعض الشعراء في مدح الرشيد ، حتى نفحوه بصفات الأنبياء فقبِل ذلك كما سنرى . وساهم المتزلفون في جعله يقتنع بأنه من غير طينة البشر لكثرة ما أذلّوا أنفسهم أمامه حتى ذهب بعضهم ، بحسب إحدى الروايات ، إلى تقبيل حافر حماره ، إظهاراً للتبرّك به (الأغاني ج 5 ص 198) . لهذا لم نجد في جميع الأخبار أن الرشيد امتعض يوماً من طالب لعطائه ، أو نفر من تذكيره به ، أو إشمأزّ من جدله حوله وسعيه إلى زيادته .

3 راجع الباب الأخير : شخصية الرشيد من خلال الأجواء الأدبية .

سابعاً : مصداقية أدب البلاط

إذا كان أدب البلاط غدا سلعة تباع وتشرى ، وإذا كان الشعراء راحوا يعتمدون في مادة رزقهم ، بزيادة مطّردة ، على أريحية الخلفاء وسخاء الأعيان[1] فما القيمة الحقيقية لشعر البلاط ، في غير ميزان الممدوح ؟ يذهب غرونباوم إلى أن منزلة الشاعر في هذه الفترة «كانت تزداد خطورة ، بينما كانت قيمة الشعر الاجتماعية تنحدر نحو الحضيض»[2] . ولا شكّ في أن المقصود بالقيمة الاجتماعية هو القيمة الخلقية التي يقاس بها صدق الشاعر في إنتاجه وأدائه . وفي رأينا أن الشاعر لم يزدد خطورة عند الرشيد ، ولا انحدرت قيمة شعره الاجتماعية نحو الحضيض . والسبب في ذلك أن قيمة الشعر وخطورة الشاعر تأتيان من الحاجة إليهما وتتبلوران في مدى النفوذ الذي يحصل عليه الشاعر عند من يشتري شعره . والواقع أن الرشيد لم يترك ، بعد البرامكة ، مجالاً لمخلوق يحسّ أنه ضروري للخلافة لا يُستغنى عنه . لقد أكرم الكثيرين ، ومازح ، وجالس ، لكنه كان دائماً بالمرصاد لأية بادرة غرور تصدر عن مُجالس ، وهو صاحب الموقف المعروف من يزيد بن مزيد ، سيفه القاطع وحامي ملكه ، ومن عبدالملك بن صالح أبرز الهاشميّين عقلاً وإدارة وفصاحة . فما قولنا عن الغرباء ؟ كان الرشيد يعجب بالشاعر الذي يعرف كيف يمدح ويُخرج المعاني بطريقة مبتكرة . لكن الحاجة إلى الشعر ، كدعاوة ودعم ، تكون عادة في الشعر السياسي . وقد رأينا أن الرشيد كان يطرب لسماع هذا الشعر ويثيب عليه بسخاء مع أن الشعراء لم يأتوا بجديد على صعيد الحجج ، بل كانوا يخرجون الحجج المعروفة ، التي أطلقها المنصور ، بقالب جديد وبأسلوب رشيق سهل على اللسان . إنما هذا لا يكفي لجعلهم أجزاء لا غنى عنها لعجلة السياسة . ونحن لا نقصد من هذا القول نفي قيمة الشعراء عند الرشيد ، ولكننا نريد أن نؤكد طابع التبعية التي صبغت جميع المتصلين بالرشيد ؛ حتى البرامكة ، في أوج عزهم ، حين كانوا يتوجّهون إليه ، كانوا يفعلون ذلك من موقع المولى نحو سيده ؛ وما كان لشاعر أبداً أن يدخل على الرشيد ليقول له «. . . كأنني ، عليك ، أمير المؤمنين أمير» ، كما فعل الأخطل في بلاط عبدالملك ابن مروان . بل إن الرشيد كان مستعداً للانقلاب على أي من شعرائه ، ولو كان مروان بن أبي حفصة أو منصوراً النمري ، لدى أول خطأ يصدر عنه . وقد عرف كثير من شعرائه تغيره عليهم وقاسوا من ذلك . . . أما القيمة الاجتماعية للشعر فلم تنزل إلى الحضيض إلاّ بميزان مثالية عصرنا ، ولم تكن كذلك بالنسبة إلى عصر الرشيد . ذاك أن وقوف الشاعر على منحدر المدح والتملّق لم يبدأ في أيام الرشيد . ولئن غالى الشعراء ، في الانزلاق وأغرقوا وأحالوا في مدحهم له بسبب شخصيته المتميّزة وبسبب ما وصل إلى الشعر من إرث كسروي ، فإن ما قيل في الرشيد لم

---

1 غوستاف غرونباوم ــ دراسات في الأدب العربي ــ ترجمة إحسان عباس وآخرين ــ دار مكتبة الحياة ص 149 .

2 المصدر نفسه .

يكن مرفوضاً اجتماعياً ، في أيامه . والشعراء الذين اعتادوا هذه المواقف منذ عشرات السنين ، ألِف الناس رؤيتهم فيها وحسبوا من مهمّتهم ، كشعراء بلاط ، أن يضخموا ويغالوا ويبالغوا ويعرضوا رأي الخليفة ويدافعوا عنه ، دون أن يغضّ ذلك منهم . لهذا لم يرتفع صوت يندّد بمواقف شعراء الرشيد ، وقد كان لهم خصوم وحسّاد قاموا بالطعن في شاعريتهم وأبرزوا سرقاتهم لمعانيهم ، لكن أحداً لم يحاكمهم اجتماعياً أو خلقياً بسبب إغراقهم في معاني المدح . والنقّاد ، في مآخذهم على هؤلاء الشعراء ، لا يعرضون لقيمة شعرهم الاجتماعية ، فلا يرون مثلاً أن شعراً حطّ من قيمتهم ، طالما أنهم يقولونه في الملوك ، وانحصرت مآخذهم عليهم في صحة المعنى وواقعيّته ، أو إغراقه في الإحالة ، أو دخوله في تناقض ، أو عدم ابتكاره بنقله وسرقته . بل إن قدامة بن جعفر يمتدح الغلو ويعتدّه لازمة للنظم ويفضّله على الاختصار[1] . قد يوجّه النقد إلى الشعراء إذا مدحوا السوقة وغير ذوي الشأن ، فهذا إزراء بالشعر يحطّ من قيمته . وقديماً قال الحطيئة ، وهو على فراش الموت ، «أجزَعُ على المديح الجيد يُمدح به من ليس له أهلاً»[2] وقد مرّ بنا أن الرشيد وجد لشعر ابن مناذر ، في رثاء عبدالمجيد الثقفي ، عيباً واحداً : أنه قاله في سوقة[3] . فلم يكن المدح الذي يغضّ من قيمة الشعر أو الشاعر ، وإنما تقاس قيمتهما بقيمة من يوجَّهُ إليه المدحُ ، فتكون كبيرة إذا وُجّه إلى الخليفة . ويبدو أن هذا الموقف هو استمرار لعادة العرب القديمة في رفض الخضوع لأي إنسان باستثناء رب الأسرة وشيخ القبيلة ، فالخضوع هنا واجب ولا يمسّ الكرامة . فإذا ما وسعنا الإطار الاجتماعي لتغدو العشيرة مملكة ، وشيخ العشيرة ملكاً ، كان الخضوع له وتملّقه أمراً طبيعياً ، بل محبوباً ومرغوباً فيه ، وإن كان مستهجناً لسواه .

أما إذا تجاوزنا القيمة الاجتماعية لأدب المدح في البلاط ، فالسؤال الذي يجب أن يطرح هو حول القيمة الفنية لهذا الأدب : فمتى كان الشاعر لا يعبّر عن واقع ذاتي ، ومتى كان يتبنّى وجهة نظر قد لا يؤمن بها ، ويأتي بمعان وصور قد لا ترتكز على أرض الحقيقة والواقع ، مضفياً على الممدوح صفات قد لا توجد فيه ، فما قيمة شعره الفنية ؟ وإلى أي مدى يمكن اعتداده صادقاً في أدائه الفني ؟ في رأينا أن هذه القيمة الفنية تتعلّق بعبقرية الشاعر ، ولا يضيرها أن ينظم شعراً تكسّبياً وينسب إلى الممدوح ما ليس فيه . ولعل أبدع القصائد العربية ، وأكثرها خلوداً ، هي قصائد مدحية تهدف إلى كسب من نوع أو من آخر ؛ وقد عرف بلاط الرشيد بعضاً من عيونها . فالواقع أنه ، إذا اعتددنا

---

1 يقول قدامة بن جعفر : «إن الغلو عندي أجود المذهبين . وهو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر قديماً . وقد بلغني أن بعضهم قال : أحسن الشعر أكذبه» . (نقد الشعر ص 65) . ويذكر ابن عبد ربه أن بعض علماء الشعر ، حين سئل : من أشعر الناس ؟ قال : الذي يصوّر الباطل في صورة الحق والحق في صورة الباطل ، بلطف معناه ورقة فطنته ، فيقبّح الحسن الذي لا أحسن منه ، ويحسّن القبيح الذي لا أقبح منه» . (العقد الفريد ج 5 ص 375) .

2 الأغاني ج 2 ص 165 .

3 المصدر نفسه ج 18 ص 140 .

الشعر فنًّا يعبّر عن موقف أو حاجة ، وأن هذه الحاجة قد تكون نفسية فيأتي الشعر ترجمة لعواطف وانفعالات ، أو تكون اجتماعية فيأخذ الشعر على عاتقه الدفاع عن مواقف أو إبراز مشاعر وانتقادات والتغني بانتصارات ، أو تكون وطنية فيتولى الشعر إذكاء روح الحماسة والاندفاع ، أو تكون إنسانية تدفع إلى التغنّي بالكف المعطاء واليد المنقذة ، فَلِمَ لا تجعل الحاجةُ الاقتصادية شاعراً ينصرف إلى استدرار كرم الممدوح بدغدغة نفسه البشرية الميّالة إلى سماع الاطراء ؟ هكذا يكون لشعر المدح والتكسّب حافز نفسي ، شأن سائر أنواع الشعر ، يتمثّل في حاجة يسعى إلى إشباعها . وقد عبّر عن هذه النزعة غير واحد من الشعراء المتكسّبين . فحين سئل الحطيئة : من أشعر الناس ؟ «أخرج لسانه» ثمّ قال : «هذا إذا طمع»[1] . وحدّث الجاحظ أنه «قيل لإسحاق بن حسان الخريمي : مديحك لأبي الهيذام وعثمان بن عمارة والحسن بن التختاخ ومحمد بن منصور بن زياد ، في حياتهم ، أجود من تأبينك إياهم ، بعد موتهم ! فقال : أين يقع شعر الوفاء والتذمّم من شعري إذا صار للرجاء والرغبة ؟»[2] ويلخّص أبو نواس حالة الإلهام الشعري لديه فيقول : «لا أكاد أقول شعراً جيّداً حتى تكون نفسي طيّبة وأكون في بستان مونق ، وعلى حال ارتضيها : من صلة أوصل بها ، أو وعد بصلة . وقد قلت ، وأنا على غير هذه الحال ، أشعاراً لا أرضاها»[3] . وأخيراً ننقل رأي ابن رشيق في الشاعر : «غايته معرفة أغراض المخاطب ، كائناً من كان ، ليدخل إليه من بابه ، ويداخله في ثيابه . فذلك هو سر صناعة الشعر»[4] .

وسواء كان شعر المدح والتكسّب تعبيراً عن إعجاب حقيقي وترجمة للواقع البطولي ، أو كان تلفيقاً لمشاعر وتضخيماً لأحداث واختراعاً لصفات ، فمما لا شكّ فيه أنه ، بمجرد وجود ممدوح يرتضي الشعر ويثيب عليه ، ووجود شاعر يتبنّى مطامح الممدوح ويصوغها شعراً ينال به العطاء ، فإنّ نفَساً من المغالاة ينفخ في ذلك الشعر ، به يقاس الثمن والجزاء . وبعيداً عن التقليل من قيمة هذا الشعر ، فإننا نرى أن الشاعر ، في هذه الحالة ، يكون أحوج منه ، في أي وضع آخر ، إلى استنجاد خياله واستثمار مواهبه وإمكانات إبداعه ، وهنا يكمن سر تقدير النقّاد ، الذي رأيناه أعلاه ، لهذا

---

1 (الأغاني ج 2 ص 142) وفي رواية أخرى (فأومأ بيده إلى فيه وقال : «هذا الجحير إذا طمع في خير» . (المصدر نفسه ص 165) .

2 (الورقة ص 103) وفي طبقات ابن المعتز : «أين يقع شعر الندم والرعاية من شعر المودّة إذا صادفت الرغبة ؟» (ص293) وفي الوزراء والكتّاب : «لأن المدح للرجاء والمراثي للوفاء ، وبينهما بون بعيد» (ص 268) وفي العقد الفريد : «كنّا ، حينئذ ، نعمل على الرجاء . ونحن اليوم نعمل على الوفاء . وبينهما بون بعيد» . (ج 5 ص 732) وتقول العرب : «المدائح على الرجاء أبلغ من المرائي على الوفاء . .» (البصائر والذخائر ج 1 ص 281) .

3 ابن منظور ص 50 .

4 العمدة ج1 ص 133 . ونضيف أن السر الذي أشار إليه ابن رشيق قد تفشّى في الأجواء الأدبية للرشيد ، حتى كاد شعراؤه يكونون أخبر بنفسه منه .

النوع من الإنتاج الأدبي . وقد تقبّل العرب كل تحريف وحتى كذب يأتي به الشاعر ليرضي ممدوحه[1] . ولعلَّ السبب يعود إلى أن الشاعر العربي لم يحسّ ، في ظروف كهذه ، أنه يأتي ممنوعاً أو يرتكب إثماً مهيناً . وعلى صعيد الإبداع الفنّي ، قد لا ينتقص ذلك من قيمة الموهبة السامية لأن الكذب على صعيد الواقع قد يكون صدقاً على صعيد الإلهام والإبداع . فالفنان الحق لا يتأثر بالواقع الخارجي فقط ، ولا ينقل الحقيقة الموضوعية ، شأن المؤرّخين ، بل يخضع لتأثير عالمه الداخلي بانفعالاته وتصوّراته ورغباته : يعمل فيه الوهم ، أو الطيف من الخيال لا وجود له ، أو الحلم رآه في المنام ؛ ولا بدّ لكلّ فنان من أن يرتسم في ذهنه نموذج مثالي للإنسان الذي يُعجِب ، نموذج يتكوّن من معطيات التراث الثقافي للجماعة ، ومن تجارب الشاعر وآماله وأحلامه[2] .

بهذا النموذج يتأثر الشاعر (إذ لم يتأثر بصفات نادرة للمدوح) ، ومع عناصره يتفاعل . فإذا ما توجّه إلى ممدوحه طابق بينه وبين مثاله ونقل إليه صفاته فبرزت مترابطة متماسكة متتابعة في صورة

---

1 يقابل بلاشير بين تفكير العرب وتفكير الغربيّين حول التكسّب بالشعر مشيراً إلى اعتياد العرب رؤية الشعراء يعيشون من شعرهم ويرتبطون ، لأجل ذلك ، بالقادرين على العطاء ، فيقول : «إننا (يقصد الغربيّين) ، بكل صراحة ، لا نطيق أن نتصوّر شاعراً أصيلاً لا عمل له إلاّ كسب المال أو تأمين مكانة بين الناس . إننا نتقبّل من Vigny أن يسعى إلى المجد ، لكننا نكره له أن يفكّر بالثروة . وباختصار ، فإننا نتطلّب من الفنّان أن يحترم فنّه فيستعمله في خلق الجمال ، لا لإشباع طموح لديه . إلاّ أن الشرق المتوسط هو أبعد ما يكون عن هذا التصور . إن فنّ النظم يبدو ، هناك ، وكأنه يستلهم مصدراً غيبياً . لكن الذي يملكه لا يحيطه بكبير احترام ، ذاك أن هذا الفن قادر على تأمين امتيازات كبيرة وفرض الاحترام والهيبة ، فلماذا الامتناع عن استخدامه في تحقيق الغايات ، جميع الغايات ، حتى أكثرها أنانية وأحياناً أشدّها قذارة ؟ إن الشعراء ، أو بالأحرى معظمهم ، برزوا من بين ظهراني الشعب . وهم ، لذلك ، يحسّون بحاجة إلى دعم الموسرين لهم ليتمكّنوا من استثمار موهبتهم ؛ وقد خضعوا لهذا القانون منذ القديم : فمنذ القرن السادس من تاريخنا أصبحت تبعية الشعراء أمراً لا جدال فيه . . . .» . Al-Moutanabbi, pp. 7 et 8

2 يعطينا علي محمود طه فكرة شاعرية عن تكوّن النموذج الذي يشكّل المثل الأعلى للشاعر ، إذ يتوجّه إلى مثله مخاطباً :

صورةٌ أنــتَ ، من بدائعَ شتّى ،	ومثــالٌ ، مــن كلّ فنٍ رشيقِ
بيدي هــذه جبلتُكَ ، من قلـ	ـبي ومن رونقِ الشبابِ الأنيقِ
كلّما شِمْتُ بارقــاً من جمال	طرتُ في إثــره أشقُّ طريقي
شَهِدَ النجمُ كم أخذتُ من الرو	عةِ عنــه ومــن صفاءِ البريقِ
شهد الطيرُ كم سكبــتْ أغانيـ	ـهِ ، على مِسمعيكَ ، سكبَ الرحيقِ
شهد الكــرمُ كم عصرتُ جنا	هُ ، وملأتُ الكؤوسَ من إبريقي
شهد البرُّ مــا تركــتُ من الغا	رِ عـلى مِعطـفِ الربيع الوريقِ
شهد البحرُ لم أدعْ فيه من دُرْ	رٍ جديرٍ بمِفرقيكَ خليقِ . . .

من قصيدة «التمثال» . ديوان «ليالي الملاح التائه» .

فنية متكاملة[1] ، ويأتي شعره رائعاً ، وإن كذب حقيقة ، لأنه كان صادقاً في إحساسه الفني وإلهامه . وما نقوله عن شعر التكسّب هنا يقال عن أي شعر آخر من نوعه ، في أي زمان ومكان . ومن المؤكّد أن أعظم الشعراء الذين عرفتهم العربية مدحوا وكذبوا ، ظاهرياً ، وتصنّعوا وضخّموا ، ومع ذلك ، فإنهم ظلّوا شعراء عظاماً ، وبقيت قصائدهم المدحية نماذج للروعة الفنية لأنها ترسم صورة الإنسان المثالي المتكوّن في ذهن الشاعر ، منطبقة على شخص الممدوح . وقد أُخذ على المتنبّي ، في مدحه لسيف الدولة ، أنه ما مدح ، في الواقع ، إلاّ نفسه . ونحن نقول إن شعره كان رائعاً لأنه مدح نفسه ، حسب المنتقدين ، ووصَفَ المثالَ الذي رسمه لنفسه ، حسب رأينا ، فنادراً ما تأتي الروعة من وصف الواقع كما هو .

خاتمة

عرضنا شعر التكسّب في بلاط الرشيد ، وأظهرنا ما غلب عليه من طابع الفائدة المادية ، وما في وضع منتجيه من شَبَه بأوضاع منتجي السلع الاستهلاكية ومسوّقيها . كما وجدنا الرشيد مستهلكاً أكبر لهذا الإنتاج ، قامت بينه وبين الشعراء علاقات متنوّعة : اشترى بلا مساومة وأعطى دون حساب . ودفع نقداً كما اشترى ديناً . وتوجّه إليه بعض البائعين ، مجادلين ومساومين ، أو مطالبين بسداد الدين . ثمّ حاولنا إثبات أن هذه المادية في السعي وراء الثمن ، والتي كانت حافز الشاعر للمدح والمغالاة ، لم تقلّل من قيمته الاجتماعية ، وهي كذلك لا تحطّ من قيمة شعره الفنّية لأنه ، يقوم عادة بتجريد نموذج لمدوحه ، مستمد من مثال الإنسان في ذهنه وخياله . وهذا يرفع من شأن الممدوح ويترك الشاعر صادقاً في إلهامه . ونعود هنا لنشير إلى أن عملية التبادل بين الشعر والمال كانت تتم بشكل شبه متواصل . فالمدح ، الذي هو محور أدب التكسّب ، ابن المناسبة ، وقد عمرت به أجواء الرشيد الأدبية لأن المناسبات في بلاطه لم تكن تحصى عدداً .

---

1 يعيد غرونباوم ملامح المثال إلى الموروث الذي يجعل الشاعر يتقيّد بالمثالية القديمة في أوصافه فيسبغها على كل من وما يتناوله بشعره ، فيقول : «للشاعر الحق في أن يختار الموضوع والشكل والنوع . فإذا اختار ، فعليه أن يلتزم الطريقة المفروضة . . . أما الشيء المقرر المعتمد فليس هو الشكل وحده . كذلك العناصر المادية التي يحتويها الكون مقرّرة موضوعة . والشاعر يصف مبناها الثابت . فإذا صوّر شخصاً أو حصاناً أو علاقة من العلاقات ، فعليه أن يرى ، في كل منها ، نموذجاً لنوعه . وقد ينقل ، في وصفه ، أو يخلق ، صورة مادية للمثال . . .» دراسات في الأدب العربي ص 16 و 17 وسنرى في دراستنا لشخصية الرشيد من خلال الأجواء الأدبية إلى أي مدى كانت صفاته مجموعة من المثاليات المتوارثة .

الفصل الرابع
الزهد في الدنيا وأدب الموعظة

كُلْ مـن الجاروش والرز ... زِ ومـن خبزِ الشعيرِ
واجعلـنْ ذاكَ حـلالاً ... تنجُ مـن نـار السَّعيرِ
والتمسْ رزقَكَ من ذي العَر ... ش والـربِّ القديـرِ
وانْأَ ما استطعْتَ ، هَداكَ ... اللهُ ، عـن دارِ الأميرِ
لا تزرْهـا واجتنِبْهـا ... إنّهـا شرٌّ مَـزورِ
توهـنُ الديـنَ وتُدنيـكَ ... مـن الحُـوبِ الكبيـرِ
قبلَ أن تسقطَ ، يا مغـ ... ـرورُ في حُفـرة بيـرِ
وارضَ ، يا ويحكَ ، من دنيـ ... ـاك بـالقُوتِ اليسيرِ
إنّهـا دارُ بَـلاءٍ ... وزَوالٍ وغُـرورِ
كم ، لعمري ، صرعتْ قبـ ... ـلَكَ أصحـابَ القصورِ[1]

عبدالله بن المبارك

تمهيد

رأينا ، في دراستنا السابقة ، أن الأدب الذي عايش الرشيد عرف نشاطاً كبيراً في أيامه ، وكان لهذا الخليفة دور فاعل في ازدهاره نَجَم عن كونه متأدّباً وذوّاقة ، طالباً المتعة الأدبية والفنّية . ولقد قلنا إن الرشيد لم يكتف بالمشاركة السلبية ، عن طريق إحياء مجالس الأدب واستقطاب الأدباء ، بل إنه قاد حملة العصر لرعاية العلماء والأدباء وتأمين عيشهم بالجرايات والهبات ، كي ينصرفوا إلى الأدب والتحصيل ، فلا يحترفوا مهنة أخرى . ولقد غالى الرشيد ، ومن جاراه ، في الرعاية والثواب حتى بات العطاء في المرة الواحدة ، يتجاوز ، أحياناً ، حاجات الشاعر ، إلى إغنائه بثروة أو ثروات . وبإغلاء قيمة العطاء راح الشعراء يبيعون أنفسهم ، أكثر فأكثر ، إلى أصحاب البلاطات ، ويلتصقون أكثر فأكثر بإرادة أصحابها ، فازدهر أدب التكسّب ، وتضاعف نهم الشعراء وشرههم ، وغدا البلاط أقرب إلى سوق البيع والشراء . لكن ، هل كان كل الأدب الذي قيل للرشيد أدب تكسّب ومصلحة مادية ؟ الغريب أن هناك أدباً أُنتج له ولبلاطه ، هو أبعد ما يكون عن المصلحة الدنيوية ، وأعلى ما يكون ترفّعاً عن الكسب والرغبة في العطاء ، وأكثر ما يكون رفضاً للتزلف وعبودية

1 مجلة معهد المخطوطات العربية ـ الكويت المجلد 27 الجزء الأول ص 49 .

الإنسان لأخيه الإنسان . إنه أدب الزهد والوعظ . أليس غريباً أن يزدهر أدب الوعظ في بلاط كان حبُّ الدنيا طابعَه ، واجتناءُ اللذات مبدأه ؟ قد يخطر بالبال أن الرشيد ، لو كان خليفة صالحاً صلاح عمر بن عبدالعزيز ، تقيًّا تقواه ، لكان لازدهار أدب الوعظ حوله تفسير طبيعي في مماشاة خط الخليفة وموافقته طبعه ، وبالتالي تمتّعه برعايته وتشجيعه . ولعلّ عكس هذا هو الصحيح لأن خليفة كعمر بن عبدالعزيز لا يخطيء أخطاء الرشيد ، ولا يرتكب الآثام التي يرتكبها الرشيد ، ولا يحتاج إلى من يوجّهه ويقرّعه كما احتاج الرشيد ، وبالتالي إلى من يحسن اختيار الكلمة لتكون بليغة في أدائها ، عميقة في تأثيرها ، يحفظها قائلها ويتداولها سائر الناس . وفي رأينا أن أدب الزُهد وأدب اللهو ، اللذين تصارعا على صفحة العصر ، تصارعا أيضاً في داخل الرشيد ، وأن وعظ الوعّاظ الذي قرّعه كان متجاوباً مع وعظ داخلي وإحساس بالذنب عنده .

أولاً : صراع الترف والزُهد في نفس الرشيد

لقد أُعطي الرشيد الجاهَ والنفوذَ والغنى ، وكان ، في عمقه الإنساني ، ميّالاً إلى تذوّق النعيم ، كمعظم البشر ؛ ولئن كانت النعمة ، في ذلك العصر ، معروفة بالتقلّب وعدم الاستقرار ، فهذا التقلّب هو أبعد ما يكون عن الرشيد الذي يمسك بيده أقدار الناس . وحتى لو بات الرشيد ، كسواه من البشر ، عرضة لانقلاب النعمة ، فإن هذا ما كان ليجعله يُقبل على خشن العيش ، تحسّباً ، بل إنه يزيد تصميمه على الاستمتاع بيومه ؛ فإذا قُدر للغد أن يأتي بحرمان لبس له الصوف[1] . ومع هذا ، فقد أُشرب الرشيد احترام الدين ، وتفهّم التعاليم التي يعتبر نفسه قيّماً عليها حامياً لها وناشراً ، والتي آمن بها ، وبدوره فيها ، إيماناً عميقاً . من هنا كان التناقض المعروف في نفس الرشيد وتصرّفاته . ومن هنا إحساسه بالذنب تجاه ضعفه أمام مباهج الدنيا وعدمِ صموده لإغراءاتها . والإحساس بالذنب يورث نقمة على النفس الأمّارة بالسوء ، فيعمد الرشيد إلى لجمها ، ويهبّ إلى ممارسة العبادات بورع لا يقل عن ورع الزّهاد ، بل إنه ، زيادة في نكاية النفس ، يعرّضها للوم هؤلاء الزهّاد ولتقريع الوعّاظ ولسماع الغليظ من القول ، متشفّياً من ضعفها . . . حتى إذا ما اقتنع بورعه وتقاه وصحة إيمانه ، وأحسّ أنه بلغ ، من الندم والاستغفار وذرف دموع التوبة ، ما يمكن اعتباره كفّارة عن خطاياه ، ارتاح وعاد سيرة حياته اليومية ، فلبس ثوب الترف وعاش ، من جديد ، مع متع الحياة . . والدليل على ذلك أن الوعظ كان لديه حاجة نفسية ، لا حلية ومظهراً دعائياً . فهو لم يكن يترك سماع الوعظ للصدفة ، ولحين التقائه

---

1 قال له أبو البختري يوماً ، وقد غضب لفراغ خزانة الثلج ، «أقول ، يا أمير المؤمنين ، وأنا آمن ؟ فقال : قل ؛ قلت : يا أمير المؤمنين ، قد رأيتَ ما كان من الغِيَرَ بالأمس ، يعني زوال دولة بني أمية ، والدنيا غير دائمة ولا موثوق بها ، والحزم ألاّ تعوّد نفسك الترفُّهَ والنعمة ، بل تأكل اللّين والجَشِب ، وتلبس الناعم والخشن ، وتشرب الحار والقارّ . فنفحني بيده وقال : لا والله ، لا أذهب إلى ما تذهب إليه . بل ألبس النعمة ما لبستني . فإذا نابتني نوبة الدهر ، عدت إلى نصابي غيرَ خوّار» . (ضحى الإسلام ج 1 ص 116) عن شرح النهج لابن أبي حديد) .

العرضي بالزهاد ، بل كان يقصدهم في أماكن وجودهم ، وكان ينتقيهم ، كما ينتقي مغنّيه وشعراءه وولاته : يسمعهم ، الواحد تلو الآخر ، إلى أن يجد بغيته ويستسلم إلى الواعظ الذي يشفي غليله[1] . ولذلك فنحن نجزم بأن الرشيد لم يكن يتظاهر بالورع تحبّباً إلى الرعية وتغطية لتجاوزه التقيّد ببعض تعاليم الدين . فالرشيد شخصيّة بعيدة عن هذا النمط من التصرف ، تأبى التكلّف والمخادعة والتستر . كان الرشيد عفوياً في أقواله وأعماله ، بعيداً عن التخطيط الماكر وعن المكائد والدسائس ، لا يخاف أحداً في هذه الدنيا ، ويعرف أن كل من فيها يخافه . فمظاهر الورع والاستكانة إلى الوعظ لم تكن عنده سوى ردّة فعل عفوية للإحساس بالذنب . وإحساسه هذا ، مع صدق طبعه ، كان وراء نفوره من الجدل في الدين والمراء : لم يكن يحاول فلسفة تصرّفاته وإيجاد المسوّغ لها : إنه يحسّ بخطئها ، فيتقبّل ذلك ويسعى إلى التكفير عنه[2] . أوليس أكبر تكفير هو في الجهاد والحج[3] ، وفي الصدقات والصلوات[4] ؟ وما أكثر ما أتاها الرشيد جميعاً حتى شُهر بها . أما أقصى مدى يبلغه التكفير ، فهو طلب الوعظ وسماع التقريع ، لأن فيهما إخضاع النفس لآخرين من البشر ، واعترافاً ضمنياً بأنهم أكثر صلاحاً ونقاء ، وهذا كثير على الرشيد . إنما هي «المازوشية» التي لا تخلو نفس إنسان من بذورها ، تفتحت عند الرشيد وأثمرت وأينعت . وليس غريباً أن يقوم «المازوشي» بعملية إسقاط ، لإحساسه بالذنب ، على من يجسّد هذا الذنب أكثر منه ، فيعمل الرشيد ، مثلاً ، على التنكيل بالكفرة والزنادقة ، طلباً للغفران وإرضاء للضمير . وعلى هذا ، يتجلّى مظهر آخر لإسكات صوت الإحساس بالذنب ، في تبنّي الوعّاظ واستدعاء الفقهاء[5] . فوجودهم قرب الرشيد لا يهدف تماماً إلى إضفاء الصبغة الدينية على حكمه ، فهذه

---

1 انظر المستطرف ج1 ص 79 وراجع ص 631 من هذا البحث .

2 يصفه السيوطي فيقول : «كان يبكي على نفسه وعلى إسرافه وذنوبه ، سيّما إذا وُعظ . . .» (تاريخ الخلفاء ص284) ويروي العاملي ، بالسند ، عن إبراهيم بن عبدالله الخراساني ، الخبر التالي : «حججتُ ، مع أبي ، سنة حج الرشيد . فإذا نحن بالرشيد واقف حاسر ، حاف ، على الحصباء ، وقد رفع يديه ، وهو يرتعد ويبكي ويقول : يارب ، أنت أنت ، وأنا أنا . أنا العواد بالذنب . وأنت العواد بالمغفرة ، اغفر لي . . . فقال لي أبي : انظر إلى جبار الأرض كيف يضرع إلى جبار السماوات» (الكشكول ج 2 ص 119) .

3 مرّ بنا سعي الرشيد إلى الحج والجهاد ، ونضيف ما شهر عنه من أنه «كان ، إذا حجّ ، أحجّ معه مئة من الفقهاء وأبنائهم ، وإذا لم يحجّ ، أحجّ ، في كل سنة ، ثلاثمئة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الظاهرة» . (الطبري ج 8 ص347 وتاريخ بغداد ج 14 ص 7 والفخري ص 193) .

4 كان الرشيد يصلّي في كل يوم مئة ركعة إلى أن فارق الدنيا ، إلاّ أن تعرض له علّة . وكان يتصدّق ، من صلب ماله ، في كل يوم ، بألف درهم ، بعد زكاته . (المصادر السابقة) .

5 كان الرشيد يتّخذ مبادرات في مناسبات معيّنة : فلما «بلغه موت ابن المبارك ، جلس للعزاء وأمر الأعيان أن يعزّوه في ابن المبارك» . (تاريخ الخلفاء ص 285) و «دخل عليه مرّة ابن السماك الواعظ ، فبالغ الخليفة في احترامه . فقال له ابن السماك : تواضعك في شرفك أشرف من شرفك . ثم وعظه فأبكاه» . (المصدر نفسه ص 284) . ومن ذلك

الصبغة لا تحتاج إلى تأكيد ، ويستمدها من مصدر أرفع من مصادر الناس ، من وراثة الرسول أكبر رمز ديني في الإسلام . وإنما الهدف الحقيقي ، في رأينا ، هو الوصول إلى قناعة بشرعية تصرّفاتٍ يعرف الخليفة أنها غير مشروعة . فيكون التخلّص من الذنب هنا على حساب ضمير الفقهاء . ولا بدّ من الإشارة إلى أن بعض الفقهاء المتّصلين بالبلاط ، بخلاف الوعّاظ ، لم يكونوا بعيدين عن صراع العصر ، صراع الدنيا والآخرة . فنراهم يغْشون مجالس البلاط ، يزيّنونها بعلمهم وأحكامهم ومناظراتهم ، ويحسّون ، في الآن نفسه ، أنهم يغامرون بثواب الآخرة في سبيل نيل ثواب الدنيا ، وأنهم يرتكبون إثماً لمجرد اتصالهم بالبلاط الممثل لجميع متع الحياة . ونحن نحس أحياناً صراعاً يعتمل في نفس بعض منهم ، كما اعتمل في نفس الرشيد ، بين الرغبتين ، يتجلّى في نفثات من الزهد المفتعل والتمنّع ، كأن يمتنع أحدهم عن قبول عطاء ، أو يتشاغل عن سماع الغناء[1] ، أو يأبى الوقوف للرشيد إذا دخل[2] ، والانحناء لتقبيل يده ، ليبرهن لنفسه ، قبل الآخرين ، أنها لم تذلّ لسلطان الدنيا ، وأنها لاتزال على ولائها المطلق لله ، سلطان الدنيا والآخرة ، وأن وجودها في البلاط يهدف إلى الإصلاح والتوجيه ، لا إلى كسب جاه ومال . وهذا كلّه كان يرفضه الزّهاد ، ويستهين به الوعّاظ ؛ وذهب بعضهم إلى مقاطعة من سوّلت له نفسه ، من أصدقائهم ، قبول الثواء في البلاط أو تناول دراهمه الملوّثة[3] .

ثانياً : تعرّض الرشيد للموعظة

قلنا إن الرشيد لم يكن يتحاشى الوعّاظ ، بل على العكس ، كان يتقرّب إلى الزّهاد والعبّاد ، ويقرّبهم ويكرمهم ، ويتمنى أن يقبلوا التعامل معه ، حتى بدا وكأن الوعظ نقطة ضعف لديه ، به يعود إنساناً كسائر البشر : يذنب ويخطيء ويندم ، بينما كان شعر المدح يرفعه إلى مصاف الأولياء والرسل[4] . لذا تجرّأ الوعّاظ عليه ، فكانوا ينادونه أحياناً ، باسمه مجرّداً[5] ، وينهرونه ويذمّون أعماله ، وهو سامع خاشع ، مما جعل بعض الجهّال يعتقدون أن مجرّد مناداته باسمه ،

= سؤاله أبا الربيع : «ما فعل سيدُ الناس ؟» ولمّا سأله : «من سيد الناس غيرك ؟» أجاب : «سيد الناس سفيان بن عيينة» . (تاريخ بغداد ج 9 ص 179) .

1 يقول ابن عبد ربّه : «كان أبو يوسف القاضي ربما حضر مجلس الرشيد ، وفيه الغناء . فيجعل ، مكان السرور به ، بكاء . كأنه يتذكّر نعيم الآخرة» . (العقد الفريد ، ج6 ص 5) .

2 فعل ذلك محمد بن الحسن الفقيه في أحد مجالس الرشيد (انظر تاريخ بغداد ج 2 ص 173) . راجع ص 101 هامش 3 من البحث .

3 انظر ص 434 من البحث .

4 انظر ص 692 من البحث .

5 انظر خبره مع شعيب بن حرب في (تاريخ بغداد ج 9 ص 219) وخبره مع بهلول في (جمع الجواهر ص 163 والغرر والعرر ص 237 والكشكول ج 3 ص 316 وراجع الهامش التالي) .

وتوجيه كلام قاسٍ إليه ، يرفع الواعظ في عينه ويحكّمه فيه . والواقع أن الرشيد كان يميّز الوعظ الأصيل من المفتعل ، ويكشف الزاهد الحقيقي من المزيّف ، يجادل المتفقّه في الزهد ، ويفحمه أحياناً[1] ، تماماً كما يفعل بالشاعر والأديب والفقيه . فذوقه المرهف ، وحسّه الفنّي يلازمانه في جميع أغراض الكلام . ويبدو أن لهذه «الهجمة الوعظيّة» على الرشيد سبباً آخر غير استكانته للوعّاظ : إنه في نفس هؤلاء الوعّـاظ ، وهم من فئة المحرومين . ولئن كان حرمانهم مختاراً مقصوداً ، ففي نفسهم بذور تلك النقمة على المترفين ، والتي سبق لنا الحديث عنهـا ، يجدون في استكانة الرشيد لهـم ، وهو رمـز الترف ، وفي جرأتهم عليه ، تعويضاً نفسياً عن الحرمان الذي حبسوا أنفسهم داخل جدرانه ، وتعويضاً عن الجاه والنفوذ اللذين حصل عليهما المتّصلون بالبلاط من أدباء وفقهاء . وهو تعويض مستفيض ، في الواقع ، لأن تماديهم مع الرشيد ، بنفوذهم المستمد من الحرمان ، لا يمكن أن تقارن به أية دالة على الخليفة ، لأي من روّاد البلاط .

هكذا إذن وجد الرشيد الوعّاظ على دربه ، ووجدوه على دربهم . لقيه بعضهم صدفة فارتجل موعظته[2] ، وبعضهم كان يترقّب مروره ببلده ليسكب في أذنيه ما حضّره من مواعظ[3] . وبعضهم دخل إليه في بلاطه ، مستأذناً أو مدعوّاً[4] . إلاّ أن الرشيد ، كما أسلفنا ، كان يحسّ أحياناً حاجة نفسية

---

1 اعترض ناسك الرشيد وقال : «يا هارون ، اتق الله» . فأمر باحتجازه . و «لما رجع ، دعا بغدائه ثمّ أمر أن يطعم الرجل من خاص طعامه . فلما أكل وشرب ، دعا به فقال : يا هذا ، أنصفني في المخاطبة والمسألة . قال : ذاك أقل ما يجب لك . قال : فأخبرني ، أنا شرّ وأخبث أم فرعون ؟ قال : بل فرعون : قال : (أنا ربّكم الأعلى) وقال : (ما علمت لكم من إله غيري) . قال : صدقت . فأخبرني : من خير ، أنت أم موسى بن عمران ؟ قال : موسى كليم الله وصفيّه ، اصطنعه لنفسه وأْتَمَنَهُ على وحيه وكلّمه من بين خلقه . قال : صدقت . أفما تعلم أنه ، لما بعثه وأخاه إلى فرعون قال لهما : (فقولا له قولاً ليّناً لعلّه يتذكّر أو يخشى) . . . هذا ، وهو في عتوّه وجبروته على ما قد علمت ؛ وأنت جئتني وأنا بهذه الحالة التي تعلم : أؤدّي أكثر فرائض الله عليّ ، لا أعبد أحداً سواه ، أقف عند أكبر حدوده وأمره ونهيه ، فوعظتَني بأغلظ الألفاظ وأشنعها وأخشن الكلام وأفظعه . فلا بأدب الله تأدّبت ، ولا بأخلاق الصالحين أخذت . . .» الطبري ج 8 ص 358 و359 والخبر نفسه ، مع بعض الاختصار ، في العقد الفريد ج 3 ص 165) .

2 انظر لقاءه البهلول في الكوفة ، جمع الجواهر ص 163 والغرر والعرر ص 231 والنجوم الزاهرة ج 2 ص 111 والكشكول ج 3 ص 316 وانظر لقاءه سعدون أثناء الحج في (الغرر والعرر ص 232) .

3 انظر تعرّض شعيب بن حرب له في (تاريخ بغداد ج 9 ص 240) وانظر تعرّض عبدالله بن عبدالعزيز له في الحج (الطبري ج 8 ص 355) .

4 راجع دعوة الرشيد للزّهاد وبينهم سفيان بن عيينة والفضيل بن عياض في (مروج الذهب ج 3 ص 273) وفي وفيات الأعيان ج 2 ص 157) . وانظردخول ابن السماك على الرشيد في الطبري ج8 ص 357 والعقد الفريد ج3 ص 164 وانظر دخولاً آخر بناء على دعوة في (الطبري ج 8 ص 357) ودعوة أخرى في (تاريخ بغداد ج 5 ص372) وانظر دعوة الرشيد أبا العتاهية لوعظه في (ديوان الأنوار الزاهية ج 1 ص 132) .

إلى الاحتكاك بزاهد نبيهٍ يعرف ما يعتلج في صدره من مشاعر الندم والإحساس بالذنب ليستلّها بخطاب وعظي يضع النار على الجرح ، يكويه ويؤلمه ، فيشفيه . هذا الواعظ يقصده الرشيد أنى كان[1] ، ويبحث عنه جاداً حتى يجده فيستمع إليه يعذّبه ليحسّ بالراحة . والنموذج الذي يفصّل هذه الظاهرة يعرضه لنا الأبشيهي ، يرويه بالسند عن الفضل بن الربيع ونلخّصه فيما يلي : حج الرشيد ؛ وفي إحدى الليالي استدعى الفضل بن الربيع ليقول له : «ويحك ! حاك في نفسي شيء لا يخرجه إلاّ عالم ، فانظر لي رجلاً أسأله عنه» . فقاده إلى سفيان بن عيينة . وما إن سمع سفيان بقدوم الخليفة حتى «خرج مسرعاً فقال : يا أمير المؤمنين ، لو أرسلتَ لي أتيتك . . .» ويبدو أن هذا الاهتمام بالتقرّب إلى الرشيد لم يمكّنه من استلال ما في نفسه عندما حادثه . فانصرف عنه قائلاً للفضل : «ما أغنى عنّي صاحبك شيئاً . فانظر لي رجلاً أسأله» . فقاده إلى عبدالرزاق بن همام الذي استقبله بلهفة سفيان نفسها وانتهى إلى النتيجة عينها : لم يغن عنه شيئاً . فأتى به الفضيل بن عياض . يقول الفضل : «فإذا هو قائم يصلّي في غرفته ، يتلو آية من كتاب الله تعالى ، وهو يردّدها . فقرعت عليه الباب . . . فقلت : أجب أمير المؤمنين . فقال لي : ما لي ولأمير المؤمنين ؟ فقلت : سبحان الله ! أما تجب عليك طاعته ؟ ففتح الباب ثمّ ارتقى إلى أعلى الغرفة ، فأطفأ السراج ، ثمّ التجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة . فجعلنا نجول عليه بأيدينا . فسبقت كف الرشيد كفّي إليه . فقال : أوه ! من كف ما ألينها ، إن نجت غدا من عذاب الله تعالى . فقلت في نفسي : ليكلّمنه الليلة بكلام نقي من قلب نقي . . .» هكذا انطلق الفضيل يتحدّث ، والرشيد يبكي ويستزيد . ولمّا انتهت المقابلة عرض عليه الخليفة مالاً ، فرفض قائلاً : «سبحان الله ! أنا دللتك على سبيل الرشاد ، تكافيني بمثل هذا ؟ سلّمك الله ووفّقك» . ثمّ صمت فلم يتكلّم . فلما خرج هارون قال للفضل بن الربيع : «إذا دللتني على رجل ، فدلّني على مثل هذا فإن هذا سيّد المسلكين اليوم»[2] . ونعود لنؤكّد مظهر تعذيب النفس في استجابة الرشيد الوعظية ، وفي خضوعه لسلطان الزهّاد المحتمين بالفقر والحرمان . فقد كان الرشيد شديد التأثّر ، سريعاً إلى النحيب والبكاء ، بحسب معظم الرواة[3] ، يبكي بدموع غزيرة تبلّ الذقن وتغرق الأكمام وتجري على الأرض[4] !! ذكر ذلك معظم من أرّخوا له ، كما ذكره جميع من

---

1 انظر إتيان الرشيد لعابد معتزل في جبال تهامة (العقد الفريد ج 3 ص 170 وانظر ص 638 من البحث) .

2 المستطرف ج 1 ص 79 و80 و81 .

3 ينقل البغدادي ، بالسند عن منصور بن عمار قوله : «ما رأيت أغزر دمعاً ، عند الذكر ، من ثلاثة : الفضيل بن عياض ، وأبي عبدالرحمن الزاهد ، وهارون الرشيد» . (تاريخ بغداد ج 14 ص 8) . ويقول الأصفهاني : «كان الرشيد أغزر الناس دموعاً في وقت الموعظة» (الأغاني ج 4 ص 105) وانظر كذلك (خلاصة الذهب المسبوك ص 112) ويصفه العاملي ، أثناء حجه ، وهو يبكي ويرتعد . (الكشكول ج 2 ص 119) .

4 ننقل مقتطفات من تأثر الرشيد ، على ذمّة الرواة . فيذكر البغدادي ، في نهاية خبر وعظٍ سمعه الرشيد ، أنه «بكى بكاءً شديداً» . (تاريخ بغداد ج 5 ص 372) وفي خبر الأبشيهي عن وعظ الفضيل بن عياض له يقول : «فبكى

رووا أخبار استماعه إلى المواعظ . فما هي المعاني التي توسّل بها الوعّاظ إلى إبكائه ؟

ثالثاً : معاني الوعظ الموجّه إلى الرشيد

سبق أن تحدّثنا عن صراع الترف والحرمان حول الرشيد ، ورأينا أن الترف أقام حوله حواجز كانت تمنع رياح الفقر من أن تسوق غيومه إلى سماء البلاط المشرقة . وكان المحيطون بالخليفة ، كلّهم يجمّلون في عينه الدنيا ويؤكّدون لـه رضى الرعية . فهم ، شأن المرفّهين في كل زمان ومكان ، يصمّون الأذن عن نداءات الحرمان ، ويغمضون العين عن مظهره . ولم يكن من مشاغل الحكّام ، ولا من اهتمامات العصر ، البحث عن عدالة اجتماعية تنظّم الموارد وتوزّع الثروات . مَنْ إذَنْ للعدالة الاجتماعية ، يدفع عنها ويذكّر بها ؟ ليس إلاّ صيحات مفردة ، رأينا منها صرخة أبي العتاهية في قصيدته المشهورة[1] ، ونضمّ إليها هنا صرخات الوعّاظ تصل إلى سمع الخليفة ، أو تجتذبها نفسه التي فُطرت على إرادة الخير وأضاعت أحياناً وسائله . فإذا كان الرشيد يستكين إلى الوعّاظ ، وإذا كان هؤلاء يقسون عليه في القول ، فالمنفذ إلى نفسه هو من باب هذه الطيبة الطبيعية فيه يدعمها إيمان ديني عميق ، فضلاً عن نوبات الإحساس بالذنب الذي أشرنا إليه . فالرشيد مؤمن بإخلاص ، وهو يتمنّى ألاّ يأتي الذنوب ، وهو مقتنع ، مع ذلك ، بأنه يقع في الخطأ ، وبأنه يحتاج ، من وقت إلى آخر ، إلى من يواجهه بخطئه ليعيده إلى الطريق الصحيح . هذا ما فعله الزهاد مستخدمين معاني الدعوة إلى التواضع وذم الكِبَر ، ثمّ التزهيد بأي مركز دنيوي ، مهما سما ، ولو كان مركز الخلافة بما ينطوي عليه من نفوذ وترف : فكل ما يمتّ إلى هذه الدنيا عرَض زائل . وقد أكثر الزهّاد من ذكر

= هارون بكاءً شديداً حتى غشي عليه» . (المستطرف ج 1 ص 80) . وفي خاتمة خبر وعظ آخر للفضيل بن عياض يقول السيوطي : «فجعل هارون يبكي ويشهق» (تاريخ الخلفاء ص 285 وانظر كذلك تاريخ بغداد ج 14 ص 8) وراجع خبراً آخر شبيهاً في (مروج الذهب ج 3 ص 273 وفي وفيات الأعيان ج 2 ص 157 وفي النجوم الزاهرة ج 2 ص 122) . وفي خبر الأصفهاني عن سماع الرشيد لشعر أبي العتاهية في غناء الملاحين «جعل يبكي وينتحب» (الأغاني ج 4 ص 105 وتاريخ بغداد ج 14 ص 7) . وفي خبر لابن تغري بردي : «فبكى الرشيد حتى قال بعض خواصه : إرفق بأمير المؤمنين» . (النجوم الزاهرة ج 2 ص 111) أما عن غزارة دموعه فيقول الأصفهاني : «بكى هارون حتى بلّ كمه» . (الأغاني ج 4 ص 108) . ويقول الطبري في خبر تعرُّض عبدالله بن عبدالعزيز للرشيد : فرأيت دموع هارون ، وإنها لتسيل على معرفة دابته» . (تاريخ الطبري ج 8 ص 355) . وجاء في خبر مشترك للحصري والوطواط والعاملي : «فبكى الرشيد حتى جرت دموعه على الأرض» . (جمع الجواهر ص 163 والغرر والعرر ص 231 والكشكول ج 3 ص 316) . . . وقد يكون لهذه الأخبار هدف التغطية على ما عرف عن الرشيد من شرب وحضور مجالس الطرب . ولكن ، مما لا شكّ فيه أنها لا يمكن اختلافها جملة وتفصيلاً ، وأنها قد رويت على لسان ثقات ، وفي مصادر متنوعة . والدارس لطباع الرشيد لا يستغرب ما يروى منها ، فقد كان في نفسه طفل بريء ومارد عنيد يتجاوران ويتناوبان وعيه .

1 راجع ص 446 من البحث .

الحياة والموت والحياة الأخرى التي وُعد بها المظلومون ، حتى ذهبوا إلى تفضيل وضع المحرومين على وضع المنعَّمين ، وإظهار احتقارهم لعالم الترف وترفّعهم عنه . وهذا ما نفصّله فيما يلي :

1 ـ **دعوة الرشيد إلى التواضع** : فالكبر يبعد المسؤول عن واجبه ويقف حاجزاً بينه وبين الفقير والمظلوم والمتألم ، في حين أن التواضع يقرّبه منهم ويدنيهم منه مهيّئاً له أن يتلمّس مشاكلهم ويتحسّس همومهم . ويذهب ابن السماك إلى أن التواضع الذي يصاحب المركز الشريف ، أكبر قيمة من الشرف (لأن التواضع من عمل الإرادة ، بينما الشرف يأتي من المنبت ولا فضل للإنسان فيه) ، بل إن قيمة التواضع تزداد كلّما ارتفعت درجات الشرف . فإذا ما جمع إليه سخاء اليد وعفّة النفس ، نال صاحبه ثواب الآخرة»[1] . وعندما تعرّض سعدون المجنون للرشيد في الكوفة ، روى له قولاً عن قدامة بن عبد الله العمري : «رأيت رسول الله ﷺ ، يرمي جمرة العقبة : لا ضرب ولا طرد ، ولا قال : إليك ، إليك» . ثمّ قال له : «تواضعك في سفرك هذا خير من تكبّرك»[2] .

2 ـ **تزهيده بمركزه لما يمثله من رمز لترف الدنيا** : فالخلافة بلاء يحق الهرب منه . يذكر الفضيل للرشيد كلمة عن عمر بن عبدالعزيز لبعض خاصته يقول فيها : «إني قد ابتُليت بهذا البلاء ، فأشيروا عليّ» ويقول للرشيد : «فعدّ الخلافة بلاء ، وعددتَها أنت وأصحابك نعمة»[3] . وروى الفضيل أيضاً للرشيد حديثاً عن الرسول ﷺ يردّ فيه على عمّه الذي طلب إمارة ، يقول : «يا عبّاس ، نفس تحييها خير من إمارة لا تحصيها . إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة . . .»[4] ويتلو هذا التزهيد ، عن قرب ، تخويف من مسؤولية رعاية الأمة . فيقول الفضيل ، واعظاً إياه ، «أنت ، يا حسن الوجه ، الذي أمْرُ هذه الأمة في يدك وعنقك ، لقد تقلّدتَ أمراً عظيماً»[5] . ويقول أيضاً في المعنى نفسه : «أنت الذي يسألك الله عن هذا الخلق يوم القيامة . فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار ، فافعل»[6] .

3 ـ **إقناع الرشيد ، وسائر المترفين ، بأنهم هم الفقراء الحقيقيون** : لأن ما يتشبّثون به من عَرَض الدنيا زائل ، يعطونه الأهمّيّة ولا قيمة فعليّة له . فحين قال الرشيد للفضيل بن عياض : «ما أزهدك !»

---

1 يقول ابن السمّاك «مخاطباً الرشيد : «يا أمير المؤمنين ، تواضعك في شرفك خير من شرفك . . إن رجلاً آتاه الله مالاً وجمالاً وحسباً فواسى في ماله وعفّ في جماله وتواضع في شرفه ، كُتب في ديوان الله ، عزّ وجل» . (زهرالآداب ج4 ص 883) .

2 ثمّ زاد قولاً مماثلاً لقول ابن السمّاك أعلاه . راجع جمع الجواهر ص 163 والغرر والعرر ص 231 والكشكول ج3 ص 316) .

3 المستطرف ج 1 ص 80) .

4 المصدر نفسه .

5 مروج الذهب ج 3 ص 273 ـ وفيات الأعيان ج 2 ص 152 ـ تاريخ الخلفاء ص 285 .

6 المستطرف ج 1 ص 80 .

«أجابه الفضيل : «أنت أزهد منّي . . . لأني أزهد في الدنيا ، وأنت تزهد في الآخرة . والدنيا فانية ، والآخرة باقية»[1] . وحين أتى الرشيد بماء ليشرب سأله ابن السمّاك : «لو مُنعتَ هذه الشربة ، بكم كنت تشتريها ؟ قال : بنصف ملكي» . فلما شربها ، قال له : «لو منعت خروجها من بدنك ، بماذا كنت تشتريها ؟ قال : بجميع ملكي . . .» قال ابن السمّاك : «إن ملكاً قيمته شربة ماء جدير ألا ينافَس فيه»[2] . . ويلحق بهذا تزهيد في الدنيا الفانية ، في إقطاعاتها ومحاسنها ، قصورها وحدائقها ، طالما لن ينال الإنسانَ منها أكثرُ من «ظل الميل» كما يقول سعدون للرشيد :

ألا يـــا طالِـــبَ الدُنيـــا ... دَعِ الدنيـــا لِشانِيكـــا
فمـــا تصنـــعُ بالدنيـــا ... وظِـــلُّ المِيـــلِ يكفيكا[3] ؟

4 ـ ذكر الموت أمام الرشيد لتنغيص حياة الترف عليه : وللتنديد بغفلته عن حقيقة محتومة على الجميع حتى على من زها منهم بعتوّه وجبروته . يقول أبو العتاهية :

يا مؤثرَ الدنيـــا وطالبَها ... والمستعدَّ لِمَـــنْ يُفاخِرُهُ
نَلْ مـــا بدا لكَ أن تنالَ ... من الدنيا فإنّ الموتَ آخِرُهُ[4]

فالأجدر بالإنسان ، بدلاً من طلب الدنيا ، أن ينوح على نفسه ، طالما أنه ميّت لا محالة . يقول أبو العتاهية ، في شعره الذي غنى به الملاحون الرشيد :

كلُّ نطّاحٍ من الدهر لـــه يـــومٌ نَطـــوح
نُحْ على نفسِكَ ، يا مسكينُ إن كنتَ تنوحُ[5]

ولا شكّ في أن رفع شعار الموت وتصويره متربّصاً في زوايا الحياة يكفي ليغشّي ، بظل أسود قاتم ، أفراح النعيم ومسرّات الترف . والموت حقّ ، لكن الإنسان ، لو فكّر فيه دوماً ، لما استطاب طعماً لهذه الدنيا :

لـــو أنّ ذِكرَ الموتِ لازَمَنَا ... لم ينتفـــعْ بالعيشِ ذاكِرُهُ[6]

ولعلّ أكبرَ مُنَغِّصٍ للسرور ذكرُ الموت في لحظات النشوة والسعادة إذا صوّر كأنه حاضر منتظر . ولنا في هذا المعنى صورة يرسمها أبو العتاهية للرشيد :

---

1 وفيات الأعيان ج 2 ص 152 .

2 تاريخ الطبري ج8 ص 357 والعقد الفريد ج3 ص 164 .

3 الغرر والعرر ص 232 (شانيك : مبغضك) .

4 ديوان الأنوار الزاهية ج 1 ص 123 ومروج الذهب ج 3 ص 283 .

5 الأغاني ج 4 ص 105 .

6 مروج الذهب ج 3 ص 283 .

لا تأمَنِ الموتَ في طَرْفٍ ولا نَفَسٍ إذا تستّرتَ بالأبــوابِ والحَرَسِ
واعلمْ بأنَّ سهامَ الموتِ قاصدةٌ لِكُــلِّ مُــدَّرعٍ منّــا ومُتّرِسِ
ترجو النجاةَ ، ولم تَسلُكْ طريقَتَها إن السفينةَ لا تَجري على اليَبَسِ[1]

ولقد أخذ أبو العتاهية ، على عاتقه ، كما رأينا ، مهمّة التنغيص هذه ، في كل مناسبة يقدم للرشيد وعظاً . وقصّته مشهورة إذ طلب منه الرشيد وصف مجلس زخرفه قائلاً : «صف لنا ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا ، فأنشد :

عِشْ مــا بــدا لكَ سالمــاً في ظِــلِّ شاهقــةِ القُصورِ
يُسعى عليــكَ بمــا اشتهيــتَ ، لَدَى الرَواحِ أو البُكورِ
فــإذا النفــوسُ تقعْقَعَتْ في ظــلِّ حَشْرَجَــةِ الصُدورِ
فهنــاكَ تَعلَــمُ مُوقِنــاً مــا كنــتَ إلاّ في غُــرورِ

فبكى الرشيد . فقال الفضل بن يحيى البرمكي : «بعث إليك أميرُ المؤمنين لتسرّه ، فحزنته»[2] ومن شعر آخر لأبي العتاهية طالعه الرشيد وبكى قائلاً : «كأني واللهِ أخاطبَ بذلك ، دون الناس» ، نجتزيء :

أيــنَ الملوكُ وأيــن جندُهمُ صاروا مصيراً أنــت صائرُهُ
يا مَن يريــدُ الموتُ مهجتَهُ ، لا شكَّ ، مالَكَ لا تبادِرُهُ ؟[3]

وعندما يكثر ذكر الموت تتبادر إلى الذهن فكرة المساواة لأن الموت يجمع الغني ، والفقير ، الصغير والكبير[4] ، ولأن كل متاع الدنيا يبقى في هذه الدنيا ، فلا يأخذ المرء معه إلا ما عمل ، يواجه به ما بعد الموت .

5 ـ عالم ما بعد الموت وسلطان الزهاد : فيه يتميّز من اختار الحرمان الدنيوي طائعاً . فالمفارقات هي من معالم الدنيا ، وعَرَضٌ زائل . أما الحقيقة الأبدية السرمدية فتبدأ من الموت .

---

1 الأغاني ج 4 ص 108 . ويقول سعدون المجنون في هذا المعنى :

هَبِ الدنيــا تُواتيكــا أليسَ المــوتُ يأتيكا ؟
كما أضحككَ الدهْــرُ كذاك ، الدهرُ يُبكيكا

(الغرر والعرر ص 232) .

2 الكامل في التاريخ ج 5 ص 133 . راجع ص 401 من البحث .

3 مروج الذهب ج 3 ص 283 وأفكار أبي العتاهية في الموت تملأ ديوانه .

4 يقول أبو العتاهية في قصيدته المذكورة :

فسبيلُنا في الموتِ مُشتَرَكٌ تتلــو أعاليــه أصاغرَهُ

(ديوان الأنوار الزاهية ج 1 ص 123) .

ومنذ الموت تبدأ المساواة ، وعند البعث يقف الناس بين يدي الخالق متساوين في إنسانيتهم ، متمايزين بما كسبوا في دنياهم[1] . هناك ترجح كفة من كانوا محرومين في عالمنا لأن الترف هو صنو اللهو واللذّات والغفلة عن ذكر الله ، ولأن الجاه والتحكّم صنوا الظلم والشطط عن تعاليم الدين والحق[2] ، بينما الحرمان هو مرادف لكبح جماح الأهواء ورياضة النفس على العبادة الصادقة وتكريس الذات لتمجيد الخالق[3] . ولا شكّ في أن هذه المعادلة المعكوسة ، والتي تميل إلى صالح الزهاد والوعّاظ ، أدركها هؤلاء ، كما أدركوا اقتناع الرشيد بها ، وكشفوا إحساسه بالذنب وبعدم ضمان الآخرة . فكان من هنا منطلق السلطان الذي اكتسبه الزهّاد على شخص الرشيد[4] ، والتعالي الذي عاملوه به ، مترفّعين عن مشاطرته دنياه والتردّي في مهاوي خطئه[5] . والرشيد ، في

---

1 حين أُحضر الرشيدُ ابنَ السمّاك ليعظه قال : «. . . واعلم أنك واقفٌ غداً بين يدي الله ربِكَ ، ثم مصروفٌ إلى إحدى منزلتين لا ثالثة لهما : جنّةٍ أو نار» . وإذ حاول ابن الربيع التدخّل ليؤكّد أن الرشيد ليس كبقية الناس ، وأنه ذاهب حتماً إلى الجنة ، أقبل ابن السمّاك على الخليفة قائلاً : «إن هذا ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم . فاتق الله وانظر لنفسك» . (الطبري ج 8 ص 357) ويقول أبو العتاهية أيضاً ، في القصيدة التي بكى منها الرشيد :

مَـن كانَ عندَ اللهِ مذّخِرا   فَستَستبينُ غـداً ذخائرَهُ
أَمِنَ الفناءَ عـلى ذخائرِهِ   وجرى لــه بالسعدِ طائرُهُ

(ديوان الأنوار الزاهية ج 1 ص 123) .

2 رأينا سابقاً نعت الخلافة بأنها بلاء والإمارة بأنها حسرة وندامة ، كما رأينا تهرّب الفقهاء والزّهاد من تولّي القضاء والمناصب . وقد طلب الرشيد من ابن السمّاك يوماً أن يعظه فاتهمه بالسطو على حقوق الشعب إذ قال : «قال الله تعالى : (بسم الله الرحمن الرحيم) ﴿ويل للمطفّفين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . . . إلى قوله لرب العالمين﴾ هذا ، يا أمير المؤمنين ، وعيد لمن طفّف في الكيل ، فما بالك بمن أخذه كلّه ؟» (العقد الفريد ج 3 ص164) . وحين أمر الرشيد بجائزة للبهلول ، قال هذا : «لا حاجة لي فيها ، ردّها إلى من أخذتها منه» . (الكشكول ج 3 ص 316) وجمع الجواهر ص 163 والغرر والعرر ص 231 . ويحذّره الفضيل بن عياض من غش رعيته قائلاً : «إياك أن تصبح أو تمسي وفي قلبك غش لرعيّتك . فإن من أصبح لهم غاشًّا لم يَرُح رائحةَ الجنة» (المستطرف ج 1 ص 81) .

3 يدعو الفضيل بن عيّاض الرشيد إلى التمثّل بالمحرومين ، وترك مباهج الدنيا إذا أراد الآخرة مذكّراً بقول سالم بن عبدالعزيز بن عبدالعزيز : «إن أردت النجاة غداً من عذاب الله ، فصم عن الدنيا ، وليكن إفطارك فيها على الموت» . (المستطرف ج 1 ص 80) .

4 مرّ بنا جلوس الرشيد بين يديّ مالك ليسمع منه الموّطأ ، وتحدّثنا كثيراً عن بكائه لدى الموعظة . ونضيف أن الرشيد كان يقبل راضياً بقساوة الوعّاظ عليه وتنغيصهم لحظات سروره . فحين لام ابنُ الربيع أبا العتاهية على قلب مسرة الرشيد غمًّا ، تدخّل الرشيد ليقول : «دعه ، فإنه رآنا في عمى ، فكره أن يزيدنا» . (الكامل في التاريخ ج 5 ص341) .

5 نذكّر بموقف الفضيل حين قصده الرشيد إذ أطفأ السراج وارتقى الغرفة وانزوى متهرّباً من الحديث إلى الخليفة ، كما نذكّر برفض الزهّاد لعطايا الرشيد ، وقد قال الفضيل «لو طابت لأولئك لطابت لي» . (مروج الذهب ج 3

حماسه لإظهار استكانته إلى الوعّاظ ، يشتطّ أحياناً عن قيمة مركزه ويغالي في تقدير الزاهد الذي اصطفاه . فعندما قصد العابدَ المعتزلَ في جبال تهامة ، سأله من حاله ثمّ قال له : «أوصني ، ومرني بما شئت ، فوالله لا عصيتك . فسكت عنه ولم يردّ عليه جواباً . فخرج عنه هارون . فقال له أصحابه : ما منعك ، إذ سألك أن تأمره بما شئت وقد حلف ألا يعصيك ، أن تأمره بتقوى اللّه والإحسان إلى رعيّته ؟ فخطّ لهم في الرمل : إني أعظمت الله أن يكون يأمره فيعصيه ، وآمره أنا فيطيعني . .»[1] هكذا يبدو الرشيد ، أمام الزاهد الحقيقي : ضعيفاً ، مذنباً ، تابعاً ، كما يبدو الواعظ متسلّطاً ، مترفّعاً ، قاسياً ، وحتى متشفّياً أحياناً . وهذا ما دعانا إلى قول إن الوعظ كان نقطة ضعف الرشيد . يذكر ابن تغري بردي أن ابن السمّاك أبكى الرشيد . فقال له بعض خواصه : «إرفق بأمير المؤمنين . فقال : دعه ، فليمت حتى يقال : خليفة الله مات من مخافة الله»[2] وحين أبكاه الفضيل بن عيّاض وتدخّل ابن الربيع ليقول : «إرفق بأمير المؤمنين» . قال : يا ابن الربيع ، قتلتَه أنت وأصحابك ، وأرفقُ به أنا ؟»[3] .

خاتمة

يبدو أن الطبيعة تلتذّ أحياناً بجمع الأعلام ، على كل صعيد ، ووهْبها لعصر من العصور محدثة فيه دوياً هائلاً لكثرة ما يضجّ بالحركة والبحث وإنتاج الفكر والقلب[4] . ولعلّ عصر الرشيد كان من أسعد العصور في هذا المضمار ، فقد اجتمع له الرشيد ، ومعه البرامكة ، وقربهم نخبة اللغويّين والفقهاء والنحويين والمتكلّمين ، والعلماء والمترجمين والمغنّين ؛ ومع هؤلاء وسواهم كثير ، كان في هذا العصر نخبة كبيرة من الزهّاد والوعّاظ سُجّلت لهم مآثر ومواقف تناقلتها العصور التالية ، وبلغوا من الجرأة درجة التهوّر . ولعلّ هذه الجرأة ساهمت في جعل أفكارهم ومواعظهم تتبلور أدباً يُذاع وينشر ، كما يُحفظ ويُتوارث . وجرأتهم ، أيضاً ، جعلت هذا الأدب المذكِّر ، المهدِّد ، المتوعِّد ، المندِّد ، يُوَجَّهُ إلى قمة هرم الساهين عن الآخرة ، اللاهين بملذات الدنيا ، المبذّرين لأموال المسلمين ، في نظرهم ، فاستهدف الخليفة الذي بيده صلاح الأمور

= ص273) ويقول البهلول للرشيد ، وهو يرفض هبته : «أنا وأنت عيال الله . فمحال أن يذكرك وينساني» . (الكشكول ج 3 ص166) .

1 العقد الفريد ج 3 ص 170 .

2 النجوم الزاهرة ج 2 ص 111 .

3 المستطرف ج 1 ص 80 .

4 يقول فولتير في تأريخه لعصر لويس الرابع عشر : «كان يبدو أن الطبيعة جعلت متعتها ، حينئذ ، في أن توجد لفرنسا أكبر الرجال في جميع الفنون ، وأن تجمع في البلاط أروع ما قُدّر له أن يوجد من جمال الخلقة وبديع التكوين في رجال أو نساء» . Le Siècle de Louis XIV, p. 66 .

وفسادها على هذه الأرض . ولا شكّ في أن أدب الزهد الموجّه إلى الخليفة ، لا يمكن له أن يزدهر ويغزر ، من طرف واحد . بل لا بدّ للطرف الآخر ، من أن يكون فاعلاً في عملية التأثير أو التلقّي ، فيتقبّل ويستمع ويشجّع . وهنا يتلاقى أدب الزهد وأدب التكسّب في تشابه معكوس على أرض البلاط . فكلا الأدبين يحتاج إلى طرف يعلو ويشمخ وطرف آخر يلين ويتقبّل : أدب التكسّب يحتاج إلى الخليفة الكبير المغرور الذي يطرب للمدح بكل ما يتضمّنه من مغالاة ، وإلى شاعر يسخّر موهبته ونفسه لإرضاء نزوات الخليفة . وأدب الوعظ يحتاج إلى واعظ أبيّ جريء يستشعر قوة الإيمان وغلبة نظرة الحق ، فلا يهاب إنساناً مخلوقاً ، بل يعلو صوته في كل مكان . كذلك يحتاج أدب الوعظ إلى الطرَف المتلقّي ، يستمع إلى ما يواجَه به من نقد وتجريح بجناح مخفوض . فإذا ما كان هذا الطرف خليفة طاغية بان للوعظ هدف وزادت منه القيمة ، وازدحم فيه المتنافسون ، فعرف مرحلة ازدهار ، ودخل صراعاً عنيفاً مع الترف واللهو . ولا بدّ لنا الآن من التساؤل عن نتيجة الصراع الذي خاضه الزهد مع الترف حول الرشيد . . . الحقيقة أننا نعجب لهارون الرشيد كيف جمع التناقضات في شخصه ، واستقطبها في محيطه ، وعاش وسطها حياته ؟ كيف استطاع من يخاف الله خوفه ، ويصلّي صلاته ، ويؤدّي فروضه ، أن يعيش لحظات لهو ومنادمة وشرب وطرب كلحظاته ؟ إنه الرشيد . ترى ، هل كان يَترك الوعظَ عند الواعظ ، ويكتفي بكفارة الدموع التي يسكبها بسخاء ؟ ليس الأمر كذلك . ولكن الرشيد كان نموذجاً يمثل ذلك العصر . فلو أنه وضع المواعظ نصب عينيه دائماً ، لضاقت في وجهه الأسباب ولما استطاع أن يعطي الحياة حقّها من المتعة ومن الرغبة في العيش . لكن الوعظ كان عنده صمّام الأمان ، ينبّهه ويدقّ ناقوس الإنذار كلّما قارب الشطط . ولقد تأثر الرشيد فعلاً بواعظيه وأحسن الإصغاء إليهم ونقل ، في بعض المناسبات ، معاني الوعظ إلى الناس : فهو إمام ، والإمام ينتصب خطيباً يعظ ويذكّر . فأعاد الرشيد على مسامع رعيّته ما اعتاد أن يتلقاه من واعظيه . تحدّث عن طاعة الله ، وأوصى «بتقوى الله ، فإن في التقوى تكفير السيّئات وتضعيف الحسنات ، وفوزاً بالجنة ونجاة من النار» . وحذّر الغافلين عن «يوم البعث ويوم التغابن ويوم التلاق ويوم التناد ، يوم لا يُستعتَب من سيّئة ولا يُزاد في حسنة» . وأمر رعيّته بالورع والأمانة والزكاة ، ونصح لهم أن «سارعوا إلى المغفرة بالتوبة ، وإلى الرحمة بالتقوى» . ونبّههم إلى ضرورة مقاومة رغبات النفس وأهوائها وأمانيها ، فهذه «قد غرّت وأردت وأوبقت كثيراً» . وتحدّث عن الموت الذي يختطف الآباء والأبناء والأحباء من بيوتهم ، من بين أظهر أهلهم ، فلا يستطيعون دفعه عنهم ، يسلّمهم «إلى أعمالهم عند الموقف والحساب والعقاب ﴿ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾»[1] . لكن الوعظ من فم الزاهد غير الوعظ من فم الخليفة الذي تنقاد الدنيا

---

1 العقد الفريد ج 4 ص 103 و 104 .

له . فليس فيما يقوله الرشيد على منبر الجامع روعة ولا رهبة . ومع أن تأثره الشديد ، الذي سبق لنا التركيز عليه ، يؤهله ليتحدث عن المواضيع المذكورة بعمق ومعاناة ، فإن وعظه ظلّ تقليدياً تتكرّر فيه معاني خطباء يوم الجمعة . ولا شكّ في أن الحديث إلى مجموعة كبيرة من الناس ، بمعان عامة معروفة ، غير الحديث إلى شخص واحد ، في موضوع محدّد ، يمسّه ويلامس مشاغله ومخاوفه . ولا شك أيضاً في أن الواعظ الذي لا يجسّد ما يقدّمه من دعوة إلى خوف الله والزهد في الحياة ، لا يُسمع له كلام ، ولا شكّ كذلك في أن الرشيد الذي يلهو ويحكم ويطغى ويتجبر ، ثمّ يصلّي في وقت الصلاة ويقوم الليل ساجداً راكعاً ، قارئاً القرآن ، جعل لكل ساعة شغلاً ، وترك لكل وجه من وجوه الحياة صدى في نفسه ، كأنه وُجد ليكون نموذجاً للإنسان في كل ما وُهب من طاقات تعبّ من الحياة وتخشع لرب الحياة . . . ولأن لقاء الدنيا والآخرة في نفس الرشيد كان أبرز منه لدى أي خليفة آخر ، فقد أمكن الحديث عن دوره في تعميق الترف وتشجيع الزهد ، يُكبر هذا بخشوعه وخضوعه ، ويرفد ذاك بأعطياته ومنحه التي ترفع مستوى عيش المتّصلين به وتثير النقمة والأسى في نفوس الطامحين المبعدين .

الباب الثاني
شخصية الرشيد من خلال الأجواء الأدبية

أَغيثاً تحملُ الناقــةُ أم تحمــلُ هارونا ؟
أم الشمسَ ، أم البدرَ ، أم الدنيا أم الدينا ؟
ألا لا ، بــل أرى كلَّ الذي عدّدتُ مقرونا
على مَفــرِقِ هــارونٍ ، فَداهُ الآدميُّونا[1]

عمر بن سلمة

تحدثنا ، في الباب السابق ، عن الرشيد في دورٍ فاعل باشره مع الثقافة والأدب في أيامه ، تاركاً عليهما بصماته . لكن الدور في العلاقات الإنسانية والفنية لا يمكن أن يبقى في خطه المستقل ، لأن التفاعل في اتجاه واحد يفقد معناه . فكل دور له وجه آخر ينجم عن ردود الفعل عليه ليبقى التفاعل سائراً في الاتجاهين : التأثير والتأثر . هكذا كان الرشيد في تفاعله مع أجواء عصره الأدبية : طبعها بطابعه وطبعته بطابعها . فما هي البصمات التي تركتها على شخصه ؟ وكيف تبدو صورته من خلالها ؟ هذا ما نحاول إظهاره ، مؤكدين ملحوظة سبق لنا إبداؤها ، وهي أننا نواجه الأثر الأدبي ،في بحثنا ، كما هو ، ولسنا بصدد التحقق من صدق الملامح التي يرسمها ، إنما همّنا أن نرى كيف رسمها . وهذا لا يعني أننا لن نحاول مقارنة الصورة بالحقيقة ، وأننا لن نحاول البحث عن أسباب بروز ملامح هنا وتضاؤل ملامح هناك ، وربط ذلك بعقلية الناس ومكانة الرشيد وبلاطه والصراعات القائمة على صفحة العصر . ولأن الرشيد كان متعدد الأدوار ، فإننا نستقصي ملامح صورته التي رسمها له أدباء العصر من خلال أدوار ثلاثة نعتدّها الأبرز والأوضح ، فنتأمل صورته كإنسان ، وصورته كحاكم وقائد ، وصورته كخليفة لرسول اللّه قيّم على دينه ، منفّذ للشريعة وناشر للدعوة . بقي أن ننبّه إلى أن صورة الرشيد هذه ، المتعددة الجوانب ، تطل علينا من خلال أدب المدح والتقريظ ، وأنها ، بالتالي ، تستقي منابع المثالية العربية في الإنسان والحاكم والقائد والخليفة .

---

1 طبقات ابن المعتز ص 150 .

الفصل الأول
الرشيد الإنسان والمثالية العربية

دع ذا وَعَدِّ القولَ في هرمٍ	خيرِ البُداةِ وسيّدِ الحَضَرِ
تاللهِ ، ذا قَسَماً لقد عَلِمتْ	ذُبيانُ ، عامَ الحَبْسِ والأَصْرِ
أنْ نِعمَ مُعترَكُ الجياعِ إذا	خَبَّ السفيرُ ، وسابئِ الخَمرِ
ولنعمَ حشوُ الدِّرعِ أنتَ إذا	دُعيتَ : نَزالِ ، ولَجَّ في الذُعرِ
ولأنتَ أوصلُ مَنْ سَمِعْتُ به	لِشَوابِكِ الأرحامِ والصِهْرِ
حَدِبٌ على المولى الضَريكِ إذا	نابت عليه نوائبُ الدَهْرِ
السِترُ دون الفاحشاتِ وما	يلقاك ، دون الخيرِ ، من سِترِ
لو كنتَ ، من شيءٍ سوى بَشَرٍ ،	كنتَ المنوِّرِ ليلةَ البدْرِ[1]

زهير بن أبي سلمى

الفصل الأول : الرشيد الإنسان والمثالية العربية

لقد درج العرب ، منذ الجاهلية ، على المدح بصفات تشكّل في مجموعها المثالية العربية . وهذه المثالية تتجسّد عادة في «السيّد» الذي يعادل «الفارس» المعروف في أوروبا . وأهم ما يتميّز به السيد ، فضلاً عن حسن المظهر ولطف المعشر وفصاحة اللسان ، الكرم الذي يظهر في أيام الشدّة حين يبخل الناس خوفاً من الجوع ، فيصبح قِرى الأضياف وسقيهم الخمر إمعاناً في الترفّع عن المال وإذلاله . ومما يتميّز به أيضاً الشجاعة والثبات في الحروب ، ونجدة المحتاج ، وصلة الرحم إذ كانت العصبية العائلية سياج الجماعة يحميها ويقوّيها ، ثمّ العفّة عن الفاحشة والإقبال على الخير وما إلى ذلك من فضائل ، إن كانت عرفت التقديس في الجاهلية ، فإنها فضائل إنسانية اجتماعية ذات قيمة مطلقة تخرج عن قيد الزمان والمكان ، وتشترك ، في معظمها ، سائر المجتمعات والأديان . ولئن اعتمد العرب القِرى مظهراً مهماً من مظاهر الكرم ، بسبب طبيعة الصحراء ، ولئن اختاروا العفّة ، من بين مكارم الأخلاق ، بسبب سهولة إتيان الفحشاء في عالمهم حيث لا أبواب ولا أسوار ، فإن هذه الفضائل لم تبق وقفاً على حياة الصحراء ، واحتفظت بقيمتها على مرّ الأيام ، واستمدّت من تعاليم الدين الإسلامي قوّة وثباتاً . والحقيقة أن الفضائل التي تلتصق بالتراث الثقافي للجماعة تنبع عادة من واقعهم كبشر ، كما تنبع من ظروف حياتهم الخاصة . لكن العرب ، الذين عاشوا التطرّف بجميع أشكاله ، عرفوا كيف يخرجون مثاليتهم

---

1 ديوان زهير ـ شرح الأعلم الشنتمري ـ ص 60 وما بعد .

الخلقية من ظروف الزمان والبيئة ، إلى عالم القيمة المطلقة . فإذا كان القِرى ضرورياً لحياة الصحراء ، حيث لا مأوى ثابتاً ولا ماء جارياً ، فإن أصحاب العطاء بالغوا في الكرم حتى أطعموا المحتاج ومن لا يحتاج ، وأعطوا من مالهم كل من رغب في عطاء . وتطوّرت هذه الفضيلة ، كما رأينا ، مع تربّع الخلفاء على عرش دولة غنيّة ، حتى وصلت إلى الرشيد في قمّة تجلّيها إذ أصبح العطاء عنده فرضاً لازماً يؤدّيه إلى كل من يتصل به ، إنساناً عادياً كان أو أميراً ، فغدا عطاء الخليفة دخلاً من مداخيل الأمراء يضاف إلى دخلهم من مواردهم الخاصة ، مع أنهم لم يكونوا غريبين عن فضيلة العطاء ينفقون في سبيلها ما ينالون وما يملكون . كذلك لم تفقد ملامح «السيد» الأخرى جاذبها ورونقها فظلّت هدفاً للشعراء يفصّلونها ويخيطونها أثواباً يوشّونها ويرصّعونها ليُلبسوها ممدوحيهم . ولم يكن مدح الملوك ليبعد عن هذه الفضائل فهي تشكّل ، في مجموعها ، المثالية التي لا يمكن تجاوزها ، كما يصعب تعديلها لأنها مدعومة بأجيال من الشعراء وبعيون الشعر . ويعيد قدامة بن جعفر المثالية العربية إلى أربع فضائل أساسية فيقول : «لمّا كانت فضائل الناس ، من حيث هم ناس ، لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان ، على ما عليه أهل الألباب من الاتفاق في ذلك ، إنما هي العقل والشجاعة والعدل والعفّة ، كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيباً ، والمادح بغيرها مخطئاً . ثمّ قد يجوز ، مع ذلك ، أن يقصد الشاعر للمدح منها بالبعض ، والإغراق فيه دون البعض ، مثل أن يصف الشاعر إنساناً بالجود ، الذي هو أحد أقسام العدل ، وحده ، فيغرق فيه ويفتنّ في معانيه ، أو بالنجدة ، فقط ، فيعمل فيها مثل ذلك ؛ أو بهما ، ويقصر عليهما دون غيرهما . فلا يسمى مخطئاً ، لإصابته في مدح الإنسان ببعض فضائله ، لكن يسمّى مقصّراً عن استكمال جميع المدح . . . فقد وجب أن يكون ، على هذا القياس ، المصيب من الشعراء من مدح الرجال بهذه الخلال ، لا بغيرها . والبالغ التجويد إلى أقصى حدوده من استوعبها ولم يقتصر على بعضها . . .»[1] والذي يلفتنا في قول قدامة أن المدح النموذجي يستقي المثاليات الموضوعة ، قبل كل شيء ، وقبل استقاء صفات الممدوح الحقيقية . ويكون المدح ، بالتالي ، ارتقاء بالممدوح ، باتجاه المثالية عن طريق تقريب الصورة النموذجية إلى الواقع باكتشاف مظاهر تجلّيها في أخلاق الممدوح وتصرّفاته . وقد رأينا أن الشاعر يوجّه ، عادة ، هذه المثالية وجهة أغراضه . فإذا كان يمدح ليعتذر ، وجد في الممدوح صفات الحلم مع القدرة ، وطيبة القلب ونقاوة السريرة ، وإذا كان يمدح لينال الرفد وجد في الممدوح نهراً متدفّقاً معطاء ، وهكذا دواليك . والذي يهمّنا أن نستنتجه مما قدّمناه أن الصفات التي تطلق على الممدوح ليست متأصلة فيه ، بالضرورة . والدليل على ذلك أولئك الشعراء الذين مدحوا رجاء الحصول على مطلب ، فإذا ما عزّ عليهم إدراكه ، انقلبوا على من مدحوه ووجدوا في

---

1 نقد الشعر ص 69 .

قاموس الألفاظ والنعوت ما يكفي لإنزاله عن المنبر الذي رفعوه إليه بمدحهم . وننبّه هنا إلى أن معاصري الممدوح ، الذين يعرفونه جيداً ، يتطلّعون إلى الصورة دون استغراب ، وإن حفلت بأوصاف لا أساس لها ، لأنهم يعرفون تماماً أن مهمة المدح هي أحداث هذه النقلة من الواقع العادي إلى الرسم المثالي . ومع ذلك ، فإن الإطار الذي تطل منه صورة الممدوح على الأجيال التالية ، هو الإطار ، الذي يغلب عليه الزيف أو التنميق ، والذي يصنعه الشاعر لصورة ممدوحه . فتخلد معالم هذه الصورة بينما تختفي حقيقته لأنها حقيقة إنسان من هؤلاء الناس الذين يحيون ويموتون دون أن يدري بهم أحد . . . ومع أن الرشيد شغل ناس عصره كلّهم ، شعراءهم وأدبائهم ومؤرخيهم ، فرسموا له ، جميعاً ، صوراً مشرقة ، فالأرجح أن ما خلّفه الشعراء هو الذي غلب على الصور الأخرى ، بل كان النبع الذي استقت منه هذه الصور ملامح تؤكّد حدثها التاريخي أو نكتتها الأدبية . ونحن نعمد الآن إلى تلمّس معالم اللوحة الرشيدية التي خطّتها أقلام الشعر ، محاولين استشفاف جذورها في حوافز الرسّامين وعقلية العصر ، عندما نستطيع ذلك .

أولاً : شرف النسب

اعتُدّ شرف النسب شرطاً أساسياً للسيادة ، ودليلاً على أن ما يوصف به الممدوح من صفات ليس حدثاً طارئاً[1] بل شيئاً موروثاً عميق الجذور ، تأصّل من خلال انتقاله في سلالة طويلة من الآباء والأجداد . وهذا يعني أن هؤلاء الآباء والأجداد ، ومَن يعايش الممدوح من أقارب ، كلّهم أشرافٌ صيد ، يتمتعون بمجموعة الفضائل العربية التي لا بدّ من أن يتّصف بها هو . والرشيد ، بصرف النظر عن كونه خليفة ومن أشرف سلالة عربية (وهذا ما نراه في فصل لاحق) هو خير خلف لخير سلف[2] . من رهط عرفوا بالأصالة واتصفوا بالعفاف والطهارة[3] ، كما عرفوا بالفصاحة واللَّسَن : لهم المبادرة في المجالس حين تُطرح مواضيع الجد وأمور المصير ، وهم يصمتون حين يكون الحديث

---

1 يقول زهير ذلك بصراحة في ممدوحه :

مُوَرَّثُ المجدِ ، لا يَغتالُ هِمّتَهُ ، عن الرياسةِ ، لا عَجْزٌ ولا سأمُ

(الديوان ـ شرح الشنتمري ـ ص 59) .

2 يقول يحيى بن زياد ، في رسالته لتقريظ الرشيد : «إن الله قدّم له الصنع في سابق علمه ، فجعل محتده خير المحاتد عنصراً ، ثمّ اختار له أباً فأباً : لا ينقله من أب إلى أب إلاّ نَقَل معه وإليه فضيلة العنصر الذي هو منه ، حتى صيّره ، بعد فضائل آبائه ، إلى أفضل بَدَنَة ، فكان خير خلف من خير سلف» . (جمهرة رسائل العرب ج 3 ص 244) .

3 من قول علي بن الخليل في الرشيد :

مِن عِتْرةٍ طابتْ أرومتُهم أهلِ العفافِ ومنتهى القُدسِ

نُطُقٍ إذا احتُضِرتْ مجالسُهم وعن السفاهةِ والخنا ، خُرسِ

(الأغاني ج 14 ص 166 وأمالي المرتضى ج 1 ص 102 وزهر الآداب ج4 ص 865) .

سفاهة وغيبة وفجوراً[1] . أما كرمهم فمشهور عَرَفَه القاصي والداني وجرّبه ، حتى باتوا أقرب الناس إلى وصف زهير لهرم بن سنان :

قد جَعَلَ المبتغونَ الخيرَ من هَرِمٍ ‏ ‏ ‏ ‏ والسائلونَ ، إلى أبوابِـهِ ، طُرُقا[2]

لكنهم زادوا عليه ، فلم يكتفوا بتعبيد الطريق بينهم وبين ذوي الحاجات ، إنما أرادوا هذه الطرق مأهولة ، أبداً ، بالغادين والرائحين يتزاحم فيها قاصدون إليهم ليغبّوا من منهلهم ، وصادرون عنهم قد شربوا فارتووا . وكما استنفدوا صفات الكرم ، فإنهم يستنفدون صفات الشجاعة والبأس إذ يتصدّون للملمات يدفعونها برؤوس الرماح الحادة وحدّ السيوف القاطعة[3] . فلا غرو ، بعد ذلك من أن يشبهوا غرسة هائلة عظيمة تَسَعُ الكون : جذورها في الأرض ، وفروعها عند النجوم . . .[4] فيكون أبناء العبّاس كواكب مضيئة تتناوب الإشراق على هذا الكون ، من عليائها . في هذه العلياء ، وبين تلك النجوم يتألق الرشيد ، بدراً في ليلة التمام[5] ، بل هو الشمس ، إذا طلعت ، «أشرقت الدنيا وأينع نورها»[6] .

ثانياً : الصفات الجسدية

1 ـ جمال وجهه : وفقاً للمثل القائل : «الله جميل يحب الجمال» . يرى الشعراء أن من وهب جمالاً ، فقد وهب عناية خاصة من الخالق تعطيه دالّة معيّنة وتؤهله لأن يكون وسيطاً بين الناس

---

1 المصدر نفسه .

2 ديوان زهير ـ دار صادر ـ ص 43 .

3 يقول مروان بن أبي حفصة مادحاً الرشيد بمدح العبّاسيّين :

ومـا الناسُ إلاّ واردٌ لحياضكم ‏ ‏ ‏ ‏ وذو نَهَـلٍ بالريِّ ، عنهنّ صادرُ

حصونُ بني العباسِ ، في كل مأزِقٍ ، ‏ ‏ ‏ ‏ صدورُ العـوالي والسيوفُ البواترُ

(الطبري ج 8 ص 349 وخلاصة الذهب المسبوك ص 111) .

4 من مدح علي بن الخليل :

فـوقَ النجـومِ فروعُ نَبْعَتِهِـمْ ‏ ‏ ‏ ‏ ومع الحضيضِ منابـتُ الغَرْسِ

(الأغاني ج 14 ص 166 وأمالي المرتضى ج 1 ص 102 وزهر الآداب ج 4 ص 865) .

5 يصفه مروان بن أبي حفصة ، بين أولاده وأقاربه :

ترى حوله الأملاكَ من بني هاشمٍ ‏ ‏ ‏ ‏ كما حفَّـتِ البـدرَ النجومُ الزواهرُ

(الطبري ج8 ص 348) .

ويصفه العماني في الاطار نفسه فيقول :

كأنّمـا سيمتُـهُ في البُرْدِ ‏ ‏ ‏ ‏ بين كُهـولِ هاشمٍ والمُرْدِ

بـدرٌ بدا بين نجومِ السَعْدِ

(طبقات ابن المعتز ص 112) .

6 عجز بيت لسلم الخاسر (شعراء عبّاسيون ص 106) .

ورب الناس . فإذا ما اشتدت ملمة ، وبخلت السماء فعنف القحط والجفاف ، وتوجّه الناس إلى الله تعالى يرجون منه رحمة ورضى وغيثاً يحيي الموات ، راحوا يتوسّلون بالأنبياء والأولياء والصالحين منهم ، وحُسْنِ وجه هارون الذي إذا ما واجه السماء تضحك لبهائه وتستبشر ، فتتداعى الغيوم وينبت الرجاء[1] . جمال الوجه هذا ، الذي يستنتج السماء العقيمة مطراً ، له فعل السحر في الناس : إن الأنظار تترقّبه ، فإذا ما بدا من خلال الحجب ، أو انفرجت عنه الأبواب ، تعلّقت به وسَمَت إلى وجهه[2] ، وجهٍ لا مثيل له[3] ، هو البدر يبدّد الظلمات السود[4] . وإذا لم يكن البدرَ نفسَه فهو توأمه ، يقف من يراه مذهولاً أمامه ، متسائلاً : أي التوأمين يرى ؟

أترونَ البــدرَ فيــه　　　أم أميرَ المؤمنينا ؟[5]

لكن هارون البدر ، مع ذلك ، غير بدر السماء . فهذا بدر حالم ناعس ، بينما في وجه هارون عينان كمقلتي صقر ، ترميان الناظر فتصيبانه بالروعة والخشوع . . .[6] ولا بدّ هنا من وقفة وسؤال : هل هذا الإجماع على جمال الرشيد كلّه من صنع الشعر ؟ وهذا التركيز على الحسن ، هل هو مجرّد اتفاق ؟ ليس ذلك من المعقول . ولم يكن الرشيد ممن يُخدعون خدعة بهذا الحجم . إنه يطرب للمديح ، لكنّه لا يأنس إلى الكذب في الإطراء ، ولا إلى الممالأة . ولو سألنا المؤرخين لأكدوا حسنه وجماله . يصفه المسعودي فيقول : «كان تام الخلقة جميلاً»[7] ويصفه الأربلي

---

1 يقول ابن مناذر :

ولــو سَألْنا بِحُسنِ وجهِكَ يا　　　هـارونُ صوبَ الغمامِ أُسقينا

(الأغاني ج 18 ص 118 وراجع ص 40 هامش 1 وص 473 من البحث) .

2 مروان بن أبي حفصة :

تسمو العيونُ إليه كلّما انفرجَتْ　　　للناسِ عن وجهِهِ الأبوابُ والحُجُبُ

(أمالي المرتضى ج 3 ص 33) .

3 ولمروان أيضاً :

إلى وجهِهِ تسمو العيونُ وما سَمَتْ　　　إلى مثلِ هـارونَ العيونُ النواظرُ

(الطبري ج 8 ص 348 وخلاصة الذهب المسبوك ص 111) .

4 عمر بن سلمة :

هــارونُ بـدرٌ باهـرٌ زاهرٌ　　　تنجـاب عنــهُ الظُّلَمُ السودُ

(طبقات ابن المعتز ، ص 152) .

5 لعمر بن سلمة أيضاً . المصدر نفسه .

6 منصور النمري :

كأنّمــا البـدرُ على رَحْلِـهِ　　　ترميكَ منــه مُقلتـا صَخْرِ

(أمالي المرتضى ج 4 ص 186) .

7 التنبيه والإشراف ص 336 .

قائلاً : «كان الرشيد أبيض طويلاً ، سميناً ، جميلاً جعداً»[1] .

2 ـ **سائر الصفات الجسدية** : وهي مستقاة من مثالية القوة : قوّة الجسم وقوّة النفس . **وأبرز صفات القوة الجسدية طول القامة وامتلاء الجسم** . فمنذ القديم كان الطول مجالاً للفخر وصفة يمدح بها السيد في قومه . فطول قامته يساعده على الترفّع والسيطرة بنظره على الآخرين ، كما أن طول الذراعين عنصر مهم في الحروب والمبارزات ، في الكرّ والفر[2] . والرشيد يبرز لنا من خلال الصورة طويل القامة بدليل طول ساعديه وارتفاع حمائل سيفه . فهي ، إذا علقت في وسطه ، يخالها الرائي مشدودة إلى سارية[3] . ومن آيات طوله إشرافه على الرجال من فوق ، فهو يعلوهم جميعاً ويغدو قبلة أنظارهم . ومن آيات طوله اتساع خطوه وسرعة حركته . فهو ، حين يعيا ويكل ، يصبح عدوه كعدو الظليم ، فما بالنا به قبل أن يعيا ويكل ؟[4] وقد أكّد المؤرّخون هذه الظاهرة عنده . فيقول الجاحظ : «كان الرشيد ، إذا طاف بالبيت جعل لإزاره ذنبين ، عن يمين وشمال ، ثمّ طاف بأوسع من خطو الظليم وأسرع من رجع الأرنب»[5] . والطول ، إذن ارتبط بالقوة والقدرة في المدح ، فليس كلّ طويل شجاعاً مقتدراً جريئاً في الواقع . ولا بدّ للرجولة إذن من صفات أخرى أبرزها الجهارة : جهارة الصوت ، جهارة النفَس ، جهارة المنظر حين تطبعه الرجولة والصلابة . فالذي تقع عينه على

---

1 خلاصة الذهب المسبوك . ص 107 ويصفه البغدادي بذلك أيضاً فيقول : «كان هارون أبيض ، طويلاً ، مسمناً ، جميلاً» (تاريخ بغداد ج 14 ص 5) .

2 يقول عنترة واصفاً خصمه بالطول وطيب الأصل ، ليزيد من قيمة انتصاره عليه :

بَطَـلٌ كأنّ ثيابَــه في سَرْحَةٍ ... يُحذَى نِعالَ السِّبْتِ ، ليسَ بتوأمِ

(المعلقة) .

ويقول المبرد : «والرجل يُمدح بالطول ، فلذلك يُذكر طول حمائله» . . . وقال جريرللفرزدق :

فإني لأرضى عبدَ شمس وما قضتْ ... وأرضى الطوالَ البيضَ من آل هاشمِ

وقال الآخر :

لما التقى الصفان واختلف القنا ... نهـالاً وأسباب المنايـا نهالُها

تبيّن لي أن القمــاءةَ ذِلــةٌ ... وأن أشدّاءَ الرجــالِ طِوالُها

(الكامل ج 3 ص 139) .

3 يصف أبو نواس الرشيد فيقول :

أَشَمُّ ، طُوالُ الساعديْنِ كأنما ... يُنــاطُ نِجـادا سيفِــهِ بِلِواءِ

(المحاسن والمساوىء ج 1 ص 183) .

4 ويصفه العماني في حركته :

ويخطو ، على الأينِ ، خطوَ الظليمِ ... ويعلـو الرجــالَ بجسمٍ عَمَمْ

(البيان والتبيين ج 1 ص 151) .

5 المصدر نفسه .

الرشيد ، أو يسمعه ، يحسّ برجولته قبل أن يرى فعله في الحروب والطعان . ولا شكّ في أن جهارة الصوت في الحديث تدلّ من جهة أخرى على قوة الإرادة والثقة بالنفس . فالمتردد في أقواله ، المتلعثم في ألفاظه ، هو إنسان قليل الثقة بنفسه . والمتحدث بصوت خفيف هو إنسان لا يؤمن بما يقول ، أو هو خائف مما يصدر عنه ، ضعيف نياط القلب[1] . . . ونستطيع الآن أن نلملم التقاطيع المتفرقة لتتكوّن منها صورة سريعة لظاهر الرشيد : إنه طويل القامة ، واسع الخطو ، أشم الأنف ، واسع المنخرين ، يتنفّس بشدة ويتكلّم بجهارة . وهو قوي القلب ، واثق من نفسه ، صبوح الوجه ، فريد الحسن . ويجب ألاّ يتهيأن للسامع أن صفات القوة هذه تسم الرشيد بسمة الخشونة والجفاء . إنه على العكس تماماً ، يفيض روعة وبهاء .

3 ـ بهاء الطلعة : إنه يجمع إلى الجسم الجميل والجبين الوضّاح[2] ، إشراق النفس . إنّ فيضاً نورانياً يشع من كيانه كلّه ، يبهر الأنظار ، لا محالة . وحين يبرز من بين الحجب والأبواب ، تتعلّق به العيون كجواد أصيل أبيض أغرّ[3] .

أما إشراق نفسه فيتجلّى على وجهه بشاشة مرحة تجعل الناظر يأنس إليه ويرتاح أياً كانت المشاعر التي يوحيها إلى الرشيد[4] . فلا يتعلّق هذا الناظر منه إلاّ بتلك الإشراقة تَقَرُّ بها العين وتتجاذبها الرعية في أنحاء المملكة الأربع[5] ، فتتنافس على اجتلابها وتتحاسد[6] ؛ وليس ذلك إلاّ بفضل النور الذي يشع منه : إنه نور يضيء أينما حلّ ، لا بل يعمّ البلدان كلّها ، نور رائع

---

1 ويصف العماني صوته وتنفّسه وقوّة قلبه :

جهيرُ العِطاسِ ، شديدُ النِياطِ ، جهيرُ الرُواء جَهيرُ النَغَمْ

المصدر نفسه .

2 يشبّه نُصيب الأصغر جبينَ الرشيد الوضّاح بنصل السيف المسنون وهو يخرج من يدي صيقله . يقول :

إلى ملكٍ صَلْتِ الجبينِ كأنّه صفيحةُ مسنونٍ جَلا عنه صيقَلُ

(الأغاني ج 22 ص 401) .

3 ولنُصيب أيضاً :

إذا انبلج البابان والسترُ دونه بدا مثلَ ما يبدو الأغرُّ المُحَجَّلُ

(المصدر نفسه) .

4 يصف أبو نواس إقباله على محدّثيه ببشاشة أياً كانت مشاعرُه نحوهم فيقول :

يحميكَ مما تَستَسِرُّ بفعِلِه ضحكاتُ وجهٍ ، لا يريبُك ، مشرقِ

(الديوان ص 401) .

5 يقول ذلك عمر بن سلمة (ابن أبي السعلاء) :

قرّتْ به عينُ القريبِ من الرعيةِ والبَعيدِ

(طبقات ابن المعتز ، ص 151) .

6 راجع ص 472 من البحث قول أبي نواس في ذلك .

يبهر[1] ، يحيل سواد الليل وظلامه نهاراً[2] . فهل نعجب ، بعد ذلك ، أن تشق أنواره غياهب الظلام[3] ؟ أو نعجب إذا نافس الشمسَ إشراقَها وكسف وجهُه طلعتَها الوضّاءة ؟[4] إن هذا البهاء ، مهما بولغ فيه ، وُجد فعلاً ، يشهد عليه الحَصر الذي كان يصيب من يطالعهم بهاؤه ورواؤه ، على ما عُرفوا من فصاحة اللسان وبلاغة وبيان ، كما يشهد عليه العُماني الذي واجه معظم خلفاء الأمويّين وجميع الخلفاء العبّاسيين وأكد للرشيد مُقْسماً : «فوالله لم أجد فيهم أبهى منظراً ولا أحسنَ وجهاً . . . منك يا أمير المؤمنين»[5] .

ثالثاً : المثالية الخُلقية

إذا كانت الفضيلة ، كما يقول أرسطو ، وسطاً بين رذيلتين ، فما نصيب الرشيد من الفضائل ؟ إنه ، كما يصفه يحيى بن زياد : حليم في غير ذل ، مَهيب في غير تجبّر ، شديد من غير عنف ، ليّن بلا وهن ، متأنّ من غير غفلة . يبذل دون إسراف ، ويقتصد دون بخل . . . جميع هذه الفضائل ، التي ورثها الرشيد عن آبائه ، اجتمعت عنده في ألطف كمال لها ، في دماثة خلق ، ورقّة وجه عند اللقاء ، وبشر عند التحية ، مع روعة عند ذكر الله ، وغزارة دمع عند الموعظة[6] . إنه

---

1 يقول داود بن رزين الخزاعي في نور الرشيد :

بهارونَ لاح النورُ في كل بلدةٍ (وقام به في عدل سيرته النهجُ)
تضيق عيونُ الناسِ عن نورِ وجهِهِ إذا مـا بدا للناس منظرُهُ البَلْجُ

(الطبري ج 8 ص 234) .

2 محمد بن مناذر :

لّما رأينـا هـارونَ صار لنـا الليـلُ نهـاراً بضَـوءِ هارونا

(طبقات ابن المعتز ، ص 121) .

3 يصف أبو نواس نور وجه الرشيد الذي يبدّد ظلمات الليل إلاّ أن يخفي وجهه ستر أو باب :

لا غَرْوَ ينفرجُ الدجى عن وجهِهِ لـو شاء صانَ أديمَها الأكفانُ

(الديوان ص 404) .

4 يقول ذلك علي بن الخليل :

لـما رأتـك الشمسُ إذ طلعت كُسِفَتْ لوجهك طَلعةُ الشمسِ

(الأغاني ج 14 ص 166 وأمالي المرتضى ج 1 ص 102 وزهر الآداب ج 4 ص 865) .

5 عيون الأخبار ج 1 ص 93 والشعر والشعراء ص 176 .

6 ننقل ما كتبه يحيى بن زياد في الرسالة التي يقرظ بها الرشيد : «إن الله تعالى اختار له مكارم الأخلاق وألبسه جمال الصورة . فلا نعلم نحن ، ولا آباؤنا ، خليفة أبعد في حلمهِ من ذُل ، ولا في هيبته مِن تَجبُّر ، ولا في شدّته من عنف ، ولا في لينه من وَهَن ، ولا في أناته من غفلة ، ولا في اقتصاده من بخل ، ولا في بذله من إضاعة ، ولا أرقَّ وجهاً عند لقاء ولا

رؤوف عطوف ، يراعي القرابة ويحفظ الود ويصل الرحم[1] . لهذا غدا مطمح الآمال وموئل الخائف ، إليه تهفو الظنون وعنده تجتمع[2] . فإذا ما دهت الناس مصيبة تحوّلت الأنظار إليه ترجو عنده وسيلة لدفعها[3] . وهو لا يحتاج في ذلك إلى كبير جهد ، فهي ترتد حتماً بمجرّد دخول الرشيد مجال الرجاء[4] . وليس أبلغ في هذا المعنى من لفتة العتابي مخاطباً إياه :

وأنتَ ، إذا عاذَتْ بوجهِكَ عُوَّذٌ ، تطامَنَ خــوفٌ واستقرَّت بَلابلُ[5]

رابعاً : الكرم

إذا كانت أعطيات الرشيد تبلورت حدثاً فذًّا ، في أيامه ، تداوله المؤرّخون ، بالتفصيل حيناً ، وبالتضخيم حيناً ، فأحْرِ بمن كانوا حوله أن يعوا هذا الحدث وأن يحاولوا استثماره ليستمر ويتزايد . ولو لم يكن الرشيد بمستوى الكرم المعروف له ، لَمَدحه الشعراء بالكرم ، لأن تلك خلّة لا غنى عنها لمدوح عربي . إنها ابنة البيئة العربية ، عاشت ونمت على جدب الصحراء ، كما أينعت في مدن العرب وحاضراتهم . والواقع أن معاني الكرم التي طرقها كل شاعر مادح تَوجّه إلى خليفة أو أمير أو

= أحسن بِشراً عند تحية ، ولا أغزر دمعاً عند موعظة ، ولا ألين قياداً عند تذكير بالله ، منه . . .» جمهرة رسائل العرب ج 3 ص 244 .

1 يقول النمري :

وما يحفظ الأنسابَ مثلَك حافظٌ ولا يصل الأرحامَ مثلَك واصلُ

(الأغاني ج 13 ص 153) .

ويقول نُصيب :

شريكان فينا منه : عينٌ بصيرةٌ كَلُوءٌ وقلبٌ حافظٌ ليس يَغفِلُ

(المصدر نفسه ج 22 ص 401) .

2 أشجع السلمي :

لقد جُمعت فيك الظنونُ ولم يكن بغيرك ظَنٌّ يَستريحُ لـه قَلب

(الأغاني ج 18 ص 144 ومعاهد التنصيص ج4 ص 63) .

3 يقول نُصيب الأصغر ؟

إذا ما دَهَتْنا ، من زمان ، مُلِمّةٌ فليسَ لنـا إلاّ عليكَ مُعَوَّلُ

(الأغاني ج 22 ص 402) .

4 يصف مسلم بن الوليد نفسه وهو يجوب الصحاري قاصداً الرشيد تهدده المصائب فيجبهها بأمل لقاء الخليفة . يقول :

تَراءتْ له الأحداثُ حتى إذا اقتنى رجاءَكَ صَدَّتْ عنه عن قُربِ مَعهَدِ

(ديوان صريع الغواني ص 69) .

5 الأغاني ج 13 ص 151) .

إنسان عادي ليس بخليفة ولا أمير، لم يبتكرها دائماً، بل غالباً ما كان يسطو على معانٍ باتت معالم يقف عندها كل عابر يستقرئها تفاصيل الطريق. هذه المعاني كانت دائماً مقبولة من الممدوحين، على قدمها، طالما تصاغ في ثوب جديد من اللفظ. منها، على سبيل الإشارة، معنى الفيض: فيض البحر أو النهر والسيل، ومنها معنى الغيث تتحف به السماء الأرض، على أن تكون الأرض عطشى والغيث مدراراً. وكثير من هذه المعاني سطا بها شعراء الرشيد، أثناء نحتهم لمثاله بأشعارهم. ونحن نتناول معاني الكرم التي جاؤوا بها.

1 ـ تقمّص الكرم: أول معنى يلفتنا جاء به النمري حين جعل الرشيد يجمع، في شخصه، معاني العطاء جميعها. فللجود قنوات تجري فيها سيوله، لكن القنوات كلّها تلتقي في مصب واحد. هناك يحلّ الرشيد، يمارس الجود بكافة أساليبه لأنه يستقي مصادره المختلفة[1] . . . من هذا الشمول يقوم مروان بن أبي حفصة بنقلة إلى الترسيخ، فيؤكّد تأصل الكرم في الرشيد: إنه ليس خلة اكتسبها هارون حديثاً، إنما هو طبع ورثه عن كل سيّد جواد من آبائه وأجداده «يسوق يديه من قريش كرامها»[2]. هذا الطبع الموروث جرى في نفس الرشيد مع دمه فغدا مجبولاً به، بل أصبح وإياه عنصراً واحداً لا يقبل الانفصال: من أشار إلى الرشيد فقد أشار إلى الكرم، ومن طلب الكرم، فعليه أن يتوجّه إلى الرشيد[3]. حين يحلّ هارون في مكان يحلّ الغنى بحلوله[4] . . . ويتناول عمر بن أبي السعلاء المعنى ليرقي بالرشيد الذي لا يعود إنساناً من طين وماء مجبولاً بالكرم، إنما يشفُّ ليصبح من طبيعة خاصة خلقت من كرم معه جود:

هـارونُ، أنـتَ خليفـةٌ   صُوِّرتَ من كرمٍ وجودِ[5]

---

1 يقول منصور النمري:

خليفـةَ الله، إن الجـودَ أوديـةٌ   أحلَّـكَ اللهُ منهـا حيـث تَجتمعُ

(ديوان المعاني ج 1 ص 28).

2 الطبري ج 8 ص 348.

3 يقول النمري:

إلى مَـن لا تُشيـر إلى سِواهُ،   إذا ذُكِـر النَّـدَى، كَـفُّ المُشيرِ

(الأغاني ج 13 ص 141).

4 يقول العُماني راجزاً:

لمـا قَدِمتَ بـين باقـي الجُنـدِ   قالـت قريشٌ، وهـي ذاتُ حَنْدِ

جـاء الغِنـى، ووثقوا بالرِفـد،   عَن مَلِكٍ نائِلُه لا يُكدي (أي لا يبخل)

(طبقات ابن المعتز، ص 112).

5 طبقات ابن المعتز ص 151.

2 ـ فيض الكرم : إن أصالة الكرم ، التي سبق الحديث عنها عند الرشيد ، تتجلّى في يديه ، فهما تفيضان ، «كلتاهما بحر ، على الناس ، زاخر»[1] . والبحر إذ يستقي مياهه من الأنهار والينابيع ، وهذه تتغذّى من مياه الأمطار ، فالأحرى بندى هارون أن يرجع إلى أصل كل المياه التي تفيض ، إلى السحاب يرافقه ، ويهطل غيثاً غزيراً . . . ومعنى الغيث عزيز على العربي ، منذ أيام الصحراء ، حين كان يترقّبه البدوي ويتوقّع منه أن يهبه الحياة . وعندما يغدو العطاء غيثاً ، فإنه يحمل ، حينذاك ، معاني كثيرة : فيه السمو لارتفاع السحاب ، وفيه النقاء ، فهو مجرّد عن المنّة[2] . وفيه معنى الاستبشار الذي كان لنا حديث عنه . واستعارة الغيث للكرم ، إذا أخذت أصلاً من حياة البادية ، فهي تنطبق فعلاً على حياة الحاضرة أو أي مكان آخر . فأي أرض عطشى تغدو ، كأرض البادية ، مواتاً تتوقّع المطر وتتلّهف عليه لتحيا به[3] ، وهي لذلك تراقب الغيوم . إلاّ أن الغيوم منها المثمر ومنها القاحل العقيم . وهنا يأتي تشبيه الرشيد بالغيث تشبيه مفاضلة لا مساواة . فهو أفضل من الغيث ، غيومه أبداً ممطرة ، لا تُخيب راجياً ولا مترقّباً . . . أُعجب شعراء الرشيد بهذا المعنى فتداولوه : يقول مروان بن أبي حفصة :

إذا فقــد النــاسُ الغمامَ تتابعت　　　عليهـم ، بكفّيكَ الغيومُ المواطِرُ[4]

ويقول النمري جاعلاً غيث الرشيد ، من الغزارة ، بحيث يُغرق ويُتلف :

إذا الغيثُ أكدى ، واقشعرّت نجومُهُ　　　فغيــثُ أميــر المؤمنــين مَطيرُ
ومــا حــلَّ هارونُ الخليفةُ بلدةً　　　فأخلفهــا غيـثٌ ، وكان يَضيرُ[5]

وللنمري أيضاً :

---

1 القول لمروان بن أبي حفصة . (تاريخ الطبري ج8 ص 348) .
ويقول شاعر مسلّل (مجنون) في الرشيد :

وسيولُ كفِـك ، بالنَّـدى ،　　　بحـرٌ يَفيضُ عـلى الضعيفِ

(الغرر والعرر ص 128) .

2 يقول النمري بوضوح ، وهو يحضّ على الالتجاء ، في الشدّة ، إلى الرشيد :

وعُـذْ بفِنائـه واجنَح إليـه　　　تنلْ عُرفـاً ، ولم تُذلَلْ سؤالا

(الأغاني ج 13 ص 157) .

3 يجعله أبو نوّاس كالمطر الحقيقي يبث الحياة في العروق :

وإلى أبي الأمناء هارونَ الذي　　　يحيـا بصوب سمائِــهِ الحيوانُ

(الديوان ص 404) .

4 تاريخ الطبري ج8 ص 348 .

5 الأغاني ج 13 ص 146 . يضير : يتلف لغزارته . أكدى : بخل .

إن أخلفَ الغيثُ لم تُخلِف مخايلُه   أو ضاق أمـرٌ ، ذكرنـاه فَيَتَّسِعُ[1]

ومن المعاني المرتبطة بالغيث كونه للجميع لا يميّز بين هذا وذاك حين يمطر فيغيث ويحيي . وكذا الرشيد يخاطبه أبو العتاهية قائلاً : «. . . أصبحت تسقي كل مستمطرٍ رَيًّا»[2] .

3 ـ إتلاف المال : وهو مدى الغاية التي يبلغها معتاد العطاء إذ يعطي بلا هدف سوى العطاء . فإذا كان هدف العطاء الأساسي إغاثة الملهوف وإعانة المحتاج ، ثمّ إثابة من يطلب العطاء لأنه يحسّ حاجة إليه ، فإن التمرّس به ، والترقي في تطبيق مبادئه ، ينتهي بالكريم إلى اعتداد أمواله عبئاً عليه يحتار في ايجاد سبيل لإنفاقها ، بل هي ذنب يؤنبه ضميره على إتيانه ، فلا يقر له قرار حتى يتخلّص منها . يمدح عمر بن سلمة الرشيد بأنه بلغ من الجود أبعد مدى بلغه إنسان ، بل تخطّاه ضارباً الرقم القياسي في العطاء :

بلغـتَ بالجـودِ مـدى غايـةٍ   قـد كانَ عنها قَصَّرَ الجُـودُ[3]

ويفصّل أشجع السلمي الغاية التي بلغها الرشيد فيصوّره ، إذا جاد ، يعطي كل ما يملك ، لا بعضه ، حتى غدت أمواله مقسّمة بين الناس ، وراحت عطاياه تتدفّق زاخرة[4] . أما النمري فيصور الكرم نقطة ضعف الرشيد الوحيدة يؤتى منها ويُسطى على أمواله بها ، ولا يؤتى من طريق آخر . إنه ذو منعة وهيبة ، لا أحد قادر على التسلل إلى حماه ، اللّهم إلاّ الندى ، يأخذ أمواله ويمعن فيها تبديداً[5] . وهناك تفسير آخر لسبق الرشيد في العطاء يطالعنا به داود بن رزين ، إذ يستبق هارونُ آمالَ الراغبين ويعطي ، لا عندما يطلبون ، وبقدر ما يرغبون ، بل قبل أن يطلبوا وأضعاف أضعاف ما أمّلوه وحلموا به :

وإن أمينَ اللهِ هـارونَ ذا النَّـدى   يُنيل الذي يرجوه أضعافَ ما يرجو[6]

4 ـ العطاء فن وتعويذة : والحقيقة أن العطاء فنون ، لا فن واحد . ولكل فنّ لون وأسلوب ، إنما هي جميعاً تحف فنّية في المبادرات الإنسانية توشّي أعمال البشر . والرشيد هو الفنّان الأكبر ، مارس

---

1 ديوان المعاني ج 1 ص 28 .

2 تاريخ الطبري ج8 ص 309 .

3 طبقات ابن المعتز ، ص 152 .

4 يقول أشجع :

إلى ملك يستغرق المالَ جـودُه   مكارِمُه نَهبٌ ومعروفُهُ سَكْبُ

(الأغاني ج 18 ص 144) .

5 يصوّر النمري ذلك فيقوله :

مَنيعُ الحمى ، لكنّ أعناقَ مالِـه   يَظَلُّ الندى يسطو بهـا ويسورُ

(ديوان المعاني) ج 1 ص 58 .

6 تاريخ الطبري ج8 ص 234 .

هذه الفنون بأنواعها ؛ فحيثما استدار وأينما مرّ ، ترك من آثاره الفنّية هذه تحفة تسر الناظر حتى غدا وجه الأرض موشى كأن الربيع طاف به فرصّعه بكل أنواع الزهر[1] . ولعلّ أهم مظهر لفنون عطاء الرشيد مظهر العفوية والتلقائية والشمول الذي يتم به . لقد انطلق عطاؤه خارج حدود الجاذبيات ، وغدا يسير بحركة ذاتية لا تدخل فيها إرادة ولا يعترضها تفكير . إنها كحركة الفلك يسير في اتجاه واحد : «نعمٌ دائماً ودائماً باستمرار : لا رفض ، لا تلكّؤ ، ولا سبيل إلى التوقّف :

متبرّجُ المعروفِ ، عرِّيضُ الندى حَصِرٌ بـ «لا» منه فمٌ ولسانُ
للجودِ ، من كلتا يديه ، مُحرِّكٌ لا يستطيعُ بلوغَـهُ الإسكانُ[2]

وبعد هذا ، كيف يخاف الفقرَ من يُصاحب الرشيدَ ؟[3] وبعد هذا أيضاً هل للرشيد شبيه في ندى راحته ؟ لقد دخل العُماني على الخلفاء ، قبل الرشيد ، في الدولتين ، لكنّه لم يجد «أنعم كفًّا ولا أندى راحة» من أمير المؤمنين هارون[4] .

هذه المعاني في الكرم ، التي استخدمها الشعراء لمقاربة الرشيد ، كانت ، بلا شك ، هادفة تصبّ ، جميعها ، في مجال استدرار الكف السخية . فإذا كان الخليفة غيثاً ، فلكي يسحّ ويعطي . وإذا كان عطاؤه مدراراً ، فلكي يُغرق في المكافآت ، وإذا كان متلفاً للمال ، فلكي لا يتأخر ولا يبحث في أفضلية من يُعطي ، بل يعمد إلى العطاء ، لمجرّد أن يبذّر المال . وقد مرّ بنا أن الشعراء لم يكتفوا بالمدح والتلميح لنيل جوائزهم ، بل كانوا أحياناً يطلبونها صراحة ، يسألونها الرشيد ويلّحون في السؤال ويستنجزون الوعود ، كأن عطاء الرشيد حقّ لهم ، أو كأنه خبزهم اليومي ، ومعاشهم .

وبهذا تكتمل صورة الرشيد الإنسان ، المتميّز بالحسن ، المشع بالنور والمهابة ، الكريم المعطاء ، تجتمع حوله القلوب وتداعب به الآمال نفسها . إنها صورة سيد جاهلي إسلامي ، لا يفوته شيء من المثالية العربية .

---

1 يقول أبو العتاهية مخاطباً الرشيد :

ووشّيتَ وجهَ الأرض بالجودِ والندى فأصبحَ وجهُ الأرضِ بالجــود موشيّا

(الطبري ج 8 ص 309) .

2 ديوان أبي نوّاس ص 404 .

3 يقول إسحاق الموصلي مخاطباً الرشيد :

وكيف أخافُ الفقرَ ، أو أُحرمُ الغنى ورأيُ أمير المؤمنــين جميــلُ ؟

(الأغاني ج 5 ص 292 وزهر الآداب ج4 ص 1041) .

4 عيون الأخبار ج 1 ص 93 .

الفصل الثاني
الرشيد الحاكم والقائد

نامُوا إلى كَنَفٍ بِعَدْلِكَ واسعٍ   وسهرتَ تحـرسُ غفلةَ النُّـيَّامِ[1]

أحد شعراء الرشيد

تمهيد

من الصعب إخضاع الشخصية الإنسانية للتجزئة التي تتطلبها الدراسة المنهجية ، ومن الصعب أيضاً تبويب المعاني التي يحملها الشعر العربي في المقطع أو الأبيات . فالشعراء غالباً ما يرصون المعاني رصّاً في البيت الواحد ، فيحمّلونه أكثر ما يستطيع الكلام حمله من معان وصور . لذلك نحن نبذل جهداً في تنفيذ ما أخذناه على عاتقنامن دراسة الشخصية الرشيدية على المستويات الثلاثة ، بهدف اتباع منهجية تخلّص المعاني المتشابكة وتجعلها واضحة ، سهلة ، دانية المتناول . ولعلّ فصل شخصية الحاكم القائد عن شخصيّة الخليفة الإمام هو أصعب ما في الأمر . لذا نحاول القيام بتحديد هذين الوجهين للرشيد . فنحن حين نتحدّث عن الخليفة الإمام ، فإننا نتناول المعاني التي انصبّت على كونه من سلالة عُهد إليها خلافة الرسول وحماية الدين ونشره ، بينما حديثنا عن القائد الحاكم هو حديث عن صاحب النفوذ الذي يمارس السلطة والأمر والنهي المستمدين من مركز الخلافة . وأياً كانت صعوبة الفصل بينهما نظرياً ، فقد أتى عليهما ردح من الزمن انفصلا فيه فعلياً . فكان الخليفة يولّى ولا يحكم ، وكان السلطان يحكم باسم الخليفة ، بيده كان الجيش وله الأمر والنهي .

والحاكم ، لينجح ، يحتاج إلى صفات يشكّل مجموعها المثالية السلطويّة التي تعتنقهاالأمة في مرحلة ما من مراحل حياتها . هذه المثالية هي التي يتبنّاها المادحون ، عادة ، عندما يتوجّهون إلى الحكّام ، وهي التي يحاول الحكّام العادلون أن يلبسوها ، أو ، على أقل تقدير ، يظنّون أنهم يفعلون ، ويتطلّبون المدح بها . لكن هذه المثالية قد تتجلّى في مظاهر أخرى ، في قول أو عمل يؤثر عن الحاكم ، في خطبة يلقيها ، أو رسالة يخطّها ، أو مسائل يثيرها ومشاكل يطلب لها الرأي والنصيحة من أهل العلم والفضل ، مما يكشف اهتماماته ويبيّن منهجه في الحكم وأسلوبه في معالجة أموره . . . ونحن نبدأ بهذا المظهر الأخير الذي وضع الرشيدُ نفسه فيه سائلاً ، ونصب قاضي قضاته مجيباً عن مسائلَ وجدها حيوية لإقامة العدالة .

---

1 الغرر والعرر ص 101 .

أولاً : الرشيد الحاكم وأبو يوسف القاضي وكتاب الخراج

ألّف أبو يوسف «كتاب الخراج» للرشيد بهدف إظهار بعض أصول الجباية . ولهذا الكتاب ، في رأينا ، أهميّة متميّزة لأسباب كثيرة أهمّها : أنه من إنتاج البلاط الرشيدي ، فيه أُلّف ، وفيه طبّق . وكونه يرى النور بناء على طلب الرشيد يعطيه قيمة إدارية واضحة ؛ ويزيد في قيمته أن أبا يوسف لم يتقيد بحدود أسئلة الرشيد ، إنما تعدّاها إلى نصائح وإرشادات للحاكم يمكنها أن تشكّل المثالية الإدارية التي أشرنا إليها . ويلفتنا أسلوب أبي يوسف القاضي في هذا الكتاب ، إذ يمكننا اعتداده نموذجاً لهذا النمط من الأدب الإداري ، لقد كان أسلوباً مميّزاً استطاع به أن يقارب الرشيد دون أن يثير فيه حساسية أو نقمة .

1 ـ حوافز تأليف كتاب الخراج : وهي تبدو جلية في مقدّمة الكتاب التي جاءت على الشكل التالي : «هذا ما كتب به أبو يوسف ، رحمه الله ، إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد ، أطال الله بقاء أمير المؤمنين وأدام له العز في تمام من النعمة . . . إن أمير المؤمنين ، أيّده الله تعالى ، سألني أن أضع له كتاباً جامعاً يعمل به في جباية الخراج والعشور والصدقات والحوالي وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به . وإنما أراد بذلك رفع الظلم عن رعيّته والصلاح لأمرهم . . .»[1] .

إن مجرد سؤال الرشيد أبا يوسف عن أسس الخراج والفيء وما إليه ، دليل ، كما قال أبو يوسف ، على أن الخليفة راغب في رفع الظلم عن الرعية ؛ وهو دليل أيضاً على أن الرشيد الحاكم ، على وجود الولاة والقضاة ، كان يباشر الحكم بنفسه ويحد الحدود ويسن للولاة سنن عملهم ، وأنه كان المرجع الأخير للمتظلّمين ؛ لهذا شعر بالحاجة إلى ناموس يعتمده في الفصل بين الحق والباطل ، حول مواضيع طال بها العهد منذ المسلمين الأوائل ، ولحقت بها مستجدّات لم تكن في أيامهم . ولعلّ ، في استحضارنا أهم موضوعات أسئلة الرشيد ، كشفاً عن الحافز الأول لهذه المبادرة ، وهو : إحقاق الحق . لذلك نقسم الأسئلة ثلاث مجموعات : واحدة تهدف إلى اتخاذ أسس المساواة في التعامل ، وثانية تطالب بحدود للحقوق والواجبات ، والثالثة تهتم بأهل الذمّة وغيرهم .

أ ـ فمن المجموعة الأولى التي تهدف إلى المساواة نعرض الأسئلة التالية :

- كيفية قسم الغنائم التي تصاب من العدو .
- كيفية معاملة الفاتحين الأوائل لأهل السواد وأهل الشام في الخراج وجزية الرأس وما صولح عليه أهلهما . (ولعلّ الرشيد كان يهمّ بتغيير الأوضاع القائمة وخاف أن يشذّ عن سنّة الأوائل . وكان جواب أبي يوسف مثبّتاً لتلك الأوضاع مركّزاً على ضرورة توفير الأمن والحريّة لأهل البلاد التي تخضع أو التي خضعت لحكم المسلمين) .
- كيفية معاملة من يقبض عليهم من المتلصصة وأهل الدعارة والجنايات ، وهل يجوز إجراء

---

1 كتاب الخراج ص 3 .

الطعام عليهم في الحبس من مال الصدقات ؟

ب ـ **ومن المجموعة الثانية** الهادفة إلى تحديد الحقوق والواجبات ، والتي تشكّل موضوع الكتاب الأساسي ، نذكر :

ـ معنى الفيء ، وطريقة احتسابه ، حد أرض العشر من حد أرض الخراج .

ـ حكم القوم من أهل الحرب ، يُسْلمون ، على أنفسهم وأرضهم .

ـ المزارعة في الأرض البيضاء بالنصف والثلث .

ـ الجزائر التي تظهر في دجلة والفرات بانحسار الماء : من يحق له تملّكها أو استخدامها وتحصينها ؟

ـ إذ غدا نهر ، احتُفر حديثاً أو قديماً ، مصدر ضرر على منازل قوم قائمة عند حافتيه ، ماذا يجب فيه ؟

ـ هل يجوز بيع السمك في الآجام ، ومواضع مستنقع الماء ؟ إلخ . . .

ج ـ **أما المجموعة الثالثة** المتعلّقة بالدعوة إلى الإسلام وأسس التعامل مع أصحاب الأديان الأخرى ، فقد كانت هاجساً ملحّاً أملى على الرشيد مواقف متعارضة : تارة يترك لهم حريّة ممارسة عبادتهم والاحتفال بأعيادهم والمحافظة على مظهرهم المتوارث ؛ وطوراً يأمر بالتشديد عليهم وهدم كنائسهم وتحديد لباسهم . والواقع أن الرشيد كان يتوخّى ، فيما يقرّره ، التقرّب إلى الله . فهو ، حين يشدّد على النصارى مثلاً يعتقد أنه يضايقهم لمخالفتهم الاتفاقات المعقودة معهم ، والتي تساهل بموجبها الخلفاء السابقون مع أهل الذمّة . وكان يؤمن أن استمرار التساهل يجعل الأديان الأخرى تستمر بينما كان المتوقع لها أن تنتهي بانتهاء الأجيال التي عرفتها قبل ظهور الإسلام . وبعض الاتفاقات كانت ضمن هذه الحدود .

من ذلك مثلاً قبيلة تغلب التي بقيت على النصرانية شغلت باله فترة ، فدعا محمد بن الحسن الشيباني وقال له : «إن عمر بن الخطاب صالح بني تغلب على ألاّ ينصّروا أبناءهم ، وقد نصّروا أبناءهم ، فحلّت بذلك دماؤهم . فما ترى ؟ قال : إنّ عمر أمرهم بذلك . وقد نصّروا أبناءهم بعد عمر ، واحتمل ذلك عثمان وابنُ عمّك ، وكان من العلم ما لا خفاء به عليك ، وجرت بذلك السنن . فهذا صلُحَ من الخلفاء بعده ، ولا شيء يلحقك في ذلك . وقد كشفت لك العلم ، ورأيك أعلى . قال : لكنا نجريه على ما أجروه ، إن شاء الله . إن الله أمر نبيّه بالمشورة ، فكان يشاور في أمره . . .»[1] وسأل الرشيد أبا يوسف : لِمَ ضوعفت الصدقة على بني تغلب في أموالهم وأسقطت الجزية عن رؤوسهم ؟ وما ينبغي أن يعامل به أهل الذمّة جميعاً في جزية الرؤوس والخراج واللباس والصدقات والعشور ؟ وكيف تركت الكنائس في المدن لأهل الذمّة ، حين افتتح المسلمون البلدان ، وكيف تُركوا يخرجون بالصلبان في أيام أعيادهم ؟ . . . كل هذه الأسئلة تظهر لنا حاكماً مسلماً تقيّاً ،

1 تاريخ بغداد ج 2 ص 173 و174 .

يرى حوله ما يعتقده مظاهر شرك سكت عنها الخلفاء قبله . أفيسكت هو أم يعمد إلى إزالتها ؟ ويأتي جواب أبي يوسف متّزناً وصارماً في آن واحد . فهو يحافظ على العهود والمواثيق والحريّات المعطاة لأهل الذمّة ، وهو ، في الآن نفسه ، يوصي بهم ويأمر بحمايتهم والحفاظ على أموالهم ، إنما يتّخذ موقفاً حذراً من مساواتهم بالمسلمين : فهم رعايا من الدرجة الثانية ويجب أن يعامَلوا على هذا الأساس ، ولهذا يقترح تميّزهم بالمظهر عن المسلمين فلا «يُترك أحدٌ منهم يتشبّه بالمسلمين في لباسه ولا في مركبه ولا في هيئته . . . . وتمنع نساؤهم من ركوب الرحائل ، ويمنعون من أن يحدثوا بِيعة أو كنيسة في المدينة إلاّ ما كانوا صولحوا عليه . . . فما كان كذلك تركت لهم . . . ويُتركون يسكنون في أمصار المسلمين وأسواقهم يبيعون ويشترون . . . ولا يبيعون خمراً ولا خنزيراً»[1] . ولقد عمل الرشيد بنصيحة أبي يوسف . فأقرّ لأهل الذمّة حرياتهم وبِيَعهم ، وأمر بهدم ما أحدث منها بعد المعاهدات ، كما أخذهم باعتماد لباس خاص يعرفون به[2] . . .

وكلمة أخيرة عن العلاقة ببلاد الشرك وهي : هل يدعى أهلُ الشرك إلى الإسلام قبل الحرب أم يُقاتَلون من غير أن يُدعَوا ؟ ويبدو أن نصيحة أبي يوسف كانت في الدعوة ، ولا استثناء في ذلك[3] . وقد تكون هذه النصيحة وراء رسالة الرشيد إلى قسطنطين ملك الروم يدعوه فيها إلى الإسلام ويحذّره من الرفض .

2 ـ **أسلوب أبي يوسف في توجيه الرشيد** : كان أبو يوسف يعتمد في إجاباته على آيات القرآن وأحاديث الرسول وسيرة الصحابة والراشدين ، وسؤال أهل العلم . وبعد ذلك كان يعتمد الاجتهاد ، متّخذاً المصلحة العامة والعدالة الإجتماعية منطلقه . ونحن نسجّل له هذه المبادرة في عصر كان الحكم فيه استبدادياً مطلقاً ، وكانت الرعيّة في خدمة الحاكم . وبهدف إبراز هذه النظرة الثاقبة عند أبي يوسف ، والتي قد تمثّل مبدأ فقهاء عصره في الاجتهاد ، نقتبس ، مختصرين ، بعض الأمثلة . من ذلك رأيه في موضوع المزارعة في الأرض البيضاء بالنصف والثلث . فبعد أن يعرض المؤيدين والرافضين يقول : «فأحسن ما سمعناه في ذلك ، والله أعلم ، أن ذلك جائز مستقيم صحيح . وهو عندي بمنزلة مال المضاربة : قد يدفع الرجلُ إلى رجلٍ المالَ مضاربةً بالنصف والثلث . فيجوز ، وهذا مجهول لا يُعلم مبلغ ربحه ، ليس فيه اختلاف بين العلماء فيما

---

1 كتاب الخراج ص 127 وص 138 .

2 يذكر الطبري في حوادث /190هـ/ : «وفيها أمر الرشيد بهدم الكنائس بالثغور . وكتب إلى السندي بن شاهك يأمره بأخذ أهل الذمة بمدينة السلام بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم» . (تاريخ الطبري ج 8 ص 324) ولما كانت وفاة أبي يوسف عام /181هـ/ وكان الرشيد قد تأخر في اتخاذ قراره ، فإننا أرجعنا هذا القرار إلى طبيعة علاقته بالروم وخوفه جواسيسهم . وانتقاماً لغارات قاموا بها على ثغور إسلامية فهدموا وخربوا .

3 «لم يقاتل رسول الله قوماً قط ، فيما بلغنا ، حتى يدعوهم إلى الله ورسوله . .» (الخراج ص 191) .

علمت . وكذلك الأرض عندي هي بمنزلة المضاربة . . .»[1] وفي السؤال عن نهر بدأ يسبّب ضرراً للساكنين حوله يجيب : «إن كان النهر قديماً فإنه يترك على حاله . وإن كان محدثاً من فعل والٍ أو غيره ، نُظر في ذلك إلى منفعته وضرره . فإن كانت منفعته أكثر تُرك على حاله . وإن كان ضرره أكثر أمرتَ بهدمه وطمّه وتسويته بالأرض . وكل نهر له منفعة أكثر لا ينبغي للإمام أن يهدمه ولا يتعرّض له . . .»[2] ونقدّم أخيراً هذا الاجتهاد عن إعالة المتلصّصين وأهل الجنايات من مال الصدقة . يقول : «لا بدّ لمن كان في مثل حالهم ، إذا لم يكن له شيء يأكل منه ، لا مال ولا وجد شيء يقيم به بدنه ، أن يُجرى عليه من الصدقة أو من بيت المال . من أي الوجهين فعلت ذلك ، موسّع عليك . وأحب أن تُجرى من بيت المال على كل واحد ما يقوته ، فإنه لا يحل ولا يسع إلاّ ذلك . والأسير من أسرى المشركين لا بدّ أن يُطعم ويحسن إليه حتى يُحكم فيه ، فكيف برجل مسلم قد أخطأ أو أذنب ؟ يُترك يموت جوعاً ؟»[3] ولا بدّ هنا من تسويغ ، فإذا كنّا نسلط الضوء على كتاب الخراج وجهد أبي يوسف فيه فلأن صورة الرشيد الحقيقية لا يمكن أن تنفصل عن إطارها ، وهذا الكتاب من أبرز معالم الإطار في صورة الحاكم القائد . والواقع أن نصائح أبي يوسف وتوجيهاته كان لها أثر كبير في الرشيد ، وبرزت في الكثير من مواقفه وتصرّفاته . ولئن لم نتمكّن من تحديد تاريخ تأليف كتاب الخراج فإننا نقدّر ذلك بأوائل فترة حكم الرشيد ، استكمل به ثقافته الفقهية والتشريعيّة واعتمده في تصريف الأمور ، كما وضع نصب عينيه المثالية الإدارية التي بلورها أبو يوسف في مقدمة كتابه ، وصاغها نصائح موجّهة إلى الخليفة .

3 ـ المثالية الإدارية التي يدعو إليها أبو يوسف الرشيد : لمّا كانت المثالية التي يتصوّرها أبو يوسف هي لحاكم مسلم ، كانت أولى الصفات التي يطلبها قاضي القضاة : تقوى الله والخوف منه[4] ، وتمثل الخالق مراقباً لكل خاطر يمر بالبال ، سامعاً لكل كلمة تتمتم بها الشفاه ، مسجّلاً كل عمل يصدر وكلّ نيّة عمل لم يتحقّق ، محاسباً الكبير قبل الصغير يوم القيامة . والتقى فضيلة ، إذا تحلّى بها الحاكم تفرّعت منها جميع الفضائل الأخرى . فمن اتقى اللّه عرف قيمة الأمانة يحملها في عنقه عندما يتقلّد أمور المسلمين[5] ، وعرف أن الأيام تمرّ بسرعة لتنقله إلى عالم لا يأخذ معه إليه إلاّ عمله[6] . . وعمل الحاكم أن يقود الرعية ويكون لها القدوة ، فكما يكون يكونون . وإذا زاغ

---

1 الخراج ص 88 .

2 المصدر نفسه ص 94 .

3 المصدر نفسه ص 149 .

4 يقول أبو يوسف مخاطباً الرشيد : «ليس يلبث البنيان ، إذا أُسّس على غير التقوى ، أن يأتيه اللّه من القواعد ، فيهدمه على من بناه وأعان عليه» . (الخراج ص 149) .

5 «إن الله قد قلّدك أمراً عظيماً : ثوابه أعظم ثواب وعقابه أشد عقاب . . .» (الخراج ص 149) .

6 يقول أبو يوسف : «لا تؤخّر عمل اليوم لغد . . . بادر الأجل بالعمل ، فإنه لا عمل بعد الأجل» (المصدر نفسه

زاغوا . والحاكم مسؤول ، والمسؤولية عقل وفكر وروّية[1] ، أما الحكم فاختيار بين أمرين : أمر الدنيا وأمر الآخرة ، وعليه أن يعرف أن أمر الآخرة أبقى[2] ، وهذا الخيار يعين اللّهُ عليه ويلقي معرفته في قلب من يشاء من عباده ، ممن أحبّهم فهداهم ، لأن النفس ، إذا فاتها التقى والورع ، وتُرِكت إلى هواها ، اختارت الدنيا الفانية[3] .

والصفة الثانية للحاكم هي العدل . قال رسول الله ﷺ : «إن أحبَّ الناس إليّ وأقربهم منّي مجلساً يوم القيامة ، إمامٌ عادل . وإن أبغض الناس إليّ يوم القيامة ، وأشدهم عذاباً ، إمام جائر»[4] . والعدل يقوم على المساواة : فأمام الحاكم يتساوى جميع الناس في الحق ، سواء منهم قريبهم وبعيدهم[5] . والصفة الثالثة هي الحلم والسماح . قال رسول الله ﷺ : «إذا أراد الله بقوم خيراً استعمل عليهم الحلماء وجعل أموالهم في أيدي السمحاء . . .»[6] ولا بدّ أخيراً للحاكم من أن يحمي الرعية ويواجه دونها الأخطار ، وإلاّ فما معنى الإمامة ؟ «إنما الإمام جُنة يقاتَل من ورائه ويُتقى به»[7] . والصفة الرابعة هي حسن اختيار الأعوان وولاة الأمور . فإذا كان الله يختار الحاكم ، وإرادة الله مقدّسة لا تُراجَع ولا تعصى ولا يُتمرّد عليها ، فإن الحاكم يختار بنفسه عمّاله على الخراج وولاته على الأمصار . ولأنه يختار بتفويض من الله ، فهو مسؤول أمامه عن اختيار أفضلهم وأعلمهم وأفقهم وأعفّهم[8] .

= ص3) ، ويقول أيضاً : «إنما لك عملك ما عملت فيمن ولاّك الله أمره ، وعليك ما ضيعت منه . فلا تنسَ القيام بأمر من ولاّك الله أمره فلست تُنسى ، ولا تغفل عنهم وعما يصلحهم فليس يُغفل عنك . . .» (المصدر نفسه ص5) .

1 يقول أبو يوسف مخاطباً الرشيد : «لا تزغ فتزيغ رعيّتك . . . إياك والأمر بالهوى والأخذ بالغضب . .» (المصدر نفسه ص 3) .

2 إذا نظرت إلى أمرين : أحدهما للآخرة ، والآخر للدنيا ، فاختر أمر الآخرة على أمر الدنيا ، فإن الآخرة تبقى والدنيا تفنى» . (المصدر نفسه ص 4) وقد يكون تأثر الرشيد بمثالية أبي يوسف هو الذي جعله يؤبّن عمر بن مطرف الكاتب بقوله ، لما صلّى عليه ، «رحمك الله ، فوالله ما عرض لك أمران ، أحدهما لله والآخر لك ، إلا آثرت ما هو للّه على ما هو لك» . (انظر الوزراء والكتّاب ص 265 والفهرست ص 127) .

3 إني أسأل الله ، يا أمير المؤمنين ، الذي منّ عليك بمعرفته فيما أولاك ، ألاّ يكلك في شيء من أمرك إلى نفسك ، وأن يتولّى منك ما تولّى من أوليائه وأحبّائه ، فإنه وليّ ذلك والمرغوب إليه فيه» . (الخراج ص 6) .

4 الخراج ص 8 .

5 اجعل الناس عندك ، في أمر الله سواء : القريب والبعيد . (المصدر نفسه ص 4) .

6 المصدر نفسه ص 9 .

7 المصدر نفسه .

8 يوصي أبو يوسف : «ورأيتُ (أبقى الله أمير المؤمنين) أن تتخذ قوماً من أهل الصلاح والدين والأمانة فتولّيهم الخراج . ومن وليت منهم فليكن فقيهاً عالماً ، مشاوراً لأهل الرأي عفيفاً . . . فإنك إنما توليه جباية الأموال وأخذها من حلها ، وتجنّب ما حُرّم منها . . . فإذا لم يكن عدلاً ثقة أميناً ، فلا يؤتمن على الأموال» . (المصدر نفسه ص610) .

ويسجّل لأبي يوسف هنا انتقاده الأسلوب الذي يتبعه كثير من الخلفاء في اختيار ولاتهم إذ يقول: «إني أراهم لا يحتاطون فيمن يولون الخراج. إذا لزم الرجلُ بابَ أحدهم أياماً، ولاّه رقاب المسلمين وجباية خراجهم. ولعلّه ألاّ يكون عرفه بسلامة ناحية ولا بعفاف ولا باستقامة طريقة...»[1]. ويتوجّب على من يختاره الخليفة للولاية أن يعرف حقيقة مهمّته، وأنه في خدمة الناس والحق والعدالة، وليس سيّداً على من يليهم، فلا يعاملهم معاملة العبيد ولا يأخذهم بالشدة ولا يحتقرهم أو يستخف بهم»[2]. ولا يُضْرَبنَّ رجل في دراهم خراج، ولا يقام على رجله، فإنه بلغني أنهم يقيمون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد، ويطلقون عليهم الجرار، ويقيّدونهم بما يمنعهم من الصلاة. وهذا عظيم عند الله، شنيع على الإسلام»[3]. ولعمري، لو طبّق الولاة جميعاً شرعة أبي يوسف لوُفّر على الشعب كثير من الويلات. والملاحظ أن أبا يوسف يشير إلى ما يجري وما سمع به دون أن يلوم الرشيد، مفترضاً أنه لا يدري بمظاهر الظلم التي يمارسها العمال. ولذلك يجعل من ضمن مثاليته للحاكم العادل: ألا يحتجب تماماً عن رعيّته، لكي يتمكّن المظلوم من الوصول إليه ليرفع ظلامته. ويقترح أبو يوسف على الرشيد أن يجلس لمظالم الرعية مرّة في الشهر أو الشهرين، فذلك قمين بأن يجعل الولاة يحسبون ألف حساب قبل أن يقدموا على ظلم إنسان[4].

ثانياً: المثالية الإدارية في تصرّف الرشيد وقوله

1 ـ التولية والعزل: لا شكّ في أن الرشيد حاول اتباع نصائح أبي يوسف، فعرف بالتقوى، ودأب على الحركة والعمل، متنقّلاً من مكان إلى آخر في مملكته، مجاهداً ومتفقداً ومصلحاً وحاجّاً، مدبّراً أمورها، دافعاً لأعدائها. ولطالما استكان إلى الوعّاظ وهم يهوّلون عليه مسؤولية الحكم ولحظة الوقوف بين يدي الديّان يوم الحساب. وكان يتوخّى العدل والمساواة، وإن لم يبلغهما

---

1 الخراج ص 106.

2 ينصح أبو يوسف: «تقدّم إلى من وَلّيت ألاّ يكون عسوفاً لأهل عمله، محتقراً لهم ولا مستخفاً بهم. ولكن يلبس لهم جلباباً من اللين يشوبه بطرف من الشدة والاستقصاء، من غير أن يُظلموا أو يحمّلوا ما لا يجب عليهم. واللين للمسلم، والغلظة على الفاجر، والعدل على أهل الذمة، وإنصاف المظلوم والشدة على الظالم، والعفو عن الناس...» (الخراج ص 107).

3 المصدر نفسه ص 109.

4 يقول في وصيّته المهمة هذه، المتميّزة بالحنكة وبُعد النظر: «فلو تقرّبتَ إلى الله عزّ وجل، يا أمير المؤمنين، بالجلوس لمظالم رعيّتك في الشهر أو الشهرين مجلساً واحداً تسمع فيه من المظلوم وتنكر على الظالم، رجوت ألاّ تكون ممن احتجب عن حوائج رعيّته؛ ولعلّك لا تجلس إلاّ مجلساً واحداً أو مجلسين حتى يصير ذلك في الأمصار والمدن، فيخاف الظالم وقوفك على ظلمه، فلا يجترىء على الظلم. ويأمل الضعيف المقهور جلوسك ونظرك في أمره، فيقوى قلبه، ويكثر دعاؤه». (المصدر نفسه ص 112).

دائماً . وعرف بالحلم وسرعة العفو ، وإن كان طبعه المتوفز يخضعه لسورات غضب واتخاذ السريع من القرارات . وحاول أن يولي الزهّاد والصالحين ، حين كانوا يستجيبون له ، ويكرمهم حين يفعلون ، ويحرجهم حين يتهرّبون . يقول ابن قتيبة : «أحضر الرشيد رجلاً ليوليه القضاء فقال له : إنّي لا أحسن القضاء ولا أنا فقيه . قال الرشيد : فيك ثلاث خصال : لك شرف ، والشرف يمنع صاحبه من الدناءة . ولك حلم ، والحلم يمنعك من العجلة ، ومن لم يعجل قلّ خطؤه . وأنت رجل تشاور في أمرك ، ومن شاور كثر صوابه . وأما الفقه ، فسنضمّ إليك من تتفقّه به . فولي . فما وجدوا فيه مطعناً . .»[1] ويقول البغدادي : إنّ هارون عرض على عبد الله بن مصعب الزبيري «ولاية المدينة . فكرهها وأبى أن يليها . وألزمه ذلك أمير المؤمنين الرشيد . قام بذلك ثلاث ليال ، يلزمه ويأبى عليه قبولها . ثمّ قال له في الليلة الثالثة : أغد عليّ بالغداة ، إن شاء الله . فغدا عليه . فدعا أمير المؤمنين بقناة وعمامة . فعقد اللواء بيده ، ثمّ قال : عليك طاعة ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين . قال : فخذ هذا اللواء . فأخذه وقال له : أما إذا ابتليتني ، يا أمير المؤمنين ، بعد العافية ، فلا بدّ لي أن أشترط لنفسي . قال له : فاشترط لنفسك . فاشترط خلالاً منها : . . . . . فأنفّذ من كتبك ما رأيتُ وأقف عمّا لا أرى . قال : وذلك لك . . . ثمّ ولاّه اليمن وزاد معها ولاية عك . . . ورزقه ألفي دينار في كل شهر . . . وكان رزق والي اليمن ألف دينار . . .»[2] واختلف أهل الحجاز في رجل من اثنين يولّونه القضاء ، فرُفع ذلك إلى الرشيد . فأمر بإحضار الرجلين ، وادّعى خلافاً بينه وبين وزيره ثم طلب من الأول ، وكان شيخاً ، أن يحسم الخلاف . فقال : «تقيم البيّنة ، يا أمير المؤمنين ، على ما ذكرت ، أو يحلف وزيرك هذا . . . فلم يزالا يتردّدان القول بينهما ويتنازعان حتى قضى القاضي لأمير المؤمنين على الوزير . . .» ثمّ دعا بالثاني وكان حدثاً وعرض عليه الخلاف . فرفض أن يشرع في النظر إلاّ أن ينزلا من مقاميهما ويجلسا أمامه في مجلسين متساويين قائلاً : «أخشى ، إذا اختلف بينكما القول ، وكان صاحب المجلس الأرفع ألحق بحجّته وأدحض لحجة صاحبه ، كان إصغاء الحاكم إلى صاحب المجلس الأرفع أكثر ، وإليه أميل» . ولّما وجد الحق إلى جانب الوزير قضى له على الخليفة . فأعجب الرشيد بقضائه وعدله وقلّة ميله ، وتمنّى أن يوليه قضاء القضاة[3] . . . لكن اهتمام الرشيد الذي بيّناه في اختيار الوالي الصالح والقاضي العادل لا يكفي لإقامة العدالة : لا بدّ لمنفّذ القانون من غطاء سياسي يجنّبه ضغوط أصحاب النفوذ . وقد أُثِر عن الرشيد عمله على إبعاد القضاء عن التبعية وعلى دعم الوالي والقاضي دعماً مطلقاً . . . يروي البغدادي أن عمر بن حبيب ، قاضي الرصافة ، استدعى عبد الصمد بن علي الهاشمي للمثول أمام خصم ادّعى عليه . «فأبى عبد الصمد أن يحضر مجلس الحكم . فختم عمر بن حبيب قمطره وقعد في بيته . فرُفع ذلك إلى هارون الرشيد . . .

1 عيون الأخبار ج 1 ص 17 .

2 تاريخ بغداد ، ج 10 ص 175 .

3 الإمامة والسياسة ج 2 ص 161 .

فقال . . . والله ، لا يأتي مجلسك إلاّ حافياً . قال : وكان عبد الصمد شيخاً كبيراً . فبسطت له اللبود من باب قصره إلى مسجد الرصافة . فجعل يمشي ويقول : أتعبني أمير المؤمنين ، أتعبني أمير المؤمنين . .»[1] ويروي ابن الوزير حادثة مماثلة جرت بين عبيد بن طبيان ، قاضي الرشيد بالرقة ، وعيسى بن جعفر ، ابن عم الرشيد . وقد ألحّ عبيد في استدعاء عيسى إلى مجلس الحكم ، وأمعن عيسى في تجاهل الدعوة ، فما كان من عبيد إلاّ أن «ختم قمطره وأغلق بابه وقعد في بيته . فبلغ الخبر الرشيد . . . فقال . . . لإبراهيم بن عثمان : سر إلى دار عيسى بن جعفر واختم أبوابه كلّها ولا يخرج منها أحد ولا يدخل إليها أحد ، حتى يخرج الرجل من حقّه ، أو يسير معه إلى مجلس الحكم . . .»[2] وقد بلغ من جرأة القضاة ، في اعتمادهم على نزاهة الرشيد ودعمه ، أن حبس حفص بن غياث القاضي وكيل أم جعفر زبيدة ، بسبب دعوى أقامها عليه رجل من أهل خراسان . وقد أقرّ حفص الحق على الوكيل على رغم من مداخلات زبيدة العديدة . والنتيجة ما قاله يحيى بن خالد لحفص : «أيها القاضي ، قد سررت أمير المؤمنين اليوم وأمر لك بثلاثين ألف درهم . فما كان السبب في هذا ؟ قال : تمم الله سرور أمير المؤمنين وأحسن حفظه وكلاءته ، ما زدت على ما أفعل كل يوم . . .»[3] .

وبالمقابل فإن الرشيد الذي كان يحسن اختيار قضاته وعمّاله ويحميهم ، لم يكن يداري أخطاءهم على حساب الرعية . بل إن عيونه مبثوثة عليهم وأخبارهم تصله أولاً بأول . فإذا ما شكّ في أحدهم حاسبه حساباً عسيراً . من ذلك ما قاله للحسن بن عمران واليه على دمشق ، وقد أُدخل إليه يَرسفُ في قيوده : «ولّيتك دمشق وهي جنّة مونقة ، تحيط بها غُدُرٌ كاللُجين ، فتكف على رياض كالزرابي ، وكانت بيوت أموال . فما برح بها التعدي حتى تركتَها أجردَ من صخر وأوحشَ من قفر . . .»[4] ورُفع إليه أن مولاه فرجاً الرُّخَّجي ، الذي ولاّه الأهواز ، قد اقتطع مالاً كثيراً من مال البلد . فأحضره وراح يشتمه ويتوعّده : «يا ابن الفاعلة ، رفعتك فوق قدرك ، وائتمنتك ، فخنتني وسرقت مالي وفعلت وفعلت . والله لأفعلنّ بك ولأفعلنّ . . .»[5] ولعلّ أكبر حادثةِ تَجاوزٍ في ولاية جرت أيام الرشيد كانت حادثة علي بن عيسى بن ماهان والي خراسان ، الذي أغرق في الظلم وجبي الأموال وبسط النفوذ ، حتى باتت خراسان على شفا ثورة وبات هو مصدر خطر على الدولة . ولّما صمّم الرشيد على عزله دبّر الخطّة بنفسه وكتب الكتب اللازمة بخطّه ولم يطلع أحداً . حتى قائده

---

1 تاريخ بغداد ج 11 ص 197 .

2 العقد الفريد للملك السعيد ص 173 .

3 تاريخ بغداد ج 8 ص 192 .

4 زهر الآداب ج 3 ص 683 . والخبر ، مع بعض التعديل في الألفاظ ، في «أسرار الحكماء» ص 123 .

5 الوزراء والكتّاب ص 271 .

هرثمة بن أعين ، الذي كُلّف تنفيذَ الخطة ، لم يكن يدري بالتفاصيل إلاّ مرحلةً بعد مرحلة . وأهم ما في هذه الكتب رسالتان : إحداهما عهد لهرثمة بولاية خراسان ، والثانية خطاب لعلي بن عيسى في عزله . والمطّلع على الكتابين يكوّن فكرة عن هذه الناحية من الأدب الإداري الذي باشره الرشيد بنفسه حين أراد التكتّم على خطوة ، لو عُرفت مسبَقاً لأدت إلى عصيان عليّ وإعلانه الاستقلال . ويهمّنا أن نلاحظ الاختلاف الكبير بين الرشيد ، حين يبحث عن القاضي العادل والوالي العفيف فيكون مقدّراً متساهلاً ومُدارياً ، والرشيد ، حين ينقم على الوالي الجائر فيتناوله بالشتم والتحقير والإهانة . فمما كتب الرشيد إلى علي بن عيسى : «بسم اللّه الرحمن الرحيم . يا ابن الزانية ، رفعتُ من قدرِك ، ونوّهت باسمك ، وأوطأت سادة العرب عقبك ، وجعلت أبناء ملوك العجم خولك وأتباعك ، فكان جزائي أن خالفتَ عهدي ونبذتَ وراء ظهرك أمري حتى عثتَ في الأرض وظلمتَ الرعية وأسخطتَ الله وخليفته بسوء سيرتك ورداءة طعمتك وظاهر خيانتك ! . . .»[1]

ويبدو واضحاً أن كلام الرشيد مفعمٌ بالنقمة . وفي رأينا أن نقمته كانت بمقدار خيبة أمله في عليّ ، وأسفه على تقصيره ، كخليفة ، في كشف حقيقته ، وخصوصاً أن البرامكة حذّروه منه ومن سوء سيرته ومن المصدر المشبوه للهدايا والأموال التي كان يرسلها إلى الرشيد . وهارون ، إذ يسخط هنا ، يؤكد أن سخطه هو ثورة للحق والعدالة وإرادة الله ، ثم إرادته هو ، خليفة الله الممثّل له على الأرض ، وللمسلمين عامة . يقول في رسالته : «وقد ولّيت هرثمة بن أعين ، مولاي ، ثغر خراسان ، وأمرته أن يشد وطأته عليك وعلى ولدك وكتّابك وعمّالك ، ولا يترك وراء ظهوركم درهماً ولا حقّاً لمسلم ولا معاهد إلاّ أخذكم به ، حتى ترده إلى أهله . فإن أبيت ذلك وأباه ولدك وعمّالك ، فله أن يبسط عليكم العذاب ويصبّ عليكم السياط ، ويحلّ بكم ما يحلّ بمن نكث وغيّر ، وبدّل وخالف ، وظلم وتعدّى وغشم ، انتقاماً لله عزّ وجل بادئاً ، ولخليفته ثانياً ، وللمسلمين والمعاهدين ثالثاً . . .»[2] .

2 ـ **الوصايا والتوقيعات** : هي الأقوال السريعة البليغة ، تلقى أو تكتب لتعبّر عن موقف إداري أو نهج أو حكم . ولئن عُرِفت التوقيعات قبل الرشيد ، فإنها ازدهرت في أيامه ازدهاراً واسعاً واتجهت أكثر فأكثر وجهة البلاغة والإيجاز والقول المأثور يذهب مثلاً . وقد قامت فيها منافسة كبيرة بين الرشيد ووزرائه البرامكة الذين عُرفوا بالحكمة والفصاحة وحسن التصرّف . وكان جعفر أشهرَهم في ذلك ، وكانت توقيعاته تباع كما تباع التحف الفنيّة[3] . ونحن نعرض ، سريعاً ، نماذج

---

1 الطبري ج 8 ص 327 .

2 الطبري ج 8 ص 327 .

3 يقول ابن خلدون : «كان جعفر بن يحيى يوقع القصص بين يدي الرشيد ويرمي بالقصة إلى صاحبها . فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها ، حتى قيل : أنها كانت تباع ، كل قصّة منها بدينار» . المقدمة ج 2 ص 619 .

تطلعنا على بعض المبادىء الإدارية التي اعتمدها الرشيد ووزراؤه . «ذُكر أن يحيى بن خالد بن برمك ولّى رجلاً بعض أعمال الخراج بالسواد . فدخل إلى الرشيد يودّعه وعنده يحيى وجعفر بن يحيى . فقال الرشيد ليحيى وجعفر : أوصياه . فقال له يحيى : وفّر واعمر . وقال له جعفر : أنصف وانتصف . فقال له الرشيد : أعدِل وأحسن»[1] . ويقيناً لو قيض لهذا الوالي تطبيق الوصايا لكان والياً عفيفاً نزيهاً ، محبوباً ، عادلاً وحازماً . وحين ولى الرشيد هرثمة خراسان ، عازلاً به علي بن عيسى ، وكتب له العهد بخطه ، أعطاه صلاحيات واسعة في ممارسة أساليب الضغط على ابن ماهان وعائلته وجماعته ، لاستخراج الأموال التي أخذها ظلماً من الناس . و«أمره بتقوى الله وطاعته ، ورعاية أمر الله ومراقبته ، وأن يجعل كتاب الله إماماً في جميع ما هو بسبيله ، فيُحل حلاله ويُحرّم حرامه ، ويقف عند متشابههٍ ويسأل عنه أولي الفقه في دين الله وأولي العلم بكتاب الله ، أو يرده إلى إمامه ليريه الله ، عزّ وجل ، فيه رأيه ويعزم له على رشده . . . فكذلك فليكن عملك ، وعليه فليكن أمرك . . . وابسط من آمال أهل ذلك الثغر ومن أمانهم وعذرهم ، ثمّ اعمل بما يرضي الله منك وخليفته ومن ولاّك أمره إن شاء الله . هذا عهدي وكتابي بخط يدي . .»[2] ونحن نخرُج ، مما قدّمناه ، بأن الرشيد كان يتوخّى ، في اختيار عمّاله ومحاسبتهم ، «إيثار الله ودينه على هواه وإرادته» ويضع أمام عينيه مصلحة المسلمين والمعاهدين . وهو يريد من عمّاله أن يكونوا محبوبين ، قريبين إلى الناس ، وفي الوقت نفسه أن يكونوا حازمين وحذرين . . . وقّع إلى أحد الولاة : «داو جرحك ، لا يتسع»[3] . و«في رقعة متظلّم من عامله بالأهواز ، وكان بالمتظلّم عارفاً» : «قد ولّيناك موضعه فتنكّب سيرته» . و«إلى صاحب المدينة : ضع رجليك على رقاب أهل هذا البطن ، فإنهم قد أطالوا ليلي بالسهاد ، ونفوا عن عيني لذيذ الرقاد . .»[4] . أما ما يسهّد الرشيد الحاكم ويقلقه فهو مراعاة شؤون الرعيّة ، ليستكينوا هم إلى الاطمئنان ويناموا ، ومباشرته مسؤوليات الحكم بنفسه ، حتى يجد وزراؤه أنفسهم بلا عناء ولا همّ . يقول يحيى بن زياد عنه : «فرغ بشغله من كان لا يفرغ من الوزراء ، ونام بسهره من كان لا ينام من العامة ، واطمأنّت ، بمناءاته للأسفار ، دار من كان لا ينال الخفض من الجنود»[5] وبذلك مدحه أبو العتاهية قائلاً :

وراع يراعي الليلَ في حفظ أمّةٍ　　　يدافع عنها الشرَّ ، غيرَ رَقودِ[6]

---

1 الطبري ج 8 ص 352 .

2 الطبري ج 8 ص 327 و328 .

3 العقد الفريد ج 4 ص 214 .

4 المصدر نفسه .

5 جمهرة رسائل العرب ص 245 .

6 الأغاني ج 4 ص 106 .

ويروي الوطواط عنه قوله : «للرعية المنام ، وعلينا القيام . ولا بدّ للراعي من حراسة الرعية وتحمّل الأذية . . .»[1] .

ثالثاً : الرشيد الحاكم القائد كما يصوّره المدّاحون

1 ـ الملك المحبوب : إذا كان الرشيد ، كما أسلفنا ، هو الحاكم الذي يسهر لكي ينام شعبه ، فمعنى ذلك أنه يحترم هذا الشعب ويحبّه . من مظاهر احترامه له : سياسته باللين والبشاشة ، وقربه من الرعية فلا يتكبّر عليها ولا يتجبّر . فهو «ملك سكّر» كما يقول أبو نواس :

ملكٌ تطيبُ طباعُه ، ومِزاجُه   عذبُ المَذاقِ على فم المتذوّقِ[2]

ومن آيات حبّه لشعبه ، عفوُه عن المذنب ، تأمينه الخائف ودفعه الحسنة بالسيّئة[3] ، فالمحب مسامح . يقول يحيى بن زياد في تقريظه : «ثمّ ساس رعيّته بألين سياسة ، فعفا عن مذنبها ، ولو شاء لعاقب . وأمّن خائفها ، ولو طلب لأدرك . ودفع بالحسنة السيئة ، ولو كافأ لقدر . . .»[4] ولا شكّ في أن الحب عاطفة متبادلة ، والشعب يتعلق بالحاكم العادل المتواضع المحب ، لندرة الحكام العادلين ، المحبّين . والرشيد غدا «محبوب الرعية» تحن قلوبها إليه وتفيء آمالها إلى فيئه[5] ، تفديه بنفسها ، تقيه الموت بأعمارها ، ولو كان الأمر بيدها ، قاسمته سني حياتها :

يسعى على أمةٍ تمنّتْ   أنْ لو تقيه مِن الحِمامِ
لـــو استطاعت لقاسمتْه   أعمارَها قسمةَ السِهامِ[6]

لكن ، هل الرشيد طِيبة خالصة ومحبّة صرف ، ومداراة دائمة ؟

2 ـ الحاكم الحازم : إن طيبة النفس وكبر القلب ومحبّة الناس ، إذا كانت تلاقي الحب والإكبار عند الأخيار ، فإنها تزيد الأشرار فساداً والمتخاذلين تقاعساً والمتمردين خروجاً عن الصراط القويم . هؤلاء يجدون أمامهم رشيداً آخر ، رشيداً صلباً يقف لهم بالمرصاد ، يشمّر في إثر

---

1 الغرر والعرر ص 101 .

2 الديوان ص 401 .

3 يقول ابن خلدون في مثالية الحكم هذه : «إذا كان رفيقاً بهم متجاوزاً عن سيّئاتهم ، استناموا إليه ولاذوا به وأُشربوا محبّته واستماتوا دونه في محاربة أعدائه ، فاستقام الأمر من كل جانب» المقدّمة ج 2 ص 515 .

4 جمهرة رسائل العرب ج 3 ص 245 .

5 يقولُ نُصيب الأصغر مادحاً :

على ثقةٍ منا تَحِنُّ قلوبُنا   إليكَ ، كما كنّا ، أباكَ ، نؤمِّلُ

(الأغاني ج 22 ص 402 .

6 الشعر لمنصور النمري ، انظر (طبقات ابن المعتز ص 247) .

المتخاذل حتى يجدّ ، ويتحدّى العاصي المغترّ حتى يرعوي[1] . إنه ، حين يحلم ، يفوق حلمه ما عند الناس ، لكنه ، حين يتهيّأ للشدّة ، يصبح إعصاراً يتحدّى الرياح والعواصف أن تباريه في عنفه وعتوّه :

يقــول للريح ، كلّمــا عصفتْ : هل لكِ ، يا ريحُ ، في مباراتي ؟[2]

وهو لا يتحاشى الخطوب ، ولا يحيد عن دربها علّها تمرّ بسلام ، إنه يجابه المشاكل غيرَ هيّاب ، يقصد النوائب إلى حيث تقيم مبارياتها على حلبة الصراع ، يقيم في عقر دارها ، في مكان التقائها وتجمّعها إلى أن يبدّد قديمها وجديدها[3] .

3 ـ ازدواجية اللين والعنف عند الرشيد : هكذا يظهر الريشد لطيفاً عنيفاً في آن واحد . وهاتان الصفتان المتناقضتان ، حين تتوازنان في شخص الحاكم ، تجعلان منه مسؤولاً مثالياً . وقد اعتمد الشعراء ، منذ الجاهلية ، مدح الأشراف والملوك بهذه الازدواجية . وقد يكون في أساسها سيرة المنذر بن ماء السماء الذي قسم حياته يومين : يوم سعد ويوم بؤس : يَهنأ من يلاقيه في يوم سعده ، ويُعدَم من يصادفه في يوم بؤسه[4] . وقد لا يكون هذا هو السبب وإنما مثالية تبنّاها العرب منذ القديم ، إذ يقول النابغة في الحارثِ الأعرج الغسّاني :

الطاعنُ الطعنــةَ يــومَ الوغى ينهَــلُ منهــا الأسَلُ الناهلُ
والغافــرُ الذنــبَ لأهــلِ الحِجا والقاطعُ الأقرانَ والواصلُ[5]

---

1 يقول يحيى بن زياد مقرظاً الرشيد : «فلمّا رأى ما رأى من تخاذل العامة وتواكل الجنود ونزور الفيء وجمود الحلب واستكلاب العمّال على الخيانة ، وجرأة الرعية على منع الحق ، ومال الفراغ بكثير من الناس عن القصد ، فتحرّكت الأهواء ، واستعرّت نيران العصبية ، وجاشت صدور الحسدة وأشياعهم بالأماني ، وظنّوا أن لا شدّة معه ، وأن عفوه لا نكير بعده ، . . . شمّر في إثرهم تشمير من قدّم الروية فبل العجلة ، والعفو قبل العقوبة ، والتثبت قبل الإقدام . . .» (جمهرة رسائل العرب ج 3 ص 246) .

2 أبو العتاهية ـ الأغاني ج 4 ص 60 .

3 يقول العتابي :

مقيمٌ بمُستَنِّ العــلى حيث تلتقي طَوارِفُ أبكــارِ الخطوبِ وعُونُها

(الحيوان ج 3 ص 63) .

4 آثار البلاد وأخبار العباد ص 426) . وإذا كانت ازدواجية المنذر مبنيّة على المزاجية اللامنطقية فقد عرف شاعر كأبي قابوس أن يحوّلها إلى موضوع مدح فقال في الفضل بن يحيى البرمكي :

له يومُ بؤسٍ ، فيه للناس أبؤسٌ ، ويومُ نعيمٍ فيه للناس أنعُمُ

(الوزراء والكتّاب ص 190) . (والمعنى تداوله شعراء كثيرون ، قبله وبعده) .

5 ديوان المعاني ج 1 ص 47) وتقول أمامة بنت الجلاح الكلابية في الأسود بن قنان :

كأن العطايا ، والمنايــا ، بكفّه سحابــان مقرونــان مؤتلفان

(المصدر نفسه ص 62) .

واستعار الشعراء اللاحقون هذا المعنى ، شأن كثير من المعاني الجاهلية ، ليضفوها على ممدوحيهم حتى وصلت إلى الرشيد[1] . وقد مُدح البرامكة بازدواجية اللين والعنف لأنهم كانوا ، كما رأينا ، يتبعون خطّة مع الخارجين على الدولة : يسوقون عليهم القوة في أجلى مظاهرها ، ويطمعونهم بالحلم والعفو الكبير . . ولأن الشعراء ، توارثوا هذا المعنى وأُعجبوا به ، فقد أضفوه على الرشيد ، ولعلّه أحقّ به من سواه نظراً لتطرّف طباعه وسرعة توفّزه . وترتسم أمامنا صورة الرشيد ماداً يده بالعفو ، ومشهراً الحسام المهنّد باليد الأخرى ، مقبلاً على المخالفين ليردّهم إلى حظيرة الطاعة[2] . ويشبّه أبو نواس الرشيد ، في ملاحقته للأعداء ، بالدهر : ليّناً وعنيفاً في آن واحد :

حذَرَ امرىءٍ قَصَرت يداه على العِدا ... كالدهرِ فيه شراسةٌ ولَيانُ[3]

وفي هذا المعنى يقول النمري :

يُقري العدوَّ المنايا والقناةَ نَدَى ... من كل ذاك القِرى ، أحواضُه تُرَعُ[4]

ويعتمد مروان بن أبي حفصة ، على ما يعطي التطرُّف المعنى من قوة ، ليصف الرشيد مغرِقاً في الحزم ، مغرقاً في الكرم : يعطي فيلذُّ عطاؤه ، ويعاقب ، فلا يُحتمل عقابه[5] . ثمّ يمضي مروان في تأكيد هذه الازدواجية المحمودة حتى يجعلها تقليداً عند العبّاسيّين ، وخلة متوارثة عندهم . فهم قوم ربّوا على البأس واعتادوا العطاء ، تراهم تارة والسيوف بأيديهم تهتز والرماح تشرع ، وتراهم طوراً

---

1 على سبيل المثال نذكر قول الأخطل في بني مروان :

شمسُ العداوة ، حتى يستقادَ لهم ، ... وأعظمُ الناس أحلاماً ، إذا قدِروا

(ديوان المعاني ج 1 ص 62) .

ويقول مروان بن أبي حفصة في معن بن زائدة :

تشابهَ يوماه علينا ، فأشكلا ... فما نحن ندري : أيُّ يَوميهِ أفضلُ ؟

أيومُ نَداه الغمرِ أم يوم بأسهِ ... وما منهما إلاّ أغرُّ مُحجَّلُ ؟

(المصدر نفسه ص 48) .

2 يقول مسلم بن الوليد :

إذا اختلفت أهواءُ قومٍ جمعتَهم ... على العفوِ أو حدِّ الحسامِ المهنَّدِ

(الديوان ص 69) .

3 الديوان ص 408 .

4 ديوان المعاني ج 1 ص 59 .

5 يقول :

أمَرُّ وأحلى ما بلى الناسُ طعمَه ... عقابُ أميرِ المؤمنين ونائلُهْ

(أمالي المرتضى ج 2 ص 149) .

تسيل أكفّهم كرماً وندى[1] .

4 ـ مكارم الأخلاق : إن ما ذكرناه ، حتى الآن ، من صفات الرشيد الحاكم ، يدخل ضمن المثالية الإدارية . ولا بدّ لنا من استكمال معالم هذه المثالية التي تتلخّص في العدل والحكمة وصفاء السريرة والصدق والوفاء . . . وقبل أن نفصّل ما قيل في هذه المعالم نشير إلى أسلوب شائع في المدح ، وهو الوصف بالأخلاق الطيّبة دون تفصيل وتسمية لهذه الأخلاق بسوى أنها المكارم وأنها المعروف . . . وكأن تحسّس الناس لها يغني عن تسميتها ، أو كأن تركها ، على حالها من الإبهام ، يسمح لعرف الناس بأن يعطيها جميع ما بإمكانه من أبعاد وتفاصيل ، فتكون أشمل وأعم ، بينما التعداد يحدّدها ويقلّصها . . . يمدح سلم الخاسر الرشيد بأنه أقصى غاية تطمح إليها المكارم ، وأنّ أبدع أمثلة بشرية تتجسّد فيها يكون الرشيد أميراً عليها[2] . ويرى منصور النمري أن الرشيد ينزل مجمع الأودية التي تسيل فيها المكارم ، فيجعل بذلك كل مكرمة ومعروف ، يجريان في مجاري التراث العربي ، يصبّان عنده لا محالة :

إن المكـــارمَ والمعروفَ أوديـــةٌ أحلّك اللهُ منهـا حيث تجتمعُ[3]

وفي هذا المعنى من الجمع والمنع ما جعله ، بحق ، يُعتدّ «أمدح بيت قالهُ محدَث»[4] .

أما العدل ، فهو أولى الصفات في مثالية الحكم ، يؤكّدها مروان مارّاً بها إلى مدح المهدي ، هادفاً من ذلك ، كما سبق لنا حديث ، إلى ترسيخ الخلة الكريمة عند هارون ، بجعلها تصله متوارَثَة ، مؤصَّلَة . ويربط مروان عدل الرشيد بعطائه ليُغرق في معاني الخير الذي يفيض منه على الرعية : فالعدل هو إعطاء كل ذي حقّ حقه ، تجب إقامته على الحاكم ولا فضل له فيه إلاّ من باب ندرة الحكام العادلين ، بينما هذا النوع من العطاء لا يكفي لإرضاء النفس الكريمة ، فهي تريد أن تعطي بلا حدود ولا قيود . هكذا يغدو عطاء الرشيد ، فضلاً عن عدله ، عفوياً لا يسبقه طلب ، ولا يستعجله إلحاح . .[5] ومن آيات العدل البعد عن الهوى في وزن الأمور وفي اتخاذ القرارات وفي

---

1 يقول مروان : فطـوراً يهزّون القواطعَ والقنـا وطوراً بأيديهـم تُهـزُّ المخاصرُ
بأيدي عظامِ النفعِ والضُرِّ ، لا تني بهم ، للعطايا والمنايا ، بَوادِرُ
(الطبري ج 8 ص 348 وخلاصة الذهب المسبوك ص 111) .

2 يقول سلم الخاسر : وليس لأيـامِ المكـارمِ غايـةٌ تتمُّ بهـا إلاّ وأنـتَ أميرُها
(البيان والتبيين ج 3 ص 235) .

3 زهر الآداب ج 3 ص 667 .

4 ديوان المعاني ج 1 ص 58 .

5 يقول مروان مادحاً ، مشيراً إلى عدل المهدي وعطائه بلا طلب وإلحاح :
خلفتَ لنا المهديَّ في العدلِ والنَدَى فـلا العُرفُ منزورٌ ولا الحكـمُ جائرُ
(الطبري ج 8 ص 348) .

مواقف الرضى والسخط[1] ؛ الحقُّ وحده يجب أن يكون الميزان ، والحق وحده يُستقى ولو كان العلقم في طعمه ، ومن نبع الحق يشرب الرشيد ولو كان السم في منهله[2] .

أما الحكمة ، فهي التي جعلت تصرّفاته متزنة واعية . وتصرّفاتُ الرشيد قدوة يُقتدى بها صادقة مخلصة ، بل نموذج **للصدق والإخلاص وصفاء السريرة** :

لله هـــارونُ مـــن ملِــكٍ ‌ ‌ ‌ ‌ بَرِّ السريرةِ ، طاهـــرِ النفسِ[3]

والصدق والإخلاص يتبعهما الوفاء ، فالرشيد إذا وعد أنجز ، وإذا أعطى فعطاء زكياً صافياً[4] . لذلك يحلو التعامل معه : لا خوف يلجم البريء ، ولا غدر يخشى منه الآمل ، لا يصدر عنه إلاّ كل خير . وكذلك يكون من أُفعم قلبُه رحمة ، ومن أُعطي صوابَ رأي يعصمه عن الخطأ والغدر[5] .

5 ـ الرأي الثاقب : إذا كانت معظم الفضائل تضمّها مكارم الأخلاق ، فإن باقيها يدعمه العقل والاتزان والرأي الصائب . فالرأي السديد يغني عن ضربة الحسام ، وهو مضمون العاقبة أكثر من حد السيف ، لأنه هو الموجّه لاستخدام السيف والمخطط له[6] . والرأي السليم يعصم عن الهفوات

---

1 يقول يحيى بن زياد متحدّثاً عن إخماد الرشيد لإحدى الفتن : «لم يسفك بها دم امرىء مسلم صبراً ، ولم ينتهك فيها حرمة محرَّم إباحة ، وذلك أنه بسط يده بسط من يريد الاستصلاح لا من يريد الانتقام . . .» (جمهرة رسائل العرب ج 3 ص 249) ويقول منصور النمري :

وقد عَلِمَ العدوانُ والجورُ والخَنَا ‌ ‌ ‌ ‌ بأنّـــك عَيّـــافٌ لهـــنَّ مُزايِلُ
ولو عَمِلوا فينا بأمرِك لم يكـــن ‌ ‌ ‌ ‌ يَنـــالُ بَـــرِيّاً بـالأذى متنـاوِلُ

(الأغاني ج 13 ص 153) .

2 يقول مروان بن أبي حفصة مادحاً :

تَروكُ الهوى ، لا السخطُ منه ولا الرضى ‌ ‌ ‌ ‌ لدى موطنٍ ، إلاّ على الحـــق حاملُهْ
يـــرى أن مُـــرَّ الحـــق أحـــلى مَغَبّةً ‌ ‌ ‌ ‌ وأنجـــى ، ولو كانت زُعافـــاً مناهلُهْ

(أمالي المرتضى ج 2 ص 169) .

3 (المصدر نفسه ج 1 ص 102) ، والشعر لعلي بن الخليل .

4 يقول مسلم بن الوليد :

بأبي وأمي ، أنتَ ، ما أندى يداً ‌ ‌ ‌ ‌ وأبـــرَّ ميثاقـــاً ، وما أزكاكا !

(الديوان ص 331) .

5 جاء في مدح أبي العتاهية :

إمامٌ له رأيٌ حميـــدٌ ورحمـــةٌ ‌ ‌ ‌ ‌ مـــواردُه محمـــودةٌ ومصادرُهْ

(الأغاني ج 7 ص 154) .

6 يقول منصور في ميميته :

يؤنسُ ، مـــن رأيـــهِ بـــرأيٍ ، ‌ ‌ ‌ ‌ أصدقَ مـــن سلّـــةِ الحسامِ

(عصر المأمون ج 2 ص 339) .

والأخطاء . ومع أن كل إنسان ، أياً بلغ من صحة النظر والتبصر ، عرضةٌ للخطأ ، فإن الرشيد بالذات معصوم[1] ، ومن يخالفه الرأي هو الذي يدفع الثمن في مواجهة الخطوب[2] . وسداد الرأي عند الرشيد حصيلة اجتماع العقل الراجح بالحدس المتوفّز والحواس اليقظة والمعرفة . . يرى الأشياء بنظره فيحيط بها ، فإذا ما فاته شيء منها ، أدركه بحدسه . وإذا ما اشتبه عليه مشتبه ، رجع إلى علمه ومعارفه يسترفدها الرأي فترفده به :

فما فـاتَ عينيهِ وعـاه بقلبِهِ   فآخـرُ مـا يرعى سواءٌ وأولُ
إذا اشتبهتْ أعناقُـه بَيَّنتْ له   معارفُ في أعجازِهِ ، وهو مُقبِلُ[3]

ولعلّ هذا الوصف لرأي الرشيد هو من أكمل ما قيل في السداد والتبصّر . إنما كل هذه النعوت التي تضفى على رأي الرشيد تؤدّي حتماً إلى نتيجة مترقبة ، وهي أنه ، إذا لم يدانه في الرأي أحد ، وإذا كان معصوماً عن الخطأ في التقدير ، فمن الطبيعي ألا يكون بحاجة إلى مشورة ، وأن يتفرّد بآرائه وقراراته .

6 **ـ التوحّد في الرأي ومضاء العزم** : هكذا ، ومع أن سداد الرأي ، الصفة الأساسية في السيد المسؤول عن الجماعة ، لا يمكن أن يتم عمليّاً بلا مشورة العقلاء وأهل العلم ، ومع أن التشاور في الأمور فضيلة آمن بها العرب وشجّع عليها الإسلام ، نجد أن مثالية القوة التي أغرم بها الجاهليون وقاربوا فيها الرعونة ، ورثها عنهم الإسلاميون ، فأرادوا للسيد الواثق من نفسه أن يستبد برأيه . أما ارتباط الاستبداد بالرأي مع مثالية القوة فواضح لأن صحة الرأي ، إذا نجمت عن المشاورة ، فالمشاورة هي صاحبة الفضل وهي الخليقة بالمدح . فإذا كانت مهمة المديح رفع الممدوح فوق أقرانه وإعطاءه ميزة التبصّر وبُعد النظر ، مضافاً إليها ، من وحي الإسلام ، نعمة الإلهام وتسديد الله لخطاه ، أصبح من الطبيعي أن يغدو التفرّد بالرأي فضيلة ، والتشاور ضعفاً وتردّداً . من هذا المنطلق ، اندفع الشعراء يصفون الرشيد حاكماً مطلقاً لا رأي يعلو رأيه ولا رأي يدانيه ، ولا يحسّ هو بحاجة إلى رأي آخر يسنده[4] ، ولا إلى خبرة أخرى

---

1 من مدح نُصيب الأصغر ، أبي الحجناء :

ومـا نازعتْ فينا أمورَك هفوةٌ   ولا خَطْلَةٌ في الرأي ، والرأيُ يخطِلُ

(الأغاني ج 22 ص 401) .

2 ينسب الوطواط ، إلى مسلوب اعترضه حين مرّ بديرٍ في ظاهر الرقة ، مدحاً منه :

وغريـمُ رأيـك في النهـي   يكفيـك عاقبـةَ الصُـروف

(الغرر والعرر ص 128) .

3 الأغاني ج 22 ص 401 .

4 يقول أشجع مشيراً إلى حوادث طبرستان :

تبصّره ، فتجربته مع الدهر كافية وافية[1] . لذلك كانت قراراته فورية يتّخذها بلا تردد ولا خوف من الخطأ . ولذلك أيضاً هو سريع إلى تنفيذ ما قرر ، تعينه سطوة بلغت حدّ الخيال ، طالت القريب والبعيد ، نالت المنكشف من الأعداء ، وتغلغلت إلى جُحر المختبيء الهارب[2] . يكفي إذن أن يختار وأن يقرّر ليأتي قراره مأثرة من كنوز المآثر التي اعتاد إثارتها[3] ، وليشن ذلك القرار ، بمجرّد اتخاذه ، حصاراً على أعدائه يختم على أسماعهم وأفواههم ، لا مناص منه ولا مهرب[4] . وأي قرار أمضى من رأيٍ حازم يدعمه سيفٌ صارِم ؟

وما زلتَ ترميهم بهم متفرّداً   أنيساكَ : حزمُ الرأيِ والصارمُ العضب[5]

7 ــ الرشيد القائد الشجاع : إذا كانت المثالية الخلقية والدينية تقضي على الحاكم بأن يعدل ويحلم ويعفو ، ويفي ويرعى ويسهر ، فإن هذه المثالية عينها تقتضيه أن يكون عُنفاً وشدةً وقسوةً على الأعداء ، يهاجمهم وينكّل بهم ويسقي سيفه من دمائهم . كلّما أمعن في ذلك اقترب أكثر من هيبة السيد وعزم القائد . ولا شكّ في أن أساس هذا الدور : الشجاعة ، فهي تحضّ على المواجهة وتدفع إلى المبادرة ؛ والشجاعة هي التي تضمن له النصر . . . ومن آيات الشجاعة أن يكون القائد أول المهاجمين يرمي الأعداء بصدره ، وتأتي الخيل والفرسان وراءه ، كما قال أشجع السلمي في الرشيد :

= نظرتَ برأيك ، لما هممـ   ـتَ ، دون الرجال وآرائها

(البيان والتبيين ج 3 ص 290 والأغاني ج 18 ص 175) .

1 يصفه النمري بذلك فيقول :

مستحكمُ الرأي ، مستغنٍ بوحدته   عن الرجالِ ، بريبِ الدهرِ مضطلعُ

(ديوان المعاني ج 1 ص 59) .

2 يقول مسلم بن الوليد واصفاً طُول الرشيد الذي يدرك أعداءه ، سواء وُجدوا على أرض صحراء منبسطة ، أو خافوا منه فاختبأوا :

إذا انجحروا جلّى بخوف عليهمُ   وإن أصحروا كانوا فريسةَ مُرصِدِ

(الديوان ص 75) والمرصد هو الأسد .

3 قال أشجع بن عمرو السلمي :

كانت كنوزَ مآثر فأثارها   ملِكٌ ، على آرائهِ ، عزّامُ

(طبقات ابن المعتز ، ص 252) .

4 يصف أبو نواس هذه اللفتة الخاطفة التي تنجم عن قرارات الرشيد :

حتى إذا أمضى عزيمةَ رأيهِ   أخذتْ بسمعِ عدوّه والمنطقِ

(الديوان ص 401) .

5 الأغاني ج 18 ص 144 والشعر لأشجع .

بنفسِكَ ترميهـم والخيـول كرمْـي العُقـابِ بأفلائهـا[1]

والهجوم تزداد قيمته حين تزداد خطورته ، ويعلو سهم الشجاعة فيه حين تتقاعس الأبطال عنه . . . فيوم تزلّ الأقدام من الشدّة ، وتتعطّل أيدي الرجال ، من الجهد والإرهاق ، في ذلك اليوم المعلوم يهجم الرشيد والسيف في يده مشرع :

وصَلَتْ يداكَ السيفَ يوم تعطَّلتْ أيدي الرجالِ وَزَلَّـتِ الأقدامُ[2]

وقد تمرّس الرشيد بالحروب ، وبتأديب الأعداء والخارجين ، وإعادة البلاد العاصية إلى الطاعة حتى غدا طبيباً ماهراً بطب التمرد والثورات ، تمدّه خبرته بالأسلوب الملائم لعلاج كل حالة من حالاتها . كذا فعل بطبرستان حين قامت فيها الثورات ، فخاطبه أشجع السلمي :

فلمّـا نظـرتَ إلى جُرحهـا وضعـتَ الدواءَ عـلى دائها[3]

والذي يعنينا من هذا التشبيه أن الرشيد هو دائماً في المقدمة ، في مقدمة الجيوش ، في مقدّمة المبادرين ومتّخذي المواقف ؛ ومتى كانت لدى القائد هذه الصفات في الشجاعة والإقدام ، والحنكة والخبرة ، ومتى كان ذا «زحوف جمّة وجنود»[4] أفلا يكون النصر حليفه الدائم ؟

8 ـ الرشيد المنتصر : وكيف لا ينتصر دائماً من قاد جيوشاً نادرة المثال ، يكفي أن تهجم لتتفرّق الأعداء ؟[5] وكيف لا ينتصر من يراعيه الله ويغدق عليه أنعامه وعونه ؟[6] لقد أضحى معنى النصر ملازماً لمدائح الشعراء في الرشيد ، فإذا هو يشرب دائماً من مياه النصر وينهل من أعذب مواردها :

ومـا زال هـارونُ الرضا ابنُ محمدٍ له ، من مياه النصر ، مشربُها العذْبُ[7]

1 البيان والتبيين ج 3 ص 290 والأغاني ج 18 ص 176 (والأفلاء جمع فلاة) .

2 طبقات ابن المعتز ، ص 252 (والشعر لأشجع السلمي) .

3 البيان والتبيين ج 3 ص 290 .

4 الأغاني ج 4 ص 106 الكلام لأبي العتاهية . ويشبّه مسلم جنود الرشيد بريح جائحة تجرف كل ما يعترضها فيقول :

لقـد بعثتَ إلى خاقانَ جائحةً خرقاءَ حصّاءَ لا تُبقي ولا تَذَرُ

(الديوان ص 254) .

5 يقول ذلك مروان بن أبي حفصة مادحاً الرشيد :

وما انفكّ معقوداً بنصرٍ لواؤهُ له عسكرٌ ، عنه تَشَظّى العساكرُ

(الطبري ج 8 ص 348) .

6 يصفه بذلك علي بن الخليل . انظر ص 683 من البحث .

7 الأغاني ج 18 ص 144 والشعر لأشجع السلمي .

وهو دائماً يسقي سيوفه من دماء أعدائه ، سيوفاً مشرعة أبداً ، قلّما تغمد[1] ، سيوفاً كثيرة عدداً ، كأنها غمامة تلتمع فيها الأنصال وتبرق ، فيكون مطرها الرؤوس تتساقط والدماء تسيل :

برقت سماؤكَ في العدوِّ فأمطرتْ هاماً لها ظِلُّ السيوفِ غمامُ[2]

9 ـ الهيبة والسطوة : والآن ، إذا بلغ الحاكم القائد ما بلغه الرشيد من شجاعة وثقة بالنفس وسداد في الرأي ، وإذا كان كالرشيد منتصراً أبداً في معاركه ، وكان له سطوته التي طالت العدو والصديق ، فإن هيبته تكون عميقة في النفوس ، ويكون اسمه كافياً لإدخال الرعب إلى قلب المذنب وإعادة الخاطىء إلى جادة الصواب . ومع أن الهيبة تجد صداها في نفوس الموالين ، فإن مثالية القوة تريد لهذه الهيبة أن تكون في خدمة الجماعة ، لتعطي ثمارها على صعيد الصراع الدائم مع الأعداء . فالقبائل ، إذ أغرمت بالقوة ، تعشّقت البطل الشجاع ،لأنه يعينها على إذلال أعدائها وإلقاء الرعب في قلوبهم : فعلى تصرفات الأعداء يحلو للجماعة أن تقرأ أمارات هيبة سيدها وسطوته . والرشيد سيد جماعة المسلمين : به يحتمون ، وخلفه يسيرون ، وإليه ينقادون . به وثقوا ، وإليه ألقوا أمورهم مسلّمين بحسن قيادته . وهو قد وظّف حسن القيادة في ملاحقة الأعداء ، في زيارته لهم دوماً غازياً فاتحاً ، حتى ألقى الرعب في قلوبهم وجعلهم يعيشون حالة القلق الدائم والتذمّر . في ذلك يقول أبو نواس :

لقد أرهبتَ أهلَ الشرك حتى تركتهُمُ وما يتذمّرونا[3]

وتتضخّم الهيبة حتى تصبح ملء القلوب ، تطفح بها[4] ، وحتى يغدو الرشيد ملء العيون تنكّس أبصارها أمامه[5] . بل إن في نظرته هيبة فتّاكة تغني عن سل السيف وتقوم مقام النصل[6] .

1 يقول أبو نوّاس :

أَلِفتْ منادمةَ الدماء سيوفُهُ فلقلّما تحتازُها الأجفانُ

(الديوان ص 404) .

2 الأغاني ج 18 ص 161 ومعاهد التنصيص ج 4 ص 226 والشعر لأشجع .

3 ديوان أبي نواس ص 403 (وقد مرّ بنا في شعر الاعتذار تصوير العتابي الرشيد يُرهب المذنب حتى يجعله يخاف من نفسه ومن خواطره ، ويعاجله بحتفه قبل أن يستطيع التندّم والتأسّف) .

4 يقول منصور النمري :

إن الخليفةَ هارونَ الذي امتلأت منه القلوبُ وصارت تحته تُرَعُ

(ديوان المعاني ج 1 ص 59) .

5 يقول أبو نواس :

إن العيون حُجبْنَ عنكَ بهيبةٍ فإذا بدوتَ لهنّ نُكِّس ناظرُ

(ديوان أبي نواس ص 401) .

6 يقول شاعر مسلوب مخاطباً الرشيد ، في إحدى رحلاته للحج :

لحظاتُ طرفِكَ في العدى تُغنيكَ عن سلِّ السيوفِ

(الغرر والعرر ص 128) .

بقيت صورة أخرى لهيبة الرشيد وهي صورة الهيبة المستمدة من الطاعة ؛ فملك الأرض مطيع خاضع لملك السماء ، وسطوة الإنسان مع طاعة الخالق يشكلان تاجين من المهابات على رأس الرشيد[1] .

وهكذا يكون التبادل بين الرشيد والشعراء : هو يقدّم لهم الإطار والعناصر المكوّنة ، وهم يشكّلون الصورة . لقد اتصف الرشيد بصفات كثيرة متميّزة سبق لنا الحديث عنها . رأينا حبّه لحياة المعسكرات ، ورأينا جرأته ومباشرته قيادة الجيوش بنفسه ، ورأينا عزمه واتخاذه قراراته بنفسه وبسرعة وانفعال ، كما عاينّا حلمه عندما انتصر في هرقلة ، مثلما عاينّا ثورته وهجومه المدمّر قبل ذلك حين استُثير وأُغضب . لقد اتصف بصفات كثيرة من صفات المثالية العربية ، ومدحه الشعراء بها فانتشى بالمدح وأغرق في التمسّك بتلك الصفات . كان شجاعاً فتحدّثوا عن شجاعته فأغرق في الجرأة . كان حازماً فوصفوه بالعزم وأغروه بالتوحد في الرأي فاعتدّ بنفسه واغترّ ، وانفرد بقراراته حتى كان مستشاروه ، حين يأخذ رأيهم ، يشيرون عليه بما يعرفونه رأياً له . كان حليماً طيّب السريرة ، وصفوه بالحلم فأغرق في التمسّك به حتى بات يعفو عن أعظم الذنوب بكلمة اعتذار بليغة . وكان كريماً ، مجّدوا كرمه فراح يبذّر الأموال بشكل لا يصدّق . . . لقد كانت صفات الرشيد في تفاعل دائم مع معاني الشعراء ، تطمح إلى ما يصفون ويصفون ما تطمح إليه حتى طرقت باب التطرّف وطرقوا باب الغلو والمغالاة ، مما نراه بعد حين .

---

1 يقول أبو العتاهية مخاطباً ناقته :

حتى تُناخي بنـا إلى ملكٍ　　تَـوَّجَـهُ اللهُ بالمهابــاتِ

عليه تاجان فـوق مَفرقِهِ !　　تاجُ جـلالٍ وتاجُ إخباتِ

(الأغاني ج 4 ص 60 (الإخبات : الخضوع) .

الفصل الثالث
الرشيد الخليفة الإمام

إمـــامٌ لـــه كـــفٌّ تضمُّ بنانُها	عصا الدين ممنوعاً من البَرْيِ عودُها
رعـــى أمـــةَ الإسلامِ فهو إمامُها	وأدّى إليها الحـقَّ ، فهـــو أمينُها[1]

كلثوم العتّابي

يقول ابن خلدون في الخلافة والإمامة : «إذ قد بينّا حقيقة هذا المنصب ، وأنه ، نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا به ، تسمّى خلافة وإمامة ، والقائم به خليفة وإماماً . فأما تسميته إماماً فتشبيهاً بإمام الصلاة في اتّباعه والاقتداء به . ولهذا يقال : الإمامة الكبرى . وأما تسميته خليفة ، فلكونه يخلف النبي في أمّته ، فيقال : خليفة بإطلاق ، وخليفة رسول الله . واختلف في تسميته خليفة الله . فأجازه بعضهم . . . . ومنع الجمهور منه . . . وقد نهى أبو بكر عنه لما دعي به وقال : / لست خليفة الله ، ولكني خليفة رسول الله ﷺ . ولأن الاستخلاف إنما هو في حق الغائب ، وأما الحاضر فلا»[2] . وأما شروط هذا المنصب فهي أربعة : العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والأعضاء . . . واختلف في شرط خامس وهو النسب القرشي»[3] . ويبدو لنا أن ما تحفظ ابن خلدون وأهل الرأي عن تأكيده هو ما تأكد على مرّ الأيام ؛ وتسمية الخليفة بخليفة الله غدا دأبَ الشعراء يرددونها ويعطون الأدلّة عليها ؛ واشتراط النسب القرشي الذي قَبِل به البعض وردّه البعض الآخر هو الذي كُرّس ، فلم يكن خليفةٌ إلاّ من قريش ، وبهذا النسب كثر مدح الشعراء . ونحن لن نتناول شروط ابن خلدون بالتفصيل هنا فقد سبق لنا الحديث عن معظمها في الفصلين السابقين ، لكننا نعمد في هذا الفصل ، إلى تفصيل المدح بالنسب القرشي الهاشمي للرشيد ، وبصفات مستمدة من دوره الديني في تمثيل الله على هذه الأرض ، وقيامه بأمر الإسلام ورعاية المسلمين ، ثمّ نتناول مدحه بتميّزه من الناس وسائر الخلفاء .

أولاً : الرشيد القرشي وابن عم الرسول

في حديثنا عن الصراع العبّاسي ـ العلوي ، ذكرنا ادعاء كل من الفريقين المتنافسين أواصر قربى أشد بالنبي ﷺ ، وقلنا إن ذلك كان بهدف إثبات أولوية الحق في خلافة الرسول ، وبالتالي تولي أمور

1 زهر الآداب ج 3 ص 642 .

2 مقدّمة ابن خلدون ج 2 ص 519 .

3 المصدر نفسه ص 522 .

المسلمين . لكن الفريقين المتنازعين كانا من قريش ، وكذلك كان أعداؤهما المشترَكون بنو أمية ؛ وقد اعتُدّت القرشية ملازمة للخلافة ، قُدّم لذلك براهين من أحاديث عن الرسول وأقوال للصحابة ، وتناول ابن خلدون هذا الموضوع قائلاً : «أما النسب القرشي ، فلإجماع الصحابة ، يوم السقيفة ، على ذلك . . . وثبت أيضاً في الصحيح : «لا يزال الأمر في هذا الحي من قريش» . وأمثال هذه الأدلة كثيرة . إلاّ أنه ، لما ضعف أمر قريش وتلاشت عصبيّتهم بما نالهم من الترف والنعيم . . . عجزوا بذلك عن حمل الخلافة ، وتغلّبت عليهم الأعاجم وصار الحل والعقد لهم ، فاشتبه ذلك على كثير من المحقّقين حتى ذهبوا إلى نفي اشتراط القرشية»[1] . وفي رأي ابن خلدون أن حصر الخلافة في قريش هو حصر للخلاف بين المسلمين عليها في نطاق ضيّق ، وذلك في مصلحة المسلمين عامة ، وإن لم يخل هذا النطاق ، على ضيقه ، من صراعات دامية سبّبت الكثير من الدمار والخراب والقتل . أما بالنسبة إلى الشعراء ، فقد عرفوا أهميّة النسب القرشي ، عند الخلفاء ، فراحوا يركّزون على انتمائهم إليه . ولقريش ، في نسبها ، قيمة مزدوجة . فهي ، من جهة ، قبيلة أسياد ، وجماعة فضل وغنى بين العرب . ومن جهة أخرى هي قبيلة القيّمين على دين العرب في الجاهلية والإسلام . ولا شكّ في أن انتساب النبي العربي إليها كان أكبر فخر لها وأهم دِعامة لرياستها وتقدّمها ؛ فالنسب المتصل بالنبي غدا مقياس الشرف في الإسلام[2] ، ومن هنا كانت أفضلية الهاشميّين التي سبق الحديث عنها في فصل الصراع . . . والرشيد خليفة عظيم لأنه إمام من بني هاشم ، بذا يخاطبه عمر بن سلمة :

قُل للإمــام الهاشميّ الذي   عليـه تــاجُ المُلْكِ معقودُ[3]

والهاشميّون ، لأنهم أهل الرسول وأقرباؤه ، مهيّأون أكثر من جميع الناس لحمل الدين وفهم تعاليمه ونشرها ، والتحلّي بالتقوى والصلاح ؛ وتلك أمور يخص بها اللهُ عبادة المتميّزين[4] . ويرى العتابي أنهم جماعة صالحة ، قريبة إلى الله ، عن طريقهم يتم الدين ، وعلى طاعتهم نص الكتاب ، وهم القيّمون على إحياء المشاعر[5] . . . ويصوّرهم العُماني أشياخاً عريقي التمرّس

---

1 مقدّمة ابن خلدون ج 2 ص 523 .

2 يقول أشجع السلمي مادحاً الرشيد :

أدناك مـن ظِلِّ النبيِّ وسيلةٌ   وقرابةٌ وَشَجَتْ بهـا الأرحامُ

(طبقات ابن المعتز ، ص 252) .

3 طبقات ابن المعتز ص 152 .

4 نجد ذلك شعاراً للعبّاسيّين أطلقه أبو العبّاس في أول خطبة له بعد استتباب الأمر ، إذ قال : «الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه فكرّمه وشرّفه وعظّمه واختاره لنا وأيّده بنا وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوّام به والذابّين عنه . . . وما توفيقنا ، أهل البيت ، إلاّ بالله . . . .» (تاريخ الخلفاء ص257) .

5 يقول العتابي :

بالسيادة ، عميقي الإيمان بالله ، يقومون حين يهجع الناس ، ليخشعوا لله ويسبّحوا بحمده ويعبدوه ، فيستحقوا بذلك الجنة التي وُعدوا . يخاطب الرشيد قائلاً :

ويـا ابنَ أشياخِ الحَطيمِ التُلْدِ ، القائمينَ الليلَ ، بعـد الرَقْدِ
لله يَرجـون جِنـانَ الخُلدِ[1]

والآن ، إذا اقتنعنا بأن قريشاً أفضل العرب ، والهاشميّين أتقى الناس ، والرشيد أفضل الهاشميّين[2] ، فلن يكون له عديل في «الكفاية» للخلافة[3] : عنده يصب إرث النبي بجميع حذافيره وتفاصيله[4] ، ويكون عنده مهمّة غيرُ مهمّة الحكم وقيادة الجيوش : إنها مهمّة إتمام ما بدأه النبي بما هو مفروض على الإمام من «حماية الدين وجهاد العدوّ وإقامة الأحكام وتدبير المصالح»[5] .

ثانياً : الرشيد الإمام ، الخليفة الديني ، ممثّل الإسلام

كان الرشيد ، ككل حاكم ديني مطلق ، يتمتّع ، في نظر مادحيه على الأقل ، بنوع من القدسية يعود إلى تفويض من الله إليه ، بوصفه خليفة الرسول والقيّم على دينه وعلى أتباعه من المسلمين . يقول ذلك صراحة عبد الملك بن صالح العبّاسي :

اللهُ قلَّـدَ هارونـاً سياسَتَنـا ، لمّا اصطفاهُ ، فأَحيا الدينَ والسُّننا[6]

ومن الواضح أننا نلتقي هنا بنظرية الحق الإلهي التي تجعل اختيار الحاكم إرادة إلهية لا يناقشُ فيه البشر[7] ، بل يتلقّونه كأمرٍ واقع ، ولا يحق لهم انتقاده أو الثورة عليه لأن ذلك انتقادٌ

= في عِترةٍ لم تقـم ، إلا بطاعتهـم من الكتاب ، ولم تُقضَ ، المشاعيرُ
(عيون الأخبار ج 1 ص 94) . (العترة : ولد الرجل وذريته ، أو عشيرته ممن مضى) .

1 طبقات ابن المعتز ، ص 112 .

2 يقول النمري :
آلُ الرسول خيـارُ النـاسِ كلِهمُ وخيـرُ آلِ رسولِ الله هـارونُ
(آمالي المرتضى ج4 ص 186) .

3 يعرّف ابن خلدون الكفاية للخلافة بأن يكون الخليفة «جريئاً على إقامة الحدود واقتحام الحروب ، بصيراً بها ، كفيلاً بحمل الناس عليها ، عارفاً بالعصبية وأحوال الدهاء ، قوياً على معاناة السياسة ، ليصح له بذلك ما جُعل إليه من حماية الدين وجهاد العدو وإقامة الأحكام وتدبير المصالح» . (المقدمة ج 2 ص 522) .

4 يقول نُصيب الأصغر مخاطباً الرشيد :
ورثـتَ رسولَ الله عضواً ومِفصَـلاً وذا مـن رسول الله عضوٌ ومِفصَلُ
(الأغاني ج 22 ص 402) .

5 مقدّمة ابن خلدون ج 2 ص 522 .

6 تاريخ الطبري ج 8 ص 276 .

7 من مبادي الحق الإلهي : «إن كل سلطة تأتي من الله . لكن لله لا يخلق السلطة السياسية بحد ذاتها فقط ، بل هو

لإرادة الله[1] . كل ما في وسعهم ، إذا أخطأ الحاكم ، أن يدعوا الله كي يهديه فيرأف بهم ويتلطّف[2] . ولعلّ المنصور كان أول من فلسف هذا الحق من الخلفاء في خطبته المشهورة التي جاء فيها : «أيها الناس ، إنما أنا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتسديده . وأنا خازنه على فيئه ، أعمل بمشيئته وأقسمه بإرادته وأعطيه بإذنه . قد جعلني الله عليه قفلاً ، إذا شاء أن يفتحني لأعطياتكم وقسْم فيئكم وأرزاقكم فتحني ، وإذا شاء أن يقفلني أقفلني . فارغبوا إلى الله أيها الناس . . . أن يوفّقني للصواب ويسدّدني للرشاد ، ويلهمني الرأفة بكم والإحسان إليكم . . .»[3] وتطوّرت فكرة هذا الحق حتى وصلت ناضجة إلى هارون ، فأحسّ بتميّزه في المكانة من سائر الناس ، وبتميّزه في العلم ، كما قَبِل مظاهر التقديس ومارس الحكم المطلق من دون الرجوع إلى رأي غير رأيه[4] ، وإن استشار أحياناً فعن تفضّل وتواضع . وإذ مُدِح الرشيد بهذا التفرّد فقد أغرق فيه ، فعمد شعراؤه إلى المغالاة في تكريسه له ، كما نرى بعد قليل . ولكي يكون طابع هذا الحكم الديني المتفرد مقبولاً لا مجال لدحضه أو مناقشته ، كان لا بدّ من أن تتواتر الأدلة التي تشكّل سنداً فقهياً له ، فراح رواة الحديث يروون ، والفقهاء يأخذون ، والقضاة يصبّون ذلك كلّه في خانة الطاعة المطلقة الواجبة للراعي على الرعية . ومن ذلك ، فضلاً عما سبق ذكره عن أبي يوسف في روايته لأحاديث مسندة ، قول أم الحصين : «رأيت رسول الله ﷺ ملتحفاً بثوبه ، قد جعله تحت إبطه وهو يقول : أيها الناس ، اتقوا الله واسمعوا وأطيعوا ، وإن أُمّر عليكم عبدٌ حبشيٌّ أجدع فاسمعوا له وأطيعوا . .»[5] . وقول أبي هريرة : «قال رسول الله ﷺ : من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن أطاع

= أيضاً يعيّن الشخص أو العائلة اللذين يتولّيانها في هذه الدولة أو تلك . . . ليست السيادة وحدها تأتي من الله ، لكن التاج أيضاً يؤول إلى الحاكم بإرادة الله وبقوة سيفه» .

Dictionnaire de Sociologie mat. "autorité", Tome II, p. 1146.

1 يحق للذين يتقلدون الأمور العامة أن يتطلّبوا الطاعة بشكل يُعتدّ معه رفضُها إثماً يُرتكب وخطيئة تحتاج إلى تكفير عنها» . (المصدر نفسه) .

2 نجد هذه المبادىء في كتاب الخراج : يذكر أبو يوسف حديثاً مسنداً جاء فيه : «إنما الإمام جُنّةٌ يقاتَل من ورائه ويُتّقى به . فإن أمر بتقوى الله وعَدَل ، فإن له بذلك أجراً . وإن أتى بغيره ، فعليه إثمه» . (ص9) ويروي أبو يوسف كذلك حديثاً عن أنس بن مالك فيه : «أمرَنا كبراؤنا من أصحاب محمد ﷺ أن لا نسبّ أمراءنا ولا نغشّهم ولا نعصيهم ، وأن نتّقي الله ونصبر» . (ص10) وعن الحسن البصري : قال رسول الله ﷺ : «لا تسبّوا الولاة ، فإنهم إن أحسنوا كان لهم الأجر وعليكم الشكر ، وإن أساؤوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر . وإنما هم نقمة ينتقم الله بهم ممن يشاء . فلا تستقبلوا نقمة الله بالحميّة والغضب ، واستقبلوها بالاستكانة والتضرّع» . (ص10) .

3 تاريخ الطبري ج 8 ص 89 .

4 «لقد أبقت النظريات خليفة المسلمين رأس الدولة الإسلامية ، وكان له بذلك ، أكثر من أي حاكم آخر ، أن يجمع السلطات في يديه وحده» The Caliphate, p. 78 .

5 كتاب الخراج ص 9 .

الإمام فقد أطاعني . ومن عصاني فقد عصى الله . ومن عصى الإمام فقد عصاني» . وقول حذيفة : «ليس من السنّة أن تشهر السلاح على إمامك . .»[1] ويبدو أن هذا السند الديني ، الذي دعم به الفقهاء حق الخلفاء ، هو الذي أعطى (بصرف النظر عن صحّة السند أو افتعاله) للشعراء مجالاً لطرح شعار : طاعة الخليفة من طاعة الله . فهذا النمري يعتدّ الرشيدَ إماماً معصوماً ، جميع قراراته موفّقة ، وهو يرضى حكمه أيّاً كان :

رضيتُ حكمكَ ، لا أبغي به بَدَلاً ، لأنّ حُكمكَ بالتوفيــقِ مَقرونُ[2]

ويرى النمري أيضاً أن مجرد طاعته للرشيد تحميه من الأحداث لأنه يكون ، بذلك قد اتبع الصراط المستقيم :

لـمّا أخذتُ بكفّي حبـلَ طاعتِهِ أيقنتُ أني ، من الأحداث ، مُمتنعُ[3]

وإذا كانت مهمّة الخليفة الدينية تعطيه لمسة قدسية ، فما بالنا بالرشيد ؟ لقد وجد فيه المادحون خير الخلفاء وأكثرهم غيرة على الإسلام وأهلِه :

مــا استُودِعَ الديــنُ مــن إمامٍ حَامَــى عليــه ، كما تُحامــي[4]

وإذا أصابت الدين نكسة من المشركين ، فليس كمثل الرشيد من يثأر له وينتقم :

إذا نُكِــبَ الإسلامُ يوماً بنَكبَةٍ فهارونُ ، مِن بينِ البريّــةِ ، ثائرُهْ[5]

بل يبدو أن هارون لم يوجد إلاّ لهذه المهمة : أن يهبّ لنصرة الإسلام يعيد إليه عزّه ومنعته[6] ، وقد أدّى هارون مهمّته وأعاد للملك قراره وللدنيا رونقها وازدهارها[7] .

ثالثاً : هارون الخليفة المتميّز

قام الرشيد ، إذن ، بأمر الله وإرادته ، بالدفاع عن الدين وإعادة عزّه إليه . هو منتخب لهذه

---

1 كتاب الخراج ص 9 .

2 أمالي المرتضى ج 4 ص 186 .

3 ديوان المعاني ج 1 ص 59 .

4 عصر المأمون ج 2 ص 339 والشعر لمنصور النمري .

5 الشعر لأبي العتاهية ، انظر الديوان ص 213 والأغاني ج 4 ص 17 .

6 يقول أبو نواس في الرشيد :

بَــراكَ اللهُ للإسلام عــزّاً وحصناً ، دونَ بيضتهِ ، حَصينا

(الديوان ص 403) .

7 يقول سلم الخاسر :

بهارونَ قــرَّ المُلْكُ في مُستقَرِّهِ وأشْرقَتِ الدُنيا وأينعَ نورُها

(البيان والتبيين ج 3 ص 235) .

المهمة ، متميّز عمّن سواه من الأئمة والخلفاء وسائر البشر . وقد أنس الشعراء إلى مدحه بالتميّز ، وسكر الرشيد بنشوة هذا المدح حتى تداوله معظم مادحيه . وهذا التميّز يتردّد بين الاطلاق والتخصيص . فالرشيد ، على الإطلاق ، خير الناس في الماضي والحاضر والمستقبل أيضاً . بذلك يصرّح علي بن الخليل قائلاً :

خيرُ البريّـةِ ، أنتَ ، كلّهـمِ   في يومِكَ الغادي وفي أمسِ
وكـذاك لـن تنفكَّ خيرَهُـمُ   تُمسي ، وتُصبحُ فوق ما تُمسي[1]

وعلى التخصيص هو خير من ركب ناقة غذت السير في أرض صحراء ، صعبة صلبة (وكان الرشيد يركب الناقة في رحلة الحج)

يـا خيرَ من وَخَدَتْ بأرحُلِهِ   نُجُبٌ تَخِـبُّ بمَهْمَـهٍ جَلْسِ[2]

وهو خير من يعطي ومن يأمل الناس نداه . يناديه النمري : «يا خير من يرجى . . .»[3] ويؤكّد أبو العتاهية أن :

خيرُ مَـنْ يُرجى ومن يَهَبُ   مَلِـكٌ دانَتْ لـه العَرَبُ[4]

ويظهر التخصيص في استثناءٍ مهمٍ ضروري ، وإن لم يقلّل من أفضلية الرشيد المطلقة على بني البشر ، هذا الاستثناء يشمل الأنبياء جميعاً ، والنبي العربي خاصة . فالأنبياء جماعة مقدّسة مختارة ، يليها الرشيد في الرتبة ، حالةً مفردة منفصلة عن سائر البشر ، من مضى منهم ومن بقي :

يـا خيرَ ماضٍ وخيرَ باقٍ   بعـد النبيّـينَ في الأنـامِ[5]
يـا خيرَ من كانَ ومن يكونُ   إلاّ النبـيُّ الطاهـرُ الميمونْ[6]

ومحمّد ﷺ ، خير الأنبياء ، وخاتمهم ، وممثّل لقدسيّتهم ، ليس بعده ، بين البشر ، من يرتقي إلى مصاف الأنبياء ، هذا صحيح ، لكن البشر مع ذلك درجات وأنماط ، والرشيد نسيج وحده ، ليس له مثيل وليس له ند[7] . ويحاول ابن أبي السعلاء أن يحدّد سبب تميّز الرشيد من الناس ، فيجد

---

1 الأغاني ج 14 ص 166 وزهر الآداب ج 4 ص 865 وأمالي المرتضى ج 1 ص 102) .

2 المصدر نفسه . (وخدت : أسرعت ـ النجب : النوق السريعة ـ مهمه جلس : صحراء غليظة) .

3 الأغاني ج 13 ص 149 .

4 المصدرنفسه ج 4 ص 108 .

5 طبقات ابن المعتز ، ص 247 والشعر لمنصور النمري .

6 الموشح ص 266 والشعر لأبي نواس .

7 يقول منصور النمري :

إذا ما عددتَ الناسَ ، بعد محمدٍ ،   فليس لهـارونَ الإمـامِ نظيرُ

(ديوان المعاني ج 1 ص 58) .

أنه يعود إلى طبيعة للرشيد غير طبيعتهم : إنهم من ماء وطين ، وهو من طبيعة ملائكية نورانية قمرية . هو بهجة تُرجى وأمل يرتقب ، إنه يوم العيد تتركّز عليه الأنظار وتعقد عليه الأماني ، بينما سائر الأيام رتيبة مملّة . يقول مخاطباً الرشيد :

النـاسُ مـن طـين وأنـ ـتَ البدرُ في فَلَكِ السعودِ
وهُـمُ كأيّـامِ الشهـو رِ وأنـتَ فيهم يـومُ عيدِ[1]

هذا بالنسبة إلى الأنبياء والبشر ، أما بالنسبة إلى الخلفاء فإن تميّز هارون مطلق : هو واسطة عقدهم ، أو هو سبب وجودهم ، بذا كانت مشيئة الله تعالى :

تباركَ من ساسَ الأمورَ بِقُدرَةٍ وفَضَّل هاروناً على الخُلَفاء[2]

وإمعاناً في تأكيد الأفضلية ، وخوفاً من أن يتبادر إلى الذهن استثناء للخلفاء الراشدين أو لأحد الصالحين من خلفاء الأمويّين ، يبادر أبو نواس إلى نفي وجود الشبيه لهارون فيمن مضى ، ويتجرّأ على المستقبل أيضاً ليجعل تميّز الرشيد يشمل من تبقى من الخلفاء[3] . وحين يصل السامع إلى هذه المرحلة يخيّل إليه أن الرشيد قد يكون خاتم الخلفاء ، كما كان محمد ﷺ خاتم الأنبياء ، أو أن الخلافة قد تنهار بعده فلا تقوم لها قائمة . لقد كان الرشيد ، للخلافة ، المنقذ المرغوب والمرتقب ، جاءته منقادة إليه تسلمه زمام نفسها ؛ ولو لم تصادفه لظلّت تبحث عنه إلى أن تجده لأنها لا غنى لها عنه بسواه ، وأنّى لها أن تجد له مثيلاً ؟ إنها لو أرادت البحث لأصابها الكلل والإعياء دون طائل ، يقسم مسلم بن الوليد على ذلك :

واللهِ ، لـو لم يعقِدوا لك عَهدَها أعيـا البريّـةَ أن تُصيبَ سِواكا[4]

لقد اصطفاه الله قبل أن يصطفيه الناس . والخلافة لم تشرّفه ، إنما هو الذي شرّفها . وهي لم تزده رفعة بل به ارتفع قدرها وزادت قيمتها[5] . يقول نُصيب :

---

1 طبقات ابن المعتز ، ص 151 .

2 الشعر لأبي نواس – راجع المحاسن والمساوىء ج1 ص 183 .

3 يقول أبو نواس :

هارونُ ، يـا خيرَ الخلائفِ كلِّهـمْ مِمَّن مضى فيهم وهذا الغابرُ (الباقي)

(الديوان ص 301) .

4 ديوان صريع الغواني ص 33 .

5 يستخدم مروان بن أبي حفصة هذا المعنى في تميّز الخليفة على الخلافة ، والمَلِك على ملكه ، فيجعله يشمل العبّاسيّين جميعاً . فهم لا يفخرون بالملك ، بل الملك يفخر بهم والمنبر يأنس إلى فصاحتهم :

لِيَهْنِكُمُ الملكُ الذي أصبحتْ بكـم أسِرَّتُـهُ مُختالـةً والمنابِـرُ

(تاريخ الطبري ج 8 ص 348) .

لئن نـــال عهـدَ الله قبلَ خِلافـــةٍ   لأنتَ من العهد الذي نلتَ أفضلُ
وما زادكَ المُلكُ الذي نِلتَ بَسْطَةً   ولكن ، بتقوى الله ، أنت مُسَرَبَلُ[1]

تُرى ما الذي يجعل الخالق يصطفي عبداً من عباده ؟ لقد قال نُصيب إنه التُقى ، وقد تسربل به الرشيد من قمّة رأسه إلى أخمص قدميه ، وسيكون لنا حديث قريب عن تقاه . أما كيف يتجلّى حبُّ الله له واصطفاؤه ؟ ففي النِعَم التي يُغرقه بها[2] . وهذه النعم ، لأنّها لم تجتمع لإنسان ، ولأنها دليل على تقريب الله الرشيد ، غدت موضع فخر له ومدح من شعرائه وكتّابه .

يقول يحيـى بن زياد مفلسفاً : «نحمد الله الذي جعل نعمته على أمير المؤمنين شواهد منه على منزلته منه ، ومكانه عنده ، لا يحتاج معها إلى شهادات المُثنين ، ولا صفات المقرّظين»[3] . ويمدحه علي بن الخليل بإنعام الله عليه ، إنعاماً لا يتوقّف :

عليـــهِ لربّـــهِ نِعَـــــمٌ   تزدادُ جِدَّتُهـــا على اللُبسِ[4]

والنعم عندما تتوافر وتكون مباشرة من الخالق إلى عبد له مصطفى ، تأخذ طابعاً من القدسية ، وتغدو برهاناً وعبرة يجب أن تحاط بكل ما يظهرها ويبرزها ، وعلى الناس أن يتحدّثوا عنها ويصفوها ويقيسوا عليها ويدافعوا عنها ليصونوها . وهذه المهمة ليست واجب اختيار ، بل هي فريضةٌ يُنال بها الثواب . يقول يحيى بن زياد : «ثمّ جعل (الله تعالى) نعمته على أمير المؤمنين ، ومناصحتها والمجاهدة لمن كادها ، فريضة أوجبها على العباد ومحنة امتحنهم بها ، وفرقاناً ميّز به بينهم . فمن أصبح ، من رعيّته ، أكثرُ شغله أن يستعمل لسانه في صفته وذكر محاسنه وفضائله ووجوب حقّه وطاعته ، فقد أصبح آثراً أولى الأمور وأحسنها مغبّة في دنياه ودينه»[5] . وهكذا يغدو وصف الرشيد ومدح الرشيد وإكبار الرشيد وإعظامه ، وسيلة التقرّب إلى الله ونيل الأجر ، فضلاً عن الغنى من عطائه :

وقلتُ مديحـــاً أُرجّي بـــه   من الأجْرِ حظّاً ونيلَ الغِنى[6]

تُرى ، هل يستطيع الرشيد ، مع هذه العصبة المحيطة به ، أن يلتزم حدود البشر ؟ ألا يخلق كل

---

1 الأغاني ج 22 ص 401 .

2 يعدّد يحيى بن زياد هذه النعم ومنها «السلامة التي حرسه بها من المكاره ، والعز الذي قهر له به الأعداء ، والنصر الذي مكّن له في البلاد ، والهدى الذي وهب له بالمحبة ، والرفق الذي أدرّ له به الحلب ، والاستصلاح الذي اتسقت له به الرعية . .» جمهرة رسائل العرب ج 3 ص 242 .

3 جمهرة رسائل العرب ج 3 ص 242 .

4 أمالي المرتضى ج 1 ص 102 .

5 جمهرة رسائل العرب ج 3 ص 243 .

6 الأغاني ج 18 ص 224 والشعر جاء على لسان الزبير بن دحمان .

هذا في نفسه إحساساً بالتفوّق والتميز[1] ؟ وليتهم توقّفوا عند هذا الحد ولم يتجاوزوه إلى ما نراه في دراستنا لمدح المبالغة والإحالة . بقي أن نقول إن التميّز الذي وصف به الرشيد انعكس على أيامه وشعبه وعصره ، فغدت أيامه غرّة الدهر يسجّل عنها كل ثناء عطر[2] وغدت خلافته ، في رونقها وبهجتها ، عروس الممالك وزينة الخلافات :

تَحكـي خلافتُـه ، ببهجتهـا   أُفُقَ السرورِ صبيحةَ العُرسِ[3]

رابعاً : الخليفة الورع التقي

إذا كان الرشيدُ إماماً للمسلمين فيجب أن يكون نموذجاً مثالياً للمسلم . وإذا كان خليفة للرسول فيجب أن يمثّل القمة في حسن اتباع خطاه . أما إذا كان ممثّلاً لله على الأرض فيجب أن يكون من التقى والورع على درجة تنكشف دونها الحجب ويقوم فيها الاتصال بين العبد المختار والخالق . وهذا ممكن لمن «تسربل» بتقوى الله مثله[4] ، يخاف ربّه ويبكي لذكره[5] ، يحترم الرسول ويعتدّه سيّده خاصة[6] . تلك مظاهر أعطت الحق لمن تحدّث عن ورع الرشيد وتقاه . وحديث الشعراء المادحين عن هذه النقطة لا يكون عادة حديثاً مجرّداً ، بل مبطّناً بهدف سياسي هو تأكيد صلاح الرشيد للمهمّة العظيمة التي يتولاها ، مهمّة قيادة المسلمين نحو خيرهم . ولم يكن تأكيد تميزه من سائر البشر إلا بهدف برهان هذا الصلاح والتفرد . أما مظاهر تقوى الرشيد التي يصفه بها مادحوه ، فهي جميع مظاهر التقوى المعروفة : أوّلها طاعة الله : فهارون مطيع له ، معتصم بالطاعة ، لا يحيد عن أوامر رب العالمين ، وهذا يمنحه العصمة عن الخطأ التي سبقت الإشارة إليها . واعتصام الرشيد بالطاعة يذكره النمري ويباركه لذلك :

بُـورِكَ هـارونُ مِنْ إمامٍ   بِطاعـةِ اللهِ ذو اعتصـامِ[7]

---

1 يروي الثعالبي أن الرشيد قال لجعفر بن يحيى ، وهما بالكوفة في آخر الليل : أخرج بنا نتنسّم هواء الكوفة قبل أن تكدّره العامة بأنفاسها» . (لطائف المعارف ص 169) ويروى في خبر آخر مشابه أنه «كان ليلة بالحيرة ، فلما كاد أن يتنفّس الصبح قال لجعفر بن يحيى : قمّ بنا نتنفّس هواء الحيرة قبل أن تكدره العامة بأنفاسها» . (خاص الخاص ص 50) .

2 نجد ذلك في قول أشجع السلمي :

تُثنـي عـلى أيامِكَ الأيامُ   والشاهدان : الحِلُّ والإحرامُ

(الأغاني ج 18 ص 145) .

3 أمالي المرتضى ج 1 ص 102 والشعر لعلي بن الخليل .

4 راجع بيتي نصيب الأصغر ص 682 من البحث .

5 راجع تأثر الرشيد بالموعظة ص 632 من البحث .

6 قال أبو معاوية الضرير : «ما ذكرت النبي ، صلّى الله عليه وآله ، بين يدي الرشيد إلا قال : صلّى الله على سيّدي» . (تاريخ الخلفاء ص 285) .

7 طبقات ابن المعتز ، ص 247 .

وكما ذكر نُصيب تسربل الرشيد بالتقى ، جعله أبو العتاهية مجبول النفس عليه ، فنقله من لباس يترداه إلى طبيعة داخلة فيه ، وذكر صراحة عصمته بسبب ذلك :

هـو الملكُ المجبولُ نفساً على التُقى   مـواردُه محمـودةٌ ومصـادِرُهْ[1]

فبسبب عصمته كانت كل أعماله محمودة ، وبسبب ذلك لم يدع عملاً محموداً إلاّ قام به ، ولا إحساناً مطوياً إلاّ عمل على نشره :

وأنـت ، أميرَ المؤمنين ، فتـى التقى   نشرتَ من الإحسانِ ما كان مَطوِيّاً[2]

ولذلك يحمل الرشيد نفسه دائماً على إرضاء الخالق بأهم فريضتين وأشقهما : الحج والجهاد ، يطلب بهما مرضاة الله :

طلَبَ اللهَ ، فهـو يسعى إليهِ   بالمطايـا وبالجيـادِ السوامي[3]

ومظاهر التقى هذه ، التي سبق الحديث عنها ، الموجهة إلى فائدة الناس وصلاح أمرهم ، يضيف إليها يحيى بن زياد تقريب الفقهاء والإكثار من الصدقات[4] . أما التقى من حيث هو علاقة المخلوق بالخالق ، حبّه له وخوفه منه وقربه إليه ، فيصفه يحيى بن زياد بقولـه : «أما ليلَهُ ، بمناجاة ربّه فيها (أمور العباد) ، واستعانته إياه عليها ، فساهر»[5] . وينفخ أبو العتاهية ، في شخص الرشيد ، بنفَسٍ صوفي ليجعله يترفّع عن الدنيا وأمورها : أيقن بأنها فانية ، وبأنها طريق إلى الدار الخالدة :

تَجافي عـن الدنيـا وأيقـنَ أنها   مُفارِقَـةٌ ، ليست بدارِ خُلودِ[6]

كما أيقن بأن الموت متربّص به ، وأنه ينتظر لقاء ربه بين يوم وآخر :

إمامٌ يخاف اللهَ حتـى كأنّمـا   يُؤمِّـلُ رؤيـاهُ صَباحَ مساءِ[7]

هكذا يغدو الرشيد ، الديِّنُ ، الورعُ ، مباركاً ومطهَّراً ، أشبه بوليٍّ من أولياء الله[8] ، لا يزيد

---

1 الأغاني ج 7 ص 154 .

2 تاريخ الطبري ج 8 ص 309 والشعر لأبي العتاهية .

3 الأغاني ج 18 ج 175 والشعر لأشجع ترمز المطايا إلى النوق التي يركبها الرشيد في مسيرة الحج ، والجياد ترمز إلى الحرب في عمليات الغزو .

4 يقول يحيى بن زياد : «أما صدقاته على فقرائها وأهل الحاجة فجارية ، وأما مجلسه من فقهائها وصُلحائها فغاصّ» . (جمهرة رسائل العرب ج 3 ص 249) .

5 جمهرة رسائل العرب ج 3 ص 249 .

6 الأغاني ج 4 ص 106 .

7 المحاسن والمساوىء ج 1 ص 183 والبيت لأبي نواس .

8 يناديه العُماني قائلاً :

المؤمِـنُ المبـارَكُ المُوَقَّـرُ   والطَيِّبُ الأغصانِ والمُظَفَّرُ

عليه أحد في التقى ولا يفوقه أحد في إذلال النفس للخالق وحملها على طاعته . يخاطبه أبو نواس :

لقــد اتّقيــتَ الله حــقَّ تُقاتِــه   وجَهِدتَ نفسَكَ فوق جَهدِ المتّقي[1]

خامساً : الرشيد ظلّ الله على الأرض

سبقت لنا إشارة إلى الحق الإلهي الذي نادى به ملوك أوروبا في القرون الوسطى ، والذي اعتمده الخلفاء المسلمون قبلهم . وقد تكون نظرية الحق هذه مفتعلة بالنسبة إلى ملوك أوروبا لأن الملك منهم لم يكن ينتمي ، بالأصل والنسب ، إلى أية فئة مميّزة دينياً ، أو مكتسِبة قدسية معيّنة ، فكان حصولهم على الحق يأتي من مجرّد امتلاكهم السلطة ، بعكس الخلفاء المسلمين الذين كان العباسيون والفاطميون منهم ، على الخصوص ، ينتمون إلى الأصل البشري الذي ارتبطت به القدسية الدينية ، وكان حامل التشريع . وأيّاً كان محور هذا الحق ، فإن الذين نادوا به كانوا يهدفون ، بلا شكّ ، إلى خلق بُعدٍ سياسي يضفي العصمة على الحاكم ويجعل صوابه وخطأه يتمان بإرادة من الله ، كما يجعل إصلاحه منوطاً بالخالق وحده ؛ وتنتفي بذلك شرعية المناوأة والمعارضة والمحاسبة والاحتجاج ، عن مخلوقات الأرض . ولقد أتى مؤيدو هذا الحق ، بالنسبة إلى الرشيد ، ببعد نفسي سَبقوا ملوك أوروبا إليه : وهو ما ذكرناه من أن الله جعل الخليفة وسيلة تجسيدِ إرادتهِ وعلاقتهِ بالعباد : إذا رضي عنهم وجّه الخليفةَ إلى خيرهم ، وإذا غضب عليهم سلّط الخليفة سيفاً عليهم ينتقم له منهم . من هنا اعتداد الرشيد سيفَ الله المسلّط على الأعداء ، وعلى الأولياء حين يخطئون . ومن هنا ، أيضاً ، الذهاب إلى أنه يحكم بخلافته اللهَ على الأرض ، لا بمجرّد كونه خليفةً لرسول الله على الإسلام[2] . وكان من نتيجة ذلك تصوّر تقريظ أعماله تمجيداً لاسم الله وتبلوراً لإرادته تعالى ، أيّاً كانت الأعمال ، وأيّاً كان نصيبها من الخطأ والصواب . وهذه الصلة المتينة بين إرادة الخالق وتنفيذ الرشيد هي التي يشير إليها منصور النمري ، في رأينا ، حين يقول عن الرشيد :

لــــه إلى ذي الجَـلالِ قُربـى   ليستْ لِعَـدْلٍ ولا إمـــــامِ[3]

= يــا أيها الخليفةُ المُطَهَّرُ

(الأغاني ج 18 ص 233) .

1 الموشح ص 269 .

2 يقول مروان بن أبي حفصة :

وإنك ، بعد الله ، لَلْحَكَمُ الذي   تُصابُ به ، من كُلِّ حقٍّ ، مَفاصِلُهْ

(أمالي المرتضى ج1 ص 169) .

ويقول أبو العتاهية :

أبى الله أن يُعصى لهارونَ أمرُهُ   وذلّتْ لــه طوعــاً يدُ المُتعزِّزِ

(الديوان ج ص 222) .

3 الأغاني ج 13 ص 139 .

وكأنه يقصد نفي القرابة بين أيٍ ممن يّدعون الإمامة وبين الله تعالى لسبب واضح وهو أن الله لم يخترهم خلفاء له على الأرض ، كما اختار الرشيد . وبنقلة إلى مجال المبالغة فالإحالة ، يصبح الخالق ، جلّ وعلا ، موافقاً على إرادة الرشيد لا يخالف له تصميماً .

يقول النمري :

إذا رفعــــتَ ٱمْــرَأً ، فاللهُ رافِعُـــهُ ومَنْ وضعتَ ، مِنَ الأقوامِ ، مُتَّضِعُ[1]

ويوافقه على ذلك أبو العتاهية فيقول :

إذا ما سخِطْتَ الشيءَ كان مُسخَّطاً وإن ترضَ شيئاً ، كان في الناسِ مَرْضيّا[2]

ويشارك مروان بن أبي حفصة في تأكيد أن إرادة الرشيد هي قرار المحكمة العليا على الأرض ، الذي تؤيّده المحكمة السماوية :

فإنّ طليــــقَ اللهِ مَــن هــو مطلِقٌ وإنْ قتيــلَ الله مَـــن هـــو قاتلُـــهْ[3]

إنما هل يعني هذا تسلّط الرشيد على الناس واستخدامه وكالة الله له في اتّباع أهوائه وفي ظلم الناس ؟ كلاّ فإن طيبته وخوفه الله وورعه وتقواه ، كلّها حواجز تحول بينه وبين سوء استخدام السلطة ، وتجعله مجال حمد لله الذي كلّه خير . هذه هي القربى الحقيقية إلى الله . ولعلّ ، من آيات هذه القربى التي تميّز الرشيد من سواه من الخلفاء ، قدرتَه على التوسّط لديه في أمور حيوية ، مصيرية بالنسبة إلى الناس ، كالاستسقاء في أيام القحط والجدب ، وقد سبق لنا حديث عن ذلك[4] ؛ ونعيد ، على سبيل المثال ، قول محمد بن مُناذر :

فلــو سأَلنــا ، بِحُسنِ وجهِـكَ يــا هــارونُ ، صوبَ الغَمــام ٱسُقِّينــا[5]

ومن آياته أيضاً ، السعد الذي يرافقه والذي يعمّ جميع من يتّصلون به . وقد ركّز شعراء الرشيد على معنى السعد ، فكان هارون «البدر في فلك السعود»[6] وهو «الذي لو كان نجماً كان سعداً»[7] ويظهر ذلك في شعر أبي العتاهية مادحاً آباءَ الرشيد :

---

1 أمالي المرتضى ج 1 ص 187 .

2 تاريخ الطبري ج 8 ص 309 .

3 أمالي المرتضى ج 2 ص 169 .

4 راجع ص 40 هامش 1 وص 473 هامش 2 وص 646 هامش 1 من البحث .

4 طبقات ابن المعتز ، ص 121 .

5 المصدر نفسه ص 151 والشعر لابن أبي السعلاء .

6 فوات الوفيات ج 2 ص 13 والشعر لعبد الملك بن صالح .

7 الأغاني ج 4 ص 106 .

جدودُهُــمُ شُمسٌ أتَــتْ في أهِلَّــةٍ   تَبــدَّتْ لــراءٍ في نجــوم سُعودِ[1]

ولذلك فإن طائر السعد يحوم على من يتّصل بـه : «جـرى لـك من هارون ، بالسعد ، طائره . . .»[2] .

ونختم بالقولِ إن الرشيد ، الخليفة التقي ، والإمام الورع ، وظل الله على الأرض ، استطاع أن يكون الجامع لكلمة المسلمين : بتقاه جمع الآراء ، بحزمهِ ولينهِ ردّ الخارجين ، برهبته وعطائه ألّف حوله القلوب . لم يعد المختلفون يستطيعون أن يختلفوا ، وليس لهم مهرب من الاتفاق[3] . بل إنهم ليتفقون حتى كأن الاختلاف لم يكن بينهم في يوم من الأيام :

جمعتَ ذوي الأهواءِ حتى كأنّـهمْ ،   على مَنهجٍ ، بعدَ افتراقِهِمُ ، رَكْبُ[4]

إنّ الأحقاد تموت والأضعان تتلاشى : ليس إلاّ الخير مع الرشيد ، ليس إلاّ المودّة يسمح بها علاقةً بين الناس :

هارونُ ألّفَنا ائتـلافَ مــودّةٍ   ماتــت لهـا الأحقادُ والأضغانُ[5]

أليس طبيعياً ، بعد هذا ، أن تطمئن قريشٌ إليه وتُلقي أمورها بين يديه ، وتستريح . . . ؟

على ثِقــةٍ ألقــتْ إليكَ أمورَها   قُريشٌ كما ألقـى عصاهُ المُسافِـرُ[6]

---

1 الأغاني ج 7 ص 154 والشعر لأبي العتاهية أيضاً .

2 انظر قول مسلم بن الوليد ص 668 هامش 1 من البحث .

3 المصدر نفسه ج 18 ص 144 والشعر لأشجع السلمي .

4 الموشح ص 269 والشعر لأبي نواس .

5 تاريخ الطبري ج 8 ص 348 والشعر لمروان . (وعصا المسافر كناية عن العصا التي كان يحملها رائد القوم المسافرين في الصحراء أو دليلهم الذي يتقدّمهم يستكشف لهم مكاناً صالحاً للنزول . فإذا ما وجد المنتجع المطلوب ألقى عصاه أو أغرزها في الأرض ولسان حاله يقول : هنا خاتمة المطاف) .

الفصل الرابع
صورة المبالغة والإحالة

ملكٌ تَصوَّرَ في القلــوبِ مِثالُه فكأنما لم يخــلُ منـهُ مكانُ[1]

أبو نواس

تمهيد

سبقت لنا إشارات إلى غلو المادحين في وصف الرشيد وتضمين شخصه خلاصة المثاليات التي عرفتها الأجيال العربية ، وإلصاق جميع الأفضليات به ، حتى ليغدو «خير البرية» إطلاقاً ، أو مع بعض الاستثناء . والواقع أن عملية الإبداع في شعر المدح تتأثر جداً بالمنافسة بين المادحين . فالشاعر ، المادح المتكسّب ، يحاول تصيّد المعاني الجديدة يُدلّ بها على ممدوحه ويغلي لأجلها ثمن شعره . فالإنتاج الجديد البكر له ثمن متميّز من ثمن المعروف منه والمتداول . إنما ابتكار المعنى الجديد ليس دائماً بالإمكان لأنه يحتاج إلى نمط حياة مليء بالانفعالات العنيفة ، مما لا يتوافر دائماً لشاعر ملازم للبلاط يؤمه بشكل شبه متواصل ، وبشكل شبه متواصل يُطلب منه نظمٌ ومدح . لهذا يعكف الشعراء المادحون ، في هذه الحال ، على المعاني القديمة يحاولون إخراجها في قالب جديد من اللفظ ، أو يحاولون تعميقها لإعطائها بُعداً أكبر وتأثيراً أوفى . في عملية التعميق هذه تبدأ المغالاة التي ، إذا دخلتها المنافسة ولاقت صُورُها ومعانيها أصداءً في نفس الممدوح ، طفقت ترتقي في استعارة المعاني الخارقة لتطرق مجال القوة اللابشرية ، في كذبة بيضاء يُخدع بها الممدوح الذي ، إذا انطلت عليه وخُدِع ، ثمّ ثابر على الانخداع ، لم يعد لتلك الاستعارة حدود . حينها تبدأ صورة الإنسان بالخروج عما هو مألوف للناس . ونحن نفترض التدرج في الغلو الذي طبعت به الأشعار المادحة للرشيد ، وإن كان من الصعب تتبّع مراحله ، لأن تحديد زمن القصائد والأبيات جميعها أمر شبه مستحيل . لكن المنطق يقضي ، نظراً لطبيعة شعر المدح التكسّبية ، بأن يوجد ذلك التدرّج لأنه لا يمكن تصوّر الإغراق ، في المعاني المستحيلة ، قد جاء دفعة واحدة ، وتقبّله الرشيد دون تحفّظ ، كما أننا لا نستطيع أن نتصوّر الرشيد يستمع إلى المعنى البالغ قمّة الغلو فيطرب له ، ثمّ يقبل أن يثيب شاعراً آخر جاء بمعنى دونه في الروعة والإغراق . . إن التدرّج المفترض أساسي إذن على صعيد إنتاج المدح وعلى صعيد تقبل الممدوح الذي يمكن له أن يُصدم من معنى الإحالة ينسب إليه للمرة الأولى ، لكنه يتقبّله ويتقبّل الزيادة فيه بعد سلسلة متدرّجة متصاعدة من معاني الغلو ، يألفها تدريجاً وتنمّي فيه غروره واعتداده بنفسه ، وقد يصل به الأمر

1 ديوان أبي نواس ص 405 .

إلى تصديق ما يقال فيه . وفي هذا الفصل نتناول مدح الرشيد بمعاني المبالغة التي تخرجه قليلاً قليلاً من نطاق البشر لتدخله عالم الأولياء فالأنبياء فما فوق الأنبياء والأولياء .

أولاً : الغلو في صفات الإنسان

مرّ بنا ، في بحثنا لصورة السطوة والتميّز التي رسمت للرشيد ، حديث عمّا تمتع به من المهابة الخارقة تعمل في القريب والبعيد ، في العدو والصديق . ومرّ بنا كذلك كيف تناول الغلو صفات التميّز التي نسبت إليه ، فجعلته يستأثر بالمثاليات البشرية استئثاراً مطلقاً ، فهو لم يعد من خير البشر ، بل هو خيرهم دون منازع ؛ كذلك لم يعد الرشيد ملكاً يحكم فيُطاع ويُعصى ، يخطيء ويصيب فتتأثر فئة من البشر بخطئه وثوابه ، بل دفع الغلو صورته لتصبح صورة ملك مطلق على الكون بأجمعه ، وغدا خطؤه وصوابه يصيبان المخلوقات جميعاً . بل إن الزمن متعلّق به : يَصلُح إذا أصابَ الرشيدُ ، ويفسد إذا أخطأ هارون ؛ ولم يعد المقرّبون إليه المستفيدين الوحيدين من إحسانه ، وإنما عمّت الفائدة الخلق جيمعاً : أسَرَتهم وقيّدتهم إليه ، فغدوا كلّهم ألسنة حامدة له ، شاكرة[1] . . . ومرّ بنا ، كذلك ، في حديثنا عن سداد رأي الرشيد وحسن سيرته ، أنه محمود هذه السيرة ، مورداً ومصدراً ، وأنه صائب الرأي لا يخطيء . لكن أبا العتاهية يتناول موضوع الخطأ والصواب الذي يتلخّص في صراع الخير والشر داخل النفس البشرية[2] ليجعل من الرشيد خيراً صافياً لا أثر للشر فيه[3] ، وكأنه يؤكّد ما ادعاه ابن أبي السعلاء من طبيعة للرشيد ملائكية قمرية ، غير طبيعة الماء والطين ، أو كأنه يظن الرشيد نموذجاً للإنسان ، الذي تصفو نفسه من أدران الجسد ، وتصبح قادرة على الالتحام بالخالق ، كما يرى الصوفيةُ ، والأمر كذلك عند الثنوية والمانوية وفي معظم الديانات المعروفة . إنه نموذج لنهاية المطاف في خلق الكون . وبدفعة جديدة من الغلوّ يتجاوز الرشيد مظهر الخير السلبي إلى المظهر الإيجابي ليتحول إلى حرب على الشر ينفيه ويطرده ، بل إنه طرده بالفعل ونفاه مذ جاء إلى الوجود . ولعمري هل يبلغ المهديُّ المنتظر ما بلغه الرشيد ؟ ويتابع أبو

---

1 أنشد أبو العتاهية :

يا مـــن تبغّى زمناً صالحـــاً   صلاحُ هارونَ صلاحُ الزمنْ
كلُّ لسانٍ ، هـــو في ملكـــهِ ،   بالشُكرِ في إحسانهِ ، مرتَهَنْ

فاهتزّ الرشيد وقال له : أحسنت والله . وما خرج في ذلك اليوم أحد من الشعراء بصلة غيره . . . (الأغاني ج 4 ص45) .

2 هذا الصراع أبديّ أزليّ معروف يعيده المسلمون إلى صراع الطبيعة الخيّرة مع وسوسة إبليس الشيطان الرجيم ، كما يعيده المانوية إلى صراع إلهي النور والظلمة : يمثّل إلهُ النور الخيَر وتمثّل الظلمةُ الشرَّ .

3 يقول أبو العتاهية :

لم يزل هـــارون خيراً كلُّهُ   قُتِل الشَّرُّ بهِ يومَ خُلِقْ

(الأغاني ج 4 ص 70) .

العتاهية الصعود في سلم الغلوّ يخاطب الرشيد حين عاده في مرضه قائلاً :

لوْ عَلِمَ الناسُ كيف أنتَ لَهُمْ ماتوا ، إذا ما ألِمْتَ ، أجمعُهُمْ[1]

ويدهشنا أبو العتاهية بهذه العملية الانتحارية الجماعية . لماذا يموت الناس إذا تألم الرشيد ، وماذا يمثل لهم وعليهم أن يعلموه ؟ يبدو أن أبا العتاهية تعمّد الغموض لأنه أكثر إيحاء . فما كان ليأتي بشيء يقنع السامعين بأنهم هالكون إذا أصيب الرشيد بنازلة ، واكتفى بالإشارة تاركاً لخيال السامعين أن ينسج حولها ما يحلو له . ولنا أن نتساءل : ما الذي يمكن أن توحي به هذه الإشارة الغامضة ؟ قد يعني الشاعر ما يمثله الرشيد من قدرة على التأثير في عيش الناس وأقدارهم . فإذا ربطنا ذلك بما سبق من وصف الرشيد بالخير المطلق ، تكوّنت لنا قناعة بأن استمرار الخير على الناس مرهون باستمرار الرشيد سليماً معافى ، وأن أي ملمة تصيبه تجعلهم يفقدون معين الخير الوحيد وقاهر الشر المطلق ، فيصبحون بذلك ، إن لم نقل هالكين «فعلاً» ، هالكين «بالقوة» . وقد يقصد أبو العتاهية اصطفاء الله الرشيد وجعله أداة تَجَلّي إرادته في الناس : يكافئهم بضحكة الرشيد ، ويغضب عليهم بغمّه . وبذلك يصبح الرشيد معادلاً لمجموع البشر ، في نظر الخالق ، أو الشخصية المعنوية التي تمثّل مجموعهم : يكفي النظر إليها لمعرفة ما يحل بهم . . . وأيّاً كان قصد أبي العتاهية ، فإنه لا يلبث أن ينتقل من هذه المعادلة والتساوي إلى اللاتعادل : فالرشيد إذا مثل مجموع الناس لا يكون كذلك بتمثيل مساواة ، لأنه أفضل منهم مجتمعين ، ويرجح عليهم لو وزن وإياهم :

خليفةَ الله أنـتَ ترجُحُ بالنا سِ إذا ما وُزِنتَ أنتَ وَهُمْ[2]

ولو سألنا أبا العتاهية عمّا يجعل الرشيد يرجح بالناس ، لوجدنا الإجابة في مدحه للأمين مشيراً إلى والده البر التقي قائلاً :

ابنُ من لـو يُوزن الناسُ بهِ ، في التُقى والبِرِّ ، طاشوا ورَجَحْ[3]

والخلاصة أن الرشيد ليس كسائر البشر ، إنه ليس من طبيعتهم ، بل تميمة أو تعويذة ضد الدهر والأحداث والفقر :

قد علم الناسُ أنَّ وجهَكَ يَستـ ـغني ، إذا ما رآه ، مُعدَمُهم[4]

هكذا كانت تقوى الرشيد ، وهكذا كان صلاحه يرفعانه إلى مستوى أولياء الله ذوي الكرامات . أما قوة الرشيد فقد رأيناها في ضربه الأعداء ، وفي سيوفه التي تسبق الأعمار وتستوفي الآجال ، وفي شربه من أصفى مياه النصر . لكن مسلم بن الوليد يمعن إغراقاً في معنى النصر الدائم

---

1 الأغاني ج 4 ص 16 .

2 المصدر نفسه ج 4 ص 16 .

3 ديوان أبي العتاهية ص 68 .

4 الأغاني ج 4 ص 16 . (والشعر لأبي العتاهية) .

حتى يجعله ملازماً للرشيد مرتبطاً به ارتباطاً جدلياً : لا يخطئه مرّة واحدة ولا يصيب سواه أبداً[1] . فغدا ارتباطه بالنصر معروفاً ، وانخذال الطامعين بملكه محتوماً ، حتى لم يعد هؤلاء الطامعون يجدون جدوىً من إظهار طمعهم ، بعد أن عرفوا ما عرفه أبو العتاهية وأعلنه من أنه لم يسبق ، لعدوٍّ عاداه ، الإفلاتُ من قبضته ، وأنه ، كالموت ، وكالقدر المحتوم ، لا مهرب منه ولا مفر :

ومن ذا يفوتُ الموتَ ، والموتُ مدرِكٌ ؟ كذا لم يفــت هارونَ ضدٌّ ينافرُهْ[2]

ثانياً : الإحالة في مدح الشعراء للرشيد

ونقصد بالإحالة تجاوز حدود ما هو معقول من صفات البشر إلى ما لم يتّصف به إنسان واقعي ، وإنما عرف لأبطال أسطوريّين ، أو لأولياء صالحين وأنبياء أصحاب معجزات . وكما يتبيّن ، فإن الإحالة تعتمد على الإغراق في الصفات البشرية المثالية حتى يُخرَج بها عن حدود المألوف . ويبدو أن القطب الأول المميّز للإحالة هو قطب : القدرة والسطوة . ويظهر واضحاً أن من وراء المدح بها هدفاً سياسياً هو إلقاء الرعب في نفوس الأعداء والخارجين ؛ وقد يكون تقبّل الخليفة لها ، على ما فيها من كذب وتجاوز ، يعود إلى ما يمكن أن تضفيه عليه من جلال ومهابة ، فتدعم مواقفه السياسية وحملاته العسكرية ، وتقوّي معنويات جنوده ، كما تفعل العكس بالأعداء .

1 ـ القدرة الخارقة : كان الرشيد إذن ذا مهابة تملأ القلوب ، وسطوة تطال المذنب قبل أن يذنب . فالخليفة لا يعي ما يحصل من الأحداث فقط ، بل يعلم ما في الخواطر : تفصح أمامه عن نفسها فيحملها على السير في الطريق القويم ، ويضبط كل شارد منها ونافر[3] . ويتناول أبو نواس معنى القدرة ويمعن فيه ارتقاء لتصبح هيبة الرشيد راسخة في النفوس ، لأن صورته انطبعت في كل قلب ، وصارت عيناً على الأحاسيس والمشاعر ، فيُكشف أمامها جميع ما يطوى منها ، فضلاً عما ينشر ؛ وما لا تعرفه من القلب مباشرة ، وتغيّبه عنها الخواطر ، تنمّ عنه الألحاظ : فليس أمامه سرٌّ ولا مكتوم[4] . هذه الصورة للرشيد القادر ليست من المعروف للبشر ، ولا حتى للأولياء والأنبياء ، إنها

---

1 يقول مسلم :

خليفةَ الله ، إنّ النصرَ مُقتصِرٌ عليكَ ، مُذْ أنـتَ مَبْلُوٌّ ومُختَبَرُ
ما إن رمى بالمُنى ، في مُلكِهِ ، طمِعٌ ولا تَخطأَهُ التأييــدُ والظَفَرُ

(ديوان صريع الغواني ص 253) .

2 ديوان أبي العتاهية ص 213 .

3 يقول مسلم :

وقفتَ على النهجِ الظنونَ فصَرَّحتْ وأدّى إليك الحُكـمَ كُلُّ مُشرَّدِ

(الديوان ص 77) .

4 يقول أبو نواس ، بعد ذكر انطباع صورة الرشيد في كل قلب ، ووجودها في كل مكان :

قدرة إلهية أو نصف إلهية من صور الميتولوجيا القديمة ، أو هي مما ينسب إلى مدعي الربوبية من أصحاب البدع والزنادقة .

ويتناول العتّابي معنى القدرة فينقله من حال السلب إلى حال الإيجاب . فالرشيد لا يكتفي بالمعرفة وبكشف الخفي وبترك صورته في القلوب عيناً على ما تكتم ، إنما يباشر الرشيد ، بقدرته ، تغيير الأحوال ، ويستطيع الإتيان بالمعجز والمستحيل . إنه يتغلغل إلى الرحم العقيم ليهبها القدرة على العطاء فتنتج[1] . وأيّاً كان القصد من الرحم العقيم ، ومن نوع الإنتاج ، فلا شكّ في أن الهدف من الاستعارة هو الوصول إلى معنى من الحول والطول لا يشاركه فيه البشر . . وينحو مسلم ، في استثمار معنى القدرة الخارقة للرشيد ، منحى آخر ، إذ يجعل هذه القدرة تتحدّى القوى الغيبية التي عرفت بامتناعها على إرادة البشر وبتسلطها عليهم تسلّطاً مطلقاً . فالموت حق ، والموت لا مفرّ منه . إنه قوّة غيبية ساحقة . إلاّ أنها قوّة تسير في اتجاه واحد : لا تختار ولا تستطيع أن تغيّر موقفاً . أما قدرة الرشيد فتفوق قوة الموت لأنها تملك القرار الحر وتغيير المواقف . فبينما الموت يقف أمام المحكوم لينفّذ فيه الإعدام ، يقف الرشيد أمام المذنب وبيده أن ينفّذ فيه الحكم كما بيده أن يعفو عنه ويهبه الحياة[2] . ولعلّ في ذلك تفسيراً لما قيل من أن القدر يشاور الرشيد في أمر المحكوم ليرى أي الحلّين يقرّر . ومن هنا يكون وصف الرشيد بأنه أوسع قدرة من الدهر وأرفع منه في أسلوب استخدامها ، لأن أعماله تستطيع أن تصلح ما أفسدته الليالي ، وتعوّض ما تُمني الأيامُ الناسَ به من خسائر ، بينما يقف الدهر عاجزاً أمام قدرة الرشيد ، لا يستطيع رتق خرق يحدثه الخليفة[3] .

2 ـ الرهبة من قدرة الرشيد : إذا كان الرشيد قد بلغ من القدرة ما بلغ ، ومن الهيبة ما رأينا فعله في النفوس ، فإن أثر سطوته وهيبته يفوق ما أَلِف الناس ، ويصل إلى مواقع لم يُعرف أن هيبة أو

= ما تنطوي عنــه القلـوبُ بفُجــرةٍ إلا يكلّمـهُ بهـا اللّحَظـانُ
فيظلّ ، لاستنبائــه ، وكأنّــه عينٌ عـلى مـا غَيَّبَ الكِتمانُ
(الديوان ص 405) .

1 يقول العتابي :
ويستنتجُ العقمـاءَ حتـى كأنّمـا تغلغـلَ في حيثُ استقـرَّ جنينُها
(الحيوان ج 3 ص 62) .

2 يقول مسلم :
أمضى من الموتِ : يعفو عند قدرتِهِ وليسَ للموتِ عـفوٌ حين يَقتدِرُ
(ديوان صريع الغواني ص 254) .

3 يقول منصور النمري :
يَريشُ مـا تَبري الليـالي ولا تَريشُ أيديهـنَّ مـا يَبـري
(أمالي المرتضى ج 4 ص 186) .

سطوة وصلت إليها . فخوف أهل الشرك من ملك المسلمين أمر وارد ، وتجاوز الخوف المحاربين إلى الناس العاديّين أمر طبيعي ، وأن يشمل الكبار والنساء والأطفال أمر مقبول ، وإن كان فيه بعض المغالاة ، أما أن تصل الرهبة إلى الجنين الذي لم يتكوّن في رحم أمه فتلك إحالة[1] . وماذا نقول عن الخوف الذي يصيب النطفة ، قبل أن تصبح نطفة ؟ . . .[2] وينحو مسلم بهيبة الرشيد منحى القدرات الغيبية . فإذا بها تصيب القوم فتظلّلهم حتى لا يعود لأحد منهم مجال للإفلات منها ، فيخضعون جميعاً لها ويفيئون إليها ، وهي بذلك تغدو حاجزاً بينهم وبين أقدارهم ، فلا ينفذ من هذه الأقدار إلاّ ما تسمح له بأن ينفذ[3] . ولا شكّ في أن هذا التحكّم في أقدار الناس تجاوز كبير لحدود البشر . فإذا قلنا إن قدر الإنسان مكتوب له منذ خلق ، أو منذ الأزل ، فإن توقّفه ومشاورته الرشيد ، وانتظار رأيه في التنفيذ أو عدمه ، يرفع الرشيد عن طبقة الخاضعين للقضاء والقدر ، إلى مصاف المتحكّمين فيه وهم أنصاف الآلهة ، إذا لم نقل الآلهة . وبذلك يشرع رشيد الشعراء في الدخول إلى عالم متميّز . من هذا العالم يمارس قدراته يحاصر بها من يخالف من الأعداء ، يسخّر لها عناصر الطبيعة ومنها الليل والنهار : يجعلهما رصَدين : هذا يُريع المذنب بصورة الرشيد المتمثّلة له في الذهن والقلب ، والموجودة في كل مكان ، وذاك يتركه ليغفو فيهاجمه في أحلامه بسيوف رشيدية[4] . وقد يكون قصد الشاعر من رصد النهار والليل حالة

---

1 يقول أبو نواس :

حتى الذي في الرَحْم ، لم يَكُ صورةً ، لِفـؤادِهِ ، مـن خوفـهِ خَفَقانُ

ويعلّق المزرباني بقوله : «وما لم يكن صورة فكيف يكون له فؤاد ؟ فقد أحال وأسرف وتجاوز» (الموشح ص 926) .

2 يقول أبو نواس كذلك :

وأخفتَ أهل الشركِ حتـى إنّـه لتخافُكَ النُطَـفُ التـي لم تُخلَقِ

(الديوان ص 401) . وقد درج الكثيرون على اتهام أبي نواس بأن إغراقه في الإحالة أوقعه في تناقض أفسد عليه مبتغاه . لأنه ، إذا سلّمنا افتراضاً وخيالاً أن النطف تحسّ بالخوف لأنها مخلوقات في أول التكوين ، فكيف تحسّ بأي شيء نطفة لم تصبح نطفة بعد ؟ وقد رأينا نقد المزرباني أعلاه ، في حين أن قدامة ابن جعفر يجد أن الغلو مسوّغ للإحالة ، فيقول : «إن في قول أبي نواس دليلاً على عموم المهابة ورسوخه في قلب الشاهد والغائب . وفي قوله : «حتى إنه لتهابك» ، قوّة «لتكاد تهابك» . وكذا كل غال مفرط في الغلو إذا أتى بما يخرج عن الموجود ، فإنما يذهب فيه إلى تصييره مثلاً . «نقد الشعر ص 67) ولعل أبا نواس أراد القول إن الخوف يتملّك الرجل فيقتل فيه القدرة على الإنجاب . . .

3 يقول مسلم :

أظَلَّهُمْ منكَ رُعبٌ واقفٌ بهمُ حتى يشاورَ فيهم رأيَـكَ القَدَرُ

(ديوان صريع الغواني ص 254) .

4 يقول أشجع السلمي :

وعلى عَدُوِّكَ ، يا ابن عمّ محمدٍ ، رَصَدان : ضوءُ الصُبحِ والأظلامُ

القلق التي يورثها الخوف من الرشيد في نفس من يخالف ، بسبب عظم إحساسه بالذنب وبسطوة الخليفة . لكن أبا العتاهية لا يتهرّب من ظاهر الإحالة الذي توحي به ألفاظه وإن كان يحاول شدّ الصورة نصف الإلهيّة ، التي يرسمها للرشيد ، نحو عالم الواقع ، بنعته بـ«ابن عم محمد» النبي الإنسان . أو لعلّه يعطيه ، من هذه القرابة ، مسوّغاً للتحكّم في قوى غير منظورة : فللنبي كرامات ومعجزات معروفة فلماذا لا يرث بعضَها خليفتُه وابنُ عمّه ؟

3 ـ صفات الأنبياء في مدح الرشيد : يروي الأصفهاني ، عن لسان أحمد بن سيّار الجرجاني ، قوله : «كان هارون أمير المؤمنين يحتمل أن يُمدح بما تمدح به الأنبياء ، فلا ينكر ذلك ولا يردّه ، حتى دخل عليه نفر من الشعراء فيهم رجل من ولد زهير بن أبي سلمى ، فأفرط في مدحه حتى قال : «. . . فكأنه ، بعد الرسول ، رسول . فغضب هارون ولم ينتفع به أحد يومئذ ، وحرم ذلك الشاعر فلم يعطه شيئاً»[1] . ونحن نرى أن ثورة الرشيد قد لا تكون على الشاعر بقدر ما تكون على نفسه لإحساسه بذنبه وإدراكه أن تساهله مع الشعراء الآخرين في إطلاق صفات الأنبياء عليه هو الذي وصل بهذا الشاعر إلى جعله يعادل الرسل . وقد قال فيه الشعراء الكثير مما يُشتمُّ منه تشبيهه بالأنبياء ، إنما ثار على هذا الشاعر لأنه افترضه بصراحة نبيّاً بعد محمّد ، وقد قال ﷺ : «لا نبي بعدي» . ومع أن الغلو في صفات المدح يأتي بالتدرج ، كما أسلفنا ، إلاّ أنه يؤدي حكماً بالبعض ، لدى قيامهم بعملية الوصف ، إلى قطع وسيلة التشبيه ودمج المشبّه في المشبه به . كذا فعلت كثير من فرق الخوارج والإمامية الذين قالوا بعصمة الإمام ثم بنبوّته ثم بألوهيّته . هكذا قَبِل الرشيد من أبي العتاهية أن يدعوه المصطفى وهو أحد نعوت النبي ﷺ . ومع محاولة الشاعر إبعاد التهمة عن نفسه باستعمال هارون مع لفظ المصطفى ، لا تنتفي تماماً نيّته في تشبيه الرشيد بالنبي أو تقريبه إليه . واستكانة الرشيد إلى الشعر ، حين سمعه ، وقبوله التشبيه ، ظهَرا في وصله أبا العتاهية ، على قصيدته ، «بصلة ما وصل مثلها شاعراً قط»[2] . ومن هذا الباب أيضاً قَبِل الرشيد من الشعراء أن يستسقوا بوجهه ، بل إنه طرب لذلك وأنِس إلى ما فيه من قدسيّة خفية ، وقد عُرف الاستسقاء بوجه النبي ﷺ الذي يصفه أبو طالب مفتخراً :

وأبيضُ ، يُستسقى الغمام بوجهه ، ثِمالُ اليتامى ، عِصمةٌ للأراملِ[3]

= فـإذا تنبَّـهَ رُعبَتُـهُ ، وإذا غفـا سلّتْ عليه سيوفَكَ الأحـلامُ .

(العقد الفريد ج 1 ص 38) .

1 الأغاني ج 13 ص 144) .

2 الأغاني ج 4 ص 106 (راجع أبيات أبي العتاهية ص 495 هامش 3 من البحث .

3 ديوان المعاني ج 1 ص 37 .

وقَبِل الرشيد من شعرائه أن ينسبوا إليه معجزات النبي . ففكرة النصر الدائم التي تداولها أدباء البلاط ، يرتقي بها أبو العتاهية إلى مستوى المعجزة ، إذ يعيد هذا النصر إلى اشتراك جند من عند الله ، بقيادة جبريل عليه السلام ، في معارك الرشيد[1] . والمعروف أن جبريل قاد جيوش الملائكة على المشركين من القرشيين في معركة بدر[2] ، وكانت تلك إحدى معجزات النبي ﷺ . . . وقد بلغ الإسراف بالشعراء في استثمار هذه الفكرة أنهم جعلوا اللّه يحقّق للرشيد ما لم يحقّقه لبني إسرائيل . فهؤلاء تنصّلوا من مهمة الجهاد وألقوها على عاتق موسى داعينه إلى الحرب مع إلهه ، فلم يساعدهم الله . أما المسلمون فقد رغبوا في الجهاد وضحّوا بأنفسهم في سبيل الدعوة ، فنصرهم الله زمن النبي ، وكذا فعل زمن الرشيد ، فقاد جبريل جند الله حتى ثبّت النصرَ الدائم له ؛ ولم يعد الرشيد بحاجة إلى جنود من البشر للقتال[3] ، بل لم تعد هناك حاجة إلى حمل السلاح وحماية الدين :

لتُغمَدْ سيوفُ الحربِ ، فاللهُ وحدَه ... وليُّ أميرِ المؤمنينَ وناصرُهْ
هو المَلِكُ المجبولُ نفساً على التُقى ... مُسلَّمةً ، من كلِّ سوءٍ ، عساكِرُهْ[4]

ومن باب تشبيه الرشيد بالأنبياء ما ذهب إليه اليزيدي من أن طاعة الرشيد فرض واجب نصّ عليه القرآن الكريم . وقد يكون هدف اليزيدي القريب الإشارة إلى الآية التي تحضّ المسلمين على طاعة أولي الأمر ، ولكنه ، بلا شك ، كان يرمي إلى الإيحاء بتميّز الرشيد من سائر البشر ، وتقريبه إلى الأنبياء[5] . ومحاولة اليزيدي هذه تغدو أوضح مع العتابي . فهو يدمج شخص الرشيد بشخص النبي الذي ينادى في الوحي المقدّس المطهّر . وإذا كان العتابي يشير ، ظاهراً ، إلى قرابة الرشيد من النبي ، فإنه يشدّ عرى القربى حتى يجعل خليفة الرسول من طبيعته ، وبقدسيّته نفسها وطهارته عينها . لكنه ، متى يصل إلى هذا المستوى ، تبطل عنه صفات البشر العاديّين ويغدو نعته بها حطّاً من قيمته . ولمّا كان البحث عن صفات غيرها يتجاوز مقدور البشر لأنهم مقيّدون بإمكاناتهم المحدودة

---

1 يقول أبو العتاهية متحدّثاً عن انتصارات الرشيد :

بألويةِ جبريلُ يقدمُ أهلَها ... وراياتِ نصرٍ حوله وجنودِ

(الأغاني ج 4 ص 106) .

2 يذكر ابن الأثير ، في حديثه عن غزوة بدر ، أن رسول الله ﷺ «أغفى إغفاءة وانتبه ثمّ قال : يا أبا بكر ، أتاك نصر الله . هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده ، على ثناياه النقع . . .» (الكامل في التاريخ ج 2 ص 87) .

3 يقول يحيى بن زياد في رسالته ، مقرّظاً الرشيد : «فما برح صنع الله يفضّ جموع الضلالة بالاقتتال ، ويعزّ له النصر بلا مكاثرة . . .» (جمهرة رسائل العرب ج 3 ص 245) .

4 الأغاني ج 7 ص 154 . والشعر لأبي العتاهية أو لسلم الخاسر .

5 راجع أبيات اليزيدي ص 337 من البحث .

وبمجال معارف عالمهم ومصطلحاته ، يصبح من الطبيعي أن يجد الشاعرُ نفسَه ، حين يتعرّض لمدح الرشيد ، عاجزاً عن إيفائه حقّه . ولا يبقى أمامه سوى الانقلاب إلى ذاته ، يعبر عمّا تحس من مشاعر نحو الخليفة[1] . ذلك ما فعله العتابي :

ماذا عسى مادحٌ يثني عليك وقد   ناداك ، في الوحي ، تقديسٌ وتطهيرُ
فُـتَّ المدائـــحَ إلاّ أن ألسنَنَا   مستنطقاتٌ بمـا تحـوي الضمائيرُ[2]

ويلتقي أشجع العتابيّ عند هذا المفترق . فهو أيضاً يرى الرشيد أسمى من أن يوفيه المدح حقّه ، لكنه يبذل قصارى جهده ؛ ولا عتب عليه إذا قصّر ، فالتقصير محتوم :

جَهدتُ ، فلم أبلغ عُلاك بمدحَةٍ   وليس على من كان مجتهداً عَتْبُ[3]

وتتبلور الصورة على هذا النطاق المتميّز فتغدو قيداً يأسر كلاًّ من الشاعر والخليفة ، كما سبق القول . فالتجديد يقضي دائماً بالارتقاء في المعاني ، والرشيد يتطلّب الجديد دائماً ويترقّبه . والشاعر بحاجة إلى مزايدة نفسه ، فضلاً عن مزايدة سواه ، لمتابعة الاستئثار بالأضواء ؛ ولا سبيل له إلى ذلك إلاّ بزيادة الاستعارات ، ودفعها باتجاه الإحالة .

---

1 إن اعتداد المديح معبّراً عمّا في نفوس الشعراء ، مقصّراً عن إدراك طبيعة الرشيد والإحاطة بصفاته ، معادل لقول أن الرشيد فوق الأوصاف التي ابتدعها البشر لعالمهم ولأمثالهم . وهذا يعادل وجهة النظر الفقهية التي تنزّه الخالق عن البشر وعن التحدّث عنه بكلام البشر ، وعن نعته بنعوت البشر ، لأن جميع هذه المعطيات معدّة لطبيعة إنسانية ، ولا يجوز استخدامها للحديث عن الطبيعة الربّانية الخالقة ، ففي ذلك تحديد لها بأطر البشر المخلوقة .

2 الأغاني ج 13 ص 123 .

3 المصدر نفسه ج 18 ص 144 .

خاتمة البحث

الرشيد بين الواقع والخيال

ولا تحسبنّ المجدَ زِقّاً وقينةً فما المجدُ إلا السيفُ والفتكةُ البِكرُ
وتضريبُ أعناقِ الملوكِ وأن تُرى لكَ الهبواتُ السودُ والعسكرُ المَجْرُ
وتركُكَ في الدنيا دويّاً كأنما تداولَ سمعَ المرءِ أنمُلُهُ العشْرُ[1]

المتنبي

نعود في نهاية البحث إلى السؤال الذي طرحناه في مقدمته ، والذي كان رائدنا في عملنا الطويل : لماذا الرشيد ، بالذات ، كان شاغل عصره والتاريخ من بعده ؟ أيعود ذلك إلى ميزة حقيقية في شخصه ، أم هو بسبب ظواهر نادرة عايشت أيامه ؟ هل يعود ، إلى من حفل بهم بلاطه من أئمّة وفقهاء ، ولغويّين وأدباء وشعراء ، الفضلُ في نسج ثوب المجد الذي لبسه وإكليل الخوارق الذي تُوّج به ؟ في رأينا أن تكامل هذه العناصر جميعها هو الذي صاغ مجد الرشيد . . . إن الشعراء ، الذين مدحوا الرشيد وتسابقوا إلى الارتقاء بصفاته ، لم يكونوا جميعهم مرائين مخادعين ؛ ولو كانوا كذلك لما استطاعوا أن يصلوا بشعرهم إلى ما بلغوه من إبداع . لقد كانت قصائدهم وليدة قرائحهم الفذّة ، بلا شك ، لكنها كانت قصائد بديعة قيلت في الرشيد بالذات . فإذا كان نوال الرشيد حافزاً لهم على أن يقولوا ما قالوه ، فقد كان في شخص هارون ما يعطيهم الإلهام لمعانيهم وصورهم . وإذا كانوا قد بالغوا في التغنّي بتميّز الرشيد ، بتقاه ، بورعه وكرمه ، فلأن الرشيد تميّز ، فعلاً ، بالتقى والورع والكرم . . . من هنا ، لم يكن شعرهم بعيداً بعداً تاماً عن صدق الانفعال . فالرشيد غدا من أبرز الأحداث الفاعلة في عصره ، إن لم نقل أبرزها على الإطلاق ؛ وما كان لشاعر يبحث عن الإثارة والانفعال أن يتجاهلها أو يهرب من جاذبها ، ولقد استهوت الكثيرين . . . إن بعض الشعراء أحبّوا الخمر فانصرفوا إليها : منها يشربون ، إياها يصفون ، وبها يتغنّون ، حتى جعلوا السامع يعتقد أن خمرهم ليست ذلك السائل المسكر ، المخدّر للعقل والإرادة والأريحية ، وإنما هي رحيق ملائكي وإكسير مقدّس . وأحب آخرون المرأة فقدّسوها وأنشأوا لها محراباً يتعبّدون فيه ويعتكفون . كذلك جذبت شخصية الرشيد شعراء أقبلوا عليها يستوحونها ويضفون عليها رونق إعجابهم وألق تقديرهم حتى كادت تبدو أسطورة خارقة ، وتركيبة من غير الطينة البشرية ، أو نموذجاً للإنسان تتجسّد فيه مثاليات الأمة .

---

1 ديوان المتنبي ، مكتبة صادر بيروت 1926 ص 161 .

أولاً : شخصية الرشيد

لنا أن نتساءل : ما الذي استهوى الشعراء والناس والتاريخ في الرشيد ؟ إن الجواب الدقيق صعب لتشعّبه وتداخل فروعه . ويمكن القول إن ما انطوت عليه شخصيته من خصال ، معظمها متطرّف ، وما جمعته من صفات متقابلة متناقضة ، جعل من الرشيد شخصيّة نادرة . ونحن نركّز على هاتين الظاهرتين : التطرف والتناقض في طباع الرشيد ، نتناولهما بعد الحديث عن اكتسابه حب الناس وإعجابهم ، بصورة متدرجة خلال فترة حكمه التي تجاوزت عشرين عاماً . .

1 ـ الرشيد الطيّب : في اعتقادنا أن الرشيد بدأ يستقطب محبّة الناس منذ كان ولياً للعهد ، تعرّض للاضطهاد من قبل أخيه الخليفة ، وقنع في إحدى لحظاته بأن يُترَك له قصرا الهنيء والمريء يعيش فيهما مع ابنة عمّه وزوجته المحبوبة زبيدة . إن ضمير الشعب يحس ، شفقة على هذه الطيبة وميلاً إلى ما فيها من براءة . وحين امتدّت يد القدر لتقضي على الطاغية الظالم قبل أن ينفّذ مأربه ، وجد الناس حتماً أن العناية الإلهية تحمي الرشيد الطيب ، وتهيّئه لأمر عظيم . فإذا ما أُعلن خليفة ، تدفّقت الجموع لاستقباله تتملّى من وجهه الوسيم ، وتعلن حبّها وتأييدها ، خصوصاً بعد أن أثبت وفاءه بمنح سلطات واسعة لمربّيه يحيى ، حاميه ، وسبب بقاء ملكه له .

والرشيد ، في هذه الفترة ، لم يكن يدّعي العصمة ولا يوصف بها . ولم يكن يتعالى ، ولا يستكين إلى نسبة العظمة إليه . كان إنساناً كسائر البشر ، يحب الحياة مثلهم ، يقبل على نعمها ولذّاتها إقبالهم ، ويساعد المقبلين عليها . وتجاوباً مع محبة الناس ، خفّف عنهم الضرائب وزاد من الصدقات والأعطيات والإنفاق[1] ، فارتبط اسمه بالازدهار والرحمة . وطفقت الأيام تثبت له طيب العنصر وإرادة الخير مع كل حدث يعيشه وكل مأثرة يأتيها . وقد كان لِحجّه ماشياً في أول سنة من ملكه ، تلبية لما أُشيع عن وصية النبي له في المنام أثناء ولايته العهد ، ثم لغزوه في العام نفسه تنفيذاً للشق الثاني من الوصية ، كان لكل هذا صدى في نفوس الناس جعلهم يطمئنون إلى مستقبلهم ويرتاحون إلى الخليفة الذي يسدّد اللهُ خطواته ويهيّئه لكل أمر جلل . ثم راحت تُروى مواقف ، منها المهم ومنها التافه ، وكلها تدور حول عفويته وطيبته . أليس هو الذي يتجاوب مع أمل المحروم والمظلوم والمحتاج ؟ أليس هو الذي يتنكّر بثياب العوام ليتفقّد أحوال الرعية ويتأكد من عدل القضاة والولاة ؟[2] أليس هو الذي يسمع حديثاً عن الرسول بأنه كان يتمنى الموت في الجهاد فيبكي وينتحب ؟[3] ألم يخبره

---

1 في عام 172هـ/ «وضع هارون عن أهل السواد العشر الذي كان يؤخذ منهم بعد النصف» . (تاريخ الطبري ج 8 ص 236) «وترك بعض أهل الضياع في فلسطين أرضهم فوجّه إليهم أحد كبار القواد فدعا قوماً من أكرتها ومزارعيها إلى الرجوع إليها على أن يخفف عنهم من خراجهم وتلين معاملتهم فرجعوا . (الإدارة الإسلامية في عهد عز العرب ص 141) .

2 حاشية التطفيل عن الظّراف والمتماجنين ص 54 والفرج بعد الشدة ص 397 .

3 تاريخ الخلفاء ص 285 .

الأصمعي عن أعرابي استكتبه كتاباً طريفاً في اعتاق جارية له «فأمر أن يُعتَق عنه ألفُ نسمة (أو مئة نسمة) ويُكتبَ لهم هذا الكتاب ؟»[1] ألم يُغنَّ يوماً بشعر يحيى بن طالب الحنفي وفيه هذا البيت :

أريد نهوضاً نحوكم فيصدُّني ، إذا رُمتُه ، دَيــنٌ عليّ ثقيلُ

فيسأل عن قائلة وظروفه ويعرف أنه بالريّ هارب من دائنيه في اليمامة ، فيرسل إلى عامل الري وعامل اليمامة : أن أكرموه ، وأقضوا دينه ، وردّوه إلى أهله على دواب البريد[2] ؟ ويطول بنا المقام لو أردنا تعداد هذه المآثر التي حفلت بها كتب الأدب ، وحفظتها ذاكرة الناس ، وتداولتها ألسنهم ، وكلها مثار إعجاب وتقدير[3] .

2 ـ **التناقض في طباع الرشيد** : هذا التناقض كان أبرز ما طالع المؤرخين من شخصية الرشيد ، فدرجوا على تصويره سريع الغضب ، سريع الرضى ، شديد التقلب في المزاج والعواطف : من إعجاب إلى حقد ، ومن نقمة إلى عفو ومسامحة ، كما ظهر في سيرته مجموعة من التناقضات : يكرم ويداري ويتعاطف ويحنّ ، حتى يكاد أن يكون أباً للرعية رؤوفاً ، ثم يبطش منتقماً جباراً حتى يكاد أن يكون نقمة عليها وكابوساً . يصلّي ويحج فيطوف ويرتعد ، ويغزو ويتعرض للقتل رغبة في ثواب الجهاد ، ثم يسمع ويطرب ويلهو ويشرب حتى يستنفد لذات الدنيا جميعاً . ولنا على هذا التناقض الظاهر في طباع الرشيد ، ملحوظتان : أولاهما أنه لم يبدأ معه في ، جميع مظاهره ، منذ تولّيه الأمور . والأرجح ، في اعتقادنا ، أنه بات يشعر بالضيق عندما وعى استبداد البرامكة المتزايد ، وعجزه بوجودهم ، فراح يحس بالتمرد الذي كان يعبّر عن نفسه ثورة وتجبّراً بين حين وآخر ، تأكيداً لذاته وإثباتاً لنفوذه . وهذا الضيق لازمه مع البرامكة مصاحباً لكبت عواطفه كي لا يظهر لهم تمرّده ، واستمرّ بعد البرامكة لما أحسّه من فراغ إداري كان عليه أن يملأه بنفسه وبالكثير من الشدة والعنف ليثبّت أساس ملكه الذي اهتزّ مع النكبة . والملحوظة الثانية هي أن التناقض المذكور كان ضرورياً للرشيد الأسطورة ، سواء في فترة دولة البرامكة أو بعدها . فهو الذي جعل حب الرعية له يمتزج بالرهبة والتقدير . إن صورة الطِّيبة والورع والعدل والصلاح ، التي حبّبته إلى الناس الذين اعتادوا أن يقاسوا ظلم الحكّام ، لم تكن كافية لنسج ثوب العظمة الذي لبسه . فحب الزعيم ، إذا لم يقترن بالإعجاب ولم يرتبط بالرهبة ، لا يحقّق مثالية القيادة . لقد كان عمر بن الخطاب ورعاً تقيّاً ، لكن الرهبة منه كانت تعادل ورعه وتقاه . وكان عمر بن عبد العزيز ورعاً تقياً اقتفى سيرة ابن الخطّاب لكنه لم يبلغ ما بلغه سلفه من بأس وسطوة ، لأنه لم يعط شخصيّته هذا الوجه الآخر ، وجه التسلّط

---

1 ونص الكتاب : «هذا ما أعتق عبد الله بن عقيل الكلابي : أعتق جارية له سوداء ، يقال لها لؤلؤة ، ابتغاء وجه الله تعالى وجواز العقبة ، وأنه لا سبيل له عليها إلا سبيل الولاء . المنة لله عليها وعليه واحدة» . (عيون الأخبار ج 2 ص367) .

2 الأغاني ج 23 ص 290 والفرج بعد الشدة ص 346 .

3 مرّت بنا أخبار كثيرة عنها ، خصوصاً ميله إلى جمع المحبين الذين تفصل الظروف بينهم .

وقوة الشكيمة . فالواقع أنه لا يكفي الخليفة الاهتمام بالرعية والقرب منهم ، إنما هو يحتاج إلى ما يبعده عن الناس ويجعله خليفة كما يجعلهم رعيـة . وهذا ما اكتمل عند الرشيد : عاش حياته الإنسانية كاملة ، أرضى نزواته جميعها بمثل ما يرضيها عامة الناس وأكثر ، واتقى الله واستمع للمواعظ وصلّى وبكى ، تصدّق وأعطى وأكرم مثل أخيارهم وأفاضلهم . لم يتقبّل الغمز ولم يسكت على ضيم ولم يتساهل في ما يهدر الكرامة ، أياً كان مصدره من قوى الأرض . ألا يبدو واضحاً ما لهذه الصورة من أثر فاعل في نفوس العامة والخاصة ؟

3 ـ **التطرّف في طباع الرشيد** : إنّ الرشيد لم يجمع الصفات المتناقضة على مستوى أوساطها ، بل لقد اجتمعت لديه في أقصى حالات تطرّفها ، وهذا ما جعلها مهيّأة ، بدفعة من المبالغة ، إلى التحوّل صفات غير بشرية . إنّ ما يلفت الانتباه ، في المحبة أو البغض ، ليس الملامح العادية ، بل الملامح الصارخة . إن الجمال الصارخ والقبح الصارخ يتساويان في جاذبهما ، وإن لم يتساويا في ما يثيرانه من مشاعر . أوليست العبقرية تطرّفاً في أحد ميادين الإبداع البشري ؟ أما تطرّف الرشيد فيتجلّى في الإغراق الذي استوعب معظم خصاله . من ذلك مثلاً ما سبق لنا ذكره عن ورعه وتقاه[1] . فإذا صحّ هذا أفلا يكون الرشيد قد أغرق فيهما حتى ساوى الزهاد والنساك ؟ ومن ذلك أيضاً ما روي عن تبذّله في طربه[2] الذي ، إذا صحّ ، يبرز الرشيد من أكثر المستمعين تمتّعاً بالطرب ، ومن أكثر المنادمين شفافية وإقبالاً على المتعة . وماذا نقول عن جميع صفات السيادة التي تجمّعت لديه وكلّها مندفعة نحو أقصى مداها ؟ ألم يكن من الفصاحة والبلاغة بحيث واجه الشعراء والأدباء وجعل بلاطه منتدى الأدب ، وعكاظ الإسلام ؟ ألم يكن من الكرم والبذل في درجة استثارت خيال القريب والبعيد ، وملأت سماء آمال الناس بالغيوم البيضاء الحبلى بغيثه ؟ والعفة ؟ ألم يبلغ بها أقصى ما يمكن لحاكم أن يبلغ ، فلم يجذبه ما بأيدي الناس[3] ولم يستخلص منهم إلاّ ما فرضه الدين وتطلّبه الحق والعدل ؟ وماذا

---

1 راجع ص 628 من البحث .

2 مرّ بنا طربه وجعفرُ لسماع غناء عُليّة بنت المهدي ، حتى رقص الرشيد ورقص معه جعفر (الأغاني ج 10 ص 188 ونهاية الإرب ج 4 ص 213) ويزعم الأصفهاني أنه «اجتمع إبراهيم الموصلي وزلزل وبرصوما بين يدي الرشيد ، فضرب زلزل وزمر برصوما وغنى إبراهيم . . . فطرب هارون حتى وثب على رجليه وصاح : يا آدم ، لو رأيت من يحضرني اليوم من ولدك لسرّك . ثم جلس وقال : «أستغفر الله» . (الأغاني ج 5 ص 218) .

3 سنّته في ذلك تظهر في تصرف عامله على أرمينية محمد بن يحيى بن خالد . فقد كتب إليه محمد بن علي مشجّعاً إياه على وضع يده على أراض أهملها أهلها : «إن قوماً صاروا إلى سبيل النصح فذكروا ضياعاً بأرمينية قد عفت ودرست ، يرجع منها إلى السلطان مال عظيم ، وإني وقفت عن المطالبة حتى أعرف رأيك» . فردّ عليه محمد بن يحيى : «قرأت هذه الرقعة المذمومة . وسوق السعاية ، بحمد الله ، في أيامنا كاسدة ، وألسنةُ السعاة في أيامنا كليلة خاسئة . فإذا قرأت كتابي هذا ، فاحمل الناس على قانونك ، وخذهم بما في ديوانك ، فإنّا لم نولّك الناحية لتتبّع الرسوم العافية ، ولا لإحياء الأعلام الداثرة . وجنّبني وتجنّب بيت جرير يخاطب الفرزدق :

نقول عن عدل الرشيد وخضوعه لحكم القانون ووقوفه متواضعاً بين يدي القاضي النزيه ؟ وماذا نقول عن ثورات غضبه وعن سرعة انتقامه وعن النطع والسيف اللذين عاشا إلى جواره[1] ، جنباً إلى جنب ، مع بِدَر الدراهم والدنانير ؟ وما القول عن حدّته وانفعاله ورفضه المداورة وعن بطشه بالأعداء ؟ ألم يكن البرامكة أنفسهم شاهداً حياً على ما يمكن أن يصل إليه طبع الرشيد من اللين والوفاء ، وفي الآن نفسه ، ما يمكن أن يأتيه من بطش واستبداد حين يكون ملكه أو كرامته في الميزان ؟ أليس كل ما ذكرناه وما لم نذكره أيضاً من طباعه خصالاً تطرّفت لديه حتى غدا القمّة في العنف واللين ، في السماح والتضييق ، في العطاء والأخذ ؟ أليس ذلك جديراً بأن يجتلب الأنظار ويستقطب الأفكار ؟

ثانياً : الإطار الذي ارتسمت فيه شخصية الرشيد

1 ـ الازدهار : لن نعود هنا إلى عرض ما انطوت عليه أجواء الرشيد من تعامل مع الأدب والثقافة والعلم ، مما أنطق ألسنة الشعر ، وأسال أقلام الأدب والتاريخ تسجيلاً لمواقف له وتأكيداً لأحداث ، وذكراً لطرائف وأعمال تناقلتها الألسن وتداولتها الأسماع . وكذلك لن نعود إلى ما أظهره الرشيد من طاقة جبّارة في حركته الدائبة بين مكّة والرقة وبغداد والثغور ، مما يعجز عنه كثير من الناس العاديين ، فما بالنا بإنسان مرفّه متأنّق كالرشيد ؟ لقد كان في حجه عنيفاً عنفاً لا يطيقه مرافقوه[2] ، وكان في غزوه عنيفاً عنفاً قاسى منه مناوئوه . ولذلك فقد فرض هيبته في أرجاء ملكه ، وثبّت حكم القانون ، وكان لرقابته الدائمة على العمال[3] ، وتبديله لهم في فترات متقاربة ، إلا ما ندر ، حاجز دونهم وظلم الناس ؛ والنتيجة كانت أماناً فازدهاراً اقتصادياً ، كما أسلفنا ، تجلّى في تبادل تجاري واسع النطاق لم يترك بلداً من البلدان المعروفة في عالم تلك الأيام .

= وكنتَ ، إذا حللتَ بدار قومٍ، رحلتَ بخزيةٍ وتركتَ عارا

وأجرِ أمورك على ما يكسب الدعاء لنا لا علينا . واعلم أنها مدة تنتهي ، وأيام تنقضي . فإما ذكر جميل ، وإما خزي طويل» . (جمهرة رسائل العرب ج 3 ص 189) .

1 كان السيف والنطع قريبين إليه تعرّض لهما كثيرون واستطاع البعض النجاة منهما بإظهار الحق وحسن النيّة . من هؤلاء محمد بن الحسن الشيباني (تاريخ بغداد ج 2 ص 178) وعمر بن حبيب القاضي عندما دافع عن أبي هريرة (المرجع السابق ج 11 ص 197) وأحد القرشيين الذي سخر من اجتماع موسى وآدم في أحد الأحاديث (تاريخ الخلفاء ص 285) وإبراهيم الموصلي حين تخلّف عن موعد للرشيد (الأغاني ج 5 ص 222) وحميد الطوسي (أسرار الحكماء ص 94) . . .

2 يذكر المقريزي تفاصيل عن حجّ الرشيد ماشياً يقول : «كان يطوف بين المغرب والعشاء ثلاثة عشر أسبوعاً ولا يطيق ذلك أحد ممن كان معه» . (الذهب المسبوك في ذكر من حجّ من الخلفاء والملوك ص 50) .

3 يذكر البغدادي أن زياداً القندي كان يتولى أعمالاً للرشيد ، فاختان واقتطع من بيت المال ، فأمر الرشيد بقطع يده . (تاريخ بغداد ج 9 ص 89) .

وكان لهذه الحركة التجارية التي تفوق ، في انتشارها وعلاقاتها ، حركة الجيوش العسكرية ، مع طول فترة حكم الرشيد ، تأثيرٌ دعاويٌّ كبير لصالح هارون الذي بات اسمه ينتقل مع الركبان ، حتى سمع به كل قاصٍ ودانٍ . بذلك تمكّن من تمثيل الشرق المسلم المزدهر ، فغدا هارون الرشيد وذلك الشرق مترادفين متلاحمين على مدى ثلاثة وعشرين حولاً[1] .

2 ـ **دولة البرامكة ونكبتهم** : سبقت لنا إشارات كثيرة إلى الدور الذي لعبه البرامكة في دولة الرشيد . إذ لا يمكن الحديث عن الرشيد دون ذكرهم لأنهم ارتبطوا بحياته ومشاعره ومواقفه خلال سبعة عشر عاماً من خلافته . والبرامكة ، شأن الرشيد ، اختُلف في أمرهم ونواياهم : كان لهم أعداء ومبغضون ، وكانوا طرفاً في عصبية شعوبية ؛ وبالمقابل ، كان لهم ألوف المعجبين المادحين المعترفين بالجميل . ولا شكّ في أن وجودهم قرب الرشيد ، صلةً بينه وبين الناس ، جعل قدرة الرشيد على الاتصال بالجمهور تتضاعف وتتعدّد بتعدّد رجالات البرامكة . وقد تجنّدوا كلّهم لبناء مجد للرشيد ، أياً كانت نواياهم المبطّنة . وحين حصلت النكبة كان البرامكة يتربّعون على قمّة المجد الذي بنوه ، فهووا من شاهق ، وكانت الصدمة هائلة بُهت لها المؤيدون لهم والمعارضون . هؤلاء فوجئوا بالرشيد الذي عهدوه طيّباً مستكيناً منخدعاً ، يتحوّل إلى نمر يهاجم ويضرب بدقّة وتصميم ، وأولئك فوجئوا بالرمز الضخم الشامخ يتداعى بين ليلة وليلة . وانقسم الناس : ذا يرثي وذاك يشمت . واختلاف الناس على حدث سياسي ضخم يشغلهم هو مجال لدعاوة كبيرة ينتشر فيها اسم البطل الرابح فيلهج به الكبير والصغير .

لكن الرشيد كان ، بعد النكبة ، أحوج ما يكون إلى ادعاء العصمة ليقنع العامة والخاصة بصواب ما قام به ، صوابية لم يحاول إبراز المسوّغ لها ولم يسمح لأحد بأن يتناولها بحثاً أو نقداً . . قد يكون لكثير من قرارات الرشيد المتفرّدة أثر كبير ، لكن هذا القرار فاقها جميعاً لأنه تناول جميع الناس في ارتباطاتهم أو آمالهم ، فوجد من يعتقد أن القيامة قائمة وأن الدولة لا محالة زائلة . وقد قوّى ذلك أن الرشيد لم يكن قد هيّأ البديل عنهم ، أو أنه لم يكن بيده إيجاده . فالفضل بن الربيع لم يكن يستطيع أن يغني غناءهم . مما جعل السؤال يلح : لماذا فعل الرشيد ذلك ؟ وكان لا بدّ من أصوات ترتفع لا لتجيب ، وإنما لترد على من سأل وتمنع من لم يسأل من السؤال ، واصفة الرشيد بالمستحكم الرأي ، المستغني بوحدته عن الناس ، وبأنه لم يسبق له هفوة أو خطل في الرأي ، إلى ما هنالك من صفات الرأي السديد التي درسناها . وأصبح على الرشيد ، بعد النكبة ، أن يقوم بأعمال في مستوى الصورة المجيدة التي ارتسمت في أيام البرامكة ، فكانت حروبه وغزواته .

---

1 جاء في دائرة المعارف الإسلامية ، مادة «هارون الرشيد» : «من الناحية الاقتصادية ، وصلت النشاطات التجارية في أيامه إلى الصين ، وجعلت العالم بأجمعه ، آنذاك ، يسمع باسم الرشيد ، فزادت روعة وبهاء إلى بلاطه الذي كان دائماً مركزاً للثقافة والفن» . Encyclopédie de l'Islam Paris, 1975, Tome III

3 ـ **حروب الرشيد وغزواته** : يقول كاستون بوتول في حديثه عن مواقف الرأي العام الجماعي للشعوب تجاه رؤسائها[1] : «إن الرؤساء المنتصرين في تجربة القوة يضعون على رأسهم أكاليل التقدير والحماس . إن رؤساء الأحزاب الذين يستولون على السلطة بالعنف والقوة كلينين وتروتسكي وموسيليني ومصطفى كمال وهتلر ، كانوا يزدادون قدراً عندما يحقّقون انتصارات عسكرية على عدو خارجي ، خصوصاً حين تكون حرباً يشتد فيها القتل . . . إنهم ، من وجهة النظر التحليلية ، يتقمّصون دور (الأب) في عملية اكتساب (ما فوق الأنا) ، ويشبعون إحدى حاجات (مركّب إبراهيم) ، حيث تتجلّى رغبة أبوية غير واعية في تقديم الأولاد قرابين على مذبح قضية برّاقة خادعة» . والرشيد ، بعد نكبة البرامكة ، كان ، بالنسبة إلى الكثيرين ، قد قتل الأب المحسن الرؤوم المتمثّل فيهم ، فغدا بحاجة إلى ارتداء ثوب آخر لأب قوي ، أب ديني يحمي الإسلام ويذل المشركين . وجاءت غزوة الصفصاف وحملة هرقلة ، ثم حرب هرقلة وفتحها ، لتقطف له مجداً عسكرياً يلبسه تاج العزّ والتقدير ، ويثبت أنه ما زال الرشيد الموفق بتأييد من الله . ونودّ هنا أن نشير إلى ما في هذه الحروب من تعويض عن خيبة أمل الناس ، وخوف الكثيرين من زوال عز الدولة بعد غياب البرامكة بُناةِ مجدها . وفي رأينا أن شخصية الرشيد الأسطورية بدأت تتكوّن من هنا ، من ردّة فعل النكبة ومن أمجاد الحروب والانتصارات . وقد رأينا أن شعر الفتح في حرب هرقلة حفل بالكثير من عناصر هذه الشخصية الأسطورية .

4 ـ **أهواء الشعراء وأغراضهم** : ولا نقصد هنا غرض التكسّب المادي بالشعر بل نعني حافزاً أعمق ومدى أبعد ؛ فلو تأملنا المدائح التي قيلت في الرشيد والشعراء الذين أبدعوها لاستطعنا أن نجد بين هؤلاء الشعراء فئتين : فئة تنصرف إلى التملّق وتأكيد الموقف السياسي ، وفئة تتدرّج في الإحالة حتى تغرق فيها . الفئة الأولى يمثّلها أشجع ومروان ، وغالباً النمري ، وسواهم . والفئة الثانية يتزعّمها العتابي وأبو نواس وأبو العتاهية وأحياناً النمري . في شعر هؤلاء باستثناء النمري ، يقلُّ الشعر السياسي الذي يعتمد ذم العلويّين والتشهير بهم ، وإن لم يغفل تماماً تأكيد حق العبّاسيّين . ويبدو لنا أن شعراء الفئة الأولى ، حين يمدحون ، كانوا يركّزون على إبراز الصفات البشرية للرشيد تحت ضوء مشرق ، ودفعها باتجاه التطرّف ، خصوصاً فيما يتعلّق بالسطوة والكرم . أما شعراء الفئة الثانية فإنهم عمدوا ، في بعض شعرهم ، إلى نحت تمثال الرجل الخارق الذي يمثل الرشيد ويستمد ملامحه ، لا من صفات الخليفة ، وإنما من طموحهم وطموح الأجيال البشرية التي سبقتهم . ونحن نتساءل : لماذا اختاروا هذه الطريق ؟ صحيح أنها كانت تؤدي بهم إلى كسب كبير ومكانة مرموقة في عين الخليفة ، لكن يظهر لنا أن هناك دوافع أخرى ، إن كانت غامضة علينا عند النواسي

---

1 Sociologie de la politique, p. 70, Paris 1971, Presse Universitaire de France.

والعتاهي[1] ، فإننا نجدها عند العتابي رغبة في التشبّه بالنابغة الذبياني ، فضلاً عن حافز عصبي عشائري . أما تشبّه العتابي بالنابغة فواضح ، إنه يحاول ، في اعتذارياته الشخصية ، أن يجعل الرشيد شبيهاً بالنعمان ، لا بل متفوّقاً عليه بالقدرة والسطوة ليعطي أهمية أكبر لهذه الاعتذاريات . أما في اعتذارياته القبلية ، وقد شاركه في ذلك النمري ، فقد حاول إظهار الرشيد شبيهاً للنبي ﷺ في خطة لرفع السيف عن ربيعة . وتفاصيل الخطة تعتمد على عادة عربية ، سبق لنا الحديث عنها ، تختصر سلم التسلسل البنوي لتسمي أفراد العائلة أو العشيرة بنسب الجد الأكبر لها . فيقولون : فلان من وائل وفلان من ربيعة ، لأن الجد الأكبر في جماعات الولاء الأبوي ، يُعتدّ أباً لجميع أبناء الجماعة (وقد تكون تلك مرحلة لأنسنة التوتم الذي كانت بعض القبائل تعتدّه أباً لجميع أفراد الرهط ، دون أن يكون من طبيعة بشرية) . وتأكيداً لذلك نذكّر بأن يزيد بن مزيد الشيباني ، حين انجرد لحرب الوليد بن طريف الشاري ، وهو من ربيعة مثل يزيد ، قال بكر بن النطاح : «وائل بعضها يقتّل بعضاً . . .» إن الأسماء الفرعية والجزئية تتضاءل حتى تختفي أمام النسب الذي يقود إلى الجد . ومن هذا المنطلق أيضاً قال موسى الكاظم عند قبر النبي ﷺ : السلام عليك يا أبت (مع أن النبي جد للكاظم عن طريق الأم لا من جهة الأب) . وقد قلنا إن شعراء الرشيد تنبّهوا لنقطة الضعف في انتساب العلويين إلى النبي عن طريق الأم ليجعلوا الرشيد ينتسب إليه بصلة نسب أبوية . وقد تناول العتابي هذه المعطيات جميعها ليستطيع دمج الرشيد بالجد الأكبر الذي هو العبّاس كما دمج النبي ﷺ بشخص العبّاس لأنه قام مقام والده ، فإذا الرشيد يصبح توأماً للرسول في نسبه ، ثمّ في صفاته وطبيعته البشرية ، ثمّ في احتوائه قدسية طبيعته النبوية وطهارتها حتى يكاد الوحي الذي أنزل على محمد ﷺ ينزل شبيه به على الرشيد : رأياً صائباً ، ونظراً ثاقباً ، وإرادة لا تخطىء . أما لماذا قام العتابي بهذا الدمج ، ففي رأينا أنه فعل ذلك مقدّمة لدمج مماثل ، إنما على صعيد آخر . فإذا تمّ الدمج بين الرشيد ، وهو ابن «عباس» ، والنبي ، وهو ابن «عبد الله» ، فإن ربيعة ومضر أخوان ، ينتميان إلى أب واحد هو نزار[2] . ومتى وصلت المقدمات إلى هذه النقطة غدا وضع السيف في ربيعة بمثابة ضرب الرشيد قومه بسيفه ، وهذا ما

---

1 يمكن الحديث عن نزعة مانوية عند أبي نواس ودهرية عند أبي العتاهية ، وكلاهما قد اتُهم بذلك . فأبو نواس معروف بالشعوبية وضعف الإيمان وتعلّقه بالفرس وهم أصل المانوية والثنوية والزندقة . وأبو العتاهية لم يكن بعيداً عن تهمة الزندقة على رغم مظهر الزهد الذي تلبّسه . فتكون الإحالة ، في وصف الرشيد ، نقلاً لتعاليم فارسية إلى صميم الدين الإسلامي ، وفي ذلك ما فيه من طعن على الإسلام وازراء به .

2 يذهب الحصري إلى أن القرابة التي تحدث عنها النمري وبالتالي العتابي ، بين الرشيد وربيعة ، هي «ما يمتّ إليه من النسب من العبّاس بن عبد المطلب ، رضي الله عنه . وكانت نثيلة أم العبّاس من النمر بن قاسط . .» (زهر الآداب ج3 ص 668) ونحن نعتقد أن هذه الصلة ، إذا ادعاها النمري ، فلا يعتمدها العتّابي . لذلك ذهبنا إلى القرابة بين ربيعة ومضر في أبيهما نزار .

تأباه العصبية القبلية ، وخصوصاً أن لهؤلاء القوم يداً في تثبيت الرسالة وفرض السلطة بالجهاد والطاعة . . . والنتيجة أن العتّابي قدّم الدمج الأول الذي لا يمكن للرشيد أن يرفضه إذ يلاقي هوى في نفسه وحاجة ، وتمكّن بذلك من إعلان الدمج الثاني ، فلم يستطع الرشيد أن يرفضه أيضاً . والآن ، إذا كان ما قدّمناه هو ، عملياً ، خطة العتّابي فإنه ، بلا شك ، صاحب خبرة نفسية وجدلية ، وواضع خطط من الطراز الأول (وهو بالفعل له كفاياته وثقافته المنطقية المعروفة)[1] . إنما ، سواء فعل العتّابي ذلك عن قصد أو أن ذلك صدر عنه بموهبة عفوية ، فإن الأثر في الرشيد كان هو هو . فكما عجل الطرب إلى نفسه في الدمج الأول ، عجل الأمر بالفرج إلى لسانه وصدر برفع الضيم عن «قومه» . . . ونعود لنتساءل : لماذا تقبل الرشيد الدمج الأول ، وقبل المدح بصفات الأنبياء ؟ ونحن نرى في ذلك أثراً للصراع العلوي العبّاسي .

ثالثاً : ملامح الإمامية العلوية في صورة الرشيد

حين تحدّثنا عن الصراع العلوي ـ العباسي ، ألممنا بحرب الشعارات التي خاضها الفريقان والتي تركّزت على أيهما أحق بالخلافة وبإرث النبي . لكننا لم نعرض لصراع المبادىء الذي خاضه فريقا السنّة والشيعة والذي كان أبرز وجه سياسي له هو تحديد صفات الإمام العدل . والواقع أن فرق العلويين التي جعلت دأبها تجميع الجموع والثورة على الحكّام كانت تجد دائماً من يتبعها ويحمل السلاح لأجلها ، كما أسلفنا . ونحن لا نستقصي الأسباب الاجتماعية لذلك ، وإنما نتوجّه إلى الحديث عن دور الإمام الشيعي في استقطاب المحبة والإخلاص والوفاء . فالإمام هذا اعتُدّ تجسيداً حياً لكل المعاني الدينية المقدّسة[2] . هو تجسيد للطاقات النبوية التي يستمدها مباشرة من النبي ، منقولة إليه عبر الدم الموروث . وهو تجسيد لإرادة الخالق ، لأن دوره في الحكم بين الحق والباطل دور دائم على هذه الأرض : إن لديه كل علم الناس ، ولديه معرفة كل ما يريد الله للبشر أن يعرفوه ، وغيابه للحظة واحدة يترك الدنيا بلا مقياس للخير والشر . من هذا المنطلق نادى العلويون بعصمة الإمام لأنه ، إذا كان هو معيار التصرف ، فالمفروض أنه لا يخطيء . وهو طبعاً لا يخطيء لأن عمله ومعرفته ليسا من علم البشر ولا من معرفتهم ، بل بكشف من الله عن بصيرته . من هنا كان تشبّث الجموع الشيعية بإمامها وإحساسها بالنكبة الهائلة عندما يختفي أو يُقتل ، وإسراعها إلى قبول البديل

---

1 ينسب إليه التنوخي القول بالاعتزال قبل اتصاله بالرشيد (الفرج بعد الشدة ص 346) .

2 «أما الإمام ، في نظر الشيعة ، ففوق أن يحكم عليه . وهو فوق الناس في طينته وتصرفاته . وهو مشرِّع ، وهو منفّذ ، لا يسأل عمّا يفعل ، والخير والشر يقاسان به . فما عَمِله فهو خير ، وما نهى عنه فشر . . . هو يتلقى علمه من الله عن طريق الوحي ، ويعدّه الله إعداداً خاصاً من حين أن يكون نطفة ، ويحفظه برعايته السامية ، ويعصمه من الذنوب ، ويورثه علم الأنبياء والمرسلين ويطلعه على ما كان وما سيكون . . . وقال الرضا : الناس عبيد لنا في الطاعة ، موال لنا في الدين ، فليبلّغ الشاهد الغائب . . نحن خزّان علم الله ، ونحن تراجمة وحي الله ، نحن الحجة البالغة على من دون السماء ومن فوق الأرض . . . .» (ضحى الإسلام ج 3 ص 215 و220 و221) .

عنه . ولعلّ أخطر الفرق الإمامية ، وأشدّها عنفاً ، كانت المتطرّفة التي تعطي الإمام قدسية تتجاوز البشر وتجعل روحاً من الله يحل فيه ؛ ولا شكّ في أن هذه الفرق كانت أحياناً تضمّ بعض أصحاب البدع الذين لم يخلّصهم الإسلام من الإيمان بمعتقدات قديمة لهم ، ورثوها من المجوسية والزرادشتية والثنوية . . . [1] بقي أن نشير إلى فكرة المهدي أو الإمام المنتظر الذي يأتي بسيف الحق ليحارب الظلم ويقيم العدل . ويبدو أن فكرة المنقذ أو المخلّص ليست خاصة بالشيعة دون سواهم . فهناك من جميع الفرق الإسلامية من يؤمن به وبأنه يأتي عندما يستشري الفساد ليخلّص الناس ويطبّق مبادىء الشريعة الإسلامية الحقيقية . ويستدلّون على ذلك بأحاديث ينسبونها إلى النبي ﷺ أو بإشارات يستخرجونها من القرآن الكريم . ونحن لا يهمّنا استقصاء الصحّة أو عدم الصحّة في هذه النسبة بقدر ما تهمّنا إيحائية موضوع المهدي . فهو يقوم بمهمّة النبي في آخر الزمان ، إذ لا نبي بعد محمد ، أو أنه يتابع هذه المهمة . وبسبب ذلك ، أضيفت إليه صفات شبيهة بصفات محمد بن عبد الله ﷺ ، وعُرِف بأنه ، مثله ، يحمل اسم محمد وأبوه هو عبد الله . ولم يكن العبّاسيون أقل استغلالاً لفكرة المهدي من العلويين . لذلك نجد الكثيرين من الهاشميّين عبّاسيين وعلويّين ، يسمّون أبناءهم «عبد الله» وأبناء أبنائهم «محمد» ، عسى أن يكون أحدهم المهدي المنتظر . ويمكن أن نفهم ذلك بوضوح في صراع المنصور ومحمد النفس الزكية على ادعاء «المهدي» . فالنفس الزكية هو محمد بن عبد الله . . والمنصور هو عبد الله وابنه اسمه محمد . النفس الزكية أعلن ثورته باسم الإمام المنتظر (وقد بشّر به المغيرية قبل ذلك بزمن) فأطاعته الجموع . والمنصور حاربه وأبطل ادعاءه وأعتدّ ابنه محمداً الإمام المرتقب ، وأطلق عليه لقب المهدي . ولمّا كانت ولاية العهد ، بعد المنصور ، لعيسى بن موسى ، وكان المنصور يريد نقلها إلى ابنه ، فقد استغلّ إمكانية تحوّل ابنه إلى «مهدي» لفرض ولاية العهد له وإقالة عيسى بن موسى منها . لنستمع إليه يخاطب عيسى ، متحدّثاً عن ابنه محمد ، مشيراً إلى المهدي ، ومعرّضاً بالنفس الزكية نافياً عنه الإمامة المهدية : «نشأ هذا الغلام ، فقذف الله في قلوب أنصار الدين . . . مثل ابتدائه لنا

---

1 نعرض بلمحة سريعة معتقدات بعض الفرق المتطرفة . فالخطّابية زعموا أن الأئمة أنبياء ثمّ زعم أبو الخطاب أنهم آلهة . وكان يقول إن جعفراً (الصادق) إله . وقد طرده جعفر ولعنه (الفرق بين الفرق ص 247) . أما المنصورية فجعلت الإمامة تنتهي إلى محمد الباقر . وقد زعم أبو منصور العجلي أنه خليفة الباقر وأنه عُرج به إلى السماء ، وأن الله تعالى مسح بيده على رأسه وقال له : يا بني ، بلّغ عنّي ، ثمّ أنزله إلى الأرض . (المصدر نفسه ص 243) أما المغيرة بن سعد العجلي فقد زعم أن الإمامة بعد علي والحسن والحسين تنتقل إلى سبطه محمد (النفس الزكية) . وزعم أنه المهدي المنتظر . ثمّ ادّعى المغيرة النبوّة والعلم بالاسم الأعظم ، وزعم أنه يحيي به الموتى ويهزم الجيوش . (المصدر نفسه 239) . . . والملاحظ أن معظم الدعاة إلى فرق الروافض هم من الموالي ، يبدأون بالدعوة لإمام علوي ، ثم يحولونها إلى أنفسهم ويبثون فيها تعاليم مشبوهة ؛ وقد عمد غير إمام علوي إلى قتل هؤلاء الدعاة أو طردهم والتبرّؤ منهم ، كما فعل علي بن أبي طالب بعبد الله بن سبأ ، وكما فعل جعفر الصادق بأبي الخطاب .

أول أمرنا ، وأشرب قلوبهم مودّته . . . فصاروا لا يذكرون إلاّ فضله ، ولا ينوّهون إلاّ باسمه ، ولا يعرفون إلاّ حقه . فلما رأى أمير المؤمنين ما قذف الله في قلوبهم من مودته ، وأجرى على ألسنتهم من ذكره ، ومعرفتهم إياه بعلاماته واسمه . . . أيقنت نفس أمير المؤمنين أن ذاك أمر تولاّه الله وصنعه ، لم يكن للعباد فيه أمر ولا قدرة . . . وهب الله لأمير المؤمنين وليّاً ، ثم جعله تقيّاً مهدياً ، وللنبي ﷺ سميّاً ، وسلب من انتحل هذا الاسم ودعا إلى تلك الشبهة . .»[1] ونحن نجد فيما قدّمناه تفسيراً للألقاب التي تسمى بها أولاد المنصور من «المهدي» و«الهادي» و«الرشيد» و«الأمين» ، وجميعها ألقاب أو صفات للمهدي المنتظر مستمدة من ألقاب وصفات عرفت للنبي ﷺ . وهذا يلقي الضوء على بعض الصفات التي رسمت للرشيد . فلو تأمّلنا وصف عبد الملك بن صالح له لوجدنا فيه أن الله اصطفاه لهذا الأمر الجلل ؛ ومن المعروف ، أن المهدي ، كإمام شيعي ، يختاره الله منذ يتكوّن جنيناً ويتعهّده بتنشئة خاصة إلى أن يعلن عن نفسه . وهارون أيضاً ، حين تقلّد الأمر «أحيا الدين والسننا» ، وفي ذلك إشارة إلى مهمّة المهدي المنتظر الذي يتولّى إحياء الدين بعد انحلال . وتقلّد الرشيد الأمر لفتة من الله تعالى نحو عباده ورأفة بهم ، أفليس ذلك كله منطبقاً على المهدي ؟ والإمام المهدي خيرٌ مطلقٌ ، مهمّته محاربة الشر ومحوه ، وذلك حقّقه الرشيد بمجرّد مجيئه إلى هذا الكون[2] ، ولننظر إلى استكناه أبي العتاهية أسماء الرشيد توصّلاً إلى جعلها من ألقاب الإمام :

لك اسمان شُقّا من رشادٍ ومن هدى ... فأنت الذي تُدعى رشيداً ومهديّاً[3]

ألا نرى بوضوح أبا العتاهية يذهب إلى معنى الهداية الذي يرافق معنى الرشد ، توصّلاً إلى اعتماد لقب «الرشيد» معادلاً للقب «المهدي» ، فيسميه بذلك ؟ وعندما يقول أشجع : «وما زال هارون الرضا بن محمد . .»[4] ألا نجد الرضا اللقب الذي طالما كنى به العلويون عن الإمام الذي يبايعونه في الخفاء ريثما يعلنونه الإمام المنتظر ؟

إن صفات الإمام كانت أكبر من حرب الشعارات التي قامت بين العبّاسيّين والعلويّين ، فلم تستطع هذه الحرب زعزعتها ، لذلك عمد كل فريق إلى استعارتها وإخراجها بشكل يناسبه . ولئن غالت فرق من الشيعة في صفات الإمام ، فقد تناولها دعاة العبّاسيّين بشكل معتدل وأطلقوها على

---

1 جمهرة رسائل العرب ج 3 ص 100 و101 .

2 نجد ذلك في قول أبي العتاهية :

إنما هارونُ خيرٌ كُلُّهُ ... قُتِلَ الشرُّ بـهِ يومَ خُلِقْ

(الأغاني ج 4 ص 70) .

3 تاريخ الطبري ج 8 ص 309 .

4 الأغاني ج 18 ص 144 .

الرشيد[1] . والشكل المعتدل الذي نعنيه نسبي : فهو معتدل قياساً على ما ذهب إليه الرافضة وسواهم ، إنما هو يشمل صفات الغلو والإحالة التي درسناها في صورة الرشيد . فبهذه الصفات كان المادحون يرفعونه إلى مستوى إمام شيعي ، ليسلبوا الشيعة حتق الاستئثار بالمهدي ؛ وعندما نسمع النمري يتحدث عن الرشيد :

له ، إلى ذي الجلالِ ، قُربى   ليستْ لِعَـدْلٍ ولا إمـامِ[2]

نُحِسّ الصراع الخفي على الإمامة ، لأنَّ الشاعر لا يكتفي بإضفاء صفة الإمام على الرشيد ، صفة يستمدها مباشرة من الله ، وإنما هو ينفيها عن أي مدّع آخر للإمامة . وإذا تجاوزنا فكرة المهدي إلى فكـرة الإمـام المطلقة ، كما يتصوره الشيعة ، بصفاته المتميزة ، وبعصمته وانفتاح بصيرته ، ودوره في جماعته وفي العالم[3] ، فإننا نجد صدى لها في العمل الدائب الذي قام به شعراء البلاط في نحت تمثال للرشيد ينافس ، بملامحه ، صورة الإمام العلوي . فنحن نفهم ، بشكل أوضح ، تركيز شعراء الرشيد على بهائه ونور طلعته ، وتشبيهه بالبدر وبالشمس وبالنور الذي يكسف الأبصار ، حين نقرأ وصف الرضا للإمام العلوي : «الإمام : البدر المنير ، والسراج الظاهر ، والنور الساطع . . . الإمام الماء العذب على الظمأ . . . .»[4] والرشيد مثله أيضاً لأن «هارون ماء المزن يشفي من الصدى . . .»[5] وإذا استمعنا إلى صرخة العماني مخاطباً الرشيد :

يـا أيّهـا الخليفـةُ المطهَّرُ   والمؤمـنُ المبـارَكُ الموقَّرُ[6]

نجد لها معادلاً في وصف الإمام . فهو «المطهّر من الذنوب ، والمبرَّأ من العيوب»[7]

---

1 نلاحظ أن بعض معاني الغلو والإحالة كانت تقترن بكابح يلجمها عن أن تكون مطلقة ، وذلك يحدها في إطار الإمكان والافتراض . من ذلك قول أشجع أو الهنازي :

مَلِكٌ كأن المـوتَ يَتبَعُ أمـرَهُ   حتـى يقـال : تُطيعُهُ الأقدارُ

(تاريخ الطبري ج 8 ص 199) نجد حرف التشبيه «كأن» يمنع التأكيد ، كما أن في «حتى يقال» معنى الاحتمال الذي يمنع الإطلاق .

2 الأغاني ج 13 ص 139 .

3 «الإمام ، في نظر الشيعة ، فوق أن يُحكَم عليه ، وهو فوق الناس في طينته وتصرفاته . وهو مُشرِّع ، وهو مُنَفِّذ ، لا يُسأل عما يفعل . والخيرُ والشر يقاسان به : فما عملِه فهو خير ، وما نهى عنه فشَرّ . وهو يتلقّى علمه من الله عن طريق الوحي ، ويُعِدّه الله إعداداً خاصاً ، من حين أن يكون نطفة ، ويحفظه برعايته السامية ، ويعصمه من الذنوب ، ويورثه علم الأنبياء والمرسلين ، ويطلعه على ما كان وما سيكون» . (ضحى الإسلام ج 3 ص 220) .

4 ضحى الإسلام ج3 ص 220 .

5 من شعر لأبي العتاهية (انظر الأغاني ج 4 ص 16) .

6 المصدر السابق ج 18 ص 233 .

7 ضحى الإسلام ج 3 ص 215 .

وعندما يتناهى إلى أسماعنا قول أبي العتاهية «صلاح هارون صلاح الزمن»[1] فإننا نذكر ، على الفور ، صفة من صفات الإمام الشيعي وهي أن الخير والشر يقاسان به . ويقول الشيعة كذلك عن الإمام : إنه «ظل الله في أرضه ، ونور الله في أرضه ، والوسيلة الوحيدة لمعرفة الحق والباطل . والاعتقاد بذلك جزء من الإيمان ، كالإيمان بالله ورسوله ، لا تنفع أعمال الإنسان إلاّ به»[2] . وكأن هذه الأوصاف هي التي صاغها ، للرشيد ، شعراؤه وروّاد بلاطه . فهل هناك تفسير أفضل لبيت عبد الملك بن صالح :

حُبُّ الخليفة حبٌّ لا يَدينُ به　　　من كان لله عاصٍ يعمل الفتنا[3]

أو لبيت النمري :

من لم يكن بأمين الله معتصماً　　　فليس بالصلواتِ الخمسِ ينتفعُ[4]

أو لقوله أيضاً :

هــارونُ ، يا خيرَ من يُرَجّى　　　لم يطــعِ اللهَ مــن عصاكا[5]
في خيرِ ديــنٍ وخيرِ دنيــا　　　مَــنِ اتّقــى اللهَ واتّقــاكا

ونكتفي بهذا القدر من الأدلّة فهي تثبت أن العباسيين ، حين لم يستطيعوا اقتلاع جذور الإيمان بالإمامة ، من نفوس اتباع العلويين ، راحوا يسطون على هذه الفكرة ويحاولون ادعاءها لأنفسهم ، تماماً كما ادعوا حق الإرث وحق الخلافة . وهذا يفسّر لنا كيف أن الرشيد ، الذي ثار بوجه شاعر شبّهه بالرسول ، عاد ، بعد ذلك ، فتقبّل المدح ، لا بصفات الأنبياء فقط ، بل بصفات لا بشرية أيضاً : إنها المنافسة على الإمامة . .

رابعاً : الحاجة ، بعد الرشيد ، إلى الرشيد

إذا كانت صورة الرشيد ، التي رسمها له شعراؤه وأدباؤه ، وتقبّلها عصره ، قد كبرت بوجوده ، واستمرّت بدعمه ، واتضحت بأعماله ومواقفه ، إصاباته وأخطائه ، فلماذا شُغف بها الناس بعده ، واحتضنها التاريخ في حناياه ؟ ولماذا زاد فيها خيال الشعوب وطموحات الأمم حتى غدت أسطورة فعلية ؟ ليس في رأينا إلاّ سبب واحد : هو حاجة الشعب ، بعد الرشيد ، إلى ما تمثّله صورة الرشيد من عظمة وأمان ، ازدهار وشموخ وإباء ، وما إلى ذلك مما افتقرت إليه شخصيات معظم الخلفاء

---

1 الأغاني ج 4 ص 45 .

2 ضحى الإسلام ج 3 ص 220 وينقل أحمد أمين عن «الكليني» قوله : «الإيمان بالإمام جزء من الإيمان» . (المصدر نفسه ص 214) .

3 تاريخ الطبري ج 8 ص 276 .

4 زهر الآداب ج 8 ص 667 .

5 الأغاني ج 13 ص 149 . وراجع ص 536 من البحث .

بعده . لقد قاسى الناس من حرب الأمين والمأمون حتى بات الاستقرار والإزدهار ، أيام الرشيد ، يمثلان في خيال الناس ، برّ الأمان الذي بعدت عنه كثيراً سفينة الحكم ، وملامحَ الجنان التي كانوا ينعمون بها ولم يقدّروها حق قدرها ، وفردوساً مفقوداً بعيد المنال . ثم كانت محنة خلق القرآن أيام المأمون ، والمعتصم ، وجزئياً أيام الواثق[1] ، شبه كابوس هائل جثم على الصدور . وعلى رغم الصفات المتميزة التي تمتع بها المأمون[2] ، فإنه لم يبلغ عظمة الرشيد ، وخصوصاً أنه قضى فترة طويلة من خلافته يدافع عن ملكه ويعيد تأسيسه . أما الخلفاء بعده ، فلكلٍّ أخطاؤه وتقصيره . قاسى الناس ، مثلاً من جند المعتصم الأتراك ولم يعرف بلاطُه ازدهار الأدب والفكر شأن بلاطي الرشيد والمأمون[3] . كان الواثق أول خليفة استخلف سلطاناً تركياً . وراحت الخلافة تتراجع ، هيبة وسلطة ونفوذاً . وبدأ الوزراء ، ثم السلاطين ، يتحكمون في رقاب الناس ، ونما الصراع الطويل بين عسكر الخليفة وعسكر السلطان ، فعمّ الفساد والفوضى ، وتفشّى الظلم . . . وقليلاً قليلاً ، بدأت صورة الخليفة العظيم تضؤل لتُحبس في قمقم صغير ، وغدا الناس بحاجة إلى حاكم قادر ، إلى قائد بطل يحقّق الانتصارات ويفرض العدل والأمن ، يأخذ بيد الرخاء ، يحب الحياة لنفسه ويؤمّن رغد العيش للناس ، ورع يخاف الله ويطبّق شريعته . . . لقد باتوا يحنّون إلى خليفة قوي الشكيمة يلجم التجاوزات و«ينكب البرامكة» . وحين يعدم ضمير الشعب واقعاً يرضي ، يجد متنفّسه في خيال يسرح ويبني قصور الأحلام . هامت أحلام الناس تبحث في أمجاد الماضي فوجدت صورة الرشيد ، أرستها أقلام المؤرخين ، ووشّتها قصائد الشعراء ، فتلقّفتها وأحيتها خليفة نموذجاً : يحس آلام الناس ، يتفقد أحوال الرعية ، يحل مشاكل المحبين ، ويسطو على الظالمين . . . زيدت أشعار على الأشعار ، ووُضعت ظلال على الملامح ، نوّعت الألوان والأطر ، فارتسم الرشيد بطلاً شعبياً يتنقّل ، في العشايا ، بين كوخ ومنزل ، يعمل فيها عمل السحر . وتضاءلت ، تدريجاً ، شخصية الرشيد الحقيقية لتبقى ، في ذهن الناس ، شخصية نسجتها الأشعار والأحلام والأخبار . ألم تخلق أنشودة «رولان» وخيال الشعب شخصية البطل الأسطورة رولان» ؟[4] .

---

1 انظر «طبقات الشافعية الكبرى» ج 1 ص 206 وما بعد .

2 يقول عنه السيوطي : «كان أفضل رجال بني العباس حزماً وعزماً وعلماً وحلماً ورأياً ودهاء وهيبة وشجاعة وسؤدداً وسماحة . وله محاسن وسيرة طويلة لولا ما أتاه من محنة الناس في القول بخلق القرآن . ولم يلِ الخلافة ، من بني العباس ، أعلم منه . .» (تاريخ الخلفاء ص 306) .

3 يصفه السيوطي بأنه «كان ذا شجاعة وقوة وهمة ، وكان عرياً من العلم» . (المصدر نفسه ص 334) .

4 Lagarde et Michard, Moyen Age, p. 3 et 4.



فهرس الآيات القرآنية

السورة	رقم الآية	نص الآية	الصفحة
البقرة	282	﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم﴾ .	131
آل عمران	134	﴿والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين﴾ .	151
النساء	59	﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ .	606
النساء	74	﴿فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله ، فيُقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ .	346
النساء	172	﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ، ولا الملائكة المقرّبون﴾ .	376
الأنعام	8 ، 9	﴿ولو أنزلنا ملكاً لقضيَ الأمر ثم لا تنظرون ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ .	330
الأنعام	44	﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة﴾ .	209
الأنعام	96	﴿فالِقُ الإصباح ، وجعل الليل سكناً﴾ .	136
الأعراف	191	﴿أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون﴾ .	377
الأنفال	5 ، 6	﴿إن فريقاً من المؤمنين لكارهون . يجادلونك في الحق بعدما تبيّن ، كأنما يُساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾ .	378
الأنفال	75	﴿والذين آمنوا من بعدُ ، وهاجروا وجاهدوا معكم ، فأولئك منكم ، وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله . إن الله بكل شيء عليم﴾ .	333
الحجر	17 ، 18	﴿وحفظناها من كل شيطان رجيم ، إلا مَن استرق السمعَ فأتبعه شهاب مبين﴾ .	381

السورة	رقم الآية	نص الآية	الصفحة
مريم	91	﴿تكاد السموات يتفطرن منه وتنشقّ الأرض وتخرّ الجبال﴾.	136
المؤمنون	89	﴿وما كان معه من إله ، إذا لذهبَ كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض﴾ .	376
النور	55	﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض﴾ .	378
الشعراء	194	﴿وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين﴾ .	242
الشعراء	197	﴿أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني اسرائيل﴾ .	381
الشعراء	214	﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ .	332
الأحزاب	10 ، 11	﴿إذا جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوبُ الحناجرَ ، وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتُلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾ .	378
الأحزاب	25	﴿وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً﴾ .	379
الأحزاب	40	﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله﴾ .	331
الصافات	7	﴿وإنا زيّنا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظاً من كل شيطان مارد﴾ .	381
ص	11	﴿جند هنالك مهزوم من الأحزاب﴾ .	378
فصلت	33	﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾ .	374
الزخرف	38	﴿بُعد المشرقين﴾ .	139
الحجرات	14	﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون﴾ .	346
النجم	31	﴿ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى﴾ .	639
القمر	45	﴿سيُهزَم الجمع ويولّون الدُبُر﴾ .	379
الواقعة	11	﴿والسابقون السابقون ، أولئك المقرّبون﴾ .	157

السورة	رقم الآية	نص الآية	الصفحة
الطلاق	2	﴿وأشهدوا ذوي عدل منكم﴾ .	131
الملك	5	﴿ولقد زيّنا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾ .	381
الجن	8	﴿وإنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشُهباً﴾ .	381
الجن	9	﴿وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رَصَدا﴾ .	381
الجن	10	﴿وإنّا لا ندري أشرٌّ أريد بمن في الأرض ، أم أراد بهم ربُّهم رشداً﴾ .	381
الجن	15	﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حَطَباً﴾ .	209
المطففين	1	﴿ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون﴾ .	637
الأعلى	6	﴿سنقرئك فلا تنسى﴾ .	377
الضحى	4	﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ .	157

فهرس الأحاديث

الحديث	الصفحة
«إذا أراد الله بقوم خيراً استعمل عليهم الحلماء وجعل أموالهم في أيدي السمحاء» .	660
«إن أحبّ الناس إليّ ، وأقربهم مني مجلساً يوم القيامة إمامٌ عادل ، وإن أبغض الناس إليّ يوم القيامة ، وأشدهم عذاباً ، إمامٌ جائر» .	660
«إنما الإمام جُنّةٌ ، يقاتل من ورائه ويُتّقى به ، فإن أمر بتقوى الله وعدل فإن له بذلك أجراً ، وإن أتى بغيره فعليه إثمُه» .	679
«قدِّموا قريشاً ولا تَقَدَّموها ، وتعلموا منها ولا تعلِّموها فإن علم العالم منهم يسع طباق الأرض» .	261 ، 410
«لا تسبّوا الولاة فإنهم ،إن أحسنوا كان لهم الأجر وعليكم الشكر ، وإن أساؤوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر ، وإنما هم نقمة ينتقم الله بهم ممن يشاء ، فلا تستقبلوا نقمة الله بالحميّة والغضب ، واستقبلوها بالاستكانة والتضرع» .	679
«لا يشيب المؤمن في الاسلام إلا كان ذلك حجاباً له من النار» .	225
«من أحبهما (الحسن والحسين) فقد أحبني ، ومن أبغضهما فقد أبغضني» .	338
«من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن أطاع الإمام فقد أطاعني ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن عصى الإمام فقد عصاني» .	679
«من أكل ما سقط من الخوان فرُزق أولاداً كانوا صِباحاً» .	126
«نحن بنو النضر بن كنانة ، لا نقفو أمنا ولا ننتفي من أبينا» .	331
«نظفوا أفواهكم ، فإنها طريق القرآن» .	126

فهرس القوافي

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
		ـ ء ـ		
دع عنك	الداءُ	البسيط	أبو نواس	173
إذا ظُلَمُ	ضياءُ	الوافر	إبراهيم الموصلي	565
جاء البشير	العظماءِ	الكامل	إبراهيم بن سيّابة	395
عنناً	الظباءُ	الخفيف	الحارث بن حلزة	33
يا بني هاشمٍ	والرداءُ	الخفيف	أبو الشيص	262
إلى بيت	ثوائي	الطويل	أبو نواس	521
تبارك	الخلفاءِ	الطويل	أبو نواس	495 ، 682
إمام	مساءِ	الطويل	أبو نواس	685
لقد طال	عَنائي	الطويل	أبو نواس	518
أشمُّ	بِلِواءِ	الكامل	أبو نواس	647
فلما نظرت	دائِها	المتقارب	أشجع السلمي	673
نظرت	آرائها	المتقارب	أشجع السلمي	672
أبت طبرستان	أعضائِها	المتقارب	أشجع السلمي	295
بنفسكَ	بأفلائها	المتقارب	أشجع السلمي	249 ، 674
		ـ ب ـ		
قوداء	الأرانبْ	الكامل	ـ	176
يا أمين اللهِ	وأَدَبْ	الرمل	ـ	263
سلام على النازح	مكتْب	المتقارب	هارون الرشيد	413
سأسترُ	لا أُحِبْ	المتقارب	هارون الرشيد	413
أتاني	كلُّ العَجَبْ	المتقارب	أبو حفص الشطرنجي	202
أيا من	من يُحبْ	المتقارب	هارون الرشيد	202
إذا سُكبَ	مُذهبَا	الطويل	إبراهيم الموصلي	566

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
ما يُنكرُ	أربابا	البسيط	امرؤ القيس	221
يروح	العُرَبَا	مجزوء الوافر	علي بن الخليل	283
ومخنثٍ	منقّبا	الكامل	–	589
هارونُ	كَتَبَا	الرجز	العماني	89
جهدتُ	عَتْبُ	الطويل	أشجع السلمي	697
متى	الرحْبُ	الطويل	أشجع السلمي	526
وما زال	العذبُ	الطويل	أشجع السلمي	673
بثثتَ	دربُ	الطويل	أشجع السلمي	361 ، 362
تذكّر	يصبو	الطويل	أشجع السلمي	224 ، 514 ، 515
وما زلتَ	العَضْبُ	الطويل	أشجع السلمي	672
جمعتَ	رَكْبُ	الطويل	أشجع السلمي	688
إلى ملكٍ	سَكْبُ	الطويل	أشجع السلمي	653
لقد جُمعتْ	قلبُ	الطويل	أشجع السلمي	650
مللسَّوط	مُهْذَبُ	الطويل	امرؤ القيس	506
ألا أيها	الحبُّ	الطويل	جميل بثينة	173
ومن لذة	تعاتِبُهْ	الطويل	جميل بن بثينة	185
رِدِ الماءَ	مشاربُهْ	الطويل	جميل بثينة	160
هو الشمس	كواكبُ	الطويل	شاعر من كندة	234
وليس	كاسِبُهْ	الطويل	صالح بن عبد القدوس	297
جرى السيل	غُروبُ	الطويل	العباس بن الأحنف	159
لتَهْنِ	وَجوبُ	الطويل	أبو محمد اليزيدي	497
أثبني	كثيبُ	الطويل	اليزيدي	616
وكُومي	شَعُوبُ	الطويل	–	274
فإني	صواحِبُهْ	الطويل	–	175
فوالله	أراقبُهْ	الطويل	–	573
وحقيقٌ	أبُ	المديد	أبو العتاهية	331
خيرُ من	العَرَبُ	المديد	أبو العتاهية	681

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
لمياءُ	شنبُ	البسيط	ذو الرمة	217
أم هل طعائن	والشنبُ	البسيط	الكميت	217
قد فاضَ	حدبُ	البسيط	مروان بن أبي حفصة	63
أمست	أَرَبُ	البسيط	مروان بن أبي حفصة	66
ما بالكم	عُزُبُ	البسيط	نصر بن سيار	269
وأرسل	جديبُ	الوافر	ابن حبناء الأشجعي	33
فمهلاً	السرابُ	الوافر	أبومنيب الكليبي	273
العاشقان	متعتِّبُ	الكامل	العباس بن الأحنف	160
تلقى	تتصعَّبُ	الكامل	أبو نواس	120
وعاشقٍ	قلبُ	السريع	السيدة زبيدة	164
ما نقموا	غضبوا	المنسرح	جارية	213
ما ولدَتنا	أَرَبُ	المنسرح	كلثوم العتابي	257
إنما حبَّبَ	تستطيبُ	الخفيف	العباس بن الأحنف	469
سلا	تعجَبُ	المتقارب	عبد الله بن معاوية	529
وأُشرب	شاربِ	الطويل	أحد بني عذرة	227
كأن عيون	لم يُثَقَّبِ	الطويل	امرؤ القيس	231
ألم ترَيَاني	لم تَطَيَّبِ	الطويل	امرؤ القيس	235
ألم تعلموا	الكُتُبِ	الطويل	أبو طالب	485
أأبغي	الحبائبِ	الطويل	العباس بن الأحنف	93 ، 586
ومغتربٍ	على الحبِّ	الطويل	علية بنت المهدي	471
فأنزَلَ	المشاربِ	الطويل	كلثوم العتابي	537
وأشعثَ	السباسبِ	الطويل	العتابي	540
فها أنا	قاضِبِ	الطويل	كلثوم العتابي	541
فتىً	المخالبِ	الطويل	كلثوم العتابي	534
هو النفسُ	المطالِبِ	الطويل	العتابي	543
وتحت	الجوانبِ	الطويل	العتابي	542
حنانيكَ	بالمواهبِ	الطويل	العتابي	545

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
لعمرُك	المخضَّبِ	الطويل	مروان بن أبي حفصة	91 ، 512
تفاخرُ	والكعبِ	الطويل	أبو نواس	281
فإن يك	خصيبِ	الطويل	أبو نواس	237
أحين دنا	جانبِ	الطويل	–	150
جاؤوا	من نسبِ	البسيط	زياد بن ظبيان	564
تجري	شارِبِ	البسيط	مسلم بن الوليد	227
أمست بمروٍ	والقَربِ	البسيط	منصور النميري	478
الحمد لله	في العربِ	البسيط	أبو نواس	282
إذا نسبتَ	في النسبِ	البسيط	أبو نواس	284
محاسنُها	الخطوبِ	الوافر	إعرابية	573
وفي ذا راحةٌ	ودأبي	الوافر	أبو الشمقمق	438
غدا هارون	القِضابِ	الوافر	أبو العتاهية	357
ألا نادن	بالصوابِ	الوافر	أبو العتاهية	365
وما روّحتنا	الذئابِ	الوافر	أبو نواس	228
أتأمَلُ	ذهابِ	الوافر	–	225
فئتان	الخَطْبِ	الكامل	أشجع السلمي	270
يا آخذَ	الطَرَبِ	مجزوء الرجز	هارون الرشيد	109
يا من	رَطْبِ	السريع	إبراهيم بن المهدي	73
أشكو	الربِّ	السريع	أشجع السلمي	38
يا قمراً	أترابِ	السريع	أبو نواس	222
يبكي	بعنّابِ	السريع	أبو نواس	216
أعني	الصَّلْبِ	السريع	أبو الهول	300
إن ادّعاء	العَجَبِ	المنسرح	ابن مناذر	283
وكان مِنّا	مساريِها	المنسرح	أبو نواس	290
لستُ لدارٍ	حاصبِها	المنسرح	أبو نواس	261
كأنّ تشوّفه	ذي مخْلبِ	المتقارب	امرؤ القيس	232

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
	ـ ت ـ			
صُبَّ	زيتا	مجزوء الرمل	ـ	164
أجرى	المواتُ	مخلع البسيط	أشجع السلمي	587
مدحتكَ	جريتُ	الوافر	ربيعة الرقيّ	604
يقولون	ثنيتُ	الوافر	أبو الهيذام	273
يا قومُ	فاجعاتُهْ	مجزوء الكامل	عبد الله بن معاوية	579
كأن العطايا	مؤتلفاتِ	الطويل	أمامة بنت الجلاح	667
يا أحمد	السماواتِ	البسيط	أبو نواس	303
مَن رسولٌ	محكماتِ	الخفيف	كلثوم العتابي	257
حتى تُناخي	بالمهاباتِ	المنسرح	أبو العتاهية	675
يقول	مباراتي	المنسرح	أبو العتاهية	667
	ـ ث ـ			
وإذا شجوٌ	كلَّ بتّ	الرمل	هارون الرشيد	417
إنني وزعت	وخنُثْ	الرمل	هارون الرشيد	412
ان سحراً	وخنُث	الرمل	هارون الرشيد	413
لَجَّت بنقفور	قدْ عبثا	البسيط	الحجاج التيمي	358
كان الإمام	الذي ورِثا	البسيط	الحجاج التيمي	362
خان العهود	نكثا	البسيط	الحجاج التيمي	365
أعطيت	رعاثَهْ	مجزوء الكامل	أشجع السلمي	615
هب لي	ثلاثَهْ	مجزوء الكامل	ابن سيابة	439
أف للدنيا	والأثاثِ	مجزوء الرمل	هارون الرشيد	585
	ـ ج ـ			
ثم أراه	أحوجا	السريع	أشجع السلمي	587
وإن أمين الله	يرجو	الطويل	داود بن رزين	653
بهارون	النهجُ	الطويل	داود بن رزين	649
إن كانت	الحَرَجُ	البسيط	أبو محجن	563

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
حضر الرحيلُ	مِزعاجُ	الكامل	سلم الخاسر	466
إن المنايا	هيّاجُ	الكامل	سلم الخاسر	167
حضر الرحيلُ	مِزعاجُ	الكامل	مسلم بن الوليد	519
أنا التي	تغنُّجي	الرجز	جارية	157
لَدورُ أمسِ	ينعرجُ	مجزوء الرمل	أبان اللاحقي	327
وقد أغتدي	ضريجُ	الخفيف	أبو دواد الإيادي	216
إمام بذات الله	والحجِّ	الطويل	داود بن رزين	348
فتىً	المدجَّجِ	الطويل	–	258
ملكٌ	الوهاجِ	الكامل	أشجع السلمي	479
وأقبَّ	الفَرْجِ	الكامل	جرير	147
ثم أتْوهم	مُنضَجِ	الرجز	العُماني	89 ، 471

- ح -

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
ابن من	رَجَحْ	الرمل	أبو العتاهية	691
يا بني آدم	يُطَّرَحْ	الرمل	أبو العتاهية	496
لاح	ومَرَحْ	الرمل	أبو العتاهية	523
أبلغْ	فسيحُ	الكامل	أشجع السلمي	616
لا تبعثنّ	لا يفلحُ	الكامل	بكر بن النطاح	316
أية نار	المازحُ	الكامل	أبو نواس	305
كل نطّاحٍ	نطوحُ	الرمل	أبو العتاهية	635
خانك	الجَمُوحُ	مجزوء الرمل	أبو العتاهية	577
هيهاتِ	لِلمُدامِ	مخلع البسيط	منصور النمري	523
إني امرؤ	النواحي	مجزوء الكامل	الفضل بن الربيع	65
قد أرحنا	رواحِ	مجزوء الرمل	عبد الله بن المبارك	436
قنديل	أبي صالحِ	السريع	السيدة زبيدة	164
إن أولى	الصَدّاحِ	الخفيف	أبو نواس	36
أنا من	أرباحِ	الخفيف	أبان اللاحقي	614

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
		ـ د ـ		
أسهرني	كَمَدْ	مجزوء الرجز	أبو عيسى بن الرشيد	406
ليتني	زَرْدْ	مجزوء الرمل	أحد الأعراب	188
استقبلْ	الخلودْ	السريع	أشجع السلمي	102 ، 500
تمضي لك	عيدْ	السريع	أشجع السلمي	501 ، 502
تفاحة	بالفؤادْ	السريع	الخليفة المهدي	165
فتّشتُ	حامدْ	السريع	أبو العتاهية	84 ، 118
إن الفراغ	المساجدْ	المجتث	ـ	300
أذلت	مؤبّدا	الطويل	مروان بن أبي حفصة	504
فأطلعتها	مشرّدا	الطويل	مروان بن أبي حفصة	504
أقول	اطّرادا	الوافر	ـ	491
تأتيه	عتادَها	الكامل	عدي بن الرقاع	196
وأرى الغواني	الأمْرَدَا	الكامل	ـ	112
يجحدن	الرُّقّدا	الكامل	ـ	225
يا أيها	سعدا	مجزوء الكامل	عبد الملك بن صالح	482
وابلائي	بَعْدا	الرمل	أبو العتاهية	541
يا صديقي	وشِدَّهْ	مجزوء الرمل	أبو الشيص	612
لو تشكّى	العِيادَهْ	الخفيف	عبد الله البواب	38
لو تراني	أو قَتادَهْ	الخفيف	أبو نواس	306
فارعوى	زَهَادَهْ	الخفيف	أبو نواس	544
يا رشيد	الرَّشَدا	الخفيف	أبو العتاهية	542
أعِنِ	يَدَا	الخفيف	أبو العتاهية	544
الملك لله	بعدَه	المجتث	الجماز	206
أضاف	وحدَهُ	المتقارب	ـ	46 ، 59
بنيتُ	عودُها	الطويل	أعرابي	495
وأقلقني	تميدُ	الطويل	اليزيدي	32
إمام	عودُها	الطويل	كلثوم العتابي	640 ، 676

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
وقفتَ	مشرَّدُ	الطويل	مسلم بن الوليد	692
أرى قمري	ومحتِدُ	الطويل	ـ	72
بقردى	بَرودُ	الطويل	ـ	586
أحقٌّ	المُشيدُ	الوافر	أبو موسى التميمي	152
بنيتَ	عودُها	الكامل	أعرابي	189
يبدو	يُغمَرُ	الكامل	الطرماح	233
وببئر بدرٍ	ومحمدُ	الكامل	كعب بن مالك	222
بلغتَ	الجودُ	السريع	عمر بن سلمة	653
هارون	السودُ	السريع	عمر بن سلمة	646
قل للإمام	معقودُ	السريع	عمر بن سلمة	677
أيا عجباً	الجاحدُ	المتقارب	أبو العتاهية	219 ، 308
عزمتَ	ذي الحمدِ	الطويل	أبان اللاحقي	492
وما قصّرتْ	في المهدِ	الطويل	أبان اللاحقي	480
ووجهٍ	لم يتخرَّدِ	الطويل	طرفة بن العبد	234
جدودُهُمُ	سُعودِ	الطويل	أبو العتاهية	687
بنو المصطفى	قعودِ	الطويل	أبو العتاهية	495
وراعٍ	رَقودِ	الطويل	أبو العتاهية	665
تجافى	خلودِ	الطويل	أبو العتاهية	685
بألويةٍ	جنودِ	الطويل	أبو العتاهية	696
رحلتُ	وجنودِ	الطويل	أبو العتاهية	492 ، 494
أرى	ومحتِدِ	الطويل	الكسائي	192
تلومُ	وتالِدِ	الطويل	كلثوم العتابي	432
أخذن	مُهتدِ	الطويل	مسلم بن الوليد	525
وقاطعةٍ	مبْرَدِ	الطويل	مسلم بن الوليد	525
إليكَ	مُسَرَّدِ	الطويل	مسلم بن الوليد	526
إذا انجحروا	مُرصِدِ	الطويل	مسلم بن الوليد	672
بوجناء	المتوقِّدِ	الطويل	مسلم بن الوليد	524

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
خيالٌ	التجلُّدِ	الطويل	مسلم بن الوليد	521
إذا اختلفت	المهنَّدِ	الطويل	مسلم بن الوليد	668
تراءتْ	معهدِ	الطويل	مسلم بن الوليد	650
سأرحل	بحادِي	الطويل	أبوَ نواس	246
متى تلتقي	وادِ	الطويل	–	578
أقام	خالدِ	البسيط	سلم الخاسر	63
يا وادي	أو بادي	البسيط	العباس بن الحسن الطالبي	187
نفسي فداء	بالعَمَدِ	البسيط	علي بن جبلة	284
وأسلبت	بالبَرَدِ	البسيط	أبو الفرج الواوا	216
فلا بفرنّك	على أحدِ	البسيط	مسلم بن الوليد	431
من وحشٍ	الفَردِ	البسيط	النابغة الذبياني	233
أبقى ذفافةُ	الأبَدِ	البسيط	اليزيدي	258
ثلاث قد	ودادي	الوافر	هارون الرشيد	415
أما يكفيك	عبيدي	الوافر	هارون الرشيد	177 ، 419
وإنك لو	زيدي	الوافر	الرشيد	421
أُريدُ	مُرادِ	الوافر	–	76
نام الخَليُّ	وسادي	الكامل	الأسود بن يعفر	183
يسعى	الفِرصادِ	الكامل	الأسود بن يعفر	216
يا ابن الربيع	والبَدِي	الكامل	أشجع السلمي	62
لله درك	السؤددِ	الكامل	أبو الجنوب	480
بيضاءُ	مُبرَدِ	الكامل	محمد بن بشير الخارجي	107 ، 185
نظرت	العُوَّدِ	الكامل	النابغة	232
بكَرَتْ	تدري	الكامل	–	192
هارونُ	جودِ	مجزوء الكامل	عمر بن أبي العلاء	651
الناسُ	العودِ	مجزوء الكامل	ابن أبي العلاء	682
قَرّت	الرشيدِ	مجزوء الكامل	ابن أبي العلاء	472
بين المنابرِ	والنشيدِ	مجزوء الكامل	ابن أبي العلاء	499

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
قرت به	البعيدِ	مجزوء الكامل	عمر بن سلمة	648
فجئت	بسيرٍ أَدٍّ	الرجز	العُماني	525
لما قدمتَ	حَتْدِ	الرجز	العماني	651
لما خشيت	صلَّخدِ	الرجز	العماني	481
كأنما	المُرْدِ	الرجز	العماني	645
ويا ابن أشياخ	الرَّقْدِ	الرجز	العماني	678
لما قدمتَ	الجُندِ	الرجز	العماني	465
قل لمنْ	بصدِّهْ	مجزوء الرمل	أبو العتاهية	85 ، 561 ، 578
هدية	خدي	السريع	جارية	165
إن أمين الله	مولدِهْ	السريع	أبو العتاهية	467
يا طالب	حمّادِ	السريع	اليزيدي	32
إني لصبٌّ	من أَحَدِ	المنسرح	أبو نواس	306
يا بني	بالوليد	الخفيف	بكر بن النطاح	320
أيها المادحُ	العبادِ	الخفيف	السيد الحميري	434
إن بغداد	الصيّادِ	الخفيف	عبد الله بن المبارك	443
لو رأتني	وِسادي	الخفيف	كلثوم العتابي	529
إن عبد المجيد	بالمهدودِ	الخفيف	محمد بن مناذر	178
قد هاجت	وليدِهْ	المجتث	ـ	272
ولو عَنَّ	اليَدِ	المتقارب	امرؤ القيس	231

ـ ذ ـ

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
زاد	بغداذا	الخفيف	مطيع بن إياس	442

ـ ر ـ

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
أنت ربيعي	بَكَرْ	الرجز	العماني	616
صعباً	وقِرْ	الرجز	أبو نواس	70
وإذا الواشي	يَضُرّ	الرمل	ـ	274
ما رأينا	صَقْرْ	مجزوء الرمل	ـ	141

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
تفديك	فاغفِرْ	المنسرح	أبو العتاهية	533
يضطرب	فَكَّرْ	الخفيف	أبو العتاهية	82
أعِرْ شعرَكَ	الخَمْرا	الطويل	أبو نواس	289
وفتيان	ظُهرا	الطويل	أبو نواس	429
بلى والهدايا	حسيرا	الطويل	هارون الرشيد	208
سأبكيك	الوِترا	الطويل	أبو الهيذام	271
ألا يا أمير	كبيرا	الطويل	–	208
صاد	ما انبهرا	البسيط	أبو العتاهية	86 ، 506
إذا سقى	المَطَرَا	البسيط	النجاشي	571
وكنت	عارا	الوافر	جرير	701
أطنٌّ	حُرّا	الوافر	ابن أبي الشيص	441
إذا ما كنت	مفتخرا	مجزوء الوافر	أبو نواس	281
جنانٌ	بشرا	مجزوء الوافر	هارون الرشيد	203
يَزيدُك	نَظَرَا	مجزوء الوافر	العباس بن الأحنف	93 ، 203
ولّى الشبابُ	خِمارا	الكامل	أبو العتاهية	69
من كان	ذخائرَهُ	الكامل	أبو العتاهية	637
إن دنيا	سافِرَهْ	مجزوء الخفيف	الأصمعي	198
تقاضيتُ	معذِرهْ	المتقارب	هارون الرشيد	165
سرورك	تذكرَهْ	المتقارب	جارية	165
ألم تَرَ	نورُها	الطويل	إبراهيم الموصلي	565
بهارون	نورُها	الطويل	سلم الخاسر	680
وليس	أميرُها	الطويل	سلم الخاسر	669
ألا إن صفو	يُهجَرُ	الطويل	العباس بن الأحنف	586
أنا اليوم	يُبكرُ	الطويل	أبو العتاهية	541
تذكّرْ	تَذْكُرُ	الطويل	أبو العتاهية	537
إذا نُكب	تأثُرهْ	الطويل	أبو العتاهية	680
وأوسط	وآخِرُهْ	الطويل	أبو العتاهية	263

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
إمامٌ	ومصادرُهْ	الطويل	أبو العتاهية	670 ، 685
لتغمد	ناصرُهْ	الطويل	أبو العتاهية	696
ومن ذا يفوت	ينافِرُهْ	الطويل	أبو العتاهية	692
مما روضةٌ	عِرارُها	الطويل	كثيّر عزّة	235
ولا تحسبنّ	البِكرُ	الطويل	المتنبي	698
خلفتُ	جائرُ	الطويل	مروان بن أبي حفصة	669
وسُدَّتْ بهارون	المرائرُ	الطويل	مروان بن أبي حفصة	351
ليهنكم	المنابرُ	الطويل	مروان بن أبي حفصة	682
وما الناس	صادرُ	الطويل	مروان بن أبي حفصة	645
أمور بميراث	وناشرُ	الطويل	مروان بن أبي حفصة	334
فطوراً	المخاصرُ	الطويل	مروان بن أبي حفصة	669
لقد ترك	حاضرُ	الطويل	مروان بن أبي حفصة	350
إذا فقد	المواطرُ	الطويل	مروان بن أبي حفصة	652
وكل ملوك	صاغرُ	الطويل	مروان بن حفصة	351
على ثقةٍ	المسافرُ	الطويل	مروان بن أبي حفصة	263 ، 688
وما انفكّ	العساكرُ	الطويل	مروان بن أبي حفصة	350 ، 673
وزيرٌ	يَصدُرُ	الطويل	مروان بن أبي حفصة	60
وفُكّت	يزورُها	الطويل	مروان بن أبي حفصة	370
منيع الحمى	يسورُ	الطويل	منصور النمري	653
إذا الغيث	مَطيرُ	الطويل	منصور النمري	88 ، 652
إذا ما عدت	نظيرُ	الطويل	منصور النمري	681
لقد أوقدتْ	نارُها	الطويل	منصور النمري	274 وما بعد
فإن أميرَ	فخيارُها	الطويل	منصور النمري	62
تشكّى	أكثرُ	الطويل	أعرابي	573
رقيقُ	تطيرُ	الطويل	أعرابي	189
عسى وعسى	عثورُ	الطويل	–	66
وسربٍ	أواخرُهْ	الطويل	–	176

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
وضرب	تبورُها	الطويل	—	33
خف القطين	غِيَرُ	البسيط	الأخطل	217
شُمْسٌ	قَدِروا	البسيط	الأخطل	184 ، 196 ، 668
نادى	انتظروا	البسيط	جرير	217
خبز المعلم	والصورُ	البسيط	أبو الشمقمق	426
ماذا شجاك	الأعاصيرُ	البسيط	كلثوم العتابي	518
في عِترةٍ	المشاعيرُ	البسيط	كلثوم العتابي	678
نادتك	الخُورُ	البسيط	كلثوم العتابي	268
في ناظريَّ	تقصيرُ	البيسط	كلثوم العتابي	519
ماذا عسى	تطهيرُ	البسيط	العتّابي	697
علمتُ	تغويرُ	البسيط	العتابي	540
خليفة	ومختَبَرُ	البسيط	مسلم بن الوليد	57 ، 692
أمضى	يقتدِرُ	البسيط	مسلم بن الوليد	693
أظلَّهُمُ	القَدَرُ	البسيط	مسلم بن الوليد	644
لقد بعثتَ	لا تَذَرُ	البسيط	مسلم بن الوليد	673
تبكي	وَطَرُ	البسيط	مسلم بن الوليد	521
تلمظ السيف	تنتظرُ	البسيط	مسلم بن الوليد	299
يرميه	النُفُرُ	البسيط	مسلم بن الوليد	519
خلافة الله	الصورُ	البسيط	يزيد بن مزيد	212
كم بالدروب	قُبروا	البسيط	—	581
لكنّ ذنبي	أو نزارُ	مخلّع البسيط	ابن عنبسة	65
وقومٌ	نفيرُ	الوافر	سلم الخاسر	59
تتيهُ	الأميرُ	الوافر	أبو نواس	491 ، 494
لا تبعُدِ الأيام	نضيرُ	الكامل	أحمد بن سيار الجرجاني	225
ملكٌ	الأقدارُ	الكامل	أشجع السلمي	708
أتظن	حذارُ	الكامل	أشجع السلمي أو الهنازي	324
لا تَبعُدِ	نضيرُ	الكامل	الجرجاني	516

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
نقض الذي	تدورُ	الكامل	المكي ، الحجاج التيمي	358
اعطاك جزيته	محذورُ	الكامل	الحجاج التيمي	362
ملك تجرّد	مقهورُ	الكامل	الحجاج التيمي	347
فتح يزيد	المنصور	الكامل	الحجاج التيمي	364
نقفور	مغرور	الكامل	الحجاج التيمي	365
ليس الإمام	يديرُ	الكامل	الحجاج التيمي	366
لا نصح ينفع	مشكورُ	الكامل	الحجاج التيمي	366
يا من يريد	ضميرُ	الكامل	الحجاج التيمي	348
مَنْ ذا يُعيرك	تُعارُ	الكامل	العباس بن الأحنف	93 ، 112 ، 122
أين الملوك	صائِرُهُ	الكامل	أبو العتاهية	636
مُضنٍ	يطيرُ	الكامل	منصور النمري	87 ، 351
هارون	الغابرُ	الكامل	أبو نواس	473 ، 682
إن العيون	ناظرُ	الكامل	أبو نواس	674
في بلدةٍ	وقارُ	الرجز	العماني	443
لا يستوي منعّم	حمارُ	الرجز	العماني	438
لما أتانا	يُبصرُ	الرجز	العماني	89 ، 484
المؤمنُ	المُظَفَّرُ	الرجز	العُماني	685
يا أيها	الموَقَّرُ	الرجز	العماني	709
أنا التي	يُنثَرُ	الرجز	جارية	157
يا ناظراً	جبرُ	السريع	أبو نواس	303
لو أن ذكر	ذاكِرُهُ	السريع	ـ	635
كذلك البِكرُ	الخَفرُ	المنسرح	أبو نواس	207
وقهوةٍ	شَرَرُ	المنسرح	هارون الرشيد	207
حُبس	يُسَرُّ	الخفيف	أبو العتاهية	564
إن يوم	نصيرُ	الخفيف	أبو العتاهية	307
أيكُم حاط	الدارُ	الخفيف	مسلم بن الوليد	255
إذا قيل	جعفرُ	المتقارب	الأصمعي	68

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
سل الراكبَ	أعْوَرِ	الطويل	أشجع السلمي	588
تناولت	أثر الخضرِ	الطويل	ابن جامع	359
زوّدتُهُ	الدهرِ	الطويل	أبو دلف العجلي	36
أرى	غيرَ كثيرِ	الطويل	سلم الخاسر	614
تنعم قوم	بالخمرِ	الطويل	عبد الله بن المبارك	449
رأت رجلاً	فيخصَرُ	الطويل	عمر بن أبي ربيعة	458
أتانا	منظرِ	الطويل	محمد بن مُناذر	61
فما زلت	السحرِ	الطويل	أبو نواس	422
وإني لأستحيي	بالهجرِ	الطويل	أعرابي	177
خشيت	الهجرِ	الطويل	أعرابي	177
رأي	يستقرِي	الطويل	–	16
غصبَ	دُرَرِهْ	المديد	صالح بن عبد القدوس	191 ، 296
قبران	العِبَرِ	البسيط	دعبل الخزاعي	603
وليس حيّ	من مُضَرِ	البسيط	دعبل الخزاعي	340
هوت هرَقلة	والنار	البسيط	عبد الله بن محمد المكي	367
اشرب وغنِّ	ابن منصورِ	البسيط	علية بنت المهدي	471
واستعجمت	أخبارِ	البسيط	النابغة	29
لهفي	والخَطَرِ	البسيط	منصور النمري	260
أجاعل	المطرِ	البسيط	الورك الطائي	175
ومن يطلب	الثفورِ	الوافر	أبو المعالي الكلابي	347
وما لبني	الزبورِ	الوافر	منصور النمري	181
بني حسنٍ	من الأمورِ	الوافر	منصور النمري	88 ، 335
ألا لله درُّ	كبيرِ	الوافر	منصور النمري	331
أحين شفوكم	وثيرِ	الوافر	منصور النمري	337
بخوصٍ	الهجيرِ	الوافر	منصور النمري	525
إلى من	المشيرِ	الوافر	النمري	651
أمير المؤمنين	شطيرِ	الوافر	منصور النمري	180

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
مَنْنتَ على	على شفيرِ	الوافر	منصور النمري	329
وإنك	الضمير	الوافر	منصور النمري	263 ، 323
حملن	المنيرِ	الوافر	منصور النمري	527
ثكلتك	النجّارِ	الكامل	أحد الأنصار	255
قلتُ : النبيذُ	بِشِرارِ	الكامل	أبو نواس	302
دع ذا	الحَضْرِ	الكامل	زهير بن أبي سلمى	642
قل للمنازل	المُمطِرِ	الكامل	سلم الخاسر	492
قد بايع	جعفرِ	الكامل	سلم الخاسر	480
وليته	المُنكرِ	الكامل	سلم الخاسر	492
قد وفّق	الأزهرِ	الكامل	سلم الخاسر	493
ولقد حُبيتُ	وزيرِ	الكامل	مروان بن أبي حفصة	619
ما جاءني	في نارِ	الكامل	أبو نواس	303
وملَّحةٍ	الشُطّارِ	الكامل	أبو نواس	302
يقولون	غيرُ وقارِ	الكامل	أبو نواس	225
جارى	الحَضْرِ	مجزوء الكامل	الخنساء	507
عش	القصورِ	مجزوء الكامل	أبو العتاهية	636
لهفي	السديرِ	مجزوء الكامل	أبو العتاهية	82 ، 429
اسمعْ	الأنباري	مجزوء الرجز	إسحاق الموصلي	569
قوموا	العذارِي	مجزوء الرجز	ابن مناذر	30
أنا الوليدُ	بناري	الرجز	الوليد بن طريف	316
كُلْ من	الشعيرِ	مجزوء الرمل	عبد الله بن المبارك	627
كلما قلنا	بِيُسْرِ	الرمل	علي بن عبيد الله الطبيب	339
كم من فتىً	من عيرِ	السريع	أبو الشمقمق	441
مناي	غيري	السريع	أبو الشمقمق	454
إن لهارون	من برٍّ	السريع	منصور النمري	181
يريش	يبري	السريع	منصور النمري	181 ، 693
كأنما البدر	صخرِ	السريع	منصور النمري	646

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
أقول	صدري	السريع	هارون الرشيد	585
الحمد لله	زواري	المنسرح	أبو نواس	445
أسأل	وسرورِ	الخفيف	العباس بن الأحنف	470
إنما الدنيا	مُحْتَضَرِهْ	الخفيف	علي بن جبلة	36
أيها المدعي	ظُفرِ	الخفيف	أبو نواس	283

ـ ز ـ

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
ألا إن حزب	المُتَحرِّزِ	الطويل	أبو العتاهية	295
أبى الله	المُتعزِّزِ	الطويل	أبو العتاهية	686
رأيت الدين	بشبدازِ	الهزج	إبراهيم الموصلي	348
إن قلبي	الجوازي	الخفيف	إسحاق الموصلي	568
أخذتْ	والإعوازِ	الخفيف	أبو الشمقمق	443
ما أراني	الأهوازِ	الخفيف	أبو الشمقمق	443

ـ س ـ

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
ألا إنّ	ومَلبَسَا	الطويل	امروء القيس	224
إذا ما شئتَ	الناسا	الهزج	العباس بن الأحنف	199
كأن عتّابة	قُسَّها	السريع	أبو العتاهية	229 ، 307
نحن صورٌ	مقدسَه	مجزوء الخفيف	ـ	158
أرقتُ	يُواسُوا	الوافر	العتابي	540
أمين الله	باسُ	الوافر	أبو العتاهية	541
كانَ الخلق	راسُ	الوافر	أبو العتاهية	535 ، 536
فوق النجوم	الغَرْسُ	الكامل	علي بن الخليل	645
والشيبُ	متنفَّسُ	الكامل	ـ	224
هارون بدرٌ	شمسُ	السريع	مسلم بن الوليد	262
وكنّا	القلانسِ	الطويل	أبو دلامة	105
لا تأمن	الحَرَسِ	البسيط	أبو العتاهية	635
قصور	عُرْسِ	الوافر	أشجع السلمي	587

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
رأيتكَ	منكَ أمسِ	الوافر	أعشى همدان	226
ذهبت	الشمسِ	الكامل	أشجع السلمي	587
إني التجأت	لَبسِ	الكامل	علي بن الخليل	543
عليه لربه	اللُّبْسِ	الكامل	علي بن الخليل	683
من عِترةٍ	القُدْسِ	الكامل	علي بن الخليل	644
تحكي	العُرسِ	الكامل	علي بن الخليل	684
إن هاجني	نُرسي	الكامل	علي بن الخليل	534 ، 541
لله هارونُ	النفْسِ	الكامل	علي بن الخليل	670
يا خير من	جَلسِ	الكامل	علي بن الخليل	301
خير البريةِ	أمسِ	الكامل	علي بن الخليل	681
لما رأتك	الشمسِ	الكامل	علي بن الخليل	649
ما ذاك	الإنس	الكامل	علي بن الخليل	520
لما استخرتُ	العَنْسِ	الكامل	علي بن الخليل	540
رفعتْ	مجلسي	الكامل	مسلم بن الوليد	254
تجري	في النفس	السريع	اسقف نجران	227
والشيخ	رمسِهِ	السريع	صالح بن عبد القدوس	296
يا أخت هارون	الحَدْسِ	السريع	مسلم بن الوليد	582
والشيخ	رمسِه	الخفيف	صالح بن عبد القدوس	191
ثلاث عيون	أملسِ	المتقارب	إبراهيم بن المهدي	401
وكَمْ قَدْ	للمجلسِ	المتقارب	أبو نواس	430

ـ ص ـ

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
لقد ضاع	خالصة	المتقارب	أبو نواس	211

ـ ض ـ

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
صحا	خفيضُ	الطويل	العديل بن الفرخ العجلي	108
فإن يُقضَ	والغَرْضِ	الطويل	منصور الأصبهاني	431

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
		ـ ظ ـ		
وإني	حافظُ	الطويل	عبد الله بن مصعب	152
		ـ ع ـ		
لساني	مذيعْ	المتقارب	هارون الرشيد	414
وأذكر	تصدَّعَا	الطويل	ابن الدمينة	228
ألا يا عتبة	الساعَهْ	الرجز	أبو العتاهية	178
يا ابن عمّ	الدّراعَهْ	الخفيف	أبو العتاهية	83 ، 542
يا خليلي	البَقيعا	الخفيف	عمر بن أبي ربيعة	578
ليت هشاماً	أترِعا	السريع	الوليد بن يزيد	90
وذات	جَذَعا	المنسرح	أوس بن حجر	33 ، 73
يا أيها الناس	كَرَعَا	المنسرح	عبد الله بن المبارك	436
وإني	لجزوعُ	الطويل	عروة بن الورد	175
فما لامرىءٍ	المَطالِعُ	الطويل	علي بن جبلة	233
ولما غدت	يُمنعُ	الطويل	المزرد بن ضرار	571
تعجبتْ	وَجعُ	الطويل	منصور النمري	522
فإنك كالليل	واسعٌ	الطويل	النابغة الذبياني	226 ، 233
أخذنا	الطوالعُ	الطويل	الفرزدق	139
لعُمرك	صنائعُ	الطويل	التميمي	63 ، 68
ألا إنما	مُريعُ	الطويل	التميمي	68
ينام	هاجعُ	الطويل	ـ	228
ثم استقاها	جَدِعُ	البسيط	ابن زبيد	33
ما تنقضي	يَرتَجعُ	البسيط	منصور النمري	87 ، 95 ، 224 ، 523
يا أيها الناسُ	البِدَعُ	البسيط	منصور النمري	330
ركب من النمر	الجَذَعُ	البسيط	منصور النمري	268
يُقري	تُرَعُ	البسيط	منصور النمري	668
إن الخليفة	تُرَعُ	البسيط	منصور النمري	674

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
إن الخلافة	متَّسَعُ	البسيط	منصور النمري	335
إن أخلف	فيتسعُ	البسيط	منصور النمري	635
لولا عديّ	ترتَضِعُ	البسيط	منصور النمري	329
إذا رفعتَ	متَّضِعُ	البسيط	منصور النمري	687
قد كدتَ	منقطِعُ	البسيط	منصور النمري	225
أي امريء	ينتفعُ	البسيط	منصور النمري	44
من لم يكن	ينتفعُ	البسيط	منصور النمري	710
يا ابن الأئمةِ	دفعوا	البسيط	منصور النمري	337
مستحكمُ	مضطلعُ	البسيط	منصور النمري	672
خليفة الله	تجتمعُ	البسيط	منصور النمري	651
إن المكارم	تجتمعُ	البسيط	منصور النمري	669
لما أخذتُ	مُمْتَنِعُ	البسيط	منصور النمري	535 ، 680
عند الملوك	تنفعُ	الكامل	نصيب الأصغر	63
وإذا المنية	لا تنفعُ	الكامل	ـ	151
يحبُّ	يصنعُ	المتقارب	أشجع السلمي	63
أضاعكَ	ضيّعوا	المتقارب	ليلى بنت طريف	317
أشدُّ من	خضوعِ	مخلع البسيط	محمد بن حازم الباهلي	435
حاز الخلافةَ	طائعِ	الكامل	حمزة بن بيض	108
أين الرياحيون	وكيعِ	الكامل	ابن مناذر	37

ـ ف ـ

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
طاف الهوى	وَقَفَا	البسيط	العباس بن الأحنف	177
إن أمير المؤمنين	صَفْصَفَا	الرجز	أشجع السلمي	350
كأن أذنيه	محرّفا	الرجز	العماني	237
ولَجَّ	تألفُ	الطويل	الفرزدق	35
ما مسلم	يوصفُ	السريع	ـ	158
تبلٍّ	مُنيفِ	الطويل	ليلى بنت طريف	317
وغريمُ	الصروفِ	مجزوء الكامل	مسلّل	671

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
لحظات طرفك	السيوفِ	مجزوء الكامل	مسلّل	468 ، 674
وسيولُ	الضعيفِ	مجزوء الكامل	مسلّل مجنون	652

ـ ق ـ

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
يا أيها النفر	دابقْ	مجزوء الكامل	ـ	371
لم يزل هارون	خلقْ	الرمل	أبو العتاهية	690 ، 708
علِقَ	عَلِقْ	الرمل	أبو العتاهية	537
أرقتُ	خلِقا	البسيط	خالد بن يزيد	103 ، 563
قال لي أحمد	حَقّا	الخفيف	أبو العتاهية	229
بتنا وبانت	أرقَهْ	المنسرح	عبيد بن الأبرص	580
قد جعل	طُرُقا	البسيط	زهير بن أبي سلمى	645
رَعَوا	الخُلُقُ	البسيط	حفيد زهير بن أبي سلمى	619
هذا زمان	يتصدَّقُ	الكامل	أبو العتاهية	85
يحميك	مُشرِقُ	الكامل	أبو نواس	648
ليس للإنسان	أثقُ	الرمل	أبو العتاهية	118
أُحرَم	عشِقوا	المنسرح	العباس بن الأحنف	229
فرُحنا	ترتقي	الطويل	امروء القيس	170 ، 232
بيعة المأمون	أفقِهْ	المديد	أشجع السلمي	492 ، 497
وله من وجهِ	خُلُقِهْ	المديد	أشجع السلمي	491
أحكمتَ	نَفَقِهْ	مخلع البسيط	أشجع السلمي	493
لقد دبَّ	العروقِ	الوافر	عمر بن أبي ربيعة	227
يجلو	غير مخرَّقِ	الكامل	أبو نواس	527
واللهِ	فاسِقِ	الكامل	أبو نواس	304
حتى إذا	المنطِقِ	الكامل	أبو نواس	672
لقد اتقيتَ	المتَّقي	الكامل	أبونواس	686
يلقى	الموفَّقِ	الكامل	أبو نواس	348
وأخفتَ	تُخلَقِ	الكامل	أبو نواس	694
خنساء	كالأوْلَقِ	الكامل	أبو نواس	524

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
ملك	المتذوِّقِ	الكامل	أبو نواس	666
إنا إليك	الأيْنُقِ	الكامل	أبو نواس	526
فشفاء	الفراقِ	مجزوء الكامل	الهيصم اليماني	322
يا عربياً	تشقيقِ	السريع	أبو نواس	282
ومن له إرث	عن حقِهِ	السريع	ـ	337
أحقٌ	خلقِهِ	السريع	اليزيدي	617
صورةٌ	رشيقِ	الخفيف	علي محمود طه	625
بينما المرء	واتفاقِ	الخفيف	كلثوم العتابي	430

ـ ك ـ

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
إن المليك	جمالكْ	مجزوء الكامل	أبو العتاهية	307
إنما الفضل	دَرَكْ	الرمل	أبو العتاهية	62
قل لمنْ	مُلِكْ	مجزوء الخفيف	الرشيد	419
ألا قل لمروان	لقائِكا	الطويل	سلم الخاسر	428
أسلم بن عمرو	ردائِكا	الطويل	مروان بن أبي حفصة	428
هارون	عصاكا	مخلع البسيط	منصور النمري	536 ، 710
بأبي	أزكاكا	الكامل	مسلم بن الوليد	670
واللهِ	سواكا	الكامل	مسلم بن الوليد	682
الله هوّن	إليكا	مجزوء الكامل	أبو العتاهية	424
ألا يا طالب	لِشانِيكا	الهزج	سعدون	635
هب الدنيا	يأتيكا	الهزج	سعدون المجنون	636
كم رأينا	مُلِّكوا	الرمل	مسلم بن الوليد	431
لم ينلك	سواكا	الخفيف	الأصمعي	204
يا غياث	إلا رضاكَ	الخفيف	جارية	156
كنت في	جفاكا	الخفيف	عنان	204
مجلس	ذكراكا	الخفيف	أبو حفص الشطرنجي	204
فبيتكِ	جارِكِ	الطويل	إسحاق الموصلي	567
إن أبا سفيان	حُوارِكِ	الطويل	أبو زياد الكلابي	567

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
شددتَ	التركِ	الطويل	أبو الشيص	368
يا من	فَرَماكِ	الكامل	العباس بن الأحنف	585
يا ربَّةَ	والمُلكِ	السريع	الرشيد	418
ما اختلف	الفلكِ	المنسرح	أبو العتاهية	85
إذا ذُكر	برمَكِ	المتقارب	الأصمعي	68

- ل -

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
نبطيٌّ	أَجَلْ	الوافر	الفضل الرقاشي	283
منفصلٌ عني	منفصلْ	مجزوء الرجز	علية بنت المهدي	399
قد قلت	الأوَلْ	الرجز	-	174
ورفعك	والذُلاّ	الطويل	-	151
وكنتم	جماها	الطويل	-	20
كأنه	خَجَلا	البسيط	إسحاق الموصلي	44
ألم ترَ	نالا	البسيط	أبو العتاهية	449
كأنه	الغُسُلا	البسيط	جارية	44
قد قيل ذلك	قيلا	البسيط	-	442
نفحتَ	سجالا	الوافر	مروان بن أبي حفصة	605
كأن الشمس	جلالا	الوافر	مروان بن أبي حفصة	152
وقلنا	نوالا	الوافر	مروان بن أبي حفصة	52 ، 512
وعُذْ	سؤالا	الوافر	منصور النمري	652
إذا اعتاص	مَقَالا	الوافر	منصور النمري	86
فِناءٌ	مالا	الوافر	منصور النمري	614
وقلنا	نَوَالا	الهزج	مروان بن أبي حفصة	63
طرقتك	دلالها	الكامل	أشجع بن عمرو السلمي	350
قتلوا	مخذولا	الكامل	الراعي	142
لو قيل	قالها	الكامل	ربيعة الرقي	604
تفديك	عديلا	الكامل	علية بنت المهدي	582
شهدت من الأنفال	إبطالها	الكامل	مروان بن أبي حفصة	333

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
طرقتْك	دلالها	الكامل	مروان بن أبي حفصة	91
بعثتُ الرسولَ	جميلا	المتقارب	احدى الجواري	405
ذل الحياة	وبيلا	المتقارب	الإمام الشافعي	193
أتته الخلافة	أذيالها	المتقارب	مروان بن أبي حفصة	338
وآمره	سبيلُ	الطويل	إسحاق الموصلي	79 ، 154
وكيف أخاف	جميلُ	الطويل	إسحاق الموصلي	654
وإني لأرجوه	وابِلُهْ	الطويل	الحطيئة	445
تراه	سائلُهْ	الطويل	زهير بن أبي سلمى	621
تخلصتُ	حالُ	الطويل	العباس بن الأحنف	404
جعلناك	الجلائلُ	الطويل	العتابي	545
أيا سروةَ	سبيلُ	الطويل	علية بنت المهدي	409
وأنت	بلابلُ	الطويل	كلثوم العتابي	650
تشابه	أفضلُ	الطويل	مروان بن أبي حفصة	668
ليحيا بك	كهلُ	الطويل	مروان بن أبي حفصة	59 ، 466 ، 503
أمَرُّ	نائلُهْ	الطويل	مروان بن أبي حفصة	668
فإن طليقَ	قاتلُهْ	الطويل	مروان بن أبي حفصة	687
وإنك	مفاصلُهْ	الطويل	مروان بن أبي حفصة	686
صحا	باطلُهْ	الطويل	مروان بن أبي حفصة	523
تَروكُ	حاملُهْ	الطويل	مروان بن أبي حفصة	670
أبوك	بَعْلُ	الطويل	مسلم بن الوليد	277
وأنت	بلابلُ	الطويل	منصور النمري	536
لنا منك	والقنابلُ	الطويل	منصور النمري	536
وما يحفظ	واصلُ	الطويل	منصور النمري	650
يجرّدُ	مخاملُ	الطويل	منصور النمري	266
وقد علم	مُزايلُ	الطويل	منصور النمري	267 ، 670
على أرحبيات	تُرحَلُ	الطويل	نصيب الأصغر	525
أمين أجل	مسلسَلُ	الطويل	نصيب الأصغر	518

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
ورثتَ	مِفْصَلُ	الطويل	نصيب الأصغر	678
لئن نال	أفضلُ	الطويل	نصيب الأصغر	683
شريكان	يغفلُ	الطويل	نصيب الأصغر	650
إلى ملك	صيقلُ	الطويل	نصيب الأصغر	648
على ثقةٍ	نؤمِّلُ	الطويل	نصيب الأصغر	666
قصدنا	مجهلُ	الطويل	نصيب الأصغر	526
فما فات	أولُ	الطويل	نصيب الأصغر	671
أفي عامرٍ	والكَبْلُ	الطويل	أبو الهيذام	273
فهل نحن	العدلُ	الطويل	أبو الهيذام	543
أريد	ثقيلُ	الطويل	يحيى بن طالب الحنفي	700
سنقطع	تَبَدَّلُ	الطويل	–	151
إذا انصرفت	تُقبلُ	الطويل	–	151
ومنحدرٍ	مزايلُ	الطويل	–	176
هل دهرُنا	المُبطِلُ	البسيط	إبراهيم الموصلي	538
استفسد	محتَمِلُ	البسيط	مسلم بن الوليد	279
إن الملوكَ	ظلٌّ	البسيط	–	431
أمازحُها	جميلُ	الوافر	المتوكل	416
أذلني	سبيلُ	الوافر	–	34
اتيتك	الحِيَلُ	مجزوء الوافر	اليزيدي	500
هل دهرنا	المُبطِلُ	الكامل	إبراهيم الموصلي	565
يا بؤس	يعقلُ	الكامل	إبراهيم الموصلي	541
بنو مطرٍ	أشبلُ	الكامل	مروان بن أبي حفصة	238
شغلتّكَ	شُغْلُ	الكامل	هارون الرشيد	416
فلقلبها	جهلُ	الكامل	هارون الرشيد	417
إن الرغيف	جميلُ	مجزوء الكامل	أبو المخفّف	439
لما التقي	نهالها	الكامل	–	647
لا قصّرا	طِوالُها	الكامل	–	496

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
الطاعنُ	الناهلُ	السريع	النابغة الذبياني	667
اغثني	الأزَلُ	الخفيف	عامر بن عمارة	545
كأن قلوب	البالي	الطويل	امروء القيس	186 ، 231
سَمَوتُ	على حالِ	الطويل	امروء القيس	231
وما ذرفتْ	مقتلِ	الطويل	امروء القيس	222
فإن يكُ	وائلِ	الطويل	بكر بن النطاح	264
إذا ما	بالكحلِ	الطويل	جميل بثينة	563
كفى الله	بخيلِ	الطويل	حفص بن مسلم	504
وأبيض	للأراملِ	الطويل	أبو طالب	695
أديرا	ذَحلي	الطويل	مسلم بن الوليد	91 ، 153 ، 513
سأبغي	سبيلِ	الطويل	أبو نواس	440 ، 603
وإني لعفٌّ	شكلي	الطويل	–	192
ولو قنعتُ	كثرةُ المالِ	البسيط	كلثوم العتابي	431
ما زلتُ	حِيَلي	البسيط	كلثوم العتابي	71
والمارقُ	هَطِلِ	البسيط	مسلم بن الوليد	318
ومن يغرف	الضلالِ	الوافر	النابغة الذبياني	537
يُغشَون	المقبلِ	الكامل	حسان بن ثابت	222
قف	منزل	الكامل	–	574
وصل الملوك	الحالِ	مجزوء الكامل	محمد بن حازم الباهلي	435
قلتُ	الموالي	مجزوء الرمل	أبو نواس	282
لخير عباس	العائِلِ	السريع	سلم الخاسر	494
بايع	الفاضلِ	السريع	سلم الخاسر	420
فتمّ	عن الجاهلِ	السريع	سلم الخاسر	481 ، 492
إن الكسائي	أسفلِ	السريع	اليزيدي	32
كنا نقيس	الأوَّلِ	السريع	أبو محمد اليزيدي	145
إلا مساعير	الذابلِ	المنسرح	منصور النمري	96
تقتلُ	للقاتلِ	المنسرح	منصور النمري	340

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
وقد زعموا	شكلِهِ	المتقارب	أبو الشمقمق	309
- م -				
وجُبْتُ	أوريشلم	المتقارب	الأعشى (بكر)	613
ويخطو	عَمَمْ	المتقارب	العماني	647
جهير	النَغَمْ	المتقارب	العماني	648
إذا تمّ	تَمْ	المتقارب	_	209
لقد بان	أجزما	الطويل	الرشيد	490
فلولا دخول	مريَمَا	الطويل	أبو نواس	304
سلّ الخليفةُ	والهاما	البسيط	مسلم بن الوليد	319
وأعطيتُ	اللِّجاما	الوافر	نصيب	615
أهدى الحبيبُ	سلاما	الكامل	هارون الرشيد	202 ، 415
أيا من ردّ	اليوما	هزج	هارون الرشيد	418
لو علمَ	أجمعُهُمْ	المنسرح	أبو العتاهية	691
لو توجعتَ	القيامةْ	الخفيف	أبو العتاهية	544
قيلَ لي	عَلامةْ	الخفيف	أبو العتاهية	541
إنما أنت	وكرامةْ	الخفيف	أبو العتاهية	536
يا خليلَيَّ	فأقيما	الخفيف	أبو نواس	120
وصلتْ	الأقدامُ	الطويل	أشجع السلمي	673
ألا ليتني	كلامُها	الطويل	جميل بثينة	177
ولو أن يومَ	مُعدمُ	الطويل	الحسين بن مطير	327
رأى الله	أعلمُ	الطويل	أبو قابوس الحيري	327
له يومُ	أنعُمُ	الطويل	أبو قابوس	667
وكم نعمةٍ	يَذيمُها	الطويل	كلثوم العتابي	538 ، 539
إذا شئتَ	حاتمُ	الطويل	_	80
قلّد	لا بَرَمُ	البسيط	هارون الرشيد	475 ، 482
مورَّثَ	سَأَمُ	البسيط	زهير بن أبي سلمى	644
ألا يا أيها	تَحومُ	الوافر	أبو العتاهية	536

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
أما والله	الظلومُ	الوافر	أبو العتاهية	539
وخلصني	الجحيمُ	الوافر	أبو العتاهية	544
أمين الله	الهُمامُ	الوافر	أبو قابوس الحيري	534
تكلّم	السلامُ	الوافر	المأمون	404
أدناك	الأرحامُ	الكامل	أشجع السلمي	677
تثني	الإحرامُ	الكامل	أشجع السلمي	684
كانت كنوز	عَزّامُ	الكامل	أشجع السلمي	672
وعلى عدوّك	والإظلامُ	الكامل	أشجع السلمي	225 ، 694
برقت	غمامُ	الكامل	أشجع السلمي	674
قصرٌ	الأيامُ	الكامل	أشجع السلمي	259
قصرٌ عليه	الأيامُ	الكامل	مروان بن أبي حفصة	400
لو أن جعفر	مُلجَمُ	الكامل	هارون الرشيد	411
ولقد	نسيمُ	الكامل	أبو العتاهية	617
قلتُ	نيامُ	مجزوء الرمل	أبو نواس	548
أحسنُ	راحمُ	السريع	هارن الرشيد	414
لو شئتُ	لازمُ	السريع	هارون الرشيد	417
أحببته	عالمُ	السريع	هارون الرشيد	416
ظلمتني	الحاكمُ	السريع	ـ	158
فإني لأرضى	هاشمِ	الطويل	جرير	647
ألا امثِل	مُجرِمِ	الطويل	الحكم بن قنبر	217
وإنّ قريشاً	وأعجمِ	الطويل	الحكم بن قنبر	264
وسُمّوا به	المذمَّمِ	الطويل	الحكم بن قنبر	255
وما كان لي	مأتمِ	الطويل	ذو الرمة	434 ، 619
لشتان ما	حاتِمِ	الطويل	ربيعة الرقي	150
صبرتُ	رغمي	الطويل	أبو العتاهية	542
ظفرت	بين هاشم	الطويل	مروان بن أبي حفصة	61 ، 328
وما زال	المساهِمِ	الطويل	مروان بن أبي حفصة	329

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
دعوتَ	يتجشَّمِ	الطويل	مسلم بن الوليد	256
دعوتَ	يتجشَّمِ	الطويل	مسلم بن الوليد	256
كنانية الأطراف	الفمِ	الطويل	الأصمعي	198
وإن الذي	أُرْقَمِ	الطويل	مسلم بن الوليد	256
فاسقني البكر	في الرحمِ	المديد	أبو نواس	238
رأيتُ	بمُعتامِ	البسيط	أعرابي	102
ما استُودِع	تُحامي	مخلع البسيط	منصور النمري	680
يؤنَس	الحسامِ	مخلع البسيط	منصور النمري	670
يا زائرينا	بالسلامِ	مخلع البسيط	منصور النمري	521
بورك	اعتصامِ	مخلع البسيط	منصور النمري	684
له إلى ذي الجلال	إمامِ	مخلع البسيط	منصور النمري	686 ، 709
يسعى	الحِمامِ	مخلع البسيط	منصور النمري	666
يا خير ماض	الأنامِ	مخلع البسيط	منصور النمري	681
سأشكر	الحِمامِ	الوافر	أبو العتاهية	261
من مبلغٌ	هَمامِ	الكامل	إسحاق الخريمي	272
من مُبلغٌ	هَمهامِ	الكامل	إسحاق الخريمي	61
أسعد بدمعك	سقامِ	الكامل	إسحاق الموصلي	470
أدْنَتْكَ من	الأرحامِ	الكامل	أشجع السلمي	331
ولقد طعنت	كالأنجُمِ	الكامل	أشجع السلمي	230
لِم لا يكون	الأعمامِ	الكامل	جعفر بن عفان الطائي	335
للحمدِ	مكارِمِ	الكامل	عدي بن الرقاع	197
وكأنها	جاسمِ	الكامل	عدي بن الرقاع	232
بطل	بتوأمِ	الكامل	عنترة	647
وارضَوا	حامِ	الكامل	مروان بن أبي حفصة	180
خلّوا	زحامِ	الكامل	مروان بن أبي حفصة	181 ، 339
الوحي بين	خصامِ	الكامل	مروان بن أبي حفصة	334
ما للنساء	الأنعامِ	الكامل	مروان بن أبي حفصة	330

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
ما لي رَميتُ	يا رامي	الكامل	ـ	158
ناموا	النيّامِ	الكامل	ـ	369 ، 655
حيّ الأحبّة	أو مُقامِ	مجزوء الكامل	سلم الخاسر	112
خير الأمور	التمامِ	مجزوء الكامل	إبراهيم الموصلي	489
قل للإمام	أمِّهِ	الرجز	العماني	482
طلب	السَّوامى	الرمل	أشجع السلمي	685
ليت	علمِهْ	مجزوء الرمل	إبراهيم الموصلي	565
نقص	هاشمِ	السريع	أشجع السلمي	588
ملكتُ من	ظالم	السريع	الرشيد	419
لا بد للعاشق	والصَّرْمِ	السريع	العباس بن الأحنف	160
كن موسراً	من الهَمِّ	السريع	ـ	109
ملكٌ	الإعظامِ	الخفيف	أشجع السلمي	357
ألف الحج	في كل عامِ	الخفيف	أشجع السلمي	349
إنّ يُمْنَ	الغمامِ	الخفيف	أشجع السلمي	473
طحنتنا	الأيامِ	الخفيف	أعرابية	604

ـ ن ـ

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
قفي	الحَسَنْ	الطويل	أعرابي	573
صدّ عنّي	فَطِنْ	الرمل	هارون الرشيد	201 ، 417
كأن مملوكي	الزَّمَنْ	الرمل	الرشيد	419
قتلوا	بكفَنْ	الرمل	ـ	142
يا مَنْ	الزمَنْ	السريع	أبو العتاهية	84 ، 690
يا من تبغّى	الزَّمَنْ	السريع	أبو العتاهية	690
إن الذين	مَعينا	البسيط	جرير	205
يا دير	مُرّانا	البسيط	الحسين بن الضحاك	560
قالوا خراسان	خراسانا	البسيط	العباس بن الأحنف	471
حب الخليفة	الفِتَنا	البسيط	عبد الملك بن صالح	493 ، 710
الله قلّد	السُّنَنا	البسيط	عبد الملك بن صالح	678

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
هيجت	كمينا	البسيط	عنان	205
لولا رجاؤك	وطنًا	البسيط	-	20
فإن أبا أبيك	يقينا	الوافر	المؤمل بن أميل	333
وعِدلُكَ	المرسلينا	الوافر	المؤمل بن أميل	332
فدونكها	العالمينا	الوافر	المؤمل بن أميل	338
فإني	أخونا	الوافر	أبو نواس	535
لقد أرهبت	يتذمرونا	الوافر	أبو نواس	674
براك الله	حصينا	الوافر	أبو نواس	680 ، 347
بعفوك	المؤمنينا	الوافر	أبو نواس	535 ، 121
إن الذين غدوا	مَعِينا	الكامل	جرير	229
أغيثاً	هارونا	الهزج	عمر بن سلمة	641
أغيثاً	هارونا	الهزج	يوسف بن الصيقل	468
يا ربّ شيخ	الفادينَ	الرجز	العماني	437
إن للموكبِ	العيونا	مجزوء الرمل	عمر بن سلمة	498
أترون	المؤمنينا	مجزوء الرمل	عمر بن سلمة	646
لما رأينا	هارونا	المنسرح	محمد بن مناذر	649
فلو سألنا	سُقّينا	المنسرح	محمد بن مناذر	687
من كانت الدنيا	الدنيا	السريع	الخاركي	440
قومي	ينالونا	المنسرح	محمد بن مناذر	259
لا جزى	إحسانا	الخفيف	أبان اللاحقي	37
وقلت	الغِنى	المتقارب	الزبير بن دحمان	683 ، 620
مقيمٌ	عُوْنُها	الطويل	كلثوم العتابي	667
ويستنتج	جنينُها	الطويل	كلثوم العتابي	693
إذا جئت	أهونُ	الطويل	-	151
سكنٌ	الزمنُ	المديد	أبو العتاهية	221
كأن	حُسبانُ	البسيط	مسلم بن الوليد	525
آل الرسول	هارونُ	البسيط	منصور النمري	678

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
رضيتُ	مقرونُ	البسيط	منصور النمري	680
تبدي صدوداً	غضبانُ	البسيط	هارون الرشيد	417
يا من وضعتُ	سلطانُ	البسيط	هارون الرشيد	418
في كل عام	الأقرانُ	الكامل	أبو نواس	349
متبرج	لسانُ	الكامل	أبو نواس	654
إنا نَسَبنا	حَصَانُ	الكامل	أبو نواس	519
هارونُ	الأضغانُ	الكامل	أبو نواس	688
ألفت	الأجفانُ	الكامل	أبو نواس	674
لا غرو	الأكفانُ	الكامل	أبو نواس	649
حتى الذي	خفقانُ	الكامل	أبو نواس	694
ملك	مكانُ	الكامل	أبو نواس	689
وإلى	الحيوانُ	الكامل	أبو نواس	652
يا خير من كان	الميمونُ	الرجز	أبو نواس	681
ألا ترى	العيونُ	الرجز	أبو نواس	491
ولي عهد	خدينُ	الرجز	أبو نواس	495
لعاصمٍ	تَهْتَانُ	المجتث	سلم الخاسر	39
عونُ	كَوْنُ	المتقارب	إسحاق الموصلي	120
رأيتك	الخائنُ	المتقارب	أشجع السلمي	618
إلى ملكٍ	البَنَانُ	المتقارب	أبو الشيص	527
وهل بدّل	رهبانُها	المتقارب	عبد الله بن المبارك	436
يثيران	يرتديان	الطويل	جاهلي من بني عقيل	234
أخِضْني	القدمانِ	الطويل	العباس بن الأحنف	94
أتتركني	تكِفانِ	الطويل	العتابي	546
أخضني	القَدَمانِ	الطويل	كلثوم العتابي	103 ، 534
فلو كنتُ	تراني	الطويل	منصور النمري	233
وإني	الحدثانِ	الطويل	ـ	150
سقياً	يومينِ	البسيط	إبراهيم الموصلي	566

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
ألم تَرَ	بالثمنِ	البسيط	زهير بن أبي سلمى	613
يعتلُّ	للبدنِ	البسيط	العباس بن الأحنف	221
فاستغنِ	عن الدينِ	البسيط	عبد الله بن المبارك	436
إذا أطاعت	من البانِ	البسيط	مسلم بن الوليد	520
دلّت على	أعطاني	البسيط	مسلم بن الوليد	430
سائلْ	بجثماني	البسيط	مسلم بن الوليد	523
إلى الإمام	ظِلمانِ	البسيط	مسلم بن الوليد	526
سعتّ	فحيّاني	البسيط	مسلم بن الوليد	521
ماذا ببغداد	وللدينِ	البسيط	منصور النمري	87 ، 400
أنى جزَوا	الحَسَنِ	البسيط	ـ	142
رويدك	الهوانِ	الوافر	أشجع السلمي	618
موسى	يوجدانِ	الوافر	مروان بن أبي حفصة	180
سد الثغور	مُتَدانِ	الكامل	أبو ثمامة	328
ملك الثلاثُ	مكانِ	الكامل	الرشيد	419
ما تنطوي	اللَّحظَانِ	الكامل	أبو نواس	693
لما نزعتُ	المذعانِ	الكامل	أبو نواس	524
حذر امريء	ليَانِ	الكامل	أبو نواس	668
أفْلتُّ	يراني	مجزوء الكامل	ـ	158
اسجد	بِخُنْزُوَانِهِ	الرجز	كلثوم العتابي	433
جاؤوا بفرنيّ	السمونِ	الرجز	العماني	398
سبحان	مهينِ	المضارع	أبو نواس	219
ما لابراهيم	ثاني	مجزوء الرمل	إبراهيم بن سيابة	564
سترته	العكنتينِ	مجزوء الرمل	أبو نواس	206
عتقت	ديني	مجزوء الرمل	أبو نواس	305
نظرت عيني	شيني	مجزوء الرمل	هارون الرشيد	206
إن يوماً	زمانِ	الخفيف	جعفر البرمكي	166
وبقينا	بالمجّانِ	الخفيف	أبو الشمقمق	442

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
ليس فيها	بالطيلسانِ	الخفيف	أبو الشمقمق	443
كاد عيسى	المَغْرِبَيْنِ	الخفيف	أبو العذافر الكلابي	321
سَلْ	النهروانِ	الخفيف	هارون الرشيد	166
فهل لك	الحِسانِ	المتقارب	أبو الشيص	522
فحق لعينيك	تَطْرِفانِ	المتقارب	أبو الشيص	519
قطعتُ	الهاديانِ	المتقارب	أبو الشيص	525
وعجتُ	هِجانِ	المتقارب	نُصيب	524

ـ هـ ـ

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
أرى قوماً	جاها	الهزج	أبو العتاهية	441
لا أسأل	عيناها	البسيط	الوليد بن يزيد	191
حتى متى	عافاهُ	السريع	أبو العتاهية	85
مَنْ لعبدٍ	سِواهُ	الخفيف	أبو العتاهية	545
إني رأيتكَ	أشباهِ	الكامل	أبو العتاهية	307

ـ و ـ

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
وكلفتني	تهوى	الطويل	أبو العتاهية	533
بدير	أحوى	الهزج	إسحاق الموصلي	567
صيّرني	كَوَى	السريع	هارون الرشيد	414
أخلاّي	خُلُوُ	الطويل	عبد الملك بن صالح	546

ـ ى ـ

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
لا تعجبي	فبكى	الكامل	مسلم بن الوليد	603

ـ ي ـ

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
تفاحة	وما فيها	الطويل	خالد بن يزيد	165
باتتْ	من فيها	البسيط	ـ	186
إن الخليفة	ما فيها	البسيط	أشجع السلمي	366
أمست هرقلة	مدميها	البسيط	أشجع السلمي	367

المطلع	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
ليهنك	نواصيها	البسيط	أشجع السلمي	368
لا زلت	وتثنيها	البسيط	أشجع السلمي	501
لعل الله	عليها	الوافر	أعرابي	572
محمد	باغيا	الطويل	الرشيد	490
لك اسمان	مهديّا	الطويل	أبو العتاهية	708
ووشيتَ	مَوْشِّيا	الطويل	أبو العتاهية	654
قضى الله	مقضيا	الطويل	أبو العتاهية	366
من مبلغٌ	متواليَهْ	مجزوء الكامل	أبو العتاهية	447 ، 448
تحلبت الدنيا	دِميّا	الطويل	أبو العتاهية	368
وأنت	مطْوِيًّا	الطويل	أبو العتاهية	685
أشَمُّ	غاديا	الطويل	النابغة الجعدي	237
رغيف خبزٍ	زاوية	مجزوء الرجز	أبو العتاهية	431
فصدْتَ	العافيةْ	السريع	احدى الجواري	404
يا أيها	الناهي	البسيط	عبد الله بن معاوية	76
وجُدْ له	سخيٍّ	السريع	أبو الخطاب	61
ظبيٌ	إليه	منهوك المنسرح	المأمون	162

فهرس الأعلام

ـ أ ـ

أبان اللاحقي : 36 ، 37 ، 62 ، 90 ، 99 ، 327 ، 333 ، 480 ، 492 ، 614 .

إبراهيم الإمام (بن محمد العباسي) : 269 ، 258 .

إبراهيم بن جبريل : 356 .

إبراهيم بن سيّابة : 439 ، 444 ، 564 .

إبراهيم الحرّاني : 258 ، 261 ، 469 .

إبراهيم الخليل (عليه السلام) : 139 .

إبراهيم بن سيّار النظّام : 33 .

إبراهيم بن صالح الهاشمي : 49 ، 271 ، 402 ، 406 .

إبراهيم بن عبد الله (العلوي) : 323 ، 325 .

إبراهيم بن عثمان بن نهيك : 190 ، 304 ، 305 ، 306 ، 663 .

إبراهيم بن عمر : 55 .

إبراهيم بن محمد بن الحارث = أبو إسحاق الفزاري : 129 .

إبراهيم الموصلي (أبو إسحاق) : 11 ، 35 ، 37 ، 47 ، 51 ، 53 ، 55 ، 56 ، 60 ، 73 ، 76 ، 82 ، 83 ، 100 ، 101 ، 105 ، 106 ، 114 ، 115 ، 116 ، 154 ، 163 ، 190 ، 203 ، 244 ، 348 ، 413 ، 424 ، 489 ، 493 ، 508 ، 532 ، 538 ، 541 ، 550 ، 552 ، 553 ، 554 ، 555 ، 556 ، 557 ، 558 ، 560 ، 561 ، 562 ، 565 ، 566 ، 567 ، 568 ، 569 ، 575 ، 576 ، 577 ، 579 ، 580 ، 608 ، 701 ، 702

إبراهيم بن المهدي : 53 ، 73 ، 116 ، 252 ، 307 ، 398 ، 401 ، 402 ، 406 ، 456 ، 553 ، 554 ، 555 ، 560 ، 565 ، 566 ، 574 .

إبراهيم بن الوليد (الأموي) : 88 .

إبليس (اللعين) : 562 ، 576 .

أحمد بن إبراهيم الكاتب : 129 .

أحمد بن إسحاق الخاركي (الشاعر) : 440 .

أحمد أمين : 254 ، 306 ، 549 ، 551 .

أحمد بن جنيد الختلي : 94 .

أحمد بن حنبل : 29 ، 593 .

أحمد بن الرشيد : 402 .

أحمد بن سعيد الباهلي : 259 .

أحمد بن سيار الجرجاني البصري : 225 .

أحمد بن عاي بن يحيى = أبو عيسى المنجم : 594

أحمد بن عمر بن بكر النحوي : 79 .

أحمد بن عيسى بن زيد : 308 .

أحمد بن فارس : 127 ، 242 ، 243 .
أحمد النصيبي : 548 .
أحمد بن يحيى = ثعلب : 32 ، 143 ، 221 .
أحمد بن يحيى المكي : 581 .
أحمد بن يوسف الكاتب : 117 .
الأحمر النحوي = علي بن المبارك :
أخشيد (مولى الرشيد) : 122 .
الأخطل = غياث بن غوث :
الأخفش = سعيد بن مسعدة :
ادريس بن عبد الله العلوي : 324 362 588 .
آدم (أبو البشر) : 128 ، 701 ، 702 .
آدم متيز : 549 .
أدلر : 451 .
أديب سوق : 18 .
أردشير بن بابك : 555 .
أرسطوطاليس : 219 ، 594 ، 649 .
أرمان آل : 372 ، 376 .
إسحاق بن إبراهيم بن صالح العباسي : 271 .
إسحاق بن إبراهيم المصعبي : 49 ، 117 .
إسحاق بن إبراهيم الموصلي : 34 ، 44 ، 49 ، 55 ، 60 ، 67 ، 68 ، 76 ، 79 ، 83 ، 85 ، 100 ، 103 ، 105 ، 113 ، 114 ، 116 ، 117 ، 120 ، 153 ، 154 ، 157 ، 160 ، 163 ، 165 ، 177 ، 185 ، 191 ، 227 ، 229 ، 230 ، 235 ، 238 ، 244 ، 284 ، 289 ، 307 ، 425 ، 428 ، 434 ، 470 ، 512 ، 550 ، 554 ، 557 ، 559 ، 560 ، 561 ، 562 ، 563 ، 564 ، 565 ، 567 ، 568 ، 569 ، 576 ، 577 ، 584 ، 605 ، 654 .
إسحاق برصوما (الزامر) : 56 ، 427 ، 555 ، 566 ، 701 .
إسحاق بن حسان الخريمي = أبو يعقوب : 61 ، 260 ، 272 ، 283 ، 624 .
إسحاق بن سليمان الهاشمي : 73 .
إسحاق بن علي بن عبد الله بن العباس : 460 .
أبو إسحاق الفزاري = إبراهيم بن محمد بن الحارث
إسحاق بن مرار الشيباني = أبو عمرو : 30 ، 32 ، 33 .
إسحاق بن موسى الهادي : 78 .
أبو الأسد التعلبي : 425 .
أسقف نجران : 227 .
الأسكندر : 321 .
أسماء بنت المهدي : 407 .
إسماعيل (بن إبراهيم الخليل) : 251 ، 263 .
إسماعيل = بن جامع (المغني) : 51 ، 53 ، 105 ، 115 ، 116 ، 284 ، 359 ، 427 ، 550 ، 553 ، 554 ، 555 ، 556 ، 557 ، 560 ، 562 ، 566 ، 569 ، 575 ، 577 ، 580 ، 581 ، 607 ، 608 .
إسماعيل بن صبيح : 66 ، 189 .
إسماعيل بن القاسم (والي مكة) : 154 .
إسماعيل بن القاسم = أبو العتاهية : 34 ، 35 ، 37 ، 62 ، 69 ، 73 ، 82 ، 83 ، 84 ،

85 ، 86 ، 101 ، 103 ، 113 ، 118 ، 178 ، 179 ، 183 ، 201 ، 219 ، 221 ، 229 ، 261 ، 263 ، 289 ، 298 ، 307 ، 308 ، 331 ، 352 ، 357 ، 365 ، 366 ، 368 ، 401 ، 424 ، 428 ، 429 ، 431 ، 432 ، 433 ، 441 ، 442 ، 446 ، 448 ، 449 ، 466 ، 492 ، 494 ، 495 ، 496 ، 501 ، 507 ، 512 ، 523 ، 531 ، 532 ، 533 ، 535 ، 536 ، 537 ، 539 ، 540 ، 542 ، 543 ، 544 ، 545 ، 546 ، 550 ، 558 ، 559 ، 561 ، 564 ، 568 ، 577 ، 578 ، 587 ، 589 ، 605 ، 606 ، 607 ، 617 ، 631 ، 633 ، 635 ، 636 ، 637 ، 653 ، 654 ، 665 ، 667 ، 670 ، 673 ، 675 ، 680 ، 681 ، 685 ، 686 ، 687 ، 688 ، 690 ، 691 ، 692 ، 695 ، 696 ، 704 ، 708 ، 709 .

إسماعيل القراطيسي : 33 ، 35 .

إسماعيل بن محمد = السيد الحميري : 34 ، 434 .

إسماعيل بن يسار : 283 .

الأسود بن قنان : 667 .

الأسود بن يعفر : 103 ، 153 ، 183 ، 184 ، 216 .

أبو الأسود الدؤلي = ظالم بن عمرو :

آسية بنت علي العباسية : 281 .

آسيا بنت مزاحم : 338 .

أشجع بن عمرو السلمي : 38 ، 43 ، 46 ، 48 ، 51 ، 52 ، 61 ، 62 ، 63 ، 97 ، 99 ، 102 ، 106 ، 118 ، 224 ، 225 ، 229 ، 230 ، 259 ، 260 ، 276 ، 283 ، 288 ، 357 ، 361 ، 364 ، 366 ، 368 ، 407 ، 424 ، 429 ، 473 ، 479 ، 492 ، 493 ، 494 ، 497 ، 500 ، 501 ، 502 ، 514 ، 514 ، 526 ، 560 ، 587 ، 607 ، 615 ، 618 ، 650 ، 653 ، 671 ، 672 ، 673 ، 674 ، 677 ، 684 ، 685 ، 688 ، 694 ، 697 ، 704 ، 708 .

أشعيا (النبي) : 381 .

الأصمعي = عبد الملك بن قريب :

الأعرابي الباهلي : 33 ، 81 ، 86 ، 99 ، 189 ، 193 ، 495 ، 511 .

ابن الأعرابي = محمد بن زياد

أعشى بكر : 613 .

أعش قيس = ميمون بن قيس

أعشى همذان = عبد الرحمن بن عبد الله

أقليدس : 220 .

الأقيشر (الشاعر) : 563 .

أكثم بن صيفي : 173 .

أمة العزيز = غادر (جارية الهادي)

أم جعفر = زبيدة

أم جعفر بن يحيى (ظئر الرشيد) : 151 ، 208 .
أم جندب (زوجة امرىء القيس) : 506 .
أم حكيم (زوجة هشام بن عبد الله) : 94 .
أم الحصين : 679 .
امرؤ القيس (الشاعر الجاهلي) : 171 ، 186 ، 221 ، 222 ، 224 ، 231 ، 232 ، 234 ، 235 ، 239 .
أمامة بنت الجُلاح الكلابية : 667 .
الأمين = محمد (بن هارون الرشيد) :
أنس بن أبي شيخ : 39 ، 48 ، 91 ، 189 ، 299 ، 423 ، 514 .
أنس بن مالك : 679 .
ابن أنس = مالك
الأوزاعي = عبد الرحمن بن عمرو
أوس بن حجر : 73 .
أوس بن عفراء الجهمي : 253 .
ايرين (امبراطورة الروم)
343 ، 344 ، 351 ، 486 .
أيوب (مفلّي البراغيث) : 439 .
أيوب (الناقل للبرامكة) : 594 .
أبو أيوب = محمد (ابن الرشيد)

ـ ب ـ

بابك الخرمي : 293 .
بحيرا الراهب : 484 .
أبو البختري = وهب بن وهب بن منبه
أبو بديل : 485 .
براون : 451 .
برصوما (الزامر) = إسحاق
بروكلمن = كارل
أبو البصير : 615 .
بشار بن برد : 34 ، 168 ، 223 ، 283 ، 287 ، 434 ، 442 ، 530 ، 612 .
بشار بن الخفاف : 129 .
بشار بن ميمون (الحاجب) : 58 .
بشر بن الحارث الحافي (الزاهد) : 450 .
بشر المريسي : 129 ، 309 .
بشير (أو مروان) أخو رافع بن الليث : 321 ، 322 .
ابن البطريق = يحيى
بطليموس : 220 .
بغا (الخادم التركي) : 121 .
بقراط : 173 .
أبو بكر الصديق : 139 ، 383 ، 676 .
أبو بكر بن دريد : 232 .
أبو بكر بن عياش (الزاهد) = شعبة بن سالم :
أبو بكر السلمي : 258 .
بكر بن النطّاح : 33 ، 34 ، 36 ، 43 ، 257 ، 264 ، 316 ، 319 ، 705 .
أبو بكر الهذلي : 442 .
ابن بكر النحوي = أحمد بن عمر
بنت مطيح بن إياس : 129 ، 293 ، 298
بندار هرمز (أصبهبر طبرستان) : 294 ، 295
البهلول (الشاعر الواعظ) : 630 ، 631 ، 637 ، 638 ، 652 .
بلاشير : 288 ، 610 ، 625 .

- ت -

تروتسكي : 704 .
تقي الدين أحمد بن علي المقريزي : 702 .
التيمي = عبد الله بن أيوب
تيودور أبو قره : 375 ، 376 .
تيوفوبس (القائد الرومي) : 292 .

- ث -

ثابت بن قرة : 595 .
ثروان الحروري : 315 .
ثعلب = أحمد بن يحيى
ثمامة بن الأشرس : 128 ، 308 .
أبو ثمامة الخطيب : 328 .

- ج -

جابر بن حيان : 593 ، 601 .
الجاحظ = عمرو بن بحر
جارية بن الحجاج = أبو دواد الإيادي : 216 ، 234 .
ابن جامع = إسماعيل
جبرائيل بن بختيشوع : 51 ، 597 .
جبرائيل (ملاك الوحي) : 148 ، 333 ، 696 .
الحجاف بن حكيم : 150 ، 226 .
الجرجاني = أحمد بن سيّار :
جرجي زيدان : 28 .
جردل بن أوس = الحطيئة : 150 ، 239 ، 445 ، 623 ، 624 .
ابن جريج = عبد الملك بن عبد العزيز
جرير بن عطية بن الخطفى (أبو حزرة) : 147 ، 196 ، 205 ، 217 ، 222 ، 228 ، 232 ، 559 ، 647 ، 701 .
الجعد بن درهم : 309 .
جعفر بن أبي جعفر المنصور : 462 ، 489 .
جعفر بن حنظلة البهراني : 328 .
أبو جعفر الرؤاسي = محمد بن الحسن
جعفر بن سليمان الهاشمي : 33 ، 73 ، 398 .
جعفر الصادق (الإمام العلوي) : 594 ، 707 .
جعفر بن عفان الطائي : 335 .
جعفر بن محمد بن الأشعث : 70 .
أبو جعفر المنصور = عبد الله بن محمد
جعفر بن موسى الهادي : 464 .
جعفر بن يحيى البرمكي : 36 ، 45 ، 46 ، 51 ، 54 ، 55 ، 58 ، 59 ، 60 ، 61 ، 62 ، 63 ، 64 ، 65 ، 66 ، 67 ، 68 ، 70 ، 71 ، 75 ، 87 ، 94 ، 97 ، 100 ، 106 ، 107 ، 109 ، 110 ، 115 ، 116 ، 149 ، 151 ، 166 ، 167 ، 168 ، 171 ، 192 ، 201 ، 207 ، 229 ، 245 ، 260 ، 270 ، 271 ، 272 ، 274 ، 275 ، 276 ، 277 ، 278 ، 282 ، 283 ، 284 ، 289 ، 301 ، 325 ، 409 ، 410 ، 411 ، 423 ، 425 ، 432 ، 442 ، 460 ، 462 ، 483 ، 505 ، 506 ، 514 ، 549 ، 552 ، 554 ، 557 ، 573 ، 580 ، 581 ، 582 ، 586 ، 587 ، 588 ، 594 ، 601 ، 605 ،

615 ، 617 ، 664 ، 665 ، 684 ،
701 .
الجمّاز = محمد بن عمرو
جميل بن معمر : 108 ، 160 ، 173 ، 177 ،
177 ، 185 ، 227 ، 563 .
جنان (محظية الرشيد) : 203 .
أبو الجنوب = عبد الله بن مروان
الجهجاه (الزنديق) : 129 ، 309 .
جون كلوب : 309 ، 320 ، 152 .
جي روشيه : 451 ، 452 .

- ح -

أبو حاتم السجستاني = سهل بن محمد
الحارث الأعرج الغساني : 667 .
الحارث بن بسخنّر : 105 ، 554 .
الحارث بن حلّزة : 32 .
حامد بن عمرو : 48 .
ابن حبناء الأشجعي = المغيرة
حبيش بن الحسن : 595 .
الحجاج بن الصواف : 283 .
الحجاج بن يوسف التيمي : 347 ، 348 ،
356 ، 358 ، 362 ، 364 ، 365 ،
366
الحجاج بن يوسف الثقفي : 88 .
الحجاج بن يوسف بن مطر : 495 ، 496 .
أبو الحجناء = نُصيب الأصغر
الحجناء بنت نصيب : 407 .
حذيفة بن بدر : 680 .
حرب بن عمرو الثقفي (نخاس) : 38 .
الحرشي (مولى الرشيد) : 83 .
حريقيص (غلام شاعر) : 589 .
أبو حزام العقلي (الشاعر) : 79 .
حسان بن ثابت : 222 ، 509 ، 510 .
أبو حسان (ناقل للبرامكة) : 597 .
الحسن البصري : 544 ، 679 .
الحسن بن التختاخ : 624 .
الحسن بن سهل : 17 ، 79 ، 444 .
الحسن بن علي بن أبي طالب : 335 ، 336 ،
338 ، 339 ، 707 .
الحسن بن عمران : 533 ، 663 .
الحسن اللؤلؤي : 94 ، 112 ، 117 .
الحسن بن هانيء = أبو نواس : 33 ، 35 ، 36 ،
37 ، 38 ، 60 ، 67 ، 70 ، 78 ، 93 ،
119 ، 120 ، 121 ، 173 ، 183 ، 188 ،
206 ، 207 ، 211 ، 216 ، 219 ، 222 ،
224 ، 226 ، 228 ، 229 ، 230 ، 236 ،
237 ، 238 ، 245 ، 246 ، 253 ، 261 ،
281 ، 282 ، 283 ، 286 ، 287 ، 288 ،
289 ، 290 ، 301 ، 302 ، 303 ، 304 ،
305 ، 306 ، 347 ، 348 ، 349 ، 352 ،
399 ، 400 ، 401 ، 407 ، 408 ، 422 ،
423 ، 425 ، 429 ، 430 ، 433 ، 439 ،
440 ، 442 ، 445 ، 472 ، 491 ، 494 ،
495 ، 512 ، 515 ، 517 ، 518 ، 519 ،
521 ، 523 ، 524 ، 526 ، 527 ، 531 ،
535 ، 544 ، 548 ، 567 ، 587 ، 588 ،
603 ، 605 ، 610 ، 613 ، 629 ، 647 ،

648 ، 649 ، 652 ، 666 ، 668 ، 672 ،
674 ، 680 ، 681 ، 682 ، 685 ، 686 ،
687 ، 689 ، 692 ، 694 ، 704 .
حسناء (جارية البرمكي) : 408 .
حسين (الخادم) : 120 ، 121 ، 304 .
حسين بن الخياط (الشاعر الماجن) : 38 ، 430 .
الحسين بن الضحاك : 33 ، 38 ، 429 ، 560 .
الحسين بن علي بن أبي طالب : 335 ، 336 ، 338 ، 339 ، 707 .
الحسين بن علي بن الحسن الطالبي : 323 .
الحسين بن محرز (المغني) : 562 .
الحسين بن محمد النجار : 250 .
الحسين بن مطير : 327 .
أبو حشيشة الطنبوري = محمد بن علي
حصين الخارجي : 315 .
أم الحصين : 679 .
الحطيئة = جردل بن أوس
حفص بن غياث : 435 .
أبو حفص الشطرنجي = عمر بن عبد العزيز
حفص بن مسلم : 504 .
الحفصي أبو عبد الله (ضارب المعزَفة) : 94
الحكم بن قنبر : 217 ، 255 ، 256 ، 261 ، 281 .
الحكم بن موسى السلولي : 53 ، 184 .
أم حكيم (زوجة هشام بن عبد الملك) 94 .
حماد بن إسحاق الموصلي : 564 .
حماد البربري : 322 .
حماد الراوية : 218 .
حماد بن سلمة (النحوي) : 32 .
حماد عجرد : 34 ، 49 .
حمدونة (بنت الرشيد) : 616 .
حمدويه (صاحب الزنادقة) : 298 ، 302 .
حمزة بن بيض (شاعر أموي) : 108 .
حمزة السجستاني حمزة بن أكرك السجستاني : 314 ، 321 .
حمزة بن عبد المطلب (عم الرسول ﷺ) : 332 ، 337 .
حمويه (مولى الرشيد) : 121 .
حميد بن ثور (شاعر) : 587 .
حميد الطوسي (من قواد الرشيد) : 37 ، 211 ، 702 .
حميد بن معيوف (من قواد الرشيد) : 356 .
ابن حنبل = أحمد
أبو حنش (شاعر ماجن) : 38 .
أبو حنيفة = النعمان بن ثابت
حنين بن إسحاق : 595 .
الحويدرة (الشاعر) : 234 .

- خ -

الخاركي = أحمد بن إسحاق (الشاعر) :
خاقان (ملك الخزر) : 514 ، 673 .
خالد البرمكي : 75 ، 467 ، 505 .
خالد أخو مهرويه : 554 .
خالد بن يزيد الكاتب (أبو الهيثم) : 60 ، 103 ، 165 ، 193 ، 563 .

خالد بن يزيد بن مزيد : 444 .
خديجة بنت خويلد : 330 .
خراشة الشيباني (خارجي) : 315 .
خرذاذ (القائد) : 94 .
خزيمة بن خازم (القائد) : 48 .
الخصيب (والي مصر) : 236 ، 305 .
أبو الخصيب (الخارجي) : 315 ، 321 .
الخضر (ولي الله) : 359 .
الخضر بن جبريل : 554 .
أبو الخطاب البهدلي = عمرو بن عامر
أبو الخطّاب (مؤسس فرقة الخطابية) : 707 .
خلف الأحمر (أبو محرز) : 31 ، 218 .
الخليل بن أحمد الفرهودي (أبو عبد الرحمن) : 30 ، 34 ، 146 ، 434 .
خلوب (جارية يحيى البرمكي) : 408 .
خنس = ذات الخال
الخنساء بنت عمرو : 37 ، 234 ، 506 .
الخوارزمي : 596 .
الخيزران (أم الرشيد) : 11 ، 45 ، 64 ، 66 ، 74 ، 112 ، 397 ، 458 .

ـ د ـ

دار ندروف (رالف) : 451 ، 452 .
دار يشوع : 594 .
داود بن بكر (والٍ) : 442 .
داود بن حاتم المهلبي : 37 .
داود بن رزين الخزاعي : 38 ، 48 ، 348 ، 429 ، 515 ، 649 ، 653 .
داوود (النبي) : 382 .
أبو دلف العجلي = القاسم بن عيسى
دنانير (جارية محمد بن كناسة) : 38 .
دنانير (البرمكية) : 421 ، 608 .
دهشتك الطبيب : 597 ، 598 .
ابن دهن الهندي (طبيب مترجم) : 594 ، 598 .
أبو دلامة = زند بن الجون :
أبو داود الإيادي = جارية بن الحجاج :
دومينيك سورديل : 597 ، 610 .

ـ ذ ـ

ذات الخال (محظية الرشيد) خنس أو خنث : 93 ، 161 ، 404 ، 411 ، 413 ، 417 ، 424 .
ذفافة العبسي أو العنسي : 53 ، 54 ، 72 ، 258 ، 505 .
ذو الرمة = غيلان بن عقبة
ذو فائش الحميري (الملك اليمني) : 509 .
ذو الكلاع : 356 .

ـ ر ـ

ابن رأس الجالوت اليهودي (شاعر) : 34 .
رأس النعجة (الشاعر) : 440 .
الراعي (الشاعر) : 142 ، 222 .
رافع بن الليث (الثائر علي الرشيد) : 151 ، 315 ، 320 ، 321 ، 322 .
رامز ملك : 18 .
الربيع بن يونس (الحاجب) : 485 .
ربيعة (أخو مضر) : 267 ، 268 ، 705 .
ربيعة الرقيّ (الشاعر) : 150 ، 420 ، 569 ، 604 .

ربيعة بن الحرث (والد كليب) : 268 .
رجاء بن سلمة : 221 .
رجاء (مولى صالح الشهرزوري) : 85 .
رزين الكاتب : 35 ، 430 .
رشأ (غلام عُليّة بنت المهدي) : 409 .
رُشيد (الخادم) : 122 .
رؤبة بن العجّاج : 179 ، 195 .
روتشتين : 371 .
روح بن عبارة : 29 .
رولان : 711 .
ريطة (زوجة المهدي) : 82 .
ريني (امبراطورة الروم) : 19 .

- ز -

زبان بن العلاء = أبو عمرو : 30 ، 32 ، 219 ، 232 ، 530 .
ابن زبيد (الشاعر) : 33 .
زبيدة بنت جعفر (زوجة الرشيد) : 58 ، 64 ، 66 ، 76 ، 85 ، 87 ، 97 ، 122 ، 151 ، 157 ، 158 ، 159 ، 161 ، 164 ، 204 ، 204 ، 210 ، 395 ، 397 ، 399 ، 404 ، 407 ، 415 ، 426 ، 464 ، 476 ، 478 ، 479 ، 480 ، 489 ، 497 ، 580 ، 581 ، 608 ، 615 ، 663 ، 699 .
زبيدة بنت منير (والدة الفضل البرمكي) : 459
الزبير بن بكار (ابن مصعب) : 107 ، 152 ، 221 .
الزبير بن دحمان (المغني) : 159 ، 295 ، 470 ، 560 ، 568 ، 620 ، 683 .
زكي مبارك : 334 .
زلزل (المغني) = منصور .
زند بن الجون (أبو دلامة الشاعر) : 105 .
زهير بن أبي سلمى : 222 ، 610 ، 613 ، 619 ، 621 ، 644 ، 695 .
زياد بن معاوية (النابغة الذبياني) : 226 ، 232 ، 233 ، 234 ، 239 ، 324 ، 509 ، 530 ، 537 ، 542 ، 610 ، 667 ، 704 .
أبو زياد الكلابي (الشاعر) : 567 .
أبو زيد الأنصاري = سعيد بن أوس
زيد بن ثابت (جامع القرآن) : 383 .
أبو زيد القرشي = محمد بن أبي الخطاب
زياد القندي (عامل الرشيد) : 702 .

- س -

سابور بن أردشير : 597 .
سالم بن عبد العزيز بن عبد العزيز (الزاهد) : 637 .
سحر (جارية الرشيد) أو شجو : 54 ، 412 ، 417 .
سعدان (كاتب زبيدة) : 151 ، 164 .
سعدون المجنون(واعظ) : 631 ، 634 ، 635 ، 636 .
سعيد بن أوس الأنصاري = أبو زيد : 29 ، 30 ، 32 ، 35 ، 81 ، 139 .
سعيد الخفتاني (مولى الرشيد) : 121 .
سعيد بن سلم (أو سالم) بن قتيبة الباهلي : 32 ،

53 ، 55 ، 81 ، 86 ، 96 ، 99 ،
153، 210 ، 258 ، 259 ، 260 ،
442 ، 468 .
سعيد بن العاص : 383 .
سعيد بن مسعدة (الأخفش) : أبو الحسن :
143 ، 433 .
سعيد بن هارون : 596 .
سعيد بن وهب كاتب البرامكة : 115 .
ابن أبي ا لسعلاء = عمر بن سلمة
سفيان بن عيينة : 102 ، 435 ، 442 ، 631 ،
632 .
سفيان بن مجاشع (ماجن) : 34 .
سلاّم الأبرش (السّجان) : 128 ، 308 ،
608 .
سلاّم الأبرش (المترجم) : 594 .
سلاّم (الخادم) : 128 .
سلاّمة بن الأبرش (مولى الرشيد) : 556 .
سلاّمة بن جندل : 235 .
سلاّمة الزرقاء : 419 .
سلم البلخي (الزاهد) : 450 .
سلم (صاحب بيت الحكمة) : 596 ، 597 .
سلم الخاسر : 33 ، 39 ، 52 ، 59 ، 62 ،
63 ، 73 ، 75 ، 87 ، 90 ، 92 ، 98 ،
111 ، 167 ، 168 ، 185 ، 221 ،
233 ، 334 ، 407 ، 425 ، 427 ،
428 ، 442 ، 465 ، 479 ، 480 ،
481 ، 490 ، 492 ، 493 ، 494 ،
500 ، 511 ، 519 ، 614 ، 615 ،
619 ، 645 ، 669 ، 680 ، 696 .
أبو سلمة الخلال (وزير آل محمد) : 211 ،
459 .
سليم بن سلاّم (المغني) : 102 ، 500 ، 562 .
سليمان بن أبي جعفر الهاشمي : 54 ، 74 ،
76 ، 150 ، 303 ، 506 .
سليمان بن عبد الملك : 108 ، 571 .
سليمان بن علي (الهاشمي) : 33 ، 73 ، 554
سليمان القهرمان : 281 .
ابن السماك = محمد بن صبيح الزاهد
أبو السمط = مروان بن أبي حفصة
سمعان (ناقل للبرامكة) : 594 .
السندي بن شاهك (قائد الشرطة) : 94 ،
112 ، 270 ، 272 ، 658 .
سهل بن محمد بن حاتم (أبو حاتم) السجستاني :
222 ، 232 .
سهل بن هارون : 226 ، 244 ، 283 ،
594 ، 596 .
سهيل بن أبي صالح (محدّث) : 131 .
سوار بن عبد الله (القاضي) : 420 ، 440 .
ابن سيّابة = إبراهيم
سيبويه = عثمان بن قنبر
السيد الحميري = إسماعيل بن محمد
سيغموند فرويد : 451 .
سيف بن بكير الخارجي : 315 .

ـ ش ـ

شارلمان : 262 .
شاعر مسلل = البهلول :

الشافعي = محمد بن ادريس
(بنو) شاكر المنجم : 595 .
شبيب بن منصور : 118 .
شجو (جارية الرشيد) = سحر
شراحيل بن معن بن زائدة (القائد) : 238 ، 356 ، 469 .
شريك الشيباني : 318 .
شريك بن عبد الله (القاضي) : 435 .
شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي (أو بسطام الفقيه) : 29 .
شعبة الأسدي (أبو بكر بن عياش الخياط) (الزاهد) : 410 ، 450 .
شعيب بن حرب (الواعظ) : 212 .
أبو شعيب القلال : 213 ، 214 .
أبو الشفلي (الشاعر) : 348 .
ابن شقيقة الوراق : 34 ، 218 .
الشماخ بن ضرار : 197 ، 239 .
أبو الشمقمق = مروان بن محمد
شيبان الخارجي : 269 .
أبو الشيص = محمد بن عبد الله بن رزين
ابن أبي الشيص = عبد الله بن محمد

- ص -

صالح بن إسحاق الجرمي (أبو عمر) : 32 .
صالح بن بهلة (الطبيب) : 49 .
صالح الخازن : 121 .
صالح بن الرشيد : 407 .
صالح الشهرزوري : 85 .
أبو صالح (كاتب الرشيد) = يحيى بن عبد الرحمن
صالح بن عبد القدوس : 34 ، 190 ، 293 ، 295 ، 296 ، 297 .
صالح بن عطية الأضجم : 336 .
صالح بن علي الهاشمي : 75 .
الصحصح الخارجي : 315 .
ابن صدقة = مسكين المدني

- ض -

الضحاك : 261 ، 290 .
ضياء (محظية الرشيد) : 93 ، 413 ، 417 .

- ط -

أبو طالب (عم الرسول) ﷺ : 484 .
طالوت بن أعصم (اليهودي) : 308 .
طاهر (غلام الأمين) : 407 .
طرفة بن العبد : 234 ، 239 .
الطرمّاح : 233 .
طَلّ (خادم عُلَيّة بنت المهدي) : 409 .
طيفور بن عبد الله بن منصور الحميري : 279 .

- ظ -

ظالم بن عمرو = أبو الأسود الدؤلي : 216 .

- ع -

عاتكة بنت شهدة : 156 ، 584 .
عاذر بن شاكر (أبو الخفيف) الشاعر : 439 .
عاصم بن عتبة الغساني : 39 ، 259 .
عامر بن الظرب : 268 .
عامر بن عمارة بن خريم (أبو الهيذام ، قائد فتنة الشام) : 270 ، 271 ، 272 ، 273 .

عبّادة (جارية أبي عمير) : 38 ، 408 .
ابن عباس : 375 .
العباس بن الأحنف : 33 ، 34 ، 38 ، 86 ، 92 ، 93 ، 103 ، 112 ، 113 ، 122 ، 159 ، 160 ، 161 ، 176 ، 177 ، 199 ، 203 ، 221 ، 227 ، 229 ، 246 ، 289 ، 404 ، 407 ، 423 ، 428 ، 429 ، 470 ، 471 ، 560 ، 568 ، 584 585 ، 586 ، 587 ، 589 .
العباس بن جعفر (العباسي) : 355 .
العباس بن الحسن الطالبي : 69 ، 187 .
العباس بن زفر : 260 .
أبو العباس السفاح = عبد الله بن محمد
العباس بن عبد المطلب : 87 ، 331 ، 332 ، 334 ، 335 ، 336 ، 337 ، 634 ، 705 .
العباس بن عبيد الله بن سنان : 55 .
العباس الطوسي : 70 .
العباس بن محمد بن خالد بن برمك : 467 .
العباس بن محمد بن علي (الهاشمي) : 74 ، 75 ، 87 ، 497 ، 569 ، 604 ، 605 .
العباس بن موسى (الهاشمي) : 460 .
العباسية بنت المهدي (أخت الرشيد) : 282 ، 284 ، 407 ، 409 .
عبتر المغنّي : 228 ، 229 ، 244 ، 559 ، 562 .
عبد الحميد الكاتب : 299 .
عبد الرحمن بن الحارث بن هشام : 383 .
أبو عبد الرحمن الزاهد = عبد الله بن المبارك :
عبد الرحمن بن عبد الله (أعشى همذان) : 226 ، 548 .
عبد الرحمن بن عمرو (الإمام الأوزاعي) : 186 .
عبد الرحمن بن محمد (ابن خلدون) : 25 ، 253 ، 304 ، 429 ، 348 ، 551 ، 598 ، 664 ، 666 ، 676 ، 677 ، 678 .
عبد الرحمن بن مسلم (أبو مسلم الخراساني) : 211 ، 269 ، 270 ، 281 .
عبد الرزاق بن همام (الواعظ) : 632 .
عبد السلام الشادي : 315 .
عبد الصمد بن علي (الهاشمي) : 74 ، 271 ، 341 ، 480 ، 662 ، 663 .
عبد العزيز الماجشون (أبو سلمة) الفقيه : 420 .
عبد الله بن أيوب التيمي (أبو محمد) : 48 ، 57 ، 68 ، 515 .
عبد الله بن جعفر العلوي : 114 ، 150 .
عبد الله بن حبيب (أبو محجن الثقفي) : 563 .
عبد الله بن الحسن العلوي : 375 .
عبد الله بن الزبير : 323 .
عبد الله بن سبأ اليهودي : 707 .
عبد الله بن طاهر : 49 .
عبد الله بن العباس بن الحسن : 69 .
عبد الله بن العباس الربيعي : 584 .
عبد الله بن عبد العزيز (الواعظ) : 631 ، 633 .
عبد الله بن عبد المطلب (والد النبي ﷺ) : 105 .

عبد الله بن علي الهاشمي : 485 .
عبد الله بن الرشيد = المأمون : 11 ، 12 ، 31 ، 49 ، 53 ، 71 ، 72 ، 73 ، 74 ، 78 ، 80 ، 81 ، 85 ، 105 ، 108 ، 109 ، 114 ، 127 ، 138 ، 140 ، 149 ، 158 ، 162 ، 174 ، 185 ، 189 ، 192 ، 193 ، 226 ، 258 ، 260 ، 299 ، 309 ، 321 ، 402 ، 404 ، 406 ، 410 ، 432 ، 434 ، 442 ، 462 ، 475 ، 476 ، 478 ، 481 ، 482 ، 483 ، 485 ، 489 ، 490 ، 492 ، 493 ، 494 ، 495 ، 496 ، 497 ، 498 ، 505 ، 507 ، 560 ، 567 ، 589 ، 595 ، 596 ، 597 ، 616 ، 710 ، 711 .
عبدالله بن مالك الخزاعي : 258 ، 356 ، 464 ، 533 .
عبد الله بن المبارك (الإمام الواعظ) : 33 ، 34 ، 129 ، 420 ، 436 ، 437 ، 443 ، 449 ، 450 ، 496 ، 606 ، 629 ، 632 .
عبد الله بن محمد البواب : 38 ، 69 .
عبد الله بن محمد بن عبد الله بن رزين الخزاعي = ابن أبي الشيص : 34 ، 441 .
عبد الله بن محمد بن علي = أبو جعفر المنصور : 31 ، 88 ، 105 ، 114 ، 126 ، 168 ، 196 ، 211 ، 219 ، 220 ، 281 ، 291 ، 304 ، 323 ، 325 ، 329 ، 330 ، 331 ، 332 ، 334 ، 336 ، 337 ، 338 ، 341 ، 485 ، 494 ، 530 ، 593 ، 622 ، 678 ، 679 ، 707 .
عبد الله بن محمد بن علي = أبو العباس السفاح : 126 ، 212 ، 459 ، 485 ، 505 .
عبد الله بن محمد = الشاعر المكي : 355 ، 358 ، 367 .
عبد الله بن مصعب الزبيري : 662 .
عبد الله بن معاوية العلوي (أبو جعفر) : 76 ، 555 ، 556 ، 579 .
عبد الله بن مروان بن سليمان بن أبي حفصة = أبو الجنوب : 407 ، 479 .
عبد الله بن المقفع : 299 .
عبد الله بن الهيثم بن سام : 314 .
عبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفي : 244 ، 623 .
عبد الملك بن صالح الهاشمي : 60 ، 64 ، 65 ، 74 ، 75 ، 112 ، 154 ، 155 ، 187 ، 190 ، 209 ، 210 ، 264 ، 265 ، 274 ، 311 ، 316 ، 402 ، 458 ، 482 ، 492 ، 493 ، 531 ، 546 ، 622 ، 678 ، 687 ، 708 ، 710 .
عبد الملك بن عبد العزيز (ابن جريج ، فقيه مكة) : 420 .
عبد الملك بن قريب = الأصمعي : 15 ، 17 ، 31 ، 32 ، 33 ، 35 ، 36 ، 45 ، 46 ، 47 ، 50 ، 51 ، 54 ، 55 ، 61 ، 63 ، 68 ، 70 ، 73 ، 77 ، 78 ، 79 ، 80 ، 81 ، 82 ، 91 ، 95 ، 100 ، 102 ،

103 ، 107 ، 108 ، 110 ، 111 ،
113 ، 117 ، 119 ، 120 ، 137 ،
139 ، 140 ، 142 ، 145 ، 146 ،
147 ، 153 ، 154 ، 156 ، 158 ،
168 ، 169 ، 170 ، 171 ، 184 ،
185 ، 186 ، 194 ، 195 ، 196 ،
197 ، 198 ، 199 ، 204 ، 205 ،
218 ، 219 ، 222 ، 223 ، 224 ،
226 ، 227 ، 230 ، 231 ، 232 ،
233 ، 234 ، 235 ، 236 ، 237 ،
238 ، 239 ، 245 ، 246 ، 287 ،
300 ، 406 ، 410 ، 412 ، 423 ،
426 ، 429 ، 430 ، 434 ، 458 ،
482 ، 506 ، 507 ، 511 ، 557 ،
559 ، 567 ، 568 ، 570 ، 571 ،
572 ، 576 ، 584 ، 585 ، 588 ،
589 ، 593 ، 603 ، 700 .
عبد الملك بن مروان : 184 ، 226 ، 227 ،
375 ، 622 .
عبيد بن الأبرص : 12 .
عبيد بن طبيان (القاضي) : 663 .
عبيد الله بن أبي بكرة : 281 .
عبيد الله بن طاهر : 233 .
عبيد الله بن عمر : 435 .
وكيع بن الجراح (العابد) : 435 .
عبيد الله بن موسى الهادي : 407 .
عبيد الله بن المهدي (أخو الرشيد) : 73 .
أبو عبيدة = معمر بن المثنى
عبيدة بن صهيب الكوفي : 426 .
العتابي = كلثوم بن عمرو
أبو العتاهية = إسماعيل بن القاسم
عتبة النحوي : 30 .
عتبة (جارية ريطة زوجة المهدي) : 82 .
العتبي : 222 .
أبو عتمة = أبو عصمة
عثمان بن إبراهيم بن نَهيك : 305 .
عثمان بن الحكم الثقفي : 258 .
عثمان بن حكيم (فقيه) : 129 .
عثمان بن عفان : 142 ، 657 .
عثمان بن عمارة بن خريم : 545 ، 624 .
عثمان بن قنبر (سيبويه) : 30 ، 68 ، 142 ،
143 ، 144 ، 145 ، 148 ، 433 .
عثمان بن نهيك الزنديق : 64 ، 300 ، 305 .
عثمة (أمة ابن مرار) : 420 .
أبو عثيمة = أبو عصمة
العجاج : 178 ، 195 .
أبو العجل (الشاعر الأموي) : 505 .
عدنان (جد عرب الشمال) : 251 ، 264 ،
268 .
العدي (والد الهيثم) : 284 .
عدي بن ربيعة بن الحارث (المهلهل) : 234 .
عدي بن الرقاع (الشاعر) : 169 ، 196 ،
232 ، 234 ، 239 .
العديل بن الفرخ العجلي : 108 .
أبو العذافر الكلابي : 321 .
عروة بن حزام : 412 .

عروة بن الورد : 174 ، 610 .
أبو عصمة (أبو عتمة ، أبو عثيمة) القائد : 265 ، 266 .
عضد الدولة : 375 .
عطاف الأزدي : 315 .
عفراء (محبوبة عروة بن حزام) : 412 .
العكوّك = علي بن جبلة
علان الشعوث : 595 ، 597 .
علقمة بن عبدة (الفحل) : 506 .
علّويه (المغني) = علي بن عبد الله بن سيف
علي بن أبي طالب : 130 ، 131 ، 216 ، 221 ، 319 ، 329 ، 330 ، 331 ، 333 ، 336 ، 337 ، 338 ، 340 ، 570 ، 571 ، 707 .
علي أدهم : 243 .
علي بن إسحاق البرمكي : 601 .
علي بن جبلة (العكوّك) : 36 ، 37 ، 107 ، 233 ، 284 .
علي بن الجهم : 34 .
علي بن الحسن الشيباني : 176 .
علي بن حمزة = الكسائي : 30 ، 31 ، 32 ، 53 ، 58 ، 68 ، 72 ، 77 ، 80 ، 81 ، 82 ، 90 ، 92 ، 108 ، 110 ، 111 ، 126 ، 127 ، 135 ، 136 ، 137 ، 138 ، 139 ، 140 ، 141 ، 142 ، 143 ، 144 ، 145 ، 148 ، 162 ، 174 ، 176 ، 192 ، 219 ، 287 ، 426 ، 467 ، 433 ، 496 ، 584 ، 589 ، 593 ، 605 .
علي بن الخليل : 33 ، 34 ، 35 ، 95 ، 98 ، 99 ، 103 ، 283 ، 301 ، 511 ، 520 ، 525 ، 531 ، 534 ، 540 ، 541 ، 543 ، 644 ، 645 ، 649 ، 670 ، 673 ، 681 ، 683 ، 684 .
أبو علي الخياط : 601 .
علي بن سليمان بن علي العباس : 65 ، 74 .
علي بن عبدة (كاتب) : 299 .
علي بن عبد الله بن سيف (علّويه المغني) (أبو الحسن) : 112 ، 116 ، 225 ، 580 .
علي بن عبد الله (الطيّب العلوي) : 339 .
علي بن عيسى بن جعفر (الهاشمي) : 118 .
علي بن عيسى بن ماهان (الوالي) : 50 ، 321 ، 470 ، 663 ، 664 .
علي بن المبارك (الأحمر النحوي) : 31 ، 143 ، 145 ، 162 ، 191 ، 219 ، 426 ، 427 ، 433 ، 593 .
علي محمود طه : 625 .
علي بن محمد : 398 .
علي بن المنجم : 595 .
علي (الرضا) بن موسى بن جعفر (العلوي) : 73 ، 603 .
علي بن يقطين : 601 .
عُليّة بنت المهدي (أخت الرشيد) : 114 ، 116 ، 154 ، 159 ، 164 ، 399 ، 402 ، 408 ، 409 ، 471 ، 581 ، 585 ، 701 .

العماني = محمد بن ذؤيب
عمر بن أبي ربيعة : 92 ، 93 ، 227 ، 412 ، 458 .
أبو عمر الجرمي = صالح بن إسحاق
عمر بن حبيب (القاضي) : 51 ، 107 ، 130 ، 662 ، 702 .
عمر بن الخطاب : 128 ، 134 ، 139 ، 383 ، 485 ، 571 ، 657 ، 700 .
عمر بن سلمة = ابن أبي العلاء : 103 ، 107 ، 122 ، 423 ، 468 ، 472 ، 498 ، 641 ، 646 ، 648 ، 653 ، 677 ، 681 ، 687 ، 690 .
عمر بن سليمان الحيري = أبو قابوس النصراني) : 62 ، 106 ، 327 ، 534 ، 667 .
عمر بن عامر = أبو الخطاب البهدلي : 61 .
عمر بن عبد العزيز (الخليفة) : 128 ، 634 ، 700 .
عمر بن عبد العزيز = أبو حفص الشطرنجي : 158 ، 202 ، 204 ، 584 ، 585 ، 589 .
عمر بن العلاء : 37 ، 84 .
عمر الغزّال : 555 .
عمر بن فرج الرُخَّجي :
عمر بن مساور (الكاتب) : 442 .
عمر بن مطرف (الكاتب) : 660 .
عمر الوراق (الشاعر) : 38 ، 430 .
عمرو بن بانة المغني : 122 ، 560 .
عمرو بن بحر (الجاحظ) : 31 ، 33 ، 439 ، 624 .
عمرو بن الحارث الغساني (الأعرج) : 510 .
أو عمرو الشادي : 315 .
أبو عمرو الشيباني = إسحاق بن مرار
أبو عمرو بن العلاء = زبان
عمرو بن محمد العمركي (الزنديق) : 294 .
عمرو بن كلثوم : 610 .
عمر بن أبي الكنّان (المغني) : 53 ، 550 ، 555 ، 566 .
عمر بن مسعدة (الوزير) : 464 .
عمرو بن هند (ملك الحيرة) : 234 .
العمري : 154 .
أبو عُمير (النحاس) : 38 ، 408 .
عنان (جارية الناطفي) : 38 ، 203 ، 204 ، 205 ، 408 ، 430 .
ابن عنبسة : 65 .
عنزة بن شراء : 225 ، 239 ، 318 ، 351 ، 610 ، 647 .
عون (حاجب الفضل بن الربيع) : 120 .
عيسى بن جعفر الهاشمي : 57 ، 76 ، 77 ، 80 ، 95 ، 154 ، 279 ، 426 ، 478 ، 506 ، 554 ، 663 .
أبو عيسى بن أبي جعفر المنصور : 304 .
أبو عيسى بن الرشيد : 114 ، 401 ، 402 ، 406 .
عيسى بن علي بن ماهان : 321 .
عيسى المسيح (عليه السلام) : 379 ، 381 ،

382 ، 383 ، 384 ، 385 ، 386 ،
390 ، 480 ، 568 .
أبو عيسى المنجم = أحمد بن علي بن يحيى
عيسى بن موسى (العباسي) : 287 ، 288 ،
486 ، 490 .
عيسى بن يزدا نيروز (الكاتب) : 105 .
عيينة بن مرداس : 222 .
علاّن الشعوبي : 595 ، 597 .

- غ -

غادر = أمة العزيز : 463 ، 464 .
غرونباوم = (فون جوستاف)
ابن الغزالة (الفقيه) : 584 .
الغمر بن يزيد : 485 .
غوستاف لوبون : 352 .
أبو الغول (الشاعر) : 194 .
غياث بن غوث (الأخطل) : 184 ، 217 ،
226 ، 227 ، 334 ، 622 ، 668 .
غيلان بن عتبة = ذو الرمة : 217 ، 232 ،
434 ، 619 .
غيلان بن يونس (القدري) : 309 .

- ف -

الفارعة = ليلى
فازيليف : 363 ، 375 ، 376 .
فاطمة بنت عمرو (جدة الرسول ﷺ) : 330 .
فاطمة الزهراء (ابنة الرسول ﷺ) : 330 ،
340 .
الفتح بن خاقان : 595 .
الفراء = يحيى بن زكريا
فرج الرضّجي (أبو سُليم) (مولى الرشيد) :
121 ، 371 ، 442 ، 663 .
أبو الفرج الواوا (الشاعر) : 216 .
الفرزدق = همام بن غالب :
فرعون (مصر) : 631 .
أبو فرعون الساسي : 438 ، 444 .
فرويد = سيغموند
الفضل بن جعفر البرمكي : 245 ، 276 .
الفضل بن الربيع : 32 ، 44 ، 47 ، 48 ،
49 ، 50 ، 53 ، 58 ، 62 ، 64 ،
65 ، 66 ، 67 ، 68 ، 69 ، 70 ،
71 ، 78 ، 81 ، 85 ، 87 ، 88 ،
92 ، 94 ، 95 ، 96 ، 97 ، 98 ،
99 ، 101 ، 102 ، 110 ، 112 ،
115 ، 120 ، 121 ، 132 ، 140 ،
155 ، 156 ، 188 ، 190 ، 202 ،
210 ، 212 ، 229 ، 303 ، 304 ،
305 ، 306 ، 323 ، 334 ، 423 ،
428 ، 434 ، 444 ، 466 ، 483 ،
512 ، 514 ، 516 ، 517 ، 531 ،
554 ، 557 ، 559 ، 582 ، 606 ،
607 ، 616 ، 637 ، 638 ، 703 .
الفضل الرقاشي (الشاعر) : 39 .
الفضل بن سعيد (الحروري) : 315 .
الفضل بن سهل : 192 ، 334 ، 511 .
الفضل بن صالح الهاشمي : 74 .
الفضل بن عبد الصمد = الرقاشي : 39 ، 282 ،

283 ، 429 .
الفضل بن نوبخت : 594 ، 596 .
الفضل بن يحيى البرمكي : 39 ، 47 ، 49 ، 55 ، 58 ، 59 ، 60 ، 61 ، 62 ، 63 ، 65 ، 66 ، 68 ، 70 ، 85 ، 89 ، 97 ، 99 ، 105 ، 106 ، 110 ، 115 ، 116 ، 168 ، 169 ، 196 ، 245 ، 246 ، 276 ، 285 ، 311 ، 325 ، 326 ، 327 ، 328 ، 425 ، 460 ، 463 ، 466 ، 472 ، 478 ، 479 ، 483 ، 502 ، 503 ، 504 ، 513 ، 534 ، 557 ، 586 ، 599 ، 614 ، 636 ، 667 .
الفضيل بن عياض (الواعظ) : 102 ، 314 ، 606 ، 631 ، 632 ، ، 634 .
فطيون (ملك اليهود) : 255 .
ابن فليح المدني : 53 ، 72 ، 258 .
ابن أبي فنن : 34 .
فهر بن مالك (قريش) : 264 .
فولتير : 638 .
فون غوستاف غرونباوم : 9 ، 399 ، 441 ، 445 ، 662 ، 626 .
الفيض بن صالح : 51 .

ـ ق ـ

أبو قابوس الحيري = عمر بن سليمان
القاسم (بن الرشيد) = المؤتمن : 72 ، 85 ، 89 ، 121 ، 355 ، 476 ، 478 ، 481 ، 482 ، 483 ، 493 ، 495 .
القاسم بن عيسى = أبو دلف العجلي : 36 .
قتادة : 544 .
قثم بن جعفر بن سليمان : 55 ، 73 .
قحطان (جد العرب) : 251 ، 268 .
قحطبة الشاري : 315 .
قدامة بن جعفر : 623 ، 643 ، 694 .
قدامة بن عبد الله العمري : 634 .
قرة بن محرز : 43 .
قريش = الفهر بن مالك
قسطا بو لوقا البعلبكي : 594 .
قسطنطين السادس : 19 ، 343 ، 344 ، 350 ، 351 ، 353 ، 355 ، 371 ، 372 ، 374 ، 375 ، 376 ، 379 ، 386 ، 387 ، 390 ، 391 ، 392 ، 393 ، 394 ، 488 ، 658 .
قطري بن الفجاءة الخارجي : 314 .
قيس بن معد يكرب : 509 .
قيس بن الملوّح : 403 .
قيصر ملك الروم : 375 .

ـ ك ـ

كابرييل أوديسيو : 474 .
كارل بروكلمن : 9 ، 245 .
كارل ماركس : 451 ، 452 .
كاستون بوتول : 703 .
كثيّر عزّة : 285 .
الكسائي = علي بن حمزة
كسرى : 241 .
كسرى أنو شروان : 555 .
كعب بن مالك : 222 .

كلثوم بن عمرو = العتّابي : 33 ، 34 ، 46 ، 35 ، 61 ، 71 ، 72 ، 103 ، 146 ، 213 ، 257 ، 260 ، 265 ، 267 ، 268 ، 310 ، 401 ، 430 ، 431 ، 432 ، 433 ، 445 ، 446 ، 513 ، 515 ، 518 ، 519 ، 529 ، 531 ، 533 ، 534 ، 536 ، 537 ، 538 ، 539 ، 540 ، 541 ، 542 ، 543 ، 545 ، 546 ، 547 ، 601 ، 650 ، 667 ، 676 ، 677 ، 693 ، 696 ، 697 ، 704 ، 705 ، 706 .
كليب = وائل بن ربيعة
الكميت بن زيد الأسدي : 217 ، 256 .
ابن أبي الكنّات = عمرو
الكندي = يعقوب بن إسحاق
كوثر (غلام الأمين) : 407 .

ـ ل ـ

لا تسل (غلام صالح بن الرشيد) : 407 .
لانجفيلد : 451 .
لبيد بن ربيعة : 221 .
ابن لجأ التميمي : 222 .
لجيم بن صعب بن علي : 264 .
اللعين المنقري : 150 .
أبو لهب : 132 ، 213 .
لوبون = غوستاف
لويس الرابع عشر : 638 .
ليسترنج : 34 .
ليلى الأخيلية : 37 .
ليلى (الفارعة أخت الوليد بن طريف) : 317 .
ليلى العامرية : 403 .
ابن أبي ليلى = محمد بن عبد الرحمن
ليو الثالث : 394 .
ليو الرابع : 343 ، 488 .

ـ م ـ

ماردة (محظية الرشيد) : 93 ، 158 ، 161 ، 202 ، 412 ، 585 .
الماجشون أبو سلمة = عبد العزيز
ماركس = كارل
ماري (كونتيسة شامبانيا) : 43 .
ماسويه (الطبيب) : 598 .
ابن ماسويه : 35 .
مالك بن أنس (الإمام) : 29 ، 30 ، 131 ، 132 ، 186 ، 420 ، 593 ، 606 ، 638 .
مالك الخزاعي : 444 .
مالك بن طوق التغلبي : 36 ، 259 .
المأمون = عبد الله بن الرشيد
ماني (نبي الفرس) : 293 ، 296 ، 297 ، 298 ، 302 .
مبارك بن فضالة : 126 .
المبرد = محمد بن يزيد
متمم بن نويرة الشاعر : 149 .
المتنبي : 626 .
المتوكل (الخليفة) : 49 50 ، 104 ، 595 .
أبو محجن الثقفي = عبد الله بن حبيب
محمد بن إبراهيم الإمام (العباسي) : 60 ، 258 .

محمد بن إبراهيم الهاشمي : 425 .
محمد بن أبي الخطاب = أبو زيد القرشي : 223 .
محمد بن أبي عيينة : 187 .
محمد بن إدريس = الإمام الشافعي : 29 ، 129 ، 130 ، 132 ، 133 ، 186 ، 192 ، 193 ، 261 ، 593 .
محمد بن إسماعيل بن عبد الله بن عباس : 420 .
محمد بن الأشعث : 70 .
محمد الباقر (الإمام العلوي) : 707 .
محمد بن بشير الخارجي : 107 ، 185 ، 227 .
محمد البيدق (المنشد) : 44 ، 55 ، 57 ، 95 ، 96 ، 117 ، 152 ، 153 ، 184 ، 260 ، 468 .
محمد بن جعفر : 76 .
محمد بن جنيد الختلي : 52 ، 94 .
محمد بن الجهم : 426 ، 584 ، 612 .
محمد بن حازم الباهلي : 435 .
محمد بن الحسن بن أبي سارة = أبو جعفر الرؤاسي : 30 .
محمد بن الحسن الشيباني (الفقيه) : 57 ، 81 ، 101 ، 108 ، 117 ، 129 ، 130 ، 132 ، 134 ، 135 ، 136 ، 137 ، 148 ، 261 ، 605 ، 630 ، 657 ، 702 .
محمد بن خالد بن برمك : 58 ، 300 ، 554 ، 594 .
محمد بن ذؤيب = العُماني : 33 ، 54 ، 86 ، 88 ، 89 ، 101 ، 106 ، 237 ، 260 ، 369 ، 398 ، 400 ، 424 ، 437 ، 443 ، 445 ، 465 ، 471 ، 473 ، 478 ، 479 ، 480 ، 481 ، 482 ، 483 ، 484 ، 485 ، 486 ، 487 ، 488 ، 489 ، 525 ، 587 ، 607 ، 615 ، 616 ، 645 ، 647 ، 648 ، 649 ، 654 ، 677 ، 685 ، 709 .
محمد بن الرشيد = أبو أيوب : 482 .
محمد بن الرشيد = الأمين : 31 ، 71 ، 72 ، 73 ، 75 ، 78 ، 80 ، 81 ، 85 ، 89 ، 106 ، 138 ، 141 ، 156 ، 174 ، 185 ، 189 ، 192 ، 193 ، 207 ، 208 ، 303 ، 304 ، 305 ، 306 ، 402 ، 406 ، 407 ، 410 ، 460 ، 462 ، 463 ، 475 ، 476 ، 477 ، 478 ، 479 ، 480 ، 481 ، 482 ، 483 ، 484 ، 485 ، 486 ، 487 ، 488 ، 489 ، 490 ، 491 ، 492 ، 493 ، 494 ، 495 ، 496 ، 497 ، 498 ، 506 ، 523 ، 575 ، 691 ، 708 ، 710 .
محمد الزُّفّ (المغني) : 569 .
محمد بن زياد = ابن الأعرابي : 30 .
محمد بن زياد الحاركي : 292 .
محمد بن سعدان : 143 .
محمد بن سعيد الترمذي : 550 .

محمد بن سلام : 35 .
محمد بن سليمان (الهاشمي) : 11 ، 155 ، 169 ، 187 ، 397 ، 398 ، 440 ، 466 .
محمد بن صباح الطبري : 466 .
محمد بن صبح الزاهد (ابن السماك) : 40 ، 102 ، 629 ، 631 ، 634 ، 635 ، 637 ، 638 .
محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى (الفقيه) : 287 ، 288 .
محمد بن عبد الله بن حسن (النفس الزكية) : 325 ، 330 ، 332 ، 338 ، 707 .
محمد بن عبد الله بن رزين الخزاعي (أبو الشيص) : 262 ، 263 ، 368 ، 519 ، 520 ، 522 ، 525 ، 527 ، 612 .
محمد بن عبد الله (ﷺ) : 28 ، 72 ، 126 ، 129 ، 130 ، 131 ، 132 ، 138 ، 139 ، 147 ، 191 ، 213 ، 217 ، 222 ، 225 ، 253 ، 254 ، 259 ، 261 ، 262 ، 263 ، 268 ، 280 ، 291 ، 296 ، 308 ، 319 ، 323 ، 329 ، 330 ، 331 ، 332 ، 334 ، 335 ، 336 ، 337 ، 338 ، 340 ، 346 ، 372 ، 374 ، 376 ، 377 ، 378 ، 379 ، 380 ، 381 ، 382 ، 383 ، 388 ، 389 ، 391 ، 393 ، 393 ، 464 ، 478 ، 484 ، 485 ، 489 ، 495 ، 594 ، 605 ، 606 ، 634 ، 658 ، 660 ، 676 ، 677 ، 678 ، 679 ، 681 ، 682 ، 684 ، 686 ، 694 ، 695 ، 696 ، 699 ، 705 ، 706 ، 707 ، 708 .
محمد بن عبد الوهاب الثقفي : 309 .
محمد بن عبيد الله بن عبد المدان : 284 .
محمد بن علي (العباسي) : 701 .
محمد بن علي بن أمية = أبو حشيشة الطنبوري : 49 .
محمد بن عمران = المرزباني : 649 .
محمد بن عمرو = الجمّاز البصري : 55 ، 73 ، 119 ، 206 ، 302 .
محمد كرد علي : 252 .
محمد بن كُناسة : 36 ، 38 .
محمد بن الليث الخطيب (أبو الربيع) : 297 ، 299 ، 371 ، 374 ، 375 ، 393 ، 601 .
محمد بن محمد : 550 .
محمد بن مناذر : 30 ، 37 ، 40 ، 52 ، 61 ، 70 ، 110 ، 146 ، 178 ، 179 ، 244 ، 258 ، 259 ، 281 ، 283 ، 292 ، 309 ، 423 ، 429 ، 473 ، 623 ، 646 ، 649 ، 687 .
محمد بن المنصور = المهدي : 31 ، 53 ، 66 ، 80 ، 82 ، 88 ، 90 ، 91 ، 111 ، 114 ، 126 ، 129 ، 165 ، 180 ، 211 ، 233 ، 244 ، 258 ، 261 ، 282 ، 287 ، 290 ، 295 ، 296 ،

301 ، 332 ، 333 ، 334 ، 336 ،
338 ، 350 ، 395 ، 444 ، 458 ،
456 ، 485 ، 488 ، 501 ، 510 ،
512 ، 532 ، 556 ، 594 ، 613 ،
615 ، 623 ، 669 ، 673 ، 687 ،
707 ، 708 .
محمد بن منصور بن زياد : 463 ، 624 .
محمد بن موسى : 112 .
محمد بن يحيى بن أبي مرّة التغلبي : 335 .
محمد بن يحيي بن خالد البرمكي : 65 ، 70 .
محمد بن يحيى اليزيدي : 616 .
محمد بن يزيد (أبو العباس المبرّد) : 143 .
محمود الوراق : 431 .
مخارق (المغني) : 97 ، 115 ، 549 ، 550 .
أبو المخفف = عاذر بن شاكر :
مخلد البواب (كاتب) : 105 .
المدائني : 601 .
المرأة البرمكية : 208 ، 209 .
المرّار الأسدي : 589 .
ابن مرار : 420 .
المرزباني = محمد بن عمران
مروان بن الحكم (الأموي) : 90 .
مروان أخو رافع = بشير
مروان بن سليمان بن يحيى = ابن أبي حفصة
33 ، 38 ، 52 ، 56 ، 59 ، 61 ، 63 ،
66 ، 87 ، 89 ، 90 ، 91 ، 111 ،
150 ، 152 ، 153 ، 179 ، 180 ،
181 ، 191 ، 222 ، 223 ، 244 ،
261 ، 263 ، 328 ، 329 ، 330 ،
333 ، ، 334 ، 335 ، 336 ، 338 ،
339 ، 349 ، 350 ، 351 ، 370 ،
400 ، 423 ، 424 ، 427 ، 428 ،
429 ، 442 ، 466 ، 503 ، 504 ،
512 ، 513 ، 523 ، 584 ، 587 ،
605 ، 607 ، 615 ، 618 ، 619 ،
622 ، 645 ، 651 ، 652 ، 668 ،
669 ، 670 ، 673 ، 682 ، 686 ،
686 ، 688 ، 704 .
مروان بن محمد = أبو الشمقمق : 309 ،
352 ، 426 ، 439 ، 441 ، 442 ،
443 ، 444 ، 454 .
مروان بن محمد (الخليفة الأموي) : 352 ،
359 ، 426 ، 439 ، 441 ، 442 ،
443 ، 444 ، 454 .
ابن أبي مريم المدني (مضحك الرشيد) : 96 ،
97 ، 569 ، 588 .
مريم بنت عمران : 338 .
مزدك : 68 ، 293 .
مزّرد بن ضرار (أخو الشماخ) : 235 ،
570 ، 576 .
مسرور الكبير (سيّاف الرشيد) : 51 ، 80 ،
95 ، 105 ، 122 ، 154 ، 225 ،
262 ، 509 ، 579 ، 604 .
مسكين المدني = أبو صدقة (المغني) : 105 ،
15 ، 556 ، 560 ، 561 ، 573 ،
580 .

أبو مسلم الخراساني = عبد الرحمن بن مسلم
أبو مسلم الشاري : 315 .
مسلمة بن عبد الملك : 553 .
مسلم بن الوليد الأنصاري = صريع الغواني : 36 ، 43 ، 48 ، 57 ، 92 ، 99 ، 117 ، 153 ، 188 ، 189 ، 190 ، 217 ، 226 ، 227 ، 245 ، 254 ، 255 ، 256 ، 258 ، 261 ، 262 ، 264 ، 276 ، 279 ، 281 ، 299 ، 317 ، 318 ، 319 ، 429 ، 430 ، 431 ، 441 ، 513 ، 514 ، 519 ، 520 ، 521 ، 523 ، 524 ، 525 ، 526 ، 527 ، 582 ، 587 ، 605 ، 650 ، 668 ، 670 ، 672 ، 673 ، 682 ، 688 ، 691 ، 692 ، 693 ، 694 .
مصطفى سويف : 27 ، ، 247 ، 451 .
مصطفى كمال : 704 .
مصعب بن عبد الله الزبيري : 435 .
مضر (أخو ربيعة ، جد عرب الشمال) : 267 ، 268 ، 705 .
مطيع بن إياس : 33 ، 298 ، 442 .
أبو المعالي الكلابي : 347 ، 352 .
معاوية بن أبي سفيان : 375 ، 510 .
أبو معاوية الباهلي : 550 .
أبو معاوية الضرير : 128 ، 130 ، 410 ، 605 ، 648 .
المعتصم بن الرشيد : 49 ، 104 ، 401 ، 593 ، 710 .
معقر بن جمار البارقي : 235 .
معمر بن عبّاد السلمي : 373 .
معمر بن المثنى = أبو عبيدة : 31 ، 36 ، 47 ، 48 ، 50 ، 68 ، 78 ، 79 ، 117 ، 139 ، 140 ، 434 ، 530 ، 584 .
معن بن زائدة الشيباني : 63 ، 90 ، 150 ، 152 ، 168 ، 244 ، 512 ، 605 ، 668 .
المغيرة بن حبناء الأشجعي : 33 .
المغيرة (تلميذ الإمام مالك) : 131 .
المغيرة بن سعد العجلي : 707 .
مقاتل (من العلماء) : 128 ، 129 .
المقريزي = تقي الدين
المفضل الضبي = أبو عبد الرحمن : 31 ، 33 ، 52 ، 54 ، 72 ، 73 ، 81 ، 82 ، 92 ، 103 ، 138 ، 139 ، 162 ، 173 ، 195 ، 218 ، 219 ، 228 ، 258 ، 287 ، 423 ، 608 .
المنذر بن ماء السماء : 510 ، 667 .
منصور بن أحمد البرمكي : 601 .
منصور الأصبهاني (الشاعر) : 431 .
منصور بن بجرة : 512 .
منصور زلزل (العازف) : 56 ، 421 ، 531 ، 538 ، 541 ، 565 ، 661 ، 701 .
منصور بن زياد (الكاتب) : 442 ، 444 .
منصور بن سلمة = النمري : 11 ، 26 ، 33 ،

34 ، 44 ، 46 ، 54 ، 62 ، 75 ، 86 ، 87 ، 88 ، 89 ، 90 ، 95 ، 96 ، 98 ، 121 ، 149 ، 179 ، ، 180 ، 181 ، 213 ، 224 ، 225 ، 228 ، 233 ، 260 ، 261 ، 262 ، 265 ، 266 ، 267 ، 268 ، 174 ، 310 ، 323 ، 328 ، 329 ، 330 ، 331 ، 333 ، 334 ، 335 ، 337 ، 338 ، 340 ، 341 ، 349 ، 351 ، 400 ، 424 ، 427 ، 466 ، 478 ، 512 ، 513 ، 515 ، 521 ، 522 ، 523 ، 525 ، 527 ، 531 ، 535 ، 536 ، 543 ، 545 ، 584 ، 587 ، 607 ، 613 ، 618 ، 620 ، 622 ، 645 ، 650 ، 651 ، 652 ، 653 ، 666 ، 668 ، 669 ، 670 ، 672 ، 674 ، 678 ، 680 ، 681 ، 684 ، 686 ، 687 ، 693 ، 704 ، 705 ، 708 ، 709 .

أبو منصور العجلي (صاحب فرقة المنصورية) : 707 .

منصور بن عمار : 307 ، 345 ، 632 .

منكه الهندي (طبيب) : 595 ، 598 .

أبو منيب الكلبي : 273 .

المهدي = محمد بن المنصور

المهدي المنتظر : 690 ، 707 ، 708 ، 709 .

مهرويه الرازي : 294 .

المهلهل بن ربيع : 234 .

موّاسة (بنت الرشيد) : 79 .

المؤتمن = القاسم بن الرشيد

موسى (النبي) : 128 ، 236 ، 305 ، 379 ، 382 ، 485 ، 631 ، 696 .

أبو موسى التميمي : 152 .

موسى السلولي : 101 ، 117 ، 183 ، 258 .

موسى بن عيسى (العباسي) : 65 ، 272 ، 458 ، 485 .

موسى الكاظم (الإمام العلوي) : 331 ، 332 ، 339 ، 475 ، 705 .

موسى بن يحيى البرمكي : 272 ، 274 ، 326 ، 460 .

موسى بن محمد = الهادي : 45 ، 59 ، ، 64 ، 74 ، 81 ، 82 ، 88 ، 108 ، 114 ، 180 ، 258 ، 287 ، 290 ، 293 ، 323 ، 324 ، 325 ، 459 ، 463 ، 490 ، 530 ، 532 ، 708 .

موسيليني : 703 .

موليير : 446 .

المؤمل بن أميل : 332 ، 333 ، 338 .

ميشا لانجلو : 298 .

ميمون بن قيس (أعشى قيس) : 91 ، 222 ، 223 ، 509 ، 548 .

ميمونة (الجارية السوداء) : 575 .

ـ ن ـ

النابغة الذبياني = زياد بن معاوية

النابغة الجعدي : 237 ، 239 ، 509 .

الناطفي صاحب عنان : 38 ، 203 ، 205 ، 408 .

نافع بن الأزرق (الخارجي) : 314 .
نثيلة (أم العباس عم الرسول ﷺ) : 86 ، 705 .
النجاشي (الشاعر) : 571 .
أبو النجم (الشاعر) : 234 .
نزار جد العرب الشمالية : 705 .
أبو النشناش النهشلي : 55 .
نصر بن سيار (الوالي الأموي) : 269 ، 320 .
نصر بن شبث : 49 .
نصر بن علي الجهضمي : 19 .
نُصيب الأصفر (أبو الحجناء) : 63 ، 217 ، 407 ، 425 ، 518 ، 524 ، 525 ، 526 ، 615 ، 648 ، 650 ، 666 ، 671 ، 678 ، 682 ، 683 ، 684 ، 685 .
النعمان بن ثابت (الإمام أبو حنيفة) : 29 ، 30 ، 57 ، 132 ، 134 ، 135 ، 137 ، 186 ، 309 ، 426 ، 593 .
النعمان بن المنذر : 241 ، 510 ، 530 ، 531 ، 537 ، 705 .
نقفور (امبراطور الروم) : 343 ، 344 ، 351 ، 353 ، 354 ، 355 ، 356 ، 357 ، 358 ، 359 ، 360 ، 361 ، 362 ، 363 ، 364 ، 365 ، 366 ، 368 ، 370 ، 515 .
أبو نواس = الحسن بن هانيء
النوشجاني : 308 .

ـ هـ ـ

الهادي = موسى بن محمد
هارون (أبو محمد) : 102 .
هاشم بن سليمان (موف بني أمية) : 563 ، 574 .
هاملتون جب : 290 ، 298 ، 276 .
هتلر : 704 .
هرثمة بن أعين (قائد الرشيد) : 122 ، 644 .
هرم بن سنان : 613 ، 619 ، 645 .
هرمس : 298 .
أبو هريرة : 108 ، 130 ، 131 ، 679 ، 702 .
هشام بن إسماعيل : 575 .
هشام بن عبد الملك (الخليفة الأموي) : 90 ، 153 ، 283 ، 424 ، 505 ، 612 .
هشام بن معاوية : 143 .
هشيم بن بشير (فقيه ، محدّث) : 29 ، 450 ، 584 .
هِلْ : 369 .
أبو هلال العسكري : 222 ، 232 .
همام بن غالب (الفرزدق) : 139 ، 647 ، 701 .
الهنازي (الشاعر) :324 ، 708 .
هوذة بن علي بن ثمامة الحنفي : 509 .
أبو الهول (الشاعر) : 300 .
الهيثم بن عدي : 108 ، 281 ، 282 ، 283 ، 284 ، 285 .
أبو الهيذام = عامر بن عمارة بن خريم

الهيصم بن عبد المجيد اليماني : 315 ، 321 ، 322 .

هيلانة (محظية الرشيد) : 67 ، 93 ، 405 ، 585 ، 586 .

- و -

وائل بن ربيعة (كليب سيّد تغلب) : 268 .

الواثق (الخليفة العباسي) : 97 ، 710 .

واصل بن عطاء : 426 .

والبة بن الحباب : 33 ، 34 .

الورك الطائي : 175 .

وصيف الخادم التركي : 121 .

وكيع بن الجراح الرؤاسي (العالم الزاهد) : 435 .

الوليد بن طريف : 264 ، 265 ، 315 ، 316 ، 318 ، 320 ، 464 ، 531 ، 705 .

الوليد بن عبد الملك (الأموي) : 452 ، 398 .

الوليد بن يزيد (الأموي) : 90 ، 153 ، 169 ، 191 ، 196 ، 414 ، 574 .

وهب بن وهب بن منبه (أبو البختري القاضي) : 134 ، 628 .

- ي -

يحيى بن أبي مرة التغلبي : 335 .

يحيى بن أكثم : 11 ، 12 .

يحيى بن البطريق = أبو زكريا : 596 .

يحيى الحرشي : 316 .

يحيى بن خالد البرمكي : 12 ، 43 ، 45 ، 58 ، 59 ، 60 ، 61 ، 62 ، 64 ، 66 ، 67 ، 68 ، 70 ، 71 ، 72 ، 74 ، 90 ، 95 ، 97 ، 99 ، 100 ، 103 ، 108 ، 111 ، 113 ، 115 ، 126 ، 143 ، 144 ، 145 ، 148 ، 151 ، 160 ، 161 ، 171 ، 192 ، 233 ، 251 ، 263 ، 272 ، 276 ، 285 ، 300 ، 310 ، 321 ، 327 ، 328 ، 355 ، 374 ، 405 ، 408 ، 423 ، 425 ، 432 ، 435 ، 442 ، 444 ، 459 ، 460 ، 462 ، 469 ، 482 ، 498 ، 511 ، 531 ، 560 ، 565 ، 586 ، 596 ، 598 ، 601 ، 617 ، 618 ، 663 ، 663 ، 699 .

يحيى بن زكريا الفراء (أبو زياد) : 29 ، 30 ، 32 ، 81 ، 107 ، 109 ، 137 ، 143 ، 145 ، 219 ، 426 ، 427 ، 584 .

يحيى بن زياد (الكاتب) : 30 ، 292 ، 299 ، 301 ، 644 ، 649 ، 665 ، 666 ، 667 ، 670 ، 683 ، 685 ، 696 .

يحيى بن سعيد الأنباري : 65 .

يحيى بن طالب الحنفي : 700 .

يحيى بن عبد الرحمن (أبو صالح ، كاتب الرشيد) : 151 ، 164 .

يحيى بن عبد الله بن حسن (العلوي) : 62 ، ، 74 ، 179 ، 325 ، 326 ، 327 ، 328 ، 329 ، 339 ، 475 ، 502 .

يحيى بن المبارك بن المغيرة (المقريء) : 140 .

يحيى بن المبارك اليزيدي (أبو محمد) : 30 ، 32 ، 54 ، 68 ، 72 ، 73 ، 102 ،

110 ، 139 ، 140 ، 141 ، 145 ، 219 ، 258 ، 259 ، 337 ، 497 ، 500 ، 593 ، 601 ، 616 ، 617 ، 696 .
يحيى بن محمد : 35 ، 55 .
يحيى المكي : 11 ، 424 ، 553 ، 578 .
يزدان بن باذان (كاتب يقطين) : 293 .
يزيد بن أسيد : 257 .
يزيد حوراء (المغني) : 562 .
يزيد بن مخلد : 291 ، 356 .
يزيد بن مزيد الشيباني : 12 ، 35 ، 39 ، 43 ، 44 ، 56 ، 57 ، 65 ، 90 ، 96 ، 117 ، 152 ، 155 ، 161 ، 168 ، 168 ، 211 ، 254 ، 264 ، 265 ، 301 ، 315 ، 316 ، 317 ، 318 ، 319 ، 320 ، 349 ، 423 ، 444 ، 458 ، 513 ، 514 ، 605 ، 622 ، 705 .
يزيد بن منصور الحميري : 54 ، 99 ، 258 ، 261 ، 471 ، 513 .
يزيد بن الوليد (الأموي) : 88 .
اليزيدي = يحيى بن المبارك
يعرب بن قحطان : 251 .
يعقوب بن إبراهيم = أبو يوسف (القاضي) : 56 ، 57 ، 58 ، 76 ، 81 ، 108 ، 126 ، 129 ، 130 ، 131 ، 133 ، 134 ، 135 ، 136 ، 137 ، 154 ، 164 ، 186 ، 187 ، 260 ، 309 ، 373 ، 406 ، 426 ، 469 ، 560 ، 600 ، 616 ، 630 ، 656 ، 657 ، 658 ، 659 ، 660 ، 661 ، 679 .
يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندي : 594 .
أبو يعقوب الخريمي = إسحاق بن حسان
يعقوب بن داوود (وزير المهدي) : 212 ، 459 .
يعقوب بن صالح بن علي الهاشمي : 59 .
يوحنا الدمشقي : 376 .
يوحنا بن ماسويه : 594 ، 596 .
يوسف بن الحجاج = الصيقل : 54 ، 121 ، 442 ، 468 ، 560 .
يوسف بن راشد السلمي : 254 .
يونغ : 451 .
يونس بن حبيب (النحوي) : 30 ، 91 .

فهرس المصادر

* **المستطرف في كل فن مستظرف** : الأبشيهي ، أبو الفتح ، شهاب الدين محمد بن أحمد (850هـ) ، المطبعة التجارية الكبرى ، مصر .
* **الكامل في التاريخ** : ابن الأثير ، أبو الحسن ، علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد (630هـ) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1967 .
* **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر** : ابن الأثير ، أبو الفتح ، ضياء الدين نصر الدين بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم (637هـ) ، عيسى البابي الحلبي ، مصر ، 1939 .
* **نزهة الألبّاء في طبقات الأدباء** : ابن الانباري ، أبو البركات ، كمال الدين عبد الرحمن بن محمد (577هـ) ، مكتبة نهضة مصر ، مصر ، 1967 .
* **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** : ابن تغري ، أبو المحاسن ، بردي جمال الدين يوسف (874هـ) ، دار الكتب الوطنية ، مصر .
* **الورقة** : ابن الجرّاح ، أبو عبد الله ، محمد بن داود (296هـ) ، دار المعارف ، 1953 .
* **نقد الشعر** : ابن جعفر ، أبو الفرج ، قدامة (337هـ) ، مكتبة الخانجي ، مصر ، 1963 .
* **ثمرات الأوراق في المحاضرات** (هامش المستطرف) : ابن حجة ، أبو بكر ، الإمام تقي الدين بن علي بن محمد ، الحموي (837هـ) .
* **خزانة الأدب وغاية الأرب** : بولاق ، 1873 .
* **كتاب الأذكياء** : ابن الجوزي ، أبو الفرج ، عبد الرحمن بن علي (656هـ) ، المكتب التجاري ، بيروت ، 1962 .
* **المقدمة** : ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد (808هـ) ، البيان العربي ، مصر ، 1962 .
* **تاريخ العلامة** . . . : دار الكتاب اللبناني بيروت ، 1957 .
* **وفيات الأعيان وانباء الزمان** : ابن خلّكان القاضي أحمد (691هـ) ، مطبعة الوطن ، 1881 .
* **العمدة في صناعة الشعر ونقده** : ابن رشيق ، أبو علي ، الحسن ، القيرواني (463هـ) ، أمين هندية ، مصر ، 1925 .
* **الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة** : ابن شدّاد ، أبو عبيد الله ، عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم (681هـ) ، المعهد الفرنسي ، دمشق ، 1965 .
* **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية** : ابن الطقطقي ، محمد علي بن طباطبا (701هـ) ، دار صادر ، بيروت ، 1966 .

* **الائمة الاثنا عشر** : ابن طولون ، شمس الدين محمد (953هـ) ، دار صادر ، بيروت ، 1958 .
* **العقد الفريد** : ابن عبد ربه ، أبو عمر ، أحمد بن محمد (327هـ) ، لجنة التأليف والترجمة ، مصر ، 1948 .
* **تاريخ مختصر الدول** : ابن العبري ، أبو الفرج ، غريغوريوس بن هارون الطبيب الملطي (686هـ) ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، 1890 .
* **الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها** : ابن فارس ، أبو الحسن ، أحمد (395هـ) ، المطبعة السلفية ، مصر ، 1910 .
* **كتاب رسل الملوك ومن يصلح للرسالة أو السفارة** : ابن الفرّاء ، أبو علي ، الحسين بن محمد (القرن الخامس الهجري) ، لجنة التأليف والترجمة ، مصر ، 1947 .
* **أدب الكاتب** : ابن قتيبة ، أبو محمد ، عبد الله بن مسلم ، الدينوري (276هـ) ، مطبعة حجازي ، مصر ، 1935 .
* **الشعر والشعراء** : ابن قتيبة ، أبو محمد ، عبد الله بن مسلم ، الدينوري (276هـ) ، مكتبة الخانجي ، 1903 .
* **الإمامة والسياسة** : ابن قتيبة ، أبـو محمد ، عبد الله بن مسلم ، الدينوري (276هـ) ، مكتبة عبد العال ، 1909 .
* **عيون الأخبار** : ابن قتيبة ، أبو محمد ، عبد الله بن مسلم ، الدينوري (276هـ) ، دار الكتب الوطنية ، مصر ، 1925 .
* **المعارف** : ابن قتيبة ، أبو محمد ، عبد الله بن مسلم ، الدينوري (276هـ) ، المكتبة الشرقية ، 1882 .
* **الأصنام** : ابن الكلبي ، أبو المنذر ، هشام بن محمد السائب (204هـ) ، دار الكتب ، مصر 1965 .
* **طبقات الشعراء** : ابن المعتز ، عبد الله (296هـ) ، دار المعارف ، 1956 .
* **أبو نواس** : ابن منظور ، محمد بن مكرم (712هـ) ، مطبعة بيروت ، 1969 .
* **العقد الفريد للملك السعيد** : ابن الوزير ، محمد بن طلحة (652هـ) ، مطبعة الوطن ، 1310 .
* **سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون** : ابن نباته ، المصري ، جمال الدين (768هـ) ، دار الفكر العربي ، مصر ، 1964 .
* **الفهرست** : ابن النديم ، محمد بن إسحاق (377هـ) ، مكتبة خياط ، بيروت .
* **أخبار أبي نواس** : أبو هفّان ، عبد الله بن أحمد بن حرب (255هـ) ، مكتبة مصر ، 1953 .
* **كتاب الخراج** : أبو يوسف ، القاضي يعقوب بن يوسف (182هـ) ، المطبعة السلفية ، مصر ، 1962 .

* **إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس** : الاتليدي ، محمد دياب ، مكتبة عبد الحميد حنفي ، مصر ، 1946 .
* **ذيل بهامش المستطرف** : الأحدب ، محمد بن إبراهيم .
* **خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك** : الإربلي ، عبد الرحمن سنبط قنيتو (717هـ) ، مكتبة المثنى ، بغداد ، 1964 .
* **كتاب الأغاني** : الأصفهاني ، أبو الفرج ، علي بن الحسين (360هـ) ، دار الثقافة ، بيروت ، 1957 .
* **المسالك والممالك** : الاصطخري ، أبو إسحاق ، إبراهيم بن محمد ، دار العلم للملايين ، مصر ، 1961 .
* **فحولة الشعراء** : الأصمعي ، أبو سعيد ، عبد الملك بن قريب (216هـ) ، المطبعة المنيرية ، مصر 1953 .
* **المؤتلف والمختلف في اسماء الشعراء وكناهم وألقابهم** : الآمدي ، أبو القاسم ، الحسن بن بشر بن يحيى ، الثغوري (370هـ) ، مكتبة القدسي ، مصر ، 1932 .
* **الفرق بين الفرق** : البغدادي ، الاسفرائيني ، صدر الإسلام عبد القادر بن طاهر بن محمد (429هـ) ، صبيح ، مصر .
* **تاريخ بغداد أو مدينة** : البغدادي ، أبو بكر ، أحمد بن علي بن ثابت الخطيب (763هـ) ، مكتبة الخانجي ، مصر .
* **نساء الخلفاء المسمى** : جهات الائمة الخلفاء من الحرائر والإماء : البغدادي ، أبو طالب ، علي بن انجب بن الساعي الخازن (674هـ) ، دار المعارف ، مصر .
* **خزانة الأدب في العربية والشعر والتراجم واللغة** : البغدادي ، عبد القادر بن عمر ، نزيل القاهرة (1093هـ) ، مكتبة عجان ، حلب .
* **ألف باء** : البلوي ، أبو الحجاج ، يوسف بن محمد ، المطبعة الوهبية ، 1870 .
* **التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه** : البكري ، أبو عبيد ، عبد الله بن عبد العزيز بن محمد ، دار الكتب ، مصر ، 1926 .
* **ملحق الأمالي** : المكتب التجاري ، بيروت .
* **سمط اللآلي في شرح أمالي القالي** : البكري ، أبو عبيد ، عبد الله بن عبد العزيز بن محمد ، لجنة التأليف والترجمة ، مصر ، 1936 .
* **مواسم الأدب وآثار العجم والعرب** : البيتي ، العلوي ، جعفر بن السيد محمد ، طبعة الجمالي والخانجي ، مصر ، 1907 .

* **المحاسن والمساوىء** : البيهقي ، إبراهيم بن محمد(459هـ) ، مطبعة السعادة ، 1906 .
* **الفرج بعد الشدة** : التنوخي ، أبو الحسين بن أبي القاسم (384هـ) ، مكتبة الخانجي والمثنى ، 1907 .
* **البصائر والذخائر** : التوحيدي ، أبو حيّان ، علي بن محمد بن العباس (414هـ) ، مكتبة اطلس ، دمشق ، 1964 .
* **فقه اللغة وأسرار العربية** : الثعالبي ، أبو منصور ، الإمام عبد الله بن محمد بن إسماعيل (429هـ) ، المطبعة الأدبية ، مصر ، 1898 .
* **يتيمة الدهر** : الثعالبي ، أبو منصور ، الإمام عبد الله بن محمد بن إسماعيل (429هـ) ، طبعة الصاوي ، 1934 .
* **المنتحل** : الثعالبي ، أبو منصور ، الإمام عبد الله بن محمد بن إسماعيل (429هـ) ، المكتبة التجارية ، 1901 .
* **لطائف المعارف** : الثعالبي ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر ، 1960 .
* **خاص الخاص** : الثعالبي ، دار الحياة ، بيروت ، 1966 .
* **الحيوان** : الجاحظ ، أبو عثمان ، عمرو بن بحر (255هـ) ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر ، 1947 .
* **البخلاء** : الجاحظ ، أبو عثمان ، عمرو بن بحر (255هـ) ، دار المعارف ، 1963 .
* **البيان والتبيين** : الجاحظ ، أبو عثمان ، عمرو بن بحر (255هـ) ، المطبعة التجارية الكبرى ، 1956 .
* **التا ج في اخلاق الملوك** : الجاحظ ، أبو عثمان ، عمرو بن بحر (255هـ) ، دار الفكر ، بيروت ، 1955 .
* **المدخل إلى دلائل الاعجاز** (في علم المعاني) : الجرجاني ، عبد القاهر ، مطبعة الموسوعات ، مصر .
* **شرح أدب الكاتب** : الجواليقي ، أبو منصور ، موهوب بن أحمد (540هـ) المعاهد ، مصر ، 1930 .
* **الوزراء والكتّاب** : الجهشياري ، أبو عبد الله ، محمد بن عبدوس (331هـ) ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر ، 1938 .
* **زهر الآداب وثمر الألباب** : الحصري ، أبو إسحاق ، إبراهيم بن علي (453هـ) ، المطبعة السلفية ، مصر ، 1953 .
* **جمع الجواهر في الملح والنوادر** : الحصري ، أبو إسحاق ، إبراهيم بن علي (453هـ) ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر ، 1953 .
* **المختصر في اخبار البشر** : الحموي ، أبو الفداء ، عماد الدين إسماعيل (732هـ) ، مكتبة الحسينية ، مصر .
* **حياة الحيوان الكبرى** : الدميري كمال الدين .

* **الأخبار الطوال** : الدينوري ، أبو حنيفة ، أحمد بن داوود (282هـ) ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر ، 1960 .
* **المشتبه في الرجال ، اسمائهم وانسابهم** : الذهبي ، أبو عبد الله ، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (748هـ) ، البابي الحلبي ، مصر ، 1962 .
* **طبقات النحويين واللغويين** : الزبيدي ، أبو بكر ، محمد بن الحسن (379هـ) ، مكتبة الخانجي ، مصر ، 1954 .
* **الأمالي** : الزجاجي ، أبو القاسم ، الامام عبد الرحمن بن إسحاق ، البغدادي (337هـ) ، مكتبة الجمالي والخانجي ، مصر ، 1905 .
* **أساس البلاغة** : الزمخشري ، الإمام محمود بن عمر (538هـ) ، المطبعة الوهبية ، 1882 .
* **طبقات الشافعية الكبرى** : السُبكي ، أبو نصر ، شيخ الإسلام تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين (726هـ) المكتبة الحسينية ، مصر .
* **تاريخ الخلفاء** : السيوطي ، الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (911هـ) ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، 1964 .
* **المزهر في علوم اللغة وأنواعها** : السيوطي ، الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (911هـ) ، طبعة صبيح ، مصر ، 1958 .
* **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة** : السيوطي ، الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (911هـ) ، مكتبة الخانجي والجمالي ، مصر ، 1905 .
* **الديارات** : الشابشتي ، أبو الحسن ، علي بن محمد (388هـ) ، مكتبة المثنى ، بغداد ، 1969 .
* **شرح المقامات الحريرية** : الشريشي ، أبو العباس ، أحمد بن عبد المؤمن القيسي ، بولاق ، مصر .
* **الملل والنحل** : الشهرستاني ، محمد بن عبد الكريم (548هـ) ، المطبعة الأدبية ، مصر ، 1898 .
* **أدب الكتّاب** : الصولي ، أبو بكر ، محمد بن يحيى (336هـ) ، المطبعة السلفية ، مصر ، 1921 .
* **تاريخ الرسل والملوك** : الطبري ، أبو جعفر ، محمد بن جرير (310هـ) ، دار المعارف ، مصر ، 1966 .
* **الملل والأهواء والنحل** : الظاهري ، أبو محمد الإمام علي بن أحمد بن حزم (456هـ) ، المطبعة الأدبية ، مصر ، 1898 .
* **الكشكول** : العاملي ، بهاء الدين (1031هـ) ، الإبراهيمية ، 1870 .
* **معاهد التنصيص على شواهد التلخيص** : العباسي ، عبد الرحيم بن أحمد (963هـ) ، المطبعة التجارية الكبرى ، مصر .

* **كتاب الصناعتين** : العسكري ، أبو هلال ، الحسن بن عبد الله (395هـ) ، مكتبة الجمالي والخانجي ، مصر ، 1900 .
* **ديوان المعاني** : مكتبة القدسي ، مصر ، 1934 .
* **الطراز المتضمن أسرار البلاغة وعلوم حقائق الأعجاز** : العلوي ، اليمني ، أمير المؤمنين يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم (728هـ) ، المقتطف ، 1914 .
* **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار** : العمري ، ابن فضل الله (750هـ) ، دار الكتب الوطنية ، مصر ، 1924 .
* **سر العالَمين وكشف ما في الدارَين** : الغزالي ، أبو حامد ، حجة الإسلام (505هـ) ، الكتبي ، مصر ، 1908 .
* **كتاب الأمالي** : القالي ، أبو علي ، إسماعيل بن القاسم (356هـ) ، دار الكتب الوطنية ، مصر ، 1926 .
* **ذيل الأمالي** : القالي ، أبو علي ، إسماعيل بن القاسم (356هـ) ، دار الكتب الوطنية مصر ، 1926 .
* **أخبار الدول وآثار الأول** : القرماني ، أبو العباس ، أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي ، دار عالم الكتب ، بيروت ، 1865 .
* **آثار البلاد وأخبار العباد** : القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود (683هـ) ، دار صادر ، بيروت ، 1960 .
* **أخبار العلماء بأخبار الحكماء** : القفطي ، الوزير جمال الدين علي (646هـ) ، مكتبة الجمالي والخانجي ، مصر ، 1907 .
* **صبح الأعشى في صناعة الانشا** : القلقشندي ، أحمد بن علي (821هـ) ، وزارة الثقافة ، مصر ، 1963 .
* **فوات الوفيات** : الكتبي ، محمد بن شاكر بن أحمد (764هـ) ، بولاق ، مصر ، 1881 .
* **الأحكام السلطانية** : الماوردي ، أبو الحسن ، علي بن محمد بن حبيب البصري (450هـ) ، مطبعة السعادة ، مصر ، 1909 .
* **الكامل في اللغة والأدب** : المبرّد ، أبو العباس ، محمد بن يزيد (285هـ) ، الخيرية ، 1890 .
* **الأمالي** : المرتضى ، أبو القاسم ، الشريف علي بن الطاهر أبي أحمد الحسين (436هـ) ، مكتبة الجمالي والخانجي ، مصر ، 1907 .
* **الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء** : المرزباني أبو عبيد الله ، الإمام محمد بن عمران (384هـ) ، المطبعة السلفية ، مصر ، 1892 .
* **معجم الشعراء** : المرزباني ، أبو عبد الله ، الإمام محمد بن عمران (384هـ) ، مطبعة البابي الحلبي ،

مصر ، 1960 .

* **أسرار الحكماء من قبيل النصيحة والتصوف** : المستعصمي ، ياقوت (689هـ) ، الجوائب ، 1883 .

* **مروج الذهب ومعادن الجوهر** : المسعودي ، أبو الحسن ، علي بن الحسين بن علي (346هـ) ، دار الرجاء ، مصر . دار الأندلس ، بيروت .

* **التنبيه والإشراف** : المسعودي ، أبو الحسن ، علي بن الحسين بن علي (346هـ) . مكتبة خياط ، بيروت ، 1965 .

* **البدء والتاريخ** : المقدسي ، أبو عبد الله ، محمد بن أحمد بن أبي بكر (375هـ) ، مكتبة خياط ، بيروت .

* **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** : المقدسي ، أبو عبد الله ، محمد بن أحمد بن أبي بكر (375هـ) ، مكتبة خياط ، بيروت ، الطبعة الثانية .

* **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** : المقّري ، أحمد المغربي المالكي الأشعري ، الأزهرية ، مصر ، 1884 .

* **الذهب المسبوك في ذكر من حجّ من الخلفاء والملوك** : المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي (841هـ) ، مكتبة الخانجي ، مصر ، 1955 .

* **نهاية الأرب في فنون الأدب** : النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (733هـ) ، دار الكتب الوطنية ، مصر ، 1925 .

* **كتاب الظرف والظرفاء** : الوشّاء ، أبو الطيب ، محمد بن إسحاق بن يحيى (القرن الثالث) ، مكتبة الخانجي ، مصر ، 1906 .

* **غرر الخصائص الواضحة وغرر النقائض الفاضحة** : الوطواط ، الإمام إبراهيم بن يحيى بن علي (719هـ) ، بولاق ، مصر ، 1865 .

* **معجم الأدباء** : ياقوت ، أبو عبد الله ، شهاب الدين بن عبد الله الحموي الرومي (626هـ) دار المأمون .

* **تاريخ اليعقوبي** : اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (285هـ) ، دار صادر ، بيروت .

قائمة المراجع

* **قطف الزهور في تاريخ الدهور** : ابكاريوس يوحنا افندي ، 1885 .
* **أيام العرب في الإسلام** : إبراهيم محمود أبو الفضل وعلي محمد البجاوي ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر ، 1961 .
* **قصص العرب** : إبراهيم محمود أبو الفضل وعلي محمد البجاوي ومحمد جاد المولى ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر ، 1954 .
* **الهوى والشباب والحضارة في عهد الرشيد** : أبو النصر عمر ، عمر أبو النصر ، بيروت 1970 .
* **مصادر الشعر الجاهلي** : الأسد ناصر الدين ، دار المعارف ، مصر ، 1956 .
* **التفسير النفسي للأدب** : إسماعيل عز الدين ، دار المعارف ، مصر ، 1963 .
* **ضحى الإسلام** : أمين أحمد ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
* **قصة الأدب في العالم** : أمين أحمد وزكي نجيب محمود ، النهضة المصرية ، مصر ، 1955 .
* **هارون الرشيد** : أحمد أمين ، دار الهلال ، مصر ، 1951 .
* **مختارات** : البارودي محمود سامي ، مطبعة الجريدة ، مصر ، 1908 .
* **أدب المعتزلة إلى نهاية القرن الرابع الهجري** : بلبع عبد الحكيم ، نهضة مصر ، مصر ، 1959 .
* **تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري** : البهبيتي نجيب محمد ، مكتبة الخانجي ودار الكاتب العربي مصر ، 1967 .
* **سيدات البلاط العباسي** : جواد مصطفى ، دار الكشاف ، بيروت ، 1905 .
* **هارون الرشيد** : الجومرد عبد الجبار ، المكتبة العمومية بيروت ، 1956 .
* **قصر الرشيد** : الحاجري طه ، دار المعارف ، مصر ، 1849 .
* **تاريخ العرب** (مطول) : حتي فيليب وجرجي وجبور ، دار الكشاف ، 1953 .
* **مظاهر الشعوبية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري** : حجاب محمد نبيه ، نهضة مصر ، مصر ، 1961 .
* **تاريخ الإسلام** : حسن حسن إبراهيم ، النهضة المصرية ، مصر ، 1964 .
* **من حديث الشعر والنثر** : حسين طه ، دار المعارف ، مصر ، 1936 .
* **حديث الأربعاء** : حسين طه ، دار المعارف ، مصر ، 1960 .
* **الحضارة العباسية** : الخازن وليم ، الجامعة اللبنانية ، بيروت ، 1984 .
* **شعراء بغداد من تأسيسها حتى اليوم** : الخاقاني علي ، مطبعة أسعد ، بغداد ، 1962 .

* **تاريخ التشريع الإسلامي** : الخضري ، الشيخ محمد ، المطبعة التجارية الكبرى ، مصر ، 1965 .
* **محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية الدولة العباسية** : الخضري ، الشيخ محمد ، المطبعة التجارية الكبرى ، مصر ، 1945 .
* **العرب والروم** : رستم ، أسد ، دار المكشوف ، بيروت .
* **مصطلح التاريخ** : رستم ، أسد ، العصرية ، صيدا .
* **عصر المأمون** : رفاعي ، أحمد فريد ، دار الكتاب ، مصر ، 1928 .
* **قصيدة المدح حتى نهاية العصر الأموي بين الأصول والأحياء والتجديد** : رومية ، وهب ، دمشق ، دمشق ، 1981 .
* **مدارس بغداد** : رؤوف ، عماد عبد السلام ، بغداد ، 1966 .
* **التكسب بالشعر** : زيد ، الشيخ مصطفى بدر ، المطبعة السلفية ، مصر ، 1963 .
* **تاريخ آداب اللغة العربية** ، العصر العباسي : زيدان ، جرجي ، دار الهلال ، مصر .
* **الأسس النفسية للابداع الفني ، في الشعر خاصة** : سويف ، مصطفى ، دار المعارف ، مصر ، 1959.
* **الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي** : سويف ، مصطفى ، دار المعارف ، مصر ، 1960 .
* **تاريخ النقائض في الشعر العربي** : الشايب ، أحمد ، النهضة المصرية مصر ، 1954 .
* **الصراع بين الموالي والعرب** : شريف ، محمد بديع ، الكاتب العربي ، مصر ، 1954 .
* **تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي** : شلبي ، أبو زيد ، مكتبة وهبه ، مصر ، 1964 .
* **المجاني الحديثة** : شيخو ، الأب لويس ، معهد الآداب الشرقية ، بيروت ، 1948 .
* **ألحان ألحان** : صدقي ، عبد الرحمن ، دار المعارف ، مصر ، 1957 .
* **جمهرة خطب العرب** : صفوت ، أحمد زكي ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر ، 1933 .
* **جمهرة رسائل العرب** : صفوت ، أحمد زكي ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر ، 1937 .
* **مقدمة لدراسة بلاغة العرب** : ضيف ، أحمد ، مطبعة السفور ، مصر ، 1921 .
* **العصر العباسي الأول** : ضيف ، شوقي ، دار المعارف ، مصر .
* **الجواري** : عبد النور ، جبور ، دار المعارف ، مصر .
* **السفارات الإسلامية إلى أوروبا** : العدوي ، إبراهيم أحمد ، دار المعارف ، مصر ، 1957 .
* **الدولة البيزنطية** : العريني ، السيد الباز ، النهضة العربية ، مصر ، 1965 .
* **الجواري المغنيات** : العمروسي ، فايد ، دار المعارف ، مصر ، 1961 .
* **ألف ليلة وليلة** : القلماوي ، سهير ، دار المعارف ، مصر ، 1966 .
* **الإدارة الإسلامية في عهد عز العرب** : كرد ، علي محمد ، مطبعة مصر ، مصر ، 1934 .

* **الموازنة بين الشعراء** : مبارك ، زكي ، مطبعة المقتطف ، مصر ، 1926 .
* **حضارة الإسلام في دار السلام** : المدور ، جميل نخلة ، الأميرية ببولاق ، مصر ، 1936 .
* **الوسيلة الأدبية للعلوم العربية** : المرصفي ، الشيخ حسين : المدارس الملكية ، مصر ، 1875 .
* **ثقافة الناقد الأدبي** : النويهي ، محمد ، مكتبة الخانجي ، مصر ، 1969 .
* **تهذيب سيرة ابن هشام** : هارون عبد السلام ، المجمع العلمي ، بيروت .
* **اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني للهجرة** : هدارة مصطفى ، دار المعارف ، مصر ، 1963 .

الدواوين والمجموعات الشعرية

* **الديوان** : ابن الأحنف ، أبو الفضل العباس ، الجوائب ، مصر ، 1881 .
* **ديوان الحماسة** : أبو تمام ، الحبيب بن أوس ، محمد سعيد الرافعي ، مصر ، 1927 .
* **الديوان** : أبو نواس ، الحسن بن هاني ، أحمد عبد المجيد غزالي ، مصر ، 1953 .
* **أراجيز العرب** : البكري ، الصديقي محمد توفيق ، 1895 .
* **شعراء عباسيون** : فون غرونباوم ، غوستاف ، محمد يوسف نجم ، بيروت ، 1959 .
* **جمهرة اشعار العرب** : القرشي ، أبو زيد محمد بن الخطاب ، المطبعة الرحمانية ، مصر ، 1929 .
* **الديوان** : أبو العتاهية ، إسماعيل بن القاسم ، دار صادر ، بيروت ، 1964 .
* **الأنوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية** : أبو العتاهية ، إسماعيل بن القاسم ، أب يسوعي ، بيروت ، 1886 .
* **شرح ديوان صريع الغواني** : الأنصاري ، مسلم بن الوليد ، سامي الدهان ، مصر .

المعاجم

* **لسان العرب** : ابن منظور ، محمد بن مكرم الإفريقي المصري ، دار صادر ، بيروت ، 1906 .
* **محيط المحيط** : البستاني ، بطرس ، 1867 .
* **تاج العروس من جواهر القاموس** : أبو الفيض ، محب الدين محمد مرتضى الحسيني .
* **أساس البلاغة** : الزمخشري ، أبو القاسم محمود بن عمر ، المطبعة الوهبية ، 1882 .
* **القاموس المحيط** : الفيروز آبادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب ، مكتبة التربية ، بيروت .

متفرقات

* **مجلة معهد المخطوطات العربية** ، المجلد السابع والعشرون ، الجزء الأول ، الكويت .
* **البرامكة** ، سلبياتهم وإيجابياتهم (رسالة ماجستير في التاريخ) ، اشراف الأب ج . م . فييه ، رقم 425 : فرج ، هولو جودت ، جامعة القديس يوسف ، بيروت ، 1981 .

المراجع الأجنبية المعربة

* **تاريخ الشعوب الإسلامية** : بروكلمان كارل ، أمين فارس ، منير بعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1965 .
* **تاريخ الأدب العربي** : بروكلمان كارل ، عبد الحليم النجار ، المعارف ، مصر ، 1961 .
* **تاريخ الحضارات العام** : بروى ادوار ، يوسف داغر ، فريد داغر ، عويدات ، بيروت .
* **دراسات في حضارة** : جب هاملتون ، احسان عباس ، محمد نجم ، محمود زايد ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1964 .
* **امبراطورية العرب** : جلوب جون ، خيري حماد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1966 .
* **التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية** : جماعة من المستشرقين ، عبد الرحمن بدوي ، النهضة العربية ، مصر ، 1965 .
* **النظم الإسلامية** : غودفروا موريس ، فيصل السامر ، صالح الشماع ، النشر للجامعيين ، بيروت ، 1961 .
* **العرب والروم** : فازيلييف ، عبد الهادي شعيرة وفؤاد حسين شعيرة ، دار الفكر العربي ، بيروت ، 1961 .
* **دراسات في الأدب العربي** : فون غرونباوم ، إحسان عباس ، كمال يازجي وأنيس فريحة ، دار الحياة ، بيروت ، 1959 .
* **سر تطور الأمم** : لوبون جو ستاف ، أحمد فتحي زغلول ، المطبعة الرحمانية ، 1921 .
* **حضارة العرب** : لوبون جوستاف ، عادل زعيتر ، مطبعة البابي الحلبي ، مصر ، 1956 .
* **الحضارة العربية** : هل ي . إبراهيم أحمد العدوي ، الانجلومصرية ، 1956 .

المراجع الأجنبية

1 - **Two Queens of Baghdad:** Mother and Wife of Harun Al-Rashid, ABBOTT Nabia, Chicago, Illinois.
2 - **The Caliphate:** ARNOLD Thomas, London, 1965.
3 - **La vie de Harun Al-Rachid:** AUDISIE Gabriel, Paris, 1930.
4 - **Al-Moutanabbi un poète arabe du IV^{e} de l'Hégire:** BLACHÈRE Régis, Paris, 1935.
5 - **Histoire des arabes, des origines à la fin du XV^{e} de J.C.:** BLACHÈRE Régis, Paris, 1964.
6 - **Les Barmacides d'après les historiens arabes et persans:** BOUVAT L., Paris, 1912.
7 - **Sociologie de la Politique:** BOUTHOUL Gaston, P.U.F., 1971.
8 - **Histoire de la Dynastie des Hamdanides de Jazira et de Syrie:** CANARD Marius, P.U.F., 1953.
9 - **L'évolution de l'Islam:** CHARLES Raymond, Paris.
10 - **Sociologie de la littérature:** ESCARPET Robert, P.U.F., 1978.
11 - **Sociologie de la Littérature Damas, Bagdad**: ESCARPET Robert, P.U.F., 1978.
12 - **Capitales et terres des Califes**: Ghislain de maussion de Fauvières, Beyrouth.
13 - **Le dogme et la loi de l'Islam:** GOLDZIHER J., Paris, 1920.
14 - **Histoire des Arabes:** HUART Q., Paris, 1912.
15 - **Bagdad during the Abbasid Caliphate:** LE STRANGE G., Oxford, 1900.
16 - **The Lands of the Eastern Caliphate:** Cambridge, 1905.
17 - **The Renaissance of Islam:** METZ Adam, Beirut, 1973.
18 - **Introduction à la Sociologie Générale:** ROCHER Guy, 1968.
19 - **Le siècle de Louis XIV** (Estraits) larousse: VOLTAIRE.
20 - **Annals of the Early Caliphate**: MUIR William, Amesterdam, 1968.
21 - **Bysance et les Arabes**: VASILIEV A.A., Bruxelles, 1968.
22 - **Arabica Tome X**: Leiden, 1963.
23 - **Arabica (Volume Spécial Bagdad):** leiden, 1962.
24 - **Encyclopédie de l'Islam Leyde:** Paris, 1927.
25 - **Encyclopédia International**: Grobier, new York.
26 - **Grand larousse Encyclopédique,** 1960.
27 - **Dictionnaire de sociologie,** Paris, 1935.

فهرس المحتويات

تقديم 5

المقدمة 7

توطئة : أهمّيّة المجالس الأدبية والفكرية في عصر الرشيد 27

القسم الأوّل : المجالس الأدبية 41

تمهيد : أهمية المجالس في حياة الرشيد 43

الباب الأول : إطار المجالس الأدبية 47

الفصل الأوّل : الإطار الزماني والمكاني 47

الفصل الثاني : رواد المجالس الأدبية 56

الفصل الثالث : تقاليد المجالس وآدابها 100

الباب الثاني : الحياة الأدبية حول الرشيد 125

الفصل الأوّل : مجالس المناظرات الفقهية واللغوية 125

الفصل الثاني : مظاهر الأدب ومجالسه في حياة الرشيد 149

العنوان الأوّل : المظاهر الأدبية عند الرشيد 149

العنوان الثاني : أجواء الأدب ومجالس المناظرة 163

الفصل الثالث : مجالس الاختبار 182

الفصل الرابع : النقد الأدبي في بلاط الرشيد 215

القسم الثاني : الحياة العامة وأجواء الرشيد الأدبية 247

تمهيد 249

الباب الأول : تيارات الصراع الاجتماعي والسياسي 251

الفصل الأول : صراع العصبيات 251

الفصل الثاني : التيارات السياسية الداخلية 312

تمهيد 312

الفصل الثالث : التيارات السياسية الخارجية : العرب والروم 343

الفصل الرابع : صراع الترف والحرمان حول الرشيد 395

الثروة السراب 395

الباب الثاني : أدب المناسبات 456

الفصل الأول : مناسبة تنقل الرشيد 457
الفصل الثاني : مناسبة البيعة 475
الفصل الثالث : مناسبة الأعياد والاحتفالات 499
الفصل الخامس : مناسبة الاعتذار 529
العتّابي الهارب 529
الفصل السادس : مناسبات ترفيهية سمر ومنادمة وغناء 548
القسم الثالث : الرشيد وأجواء الأدب 591
الباب الأول : الرشيد محرك الثقافة والأدب 593
الفصل الأول : دور الرشيد في تنشيط الحركة الفكرية 593
الفصل الثاني : دور الرشيد في تنشيط الحركة الأدبية 602
الفصل الثالث : التكسّب بالشعر 610
الفصل الرابع : الزهد في الدنيا وأدب الموعظة 627
الباب الثاني : شخصية الرشيد من خلال الأجواء الأدبية 641
الفصل الأول : الرشيد الإنسان والمثالية العربية 642
الفصل الثاني : الرشيد الحاكم والقائد 655
الفصل الثالث : الرشيد الخليفة الإمام 676
الفصل الرابع : صورة المبالغة والإحالة 689
خاتمة البحث : الرشيد بين الواقع والخيال 698
فهرس الآيات القرآنية 713
فهرس الأحاديث 716
فهرس القوافي 717
فهرس الأعلام 752
فهرس المصادر 779
قائمة المراجع 786
المراجع الأجنبية المعربة 789
المراجع الأجنبية 790
فهرس المحتويات 791